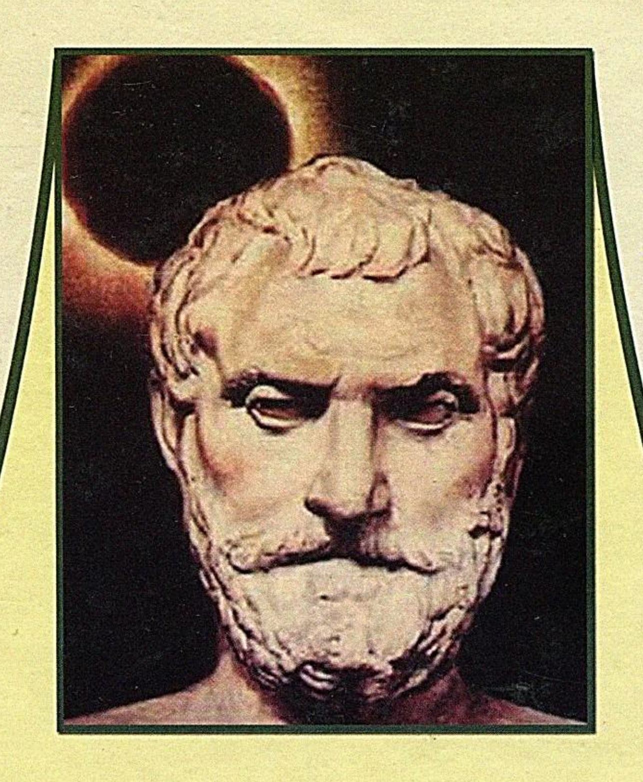
بلوتارك «فلوطرخوس»

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الإغريق



المجلد الأول

علي مولا

الدار العربية للموسوعات


الدار العربية للموسوعات


الدار العربية للموسوعات

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الإغريق

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الاغريق

پلوتارك «فلوطرخوس»

ترجمة

جرجيس فتح الله

المجلد الأول

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ


الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان
ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 952594 5 00961 - فاكس: 459982 5 00961
هاتف نقال: 388363 3 00961 - 525066 3 00961 - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

فهرس

محتويات المجلدات الثلاثة

المجلد الأول

المجلد الثاني

المجلد الثالث

توطئة

إن المجموعة الشهيرة جداً باسم «سير پلوتارخ»، ليست كما تركها لنا المؤلف لا من حيث الشكل ولا من حيث الترتيب. ففي المؤلف الأصلي دونت السير في سلسلةٍ من الكتب، وكل كتاب يتضمن سيرة يونانية واحدة تقابلها سير رومانية، وتلحق بهما دراسة مقارنة. وقد أُضيف الى هذا تراجم سير اشخاص مختلفة لم توضع موضع مقارنة. ولَعلَّ «اوتو Otho وگالبا Galba» ينتميان الى سلسلة من الأباطرة الرومان تبتديء «باغسطس Augustus» وتختتم «بڤيتيلليوس Vitellius. وأمّا سيرتا «ارتحششتا Artaxerxes» و«اراتوس Ara-tus» السياسيين، فكلتاهما سيرة منفصلة، كسير الآخرين الذين قيل لنا أنهم وجدوا وعاشوا، مثل [هرقل Hercules وارسطومينيس Aristomenes، وهسيود Hesiod، وپندار Pindar، ودايفانطس Daiphantus، وقراطس Crates، الهجاء، واراطواس Aratus الشاعر].

وفي السير المتعاصرة نفسها، ثغراتٌ، فثم كتاب يشمل سيرتي «إپامنداس Epaminon-das وسكيپيو Scipio» الأصغر فقط. اذ لايوجد مقارنات كثيرة، وهي إمّا مفقودة، او لم تكتب. وسيلحظ القاريء ان التنويهات التي يذكرها المؤلف هنا وهناك عن السير التي ستتلو أو تلت تدلّ بأن ترتيبها في الأساس يختلف عن الترتيب الحاضر. مثال ذلك انك تجد حين تفتح الصفحة الأولى من هذا الكتاب، ذكراً لحياة «ليكورغوس ونوما» في سيرة «ثيسيوس» على اساس كونهما مدونتين سابقاً.

وفي امكاننا ان نعرض وقائع حياة (پلوتارخ) البسيطة بفذلكة مختصرة جداً. ويرجح انه ولد في عهد «كلوديوس Claudius» في حدود العام ٤٥ أو ٥٠ ميلادية. ومسقط رأسه مدينة [خيرونيا Chaeronea] في بويوتيا Boeotia حيث استقرت اسرته قبل زمن طويل، ونالت مكانة طيبة وسمعة حميدة. درس في اثينا متتلمذا على الفيلسوف امونيوس Am-monius وزار مصر وقضى في روما ردحاً من الزمن مبعوثاً في «مهمة رسمية» لعلها كانت

بعثة دبلوماسية من خيرونيا في حدود العام ٩٠م. وبقي فيها مدة طويلة اتسعت لالقاء دروس اثارت اهتماماً عاماً. ولسنا ندري هل زار ايطاليا مرة واحدة فقط أم عدة مرات.

ووصل حبل الودّ بـ«سوسيوس سينشيو Sosins Senecio وهو كما تؤمي كل الدلائل «سوسيوس» الذي تقلد منصب القنصل اربع مرات. ولعل علاقتهما هذه نشأت في روما حينما كان [سوسيوس] أصغر سناً منه بكثير[١]. ولعله تعرف به اول الامر اثناء القائه دروسه أو لعلهما تعارفا في اليونان. وعاد الى خيرونيا واليونان، ويبدو انه قضى البقية الباقية في حياته في تلك المدينة الصغيرة التي كان يكره «تقليص حجمها بنزوح ولو ساكن واحدٍ من سكانها عنها». وساهم في شؤون المدينة وضواحيها ونُصب «ارخوناً»[٢] على المدينة وقام بأعباء الكهانة لاپوللو في دلفي عدة سنين كما يبدو.

وكان متزوجاً وأباً لما لا يقل عن خمسة أولاد، منهم ابنان على أقل تقدير بلغا مبلغ الرجولة. وأعظم ما كتب هو مجموعة سيره هذه، يليها عدد من الكتب ألفها في الفترة الأخيرة من حياته على عهد (تراجان)، ومن المشكوك فيه انه ادرك (هادريان)، وان نحن اتخذنا العام ٤٥م تاريخاً محتملاً لميلاده، فإن العام ١٢٠م الموافق للسنة الرابعة من حكم هادريان يكون أقرب تاريخ محتملٍ لوفاته على سبيل الافتراض، وما هو أكيد عندنا انه عاش عمراً مديداً، وانه وصف نفسه في احدى محاوراته الخيالية بالشاب اليافع يناقش في الفلسفة مع [آمونيوس] ايام زيارة نيرون بلاد اليونان العام ٦٦-٦٧م. وانه كان حيّاً ناشط القلم والفكر على وجه التحقيق في الشتاء الذي عبر به تراجان الى (داقيا) بعد ان بنى جسراً على نهر الدانوب. وهو يقول في رسالته [عن مبدأ البرد] «لقد انبأنا اولئك الذين يشتّون الآن مع الامبراطور على الدانوب ان انجماد الماء سيؤدي الى تحطم السفن تحطيماً».

★★★

ويمكن إضافة بعض الأسماء والوقائع مستمدةً من كتاباته، زيادة على ما ذكرناه. وليس لنا في هذا المجال ألاّ الإعتماد الكليّ على تلك الوقائع المقتضبة نفسها. فلدينا حكايات واستطرادات في السير، وفي تأليفه ومقالاته ومحاوراته واحاديث مائدته وغيرها من تصانيفه، وهي تزودّ القريحة بمادة منوعة لمختلف الاستنتاجات الطريفة والغريبة.

---

(١) إلاّ اذا أخذت عبارة المؤلف «اولادي زملاؤك» مأخذ التندر والتفكهة.

(٢) Archon: واحد في الحكام التسعة الكبار في اثينا القديمة. وفي الأيام الأخيرة اصبح يطلق على رئيس بلدية اي مدينة يونانية. او حاكمها. او قاضيها.

ذكر (نيكارخوس Nicarchus) جَدّ ابيه عرضاً في سيرة «انطوني» اذ قال: «كان والد جَدّي يقص كيف سُخرّ اهل خيرونيا في حرب انطوني الأخيرة لنقل القمح الى ساحل خليج (كورنشا) وكان قد خصص لكل منهم حِملٌ معين الوزن، والجنود يحتاطونهم ويحتثونهم بالسياط...» وبعد أن كملت اول نقلة، واكتيلت النقلة الثانية لهم، وصلت ابناء هزيمة [اكتيوم Actium] [٣]. وورد ذكر جدة [لامبرياس Lamprias] ايضاً في السيرة نفسها. بصدد سماعه قصة من [فيلوطاس Philotas] الطبيب، عن حياة البذخ والإسراف التي كان «انطوني» يعيشها في مصر. وتحدث عن والده أكثر من مرة في آثاره الأخرى الصغرى دون ذكر اسمه. ويظهر اسم «امونيوس» استاذه ومثقفه الأثيني، عدة مرات في آثاره الصغرى. ونوه به مرة واحدة في هذه السير، تنويهاً خاصاً عندما ذكر ان سليلاً لتيمستوكلس تتلمذ معه على آمونيوس. ونجد ذكراً لتسنم هذا الفيلسوف منصب الستراتيجوس Strategus[٤] في اثينا ثلاث دفعات[٥] وهو منصب هامٌ جداً في مجرى التاريخ العالمي، واشبه بمنصب «البيوطارخيين في بويوتيا» ظلّ يسند الى المواطنين المحليين طوال عهد الامبراطورية، ويستنتج من الرسالة الصغيرة الموسومة «في مبادئ السياسة» ان احد المناصب العليا المرتبطة بالوالي الروماني. ويحدثنا بلوتارخ «مرةً، لحظ معلمنا امونيوس اثناء درس ما بعد الظهر أن بعض مستمعيه كانوا قد افرطوا كثيراً في تناول طعام الفطور فأمرَ بمحضر منا أن ينزل عقابٌ بابنه لأن الشاب كما قال، أبى أن يتناول فطوره الا مع خمرةٍ مَزّة. واخذ في الوقت نفسه ينظر شزراً الى أفراد الصف المدنيين».

والحكاية التالية كأنها تعود الى فترةٍ متأخرةً بعض الشيء عن فترة دراسته في آثينا قال: «اذكر عندما كنت انا نفسي شاباً، أني اوفدت مع شخص آخر في مهمةٍ عامة الى الپروقنصل Proconsul[٦] واتفق ان وقع لزميلي ما اعاقه عن اكمال الرحلة فخلفته ورائي ومضيت

---

(٣) لايوجد على اية حال سبب اكيد يدفعنا للقول بان بلوتارخ. يتذكر مشاهدته والد جده وسماعه منه هذه الحكاية.

(٤) في اثينا القديمة يعتبر المنصب بمعادلة قائد الجيش، أو يكون صاحبه واحداً من أعضاء مجلس العشرة الأعلى المنتخب سنوياً فيها.

(٥) وهذا ما يثير بغض الشك حول الرواية اثبتها المؤرخ البيزنطي [يونابيوس] التي قد لا تتناقض معها تناقضاً تاماً. وهي «ان امونيوس معلم بلوتارخ الالهي، كان مصرياً...». ومن المؤكد أنّ بلوتارخ كان على معرفة تامة بالحكمة اليونانية المصرية، انظر رسالته الى السيدة المثقفة [كليا Clea] عن «ايزيس وازويرس»، ولعله مكث مدة طويلة في الاسكندرية ودرس هناك كثيراً.

(٦) في النظام الروماني هو حاكم ولاية رومانية. وفي عهد الامبراطورية هو حاكم اقليم سناتوري (أي تابع لمجلس الشيوخ).

لانجاز المهمة وحدي ثم عدتُ وفيما كنت أقدم حساباً عنها واسلّم مأموريتي الى المجلس، نهض ابي وأسرّ إليَّ بأن أحاذر كلمة «ذهبتُ» و«قلتُ» واتكلم بصيغة المثنى، وأحافظ على سهم زميلي من المهمة في سائر تقريري».

ولا نعرف شيئاً عن زيارته ايطاليا واقامته فيها، أكثر من روايته في سيرة [ديموستينس]. وان مهام الوظيفة التي كان يتقلدها، والزوار الذين يقصدونه للجدال الفلسفي كان يستنفد كثيراً من وقته فلم يتسن له آنذاك ان يلّم الماماً كافياً باللغة اللاتينية. ولا نشك في انه رحل كثيراً فقد قال انه شاهد تمثال ماريوس او تمثاله النصفي في (راڤنا)، اثناء ايراده سيرة (ماريوس). ويحدثنا في مقولته «عن الحبّ الأخوي» انه كلف اثناء وجوده في روما بمهمة التحكيم في نزاع نشأ بين أخوين يُعد احدهما من عشاق الفلسفه «إلاّ انه لم يكن يستأهل صفة الفيلسوف ولا صفة الأخ قلت له اني لأتوقع منه مسلك فيلسوف تجاه من هو قبل كل شيء عادي، لا يفخر بالعلم بالفلسفة، وهو بالدرجة الثانية أخ له، أجابني قائلاً: اما عن النقطة الأولى فلا اراك فيها إلاّ مصيباً. إلاّ اني لا أعلق أهمية كبيرة على ولادة شخصي نتيجة اتصال زوجٍ من الاجسام. ويستنكر پلوتارخ طبعاً هذا القول الكافر الشنيع ويؤنب صاحبه. وثم حكاية أطرف من هذه، اوردها في رسالته عن «حب الاستطلاع»... فمن الوصايا الأخرى لاجتناب الخطأ، أو البرء منه «علينا ان نعود انفسنا عندما يؤتى لنا بالرسائل ألاّ نبادر الى فتحها بعجلة، وألاّ نقطع خيوطها باسناننا، كما يفصل الكثيرون عندما يعجزون عن حلها بأيديهم وألاّ نخفّ الى السعادة مسرعين، اذا رأيناهم مقبلين، والاّ نقفز عندما يقول صديق أن لديه نبأ طريفاً، أو خصوصاً ان كان عنده نصيحة مفيدة يقدمها لنا. ومرة عندما كنتُ ألقي درساً في (رومه) كان من بين مستمعيّ [روسيتكوس Rusticus] الذي بطش به [دوميتيان Domition] فيما بعد غيرةً من شهرته وحسداً لسمعته. كنت مستمراً في الكلام عندما دخل جندي يحمل اليه رسالة من الامبراطور فسكن الجميع، وتوقفتُ لأدع له مجالاً لقراءة الرسالة فلم يفعل، وانما القاها بعيداً عنه حتى فرغت من درسي، وانصرف المستمعون. هذا مثل على السلوك الرزين الجدير باثارة منتهى الإعجاب».

كان [ل. يونيوس ارولينوس روسيتكوس L. Junius Aralenus Rusticus] صديق [پليني Pliny وتاكيتوس Tacitus] الخالد المجد بين شهداء الرواقيين الذين دونت اسماؤهم في معرض سيرة «اغريكولا Agricola»، كان في مطلع شبابه تلميذا شديد التشيع [لثراسيا پايتوس Thrasea Paetus]. وعندما فرض نيرون حكم الموت على [پايتوس] هذا، وكان مجلس الشيوخ يوشك على ابرام الحكم بالادانة، اندفع روستيكوس بغيض دفاق من عاطفته،

مستعملاً حق الاعتراض (الڤيتو) وهو حق ما زال آنذاك مرتبطاً شكلاً بمنصب التريبيون -Trib une[٧] الذي كان يتقلده وقتذاك. ولم يفلح معلمه في منعه من التظاهر بما كان سيؤدي به قبل ان يحين أجله - الى اضافة اسمه الى القائمة الضحايا الاماجد. كتب هذا سيرة لحياة (ثراسيا) بعد ممارسته مهام منصب البريتور[٨] في أثناء الحروب الاهلية التي عقبت موت نيرون، مثلما كتب [سينشيو Senecio] سيرة [هلڤيديوس Helviduis] ودوّن [تاكيتوس] تاريخاً لحياة [اغريكولا] على ارجح الروايات. وكانت لغة [روسيتكوس] صريحة جريئة بحيث سببت موته. ومن المعلمين الذين تلقى الشاب ماركوس اوريليوس Marcus Aurillius علومه عليهم نقرأ اسم «اورلينوس روسيتكوس» الذي قد يكون حفيداً لروسيتكوس السالف ذكره، ومعه نجد اسم [سكستوس Sixtus] الخيروني ابن أخ بلوتارخ الذي يقول الامبراطور الألمعي الفيلسوف عنه «لقد علمني بمثال نفسه، الاخلاق الحميدة والحكمة العادلة التي كان ما يفتأ يوصي بها» وظلّ الامبراطور يختلف الى منزله متتلمذاً عليه برغبةٍ لم تضعف قط.

ولايستنتج طبعاً من العبارة التي صيغت بها الرواية انها وقعت ايام «دوميتيان» وان بلوتارخ يشير الى رسالة دوميتيان فيها. على ان وجوده في روما ايام حكم هذا الامبراطور أو بعده يبدو مرجحاً بسبب اللهجة التي يتكلم بها عن العظمة السخيفة لقصور دوميتيان وغيرها من المباني الامبراطورية.

وكثيراً ما ينوه بلوتارخ باسم أخويه «تيمون Timon» ولاميرياس Lamprias» في مقولاته ومحاوراته، ويبدو انهما كانا تلميذين لامونيوس أيضاً وانك لتجد العبارة التالية في رسالته «الحبِّ بين الأخوة»، يقول بلوتارخ «واما عن نفسي أنا، فمن النعم التي اشكر حظيّ الحسن عليها هي محبة تيمون أخي لي، في الماضي والحاضر، لنها لمحبة عظيمة بحيث يمكن ان تعدل وحدها سائر النعم الأخرى. ولابد ان يكون كل من خالطنا وعاشرنا مطلعاً عليها. وأصدقاؤنا خير العارفين بها طبعاً».

وزوجه هي [تيموكزينا Timoxena] بنت (الكسيونا). ووقائع حياته البيتية تجد خير تصوير وادقه في رسالته الموجهة الى زوجه حول ثكلهما بنتهما الوحيدة التي ولدت لهما وهما في سنٍ متقدمة بعد ولادة اخوتها بفترة طويلة على ما يبدو:

---

(٧) واحد من الضباط (في اول الاول اثنان، ثم عشرة) يختارهم الشعب بالاقتراع ووظيفة المحافظة على حقوقه ازاء مجلس الشيوخ والقناصل ومراقبة الحريات العامة من الاعتداء.

(٨) قنصل روماني يناط به قيادة جيش، وقد تطور هذا المنصب فيما بعد فغدأ حاكماً ينتخب بالاقتراع العام ويقوم بوظيفة ما من وظائف القنصل.

«من بلوتارخ الى زوجه - تحيّةً

يبدو ان السعاة الذين ارسلتهم لينعوا لي طفلتنا، قد ضلوا السبيل الى اثينا، فأبلغت به عند وصولي (تناغرا) وأعتقد ان كل ما يتعلق بتشييع الجثمان قد تمّ. واؤمل أن تكون مراسيم الجنازة قد أشاعت في نفسك أعظم السلوان. وان تخلّف اي شيء رغبت فيه واحجمت عنه انتظاراً لموافقتي - وكان فيه عزاءٌ لك فنفّذيه، إلاّ ما يشوبه افراط او شعبذة وانك لأزهد الناس في هذا. حسبي يازوجي العزيزة الأمل في ان تبقي نفسك وتبقيني في حدود من الاحزان معقولة ولست بغافلٍ قطّ عن مبلغ خسارتنا وجسامة فجيعتنا. وما انا «بجذع من خشب او قطعةٍ من حجرٍ». وأنتِ تشهدين على ذلك ياشريكتي في الحدب على أطفالنا العديدين الذين تولينا تربيتهم بأنفسنا في منزلنا واحداً بعد واحدٍ. وهذه الطفلة، الإبنة ولدت لك استجابة لرغبة خاصة خالجت نفسك بعد اربعة ابناء، فأتاحت ولادتها الفرصة لي لإدامة اسمك. وهي كما اعرف جيداً موضع حبّ خاص عندك.

ومضى يذكر ان طبع الطفلة المحبب وطرقها الجميلة عملت في زيادة آلام الثكل زيادة عظيمة، وبعدها قال «ومع هذا فلا مبرر لنا اذ نسينا النصائح التي نتقدم بها الآخرين، ولا عُذر اذ انظرنا الى فاجعتنا الحاضرة وكأنها غمّت على سعادتنا السالفة وكدرت صفوها» ومن كان حاضراً ساعة الجناز تحدثوا بأعجاب عن هدوئها وبساطة سلوكها. والجنازة نفسها كانت عاطلة عن اي مظهر من مظاهر المبالغة في النواح والندب. ولم يكن هذا مصدر عجبٍ له فهو يدري كم كانت عيشتها البسيطة المتواصفة وثار دهشة اصدقائه الحكماء وزائريه.

وهو الذي خبر ايضاً مبلغ صبرها وجلدها عند فقدها بكر اولادها... يقول بعد هذا... «عندما تركتنا جميلتنا [شارون Sharon] اذكر ان بعض معارفي من الأجانب كانوا مقبلين عليَّ من البحر لما وصلني نعي الطفلة، فسبقوا الى البيت مع بعض الاصدقاء. إلاّ ان النظام التام والهدؤ المستتبّ الذي وجدوه هناك، جعلهم يعتقدون (ذُكر لي ذلك فيما بعد) ان الخبر عار عن الصحة. ويختتم «رسالة العزاء» [وهو عنوانها] بعبارات تنمّ عن ايمانه بخلود الروح البشرية. ذاكراً أن الأبوين تحصنهما وتقوي عزائمهما تقاليد اسلافها والوحي الربّاني الذي ينكشف لهما، ويبلغهما بممارسة الطرق الصوفية الديونيسية.

هنالك فقرة في الرسالة يستنتج منها ان پلوتارخ [تيموكزينا]، كانا جدّين وقت ان حلت بهما المصيبة. وان زواج ابنهما أوتوبولس كان مناسبةً لإحدى المآدب التي فُصلت وقائعها في رسالته «المسائل السيپموزية» (اي احاديث ما بعد طعام العشاء). في احدى هذه المحاورات

نجد تنويهاً بعيداً بابنٍ [لأوتوبولس Autobolus] لقد كتب پلوتارخ الرسالة الصغيرة في شرح [طيماوؤس Timmoeus] لابنيه اوتوبولس وپلوتارخ. ولابد انهما كانا وقتذاك مكتملي الرجولة ليطرقا موضوعاً صعباً كطيماؤوس. وفي بحثه «عن السبيل الذي يجب أن يسلكه الشباب لقراءة قصائد الشعراء» يقول مخاطباً «ماركوس سيداتوس Sedatus» ليس من السهل ان نمنع منعاً باتاً كلاً من عزيزي سوكلاروس Soclarus وعزيزك كلياندر Cleander عن قراءة الشعر. ولكن ليس هناك ما يشير هل ان سكولاروس ابن له، أو حفيد، أو قريب من أقرباء الأسرة، أو تلميذ وهو من المحتملات أيضاً. واما [يوريديس Eurydice] المتزوجة حديثاً بپوليانوس Pollianus. فتبدو انها من أهل داره حدساً وتخميناً من رسالة «في الوصايا الزوجية» كتبها لها ولزوجها على انه لايمكن القول انها بنت له وليس من المحتمل قط أن يكون موضع [تيموكزينا] الصغيرة المتوفاة قد مليء(٩) بأخرى.

قد تكون وظيفة الأرخون التي أشغلها پلوتارخ في مدينته وظيفة سنوية ومن المحتمل جداً انه أشغلها أكثر من مرة ويبدو انه كان يهتمّ بأصغر أمور المدينة وأقلها شأناً. بل كان يتعمد مباشرة أحقر الأشغال، فبعد ان روى قصة [ابامنينداس] أنشأ يمدح ويرفع من شأن وظيفة رئيس الكناسين بقوله: « وأنا أيضاً للسبب نفسه أجدني هدفاً لتندر جيراني، كما يشاهدونني - وما أكثر ذلك- في الاماكن العامة اتولى شؤوناً مشابهة لواجبات تلك الوظيفة. إلاّ أن القصة التي رويت عن [انتستينس Antisthenes] تأتي هنا لنجدتي.

فعندما أبدى أحدهم دهشته لرؤية هذا الرجل يحمل الى بيته سمكة بالتوابل اشتراها من السوق، أجابه قائلاً «إنها لنفسي وقياساً على هذا فإن عاب عليَّ أحدهم وقوفي في محل عام ومراقبة قياس ابعاد الجر، ونقل الجصّ والحجر، أجيب بقولي «انه ليس لنفسي بل لبلدتي».

وفي المقالة المختصرة الموسومة «هل ينبغي للرجل الهرم أن يستمر في معالجة الشؤون العامة؟» كتب يحث [يوفانس Euphanes] وهو عضو قديم بارز في كل من [آريوباغس Areopagus] اثينا، والمجلس الامفكتيوني Amphictyon(١٠) على البقاء في منصبه قائلاً «فلنبق على زمالتنا الطويلة ولانقطعها، وليمتنع كلانا عن اعتزال هذه الحياة التي اخترناها»

---

(٩) أمّا عن بلوغ ابنين له مبلغ الرجولة على أقل تقدير. فيبدو من عبارة قصد بهما ابنيه الصغيرين الآخرين بقوله انهما اطالا الجلوس في اللعب متأخراً عن العشاء.

(١٠) اريوباغوس هو بالاصل تلّ من تلال اثينا. جرت العادة ان تلتئم فيه المحكمة العليا، أو مجلس الحكم الأعلى. واما المجس الامفكتيوني فيتألف من مندوبين من جميع الدول اليونانية يجتمعون للنظر في الشؤون المتعلقة باتحادهم.

وفي موضعٍ آخر يقول مشيراً الى واجبات وظيفته الكهنوتية لاپولّلو دلفي «وتعلمُ اني خدمت هذا الربّ [البيثيّ] عدّة بيثيادات[١١] خلونَ، ومع هذا بانك لن تستطيع ان تقول لي: انك اسهمت كثيراً في تقديم الاضاحي والرقص الدينيّ، والفرائض الأخرى، وقد آن الأوان يا بلوتارخ ان تنزع قلادتك الكهنوتية وتتقاعد عن العرافة مقراً بعجزك بعد ان بلغت من العمر عتياً»

***

حتى في هذه العبارات والروايات القليلة، والقريبة من الحقيقة والواقع، يوجد ما يكفي من المواد لتأليف صورة من الحياة البيتية السعيدة نصف الأكاديمية، نصف العملية تنصرم بين اقرباء محببين واصدقاء معروفين، وتميل كثيراً الى الدراسات العلمية والاخلاقية، ونتصل مع هذا، بواجبات المواطن العادي واعبائه. وبانتقالنا الى أبعد من هذا، يتعذر علينا طبعاً التسليم بحقيقة مشاهد المحاورات الخيالية واعتبارها وقائع تاريخية. ومع هذا ففيها الكثير مما يمكن أن يؤخذ مأخذ الصدق في التصوير إن جاز لنا هذا القول. وربما وجد الكثير مما يمكن أن يؤخذ مأخذ الحقيقة بالحرف، فما يدعى [سيمپوزياك أو مسائل ما بعد العشاء] المجموعة في تسعة كتب مهداة الى «سوسيوس سينشيو» قيل لنا أن كثيراً منها جرى بحثها بحضور [سوسيوس] ومشاركته في روما وفي بلاد اليونان كأن يكون هذا مدعواً الى حفلات زفاف [اوتوبولس]. ويظهر [لامپرياس] واخوه [تيمون] كثيري النشاط والحيوية في المناقشات، لكلّ منهما شخصيته واراؤه المستقلة. ترى المشهد الآن في دلفي، ثم تراه في اثينا وأحياناً يكون روما وهو نادر ويكون آناً بمناسبة إحياء الالعاب. وكان پلوتارخ بسبب وظيفته الكهنوتية بقيم الولائم على شرف الشاعر الفائز في الالعاب [الپيثية]. وهنالك وليمة عشاء بمناسبة الالعاب [الاستمية] في كورنث، وهنالك حفلة أولمپية أخرى في [ايليس Elis]... كان پلوتارخ مواطناً اثينياً بالموالاة للقبيلة الليونتية - ولذلك تراه موجوداً في مناسبة تكريم صديقه الشاعر الفيلسوف [سيراپيون Serapion] لفوزه. إن الاشخاص الذين شاركوا في احاديث مختلف المحاورات الصغيرة، يؤلفون زمرةً واحدة متراصة فهم أكثر من ثمانين بين فلاسفة ونحويين وبلغاء، واطباء، منهم [يوتيدموس Euthydmus] زميله في الكهنوت و[الكيسون] حَموه، وأربعة أو خمسة من اقربائه بحكم المصاهرة و«فاڤورينوس Favorinus» فيلسوف [آرليس Arles] في [پروڤنس Provence] الذي لقي حظوة عند [هادريان] في ما

(١١) وهي فترات متعددة لأربع سنوات. كل مرة تنقضي بين احياء الالعاب البيثية كالالعاب الاولمپية.

بعد، والى هذا الامبراطور اهدى واحدةً من رسائله، فأجابه بمقالة اسماها «پلوتارخوس» وهي تدور حول الفلسفة الاكاديمية. تجد سيرابيون يستضيف هذه النخبة في بستانٍ على ضفاف نهر چيفيوسوس Cephisus ثم تراهم يتناولون عشاءهم مع طبيب صديق على مرتفعات [هياميوليس Hyampolis] ويتقابلون في حفلة بحمامات [ايديپسوس Aedepsus] وفي هذه المجالس كانت تبحث شتىً المسائل، تجدها أحياناً جديّة أخلاقية نحوية تاريخية.

وفي احيان كثيرة تجدها مرحة فكاهية: ماذا يقصد افلاطون في قوله ان الآلهة تستخدم الهندسة؟ لماذا يكون سمعنا أحدَّ في الليل منه في النهار؟ لماذا تكون الأحلام أقلّ انطباقاً على الواقع في موسم الخريف؟ ايهما وجد قبل الآخر: ألبيضة أم الدجاجة؟ أي يدٍ من يدي ڤينوس جرحها ديوميدس Diomedes؟ وهكذا. وينبري [لامپرياس] الجَدّ ليعتب على ابنه والد پلوتارخ دعوته عدداً كبيراً من الضِيفان للحفلات التي «اقمناها عند عودتنا الى الوطن من الاسكندرية». ويقيم [امونيوس] ستراتيجوس (جنرال) اثينا، مأدبة عشاء للفتيان الذين برزوا في مسابقة المهارة في النحو والمنطق والهندسة والشعر، وتروى حكايات في هذه المناسبة حول الأبيات الشعرية التي أسيء اقتباسها في المناسبات أو لم يُسأ.

ومن الآثار الثانوية الأخرى التي تركها المؤلف. ما يبدو بعضه وكأنه دروس أُلقيت في روما. ثم نشر بعدئذ بمقدمة صغيرة للأشخاص المعنيين، وعندنا مقولة في «الفوائد التي يمكن ان نجنيها من أعدائنا» موجهةً الى كورنيليوس پولكر Corniluis Polker ومقالة عن «القَدَر» مهداة الي [بيزو Piso] وعن «الحب الأخوي» مهداة الى [نيغرينوس Nigrinius] وكوينتوس Quintus، وكثير منها محاورات ومناقشات فيها قدر كبير من المشاهد المتماثلة المتنوعة والاحاديث الضاحكة التي تتخلل مناقشات المائدة.

في حديث مع امونيوس وأصدقاء آخرين «منذ عهد بعيد، عندما كان [نيرون] في بلاد اليونان»، جرى النقاش في معنى الكتابة الغريبة المنقوشة على معبد دلفي. نحت فيه حرفا E و I. وجرى بحث في طبيعة العرافة بمناسبة قيام بعض اصدقاء پلوتارخ بإراءة المباني المقدسة في دلفي لأحد الزائرين - أثناء الفترات التي تخللت الشروح المملّة نوعاًما التي كان الادلاء المحترفون يسردونها أثناء طوافهم بالمواقع المقدسة «حصل ذلك قبيل بدء الألعاب البيتيّة في عهد [كاليستراطوس Callistratus] فهنا في دلفي التقينا برحالتين قدما من أقصى ارجاء المعمورة وهما [ديمتريوس] النحوي، القادم في بريطانيا في طريقه الى موطنه [طرسوس] وكليومبروتوس Cleombrotus الليقدموني الذي عاد لتوه من رحلة ترفيهية ثقافية - الى مصر العليا، بلغ بها نهاية البحر الارتيري». وتبدو ملامح للموضوع، ثم يتبعها محاورة في

مسألة «انقطاع النبوءات» ويتضمن فقرة فيها القصة المشهورة عن الصوت الذي انبأ بموت (پان Pan) العظيم. وتجد [اوتوبولس] يكلّم [سكولاروس] زميل ابنه في مديح كانا قد سمعاه، لرياضة القنص. معلقين على ذلك بقولهما أن خير مزيةٍ تذكر لهذه الرياضة هي انها تنحرف بعيداً بالعاطفة التي تجد منطلقاً لها في مشاهدة قتال المصارعين، وتأخذها الى سبيل أقلّ بشاعة وهمجيّة. ثم يبرز في النقاش حالاً زمرة كبيرة من الفتيان المغرمين بصيد السمك وقنص وحوش البريّة، ويقوم متكلمان ليطرحا على بساط البحث موضوع: ايهما أوفر حكمة وعقلاً، أحيوانات البحر أم حيوانات البرّ. وتروى في الجلسة حكايات عن الفيلة. ويقص ارسطوطيموس Aristotimus المدافع عن تفوق حيوان البرّ مستشهداً «بكلب يُقلّد تأثير مسرى السمّ في الجسم» في مشهد تمثيلي رآه بأمّ عينه في روما. كان التمثيل متقناً بحيث هزّ مشاعر الحاضرين ومنهم الامبراطور الشيخ (فسپيسبان) في ملعب (مارچللس Marcellus) وإنك لتكاد تحسّ من لهجة العبارة كأن پلوتارخ لا ارسطوطيموس هو الذي شاهد المنظر(١٢).

ويظهر (اوتوبولس) مرة أخرى في محاورة عنوانها «عن الحُبّ». كتبت تحقيقاً لرجاء صديقه فلافيانوس Flavianus وهو حديث طويل تتخلله حكايات غريبة، شارك فيه والده وهو في جبل هيليكون Helicon «منذ زمن بعيد قبل ان نولد، وعندما جاء بأمّنا لتقدم قرباناً (للحبّ) في عيد اقيم [بنسپايي]، بعد نزاع نشأ بين أبويهما».

إن هذا الخصام لم يكن تخريفاً بل حقيقة واقعة. وعلى وجه العموم فإن هذه الإطارات الموضوعة التي تؤلف هيكل حركة المحاورات الخيالية منها وشبه الخيالية، فيها عناصر من الواقع قد ترقي الى الحَدّ الذي يمكن اعتبارها من قبيل الاحداث التاريخية المسلم بها حصلت للمؤلف كما أوردها الكتاب المتأخرون، وإن لم يكن يقصد بها في الواقع أن تؤخذ بشكلها الحرفي، وان يعتبر نصُّها حقيقةً. بأن «سويداس Suidas» الموسوعي إنما يسرح في خيالٍ بحت عندما يقص علينا كيف خلع «تراجان» عليه منصب القُنصل، وأصدر اوامره الى جميع حكام «ايلليريا»؛ بالاّ يقدموا على عملٍ قبل استشارته! وكان «سينكللوس Syncellus» المؤرخ البيزنطي يبالغ مثله بل أكثر منه في ذكره تحت فصل وقائع سنةٍ من سنوات حكم (هادريان)

(١٢) وينوه هنا بعض تنويه بطباع ڤسپسبان المتميزة بالقسوة والوحشية. في قصةٍ عنه أوردها في محاورته عن «الحب الأخوي» عن [سابينوس] الثائر [الغالي] وزوجه ايبونينا Eponina. وقد ذكرها تاكيتوس أيضاً في تاريخه. كان قد ولد لهما في مخبأهما تحت الأرض ولدان – فقد اختفيا وعاشا تحت اطباق الأرض عدة سنين حتى أفتضح امره وقتل)، يقول بلوتارخ: «احد هذين الولدين كان معنا هنا في دلفي قبل فترة قصيرة». ثم يزيد معلقاً: «ان انقراض نسل ڤسپسبان يعود الى غضب الارباب لعمله هذا المجرد من الشعور والرحمة».

الأولى، ان پلوتارخ الفيلسوف الخيروني، اقامه الامبراطور في اواخر عمره حاكماً على بلاد اليونان. ومع ان عهد [تراجان وانطونينوس Antonines] كان بمثابة العصر الذهبي للفلاسفة فقد بدا وكأن فترة اضطهادهم القصيرة وعهد (دوميتيان) أكسبتهم مدة من الزمن مكانة روحية سامية شبيهة بما نالوا بعد حكم [ديوقلتيان]. على ان هذه المنزلة انتزعت منهم بمجهود كهنة الدين الجديد.

هنالك رسالة وردت بين مؤلفات پلوتارخ المطبوعة تتضمن مجموعة من «اقوال الملوك والقادة» مهداة الى (تراجان) ومع وجود شك كبير حولها، فليس بمستبعدٍ ابداً ان تكون من تأليف بلوتارخ نفسه. وهي ليست مما يستوقف النظر، وأكثر ما يلاحظ فيها، اختلافها الشديد في الاسلوب عن رسالة أخرى لايشك في انها مُنحَلة - نشرها باللاتينية جون السالسبوري Johan Salisbury وهي موعظة حافلة بالوصايا الى «التلميذ تراجان بقلم معلمه السابق المزعوم پلوتارخ ولدينا قائمة بمؤلفات پلوتارخ، كثير من الاسماء التي تتضمنها لا وجود له الآن. يقول [سويداس] كاتبها، انه نقلها عن الامپرياس ابن پلوتارخ. كذلك يوجد رسالة قصيرة وضعت في مقدمة تلك القائمة. وجهها پلوتارخ الى صديق تعرف به في آسيا، وكان قد كتب اليه من موطنه يطلب معلومات معينة. قد تكون القائمة صحيحة إلاّ ان اسم «لامپرياس» لا يظهر قط في كل مؤلفات پلوتارخ بوصفه ابناً من ابنائه. ولايسعنا إلا ان نشك بأن اسم الأسرة هذا، قد انتحله بعضهم، وان هذه الرسالة الى الصديق المجهول الآسيوي الفها احد النحويين في عصور تالية، قاصداً رفع قائمةٍ عادية لأسماء آثار المؤلف العديدة.

اذا قرأ المرء بلوتارخ فعليه ان يتذكر النقاط التالية: إنه أخلاقي أكثر منه مؤرخاً واهتمامه بالطبائع والشخصيات والأعمال الفردية والدوافع الخاصة الى تلك الأعمال أكثر بكثير من اهتمامه بشؤون السياسة وبتغيير الامبراطوريات. فعنده ان الواجب يؤدى فيكافأ عليه مؤديه. والكبرياء تنال جزاءها، وسرعة الغضب سيئةٌ يجب تقويمها. والنزعة الانسانية والانصاف والسماحة تنتصر في الحياة الدنيا. او تعوض في الحياة الأخرى وانك لترى فكر پلوتارخ في سيره - يتجه دائماً الى الآراء الارسطية في الاخلاق، ونظريات افلاطون السامية التي كانت مذهب الطبقة المثقفة في عصره.

هذا العصر هو نقطة ثانية يجب ان يتذكرها القاريء، انه عصر [نيرون وتراجان وهادريان]، انه مفتتح خير العصور واسعدها من عمر الامبراطورية الرومانية العظمى، بنظامها الاجتماعي الذي ساد سواحل البحر الأبيض المتوسط كافة (وكانت ايطاليا واليونان مركزاه، والشرق وأقصى ما عُرف من بلاد في الغرب طرفاه) فقد وصل أعلى درجة من التقدم والكمال وسادت

قوانين روما وفلسفة اليونان رقعة من الأرض تمتد من نهر دجلة حتى الجزر البريطانية انه آخر العصور العظيمة للحضارة الرومانية - اليونانية، ولقد كان [اپيكتيتوس Epictetus] يعلم باليونانية الحكمة التي امتاز بها [ماركوس اوريليوس] عندما غدا امبراطوراً. وأعاد [ديو خريسوستم أريان Dio Chrysostom Arrian] للأذهان ذكر بلغاء [آتيكا] المشاهير الأعلام، ومؤرخيها العظام. وفيما تجد پلوتارخ يكتب من [خيرونيا]، كان [تاكسيتوس وپليني الأصغر، ومارشيال، وجوڤينال] يكتبون في روما. قد يقال أيضاً - وربما لايخلو القول من صحة - أن كتاب اللاتين في العاصمة لم يكونوا في نقل الروحية والطابع العام اللذين يميزان ذلك العصر - بمستوى صدق قلم هذا البويوتي الريفي الساذج الذي كان يكتب بلغة أوسع انتشاراً، غير متقيد باي ذكريات قوية محلية لمجلس الشيوخ العتيق وللجمهورية. وربما وجدت تاكيتوس وجوڤينال «أكثر أصالة رومانية» من احد مواطني امبراطورية البحر المتوسط العظيمة لأن شرور حكومة الامبراطورية كما يشعرون بها في العاصمة، صورت في الشعر والنثر الرومانيين تصويراً ادق وأقوى مما يناسب الهيئة العامة للدولة، كما تراها عيون سكان عالم الامبراطورية حتى في عهد حكم (دوميتيان) نفسه.

وهذه الأخيرة، على أية حال الناحية الأكثر هيبةً؛ وان أفضل العهدين واحسنهما هو ذلك الذي تعكسه حياة پلوتارخ وكتاباته، فأسلوبه أسلوب ذلك الرجل السعيد بذاته الراضي بما قسم له واحاط به.

إن الذكريات القوية الغلابة لأحداث السنين الماضية التي مرت تحت ظل الإرهاب المباشر، الناجم عن شرور الحكم الامبراطوري لم تنتقص من طبيعة پلوتارخ المستبشرة الضاحكة ولم تجرده من بساطته المرحة ولم تشب سعادته بظل من الأسى. ومع أنه كان يتذكر (نيرون)، وكان رجلاً عندما اعتلى [دوميتيان] عرش الامبراطورية، فكلما يسعنا قوله انه كان يكشف عما يجوز لنا وصفه بالسعادة الهادئة، لمن خرج من شر عظيم ليعيش في ازمانٍ طيبة. وان قوة تلك السعادة التي يبديها، لدليل على ان جذورها كانت قد تأصلت في ظروف غير موآتية، ولا طيبة.

قيل الكثير عن عدم دقة پلوتارخ، ولا ينكر أنه كان قليل الاحتفال بالأرقام يناقض أقواله بنفسه أحياناً، وأعظم منقصة تؤخذ عليه هي تعلقه الشديد: بالحكايات، اذ لم يكن يعبر عن ايراد القصص التي كان هو اول المدركين زيفها. ومن شأنها ان تخلف انطباعاً غير منصفٍ عن راويها. وهو بهذا الطريق لم ينصف كلاً من [ديموستينس، وپريكليس] اذ ورث عن افلاطون تحامله على ثانيهما، وهو التحامل الذي طبع به جميع الفلاسفة المتأخرين ومنهم پلوتارخ.

صحيح ايضاً ان معالجته اللاتاريخية لمواضيع سيره تجعله يبدو أحياناً غير دقيق، بل موضع انتقاد في الصور التي يرسمها. ومما هو طبيعي أن الجانب الكبير من حياة رجال الدولة العامة يمكن ان يجد تفسير في وضعهم السياسي. إلاّ ان پلوتارخ قليلاً ما فكر في هذا، أو عرف. فبقدر ما نجحت ابحاث المؤرخين المعاصرين في اكتشاف امورٍ عن مثل هذه العلاقات، كانت هذه السير تحتاج الى تصحيح. ولكن يكون من المناسب، بل من المفيد العودة الى الصورة التي رِسمت قبل ان تسود الافكار الجديدة والنظرات الحديثة عالمنا الحالي حول الغموض الذي يعتور ولا شك الدراسات الحديثة ان لم نرجع الى احكام قابلة للأخذ والردّ كهذه. وانما بمجرد القياس على المبادىء الواسعة لقانون الأخلاق القديم في التفريق بين الخطأ والصواب.

وبغضّنا بعض الطّرْف عن الأمور التي اتينا الى ذكر طائفة منها. وبصبرنا قليلاً على قصة حب فيها شيء من المبالغة، وبتجاوزنا عن عداءٍ شبه ديني للقادة الديموقراطيين الذين سخط عليهم افلاطون واذا ما وضعنا في حسابنا أيضاً، ان الحكايات من امثال ما اورده عن [تيسيوس] يصعب جداً فصل الجانب الاسطوري منها عن الجانب الحقيقي كما أقرّ هو نفسه. امكننا القول أن القراء على مختلف أعمارهم سيجدون في تاريخ پلوتارخ سيراً أمينة، مثقفة لحياة عظماء الرومان واليونان. واذا كان من العبث حقاً ان نفكر بصدور سيرٍ أمينة في عصر پلوتارخ، فلدينا ها هنا على اية حال سجّل امين للوقائع التاريخية كما أرادها عصره. وهو ما أحبّ اليونان والرومان أن يعتقدوه عن محاربيهم وساستهم الغابرين. اما كصورةٍ فهي تعتبر خير نسخةٍ لوجهات النظر الخلقية الرومانية واليونانية، ولآرائهم في مبادىء للاخلاق. أمّا وانها تمثل حصيلة الفكر الأدبي الروماني - اليوناني، كتبت لا تحت ضغط نكبة وإنما في جوّ اعتيادي مطمئن هو جوّ الحياة الهادئة البسيطة الواقعية لسكان الريف وهم يزاولون شؤون عيشتهم اليومية - هي بلا جدال ذات قيمة عظيمة. ويمكن القول أن الطبع الذي أظهره كاتبها ينطوي على سماحة وبشرٍ ووداد ذى سحرٍ طبيعي غير مجلوبٍ بتطريةٍ، ولايمكن ان يرقى اليه اي كاتب من الكتاب الكلاسيين الذين وصلتنا آثارهم.

وهذه الترجمة الانكليزية هي نسخة منقحة للترجمة المطبوعة في أواخر القرن السابع عشر من تاريخ حياة پلوتارخ بقلم [درايدن Dryden] الذي أريد ان يُضفي اسمه الداوي أهمية ويلقى نوراً ساطعاً على أولئك الكادحين الخاملي الذكر الذي انجزوا القسط الأوفى من نقل هذا الأثر حسناً كان نقلهم أم سيئاً. وبطبيعة الحال يوجد تفاوت كبير في مجهوداتهم غير ان الترجمة التي عملها [لانگهورن Langhorne] في أواسط القرن الماضي هي والحق يقال اضعف كثيراً من الترجمة الأولى وأقل منها حيوية بمقدار كبير. انها لترجمة مملّة ثقيلة الوقع

على النفس تعوزها الطلاوة، لذلك ولعدم وجود ترجمة جديدة اصيلة - فيؤمل ان يكون أحياء الترجمة الأولى الذي نحاوله الآن ذا فائدة. وما كانت الحاجة لتدعو الى ذلك لو أن مستر لونغ... لم يقصر تعليقاته النفيسة جداً التي علقها هناك، على السير الخاصة بالحروب الأهلية الرومانية في السلسلة التي طبعها بمنشورات مكتبة [نايت شيللنغ].

والحياة التي صنفها درايدن لپلوتارخ هي مثل كثير من كتابات هذا الأديب، سريعة التأليف، لكنها جيدة السبك. تفتقر الى الدقة لكنها شيقة طليّة. أما السيرة التي كتبها (داسيبه) وطبعها في آخر مجلد من الترجمة الفرنسية التي عملها للسير، فهي جيدة جداً من نواحٍ شتىّ. أمّا المواد التي أعتمدها الاثنان فقد استمداها من معين واحد، وهي المراجع التي توفر الى حجمها [روالدوس] عند كتابته سيرة بلوتارخ، التي تعب فيها كثيراً، ونشرها ملحقاً من نشرة باريس الوثائقية القديمة للعام ١٦٢٤. على أن كل ما هو ذو قيمة في التراجم المذكورة انّما استمدّ من المواضيع المتوفرة «في المكتبة اليونانية لفابريشيوس Bibliotheca Greca (Fabricius) وفي الموسوعة الألمانية لپاول، مع آخر الإضافات. وواضح أيضاً ان الكثير مما هو مفيد، موجود في الحوليّات الرومانية Fasti Romana بقلم كلنتون Clinton وقد اقتبسنا منها الجدول التالي.

ملاحظة: الكتاب الذين وضع في نهاية اسمائهم نجمة هم يونانيون.

***

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	اسماء كُتّاب الفترة
٤١	اعتلاء كلوديوس	سينيكا
٥٤	اعتلاء نيرون، نيرون يزور اليونان،	
٦٦	تنويه بذلك في محاورة پلوتارخ عن حرفي E وا في دلفي).	لوكان
٦٧	نيرون يحتفل بالالعاب الاستمية (تنويه بذلك في سيرة پلوتارخ عن ڤلاڤيوس)	پيرسيوس
٦٨	«گالبا» أمبراطوراً. الحروب الأهلية.	
٦٩	ڤيتيلليوس. اوتو. ڤسپسيان.	
٧٠	الاستيلاء على أورشليم	

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	اسماء كُتّاب الفترة
٧٤	الفلاسفة يُنفون من روما.	
٧٩	مقتل «سابينوس» الغالي. موت ڤسپسيان. واعتلاء تيطس. موت پليني الأكبر. ثورة بركان فيزوف. تنويه پلوتارخ بهذه الظاهرة الطبيعية باعتبارها حدثاً قريباً لعهده في محاوراته «عن السبب في ان الوحي لم يعد ينزل شِعراً»؟	كونتيليان*
٨١	اعتلاء «دوميتيان»	ستاتيوس
٩٠	الفلاسفة ينفون ثانيةً من روما بعد مقتل «روستيكوس»	سيليوس ايتاليكوس مارتيال
٩٦	اعتلاء «نرڤا»	ديوخريسوستم*
٩٨	اعتلاء تراجان	[ولد في حدود ٦٠م]
١٠٠	تقريظ پليني	پلوتارخ
١٠٣	اپيكتيتوس يعلم في نيقوبوليس. أريان احد الذين يحضرون دروسه.	اپيكتيترس اريان
١٠٤	پليني في «بثينيا»	پليني الأصغر [ولد في ٦١م]
١٠٦	تراجان يشتي في الدانوب (پلوتارخ يشير اليها في مقالته - مبدأ البرودة)	جوڤينال [ولد في ٥٩م] فاڤورينوس*
١١٣	إقامة عمود تراجان	سيوتونيوس
١١٤	انتصارات تراجان على الفرثيين (كان بلوتارخ قد كتب سيرته عن انطوني قبيل هذه الاحداث)	[ولد في حدود ٧٠م]
١١٧	اعتلاء هادريان العرش (في السنة الثالثة لحكم هادريان كان بلوتارخ حيّاً على ما زعمه يوسينوس)	

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	اسماء كُتّاب الفترة
١٣٨ ١٦١ ١٨١	اعتلاء «انطونينوس» اعتلاء ماركوس اوريليوس اعتلاء كومودوس	بطليموس. أپيان*. پاوسانياس*. چاليتون. لوشيان*. اثناؤوس*. ديون كاسيوس*

إن الخطأ الذي وقع فيه كل كتاب سيرة پلوتارخ ابتداءً من [روالدوس] فنازلاً، هو افتراضهم الواهم أن پلوتارخ قضى سنوات عديدة من حياته في روما قد تبلغ حوالي الأربعين. وبسبب هذا الوهم حورت حياته برمتها تحويراً جوهرياً. ولذلك ليس ثم جدوى في ايرادنا هنا سيرته التي كتبها [درايدن] وضمها الى هذه الترجمة التي نقحناها وأجرينا عليها، تعديلات قلّت ام كثرت هنا وهناك. ويكفي أن نورد هنا مقتبساً أو اثنين من تلك السيرة. أولهما قد يلقي بعض الضوء على موضوع غامض بعض الشيء للقارىء العصري: كان (درايدن) مخطئاً في تعليل أو تعليلين لا أهمية كبيرة لهما. الاّ أن وجهة نظره العامة في عقيدة الارواح الشريرة Daemonic التي تظهر في كتابات بلوتارخ، قد تفي الى حَدّ ما بالغرض. قال درايدن: «بامكاننا ان نتأثر خطى باقي ارائه، من فلسفته التي قلنا انها افلاطونية على العموم، وان لم يكن هناك مجال للانكار أيضاً وجود صبغة من العقيدة الايلكتية[١٢] فيها تلك العقيدة التي بدأت بداعيتها [پوتامون Potamon] في عهد امبراطورية أغسطس. والتي اختارت من كل العقائد الأخرى ما هو في رأيهم أكثر مناسبة وعقلاً غير مقيمين على عقيدة معينة واحدة. غير رافضين كل شيء ما عداها. واني سأتصدى هنا لعقيدة الارواح فقط. ففي رسالتي پلوتارخ: «عن اسباب انقطاع النبوءات» و«عن عدم نزول الوحي شعراً، كما كان ينزل في السابق» يبدو أنه من مؤيدي المذهب الفيثاغوري في انتقال الأرواح من حال الى حال. لقد بينا آنفاً انه يؤمن بوحدة رئيس الأرباب الذي يسمى بعدة اسماء حسب صفاته. فهو جوپيتر من سلطانه اللامتناهي وهو ابوللو من حكمته وهكذا دواليك. إلاّ ان بلوتارخ يضع في الدرجة التي تلي جوپيتر، تلك المخلوقات التي يطلق عليها اسم ديمون أو الجنُّ. وهي كائنات ذات طبيعة متوسطة بين الإله والانسان، لأنه كان لايتصور وجود ثغرة بين الطرفين القصيين: المخلوقات الخالدة والمخلوقات المائتة. وانه لايمكن أن تبقي الطبيعة مثل هذه الثغرة

(١٢) ويقصد بها [الاكلكتية] وهو الأسم الذي تعرف به الآن Eclectic.

الواسعة مفتوحة دون ان تملأها بنوع وسط من الحياة يمت الى كل الطرفين القصيين. اذن فالاتصال بين النفس والجسد انما يتم فحسب عند الارواح الحيوانية كما نجد ذلك الاتصال بين العالم الالهي والعالم الانساني يتم بهذا النوع المتوسط بينهما الذي سميناه [ديمون]. فهؤلاء «الجنّ» كانوا في مبدأ أمرهم بشراً، اتبعوا طريق الخير والصلاح وتساموا في الفضائل حتى انسلخوا عن اجسامهم البشرية وتخلصوا من اوضاروجودهم الأرضي وارتقوا الى مرتبة «الجنّ» هذه. وهنا اعترضهم أحد أمرين، إمّا أن يستمروا في التسامي والارتقاء في سلم الحياة الأثيرية ببقائهم محافظين على طهرهم وصلاحهم، أو ان يسقطوا مرة أخرى ليعودوا الى الجسم البشري الميت ويتقمصوا اللحم والعظم بفقدهم تلك الطّهارة التي هي اساس كينونتهم الأثيرية. هذا النوع من الجن هو الذي انيط به أمر انزال الوحي والعرافة بحسب رأي پلوتارخ. إن الارواح التي تَخَلّف فيها الكثير من عناصرها الأرضية، تكون عرضة للتأثر العاطفي، وتلعب بها الاهواء البشرية. وهي في العادة تأثيرات خيرة طيبة. وقد تكون أحياناً شريرة ضارة بالناس. وتتفاوت بين هذين المقياسين على قدر ما تكون فضائل تلك الارواح سامية، أو بقدر ما تتزايد سقطاتها وهفواتها لتنحدر بالتدريج الى حالة البشر وتكون عرضةً للموت والفناء وهو يعزو انقطاع الوحي أو بالأحرى تناقصه (لأن بعض تلك الارواح كان موجوداً حتى ايام پلوتارخ) إمّا الى فناء هؤلاء الجن كما يبدو ذلك من رواية [ثاموس Thamos] المصري الذي أوحي اليه أن يُعلن موت الرب العظيم (پان). وإمّا الى مغادرتهم المواضع التي كانوا قد اختاروها للوحي حين طردتهم منها طائفة من الجنّ أكثر قوةً منهم ونفتهم على إثر تلك الثورات التي استمرت تحدث منذ عصور سحيقة. ومن امثال تلك الثورات الحرب التي نشبت بين الجبابرة والأرباب. وطرد (ساترن: زحل) بأمر جوپتر. ونفي اپوللو من السماء، وسقوط ڤولكان... وغير ذلك كثير. وكلها في رأي المؤلف معارك تجري بين هؤلاء الجن (الديمون). ولكن لنفترض (ونرجح ان پلوتارخ فعل مثلنا) ان هؤلاء الجنّ تولوا أمور البشر تحت رقابة الكائن الأعلى. فعاونوا الاخيار، واقتصوا من الاشرار. وأحياناً حلّوا في أسمى البشر نفوساً، كما كان جنّ سقراط يُنذره دائماً بمكامن الخطر ويعلمه كيفية اجتنابها. ولايسعني إلاّ أن أعجب من كل كاتب لحياة پلوتار، ابتداءً من روالدوس بصورة خاصة وهو أوسعهم اطلاعاً بها، كيف أكدوا عن ثقة أن الوحي إنّما يتأتى من الأرواح الشريرة، ان تفكيرنا كمسيحيين ينصرف الى هذا الاستنتاج طبعاً. أما ان يكون هذا رأي پلوتارخ، فهو خطأ فاضح لا وجه للاعتذار عنه. ويكفي لإقناع رجل سوي العقل أن نذكر بأن مؤلفنا في اواخر عمره كرس نفسه للقيام بالفرائض الدينية في دلفي وأنْ نعلمه أيضاً انه مات وهو كاهن لأپوللو. ولنا أن نحكم

مطمئنين انه لم يصب بشيء من الخرف في عمره المتقدمة جداً من محتوى الرسالة التي كتبها بعنوان «ان الرجال المتقدمين في السن يجب ألاّ يحجموا عن تولي الأعمال العامة». والآن يجب علينا أن ننبذ فكرة انه كان يرى في الرب الذي يخدمه: كأكوديمون أو شيطاناً كما نسميه نحن. فلا شيء أبعد عن رأي وممارسة هذا الفيلسوف الجليل من هذا الإثم والفسوق. وإن قصة «بثياس» أو كاهنة ابوللو وهي القصة التي اختتم بها رسالته عن انقطاع الوحي، تدعم تأكيدي هذا أكثر من ان تدحضه. فقد راحت الى المعبد... «دَخلتْ بتردد عظيم الى الموضع المقدس لتتلقى الوحي ثم خرجت مزبدة الفم جاحظة العينين في صدرها زحير وصوتها حاد النبرات لايفهم منه شيء. حتى لكأن زلزالاً يزلزل في جوفها. تجاهد لالتقاط انفاسها وتلهث. وبمختصر القول فقد كان الرب يثقل على نفسها ويزاحمها ولم تكن قادرة على احتماله حتى ماتت عذاباً وهي بليدة الحواس، بعد ايام قليلة». كان پلوتارخ قد ذكر مثل هذه الحادثة ان الكاهنة يجب أن لا تكون مضطربة الفكر نجسة العاطفة، ساعة نزول النبوءة عليها. فاذا كانت حالتها هذه، فإنها لاتصلح قط لتلقي الوحي. مثل آلة الطرب التي لم تحزق اوتارها حزقاً صحيحاً فانها لا تخرج النغمات الصحيحة المتناسقة. وقد ذكر في نهاية هذه القصة ما تركنا نشك في «ان هذه الكاهنة لم تعش عيشة طُهرٍ وعفة مدةً من الزمن قبل اوان الوحي. لذلك بدأ موتها عتاباً فرضه عليها سلطان أعلى لعيشة الفجور التي عاشتها، أكثر منه عملاً شريراً لروحٍ تستمتع بالشرّ للشرّ فحسب». هنالك ملاحظة أخرى أقرب الى الفرض في الواقع. وسأنحرف عن موضوعي لأرويها لأنها تتعلق بعض الشيء ببلاد بريطانيا. يقول پلوتارخ: «هناك عدد كبير من الجزر الصغيرة منتشرة حول بريطانيا مثل انتشار جزر [سپورادس Sporades] حول بلادنا. كانت خالية من البشر وبعضها يسمى بجزر الجبابرة أو الجان. أرسل الامبراطور شخصاً يدعى (ديمتريوس) لاستكشافها (لابد أن يكون الامبراطور كاليگولا او كلوديوس[١٣] بحساب الزمن) فبلغ الرحالة احدى الجزر المجاورة لمجموعة الجزر المجهولة. وكانت مأهولة بقليل من البريطون (كان سائر بين قومهم يرهبونهم وينزلونهم منزلة القداسة) وما ان احتوته الجزيرة حتى اظلمّ الجوّ واضطرب وظهرت اشباح غريبة فيه. وأثارت الريح عاصفة هو جاء وظهرت سحبٌ بلونٍ ناريّ ودوامات ريح ترقص متجهة نحو اليابسة. وبعد ان زالت هذه المظاهر العجيبة اعلمه سكان الجزيرة بان أحد الكائنات الأثيرية التي هي اسمى من بني جلدتنا البشر، قد توقفت عن الحياة وتلاشت. فهؤلاء الجبابرة كالشمعة، في حياتها تعطي ضياءً جميلاً نافعاً اثناء اتقادها. ولكن يثور ثائرها وتضجّ وتنقلب شراً ووبالاً

(١٣) في زمن متأخر عن هذا بكثير دون شك.

عندما تدنو من النهاية ويخبو ضياؤها. في حياتهم يضيئون لنا وينعمون علينا بالخير والبركة. ولكن ما ان تدركهم ساعة الفناء حتى يقلبوا الدنيا عاليها سافلها ويثيروا العواصف ويفسدوا الجوّ بالأبخرة القتالة. ما من شكّ في أن المؤلف يقصد بهؤلاء المخلوقات ما عرف عندنا با(درويد Driud) الذين هم أقرب الى الفيثاغوريين من اي طائفة أخرى. وقد يكون فكرة الجن هذه، واحدة من عقائدهم على أنه ليس من الأكيد ان كلّ «الجن» اشرارٌ على هذا القياس. والاشرار منهم هم أولئك الذين قضي عليهم ان يتقمصوا الأجسام البشرية بسبب سوء تصرفاتهم وهم في حالتهم الاثيرية... ولكن حان الوقت لنخلف موضوعاً حافلاً بالخيال والخرافة خالياً من المعقول. واني لأهم بان اتصور الأبخرة الطبيعية والغازات المتصاعدة من الكهف حيث كان المعبد قد بنيَ. ربّما هي المؤثرة على نفوس كل من يدخله. كما اثرت على الراعي (كوريتاس Coretas) الذي كان اول من أكتشفها بمحض الصدفة وعزاها الى حماسة النبوءة، ورعشات وحيها. حتى انه لما تضاءلت قوة هذه الأبخرة وكانت عادة تتجمع في الكهوف: ككهف موبيوس، وتروفينيوس، ودلفوس) صار الوحي يتناقص بالقياس نفسه وصادف ان كانت أقوى من العادة عندما قتلت كاهنة بيثياس التي شعرت بحقيقة الأمر فامتنعت عن الدخول. أما وان الوحي لم يعد ينزل بصيغةٍ شعرية فلأن الشعراء عافوا مهنة الكهانة. وان جنيَّ سقراط (وقد اقرّ سقراط أنه لم يره قط بل كان يسمعه من جوفه ولايحسّ به الآخرون) فهو ليس إلاّ مظهراً لقوة خياله، أو هو «ملاكه الحارس» اذا استخدمنا التعبير المسيحي الافلاطوني. إن الفقرة الأخيرة من سيرة حياة المؤلف قد تصلح خاتمة لهذه المقدمة قال درايدن: «والآن وبالكبرياء والتعاظم الذي تعوده كتاب المقدمات الهولندبون، يمكننا ان نقلّد مؤلفنا آيات المديح والثناء. ذلك لأن الكتاب القدماء منهم والمحدثين، ذكروه بالتجلة والتكريم. لكن ملء الصحائف بهذا النوع من البضاعة من شأنه أن يشيع عدم الثقة في نفس القاريء فيتوهم أن پلوتارخ هو بحاجة الى هذا، إن روالدوس على أية حال جمع الوافر من هذه الأقوال وممن جمع لهم سأذكر فحسب اسماء جيليوس ويوسيفوس وهيميريوس السوفسطائي ويوناپيوس وكيريللوس الاسكندراني وثيودوريت [جوهانس ساريبرنسس Sohannes Sarieberiensis] وپترارك الشهير وبطرس ڤكتوريوس وجوستوس لپسيوس.

إلا ان [ثيودوروس غازا]، وهو رحل واسع الاطلاع في اللاتينية ومن أعظم النقلة الأغريق الذين عاشوا قبل أكثر من قرنين، يستأهل منّا أن نثبت له هنا تقريظهُ الحرفي، فالآخرون اجزلوا الثناء على پلوتارخ دون الآخرين، في حين ان هذا الباحث رفعه على الجميع واليك ما كتب:

«قيل ان أحد أصدقائه طرح عليه هذا السؤال المغرق في الخيال والمبالغة: اذا تعرض التراث الفكري كله الى خطر الغرق، فأعطي له حق خيارٍ واحدٍ باستنقاذ آثار مؤلف واحدٍ، فمن سيقع عليه أختياره؟ فأجاب: اختار بلوتارخ. ولعله معذور في قوله هذا. اذا بانقاذ آثار هذا المؤلف يكون قد حفظ خير مجموعة منها...»

إن مديح [اغاثياس Agathias] هو الآخر يستحق تنويهاً، لقد نبغ هذا الكاتب في حدود المائة الخامسة للميلاد على عهد الامبراطور جُستينيان والابيات مذكورة في «الشذرات الأدبية Amthologia» وبترجمتنا لها هنا أختم على كاتبنا. ولا يفوتني التنبيه بأنها نظمت لتنقش على تمثال يقيمه له الرومان احياءً لذاكره.

يا بلوتارخ الخيروني، ان تمثال الشكر هذا، اقامته روما ذات المجد العسكري العظيم تكريماً لذكراك الخالدة. فهي وبلاد اليونان شاركتا في شهرتك معاً. (فلقد كتبت سير ابطالهما وقارنت فيما بينهما).

لكنك لم تستطع انت ان تكتب سيرتك، ان لسيرهم اقراناً اما سيرتك فما لها قرين.

ثبتٌ بالترجمات

النص الأصلي: الطبعة الأولى (طبعة فلورنسا. آب ١٥١٧) الطبعات التالية. [شيفر Shaefer] ١٨١٢-١٨١٨ و١٨٢٥-١٨٣٠، [سنتينس Sintenes] ١٨٣٩-١٩٤٦ و١٨٨٤-١٨٨٨.[دوينر Doehner] ١٨٤٦-١٨٥٥. [بكّر Bekker] ١٨٥٥-١٨٥٧.

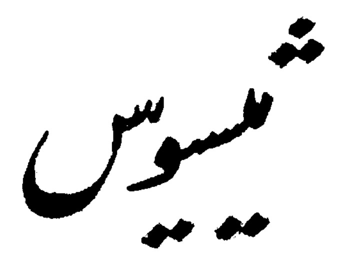
الترجمات: سر توماس نورث Sir Thomas North، من النص الفرنسي المترجم بقلم [جمس آميو James Amyot] في ١٥٧٥ و١٥٧٩ و١٥٩٥. (مع سير اضافية)؛ طبعات تالية، وطبعة ١٦٧٦ هي آخر ترجمة كاملة، نشرت بمقدمة لجورج وندهام G. Wind-ham. ثم ترجمة ثيودر في ١٨٩٥؛ بقلم و. هـ. د. روس W. H. D. Rouse «معبد بلوتارخ» عشرة مجلدات في ١٨٩٨ و١٨٩٩؛ منتخبات لشرح مسرحيات شكسپير مع تعليقات وفهرست ابجدي الخ... بقلم و. و. سكيت W. W. Skeat سنة ١٨٧٥ وترجمة لجماعة من الكتّاب مع مقدمة لدرايدن في سيرة حياة بلوتارخ (الترجمة تسمى عادة باسم درايدن) ١٦٨٣-١٦٨٦ وهنالك طبعات عديدة تالية اهمها تلك التي عملها ونقحها كثيراً [ارثر هيو كلو Arthur Hugh Clough] ١٨٦٤-١٨٧٦. وترجمة [و. لانكهورن W. Langhorne] ١٧٧٠. طبعات تالية: [ف. رانكهام F. W. Rang-

ham] ١٨٤٦، [بوهن Bohn] ١٨٥٣، دار كـاندوس كـلاسـيك Chandos Classies ١٨٨٤، دار كـاميلوت كـلاسـيك Camelot Classic (مـخـتـارات) ١٨٨٦، لوبوك من الكتب الماءة. رقـم ٣٩. ترجـمـة بقلم [أ. سـتـيـوارت A. Steuart] و[غ. لونگ G. Long]، مع سيرة بلوتارخ. طبعة مكتبه ستاندارد - بوهن ١٨٨٠-١٨٨٢.

الترجمة الانكليزية التي نقلنا عنها ترجمتنا العربية هي طبعة جديدة، لـ[كلو] كما نشرت في ١٨٦٤، وتتضمن مقدمته الاصلية مع اضافات من عندي نتيجة مراجعات ترجمات أخرى. واسـتطرادات منقـولة عن مـقـدمـات أخرى لتـراجم انگليـزية وفـرنسـيـة. أخصّ منهـا بالذكـر اصدارات دار نشـر پنگوين بأربعـة اجزاء فـهـذه التي قـام ايان سكوت كلفرت Ian Scott Kil-vert تناولت جزءً عنوانه «قـيام وسقوط آثينا» وتضمّ سـير تيسيـوس وصولون وتيموسـتوكلس وارستيدس وكيـمون وپركليس ونيفياس والكيپاديس وليسـاندر. وجزءً آخر أعطي عنوان (بناة رومـا) تناول فـيـه سـيـر كلّ من كريولانوس وفابيوس مـاكسيـمـوس ومـارچللوس وكاتـو الاكبـر وطيبيريوس كراسوس، وگايوس گراسون وسرتوريوس، وبروتوس ومـارك انطوني. وكذلك ظهر لعين المترجم مجلّد آخر بعنوان (عصر الاسكندر) وضم سير اسخيـلاوس، وپيلوپيداس، وديون وديموستـينس وفوكيـون والكسـاندر (الأسكندر المقـدوني) وديمتريوس وپيروس. أمّا الجزء الرابع وعنوانه (سـقوط الجـمـهـورية الرومـانية) فـهـو من ترجمة (ريكس وارنر Rex Warner) وتناول سيـر ماريوس وسوللا وكـراسوس، وپومپي ويوليـوس قيـصـر وشيشـيرون. ويبلغ عدد السـيـر في هذا المجلدات الاربعة ٣٣ سيـرة من أصل ٥٠ سيرة التي تكمل بها سير المؤلف. وقد ترجمناها جميعاً مع التعليقات.



لوحة رومانية تعود الى ٢٠٠ ق.م



THESEUS



ثيزيوس يقتل المينوتور — إناء أتيكي

أي [سوشيوس! سينشيو Socius Senecio][1]

تعلم اني في كتابي هذا قد فعلت كما يفعل الجغرافيون[2] حين يجمعون في حوافّ خرائطهم اجزاء من العالم لايعرفون عنها شيئاً. فيضيفون حشوداً في الهامش مع هذا التفسير: ان وراء هذا الحدّ لايوجد إلاّ الصحارى الرملية التي تعجّ بالضواري، وليس غير المستنقعات التي يتعذر اقتحامها، وأراضي الصيثيين [الصقالبة Scythians] المنجمدة، والبحر الثلجي» والآن فبتدويني كتاب السير المقارنة، قد أخضت في دياجير تلك العهود التي قد يفلح العقل المستنير في بلوغها او اي التاريخ الصحيح موطيء قدم فيها. وبامكاني القول مطمئناً عن تلك الشخصيات البعيدة جداً غداً «وراء هذا لايوجد غير الأساطير والخرافات، وسكان تلك العهود لا يزيدون عن شعراء ومبدعي أساطير ووراء ذلك لايوجد شيء حقيقي ثابت». لكني فكرت بعد كتابتي سيرتيْ [ليكورغوس] المشترع، و[نوما] الملك، إن في وسعي الصعود حتى [رومولوس] بعد ان بلغت بتاريخي مرحلة قريبة جداً من عصره - وكان يحدوني الى هذا العمل اسباب وجيهة. ثم سألت نفسي كما تساءل [أسخيلوس]: «بهذا المقاتل البطل من يجرؤ على النزال؟ ومن أضع بمواجهته ومن يكون نداً له؟[3]»

ولم أجد له صنواً غير ذلك الذي عمر مدينة آثينا الجميلة الطائرة الصيت وملأها بالناس، لأضعه مقابل أب مدينة روما الشهيرة المنيعة. ولنأمل أن تخضع الأسطورة في حديثنا الى

---

(١) احد الذين صادقهم بلوتارخ اثناء اقامته في روما، وأعظمهم نفوذاً. فقد تولى منصب القنصلية اربع مرات ما بين اعوام ٩٨-١٠٧. واعتاد بلوتارخ توجيه كثير من رسائله في الأخلاق اليه. وعلينا ان لانخلط بينه وبين سينيشو الذي قتله [دوميتيان] لأنه دوّن سيرة [هلفيديوس پريسكوس]، والى الشخص عليه وجه بلوتارخ أيضاً سيرتي ديموستينس وديون.

(٢) الجغرافيون أو المؤرخون كما ورد في الأصل. دليلاً وليلاحظ ان الجغرافيين الأوائل لم يكونوا يقنعون باثبات المواقع والمسافات، بل يبحثون في الأحداث والعادات والأخلاق وانظمة الحكم ومن أمثال هؤلاء [سترابون] و[پاوسنياس] وحول تيسيوس وتاريخه فالمؤرخون على خلاف. فلوح أكسفورد مثلاً يعني اتحاد المقاطعات الاتيكية وتأسيس الالعاب الاستمية في ١٢٥٩ ق.م وبلير Blair يحدد تأريخ هذين الحدثين في ١٢٣٤ ق.م اي بعد حملته على كريت بسبع عشر سنة.

(٣) «سبعة ضد ثيبة» الص ٤٣٥، ٣٩٥.

عملية غربلة عقلية بحيث تأخذ شكل التاريخ الصحيح، وعلى أية حالٍ فحيثما يوجد من الأساطير ما يستعصي على المنطق السليم، ويأبى أن يتحول الى اي شيء قريب من الحوادث المحتملة، ليس لنا إلاّ أن نرجو العثور على قراء كرماء يتقبلون أساطير القدماء برحابة صدر وإغضاء. ويبدو [ثيسيوس] شبيها [برومولوس] من نواح كثيرة. فكلاهما لم يكن ثمرة زواج شرعي، وكلاهما مطعون في نسبه، وكلاهما اشتهر بانحداره من عُترة الآلهة و...

«كلاهما محاربٌ ولا احد ينكر ذلك[٤]»

كلاهما امتاز بقوة في الجسم ومضاء في العقل متساوٍ. أحدهما بنى روما وثانيهما ملأ آثينا بالسكان، وروما وآثينا أشهر مدينتين في العالم طراً، واتهم كلاهما باختطاف النساء ولم يخلصا في وطنيهما من النوائب العائلية ولا من الكيد. وتعرضا معاً لسخط بني قومهما قبل ان ينتهي بهما العمر؛ هذا اذا اتخذنا من الحكايات الشعرية الخيالية دليلاً الى الحقيقة.

ترتفع شجرة نسل [ثيسيوس] من جهة الأب حتى تصل الى [إرخثيوس Erechtheus][٥] والى أقدم من سكن [اتيكا Sttica] أما من جهة امه فهو سليل [پيلوپس Pelops][٦] وكان هذا، أقوى كل ملوك الپلوپونيسوس [Peloponnesus] لا بما يملك من مال، بل بكثرة ما لديه من اولاد. لأنه تزوج بنات عدد كبير من الزعماء، وولى عدداً كبيراً من أولاده حكم البلدان التي تجاور مملكته. ومن بين اولاده [پيتيوس Pittheus] جدّ [ثيسيوس]، كان مؤسس المدينة صغيرة يسكنها قوم [الطرويزينيين Troezenian][٧]. وعرف بإحاطته بكل الحكمة والمعرفة التي وصل اليها عصره. ويبدو أنها تتألف من مبادىء الأخلاق أساساً. ومنها نال [هسيود] الشاعر شهرته في كتابه «الأعمال والأيام» وبين ما يتضمنه في الواقع بيت يُعزى الى [پتيوس] وهو «ان المكافأة التي يوعد بها صديق عزيز يجب ان تكون أكيدة

---

(٤) الالياذة ٧:٢٨١. عن تيلامون وهكتور.

(٥) فهو الجيل السادس المنحدر من صلب ارخيتوس. وقيل انه ابن فولكان ومينرڤا أو كراناي Cranäe حفيدة كراناؤس ثاني ملك في أثينا. لذلك كان پلوتارخ محقاً في قوله انه من صلب [اوتو خوثونس]. أو ان سكان أتيكا الأوائل سموا بهذا لأنهم يدعون بولادتهم من تربة البلاد، [هيرودوتس وتوكيديدس].

(٦) ابن تانتالوس Tantalus من أصلٍ فريجي هاجر الى اتيكا حاملاً ثروة كبيرة جمعها من تنقيبه في مناجم بالقرب من سيپلوس. وبفضل ثروته هذه ضمن لابنائه حكم اضخم المدن وأكبرها وكانوا أحد عشر. كما انه زوج بنيته لأميرين فكانت (ليسيديسي) زوجاً (الكتريون) أو نسطور ابن پرسيوس ملك تيرنثس. وكانت (أستيداميا) زوجاً لـ(ستنيلوس) ملك (ميسين).

(٧) ترويْزينه: مدينة صغيرة ارغوليسية تقع على ساحل خليج سارون قبالة آثينا في الپلوپونيس و(پاوسنياس) يتفق تقريباً مع الرواية نفسها ويقول انه علّم الفصاحة في ترويزينه واضاف «لقد قرأت كتاباً من تآليفه، اعطانيه رجل في ابيداروس» [ج ٢ ص ٣٠ و٣١].

وكبيرة[٨] أو كما جاء في ارسطو[٩] وكذلك [يوربيدس] عن رأي الناس فيه، عندما يصف [هيپّوليتوس Hippolytus] بأنه «تلميذ پتيوس الآلهي!»[١٠].

كان [ايجيوس] ملك آثينا يصبو الى عقب، فاستخار في ذلك الكاهنة الپيثية وجاءته النبوءة الشهيرة وكانت غامضة جداً، فلم يكن على ثقة بأنه ممنوعٌ من الجماع بصورة باتّة، فقصد [طراويزين] والقى على اسماع [بتيوس] صيغة النبوءة وهي كالآتي:

لاتحلّ عنق زقِ الخمر البارز يا زعيم الرجال العظيم حتى تعود الى آثينا مرة أخرى[١١]

الظاهر ان پيثيوس فهم معنى النبوءة. فإما أقنعه أو اغراه بمضاجعة [إيترا Aethra] بنته، وعلم [ايجيوس] فيما بعد أن من ضاجعها هي بنت [پيتيوس] ولشكه في انها علقت منه، ترك سيفاً وزوجٍ نعالٍ في محل خفاء تحت صخرة عظيمة فيها تجويف بمقدارها تماماً. ثم ودعها بعد ان أطلعها على السرّ وحدها. واوصاها في حالة وضعها طفلاً ذكراً، إن تخبره بحقيقة نسبه عندما يبلغ مبلغ الرجال ويكون قادراً على زحزخة الصخرة واستخراج ما أخفاه، وان تبعث به مع هذه التذكارات اليه وان تكتم الأمر عن كل احدٍ وتوصيه أن يخفي أمر رحلته هذه قدر الامكان لخوفه عليه من الپاللانتيين] الدائمي الثورة عليه. فهؤلاء كانوا يزورونه لأنه بدون عقبٍ، وكانوا هم أنفسهم خمسين أخاً كلهم من صلب پاللاس Pallas[١٢] أبيهم وأخيراً بعد توصيته هذه ترك ايثرا. ووضعت [ايثرا][١٣] ذكراً. وقال بعض الكتاب إنه سمي (ثيسيوس) في الحال تيمّناً بالتذكار[١٤] الذي تركه أبوه تحت الصخرة. وزعم آخرون ان هذا الاسم لحق به في اثينا بعد أن أقرّ ايجيوس ببنوته. ومهما يكن من أمرٍ فان الابن نشأ في

---

(٨) عاش [هسيود] في حدود خمسة قرون بعد [بثيوس] وهذا المقطع هو رقم ٢٧١.

(٩) المقطع رقم ٥٥٦.

(١٠) هيبوليتوس ١١.

(١١) المرجع السالف يوربيدس: ميديا ٦٧٤ و٦٧٦.

(١٢) باللاس هو أخ لايجيوس. ولما كان قد حكم على ايجيوس بالاّ ينسل فقد اعتبر البالانتيدي مملكة اثينا ميراثهم الذي لانزاع فيه.

(١٣) يقول پاوسانياس انه ولد في موضع دعي آنذاك وبعده لزمن طويل بـ[جنثليُون] وهو قريب من ترويزينه. واليه ارسل بثيوس ابنته لتعزو الطفل الى [بنتون].

(١٤) اليونان كالآراميين والعبرانيين وغيرهم من الشعوب القديمة، يسمون الاشخاص والاشياء بصفات الاحداث والوقائع والظروف التي يتفق وقوعها مع الطهور او الولادة. والكلمة اليونانية [بتيوس] تعني (وضع) وحملة [بتباونوگ] معناها [تبنى ولداً] وقد فعل ايجيوس الشيئين وكانت مراسيم التبني ضرورية لاعانة تيسيوس على وراثة العرش. فهو ابن غير شرعي.

رعاية جده [پتيّوس] حتى وعين له [كونيداس Connidas] مربياً وحارساً. والآثييون حتى يومنا هذا يقدمون له كبشاً في اليوم(١٥) السابق للعيد المخصص لـ[ثيسيوس] ويكرمونه أكثر من [سيلانيون Silanion وپاراسيوس Parrhasius](١٦) اللذين عملاً لـ(ثيسيوس) تماثيل وصوراً منحوتة. وهم في ذلك محقّون.

كان العرف السائد في بلاد اليونان يومئذ أن يقصد الشاب [دلفي] عندما يبلغ الحلم، ويقرّب للرّب أول ثمار شعره النامي. وكذا فعل [ثيسيوس]. (هناك موضع ما زال يحمل اسمه يقال أنه سُمي كذلك خصيصاً).

وجَزّ ناصيته فحسب، مثلما عمل [الأبانتيون Abantes](١٧) على ما يقول [هوميروس](١٨). وأطلق على هذه الطريقة في قصّ شعر الرأس اسمه أيضاً. على أن [الأبانتيين] كانوا قد اتخذوه زيا لهم لا تقليداًللعرب كما يتصور بعضهم، ولا للميسيين Mzsians منا زعم بعضهم وانما لكونهم قوماً محاربين تعودا القتال وجهاً لوجهٍ وامتازوا عن سائر الاقوام بانهم يشتبكون بالأيدي من أعدائهم كما شهد لهم أرخيلوخوس Archilo-chus(١٩) بأبياته التالية:

«لا مجال ثم لدوران المقالع في الهواء. ولا فسحة لشدّ القوس عندما يقدم آرس المخيف يخطر ليشارك في مثار النقع هناك في السهل فهذا قتال التلاحم بالايدي وهؤلاء الرجال هم منه اساتذته. سادة أوبويا الرماحة الذين طبق ذكرهم الآفاق»

وأسلوبهم هذا في القتال أوجب عليهم ان يجزوا نواصيهم حتى لايمكّنوا اعداءهم منها.

---

(١٥) ومن هنا كان المثل اليوناني «لايمكن الوفاء بدين المعلم الاّ بتقديم أعظم التكريم له».

(١٦) كان ثم صورة لتيسيوس في الكاپتول من عمل پاراسيوس تمثل معركته مع المونيتاور بقيت حتى زمن پليني: [تاريخ الطبيعة ٣٥:١٠] هذا الرسام الشهير عاش في حدود القرن الرابع ق.م. وامّا [سيلانيون] فهوو مثال برونز معروف كان معاصراً للاسكندر المقدوني تقريباً.

(١٧) الأبانتيون: سكان أوبويا إلاّ ان أصلهم من أباي وهي مدينة في تركيا من هذه العبارة يبدو ان پلوتارخ انما يشير الى العادة التي تعود الى زمن ابعد بكثير من زمن تيسيوس. إلاّ ان [يوستاثيوس] يزعم ان تيسيوس هو الذي استحدث العادة ويقول ان التقدمة لم تكن في دلفي بل في ديلوس. وانها قاصرة على الترويزينيين وبعد عهد تيسيوس بدا واضحاً من لوشيان ان العادة فرضت تكريماً لهيپوليتس على الجنسين بوصفها اجراءً ضرورياً لإتمام الزواج. في طور الرجولة يجز الشعر الذي يبقى ذلك الحين مرسلاً في الهيكل ويوضع في وعاء فضيّ أو ذهبي يحفر عليه اسم صاحبه ويكون من اوقاف (اپوللو).

(١٨) الالياذة ٢:٥٤٢، ٥٤١.

(١٩) شاعر أغريقي عاش في حدود متنصف القرن الثامن (ق.م.) وكان هوميروس قد تكلم بعين هذا عن الابانيتين قبله بثلاثمائة سنة. (واجع الحاشية السابقة) حيث يقول ان الابانيتين خرقوا دروع اعدائهم برماح طويلة اعني انهم التحموا معهم بالأيدي.

والمؤرخون يذكرون أيضاً ان هذا السبب هو الذي حدا بالاسكندر المقدوني أن يأمر رؤوساء جيشه بحلق لحى المقدونيين كافة، لأنها نقطة ضعف فيهم، قد يستفيد منها العدّو...

ظلّت [ايثرا] تكتم حقيقة نسب [ثيسيوس] طوال طفولته وأعلن جدّه [پتيوس] للناس ان الوليد هو لقح نطفة الرب بوسيدون [نبتون].

لنبتون عند الطراويزينيين مكانة خاصة لاتعدلها مكانة ربّ آخر فهو الآله المعلم المرشد لهم. واليه يقدمون اولى ثمارهم، وهم ينقشون على نقودهم صورة رمحٍ ذي ثلاث شعبٍ تكريماً له.

وأظهر ثيسيوس قوة جسم خارقة وبأساً ومراساً وخفة وعقلاً وفهماً مساوياً لتلك القوة. وأخذته أمه الى الصخرة وهناك افضت اليه باسم أبيه وأمرته ان يزحزح الصخرة ويستخرج من جوفها تذكاري ابيه [ايجيوس]. فأقبل على الصخرة دون تردد ولم يلق صعوبة تذكر في رفعها[٢٠]، لكنه رفض أن يقوم برحلته بحراً وإن كانت أسلم وسيلة للسفر - ورغم رجاء امّه وجده ففي ذلك الزمن كان الطريق البريّ الى اثينا محفوفاً بالأخطار والمكاره الجسام ليس فيه جزء خلا من قتلة وقطاع طرق. في ذلك العصر، نجم صنف من الرجال تميزوا بقوة الساعد وخفة القدم وشدة العضل تفوقوا في هذه المظاهر الجسمانية على البشر العادي فلم يعرفوا للتعب معنى وأبوا استخدام هذه الطاقات العظيمة من نعم الطبيعة في غايات سامية تمت الى الخير وتعمل لمنفعة البشر وانما اتخذوا الاعتداء والارهاب ديدنا، وجعلوهما مصدر استمتاعٍ وتبجّح. واعانتهم قواهم الخارقة على ممارسة أعمال القسوة واللانسانية وصرفوا تلك الطاقات في النهب والسلب والغصب وارتكاب كل المحرمات بحق كل من يقع في ايديهم. وفي رأيهم أن احترام الآخرين، والتمسك باهداب العدل، والمساواة والانسانية، وهو موضع اجلال الناس العاديين، انما يعود الى افتقار اولئك الى عنصر الاقدام والقدرة على الأذية، أو الى خوفهم من التعرض الأذى. وهي مما لا شأن به لأولئك الذين بلغت قوتهم حداً تشبع به مطامعهم وترضي غرائزهم. وكان (هرقل) قد قضى على طائفة من هؤلاء، فبطش بهم اثناء مروره في تلك البقاع، وأغفل بعضهم فهربوا وأخفوا أنفسهم عنه، فتغاضى عنهم أحتقاراً لخضوعهم الذليل. ثم ركبت هرقل المصائب فأنشغل بها. وبعد ان قتل [ايفيتوس Iphitus] عاد الى [ليديا] وظلّ فيها عبداً رقيقاً [لأومفاله Omphale][٢١] بمثابة عقوبة فرضها هو على نفسه

(٢٠) منذ ذلك الحين باتت تدعى بـ(صخرة تيسيوس) وكانت تعرف قبلاً باسم «مذبح چوپتر ستينيوس».

(٢١) القتلة يختارون النفي لأنفسهم عادةً ويفرضون على أنفسهم نوعاً من العقوبة يمارسونها حتى تحصل لديهم القناعة بأنهم استوفوا حظهم. لقد قذف (هرقل) [ايفيتيوس] ظلماً من فوق اسوار [تيرنثوس] لأن اباه [يوريتوس] نقض العهد معه اذ وعده بابنته [ايولي] زوجاً بشروط معينة نكث بعهده فاستجار (هرقل) بـ(نيلوس) أولاً فلم يجره. ثم نجح في مسعاه مع [ديوفوبوس]. لكنه بقي يعاني مرضاً عضالاً. فاستخار =

لارتكابه جريمة القتل تلك. وفي هذه الفترة التي قضاها هناك تمتعت بلاد ليديا بعهد من الأمن والطمأنينة لا مثيل لهما. على أن الحياة دب دبيبها في أولئك الأوغاد وانتشروا ثانية في بلاد اليونان والانحاء المجاورة، وانطلقوا يعيشون فيها فساداً ولم يكن هناك رادع يردعهم، ولا أحد ينزل بهم العقاب. ولذلك كانت الرحلة البرية بين اثينا وپيلوپونيسوس محفوفة بأعظم المخاطر. وحاول الجدّ [ثيسيوس] عن عزمه السفر برا بشرحه اعمال كلّ واحدٍ من الاشرار وقطاع الطرق وبيان قوتهم وافانين قسوتهم التي يمارسونها ضدّ المسافرين، علّه يقنع بالسفر بحراً. لكن يظهر ان ثيسيوس كان متأثراً منذ زمن بعيد بمآثر هرقل واعماله المجيدة وكان ينزله منزلة من الاكبار لا مزيد عليها. ولم يكن يسرّه شيءٌ أكثر من اصغائه الى كل من يروي طرفاً من وقائعه، وخصوصاً أولئك الذين رأوا بأم العين أو كانوا شاهدي عيان عمل قام به أو سامعي أي قول قاله، وتملك ثيسيوس الشعور الذي انتاب [تيموستوكلس][٢٢] وبعده باحقاب، عندما قال أن النوم يعزّ عليه إلاّ بعد أن يحوز شكة سلاح ملتيادس Miltiades ويلغ أعجابه بخصال هرقل مبلغاً عظيماً حتى ان احلام ليله كانت تدور كلها حول اعمال ذلك البطل. وفي اثناء النهار كانت رغبته المستقرة في تقليد تلك الأعمال، تدفعه دفعاً الى القيام بمثيلاتها.

زد على هذا فقد ذُكر ان هذين البطلين يمتان أحدهما الى الآخر بصلة رحم. لأن [ايثرا] هي بنت [پتيوس] و[الكمينا Alcmena] هي بنت [السيديسي Lycidice] وپتيوس أخ للأخيرة، وكلاهما ولدا [هيپوداميا وپيلوپس]. لذلك لم يحتمل [ثيسيوس] أن يصول هرقل ويجول في طول البلاد وعرضها يطهر البرّ والبحر من الأشرار بينما يتهرب هو من مثل هذه المغامرات التي جاءته منقادة من تلقاء نفسها، ولم ير هذا مما يشرفه وانما يلحق العار بسمعة ابيه الشهير، بفراره المخزي عن طريق البحر فلايستطيع ان يقدم بمآثره وجلائل برهاناً لأبيه الحقيقي، على عظمة ميلاده، بدلاً من برهان السيف والنعلين.

فانطلق تحدوه هذه الغاية وتملأ نفسه تلك الأفكار. عازماً على أن لايلحق بأحد سوءً، بل ان يقاتل كل من يعترض سبيله متحدياً، وان ينتصف لنفسه ممن ينوي به شراً. وكان اول من بطش به [پرفيتس Periphetes] في معركة فردية جرت بالقرب من ايپذاوروس Epidaurus[٢٣] وكان خصمه يستخدم الهراوة سلاحاً. ومن يومها لصق بثيسيوس لقب [كورينتس

= (دلفي) فنبّه بأنّ عليه أن يبقى رهن العبودية ثلاث سنوات ليتحقق له الشفاء. ولذلك قام (عطارد) ببيعه لـ(أفعاله) ملكة ليديا.

(٢٢) انظر سيرة تموستكليس.

(٢٣) منطقة في البلوپونيسس.

Corynetes] أي حامل الهراوة وكان القتيل قد أعترض سبيله وحال بينه وبين السير. لقد راقت له تلك الهراوة فجعلها سلاحه واستخدمها كما استخدم هرقل جلد الأسد بالقائه على منكبيه ليظهر مبلغ ضخامة الوحش الذي بطش به. فحمل ثيسيوس الهراوة لهذا السبب واصبحت اقوى سلاح في يده، وانه كان قد قهرها وهي في يد صاحبها.

ومضى في رحلته حتى برزخ [پيلوپونيسوس] وهناك فتك بالمدعو [سنيس Sinnis] المعروف بلقب. «لوّاء جذوع اشجار الصنوبر»[٢٤] (مأخوذا من طريقته في القضاء على ضحاياه الكثيرين) فقتله بالطريقة نفسها، دون أن يسبق له ممارسة ذلك من قبل. وفي هذا برهان على ان القوى الطبيعية هي فوق كل فن وخبرة. وكان (السينيس] هذا بنت ـــ الطول في غاية الجمال تدعى [پيريغونه Perigune] عندما سقط ابوها قتيلاً هربت لاتلوي فلحق بها [ثيسيوس] باحثاً عنها في كل مكان. وبلغ بها المطاف موضعاً تنمو فيه الشجيرات، والطرفاء والشوك، فراحت الهاربة تتضرع الى النبتات ببراءة الطفولة لكي تخفيها عن مطاردها - كأن للنبات عقلاً يدرك! - ونذرت إن نجت، الا تقطعها ولاتحرقها إلاّ ان ثيسيوس ناداها ووعدها أن يعاملها باحترام ولا يلحق بها اذية. فخرجت اليه من الدغل. وبعد اكتمال ايامها وضعت له ابناً عرف باسم [ميلانيپوس Melanippus] على انها تزوجت فيما بعد [ديونيوس Deioneus] ابن [يوريتوس Eurytus] الأوخالياني، وثيسيوس هو الذي زوجه اياها. إن [ايوركسوس Iorxus] ابن [ميلانيپوس] ولد ثيسيوس رافق اورنتوس Ornytus مع من رافقه من المستعمرين الى كاريا Caria وقد اعتادت أسرة الايوكسيدس Ioxids المنحدرة من صلبه ألاّ يحرق نساؤهم أو رجالهم شوكاً أو طرفاء اجلالاً وتكريماً لهذا النبات وايفاء بنذر أمهّم.

كانت الخنزيرة المسماة[٢٥] [فيا Phaea] وحشاً ضارياً هائل الجثة، وخصماً لايستهان بأمره قط وقد عاثت فساداً في كرميون لكن ثيسيوس انحرف عن سبيله قصداً ليلقاها ويقاتلها ويفتك بها[٢٦]. حتى يبرهن انه لايقوم بكلّ مغامراته بدافع الحاجة. ومن رأيه ان

---

(٢٤) لقب بذلك كان ثني رأسي شجرتي صنوبر وشد المسافرين اليهما فاذا أطلقا ليعودا الى وضعهما تمزق المربوط بها الى اشلاء. ان پاوسانياس فضلاً عن اوفيد ٤٠:٧، يسميانه (سينس) ويقول ان واحدة من هاتين الشجرتين بقيت حتى عهد الامبراطور الروماني [هادريان].

(٢٥) باليونانية تعني: ذات اللون الغامق. ويقول سترابو ان هذه الخنزيرة ولدت الخنزير الكاليدوني الذي فتك به ملياجر. وكروميون تقع على الحدود التي تفصل كورنث عن ميغارا.

(٢٦) في هذه الحادثة يبدو أن بطلنا حاد عن مبدئه الذي انطلق من أجل تحقيقه وهو ان لايكون الجانب المعتدي في نزالٍ. كانت الخنزيرة الوحشية على اية حال اكثر احتراماً من إحناء شجرتي الصنوبر.

معاقبة الأشرار والمعتدين الذين يعترضون سبيله، انما هو جزءٌ من واجب الرجل المقدام، وان عليه فضلاً عن ذلك البحث عن الضواري والوحوش المفترسة الهائلة والبطش بها، ان بعض الكتاب يزعمون ان (فيا) كانت قاطعة طريق تعيش في [كريميون] شديدة القسوة كثيرة الطبع، ولقبت بالخزيرة لقذارة عيشتها وانحطاط خلقها وقد قتلها ثيسيوس فيما بعد.

كذلك قتل [سكيرون] على حدود [ميغارا] أو قذف به الى الهاوية من فوق الصخور، وكان هذا كما زعم معظم الكتاب لصّاً سيء الصيت يتعرض لكلّ المسافرين، وروى بعضهم انه كان يمدّ قدميه طالباً من عابري السبيل ان يغسلوهما، وفيما هم يفعلون ذلك يركلهم فيقذف بهم من الصخور الى البحر، شراً منه وشراسة، على ان كتاب (ميغارا) «يتحدّون كل الأخبار القديمة» في نقض هذه الرواية ويقولون ومنهم سيمونيدس Simonides ان (سكيرون) لم يكن قاطع طريق ولا رجل شرّ وعنف بل خصماً وعدواً لهؤلاء الاشرار وصديقاً للناس الأخيار ويقولون اثباتاً لذلك إنّ (أياكوس Aeacus) كان رجلاً عظيم القداسة، وهو موضع احترام جميع اليونانيين، كما أن (صخريوس Cychreus السلاميسي، يجله الآثينيون ويعبدونه عبادة الأرباب، وان فضائل (پيليوس Peleus وتيلامون Telamon] ليست بالمجهولة من أحد، و[سكيرون] هذا، هو زوج بنت [سخيروس] وحمو [اياكوس] وجَدّ [پيليوس] [وتيلامون] وكلاهما ابنا [اندياس Endeis] بنت سكيرون[٢٧] وخاريكلو Cha-riclo وليس من المحتمل اذن، أن يصاهر خير الرجال شرهم ويتحدوا بهم برابطة القرابة والنسب. يأخذون منه ويعطونه ما هو أغلى قيمة واعزّ شيء في الحياة. وبحسب ما روى اولئك الكتاب ان ثيسيوس لم يبطش [بسكيرون] في رحلته الأولى الى اثينا. وانما عندما استولى على [اليوسس] المدينة التي يقطنها الميغاريون بعد أن هزم حاكمها الأكبر [ديوكلس Diogles].

تلك هي المتناقضات التي تجدها في الحكاية، وفي تلك المدينة ايضاً قتل [كركسيون Cer-cyon] الاركادي في نزال فردي فاراده في الحال[٢٨] وسار حتى بلغ [ارينيوس Erineus] وفيها قتل داماستيس الملقّب بروكروستوس بإرغامه على جعل قبره بقدر جسمه كما اعتاد

---

(٢٧) ابللودورس يجعلها ابنة (خيرون) الا ان زعم پلوتارخ هو الأصدق والأصح اذ انه يدلي بحجة منطقية لهذه الرابطة ويتفق مع پاوسنياس في ذلك.

(٢٨) ظلت البقعة تسمى (سيكرون پالسترا) الى زمن پاوسنياس. كان سيكيرون أوّل من أستخدم الاصول الفنية في المصارعة لكن (مينرڤا) ساعدت (تيسيوس) على الغلبة بفضل تدريبها له.

ذاك ان يفعل بكلّ ضحاياه. وبهذا سار على نهج [هرقل] الذي كان دائماً يذيق المعتدين عليه ما كانوا يقصدون ان يذيقوه لو ظفروا به. وذبح [بوسيريس] وقدمه قرباناً، وقتل [آنيتوس] في مصارعة فردية. وفتك بـ(كيكنوس Cycnus[٢٩]) في معركة واحدة حاسمة. وقضى على [يترميروس] بتكسير جمجمته قطعاً ومنها جاء المثل السائر «بليّة تيرميروس»[٣٠]، فالظاهر ان يترميروس كان يقتل المسافرين بأن يفطحهم برأسه نطحاً.

هكذا مضى ثيسيوس قدماً في الاقتصاص من الأشرار. فأذاقهم ما كانوا قد أذاقوه للآخرين وجزاهم جزاءً وفاقاً عن كل المظالم التي اقترفوها.

وبوصوله نهر [كفيسوس] لقيته زمرة من قوم [فيتالدي][٣١] واقرأوه التحية ولبوا طلبه في التطهر كما قضت عادات تلك الأيام، وقاموا بالمراسيم المعتادة طبق المرام. وبعد ان قرب قربان الرضا للأرباب استضافوه وأدبوا له في بيتهم. فكان كرماً وعطفاً منهم لم يلق مثله منذ بدء رحلته حتى وصوله اليهم.

وبلغ آثينا في الثامن من شهر (كرونيوس Cronius) الذي يسمى الآن هيكاتومبيون Hec-atombeon فوجد الأحوال العامة في غاية الاضطراب والمدينة منقسمة الى حزبين وشيعتين، ولم يخلص ايجيوس واسرته من هذه الفوضى والقلق. اذ كانت [ميديا Medea] تعايش [ايجيوس] بعد فرارها من [كورنث] وقد وعدته انها ستجعله قادراً على انجاب اولاد بقوة سحرها. وهذه المرأة هي اول من وقفت على سرّ [ثيسيوس] الذي بقي أمره مجهولاً من ايجيوس حتى ذلك الزمن، وبما انه بلغ من العمر عتياً وركبته الهواجس وتناهبه الشكّ والغيرة وملأ الخوف جوانب نفسه من كل صغيرة وكبيرة بسبب وجود الحزب المناوىء له في المدينة، فقد سهل على هذه المرأة إقناعه بقتل [ثيسيوس] بالسُمّ اثناء مأدبة كان سيحضرها بوصفه

(٢٩) في النص الأصلي [هرميونه] والارجح انه پلوتارخ مخطئ هنا اذ لا يعرف ثم موضع بهذا الاسم أو ما يقرب منه. والمؤرخون بعد [فيلوخورس] يطلقون عليه اسم (ترميونه). (في ترجمتي B. P. ودرايدن، أُثبتت كما اوردناها هنا في ترجمتنا العربية).

(٣٠) كتابٌ آخرون يعزون لهذا المثل أصولاً أخرى، فـ(كويداس) يشتقه من موقع مستحكم في (كاريا) بين (ميلوس) و(هلكارناسوس)، يدعى (ترميريوم) استخدمه الطغاة بمثابة مطبق للمسجونين. اما ابوستوليوس فيعزوه الى آخر أيام الحياة ويسمى ترميا.

(٣١) هؤلاء هم نسل فيتالوس الذي افضت اليه سيريس الربّة، بسرّ زراعة شجرة التين والاشراف على أسرارها مكافأة له على حسن ضيافته لها في منزله لم يجد (تيسيوس) نفسه مهيئاً لأقتبال تلك الأسرار قبل التطهر ذلك لأن يديه كانتا مغموستين بالدم وان كان دم اللصوص وقطاع الطرق. تطرّف الاقدمون في فكرة التطهر الى أقصى حَدّ. حتى ان ابوللو نفسه أرغم على القيام بمراسيم التطهر بعد قتله الأفعى (بيثون) التي الحقت الدمار باليونان. وقد جرى تطهير (تيسيوس) في مذبح جوپتر قرب نهر (كينسوس) (انظر باوسيناس ١:٣٧).

من الغربـاء عن المدينة. وصل الى مـوضع المأدبة وهو يميل الى التريث في كشف أمـره، حتى يتيح لأبيه فرصة اكتشـافه اولاً. وجيء باللحم ووضع فوق المائدة فـانتـضى ثيسيوس السيف كأنما يريد اقتطاع فلذة من اللحم. فتعرف ايجيوس على التذكار حالاً ورمى بقدح السمّ. وبعد أن القى بضـعـة اسـئلة على ابنه عـانقـه، وجمع كل مـواطني المدينة واعـتـرف علناً بـابوته له. فرحبوا هم به أيضاً لأن شهـرته سبقته اليـهم، وقيل انه لما سقط قدح السم اندلق مـا فـيه فوق بقـعة هي الآن موضع مسـور في [دلفـينيـوم][٣٢]. وهي الأرض التي كـان يقـوم عـليـهـا منزل ايجيوس. اما تمثال [مـارس] الذي هو في الجهة الـشرقيـة من المعبد فـيسمى [تمثـال مارس في باب ايجيوس].

كان ابناء [پاللاس] قبل ظهـور [ثيسيوس] قد أخلدوا الى السكينة انتـضاراً لموت ايجيوس لاستعادة الملك بدون عنفٍ لانه لم يخلّف نسلاً. فلّما تقرر ان يخلفه ثيسـيـوس في الحكم ثار حنقـهم واجتـاحتـهم الثورة: فـهذا ايجـيوس اولاً لايعـدو أن يكون ابنا مـتبنّى لپانديون Pandi-on[٣٣] ولايمت بصلة قرابة لأسرة [ارختيوس]، يضبط الملك عنوةً واقتداراً، وذاك [ثيسيوس] الزائر الاجنبي الغـريب عن الديار قـدر له ان يخلفـه في الملك!... لم يصـبـروا وأعـلنوها حـرباً، وقسموا جموعـهم الى قـسمين: الأول زحف علناً على المدينة من [سفيتوس Sphettus] بقيادة ابيـهم والثـانـي نصب كـمـيناً في قـرية (غـارغـتّس Gargettus) قـاصـداً الايقـاع بالعـدو من الجانبين. وكان مع هؤلاء منادي مدينة آغـنوص المدعو [ليـوس Leos] فـأقبـل على ثيـسيـوس وكشف له خطة الپالانتيد فمـا عتم أن فأجأ اولئك الكامنين وأبادهم عن بكرة ابيهم. ولما وصل نبأهم پاللاس وزمرته هربوا وتفرقوا.

ومن هذا نشـأت عـادة عند أهالي مـدينة [پالـلين Pallene] على شـائع القـول وهي أن لايرتبطوا باي تحـالف أو مـصاهرة مع سكان قـرية (اغنوص) وأن لايدعـوا المناديـن يلفظون في اعـلاناتهم الكلمـات الشـائعـة في كل انحـاء البـلاد وهي « اكـويتـي ليـوي» اي «أيهـا النـاس أسمعوا» كارهين سماع كلمة (ليو) بسبب خيانة هذا الرجل.

كان ثيسيوس مشوقاً الى العمل، راغباً في ذيوع صيته. فترك آثينا ليقاتل ثور [ماراثون] الذي اوقع اضراراً ليست بالقليـلة بسكان مدن [تتراپوليس Tetrapolis][٣٤]. وبعد أن تغلّب

---

(٣٢) دلفـينيـوم: ان مـوقع هذا المحـراب المخـصص لاپوللو دلفي مـا يزال مـوضع تسـاؤل، وحـدس. ويقـع على العموم شرق الاولمپيوم.

(٣٣) في الواقع ان (ايجيوس) ليس ابن (پانديون) بل ابن (سكيرياس).

(٣٤) من مناطق اتيكا، سـمـيت بهـذا الاسم لاحـتـوائها على أربع مـدن وهي [زينومـيي، مـراثون، پروبالنثس، ترايكورنثوس] بناها (كسوثس) خَتَنُ أرخيثيوس.

عليه قاده حياً ودخل به دخول الظافرين الى المدينة ثم نحره قرباناً (لاپوللو دلفي)[٣٥] وتبدو حكاية (هيكاله Hecale) واكرامها ثيسيوس واستضافته في حملته هذه، وكأنها لاتخلو من الحقيقة. فقد جرت عادة أهالي المدن المجاورة ان يجتمعوا في يوم معين لتقديم قربان [لجوپيتر هيكاليوس] يطلقون عليه اسم «هيكاليسيا»، تكريماً لهيكاله ايضاً. (يطلقون عليها اسم التصغير هيكالين - والسبب في هذا يعود الى انها كانت تخاطب ثيسيوس وهو شاب عندما استضافته. بمثل كلمات التحبب هذه كما يفعل كبار السن لصغارهم، وكذلك لأنها نذرت لأجله قرباناً لجوپيتر اذا عاد سالماً من القتال، لكنها ماتت قبل اوبته، فجوزيت بهذا الاكرام رداً لجميلها، وذلك بأمرٍ من ثيسيوس على ما يحدثنا [ميلوخورس][٣٦]. ولم يمرّ زمن طويل حتى أقبل على المدينة محصلو الجزية من كريت لأخذ القسط الثالث. وكان الاثينيون يدفعونها للسبب التالي: قُتل اندروغيوس Androgeus[٣٧] قتلةً غادرة على حدود [اتيكا] فلم يكتف [مينوس] أبوه بجرّ المصائب الشداد على الآثينيين بحروبه المتتالية، بل انضم اليه الأرباب وأحدثوا الخراب في البلاد وجعلوها بلقعاً يباباً، فنزل بهم القحط وفتك بهم الوباء وجفت انهارهم، ونزلت عليهم نبوءة مفادها ان غضب الآلهة لن ينفثيء إلاّ اذا استرضوا [مينوس Minos] وصالحوه، واذ ذاك سيزول عنهم بؤسهم ويحسر عن كواهلهم الشتاء فأرسلوا اليه رسلاً وبعد كثيرٍ من الالتماس والرجاء صالحوه أخيراً على شروطٍ وهي أن يدفعوا لكريت كل تسع سنوات جزيةً تتألف من سبعة فتيان وسبع عذارى. وهذا ما أتفق على ايراده معظم الباحثين والحكاية الأخرى التي تحفل بالشعر والخيال تضيف الى ما تقدم أن غول [مينوتاور Minotaur][٣٨] التيه كان يفترسهم، او انهم يهيمون على أوجههم في التيه لا يجدون فيه منفذاً للخروج فتنتهي حياتهم هناك اشنع نهاية وان هذا الغول كان على ما يصفه يوريپيدس: شكلان ممتزجان، يتألفان من خلقتين مهولتين ذات طبيعتين متنافرتين: ثور ورجل مجتمعين![٣٩]

---

(٣٥) ديودورس (٤:٥٩) يعزو هذا القربان لـ(ايجيوس).

(٣٦) فيلوخورس مؤرخ آثيني (٢٠٠؟ ق.م) كتب مقولات ثمينة عديدة اورد (سويداس) قائمة بها لكن لم يصلنا شيء منها خلا بعض المقتطفات التي اقتبسها منه بعض الكتاب.

(٣٧) قال بعضهم ان (ايجيوس) أمر بقتله لأنه كان على اتفاق مع الپالانتيدي ويقول بعضهم ان الثور المراثوني هو قاتله.

(٣٨) اختلقها الشعراء فقالوا انه ابن (پاسيفاي) من نطفة ثور. وپاسناي هي زوج مينوس التي ابتلاها نبتون بهذا الميل الشنيع انتقاماً من مينوس لأنه رفض ان يقدّم له ثوراً جميلاً كان يتوقع ان يكون قرباناً له. ان حلّ هذه العقدة التي تكتنف القصّة من قبل [پاليغاتوس] ليس قوي الاحتمال.

(٣٩) مأساة الأغريق مقطع ٢. ص ٦٨٠.

لكن [فيلوخورس] يقول أن أهالي كريت ينفون هذه المزاعم نفياً قاطعاً ويقولون أن التيه المزعوم ما هو الاّ سجن عادي ليس فيه من صفات السوء إلاّ صفة واحدة وهي انه منيع يصعب على نزلائه الفرار منه. وان [مينوس] الذي أنشأ العاباً تكريماً لذكرى [اندروغيوس] كان يهب هؤلاء الشبان والعذارى جائزةً للفائزين. وكان هؤلاء الأسرى يودعون سجن التيه خلال تلك الفترة. وأول من فاز في تلك الألعاب كان رجلاً يتمتع بقوة عظيمة ومكانة رفيعة، يدعى [طوروس Taurus] وهو شخص قاسٍ لا تعرف الرقة والرحمة الى قلبه سبيلاً كان يعامل الاثينين الذين اعطوا له جائزةً شرّ معاملة وأغلظها. وكان رأي [ارسطو] الصريح الذي أدلى به في معرض بحث كتبه عن دستور شكل الحكم عند [البوتيّان Botiaeans][٤٠] ان مينوس لم يكن يقتل هؤلاء الفتيان، وانما كانوا يقضون بقية حياتهم عبيداً في كريت. وان الكريتيين ايفاءً بنذرٍ قديمٍ قطعوه على أنفسهم منذ زمن طويل قد اعتادوا ارسال قرابين الى [دلفي] من اول ثمار رجالهم وان بعض الذين انحدروا من سلالة هؤلاء الاثينيين العبيد كانوا يخلطون مع التقدمات ويرسلون، وبعجزهم عن العيش هناك رحلوا اولاً الى ايطاليا، وأستقروا حول [ايابيجيا Iapygia] ثم انتقلوا منها الى [تراقيا] وأطلق عليهم اسم [البويريتيين] وهذا ما جعل فتياتهم في اثناء تقريب قرابين معينة ينشدن أغنية تبدأ بعبارة «الى اثينا فلنذهب»، هذا ما يكشف لنا الخطر الذي ينطوي عليه عداء مدينة هي سيدة البلاغة وأميرة الغناء. كان [مينوس] دائماً ينعت بأسوء النعوت، ويمثل دائماً بالرجل الشرير على المرسح الأثيني، ولم يفلح [هسيود][٤١] في انقاذ سمعته حين وصفه بـ«مينوس، الذي لايدانيه في ملوكيته أحد»، ولم يفده هوميروس[٤٢] الذي وصفه «صديق چوپيتر الخدين» وكلمته. وظلّ القول الفصل في هذا لكتاب التراجيديا الذي كانوا يمطرونه بوابل من الهجاء والنقد من ارض مسارح تمثيلياتهم ويمثلونه برجل العنف والقسوة[٤٣]. في حين كانت الأسانيد تدل انه ملك سوي، وواضع قوانين. وان المدعو [رادامانثوس Rhadamanthus] كان قاضياً مستقيماً يطبق قوانينه له.

لما حان أجل القسط الثالث من الجزية. ووجب على كل اب له ولدٌ شاب يصلح للإرسال أن

---

(٤٠) لا وجود له. انه مفقود كغيره من المباحث التي عزيت اليه من هذا القبيل.

(٤١) افلاطون: مينوس ص ٣٢٠. هسيود ٧٤.

(٤٢) الاوديّسه ١٩:١٧٩.

(٤٣) هذا الخطأ الذي وقع فيه پلوتارخ، وقع فيه عدد من الكتاب بينهم افلاطون فهناك اثنان باسم [مينوس] احدهما ابن (چوپتر: زفس) و(اورويه) وهو أميرٌ عادل سامي الخلق. والثاني وهو حفيده ابن (ليكاستس) الذي يقصده پلوتارخ هنا بوضعه اباً لـ(اندرغوس) وكان من الطغاة.

يشارك في عملية الاقتراع العامة لاختيار العدد، ثارت الخواطر على [ايجيوس] وبدأت اتهامات جديدة تنصب من الناس الذين امتلاؤا حزناً وسخطاً، فراحوا يقولون: انه وهو سبب كل ما أصابهم من شقاء، الشخص الوحيد السالم من هذه البلوى، وقالوا ايضاً أنه اورث مملكته ابن سفاح اجنبي ولم يعد يهتم بمصيرهم ولا بخسارتهم في ابنائهم الشرعيين لأبناء السفاح، وقعت هذه الاقوال وقعاً شديداً في نفس ثيسيوس، واحتلت كل تفكيره وملكت عليه مذاهبه ورأى أن الواجب يقضي عليه المشاركة في آلام مواطنيه فعرض نفسه ليكون واحداً من الشباب المرسلين الى كريت، دون حاجة الى اجراء قرعة بالنسبة له. فهزّ الناس نبله هزاً وامتلاؤا أعجاباً وحبّاً بطبيعة عمله هذا. ووجد [ايجيوس] ابنه هذا مصراً على قراره ولم تفد معه توسلاته الكثيرة، فأستسلم وبوشر باختيار الباقين بالقرعة، على ان [هولانيكوس Hol-lanicus] يخبرنا ان الآثينيين لم يكونوا يستخدمون القرعة لاختيار الشباب والعذارى، وانما كان [مينوس] يأتي بنفسه ويختار من يشاء فكان ثيسيوس اول من اختاره. وتنصّ الشروط ايضاً على أن السفينة التي تقلّ الأسرى تكون من الآثينيين، وان الشبان المبحرين لا يحملون اسلحة حربٍ، وانه ثمّ القضاء على [المينوتاور] تلغى الجزية.

في القسطين الاول والثاني ارسل الآثينيون السفينة بقلوع سوداء اذ لم يكن لديهم اي امل في سلامة اولادهم أو عودتهم، وكانوا واثقين انهم ذاهبون الى قضاء محتوم لا يُدفع. أما الآن وبعد ان شجع ثيسيوس اباه وتكلم كلام الواثق من نفسه، بقتل [المينوتاور] فقد سلم [ايجيوس] ربان السفينة شراعاً آخر ابيض اللون وأمره ان يرفعه على صاري سفينة عند العودة اذا كان ثيسيوس حياً سالماً، واما اذا هلك فليرفع الشراع الأسود دليلاً على وقوع المصيبة. ويقول [سيمونيدس] ان الشراع الذي تسلمه ربان السفينة من [ايجيوس] لم يكن أبيض اللون بل... «قرمزياً منقوعاً في عصير زهرة شجرة بلوط زاهية جداً»(٤٤)

كذلك يكون علامة فرارهم ونجاتهم، ويذكر [سيمونيدس] أيضاً ان ربان السفينة هو [فيريكلوس Phereclus] ابن [امارسياس Amarsyas]، ويقول ان [سيروس] ارسله الى ثيسيوس من سلاميس وانّ [ناوسطثاؤس Nausitthoüs] كان ملاحّ الدفّة، و[فاياكس Phaeax] رقيب مقدمة السفينة. اذ كان الآثينيون في ذلك الزمان قليلي الخبرة بالملاحة(٤٥)

---

(٤٤) ليست زهرة بل هي ثمرة الشجرة المعروفة عند النباتيين باسم Quercus Ilex وهي شجرة بلوط قميئة دائمة الخضرة يغزوها دودة صغيرة يسميها العرب «قرمز» تخرج منها صبغة قرمزية وثيوفراستس يتكلم عن هذه الثمرة في كتاب نباته فضلاً عن پليني. وهي مصدر مادة الصبغة القرمزية منذ أقدم الزمن.

(٤٥) بحسب رواية هوميرس ارسل الآثينيون خمسين سفينة الى طروادة. على انها كانت سفن نقل لا سفن حرب ويؤكد (ثوكديدس) انهم لم يقوموا بأي نشاط بحري حتى بعد عشر سنوات أو اثنتي عشرة عقبت =

لم يمارسوا مهنة البحر. ولم يفعل [سيروس] هذا إلا لأن [مينيتس] أحد الشبان هو ابن بنته. ويثبت هذه الواقعة بناء [ثيسيوس] هيكلي [فاياكس[٤٦]] و[ناوسطثاؤس] بالقرب من معبد [سيروس]، زد على هذا أن العيد المعروف بـ(كيپرنيسيا Cybernesia] [٤٧] اقيم تكريماً لهما.

يحدثنا معظم المؤرخين القدامى ناهيك بالشعراء، أن [أرديان Ariadne] التي وقعت في غرامه، أعطته كرة من الخيوط حال وصوله كريت وعلمته كيف يستخدمها لتقوده خلال منعطفات التيه ومنعرجاته. وبهذه الوسيلة خرج منه سليماً وقتل الغول [المينوتاور] [٤٨] وابحر عائداً ومعه [آريادنه] والأسرى الآثينيون. ويضيف [فركيدس Pherecydes] [٤٩] انه احدث ثقوباً في قيعان سفن كريت، ليحول دون مطاردتها له. ويكتب [ديمون Demon] ما مفاده ان [طواروس] كبير قواد مينوس قتل بيد [ثيسيوس] في فم الميناء اثناء معركة بحرية جرت قبيل ابحاره الى اثينا. لكن [فيلوخوروس] يروي الواقعة كما يأتي: عندما أنشأ الملك مينوس الألعاب السنوية كان متوقعاً ان يفوز [طوروس] بجائزتها، كما فعل قبلاً. وكان موضع حسد عظيم لذلك. فأخلاقه ومعاملته للناس جعلت سلطانه مكروهاً، وهو ايضاً متهم بعلاقةٍ مع [پاسيفي Pasiphae] ولهذا وافق مينوس في الحال عندما طلب ثيسيوس نزاله. وجرت العادة في كريت ان يسمح للنساء بمشاهدة الالعاب فكانت [اريادنه] بين المتفرجين، فداخلها اعجاب شديد بجمال رجولة ثيسيوس واقدامه وقوته التي ابداها في النزال مما جعله يقهر كل من يتصدى له او يتحداه. ولم يكن مينوس بأقل سروراً، سيّما وانه تغلّب على

= معركة ماراثون. اي بعد حصار طروادة بسبعمائة عام تقريباً لذلك كان من قبيل المعجزات ان يحقق الآثينيون في المجال البحري هذا التقدم الخارق الذي بدأ بعهد تيسيوس بارسالهم الى طروادة هذا العدد من السفن في غضون فترة قصيرة. على كلٍّ فقد كان الفضل الأول بهذا التقدم يعود الى (تموستوكليس).

(٤٦) هو بهوٌ حكومي يجتمع في رحابه الحكام الشيوخ ويطلق عليهم اسم پرايتانس ويعيش فيه ايضاً على نفقة الدولة أولئك الذين اعتبروا بانهم يستحقون من بلادهم خير جزاء» كما يستقبل فيه السفراء الاجانب وتقام في الحفلات العامة والاستقبالات.

(٤٧) الى هذه القصة تعزى على الأغلب صورة مونتفوكون لڤينوس وهي فوق الأمواج مستلقية على عنزة ويدها ممسكة بشعر ذقنها وبرفقتها كيوبيدات راكبين ظهور حيتان الخ...

(٤٨) في واحدة من أجمل الصور التي تمّ العثور عليها في هركولانيوم (وهي المدينة التي غطتها حجم بركان فيزوڤ العام ٧٩ فأزيحت وتم الكشف عنها). وقد ظهر فيها تيسيوس وهو يطأ المينوتاور (وهو حيوان خرافي برأس ثور (جسم انسان) في حين تجمع الصبيان عليه يقبلون يديه ويحتضنون ركبتيه.

(٤٩) من الأقدمين أشتهر شخصان بهذا الاسم، الأكبر منهما هو معلم فيثاغورس وطاليس ومن مدينة سكيروس ويلقبّ بالفقيه أو اللاهوتي، لأنه أول من علم حول خلود الروح في بلاد اليونان. إمّا الثاني وهو الذي يغلب الاحتمال بانه المقصود عند پلوتارخ فهو مؤرخ من جزيرة ليروس التي تقع في بحر ايجه وقد سبق عصر هيرودوتس بقليل.

[طوروس] واخزاه. فلم يتردد في ان يدفع له بالأسرى الأثينيين، وأعاد الجزية الى أهلها.

ويروى لنا [قليديموس Clidemus](٥٠) رواية يستغرب صدورها منه فيها حواش وشجون وذيول موغلة في القدم، يقول عقدت معاهدة بين جميع الأغريق تم الاتفاق فيها على أن لايسمح لأية سفينة تحمل أكثر من خمسة أشخاص بالابحار من اي مكان. واستثني من المنع [چاسون Jason] الذي نُصب قبطاناً للسفينة العظيمة [ارگو Argo] وسمح له الابحار وجوب المحيطات معقباً القراصنة، لكن عندما هرب [ديدالوس Daedalus]من كريت وركب البحر الى اثينا، شرع مينوس بمطاردته بسفنه الحربية مخالفاً الاتفاق، فأجبرته العاصفة على الرسو في (صقلية) وهناك قضى نحبه(٥١). وبعد وفاته استبدت الرغبة بابنه [ديوكاليون Deucalion] للتحرش بالاثينيين، فبعث يطلب منهم تسليم [ديدالوس] اليه مهدداً بقتل جميع الاثينيين الذين تسلمهم ابوه من المدينة كجزء من الجزية، ان هم رفضوا طلبه. فبعث ثيسيوس بردٍ مهذب الحاشية على هذه الرسالة الغاضبة، معتذراً عن تسليم [ديدالوس] الذي كاد يكون من اقربائه. فهو ابن خالة لان امّه [ميروپه Merope] هي بنت [ارختيوس]. إلاّ أنه أخذ يبني عمارة بحرية في السرّ. جعل قسماً منها في بلاده قرب قرية [ثيميوتادي Thy-moetadae] وهو موضع بعيد عن كل الطرق العامة. والقسم الثاني اودعه عند جدّه [بيثيوس] في طروزين، مستهدفاً تنفيذ خطته بأعظم السرية. وما كمل اعداد اسطوله هذا حتى أقلع به يرافقه [ديدالوس] وغيره ممن أرتهن في كريت ليكونوا ادلا. ولم يدر احد من الكريتيين بقدومه وحسبوه صديقاً وحسبوا اسطوله اسطولهم. وسرعان ما سيطر على الميناء وأسرع بالنزول وبلغ [غنوصوص Gnosos] قبل ان يلاحظ أحد زحفه وفي معركة جرت عند مزاعل التيه، أباد [ديكاليون] وكل حرسه بحد السيف فأنتقل الحكم الى (اريادنه) وعقد معها حلفاً واستعاد الأسرى منها، وأتفق على عهد صداقة دائمة بين الآثينيين والكريتيين. واقسم الطرفان على الاّ يبدأ حرباً.

هناك روايات تاريخية أخرى حول هذه المسألة، وهناك أمثالها حول [اريدانه] وكلها متناقض ومتنازع عليه. ترى بعضهم يقول انها شنقت نفسها بعد ان هجرها [ثيسيوس] وبعضهم يقول ان بحارته اخذوها الى جزيرة [نخسوس Naxos] فتزوجت [اوناروس Oenar-us] كاهن [باخوس](٥٢). وان ثيسيوس هجرها لوقوعه في حُبّ أخرى.

---

(٥٠) (ڤيوسيوس) في تاريخه يذكر مؤرخاً بهذا الإسم، كتب بحثاً عن (آتيكا) وعن العودة غير المتوقعة لأولئك الذين غابوا زمناً طويلاً. ومن الممكن ان توضع الحكاية في أيّ من المبحثين.

(٥١) هيرودوتس ٧:١٧٠، ديدورس ٤:٧٩.

(٥٢) ومن هنا جاءت ولا شك الخرافة المتداولة بانها تزوجت باخوس نفسه.

«كـان حُبّه (ايـگله Aegle) بنت پانـوپيـوس يـحرق صـدره[٥٣] وهو بيت شـعـر يقـول عنه [هرياس Hereas] انه كـان فـي السـابق مـوجـوداً ضـمن منظومـات [هسـيـود][٥٤] إلاّ أن [پسستراتوس Pisstratus][٥٤] شطبه، واضاف البيت التالي الى منظومة هومـيروس «جهنم الأمـوات» ارضـاءً للآثينيين: «ثيسـيوس، وپيرثاوس، ابنا الآلهة الجبـاران»[٥٥]. وتقـول فئة أخرى ان [اردیانه] انجـبت لثـيسـيـوس ولدين وهمـا [اوينوپيـون Oenopion وسطافـيلوس Staphylus] ومن القائلين بهذا [آيون Ion][٥٦] الشـاعر الخيوسي، حين بكتب عن مدينتـه: «التي بناها في ذات يوم - أونوپيون ابن ثيسيوس».

لكن أشـهـر الروايات الاسطورية التي جـرت على كل لسـان هي الآتيـة: لدى [پـايون آلاماتوسي] قصة تختلف من الباقي اذ يكتب قائلاً ان النوء دفع بسفينة ثيسيوس الى جزيرة [قبرص] وفـيـهـا [اردیانه] وهي حامل، وفي حالـة يرثى لهـا من المرض بسـبب دوار البـحر. فأنزلها الى الساحل وتركـها وحيدة وعـاد لمعاونتمن السفينة. وفجـأة دفعت بها ريح شديدة الى عرض البـحر. وأبدى نسـاء الجزيرة عطفـاً على [اردیانه] وعناية كبيـرة بها وعـملن ما وسعهن للتسرية عنها وتخفيف وحشتـهـا. حتى انـهن زوّرْنَ رسـائل ودفعنهـا اليـهـا كـأنما وردت من ثيسيوس. ولما ادركها المخاض بالغن في بذل كل مـا تحتاجه من رعاية إلاّ انهـا توفيت قبل ان تضع وليدها ودفنت دفنة لائقة. ثم ما لبث ثيسيوس ان عاد وركبه هم شديد لفقدها وترك قبل مغادرته الجزيرة عند أهلها مبلغاً من المال ينفقونـه على شراء قرابين لهـا. وأمر بصنع تمثالين صغيريـن أوقفهـما عليـهـا واحد من الفضة وآخر من النحاس. والمراسيـم التاليـة يقوم بهـا أهل الجزيرة ضمن مـراسيـم تـقديم قـرابينهم في اليـوم الثـاني من شـهـر [گـورپيـوس Gorpiaeus] المخصص لاردیانه. ان يستلقي شـاب منهـم على ظهـره ليـقلّد بصـوته وحركـاته آلام المرأة اذ يدركها المخاض و[الآماتوسيون] يطلقون على البسـتان الذي ضم رفـاتها، اسم «بستان ڤينوس اردیانه».

وذكر بعض كتـاب [نخسوس] رواية تختلف عن هذه، وزعـموا وجود رجلين باسم مـينوس، وامـرأتـين باسم اردیانـه احـداهمـا تزوجت كـاهن باخـوس في جـزيرة نخـسـوس، وأنجـبت له [ستـافيلوس] واخاه الآخر. إلاّ ان اردیانه الثانية التي عـاشت في زمـان متـأخر، وهي التي

---

(٥٣) أنظر (آثينايوس) ص ٥٥٧.

(٥٤) طاغية آثينا كان كما صورة پلوتارخ في سيرة صولون محبّاً للكتابة وممارساً للأدب.

(٥٥) الاوذيسي ١١:٦٣١.

(٥٦) كاتب مأساوي عاصر (پيركلس) فقدت مسرحياته كلها لكن (آثينايوس) حفظ لنا مقطوعات من مناجاته.

حملها ثيسيوس معه، وهجرها فيما بعد، نزحت الى [نخسوس] مع مرضعها [كوركينا Cor-cyna] التي ما زال قبرها قائماً. وان [اردیانه] هذه توفيت أيضاً هناك وعبدها أهل الجزيرة لكن بشكل يختلف عن عبادة الأولى. فأحياء عيد هذه يتم بالافراح العامة والقصف واللهو، في حين أن عيد الثانية ينقضي بالحداد والكآبة(٥٧).

توقف ثيسيوس في جزيرة [ديلوس Delos](٥٨) بطريق عودته من كريت. وقرّب لرب الجزيرة، وقدم للمعبد تمثالاً لفينوس كانت [اردیانه] قد أعطته له(٥٩)، ورقص مع الشبان الآثينيين رقصة ما زالت شائعة عندهم الى يومنا هذا احياءً لذكراه وهي تتألف من حركات تقدّم وتأخّر موزونة محدودة، تقليداً وتمثيلاً لمنعطفات التيه والتواءاته. ويقول [ديكوارخوس Dicoearchus](٦٠) ان الديلوسيين يسمون هذه الرقصة [كرانه Crane](٦١) وقام ثيسيوس برقصته هذه حول المذبح [الكيراتوني](٦٢) واسمه هذا جاء لانه بني من القرون التي تؤخذ من الاصداغ اليسرى لرأس كل ذبيحة. ويقال انه انشأ العاباً في [ديلوس]. وكان اول من بدأ تقليد اهداء سعف نخل للفائزين.

لما أقتربوا من ساحل اتيكا اطار الفرح صوابهم لتكلل رحلتهم بالنجاح حتى ان ثيسيوس والقبطان نسيا رفع البشارة ودليل السلامة لايجيوس، فما كان منه إلاّ قذف بنفسه يأساً من الصخرة الى البحر فهلك. وما ان نزل ثيسيوس في ميناء [فاليرم Phalerum] حتى قدم القرابين التي كان قد نذرها للأرباب عندما ركب البحر. ثم انه ارسل الى المدينة بشيراً يحمل

---

(٥٧) احياء أعياد (اريادنه) زوج (باخوس) يتّم احياؤها باللهو والقصف والافراح للاعراب عن صيرورتها (ربّة). في حين ان القرابين المقدمة لـ(اردیانه) الثانية تشير الى سقوطها واعتبارها انساناً عادياً.

(٥٨) من هذا جاءت عادة قيام اثينا سنوياً بارسال وفد الى (ديلوس) لتقديم قربان (ابوللو).

(٥٩) كان هذا تمثالاً خشبياً صغيراً نحته (ديدالوس) بقاعدة مربعة تقوم مقام القدمين وهو اول من ابتدع القاعدة للتماثيل وقد بدت في آثاره الأخيرة . ربما كانت (اريادنه) قد تسلمت التمثال من النحّات وحملته معها وان تيسيوس قدمه لابوللو على زعم أهل (ديلوس) اذ لم يشأ ابقاءه عنده لانه يذكره بحبيبته. (پاوسنياس ٩:٤٠).

(٦٠) هو أحد تلاميذ ارسطو الف كتباً عدة. أشهرها تاريخ سپارطا. كانت فصوله تتلى سنوياً على شبانها بامرٍ من الايفوري. وقد اثنى عليها شيشرون كثيراً.

(٦١) يحدثنا كاليماخوس بأنها رقصة حلقيّة. وسميت (كرينه) ربما نسبة الى طائر الكرين (الكروان) الذي يطير بشكل حلقي، يقول [يوستاثيوس] كان الناس قبل تيسيوس يرقصون على شكل مجموعتين منفصلتين واحدة للذكور وواحدة للاناث فجاء هذا ووحد بين الجنسين عند انقاذه رفاقه الشبان من التيه. ما زال هذا النوع من الرقص حيّاً في اليونان بعد مرور زهاء ثلاثة آلاف سنة ويدعى (كانديوت Candiot). [انظر م. چي تاريخ الأدب اليوناني ص ١٣].

(٦٢) الكلمة مشتقة مباشرة من (قرن) ويعزى صنعه الى ابوللو. والقرون هي من ذكور غزلان (كينثوس) قتلتها أخته الصيادة وقد بني كما تقول الاساطير من دون ملاط أو صمغ أو أية مادة غرائية أو لاصقة.

نبأ سلامة العودة. ولما دخل هذا، وجد معظم الأهالي في حزنٍ وكآبة لفقدهم ملكهم، بينما أستولى الفرح على آخرين لأنباء البشير السارة (وهو ما لا سبيل لنكرانه) وأظهروا شوقاً في الترحيب به وضفروا قلائد الزهر على رأسه، فتقبل ذلك بطبيعة الحال إلاّ انه رفعها عن رأسه وقلّدها العكّاز الذي يحمله المنادي عادةً، ورجع الى الشاطيء بهذا الشكل، فوصل قبل ان يفرغ ثيسيوس من تقدمة الخمر للأرباب، فوقف عن كثب ولم يأت بحركة لئلا ينقض صلاته ودعاءه وما أن انتهى ثيسيوس حتى تقدم منه وأعلن له موت الملك. فهرع الجميع الى المدينة في ضجة واضطراب وندب وعويل. إنّ عادة عدم تتويج المنادي بل تتويج عكّازه في عيد [تسخوفوريا Oschophoria](٦٣) نشأت عن حادث ذلك اليوم واستمرت حتى يومنا هذا. كذلك نشأت منه عادة هتاف الحاضرين وقت سكب قربان الخمر «ايليليو، آييوو آيوو Eleleu Ioü Loü»(٦٤) واولى هذه الكلمات تخرج عادة من افواه المستعجلين. أو تستخدم هتافاً للنصر، أما الكلمتان الاخريان فهما لازمة من لوازم اللسان يلفظها الناس عندما يكونون في حالة غمّ أو اضطراب بالٍ.

وبعد ان شيع ثيسيوس جنازة أبيه، قام بإيفاء نذوره لاپوللو في السابع من شهر [پايانيپسيون] ففي ذلك اليوم دخل الى مدينة كل الشبان الذين عادوا معه من كريت سالمين. وقيل ايضاً ان عادة سلق الحمّص في هذا العيد بدأت منذ ذلك اليوم، لأن كل الشبان الذين نجوا، جمعوا ما فضل من زادهم في قدر واحدٍ وسخنوه وأكلوا منه جميعاً، كذلك نشأت عادة حمل غصن الزيتون الذي يشد عليه شيء من الصوف في المواكب [بعد ذلك استعمل في الصلوات والأدعية] وأطلقوا عليه اسم [آيرسيون Eiresione] وكان يتوج مختلف الثمار اشارة الى زوال القحط والمحل، منشدين الاغنية التالية:

> «ايرسيون يأتي بأفضل التين، ايرسيون يأتي بأرغفة خبز من أفضل دقيق القمح الابيض ويأتي بالعسل في الجرار. والزيت نضمخ به اجسامنا، وبدنان من الخمر القوية ليؤوب الكلّ الى فراشه نشواناً».

---

(٦٣) عيد للخمر يبدء بموكب من اثينا نحو فاليرم. ويختار عدد معين في شبان أشرف الأسر على أن يكون الابوان حيين. ويحملون اغصاناً مثقلة بالعنب ويعدون منطلقين من معبد(ياخوس) نحو هيكل (مينرڤا) القريب من الباب الغاليري والسبّاق للوصول يشرب كأساً من الخمر ممزوجة بالعسل وياكل جبناً وخبزاً وزيتاً ويتبع الراكضين جوق بقيادة شابين يرتديان ثياب النساء وهم يغنون ويحيط بالشابين عدد من النسوة على رؤوسهن سلال ويتم اختيارهن من أغنى الأسر في المدينة ويقود الموكب كلّه منادٍ يحمل قضيباً تحيط بع اغصان.

(٦٤) الكلمة الأولى تدل على الشعور بالفرح والغبطة التي كان تيسيوس يحسّ بها وهو قاصدٌ (أثينا) والكلمة الثانية المرددة تنبيء عن حزنه على وفاة ابيه.

ومع أن بعضهم يرى أن انشاء هذا العيد كان لذكرى الهبراقليدي[٦٥] الذين رباهم الآثينيون وأستضافوهم بالشكل الذي فصلناه إلاّ ان رأي الغالبية هو ما ذكرناه أولاً.

كانت السفينة التي أقلت ثيسيوس وصحبه الشبان الاثينيين، ذات ثلاثين مُجذافاً وعادت سالمة فأبقى عليها الآثينيون حتى ايام [ديمتريوس ڤاليروم][٦٦] وعندها خلعوا عنها الالواح الخشبية النخرة، ووضعوا محلها الواحاً جديدة أقوى من سالفتها. وآضت السفينة بسبب هذا التغيير مثالاً يضرب بين الفلاسفة حول المسألة المنطقية عن الأشياء المتحولة[٦٧]، ففريق منهم يتمسك بقوله ان السفينة بقيت كما هي، والفريق الآخر يقول انها لم تعد السفينة عَيْنها.

إن العيد المسمّى (اسخوفوريا) أو عيد الأغصان كان ثيسيوس أول من أحتفل به وما زال الآثينيون يحفظونه حتى يومنا هذا. ويعود السبب في انشائه ان ثيسيوس لم يأخذ معه العدد الكامل لمطلوب من العذارى اللاتي وقعت عليهن القرعة بل أختار شابين يثق بهما من ذوي القوة والبأس والمظهر الأنثوي والقسمات المليحة، غير من مظهرهما بالاستحمام الكثير واجتناب الحرارة وأشعة الشمس المحرقة، ودوام استعمال انواع الأدهان والعطور والغسول ووسائل الزينة لتجميل الرأس، أو نعومة البشرة، وتحسين لونها، حتى حقق التغيير المطلوب فيهما، ثم علمهما كيف يقلدان اصوات النساء، ومشية العذارى وتخطرهن بحيث ما عاد يفرق احدٌ بينهما وبين النساء. ثم وضعهما بين الفتيات الآثينيات المرسلات الى كريت. فلما عاد سالماً، قام هو وهذان الشابان على رأس موكب دينيً مهيب وهما في شكلهما النسوي، وبعين الزيّ الذي يتخذه الآن اولئك الذين يحملون اغصان العنب في الموكب. وهم يحملونها تكريماً لباخوس واريادنه، بسبب الحادثة التي اوردناها. أو ربما يعود ذلك الى أن اوبتهم الى الوطن وافقت موسم الخريف وهو أوان جني الأعناب. هذا وان النسوة اللاتي يطلق عليهن

---

(٦٥) بعد ان طرد يوريستيوش الطاغية نسل الهيراقليدي من البلوبونيسس وبقية بلاد الأغريق التجأوا الى اهل اثينا لحمايتهم فاجاروهم وجرياً على العادة المتبعة فقد دخلوا المدينة وبايديهم الاغصان، وقد عالج موضوع هؤلاء (يوربيدس) في مسرحيته (هيراقليدي).

(٦٦) اعني حوالي الف سنة. لأن (تيسيوس) عاد من كريت في حدود ١٢٣٥ ق.م. وكالليماخوس الذي عاصر (ديمتريرس) وقد اخبرنا ان الاثينين ظلوا يبعثون هذه السفينة المقدّسة الخالدة الى ديلوس في زمانه (٢٨٠ ق.م) و(ديمتريوس) الفاليري هو الوصي المندوب عن (كساندر المقدوني) في اثينا [٣٠٧-٣١٧ ق.م] قيل انه نصب لنفسه ثلاثمائة وستين تمثالاً خلال هذه المدة وقد حطمت كلّها في يوم واحد اذ دمرها دعاة ابادة التماثيل Iconclasts بعد سقوطه. وكانت وفاته في ٢٨٤ ق.م. [راجع افلاطون: فيادر].

(٦٧) في رسالته حول «بطء الانتقام الآلهي» يعزو پلوتارخ استنباط هذا النوع من المعرفة الى [ايپخارمس] من القرن الخامس قبل الميلاد وخلاصتها أن التغيّر الذي يطرء على اجزاء الجسم في الفترات المتعاقبة للنمو الجسدي ابتداء من الطفولة ثم الشباب فالرجولة والشيخوخة، من شأنه بالمقابل إحداث تبدلات كاملة في الهويّة الانسانية وتنتهي المناظرة في هذا الموضوع الى وجوب ابراء المدين من واجب الوفاء بدينه السابق.

[دايبنوفيري Deipnopherae] أو حاملات طعام العشاء، يندمجن في هذه المواكب ويساعدن في تقديم القرابين أحياءً وتقليداً لأمهات الفتيات والعذارى الأسرى. فقد كُن في هذا الموقف المؤلم يتراكضن هنا وهناك، يأتين بالخبز واللحم لاولادهن، ويروين لهم حكايات واقاصيص مسلية ليصرفن خواطرهم عن الخطر الذي ينتظرهم. ولهذا استمرت عادة رواية الخرافات والاساطير القديمة في هذا العيد. ونحن مدينون لتاريخ [ديمون] بهذه التفاصيل الدقيقة. اختيرت رقعة أرضٍ، واقيم عليها معبد لثيسيوس. وجُمع من الأُسر التي أخذ منها الشبان الرهائن ضريبة للمعبد يتفق منها على القرابين. وعُين آل [فيتالدي] مشرفين على تلك القرابين. وأضفى ثيسيوس عليهم هذا الشرف تعويضاً واعترافاً بفضلهم السابق عليه.

بعد وفاة [ايجيوس] أخذ [ثيسيوس] يُنمي في ذهنه فكرة عجيبة، وتصميماً عظيماً، ولما أختمر الأمر في ذهنه جمع كل مواطني اتيكا في مدينة واحدة، وجعلهم شعباً واحداً لمدينة واحدة. وكانوا قبلها يعيشون في فرقةٍ وتباعد، يصعب جمع كلمتهم في اي شأن من الشؤون المتعلقة بالمصلحة العامة المشتركة، بل كانت الخصومات والحروب كثيراً ما تنشأ فيما بينهم، تمكن من ازالة ذلك بوسائل الاقناع وتنقله من بلدة الى أخرى ومن عشيرة الى عشيرة. وسارع اولئك الذين ينتمون الى الطبقة الفقيرة، أو ذوو الدخول الصغيرة المحدودة الى اعتناق افكاره الرائعة تلك، في حين وعد اولئك الذين يملكون السلطان والمال، بجمهورية لا يرأسها ملك وبحكم ديمقراطي أو حكم شعبي لا يكون هو فيه ملكاً بل مجرد قائد عسكري، وحامٍ لقوانينهم، وفي الأمور الأخرى يكون الجميع على مستوى واحد دون تمييز أحد على الآخر. وبهذه الطريقة أفلح في اجتذاب قسم من هؤلاء الأخيرين الى صفّه اختياراً. اما الباقي فتظاهروا بالاقتناع لخوفهم من سلطانه الذي كان مرهوباً جداً، ولمعرفتهم بشدة عزمه وبأسه، وعندئذ بدء بحَلّ كل مجالس الحكم المحليّة، وبيوت الدولة العليا، وعزل الحكام، واقام مجلس عمومٍ واحدٍ وقاعة شورى في الموضع الذي يقوم اليوم القسم الأعلى من المدينة (الاكربوليس) وأطلق على المدينة اسم «اثينا»[٦٨] وقرر بالمناسبة عيداً عاماً يقرب منه قربان اجماعي سمّاه [پان اثينا: أو قربان كل الاتحاد الاثيني[٦٩]] (آتيكا) واستحدث ايضاً قرباناً آخر يدعى

---

(٦٨) كانت قبلاً تطلق على البلدة القديمة فحسب. وقد لاحظ المؤرخون والباحثون الثقاة انه كثيراً ما أطلقت على أثينا الصفة العامة أو اسم الجنس اي (المدينة) فحسب [مثلما كان الرومان يشيرون الى روما باسم (أربس Urbs أي المدينة) بسبب ذيوع صيتها. ان اول ملك لها وهو (مكيكروبس) بنى القلعة على مرتفع وأطلق عليها اسمه ومعناه [المدينة القلعة].

(٦٩) باناثيناء Panathaea. كان له وجود قبل تيسيوس ويقام تكريماً (لينرڤا) ولم يكن يمت لأثينا بصلة. لكن تيسيوس عظم من شأنه وجعله عيداً عاماً لكلّ سكان اتيكا ولهذا سمى (باناثينا)، وهناك العيد الكبير والعيد الصغير ويقع هذا في العشرين من شهر ثارجيليون كل سنة. والأول يعيدونه كل خمس سنوات =

[ميتوشيا Metocia] او عيد الهجرة[٧٠]، ويقع في السادس عشر من شهر [هيكاتومبيون] وتنازل عن عرشه وسلطاته الملكية كما وعد، ومضى قدماً في تقنين دستور الجمهورية الشعبية بعد استشارة الأرباب والاستعانة بهم. اذ ارسل يستخير عرافة دلفي بخصوص مستقبل حكومته الجديدة ومدينته، ونزلت عليه النبوءة كالآتي:

أي ثيسيوس سليل خط الملكي بنت پيتّوس. لقد أعطى ابي مدينتك، مقادير وأمور دول عديدة. فلاتقلق ولاتخش شيئاً ولكن استشر فقط بثقةٍ وبعزمٍ الطحلب لن يكفَّ عن العَوْم فوق الامواج التي تخف به.

ويقال أن آخر أبيات هذه النبوءة، كررته الكاهنة سيليل Silyl للأثينيين بعد زمن طويل، بالصيغة التالية:

«قد يغطس الطحلب، لكنه لن يغرق وهذا ما تقرّر له[٧١].

بعد هذا انصرف الى توسيع رقعة مدينته، ودعا كل الأجانب للقدوم اليها، والتمتع بامتيازات مواطنة متساوية مع أهاليها، وقيل ان العبارة الشائعة «تعالي الينا أيتها الشعوب كافةً» هي العبارة التي نطق بها ثيسيوس عندما أقام صرح الجمهورية على شكل ائتلاف أممي على أنه لم يدع نظام حكمه الجديد ينقلب الى فوضى بتدفق جموع الأقوام الى المدينة فينبتّ حبل النظام وينفرط عقد الأمن والاستقرار، وكان اول من قسم سكان الجمهورية الى ثلاث طبقات متمايزة: النبلاء، المزارعين، الصناع. وأسند للطبقة الأولى رعاية الشؤون الدينية وحق اختيار القضاة، والتصرف في شؤون التعليم والاشراف على تنفيذ القوانين، وتفسير كُلّ الأمور المتعلقة بالعقائد المقدسة، وعلى هذا الأساس سادت مساواة دقيقة في المدينة، فالنبلاء يتقدمون الباقي في الشرف والمكانة والمزارعون يتقدمون الجميع في الفائدة والمال. والصناع يتفوقون على الجميع بقوة العدد. يقول [ارسطو] مُظهراً ميله الى الحكم الجمهوري ان ثيسيوس كان أول ملك تنازل عن حكمه المطلق طوعاً، ويبدو ان [هوميروس] شهد له بذلك

= في الثالث والعشرين من شهر هيكاتومبيون وفيه يسير موكب حاملاً حجاب (مينرڤا) أو ما يدعى (پيپلون) وقد نقش عليه صورة انتصار الآلهة على الجبابرة. الى جانب مناظر لأعظم مآثرة ابطالهم.

(٧٠) احياءً لذكرى تركهم الدساكر واجتماعهم في مدينة واحدة. ويسميه ثوكيديدس ٢:١٥ [سيوشيا] إلاّ ان السبب واحد. وبهذه المناسبة انشأ تيسيوس أو حافظ على الالعاب الاستمية إكراماً لـ(نبتون) وقد رمي من ذلك الى اجتذاب الغرباء وتشجيعهم على سكنى اثينا منحهم حقوق المواطنة كاملةً.

(٧١) عندما استولى [سيللا] على آثينا لم يبق نوع من أنواع القسوة الاّ ارتكبه وهناك قصد بعض الآثينيين معبد (دلفي) للاستخارة في هل ان ساعة مدينتهم الأخيرة قد حانت؟ فأجابت الكاهنة على حَدّ قول [پاوسيناوس ١:٢٠] «ما يتعلق بالطحالب له نهايته». منوهة كما يبدو بالنبوءة القديمة التي صدرت هناك.

أيضاً عندما اقتصر على ذكر كلمة «شعب اثينا» في قائمة السن[٧٢] التي ذكرها، دون ان يخصّ غيرهم بهذه.

وضرب ايضاً نقوداً ونقش عليها صورة ثور، إما احياءً لذكر ثور [ماراثون] أو تذكرة بانتصاره على [طوروس] قائد مينوس أو ربّما ليذكر شعبه بوجوب الانصراف الى الزراعة. ومن هذه السكّة جاء التعبير الشائع جداً عند الأغريق حين يؤتي الى تقويم شيء من الأشياء «انه يسوى عشرة ثيران، أو يسوى مائة». وبعد ذلك ضَمّ [ميغارا] الى آتيكا واقام على الخليج[٧٣] ذلك الأسطون الشهير الذي نقش عليه كتابة تتألف من سطرين يشيران الى حدود الدولتين لأنهما تلتقيان في تلك النقطة. فعلى الجانب الشرقي تقرأ هذه العبارة:

«پيلوپونيستوس ليست هنا بل آيونيا».

وعلى الجانب الغربي تقرأ: «پيلوپونيسوس هنا، لا آيونيا!».

وأنشأ كذلك ألعاباً مضاهياً بها ألعاب هرقل بدافع من طموحٍ فيه إذ كان الأغريق برغبة من هرقل يحتفلون بالالعاب الاولمپية[٧٤] تكريماً لجوپيتر، فلم لايحتفلون بالالعاب [الإستمية][٧٥] تكريماً لبنتون، وبرغبة منه؟ لقد كانت تلك الألعاب قبل ذلك مخصصة [لميليكريتا Melicerta] يتم احياؤها ليلاً باحتفال خاص، وهي في الواقع مراسيم دينية أكثر من كونها عيداً عاماً أو احتفالاً شعبياً. وهناك من يزعم ان الأصل في الالعاب [الاستمية] انها كانت لذكرى [سكيرون] اقامها ثيسيوس على أثر موته تخليداً لاسمه لأنه أدنى اقربائه اليه. فهو ابن [كانيتوس] و[هنيوخا Heniocha] بنت پتيوس. على ان بعضهم يقول أن ابن هذين الأبوين هو [سنيس] وليس (سكيرون)، وان (ثيسيوس) اقامها للأول منهما. وابرم

---

(٧٢) الالياذة ٢:٥٤٧. في تلك العبارة وصف الأخائيون بـ«شعب ارخيثوس العظيم» وهي ما تشير الى مفهوم لايتفق واستنتاج پلوتارخ لكن ربما أعتبر العبارة قاصرة على أولئك الذين كانوا قد أمّروا عليهم «ارخيتوس» يوماً ما؟

(٧٣) هذا الأسطون اقيم بموافقة الآيونيين والپلوپونسيين. لوضع حدّ نهائي للنزاع حول الحدود وقد بقي قائماً حتى عهد قدروس ثم نقض الهيراقليدي هذا الصرح عندما ملكوا (ميغارا) التي انتقلت بموجب ذلك من يد الآيونيين الى يد الدوريين [انظر سترابو] وقام [هادريان] فيما بعد بتقليد هذه الكتابة فقد نقش على النصب الذي أقامه بين آثينا الجديدة وآثينا القديمة كتابتين، فمن جانب تقرأ عبارة: «هذه آثينا مدينة تيسيوس العتيقة: ومن الجانب الآخر تقرأ هذه العبارة «هذه مدينة هادريان وليست مدينة تيسيوس».

(٧٤) لابد وان يكون نشوء هذه الالعاب قبل التاريخ الذي اثبت لزمان هرقل بوقت طويل. فقد اثبت (سترابو) بانها لم تكن معروفة ايامّ (هوميروس) وربما وجدت قبله ولكن عفى عنها وطواها النسيان حتى احياها (ايفيتوس) وهو التاريخ الذي اثبت لتأسيسها.

(٧٥) سميت كذلك نسبة الى برزخ (اسموث) پيلوپونيسس حيث تجرى ثمة.

(سيوس) في الوقت نفسه معاهدة مع أهالي كورنث، ليسمحوا للقادمين من آثينا برؤية الالعاب الاستمية، بموضع شرفٍ يتصدر النظارة. وقدرت مساحة هذا الموضع بقدر ما يغطي من الأرض شراعُ السفينة(٧٦) التي أقلت المتفرجين مبسوطاً بكامل ابعاده. وهذا ما اثبته كل من [هيللانيكوس، وأندرو Andro هاليكارناسوس].

واما عن رحلته الى البحر الأسود Euxine، فقد كتب فيلوخورس وآخرون انه قام بها مع هرقل عارضاً عليه خدماته في الحرب ضدّ الامازونات(٧٧) وكافأه بـ[انتيوبيا Antio-pea](٧٨) على شجاعته. إلاّ ان القسم الأكبر ومنهم [فيريكيدس Pherecydes] وهيللانيكوس وهيرودوروس، يقولون انه قام بالرحلة بعد هرقل بسنين عديدة وهو يقود عمارة بحرية خاصة به، وانه أخذ الامازونة [انتيوبه] أسيرة، وهي القصة الاقرب احتمالاً. على اننا لانجد اي شخص آخر غيره ممن رافقه في هذه الحملة، يقول انه أسر أي امازونة. ويضيف [بيون Bion] قوله، ان ثيسيوس لجأ الى الخديعة لأسرها وبعدها أقلع عن الساحل في الحال. فالامازونات على حدّ قوله شبقات جداً محبات للرجال بطبعهن، فلم يصبرن على وجود ثيسيوس عند ارسائه على سواحلهن. بل بادرن الى ارسال الهدايا السنيّة، فدعا [انتيوبه] التي حملت الهدايا الى صعود السفينة، وما أن فعلت ذلك حتى أطلق سفينته للريح. ويضيف كاتب من بثينيا هو [مينيقراطس Menecrates] صاحب تاريخ نيقية، أن ثيسيوس بعد اصعاده انتيوبه وإطلاق سفينته للريح، تجول مدة من الزمن بمحاذاة السواحل، وكان يوجد في السفينة اخوة ثلاثة من شبان اثينا رافقوه في رحلته وهم [يونيوس Euneos وثاوؤس Thaos وصوليؤس Soloüs]، والاخير منهم وقع في حبّ [انتيوبه] وبغفلة عن البقية كشف عن سرّه الى صديق عزيز وطلب منه ان يتوسط بمصارحة انتيوبه بما يعتمل في نفسه من عاطفة. ففعل إلاّ انها لم تشأ مبادلته العاطفة ورفضت حبه رفضاً باتاً، وعالجت الموضوع معالجة هادئة حكيمة ولم تنه الأمر الى ثيسيوس ولم تذكر له شيئاً. لكنّ اليأس الذي ركب [صوليؤس]

---

(٧٦) كانت ترسل هذه السفينة سنوياً الى ديلوس وفاءً لنذر تيسيوس وهي مزدانة باغصان الزيتون المقدس ومملؤة بالقرابين المخصصة لا پوللو. ومنذ فترة تزيينها حتى عودتها، تدخل المدينة في فترة تطهّر ويوقف تنفيذ احكام الموت الرسميّة. ولذا نذكر القارىء هنا بفترة الايام الثلاثين التي مرت ما بين الحكم على سقراط واستشهاده. والى فترة التحريم هذه ندين بالمناظرات الرائعة التي نقلها لنا تلاميذه والوقائع التي تخللت تلك الفترة بينه وبين مستمعيه.

(٧٧) ليس هناك خرافات ورجم بالغيب بقدر ما يتعلق بموضوع [الأمازونات] ويقول [سترابو] أن أكثر مؤرخي الاسكندر المقدوني أهلاً للثقة لم يتطرقوا حتى لذكرهن. ولو كنّ حقاً جزءً من الشعب الصيثي فكيف اتفق أن حملن اسماء يونانية؟

(٧٨) يقول [يوستين] ان هرقلاً أعطى تيسيوس (هيپوليتو) وأحتفظ لنفسه بـ(انتيوبه).

جعله يلقي بنفسه في نهر قريب من الساحل. ولما علم ثيسيوس بموته وحبّه العاثر الذي اورده المنية، ادركه حزن شديد، وفي تصاعد كآبته تلك تذكر نبوءة كانت قد نزلت له في دلفي. اذ أنهت اليه كاهنة [اپوللو پيتوس] بأن عليه ان يبني مدينة وقتما ينتابه اعظم الحزن. واينما كان موجوداً، وعليه ان يترك بعض اتباعه حكاماً لها. فبنى مدينة [بثيوپولس] مشتقاً اسمها من صفة [اپوللو] واحياءً لذكرى الفتى المنكود الخائب في حبه، أطلق اسمه [صوليؤس So-lois] على النهر الذي يجرى بمحاذاتها. وعهد لأخوى الغريق بادارة المدينة وتنفيذ قوانينها وضم اليهما [هرموس Hermus] احد أفضل نبلاء اثينا. ومن اسم هذا الأخير عرف اسم حيّ من احياء المدينة [بمنزل هرموس] وبخطأ في نطق الاسم[٧٩] اظن المقصود به [بيت هرميس] اي الاله مارس وهكذا انتقل الى الربّ ذلك التكريم الذي اريد به [هرميس - عطارد].

هذا هو سبب واساس الغزو الأمازوني لآتيكا. ذلك الغزو الذي لايمكن ان يبدو قطّ عملاً انثوياً صغير الشأن. ويكاد يكون من المتعذر أنهن عسكرن في المدينة نفسها ودخلن المعركة قرب (پنيكس Pnyx)[٨٠] عند التل المسمى [ميوزيوم Museum][٨١]. إلاّ اذا كن قد استولين على كلّ البلاد المجاورة للمدينة ووجدت الجراءة والسلامة الكافيتين للزحف عليها. ويصعب الوثوق بما زعمه [هيللانيكوس] عن قيامهن بهذه الرحلة الطويلة براً، ومرورهن بالبوسفور الكيمّري[٨٢] عندما كان منجمداً. أما أنهن عسكرن في مكان آخو غير المدينة فهذا مؤكد، ويمكن اثباته بما يكفي من الاسماء التي ما زالت تطلق على المواقع في تلك الانحاء، وبقيام القبور والاضرحة والأنصاب للاتي سقط منهن في سوح القتال.

لما غدا الجيشان على قيد النظر أحدهما من الآخر، سادت فترة هدوء وشك في ايهما سيبدا الهجوم؟ وأخيراً قرب ثيسيوس قربانا لرب (الخوف)[٨٣] اطاعة لأمر نبوءة نزلت عليه، ثم بدأ القتال. وكان ذلك في شهر [بيويدرمويون Boedromion] وفيه يحتفل الآثينيون الى يومنا هذا بعيد [بيودروميا]. ويريد [قليديموس] ان يكون أكثر تفصيلاً واسهاباً فيكتب قائلاً ان

---

(٧٩) حرفياً giving it the cicumflex accent.

(٨٠) كان موضعاً قرب القلعة اعتاد أهل اثينا الاجتماع لسماع الخطباء يبحثون في الأمور العامة. وسمي كذلك للمحلات المزدحمة في ذلك الحيّ، وقال آخرون انه من اجتماع Conflex الجمعيات العامة فيه.

(٨١) يقوم الـ(ميوزيوم) فوق اكمة صغيرة مقابل الحصن وفي أعلى جزءٍ من الاكمة. وربما اسمه من وجود هيكل الميوزات هناك أو ربما من اسم الشاعر ميوزيوس الذي كان ينشد فيه اشعاره وقد دفن هناك ايضاً (انظر پاوسنياس ١:٢٥).

(٨٢) البرزخ الذي هو بين بحر پالوس موتس وبين البحر الأسود.

(٨٣) يدخل الوثينون في عداد ألهتهم فضلاً عن العواطف، الاحساسات المزعجة، والظواهر الطبيعية المخيفة ويعبدونها اتقاء شرها.

ميسرة الامازونات حركت نحو موضع ما زال يعرف باسم [أمازونيوم] وتقدمت ميمنتهن نحو [بنيكس] قرب [خريسا] والتحم الآثينيون الذين خرجوا من خلف تل [ميوزيوم] بهذا الجناح. وان قبور تانك اللاتي صُرعن، تُرى شاخصة في الشارع المؤدي الى مدخل [پيرياكا Piriaca] قرب هيكل البطل [خلقدون Chalcaedon] وان الآثينيين حاقت بهم الهزيمة في هذا الموضع، وهربوا من وجه النساء حتى معبد [فيوريس Furies][٨٤] لكن امدادات جديدة وصلت ميسرتهم من [البلاديوم ومن اللقييوم ومن ارديتوس Palladium, Ardetlus, Lycium][٨٥] فكروا علي جناحهن الأيمن ودحروهن حتى ألقوا بهنّ الى مخيماتهنّ. وسقط في هذه المعركة عدد كبيرٌ من الأمازونات وغدت الحرب سجالاً، ثم وبعد أربعة أشهر عقدت الهدنة بين الطرفين، وأبرم الصلح بوساطة من هيپوليتا (يطلق المؤرخون هذا الاسم على الامازونة التي تزوجها ثيسيوس، ولايسمونها انتيوبه)، على أن بعضهم كتبوا أن [مولپاديا Molpadia] قتلتها بطعنة رمح اثناء ما كانت تقاتل الى جانب ثيسيوس. وان النصب القائم جوار هيكل «الارض الاولمپية»[٨٦] إنّما اقيم فوق قبرها تخليداً وعلينا ان لانعجب اذا وجدنا التاريخ يخبط خبط عشواء في حوادث موغلة في القدم كهذه، فقد قيل لنا أن الأمازونات اللاتي جرحن في المعركة، أرسلتهن انتيوبه سِراً الى (خلقيس) فشفي كثير منهن بفضل سهرها وعنايتها. لكن بعضهن توفي وقبر في موضع يطلق عليه الى يومنا هذا [امازونيوم]. واما ان الحرب انتهت صلحاً فهذا واضح أكيد من اسم الموضع الملاصق لمعبد ثيسيوس فهو معروف بـ[هوركوموزيوم Horcomsium][٨٧] من العهد الموثق الذي ابرم هناك. وكذلك من الأضحية الغابرة جداً التي جرت العادة على تقديمها للامازونات في اليوم السابق لعيد ثيسيوس. كذلك يريك [الميغاريون] بقعةً في مدينتهم على الطريق الممتدة من السوق الى موضع يدعى [روس Rhus][٨٨] تضمّ رفات بعضهن، حيث يقوم «البناء المعيني Rhomboid» وشبيه بهذا ما

---

(٨٤) في الواقع لم يكن هذا المعبد موجوداً آنذاك، اذ انه بني على أثر محاكمة اورستس [پاوسنياس ٧:٢٥]. على ان الموضع الذي قصده پلوتارخ لك يكن بالامكان تحديده بغير ذلك.

(٨٥) كان البالاديوم المكان المخصص لمحاكمة المتهمين بجرائم القتل. (ارديتوس) نسبة الى البطل الاثيني الذي فض نزاعاً قائماً بين مواطنيه المختصين فيما بينهم واقنعهم بربط انفسهم بقسم جماعي متبادل على الاتحاد والتعاون.

(٨٦) بهذا يقصد (القمر) وقد سمي بهذا لأنها كما يزعم پلوتارخ نفسه في رسالته عن «انقطاع النبوءات» - تشبه الجن أو الشياطين وليست لها كمال الآلهة ولا نقصان فيها كالبشر لكن، لما كان بعض الفلاسفة الفيثاغوريين قد توصلوا فيما بعد ان نتائج فلكية كافية للاستنتاج بان الشمس هي مركز المجموعة فيعترض انه تراءى للمفكرين الاوائل بانه «جسم ارضي». ولذلك سمى القمر أحياناً بالنجم الأرضي.

(٨٧) من الأقسام التي اديت توثيقاً للعهد المقطوع.

(٨٨) «مجرى» لأن المياه المنحدرة من الجبال المشرفة على المدينة كانت قد اتخذت مجراها مرّة (پاوسنياس =

قيل ان بعضهن قتل قرب [خيروينا] ودفن على ضفة نهير كان يعرف سابقاً باسم [ثرمودون Thermodon] والآن يدعى [هيمون Haemon] ذكرنا شيئاً عنه في سيرة [ديموستينس].
ويبدو أن مرور الامازونات عبر [تسالي] لم يخلُ من مقاومة. اذ يوجد ثم عددٌ من قبورهن قرب [سكوتوزا Scotussa وكينوسفاليا Cynoscephalae].

هذا غاية القصد في الامازونات. وهناك رواية عن اوردها ناظم ملحمة [ثسياد Theseid] هي محض خيال مختلف. يقول ان انتيوبه على سبيل الانتقام من ثيسيوس لأنه هجرها وتزوج [فيدرا Phaedra] انحدرت الى المدينة بجوع من امازوناتها، فقضى عليهن هرقل!

الحق يقال ان ثيسيوس تزوج [فيدرا] إلاّ انه فعل ذلك بعد موت انتيوبه التي انجبت له ولداً دعاه [هيپوليتوس] أو [ديموفون] على حَدّ زعم [پندار][٨٩]. أمّا النكبات التي حلت [بفيدرا] وابنه فلا سبيل لنا إلاّ الافتراض بأنه وقعت كما اتفق على روايتها جميعهم. لأنه لم يقم احد من المؤرخين بالاعتراض على الشعراء التراجيديين الذين كتبوا عنها.

هناك روايات أخرى أيضاً عن زيجات ثيسيوس لاتشرفه مناسباتها ولاتُسعده في وقائعها، لم تتطرق اليها التمثيليات الاغريقية. فلقد قيل انه خطف (اناكسو) الطروزينية، وقتل كلاً من [سينيس Sinnis، وسركيون] ليغتصب ابنتيهما. وتزوج [پيربويا] أم [آجاكس Ajax]، ثم [فيروبوا Pheriboea] ثم [آيوپه Iope] بنت [ايفكليس Iphicles] فضلاً عن اتهامه بهجر (اريادنه) مخالفاً مبادئ الشرف والاخلاق كما أوردنا - عندما وقع في حبّ [ايگله] بنت [پانوپيوس Panopeus] بدون وجه حق، أو اعتبار لكرامة. وأخيراً قيامه بخطف [هيلين]، وهو العمل الذي قلب اتيكا كلها الى ساحة حرب تمور بالدماء، وكان بالأخير سبباً لنفيه وموته وهذا ما سنروى وقائعه الآن.

يرى [هيرودوروس] انه وان كان يوجد ثم الكثير من الحملات العسكرية الشهيرة التي قام بها أشجع رجال عصر ثيسيوس، فانه هو نفسه لم يقد إلاّ واحدة، وهي معركة الابيثيين مع

= ٢:٤١:١). وربما كان الرومپويد تلاً ترابياً غير منتظم.

(٨٩) يخطيء [پندار] في قوله ان [ديموفون] هو أحد ولديه اللذين انجبهما من [فيدرا]. [الثاني هو أكاماس]. عند زواج ثيسيوس من فيدرا أرسل هيپوليتوس لأمه إيثرا ملكة طروزين لتتولى لتربيته. وبعد زمن عاد لحضور الالعاب الآثينية فوقعت (فيدرا) في حبّه وراودته عن نفسها عبثاً. وفي نوبة من انفعالها ويأسها شكته لثيسيوس زاعمة انه حاول النيل من شرفها وتقول الأسطورة ان (ثيسيوس) دعا [نبتون] ليذيقيه ميتة عنيفة عقاباً له فاستجيب دعاؤه. اذ فيما كان هيپوليت يقود عربته على ساحل البحر ارسل نبتون عجلي بحر ارعبا الخيل فانقلبت العربة به وتمزق جسده، ويذكر الشعراء ان الملكة شنقت نفسها حزناً وان [ديانا] التي هزّتها عفّة هيپوليت، وآلمتها نهايته المفجعة، أقنعت (ايكولاپيوس) باعادته الى الحياة وجعلته مرافقاً لها في سائر نَزهاتها.

(السنطورس) إلاّ ان بعضهم يقول انه رافق [جاسون] الى [خُلقيس][٩٠] و[ملياغر Meleag-er] لقتل الخنزير الوحشي الكليدوني. ومن هنا جاء المثل السائر «لا شيء بدون ثيسيوس»، وثابت ايضاً انه حقق بنفسه دون معونة من أحد مآثر مجيدة لا تحصى، من هذا جاء القول المأثور «هرقل آخر، او هرقل ثانٍ» ولقد شارك ايضاً [أدراستوس Adrastus] في استعادة جثث أولئك الذين صرعوا امام قادفيا قلعة (ثيبة) لكن ليس بالشكل الذي صوره [يورپيدس] في مأساته[٩١]، اي ليس عنوة واقتداراً بل بالتفاهم والإقناع والاتفاق، وهو ما أستقر عليه معظم المؤرخين. ويضيف [فيلوخورس] ان هذا الاتفاق هو الأول من نوعه في التاريخ، (لكن يظهر في تاريخ هرقل، انه اول من سمح لاعدائه ينقل جثث قتلاهم) وان المقابر التي تضم رفات معظمهم مازالت ظاهرة في قرية [اليوثيري Wleutherae][٩٢] اما قبور القادة فتثوي في [اليوسيس] حيث خصص لهم ثيسيوس رقعة من الأرض اكراماً لخاطر [دراستوس]. ورواية [يورپيدس] التي اوردها في مسرحية «المتضرعين» يدحضها [اسخيلوس] في مأساته المسماة [الايلوسينون Eleusiniand][٩٣] حيث يقوم ثيسيوس برواية الوقائع كما اثبتناها هنا[٩٤].

والصداقة الشهيرة التي ربطت بين [ثيسيوس وپيرتاووس] قيل انها بدأت على النحو الآتي: ذاع صيت ثيسيوس، وعلم الناس بقوته وبأسه في أقصى بلاد اليونان، ورغب [پيرتاووس] ان يختبر الأمر بنفسه، فقام تحدوه هذه الغاية بضبط قطيع من الثيران يعود لثيسيوس، وبينما كان يستاقُه من ماراثون، أبلغ بأنّ ثيسيوس يقصّ أثره وهو بكامل سلاحه فلم يسرع في فراره، بل انقلب عائداً لملاقاته. ولما تفرّس احدهما في الآخر امتلأ هيبةً واحتراماً متبادلاً، ونسيا كل نية في القتال. وسبق [پيرثاووس] فمدّ يده لثيسيوس وطلب منه ان يكون حكماً في النزاع. ووعد ان يخضع لأيّ عقوبة يفرضها بملء الرغبة فلم يكتف ثيسيوس بالصفح عنه، بل عرض عليه صداقته واخوّته في السلاح. وأشهدا على صداقتهما وعززاها بالأيمان المغلظة. وبعد زمن، تزوج پيرتاووس [ديداميا Diedamia][٩٥] ودعا ثيسيوس الى

(٩٠) ربما بحثا عن جزّة الصوف الذهبية.

(٩١) وهذا أيضاً ما يزكيه ايزوقراطس في مقاله حول (هيلين) وان كان يرى في موضع آخر ان (تيسيوس) أرسل سفراء الى ايتوكليس. إلاّ ان هذا التناقض الواضح أزاله معاصره (ليسياس) بذكره ان (تيسيوس) بعد مفاوضة غير ناجحة حصل بالقوة على نتيجة أفضل. مأساة [المتضرعون: ص ٦٥٣ وما بعدها].

(٩٢) مدينة في اتيكا على حدود بويوسيا [پاوسنياس ١:٣٨].

(٩٣) الابيات ١٢١٣ وما بعدها.

(٩٤) مفقودة.

(٩٥) كل الكتاب الآخرين يسمونها (هيپوداميا) ما عدا [پربيوتيوس] الذي يسميها [ايسخوماخه] ٢:٢:٩ =

حفلة العرس، ولمشاهدة بلاده بهذه المناسبة والتعرف بقومه اللابيثيين(٩٦) كما دعا في الوقت نفسه قوم [السنطوروس]. وفي الحفلة لعبت الخمر برؤوس هؤلاء، وأظهروا شراسة وسوء أدب، وطفقوا يتحرشون بالنساء ويهينونهنّ. فأسرع اللابيثيون يثأرون منهم وبطشوا بعدد كبير منهم في اثناء الوليمة. ثم نشبت معركة فيما بينهم فهزموهم وطردوهم من أرضهم جميعاً وكان ثيسيوس يقاتل الى جانب الابيثين إلا ان لهيرودوروس قصّة أخرى عن هذه الأحداث. فهو يقول أن (ثيسيوس) لم يسرع الى معاونة اللابيثيين إلاّ بعد نشوب الحرب. وان اول مشاهدته لهرقل كان في طريق ذهابه اليهم. اذ كان قصده أن يجده في [تراخيسن](٩٧) التي أختارها هرقل موطناً بعد كل مغامراته واسفاره وان هذه المقابلة تمت بشكل مشرف لهما، وباحترام وودٍ لا مزيد عليهما. ولكن القول الاكثر احتمالاً واعتماداً هو ما زعمته طائفة أخرى من المؤرخين بان لقاءات أخرى كثيرة كانت قد جرت بينما ،انه بسعي من ثيسيوس مُنح هرقل في [ايليوسيس] حق المواطنة وقبل اجراء المراسيم اسرار كسيريس Ceres قام بالتطهر بسبب النجاسات التي حفلت بها حياته الماضية(٩٨).

يقول [هيللانيكوس]: اختطف ثيسيوس هيلين عندما كان في الخمسين من عمره. وهي وقتذاك طفلة ليست في سن زواجٍ. ويقول بعض الكتاب - يقصدون جبَّ تهمة تتضمن واحدة من اكبر الجرائم - انه لم يسرق هيلين بشخصه، وان الفاعلين هما [ايداس Idas ولينكيوس Lynceus] خطفاها وجاءا بها اليه ووضعاها أمانة عنده. ولهذا رفض اعادتها الى اخويها [كاستور Cadtor] و[پوللوكس Pollox] عندما طلباها منه. أو يقولون ان أباها [تنداريوس Tandarus] كان قد بعث بها اليه ليحافظ عليها من [انياروفوروس Enarophorus] ابن [هيبكيون Hippocöon] وكان يحاول اختطافها وحملها بالقوة وهي طفلة. لكن أقرب

= وهي بنت [داراستوس].

(٩٦) يطلق هوميروس على «اللابيثي» صفة الأبطال. واثر عن السناطير بانهم انصاف بشر وانصاف خيل ويُصورون عموماً راكبين خيلاً اما بسبب وحشيتهم أو لصفتهم الحيوانية ان لم يعز اليهم استعمال الخيل وسياستها.

(٩٧) موضع صغير يقع بالقرب من جبل اوتيا.

(٩٨) قبل التكريس للأسرار الكبرى في اليوسيس لابدّ من اجراء مراسيم التطهير في الأسرار الصغرى على المرشحّ (وتقام في آغرا بالقرب اليوسيس) وبعد ان يُعدّ المرشح نفسه بالصيام والتأمل يجب عليه ان يضطجع على جلد خنزيرة حامل سبق أن ضُحيت لـ(چوپتر). ثم عليه أن يغتسل بماء البحر الذي يمازجه الملح والغار والشعير وبعدها يمرّ عبر النار ثم يكلل بالزهر. ويقضي المقبول في الأسرار السنة التالية يدرس المراسيم للبعث الجديد وبعد هذا كله (باستثناء مراسيم وخاصة جداً قاصرة على رتبة الكهنوت) يتم تكريسه نهائياً بارتداء الثوب الذي كُرس فيه لاينزعه عنه حتى يهترىء ويغدو خرقاً فيوقفه على [سيريس] أو [پروسپرين] أو يحفظه لاولاده.

الروايات احتمالاً وأغناها بالشهود، هي الآتية: ذهب ثيسيوس وپيرتاووس الى سپارطا، وبعد ان خطفا الصغيرة اثناء ما كانت ترقص في معبد [ديانا اورثيا][(٩٩)]، هربا بها فخرج رجالٌ مسلحون لتعقيبهم، إلاّ انهم لم يمضوا في مطاردتهم أبعد من [تيجيا Tegea] ولما أمن الخاطفان المطاردة وفي اثناء مرورهما ببلاد الپيلوپونيسوس وصلا الى اتفاق فيما بينهما، وهو ان يقترعا على هيلين، فمن خرجت له اتخذها زوجاً، والظافر بها يجب ان يساعد الخاسر في الحصول على أخرى. وسحبت القرعة وفاز ثيسيوس فأخذ هيلين الى مدينة [افيدني Aphid-nae][(١٠٠)] ولم تكن تصلح للزواج - واودعها لدى واحد من حلفائه المدعو [افيدنوس]، ثم بعث بأمه [ايثرا] لتعني بها هناك وطلب من حليفه هذا ان يكتم سرهما لئلا يعرف احد موضعهما. بعد أن فرغ من هذا عاد الى صديقه للوفاء بالوعد ورافقه الى [اپيروس Epirus] ليخطفا بنت ملك المولوسيين Molossians] المدعو [ايدونيوس Aidonius] أو [پلوتو] وكان هذا الملك قد جمع زوجه [پروسپرينا Prosprina][(١٠١)] وابنته [كوراي Corae] وكلباً هائلاً عنده يدعى [سيربيروس] وطلبت من كل خاطب لابنته ان ينازل هذا الكلب فاذا تغلب عليه فاز بها ولكن لما ابلغ ان قصد پيرتاووس ورفيقه، هو اختطافها[(١٠٢)] لا خطبتها أمر بالقاء القبض عليهما وطرح پيرتاووس الى كلبه فمزقه تمزيقاً وألقى ثيسيوس في السجن وأبقاه.

في هذا الزمن نبغ [مينيستيوس Menestheus] ابن پيتيوس وحفيد [اوريندس]، وابن حفيد [ارختيوس] وهو اول خطيب جماهيري في التاريخ، ممن اشتهر بالمقدرة على خطب ودّ الجماهير واثارتهم وتزعم جموعهم. هذا الرجل اثار حفائظ وموجدات كبار القوم في المدينة، ومنهم عدد كبير ممن كان يضمر لثيسيوس حقداً دفيناً لأنه جردهم من اقطاعياتهم وسلطانهم وحشرهم جميعاً في مدينة واحدة، واستخدمهم كالرعية أو العبيد، ومن ناحية ثانية دفع هذا المشاغب أحطّ الناس واوزاعهم الى الهياج والفتنة، قائلاً لهم انهم خدعوا بمجرد حُلم بالحرية،

---

(٩٩) اعتاد السبارطيون جلد اولادهم فوق مذبح معبد ديانا أورثيا هذا - جلداً مبرحاً باشدّ واقسى ما يتصوره العقل لتعويدهم على الاحتمال. كانت هيلين التي عرفت بانها بنت (چوپتر) من (ليدا) زوج [نتداروس] في العاشرة من العمر عندما اختطفها تيسيوس وپيريثاووس.

(١٠٠) مدينة تقع بالقرب من أثينا.

(١٠١) پروسپونيا أو (كوراي) اسمان لشخص واحد هو ابنة [ايديونيوس] بعل [سيرس] وپلوتارخ يحدثنا في كتاب (الاخلاق) قائلاً ان المقصود بـ(پروسپرين) هو القمر الذي يقوم (پلوتو) اله الظلام بخطفه أحياناً. والواقع ان كوراي لاتعني الاّ «فتاة أو بنت» فيقال «بنت ايپروس» كما يقال بنت لبنان أو بنت الصين الخ...

(١٠٢) رغب افلاطون (الجمهورية ٣٠) أن يستر خلّة ابناء الآلهة هؤلاء ويبرئهم من تلك التهم التي تفتقر الى اثبات فنفى الحكاية من اساسها.

في حين انهم في الحقيقة جردوا من تلك الحرية ومن بيوتهم الحسنة، وعقائدهم الدينية، وبدلاً من ملوكهم الطيبين الصالحين، استسلموا وخضعوا لاستبداد شخصٍ اجنبي طفيلي. وفيما هو ماض في إفساد عقول المواطنين زودته الحرب التي شنها [كاستور وپوللوكس] بفرصةٍ ثمينة ليزيد من حجته قوة وأثراً. وزعم بعضهم ان تحريضه واثارته كان السبب الأساس لهجومهما على أثينا. على أنهما لم يقترفا شيئاً في اول زحفهما ولم يبدُ منهما اعتداء، وانما طلبا [هيلين] أختهما بصورة ودية مسالمة فنفى الآثينيون وجودها في المدينة واكدوا جهلهم بموضع اخفائها، فتأهبا للهجوم. وهنا خف [اكاديموس] لنجدتها اذ عرف بوسيلة ما مخبأ المخطوفة، فدلهما عليها ولهذا السبب اغدق عليه [كاستور وپوللوكس] النعم والعطايا ما أغناه طول حياته وكان اللقيديمونيون اثناء اجتياحهم المتكرر لآتيكا والبلاد المجاورة وايقاعهم الخراب بها، لايمسونّ [الاكاديمي][١٠٣] بأذى لأجل ذكرى [اكاديموس] إلاّ ان [ديكيارخوس Di-caearchus] يقول بوجود شخصين أركاديين في جيش [كاستور وپوللوكس] أحدهما يدعى [اخيديموس Echedemus] والثاني يُدعى [ماراتوس Marathus] ومن اسم الأول أشتق ما يعرف الآن بالأكاديميا، التي سميت فيما بعد (اخيديميا) ومن اسم الثاني استمدت (ماراثون) القرية اسمها. فقد عرض هذا الرجل نفسه ضحيةً للآلهة قبل المعركة، تحقيقاً لنبوءة ما.

وبلغ [كاستور وپوللوكس] مدينة [آفيدنيا] وتغلبا عليها في معركة فاصلة واستوليا على المدينة. وفيها قتل (اليگوس) ابن [سيرون] وهو من جماعة الديوسكوري (اي كاستور وپوللوكس)، على ما قيل. ويوجد في (ميغارا) موضع دُفن فيه ما يزال يدعى [اليكوس] ويكتب [هيرياس] ان ثيسيوس هو الذي قتله، ويستشهد على ذلك بالبيتين الآتيين عن اليكوس:

«وقتل اليكوس في سهل افدنيا.

قتله ثيسيوس، في سبيل هيلين الشقراء»

على انه لايوجد ما يؤيد وجود ثيسيوس هناك عندما استولي على المدينة واسرت أمه.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد بسط كاستور وپوللوكس سلطانهما على [افيدنيا]. واستبد القلق بمدينة آثينا. وافلح [مينيسيتوس] في اقناع الأهالي بفتح ابوابها واستقبالهما بكلّ مظاهر الصداقة قائلاً: إن عدوهما الوحيد هو ثيسيوس الذي كان الباديء بالشرّ. وانهما سينقذان الأهالي. وكان سلوك الفاتحين مصداقاً لهذا فبعد أن استتب لهما الأمر في المدينة لم يطلبا

(١٠٣) موضع تحفّ به الأشجار بالقرب من نهر كِفسوس يبعد بحوالي ميل واحدٍ شمال غرب اثينا، وهنا كان افلاطون وتلاميذه يجلسون للدرس (انظر سيرة كيمون).

أكثر من منحهما حتى القبول في الاسرار، لان صلة قرابتهما بها لا تقل عن صلة هرقل[١٠٤]. وكان قد نال التكريم نفسه من قبل. فحقق لهما مطلبهما وتبناهما [أفيدنوس Aphidnus] مثلما تبنّى [پيليوس Pylius][١٠٥] هرقل. واحتفى بهما كما يحتفي بالالهة. وسيما بالاسم الجديد [اناكسيس] وهو اما مأخوذ من الهدنة Anoche التي تلاها أو من تدابير الرعاية التي اتخذاها كيلاً يلحق بأحدٍ مكروه، بوجود جيش كبير داخل المدينة. ذلك لأن جملة «أناكوس وايخين êkhein, Anakös» تطلق على أولئك الشديدي الاهتمام بكل شيء، ولهذا تجد ملوكاً يلقبون «أناكتس». ويقول بعضهم أن تسميته هذه من اناكيس Anakes مظهر في الفلك. ففي اللهجة الاتيكية يقترب هذا الاسم اقتراباً شديداً من الكلمات التي تعني «فوق» او عالٍ فالاثينيون يستعملون كلمتي انيكاس Anekas وانيكاثن Anekathen بدلاً من آنو Anö وانوثين Anothen.

وقيل ان [ايثرا] والدة ثيسيوس أسرت هناك. وحملت الى لقيديميون، ومن هناك ذهبت الى طروادة مع هيلين. ويستندون في زعمهم هذا الى بيت للشاعر هوميروس حين يذكر من رافقها: «اثيرا وكليمينه الحوراء الجميلة الليّن وكِدتا لپيثيوس»[١٠٦]. لإثبات انها كانت ترعى شؤون [هيلين]. ويسقط آخرون هذا البيت ولايعدونه من شعر هوميروس[١٠٧]، كما ينبذون كأسطورة [مونيخوس] الذي كان كما تقول الحكاية - إبنا [الديموفون Demophon ولاوديكه Laodice] انجباه سِراً، وقامت [ايثرا] على تربيته في طروادة لكن [ايستر Ister] يتحفنا برواية أخرى عن [ايثرا] في الكتاب الثالث عشر من تاريخه عن آتيكا، وهي تختلف عن الباقيات. يقول ان [آخيل، وپاتروكليس] تغلبّا على [الكساندر: پاريس Paris] في تسّالي قرب نهر [سپيرخيوس Sperchius] لكن [هتكور] استولى على مدينة طروزين ونهبها وأسر (ايثرا) هناك... والظاهر أن هذه القصّة لا أساس لها من الصحة.

في اثناء مرور هرقل [بالمولوسيين]، حَلّ ضيفاً على [ايدونيوس] الملك فنوّه هذا عرضاً برحلة ثيسيوس [وپيرثاؤوس] الى بلاده، وقصّ عليه ما كان يريدانه وما حَلّ بهما نتيجة

(١٠٤) ذلك لأنهما ابنان لجوپتر ايضاً وهو الآله الذي يدعى الآثينيون بأنهم جاؤوا من صلبه. لذلك كان من الضروري أن يمنحا حقوق المواطنة قبل قبولهما في الأسرار. وعلى هذا الأساس تمّ منحهما الجنسية عن طريق التبنّي.

(١٠٥) ملك ثسپي Thespiae في بويوسيا.

(١٠٦) الالياذة ٣:١٤٤.

(١٠٧) يبدو ذلك بعيد الاحتمال. فمن غير المنطق أن تكون حماة هيلين وصيفتها أو أن تكون وصيفة هيلين ملكة! ومع هذا فإن حكاية أسر (اثيرا) تطابق كثيراً الصورة التي كانت تشاهد في دلفي. اذ بدت (اثيرا) ورأسها يحلق كالعبيد وحفيدها يشاهد وهو يتوسط في الافراج عنها (پاوسنياس ١٠:٢٥).

ذلك. فاغتمّ هرقل غمّاً عظيماً للموت المخزي الذي لاقاه أولهما والوضع المزري الذي آل اليه ثانيهما ولما كان من العبث أن يبحث في موضوع الأول لموته، فقد توسط في أمر الثاني فنال بغيته ولبى الملك طلبه. واسرع ثيسيوس الى اثينا بعد اطلاق سراحه، وكان في انصاره ومؤيديه بقية.

وهناك اوقف على هرقل كل الاماكن المقدسة التي كرستها له. وغير اسماءها من [يقسيا] الى [هرقليا][١٠٨] اعترافاً بفضله، إلاّ أنه استثنى اربعة فقط كما حدثنا [فيلوخورس]. وبدافع من رغبته في البقاء محتلاً المكان الأول في الجمهورية، وتصريف شؤون حكمها كالسابق، ما لبث ان وجد نفسه مشتبكاً مع الاحزاب في صراع، والمتاعب تحفّ به من كل جانب فأولئك الذين طالما ابغضوه، أضافوا الى بغضائهم احتقاراً، وبلغ فساد خواطر الشعب مبلغاً من التفسخ بحيث ما عادوا يطيعون الاوامر بصمت، وانما صاروا يُدفعون الى اداء واجباتهم بالملق والمداهنة. ومال به الفكر الى استعمال القوة لإخضاعهم، ولكن الاحزاب ومثيري الشغب من الديماغوغيين كانوا أقوى نفوذاً. وأخيراً ادركه اليأس من التوصل الى اي نجاحٍ مجدٍ في اثينا، فبعث باولاده سراً الى [يوبوا] ووضعهم في رعاية (اليفينور Elephen-or) ابن خلقدون، ثم لعن شعب آثينا في قرية [گارگيتسّ] حيث مازال يوجد فيها موضع يدعى [اراطيريون Araterion] أو موضع اللعان أو الدعاء، أبحر الى [سكيروس Scy-ros][١٠٩] وفيها أراض خلفها له أبوه، وصداقات توهم وجودها بين الأهالي، وكان [ليقوميدس Lycomedes) ملكاً على الجزيرة يومذاك، فقصده ثيسيوس وانهى اليه رغبته في تمكينه من اراضيه لأنه قرر السكن والاستقرار في الجزيرة. وهنا يختلف الكتاب فبعضهم يقول انه اتصل به طالباً منه العون على الاثينيين، وان [ليقوميدس] أما حسداً لمجدِ رجل عظيم، او أرضاءً [لمينيسيتوس][١١٠]، قاده الى أعلى جرفٍ في الجزيرة، بدعوى مشاهدته الأراضي من موقفه ذاك. وقذف به من حالق، فقتل، ويقول آخرون: لا بل سقط قضاءً وقدراً حينما زلت قدمه أثناء سيره هناك كعادته يومياً بعد العشاء. ولم يلحظ أحد موته، يومذاك ولم يهتم به أحدٌ، وتمكن [فيستيوس] من بسط سلطانه على مملكة اثينا بهدوءٍ، ونشأ اولاد

---

(١٠٨) أظهر يوربيدس تيسيوس في مسرحية [هرقل في تجواله] وهو يعد منقذه بالقيام بهذا العمل على السبيل الوفاء.

(١٠٩) تقع هذه الجزيرة مقابل يوبويا. اصبح الآثينيون الناكرو الجميل يشعرون بمرور الزمان بآثار هذه اللعنة. حتى انهم قرروا تهدئة لطيفة لزائر ان يقدموا له قرابين عامة وان يحيوا ذكراه بتكريم كتكريم الآلهة.

(١١٠) أو كما قال بعضهم: بعد ان تبين له ان يريد افساد رعيته عليه واغواء زوجه.

ثيسيوس نشأة خصاصةٍ وفقر، وصحبوا [اليفينور] في حروب طروادة لكنهم عادوا الى آثينا بعد موت [مينستيوس] في تلك الحملة، واستعادوا الملك. وفي العصور التالية نجحت عدة ظروف حملت الآثينيين على تكريم ثيسيوس وانزاله منزلة نصف إله. ومن تلك الظروف ما حصل في المعركة التي خاضها الآثينيون في [ماراثون] ضد الميديين. فلقد اعتقد كثيرٌ من الجنود انهم شاهدوا شبح [ثيسيوس] وهو بدروعه وسلاحه يتقدمهم في الهجوم على البرابرة[١١١].

وبعد الحرب الميدية عندما كان [فيدو Phaedo] آرخوناً لأثينا[١١٢]، استخار الآثينيين عرافة دلفي، فأمروا بجمع عظام ثيسيوس ودفنها في موضع لائق بمقامه، وأعتبارها من ذخائر المدينة المقدسة. إلاّ ان جمع بقاياه، كان في غاية الصعوبة، واصعب منها التوصل الى موضعها فقد ضاع الموقع عن الأذهان بعد سكنى البرابرة المتوحشين الغلاظ في الجزيرة[١١٣]. ومرت الأيام ثم أستولى [كيمون Cimon] على الجزيرة (كما اوردنا ذلك في سيرته) وكان شديد الرغبة والحماسة في العثور على الموقع الذي يضمّ جسد ثيسيوس وتشاء الصدفة، أن يلمح نسراً جاثماً على نشز من الأرض ينقر التراب بمنقاره وينبشه بمخالبه. وفجأة قدحت فكرة في رأسه بما يشبه الوحي الربّاني. بأن يحفر هناك ويبحث عن عظام ثيسيوس، ففعل ووجد في ذلك الموقع تابوت رجل جسمه اكبر من المعتاد، ووجد سنان رمح نحاسي، وسيفاً مسجى معه، فرفع الجميع وحمله الى سفينة وقدم الى آثينا، فاستبد الفرح بالآثينيين وخرجوا للقاء الذخائر الكريمة واستقبالها بما يليق من المواكب الفخمة والقرابين، حتى لكأنّ ثيسيوس يعود الى

---

(١١١) پاوسنياس (١:١٥:٤).

(١١٢) هو الملك السابع عشر لآثينا معاصر الملك الاسرائيلي شاؤول. ضحى نفسه في سبيل بلاده اثناء القتال مع الدوريين والهيراقليديين العام ١٠٧٠ ق.م اذ علم ان النبوءة وعدت بالنصر لأيّ طرف يسقط قائده قتيلاً وبسبب ذلك عظمه مواطنوه تعظيماً يفوق الوصف حتى اعتبروا ان ليس بعده من يستحق ان ينصب ملكاً فألغوا المنصب ووضعوا السلطة بيد مجلس من الحكام باسم الأراخنة (ج: ارخون) يتمّ اختيار اعضائه بالاقتراع كما أختار لرئاسة المجلس (ميدون) أكبر ابناء الملك الصريع. وكان الارخون يحكم طول الحياة في مبدء الأمر وقد تعاقب ثلاثة عشر منهم في ظرف ٣١٦ سنة، وبعد موت (الكيمون) اخرهم جعلت الفترة محدودة بعشر سنين وبقيت منحصرة في اسرة الملك قدروس حتى موت (ارخياس أو ثيسياس) على قول بعضهم وهو السابع في الطبقة الثانية من الحكّام الأعلين. وبه ختم حكم اسرة (قدروس) وعندها استّن الآثينيون مبدأ حكم الأرخون السنوي وصاروا يختارون تسعة بدلاً من واحدٍ سنوياً (سنعود الى شرح ذلك بتفصيل اكثر في حياة صولون). حكم فيدون ما بين ٤٧٦ و٤٧٥ ق.م.

(١١٣) لا يمكن القبول بهذه الروايات عن (سكيروس) ولا سيما من أولئك الذين يتذكرون بأن (أخيل) كان قد ارسل قبل عصر (كيمون) بسبعة قرون الى بلاط (ليقوميدس) وان سكيروس لقربها من يوبويا يجب ان تكون ذات علاقات مع بلاد الأغريق.

المدينة بلحمه ودمه، حياً. انه اليوم يرقد في وسط المدينة قرب (الجمنازيوم) الحالي[١١٤]. وقبره ملجأ وملاذ للعبيد والفقراء والملهوفين الهاربين من اضطهاد ذوي السلطان. جعل كذلك اعترافاً بسجايا ثيسيوس وغيرته في معاونة المظلومين، ووقايتهم من السوء، وعدم تقاعسه مرة واحدة عن اجارة مستجير او اغاثة مضطهدٍ يلوذ بحماه. ان أعظم واجل قربانٍ يقدمه له الآثينيون، هو في الثامن من شهر [پيانپسيون Pyanepsion] وهو اليوم الموافق لعودته من كريت مع الشبان الآثينيين. وهم ايضاً يضحون له في اليوم الثامن من كل شهرٍ على مدار السنة، إما لانه كان قد عاد من [طروزين] في الثامن من شهر [هيكاتومبيون] كما ذكر [ديودوروس Diodorus] الجغرافي، وإما لانهم يعتبرون عدد (٨) هو العدد الملائم له، اذ قيل انه ولد (لبنتون) وانهم ليقربون الى نبتون في اليوم الثامن من كل شهر. ورقم ثمانية الذي هو أول مربع لعدد زوجي، ومضاعف اول مربع[١١٥] يبدو وكأنه شعار قوة جبارة ثابتة لهذا الرب الذي لقب منذ ذلك الحين [اسفاليوس Asphalius وگيوخوس Gaeiochus] اي مؤسس الأرض ومثبتها.

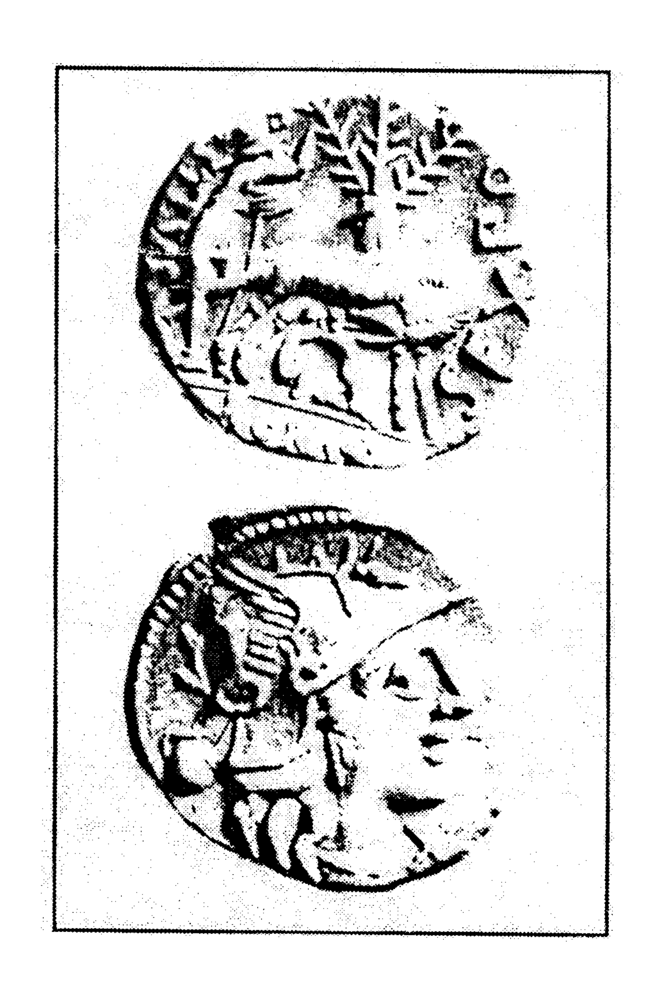
(١١٤) يقصد جمنازيوم بطليموس [پاوسنياس ١:١٧:٢].

(١١٥) لمبدء الاعداد المستمد من المصريين القدماء عن طريق فيثاغوراس منزلةٌ عالية جداً عند پلوتارخ.

رومولوس

ROMULUS

رومـوس



رومـلوس

عمن اخذت (روما)[١] اسمها وفي اي ظروف عُرف هذا الاسم المؤثل الشهير على افواه البشر؟ ان الكتاب يختلفون في هذا فبعضهم يرى ان [البلاسجي Pelasgi][٢] في اثناء تجوالهم خلال كل العالم المعمور واخضاعهم شعوباً لا تحصى، آثروا الاستقرار هنا، وسميت مدينتهم (روما)[٣] لبأسهم العظيم وقوتهم الحربية. ويزعم آخرون أن زمرة من أهالي (طروادة) تمكنوا من النجاة بعد الاستيلاء على مدينتهم ويسرت الاقدار لهم سفناً ابحروا بها، فدفعت بهم الريح حتى سواحل (توسكانيا] وأرسوا على مقربة من مصبّ نهر التيبر Tiber. وهناك عقدت نساؤهم المنهوكات المريضات بنوء البحر - عزمهنّ على احراق السفن[٤] بناءً على اقتراح تقدمت به واحدة منهن اسمها (روما) وهي ذات نسب رفيع وفكر راجح. ففعلن ذلك وثار غضب الرجال اول الأمر، لكنهم اضطروا الى البقاء قرب [پالاتيوم Palatium] وانصلحت امورهم بعد زمن قصير بشكل فاق آمالهم. اذ وجدا الأرض خصبة جداً والمواطنين

---

(١) من أجل استنادنا الى أقرب تاريخ لظهور صاحب السيرة، علينا أن نفترض العام ٧٥٣ ق.م تاريخاً لتأسيس روما وان نفترض العام ٧١٦ ق.م تاريخاً لوفاة رومولوس. وهما حدثان لا يبعدان زمنياً بكثير عن عام الميلاد فأنهما والحالة هذه يحيط بهما الغموض والجهالة، ويراهما بعض من قبيل الرجم بالغيب أو التقدير الفلكي. ويحدد آخرون غموض تاريخ روما بفترة حكم ملوكها السبعة الذين حكموا طوال ٢٢٤ عاماً. وتسلّم طبقة ثالثة من المحققين بالقليل المؤكد مما ورد عن اية وقعة خلال القرون الخمسة التي تلت تأسيس روما. وكتاب الاغريق وهم على الأغلب شعراء ومدّونو اساطير لم يهتموا بما كان يحصل في ايطاليا. كما ان [نوما] لم يترك لنا شيئاً غير ما يتعلق بالدين أو الفلسفة. ولم يبرز مؤرخو الرومان الى عالم الوجود الاّ بعد الحرب الفيونّية.

هذا هو الغموض الذي يحفّ بأصول روما في عهد الاباطرة وشأنها في ذلك شأن معظم المدن والشعوب القديمة الاّ ان الغموض هنا أكثر وأظهر لأنّ أول من سكنها لاجئون وخارجون على القانون ينتمون الى شعوب أخرى ولا ينتظر منهم ان يتركوا لنا تاريخاً، الاّ ان [ليڤي] وغيره من مؤرخي اللاتين يتفقون بان رومولوس هو باني روما وان المدينة وأهلها اتخذا لهما اسمه. في حين نرى كبرياء كتاب الاغريق وخيلاءهم تدفعانهم الى ان ينبسوا لأنفسهم كل شيء بما في ذلك روما نفسها.

(٢) هؤلاء - واصلهم من اركاديا - هم اول سكان بلاد الأغريق. ومن هناك طردوا فسكنوا (بساليا) وازيحوا الى (ابيروس) ثم الى مقدونيا وايطاليا وكريت وآسيا.

(٣) الكلمة تدل على القوّة.

(٤) انظر الاينياد [٥:٦٠٤:٦٩٩].

بالغي الطيبة، فزادوا في اكرام السيدة (روما) باطلاق اسمها على المدينة التي كانت هي سبباً في وجودها. ومن هنا جاءت -على ما قيل- العادة الشائعة في روما، وهي ان تحيّ النساء الرومانيات ذوي قرباهن وازواجهن بالعناق والقبل، لأنّ النسوة بعد احراقهن السفن استخدمن هذا الاسلوب من التدليل والتحبب لتهدئة خواطر ازواجهنّ.

ويقول بعض الكتاب ان [روما] التي أخذت المدينة اسمها منها هي بنت [ايطالوس Ital-us] و[ليوكاريا Leucaria] أو كما يزعم آخرون انها ابنة [تيلافوس Telaphus] ابن هرقل، وقد تزوجت [اينياس Aeneas] أو [اسكانيوس Ascanius] ابن اينياس على حد زعم آخرين. ويحدثنا بعضهم ان [رومانوس Romanus] ابن [أوليسوس Ulysses] و[چيرچه Circe]، هو الذي بناها. ويقول آخرون ان بانيها هو [روموس Romus] ابن [اماتيون Emathion] الذي ارسله [ديوميد] من طروادة. ويقول آخرون بل هو [روموس] ملك اللاتين، بناها بعد ان طرد [الترينيين Tyrihenians][(٥)] الذين قدموا الى ليديا من تسالي ثم انحدروا الى ايطاليا.

امّا الكتاب الذين يجعلون اسم [رومولوس] مصدر اسم المدينة، فهم يختلفون فيما بينهم حول ظروف ولادته. فبعضهم يقول انه ابن اينياس و[دكزيتيا Dexithea] بنت [فورباس Phorbas] وانه وأخوه ريموس حُملا الى ايطاليا في حداثتهما. وكانا على صفحة النهر عندما فاضت مياهه وطغت فأغرقت كل المراكب الطافية الاّ السفينة التي تقلّهما، فقد رست بهما برفق على الضفة وكتبت لهما نجاة غير متوقعة. ومن اسميهما جاء اسم الموضع (رومه) ويقول بعضهم ان [روما] هي بنت السيدة الطروادية صاحبة الاقتراح بحرق السفن، تزوجت [لاتينوس] ابن [تيلماخوس Telemachus] وانجبت [رومولوس] ويقول آخرون ان [اميليا Aemilia] بنت (اينياس) و[لاڤينيا Lavinia] زوجه، ولدته للرب [مارس]. ويتحفك آخرون بأساطير مماثلة عن اصل الرجل، فعند [طارخيتيوس Tarchetius] ان ملك [ألبا Alba] الذي كان شر الناس وأقساهم ظهر في بيته شبح غريب خرج من موقد النار على هيئة رجل، وبقي هناك عدة ايام وكان ثم عرافة لـ[تيثيس Tethys] في توسكانا[(٦)]، استخارها طارخيتيوس في شأنه فكانت النبوءة هي ان تهب عذراء من العذارى نفسها للشبح، وستنجب منه ولداً يكون شأنه عظيماً وبأسه شديداً، ويسمو به جدّه ويرتفع سعوده. فأسر طارخيتيوس

---

(٥) هو اسم آخر لشعب التوسكان. وهؤلاء هم غير الپلاسجي الذين ورد ذكرهم ولم يكونوا مستوطنين أقبلوا من [ليديا] كما يزعم [ديون] بسبب أختلاف لغتهم وعاداتهم ودينهم وقوانينهم.

(٦) ليس ثم نبوءة بخصوص [تيفس] على ان هناك نبوءة حول [ثميس]. وكان مع كارمنتا المنوه بها فيما بعد.

بالنبوءة لأحدى بناته واشار اليها أن تسلم نفسها للشبح فاستنكرت الأمر وابت وارسلت خادمتها بدلاً عنها، ولما سمع طارخيتيوس بما فعلت استنشاط غضباً وامر فألقي بالبنت والخادم في السجن وكان ينوي قتلهما، إلاّ ان الربة (نستا) منعته، اذ ظهرت له في الحلم، ففرض عليهما عقوبة: أنْ يحيكا نسيجاً وهما مكبلتان بالاغلال، فاذا اكملتاه أجبرتا على الزواج بمن يختاره لهما، ولكنه كان يأمر اتباعه ان ينقضوا في الليل ما نسجتاه في النهار.

وفي غضون ذلك وضعت الحامل وليدين، فسلمهما طارخيتيوس لشخص يدعى [تيراتيوس Teratius] وأمره باهلاكهما، فحملهما ووضعهما قريباً من ضفة النهر. وأقبلت ذئبة وراحت ترضعهما، في حين قدمت طيور مختلفة جاملة بمناقرها قطعاً صغيرة من الطعام لتضعها في فيهما. الى أن لمحهما راعي بقر، فانتابته الدهشة، لكنه تجرّأ على الاقتراب منهما ورفعهما الى حضنه، وهكذا كتبت لها النجاة، ولما بلغا اشدهما هاجماً طارخيتيوس وتغلباً عليه هذه الاسطورة يوردها [پروميثيون Promethion] في تاريخ ايطاليا.

إلاّ أن القصة الأقرب الى التصديق، وهي التي يقرّ بصحتها أكبر عددٍ من الثقات، كان ديوكليس [الپيپاريتوس Peparuthus] أول من اذاعها بين الأغريق بوقائعها الرئيسة، وجاراه في معظم تفاصيلها [فابيوس پكتور Fabius Pictor][7] ايضاً، لكن الروايتين لاتخلوان من اختلاف. إما الشكل العام لهما فهو كما يأتي:

«كان ملوك [إلبا][8] يتوارثون الحكم على طريقة التسلسل العمودي، اعتباراً من جدهم الاعلى [اينياس] الى أن رست الخلافة أخيراً على الأخوين [نوميتور Numitor] و[اميوليوس Amulius][9]، فاقترح ثانيهما تقسيم الميراث الى قسمين متعادلين[10]، وجعلت المملكة معادلة للذهب والكنوز التي جيء بها من طروادة. وأختار [نوميتور] المملكة.

---

(٧) پيپاريثوس هي مجموعة من الجزء في بحر ايجه. أشتهرت بخمرها. ولا يعرف عن [ديوكلس] شيء اما [فابيوس بكتور] الذي ينعته [ليڤي] «بأقدم الكتاب الرومان» فهو أحد أعضاء الوفد الذي ارسل الى دلفي بعد معركة (كاناي) السيئة الصيت. للسؤال عن الوسائل التي يمكن بها استجلاب رضا الآلهة. وقد اتهمه [پوليبيوس] في حولياته بأنه اساء معاملة القرطاجين.

(٨) بين اينياس حتى نوميتور داميليوس ثلاثة عشر ملكاً من السلالة ذاتها إلاّ اننا نكاد لا نعرف شيئاً عنهم أكثر من اسمائهم وسنيّ حكمهم. وأخرهم (اميليوس) الذي فاق اخاه شجاعة وعقلاً طرده من العرش. وقتل ايجستوس ابن نوميتور الوحيد وكرس ابنته (ريا سلڤيا) لعبادة ڤستا ليؤمن بقاءه في السلطة.

(٩) ليڤي ١:٣.

(١٠) لم يذكر [ديون] ١:٧ عن هذه القسمة شيئاً. ولكنه يذكر فحسب انه اميليوس انتزع العرش بالقوة وطرد اخاه ظلماً وعدواناً وهو أحق بالعرش. وايد هذا فقرة اوردها ليڤي (١:٦) اذ قال «لما كان ريموس ورومولوس توأمين فليس ثم وسيلة لترجيح احقية احدهما في الحكم على الآخر بمقتضى قانون الأقدميّة.

وبحيازة اموليوس المال والذهب غداً قادراً على أن يفعل كل ما يقصر عنه [نوميتور] وآل به الامر الى انتزاع مملكة اخيه بسهولةٍ. ولخوفه ان تنجب ابنته اولاداً جعلها (ڤستاله)(*) وبهذا رسم لها ان تعيش عذراء الى الأبد ولا تتزوج. وبعض الكتاب يسمى هذه المرأة [السيدة ايليا Ilia] وبعضهم يسميها [ريا Rhea] وآخرون [سلڤيا Silvia] وعلى كلّ حال، فانه لم يمرّ طويل زمنٍ حتى أكتشف انها حامل خلافاً لقوانين القستال الصارمة(11). ووجب ان يحل بها افظع عقاب. إلاّ ان [آنثو Antho] بنت الملك تدخلت وتوسطت لها عند ابيها. فأودعت سجناً منفرداً ومنعت من اي رفقةٍ لئلا تضع وليدها دون علم من الملك. وفي الوقت المحدد لها وضعت وليدين يزيد حجمهما عن حجم الوليد الاعتيادي ويفوقانه جمالاً فزاد هذا في غضب الملك [أموليوس] وأمر خادماً ان يحملهما ويُغرقهما، هذا الرجل يسميه بعض الكتاب [فاوستولوس] وبعضهم يقول لا بل أن [فاوستولوس] هو الرجل الذي قام على تربيتهما. ووضع الخادم الولدين في صندوق صغير وقصد النهر عازماً على القائهما في مائه. لكنه خشي التقدم منه والقى بهما على الضفة وقفل راجعاً. وكان ماء النهر الفائض يتعالى، حتى بلغ الصندوق. وحملته الامواج وعوّمته برفق ولين، حتى انزلته في ارض سهلة متطامنة يطلقون عليها اليوم اسم [چرمانوس Cermanus]، وكان اسمها قبلاً «جرمانوس» ولعلها من كلمة [جرماني Germani] اي الأخوة.

والى جوار هذه الأرض كان يوجد شجرة تين بريّ اطلقوا عليها اسم [رومیناليس Ruminal-is] إمّا من [رومولوس] (وهو تعليل ضعيف) وإمّا من [رومیناتینغ Ruminating لأن

(*) عندما اوجد رومولوس شعلة النار الخالدة اوقفت على العناية بها عذارى يسهرن على ابقائها مشتعلة في كل مجتمع روماني وتحول هؤلاء النسوة الى كاهنات لهن حقوق خاصة وعليهن واجبات صارمة وأطلق عليهن اسم عذارى [قستا] نسبة الى ربّة النار. وكن في العادة يخترن من بنات اعرق اسر روما وان تتراوح سن الواحدة بين السابعة والثامنة وان تضطلع بتأدية رسالتها ثلاثين عاماً تلتزم خلالها بالصفّة، وبحكم سهرهن على النار التي تعتبر اهم رمز للبلاد كن يحيطين من الشعب وحكامه بمركز يقرب من التقديس ويخلع عليهن اعظم الامتيازات وتحجز لهن في الملاعب العامة مقاعد الشرف ويتقدم مواكبهن ضباط الحرس. واذا صادفن مجرماً يساق للموت فبامكانهن اطلاق سراحه حالاً. وبمقابل ذلك يخضعن الى قوانين صارمة فاذا اهملن النار وانطفأت جلدن بلا رحمة واذا فرطن في عفافهن يرجمن بالحجارة في عهد [نوما]، ثم وجد هذا العقاب غير كاف فصرن يجلدن اولاً ثم يدفن أحياءً بعد ان يترك في قبورهن مقدار من الطعام ويسجل التاريخ ان ثمانية عشر منهن لقين حتفهن على هذه الشاكلة. وبسبب ذلك لم يسمح الاباء لبناتهن بالانخراط في هذا السلك وبعد ان كان الاختيار قاصراً على أعرق الأسر سمح لبنات الطبقة المتوسطة والعبيد المعتوقين وأبطل هذا كله الامبراطور ثيوروسيوس المسيحي بعد تغلبه على خصمه اوجينيوس الوثني في العام ٢٩٤م وأصدر أمراً بالغاء كل المعابد وبضمنها معبد قستا. واطفاء النار فيه.

(١١) ليڤي ١:٤ و ١-٥.

الماشية تستظل بفيئها عادة وتقصدها تخلصاً من حرارة النهار لاجترار طعامها، والتعليل الأقرب من هذا انها جاءت من عملية ارضاع الطفلين هناك، لأن القدماء يطلقون كلمة [روما] على التقام الثدي، او الإرضاع، وهناك ربّة مختصة برعاية الاطفال وتربيتهم ما زالوا يسمونها [روميليا][١٢] وهم لايستخدمون خمراً في التقريب اليها[١٣]، وانما يستعيضون عنه بالحليب. والتاريخ يحدثنا ان ذئبة ارضعتهما[١٤] طوال وجودهما هناك، وان طير نقار الخشب كان يزودهما بالطعام بصورة مستمرة ويتولى حراستهما، ومنزلة الذئبة والطير مقدسة عند الرب [مارس]، واللاتين مازالوا يعبدون هذا الطائر ويكرمونه اكراماً خاصاً دون باقي الطيور. وهذه دلائل تقف في مقدمة الأسباب التي تدعم ما قالته والدة الطفلين، ان اباهما هو الربّ [مارس] نفسه وان قال بعضهم انه وهم اوقعها فيه [اميوليوس] الذي أتاها هو بنفسه ليلاً مرتدياً دروعه وسلاحه. ويظن آخرون ان اوّل ظهور لهذه الأسطورة جاء من اسم مُرضع الطفلين ويتضمن معنى مزدوجاً فاللاتين لا يقتصرون على تسمية الذئاب بـ(لوپي lupae) وانما يطلقون الكلمة نفسها على العاهرات. وكانت زوج فاوستلوس (أكا لارنتيا Acca La-rentia) التي ربتهما، امرأةً قليلة التمسك بالعفّة. ويقدم لها الرومان عدة قرابين. ويقوم كاهن الرب مارس بارساله القرابين هناك في شهر نيسان بمناسبة العيد اللارنتي.

كذلك يكرمون [لارنتيا][١٥] أخرى للسبب التالي: لم يدر حارس معبد هرقل كيف يقضي وقت فراغه الكثير، فأقترح علي ربِّ معبده لعبة نرد على رهان: إن غلب الحارس اخذ شيئاً ثميناً من الرب وإنه غلب الرب، يتعهد الحارس أن يبسط له مائدة حافلة بانفس الطعام ويؤمن له رفقة امرأة جميلة. ثم القى بالنرد نيابة عن الرب، ثم القاه لنفسه فكان الرب هو الرابح. ولاعتقاده انه مرتبط بعهد يجب الوفاء به، أدب للرب عشاءً فخماً ودفع مالاً [للارنتيا] وكانت في عِزّ جمالها وان لم تشتهر بعد[١٦]- وجاء بها الى المأدبة في المعبد وبسط فراشاً وبعد ختام العشاء خرج وأغلق الباب عليها، كان الرب سيطأها حقاً. وقيل انه جاءها فعلاً

(١٢) ليڤي: «الرومان لا يسمون تلك الربّة [روميليا] وانما [رومينيا]» على ان كتاباً أخرين يرفضون اشتقاقاً كهذا كما يرفضون اسطورة الذئبة ويرونها من قبيل التلفيق والتصنيع. ويرون أن احتمال الأغلب هو أن المدينة أخذت اسمها من (رومون) وهم أسم نهر التّيبرَ الأول.

(١٣) لأنها كانت ضارة في تلك الفترة من عمر الطفل.

(١٤) ليڤي ج ١: ٤ و ٦-٧.

(١٥) هذه المرأة حسب قول [م. ريكارد] يجب ان تدعى [إكّا] رونيتا نسبة الى معاشرها. والمفروض ان يكون شانها شأن [فلور] التي اوقفت ثروتها التي جمعتها من حياة الفسق والفجور على الشعب الروماني. فكرّمت مقابل ذلك باحياء العاب سميت باسمها وهي العاب يشوبها التحلل والاباحية.

(١٦) في كتابه عن [الاخلاق] يقول پلوتارخ انها كانت تعرف (بالعاهرة الشعبية).

وامرها ان تنزل الى السوق صباح اليوم التالي وتسير الهوينا وتحي أول رجل تلقاه وتتخذه خليلاً. ففعلت ولقيت رجلاً يدعى [تارّوتيوس Tarrutius] وكان متقدماً في السن طائل الغنى أعزب بلا عقب، فضّم [لارنتيا] اليه وعلق بحبها وترك لها عند وفاته كل ثروته وجعلها وارثته الوحيدة في كل ممتلكاته الواسعة فكتبت وصيّة موثقة أوقفت بموجبها معظم الثروة على النفع العام. وذكر انها أختفت فجأة بالقرب من الموضع الذي يضمّ بقايا [لارنتيا] الأولى، ذلك لأنها اشتهرت وذاع صيتها لكونها محظية الربّ. والبقعة تسمى [ڤيلابروم Velabrum] الى يومنا هذا لأن النهر كثيراً ما يفيض ماؤه فيضطر الناس القادمون الى [الفورم Forum] من المحلات المجاورة، الى ركوب الزوارق والأطواف. والكلمة اللاتينية لفعل التنقل بالطوف هي [ڤيلاتورا Velatura][١٧]. ويشتق آخرون الاسم من [فيلوم Ve-lum] اي شراع، لان متعهدي حفلات الملاعب العامة اعتادوا ان يعلقوا شرعةً على طول الشارع المؤدي الى الملعب الاكبر [سركس ماكسيموس Circus Maximus] ابتداءً من الفورم حتى هذه البقعة. ولهذه الأسباب تكرّم [لانتيا] الثانية في روما.

قام [فاوستولوس] راعي خنازير امولیوس بتربية الاخوين سراً: ويقول آخرون[١٨] علم بتلك من الاول وكان يدخلنهم ويساعدهم دون ان يدري به احد. وقيل ايضاً انهما ارسلا الى [غابي Gabii][١٩] للدراسة وبرزاً في الاداب وغيرها من فنون الثقافية مما يليق بارومتهما. وانهما سميا [رومولوس وريموس] من [روما Roma أي الرضع] لأنهما وُجدا وهما يرضعان من أثداء الذئبة على ما تقدم بيانه. وكانت ضخامة جسديهما وجمالهما منذ الحداثة مناسبين لتفوقهما الطبيعي، ولما بلغا أشدهما اثبت مدى شجاعتهما ورجولتهما بمعاناتهما أخطر المغامرات والمهالك. وكان يبدو ان [رومولوس] كثير التروي لايقدم على شيء قبل التفكير فيه، وان له حكمة رجال السياسة والحكم، وكان يبدو وكأنه خلق ليلقي بالأوامر لا ليتلقاها في كل علاقاته مع المجاورين سواء مايتعلق منها برعي الحيوانات أو الصيد ولذلك تعلق

---

(١٧) ايد هذا الأصل اللغوي (ڤاروّ de L. L. Varro = 4-7) الذي يشتق كلمة Velabrum من Velo بوصفها مختصر Vehelabrum أو الاستنتاج الثاني يرى انه مشتق من Velum فهو خطأ لاشك فيه. فالعادة المشار اليها [نشر خيمة في الحفلات العامة] بدأت قبل تاريخ وجود اسم [ڤيلابروم] وقت قيام (كاتولوس) بتكريس الكاپتول [پليني: التاريخ الطبيعي ١:١٩].

(١٨) ربما أحيا هذا أمل نوميتور في العودة الى الحكم. على ان معرفته بالموضع الذي كان الطفلان فيه يتلقيان علومهما، وامدادها باسباب العيش يتناقض تماماً والطريقة التي ادت الى اكتشافهما عندما بلغا اشدهما وهذا اهم جزءٍ من الرواية.

(١٩) احدى اقدم المستعمرات الألبانية تبعد باثني عشر ميلاً الى جنوب شرقي روما ويقول [ديون الهيالكارناسوسي] ١:١٩ انهما درسا هناك الاداب اليونانية وفن الخطابة والتدرب على استخدام السلاح.

بحبهما رفاقهما واتباعهما. وكانا يحتقران ويزدريان خدم الملك ووكلاءه وحجابه، ولايجدان اي ميزة يمتازون بها عليهما، ولايهتمان قلامة ظفر باوامرهم وتهديدهم. وكانا يقضيان أوقاتهما في المفيد من الأعمال والدرس الكثير، ولم يجدا في الكسل والتعطل فائدةً او فضيلة، وانصرفا الى مختلف الرياضات كالعدو والقنص ومطاردة قطاع الطرق، والقبض على اللصوص، وانقاذ المضطهدين والمظلومين من الأذى وبسبب مآثرهما هذه اشتهر أمرهما.

نشأ خصام بين رعاة ابقار [نوميتور واموليوس] ولم يحتمل الأخوان رعاة الأخير وضبط مواشيهم باعتداء رعاة الاول منهما فحملوا عليهم واجبروهم على الهزيمة واستعادوا القسم الاكبر من الغنيمة، فغضب [نوميتور] غضباً شديداً، فلم يبالوا به وكانت الخطوة الاولى التي أقدما عليها بهذه المناسبة ضمها الى زمرتهما عدداً من العبيد الآبقين والفقراء المدقعين - وهو عمل يعادل المرحلة الأولى للعصيان والثورة. واتفق أن [رومولوس] الشديد التمسك بفرائضه الدينية كان يقدم قرباناً، عندما التقى رعاة [نوميتور] بأخيه (ريموس) وهو مع قلةٍ من أصحابه يقومون برحلة، فهاجموه ودار قتال بينهم واخذوه أسيراً وجاؤا به الى [نوميتور] وكالوا له التهم جزافاً، لكن [نوميتور] لم يشأ معاقبته بنفسه خشية ان يثير غضب أخيه اموليوس المعروف بقسوته الشديدة، واتصل به وطلب منه ان يأخذ بيده أمر تطبيق العدالة بوصفه أخاً اهانه رعايا خدمه. على ان اهل [أليا] كانوا ناقمين على عمل خدم اموليوس، كما كانوا يعتقدون ان [نوميتور] قد عومل معاملة غير طيبة. وهكذا اضطر أميليوس الى إبقاء [ريموس] بيد نوميتور ليعمل به ما يحلو له، فجاء به هذا الى دياره وتزايد إعجابه بشخصية الفتى وجمال أعضائه وقوة جسمه التي لا مثيل لها بين الرجال. وتبين من وجهه آيات الشجاعة ومضاء العقل. وهي سجايا بقيت شامخةً غير متصاغرة رغم الظرف العصيب الذي يعانيه صاحبها. ثم بلغته انباء كل المغامرات والمآثر التي اقدم عليها، وكلها دلائل على ما توسمّه فيه. ولاسيما القوة الآلهية التي تقود اولى الخطى إلى اعظم المصائر. وتمكن [نوميتور] من وضع يده على الحقيقة باطاعته فكرة عابرة خطرت بباله عرضاً فدفعته الى سؤاله بلهجة رفيقة عمن يكون؟ ومن اين جاء؟ فتشجع [ريموس] واجاب قائلاً «لن أخفي عنك شيئاً، اذ يظهر لي ان طبعك اقرب الى طبع الملوك من اموليوس، لانك سمحت بالتحقيق في امري وفحص قضيتي قبل ان تفرض عقاباً علي[٢٠]، في حين ان اخاك يعاقب قبل أن

(٢٠) البيتان التاليان للشاعر الروماني ڤرجيل [١٩-٧٠ ق.م: الاينياد الكتاب السادس: ٥٦٦] وفيهما يصف محكمة قاضي جهنم فيقول: «يعاقب أولاً، ثم يسمع الدفاع. وبالأخير يرغم المتهم على الاعتراف. ويفسّر القانون ويحوره بالشكل الذي يحلو له». Gmosius hoe shadanthus habet durissima regna Casti-gatque, auditqne dolos, subigi it que fateri

يعرف كنه المسألة. كُنّا في السابق نعتقد نحن التوامين، بأننا ابنان [لفاوستولوس] و[لارنتيا] خادمي الملك، ولكن منذ ان الصقت بنا التهم واكتنفتنا النوائب وحاقت الأخطار بحياتنا هنا امامك - ونحن نسمع اشياء كثيرة عن انفسنا، ومما يشهد بهذه الحقيقة الخطر الحالي المحدق بنا الآن(٢١). قيل ان مولدنا يكتنفنه الغموض والسرّ، واغرب منه تربيتنا منذ الحداثة، فالطيور والوحوش التي القينا بينها هي التي اطعمتنا فاغتذينا بحليب الذئبة وبلقيمات طائر نقار الخشب، ونحن مُضجعون في صندوق صغير ملقى على ضفة النهر ان الصندوق مازال موجوداً كما خلفناه وهو مصفح برقائق من نحاس عليها كتابة كادت حروفها تمّحي. وهذه كلها تذكارات حقيقية لأبوينا بعد أن نموت ونغادر الدنيا». وبعد ان تأمل [نوميتور] بهذه الأقوال، وبحسابه التواريخ ومقارنتها بمظهر سنّ الشاب، لم يضعف الأمل الذي راوده، بل أخذ يفكرّ كيف يتصل بابنته سِراً ويحادثها عن هذه الأمور، لأنها مازالت رهن السجن.

ولما سمع [فاوستولوس] بنبأ القبض على [ريموس] وتسليمه الى [نوميتور] استنجد بروملوس لانقاذه. وصارحه في تلك الساعة بتفاصيل سرّ ولادتهما وان كان قبل هذا قد ابدى له تلميحات عنها وكشف ما يكفي الذكي السريع الخاطر للاستنتاج الكثير، ودفعه الخوف والقلق من تأخره في العودة الى ان يحمل الصندوق ويسرع به الى [نوميتور] في الحال. إلاّ ان بعض حراس الملك شكوا في أمره ونظروا اليه بعين الريبة. واربكته اسئلتهم، فلم يسعه إلاّ ان يكشف عن الصندوق المخبأ تحت عباءته، واتفق ان كان بين الحراس شخص من الاشخاص الذين شاهدوا القاء الطفلين(٢٢)، فعرف الصندوق من شكله ونقشه الكتابي. وادرك الغرض حالاً فأسرع الى الملك وأخبره بالحقيقة فأدخل فاوستولوس لانتزاع الحقيقة منه، ولم يكن ليحتاج الى جَلْدٍ، ولم يكن بالرجل الذي يصمد أم التهديد كما لم يلق عنتاً أو اكراهاً فاعترف بان الطفلين هما في قيد الحياة يعيشان في مكان يبعد كثيراً عن البا، ويمتهنان الرعيّ. وانه قصد اخذ الصندوق الى [ايليا] التي طالما اشتاقت الى رؤيته ولمسه بيدها، ليتأيد لها ان

---

(٢١) لابد وانهما سمعاً حكاية غامضة عن كيفية بقائهما العجيب في قدر الحياة زمان الطفولة. ولهذا استنتج (ريموس) بطبيعة الحال ان الارباب الذين رعياهما هكذا، سينقذونه من الخطر الحالي في حالة ما كانت قصّة طفولتهما حقيقية.

(٢٢) يبدو هذا مناقضاً لما ذكره پلوتارخ في الاول اذ أفاد انه يكن ثم غير خادم واحدٍ هو (فاوستولوس) الذي استخدم في هذه المهمة الغريبة على ان [ديون الهاليكارناسوسي] يصرح بغير لبس بان عدداً من الخدم قد شاركوا في العمل.

طفلها على قيد الحياة. وفي تلك الاثناء انتاب [امولیوس] ما ينتاب المضطربين عقلياً فيعلمون إمّا بدافع من خوف وإما بدافع من ثورة عاطفية، فأسرع يرسل الى [نوميتور] رسولاً تربطه به صداقة متينة وزوده بأوامر تقضي أن يعلم من أخيه عن وصول ما يؤيد وجود الطفلين على قيد الحياة[٢٣]. فجاء الرسول وشاهد بأم عينه كم كان [ريموس] قليل الرغبة في ان يحضنه [نوميتور] ويضمه الى كنفه. وهذا ما جعله أكثر ثقة في نجاح مهمته ومسعاه فنصحهما بمباشرة العمل وعرض عليهما معاونته. ولم يكن الوقت ليسمح لهما بالتردد لو شاءا اذ ان رومولوس كان قد اقترب كثيراً بقوة عظيمة، وراح المواطنون ينضوون تحت لوائه سراعاً بدافع الكره والخوف من [امولیوس] وقسم [رومولوس] قواته الى سرايا، الواحدة منها تعدّ مائة رجل. وكان كل آمر سرية يحمل قطباً خشبياً شدّ فوقه حزمة من العشب الصغير واللاتين يطلقون على هذه الحزم [مانيپولي Manipuli] ومن هذا جاءت تسميتهم [مانيبولارس Manipulares] لقادة جيوشهم واخذ [ريموس] يثير الناس ويحرضهم على الثورة من الداخل، وشرع يهاجم من الخارج ولم يدر الطاغية ماذا يصنع واي حيلة يحتال لسلامته حتى قبض عليه وهو في حيرته وقتل.

إن معظم تفاصيل هذه الرواية التي اوردها [فابيوس، وديوكليس الپيپاريثوسي] وهما على ما يبدو أول من ارّخا تأسيس روما، مشكوك فيها بسبب ما يحيط بها من خيال ومبالغة، لكن ينبغي الا ننبذها بكاملها. لو تذكر الناس الى اي حَدّ من الخيال يسمو اليه الشاعر احياناً واذا ما فكر بأن العظمة الرومانية ما كان يتسنّى لها أن تبلغ هذه الذروة دون ان يكون للمشيئة الالهية ارادة فيها. ولو لم تساعدها ظروف عجيبة فائقة للعادة.

بعد ان هلك [امولیوس] وعادت الأمور الى الاستقرار والهدو، لم يشأ الاخوان البقاء في (البا) دون ان يكونا حاكيمها، ولا أن يستوليا على الحكم وجدهما في قيد الحياة. فسلّما مقاليد الأمور اليه، واكرما والدتهما الإكرام اللائق، وقررا الذهاب والعيش وحدهما وبناء مدينة في الموضع الذي ُتركابه وعاشا وهما طفلان. وكان هذا أشرف سبب لرحيلهما، وهو يبدو ضرورة لا سبيل لها الى دفعها بسبب التفاف جموع غفيرة من العبيد واللاجئين حولهما فوجدا ان أمامها سبيلين لا ثالث لهما، إمّا أن يفرقا الجموع الملتفة ويعودا كما كانا قبلاً، وامّا أن يأخذوها للعيش معاً في بقاع أخرى، إن أهالي [البا] لم يرغبوا في ضم هؤلاء اليهم والاختلاط بهم، وبدت نيتهم هذه في قضية خطف النساء وهو عملٌ لم يأته هؤلاء بدافع

(٢٣) ما يعزو پلوتارخ الى (اميليوس) من موقف، لا يمكن ان يقبله العقل والمنطق لاسيما اذا قارنّاه بالحكاية التي اوردها [ديون: المرجع السالف] بهذا الشأن.

الشهوة، بل بحكم الضرورة والحاجة، اذ لم يكن في مقدورهم الحصول على زوجات طوعاً. وهذا ما أثبتته الوقائع، فقد أظهروا للنسوة اللاتي خطفوهن اشدّ الرعاية وأعمق الاحترام والتجلة.

لم يمرّ طويل زمنٍ على انشاء المدينة حتى اقاموا ملجأ يلوذ اليه اللاجئون واسموه معبد الرب [آسيلاؤوس Asylaeus][٢٤] وكانوا يبسطون حمايتهم على كل قادم ولا يردون مستجيراً قط، لا خادماً الى سيده ولا مديناً الى دائنه ولا قاتلاً الى قاضيه متعللين بقولهم ان هذه البقعة اصطفتها الالهة، ولذلك يمكنهم المحافظة على اللاجيء بقوة النبوءة. وغدت المدينة مكتظة بالسكان[٢٥]، ولم تكن تحوي في مبدأ امرها غير الف بيت على ما قيل... إلاّ ان هذا سيكون موضوع حديث تالٍ. وانصرفوا الى البناء انصرافاً كلياً، وما لبث أن ظهر شيء من الخلاف حول اختيار المواقع. تخيّر رومولوس ما يسمى الآن [روما كوادراتا] اي روما الربعة وأصر ان يكون موضع اقامة المدينة وحَدّد [ريموس] مساحة من الأرض على جبل [آفنتين Aventine] حصّنته الطبيعة خير تحصين وأطلق عليه [ريمونيوام Remoniuam] تيمناً باسمه إلاّ ان اسمه الحالي [ريجناريوم Rignarium][٢٦] واستقرّ الرأي أخيراً ان يحسما خلافهما باستخارة الطير وهي سانحة وبارحة[٢٧]، فوقفا في موضعين متباعدين. وقيل ان [ريموس] شاهد ستّة من النسور وان رومولوس شاهد ضعف هذا العدد، وقال آخرون ان ريموس كان صادقاً في عدده، لكن [رومولوس] كذب في عدد ما شاهد منها، إلاّ ان العدد اصبح اثني عشر عندما وصل ريموس اليه. ومن هنا جاءت عادة الرومان في مراقبتهم النسّور أكثر من سواها عند استخارة الطير.

وروى [هيرودورس پونتيكوس] ان هرقل كان يستبشر كثيراً عندما يسنح له الطائر وهو يهتم بعمل ما. لأن النسر هو أقل الحيوانات اذى لايقرب الزرع النابت، ولا ثمار الشجر ولا

---

(٢٤) لايعرف على وجه التحديد من يكون ربّ اللاجئين هذا. فبعض الشراح ومنهم [داسييه] يقول انه [ابوللو] امّا [ديون] فيخبرنا بأن الموضع الذي كان يقوم عليه الملجأ في زمانه، قد كرّس (لجوپتر). في مبدء الأمر لم يقبل روملوس) بدخول الملتجئين والخارجين على القانون. إلاّ انه اعطاهم مرتفع (ساتورينوس) الذي سميّ فيما بعد كاپيتولينوس ليتخذوه مسكناً. [ليڤي ج ١:٨ و ٥].

(٢٥) معظم الطروادين (ولم يكونوا يزيدون عن خمسين أسرة زمن أغسطس) اختاروا أن يربطوا مصائرهم بمصائر الأخوين كما حذا حذوهم سكان پلانتيوم وساتورينا وهما قصبتان جوار [ألبا].

(٢٦) لا نجد ذكراً للاسمين اللذين وردا هنا عند اي مؤرخ أو كاتب ويذكر (فستوس) ان قمة جبيل [أفنتين] كانت تدعى [ريموريا] منذ ان عزم [ريموس] على بناء المدينة هناك. إلاّ ان [ديون] يتكلم عن جبل [أفنتين] وعن [ريموريا] أنهما محلان مختلفان. ويزعم [ستنانُس] ان [ريموريا] هي بلدة قريبة من روما.

(٢٧) ليڤي: ج ١:٧، ١٢.

الماشية وهو يقتات ابداً على الجيف والرخم. ولايفترس ولايؤذي كائناً حياً، واما عن بني جنسه الطير، فهو لايمسّ احداً منها ولو كانت ميّتة، وكأنما هي من فصيلته[٢٨]، في حين ترى العُقبان والبومة والصقور تأكل وتقتل بعضها بعضاً او كما يقول اسخيلوس[٢٩]: «اي من الطير يكون طاهراً اذا ما افترس من بني جنسه؟».

زد على هذا ان سائر اجناس الطير الأخرى كثيرة الملازمة لنا لا تغيب عن انظارنا ولكن النّسور قليلاً ما تعرض نفسها للرؤية. ويندر ان تجد رجلاً رأى صغار هذا الطائر، وندرتها وقلة ظهورها ادّى ببعضهم الى القول أنها تأتي من عالم ثانٍ مجهول، مثلما يعزو الدجّالون اصلاً لكلّ الاشياء التي تكون الطبيعة ولا هم مصدرها.

عندما انكشف الغش لريموس استنشاط غيظاً[٣٠]. وبينما كان رومولوس يروم الخندق المقرر ان يكون فوقه اساس سور المدينة، تعمد احداث خلل في جانب من العمل وعوق آخرين، وأخيراً بينما كان ينطّ فوقه مستهتراً مستخفاً، قيل ان رومولوس فتك به[٣١]، وقيل لا بل سيلير Celer أحد اصحابه هو الفاتك، فخرّ صريعاً وحدث اشتباك قتل فيه [فاوستولوس] و[پلستينوس Plistinus] الذي عاون على تربية [رومولوس] وهو أخٌ لفاوستولوس كما ورد في الحكاية. وعلى أثر ذلك هرب [سيلير] الى توسكانيا، والرومان يطلقون اسمه [سيليرس] على أسرع العدائين. وقد لقب [كوينتوس ميتللوس Quintus Metellus] «سيلير» لأنه هيّأ بمناسبة تشييع جثمان ابيه عرضاً عاماً للمصارعين - في غضون ايام قليلة، فكانت سرعته مصدر عجب.

بعد ان دفن رومولوس اخاه مع ابويه بالتبنيّ في جبل [ريمونيا Remonia] باشر في بناء

---

(٢٨) لا نعتقد ان دارسي طبائع هذا الحيوان يوافقون پلوتارخ على رأيه هذا. فمع ان الجبن والخوف يدفعان النسور على تفضيل الجيف الاّ أنّ طباع الضواري فيها تدفعها أحياناً الى مطاردة الأحياء من الحيوان. هذا الى أن ندرة هذه الطيور الجارحة هو برهان آخر يعزّز افتقار هذه القصّة الى الصحة.

(٢٩) «المتضرعون» ٢٢٦.

(٣٠) ليفي ج ١، ٢:٧.

(٣١) أختلف الشقيقان حول موضع المدينة الجديدة. فأحالا الأمر الى جدّهما فنصح بأن يستخيرا. فكانت النتيجة لصالح [رومولوس] وقرر أن تكون هضبة (پالاتينا) موقعاً للبناء. وانقسم البناؤون الى فريقين مختلفي الرأي عندها قفز [ريموس] من فوق الى الخندق وهو يقول ساخراً: «هكذا سيقفز العدوّ من فوقه» وهنا اصابه (چيلير) بضربة قاتلة وهو يقول «وهكذا سيصد ابناء مدينتنا صولة العدّو». وتقول المصادر ان (رومولوس) حزن حزناً شديداً على شقيقه وكاد يبخع نفسه لو لم تحل [لارنسيا] دون ذلك. ويقول [ديون] ان الرومان قفزوا من فوق الجدار عندما تمّ بناؤه في حين ان ذلك يشير بالتأكيد الى الخطّ الدائري الذي احتفروا ليس الاّ نجد پلوتارخ هنا يخلط بين قصتي موت (ريموس) اللتين اوردهما (ليڤي) بشكل منفصل وان ذكر ان قصّة موته بيد (رومولوس) اثناء نشوب القتال هي الارجح والاكثر شيوعاً.

المدينة وبعث يطلب من توسكانيا[٣٢] رجالاً يرشدونه على اسس من الطقوس المقدسة والشرائع المدونة، الى المراسم التي ينبغي مراعاتها، والأحكام الدينية التي يجب اتباعها. فقاموا أولاً بحفر خندق مستدير حول ما هو الآن [الكوميسيوم][٣٣] وساحة الاجتماع وفيها القوا باحتفال مهيب اول ثمار كل الاشياء التي هي إما جيدة بحكم العادة، او ضرورية بحكم الطبيعة وأخيراً تناول كل رجل قطعة صغيرة من تربة ارضه والقيت دفعة واحدة[٣٤] وأطلقوا على هذا الغور اثناء قيامهم بذلك اسم (موندس Mondus) اي السماء وبعد أن جعلوه مركزاً؛ خططوا حدود المدينة دائرةً حوله ثم ركب المؤسس شفرة نحاسية في رأس محراث وربط في نير واحدٍ ثوراً وبقرة[٣٥] وساقهما بنفسه وشقّ خطاً عميقاً حول تلك الحدود، وكان واجب الذين يتبعونه ملاحظة كل التراب الذي ينقلب الى الجانب الخارجي وردّه الى الداخل نحو المدينة وعدم ترك اي قطعة منه خارجها. وبهذا الخط رسموا مكان السور، وسموّه اختصاراً [پومورپوم[٣٦]: أعني پوستموروم Postmurum أي ما بعد السور، أو ما يليه. وفي المواضع التي تقرر احداث ابواب المدينة رفعوا الشفرة النحاسية من رأس المحراث وساقوا الفدّان بدونها تاركين فسحةً غير مشقوقة. اذ لو اعتبروها مقدسة أيضاً، لما تمكنوا من السماح بدخول وخروج ضروريات الحياة منها واليها بحرية، وبعض هذه الضروريات غير طاهرة بذاتها. والاّ سقطوا في الخطيئة.

واما عن اليوم الذي بوشر فيه ببناء المدينة فهناك إجماع بين الكتاب، وهو اليوم الحادي والعشرين من نيسان الذي يقدسه الرومان في كل سنة ويطلقون عليه اسم «يوم ميلاد

---

(٣٢) يخبرنا [فستوس] ان للتروسكانيين تقليداً حول ما يجب اتباعه في مراسم عند بناء المدن والهياكل والاسوار والابواب. وهم يطلبون ارشادهم الى نوع الطقوس التي يجب مباشرتها من نبوءة (تاكيس) الذي قيل ان (عطارد) كان معلمه.

(٣٣) هي ساحة مجاورة للفورم. فيها تعقد الاجتماعات العامة. والموندوس اي مركز العرافة في المدينة هو مما يلي پالاتينا – انظر ما بعده.

(٣٤) (اوڤيد) لا يقول انها حفنة تراب جاء بها كلّ من بلده، بل حفنة تراب جاء بها كلّ واحد من عند جاره. وهي اشارة الى ان روما لن تلبث أن تخضع لحكمها الشعوب المجاورة لها. الاّ ان [ايسيدورس ٢:٢٥] يرى ان القاهم أولى الثمار مع حفنة تراب في الخندق إنما يقصد منها تذكير رؤوساء المستوطنات بان اول واجب هؤلاء هو توفير كل اطايب الحياة لابناء وطنهم والمحافظة على الاتحاد والسلام بين اقوام يتقاطرون من مختلف ارجاء العالم ليصيروا كتلة واحدة وعصبة لاتنفصم عراها.

(٣٥) اشارة الى الخصوبة. وامّا ردّ التراب الى الداخل المدينة فيعني ان المدينة ستبقى خالدةٍ ولن يحلّ بها الخراب.

(٣٦) أو پوميريوم أو موروم، وتعني استناداً الى ليڤي. فسحة غير مسكونة بين السور وبين أقرب البيوت في الداخل. عرضها مساوٍ لتلك الفسحة التى تترك خارج السور. ويحرم زراعتها بحكم القانون.

الوطن»، وقيل انهم لم يكونوا في مبدأ الأمر يضحون في هذا اليوم بالذبائح، اذ وجدوا هذا اليوم الذي ولد منه وطنهم جديراً بالبقاء طاهراً لا تشينه قطرة دمٍ واحدة، غير انه كان يوجد قبل انشاء المدينة عيد للرعاة وأصحاب المواشي يحتفل به في مثل هذا اليوم ويدعى (پاليليا Palilia)[٣٧] ان الاشهر اليونانية والرومانية تكاد لا تتفق فيما بينها قط. والمقول الشائع ان اليوم الذي شرع فيه رومولوس بالبناء هو الثالث عشر من الشهر بالتأكيد وقد صادف فيه كسوف شمسي[٣٨]. وذكروا ان [انتيماخوس Antimachus] الشاعر التيّاني Teian شاهده وكان ذلك في السنة الثالثة من الاولمپياد السادس[٣٩]. كان للفيلسوف [ڤارو Varro] المطلع اطلاعاً عميقاً على التاريخ الروماني صديق اسمه [طاروطيوس Tarrutius][٤٠] الذي كان الى جانب معرفته بالفلسفة والرياضيات قد درس طرق استخراج الطوالع والأزياج الفلكية لمجرد حبّ الاطلاع واشتهر بتبحرّه في هذه الصناعة مما جعل صديقه [ڤارو] يطلب منه استخراج طالع [رومولوس] الى حد أول يوم وأول ساعة، وان يعمل حسابه على ضوء وقائع حياته العديدة التي هو على بينة منها. وان يقوم بهذا مثلما يحلُّ مشكلاً هندسياً فعلى حَدّ قوله أن كلاً من الكشف عن مستقبل امرءٍ بمعرفة يوم ميلاده، ومن استخراج يوم ميلاده بما يعلم من وقائع حياته هما مما يمتان الى علمٍ واحدٍ، فقبل (تاريتوس) المهمّة وتأمل أولاً في أعمال الرجل والأخطار التي حلت به وزمن حياته وكيفية موته ثم قارن كلّ هذه المعلومات بعضها ببعض واعلن بكل ثقة واطمئنان ان رومولوس حبلت به امه في السنة الأولى من الاولمبياد الثاني[٤١] في الساعة الثالثة بعد مغرب شمس اليوم الثالث والعشرين في الشهر المصري المسمّى [خوياك Choeac] وفي ساعة الحبل به كان هناك كسوف كُلّي[٤٢] واما

---

(٣٧) الپاليليا أو عيد پاليس ربّة القطعان. ويسمى احياناً پاريليا من اللفظة اللاتينية [پاريري] اي التقدمة. لأن الصلوات كانت ان ذاك تتلى من أجل إخصاب الأغنام. ويقول (اوڤيد) ان الرعاة يحيون بهذه المناسبة مهرجاناً ليلياً عظيماً يختمونه برقصات حول النار التي يشعلونها في الحقول من أكوام القش.

(٣٨) هوكسوف ٧٥٣ ق.م الثابت فلكياً.

(٣٩) حصل في العام ٧٥٤ ق.م.

(٤٠) كان هذا المنجّم البارع وثيق الصلة بـ (شيشرون) لكن لما لم يحصل كسوف في اليوم الذي عينه فليس في امكاننا ان نقرّ له باية براعة. ان الأشهر المصرية التي لا تتفق بداياتها تماماً مع أشهرنا استخدمت فيما يلي اعتباراً لبلادها التي اتخذ نظامها الفلكي قاعدةً.

(٤١) اي في العام ٧٧٢ ق.م.

(٤٢) لم يكن ثم كسوف كليّ في السنة الأولى من الاولمپياد الثاني، بل حصل في السنة الثانية منه فان كان الحَبَل بـ(رومولوس) قد وقع في السنة التي ذكرناها فانه يتفق والراي المجمع عليه بأنه كان ابن ثماني عشرة سنة عندما باشر ببناء روما. وهذا هو رأي (كاتو) يسانده في ذلك كلّ من [ديون] و[سولينوس] و[يوسيپوس] وعدد كبير من المؤرخين المتأخرين والمعاصرين. في حين نجد كلاً من [ڤارو] و[شيشرون] يثبتون الحدث في السنة التي سبقت.

ميلاده فكان في الحادي والعشرين من [توث Toth] = ايلول في حوالي شروق الشمس، وكان أول صخرة وضعها في بنيان روما - اليوم التاسع من شهر [فارموثي Pharmuthi] = نيسان : بين الساعة الثانية والثالثة منه. هؤلاء المنجمون يرون ان لطالع المدن اوقاتها الثابتة المعينة كما كان الشأن في طوالع الناس، ويكون بالامكان جمعها والتنبوء بها من مواضع النجوم وارصادها ومعرفة ما يتعلق بها منذ زمن بنائها... لكن هذا البحث واشباهه قد لاتلذّ القاريء طرافتها وغرابتها قدر ما تضجره بخيالها ومبالغاتها.

بعد ان بنيت المدينة قام رومولوس باحصاء كل القادرين على حمل السّلاح وتنظيمهم في كتائب عسكرية كل كتيبة تضم ثلاثة آلاف راجل وثلاثمائة فارس[٤٣]، وأطلق على الكتيبة [ليجيون Legion] لأنها كانت تتألف من الصفوة المنتخبة من أشدّ المحاربين. وسمى باقي الشعب [بالعامة]. وانتخب مائة من ابرزهم ليكونوا مستشارين وسمّاهم [پاتريشيان: (آباء) Patricians][٤٤] وأطلق على مجلسهم [سنات (مجلس الشيوخ) Senate]. وقال بعضهم ان الپاتريشيان سموا هكذا لكونهم اباءً لابناء شرعيين. وقال آخرون لا بل لكونهم قدموا الدلائل القوية على ان آباءهم ليسوا من الخليط المجهول، والصعاليك الذين تدفقوا الى المدينة[٤٥] في اول أمرها، ولم يكن بامكانهم اثبات بنوّتهم وأنسابهم. وزعم آخرون ان الصفة جاءت من [الحماية] وهي اللفظة التي يطلقونها على «عمل حماية الضعيف»، ويردون أصلها الى [پاترون Patron] وهو اسم احد أولئك الذين جاؤوا مع [ايڤاندر Evander] اعظم محام ومدافع عن الضعفاء والمضطهدين. ولعل اقرب التعاليل احتمالاً هو الآتي: لما رأى رومولوس ان الواجب الأساسي لأغنى الناس هو الرعاية الأبوية والاهتمام بشؤون افقرهم، وان من واجب العامة ألاّ يكرهوا أو يترددوا في تكريم سادتهم بل لن يحبوهم ويحترموهم وان يعتبروهم اباء لهم وينادوهم بهذا اللقب، فقد إرتأى ان يطلق عليهم اسم [پاتريشيان]. بينما كانت الاقطار

---

(٤٣) وبمقابل هذا يعلمنا [ديون] بان المستوطنة كلها كانت تضم (٣٣٠٠) رجل وان [رومولوس] قسمهم الى ثلاثة اقسام متساوية وأطلق على كل قسم اسم (قبيلة) أو (ثلث) يقوم على رأس كل قائد Prefect أو تريبيون Tribume. وقسمت القبيلة الواحدة الى عشر أفخاذ (كيورائي Curiae) ان عدد البيوت أو الاكواخ الذي لم يكن يتعدى الألف الواحدة يقوم دليلاً على زعم (ديونسيوس) هذا. إلاّ ان الصعاليك الذين دخلوا لاجئين واستؤمنوا والذين قد يكونون كثيري العدد على ما يحتمل - لم يحسبوا مع المستوطنين الاصليين وان منحوا فيما بعد حق المواطنة.

(٤٤) الملك لا يختار هؤلاء الرجال المائة. بل تقوم كلّ قبيلة باختيار ثلاثة شيوخ، ويقوم كلّ كيوريي من الثلاثين باختيار عدد مماثل فيكون المجموع (٩٩) ولم يعين (رومولوس) الاّ الشيخ المائة وهو رئيس او أمير مجلس الشيوخ والحاكم الأعلى للمدينة عند غياب الملك في حملة عسكرية.

(٤٥) انظر رأيا مختلفاً لديون الهيكارناسوسي. (٤:٢) وأنظر ليڤي أيضاً.

الأخرى تلقب شيوخها بالقاب الأسياد العظام. وهكذا تجد الرومان قد اتخذوا لقباً أكثر شرفاً وأقل ابهة وهو «پاترس كونسكريتي Patres Conscripti] (٤٦) وكان في مبدأ الأمر [پاتروس] فحسب ثم اضافوا اليه اللقب الثاني في زمن تالٍ، وبهذا اللقب الأكثر جلالاً تميزّ الشيوخ عن العامة، وانفصل النبلاء عن سواد الشعب بطريقة أخرى اي بتسمية الأولين [پاترون] (٤٧) وتسمية الآخرين الاتباع او الموالي، وبهذه الوسيلة اوجد علاقة حبٍ وصداقة ما بين الفئتين أثمرت قدراً كبيراً من العدل في التعامل فيما بينهم، فالپاترون هو مستشار مواليه في القضايا القانونية ومحاميهم في سوح القضاء والمحاكم، ومجمل القول. شاورهم ومعاونهم في كل المسائل. والموالي بدورهم يخدمون الپاترون لا بتقديم الاحترام والتكريم، بل بمساعدتهم المادية في حالة افتقاره، كصهر بناتهم بالمهر أو دفع الديون عنهم(٤٨)، وليس من قانون أو قاض يجبر الپاترون على الشهادة ضدّ تابعه، ولا التابع ضد پاترونه، وبعد مرور حين من الزمن وُجد أن أخذ المال من الموالي مما لايشرف قط طبقة الپاترون فأبطلت العادة مع بقاء الواجبات الأخرى سارية... وفي هذا القدر الكافي...

في الشهر الرابع لبناء المدينة، وقعت حادثة خطف النساء واغتصابهن(٤٩) وهذا ما يزعمه [فابيوس]. واما آخرون فيقولون ان رومولوس نفسه وهو محارب عسكري ارادها ان تكون علّة لشنّ الحرب، ربما تحدوه في هذا نبوءة جعلته يؤمن ان رفعة شأن روما وعظمتها تتوقفان على الإفادة من الحرب ولهذا تحرش اولاً [بالسابين Sabine]، ولم ينهب منهم غير ثلاثين عذراء وهو عدد قليل قد يصلح ذريعة للحرب، من كونه رغبة النساء فحسب. على ان هذا

---

(٤٦) أعني الآباء المسجلين. والمنحدرون من هاتين الطبقتين ميّزوا فيما تلا من الزمان باسمي الآباء الكبار Patre Majorum والسادة الأدنين Minorus Ganlium.

(٤٧) هذه الأبوة توازي بقوتها رابطة الدم والتحالف. وقد كان اثرها عجيباً في استمرار الوحدة والرابطة الوثقى بين الرومان طوال (٦٢٠) عاماً لم يقع خلالها نزاع أو خصام أو تنابز بين الآباء والأتباع حتى في الأيام الجمهورية حيث كثيراً ما كانت طبقة العامة تتمرد على اصحاب السلطة العليا في المدينة. بالأخير أخلّ بهذا الانسجام تلك الفتنة الكبري التي اثارها [كايوس كراخوس] (انظر السيرة). وكان التابع الذي لا يؤدي واجبه ازاء (پاترونه) يعدّ خائناً خارجاً على القانون ويستهدف الى أن ينفذ به اي شخص عقوبة الموت (ديون) ومما يجدر ذكره هنا هو أن اختيار الـ(پاترون) لم يكن قاصراً على أفراد العامة. بل تعداهم الى المدن والدول التي أخذت تضع نفسها تحت هذا النوع من الحماية بمرور الزمن.

(٤٨) ويضيف ديون قوله (٤:٢) انهم يدفعون عنهم مصاريف الدعاوى التي يخسرونها ويدفعون عنهم كذلك اجور محاميهم وغير ذلك.

(٤٩) ينقل (ديون) عن (كيلليوس) ان ذلك وقع في السنة الرابعة ويؤكد (فاستي كاپيتوليني) ذلك باثباته تاريخ الحروب مع الكيانيسيين التي وقعت بعد هذه الحادثة مباشرة. ويذكر (ليڤي) ايضاً (٩:١) ان الرومان صاروا يملكون من القوة ما أهلهم لمقارعة جيرانهم.

القول ليس الارجح. والذي يبدو، ان رومولوس وجد مدينته تكتظ بالوافدين من الأجانب والأخلاط وقليل منهم من كان ذا زوج وان هذا المجتمع الذي يتألف معظمه من فقراء، منقطعين، سيدبّ فيه الانحلال حتماً ويسوده الإنقسام والتناحر ولن يبقى على تلاحمه طويلاً كما أمل ايضاً ان تهدأ خواطر النساء المخطوفات بعد حين، ليجعل من الاعتداء تعلّةً للتحالف والتبادل التجاري مع [السابين] وعلى هذا الاساس قام بالمغامرة هكذا:

أولاً أعلن انه اكتشف هيكل أحد الارباب مدفوناً تحت أطباق الأرض[٥٠] ويسمى [كونسوس Consus] وهو إمّا آله الشورى (لأنهم مازالوا يستعملون للشورى كلمة [كونسيليوم Consilium] ويسمون كبار حكامهم [كونسول Consule اي مستشار] وإمّا أن يكون [نبتون الفارس]، ذلك لأن الهيكل أبقي مستوراً في الملعب الأكبر[٥١] لايكشف للجمهور الاّ بمناسبة سباقات الخيل. ولا يزيد آخرون على القول ان هذا الرب شاء ان يجعل معبده مدفوناً تحت الأرض لأن من طبع المشورة ان تكون سرّية مكتومة. عند اكتشاف الهيكل أعلن رومولوس انه قرر أحياء يوم حافل لتقديم قرابين، مشفوعة بالعاب وتمثيليات للعموم، من قبيل الترفيه والتسرية، فتقاطرت جموع غفيرة الى المدينة وجلس رومولوس في صدر الملعب يحفّ به عظماء قومه ونبلاؤهم متشحاً بالأرجوان، وكانت اشارة الانطلاق هي نهوضه وجمع اطراف ردائه والقائه على كتفيه. ووقف رجاله على اهبة الاستعداد شاكي السلاح واعينهم شاخصة اليه وانظارهم مركزة به ولما أعطى الاشارة صاحوا صيحة هائلة وامتشقوا سيوفهم ووقعوا على بنات [السابين] يخطفوهن، وولّى السابين الأدبار بدون مقاومة. وقيل ان ما سبي لايزيد عن الثلاثين[٥٢]، وسميت اسماء [اركيوري Curiee] الثلاثين بهنّ إلاّ ان [ڤاليريوس آلتياس Valerius Antias] يرفع عدد المخطوفات الى خمسمائة وسبع وعشرين، ويزيد [يولا Jula][٥٣] العدد الى ستمائه وثلاثة وثمانين، وخير عذر يمكن ان يتمسك به رومولوس في عمله هذا هو ان المخطوفات كلهن كن عزباوات. اي ان اتباعه لم يتعرضوا للمتزوجات باستثناء واحدة وهي [هيرسيليا Hersilia] وهذه خطفت بمحض خطأ ولم يعرف حقيقة أمرها، هذا يدل على انهم سبوهم لا بدافع الشهوة، بل لايجاد تحالف ورابطة جوار

(٥٠) ابقي المذبح مدفوناً اشارةً الى عمل الطبيعة الخفي في انتاج القمح والخضار لان (كونسون) هو الرب الايطالي القديم للزراعة.

(٥١) أعني في القصر. حيث بنى (اتكوس مارجيوس) فيما بعد الملعب الكبير لسباق الخيل والعجلات.

(٥٢) رواية ليڤي: ١:٣، تورد هذا العدد أيضا. الاّ انه كان يأخذ برأي [ڤاليريوس انتياس] في أماكن أخرى.

(٥٣) هو ابن (جوبا) ملك الموريتانيين جيء به الى روما وهو صبي وقد وقع في الأسر، فدرس العلوم الاغريقية واليونانية واصبح مؤرخاً شهيراً. ويذكر ليڤي أن أغسطس اعاد اليه جزءً من أملاك ابيه وزوّجه (كليوپاترا) بنت مارك انطوني. ويتفق (ديون) مع ليڤي في هذا.

باضمن الوسائل وامتنها. وقال بعضهم ان [هوستيليوس Hostilius] تزوج هرسيليا هذه، وهو من ابرز رجال الرومان، وزعم غيره ان رومولوس هو الذي تزوجها وانجبت له بنتاً سميت [پريما Prima] أي الأولى لأنها بكره، وابنا سُمي [آڤيليّوس Avillius] بسبب تعلّق المواطنين الشديد به في ذلك الحين. ثم تغير اسمه بعد احقاب الى [بيلليوس] هذا ما يرويه [زينودوتوس Zenodotus] الطروزيني وكثيرون لا يتفقون معه في ما ذهب.

قيل انه كان يوجد كثير من الأراذل والدهماء بين الذين ساهموا في خطف العذارى، وشوهدت طائفة تحمل آنسة فاقت الأخريات جمالاً وجاذبية ورشاقة، فأعترضتهم زمرة من سراتهم وحاولت انتزاعها فاحتجوا قائلين انهم يحملونها الى [تالاسيوس Talasius] وهو والحق يقال شابٌ فتّي لكنه غير معروف بصفات الشجاعة واللباقة. ولما سمعوا منهم ذلك ايدّوهم واستحسنوا ما يفعلون بهتافات عالية، وانضم بعض الزمرة الى هؤلاء الدهماء طرباً ولعباً وراحوا يهتفون باسم [تالاسيوس]. من هذه الحادثة نشأت عادة عند الرومان ما زالت متبعة الى يومنا هذا فهم في حفلات اعراسهم، يتنادون بلفظة [تالاسيوس] بوصفها الكلمة التي تقوم مقام [العرس]. مثلما هي [هيميناوس Hymenas] لدى الأغريق. لكنهم يقولون أن تالاسيوس هذا كان سعيداً للغاية في زواجه إلاّ أن [سكتوس سيلّلا Sextius Sylla] القرطاجني وهو رجل لا تعوزه سعة الاطلاع ولانفاذ البصيرة قال لي ان رومولوس نطق بهذه الكلمة كإشارة لبدء عملية الاختطاف، ولذلك هتف بها كل من ظفر بفتاه لنفسه ومن هنا جاءت العادة في الأعراس. لكن معظم الكتاب (ولاسيما يوبا) يرى ان الكلمة كانت تستخدم للمتزوجات حديثاً كوسيلة لحثهن على القيام باعمال البيت على خير الوجوه، وتطلق كلمة [تالاسيا Talasia] على الغزل كما نلفظها نحن باليونانية(٥٤)، لأن الالفاظ اليونانية كانت شائعة وقتذاك ودونها شيوعاً الالفاظ الايطالية، واذا كان الأمر كذلك، واذا كان الرومان في ذلك الزمن يستعملون كلمة [تالاسيا] بالمعنى الذي تدل عليه عندنا، فعلى المرء اذن ان يبحث عن سبب آخر لهذه العادة. اذ عندما صولح السابين بعد الحرب التي نشبت بينهم وبين الرومان، اتفق على شروط بخصوص معاملة نسائهم؛ وهي ان لايجبرن على اداء اعمال منزلية شاقة فيها صفة العبودية ما عدا الغزل. لذلك جرت العادة ان يردد كلمة تالاسيوس اولئك الذين يقدمون يد العروس أو يصحبونها أو يكونون حاضرين وقت الزفاف - للتذكير بان العروس لن تقوم من الآن فصاعداً بعمل إلاّ الغزل واستمر تطبيق العادة التالية الى هذا اليوم

---

(٥٤) من لفظه (تالروس) الاغريقية. والملاحظ ان كل سيدات روما يحكن ثياب ازواجهن وأولادهن حتى أغسطس نفسه كان يشهر مرتدياً الثياب التي تصنعها زوجه وآل بيته.

وهي ان العروس لاتتخطى عتبة باب زوجها ، وانما تُرفع فوقها رفعاً دون ان تطأها ، وهي تذكرة بأن عذارى السابين كن قد حملن الى بيت الزوجية قسراً ولم يدخلن بمحض اختيارهن. ويقول بعضهم ايضاً أن عادة فرق شعر رأس العروس من الوسط بسنان رُمِح، تذكرة بأن مبدأ زواج الرومانيات كان بالحرب والقتال، وهو ما اشتهبتُ في شرحه في كتابي «المسائل»(٥٥).

وقعت عملية الاختطاف هذه في الثامن عشر من شهر [سكستيليس Sextilis] الذي يدعى الآن [اغسطس: آب] وفيه تقام احتفالات [الكونسواليا Consualia](*).

كان السابين قوماً محاربين اشداد كثيري العدد. عاشوا في قرى غير محصنة وهو على ما يظنون يناسب مستعمرة ليقديمونية(٥٦) جريئة لاتهاب أحداً ولما وجدوا انفسهم مكتوفي اليد بتلك الرهائن النسائية التي تضمن سكوتهم وحسن سلوكهم، ولشدة تعلقهم ببناتهم آثروا ارسال سفراء الى رومولوس يحملون طلبات عادلة منصفة وهي ان يعيد اليهم بناتهم وينهى اثر هذا الاعتداء ثم يسعى بالاقناع والوسائل الشرعية الى انشاء علاقة صداقة بين الشعبين. لكنه ابى النزول عن البنات وأقترح عليهم الدخول في حلف. وهنا أخذ بعضهم يتردد وانثنوا يتداولون فيما بينهم ولم يقطعوا برأي، إلا ان [اكرون] ملك [سيونسيا Coeninen-sia](٥٧) وهو رجل جرئ ومحارب مقدام، مدفوعاً بما يكفه من حسدٍ طويل الأمد لرومولوس لمآثره العظيمة، ولاسيّما لمّا وجد خصمه هذا قد علا شأنه وعظم خطره بمغامرة خطف النساء، وان الاقتصاص منه أمرٌ واجب، فأعلنها حرباً على رومولوس وزحف بجيش جرار فاستعد رومولوس له(**)، ولما تقابل الجيشان وقفاً وهما شاكيا السلاح لا يلتحمان وانما فضّلاً مبارزة فردية. فنذر رومولوس اذا تغلّب على خصمه، ان يحمل بنفسه سلاح المغلوب ويقربه الى [جوبيتر] زيادة في التعظيم. ونزل حومة الوغى وقهر عدوّه ثم تلت ذلك معركة هزم بها جيش الخصم المقهور واستولى على مدينته، لكنه لم يلحق اي اذىً بسكانها وانما امرهم بتقويض بيوتهم. وان يتبعوه الى روما فيمنحهم كل حقوق المواطنة(٥٨). الحق يقال ان عظمة روما

(٥٥) في الفقرة المشار اليها حذف پلوتارخ واحدة من اهم الملل الطبيعية المعزوة الى (فستوس) وهو ان الرمح بوصفه شعار السلطان قد يفرض على المرأة واجب الخضوع لبعلها (الاخلاق: السؤال رقم ٨٧).

(*) عيد الحصاد (من كونسوس Consus).

(٥٦) ومن هؤلاء عددٌ كبير من اللقيديمين هربوا تخلصاً من قوانين ليكورغوس الجائرة فتركوا سپارطه واستقروا في ايطاليا وأخذ عنهم المواطنون الاصلاء عاداتهم. [هذا كما يبدو عند ديون ٢:١١].

(٥٧) سكّان لاتيوم Latium القديمة.

(**) ليڤي ١:١٠.

(٥٨) يختلف پلوتارخ مع المؤرخين اختلافات كثيرةً وبعضها جوهري، حول تفاصيل الحملة. وليس في الامكان ايراد هذه الاختلافات وتمحيصها ومضاهاتها في حاشية تعريف مقتضبة. فلتراجع عند ليڤي وديون.

وسؤددها لم يكن مديناً لشيء قدر ما هو مدين الى مزجها وتوحيدها كل ما تفتحه من البلدان. ولأجل ان يبرّ رومولوس بنذوره [لجوپيتر] بأحسن ما يمكن ولأجل أن يجعلها مصدر استمتاع لأهل المدينة عمد الى قطع بلوطة باسقة وجدها نامية في المعسكر فهندمها على شكل تمثال، ثم كساها دروع [اكرون Acron] كما يكتسبها المحارب ولمّ اطراف ثيابه على جسده وحمل التمثال وشعره يتماوج خلف اذنيه في النسيم بلطف آسرٍ واسنده على كتفه الايمن بصورة عمودية ثم ساربه وهو ينشد اناشيد النصر يتبعه كل جيشه فاستقبله الأهالي بهتاف الاعجاب والفرح. وكان موكب ذلك اليوم المثل المحتذى لكلّ مواكب النصر الرومانية التالية.

هذه الخشبة المنحوتة أوجدت نوعاً جديداً من القربان [لجوپيتر فيرتيريوس] (جاءت من فيريري Ferire[٥٩] وتعني باللاتينية: الضرب) لأن رومولوس رجا الاله ان يضرب عدوه ويهزمه. وسميت الغنائم [اوپيما Opima][٦٠] أو الأسلاب الملكية، على زعم [ڤارو] لأنها كانت قيمّة جداً، كما تدل عليه كلمة [اوپيس Opes] وإن يذهب الظن بالمرء الى انها مشتقة من [اوپوس: Opus] أي «عمل»، ودرجت العادة أن لايخلع شرف اعطاء «الغنائم الملكية» إلاّ على قائد الجيش الذي يقتل بيده قائد جيش العدو[٦١]. ولم ينل مثل هذا الشرف غير ثلاثة من قادة الرومان اولهما رومولوس لقتله (اكرون) السينينيسي، وثانيهما [كرينليوس كوسوس Cornelius Cossus] لقتله [طولمنيوس Tolumnius] التوسكاني[٦٢]، وثالثهما [كلوديوس مارچلّس Claudius Marcellus] لبطشه بـ[ڤيريدومارنوس -Viridomar

---

(٥٩) هذه الكلمة لم تكن مستعملة في ذلك الحين والارجح انها مشتقة من لفظة Ferire وهو الحَمْل. لأنّ روملوس حَمَل بنفسه الدروع الى هيكل جوپتر. أو لعلها على أغلب الاحتمال مشتقة من الكلمة الاغريقية فيرترون التي يفسرها ليڤي (١:١٠) باللاتينية Ferculum ومعناها غنيمة حرب.

(٦٠) فستوس يشتق أوپيما من كلمة Ops وتعني «الأرض وثرواتها» و Opima spolia بحسب راي الكاتب تترجم بـ«الأسلاب الثمينة». ولم تكن كلمة opus كثيرة الاستعمال في ذلك الحين مثل كلمة Ferire على أغلب الاحتمالات.

(٦١) هذا ما اثبته ليڤي حول الموضوع كذلك. الاّ ان (ڤاروّ) الذي ينقل ڤستوس عنه، يخبرنا انه ربما كان للروماني الحق في «الأسلاب الثمينة» حتى ولو كان جندياً بسيطاً miles manipolaris شريطة ان يقتل قائد جيش العدو ويستولي على شكة سلاحه. ولهذا نجد (كورنيليوس كوسوس) يغتنمها عند قتله (تولينوس) ملك التوسكان ولم يكن أكثر من (ترييون) تحت أمرة (اميليوس). وعلى أغلب الاحتمال لم يدخل (كوسوس) روما راكباً عربة النصر وانما تبع قائده وهو يحمل «الأسلاب» على عاتقه. ولا يقطع ليڤي برأي حول رتبة (كوسوس) وقت ان حقق نصره. رغم تأكيد (اغسطس) له بأنه وجده يسمى بالقنصل في السجلات. وانه ما فعل هذا إلا احتراماً لسيده الامبراطور. ولأن شهادة (ڤارو) يجب ان تدحض اسطورة مشكوكاً فيها وان وجدت حقّاً فمن الممكن جداً ان اللقب قد استعير من واقع رفع كوسوس الى مرتبة القنصل.

(٦٢) كان هذا العام ٤٣٦ ق.م، حسبما اورده ليڤي ٤:٩، ١-٥.

nus] [٦٣] ملك الغاليين والثاني والثالث دخلا المدينة في موكب النصر وهما راكبان عجلة حاملان اسلابهما بنفسهما. وقد اخطأ [ديونيسيوس] [٦٤] في التأكيد بأن رومولوس استخدام عجلةً في هذه المناسبة [٦٥]. وينبئنا التاريخ ان [تارقينيوس Tarquinnius] ابن [داماراتوس Damaratus] كان اوّل من بلغ بمواكب النصر الى هذه الدرجة من الروعة والجلال. ويقول آخرون ان [پوبيليكولا Publicola] هو اول من استخدم العجلة في مواكب النصر هذا وان تماثيل رومولوس التي تمثله في موكب النصر، لايوجد منها ما تظهره راكباً في كلّ ما هو موجود منها في روما.

بعد ان تغلّب رومولوس على السينسينين، أخذ السابين الآخرون يتربصون الفرص ويستعدون الزمن، ثم وحّد اهل [فدينيا Fedena] و[كروستوميريوم Crustomerium] و[انتمنا An-temna] قواهم ضدّ الرومان [٦٦] لكنهم منوا بهزيمة نكراء، ونزلوا عن مدنهم لرومولوس فاستولى عليها وضبط اراضيهم وتخوفهم فوزعها واستاقهم جميعاً الى روما. إن الاراضي التي استولى عليها رومولوس، قسمها بين الرومانيين، الاّ انه استثنى اراضي اباء الفتيات المخطوفات وابقاها لهم. وثار غضب سائر السابين لهذا العمل وامّروا عليهم [طاطيوس Ta-tius] قائداً وزحفوا الى روما. وكانت المدينة منيعة يكاد يتعذر اقتحامها، فمن تحكيماتها ما يعرف اليوم بالكاپيتول، وهو حصن وضع فيه كتيبة قوية من الحرس على رأسها [تارپيوس] لا [تارپيا Tarpia] العذراء على ما زعمه بعضهم ليظهروا رومولوس بمظهر الأحمق. لكن [تارپيا] التي هي بنت قائد الحصن كانت مغرمة بالأساور الذهبية والحلي التي يتحلّى بها العدو، ولذلك عرضت تسليم الحصن الى السابين إن كوفئت على خيانتها بكلّ الحلي التي تحلى اذرعتهم اليسرى. فوافق [طاطيوس] وفتحت لهم احد الابواب ليلاً وادخلتهم. لم يكن [انتيگونس Antigonus] وحيداً في قوله انه أحبّ الخونة، لكنه كره الذين كانون. ولا القيصر الذي قال محدثاً [ريميتاقليس] التراقي انه ليحبّ الخيانة ولكنه يكره الخائن، هذا هو الشعور العام لمن اتفق له وحظي بخدمات الخونة واشرار الناس، وهو نفس ما يرى الناس في

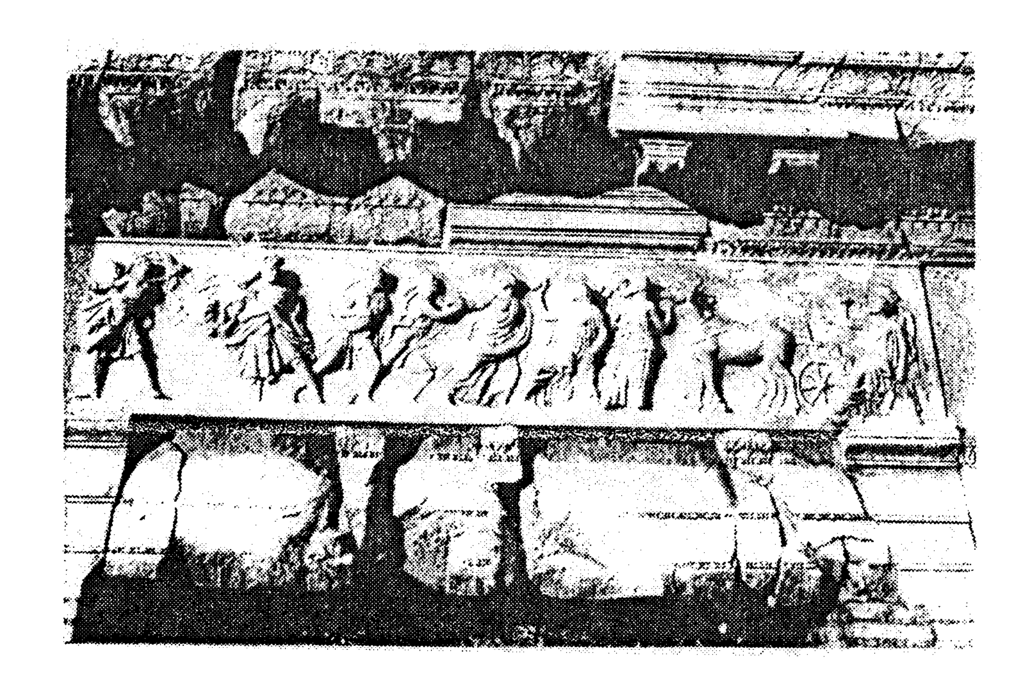
---

(٦٣) وفي نسخ أخرى يكتب «بريتومارتس Britomartus» وقد كان هذا في العام ٢٢٢ ق.م. (انظر سيرة مارجللوس في الكتاب).

(٦٤) روما القديمة ١١:٣٤.

(٦٥) المرجع نفسه: پوبليكولا ٩:٥.

(٦٦) [ليڤي] المرجع السالف ١١:١. أو بحسب اقوال غيره من المؤرخين فقد كان كلّ منهم يحارب على انفراد كلما اكمل استعداده. وبالشعار نفسه Dum singuli pugmant iniversi vincuntur (توكيديدس: جرمانيا) ولك يكن لأهل [فدينيا] علاقة بهذا التحالف فهم توسكان تابعون لـ(ڤيبى) ولانزاع ثم بينهم وبين الرومان طبعاً حتى وفاة (طاطيوس).



اغتصاب نساء السابين





سمّ الحيوانات، فهم راضون عنها ما دامت ذات نفع لهم، لكنهم يمقتون شرها وخبثها حين ينفضون ايديهم منها. وهذا هو المسلك الذي سلكة [طاطيوس] مع [تارپيا] بعد تسليمها الحصن. فقد أمر السابين بايفاء الشرط وبألاّ يضنوا عليها باي جزء من حلي اذرعتهم اليُسرى، وكان هو أول من خلع اساوره والقاها عليها واتبعها بدرع صدره(٦٧) وحذا الباقون حذوه وارتفع المقذوف من الحلي فوقها حتى دفنت تحت أكداس الذهب والدروع ففاضت روحها تحت الثقل والضغط. وحاكم رومولوس، القائد تاريپوس وادانه بالخيانة. على حَدّ قول (يوبا) الذي نقله لنا [سولپيشيوس گالبا Sulpicius Galba] واما من كتب بخلاف ذلك عن تاربيا زاعماً انها كانت بنت [طاطيوس] وان رومولوس احتجزها بالاكراه، وانها فعلت ما فعلت وجازاها ابوها على نحو ما قدمناه، هؤلاء انما يخبطون خبط عشواء. ومنهم [انتيگونوس](٦٨). امّا [سميلوس] الشاعر الذي يرى ان تارپيا لم تسلم الكاپيتول للسابين سبل للغال لوقوعها في حب ملكهم، فهو اكثر تخريفاً من أولئك، حين يقول:

كانت (تاربيا) التي تسكن قريباً من الكاپيتولي

هي التي فتحت ابواب روما للعدو.

هي التي سلمت الكاپيتول، حصن المدينة الأمنع

لأنها وقعت في حبّ المهاجم الغاليّ!

فغدرت بمنازل ابائها

وبعدها بقليل يتكلم عن موتها فيقول:

إن الجموع الغفيرة من الأعداء الغاليين والبوي Boü

لم يرضوا أن تبقى حية تعيش على ضفاف اليو Po

فالقوا بتروسهم فوق الفتاة.

وبهداياهم الثمينة قتلوها ودفنوها في الحال.

دفنت (تارپيا) هناك. وأطلق اسمها على التل المعروف [بتارپيوس] وظلّ يعرف به حتى

---

(٦٧) يذكر (بيو) ومؤرخون آخرون أن طاطيوس عاملها بهذا الشكل لأنها قامت بدور مزدوج فعملت على خيانة السابين من أجل روملوس في حين جاهرت بخيانة الرومان من أجل السابين. (ديون ٢:١٠) وبرهاناً على هذا التكريم الذي نالته من الرومان بعد وفاتها وليڤي (١:١١) يسجل ذلك ولا يعارض فيه.

(٦٨) كتب (انتيغونس كاريستيوس) تاريخاً لايطاليا. وجمع جملة من «الحكايات العجيبة» في عهد [بطليموس فلادلفوس] وأمّا (سميلوس) فقد نظم تاريخاً شعرياً لايطاليا.

عهد الملك (تاركوين Tarquine) الذي أوقف الموضع على جوبتر فنقل رفاتها وضاع اسمها، إلاّ في ذلك الجزء من الكابيتول الذي مازالوا يسمونه «الصخرة التاربية»، وهي الصخرة التي اعتادوا القاء المجرمين منها الى الهاوية.

بعد ان سيطر السابين(٦٩) على المرتفع، ثارثائر رومولوس واشتبك معهم في معركةٍ، وكان [طاطيوس] واثقاً من نفسه فلم يتحاش الاشتباك، مدركاً انه لن يخسر شيئاً في حالة هزيمته فخلفه مواقع حمايةٍ منيعة وكان السهل في الوسط وهو ميدان القتال، تحيط به آكام عديدة صغيرة يبدو وكأنها ستملي على الفريقين قتالاً مريراً عنيفاً بسبب وعورتها. وعدم وجود منافذ كثيرة فيها وصعوبة الكر والفرّ. وأتفق أيضاً ان النهر الفائض كان قد غمر ساحة المعركة قبل مدة ليست بعيدة. ولما انحسر عنها ترك خلفه (حيث يقوم الفورم اليوم) موحلة عميقة عمياء خادعة لا تعرف حدودها ولا يظهر مدى خطورتها للعين المجردة. ويصعب اجتنابها، وصادف السابين حسن حظ نادر، بينما هم يهمون بدخولها دون حذرٍ او ارتياب. اذ كان [كورتيوس Curtius] وهو رجل مقدام متشوق الى كسب الشرف في القتال، ذكي سريع الخاطر، يخبّ بجواده امام الآخرين(٧٠)، اذ باقدام حصانه تغوص في الطين، فحاول اخراجه بالسوط والمهماز والصياح، وبعد فترة ادركه العجز فتركه وانقذ نفسه. ومنذ ذلك اليوم وهذه البقعة تعرف ببحيرة [كورتيوس]. وبعد أن نجا السابين من هذا الخطر راحوا يقاتلون احسن قتال ويبلون خير بلاء، وظلت نتيجة معركة ذلك اليوم غامضة، في حين سقط كثير من القتلى، ذكر بينهم [هوستيليوس] زوج [هرسيليا]، وجَدُّ [هوستيليوس] الذي حكم بعد [نوما]. ثم حصلت اشتباكات قصيرة عديدة إلاّ ان أعظمها وعلى الارجح، أوقعها في النفس وابعدها أثراً هو الاشتباك الأخير، فيه اصيب رأس رومولوس حَجَرة من حجرة شجتّه، فكاد يسقط صريعاً ويعجز عن متابعة الحرب... وتخاذل الرومان وبدت عليهم علائم الهزيمة وراحوا

---

(٦٩) ليفي: المرجع السالف ١٢:١.

(٧٠) ليفي [١٣:١] وديون [١٠:١١] يثبتان خلاف ذلك. اذ يذكرا ان (كورتيوس) صدّ هجمة الرومان أوّلاً إلاّ انه غُلب على أمره بكرّةٍ من روملوس وبمحاولته الانسحاب المنظم فقد سقط سقطة لا نجاة منها في البحيرة التي سميت باسمه منذ ذلك الحين: Lacus Curtius حتى عندما جفّت وكادت تكون وسط الفورم. ويقول [بروچيليوس] ان الأرض قد تشققت. وصرح الارسپيچي بانه من الضروري أن تحشد قوى المدينة لمنفعة المدينة فتقدم هذا الشاب المدعو كورتيوس (ليفي ٦:٧) الذي عرف بالبسالة والصبر على القتال وهو على صهوة حصانه وتحته اثمن السرج وقذف بنفسه في البركة بكامل دروعه فالتحمت شقوقها في الحال. وكانت هذه البركة قبل فتح قنوات المجاري اشبه بالبالوعة تصبّ فيها كل مياه روما القذرة. ويرى بعض الكتاب انها أخذت اسمها من القنصل [كورتيوس] زميل ماركوس جينوشيوس في الحكم لأنه أمر بتسويرها بناء على نصح الارسپيچي بعد ان ضربتها صاعقة.

يفرون باتجاه [البالاتيوم]، وفي تلك الاثناء استجمع رومولوس بعض قواه واستدار لتجديد سُعار المعركة وواجه قومه المنهزمين مشجعاً بصوت جمهوري حاثاً اياهم على الصمود والقتال هذا والعدو يتكاثر عليه عددياً وجنوده يحجمون عن الثبات ومواجهة الخصم. فبسط يديه نحو السماء متضرعاً الى [جوبتر] لايقاف فرار الجيش ورعاية حق روما والعناية بأمرها في أعظم خطر تجابهه. وما أن أنهى صلاته حتى صَدّ الخجل منه والاحترام له كثيراً من المنهزمين عن الفرار، وأنقلب خوفهم الى ثقة. إن أول المواضع التي ثبتوا فيها كان المحل الذي يقوم عليه الآن معبد [جوبتر ستاتر] (قد يمكن ترجمته بجوبتر اللابث) وفيه انتظمت صفوفهم ثانية، وكرّوا على السابين ودفعوا بهم الى موضع يعرف الآن بـ(ريجيا)[71] ثم الى معبد (فستا).

تأهب الفريقان لخوض معركة ثانية فحال بينهم وبين ذاك مشهد عجيب يقصر عنه الوصف. فقد أسرعت بنات السابين المخطوفات، مهرولات في اضطراب عظيم، بعضهن من هذه الجهة وبعضهن من تلك كأن بهنّ مساً من الجنّ. حتى صرن في وسط الجيش بين جثث القتلى. وبلغن مواقع ازواجهن وابائهن، بعضهن يحملن اطفالهن، وبعضهن محلولات الشعر والريح تعبث به، بنادين السابين مرةً، والرومان مرةً بأرق الكلمات وأكثرها حناناً. وهنا غلبت العاطفة نفوس الفريقين فانكفاؤا الى الوراء ليفسحوا لهن سبيلاً بين الجيشين.

أحدث منظر النسوة حزناً وألماً عميقاً في قلوب الجميع، لكن عباراتهم التي بدأتها باللوم والتفيف، وانهينها بالضراعة والعتاب، كان لها التأثير الأقوى. وهذا ما قلن لهم:

«اي أذىً نالكم منا لنستحق منكم هذا العنت والعذاب في الماضي والحاضر؟ لقد جرى خطفنا بظلم وعدوان، وبالقوة والاكراه، خطفنا أولئك الذين نرتبط بهم الآن برابطة الزوجية. وبعد ان ثمّ ذلك أهمل آباؤنا وأخوتنا وبنو قومنا أمرنا زمناً طويلاً، والآن ونحن مرتبطات بأوثق رباط مع أولئك الذين كُنّا نكرهم كراهة الموت في الماضي، لا نملك أنفسنا من الرجفة للخطر، والبكاء لموت أولئك الرجال الذين أعتدوا علينا، انكم لم تنتصفوا لشرفنا من المعتدين عندما كُنا عذارى. ولكنكم جئتم اليوم لتنتزعوا بالقوة الغاشمة، نساءً من أزواجهن، وأمهات من أطفالهن، وهي جريمة أعظم خطراً بنواياها الوضيعة من أهمالكم السابق لهنّ وغدركم بهن. فأيهما أشنع؟ أمضاجعة هؤلاء لنا، أم اشفاقكم علينا؟ إن كنتم اردتم حرباً لأب سبب آخر من الأسباب فالواجب يقضي عليكم لأجلنا أن ترفعوا ايديكم عن أولئك الذين جعلوكم اجداداً لاولادهم، وأحماءً لهم. وان كانت حربكم هذه لأجلنا، فها

(٧١) هو منزل الكاهن الأعظم في الازمنة التاريخية الأولى.

نحن اولاء، خذونا وخذوا معنا أختانكم وأحفادكم، اعيدونا الى ابائنا وبني قومنا ولا تحرمونا أزواجنا وأولادنا. نتوسل اليكم الاّ تجعلونا مسبيات مرتين».

تكلمت [هرسيليا] بكثير من هذا، وراحت الأخريات يتوسلن بكل حرارة. ولم يعد ثم سبيل إلا الى الهدنة، واجتمع الزعماء الكبار للمداولة. وجاءت النسوة بابنائهن وأزواجهن الى ابائهم واشقاهنّ، وجلبن اللحم والشراب لمن يحتاج، ونقلن الجرحى الى منازلهن لتمريضهم، وهنا أظهرن لذويهن مبلغ سيطرتهن على منازلهن. وكم يحترمهن أزواجهن، ويبدون لهن ضروب التجلة والاحترام ويحيطونهن بكل ما يتصور من العطف والودّ. وأتفق الجانبان على الشروط التالية: للنساء الراضيات بحالهن ان يبقين حيث هنَّ على أن يعفين -كما ذكرنا- من كل الأعمال الذليلة المتعبة، بأستثناء الغزل وان يسكن السابين والرومان المدينة معاً. وأن تسمّى المدينة روما من [رومولوس، وتسمّى [كوريتيس Quirites] [٧٢] من مواطن [طاطيوس]، وان يحكم هذان الزعيمان معاً ويمارسان القيادة بالتساوي، وكان مَحَلّ المعاهدة يدعى [كوميتيوم Comitium] [٧٣] من [كويري Coire] اي اللقاء أو الاجتماع.

وهكذا تضاعف عن عدد سكان المدينة. وأنتخب مائة من السابين[٧٤] (شيوخاً) وزيد ملاك الكتائب العسكرية الى ستة الآف راجل، وستمائه فارس[٧٥]، ثم قسُمّ الشعب الى ثلاث

---

(٧٢) لكلمة كويرس في لغة السابين معنيان. فهي «رمح»، وهي أيضاً «آله محارب يحمل رمحاً» وليس بالإمكان التحقق من ايهما أعطى اسمه للآخر. ومهما يكن فالربّ كويرس أو كورينوس هو إما (مارس) أو هو آله حرب آخر كان يعبد في روما حتى وفاة رومولوس الذي كُرمت ذكراه بخلع لقب كورتيوس عليه. ويقول [ديون] ان الشخص كان يدعى (رومانوس) والشعب كان يطلق عليه (كوريتيس). إلاّ ان القسم الأول من دعواه تلك ستخالف الصيغة القديمة لإعلان الدفن Ollus Quiris letho datus est.

(٧٣) يقع الكوليسيوم عند قدمة تل پالاتينا مقابل الكاپتول. غير بعيد عن الموضع الذي بنى فيه الملكان هيكل (ڤولكان). حيث كانا يجتمعان عادة مع مجلس الشيوخ لأخذ رأيه في المسائل العامة. هذا الاسم فرض نفسه بعد عهد رومولوس وبقي زمناً طويلاً.

(٧٤) يناقض پلوتارخ نفسه هنا عندما يذكر في سيرة (نوما) بأن عدد اعضاء مجلس الشيوخ كان مائة وخمسين. أو لعلّ رومولوس بسبب استبداده في آخر ايامه لم يهتم بملء المقاعد الشاغرة في ذلك المجلس!

(٧٥) أكتشف المؤرخ روالد Ruald في تعليقاته على پلوتارخ، خطئين كبيرين هنا. أولهما قوله ان رومولوس ضم ٦٠٠ فارس الى الفرقة العسكرية في حين لم يضم مثل هذا العدد الكبير الى الفرقة في اي وقت من الاوقات. فقد كان ملاكها مائتين أولاً ثم ارتفع الى ثلاثمائة ثم بلغ أخيراً الاربعمائة وبقي كذلك. وأمّا الخطأ الثاني فقوله ان رومولوس جعل فرقة الرجالة في حين لم تتعد في زمانه نصف هذا العدد. وقال بعضهم ان (ماريوس) كان أوّل من رفع ملاك الفرقة الى ستة آلاف. لكن (ليڤي) يخبرنا، ان ذلك حصل قبل عهد (ماريوس) بزمن بعيد، وقد احدثه سكيپيو افريقانوس. وبعد طرد الملوك جُعل ملاك الفرقة ما بين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ ثم أرتفع الى ٥٠٠٠ حتى جعلها (سكيپيو) ٦٠٠٠ ولم يلجأ الى هذا الاّ في الحالات الخاصة وعند الضرورة القصوى فملاك الفرقة الرسمي هو أربعة آلاف راجل ومائتا فارس. الاّ ان [م. ريكارد] يتفق مع پلوتارخ بايراده هذا العدد الذي اثبته النص وباعتباره فرقة رومانية - سابينية =

قبائل: سميت الأولى [رامنينسيس Ramnenses[٧٦]] من رومولوس، والثانية [طاطينسيس Tatinses] من طاطيوس، والثالثة [لوچيرنسيس Lucerenses] من لوكوس، اي البستان، حيث يقوم الملجأ الذي شيّد ليلوذ به كل هارب أو لاجيء فيلقى الأمان المنشود، ويقبل مواطناً في المدينة. ومما يدل ان القبائل كانت ثلاثة ما يظهر من الصفة «تربيه Tribe» و«تريبيون Tribune». وكل قبيلة تتألف من عشرة [كيوريات Curiae] أو أفخاذ، والاسم مأخوذ من اسم المرأة السابينية على ما يقوله البعض. لكن لا أساس لهذا التعليل فكثير من النساء يسمين باسماء امكنة مختلفة. وان كانوا والحق يقال كثيري الاكرام نسائهم لطالما احيوا ذكراهن بوسائل مثل هذه. كانوا يفسحون لهن طريق المرور كلما التقوا بهن. ولاينطقون بكلمة نابية في محضرهن، ولايظهرون عُراة امامهنّ واذا قتلن شخصاً لايحاكمن امام القضاة العاديين[٧٧]. وان يتحلّى اطفالهنّ بحليةٍ تسمّى لوللاً[٧٨] (لأنها شبيهة بفقاعة الماء) يحطن بها أعناقهم. ويلبسنهم البرتكستا Praetexta وهو رداء ذو حواش ارجوانية.

لم يجتمع الزعيمان للمشاورة في الحال. وإنما اجتمع كل منهما بشيوخه المائة على حدة أولاً، ثم اجتمعوا سويةً. وسكن [طاطيوس] حيث يقوم اليوم معبد [مونيتا Moneta] وسكن رومولوس بالقرب من درجات «الساحل الجميل»[٧٩] وهو الموقع القريب من منحدر جبل [پالاتين Palatine] المتجه نحو الملعب الأكبر. ويقال ان شجرة توت مقدسة نمت هناك، وذكر

= مختلطة اي فرقتين في الواقع.

(٧٦) أختلف الباحثون في أصل هذا الاسم. وثم عدة افتراضات فـ[ليفي ١:٣] يقر باستحالة التحقق من اصله. في حين يستقّه [فستوس] من لفظة ليچروس Lucerus وهو ملك اردبا Ardea ويشتقه ڤارو من لفظة لوكومو Lucumo وهي اسم زعيم إتروري شهير رومولوس في حروبه. وامّا (الرّانييسي) فأغلبهم من (ألبا) سكنوا تلّي پالاتينا وچيليا. وامّا التاتينسي) فهم سابين خصص لهم تلاّ كاپتولين وكورينال. واما القبيلة الباقية فتشمل اللاجئين من اتروريا ولاسيوم وقد سكنت الفسحة الواقعة بين القبيلتين المشار اليهما آنفاً.

(٧٧) وانما امام مندوبين يعينهم مجلس الشيوخ من بين اعظائه.

(٧٨) عندما يرتدي الشبان «الرداء الرجولي Toga Virilis» فانهم يخلعون الـ(پوللاّ) وهي خلية ذهبية على شكل كرة جوفاء ويقدمونها لآلهة البيت Dü Lares. فاذا توفي الشاب قبل بلوغه السادسة عشرة، فان الحليه توضع في الوعاء الذي يحوى رماد الميت. ويقول ساتورنينوس ١:٦ ان هذه الحلية لا يقتصر التحلي بها على الاحداث بل أنها تزين أولئك الذين يكرّمون بموكب نصر اذ تقوم بتقليد واحدة كبيرة منها كبيرة الكاهنات الڤستالات كعلامة من علامات التكريم. كما ان النسوة يضفها الى ما يتزيّن به الحلى. وامّا بخصوص الجلباب ذي الحاشية الارجوانية فان الفتيات العازبات يرتدينه حتى يتزوجن. كما يرتديه الشبان حتى يبلغوا السابعة عشرة. الاّ ان ما كان اشارة تكريم لأولاد نساء السابين في عهد رومولوس اصبح شائعاً بين الجميع حتى شمل اولاد العبيد العتقاء.

(٧٩) ربما كان النص اليوناني [خاخون] محرفاً، ولا شك ان المقصود هنا «Scalae Caci: درجات كاكي».

(٨٠) أو لأجل تحديد فسحة للعرافة على حدّ زعم (سرڤيوس).

عن كيفية نموها ان رومولوس اراد مرة أن يجرب قوته(٨٠) فقذف من جبل آڤنتين برمح قناته مصنوعة من خشب تلك الشجرة فطار بعيداً ثم انغرز عميقاً في الأرض ولم يفلح أحدٌ في انتزاعه رغم تعاون الكثرة وبقي في موضعه وكانت التربة خصبة فامدت الخشبة بالغذاء فنمت وافرعت وازهرت واستوت جذعاً كبير الحجم. وتولى السلف الشجرة بالعناية وأكرموها وعبدوها وعدوها من أقدس الذخائر واحاطوها بجدار. فاذا بدت لأيّ ناظر قليلة الاخضرار والازدهار مائلة الى الذبول والاصفرار فزع حالاً الى اي مستطرق يلقاه لتهيئة الماء فتقوم ضجةٌ حتى لكأن بيتاً يحترق ويهرع الناس من كل صوب بأوعية الماء ليسقوا الشجرة... وعدما كان (كايوس قيصر Caius Caesar] يرمم الدرجات المحيطة بها، اتلف بعض العمال جذورها عندما كانوا يحفرون بالقرب منها فيبست.

واتخذ السابين الأشهر الرومانية؛ وقد ذكرنا في سيرة [نوما] كل ما هو مهم في هذا الباب. واتخذ رومولوس تروسهم الطويلة ونبذ دروعه ودروع الرومان كافة واتخذ دروعهم، فقد كان الرومان يشبتون فوق صدورهم درقات مستديرة على الطراز [الاركيڤي Argive] وكانت اعيادهم وقرابينهم مشتركة، ولم يلغ عيد من أعياد الشعبين. واستحدثوا أعياداً جديدةً منها عيد [ماتروناليا Matronalia](٨١) الذي انشيء تكرعاً للنساء وأعترافاً بمجهودهن في أطفاء نار الحرب، وأحدثوا أيضاً عيد [كارمنتاليا Carmentalia](٨٢)، ويخيل لبعضهم ان [كارمنتا Carmenta] هذه هي ربّة تشرف على ولادة البشر، لذلك تكرمها الامهات كثيراً. ويظن بعضهم انها زوج [ايڤاند] الأركادي. وهي كاهنة عرافة ترسل نبوآتها شعراً، وقد أسميت [كارمنت] من (كارمن: اي شِعر). واسمها الحقيقي [نيقوستراتا]، ويرى بعضهم أن أقرب الإحتمالات في اسم الكاهنة هو اشتقاقه من لفظ [كارنس - منتي] ومعناه مختل العقل(*)، اشارة الى الحركات الجنونية والتشنجات التي تعتريها اثناء نزول الوحي عليها.

---

(٨١) في اثناء هذا العيد يتوجب على كلّ الرومانيات المتزوجات القيام بخدمة عبيدهن على المائدة. وان يقبلن الهدايا من أزواجهن مثلما يقدم الازواج لهن من هدايا في عيد [ساتورناليا]. ولم يكن عيد (ماتروناليا) قاصراً على تكريم النساء السابينيات بل هو مخصّص لـ (مارس) ولـ(جونو لوكانيا) الى حدّ ما. ويقعُ في الاول من شهر آذار على خلاف ما ذكره بعض المعلقين الآخرين.

(٨٢) وهو عيد كبير يقع في ١١ من كانون الثاني وتقام مراسيمه في اسفل الكاپتول بالقرب من باب كارمنتال. ويرفع الدعاء والصلاة للربة (كارمنتا) من أجل اخصاب نساء روما ولساعة ولادة سهلة (اوڤيد ١:٦١٧) وپلوتارخ أيضاً في (أسئلة رومانية) فانه يجعل (كارمنتا) أمّا لـ(ايڤانْدِر) ان قصة هذه السيدة وقصة لوپركاليا التي تتلوها في المتن هي من نسج الخيال المحض.

(*) Caurc «مختل او مسلوب» و Mens «عقل».

أما عيد [پاليليا] فقد سبق لنا الكلام عنه. والذي يبدو ان عيد [لوپركاليا Lapercal-ia][٨٣] هو عيد التطهر، لأنه مأخوذ من الزمن الذي يقام فيه وهو غير ايام السفاد Dies Nefasti من شهر شباط واسم (شباط February) نفسه يعني التطهر. والعيد نفسه كان يدعي في قديم الزمان [فبرواتا Februata] إلاّ أن اسمه مرادف للاسم اليوناني (لكيا Ly-caea) ويبدو انه موغل في القدم جاء به الاركاديون الذين صحبوا [ايڤاندر][٨٤]. على ان كل هذا رجمٌ بالغيب وتخمين، اذ قد يأتي ايضاً من «الذئبة» التي ارضعت رومولوس، وأننا لنشاهد الكهّان [اللوپيركي Luperci][٨٥] يبدأون طوافهم من الموضع الذي قيل ان رومولوس تُرك فيه. لكن المراسم التي تتمّ فيه تجعل من أصعب الأمور التوصل الى الحقيقة. فثم ماعزٌ ينحرُ، ومن ثم يؤتى نبيلين صبيين ويقوم بعضهم بوسم جبهتيهما بالسكين الدامية، ثم يقوم آخرون بمسح ما خلفته السكين من دماء بقطع من الصوف مغموسة بالحليب، وعلى الصبيين أن يضحكا بعد مسح جبهتيهما وبعد هذا تقطع جلود الماعز سيوراً يمسك بها الصبيّان ويهرولان وهما عاريان إلا مما يستر عورتيهما، يضربان بها كل من يصادفهما، ولا تتجنّب الزوجات الصغيرات تلك الضربات لأنّها تساعدهنّ على الحمل كما يشاع بينهنّ. أو ثم شيء آخر غريب في هذا العيد، وهو ان [اللوپيركي] يضحون بكلب. هذا وان شاعراً من الشعراء كتب تفاسير خرافية للعادات الرومانية على شكل قصائد تقريض فيقول في هذا الصدد، انه رومولوس وريموس بعد ان حققا النصر على اموليوس، ركضاً فرحين الى الموضع الذي ارضعتهما فيه الذئبة. وأحياءً لهذه الحادثة انشيء هذا العيد، ولذلك يركض الصبّيان النبيلان...

«وهما يضربان كل من يصادفهما. حين أقبل التوأمان الشهير ان من مدينة [ألبا] مسرعين والسيف في يد كل منهما».

أما إمرار السكين الدامية على جبهتيهما، فهي اشارة الى الأخطار التي حفل بها ذلك اليوم، وما جرى فيه من سفك دماء. واما مسحهما بالحليب فهو ذكر اطعامهما وتغذيتهما. ويكتب [كايوس اجيليوس Cauis Acilius][٨٦] ما مفاده أن قطيع ابقار لريموس ورومولوس شُتتت في الفلاة، قبل ان تبنى روما، صليا لرب [فونوس Faunus] ثم خرجا للبحث عنها

---

(٨٣) يحتفل بهذا العيد في الحادي عشر من شباط تكريماً للرب (پان) وبسبب عداءٍ يكنّه للذئاب فقد سمى [لوپركوس]: من ذئب Lupa.

(٨٤) ليڤي ١:٥ و ١-٢.

(٨٥) اي كهانة الرب (فاونُس) الذي هو (پان) عند الرومان مثلما ذكر.

(٨٦) هو مفوض الشعب (Tribume) كتب بالاغريقية في بعض الحوليات. ويخبرنا ليڤي ان (كلوديوس) ترجمها الى اللاتينية وأقتبس منه شيشرون.

وهما عاريان لئلا يعرقلهما العرق الناضح منهما. وهو الذي جعل [اللوپيريكي] يتراكضون عراة. امّا اذا كان القربان للتطهر فحسب فتضحية الكلب أمرٌ واجبٌ لأن اليونانيين كانوا يضحون بالجراء كما يشاهد ذلك في نقوشهم ومنحوتاتهم. وهم كثيراً ما يزاولون هذه المراسيم التي يسمونها [پريسكلاسيزموس Periscylacismus] [٨٧] اما اذا كان القربان لشكر الذئبة التي أطعمت رومولوس وحفظت حياته. فثم سبب وجيه للتضحية بكلب لأنه عدوّ الذئاب. إلاّ اذا كان سبب قتله عقاباً له على عرقلته اللوپيريكي اثناء ركضهم. وقيل ايضاً ان رومولوس هو أول من استحدث فريضة النار المقدسة. وعين عذارى مقدسات للابقاء عليها مشتعلة[٨٨]، سمين ڤستالات. ويقول آخرون أن [نوما بومپيليوس] هو موجد هذه الفريضة. وهم يتفقون على كل حال أن رومولوس كان تقياً شديد التدين، ماهراً في اقامة الفرائض ولهذا كان يحمل عصاً معقوفة [ليتّوس Littuus] مما يستخدمه السحرة لرسم اركان السماء عندما يجلسون لمراقبة الطير، ظلّت عصا [رومولوس] محفوظة في الپالاتيوم، وضاعت عندما استولى الغاليون على روما، ثم عثر عليها بعد طرد هؤلاء البرابرة في الأطلال والخرائب مدفونة تحت كومة عظيمة من الرماد[٨٩]، ولم تمسها النار بضرّ في حين أتت على كان ما كان حولها. واستن رومولوس قوانين، تميز احدها بالصرامة وهو يقضي بألاّ تهجر المرأة زوجها، ويخول الزوج حق طلاقها في حالة تسميمها أولادها أو تزييف مفاتيح الزوج، أو اذا زنت[٩٠]. واذا

---

(٨٧) أو [بيرسكو لاكيزموي Perisku Lakismoi]، ويتم ذلك بأن يدور كلب أو جروه حول الشخص المراد تطهير وبعد انتهاء الطواف يقتل الحيوان. وهذه المراسيم شائعة جداً عند الأغريق.

(٨٨) ما زال معبد ڤستا الرئيس قائماً في روما. وهو على شكل دائرة يتألف محيطها من عشرين اسطوانة - رخامية يعلوها افريز ذو نقوش بديعة ويتألف سقف من قرص مدبب أعلى في وسطه مثل قبعة الصينين وإطاره يرتكز على تيجان الاعمدة العشرين بني ليكون محراباً لشعلة النار المقدسة، التي كان الرومان يعتقدون انها ترمز الى قوة روما وعظمتها والتي كانت ترعاها الربة ڤستا في عرفهم. وتتناوب عذارى ڤستا السهر على الشعلة الدائمة ليل نهار، كما كان من واجباتهن رفع الصلاة للربة لتكفل رفاهية الشعب والدولة ونصر جيوش روما في الحروب وكان يعهد اليهن ايضاً ببعض محفوظات الدولة ووصايا الأباطرة والوثائق الهامة التي يتوقف على سرّيتها كيان البلاد. ولذلك كن يعتبرن حاميات روما وحارسات مجدها [م. ت].

ولابد وان پلوتارخ يقصد بانّ (روملوس) الأول هو أوّل من استحدث النار المقدسة في روما. وامّا عن وجود العذارى الڤستالات قبله في ضاحية (ألبا) فهذا مؤكد لأن امّه كانت واحدة منهن. امّا النار المقدسة الخالدة فلم تكن مقصورة على روما بل هي شائعة في مصر وبلاد الفرس وما بين النهرين واليونان ولدى كل الشعوب تقريباً. أخذها الاغريق عن الشرق وهي النتيجة الطبيعية لعبادة الشمس أو النار كما في الدين المجوسي.

(٨٩) يذكر شيشرون في رسالة النبوءات. انها أكتشفت في معبد كهنة ساليا في اعلى قمة تلّ پالاتينا.

(٩٠) مع هذا، فان الامتياز الذي اعتبره پلوتارخ تعسّفاً بحق المرأة، كان موسى النبي قد اباحه للرجال بدرجة واسعة. على ان حرية النساء عند الرومان كانت تبلغ حدّ أعطائهن الحق في تطليق ازواجهن كما يظهر =

سرّحها زوجها لسبب اخر غير هذه الأسباب الثلاثة، يصادر منه ملكه، ويعطي نصفه للمطلقة ويوقف النصف الآخر على الربّة [چيريس Ceres] (٩١) وعلى كل من طلق امرأته كفارة، وهي ان يضحى لآلهة الأموات. ولوحظ في رومولوس أنه انفرد عن غيره بعدم وضعه عقوبة ما لجريمة قتل الأب أو الأم الحقيقي (٩٢)، ولكنه ادمج الجريمة مع غيرها من القتول وفرض حكماً عاماً معتقداً أن القتول عامة اعمال شنعاء وأنّ هذا القتل مستحيل لا يقدم عليه أحد وثبت أنه كان مصيباً في حكمه هذا، فقد مرت ستمائة سنة متواصلة ولم يرتكب مثل هذه الجريمة في روما. وذُكر ان [لوشيوس هوكتيوس Lucius Hoctius] كان أول قاتل لأبيه وقد وقع ذلك بعد حروب [هانيبال]. وفي ما ذكرنا الكفاية.

في السنة الخامسة لحكم [طاطيوس] كان بعض اصدقائه وبني قومه قد صادفوا سفراء موفدين من [لورنتوم] (٩٣) الى روما فحاولوا سلبهم اموالهم ولما قاومهم هؤلاء بطشوا بهم جميعاً، وكان غدراً فظيعاً حمل رومولوس على الاستعجال في انزال العقاب بالمجرمين، إلاّ ان [طاطيوس] حال دون ذلك. وكان هذا مبدأ الخصام العلني الذي نشأ بينهما. ولم يظهر شيئاً منه في اثناء تصريفهما الشؤون العامة وكانا شديدي الحذر من الاصطدام وظهر بمظهر المودة والتفاهم. امّا ذوو القتلى فبعد ان حيل بينهم وبين الانتصاف الشرعي لقتلاهم بسبب تدخل طاطيوس. تربصوا به اثناء ما كان يقدم قرباناً برفقة رومولوس في [لاڤينيوم]، ووثبوا عليه وذبحوه (٩٤)، إلاّ انهم لم يتعرضوا [لرومولوس] بل رافقوه الى بيته باحترام وهم يثنون عليه لما ابداه من عدالةٍ، ودَفَنَ رومولوس جثمان [طاطيوس] دفنة فخمة جداً في جبل آڤنتين، قرب

= من جوڤينال ومارچيال (٤١:١٠) وفي الوقت نفسه يجب ان يلاحظ انه لم يعرف عن طلاق واحد وقع في روما خلال خمسمائة وعشرين عاماً وهو دليل على فضائل الرومان ومتانة أخلاقهم ولذلك يخصّ بالذكر [كارڤيليوس كيوريوس] بوصفه اول من طلق زوجه من الرومان.

(٩١) وهذا هو النص القانوني اللاتيني:

Familiam ad aedem Clreis; ispe sacer esto.

(٩٢) في هذا غرابة كبيرة. كما يلاحظ المؤرخ داسييه أن تعبير «القتل الابوي» كان موجودا قبل ان يرد ذكر لارتكاب مثل هذا الجرم.

(٩٣) ليڤي ١٤:١ و ١-٣. ويقول [ديون] انهم كانوا سفراء قدموا من [لاڤينيوم] في السنة السادسة لحكم (طاطيوس)، لرفع الشكوى من الاعتداءات التي ارتكبها اصدقاءٌ له في موطنهم. وانهم وقعوا اثناء عودتهم في كمين نصبه لهم السابين في الطريق فسلبوهم وقتلوا بعضهم. وكلتا المدينتين متجاورتان ومن اعمال (لاسيوم).

(٩٤) ربما كانت هذه ذبيحة للرب الأسيومي المسمى (اريديگدس) وروما تشارك فيه أيضاً لأن المهاجرين الطرواديين استقروا في ذلك الموضع. على ان (لوچينيوس) يقول ان [طاطيوس] لم يذهب الى هناك برفقه رومولوس. بل لم يذهب من أجل تقدمة الذبيحة وانما خرج وحده محاولاً اقناع الأهالي بالعفو عن القتلة.

موضع يدعي [ارميلوسترويوم Armilustrium] [٩٥] ولم يحاول الاقتصاص لمقتله. وذكر بعض الكتاب ان مدينة لورنتوم خافت العواقب فأسرعت بتسليم قتلة [طاطيوس] الاّ ان رومولوس أطلقهم قائلاً: لقد جَبَّ القتلُ القتلَ. وبهذا أحدث اسباباً للتقولات والتخرصات وثرثرة السنة الحسّاد اذ راحت تذيع انه ارتاح من ازاحة زميله وشريكه في الحكم، على ان مثل هذا الكلام لم يؤثر في السابين ولم يشرضغينة فيهم واستمروا يعيشون بسلام. وبقي اعجابهم واحترامهم له، إما لحبٍّ حقيقي يكنه له بعضهم، وإما خوفاً من بطشه، وامّا لاعتباره في منزلة الأرباب، وأظهرت الأمم الأخرى اجلالها لرومولوس ايضاً وارسل اللاتين عدة سفراء اليه ودخلوا في حلف اتحادي معه. وأستولى على [فديني Fidenae] [٩٦] وهي مدينة مجاورة لروما بكوكبة من الفرسان فقط سبقوه على ما قيل، مزودين بأوامر تقضي بكسر رتاجات ابوابها. وبعدها هجم بنفسه على غير انتظار. وقال آخرون ان سكان المدينة بداؤا العدوان وراحوا ينهبون الريف ويدمرون ما فيه فكمن لهم رومولوس، وبعد أن قتل عدداً كبيراً منهم أقتحم مدينتهم إلاّ انه لم يهدمها أو يقوضها بل جعلها مستعمرة رومانية وارسل اليها في الثالث عشر من نيسان الفين وخمسمائة مستعمر روماني.

وبُعيد هذا انتشر وباء الطاعون، وأخذ يهلك الناس دون سبق مرضٍ، فأمحل الزرع وجفّ الضرع وامطرت السماء دماً على المدينة[٩٧]، فأضيف الى البؤس الذي يعانونه، الخوفُ من غضب الآلهة. وعندما حلت المصائب نفسها [بلارنتوم] حكم الجميع أن النقمة السماوية حلّت بالمدينتين لأنهما لم تسلكا سبيل العدل في مقتل طاطيوس والسفراء. فما أن سُلّم القتلة وعوقبوا حتى خفت وطأة الوباء بصورة ملحوظة. وطهّر رومولوس المدينتين بفرائض الغسول المقدسة، وقد بقيت تمارس على ما يقال في غابة تدعى [فرنيتنا Ferentina]. وقبل ان تزول آثار الطاعون غزا الرومان قوم [الكامرتين Camertine] واجتاحوا البلاد متوهمين ان النوائب أعجزت اعداءهم عن المقاومة. إلاّ ان رومولوس مالبث أن عاجلهم القتال واستظهر عليهم بفتكه بستة آلاف فيهم والاستيلاء على مدينتهم وسوق ما وجده فيها من الأهالي الى روما.

---

(٩٥) سمي بهذا بسبب الاحتفال المعروف بهذا الاسم. ويقام في ١٩ من تشرين الأول كل سنة وفيه تستُعرض الوحدات العسكرية صفوفاً ويجرى تطهيرها بتقدمة القرابين.

(٩٦) في هذا يتفق بلوتارخ مع ليفي (١٤:١) إلاّ ان [ديون ٢:١٣] يقول: عندما ارسل أهالي (كريستوميريوم) ارزاقاً لأغاثة الرومان الذين أضرت بهم المجاعة أو... الوباء، كمن أهالي (فديني) للقافلة وسلبوها.

(٩٧) هذه الزّخات المنذرة الحافلة بالوعيد، يعزوها م. ريكارد الى الحشرات والابخرة القرمزية ويقول انها لم تكن نادرة في الأيام المتأخرة واننا لنقرأ عن أمثال هذه الخوارق فيما غبر من الازمان. ولدينا ما يشبهها في ايامنا الحالية كسقوط حجارة برشقات.

ونقل الى [كاميريوم Camerium(٩٨)] من الرومان ضعف العدد الباقي فيها ، وكان ذلك في اليوم الأول من شهر آب.

إن عدد من عفا عنهم من الناس خلال السنوات الستّ عشر الأولى من بنائه روما كان كبيراً جداً. ومن بين الغنائم التي استولى عليها من [كاميرويوم] عجلة نحاسية تجرها أربع خيول وضعها في معبد [ڤولكان] ونصب فوقها تمثالاً له مفتوحاً بصورة إله النصر.

هكذا صارت قوة روما تتنامى يوماً بعد يوم، وضعف أمر جيرانها وخمل شأنهم وقنعوا أن يُتركوا بما لديهم. إلاّ ان الأقوام الأقوى منهم، بدافع من الحسد أو إباءً عن الخضوع الى رومولوس، والسكوت على تعاظم سلطانه، قرروا الوقوف في وجه طموحه، وأول تلك الأقوام الـ[ڤينيتس Veinetes](٩٩) وهم شعب من توسكانيا كثير المال والرزق يسكن مدينة عامرةً. فأختلقوا سبباً للحرب خلاصته ان [فيديني] تعود لهم وهو ادعاء فضلاً عن كونه غير معقول، فهو سخيف، فهم الذين تركوا أهلها لشأنهم في أشدّ المواقف حراجة ولم يمدّوا اليهم يدالعون فهلك كثير منهم، وهم الآن يدعونّ بملكية اراضيهم ومساكنهم عندما آلت الى أيدي الآخرين.

كان جواب رومولوس على طلبهم هذا، حازماً هازئاً. فقسّموا قواتهم الى قسمين وهاجموا بالأوّل منهما حامية [فيديني] وزحف الثاني لقتال رومولوس، ونال الأول نصراً وقتل الفين من الرومان. أما القوات الثانية فقد هزمها رومولوس وقتل منها ثمانية آلاف. ثم جرت معركة أخرى قرب [فيديني] وهنا يتفق جميع الكتاب ان الفضل الرئيس في نصر ذلك اليوم يعود الى مجهود رومولوس فقد أبدى مهارةً فائقةً وشجاعة لاتبارى. وبدت القوة والسرعة اللتين اظهرهما وكأنهما ليستا من طبع البشر. امّا قول بعضهم ان أكثر من نصف الأربعة عشر ألفاً الذين قتلوا في ذلك اليوم كان هلاكهم بيد رومولوس فهو حديث خرافة ووهم لا يقبله العقل ابداً، فحتى [الماسينيين] بالغوا كثيراً في ادعائهم ان [ارسطومينيس Aristo-menes] قدم ثلاثة قرابين متوالية لقتله مائة فقط من أعدائه اللقديمونيين(١٠٠).

بعد أن هزم رومولوس جيش عدوه، وترك فلوله تنجو يحلدها وجه قواته نحو المدينة وكان

(٩٨) تلك المدينة في (لاسيوم) كان رومولوس قد أستولى عليها من قبل. وقد انتهز أهاليها الاصليون هذه الفرصة للعصيان فانتفضوا وذبحوا الحامية الرومانية.

(٩٩) ڤيي Veii هي عاصمة بلاد التوسكان وتقع على صخر جبلي وتبعد عن روما زهاء مائة فرسخ. ويضاهيها (ديون) بأثينا من جهة غناها وحجمها.

(١٠٠) يؤيد [پاوسنياس ٤٣:١٩] هذه الرواية وينوه بالزمان والمكان فضلاً عن ذكره الهيكاتومب المقدم لـ(جوپتر اتيوماتس). هذه الحروب بين المسينيين والسپارطيين كانت قد جرت على عهد (توللوس هوستيليوس).

العدو قدمني بخسائر جسيمة فلم يفكر في ابداء مقاومةٍ وأنما أعلن استسلامه وابرم معاهدة حلفٍ وصداقة أمدها مائة عام، وتنازل ايضاً عن مساحة كبيرة من الأرض تدعى [سپتمپاگيوم Septempagium][١٠١] اي المنطقة ذات المدن السبع، كذلك نزلوا له عن مماحهم التي تقع على ضفاف النهر، ودفعوا اليه بخمسين رهينة من نبلائهم، ضماناً لتطبيقهم شروط الصلح، ودخل المدينة في موكب نصر - في الخامس عشر من تشرين الأول[١٠٢]، ومن بين الأسرى الذين ساروا فيه قائد جيش الڤينيتس وهو رجل طاعن السنّ، لم يعمل على ما يبدو بما تمله حكمة السنِ. وتصرف ينزق ومن هذا جاءت عادة ظلّت تطيق في كل مناسبة تقريبٍ لقرابين النصر، وهي ان يقاد رجل كبير السن خلال السوق حتى الكاپيتول، متشحاً برداء الأرجوان ومتقلداً لعبة الاطفال (بوللاّ) والمنادي ينادي قائلاً «الساردينون سيتّم بيعهم الآن!»[١٠٣] اذ يقال ان توسكانيا هي أحدى مستعمرات الساردين، وان [ڤينيتيس] هي مدينة توسكانية.

كانت هذه المعركة آخر ما خاضه رومولوس من معارك. وبعدها أقدم على ما يقدم عليه معظم الرجال لا بل كل الرجال الذين ارتفعوا الى ذروة المجد والسؤدد بفضل ظروف معجزة فائقة العادة. (باستثناء القليل جداً) نقول أقدم على ما أقدم معتمداً على رصيده من جلائل الاعمال والمآثر.

... ازداد تيهاً بنفسه وغروراً، واستبدل بسلوكه الشعبيّ المتواضع، الكبرياء الملكية الكريهة من الشعب، وتزيا بزيٍّ بغيض جداً الى قلوب العامة، فلبس القرمز وفوقه رداء مطرز الحاشية بالارجوان[١٠٤]. وكان يقابل الناس وهو جالس على عرش يحيط به دوماً زمرة من الشبان عرفوا باسم [چيليرس][١٠٥] اي العدائين لسرعتهم في قضاء المهام. وكان يسير امامه آخرون سيوراً من الجلد لتقييد من يأمر بتقييده حالاً. وللاتين يستعملون كلمة (الليكاري Alligre)

---

(١٠١) تمتد من مدينة ڤيي حتى ضفاف نهر اليتبر.

(١٠٢) للمرة الثالثة كما يزعم (ديون) وبشكل افخم من السابق بكثير.

(١٠٣) الڤينيتس والاترورين الآخرون هم مستوطنون قدموا من ليديا. وكانت مدينة (ساردِيس) مسقط رأسهم. ويؤرخ [فستوس] نقلاً عن [سينيچيوس كاپيتو] هذه العادة من وقت فتح جزيرة سردينيا من قبل [طيبيريوس سمپيتوس كراخوس] عند جلبه هذا العدد من أسرى تلك الجزيرة. حتى لم يبق من يشاهد في سوق النخلسة من بضاعة غير العبيد الساردينين.

(١٠٤) يطلق عليه Sagum أو «الزّي العسكري» وفوقه يبسط الـ[الپالودامنتوم] أو معطف الجنرال ويشدّ فوق الكتف على ان ما جعله مكروهاً بالدرجة الأولى هو قسوته المتناهية في عقاب المجرمين. ومن ذلك اتهم عدد من الشبان الاشراف بقيامهم باعتداءات غير مسموح بها على اراضٍ مجاورة فحكم عليهم بالموت بالقائهم من أعلى الصخرة التاربية (ديون: ١١:١٤).

(١٠٥) ليڤي ١:١٥: و ٨. أمر رومولوس الأفخاذ (كيوراي) الثلاثين بأن يختاروا له حرَساً يتألف من ثلاثمائة رجل اي عشرة من كل فخذ وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم پلوتارخ «چيليرسي».

الحالية، ومنها جاء لقب [ليكتورس Lictors] لهؤلاء الحرس. وكلمة [باكيولا Bacula] اي صولجان للعصيّ التي يحملونها (فاچي Fasces)، لأن القضبان كانت شائعة آنذاك. ولعلهم كانوا يستعملون اول الأمر لفظة [ليتورس] اليونانية، ثم زيدت حرف C فصارت (لكيتورس) أو (ليتورغي لائيتوس Liturgi Leitos) باليونانية «خدام للشعب» لأن كلمة «لائيتوس» اليونانية تعنى «العامة» و«لاوس Laös» تستخدم للجمهور عموماً.

إلاّ انه عندما توفي جده [نوميتور] في [ألبا] وآل العرش اليه، وضع الحكم في ايدي العامة لأجل ان يخطب ودّهم، وعين حاكماً على أهالي [ألبا][١٠٦] يستبدل سنوياً. وهذا ما لقّن رجال روما العظام درساً في ان يفضلوا دولة حرةً على الملكية، حيث يكون الكلّ رعية وحكاماً في الوقت نفسه. اذ حال بين الپاتريشيان وبين الاسهام في سياسة الدولة، ولم يبق لديهم غير الاسم واللقب. تراهم يجتمعون بحكم العادة وحفظاً للمظاهر أكثر من ابداء المشورة، ولا يفضلون عن العامة إلاّ بأنهم اسبق الى معرفة ما يجري، ولم تكن هذه المسائل ذات بالٍ أو قيمة، ولكن عندما عمد رومولوس الى توزيع الأراضي التي غنمها على الجنود من تلقاء نفسه، وعندما اعاد الى مدينة ڤينتيس رهائنها، أعتصب مجلس الشيوخ ولم يوافق ولم يقره على ذلك - وكان قبلاً يجتمع ليستمع صامتاً الى أوامر الملك ثم يتفرق. الظاهر انهم عدّوها اهانةً عظيمة لهم. وغدا المجلس موضع شكٍ وريبة عندما أختفى رومولويس اختفاءه الغريب المفاجيء بعد زمن قصير من هذا. غاب في السابع من تموز [يولي الذي كان يسمى آنذاك كونتيلس Quintilis] غير تارك شيئاً مادياً يروى عن موته، إلاّ يوم اختفائه. وفيه ما تزال تقام عدة احتفالات تمثل ما وقع[١٠٧] وعلينا الاّ نعتبر هذا الغموض مما يستغرب له اذا تذكرنا كيفية موت [سكيپيو افريقانوس][١٠٨] فقد قضى نحبه في داره بعد العشاء ولم يكن في موته ما ينفي سبباً أو يثبتهُ، فبعضهم يقول انه موته كان طبيعياً لعلّةٍ مزمنة كان يشكو منها. وبعضهم قال أنه تجرع السمّ، وذكر آخرون أن أعداءه فاجاؤه ليلاً وخنقوه. مع هذا كله فان جثته عرضت للملأ وراح الجميع يستنتجون ويخمنون، في حين لم يترك رومولوس أثراً عند غيبته، ولو جزءً صغيراً من جسمه أو خرقة من ثيابه. لذلك مال الظنّ الى أن الشيوخ

---

(١٠٦) أو السابين. هناك بعض المؤرخين ممن يفضل اطلاق اسم ألبان عليهم.

(١٠٧) امثال ما يدعى: Monae Carprolimae أو Popeal ipagima أو Festum Amcillarum.

(١٠٨) هو سكيپيو افريقانوس ابن پاولس ايچيليوس - تبناه سكيپيو الاكبر وبما انه كان دائم المعارضة لمشاريع الشقيقين (كراخوس) فقد ظن أن زوجه سمپورينا وهي اختهما - قد دست له سمّاً وقتلته. وبحسب زعم [ڤاليريوس ماكسيموس] لم يفتح تحقيق قضائي لمعرفة اسبابٍ موته. ويحدثنا (ڤكتور: ٥٨) ان الجثة حملت وقد قنع الوجه بقماش من الكتان لئلا يظهر الوجه وقد اسودّ.

فتكوا به في معبد [ڤولكان] وقطعوا جثته اجزاء صغيرة أخفى كل واحد منهم جزءاً في طيات ثيابه وتخلصوا منها. وفي رأي آخرين أن غيبته هذه لم تكن لا في معبد ڤولكان ولا بفعل مجلس الشيوخ، وان حقيقة ما حدث هو انه كان يخطب في الناس خارج المدينة قرب موضع يدعى [مستنقع الماعز][١٠٩] فاكفهر الجوّ فجأة وحصلت ظواهر عجيبة في السماء وأظلمّ وجه الشمس[١١٠] وانقلب النهار ليلاً مضطرباً حفل بالرعود والصواعق المهولة والرياح الهوج تهب من كل صوبٍ. فتفرق الناس وهربوا لايلوون. إلاّ ان الشيوخ بقوا في موضعهم كتلةً واحدة. ولما سكنت العاصفة وانكشف الظلام واجتمع الناس ثانية افتقدوا ملكهم ولم يجدوه وسألوا عنه فقال الشيوخ لهم لاتبحثوا عنه ولا تشغلوا انفسكم بأمره. وامروهم أن يكرّموه ويعبدوه لأنه ارتفع الى مصاف الالهة. وانه مزمع ان يكون لهم ربّا كريماً رحيماً بعد ان كان لهم ملكاً صالحاً باراً فآمن الناس بما سمعوا ورجعوا فرحين في آمالهم بنوال خير الأمور منه. إلا انه وجد بينهم من أخذ يكلّل القضية بسؤ نية وأخذ يتهم الپاتريشيان ويغتابهم، ويقول انهم خدعوا الناس واغروهم بحكايات سخيفة، لتغطية الحقيقة وهم الذين قتلوا الملك في الواقع.

قالوا: ولما أخذت الأمور تنحدر من سيّء الى أسوء وملات الاشاعات الجوّ، قام [يوليوس بروكولوس Juluis Proculus][١١١] أحد الشيوخ الپاتريشين عرف بالخلق الحميد وبصداقته الحميمة لرومولوس[١١٢]، وبكونه ممن جاء معه من البا كما كان ينحدر من اسرة نبيلة، ووقف متكلماً في الفوروم. أقسم باغلظ الايمان وامام الناس جميعاً انه رأى رومولوس قادماً نحوه وهو مسافرٌ في طريق، وكان يبدو اطول قامة وأبهى منظراً ويرتدي دروعاً براقّة تشع ناراً. فادركته الرهبة من الشبح فابتدره قائلاً: أيها الملك ما الذي دعاك الى تركنا؟ ولماذا جعلتنا نتخبط في ظنون سيئة زائفة. والمدينة كلها في حزن وترحٍ لا نهاية له؟ «فأجاب يقول: «كانت مشيئة الارباب، اي پركولوس - ان نبقى نحن الذين انحدرنا من صلبهم. بين البشر هذه المدة من الزمن. وبعد ان بنينا أعظم مدن العالم بمجدها وجبروتها آن لنا ان نعود الى السماء،

---

(١٠٩) انظر ليڤي المرجع السالف ١٦ و ٤٠١.

(١١٠) نوه [شيشرون] بهذه الظاهرة العجيبة ايضاً في «الجمهورية: الكتاب السادس» ويبدو من تدقيق الازياج الفلكية، انه كان ثمّ كسوف كلي طويل، في عام وفاة روملوس ويقع في ٢٦ من آذار فإن قارنا ذلك بالتقويم الروماني المستخدم وقتذاك فانه يوافق شهر تموز. او لعل الرومان هم أكثر اطمئنانا من زمن موته من وقت ميلاده.

(١١١) ليڤي: المرجع السالف ١:١٦، ٥-٨. وهو سليل ايّولوس أو أسكانيوس.

(١١٢) من هنا جاء الاحتمال الغالب بان الشيوخ اختاروه ليحمل للناس ابناء الرؤيا المختلقة وهو ما كان مسموحاً به باعتباره فنّا قريباً مزيداً في اختلاق المعجزات تعظيماً للأقدمين!

فتكوا به في معبد [ڤولكان] وقطعوا جثته اجزاء صغيرة أخفى كل واحد منهم جزءاً في طيات ثيابه وتخلصوا منها. وفي رأي آخرين أن غيبته هذه لم تكن لا في معبد ڤولكان ولا بفعل مجلس الشيوخ، وان حقيقة ما حدث هو انه كان يخطب في الناس خارج المدينة قرب موضع يدعى [مستنقع الماعز][109] فاكفهر الجوّ فجأة وحصلت ظواهر عجيبة في السماء وأظلمّ وجه الشمس[110] وانقلب النهار ليلاً مضطرباً حفل بالرعود والصواعق المهولة والرياح الهوج تهب من كل صوبٍ. فتفرق الناس وهربوا لايلوون. إلاّ ان الشيوخ بقوا في موضعهم كتلةً واحدة. ولما سكنت العاصفة وانكشف الظلام واجتمع الناس ثانية افتقدوا ملكهم ولم يجدوه وسألوا عنه فقال الشيوخ لهم لاتبحثوا عنه ولا تشغلوا انفسكم بأمره. وامروهم أن يكرّموه ويعبدوه لأنه ارتفع الى مصاف الالهة. وانه مزمع ان يكون لهم ربّا كريماً رحيماً بعد ان كان لهم ملكاً صالحاً باراً فآمن الناس بما سمعوا ورجعوا فرحين في آمالهم بنوال خير الأمور منه. إلا انه وجد بينهم من أخذ يكلّل القضية بسؤ نية وأخذ يتهم الپاتريشيان ويغتابهم، ويقول انهم خدعوا الناس واغروهم بحكايات سخيفة، لتغطية الحقيقة وهم الذين قتلوا الملك في الواقع.

قالوا: ولما أخذت الأمور تنحدر من سيّء الى أسوء وملات الاشاعات الجوّ، قام [يوليوس پروكولوس Juluis Proculus][111] أحد الشيوخ الپاتريشين عرف بالخلق الحميد وبصداقته الحميمة لرومولوس[112]، وبكونه ممن جاء معه من البا كما كان ينحدر من اسرة نبيلة، ووقف متكلماً في الفوروم. أقسم باغلظ الايمان وامام الناس جميعاً انه رأى رومولوس قادماً نحوه وهو مسافرٌ في طريق، وكان يبدو اطول قامة وأبهى منظراً ويرتدي دروعاً براقّة تشع ناراً. فادركته الرهبة من الشبح فابتدره قائلاً: أيها الملك ما الذي دعاك الى تركنا؟ ولماذا جعلتنا نتخبط في ظنون سيئة زائفة. والمدينة كلها في حزن وترحٍ لا نهاية له؟ «فأجاب يقول: «كانت مشيئة الارباب، اي پركولوس - ان نبقى نحن الذين انحدرنا من صلبهم. بين البشر هذه المدة من الزمن. وبعد ان بنينا أعظم مدن العالم بمجدها وجبروتها آن لنا ان نعود الى السماء،

---

(١٠٩) انظر ليڤي المرجع السالف ١٦ و ٤٠١.

(١١٠) نوه [شيشرون] بهذه الظاهرة العجيبة ايضاً في «الجمهورية: الكتاب السادس» ويبدو من تدقيق الازياج الفلكية، انه كان ثمَ كسوف كلي طويل، في عام وفاة رومولوس ويقع في ٢٦ من آذار فإن قارنا ذلك بالتقويم الروماني المستخدم وقتذاك فانه يوافق شهر تموز. او لعل الرومان هم أكثر اطمئنانا من زمن موته من وقت ميلاده.

(١١١) ليڤي: المرجع السالف ١٦:١، ٥-٨. وهو سليل ايّولوس أو أسكانيوس.

(١١٢) من هنا جاء الاحتمال الغالب بان الشيوخ اختاروه ليحمل للناس ابناء الرؤيا المختلقة وهو ما كان مسموحاً به باعتباره فنّا قريباً مزيداً في اختلاق المعجزات تعظيماً للأقدمين!

فوداعاً وقل عني للرومان، انهم لن يبلغوا أعلى مراحل السلطان البشري بغير الوحدة والتمسك بحميد الخصال. وسنكون نحن لهم الآله الشفيع [كويرنيوس Quirinaus].

ومال الرومان الى تصديق هذا القول لما عرف عن المتحدث من امانة واخلاص، ولمسحة من الحقيقة والحماسة كانت تشوبه لهجته كأنها نفحة آلهية نزلت عليه أو كان آلهاً تقمصه، ولم يعارض قصته أحدٌ ونبذوا كل دعوى واعتراض، ورفعوا أكفّ الدعاء لكويرنيوس وأقراؤه تحية الرب. ما اشبه هذه الحكاية ببعض الخرافات اليونانية التي رويت عن كل من [ارستياس Aresteas البروكونيزي Proconnesian[(١١٣)] وكليوميدس Cleomedes الاستيالي Asty-palaeam][(١١٤)] إذ رووا أن [ارستياس] توفي في دكان دباغة، ولما جاءه اصدقاؤه لم يجدوا جثته. وبعد فترة من الزمن قدم بعض معارفه من الخارج وزعموا أنهم شاهدوه سائراً في الطريق المؤدي الى [كروتون Croton] وروي عن [كليوميدس] الذي كان جباراً هائل الخلقة ذا قوة فائقة، يخالط عقله جنون، وطباعه وحشيّة، ارتكب كثيراً من أعمال العنف كان آخرها أنه وجّه بقبضة يده لكمة الى عمود في مدرسة كان بدعم سقفها، فكسره من منتصفه فخرّ السقف على من بداخل المدرسة من اطفال فقتلوا جميعاً[(١١٥)]، فطورد، فهرب واختبأ في صندوق كبير وأغلق عليه الغطاء وامسكه من الداخل فحاول عدد كبير من الرجال فتحه فلم يوفقوا فلجأوا الى كسره قطعاً قطعاً ولكنهم لم يجدوا كليوميدس داخله، ودفعهم العجب والحيرة الى استخارة عرافة دلفي منزل الوحي فأجابتهم بالجواب التالي: «كان كليوميدس الاستيبالي آخر الجبابرة». وقيل أيضاً ان جثمان [ألكميني] تلاشى اثناء ما كانوا يحملونه الى القبر ولم يجدوا في التابوت غير قطعة من حجرٍ. ويقصّ كتاب الخرافات كثيراً من هذه الحكايات غير المعقولة، متحدين مبدأ موت البشر الطبيعي. فمع ان تجريد الفضيلة البشرية من اي صفات ربّانية تجريداً تاماً هو كفر وضعة، فكذلك يكون من السخف والهذيان مزج السماء بالأرض، ولنؤمن [پبندار] القائل:

اجسام البشر كلها تخضع لحكم الموت. والروح تبقى خالدة مدى الدهر.

فهي وحدها من صلب الأرباب منهم جاءت واليهم تعود، وحدها لامع الجسم، وذلك بعد انفصالها عنه وفك ارتباطها به. عندما تكون طاهرة نظيفة تماماً خالية من اوضار اللحم. وفي

---

(١١٣) للاستزادة راجع [هيرودوتس ٤:١٣-١٥].

(١١٤) انظر [پاوسنياس ٩:٦] وما بعدها.

(١١٥) يقول [پاوسنياس] ٩:٤ وقعت هذه الفاجعة لأنه لم يعط الجائزة بعد فوزه في نزال مصارعة على (ايكوس) الايپاري. وصار يعبد كأله للمأثرة البطولية التي حققها. واستيپاليا هي جزيرة من جزر الكيكلادس بالقرب من (كريت).

عرف [هيراقليطس] ان الروح الطاهرة، هي السامية الى ما لا نهاية تندفع من الجسم، كما يخرج البرق من السحابة. إلاّ ان الروح التي تبقى اسيرة الشهوات والغارقة في الأحاسيس فهي تشبه البخور الفاسد الثقيل يصعب ايقاده وتصعيده ابخرة».

فيتبقى علينا والحالة هذه ألاّ نسارع الى ارسال اجسام الناس الصالحين الى السماء خلافاً لمبادىء الطبيعة واحكامها! بل يجب أن نؤمن بأن فضائلهم وارواحهم تنتقل من الحالة البشرية الى حالة الجبابرة بحسب طبائعهم الالهية وبمقتضى سُنة الأرباب تم ينتقلون من حالة الجبروت هذه الى أنصاف ارباب وبعد ان يمرّوا في مرحلة القداسة والتطهر الأخير، كما في السنن المعروفة. ويحررون انفسهم من كل ما يربطهم بالبشر والشعور البشري، يرتفعون الى مصاف الآلهة لا بحسب نظام بشريّ مقنن وانما بحسب حكم العقل السليم(١١٦). وهناك يتمتعون بالكمال الأعظم وما فيه من قداسة وبركة.

يقول بعضهم ان لقب [كوريتيوس] الذي عرف به رومولوس، مرادف لـ(مارس)، ويقول غيرهم بل أطلق عليه لأن المواطنين الرومان عرفوا بهذا الاسم Quiritus، وزعمت طائفة أخرى أن الأقدمين سموا الرمح أو قناة الرمح (كويريس Quiris). فيكون اسم تمثال يونو Juno. المستقر على رمح، [كوريتيس] والرمح المحفوظ في الريجيا، بمثابة [مارس]. ومن يبرز في القتال من المحاربين يهدى اليه الركح في العدة. ولأن رومولوس آله حرب، أو آله الرماح فقد سميّ [كوريتيوس] ولابُدّ أن معبداً ما، بني تكريماً له على جبل [كويرنياليس Quirinalis] وهو مأخود منه:

امّا اليوم الذي غاب فيه رومولوس فقد أطلق عليه «يوم فرار الناس»، أو «سابوعاء الماعز» لأن الناس يخرجون فيه الى ظاهر المدينة ويقدمون القرابين في «مستنقع الماعز» وينادى احدهم الآخر وهم خارجون من المدينة، باسماء رومانية كقولهم [مركوس،! لوسثيوس! كايوس!] مقلدين ما جرى اثناء هروب الناس في ذلك اليوم، وكيف كانوا ينادي أحدهم الآخر في ذعرهم وعجلتهم. ولكن بعضهم بنفي ان يكون هذا تقليداً لما جرى، ويزعم انه تمثيل الهجوم مباغت سريع يُعزى الى الحادثة التالية: بعد ان طرد [كاميلوس Camillus] الغاليين من روما، والمدينة تقاسي الامرين مما حل بها وتتحامل على نفسها لتستعيد قواها انتهزت

(١١٦) كان هسيود أوّل من فرق بين الطبائع الأربع: الإنسان، الجبّار، الجنيّ، الآله. ويظهر انه رأى امكان التحول الدائم والتقدم الى حالة الخلود. وعندما يقول لنا عبيدة الاوثان ان الكائن الحيّ قبل وصوله الى الطبيعة الأخيرة (طبيعة الآله) يمكن ان يقذف به ثانيةً الى الظلام البدائي الأول، لا يسعنا الاّ التّصور بأن الاوائل سمعوا بدون شك شيئاً عن الملائكة المغضوب عليهم المطرودين من الجنّة!

جموع اللاتين هذه الفرصة وزحفت عليها بقيادة [ليڤيوس پوستيميوس Livius Postimius] وعسكرت قواتهم في موضع غير بعيد عنها وأرسل القائد منادياً للمدينة يعلم السكان ان اللاتين يحبذون تجديد حلفهم القديم واتحادهم (بعد ان ادركه الانحلال وكادت تنبتّ عراه) وان هذا لايتم الاّ بعقد روابط مصاهرة جديدة بين الشعبين. فان ارسل الرومان عدداً مناسباً من عذاراهم واراملهم فسيكون ثم سلم وصداقة بين الشعبين، وهو ما ناله السابين من قبل بشروط مشابهة. واصغى الرومان الى هذا وكانوا من جهةٍ يخشون الاشتباك في حرب ومن جهة أخرى فإن النزول من نسائهم هكذا، يعني الرضا بحالة تكاد لا تختلف عن الاسترقاق. وفيما هم يقلبون الأمر من شتّى وجوهه قامت خادمة بيت تدعى فيلوتيس Philotis (بعضها يسميها توتولا Totola) وأشارت عليهم ان يتربثوا في الاقدام على أحد الأمرين، وان يلجاؤا الى الحيلة لاجتنابهما وكانت خطتها ان يبعثوا بها مع عددٍ من الخادمات الجميلات بعد ان يرتدين ثياب العذارى الحرآت. وأن تقوم هي عندما يجنّ الليل، يقاد نارٍ كاشارة الرومان فيخرجون على اثرها ويباغتون العدو النائم. وانطلت الحيلة على اللاتين. وأوقدت [فيلوتيس] مشعلاً في شجرة تين برية وسترتها من جهة العدوّ بستارٍ واغطية وكشفتها للرومان فخرجوا حالاً وكانوا في عجلتهم ينادي أحدهم الآخر، وهكذا باغتوا العدوّ على حين غرة وانتصروا عليه. ولهذا اقاموا عيد النصر وسمّوه «تاسوعاء الماعز» لأن شجرة التين تُسمى عند الرومان [كاپرينكوس: أو تين الماعز] وهم يكرمون النساء به، باحتفالات تقام خارج المدينة وفي خمائل مصنوعة من اغصان التين. وتجتمع الخادمات معاً ويتراكضن ويتلاعبن جذلات ويمثلن معركة زائفة فيما بينهنّ ويتقاذفن الحجارة دليلاًعلى أنهن عاونّ رجال الرومان في حربهم تلك. إن هذه الرواية لايؤيدها الاّ قلةٌ من الكتاب، لأن التنادي بالاسماء نهاراً والخروج الى مستنقع الماعز لتقديم القرابين يبدو انه يستقيم مع الرواية الأولى أكثر من الثانية إلاّ اذا افترضنا وقوع الحدثين في يوم واحدٍ من عامين مختلفين.

في العام الخامس والاربعين من عمر رومولوس وفي العام الثامن والثلاثين لحكمه غادر(١١٧) هذه الدنيا على ما قيل لنا.

---

(١١٧) [ديون] وپلوتارخ نفسه يذكر في اول سيرة [نوما] ان رومولوس ودّع الحياة في العام السابع والثلاثين لبناء روما. ولعلهما لا يجانبان الحقيقة ولا يتناقضان. لأن أولهما يقول ان عمر رومولوس كان عند موته (٥٥) سنة وثانيهما يذكر (٥٤).

اوجه المقارنة بين رومولوس وثيسيوس

هذا ما وصل الى علمي من اخبار عن كلّ من رومولوس وثيسيوس، مما يستحق التدوين. والظاهر مبدئياً أن ثيسيوس كان يبحث عن المغامرات وجلائل الأعمال بحثاً بمحض اختياره في حين كان بوسعه ان يحكم آمناً مطمئناً في [طروزين] بلاداً واسعة. أما رومولوس فلأجل التخلص من عبودية كان يرزح تحتها، ودفعاً لما كان يتهدده، أصبح شجاعاً من فرط الخوف (على قول افلاطون)، ولخشيته من النوائب الكبار اقدم على أجلّ الأعمال، تدفعه الحاجة ليس إلاّ، هذا وان اعظم مأثرة له هي قتله ملك البا، أما ثيسيوس فبوسعه ان يسمّى [سكيرون، وسينيس، وبروكرونتوس، وكورينتيس] وكلها وقائع على الهامش ومقدمات لأعمال اضخم وأجلّ. فبقتله هؤلاء خلص بلاد اليونان من شر الطغاة قبل ان يدري هؤلاء المساكين من هو مخلّصهم وفضلاً عن هذا فقد كان اسهل عليه السفر الى اثينا بحراً. فاشرار البرّ ولصوصه لم يأتوا عملاً ضده، في حين لم يكن رومولوس آمناً مادام اموليوس حياً. زد على هذا أن ثيسيوس كان يتعرض للأوغاد لا لأذى ألحقوه به، بل في سبيل الآخرين. اما ريموس ورومولوس فلم يعترضا اعمال الطاغية مادامـا في نجوة منه. واذا كانت الاصابة بجرح في معركة السابين، وقتل الملك اكرون والاستظهار على كثيرٍ من الأعداء. مآثر جليلة فلنا ان نضاهي بها معركة ثيسيوس ضد السنطورس، وضروب البطولة ضد الامازونات، لكن المرء يعجز حقاً عن وصف عمل ثيسيوس، بانضمامه طوعاً الى الشبان والعذارى المرسلين الى كريت إمّا ليقع فريسة في براثن الغول، واما ان يضّحى به على قبر [اندروغيوس] وإمّا كأهون الشرّين أن يعيش عيشة الاراذل المحتقرين في عبودية أشدّ الرجال قسوة وغلاظة، أيوصف بالشجاعة؟ ام بسمّو النفس؟ أم بحُبّ انصاف الناس، أم التعلق بالشرف أم بالاقدام أو البأس؟ ولذلك أرى ان الفلاسفة قد اجادوا في تعريف الحُبّ بأنه علاج الآلهة تزود به الصغار لتحميهم وترعاهم[1]. فحبّ [اريادنه] يبدو أساساً من عمل آله شاءت ارادته

(١) انظر ليڤي ٢ : ١٢.

المحافظة على حياة ثيسيوس. وليس لنا والحق يقال ان نلومها على حبّه بل ان نقر بكونها جديرة[٢]، لأن الرجال والنساء لن يكونوا سواسية في شكل عاطفتهم تجاهه، واذا كانت اريادنه الوحيدة في هذا، فيقيناً انها تستحق حبّ آله، هذه التي كانت قد احبت الفضيلة والصلاح واشجع الرجال طرا.

ومع ان كلاً من تيسيوس وروملوس كانا رجلي دولة بطبعهما إلاّ انهما لم يحافظا حتى الأخير على اخلاق الملك فقد انحرف كلاهما عنها، وتغيّرا. فأولهما مال الى الديمقراطية. وثانيها انحدر الى مهالك الطغيان وانتهى بهما السبيل الى غلطة واحدة وان اتبعا طريقين مختلفين. ذلك ان الحاكم يجب ان يحافظ قبل كل شيء على كيان البلاد وهذا يتم بالإمتناع عن الاتيان بما لايليق بقدر ما يتم بالتمسك بما هو لائق. الاّ ان ذلك الذي يحدّ من سلطانه أو يوسّعه عمداً فهو لا يصلح كملك ولا كحاكم بل هو امّا غوغائي وامّا طاغية وكلاهما انما يشيعان الكره والاحتقار في قلوب الرعية ومهما يكن فان خطأ الأول فهما يبدو نابعاً من الحنان والمشاعر الانسانية النبيلة. امّا الثاني فمصدره الانانية والفظاظة.

وان لم يكن من الجائز أن تعزى مصائب الناس الى سوء الطالع، بل بالأحرى الى اختلاف الطبائع، فمن ببريء ثيسيوس من غضبه الجائح الذي خرق حدود المعقولات - على ابنه، ومن يبريء رومولوس من جريرة قتله أخاه؟ لو نظرنا الى الحوافز لسهل علينا الصلح من غضب مأتاه سببٌ أقوى من سبب ثيسيوس، كالغضب الذي تثيره ضربة شديدة مفاجئة. ولما كان رومولوس قد أختلف مع أخيه عمداً وتقصداً في امور عامة فمن الحمق أن يصل هذا الخلاف فجأة الى مرتبة الثورة العارمة القتالة. الاّ أن الحبّ والغيرة واتهام[٣] الزوج وهي مما لايستطيع الخلاص من تأثيره غير قلة من الرجال - هي التي دفعت بثيسيوس الى ارتكاب ذلك الجرم بحق ابنه. زد على هذا أن رومولوس ارتكب في فورة غضبه عملاً ذا أثر فاجع في حين انتهى غضب ثيسيوس عند حدود الكلام، اي عبارة آثمة، ولعنة اب طاعن في السن... وأمّا مصائب الشاب الباقية فيبدو أن سببها كان سوء طالعه. والى هذا الحَدّ لا يسع المرء الاّ ان ينحاز الى جانب ثيسيوس.

---

(٢) هنا يتفق پلوتارخ مع سقراط. الذي يُعلِّم بان حبّ الفضيلة التسامي هما وحدهما القادران على تحقيق اتحادنا بالكائن الأسمي. لكن مع أن هذا المبدء هو من أحسن المبادئ لكنه غير ممكن التطبيق هلى [اريديانه] فاين الفضيلة من هذه الأميرة التي وقعت في حب اجنبيٍّ من أول نظرة وسارعت الى تحقيق لبانتها بدمار اقربائها وبلادها.

(٣) لا ينوه پلوتارخ في سيرة تيسيوس بشيء عن هذه التهم. مع انها يجب ان تكون بدرجة من الخطورة بحيث ادت به الى تلك المأساة المفجعة.

إلاّ ان لرومولوس ارجحيّة ممتازة على قرينه، وهي أن أعماله الكبار نبطت من براعم وبدايات صغيرة جداً. فكلا الأخوين عُرفاً بكونهما ابنين لراعي خنازير، وخادمين، وقبل أن يعتقا منحا الحرية لجميع اللاتين تقريباً ونالا فجأة كل القاب التعظيم والتكريم، فسميا بالقاهرين اعداء بلادهما، والحادبين على اصدقائهما وابناء قومهما، وزعيمي الشعب، وبناة المدن لامهدميها كثيسيوس، الذي بنى بيتاً واحداً فقط من بين البيوت العديدة التي قوضها وهدم عدة مدن تحمل اسماء الملوك والابطال الاقدمين. ألحق يقال ان رومولوس حذا حذوه في ايامه الأخيرة، وارغم اعداءه على تقويض وتهديم منازلهم ومساكنة قاهريهم. إلاّ انه لم يحز لنفسه اراضي وبلاداً ومملكة وزوجات واطفالاً واقرباء بازالة مدينة من الوجود أو بتوسيع مدينة، بل نالها كلها باستحداث مدينة جديدة عظيمة. ولم يقتل أحداً في عمله هذا وأنما نفع أولئك الذين كانوا في حاجة الى المأوى والمسكن، ورغبة في تكوين مجتمع ترعى لهم حق المواطنة فيه. ولم يبطش باللصوص والمجرمين بل اخضع امما وقهر مدناً. وأنتصر على الملوك والقادة.

امّا عن قضية ريموس فليس من يدري بايّ يد قتل. وعلى الارجح يُعزى قتله الى آخرين وليس ثم من شبهة في انه انقذ امّه من موت محتوم ونصب ملكاً على عرش [اينياس] القديم، ورفع من شأنه بعد خمول وضعة وانحطاط الى منزلة التابع الخانع. وقدم له خدمات جليلة. ولم يلحق به أذى ولو بصورة غير مباشرة. لكن نسيان ثيسيوس أوامر والده برفع الشراع الأبيض لا يبرئه من عقاب جريمة قتل الأب لا في رأيي ولا في رأي أي قاض مهما بلغت سماحته. وأدرك أحد الكتاب [الآتيكيين] صعوبة الاعتذار لهذا العمل، فزعم كذباً ان ايجيوس أسرع يعدو عند اقتراب السفينة متجهاً نحو الاكروپوليس ليستطلع الأنباء فزلقت به قدمه وسقط... وكأني به قد سار وحيداً ليس معه خادم أو حارس يمشي في ركابه!

والحق يقال ان خطيئات خطف النساء التي ارتكبها ثيسيوس، لاتسمح له بأي عذر مقبول، أولاً لتكراره الجريمة عدة مرات فقد خطف [اريادنه] ثم [انتيوب] ثم [اناكسو] الطروزينية، وأخيراً سرق [هيلين] وهي طفلة لم تبلغ سن الزواج الشرعي وثانياً من ناحية السبب، فان عذارى الطروزينين واللقيديمونيين والامازون فضلاً عن كونهن غير مخطوبات له، فلسن أكثر جدارة بانجاب اولاده من الاثينيات اللاتي ينحدرن نسلاً من [ارخيتيوس] و[كيكروپس Cecrops] إلاّ أن دافعه الى هذا كان الشهوة لا الحاجة. اما [رومولوس] فعندما خطف زهاء ثمانمائة امرأة لم يتخير لنفسه كما قالوا إلاّ امرأة واحدة هي [هرسيليا] وفرق الباقيات على رؤوساء المدينة. وأثبت بضروب الاحترام والتجلة ومظاهر العطف والعدل التي عامل بها هاته النسوة، ان هذا الاعتداء لم يكن إلاّ عملية سياسية حسنة القصد غايتها تكوين مجتمع،

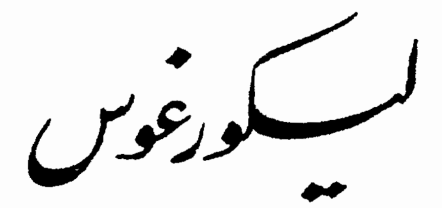
وتوحيد شعبين، وجعلها ينبوعاً يفيض بالصداقة والاستقرار العام. وكدليل على ما احدثه هذا الرباط الزوجي من حبّ واحترام وتلاحم، لم يحصل خلال مائتين وثلاثين سنة تالية أن طلّق رجل امرأته، أو هجرت[٤] امرأة تزوجها والزمن شاهدٌ. ولكن كما أن أوّل قضية قتل يرتكبها أحد بامّه أو أبيه، هي من الأمور الغريبة النادرة عند الأغريق، كذلك يدري الرومان جيداً أن [سپوريوس كارڤيليوس Spurius Carvilius] كان اول من طلق زوجه متهماً اياها بالعُقم[٥]. والنتائج المباشرة كانت متشابهة فعلى اساس هذه الزيجات تقاسم الزعيمان [رومولوس وطاطيوس] الحكم فيما بينهما، وخضع الشعبان لحكومة واحدة. ولكن لم ينجم عن زيجات ثيسيوس صداقة أو تحالف او تبادل تجاري، بل نشأت عنها عداوات وحروب وسببت قتل المواطنين وآلت أخيراً الى خسارة مدينة [افيديني] التي لم ينقذ أهلها من مصير طروادة إلا سلوك أهلها تجاه العدّو[٦]. ومقابلته بالضراعة والتوسل، ولم تتعرض أم تيسوس للخطر وحده، بل عانت كذلك ما عانته [هيكوبا] من هجر الأبن وإهماله. الا اذا كانت حكاية أسرها مختلفة كما هو بودّي ان يكون ذلك مع مسائل أخرى، ولقد قيل ان ظروف تدخل الآلهة التي سبقت او وافقت ولادة روملوس وتيسيوس كانت مختلفة فأولهما عاش بنعمة خاصة من الأرباب. ولكن النبوءة نزلت لايجيوس محظرة عليه مضاجعة النساء، أوضحت كما يبدو أن ولادة ثيسيوس لم تكن محل رضى الأرباب أو ارادتهم.

---

(٤) يخبرنا [ديون ٢:٨] بدقةٍ أكثر أن ذلك حصل في العام ٥٢٠ ق.م ايام كان [پومپونيوس ماثو وپاپيريوس ماسّو] قنصلين.

(٥) اقسم [كارڤيليوس] يميناً أمام الچنسورين، بانه يكنّ لزوجه اعظم احترام وانه لا يطلقها الاّ لأن انجاب الاولاد كان من ضمن الاتفاق المقدس عند زواجهما. الاّ أن ذلك يجنبّه الاستنكار والكره من الجميع الذين وجدوا ان يختّط مسلكاً قبيحاً بعمله هذا [Aul G-ll ١٧: ٢١ و ٣:٤].

(٦) كاستور وپوللوكس.



LUKOUGUS

دوّن پلوتارخ حياة ليكورغوس قبل تدوينه سيرة تيسيوس. كما ذكر هو نفسه عند سرده حياة الأخيرة. والظاهر انه كان شديد الكلف بالسپارطيين عظيم التقدير لهم ولعاداتهم. فقد ترك لنا الى جانب هذه السيرة وسيرة غيره من عظماء السپارطيين – رسالة حول قوانين اللقيديميين وتقاليدهم وأخرى حول الحكم الليقيّة. لقد جعل من ليكورغوس بطلاً مثالياً وعلل سلوكه ليقدمه كدليل على ان الحكيم الذي اتى الفلاسفة الى اعطاء اوصاف له كثيراً، ليس مجرد شخصيّة مثالية لا يمكن ان ترتفع اليها الطبيعة البشرية.



في الروايات التي تركها لنا المؤرخون عن ليكورغوس واضع قوانين سپارطا Sparta كثير من الخبط والتخمينات والرجم بالغيب، وقل أن ذكر أحد شيئاً لم ينقضه الباقون أو يشككوا فيه. وتختلف وجهات نظرهم حتى حول شؤون الأسرة التي نبغ منها. أو الرحلة التي قام بها، أو موضع وفاته وكيفية موته، ويأتي أعظم الخلاف حين يبحثون عن القوانين التي استحدثها، والجمهورية التي انشأها. ويتعذر اتفاقهم تماماً حول العصر الذي عاش فيه، اذ يقول بعضهم انه عاش في أيام [ايفيتوس Iphitus] [1] وأنهما تعاونا معاً على سنّ شريعة إيقاف الحروب [2] اثناء احياء الالعاب الاولمپية، ومن هؤلاء ارسطو. وتثبيتاً لقوله زعم وجود كتابة على قرص من الأقراص النحاسية التي تستخدم في تلك الالعاب نقش عليها اسم ليكورغوس وأن هذه الكتابة كانت مقرؤة في ايامه. إلاّ ان [راتوستينس Eratosthenes] و[پوللودورس Apollodorus] [3] وغيرهما من المؤرخين يحاولون بحساب الوقت على أساس تعاقب الملوك السپارطين - ان يثبتوا انه عاش في زمن أبعد كثيراً من تاريخ منشأ الالعاب الاولمپية [4]،

---

(١) ملك (ايليس) الذي قيل أنه أنشأ أو بالأحرى أحيا الالعاب الاولمپية قبل مائة وثماني سنوات من قيام أول أولمپياد معروف في العام ٧٧٦ ق.م وعرف بنسبته الى كوربوس. كما جرت عادة الاولمپيادات التالية بنسبتها للفائزين الآخرين.
بدء [ايفيتوس] بتقديم ذبيحة لهرقل الذي كان الاليائيون يعتقدون انه ساخط عليهم لسبب ما. وبعدها أمر بالالعاب الاولمپية لتعلن في سائر بلاد اليونان. ووعد بالحرية والأمان لكلّ الواردين لمشاهدة الالعاب وخدد موعداً لها - وكانت قد انقطعت بسبب تفشى الوباء على ما قيل. كذلك نصب نفسه رئيساً لها وحكماً. وهذا امتياز كان اهل (بيزا) كثيراً ما يتنازعون عليه مع خلفائه الذين انحصر فيهم طوال ما كانوا ملوكاً. وبعد انقراض الأسرة عيّن الاهلون رئيسين حكمين ثم ارتفع العدد الى عشرة ثم الى اثني عشر بمرور الزمن.

(٢) في اثناء إحياء الالعاب الاولمپية (فضلاً عن الالعاب الپيثية والإسثمية والنيمية) تفرض دائماً وكمبدءٍ عام، هدنة في سائر بلاد اليونان يصدر بها بيان رسمي وتتم اذاعته (پاوسنياس ٥:٢٠) فاذا دخلت وحدة عسكرية [ايليس] بعد هذا البيان. فتفرض غرامة قدرها ميناءان على كلّ جندي [توكديدس ٥:٤٩].

(٣) لقب [ايراتستينوس] بافلاطون الثاني لسعة مداركه وأطلاعه وهو مؤرخ شهير وشاعر وفيلسوف نبغ وتمتع برعاية [بطليموس فيلوباطر] اذ كان والده [بطليموس سوركيتيس] قد دعاه من اثينا ونصبه أميناً مشرفاً على مكتبة الاسكندرية الشهيرة. ومعاصره [ابوللو دوروس] كتب كتاباً عن الميتولوجيا، ما زال موجوداً، ويحتوي على مختصر لتاريخ الآلهة والابطال الاقدمين. الى جانب آثار أخرى له مفقودة.

(٤) الاولمپياد الأول كان في ٧٧٣-٧٧٦ ق.م.

ويظن [طيماؤوس]، أنه يوجد شخصان بهذا الاسم عاشا في زمنين مختلفين، ولأن أحدهما كان أشهر من الثاني فقد اسند اليه الناس مجد الإثنين وعلى تظنيّه، أن أسبقهما عاش في زمن يداني عصر [هوميروس]. وأسهب بعضهم وافرطوا في التفاصيل الى الحدّ الذي زعموا فيه أنه التقى بالشاعر. أمّا وأنه عاش في عصرٍ بعيدٍ فهذا ما يمكن استخلاصه من فقرة وردت في گزينفون Xenaphon اذ جعله معاصراً للهيراقليدي Heraclidae والحقيقة هي أن آخر ملوك سپارطا(٥) هم هيراقليديون نسباً. لكن گزينفون يبدو في هذه الفقرة وهو يتكلم عن خلفاء هرقل المباشرين الأوائل.

وان ضربنا صفحاً عن هذا الاضطراب والغموض، فبإمكاننا محاولة تأليف تاريخ لحياته معتمدين على أقّل النصوص تناقضاً وميّالين الى اولئك الكتاب الأجدر بالثقة من غيرهم.

وعند الشاعر [سيمونيذس] أن ليكورغوس هو ابن پريتانيس Prytanis] لا ابن [يونوموس]، على انه كان أوحد رايه في هذا، لأن الباقين كافة يرتبون سلالة نسبهما على الشكل التالي:

اريسطوذيموس Aristodemus

پاتروكلس Patrocles

سوئيس Soüs

يوريپون Eurypon

[ليكورغوس [من زوجه الثانية ديوناماسا Dionassa وپولينكتس من زوجه الأولى]

ويقول [داخيداس Dieuchidas] أنه النسل السادس من پاتروكلس والحادي عشر من الهراقليدي(٦).

---

(٥) يقول (سترابو) لن ليكورغوس عاش بالتاكيد في الجيل الخامس بعد [الثيمنيس] الذي قاد حملة استيطان الى (كريت) والثيمينيس هذا هو ابن (كيسّوس) الذي بني مدينة (اركوس) في الوقت الذي قام (پاتروكليس) جدّ ليكورغوس الخامس بوضع أسس سپارطا وعلى هذا يكون ليكورغوس قد عاش بعد (صولون) بوقت قصير وفي حدود العام ٩٠٠ ق.م. وان ظن بعض المؤرخين المتأخرين انه عاش في عصر الهيراقليدي.

ان هذه الفقرة اقتبسها پلوتارخ من رسالة (گزنيفون) الممتازة عن «جمهورية سپارطا». كما اقتبس من تلك الرسالة اهم ما اورده عن سيرة ليكورغوس.

(٦) من [ارسطو نيموس] خرج التؤامان يورستينس وپروكلس ومنهما نبغ الخطّان الملكيان الأكبر والأصغر في سپارطا. وهما الخطّ الآغيذي والأفريتونتيدي. و[ارسطو ذيموس] هذا هو ابن (هيللوس) ابن (هرقل) [انظر پاوسنياس ٣:١-١٠] و[هيرودوتس ٧:٢٠٤ و ٨:١٣١].

وايأ كان الأمر فان [سويوس] كان بالتأكيد أشهر اسلافه، فبقيادته اخضع السپارطيون الهيلوت Helot[٧]، واضافوا الى بلادهم بقوة الفتح جزءً كبيراً من أركاديا، وهناك قصّة تروي عن [سويوس] وهي ان الكيتوريين[٨] ضربوا حصاراً حول جيشه وهو في موضع صخري قاحلٍ ليس فيه قطرة ماء وأضطر الى ان يتفق مع اعدائه على ان يعيد اليهم كل ما استولى عليه من املاكهم إن شرب الماء هو وكل جنوده من أقرب ينبوع. وبعد حلف اليمين على الاتفاق، جمع جنوده وعرض مملكته كلها على أيّ واحد منهم هدية منه، إن تمكن من ضبط نفسه ولم يشرب ماءً. ولما لم يصبر واحدٌ منهم على العطش، أو بعبارة أخرى لما شرب جميعهم وارتووا، تقدّم هو الى الينبوع في اعقابهم ومد رأسه وأصاب وجهه برشاش من مائه دون ام يدخل فمه قطرة واحدة ثم سار عنه مبتعداً امام اعين اعدائه، رافضاً ان تنازل عن فتوحاته، لأن الاتفاق نصّ على أن يشرب من مائهم (هو) وكل رجاله.

ومع ذيوع اسمه واستطارة شهرته لهذا العمل البطولي، إلاّ ان أسرته لم تتخذ اسمه لقباً. وانما لقبت باسم ابنه [يوريپون] (عرفوا باسم الاڤريپونتيذ Eurypontids)[٩]. ويعزى هذا الى أن [يوريپون] أرخى من قبضته على المحكومين متطلعاً الى خطب ودّهم ورضاهم.

فكثرت مطالبهم بعد هذه الخطوة الأولى. وكره العامةُ الملوك المتعاقبين بعده وسخطوا عليهم بعض الشيء لأنهم حاولوا استخدام القوة، أو لاعطائهم تنازلات أخرى وإظهارهم الضعف اما لخورٍ في نفوسهم او لنيل المزيد من حبّ الناس. وسادت الفوضى سپارطا زمناً طويلاً ومما سببته، موت والد ليكورغوس. اذ بينما كان يحاول تهدئه شغب، طعن بسكين جزار فقضى نحبه وخلف الملك لابنه الاكبر پولندكتُس Polydectes.

(٧) سكان (هيليوس) وهي مدينة بحرية من مدن لاقونيا فتحها اللقيديميّون واستعبدوا أهاليها وأطلقوا اسم الهيلوت لا عليهم وحدهم بل على كلّ عبيدهم الآخر. وعلى اية حال فمن المؤكد ان نسل الهيلوت الاصلاء وان كانوا قد لقوا اسوء ما يتصور من المعاملة (بعضهم أغتيل) فانهم مكثوا في لاقونيا عصوراً.

(٨) الكليتوري Clitori شعب من اركاديا، اسمهم جاء من مدينتهم التي استمدت اسمها من اسم ملوكهم. يوجد بالقرب من هذه المدينة نبع ماء يثير الشرب منه اشمئزازاً وصدوداً في النفس عظيماً عن الخمر. [ارسطو: ميتافزيقا ١٥: ٣٢٢].

(٩) من المفيد هنا نقدم للقاريء فذلكة عن نظام الحكم الملكي اللاقوني على عهد الأسرة الهيراقليدية. هذه الأسرة طردت [تيسامينيس] ابن [اورستس]. وحلّ يورستينس وپروكلس ولداً [أرسطو ذيموس] محلّه. واتخذ حكمهما منحىً جديداً فكان ثم ملكان بدلاً من واحدٍ سلطتهما متساوية ولم يقسم الأخوان المملكة بينهما ولم يتفقا على المناوبة في الحكم بل حكماً معاً وفيّ ان واحد ومما يدعو الى العجب انه يصرف النظر على المحاسدة والمنازعة. فان هذه الملكية الثنوية لم تنته بنهاية هذين الأخوين بل استمرت في تعاقب لثلاثين ملكاً من فرع يورستينس، وسبعة وعشرين ملكاً من صلب پروكلس. [يورستينس] خلف [أغيس] وبه سميّ نسل هذا الفرع (أغيدي) في حين اتخذ الفرع الثاني اسم (آڤريتيونيذي) نسبة الى (اڤريتيون) حفيد [پروكلس]. [انظر پاوسنياس، سترابو، هيرودوتس وغيرهم].

وتوفي هذا بعد فترة قصيرة، فآل حق العرش (كما خيل للجميع) الى ليكورغوس، وملك فعلاً، حتى تبيّن ان زوج أخيه المتوفى حاملٌ، فسارع ليعلن ان الملك يعود لعقب أخيه ان ولد ذكراً. وانه سيمارس تبعات الحكم وصلاحياته بالوصاية فحسب. والاسم السپارطي للوصاية هو پروذيكوس Prodicus بعد ذلك عرضت عليه الملكة الحامل ان تسقط جنينها بصورة من الصور شريطة ان يتزوجها عندما يعتلي العرش. ماستنكر شرّ المرأة ومحيته نفسه إلاّ انه لم يرفض اقتراحها صراحةً وانما تظاهر بقبوله وأرسل رسولاً لابلاغها شكره وفرحه ولكنه أصرّ مشدداً بالاّ تلجأ الى اسقاط جنينها لما ينطوي عليه ذلك من الأذى، هذا إن لم يتضمن خطراً على حياتها قائلاً انه سيقوم هو نفسه بالتخلص من الوليد حال وضعه. وبامثال هذه الوسائل والحيل أمكنه أن يحوز ثقة المرأة ويبلغ بها نهاية أيام حملها. ولما سمع انها في المخاض ارسل اشخاصاً ليكونوا قريبين منها وليلاحظوا كل ما يجرى. وزودهم باوامر تقضي ان يتركوا الوليد لأمه إن كان بنتاً وان يأتوا به اليه حالاً أينما وجد ومهما كان يفعل، إن وُلد ذكراً، وأتفق انه كان يتناول عشاءه مع كبار القضاة عندما وضعت الملكة ابناً. فجيء به اليه وهو جالس الى المائدة فتناوله بيديه وقال لمن حوله: «يا رجال سپارطا هوذا ملكٌ ولد لكم» ثم وضعه على سرير الملك وسمّاه [خاريلاوس Charilaus] أي «فرحة الشعب» لأن الجميع تملكم الاعجاب والغبطة لما راؤوا من روح ليكورغوس النبيلة العادلة.

لم يطل به الحكم غير ثمانية أشهر، إلاّ أن الشعب أكبره وأحبّه لأسباب أخرى غير المُلك. واطاعه العديد لفضائله السامية لا لأنه وصيّ على العرش بيده الحلّ والعقد. إلا ان بعضهم حاول غمز نفوذه المتعاظم وقت شبابه. لاسيما اصدقاء الملكة الأم واقرباؤها فقد زعموا أنه لم يعدل في معاملتهم وكثيراً ما الحق به الأذى. وفي نقاش حادّ جرى بين [ليكورغوس] وبين [ليونيداس Leonidas] أخ الملكة لم يتورع ان يشتمه بقوله: انه لعلى يقين تام بأنه لم يمرّ زمن طويل حتى يراه ملكاً! يريد من قوله هذا أن يزرع الشكّ في النفوس، ويهيء الاذهان الاتهام [ليكورغوس] باهلاك الطفل في حالة موته ولو بصورة طبيعية. ونشرت الملكة الأم واتباعها امثال هذه الحكايات من عمدٍ وتصميم فأنتابه قلق شديد، وأصبح وهو في خوف مما سيجيء به المستقبل. ووجد خير سبيل لأجتناب الشر هو النفي الاختياري والانتقال من بلاد الى أخرى حتى يبلغ ابن أخيه سِنّ الزواج، ويضمن وليّ عهد له.

فركب البحر إذن يحدوه هذا العزم وبلغ (كريت) أولاً، وفيها درس مختلف أجهزة حكمهم وتعرف بأعلامهم، وأستحسن بعض قوانينهم[١٠] ورأى ان يفيد منها في بلاده، وأهمل طائفة

(١٠) يرى اقدم الكتاب (امثال ايفورس، كاللتينس، ارسطو افلاطون) ان ليكورغوس اقتبس كثيراً من شريع =

كبيرة منها اذ لم ير فيها جدوى وصلاحاً وكان [طاليس Thales] [(١١)] من أشهر الرجال الذين عرفوا بالحكمة، والعلم، والوقوف على شؤون السياسة والحكم، فاقنعه [ليكورغوس] بحكم صداقته وبالحاحه الشديد، ان يسافر معه الى [لقيديمون] ومع أن مظهر طاليس الخارجي ومهنته الخاصة لا ترفعه الى أكثر من درجة شاعر غنائي، إلاّ انه قام والحق يقال بمهمة مشترع من أقدر واكفأ المشترعين في العالم. فاناشيده التي تدفع وتحث النفوس على الطاعة والتعاضد، وقوافيه واوزانه التي تحمل في طياتها فكرة النظام والهدؤ، كان لها تأثير عظيم على عقول المستمعين تلين طباعهم وتهذب نفوسهم فلا يشعرون، إلاّ وقد نبذوا الحزازات والأحقاد واتحدوا معاً في اعجابهم وحبهم بالفضيلة. ان [طاليس) مهدّ السبيل للنظام الذي ابتدعه [ليكورغوس].

وأنتقل من كريت الى آسيا عازماً -كما قيل- على تأمل أوجه الخلاف بين قواعد وأساليب حياة أهل كريت الجدّية الرزينة جداً، وبين عادات الآيونيين [(١٢)]، الرقيقة المرفهة. ليبنى له من ذلك رأياً - كما يقارن الاطباء بين المرضى والاصحاء. ووقع نظره هنا ربما [(١٣)] لأول مرة على ملاحم هوميروس وقد حفظتها أيدي أسلاف [كريوفيلوس Creophus] بلا شكّ. ولما وجد أن الدروس السياسية الرضية والمبادئ الخلقية والحكم تشيع في تلك الاشعار حتى تكاد تعفو على التعابير المتبذلة والأمثال السيئة التي توجد فيها [(١٤)]، شرع حالاً في نقلها وتنسيقها

= جزيرة كريت الاّ ان يوليبيوس (٦) يصرّ على تخطئتهم جميعاً ويقول «في سپارطا، الأراضي كلها موزعّة على المواطنين، ولا وجود للثروة، والحكم وراثي في حين ان الامر خلاف ذلك في كريت» على ان هذا لا يدل بأن ليكورغوس لم يأخذ بطائفة من الاحكام الجيدة والأعراف السائدة في كريت، واغفال ما لا يصلح. على انه ثم تشابها عظيماً بين شرائع ليكورغوس وشرائع (مينوس) ملك كريت بحيث وجب علينا ان نشايع سترابو [١٦] في ايمانه بأن الواحدة كانت أساساً للأخرى. أيهما؟!!

(١١) كان طاليس شاعراً وموسيقياً ويجب الاّ يخلط بينه وبين (طاليس المليسي) الذي عُدّ من حكماء اليونان السبعة. وقد عاش الشاعر قبل الفيلسوف بمائتين وخمسين عاماً تقريباً.

(١٢) ارسل الايونيون من اتيكا مستعمرين الى جزءٍ من آسيا الصغرى يقع بين ليديا وكاريا في حدود العام ١٠٥٠ ق.م اي قبل عصر ليكورغوس بقرن واحدٍ ونصف قرن ومع انهم يقطعوا اواصرهم مع الوطن خلال هذه الفترة القصيرة. الاّ ان مشترعنا استطاع الحكم على التأثير المناخي والانتاجي لآسيا، حتى ان هؤلاء المستعمرين اصبحوا مضرب المثل في الخنوثة والميوعة.

(١٣) ويضيف كلمة «ربّما» لأن بعض الكتاب الاغريق أكدوا ان ليكورغوس التقى بـ(هوميروس) بالذات وكان انذاك يعيش في (خيدس). على ان پلوتارخ هو صاحب الرأي المعتمد هنا، فقد مات هوميروس قبل ميلاد ليكورغوس ولم تكن اليونان قبل عهد ليكورغوس تعرف شيئاً عن هوميروس خلا مقطوعات متفرقة عرفت بعناوين موضوعاتها مثل «بطولة ديوميد» أو «فدية هكتور» وغير ذلك.

(١٤) ان حكم افلاطون في هذا الموضوع يختلف تماماً عن رأي ليكورغوس فحين استبعد الشعراء من «جمهوريته» لم يستثنِ حتى هوميروس نفسه الذي وجده اديباً مفسداً للشباب لأنه لم يقدم صورة لائقة للآلهة كما يراها افلاطون. في عدائه هذا لهوميروس يقف افلاطون وحيداً لاناصر له.

بنظام لطيف لما رأى فيها من فائدة لبلده. كانت هذه الملاحم في الحقيقة قد حظيت ببعض شهرة بين الأغريق، ووصلت شذرات واجزاء مقتضبة منها قبله الى أيدي بعض الأفراد بحكم الصّدف الاّ ان ليكورغوس هو أوّل من نشرها واذاعها.

يقول المصريون أنه رحل الى مصر ومكث فيها، وأعجب كثيراً بأسلوب تمييز الطبقة العسكرية عن بقية السكان(١٥)، فنقل هذا النظام الى سبارطا. لأن إبعاد هذه الطبقة عن الذين يمتهون الأعمال الجسديّة يكسب الدولة روعة ومهابة عظيمتين. ولقد دوّن ذلك أيضاً بعض الكتاب الاغريق. وامّا عن رحلاته في اسبانيا وافريقيا والهند، ومناقشاته مع [الجنموسوفسيين Cymnosophist](١٦)، فمصدر كل الروايات الوحيد عنها كما وجدتُ - هو ارستوقراطس Arstocrates السبارطي ابن هيبارخوس Hipparchus.

واشتاق أهل سبارطا الى ليكورغوس كثيراً. والحّوا عليه بالعودة مراراً قائلين. «حقّا ان لدينا ملوكاً، يرتدون شارات الملك ويتخذون ألقاب الجلال والسلطان، أما عن مداركهم وسعة عقولهم فليس فيها ما يميزها عن عقول أفراد رعيتهم.» وزادوا قائلين ان فيه وحده تظهر أرومة السيادة الحقة، والطبع الذي خلق ليحكم، والإرادة التي وجدت لتُطاع. ولم يكن الملكان نفسهما بالكارهين عودته، لأنهما كانا يعتبران وجوده سداً واقياً لهما من غائلة شعبهما.

وطالعته هذه الحقيقة عند عودته، فانصرف حالاً دون، أن يضيع وقتاً - الى الاصلاح الشامل، عزم أن يغيرّ وجه الجمهورية بأسره اذ ما فائدة قوانين قليلة وتغييرات جزئية؟ كان عليه أن يعمل كالطبيب الواسع العقل عندما يجابه مريضاً تكالبت عليه الاسقام وأختلطت فيه، فبقوة الأدوية ينهكه وبضعفه، ويغير من كلّ مزاجه ثم يخضعه بعد ذلك الى نظام حمية

---

(١٥) المصريون لم يميزوا العسكريين والكهنة (وهما غالباً من الأشراف) عن بقية طبقات الشعب لكنهم ميّزوا ذوي المهن الأخرى كالرعاة، ومربيّ البقر، والتجار، والبحارة والمترجمين وهم ينحدرون من قبائل وطبقات مخصوصة يأخذ فيها الابن عن الأب حرفته. ويرى هيرودوتس (١٨٦:٢) ان النظام المذكور استمده ليكورغوس من مصدر أقرب الى موطنه من مصر، فقد كان سارياً عند التراقيين، والصيثيين وغيرهم.

(١٦) فلاسفة الهنود القدماء هي طائفة منصرفة الى التأمل والصمت، يكاد أهلها لا يرتدون شيئاً من الثياب يعيشون في الغابات. والبرهميون فصيلة من الطائفة نفسها وهم يكرهون البطالة كراهة تحريم. ويحدثنا ابوليّوس انهم اوجبوا على تلاميذهم تقديم حساب يوميّ عن عمل طيب قاموا به إو بالتأمل بعملٍ أقدموا عليه قبل السماح لهم بالجلوس لتناول العشاء. وهم يؤمنون بالتناسخ وبحياة أخرى أفضل وأطيب حتى انهم ما كانوا ليترددوا قذف أنفسهم الى النار عندما يشبعون من الحياة. أو تصيبهم مصيبة. ونخشى ان يكون الخيلاء والاعتداء بالنفس، الدافع الذي دفع أحدهم الى احراق نفسه امام اسكندر الكبير، وآخر الذي قضى حرقاً امام اغسطس قيصر. وما يزال الخلاف قائماً حول صحة زيارة ليكورغوس الهند من عدمه - بين مترجمي بلوتارخ الفرنسيين امثال (داسييه وريكارد).

دقيقٍ جديد تماماً. وبعد ان صورّ لنفسه مشاريعه المقبلة، قصد دلفي لاستخارة ابوللو[١٧] هناك وبعد أن نال بغيته، وقدم قربانه عاد بالنبوءة الشهيرة التي سُمّي فيها «حبيب الله» و«الاقرب الى الآله منه الى البشر» وان صلاته استجيبت وان قوانينه ستكون خير ما وجد، وأن الجمهورية التي ستسير عليها وستكون اشهر جمهورية في الدنيا. كل هذا شجعه على كسب وجهاء سپارطا الى جانبه وأقنعهم بمدّ يد العون له في مشاريعه العظيمة، وأسرّ بالمسألة اولاً لأقرب اصدقائه وكسبوا هم أنصاراً آخرين بالتدريج، والهب حماسة الجميع لتنفيذ مآربه، ولمّا حانت ساعة العمل، أمر ثلاثين من سراة سپارطا، أن ينزلوا سوق المدينة بسلاحهم فجر اليوم التالي، ليبثّ الرعب في نفوس الحزب المناوئ. وذكر [هرميپوس Hermippus] اسماء اشهر وابرز عشرين منهم. إلاّ أن [ارثميادس Arthmiades] كان أسم ابرز الجماعة كافةً، وأقربهم الى ثقة ليكورغوس وسرّه، وأكثرهم نفعاً له في سنّ قوانينه ووضعها موضع التطبيق. أضطربت الخواطر، وساد الهياج وتوهم الملك [خارپلاوس] أن مؤامرة تحاك ضده، فاسرع يحتمي بمعبد البيت النحاسي[١٨]، ولكن بعد أن تبين انه واهم، واخذه العهود والمواثيق منهم بأنهم لا ينوون به شراً، ترك ملجأه وانضم هو نفسه اليهم. كان [خارپلاوس] إنساناً من ارقّ والطف الناس وأكثرهم سماحة. حتى ان [ارخيلاوس Archelaus] أخاه في الملك يقول فيه عندما كانت طبيبته تمدح أمامه: «من يستطيع القول عنه أنه طيبٌ؟ وهو لا يعرف الصرامة حتى مع الأشرار».

من التغييرات الكثيرة والاصلاحات التي عملها ليكورغوس، اولّها وأعظمها أهمية انشاء مجلس للشيوخ. سلطاته مساوية لسلطات الملك في الأمور الهامة جداً، ليحدّ من سلطات الملك، ويعدّل ويلطف من اندفاعاتها الناريّة[١٩]، وبذلك يشيع الثبات والاطمئنان في بناء

---

(١٧) اقنع (مينوس) أهل كريت بان قوانينه نزلت عليه وحياً من (چوپتر) وقلده في ذلك ليكورغوس تحدوه الرغبة في اقناع أهل سپارطا بأن فعل ما فعل بتوجيه وأمرٍ من (ابوللو). هناك مشترعون آخرون وجدوا من الأفضل كثيراً ان يضخموا هذه الفكرة القائلة بأن شرائعهم ونظمهم انما جاءتهم من الأرباب. لأن حبّ النفس في الطبائع البشرية الذي لا يتسامح ولا يتحمل تفوقاً عبقرياً تمثل في مشترع لم يعاونه أحد في عمله، يجد راحة وسهولة في تطبيق احكام ذلك المشترع عندما يقال له انها أوحيت اليه في السماء ولهذا نجد واضعي الشرائع القديمة يعزونها الى الارادة الآلهية دائماً لأن في ذلك تعزيزاً لشأنها ورفعاً من قدرهم كما يضمن لهم فضلاً عن ذلك قيام الأهالي بالدفاع عنها ومعاونته ضميرياً في تطبيقها والتقيد باحكامها.

(١٨) اي خاليوكس وهو هيكل الربة اثينا، وكان شاخصاً في ايام (پاوسنياس) المعاصر لماركوس انطونيوس.

(١٩) الفقرة التي يشير اليها المؤلف هي في كتاب افلاطون الثالث حول الشرائع حيث نجده يبحث في أسباب سقوط الدول ويضع الكلام التالي على لسان اثينيّ قائلاً يخاطب اللقيديميين: «في اعتقادي إن آلهاً من الآلهة مدفوعاً بغيرته على دولتكم ولمعرفته بما سيأتي به المستقبل أعطاكم ملكين من أسرة واحدة =

الجمهورية» على ما يقول [افلاطون]. لأن الدولة قبل ذلك لم تكن تستند على قاعدة ثابتة فمرة تميل الى الملكية المطلقة لفترة من الزمن، عندما يستظهر الملوك، ومرة تميل الى الديموقراطية الصرفة عندما ترجح كفة الشعب وتكون لارادته الكلمة العليا. فكان مجلس الشيوخ هذا بمثابة قطب الرحى. كالمثقلة في السفينة فانها تحفظها دائماً في توازنٍ تام، ينحاز اعضاؤه الثمانية والعشرون دائماً الى جانب الملوك لمقاومة التيار الديمقراطي، ويساندون الشعب من الجهة الثانية ضد اي محاولة لقيام ملكية مطلقة. واما بخصوص تحديد العدد بثمانية وعشرين فيقول [أرسطو] عُزي سببه الى ان اثنين من المؤتمرين الثلاثين الأصليين عدلاً عن المساهمة في الخطّة لجبنٍ اعتراهما ولكن [سفيروس Sphaerus] يؤكد لنا ان العدد المؤتمرين كان ثمانية وعشرين بالأصل، ولعل هناك سراً في العدد الذي يتضمّن سبعة مضروبة في أربعة والسبعة هو أوّل عددٍ تام بعد الستّة ولذلك كان متساوياً في كلّ اجزائه(٢٠). وأما رأيي الخاص فهو ان ليكورغوس حدّد العدد بثمانية وعشرين على أن يُعدّ الملكان بين الاعضاء فيكمل العدد ثلاثين.

ولقد كان شديد الاهتمام بإنشاء هذا المجلس حتّى أنه راح ينشد نبوءة عنه من دلفي. فأنزل عليه ما سمي بمرسوم [الريترا Rhetra] وهو كالآتي: «بعد أن تقوم ببناء معبد [لجوپيتر هيليانيوس Helianius] و [مينرڤا هللانيا M. Hellania] أن تقوم بتنظيم الشعب في «فيليس Phyles» وترصهّم في «أوبس Obes» عليك أن تؤسس مجلس شورى من ثلاثين شيخاً بضمنهم الزعيمان، وعليك أن تجمع الشعب بين فترة وأخرى في اپيّللازين Apellaze-

---

= ليحكما بعدالة أكثر عند ممارستهما الحكم وبذلك تتمتع سپارطة باعظم الاستقرار. وبعد هذا عندما تنزع الملكية الى الاستبداد والحكم المطلق تقوم روح آلهية متقمصةً جسداً بشرياً (هو ليكورغوس) بوضع اسباب الحكم ضمن حدود العدل والمساواة عن طريق سلطة مجلس الشيوخ الحكيمة المساوية لسلطة الملكين». ويقوم ارسطو [السياسة ٢:٧] بتخطئة هذه الفكرة من ناحية بقاء الشيوخ في مناصبهم طوال العمر فيقول: «من السخف إن تودع مصائر المواطنين ايدي رجالٍ قد يحول تقدمهم في السن دون دقة التمييز. فالعقل يهرم مع هرم الجسد. كذلك ليس معقولاً أن يكون هؤلاء معصومين لا يمكن محاسبتهم على اجراءاتهم واحكامهم». لكن يبدو ان حلاً مجدياً تم الوصول اليه للمشكلة الأخيرة بابتداع نظام الايفوري فيما بعد. وقد استحدث بصورة رئيسة للدفاع عن حقوق الشعب ولذا يضيف افلاطون قوله: «والنعمة الثانية التي حظيت بها سپارطه هو ذلك الأمير الذي رأى ان السلطان الشيوخ وسلطان الملكين مفرطات في التحكم والاستبداد ويستحيل وضع رقابة عليهما. فابتدعت سلطة الايفوري كبح جماحهما.» ان اعجب ما في النظام هو وجود ملكين لكن وبعد ان فقدت أجهزة حكم ليكورغوس نفوذها الأول حطمت الاحزاب التي خرجت في هذه المنازعات، كيان سپارطه. ومع هذا فارسطو في [السياسة ١١:٥] يعزو دوام تلك الدولة الى توزيع السلطات!

(٢٠) على أغلب الاحتمال لم يكن ليكورغوس على علم بقانون الاعداد. كما كان ابعد من ان يضع قوانينه على أساس التفكه واللعب الفكري.

in، مـا بين [بابيـكا Babyca] و[كناسيــون Cnacion][٢١]. وهناك يقتـرعـون وتؤخـذ اصـواتهم، ان للشعب الكلمة الأخيـرة والقرار النهائي». ويقصد بكلمتي Obes & Phyles طبقتا الشعب، وبالزعيمين يقصد الملكان، وبأپيللازين يشير الى اپوللو البيثيّ، ويقصد بها الاجتماع، وبابيكا وكناسيون هما الآن [اونوس Oenus] على ان ارسطو يقول أن [كناسيون] هو نهر، و[بابيكا] جِسر، وبين هذا النهر والجسر كان يتمّ الإجتماع اذ لم يكن لديهم بيت شورى، ولا بناية يجتمعون تحت سقفها. وكان ليكورغوس يرى أن البهرجة والزخرفة في مجالس الاجتماعات لا تفيدهم في شيء، وانما قد تغدو عائقاً لانه يصرف المجتمعين عن الشؤون التي اجتمعوا لها الى التماثيل والتهاويل والسقوف المزخرفة المنقوشة، وغيرها من التوشية الفنيّة التي تحفل امثال هذه البنايات عند الاغريق الآخرين في هذه الاجتماعات العامة تعقد في الهواء الطلق لا يسمح لاي فردٍ أن يعطي رأيه بل يحق له إمّا أن يصادق أو ان يرفض ما يعرضه عليهم الملك أو مجلس الشيوخ. ولكن عندما أخذت العامة تشوّه وتحرفّ مدلولات المبادئ عن معانيها الاصلية باضافة كلمات معينة أو حذفها، أدخل الملكان [پوليدوروس Polydorus وثيوپومپوس Theopompus] الفقرة التالية الى [الرتيرا العظمى] أو الميثاق الاعظم: «يحق مجلس الشيوخ والزعماء أن ينقضوا اي قرارٍ أخطل اتخذته العامة». أي أن يرفضوا ابرامه ولهم أن يحلّوا جمعية الشعب بحجّة أنها أخطأت وحادت عن جادة الصواب في مشورتها.

وتمكنوا بالخداع والحيلة أن يلقوا في روع الجمهور بأنها مساوية لبقية الرتيرا في درجة صحتها كما يبدو ذلك من أبيات الشاعر [ترتيوس Tyrtaeus] التالية[٢٢]:

هذي النبوءات الصحيحة التي سمعوها من [اپوللو]
وجاؤوا بأقوالها الصادقة من معبد [پيتو Pytho]:
«الملوك الذين عينتهم السماء، واحبّوا الأرض،
يكونون اوائل في مجلس شورى البلاد.
ويأتي الشيوخ في المحل الثاني، ويأتي العامّة أخيراً.
ألا فلتُسد شريعة ريترا صحيحة بين الجميع!

ومع ان ليكورغوس اتخذ كُلّ الاحتياطات الممكنة لتلطيف جهاز حكمه الجمهوري فان اولئك

---

(٢١) لعلها اسماء روافد صغيرة لنهر افروتاس.

(٢٢) شاعر غنائي اربله الآثينيون بعد منحه رتبة جنرال – على رأس قوة لنجده السپارطيين. نصراً على المسينيين. عندما حمّسهم واستنهض هممهم بقصيدة انشدها وهو على رأس قواته العسكرية.

الذين عقبوه وجدوا ان التيار الاوليغارشي(*) «مرغياً ومزبداً ولأجل أن يكبح مزاجه الحادّ وصولته الجائحة، «وضعت لُقمة في فمه» على حَدّ قول افلاطون(٢٣)، هذه اللقمة هي إحداث سلطة الايفوري Ephorie(٢٤) التي أنشئت بعد موت ليكورغوس بمائة وثلاثين سنة. وكان [ايلاتوس Elatus] وزملاؤه أول من أسندت اليهم هذه الوظيفة في زمن حكم الملك [ثيوبوبوس]، الذي اجاب زوجه الملكة عندما عيّرته يوماً ما، بأنه سيخلف سلطة الملك لأولاده وهي أقل مما تسلمها من أسلافه؛ قال «كَلاً بل أكثر، لأنها ستدوم وقتاً أطول». ذلك لأن الملوك السپارطيين بعد أن رسمت لسلطاتهم حدود معقولة، تحرروا تماماً في الأخطار، والمؤامرات ولم يعانوا قط المصائب التي انصبت على جيرانهم في مسيني Messene وآرغوس Argos، أولئك الذين حرصوا على سلطاتهم، وابوا التنازل للشعب عن قليل منها، فخسروها كلّها.

(*) Oligarchy: هو حكم الأقلية أو الصفوة المنتخبة [م. ت].

(٢٣) افلاطون: القوانين ٦٩٢.

(٢٤) هيرودوتس (١:٦٥) و[كزينفون: جمهورية لقيديمية ٨] يقولان ان ليكورغوس هو الذي عين الايفوري شخصياً. الاّ ان التفاصيل التي يبسطها المؤلف مقتبساً من ارسطو (السياسة ٧) وغيره، باعتبار انها لم تستحدث الاّ بعده بزمن طويل، يبدو اقرب الى المعقول. اذ لا يحتمل مطلقاً ان ليكورغوس الذي ساند الارستقراطية بكل قواه ولم يترك للشعب شيئاً الاّ حق القبول أو الرفض - انه يعين نوعاً من مفوضين شعبيين ويجعلهم سادة مساوين للملك ولمجلس الشيوخ. بعض المؤرخين يرون ان الايفوري كانوا في مبدء الأمر خلصاء للملك ينتدبهم لممارسة سلطته عندما يذهب للحرب. لكن المعروف الاكيد ان الشعب كان يختارهم عن طريق الانتخاب من مجموع الدهماء وأحياناً من بين ادنى طبقة من الدهماء حيث ان اجرأ المواطنين وأصلبهم يكون أكثر حظاً للفوز بمثل هذه الوظيفة - كائنا ما كانت صفته. فهي وظيفة القصد منها الحدّ من سلطة الملكين وسلطة الشيوخ. وعدد الايفوري خمسة. في جمهورية قرطاجة ويجرى انتخابهم كل سنة. وقد رسم ان تكون قراراتهم بالاجماع لتغدو سلطاتهم ذات تأثير. كانت سلطاتهم محددة بشكل جيد. إلاّ انها تحررت بمرور الزمن من كل قيد. فصاروا يرأسون الاجتماعات العمومية ويقومون باحصاء الاصوات في الاقتراع. ويعلنون الحرب ويعقدون معاهدات السلم ويتفاوضون مع الدول، ويقررون عدد القوات المجنّدة، مع تحديد مصروفاتها ويوزعون المكافآت ويفرضون العقوبات باسم الدولة. ويعقدون مجالس قضاء ويحققون في سلوك الحكام والقضاء ويشرفون على تعليم الشباب وتوجيه سلوكهم. كما زوّدوا بسلطة خاصّة على الهيلوت، وبمختصر القول انهم حصروا كل السلطات الادارية والتنفيذية بايديهم شيئاً فشيئاً ومضوا الى الحدّ الذي قاموا بتنفيذ حكم الموت بالملك [آغيس] بزعم انهم ينفذون حكم العدالة. أخيراً قتلهم [كليومنيس] صبراً.

يرى (بارثلمي) في كتابه (رحلات اناخارسيس) ان صلاحيات الايفوري كانت حتى عهد ليكورغوس قاصرة على الحكم الداخلي حين آثار والشعب وحرضوه على مقاومة الشرائع الجديدة. وكان لأهالي كريت الذين أقتبس عنهم - ضباط يقارنهم ارسطو بالايفوري، يعرفون باسم (كوزمي). على ان معظم الكتاب لا يذكرون الايفوري بوصفهم بدعة من بدع النظام أوجدها [ثيومپوپوس] بل اعتبارهم جهازاً من شأنه الحدّ من سلطة الملك وكبح جماحه. فالاحتمال اذن هو ان ليكورغوس ابقى لهم بعض الامتيازات. وان ثيومپوپوس زوّدهم بسلطات أخرى مما جعل النظام يبدو نوعاً من الاوليگارشية.

والحق يقال ان كل من يتأمل في الفتن والثورات وسوء الادارة التي حلّت في هاتين الدولتين الجارتين اللتين تتصلان بالدم فضلاً عن صلة الجوار لا يسعه إلاّ أن يجد خير سببٍ للاعجاب بحكمة ليكورغوس وبعد نظره. فهذه الدول الثلاث من أول نشأتها كانت متساوية، أو اذا كان هناك اي امتياز فقد اختصت به دولتا [مسّين وارغوس] اللتين اعتبرتا أسعد خطاً من الثالثة (سپارطا)[٢٥] في أوّل القسمة. وكانتا يمتلكان اراضي أفضل[٢٦] ومع هذه لم تطل سعادة البلدين طويلاً، بسبب طغيان ملوكهم من جهة، وبسبب صعوبة حكم الشعبين من جهة، وسرعان ما سادتهما الفوضى، وانهارت صروح اجهزة الحكم والمجتمع فيهما، ممّا أظهر بكلّ وضوح مبلغ الحظوة التي نالها السپارطيون من لدن الآلهة بانعامها عليهم بواضع قوانينهم الحكيم الذي منح حكومتهم استقراراً وتوازناً سعيداً.

بعد تعيين الشيوخ الثلاثين، كانت مهمته التالية التي باشرها هي أخطر المهام طراً. أعني القيام بتوزيع جديد للأراضي الزراعية. حيث كان يوجد تفاوت عظيم في هذا بين الناس، والدولة ترزح تحت عبء الشكوى والسخط العام الذي يثيره الفقراء والمحتاجون في حين كانت الثروة كلها مركزة في أيدي قلةٍ ضئيلة، فلأجل أن يزيل من مجتمع الدولة التحاسد والتباغض، والاجرام والترف، وتلك الأمراض المتأصلة المزمنة، الفقر، والغني الفاحش، حملهم على التنازل عن ملكياتهم جميعاً، والرضى بتقسيم جديدٍ للأرض، وأقنعهم بأن يعيشوا معاً على قدم المساواة، وان تكون الجدارة والأهلية هي السبيل الوحيدة الى التقدم والشهرة؛ وتقبيح الشرّ، وحسن الجزاء للأعمال الطيبة يكونان معيار الخلاف الوحيد بين انسان وانسان.

بعد موافقتهم على مقترحاته هذه، باشر في الحال بوضعها موضع التطبيق فقسم بلاد [لاقونيا] مبدئياً الى ثلاثين ألف سهم متساوٍ وقسم الجزء المرتبط بمدينة سپارطا الى تسعة آلاف سهمٍ وزعها على السپارطيين، كما وزع السهام الأولى على باقي المواطنين الريفيين. ويقول بعضهم أنه خصّص للمواطنين السپارطيين ستة آلاف سهم فقط وان الملك [پوليدوروس]أضاف اليها ثلاثة آلاف أخرى. وقال: آخرون ان [پوليدورس] اضاف مثل عدد السهام التي حددها ليكورغوس بأربعة آلاف وخمسمائة فصارت تسعة آلاف وكانت قطعة الأرض الواحدة تنتج سنوياً (بأخذ معدل سنتين متتاليتين). حوالي سبعين بوشلاً[*] من القمح

(٢٥) هذه الدول الثلاث تدعي انحدارها من دولة واحدة هي دولة الهيراقليدي فـ(ارغوس ومسيني) تردان اصولها الى (تمينيس) (وكرسفونتس وسپارطا) تُردّان الى اقريستينس وپروكلس ابني اريسطو ذيموس.

(٢٦) تغطي الجبال ارض سپارطا لتجعلها غير صالحة للزراعة تقريباً في حين نجد (سترابو) يصف سهول ارغوس ومسيني بالخصوبة وكثرة المياه ويجعلهما اخصب جزءٍ من بلاد الاغريق.

(*) ميكال للقمح تعادل سعته ثمانية غالونات [م.ت].

لربّ الاسرة، وأثني عشر بوشلاً لامرأته. مع مقدار مناسبٍ من الزيت والخمر، وهو ما يكفي في أعتقاده لبناء الأجسام قوية صحيحة، أما الفائض عن الحاجة فلا خير فيه لهم. ورُوي أنّه كان عائداً من رحلة له، بعد تقسيمه الأراضي بزمن وجيز، وصادف ان كان وقت الحصاد والأرض قد حصدت لتوها. فأبتسم إذ شاهد اكوام القمح قائمةً وكلها متساوية وقال لمن حوله «أرى لاقونيا كلها تبدو مثل مزرعة اسرةٍ واحدة، قسمت بين عددٍ من الأخوة».

ولم يقنع بهذا، وقرّر أن يجرى توزيعاً في اموالهم المنقولة أيضاً. حتى لا يبقى اي فرقٍ أو تفاوت كبير بينهم. ووجد أن تطبيق ذلك بصورةٍ صريحة، ينطوى على أعظم المخاطر، فسلك سبيل الحيلة[٢٧] وتغلّب على حرصهم بالخطّة التالية: أمر أن يُلغيالتعامل بالنقد الذهبي والفضّي الغاء تاماً. وان لا يسمح إلاّ بنوع من النقود الحديد وهي ذات حجوم كبيرة وثقل عظيم، وقيمة تافهة جداً. فلأجل حفظ ما قيمته مينائين[*] يتطلب خزانة واسعة جداً. ولأجل نقل هذه الكمية يحتاج الى ما لا يقل عن زوج من الثيران. وتداول هذه النقود أختفى في الحال عدد من الرذائل وزالت من لقيديمونيا. اذ من يخطر بباله أن يسرق مثل هذه النقود؟ ومن يمسك شيئاً بدون لا تكون قيمة له، ولا فائدة فيه حتى لو قطع اجزاءً. اذ انهم كانوا يغطون السكّة وهي محمرة في الخلّ وبهذه الوسيلة بتلف معدنها ولا تعود صالحة لشيء.

ثم انه أصدر أمراً بعدم قانونية مزاولة كل الفنون غير المفيدة، المُترفة، وما كان الأجدر به هنا أن لا يصدر مثل هذا الأمر، فهذه الفنون ماتت من تلقاء نفسها ولحقت بالذهب والفضة، لأن النقود الجديدة لم تعد ثمناً صالحاً ومناسباً للتحف الفنية. لكونها من الحديد ولا يمكن تداولها بين سائر الأغريق الذين سيهزأون بها - هذا إن أمكن تصديرها ونقلها. وهكذا لم يعد ثمّ وسائل لشراء بضائع أجنبيّة وكماليّات صغيرة، ولم يعد التجار يرسلون سفنهم المحمّلة بالبضائع الى المواني [اللاقونية) أما أساتذه البلاغة، وقارئو الخط المشعبذون، وتجار البغايا، ونقاشو الفضة، وصاغة الذهب، والجواهريون، فلم يعودا يرون جدوى في زيارة بلاد ليس فيها

---

(٢٧) ظلّ السپارطيون بعد ليكورغوس ردحاً طويلاً من الزمن ينفرون نفرة شديدة من زيادة الحرص وحب الاقتناء الى حدٍ ان شاباً أشترى ضيعة بفائدة عظيمة فاستدعي ليؤدي حساباً على ذلك وفرضت عليه غرامة. فقد وأرا انه عظيم الجشع الى جانب جرعية في شراء حاجة باقل من قيمتها لانه استخدم عقله من اجل الربح وهو في العمر الذي يجب ان يفكر الناس في الاتفاق. لكن عندما لم يعد السپارطيون قانعين بحدود بلادهم واردوا التوسع خلافاً لما كان ليكورغوس ينهاهم عنه، فقد اشتبكوا في حروب خارجيّة. ولم تقبل نقودهم في البلاد الأخرى. ووجدوا انفسهم مرغمين على التوجه نحو الفرس الذين بهرتهم فضتهم وذهبهم. وازداد جشعهم الى حَدّ شنيع حتى ضرب بهم المثل الذي ذكره افلاطون وهذا هو «يرى المرء قدراً كبيراً من النقود يدخل الى لقيديمون، لكنه لا يرى منها شيئاً يخرج».

(*) حوالي ٤٠ پاوناً استرلينياً.

نقود وهكذا أخذ الترف يزول ويتلاشى وهو يتجرد شيئاً فشيئاً مما يقويه وينعشه، حتى قضي عليه تماماً ومات. لم يعد للاغنياء هنا افضلية على الفقراء لأن غناهم وثراءهم الواسع فقد سبيله الوحيد الخارجي، فظلّ حبيساً في الداخل لا يفعل شيئاً. وبهذا السبيل نبغ من الناس صناع مهرة وفنانون في عمل الأشياء المفيدة الضرورية للعموم، كالكراسي، والأسرة، والموائد، ومختلف ادوات الاسطبل في حدود حياة الأسرة. وكانت تلك الحاجات موضع اعجاب من يراها لدقتّها. وتذكر بصورة خاصة طاس الشراب السمى كوثون Cothon[٢٨] فقد شاع أمره وتسابق الناس على اقتنائه. ولاسيما الجنود، على قول [كريتياس Critias]. فلونه يحول دون ملاحظة الشارب للماء العكر أو المشوب الذي قد يضطر المرء الى شربه بدافع الحاجة والضرورة. فقد جعلت هيئته بحيث يعلق الطين بجوانبه فلا يبلغ فم الشاب إلاّ الماء النقي. ولهذا أيضاً عليهم ان يشكروا واضع قوانينهم الذي أطلق منهم كوامن مهاراتهم وابداعاتهم في اضفاء صفة الجمال على الأدوات الضرورية ذات الاستعمال اليومي، بإراحة الصناع الفنانين من متاعب صنع الأشياء غير المفيدة. امّا الضربة الثالثة، الأشد وقعاً والأمضى حداً التي انزلها واضع القوانين العظيم هذا بالترف والشهوة الى الغنى فهو المرسوم الذي قضى بأن يأكل الجميع من مائدة عامة[٢٩]. فيتناولون الخبز واللحم وكلّ الوان الطعام المقررة دون تفضيل، وأن لا يقضوا حياتهم في البيوت، مستقلين على الأرائك الوثيرة جالسين الى الموائد الحافلة باطايب الطعام، مستسلمين الى ايادي طهاتهم وحشمهم ليُسمنّوهم في الزوايا مثل الحيوانات النهمة، وليتلفوا لا عقولهم وحدها، بل أجسامهم التي سيدركها بلا شكّ الخمول للافراط في الملذات، فتظل في حاجة مستمرة الى النوم الطويل والحمام الساخن، والراحة والابتعاد عن الجهد، وبعبارة أخرى ستكون بحاجة الى العناية والرعاية قدر ما يحتاج دوو الأسقام والزّمنى إنه في الواقع لمعجزة خارقة ان يتم الوصول الى هذه النتائج.

---

(٢٨) اقرأ وصفاً لهذا الكأس الفخاري في الفقرة التي كتبها «كريتياس» وهي في الآثينيوس ١١:١٠.

(٢٩) تعمق كزينفون في تعليل اسباب ذلك فراح ابعد مما ذهب اليه پلوتارخ وغيره اي انها ترمي الى قمع الرغبة بالترف. فقال ان المائدة الجماعية تقوم مقام مدرسة أو هي بمثابة معهد علمي يقوم فيه الكبار على تهذيب الصغار بان يقصّوا عليهم قصص الأحداث العظمى التي علقت بذاكراتهم وبهذا يثيرون في نفوس الجيل الجديد حبَّ المعالي والشوق للاتيان بأشرف العمل. لكن وجد ان هذا لا يمكن اني يتحقق فعلاً بالنسبة لجميع المواطنين عندما زاد عددهم على عدد قطع الأراضي المقرر توزيعها لذلك انتقد المؤرخون ليكورغوس وقالوا: كان عليه ان يجعل هذه الموائد الجماعية على حساب الدولة مثلما جرى ذلك في (كريت) وبعد ان اقتبس معظم شرائعه منها (ارسطو: السياسة ٢:٨). لكن علينا ان نتذكر بأنهم كانوا قد أحتاطوا لتلك الزيادة في السكان بارسال مستوطنين الى الخارج لذلك لم ينقل الفقراء عبء ليقيديمون الى أن اصيبت الحكومة بالانحلال.

على أن «أعظم ما يمكن أن يُسلب من الغنى ليس مجرد الشهوة الى التملك، وإنما طبيعة الغنى نفسها» على ما لاحظه [تيوفراستوس Theophrastus]، فبارغام الاغنياء على مجالسة الفقراء لتناول الطعام من مائدة واحدة، لا يسعهم ان يفيدوا من ثرائهم ولا أن يستمتعوا به ولا ان يرضوا كبرياءهم بالنظر اليه أو عرضه على الأنظار. ولذلك لا توجد بقعة في الدنيا يصدق فيها المثل السائر بالحرف الواحد «پلوتوس Plutus آله الغنى، أعمى» مثلما يصدق في سپارطا. وهو هنا ليس أعمى فحسب، بل مثل صورة لا حياة فيها ولا حركة.

ولا يسمح لأحد أن يتناول طعاماً في بيته أولاً ثم يحضر الموائد العامة فكل امرءٍ هناك يراقب اولئك الذين لا يأكلون ولا يشربون كالباقين ويعيّرونهم بالتخنث والرقّة.

هذا القانون الأخير اغاظ الاغنياء واستنفد صبرهم بنوع خاص فاجتمعوا كتلة واحدة ثائرة على ليكورغوس، وانتقلوا من الكلمات الجارحة الى رجمه بالحجارة. حتى اضطر الى ترك السوق هارباً واتجه الى ملاذٍ مقدس لانقاذ حياته وشاء حسن حظّه ان يسبقهم جميعاً إلاّ شاب يدعى [ألكاندر Alcander] لم يكن فظاً بطبعه، وأن عرف عنه التسرع والصنف، فقد لحق به وحاذاه ولما التفت ليكورغوس نحوه ليرى من المطارد عاجله بضربة عصا على وجهه. ففقأنه عينا. فتوقف ليكورغوس دون أن تؤثر هذه الحادثة فيه أو تفلّ من غِراب عزمه. وكشف عن وجهه المشوّه وعينه الجاحظة لانظار بني قومه فأدركهم الأسف والخجل، ودفعوا بالضارب اليه ليقتصّ منه وصحبوه الى بيته وهم في غمّ شديد لاعتدائهم عليه وبعد ان شكرهم ليكورغوس على اهتمامهم بأمره صرفهم جميعاً واستبقى [الكاندر] وأدخله بيته ولم يوجه اليه كلمة غاضبة، أو عملاً عنيفاً. ولكنه صرف أولئك الذين يجالسونه على المائدة، وطلب من [الكاندر] أن يقوم على خدمته. وكان الفتى طيباً بطبعه فقام بما طُلب منه دون تذمر أو شكوى، وسمح له أن يشاطره العيش فاتيحت له الفرصة ليتبين فيه رقتّه المأثورة، وهدؤ طبعه فضلاً عن رجاحة عقله الفائقة وجلده على العمل الذي لا يعرف وهناً وما الى ذلك. فأنقلب من عدوّ له، الى أشدّ المعجبين به تحمساً ومشايعة. وأخبر اصدقاءه وأقرباءه انّ ليكورغوس ليس بذلك الشخص الجهم السيىء الطبع الذي توهمه الكثيرون من قبل بل يمتاز بألطف وأرق طباع في الدنيا. وهكذا جعل ليكورغوس من شاب أهوج مندفع، واحداً من أكثر المواطنين السپارطيين اتزاناً ورجاحة، بدل أن يعمد الى عقابه عن خطأه.

واحياءً لذكرى هذه الحادثة أقام معبداً لمينرڤا، سمّاه [اوپيتليتيس Optiletis]. إن كلمة [أوپتيلوس Optilus] هي اللفظة الاغريقية الدارجة في تلك الأنحاء ومعناها «عين» [اوفَتالموس Ophathalmus] ويقول بعض الكتاب الذين كتبوا رسالة عن جمهورية سپارطا،

ومنهم [ديُسيقوريدس Dioscorides] أنه جُرح حقاً، ولكنه لم يفقد عينه نتيجة الضربة. وأنه بنى المعبد اعترافاً بفضل شفائه. ومهما يكن من أمرٍ ومهما بلغت هذه الروايات من الحقيقة، فبعد هذا الاعتداء، استنّ اللقيديميون لأنفسهم مبدأ حمل ما لا يزيد عن عكازٍ في اجتماعاتهم العمومية.

ولنعد الآن الى وجبات الطعام العامّة؛ إن لها عدة اسماء باليونانية فأهالي كريت يسمونها [آندريا Andria] لأنها للرجال فقط. والليقديميون يسمونها [فيديتيا Phiditia] بقلب «اللام» الى «دال» في كلمة [فيليتيا Philitia] ومعناها «الحبّ في المآدب» لأن الطعام والشراب المشترك يعقد حبال الودّ. أو لعلها جاءت من [فيدو Phido]، أي الشحّ والتقيتر، لأنها بمثابة مدارس عديدة للاعتدال وربما كان الحرف الأول زيادة في الكلمة التي هي بالأصل [ايديتيا Editia] اي الأكل من [Edode]. وهم يجتمعون زمراً من خمسة عشر أو نحوها. وعلى كل فردٍ منهم أن يساهم في اداء بوشل واحدٍ من الخبز، وثمانية غالونات من الخمر، وخمسة باوندات من الجبن وباوندين ونصف باوند من التين ومبلغ طفيف جداً من المال لابتياع سمك أو لحم شهرياً للمائدة العامة. والى جانب هذا إذاً قدم أي واحدٍ منهم قرباناً للأرباب فهم يرسلون على الدوام صدقة الى القاعة العامة. كذلك عندما يصطاد احدهم قنيصة «فانه يرسل الى الجهة نفسها، شيئاً من قنيصته. وفي هاتين المناسبتين فقط يسمح للمرء أن يتناول طعامه في بيته. وقد بقيت عادة الطعام الجماعي سارية المفعول بكلّ دقةٍ زمناً طويلاً بعد ليكورغوس. حتى أن [آغيس Agis] الملك نفسه بعد أن هزم الاثينين أرسل عند عودته الى بلاده يطلب الحصّة المعينة من المائدة العامّة معتذراً بأنه يرغب في تناول طعامه مع الملكة في خلوةٍ[٣٠] فرفضها [البوليمارخوس[*]]. وهو الرفض الذي أحنق الملك واحفظه حتى انه الغى مراسم صباح اليوم الثاني الخاصة بتقدم القرابين الواجبة لكلّ حرب طيّبة الختام، فما كان فهم الاّ وحكموه بتأدية غرامة.

وكانوا يرسلون صغارهم الى هذه الموائد كأنما يرسلونهم الى مدارس تهذيب وتثقيف. فيلقنون فيها شؤون الحكم وادارة والدولة باصغائهم الى رجال السياسة المجربين. وفيها يتعلمون كيف يطرزون احاديثهم بالنوادر وأن يتبادلوا المزاح والتندر دون حَدّ الإيلام وان يتقبلوها برحابة صدرٍ وفي هذه النقطة من حسن التربية فاق اللقيديميون غيرهم بصورة خاصة.

(٣٠) كان لملوك اسپارطا حق دائمي في تناول وجبتين من الطعام. ليس للسماح لهم باظهار مزيد من الشهوة. بل لتتاح لهم فرصة مشاركة حصتهم من الغذاء مع رجل مشهود له بالشجاعه يُختار لينال هذا الشرف.

(*) البوليمارخوس السپارطيون هم الذين يقودون الجيش تحت امرة الملوك. انهم كبار رجال الدولة وهم دائماً يوزعون الطعام على المائدة.

ولكن ما أن يُبدي المرء ضجراً منها حتى يكف الجميع عن توجيه القول له بعد اشارة خفيفة جداً. وجرت العادة ايضاً أن يقول أكبر الزمرة سنّا لكلّ منهم مشيراً الى الباب عند دخولهم: «لا تخرج كلمة واحدة من هذا الباب». واذا رغب أحد في الانضواء الى احدى هذه الزُمر الصغيرة فعليه ان يفوز في الاختبار التالي: يأخذ كل عضو من أعضاء الندوة كرة صغيرة من العجين. ويلقونها كلٌ بدوره في آنية عميقة يطوف بها عليهم نُدُل وهي فوق رأسه فمن يرغب في انضمام المرشح الى ندوتهم يلقى كرته في الآنية دون أن يغير من هيئتها ومن لا يريده يضغطها بين أصبعيه ويجعلها مسطحة وهذا ما يعادل التصويت بالرفض. وإن وجدت عجينة مدحاة واحدة فقط لا يقبل المرشح، إذ يشترط الإجماع عليه، ليكون كُلّ اعضاء الزمرة متفاهمين بعضهم مع بعض، ويطلق على الآنية [كادّيخوس Caddichus] ومنه اشتق اسم المرشح المرفوض(*). وأشتهر لون من الطعام عندهم هو العصيدة السوداء وهي ذات قيمة غذائية كبيرة بحيث كانت طعام كبار السن الوحيد، فهؤلاء كانوا يتحسّونها ويتركون اللحم لمن دونهم سنّا. ويقال أن ملكاً من ملوك[٣١] [اليِنطوس Pantus] سمع الكثير عن عصيدتهم السوداء تلك فبعث يستقدم طاهياً ليقديمونياً ليعمل له شيئاً منها. ولما ذاقها استقبحها ولم تعجبه قطّ وكان الطاهي يرقبه فقال له «لأجل أن تجعل هذه العصيدة شهيّة عليك يا مولاي أن تغتسلَ في نهر ايروتاس Eurotas!».

وينصرف كل رجل الى داره بعد أن يشرب خمراً باعتدال ولا يستخدم نوراً لأن استخدام النور ممنوع مهما كانت احلك الظروف، والسبب في هذا هو أن يعوّدوا أنفسهم على السير بجراءةٍ في الظلام[٣٢]، تلك هي القواعد العامة المتبعة في وجبات طعامهم.

لم يضع ليكورغوس قوانينه في مدوّنات، ومع أنه لا يوجد في أيّ [ريترا] ما يمنعه صراحةً. لأعتقاده بأنّ أكثر النقاط فائدة، ومعظم ما هو أكثر تعلقاً بالمصلحة العامة، انما ينطبع في قلوب الشباب بالضبط والربط الجيّدان. ويبقى بالتأكيد، ويجد مكاناً أحفظ له واضمن من أي شكل من أشكال الإرغام، هذا هو التثقيف، أي مبدأ العمل الذي وضعه أعظم المشترعين وأفضلهم. وإمّا عن المسائل الأقل أهميّة، كالعقود الماليّة والتجارية وأمثالها التي تتغير أشكالها وصيغها بتغيرّ الظروف والأحوال فقد رأى من الأوفق الاّ يضع لها قاعدة ثابتة، أو

(*) ولعل كلمة Candidate التي تطلق على كل مرشح لأية انتخابات مأخوذة من هذه.

(٣١) سرد بلوتارخ الحكاية في موضع آخر وعزاها الى (ديونيسيوس) طاغية صقلية ويؤكد شيشرون ايضاً بانه الشخص المقصود. واڤروتاس هو نهر سپارطا.

(٣٢) يقصر كزنيفون هذا المنع على الشبان. ويقول ان الغرض منه هو بقاؤهم بحيث لا يخطئون طريقهم الى منازلهم!

صيغة معينة، متوقعاً أن أشكالها ونصوحها خاضعة لتقلبات الأزمان وإرادات الناس ذوي الأحكام الصائبة، وفي عرفه أن الثقافة هي غاية كلّ قانون وهدف كل نظام.

لذلك كان من مبادئه أن لا تدون تلكم القوانين. وشرع قانوناً موجّها بصورة خاصّة ضَدّ الترف والبذخ، فقد رسم به أن لا تهندم سقوف البيوت بأكثر من الفأس، وأن لا تسوّى ابواب المنازل بغير المنشار، ويمكن القول أن ليكورغوس كان يهجس بصحة قولة [اپامنداس] عن مائدته «الخيانة، وعشاء كهذا لا يمكن ان يجتمعا معاً[٣٣]». الترف وبيت كهذا لا يمكن أن يكونا صاحبين. اذ لابدّ أن يكون المرء مأفوناً أحمق ليفرش منزلاً بسيطاً وكهذا وغرفاً عادية ارائك ذات ارجل مفضضة ويبسط عليها أغطية ارجوانية، ويزوقها بصفائح الذهب والفضة. لاشكّ ان لديهم الادراك ما يجعلون أسرّتهم مناسبة لبيوتهم وأغطيتهم مناسبةً لأسرُتهم وباقي ادواتهم المنزلية وأثاثهم مناسبة للأغطية. ويروى أن الملك [ليوتخيدس Leotychises] الأول. كان يجهل تقريباً وجود اشياء غير هذه الأثاث البسيطة، ولما دعي الى كورنث، وأدخل غرفةً فخمة أدركته الدهشة الشديدة لرؤيته خشب الاعمدة والسقف منحوتاً نحتاً بديعاً ومكفتاً فسأل مضيفه أتنمو الأشجار في بلاده مربعةً هكذا؟[٣٤] وكان المبدأ الثالث (الريترا الثالثة) أن لا يشنوا الحرب كثيراً وان لا يجعلوا الحرب الطويلةً مع العدوّ الواحد. لئلا يفيد منها تدريباً، ويتعلم فنونها باضطراره الى الدفاع المستمر عن نفسه. وهذا ما كان مصدر لوم كثير لأغيسلاوس Agislaus بعدها بزمن طويل اذ وُجد أن هجماته المستمرة على (بيوسيا)[٣٥] جعل الليثبيين اقراناً اكفاء لليقديمونيين ولذلك معندما رآه [انتالكيداس Antalcides] جريحاً يوماً ما، قال له: لقد أُجزل لك العطاء عن الجهود التي بذلتها في جعل الليثبيين جنوداً اكفاء، شاؤوا أم أبوا». هذه القوانين سميت (ريترا) للدلالة على انها نبؤات أو قوانين إلهية مقدسة تقف في منزلة الوحي[٣٦].

ولأجل أن يثقف شبابهم ثقافة حسنة (وهو في رأي ليكورغوس أهم وأنبل عمل للمشترع كما قلتُ آنفاً)، فقد ذهب تفكيره ابعد مذهبٍ حتى بلغ به الى الاهتمام بهم من وقت الحمل بهم وولادتهم، مبتدئاً بتنظيم الزواج. لقد كان [ارسطو] مخطئاً في قوله ان ليكورغوس بعد

(٣٣) جوفينال ٢٦:١٠ .Nulla aconita libuntin Fictilibus

(٣٤) يجب ان لا يعتبر ملقي هذا السؤال غبياً أو جاهلاً بالتجارة الى هذا الحد. فهو في الحقيقة نوع من السخرية ببنايات كورنث الفخمة.

(٣٥) كما ظهر ذلك واضحاً في معركة (ليوكترا) اذ هزم (ايبامنداس) اللقيديميين فخسروا ملكهم كليوبرتس وزهرة مقاتلي جيشهم.

(٣٦) أو ربما لأنها لم تكن مكتوبة، تنتقل من فم الى أذن الى فم.

تجربته كل الطرق لردّ النساء الى الرزانة والدماثة، اضطر أخيراً الى تركهن على ما هن فيه.
ذلك لأن زوجات الرجال الذين يقضون معظم ايام حياتهم في الحروب يكونون مضطرين الى تركهّن اثناء غيابهم سيدات البيت المطلقات فينهين ويأمرن ويتصرفن على هواهن، ويعاملن باحترام فيه كثير من الافراط ويطلق عليهن لقب السيدات والأميرات. هذا ما يقوله ارسطو والحقيقة أنه بذل في مسألتهنّ أكثر ما امكنه من الجهود. فأمر أن تمارس الفتيات رياضات المصارعة والعدو ورمي القرص وقذف الرمح حتى تنمو ثمرات أحشائهن في أجسام قوية صحيحة وتتخذ جذوراً أثبت وتجد وسطاً للنمو أفضل، وتكون النتيجة أنهن يكنّ أقدر على تحملّ متاعب الحمل والآمه بهذه القوة التي اجتمعت لهنّ. ولأجل أن يزيل منهنّ رقتهم المفرطة، وخوفهنّ من التعرض لتقلبات الجوّ وكُلّ ما هو من طبيعة الأنثى أمر بأن تخرج الفتيات في المواكب العامة عارياتٍ الشبان وان يرقصن أيضاً بهذا الوضع في بعض الأعياد الدينية وينشدن أناشيد معينة. في حين يقفك الشباب حواليهن يسمعونهن ويشاهدونهنّ. وفي هذه المناسبات يعرّضن بأسلوب المزاح تعريضات مناسبة بأولئك الذين لم يبلوا بلاءً حسناً في القتال كما ينشدن أناشيد الثناء والإشاءة بأولئك الذين أظهروا البطولة وبهذه الوسيلة يرفعن من معنويات الشباب للمنافسة في حلبة المجد والفخار، وينصرف الممدوحون وقد أمتلأوا اعتزازاً ورضىً بالمكانة التي كسبوها عند الفتيات. أما أولئك الذين عرضّن بهم فإن التأثير الذي يحدثنه فيهم لا يقل وقعاً عن التوبيخ الرسميّ والأنكى من هذا كلّه أن ذلك يتمّ بمسمع ومرأى من الملوك والشيوخ وكلّ سكان المدينة.

وليس في تعريّ الفتيات على هذه الشاكلة ما يخجل أو يجلب العار. فالعفّة تحوطهنّ، وكلّ عوامل الشهوة والفجور لا محلّ لها. ان ذلك يعلمهن البساطة والاهتمام بالصحّة ويكسبهن ذوقاً خاصّاً للمشاعر والأحاسيس السامية، لأنه يفسح لهن السبيل الى ميدان الأعمال النبيلة والمجد. ولذلك كان من الطبيعيّ أن يفكرّن، ويتكلمن مثل [گورگو Gorgo] امرأة [ليونيداس]. فقد قيل أن سيدة أجنبيّة قالت لها على ما يظهر أن النساء الليقديمونيات، هن الوحيدات في الدنيا اللأتي يحكمن الرجال، فأجابتها: «ولسبب وجيه، لأننا النساء الوحيدات اللاتي يلدن رجالاً».

ان هذه المواكب والمسيرات النسائية العامة وظهور الأناث عاريات في اثناء رياضاتهن ورقصهنّ، لهي من محرّضات الزواج، «لأنها تعمل في نفوس الشبان بشدّة الحبّ وصدقه، إن لم يكن بدقة الرياضيات وصدقها» – كما يقول افلاطون(*). ثم زاد على هذا بعدد من

(*) في الجمهورية.

الاجراءات فجرد اولئك الذين آثروا حياة العزوبة[٣٧] الى درجة ما من حقوق المواطنة بحكم القانون، فقد استثنوا من مشاهدة المواكب العامة حيث الشبان والشبابات يرقصون عراة. وفي ايام الشتاء يرغمهم الضباط على السير وهم عراةٌ حول ساحة السوق ينشدون نشيداً فيه هجاء وتحقير لأنفسهم يتضمنّ ما معناه أنهم يستحقون هذه العقوبة لتمردهم على القوانين. زد على هذا انهم محرومون من مظاهر التجلة والاحترام التي يقابل بها الفتيان كبار قومهم وشيوخهم. فمثلاً لم يعب أحد ما قيل لدركيلليداس Dercyllidas وهو قائد شهيرٌ بارز، عندما دنا يوماً من شاب، فلم يقم هذا احتراماً له بل بقي جالساً وقال «لن يفسح ولدٌ لك مكاناً لي».

وفي الزواج يحمل الزوج عروسه بما يشبه القوة والإكراه، لا لأن العرائس صغيرات السنّ ضعيفات الجسم، بل يكنّ عادة في شرخ شبابهن وتمام نضوجهنّ وبعد ذلك تأتي المرأة المشرفة على مراسيم الزفاف وتقص شعر العروس جَمْعاً حول رأسها وتلبسها ثياب الرجال وتتركها فوق مطرحٍ في الظلأم فيأتي العريس وهو مرتدٍ ثيابه الاعتيادية رزيناً هادئاً، بعد أن يكون قد تناول عشاءه على المائدة العامة ويدخل غرفة العروس وحده ويحلّ رباط منطقة عذرتها ويفتّضها وبعد ان يبقى فترة من الوقت معها يعود بهدوءٍ الى مسكنه لينام كالعادة مع الشبان الآخرين، ويستمر على هذا المنوال: يقضي ايامه بل لياليه مع اصحابه، يزور عروسه بين الفينة والفينة زورات الوجل الخجل مستعيناً بالكتمان، إذ ينبغي أن لايشاهده أحدٌ وعلى المرأة نفسها أن تستخدم ذكاءها وحيلتها لايجاد فرصٍ حسنة للقائهما عندما تكون زمرة الشاب منشغلة عنهما. ويعيشان على هذه الشاكلة زمناً طويلاً وقد يرزق الازواج باولادٍ قبل أن يشاهدوا وجوه زوجاتهم في ضوء النهار. إن اجتماعاتهما النادرة العسيرة تفيد لا لتمرين انفسهما عن ضبط الإرادة، وأخذ النفس بالحزم فقط، بل لتجمعهما معاً بجسدين قويين صحيحين وبعاطفة متجددة حيّة نشيطة لم يخمدها ويذبلها الافراط في الشهوة والجماع المستمر ويكون افتراقهما مبكراً على الدوام بحيث يترك في نفس كل منهما بقية نارٍ مشتعلة من الشوق واللذة المتبادلة. وبعد احاطة الزواج بمثل هذه الحشمة والتحفظ، أهتّم بازالة الغيرة النسويّة الفارغة اهتماماً مساوياً. فحرّم كل انواع الفجور، ولكنه اعتبر مما يُشرّف الرجال أن يسمحوا لأولئك الذين يتوسمون فيهم النجابة والخير - بمضاجعة نسوانهم لأجل

(٣٧) يحدد الوقت للزواج. وان لم يتزوج الرجل في سنّ البلوغ فانه يتعرض للعقاب للعقاب كما يعاقب كل من يتزوج من كان عمره أزيد أو أقلّ. ومن كان اباً لثلاثة أولاد فانه يتمتع بامتيازات كثيرة. ومن كان ابا لأربعة أعفي من الضرائب. والعذارى الباكرات يتزوجن من غير بائنة لأن الحاجة لا تمنع الزواج ولا الغنى يحثّ عليه. ويضيف (كليارخوس) تلميذ ارسطو ان هناك عيداً في سپارطة يسمح فيه النساء بجلد العزّاب حول المذبح ليرغموا بشعور من الخجل والألم على الزواج!

الإنجاب[٣٨]، مستخفين بأولئك الناس الذين يرون ان هذا النوع من المُلك مما لا نصح المشاركة فيه، محتقرين سفك الدماء واثارة الحروب في سبيله. وسمح ليكورغوس للطاعنين في السن ان يختاروا شاباً معروفاً بحسن الخلق والسيرة لمضاجعة نسوانهم الصغيرات السنّ حتى يكون لهم ابناء من هذا الوصال، يرثون سجايا الوالد الطيبة، واذا وقع رجلٌ مستقيم السيرة في حبّ امرأة متزوجة، بسبب حشمتها، وحسن تربيتها لأولادها فله أن يطلب من زوجها وصالها بكلّ بساطة، حتى يُنبت له من قطعة الأرض الطيبة هذه أولاداً صالحين، كان ليكورغوس يعتقد أن أولادهم ملك للدولة قبل ان يكونوا لأبويهم، ولذلك لم يكن يريد أن يولد المواطنون من نطفة أول مواصلٍ للمرأة، بل باختيار أفضل الرجال. لقد بدت له قوانين البلاد الأخرى سحيفة عقيقة لاتلائم العصر، فالناس هناك شديدو الحرص على أنسال كلابهم وخيولهم يبدون اهتماماً كبيراً بها ويبذلون مالاً كثيراً ليحصلوا على نسلٍ محسّن منها، في حين يستأثرون وحدهم بزوجاتهم ويحبسونهن لأنفسهم فقط ويستولدونهن، وقد يكونون ضعفاء العقل مرضى، سقيمي الاجسام. كأنما لايدرون أنهم أول من سيعاني مغبّة إستيلاد أطفالٍ عليلين لأنهم سيضطرون الى تربيتهم والعناية بهم. والأمر خلاف ذلك لو كان الأطفال حسني الصفات. هذه القواعد التي اقيمت على أسس طبيعية واجتماعية، لا صلة لها قطّ بالحرية الفاجرة التي اتهمت نساؤهم بها فيما بعد، ذلك لأن الزنا كلمة لا معنى لها قطّ عندهم. وقد روي مثلاً عن [جيراداس Geradas][٣٩] وهو من السپارطيين الأقدمين، أن أحد الأغراب سأله:

- ما هي العقوبة التي فرضتها قوانينهم على الزّناة؟ فأجاب:

- لا يوجد في بلادنا زناة.

فقال الغريب:

- ولكن هب أنهم وجدوا.

فأجاب:

- عند ذلك يجب على المدعى عليه أن يقدّم على سبيل الغرامة، ثوراً يبلغ عنقه من الطول ما يجعله قادراً على شرب الماء من نهر اڤروتاس تحته وهو واقف في رأس تايغتوس Tay-getus[٤٠]، فتعجب الرجل من هذا وقال:

---

(٣٨) وستثنى الملوك من ذلك. اذ لا يسمح لهم باعارة نسائهم.

(٣٩) في كتابة «الاخلاق» يشبه: جيراداتوس».

(٤٠) أعلى جبل في سپارطا. ومنه يمكن الپلوپوتيس كلها.

- محال أن يوجد ثور كهذا.

فأجاب [غيراذاس] باسماً:

- ممكن بقدر ما هو ممكن العثور على زانٍ في سبارطة.

وفي هذا الكلام عن الزواج الكفاية.

ليس في مقدور الأب أو سلطته أن يربي أبنه كما يشاء. وعليه أن يعرضه على خبراء مختصين في موضع يدعى [ليسكه Lesche] وهؤلاء هم شيوخ القبيلة التي ينتمي اليها الطفل ومهمتهم أن يفحصوا الطفل فحصاً دقيقاً فإن وجدوه قوياً حسن التركيب اصدروا قرارهم بتنشئته وبتربيته ويمنح سهماً من سهام الأرض التسعة الآف التي أسلفنا ذكرها: لأجل الانفاق عليه منها. واذا وجدوه سقيماً ضئيلاً سيء التركيب أمروا بأخذه الى ما مُسمّي [آپوثيتي Apothetae] وهو يشبه غوراً من الأرض يقع تحت [تايگيتوس]. فهم لايرون من مصلحة الطفل ولا من مصلحة المجتمع أن يبقى في الحياة إن لم يظهر من فجر حياته ما يدل على انه سيكون متين البيان صحيح الجسم. ولهذا السبب نفسه لاتغسل النساء الوليد بالماء، كما جرت العادة في البلاد الأخرى، بل يغسلنه بالخمر ليعجمن عود الأجسام وقابليتها. إذ انهن يعتقدن بأن الأطفال الذين يولدون بداء الصرع، أو بكيان سقيم، سيموتون بحمام الخمر هذه، بخلاف ما لو كانوا اقوياء اصحاء فأنها تقوّي وجودهم وتشدّ من عضلهم وتجعلها كالحديد المسقيّ. وتستخدم المرضعات فنوناً وضروباً من العناية بهم، فلا يشدونهم بالاقمطة والأربطة فتنشأ أجسامهم حَرّة ولا تنضغط اعضاؤهم وتشوه، ولا يكونون متنطعين في أختيار طعامهم. ولا يخشون الظلام أو يخافون البقاء وحدهم، بدون تهيبٌ أو قلق أو بكاء[٤١]. ولهذا تتسابق البلاد الى استقدام واستئجار المرضعات السپارطيات وذكر أن مرضع [الكيپياديس Alcibiades] سپارطية. واذا كان محظوظاً في مرضعته، فإنه لم يكن كذلك في معلّمه، اذ يخبرنا افلاطون ان وصيّه [پريكليس Pericles] اختار لهذه الوظيفة خادماً اسمه [زوپيروس Zopyrus] لايفضل اي عبد عاديّ في شيء.

كان رأي ليكورغوس مختلفاً، فلم يسمح أن يؤتى بالمعلمين لصبيانه السپارطين عن طريق شرائهم من السوق. ولايعطي لهم أجراً على اتعابهم ولم يجز شرعاً أن يقوم الآباء على تربية أولادهم كما يحلو لهم. ولكن ما أن يبلغوا السابعة من العمر حتى يُضمّوا الى فصائل وصفوف مدرسيّة في ظلّ نظام وضبط واحدٍ يؤدون تمارينهم ويلعبون معاً. ومن يبرز منهم في

---

(٤١) يجيز ارسطو البكاء للاطفال (السياسة ١٧:٧) بوصفه نوعاً من انواع الرياضة فيه فائدة للصحة والنمّو!

الجسارة ويظهر احسن السلوك بعين رئيساً لهم: فيتابعونه بانظارهم ويطيعون أوامره ويتحملون بصبر اي عقاب يفرضه عليهم. وهكذا يكون كل مناهج ثقافتهم وتربيتهم تمريناً مستمراً للطاعة التامة السريعة. ويكون كبار السنّ في موضع الرقباء على ما يعملون. وكثيراً ما يثيرون بين الصغار خصاماً وشجاراً حتى تسنح لهم منها فرصة لمراقبة طباعهم المختلفة، وليتبينوا الجسور من الجبان عندما يبلغون مرحلة التعرض الى المخاطر الجسام. ولا يلقنونهم من القراءة والكتابة الاّ بقدر ما يحتاجون اليه في حياتهم المدرسيّة، والاهتمام الرئيس منصبّ على جعلهم مواطنين صالحين، وتعليمهم كيفية احتمال الألم، والنصر في المعركة، تمرّ بهم الأعوام وهم يزدادون ضبطاً وخضوعاً للنظام. وتراهم برؤوسهم الحليقة، يسيرون حفاة بدون نعال، ويلعبون أغلب لعبهم وهو عراة.

ولما يبلغون الثانية عشرة، لايسمح لهم بارتداء ثياب داخلية وكساؤهم الوحيد هو عباءة واحدة تكفيهم سنة كاملة. وأجسامهم جافة صلبة لاتعرف الحمامات ولا الأدهان، فهذا الترف البشري لا يسمح لهم به إلاّ في ايام قليلة معينة من السنة ويسكنون معاً في زمرٍ صغيرة، وينامون على فراش من بنات القش الذي ينمو على ضفاف نهر [يوروتاس]. وهم يكسرونه ويسوّونه بأيديهم بدون سكاكين، واذا كان الزمن شتاء خلطوا به شيئاً من الحَسك اذ يعتقدون ان في هذا النبات صفة اشاعه الدفء.

وفي الوقت الذي يبلغون هذه السن لا تجد أحداً من الصبيان المبرزين فيهم إلاّ ولديه محبّ يصاحبه ويعاشره. ويهتّم الرجال الكبار بهم أيضاً وكثيراً ما يأتون الى ميدان الالعاب ليسمعوهم ويشاهدوهم يتبارون بعضهم مع بعض إمّا بالحديث أو بقوة العضل. ويرقبون الأمر بجدّ واهتمامٍ عظيمين كما لو كانوا اباءهم او مدرسيهم، أو محكميهم. ويندر ان تجد ملعباً خالياً من شيخ واحد على الأقل في اي وقت أو مكان، لينبههم الى واجبهم أو ليعاقبهم أن وجد اهمالاً فيهم.

والى جانب هذا، يعينون شخصاً من أكثر رجال المدينة صلاحاً واستقامة للإشراف عليهم وادارة شؤونهم. فيقوم بتنظيمهم في عدة فصائل ويُعين رئيساً لكل فصيلة، يختاره منهم متميزاً بالجراءة وحسن الخلق ويسمّى [ايرين Iren] ويكون عمر الايرين عشرين عاماً، أي يزيد عن أعمار مرؤسيه سنتين عادةً أمّا أكبر الفتيان عمراً فهم [ملّ - ايرين Mell - Iren] أوكما لو قلت، «شرفٌ للرجولة». اذن يكون هذا الشاب رئيسهم، عندما يقاتلون، سيداً لهم في زمن السلم يستخدمهم في شؤون بيته، ويبعث بأكبرهم سناً للاحتطاب. ويرسل أضعفهم وأقلهم قابلية لجمع الأعشاب والخضروات. فإمّا عادوا خالي الوفاض، وإمّا عمدوا الى

سرقتها، ويتمّ ذلك بأن يدخلوا البساتين زحفاً، أو يتسللوا بخفة وسعة حيلة الى غرف الطعام. فإذا قبض عليهم متلبسين جلدوا بلا رحمة. لقيامهم بالسرقة على هذا النحو الفاشل الخالي من المهارة. ويسرقون أيضاً ما تقع عليه ايديهم من اللحم وهم متربصون متحينون كل فرصة عندما ينام الناس أو يغفلون على غير عادتهم. فإن قبض عليهم لايكتفى بجلدهم بل تجويعهم، بابقائهم على حصتهم الاعتيادية من الطعام وهي لاتسدّ رمقاً. ويكون ذلك التجويع عن قصدٍ لتضطرهم الحاجة الى وضع نشاطهم وحيويتهم موضع التطبيق[٤٢]. وهذا هو الغرض الأساس المتوخى من اعطائهم وجبات غير كافية ينضاف اليها غرض آخر لا يقل اهميّة وهو أن تطول قاماتهم. لأن حيوية الروّح ترتفع بخفة الجسم الطبيعية، في حين انها تنوء تحت ثقل الكميات الفائقة الحد من الغذاء الذي لايجد له منصرفاً إلاّ في البدانة والسمنة، والجسم يزداد طولاً وينمو ويترعرع اذا كان لدنا[٤٣]. والجسم الجاف العود، اللدّن هو خيرها تعرضاً لعناصر الطبيعة، أما الاجسام الضخمة المفرطة في التغذية فتكون ثقيلة وأقل صلاحاً للتعرض للطبيعة. وخير مثالٍ نجده في النساء الحاملات اللاتي يتعاطين الحمية في غضون أشهر الحمل، فهن يضعن أطفالاً ارق جسماً واصغر حجماً، ولكنهم يكونون احمل وجهاً وابدع تكويناً. لأن المادة التي صيغوا منها الين وأسهل تكويناً. اما السبب في كل هذا، فأترك تقديره لغيري.

ولنعد الآن الى موضوعنا الذي بترناه - يهتمّ أطفال الليقديميين بشؤون السرقة اهتماماً جدياً، حتى أن شاباً سرق ثعلباً واخفاه تحت عباءته فراح هذا الحيوان يمزق احشاءه تمزيقاً والشاب صابر على ما تعمل فيه مخالبه واسنانه ومات لساعته ولم يكشف المسروق. وما يجرى تطبيقه اليوم في [ليقديمون] يكفي للبرهان على صدق هذه الحكاية. فقد شاهدت انا نفسي عدداً من الفتيان يجلدون حتى الموت تحت درجات مذبح [ديانا] الملقبه [اورتيا][٤٤].

و[الايرين] أو مساعد الرئيس، يمكث وقتاً قليلاً مع الشبان بعد العشاء ويطلب من أحدهم أن يغنّي أغنية، ومن آخر ان يطرح سؤالاً يقتضي جواباً دقيقاً وإعمال فكرٍ. مثلاً: من هو خير

(٤٢) من هذا يتضح ان القصد ليس تشجيعهم على السرقة أو تعويدهم عليها بخفة ومهارة. بل القصد الحقيقي هو تعويدهم السرعة والحذر في اوقات الحرب والأزمات.

(٤٣) لعل المقصود هنا [دياناتوريكا] التي جلب اورستوس تمثالها الى لقيديمون على ماقيل، ومان البشر قرابينها، يزعمون ان ليكورغوس ابطل هذا النوع من القرابين واستبدلها بجلد الشبان حتى يلطخ المذبح بدمائهم على الأقل.

(٤٤) اعل المقصود هنا [دياناتوريكا] التي جلب اورستوس تمثالها الى لقيديمون على ما قيل. وكان البشر قرابينها، يزعمون ان ليكورغوس ابطل هذا النوع من القرابين واستبدلها بجلد الشبان حتى يلطخ المذبح بدمائهم على الأقل.

الرجال في المدينة؟ ما هو رأيه في العمل الفلاني الذي قام به الشخص الفلاني؟ وهكذا يدربونهم في هذه السن المبكرة ليصدروا أحكاماً صائبة على الأشخاص والاعمال وليكونوا على علم ومعرفة بقابليات ومواطن ضعف ابناء قومهم ومن لايملك جواباً آنياً عن سؤال من هو المواطن الصالح ومن هو المواطن الطالح، ينظر اليه وكأنه مخلوق غبيّ قليل الاهتمام. لايملك شعوراً بالشرف والفضيلة، أو قلّ ما يملك منه، وفضلاً عن هذا يجب أن يعللوا اجوبتهم بالأسباب الوجيهة المعقولة وبعبارات مقتضبة خالية من الاطناب، كثيرة المعنى. ومن يفشل في هذا، أو لا يكون جوابه موفياً بالغرض، يعضُّ الرئيس إبهام يده! وينفذ الايرين هذه العقوبة أحياناً في محضر من الشيوخ والمحكمين حتى يتبينوا هل يعدل في تنفيذ العقوبة حسبما يستحق صاحبها. فاذا أخطأ في ذلك لا يعنّفوه امام الفتيان ولكنه يستدعى بعد انصرافهم ليقدم حساباً على خطأه وليودّب أقاسياً كان في تطبيق العقوبة، أم رحيماً.

ولعشاقهم، ولمصطفيهم سهم أيضاً في تكريم الفتيان أو تعزيرهم وهناك قصة تروى أن حكماً غرمّ أحدهم لأن الفتى الذي يحبه، بكى كالانثى أثناء ما كان يقاتل. وهذا النوع من الحبّ لا غبار عليه فيما بينهم بحيث ان معظم الأمهات الفاضلات لا يتحرجن في الكلام عنه امام الفتيات الصغيرات، والمنافسة فيه لا وجود لها. واذا اصطدمت رغبات عدة رجالٍ في شخصٍ واحدٍ يتفق الجميع معاً على ارضاء رغباتهم بخير ما يمكن الاتفاق عليه.

ويعلمونهم أيضاً أن يتحدثوا بأسلوب طبيعيّ طليّ ساخرٍ. وأن يضمنوا اكثر المعاني بأقل ما يمكن من الألفاظ. فليكورغوس الذي توخى كما رأينا، أن يفرض أزهد قيمة لأكبر قطعة من النقود، عكس الآية في الكلام ولم يسمح إلاّ بالأحاديث التي تصاغ بأقصر العبارات وأقلّ الالفاظ وتحوى أكثر ما يمكن من المعاني وألطفها. ولاعتياد أطفال سپارطة الصمت الطويل والزهد في الكلام، نمت فيهم قابلية اعطاء أجوبة محكمة بليغة، وكالأفاقين المتشردين الذين لا يعيشون حياةً مستقرة نادراً ما كانوا كثيري الأولاد، كذلك الثرثارون، كثيرو الكلام فنادراً ما تخرج من افواههم كلمات رصينة بليغة. عندما سخر اثينيّ بسيوف السپارطيين القصار قائلاً أنّ الحواة على المسرح يبتلعونها بكل سهولة اجابه الملك [آغيس] بقوله: «نحن نراها من الطول بحيث تكفي للوصول الى قلوب اعدائنا». ويبدو لي أن شيئاً ما في اسلوب كلامهم الموجز فهو يبلغ حالاً الهدف المقصود، ويخلف تأثيره العميق في عقل السامع معاً.

ويظهر ان ليكورغوس نفسه كان بليغ العبارة سريع البديهة، إنْ صدقنا ما روي عنه. هذا ما يدل عليه جوابه لذلك الذي كان متحمساً لإقامة نظام ديمقراطيّ في لقيديمون قال له: «إبدأ أيّها الصديق فأقمها في اسرتك». وسأله آخر لماذا يسمح بتقريب هذه القرابين الزهيدة التافهة

للآلهة. فأجابه «حتى يكون بالامكان أن نقدم شيئاً لها بصورة مستديمة». وسُئل أي شكل من التمارين العسكرية أو المعارك يُفضل فأجاب «كل الأشكال، إلاّ تلك التمارين التي تقتضي منك مدّ يديك الى الأعلى[٤٥]» وعزيت اليه أجوبة أخرى وجهها الى بني قومه خطيّاً. فقد سئل عن أفضل وسيلة لمقاومة غزو العدو، فأجاب «بالاستمرار في بقائكم فقراء، وبأن لا يطمع الرجل في ان يكون أعظم شأنا من زميله». كذلك استشير في هللاً كان ضرورياً احاطة المدينة بسور؟ فبعث بالجواب التالي: «المدينة الجديدة التحصين هي التي تملك سوراً من الرجال لا من الآجر». ولكن يصعب القول بأن هذه الرسائل حقيقية وليست منحولة.

وأمّا عن كرههم الثرثرة فإن اجوبتهم اللاذعة شاهدٌ: انفرد شخص بالملك [ليونيداس] يحدثه في مسألة مفيدة، ولكن ليس في الزمان والمكان المناسبين. فقال الملك «ما أكثر الفائدة يا سيدي، ولكن في غير هذا المكان». وسئل الملك [خاريلاوس] ابن أخ ليكورغوس لماذا استنّ عمّه هذا المقدار الصغير من القوانين فأجاب «قليلو الكلام لايقتضي لهم غير قوانين قليلة». ومرّة دعي المدعو [هيكاتيوس Hecatarus] السوفسطائي الى واحدة من تلك الموائد العامة، فلم ينطق بحرفٍ واحد طوال العشاء، ولهذا جاب [أرخيداميداس Archidamidas] يبرّر مسلكه ويزكيه: «ذلك الذي يعرف كيف يتكلم، يعرف ايضاً متى يتكلم».

أما الأجوبة المسكنة اللاذعة والحادة التيّ نوهت بها، فدونك طائفة منها: وجه أحد الرجال الكثيري اللجاجة الى [ذاماراتوس] سؤالاً بأسلوب استفزازي مزعج: «من هو خير رجال ليقديمونيا فردّ عليه أخيراً «أقلهّم شبهاً بك». وراح بعض الناس الذين كان بصحبة [آغيس] يثنون على الايليائين Eleans لأشرافهم الدقيق وتنظيمهم العادل الشريف للألعاب الاولمبيّة. فأجاب [آغيس]: «بلا شكّ، ينبغي أن يُمدحوا كثيراً لإنهّم تمكنوا من أن يعدلوا يوماً واحداً في غضون خمس سنوات[٤٦]». وأجاب [ثيوميوبوس] أجنبياً تمادى في اظهار حبّه للقيديمونيين قائلاً أنه بني قومه لقبوه [فيلولاقون: أي محب اللاقونيين]:

- كان يشرفك كثيراً لو لقبوك [فيلوپوليتس: أي محبّ بني قومه].

ولما قال احد الخطباء الآثينيين أن الليقديمونيين لا ثقافة لديهم، اجابه [پلستواناكس Plis-toanax] ابن [پاوسانياس Pausanias] «اصبت يا سيديّ فنحن من دون سائر الأغريق لم

---

(٤٥) هذا هو الشكل الذي يطلب فيه التسليم اثناء المعركة.

(٤٦) ان «موزعي الجوائز: هيلانوديك» على الفائزين في الالعاب الاولمپية يجهدون انفسهم الى أقصى حدّ خلال الأشهر العشرة السابقة على الالعاب (پارسنياس ٦:٢٤) ليكونوا أهلاً للوظيفة، بدراستهم الدقيقة لكلّ البيانات واللوائح المتعلقة بالمراسيم ليكونوا أهلاً للقيام بمهمتهم خير قيام.

نثقف بأي شيء من سوء طباعكم». وسأل أحدهم [ارخيداميداس] كم يعد السپارطيون يا تُرى؟ فأجابه «ما يكفي لردّ غائلة الأشرار يا سيّدي».

ونتبين أيضاً طباعهم من نكاتهم ومزاحهم، لأنهم لا يرسلونه جزافاً واعتباطاً، بل أن عنصر الفكاهة فيه يستبطن ويستند الى شيء يدعو الى التفكير والتأمل فمثلاً سئل شخص لماذا لا يذهب ويشاهد رجلاً يقلد صوت العندليب تقليداً متقناً، فأجاب «سيدي! إني سمعت العندليب نفسه»[٤٧]. وآخر قرأ الكتابة التالية على أحد القبور:

راموا أن يطفئوا نار الطغيان القاسي

في [سيلنيوس] فخروا ضحايا آله الحرب مارس

فقال معقباً» يستأهلون الموت، اذ بدلاً من محاولتهم إطفاء الطغيان كان الاجدر بهم أن يتركوه يحترق». وعرض على صبيّ ديك قتالٍ لا ينكص حتى يموت في مكانه فقال: وما شأني بالديكة التي تموت. أريد ديكاً يعيش ويقتل الآخرين!» وآخر شاهد فريقاً من الناس يريحون انفسهم على مقاعد فقال: «معاذ الله ان أجلس في مكان لا أستطيع القيام منه لتحيّة كبار قومي». وبمختصر القول ان اجوبتهم بلغت حداً كبيراً من البلاغة والنكتة الحادة. وصَدَق من قال أن الاتجاه الذهني في الطبع السپارطي أكثر ظهوراً منه التمرين الرياضي، والحق يقال.

ولا تقلّ عنايتهم بالثقافة الموسيقية والشعر عن اهتمامهم الكلام وطهارته واتقانهم فن الحديث. وتمتاز اغانيهم بالحيويّة والنشاط بحيث تثير نار الحماسة والثورة في نفوس رجال وتشيع روح الاقدام فيهم. واوازنها بسيطة خالية من الصنعة الفنية. ومواضيعها أخلاقية جديّة دائماً وأغلبها عادة يدور حول تمجيد الرجال الذي قتلوا دفاعاً عن بلادهم، أو هجاءً أولئك الذين أظهروا جنباً، ترفع اولهم الى أعلى درجات التمجيد، والسعادة في حين تصف ثانيهم بالضّعة والحقارة. وثم أيضاً أناشيد أفتخار بما سيقدر لهم من أعمال، وتعظيم لما فعلوه، وتختلف الأناشيد باختلاف السِنّ فمثلاً كان لديهم ثلاثة اجواق في حفلاتهم الدينية. الأول يتألف من كبار السنّ والثاني من الشبان والثالث من الأحداث، فيبدأ الجوق الأول بالمصراع التالي:

كنا ذات يومٍ صغاراً، شجعاناً، اقوياء».

فيرد عليهم جوق الشباب منشداً:

---

(٤٧) هذه الحكاية عزاها بلوتارخ الى اغيسيلاوس في سيرة حياته. فلتراجع.

«ونحن الآن كذلك، فتعالوا وجربوا»

ويأتي جوق الاحداث بالأخير فيقول:

«لكننا سنكون أقوى من كليكما عما قريب»(٤٨).

واذا نحن تعنّينا التأمل في أصولها وتأليفها. وبعضها ما زال شائعاً حتى يومنا هذا، وفكّرنا في الالحان التي تنفخ في الناي (وعلى ايقاعها يتقدمون الى ميدان القتال) فسنجد أن [تيرپاندر Terpander](٤٩) وپندار سبباً وجيهاً للقول بأن الأناشيد الدينية والحماسية صنوان وحليفان. ويقول أولهما عن بلاد ليقديمونيا:

«الرمح وأغاني الميوزات الرائعة فيها يلتقيان.

والعدل الصارم يسير متجولاً في شارعها».

ويقول [پندار] هنا تجد مجالس الشيوخ الحكماء

ورماح الشبان التي عقدت عليها ألوية النصر

وتشاهد الرقص والغناء والطرب.

وكلاهما يصفان السپارطيين بأن تعلقهم بالموسيقي لا يقل عن تعلقهم بالحرب، بكلمات واحد من شعرائهم:

مع الحديد الصلب المرهف

يأتي العزف على القيثار!

فقبل أن يشتبك السپارطيون في القتال، يقوم الملك أولاً بالتقريب الى الميوزات Muses(*)، تذكرة لهم بما نشأوا عليه ودرّبوا، وتنويهاً بالحكم الذي سيصدر على ما يقومون به من عمل، ولدفعهم الى البطولات وانجاز جلائل الأعمال التي تستحق التدوين.

---

(٤٨) هذه الردة من الأبيات انما هي جزءٌ من نشيد ربما كان ناظمه ترتيوس.

(٤٩) شاعر وموسيقي (كل شعراء ذلك الزمن كانوا موسيقيين تقريباً). عزي اليه اضافة ثلاثة اوتار الى المعزف Harp وكان ذا اربعة. عاش بعد عصر هوميروس بمائة وعشرين سنة في (لسبوس) ثم استدعي الى سپارطا بحكم نبوءة – لتهدئة فتنة. قيل انه نظم شرائع ليكورغوس شعراً.

(*) الميوزات [مفردها ميوز Muse]. ربّات تسعة هن بنات جوپتر (زفس) وزوجه [منيموسين Mnemosyne] ويعتبرن في الميثولوجيا اليونانية موحيات بالفنون التسعة المعروفة: [كاليوپ Calliope] لشعر الملاحم، و[كليو Clio] للتاريخ و[ايراتو Erato] للشعر الغنائي، و[ايترپه Euterpe] لشعر الغزل] و[ملپومين Mel-pomen] للتراجيديا، و[پوليهمينا Polyhymnia] للأغاني الدينية، و[ترپسيخوري Terpsichore] للرقص، و[ثاليا Thalia] للكوميديا واورانيا Urania] للتاريخ.

في تلك المناسبات يخففّ الليقديميون قليلاً من صرامة عاداتهم وانظمتهم، ويسمحون للشباب ان يطيلوا شعر رؤوسهم ويشذبوه. وأن يقتنوا الأسلحة الثمينة والثياب الفاخرة. وكان السرور والغبطة يتملكان السپارطيين وهم يشاهدون شبانهم يخطرون مندفعين الى الحلبة كالجياد العتاق تصهل وتحمم. فما أن يبلغ الفتى أشدّه ويصلب عوده حتى ينصرف الى العناية شديدة بشعر رأسه فيهذبه ويشذبه ويفرقه ويصنفه، ولاسيما يوم المعركة تطبيقاً لوصيّة واضع قوانينهم المدوّنة «إن لمة كثيفة من الشعر فوق الرأس تزيد في الوجه الجميل جمالاً. وتضفي على الوجه المنفرّ رهبة وتشيع في النفس رعباً».

وعند وصولهم ميدان القتال، تخفّ تمارينهم الرياضيّة كثيراً ويطرأ تحسّن على ارزاقهم، وترتخي قبضة الضباط الصارمة عنهم. ولذلك كانوا الشعب الوحيد الذي يجد راحته في الحرب. ولما ينتظر صفوف جيشهم للقتال امام العدو القريب، يضحّي الملك بمعزاة(٥٠). ويأمر الجنود أن يحيطوا رؤوسهم بقلائدهم، ويشير على النافخين بالسرناي ان ينفخوا نشيد(٥١) [كاستور] العسكري ويبدأ هو نفسه بانشاء [پايان Paean](*) التقدم الى الأمام. ويلوح للنظر فجأة منظر مهيب رهيب، كتلة قراصة تزحف الى الأمام على انغام السّرنايات، لا يختلّ لها نظام، ولا يعتور اذهان اعضائها تردد أو تهيبّ، ولا يطرأ أيّ تغيّر على ملامح وجوههم وهم يتقدمون بنفوس هادئة مطمئنة منشرحة الى القتال الدمويّ على انغام الموسيقي. رجال في مثل هذا التكوين قليلاً ما عرفوا معنى الخوف أو التهيب من الشدّة. وانما يملأوهم الإقدام والبأس الذي يدفعه الأمل والثقة. كأنّ ربّا من الارباب يرعاهم ويقود خطاهم. ويلازم جانب الملك دائماً شخص توّج بالغار في الألعاب الاولمپية. وعلى هذا الأساس قيل أن لاقونياً رفض هدية كبيرة جداً شريطة أن يخرج من قائمة اللاعبين المتسابقين وعندما تمكن من خصمه في السباق وغلبه بكلّ سهولة صاح به المتفرجون «والآن ما الفائدة التي جنيتها من انتصارك أيها السيد الليقديموني؟» فأجابهم باسماً «سأقاتل مع الملك جنباً لجنب».

وبعد ان يلحقوا الهزيمة بالعدوّ. يطاردونه حتى يثبت لهم النصر تماماً، ثم يصدر أمر التقهقر. لأنهم يرون من الضعة والحقارة لشعب أغريقي أن يفتك ويذبح رجالاً استسلموا وانتهت كل مقاومتهم. وهذا الاسلوب في معاملة اعدائهم يفصح عن كرم نفسٍ عالٍ فضلاً عن

---

(٥٠) يقول (گزينفون) ان الملك الذي يقود الجيش كان عليه ان يضحيّ لكلّ من چوپتر ومينرڤا عند حدود مملكته. وربما خُمت (الميوزات) الى مينرڤا بوصفها حاميةً للعلوم والفنون.

(٥١) كذا كان يدعى. وربما نظمه البطل نفسه او لعله يتضمن تفاصيل عن مآثره.

(*) بالاغريقية Paian وهو نشيد لاپولو الپاياني، وقد يكون موجهًا الى الربة [ارطميس] أخذه الرومان عن الأغريق. وأصبح مرادفاً لاي نشيد أو شكرٍ على نجاة.

كونه سياسة حكيمة فعندما يعلم العدو انهم لايَقتِلون إلاّ من يبدي مقاومة، ويؤمنون الباقي على أرواحهم، يجد عادةً في الفرار خير طريق للنجاة.

ويزعم [هيپيوس Hippius] السوفسطائي أن ليكورغوس نفسه كان جندياً عظيماً وقائداً محنكاً. ويعزو اليه [فيلوسطيفانوس Philostephanues] أول تقسيم للخيالة الى كوكبات تتألف من خمسين وتسير على شكل مربعات. الاّ ان [ديمتريوس] الفاليرياني يخالفه تماماً بقوله أن كل القوانين التي وضعّها كانت لإغراض السلّم والحق يقال إن الهدنة الاولمپية المقدسّة. او ايقاف القتال التي وجدت بمساعيه ومجهوداته، تميل بي الى الاعتقاد بأنه رجل عطوفٌ رقيق القلب، يحّب السلام والاستقرار، بصرف النظر عن كلّ ما يرويه لنا [هرميپوس Hermippus] عنه بخصوص الهدنة. وزعمه أنه لا فضل له فيها ،ان [ايفيتوس] وحده هو الذي أوجدها، وان ليكورغوس كان أحد الحاضرين عند عقدها وبمحض الصدفة ليس إلاّ. فقد كان هناك وسمع صوت رجل من خلفه يلومه ويعجب منه لأنه لم يشجع بني قومه على المشاركة في الاجتماع. فالتفت ولم ير أحداً، فاستنتج أنه صوت السماء ولذلك أسرع حالاً الى [اينيتوس] وباشر في مساعدته على أقامة احتفالات ذلك العيد الذي كان بمساعيه ومجهوداته أثبت بناءً، وأعظم شهرة من السابق.

ولنعد الى الليقديمونيين، بقى النظام سارياً عليهم حتى بعد بلوغهم مبلغ الرجال لا يسمح لايّ منهم أن يعيش على هواه، وكانت المدينة أشبه شيء بمعسكرٍ فيه لكل شخص سهمه من الرزق وأسباب المعيشة والعمل مجدّد ومقنن والمواطن لا ينظر الى نفسه كفرد ولد ليعيش لذاته وفائدته الخاصّة، بقدر ما يعيش لبلاده ولأجلها. لذلك إن لم يؤمروا بعمل شيء ما، تراهم يذهبون لرؤية الصبيان وهم يقومون بتمارينهم كي يعلموهم شيئاً مفيداً أو ليتعلموا ممن هم أخبر به منهم والحق يقال أن من أعظم وأرفع النعم التي حباهم بها ليكورغوس هو كثرة ساعات الفراغ التي نجمت عن منعه ممارسة ايّ حرفة أو تجارة رخيصة وضيعة. فأما عن مهنة جمع المال وهي تعتمد على كثرة الحركة المتعبة والمزعجة ومقابلة الناس وعقد الصفقات فلم يكونوا بحاجة اليها في دولةٍ لا يلقى الغنيّ فيها أي احترام أو تجلة وكان قوم (الهيلوت) يستنبتون الأرض لهم ويدفعون لهم سنوياً الكميّة المتفق عليها عيناً، دون اي متاعب. وفي هذا الصدد تروى حكاية عن لقيديموني اتفق وجوده في اثينا اثناء انعقاد المحكمة وأخبروه عن حكم أحد المواطنين باداء غرامة لأنه كان يعيش عاطلاً لايعمل شيئاً وأن أصدقاءه رافقوه الى منزله للتسرية عنه وهو في أشدّ حالات الألم والتعاسة، فأدرك اللقيديموني العجب من هذا ورغب من صديقه أن يريه ذلك الشخص الذين أدين لكونه يعيش عيشة المواطن الحُرّ. كانوا

يعدوّن الاحترام التافه للوقت، والاهتمام بالفنون اليدوية، وجمع النقود ، أعمالاً أقلّ قدراً منهم بكثير. ولسنا بحاجة للقول أن خطر التعامل بالذهب والفضّة أدى الى زوال الدعاوى القضائية حالاً، اذ لم يعد يوجد في مجتمعهم فقرٌ ولا حرص، بل ساد العدل؛ وراح كل فرد ينال ما هو في حاجة اليه، وعلى وجه الإستقلال لأن تلك الحاجات محدودة قليلة وكانوا ينفقون كلّ أوقاتهم - ما عدا ساعات تمارين الميدان والحرب - في اجواق الرقص، والمواكب والصيد والقنص، أو مشاهدة التمارين الرياضية في ساحات اللعب. وأولئك الذين تقلّ اسنانهم عن الثلاثين(٥٢) لا يذهبون الى السوق أبداً وانما يقضي حاجتهم من المؤن والارزاق أقربائهم وأصدقائهم وليس مما يشرف كبار السنّ أن يروا متسكعين هناك باستمرار بدلاً من قضاء القسم الأكبر من النهار في ساحة التمارين التي يطلق عليها [لسخاي Leschai] اذ لو انهم اجتمعوا هنا لقضوا وقتاً مستمراً، واحدهم مع الآخر.

لا بخصوص كسب المال، أو السؤال عن أسعار السوق بل في الحكم على عملٍ من الأعمال يستأهل تبادل الرأي فيه على الأغلب. مُكبرين في الأخيار مآثرهم عائبين على الاشرار مثالبهم بأسلوب يمتاز الفكاهة، ويخلو من القسوة، وتتخلل احاديثهم التي لا تحمل الكثير من الطابع الجدي - دروساً في النصيحة، والارشاد الى طريق التقدم. ولم يكن ليكورغوس بذلك الرجل المتشدّد الصارم الفائق عن الحَدّ، فهو الذي اقام تمثال [الضحك] الصغير على ما يذكر [سوسيبيوس Sosibius] ، الذي يقول أيضاً، إن المرح المقبول يشيع بينهم في أوقات العشاء، وفي محلات الولائم العامة، فيكون بمثابة حلوى ومقبلات يلطف من حياتهم الخشنة الصارمة. والإجمال نرى أن ليكورغوس صاغ السپارطيين بشكلٍ ما عادوا يستطيعون أو يقبلون العيش كل لنفسه على وجه الانفراد. لقد انقلبوا فهم كيانٌ واحدٌ موقوف على النفع العام، تراهم يتجمعون حول قائدهم مثل دَبْر النحل. وقد أنسلخوا انسلاخاً تاماً عن «أنيّتهم» بدافع الحماسة وروح الجماعة التي سادتهم، فتفانوا في خدمة بلادهم وتسابقوا اليها. وأقوالهم هي خير ما يظهر به أحاسيسهم ومشاعرهم في هذا المآل.

لم يُقبل دخول [پيدايراتوس Paederatus] في قائمة الثلاثمائة فعاد الى بلده ضاحك السَنّ مسروراً لأن في سارطة ثلاثمائة من الرجال كلهم خير منه(٥٣). وكان پوليقراتيداس

---

(٥٢) يقولون انه سنّ البدء بالخدمة العسكرية. لكن لما كان القانون يقضي ببقائهم في الخدمة حتى سن الاربعين فالمعقول هو ان سنّ الخدمة العسكرية لم يكن ثابتاً.

(٥٣) يقول كزنيفون ان الايفوري اعتادوا تعيين ثلاثة ضباط. وكل ضابط ينتقي مائة من أفضل ما يجده والشخص المنتقى يعتبر اختياره شرفاً عظيماً.

Polycratidas من ضمن وفدٍ ارسل في سفارة لنوّاب ملك الفرس. فسألوه هل كان قدومهم بصفتهم الشخصيّة. ام بصفة رسمية عامة؟

فأجاب: «بصفة عامة أن نجحت سفارتنا، وبصفة شخصية إن فشلنا وسألت [ارغيليونيس Argileonis] بعض القادمين من [امفيپوليس Amphipolis]. هل مات ابنها [براسيداس Brasidas] [٥٤] ميتة الشجاع كما هو جدير بالسپارطي؟ ولما بدأوا يثنون عليه أعظم الثناء قائلين «لم يبق له نظير في سپارطا» ردّت عليهم قائلة «دعكم من هذا القول، كان [براسيداس] رجلاً شجاعاً طيباً، ولكن هناك الكثير ممن يفوقه في سپارطا».

قلت سابقاً أن مجلس الشيوخ تألف من أعوان ليكورغوس ومساعديه الأصيلين في خططه واصلاحاته. أما الشواغر فقد أمر ان تُملأ بخير الرجال وأكثرهم استحقاقاً ممن جاوز الستين من عمره وليس ثم مدعاة للعجب أن كانت العضوية فيه مصدر تنافس عظيم. فأي تنافس بين الرجال أسمى من التنافس لا على من هو أسرع عدواً من أسرع العدائين، أو أقوى جسماً من الأقوياء، بل على من هو أوفر حكمة بين كثير من الحكماء ومن هو الأصلح من الصلحاء، والانسب ليعهد اليه بالسلطة العليا في الجمهورية وبالسلطان على حياة، وحقوق ومصالح بني قومه العليا كمكافأة على سجاياه وقابلياته؟ أمّا الطريقة التي يجرى بها انتخابهم فهي كما يلي يدعى الشعب لاجتماع عامٍ، ويختار منهم عدد، ويؤخذون الى غرفةٍ قريبة من مكان الانتخاب ويغلق عليهم بابها فلا يرون أحداً ولا يراهم أحدٌ [٥٥]، ولكن يسمعون أصوات الاجتماع في الخارج لأنهم يقررون الأمر من هتافات الجمهور، كما يقررون معظم شؤون الساعة الخطيرة. وبعد ان يتمّ ذلك، لا يؤتى بالمرشحين المتنافسين ويقدمون للجمهور معاً بل يتقدم واحدٌ بعد آخر بموجب قرعةٍ، فيشخص المرشح أمام الجمهور بدون أن ينطق بحرفٍ. ويزودّ الأشخاص في الغرفة، بمناضد للكتابة، ليدونوا كل هتاف، ويقدروا قوته ويسجلوها دون أن يدروا لمصلحة من كان ذلك الهتاف. بل مجرد كتابتهم انه الهتاف الفلاني بالشدة وبمقدار كذا هو للأول أو للثاني أو الثالث وهكذا. فمن يكون قد حاز أكثر وأعلى الهتافات والتشجيع

---

(٥٤) انتصر هذا الجنرال اللقيديمي على الآثينيين في معركة بالقرب من امفيپولس المقدونية الواقعة على ضفاف نهر ستريمون. لكنه خرّ صريعاً في المعركة (ثوكديدس ٥:١٠).

(٥٥) كانت هذه الطريقة مشوشة غير مؤكدة للتوصل الى من فاز بأغلبية الاصوات فكثيراً ما كانوا يضطرون الى فصل الناس وعدّ الاصوات والدليل على هذه الصعوبة ما حصل في احدى المناسبات للانيورس المدعو سثينلايداس [توكيديدس ١:٨٧]. يظن ارسطو أن على الناس عدم ترشيح انفسهم في مثل هذه الأحوال ولا ان يطلبوا المنصب أو العمل بل يجب ان يطلب منهم بدعوةٍ، بسبب كفاءاتهم أو اهليتهم (السياسة ٢:٧).

ينصب شيخاً في الحال. وعندئذ يوضع أكليل غار على رأسه. ويسير في موكب حافل ليزور كل المعابد ويقدم شكره للأرباب. يتبعه عدد عظيم من الفتيان وهم يهتفون له، والنساء وهن ينشدن الشعر تكريماً وتعظيماً لفضائله، متمنيات السعادة له في الحياة. وبسيره على هذا الشكل خلال المدينة. يبسط كل صديق أو قريب له، مائدة طعام ويقول: «المدينة تكرمك بهذه المأدبة». اما هو فبدلاً من قبولها - ينصرف عنها الى المائدة العامة التي أعتاد انه يتناول عليها طعامه سابقاً، وتعطى له وجبته باضافة شيء اليها فيتسلمها ويضعها أمامه. وبعد ختام العشاء تتجمع قريباته النسوة عند الباب. فيختار من بينهن، أعظمهن مكانة عنده، ويقدم لها الوجبة الاضافية التي نحّاها. وهو يقول انها كانت دليل تكريم له، وهي الآن دليل تكريمٍ لها. وبهذا تنال منزلة كبيرة في البيت ويقوم سائر النسوة على خدمتها.

وبصدد دفن الموتى استحدث ليكورغوس نظاماً ينطوي على حكمة كبيرة، فلأجل القضاء أولاً على جميع الخرافات سمح لهم ان يدفنوا موتاهم داخل المدينة بل سمح ان نقام انصابهم حتى حول المعابد وقصده من هذا أن يتعودّ الفتيان هذه المناظر. وان لا يخافوا رؤية الجثة(٥٦). وان يتصوروا أن لمس جثة أو وطء قبرٍ يصيبهم بالنجاسة. وأمر ثانياً - أن لا يدفن شيء مع الجثث إلاّ بعض اوراق من الزيتون إن شاؤا مع الكفن الأحمر الذي يلفون الجثة به(٥٧) ولم يسمح بنقش اسماء الموتى على الاضرحة إلاّ لأولئك الذين سقطوا في الحرب صرعى. أو للنسوة اللاتي يقمن بالواجبات الدينية. وحدّد وقتاً جدّ قصيرٍ للحِداد، لا يزيد عن أحد عشر يوماً، وفي اليوم الثاني عشر يقربون للرب [كيريس Ceres] وينتهي كل شيء وهكذا نرى في الوقت الذي وضع حداً لكلّ التوافه من الأمور بدت الأمور الهامة الضرورية وليس فيها صغير أو زهيد إلاّ ويعبر عن إكبار للفضيلة، وشجبٍ للرذيلة. لقد ملأ بلاد لقيديمونيا كلها بدلائل وأمثلة عن أحسن السلوك. تلازمه فكرة واحدة وهي أن افراد الشعب منذ عهد الشباب فصاعداً لايمكن أن يقفوا حيث هم في مجال الفضيلة والصلاح وانما يتقدمون بالتدرج المطرد.

ولهذا السبب منعهم في السفر الى الخارج، والانتقال في البلاد الأخرى للتعرف بأجهزة الحكم الاجنبيّة، والاخلاق السائدة فيها، واكتساب عادات الناس السيّئ التهذيب، وذوي

---

(٥٦) جرت العادة في عموم بلاد اليونان والرومان ان يدفن الموتى على جانبي الطرق الخارجية. والسبب في ذلك هو المحافظة على الصحة العامّة. ومهما يكن السبب الخرافي الذي قرن بهذا. فاننا نجد ليكورغوس يرفض كلّ ما يتعلق بالعدوى. وقد جاء من هنا عادة حرق جثث الموتى ووضع الرماد المتخلّف في أوعية. ولم يقم ليكورغوس بالغائها.

(٥٧) يخبرنا ايليان (٦:٦) ان الاكفان الاحمراء واوراق الزيتون انما هي للموتى من المواطنين البارزين في مجال الخدمة العامة ولاسيما في الحرب وليست مباحة للجميع بدون تفريق.

الآراء المختلفة في أسلوب الحكم. وكذلك نفى كل الأجانب الذين لا يتمكنون من عرض سبب وجيه مقنع لمجيئهم، لا لخوفه من مدارستهم شكل حكومته وتقليدها كما يزعم [ثوسكيديدس]، أو أن يتعلموا شيئاً ينفعهم، بل لئلا ينشروا أموراً مضادة للآداب العامة. فبوجود غرباء، يجب التسامح في الكلمات الغريبة، وتلك البدع تنتج بدعاً فكرية، ويستتبع ذلك آراء ومشاعر تتلف صفاتها الشاذة قوام الدولة المتناسق. كان مهتماً بانقاذ مدينته من العدوى بالأخلاق السيئة الأجنبيّة، قدر ما يهتمّ الناس عادة بدفع الطاعون عنهم.

والى هنا لا أجد أنا شخصياً أي شيء ينمّ عن ظلم وعدم مساواة في قوانين ليكورغوس. مع أن بعض الذين يقرون أنها صالحة للغاية لتربية خير الجنود، يرونها معيبة من ناحية العدالة. وربُمّا كانت شريعة «الكريتيا Cryptia»(٥٨) (هذا اذا كانت قانوناً من قوانين ليكورغوس كما يقول ارسطو)، تجعل ارسطو وافلاطون على السواء يريان هذا الرأي في ليكورغوس ونظام حكمه. فبمقتضى هذا القانون يرسل الحكام بصورة سرية عدداً من أقدر الشبان الى انحاء البلاد بين الفينة والفينة وليس معهم من سلاح غير خناجرهم، ولا من القوت الا الضروري القليل. فيخفون أنفسهم ليلاً في مواضع بعيدة أعين الرقباء ويبقون هكذا حتى يجنّ الليل فيخرجون من مكامنهم وينبثون في الطرق العامة ليقتلوا اي هيلوتي يصادفونه واحيان يثبون عليهم نهاراً وهم في اعمال الحقل منشغلون ويذبحونهم، وعلى ما روى لنا [ثوكيديوس] في تاريخه عن حرب البيلوبونيس، إن عدداً كبيراً من هؤلاء بعد أن اتم

(٥٨) كلّ المؤلفين كتبوا مستنكرين قسوة اللقيديميين على الهيلوت. وان حاول بلوتارخ المعجب الكبير بالسپارطيين التخفيف من وطأة ذلك جهد ما امكنه. ان هؤلاء المساكين البائسين ميزوا بالعبودية في شتىّ مظاهر حياتهم اليومية حتى في ثيابهم وحركاتهم. فقد رُسم لهم ان يغطوا رؤوسهم بجلود الكلاب ويرتدوا صدُراً من جلود الغنم. ويحظر عليهم تعلم اي فنّ من الفنون الحرة. او الاقدام على اي هو من لياقة اسيادهم ويضربون مرة في اليوم بالسياط لئلا ينسوا بانهم عبيد. فضلاً عن هذا منهم معرضون (الكريتيا) وتلك عقوبة لاينجو منها مطلقاً كل من يتكلم أو ينظر أو يمشي أو يتحرك مثل الانسان الحّر! يحاول بلوتارخ ان يثبت لأعمال القسوة والوحشية تاريخاً ابعد بكثير من عهد ليكورغوس فيزعم، انها ما طبقت الاّ بسبب انضمام الهيلوت الى المسينيين بعد الزلزال المدمر الذي وقع في ٤٦٧ ق.م. فهدم جزءً كبيراً من لقيديمون، وفتك باكثر من عشرين الف سپارطي. لكن ايليان يذكر بكل وضوح ان الرأي السائد في بلاد الاغريق هو أن هذه الهزة الارضية المدمرة كانت حكماً سماوياً عوقب به السپارطيون لمعاملتهم اللاإنسانية للهيلوت.

ويقول م. بارثلمي في [رحلات اناخارسيس] ان الكريپتيا كما فرضها ليكورغوس لم تكن الاّ نوعاً من التمهيد للعمليات الحربيّة، حيث يقوم الشبان بنصب كمائن وشنّ هجوم ليلي خارج المدينة. غير قاصدين ان يكون ذلك ضد الهيلوت. وان اعمال القتل فيهم ربما بدءَ في زمن كتابة رسالة افلاطون في الشرائع. بسبب مقاومة الهيلوت لتلك الغارات الليلية. فاذا بالتمارين تغذو قاصرة على مطاردة هؤلاء العبيد المساكين وتنوسي الغرض الأصلي منها.

السپارطيون اختيارهم لبسالتهم، توجوا بأكاليل الغار ومنحوا امتياز المواطنة وحقوقها وطيف بهم كل المعابد تكريماً لهم وتعظيماً. ما لبثوا أن اختفوا جميعاً بصورة فجائية. وكان عددهم يقارب الألفين. ولم يستطع أن يتوصل أحد لا في حينه ولا بعده، الى كيفية موتهم. ويضيف ارسطو الى ذلك قوله أن «الايفوري» ما أن تسلموا مقاليد الحكم حتى أعلنوا الحرب عليهم واتقوا بأن ذبحهم حلال لايحرمه الدين. ويجمع الكتاب قاطبة» أن السپارطيين عاملوهم باشدّ القسوة، اذ كان من الأمور الاعتيادية ارغامهم على أن يتناولوا قدراً كبيراً من الخمر حتى يثملوا فيقودونهم وهم في هذا الوضع الى قاعاتهم العامة حتى يشاهد الأحداث ماذا يفعل السكر في الانسان ويجبرونهم على أداء رقصات خليعة وضيعة وغناء مقطوعات مضحكة قبيحة ويمنعونهم من انشاء أناشيد جيدة منعاً صريحاً حتى انه لما غزا الثيبيّون لاقونيا[٥٩] وأسروا عدداً كبيراً من الهيلوت حاولوا عبثاً أن يحملوهم على انشاد قصائد من [ترپاندر[٦٠]] أو [الكْمان Alcman] أو [سپندون Spendon]. وكانوا يجيبون قائلين: «لا، ان سادتنا لا يريدون!» وصدق من قال: «في سپارطه. الحُرّ يملك أعظم الحريّة، والعبد فيّها أتعس العبيد في العالم». وفي رأيي ان هذه المظالم والاضطهادات بدأت تمارس في سپارطة في زمن متأخر جداً لاسيما بعد حصول الزلزال العظيم[٦١] وقيام الهيلوت بانتفاضة عامة، فقد ضموا قواتهم الى المسينيين واجتاحوا البلاد وخربوها والحقوا الخطر الجسيم بالمدينة. لأني لا أستطيع اقناع نفسي الى إسناد سلوك بربريّ شرير كهذا لليكورغوس، لما عُرف به في اللطف والدماثة وحب للعدل في كل المناسبات الأخرى، وهو ما تشهد به النبوءة أيضاً.

عندما تأكد أن تنظيماته الاكثر أهميّة قد رسخت جذورها في عقول بني قومه وان العادة جعلتها سهلة المتناول محبوبة، وان جمهوريته باتت ثابتة رصينة لا تحتاج الى معين، ويمكنها أن تمضي في سبيل التقدم وحدها «عندئذ شعر بالسعادة كما شعر خالق الأرض بالارتياح وهو يراها كائنة متحركة» على حَدّ قول افلاطون. اجل شعر ليكورغوس بالفرح وهو يتطلع الى عظمة بنائه السياسي وجماله وهو يعمل ويتحرك. وتملكته فكرةٌ وهي أن يجعل نظامه هذا باقياً ما بقي الجنس البشري ينقله الخلف عن السلف. وعقد اجماعاً عاماً استثنائياً حضره

(٥٩) في عهد ايپامنندا‌س. بعد معركة ليوكترا في ٣٧١ ق.م.

(٦٠) شاعر غنائي شهير ولد في حدود الاولمپياد السابع والعشرين في (ساردیس) من اعمال (ليديا) لكن جيء به وهو صغير الى ليقديمون وأستغلّ عبداً إلاّ ان عبقريته الشعرية أمنت له العتق والحرية.

(٦١) وقع هذا الزلزال في عهد [ارخيداموس] في حدود المائة الخامسة ق.م فدمّر المدينة وابتلع عشرين الف سپارطيّ ورجّ جبل (تايفتوس) رجاً عنيفاً. ويعزو پلوتارخ هذه النكبة في موضع آخر الى سلك السپارطيين ازاء بنات [السبوس] بخلاف ما يراه ايليان من ان ما حلّ بهم كان بسبب معاملتهم السيئة للهليوت.

الشعب جميعاً، وقال لهم. إنه يرى الأمور قد استقرت بشكل مناسب معقول لأجل سعادة الدولة وصلاحها. على ان شيئاً في غاية من الأهمية كان يراه ناقصاً ولم يشأ التصريح به حتّى تنزل عليه نبوءة فيه. وانه يرغب منهم في الوقت عينه أن يطيعوا القوانين ويطبّقوها دون أي تغيير حتى عودته وعندئذ سيفعل ما تأمر به الآلهة. فأسرع الجميع للموافقة ورجوه أن يعجلّ في رحلته. وقبل أن يفارقهم جعل الملكين واعضاء مجلس الشيوخ والعامة جميعاً يقسمون يميناً بالابقاء على أسلوب الحكم الراهن حتى عودته. ولما تمّ ذلك انطلق الى [دلفي]، وقربّ لايوللو ثم سأله هل أن القوانين التي وضعها جيدة، كافية لسعادة الشعب وصلاحه؟ فجاءت النبوءة بأن القوانين ممتازة جداً وان الشعب بالخضوع لها سيبلغ أعلى مراقي التقدم والرخاء فقام ليكورغوس بكتابة النبوءة وبعث بها الى سپارطا ثم قربّ لاپوللو ثانيةً. وأستأذن من أصدقائه وأبنه وغادرهم وهو على يقين بأن السپارطيين لن يحنثوا بالقسم الذي أدوّه، وانه لذلك يجب أن يختتم حياته العامة بالشكل الذي يجده مناسباً وهو لايزال في السن التي تكون فيه[٦٢] الحياة عبئاً والموت مرغوباً فيه وفي حين كان كل ما حوله في حالة طيبة راضية، فأنهى حياته بالامتناع عن تناول الطعام معتقداً اته واجب السياسي ان يجعل في موته. إن أمكن - خدمةً للدولة. وان يقدم حتى في ختام حياته مثلاً من أمثلة الفضيلة، ويحقق غرضاً مفيداً. انه من ناحية يتوّج ويختم سعادته الخاصّة بموت جدير بمثل هذه الحياة الكريمة ومن ناحية أخرى يضمن لبني قومه التمتع بالمنافع التي انفق حياته كلها في سبيل كسبها لهم بعد أن اقسموا الايمان المغلظة على البقاء امناء مخلصين لتنظيماته حتى عودته. ولم يكن مخطئاً في آماله. لأن مدينة ليقديمون بقيت المدينة الرئيسة في كل بلاد الاغريق زهاء خمسمائه عام. وظلت تحافظ محافظة دقيقة على قوانين ليكورغوس. وخلال هذه المدة كلها لم يحصل فيها شيء من التغيير اثناء حكم اربعة عشر ملكاً ختموا (بآغيس) ابن [ارخيداموس Archidamus] فانّ استحداث منصب «الايفوري» وان كان قد ظنّ أنه لمصلحة الشعب، إلاّ أنه زاد من ملامح الحكم الارستوقراطية[٦٣] وبرزها الى اقصى حدٍ بدلاً من أن يخفف من غلوائها.

وفي اثناء حكم [آغيس]، بدأ الذهب والفضة لأول مرة يتدفقان الى سپارطا، ومعها جاء كلّ الوذائل والشرور التي تصاحب الرغبة المفرطة في الثراء. وزاد [ليساندر] من هذه الفوضى

---

(٦٢) ومع هذا يقول لوسيان ان ليكورغوس كان في الخامسة والثمانين عندما قبض.

(٦٣) ينكر ارسطو ذلك [السياسة ٢:١٧] والواقع انّه غير ممكن وليس معقولاً ان يقوم الضباط المزودون بمثل هذه السلطة العظيمة بابطال الجزء الديمقراطي من الدستور الذي كان له الفضل في توليهم تلك السلطة.

بحلبه الاسلاب والغنائم الحربية الثمينة فملأ بلاده بمظاهر البذخ والترف وان كان هو نفسه رجلاً مستقيماً(٦٤)، وأبطل قوانين ليكورغوس ومراسيمه. اذ ما دامت تلك القوانين نافذة المفعول في سپارطا فقد كانت تبدو أقرب الى حياة رجل حكيم ذي خلق حميد منها الى حكومة سياسية لشعبٍ من الشعوب. وكأسطورة الشعراء التي ألفوها عن هرقل، وهي تجواله في البلاد معاقباً الطغاة القساة، والأشرار المجرمين بجلد اسده وهراوته، كذلك ما قيل عن اللقيديمونيين بأنهم تمكنوا من كسب خضوع كلّ الاغريق الطواعي الودود، بعكّاز بسيط وبرداء خشن واستمروا طوال الوقت يحاربون الطغيان والفساد والعدوان، ويتدخلون كوسطاء لفض الحروب، وانهاء النزاعات المدينة. ولم يكلفهم هذا في أغلب الأحيان تحريك جندي او درعٍ واحد بل بمجرد إرسال مندوب واحدٍ، يخضع الجميع لتوصياته دونما اعتراض. ذلك هو الرصيد من النظام والمساواة الذي وجد في دولتهم وكان يفيض على الآخرين بالكثير من النعم والخيرات.

ولذلك لايسعني إلاّ أن أعجب من أولئك الذي يقولون ان السپارطيين خير الرعايا، واسوء الحكام، وبرهاناً على هذا، ينسب قول الى الملك [ثيوپوميوس]. عندما قال أحدهم أمامه: «أن سؤدد سپارطا ما بقي هذه المدة الطويلة إلاّ لأن ملوكها كانوا من القادة المحنكين.» اجابه قائلاً: «كلاّ بل لأن الشعب يعرف جيداً كيف يطيع». ذلك لأن الشعب لايطيع حكامه إلاّ اذا أتقنوا فن القيادة والحكم. والطاعة هي درس يلقنه القادة. والزعيم الحقيقي يخلق بنفسه طاعة اتباعه، وكما أن الغاية الأخيرة لفن ركوب الخيل هي تذليلها وكسر شكيمتها، كذلك هو فن الحكم، فانه يهدف الى اشاعة وايحاء الرغبة في الطاعة بين الناس، واللقيديمونيون لم يكتفوا بالايحاء بهذه الرغبة، بل تعدّوها الى كسب رغبتهم المطلقة ليكونوا رعايا خاضعين لهم. ولم يكن هؤلاء يطلبون من السپارطيين ارسال سفن ومال ونجدات عسكرية لهم. بل كانوا يطلبون قائداً سپارطياً واحداً فحسب. وهم ينزلون هذا القائد ارفع منزلة من التجلّة والاحترام. وهو ما كان موقف الصقليين في [غيليپوّس Gulippus] وموقف [الخلقيديين Chalcidians] من [براسيداس] وموقف كلّ اغريق آسيا(٦٥) من [ليساندر وآغيسلاوس وكالليكراثيداس -Cal

(٦٤) يذكر [سيستوس] نقلاً عن [ديودورس ١٨:١٠٦] أنه جلب الى سپارطا الفاً وخمسمائة تالنت من الذهب فضلاً من غيره من النفائس ويخبرنا كزنيفون ايضاً انه عند استيلائه على اثينا بعث الى سپارطا بالكثير من الغنائم الثمينة ومن بيتها (٤٧٠) تالنت من الفضة.

(٦٥) ارسل السپارطيون [غليپوس] للدفاع عن [سيراقوز] عندما غزاها الاثينيون بقيادة [الكيپيادس]. واما الخلقيديون الذين صُرع (براسيداس) اثناء ما كان في خدمتهم فلم يكونوا من [خلقيس] [يوبويا] بل من جوار [امفيپوليس]. وباغريق اسيا يعني كلّ سكان آسيا الصغرى وايونيا والجزر المجاورة. و[كالليكراتيداس] هو أمير بحرٍ ليقديموني في نهاية حروب الپلوپونيسيس.

lacratidas] ولم يبخل عليهم الأقوام أو الأمراء الذين ارسلوا لهم بالقاب «البناة والمقتّصين». وكانت انظارهم دوماً شاخصة الى مدينة سپارطا نفسها بوصفها اكمل نموذج للسجايا العالية والحكم الصالح في حين أعتبر باقي الاغريق مجرد علماء واساتذة وقد أشار الى هذا [ستراتونيكوس Stratonicus] بنوع من الفكاهة، عندما اقترح مازحاً أن يُسنّ قانونٌ يدير الآثينيون بموجبه شؤون المواكب الدينية والطقوس المقدسة الخفيّة، ويشرف الاليائيون على الالعاب الاولمپية، واذا هفا واحدٌ منهما أو اخطأ فيجب أن يُعاقب اللقيديميون بالضرب[٦٦]. وقال آنتسيتنس بلهجة جدية (وهو أحد متتلمذي سقراط) عن [اليثبيين] عندما استخفهم الطرب بانتصارهم في [ليوكترا Leuctra][*]، أنهم أشبه بصبيان المدرسة الذين ضربوا معلّمهم.

ومهما يكن من أمر، فإن ليكورغوس لم يرد لمدينته أن تحكم عدداً كبيراً من المدن الأخرى. بل كان يرى أن سعادة الدولة كسعادة الفرد من البشر، هي في ممارسة الفضائل أساساً، وفي وحدة السكان. لذلك كان هدفه في كل تنظيماته أن يجعل قومه أحراراً بالفكر، مستقلين بالنفس، أقوياء الارادة. لذلك، فإن كل أولئك الذين أجادوا الكتابة في السياسة امثال افلاطون وديوجينس Diogenes وزينو Zeno، أتخذوا ليكورغوس نموذجاً لهم. لقد ترك هؤلاء وراءهم كلمات وأفكاراً فحسب في حين أن ليكورغوس كان منشئ نظام حكم لا كتابةً بل حقيقة واقعة، حكومة قصر الآخرون عن تقليدها واستنساخها[٦٧]. وفي الوقت الذي اعتبر الناس الطبيعة الفلسفية الفردية شيئاً لايمكن بلوغه، نجده بالمثل الذي ضربه من دولة ذات فلسفةٍ كاملة، قد ارتفع وسما فوق كل واضعي القوانين في بلاد الأغريق. ولهذا قال ارسطو أن الإكرام الذي اكرموه في لقيديمونيا بعد وفاته كان أقلّ مما يستحق. مع أن لديه هناك معبداً يقدمون فيه القرابين اليه سنوياً كأنه اله.

---

(٦٦) لأن المعلمين يحاسبون على اخطاء تلاميذهم ان أصل النكته ولبابها هو هذا: أعتاد اللقيديميون انزال العقاب بالوالدين أو المتبنيّن ولداً اذا ارتكب ابنهما أو ابنتهما خطأ أو ضلا سواء السبيل. ولما بات اللقيديميون الآن معلمين للشعوب الأخرى فقد وجب عليهم تحمل القصاص الواقع عليهم جراء اخطاء تلاميذهم!

وستراتونياكوس هو موسيقار آثيني، مدحه (آشينيوس، ٨:٨) لجمال تآليفه، وقابليته على التنكيت. الاّ ان تعلق ابناء وطنه بالخرافات والاوهام أضفى مسحة غلابّة على سحره.

(*) في السنة ٣٧١ ق.م بقيادة ايپامننذاس.

(٦٧) يختلف افلاطون وارسطو عن پلوتارخ في هذا حتى پولپيوس نفسه الذي كان شديد الاعجاب بنظام الحكم السپارطي، نجده يقول ان السپارطي وان كان صاحب انصاف وفضيلة لكن الجماعة قليلو الاهتمام بنشر العدل لا يكترثون بمكارم الأخلاق.

وذكروا ان صاعقة سقطت على الضريح الذي ضم رفاته بعد نقلها الى سپارطا ودفنها، وهي حادثة لم تحصل لرجلٍ عظيم سواه، باستثناء [اڤريپديس] الذي دفن في مدينة [اريثوسا Arethusa] بمقدونيا[٦٨]. وقد تكون هذه الظاهرة للمعجبين بالشاعر، برهاناً ودليلاً على انه حظي بعين ما حظي به ذلك الرجل القدّيس مصطفى الآلهة، يقول بعضهم ان ليكورغوس توفي في [كيّرا Cirrha][٦٩]، ويزعم (ابوللوثيميس Apollothemis] انه توفي بعد مجيئه الى [ايليس Elis]، ويقول [طيماؤوس] و[ارسطوكزينس Arstoxenus] ان حياته انتهت في كريت، ويضيف ثانيهما أن قبره عند الكريتين قائمٌ في منطقة [پرغاموس] بالقرب من «درب الغرباء». وترك ابناً واحداً هو [انتيوروس Antiorus] الذي مات بلا عقب فأنقرضت الأسرة، إلاّ أن أصدقاءه وأقرباءه ظلوا يقيمون له حفل ذكرى سنوياً لوقت طويلٍ، وسميت ايام الاجتماع [ليكورغوس] ويقول [ارستوقراطس] ابن [هيپارخوس][٧٠] انه توفي في (كريت) وان اصدقاءه الكريتيين بناء على طلب منه أحرقوا جثته وذروا رماءها في البحر، خوفاً من أن تنقل عظامه الى لقيديمون، وعندئذ يتخذونها حجّة وتعلّة ليحلوا انفسهم من القسم، ويقوموا باجراء تجديد، في أصول الحكم.

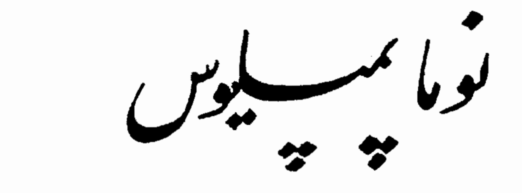
وفي هذا الكفاية عن حياة وأعمال ليكورغوس.

---

(٦٨) هذا اذا كان عاد الى بلاط [ارخيلاوس] على أن ثم ضريحاً له في آثينا.

(٦٩) بلدة بالقرب من دلفي.

(٧٠) مؤلف كتاب في تاريخ لقيديمون. أقتبس فيه آثينيوس ٧:٣.



NUMA POMPOLIUS

715-672 ق.م



مع أن شجرة الأسرة النبيلة تصل بشكل متسلسل دقيق حتى [نوما پوميوليوس] باتفاق المؤرخين جميعاً، فهناك تناقض كبير بين المؤرخين بخصوص زمن حكمه، فثم كاتب يدعى [قلوديوس Clodius]يذكر في كتاب له بعنوان [تعليقات على التاريخ] أن سجلات روما القديمة فقدت عندما نهبها الغاليّون[١]، وان كلّ ما هو موجود منها الآن هو مزيّف، قصد بتزيفه ارضاء ومجاملة بعض الناس الذين يرغبون في ان يتوهموا أنفسهم بأنهم من نسل عريقٍ نبيل في حين أنهم ليسوا كذلك. ومع أن الشائع المعروف أن [نوما] كان من تلاميذ [فيثاغوراس][٢] الحميمين، إلاّ ان آخرين ينفون ذلك ويؤكدون أنه لم يكن واقفاً على اللغة اليونانية ولا علومها. وأنه كان رجلاً ألمعيّ الذهن بفطرته، وهُب قابليات طبيعية بلغت به مراقي الفضائل العليا، أو انه عثر على معلم من البرابرة يفوق فيثاغوراس علماً ويؤكد بعضهم كذلك، ان فيثاغورس لم يكن معاصراً لنوما. وانما عاش بعده بخمسة اجيالٍ على الأقل[٣]. وان هناك فيثاغوراس آخر وهو مواطن سپارطي، نال جائزة في سباق أولمپي، في الاولمبياد السادس عشر[٤]، الموافق للسنة الثالثة من اختيار [نوما] ملكاً. ربما تعرف به في رحلته الى ايطاليا وعاونه على انشاء مملكته ومن هنا كان السبب في ظهور عدة عادات وقوانين [لاقونيّة] بين الأنظمة الرومانية. وعلى أية حال كان [نوما] من نسل سابيني[٥]،

---

(١) ٣٩٠ ق.م.

(٢) لم يزر فيثاغوراس الفيلسوف ايطاليا حتى الاولمپياد الحادي والخمسين اي بعد اربعة أجيال مرت على عصر (نوما) ويضيف (ديون ٢:١٥) الى هذا بأنه لم يهتم بالدراسات الفلسفية في كروتونا وقت انتخابه فان تلك المدينة لم تبنى الاّ في السنة الرابعة من تاريخ اعتلائه العرش.

(٣) ليڤي (١:١٨) يجعله في عهد سرڤيليوس تُلليوس. وشيشرون في الخطب (٢:٢٧) يجعله في وقت متأخر مؤكداً انه قدم ايطاليا على عهد تاركوينوس سوپربوس.

(٤) ٦٥٤-٦٥٧ ق.م.

(٥) أكتشف [ديون ٢:١١] في تاريخ السابين أنه بينما كان ليكورغوس وصياً على ابن أخيه اثنومس (خاريلاوس بلا شك) هرب بعض اللقيديمين الذين لم يستطيعوا احتمال صرامة قوانينه واتجهوا الى ايطاليا فاستقروا أولاً في (بوميتيا) ثم انتقل عدد منهم الى ارض السابين وامتزجوا بهم ولقنوهم عاداتهم لاسيما تلك التي تعلق بالحرب. ودربوهم على الجلد والصبر وشظف العيش. وعلى هذا الأساس تكون هذه الدفعة من اللاجئين قد استقرت في ايطاليا قبل ميلاد [نوما] بمائة وعشرين عاماً.

وذكروا أنهم مستعمرة لقيديمونيّة. والتاريخ على العموم غامض، ولاسيما عندما يحقق على ضوء قوائم الفائزين في الألعاب الاولمپية التي نشرها في زمن متأخر[هيپياس Hippias] الإليائي، وهي لا تستند الى مرجع ثقة. وبابتدائنا من نقطةٍ مناسبةٍ سنباشر في عرض أهم الوقائع المدونة عن حياة [نوما] وأجدرها بالملاحظة.

كانت السنة السابعة والثلاثين (محسوبةً من يوم بناء روما) عندما قام رومولوس الحاكم آنذاك - بتقديم قربان عام في «مستنقع المعزّ» في الخامس من شهر تموز - المسمّى [كابروتين نونس Caprotine Nones] بحضور الشيوخ وأهالي روما. فأظلمت السماء فجأة وخيّمت على الأرض سحب كثيفة صحبها كثير من العواصف والمطر. وفرّ العامة هاربين وقد تملكهم الذعر وتفرقوا أيدي سبأ. وفي هذه العاصفة أختفى رومولوس ولم يعثر على جسمه حيّاً أو ميتاً. وثار شك خبيث في أن غيبته من عمل الپاتريشيان وأنتشرت اشاعات بين الناس بأنهم تآمروا عليه وازالوه من الوجود بعد ان ضاقوا ذرعاً بالحكم الملكي، ونفذ صبرهم في الآونة الأخيرة من المسلك الاستبدادي التحكمي الذي اتخذه ازاءهم. وانهم ارادوا أن يستحوذوا على السلطة وادارة دفة الحكم بأنفسهم. وقد حاولوا تبديد هذه الشكوك وازالتها من الاذهان بالافراط في تكريم رومولوس وجعله في مصاف الآلهة فقالوا لم يمت بل عرج الى السماء وانتقل الى حالة اسمى من حالة البشر وأقسم [پروكلوس] وهو رجل محترم الكلمة بارز الشخصية - بانه رأى رومولوس يصعد الى السماء لابساً ثيابه الملكية وبكامل شكة سلاحه وسمعه يقول وهو يصعد، بأن على الرومان من الآن فصاعداً أن يطلقوا عليه اسم [كويرينيوس].

بعد أن هدأت الخواطر وخمدت الفتنة، ظهرت مشكلة أخرى حول انتخاب الملك الجديدِ، لأن عقول الرومان الأصلاء والسكان الجدد لم تبلغ بعد ذلك المبلغ من وحدة الاتجاه، بل كان ثمّ أحزاب تختلف وجهات نظرها اختلافاً بينا - وكان ثم تنافر وتباغض ما بين الشيوخ أنفسهم. ومع أنهم اتفقوا جميعاً على ضرورة اختيار ملك، إلاّ انهم أختلفوا فيما بينهم على شخصه. فأولئك الذين بنوا المدينة مع رومولوس، وسبق لهم أن نزلوا عن جانبٍ من أراضيهم ومساكنهم [للسابين]، كانوا يستنكرون أي اقتراحٍ يقضي بخضوعهم لحكم من كان موضع احسانهم ورعايتهم. والسابين يزعمون من الجهة الثانية أنهم خضعوا لحكم رومولوس وحده، بعد وفاة ملكهم [طاطيوس] دون شكوى أو تذمرٍ، وقد حان دورهم الآن ليكون الملك من بني جنسهم. ولم يكونوا يعتبرون أنفسهم أدنى منزلةً من الرومان، ولايعدون مساهمتهم في توسيع روما أقل من مساهمة الرومان. فلولا جموعهم الكبيرة ولولا مساعدتهم لكان من العسير أن

تستحق اسم المدينة. وظل الحزبان يتنازعان ويتجادلان على هذه الصورة. وخشية أن يسبب الاختلاف فوضى عامة - بغياب اي شكل من أشكال الحكم والقيادة اتفق على أن يقوم اعضاء مجلس الشيوخ المائة والخمسون دورياً[٦] - بوظيفة الحاكم الأعلى ويكون لكلّ واحد منهم عندما يحين دوره حق استعمال شارات الملك وتقديم القرابين الدينية الرسمية وتصريف شؤون الحكم لمدة قدرها ستّ ساعات نهاراً وستّ ساعات ليلاً، وهذا الانتقال السريع في السلطة والتوزيع العادل لها، سيزيل كل آثار المنافسة بين الشيوخ والتحاسد بين الشعب لما يرون شخصاً يرتفع الى مرتبة الملك، لينخفض الى متسوى فردٍ عادي خلال يوم واحد. وسمّي هذا الشكل من الحكم عند الرومان بالملكيّة الدورية [Interregnum].

على أن هذا الشكل البسيط الساذج من الحكم ما كان يمنع شكوك العامة وتنديدهم، كأنما وجدوا فيه تغييراً في شكل الحكومة ومفضياً الى حكم الأقلية [اوليغارشي] وان الشيوخ ينتوون ابقاء السلطة العليا في ايديهم عن طريق نوع من الوصاية. دون أن يباشروا في اختيار الملك. أخيراً أتفق الحزبان على أن يختار السابين ملكاً من بين الرومان. ووجد أن هذا هو خير حَلّ لأنهاء روح التحزبّ والتكتل. وان الأمير الذي سينتخب سيكون موضع رضى وتعلق أولئك الذين انتخبوه وأولئك الذين انتخب منهم على حدٍ سواء. وترك السابين حق الاختيار للرومان الأولين. وهؤلاء بدورهم كانوا أكثر ميلاً الى قبول ملك سابينيّ ينتخبونه هم، في ان يروا ملكاً رومانياً يختاره السابين ويشايعونه، فعقدت مجالس مشاورة ورشحّ [نوما پومپيوليوس] من شعب السابين[٧]. وهو شخص بلغت اخلاقه الساميّة من الشهرة حداً عظيماً، فما أن ذُكر اسمه حتى وافق عليه السابين بحماسةٍ تفوق حماسة الذين انتخبوه. وكان يسكن خارج روما. وبعد أن أعلن الانتخاب للجمهور عين عدد من كبار ووجهاء الحزبين لزيارة المرشح وعرض الحكم عليه. وكان [نوما] يسكن في مدينة سابينيّة مشهورة تدعى [كيوريس Cures] ومنها أطلق السابين والرومان على أنفسهم الاسم المشترك [كيورتيس]. وكان أبوه [پومپونيوس Pomponius] رجلاً فاضلاً، ونوما أصغر بنيه الأربعة وُلد (كما

---

(٦) بحسب دعوى المؤلف كان عدد الاعضاء في عهد رومِلوس مائتين. على انّ [ديون] يقول ان الكتاب يختلفون في هذه النقطة. فبعضهم يؤكد اضافة مائة عضو على اتحاد السابين والرومان. وبعضهم يؤكد اضافة خمسين. واما حول شكل حكم النواب الملكيين فـ(ليڤي) يزوّدنا باقرب التفاصيل احتمالاً اذ يقول ان الشيوخ انفسهم انقسموا الى مجموعات عشرية واقترعوا على من يحكم اولاً وثانياً الخ... بحسب ترتيب الاقتراع على أن يكون لشخصٍ واحد فحسب من كل عشرة حاكمة، امتياز حمل شعار السلطة.

(٧) في ذلك الوقت دعا نواب الملك الأهالي ووجهوا اليهم الكلام التالي «ايها الرومان. انتخبوا لأنفسكم ملكاً. ان مجلس الشيوخ موافق. وان انتم أخترتم ملكاً خليقاً بخلافة (رومِلوس) فان المجلس سيصادق على انتخابكم». وقد سرّ الشعب جداً بتنازل الشيوخ وعدم استخدامهم صلاحياتهم.

شاءت العناية الرّبانية) في الحادي والعشرين من نيسان وهو يوم بناء [روما]، وقد وهب نفساً نادراً ما هذبت الطبيعة مثلها، تعلقت بالفضيلة والصلاح، وأخضعها بالنظام واخذها بالتثقيف والحياة الصارمة ودراسة الفلسفة وهي وسائل من شأنها أن تطرد النزغات الحقيرة والعواطف الوضيعة فضلاً عن قمعها حدة الطبع، وعنف المزاج. وهي صفات لها مكانة عالية بين البرابرة. وكان رأيه أن الشجاعة الحقيقية تكمن في اخضاعنا عواطفنا للعقل.

كان قد جردّ منزله من كل مظاهر الترف والنعومة. وفي حين كان المواطنون والأجانب على حَدٍّ سواء يجدون فيه قاضياً نزيهاً ومستشاراً لا يرقى الى مشورته شك، فانه انصرف في حياته الخاصة الى عبادة الأرباب الخالدين لا الى اللهو والفسوق. وعكف على التأمل العقلي في قوى الطبيعة، والمقدرة الالهيّة. وبلغ من شهرته أن [طاطيوس] زميل رومولوس في الحكم زوّجه ابنته الوحيدة وجعله ختنه، لكن هذا لم يُغر كبرياءه بالرغبة في العيش مع حميّه في رومه. وفضل الحياة مع السابين، والعناية بأبيه في آخر عمره. وفضلت (طاطيا) أيضاً عيشة زوجها البسيطة الخاصة على حياة الفخفخة والترف التي كانت تتمتع بها وهي مع والدها. وقيل انها توفيت بعد حياة زوجية دامت ثلاث عشرة سنة.

وعندئذ ترك [نوما] ضوضاء المدينة ونزع الى حياة الريف. يتجول في البساتين والحقول، ويؤدي فرائضه الدينية، ويقضي جل أوقاته في الاماكن الخلوية وحده وهذه الوحدة كانت سبباً في حكاية اتصاله بالربّة. خلاصتها أن نوما لم يعتزل المجتمع بسبب حالة من السوداء اعترته، أو لإضطراب عقلّي انتابه، وانما لأنه ذاق مسرات وصال أسمى كثيراً من الوصال البشري، وسمح له بالزواج من الآلهة لمّا احبته الرّبة [ايجيريا Egeria][8] وأختصته لنفسها وبذلك نال البركة والحكمة الألهية.

هذه الحكاية تشبه الاساطير الموغلة في القدم كما هو واضح. تلك الأساطير التي انحدرت الى الفريجيين وما زالت تروى عن [أتيس Attis][9] وما انحدر للبيثيين عن [هيرودوتس]،

(٨) ان ميل [نوما] الى العزلة. واعتياده الانزواء في أمكنة غير معروفة من غابة [أريشيا] كان سبباً في شائعات مختلفة راجت بين الناس. وظن بعضهم أن الحورية (ايجيريا) هي التي أملت عليه الشرائع الدينية والمدنية التي قام بسنّها. وأكد ذلك هو نفسه كي يؤمن المصادقة الربانية عليها ولكن لما لم يكن ثم من يخلو من سوء الظن والنزغات فقد ظن بعضهم ان ما يجتذبه الى الغابات والكهوف شيء لا يمتّ الى العفّة بصلة. وهذا ما حدا بجوڤينال الى السخرية عند ذكره بستان [ايجيريا] ليقول (١٥:٣) Hic, ubi mocturnae Numa Constituebat amieae ويعقب أوڤيد بقوله: ان ديانا من أجل ان تنسى حزنها على فقدان [نوما] حولتها الى نبع ما زال يدعى باسمها (١٥ المسوخ) وهو وپلوتارخ الذي تبنى الرأي نفسه هما الوحيدان اللذان ذكرا انها كانت زوجه (انظر ايضاً ديون ١٥:٢).

(٩) قيل ان (آتيس) كان موضع حبّ الربّة (كيبيله) وان (ديانا) عشقت انديميون. وأمّا هيرودوتس هذا =

وللاركاديين عن انديميون Endymion، ولا نذكر عدداً آخر ممن ظنّ أن الآلهة اصطفتهم واسبغت عليهم حبّها. وليس يبدو غريباً أن لا تتنزلّ آلهة شاءت ان تحب رجلاً، لا طيراً ولا حصاناً وتعيش مع نفس فاضلة وتتبادل الحديث مع حكيمٍ ذي خلقٍ رفيع. وان كان يصعب حقاً الاعتقاد بأن للآلهة والجنّ قابلية على الحبّ الحسيّ والجسماني والتولّه في جمال انسيّ أو جسم بشري. على أن حكماء المصريين لا يقرون حقاً بهذه التفرقة، وهي: من الممكن لروح إله ان تتقمصّ طبيعة انثى من البشر، لتحمل في أحشائها نطفة أوليّة لجيلٍ بشري، في حين يرون من الوجهة الثانية أنه يستحيل على جنس الذكر من البشر أن يتصل جنسياً، أو يمتزج جسمانياً بربةٍ من الربّات، غير معتبرين على ما يبدو أن ما هو قابل الحصول في شقٍ، يفترض وجوب حصوله في الشق الثاني، والمنطق يفرض ان التزواج ذو طبيعة تبادلية. وليس يصيح إلاّ الإفتراض بان الآلهة تتجاوب لحبّ البشر، أو انها تحبّهم على شكل الرعاية والاهتمام بهم وبفضائلهم. ولم يخطئ أولئك الذين زعموا أن (أپوللو) عشق [فورياس]، و[هياسينثوس Hyaeinthus] و[ادمتوس Admetus][(١٠)]، أو أن [هيپوليتوس السيكيوني Sicyoiuon] كان ذا حظوة عندهم، مشمولاً برعايتهم. فطالما كان يبحر من [سيكيون] إلى [سيرّا]، كانت العرّافة البيثية تنشد هذا البيت الملحميّ المعبرّ عن اهتمام الربّ وحبّه:

الآن رجع هيپوليتوس مرة أخرى يخاطر بحياته العزيزة في غمار البحر

وذكروا أيضاً أن [پان] وقع في عشق [پندار] وأشعاره[(١١)]. وأن القوى الالهية كرمت [هسيود، وارخيلوخوس][(١٢)] بعد وفاتهما، لأجل [الميوزات]. وثمّ رواية أخرى هي أن

= [يسميه داسييه: رودوتس] فلم يذكر في اي موضع آخر على ما نعتقد.

(١٠) كان (فورباس) ابن (تريوپاس) ملك أرغوس قد انقذ الروديين مما لا يحصى من الافاعي التي عاثت في جزيرتهم ومن تنّين هائل على الأخصّ، كان قد ازدرد عدداً كبيراً من الناس. ولذلك اعتبر مقرباً من [ابوللو] الذي قتل (البيثون). وقد وضع مع البيثون في السماء بعد موته في برج الثعبان. كذلك هياسنثوس ابن اميكلاس باني مدينة اميلكي القريبة من سپارطا فقد كان محبوباً من ابوللو و[زفيروس] فقتله الأخير في نوبة من الغيرة. وعندها تحوّل الى زهرة الهياسنثا التي سميت باسمه. [پاوسنياس - لقيديمون ١٩:٣، أوڤيد المسوخ ١٠:١٠٥. اما (ادمتوس) فهو ابن (فيريس) ملك تيتاليا. تقول الاساطيران ابوللو حفظ له غنمه.

(١١) كان لـ(پان) منزلة عبادية خاصة عند پندار. ولذلك نجده يسكن بالقرب من هيكل (ريا) و(پان). ونظم تلك الاشعار التي غنتها عذارى ثيبه في عيد تلك الربّة. وقيل ان سَعُد بسماع صوت الاله نفسه وهو يتلو أحدى مقطوعاته الشعرية.

(١٢) قتل (ارخيلوخس) بيد الجندي كالكوندس أو أرخياس النخسوسي. أرغمته كاهنة الأولى على تأدية فريضة الكفّارة لقتله رجلاً مكرساً للميوزات. ولعنت نبوءه دلفي «الرجلَ الذي فتك به» لأنه «قتل خادم الميوزات». وامّا عن (هسيود) فقد كان ضحية شكٍ ظلوم والقي في نهر [دافنُس] فحمله التيار الى البحر ونقلته الدلافين الى ريُوم وهو لسان من خليج كورنث. فأمر الارخومينيون وهم من سكان بويوتيا الذي =

[ايسكولاپيوس Aeaculapius] لازم [سوفوكليس] طوال حياته وتبرك بالحديث معه وما زالته توجد عدة براهين على ذلك، منها أنه لما توفي، قامت آلهة أخرى بمراسيم جنازته(١٣).
وإن نحن أقمنا أيّ وزنٍ لهذه الوقائع، فلماذا نعد من قبيل السخف والتخريف - القول بأن روحاً مماثلة من ارواح الآلهة كانت تعمد الى ملازمة [زاليوكس Zaleucus] و[مينوس]، و[زرادشت Zoroaster](١٤)، و[ليكورغوس]، و[نوما]، أولئك الذين وضعوا دساتير الممالك، واشترعوا انظمة الجمهوريات؟ بل ومن المعقول أن نعتقد أن الآلهة بدافع من أغراضٍ سامية، تمدّيد المساعدة لهؤلاء الرجال، فتوحي اليهم بالرأي الصواب في اثناء التشاور وتبادل الآراء بالأمور الهامة، كما تزور الشعراء والموسيقين، ان لم يكن دائماً ففي أوقات ابداعهم...
وأختلاف الآراء في هذا الموضوع كبير و«الطريق فيه لاحبة» كما يقول [باخيليدس Baechy-lides](١٥)، وليس ثم أي سخفٍ في التعليل الذي روي أيضاً عن [ليكورغوس ونوما] وغيرهم من مشاهير المشترعين وعظمائهم فقد زعموا هم أنفسهم أنهم مزودون بسلطانٍ من الآلهة، لأن مهمتهم كانت ازالة الشرّ وسياسة الجماهير الصعبة القياد، وفرض انظمة وقوانين جديدة على مجتمعاتهم... حتى لو كان ادعاؤهم هذا كاذباً، فهو بالتأكيد مفيدٌ لصالح أولئك الذين فرضت الاصلاحات عليهم فرضاً. ولأجل ان تكمل الحكاية:

كان نوما في حدود الأربعين عندما أقبل الوفد يعرض المُلك عليه. وكان المتكلمان [پروكولوس] و[ڤيلسوس Velews] (وهما أول من رُشح للمُلك. فنشب الخلاف حول من يكون منهما وكان الرومان الأصائل يميلون الى[پروكولوس]، والسابين الى [ڤيلسوس]). فالقيا كلمة قصيرة جداً نيابة عن الوفد لاعتقاد ان عرض الملك لايستلزم الكثير من القول لاقناع المرشح ولكنهما وجدا - خلافاً لما حسباه - بأن عليهما أن يتوسلا بمختلف وسائل

= فتك بهم الطاعون فتكاً ذريعاً، أمروا بنبوءةٍ ان يرفعوا رفاته وينقلوها الى بلادهم وقد جاء في النبوءة «العلاج الوحيد هو اعادة عظام هسيود من أرض ناوپاكتس الى ارض أرخومينس» وبعد ان نفذوا ما جاء في النبوءة، انقشعت غيمة الوباء عنهم.

(١٣) توفي سوفوكلس في اثينا اثناء ما كان ليساندر يشدّ الحصار عليها. وقيل ان [باخوس] أو [ديونيسوس] أمر القائد السپارطي في حلم «بان يسمح للنعّار الطائر الاثيني الجديد بان يدفن في (دليكيا) مقبرة اسلافه وبعد تكرار هذا الأمر لم ير ليساندر مندوحة من الرضوخ له [پاوسنياس ١:٢١] [پليني التاريخ الطبيعي ٧:٢٩].

(١٤) استن زاليكوس شرائعه للوكريين في بلاد الاغريق الكبرى زاعماً ان (مينرڤا) هي التي أوحت له بها. واما زرادشت فهو النبي المجوسي (تذكره المآثر اليونانية بانه ملك باختيريا) الذي استنّ الشرعة التي عرفت باسمه. ومينوس الملك هو مستن الشرائع الكريتية.

(١٥) اشاد هذا الشاعر بفوز هيرو كينذار في الالعاب الاغريقية وانه برّ منافسه العظيم أحياناً. وكان الامبراطور يوليان من أشدّ المعجبين به وكثيراً ما تمثل باشعاره.

الإقناع والمنطق مع شخص عاش في هدؤ ودعةٍ - ليقبل بحكم مدينةٍ بنيت وتأسست وتوسعت بالحرب، فأجاب [نوما] بحضور ابيه وقريبه [مارشيوس Marcius] بما يلي: «كل تبدّل في حياة المرء، خطر عليه، وان الجنون وحده يستطيع أن يحمل شخصاً لايحتاج الى شيء، قانع بكلّ ما هو حوله، على ترك الحياة التي اعتقادهما، فمهما كانت نقائض تلك الحياة فلها على أية حالٍ افضلية الحقيقة الواقعة ومزيّاتها على حياة مجهولة، يحفّ بها الشكّ. وان كانت مصاعب هذا الحكم في الواقع لا يمكن ان تنعت بالمجهوليّة. فرومولوس الذي كان أول الحكام لم ينج من الشكوك، والتخرصات في أنه تآمر على حياة شريكه [طاطيوس] ولم يخلص مجلس الشيوخ من مثل هذه التهمة في أنه قتل رومولوس غدراً. على أن رومولوس امتاز بالفكرة العامة السائدة عنه وهو أنه ولد من الآلهة، وعاش بمعجزة. في حين ان ولادتي كانت طبيعية وقد ربّاني وانشأني أناسٌ معروفون لديكم. وإن الصفات الموجودة في طبعي وشخصيتي هي أفضل دلالة على عدم صلاحي للملك. - حبّ الوحدة، والدراسات التي لا علاقة لها بشؤون الحياة المادية، ميل فيّ الى السلام والهدؤ تمكّن في فلا اطيق التخليّ عنه، انشغالي في اعمال لا تمت الى الحرب والعنف؛ اندماجي باناسٍ لا يلتقون إلاّ في العبادة وفي صلات رقيقة متعاطفة، قضوا حياتهم كلها في حقولهم ومزارعهم وأظنني سأكون مبعث سخرية عامة إذا طغتُ حاثاً على عبادة الآلهة، مبشراً وخطيباً في التمسك بالعدالة، وكره العنف والحرب في مدينة هي أحوج الى قائد جيش منه الى ملك.

وبإدراك الرومان من كلامه هذا أنه يرفض قبول المنصب الملكي زاد الحاحهم واصرارهم قائلين: لايجدر به أن يتركهم ويخيب رجاءهم في هذا المطلب، وبذلك يضطرهم الى العودة بلا شكّ الى الاختلاف والنزاع فيما بينهم، اذ لا يوجد شخص غيره، يكون موضع قبول الفريقين المتناحرين. وأخيراً انتحى به ابوه ومارشيوس جانباً واقنعوه بقبول هبة كريمة ومنحة كانت السماء مصدرها أكثر مما كان من البشر وقالا: «مع أنك عازف عن الغنى، راضٍ بما لديك، لاتبحث وراء شهرة السلطان بعد أن نلت شهرة الفضيلة التي هي أثمن من الأولى. إلاّ انه يجب أن تعدّ الحكم خدمةً الهيّة. فالله الآن شاء أن يفيد من اعمال فضائلك وحكمتك وعدالتك. وهي سجايا لن يُقدر لها أن تبقى عاطلة مهملة. فأرجع عن اصرارك على ورفضك هذا لمنصبٍ هو لحكماء الرّجال ميدان لممارسة الاعمال الشريفة العظيمة، ولعبادة الالهة عبادة لائقة ممتازة، وبثّ العادات الصالحة الخيّرة التي لاتستطيع نشرها بين الناس الاّ السلطة. كان [طاطيوس] محبوباً وان كان اجنبياً، وذكرى رومولوس اضفت عليها الآلهة مختلف النعم والبركات، ومن يدري؟ لعل هذا الشعب المنتصر ابداً قد اتعبته الحرب وقنع بالأسلاب والغنائم التي غنمها، قد يكون

راغبـاً أكثـر من اي شيء آخر بملك مسـالم وادعٍ محـبٍّ للعدل، يـقـود خطاهم الى الاستـقـرار والسلام؟ واذا كانت عواطفهم تنزع الى الحرب بما لا قبل بدفعه، أفليس من الأفضل أن تكون الأعنّة بيدٍ معتدلة قـادرة على تحويل شـدة الحرب الى مسلك آخر وان مـدينتك وكل شـعب السابين سيجعلان منك رابطة صداقة ودليل حسن نيّة لهذه السلطة الفتيّة المتنامية؟

ورافق هذا الإقناع والالحاح عددٌ من العـلامـات الالهيـة السعيدة، على مـا قـيل. كذلك حماسة بني جلدته الذين بعد ان فهموا مضمون الرسالة التي حملها اليه الوفد الروماني، رجوه أن يرافقهم ويقبل بالملك كعامل من عوامل الوحدة والأئتلاف بين الشعبين.

فرضخ [نوما] لهذا الالحاح، ورحل الى روما بعد أن انجز تقديم قربانه للآلهـة. وأستقبله في الطريق الشيـوخ والعامة الذين خرجوا للترحيب به برغبة لا تكبح. واستقبلته النسـاء ايضاً بهتاف الفرح وقدمت القرابين عنه في كل المعابد وكان الفرح عـامـاً حتى لكأنهم يستـقبلون مملكة حديدة لا ملكاً جديداً. وعلى هذه الصورة أرتقى درج [الفورم] حيث كان [سپوريوس ڤيتيوس Spurius Vettius] في تلك الساعة الملك الوقتي؛ فقام هذا بأخذ الاصوات، وأعلن [نوما] ملكاً، وجيء اليه بشارات واوشحة السلطة. ولكنه أبى أن يتقلدها قبل أن يستشير الآلهة ويحظى بموافقتها ورضاها. فأخذه الكهنة والعرّافون [Ougur][*] الى الكاپيتول وكان الرومان في ذلك العهد يسمونه (التلّ التاربيّ]. ثم قام رئيس العرّافين بتغطية رأسه[١٦] وتحويل اتجاهه الى الجنوب ووقف خلفه باسطاً ذراعه اليمنى على رأسه وأخذ يصليّ وهو يدير له رإسه الى كل الجهات توقعاً لإشارة خيرٍ من الآلهة. وكان المنظر عجيباً رائعاً، والصمت والخشوع يهيمنان على الجموع المحتشدة في الفورم. وهم في عين التوتر والتوّقع. حتى ظهرت الطيور السانحة ومرت من جهة اليمين. وعندئذ اتشح [نوما] بالرداء الملكي وانحدر من التلّ الى الجماهير، فقابلته بالتهاني وبالهتاف، والصراخ، وحيته ملكاً مقدساً، ذا حظوة عند الآلهة. وأول ما فعله عند توليه الحكم، انه حَلّ كتيبة الرجال الثلاثمائة الذين كانوا حرس رومولوس الشخصّي وقد عرفوا باسم [كيليرس][١٧]، قائلاً إنه لن يظنّ سوءً في أولئك الذين

(*) موظف ديني روماني واجبه ينحصر في التنبوء بالحوادث المقبّلة بدلائل من حركات الطير، أو من حالة احشاء الذبائح، أو من الظواهر السماوية. وربما كان الاسم تركيباً مزجياً من الكلمتين الرومانيتين [Ovis = طير] و[Gar = كلام] (م.ت).

(١٦) هذا هو النص الحرفي الذي اورده المؤلف. لكن يظهر من [ليڤي ١:٨] ان العراف لم يغطّ وجه [نوما] بل غطّى وجهـهُ Augar ad laevam yejus capite velato sedem cepit. وهذا هو الوقع لأن العراف يلفّ دوماً برداء خاص يدعى Laena عند قيامه بالعرافة.

(١٧) يقول [ديون الهاليكارناسوسي ٢:١٦] ان [نوما] لم يحدث اي تغيير في الأجهزة التي أوجدها رومولوس. لذلك ومع انه لم يستخدم الچليرس بمثابة حراس لكنه ابقاهم باعتبارهم من صغار الكهنة وواجبهم =

وضعوا ثقتهم فيه، ولا يحكم شعباً ليس له ثقة به. وثاني ما فعله انه اضاف الى كاهني جوبتر ومارس، كاهناً ثالثاً، تكريماً لرومولوس وأطلق عليه اسم [فلامين كويرينالس Flamen Quirinalis][١٨]. كان الرومان القدماء يسمون كهنتهم [فلامينس Flamines] بتصحيفهم كلمة [بيلامينس Pilamines] اليونانية من كلمة [Pileus بيليوس] وهي القبعة او القلنسوة التي كانوا يلبسونها. وفي تلك الأيام كانت الألفاظ اليونانية أكثر امتزاجاً باللغة اللاتينية من الوقت الحاضر[١٩]. ويجرى مجرى هذا أيضاً «الرداء الملكي» الذي يُسمى [لينا Laena] [فجوبا] يقول أنه [خلينا Chlaena] وهي الكلمة اليونانية المطابقة له. وان اسم [كاميللوس Camillus][٢٠] الذي يطلق على الصبي الخادم في معبد جوبتر حين يكون ابواه على قيد الحياة، فهو مأخوذ من الإسم الذي يطلقه بعض الاغريق على مارس مشيرين الى وظيفته وهي قيامه بخدمة الآلهة الباقين.

وعندما فاز [نوما] بمودة وحبّ الشعب، بهذه الاجراءات، باشر حالاً بهمّة تحويل الطبائع الرومانية الصلبة الحديدية الى طبائع تمتاز بالرقة والوداعة، وليس أدق من وصف افلاطون بـ«المدينة التي تجتاحها حُمّى محرقة» - لروما في ذلك الحين. فقد انشأتها بالأصل نفوس ما عرفت إلاّ الجراءة والاقدام سبيلاً وعجمت عودها المخاطر والمواقف الصعبة وجاءت بهم اليها صروف الدهر من كل فجّ عميق، وهكذا لم تر الوجود إلاّ بالحروب الدائمية مع جيرانها كانت، والغزوات سبيلاً لبقائها ونموّها والتعرض للأخطار مصدراً لكلّ قوة جديدة لها مثل اوتاد اثبتها في الأرض إلاّ ضربات المطارق لأجل أن يحقق [نوما] غرضه العسير - تحويل طباع هذا الشعب العنيدة الاعتدائية الى طباع هادئة مسالمة رقيقة، بدأ بمهمته عن طريق الدين. فأكثر من تقديم القرابين والمواكب والرقص الدينيّ وكان يترأس معظمها بشخصه. محاولاً بهذه المظاهر الدينية التي تمازجها صنوف من الملاهي ووسائل التسلية الانسانية الرقيقة، التغلّب على امزجتهم القتالية العنيفة والتخفيف منها. وكان يملأ بين الفينة والفينة أيضاً اذهانهم بالمخاوف الدينية، مدعياً ظهور اشباح غريبة، وسماع اصوات مرعبة. ليخضع عقولهم

= الاهتمام بالقرابين والعمل تحت اشراف التريبونات ضباطهم القدماء.

(١٨) وعلى هذا الأساس يكون Flamin Martialis كاهن مارس و Flamin Dialis كاهن جوبتر وعلى هذا فقس.

(١٩) مؤلفة أصلاً وبشكل رئيس من الأغريقي الايولي القديم. وان كان الزمن والصيانة والتحسين المتدرج قد اكسبها المظهر الأخير المختلف جداً.

(٢٠) كاميلوس مشتقة من كلمة (كادميلوس) البويوثية ومعناها في الغالب (خادم) في هيكل في العادة يوجد شاب حسن الخلق وظيفته خدمة الكاهن. من الضروري ان يكون ابواه على قيد الحياة ولذلك استخدم بلوتارخ الكلمة التي تقابل باللاتينية لفظي Matrium e, Patrium اي الأبوة والأمومة.

ويذلّها، بمشاعر الخوف من خوراق الطبيعة.

هذه الطريقة التي استخدمها [نوما] أدت الى الاعتقاد بأنه على صلة كبيرة [بفيثاغورس]، ففي فلسفة الأخير منهما وفي سياسة الأول. تحتلّ علاقات الإنسان بالالهة منزلة عظيمة وقيل أيضاً أن هيبة وجلال مظهره وثيابه إنما استمدها من شعوره الشبيه بشعور فيثاغورس. اذ روي عن هذا، انه درّب نسراً على الهبوط اليه كلما ناداه، أو الميل نحوه اثناء طيرانه. وانه كان في اثناء مروره بين الناس المجتمعين لمشاهدة الالعاب الأولمبية، يريهم فخذه الذهبيّة الى جانب معجزات وغرائب أخرى كان يقوم بها. مما دعا [تيمون الفيلاسي Phila-sian][٢١] الى كتابة البيت التالي: «إنه ذلك الذي كان معتزاً بمجد المشعبذ بكلامه المهيب الذي يلقيه الى سمع الجمهور»

وعلى هذه الشاكلة تحدث [نوما] عن ربّة معينة، أو حورية من حوريات الجبل تعلقت بحبّه، وراحت تقابله سراً كما سبق لنا ذكره، كما اذاع أنه كان كثير اللقاء بالميوزات ومحادثتهن وعزا الى تعاليمهن معظم الوحي الذي نزل عليه. ومن بينهن واحدة اوصى الرومان بإكرامها بنوعٍ خاص وهي [تاچيتا Tacita] اي الصامتة، وربما فعل ذلك تقليداً وتكريماً للصمت الفيثاغوري. ورأيه في الصور يوافق جداً مبدأ فيثاغورس. الذي يعتبر أول مبدأ للكينونة شعوراً وعاطفة تسمو على الحسّ البشري، ولا يمكن الوصول اليها إلاّ بالتفكير المطلق التجريدي. ولذلك منع [نوما] الرومان ان يمثلوا الآلهة بهيئة انسان أو حيوان. وانك لاتجد اي صورة مرسومة أو منحوتة لربّ من الأرباب لفترة طولها مائة وسبعين عاماً فقد بقيت هياكلهم ومعابدهم خالية من الصور والتماثيل. وشاع الاعتقاد بينهم أن هذه الأشياء الوضيعة، أرذل من أن تشبه أرفع الكائنات واسماها. والوصول الى الاله مستحيل إلاّ بالذهن الطاهر النقيّ. وقرابينه تشبه بتفاصيلها قرابين فيثاغورس شبهاً كبيراً، فالدم لايسفك فيها، بل يكتفى بتقديم الازهار والخمر وما اليها من أرخص التقدمات وهناك براهين واضحة أخرى تثبت ارتباط [نوما] بفيثاغورس هذا وان الكاتب الفكه القديم [ايبخارموس Epicharmus] وهو من المدرسة الفيثاغورية ذكر في كتاب له مهدى الى [آنتينور Antenor] أنّ فيثاغورس جُعل مواطناً حراً من مواطني رومه، وسمّى نوما أحد اولاده الأربعة[٢٢] [ماميركوس Mamer-

(٢١) كاتب سِلّي Silli وهو نوع من الهجاء، سمي كذلك نسبة سيلاموس الذي كان يشتد في نقده للفلاسفة بسبب تمسّكهم بالمبادئ.

(٢٢) على سبيل اكرام الكتّاب بعضَ الأسر الرومانية عمدوا الى ربط نسبها بنسب (نوما) وعزوا اليه اربعة اولاد. لكن المعروف عموماً انه لم يخلّف غير ابنة واحدة اسمها [پومپيليا] واسرة [إميلي] هي واحدة =

cus] وهو اسم أحد اولاد فيثاغورس. ومنه جاءت (كما قالوا) الأسرة الپاتريشية العريقة [اميللي Aemilli]، اذ أن اباه الملك لقبه على سبيل المزاح [اميليوس Aemilius] لأسلوبه اللطيف الطليّ في الحديث، وسمعتُ اثناء وجودي في روما، انه عندما نزلت نبوءة تأمر باقامة تمثالين[٢٣] أحدهما لأعظم الناس حكمة بين الاغريق وثانيهما لأعظمهم بسالةً، أقاموا تمثالين من النحاس أحدهم [لالسكيبيازيس]، والآخر [لفيثاغوراس]. ومهما يكن من أمرٍ فلنتحول عن هذه الأمور التي يكتنفها الكثير من الأوهام، فضلاً عن كونها من قلة الأهمية بحيث لا تستحق صرف وقت أكثر من هذا. والى نوما يعزى انشاء رتبة الكنهة المعروفين باسم [بونطيفچيس Pontifices][٢٤]. وقيل أنه كان أولهم. وأنّ الكلمة مشتقة من [پوطنس Po-tens] أي «ذا القوة» لأنهم يقومون بخدمة الآلهة ذوي الحول والسلطان على الجميع. ويزعم آخرون ان الكلمة تشير الى «استثناءات من قضايا مستحيلة» فالكهنة عليهم أن يقوموا بكلّ الواجبات الممكنة. فان وجد أمر يفوق طاقتهم وحدود إمكاناتهم فينبغي الاّ يثار أحتجاج على قصورهم فيه. وأكثر الاراء شيوعاً هن أصل الكلمة هي أكثرها سخافةً[٢٥] يشتقون الكلمة من [پونس Pons] و[الجسر باللاتينية هو Pontem] وتمنح الكهنة لقب بناة الجسور»! القدماء، وحراسة الجسر وترميمه مناط بالكهنة كأي واحدةٍ من الوظائف العامة المقدسة أخرى الذي يرونه اقدس وأقدم المراسيم الدينية. هؤلاء الكهنة أيضاً يقال أنهم خولوا العناية بالجسور بوصفه اهم عملٍ في وظيفتهم الكهنوتية. وعُدّ هدم الجسر الخشبي[٢٦]، وكسره من قبيل

= من أشهر الأسر الرومانية يتفرع منها فروع الپاولي Pauli والپاپي Papi. وكلمة اميليوس بالاغريقية تعني الرقيق أو الجميل.

(٢٣) بحسب رأي پليني (تاريخ الطبيعة ٥:٣٤) انه كان اثناء حربهم مع السانيين (٣٢٩-٣٣٤ ق.م) حين أمر ابوللو البيثي الرومان باقامة التمثالين فتم نصبهما في الكوميسيوم وبقيا ثم حتى دكتاتورية سيللاً ٧٨-١٣٨ ق.م ولعل الأمر الذي ورد في النبوءة كان يشير على الرومان بأن يتزودا بحكمة الأغريق ويتحلوا بشجاعتهم إن اردوا النص.

(٢٤) نصب [نوما] أربعة وكلهم من الپاترشيين. ولكن اضيف اليهم في العام ٤٥٣ أو ٤٥٤ ق.م اربعة من الپليبيين. وفي عهد (سيللا) بلغ عددهم خمسة عشر. والملك نفسه يؤكد هنا انه كان يترأسهم، أو ما يدعى بالكاهن الأعظم على ان [ليـڤي ٢٠:١] يعزو ذاك الشرف الى شخص آخر بنفس الأسم هو [نوما مارشيوس] ابن احد الشيوخ. وربما كان پلوتارخ قد التبس عليه الأسم. ومن المحتمل جداً ان [نوما] احتفظ لنفسه بهذا المنصب لشدة تدينه. فالملوك في العالم القديم كانوا يسيرون على هذا الخط. وقد حذا حذوهم اباطرة الرومان في فترة متأخرة كما سنرى.

(٢٥) ومع هذا فان [ڤارو الأول منهما على الأخص بان پونس سوبليشيوس بنيت اولاً ثم جرت عليها ترميمات عديدة تحت اشرافهم. ان هذا العمل الشعبي الممتاز كان يُستبق دائماً بتقديم الذبائح والدعوات لربّ النهر وقد نقل هذا الواجب من اختصاص الكهنة الى (الكستور) في عهد اغسطس قيصر.

(٢٦) ما زال موجوداً ينظر اليه باحترام ومهابة وهو يربط يانيكولوم بالمدينة [انظر ديون ١٤:٣] كذلك الكتاب المتأخرون حول روما الحديثة.

الكفر والاثم الديني لا مجرد جريمة ممنوعة قانوناً. وقيل فضلاً عن هذا أن بناءه كان من الخشب يشد اجزاءه مسامير خشبية لا مسامير أو عضادات حديدية، اطاعةً لنبوءة[٢٧]. ولم يبن الجسر الحجريّ إلا بعد زمن متأخر جداً، عندما كان [اميلوس] أميناً للخزانة العامة Quaes-tor[*]. وقالوا أيضاً أن الجسر الخشبي لم يسبق عصر [نوما] وانّما أكمل بناءه [انكوس مارشيوس Ancus Marcius] لمّا ملكَ، وهو حفيد [لنوما] من بنته.

إن وظيفة [پونطفيكس ماكسيموس] أو الكاهن الأعلى، أستحدثت لأجل تفسير الشريعة الالهية أو بالأحرى للهيمنة على الفرائض المقدسة وليست وظيفتها قاصرة على مراقبة قواعد الاحتفالات الدينية العامة بل على تنظيم تقديم قرابين الأفراد ومراقبتها لئلا تخرج عن العرف الجاري وتقديم المعلومات لكل شخص، عما هو مفروض في العبادات والصلاة وكذلك يكون الكاهن وصياً حارساً على عذارى ڤستا. ويُعزى الى [نوما] انشاء وظيفتهن[٢٨] هذه الى جانب استحداث النار الخالدة التي يرعينها. ولعلّه تصور انه من المناسب جداً أن يعهد بالنار الطاهرة غير النجسة الى اشخاص ذوي عفة وطهارة. أو ان النار التي تضطرم ولاتنتج شيئاً حتى تخمد، فيها وجه شبه بحياة العذراء[٢٩] وفي بلاد اليونان، يعهد بأمر النار المقدسة الخالدة اينما وجدت -كما في دلفي وآثينا- لا الى العذارى بل الى الأرامل اللاتي فات أوان زواجهن. وقد يحدث بمحض الصدفة أن تنطفيء هذه النار كما أنطفأ المصباح المقدس في اثينا على عهد طغيان [ارسطيون Aristion][٣٠]، وفي دلفي عندما أحرق الميديون المعبد[٣١]، وكذلك في أيام الحروب الاهلية الرومانية[٣٢] والحروب الميثريداتية Mithridatie حيث هدم

(٢٧) اسلوب البناء هذا يعزوه پليني (١٥:٣٥) لا الى النبوءة بل للصعوبة التي جابهت الرومان عند كسره (وكان موصولاً بخطافات حديدية) في حروبهم ضدّ (پورسيّنا).

(*) سنة ١٧٩ قدم مسألة معرفة نوما بفيثاغورس مسألة يكتنفها الغموض كانت موضع أخذ وردطويلين وهي اشبه بجدال الاطفال.

(٢٨) بالأحرى بناء معبد ڤستا لأن [رياسلڤيا] والدة رومولوس كانت ڤستا له ألبا.

(٢٩) هناك تناقض بين هذه العبارة والعبارة التي اوردها المؤلف بالذات في سيرة كاميللوس فلتراجع.

(٣٠) بقي ارسطيون (٨٦-٨٨ ق.م) صامداً مدة طويلة لحصار (سيللا) مدينة آثينا وكان قد استولى عليها اثناء حروب (ميثريدات) وكان ارسطيون هذا قد ارتكب أعمالاً شنيعة عديدة بحق المدينة. كما كان السبب في القاء الحصار عليها ونهبها بالأخير. كانت النار المقدسة تحفظ في معبد مينرڤا.

(٣١) في عهد كيخسرو الفارسي.

(٣٢) يحدثنا پليني (الملحق ٦:٨٦) ان ما حدث والحرب الاهلية بين ماريوس وسيللا تكاد تشرف على نهايتها - هو ان (ميوتيوس سكيڤولا) الكاهن أغتيل عند مدخل معبد ڤستا. لكننا لم نجد النار المقدسة مطفأة. الاّ ان (لوكان) يقول انه سقط بالقرب من المعبد وان دماءه كادت تطفئ النار المقدّسة. بل عندما احرق هذا المعبد عند نهاية الحرب اليونية ٥١٢ ق.م. فإن الكاهن چيچليوس متللوس اندفع خلال النيران وانقذ الپلاديوم وغيره من المقدسات وقد دفع بصره ثمناً لذلك. كذلك أحترق الهيكل مرة أخرى عند نهاية حكم =

الهيكل أيضاً، في هذه الحالة كان يعد من قبيل الإثم والنجاسة أن توقد هذه النار ثانيةً من لهيب اية نارٍ اعتياديّة، أو شرارة رمادٍ أو من اي شيء آخر إلاّ أشعة الشمس النقية غير النجسة. ويتم ذلك عادة بالعدسات اللامة[٣٣] وهو جسم يتألف من منشور مستطيل مثلث كلّ خطوطه من أسطحه تلتقي في مركزٍ واحد ويكون دائم الدوران فبتعريضه الى الشمس يتمكنون من جمع أشعة الشمس فيه وتركيزها كلها في نقطة التقاء تلك (البؤرة) فيغدو الهواء ساخناً وتلتهب كل مادة خفيفة جافة قابلة للاشتعال حالما تُقرب من الأشعة التي تتطلب المادة والقوة الفاعلة للنار، ويرى بعضهم أن وظيفة هالة الڤستالات هي حفظ النار ليس غير، إلاّ أن آخرين يقولون انهم يحافظن على اسرار مقدسة أخرى[٣٤] كتمت عن الجميع. وقد آتينا في سيرة كاميللوس الى ذكر كلّ ما تصحّ روايته، أو السؤال عنه من تلك الاسرار.

وقد ذكر ان [جيغانيا Gegania] و[ڤيرينيا Verenia] كانتا أول كاهنتين رسمها [نوما] لوظيفة الڤستالات. ثم اعقبهما [بكانيوليا Canuleia] و[تارپيا] ثم أضاف [سرڤيوس Serviaus] اثنتين، وظلّ العدد أربعة حتى يومنا هذا...

إن النظام الذي استنّه [نوما] للڤستالات هو كما يلي: يجب ان ينذرن عذريتهن لمدة ثلاثين عاماً. يقضين العشرة الأولى منها في تعلم واجباتهنّ، والعشرة الثانية في مزاولتها، والعشرة الباقية في تعليمها للاخريات وتدريبهن عليها. وبعد أن تنتهي المدة، يكنّ حُرات في أن يتزوجن. ولكن يقال أن قليلات منهن إخترن مزاولة هذا الامتياز وقد لوحظ أن حياتهن الجديدة بعد تقاعدهن عن وظيفتهن، لم تتميز بالسعادة، وانما وافقها الأسف والندم والكآبة ولذلك تجد القسم الأكبر يؤثرن البقاء والاستمرار حتى أرذل العمر والموت محافظات بأشدّ ما يمكن على حياة العزوبة بدافع من الخوف الدينيّ، وضغط الضّمير.

وبمقابل تلك الصرامة عوّضن بامتيازات وسلطات كبيرة. فلهنّ أن يوصين في حياة آبائهم، ولهنّ حق ادارة شؤونهم بدون وصيّ أو قيّم. وهذا امتيازٌ لا يمنح الاّ لمرأة متزوجة أم أولاد ثلاثة. واذا خرجن لشأن، سار امامهن حملة الفاچي[٣٥]، واذا لقين في سيرهن مجرماً يساق

= (كومّودوس) ولعل پلوتارخ كان يخلط هنا بينه وبين الكاپتول.

(٣٣) العدسات الحارقة التي تجمع الأشعة في البؤرة، هي من مخترعات أرخميدس الذي عاش بعد (نوما) بخمسة قرون.

(٣٤) كتلك التي تتعلق بـ(الپلاّديوم) والتماثيل وغيرها لآلهة ساموثراكي [انظر ديون ٢:١٧].

(٣٥) حزمة العصي في وسطها فأس، يحملها [اللكتور] امام الحكام الكبار الرومانيين اشارة الى السلطة. وهي من كلمة [Fascis] اللاتينية ومعناها [حزمة] ومنها جاء اسم الحزب الفاشي (الفاچي) الذي اسسه [موسوليني] في أيطاليا الحرب العامة الأولى، ولم يخصهّم [نوما] وحده بهذا الامتياز بل حباهم به =

الى حتفه امكنهن انقاذ حياته بعد أن يُقسمن(٣٦) بان اللقاء كان بمحض الصدفة وليس مُدبّراً. وإذا احتك أحد بالكرسي الذي يحملن عليه يحكم بالموت، وإن أقترفت أحداهن خطأً بسيطاً عاقبها الكاهن الأعظم وحده بجلدها بالسياط (عاريةً أحياناً) في مكان مظلم وبينهما ستار مسدل، ومن تفرط بنذرها تدفن حية(٣٧) قرب باب في المدينة اسمه [كوللينا Collina] حيث يقوم كثيب من التراب داخل المدينة ويمتد بعض مسافة، ويدعى باللاتينية (Agger)، فتبنى في جوفه غرفة صغيرة. ينزل المرء اليها بدرجات. ويهيئون في تلك الغرفة فراشاً ويشعلون مصباحاً ويتركون كمية زهيدة من الطعام تتكون من الخبز والماء واناء من الحليب. وشيء من الزيت. حتى لا يقال أن ذلك الجسم الذي كُرسّ ونُذر لأقدس خدمةٍ في الدين، قد هلك جوعاً(٣٨). وتوضع المذنبة في محفة، وتغطى تماماً وتربط بالحبال حتى لا تسمع الأذن شيئاً مما قد تقول، ثم ينقلونها الى الفورم، وينسحب كل المارة عن سبيلها صامتين اثناء مرور المحفة ويتبع النعش زميلاتها بألم صامتٍ كئيب ولعمري ليس ثم منظر أشدّ ايلاماً من هذا المنظر، ولا يوم مثل هذا اليوم تعيشه المدينة بأعظم الأسى والكآبة. وعندما يبلغ الموكب ساحة التنفيذ يَحّل الضباط الحبال ثم يرفع الكاهن الأعلى يديه الى السماء ويتمتم ببعض الأدعية المخصوصة قبل المباشرة. ثم يأتي بالمحكومة وهي مستورة ويضعها على الدرج المؤدي الى الحجرة ثم يدير رأسه جانباً مع الكهنة الباقي. ثم يرفع الدرج بعد أن تقذف الى اعماق الغرفة ثم يهال مقدار من التراب فوق الفتحة وتسوىّ حتى لا يمكن تمييزها عن باقي سطح الكثيب. ذلكم هو عقاب تانك اللاتي يكسرن نذر عفتهن.

وقيل أيضاً ان نوما بنى معبد فستا. ليكون مذخراً للنار المقدسة وهو على شكلٍ دائري، لايمثل هيئة الأرض كأنها مثل فستا تماماً. بل ليمثل عموم الكون. ففي الوسط يضع الفيثاغوريون عُنصر النار(٣٩) ويطلقون عليه اسم فستا والوحدة، ولم يكن من رأيهم أن

= ايضاً ثلاثي الحكم في ٧١٢ ق.م وأعطى اغسطس ما دعى بـ Juo trium libesorum بتشجيع المواطنين بعد الدمار الذي احدثته الحروب الأهلية.

(٣٦) لايجرؤ كاهن لـ(جوبتر) أو لـ(فستا) على تأدية قسم. فهو مصدّق بكلامه. ولو شاؤا فهم مختارون في تاكيد أقوالهم وتوثيقها باليمين لكن ان يندر ان طلب منهم ذلك. وان حلفوا فهم يحلفون بربّتهم فستا فحسب.

(٣٧) في البا يجلدن بالسياط بسبب ما يقترفن ولا أكثر [ديون ١٧:١]. الاّ ان [نوما] شددّ العقوبة الى حَدّ الرجم. أخيراً جعلها تاركوينوس پريسكوس الدفن حيّةً.

(٣٨) هناك أمر يجافي العقل والمنطق. اذ ما فائدة الطعام للفستاله المقبورة حية بعد انقطاع الهواء عنها بسدّ القبر؟ إو لعل ما قصده پلوتارخ من استخدامه كلمة ارزاق - هو بعض مواد القرابين؟

(٣٩) معروف جداً انها نظرية فيلولايوس وغيره من الفيثاغوريين الاّ ان ثيوغينس ليئريتوس يذكر لنا ان فيثاغوراس نفسه يرى الأرض هي المركز.

الأرض ثابتة أو أنها تقع في مركز دائرة الكون وانما هي مستمرة الدوران حول مجلس النار وليست في عداد العناصر الأولية. وهم في هذا يتفقون مع فكرة افلاطون الذي قال في أواخر حياته (على ما زعموا) بأن الأرض تحتلّ مركزاً ثانوياً وأن الفضاء المركزي المهيمن احتجزه جسم آخر أسمى من الأرض.

وهناك وظيفة أخرى للكهنة، هي أن يشرفوا يرشدوا الناس الى المراسيم المتبعة في مراسيم الجناز. وقد علمهم [نوما] أن لا ينظروا الى هذه الأعمال نظرة تقزز واشمئزاز، بل كواجبٍ محتم للأرباب السفليين الذين ينتقل الى ايديهم خير جزءٍ منّا، وكذلك أوجب عليهم ان يعبدوا الربّة [ليبيتينا Libitina] التي تشرف على كلّ مراسيم الدفن. وسواء أقصدوا بها [بروسپوينا Prospuina] أو [ڤينوس] (كما يرى معظم الرومان المطلعين)[٤٠]، فليس مما لايتسق منطقياً أن يُعزى بدء حياة امرءٍ ونهايتها الى مسعى ربّ واحدٍ.

وعين [نوما] أيضاً قواعد تتوخى تنظيم ايام الحداد، بموجب اوقات مخصوصة وبحسب الأعمار. فمثلاً طفل في الثالثة من عمره لايقام له حداد مطلقاً فاذا زاد سنه عن هذا حتى العاشرة يكون الحداد عليه شهراً لكلّ سنة زيادة في عمره. ومهما بلغ سنّ الميت فيجب الاّ يزيد أقصى فترة للحداد عن عشرة أشهر. وهو الزمن المعين للنسوة اللاتي مات عنهن ازواجهن لمواصلة حياة ترملهن حتى تنقضي المدة. وان تزوجت الأرمل قبل انقضاء هذه العدّة، فعليها بمقتضى شريعة [نوما] أن تضحّي ببقرة مع عجل[٤١].

وأحدث [نوما] أيضاً اصنافاً أخرى من مراتب الكهنوت، وسأتكلم الان عن اثنين منها. هما

---

(٤٠) ان [ڤينوس ليبيتينا] هذه هي [بروسپرينه] بعينها. وقد اطلق عليها في دلفي اسم [ڤينوس ابيتوفقيا] وپلوتو هو رئيس آلهة الظلام السفلي كما ان لديهم ايضاً (عطاردهم).

(٤١) قربان غير طبيعي كهذا، يقصد به ردع الارامل عن الزواج ثانية قبل ختام عدة الحداد. ان السنّة التي اشترعها [روملوس] تمتد عشرة أشهر لا أكثر. وعندما اضاف (نوما) شهرين آخرين فيما بعد، لم يغير من الفترة المقررة سابقاً للحداد. ولذلك فنحن كثيراً ما نجد ما يسمى بسنة الحداد Lutus Annus بعد الزمن المحدد. وهي في الواقع سنة (روملوس) ان لون ثياب الحداد المعتاد الذي يستخدمه الجنسان اظهاراً لحزنهم هو الأسود الصرف دون ان يخالطه لون آخر. لكن الموضة التي سادت البلاد بعد قيام الامبراطورية شملت الواناً عديدة من الثياب. وصار الأبيض الساذج المحلي مبتذلاً الى الحدّ الذي صار النسوة تستخدمه لثياب الحداد [پلوتارخ: مسائل رومانية] والملاحظ في يومنا هذا ان الابيض هو لون الحداد عند الصينيين.

هناك أحوال وأحداث توجب انهاء فترة الحداد العام أو وقف الحداد الخاصّ قبل انصرام الفترة التي عينها العُرف كتدشين هيكل، او الاحتفال بالعاب عامة، أو أعياد، أو التطهّر الذي يقوم به الچنسور)، أو حلّ قسم قاض أو جنرال. وتنزع ثياب الحداد أيضاً عند عودة أب أو أخ أو ابن من الأسر أو عندما تسند وظيفة الى احد افراد الأسرة، أو يُرقى.

[السالي Salii](٤٢) و[الفشياليس Feciales](٤٣) مقدماً بهما اسطع برهانٍ على تقاه وقداسته. هؤلاء [الفشيال] أو القيّمون على السلام، يبدو أن أسمهم مشتق من طبيعة وطيفتهم، وهي وضع حَدّ للخلافات بالنصح ومجالس الصلح، اذ لا يسمح باللجوء الى السلاح إلاّ بعد أن يعلنوا هم أن كلّ أمل في التفاهم قد زال. ونحن أيضاً نطلق باليونانية كلمة سلام عندما تُحلّ الخصومات بالكلام لا بالقوة. يرسل الرومان عادة [الفسيال] أو السعاة الى أولئك الذين اعتدوا عليهم أو أضروا بهم بطلب الانتصاف والتراضي، فاذا رفض هؤلاء. دعوا الآلهة ليشهدوا فعلهم ونادوا بالويل لهم ولبلادهم إم كانوا الظالمين، ثم أعلنوا الحرب عليهم. ولا يجوز للجندي ولا للملك أن يلجأ الى السّلاح ضدّ رغبة هؤلاء الكهنة أو دون موافقتهم. والحرب تبدأ باشارة منهم فان ابلغوا القائد بأن الحرب التي سيشنها هي حربٌ عادلة فتكون مهمته تقرير كيفيتها ووضع خططها.

ويعتقد أن المذبحة التي أوقعها الغاليون بالرومان والدمار الذي انزلوه ببلادهم كان عقاباً للمدينة لإهمالها هذه الإجراءات الدينية. فعندما غزا هؤلاء البرابرة [الكلوينيين Cluinians]. أوفد [فابيوس امبوستوس Ambustus] الى معسكرهم للتفاوض في صلح مع المحاصرين فكان جوابهم خشناً فظاً، فتصور فابيوس أن مهمته كسفير أنتهت والتحم معهم بمعركة منحازاً الى صفّ الكوسينيين، متحدياً أشجع محارب من العدو لمبارزته في نزال ثنائيّ. وحالفه الحظ فقتل حضمه وأخذ سلاحهُ غنيمة. ولما عرف الغاليون بما حصل بعثوا الى رومه برسول يشكون أمره، لأنه نقض قانون الحرب الدولي واخّل بالسلام قبل أن تشهر الحرب. فنوقش الموضوع في مجلس الشيوخ وكان من رأي [الفيسيال] أن يُسلّم [فابيوس] الى أيدي الغاليين. ولسبق انذاره بالقرار، فرّ الى عامة الشعب ونجا من العقوبة بحمايتهم ووقوفهم الى جانبه. فما كان من الغاليين إلاّ وزحفوا بجيشهم على رومه، واستولوا على الكاپيتول ونهبوا المدينة؛ وإن تفاصيل هذه الحادثة مثبته في سيرة حياة [كاميللوس].

ومنشأ كهانة [سالي] هو كما يلي: في السنة الثامنة من حكم [نوما] ظهر وباء فظيع

---

(٤٢) السّالي هم حرس الأنجيليا، اي الدروع الاثني عشر المعلقة في هيكل مارس. لصق هذا الاسم بهم من عادة رقصهم عند الاحتفال بالعيد السنوي المقام تخليداً لذكرى الدرع العجائبي الذي ادعى [نوما] انه هبط عليه من السماء. ولا يزيد عدد هؤلاء الحرس عن اثني عشر يتمّ اختيارهم من الشباب الپاتريشي الذين يمتازون بالرشاقة وجمال القوام (ديون ٢:١٨).

(٤٣) ديون: يراهم من الاروميين (السكان الأصليين) ويقال ان [نوما] استعار هذا من اهل لاسيوم. اذ عين عشرين [فيبچيال] بعد اختيارهم من اعرق الأسر في روما ووضعهم في معهد خاص. وان ما يدعى پاتر پاتراتوس وهو الذي يعلن الحرب وينهيها ربما كان احد اعضاء هذه الجمعيّة يختار لهذه الغاية شريطه ان يكون ابوه وابنه في قيد الحياة[ليڤي ١:٢٤ و ٣٢] [ديون ٢:١٩] [چيلوس ١٦:١٤].

اجتاح ايطاليا كلّها وغزا رومه أيضاً وملكت الرهبة والكربة قلوب الناس. وقيل أن درقةً نحاسيّة سقطت من السماء بين يدي [نوما]. فأنهى الى الناس عنها الرواية التالية: إن [ايجيريا] و[الميوزات] أكدّن له بأن الدرقة هي هبة سماويّة لشفاء أهل المدينة وخلاصهم. ولأجل الأبقاء عليها أمرته الربات بأن يصنع أحدى عشرة درقة أخرى تماثل الاصلية في حجمها وشكلها بحيث لا يمكن لأي لصٍ أن يفرق بين الأصلي والمقلّد. كما أنه أعلن نيته في تكريس الموضع الذي يلتقي فيه مع [الميوزات] ووقفه عليهن مع الحقول المحيطة به، كذلك النبع الذي يروي تلك الحقول، جعله مقدساً ووقفاً على استعمال العذارى الفستالات. ليقمن بغسل وتنظيف قدس الأقداس في هيكلهن بتلك المياه المقدسة، وكانت سرعة زوال الطاعون برهاناً دامغاً على صواب اجراءاته هذه وعرض [نوما] الدرقة على ارباب الصنعة ورجا منهم ابداء مهاراتهم في عمل أشباه لها. ولم يفلح في ذلك أحدٌ، حتى توصل صانع ماهر اسمه (ماميوريوس ڤيتوريوس Mamurius Veturius] الى ما قصر عنه باع الآخرين وعمل نسخاً من الدرقة لم يستطع نوما نفسه أن يميز الأصيلة منها وعهد بحفظ هذه الدرقات الى كهنة مخصوصين يسمون [سالي] وهؤلاء لم يأخذوا اسمهم هذا من [ساليوس Salius] استاذ الرقص، كما يدعي بعضهم زاعماً أنه ولد في [ساموثراكه Samothrace] أو [مانتينيا Mantinea]. وكان يعلم الرقص بالسلاح. وإنما اشتق على أغلب الاحتمال من الرقص بالقفز وهو ما يزاوله [السالي] أنفسهم عندما يحملون الدرقات المقدسة في شهر آذار ويطوفون بها في انحاء المدينة. وهم في هذه المواكب يرتدون قمصاناً قصاراً من الارجوان ويتمنطقون باحزمة عريضة مكفتة بالنحاس ويضعون على رؤوسهم لامات نحاسية ويشهرون خناجر قصاراً.

ويقومون بين الفينة والفينة بتمثيل عملية التحام وطعان بالدرقات إلاّ أن المظهر الرئيس في الموكب هو الرقص. فيتمايلون ويتأودون برشاقة ويمثلون بسرعة ولمحات خاطفة بعض الحركات المعقدة بكثير من مظاهر القوة والخفة. ويطلق على الدرقات اسم [انكيليا Ancilia] لأنها ليست دائرية الشكل ولا كاملة الاستدارة كالدرقات الاعتيادية، وإنما مقرنصة متعرجة تثنى حوافها بعضها الى بعض نحو الداخل في أثخن المواضع منها.

وبهذا تكون ذات شكل مقوّس أو ما يُسمى بالاغريقية [انكيلون Ancylon] أو لعلّه جاء من كلمة [انكون Ancon] أي المرفق فبه تُعلّق، وهو ما يقوله [جوبا] الشديد الرغبة في ان يجعلها اغريقية الأصل. ومن المحتمل أنها جاءت من (Anecathen) اي النزول من فوق. لأنها هبطت من السماء، أو من [اكيسيس Akesis] لما لها من قابليّة الشفاء. أو من [أوخمون ليسيس Auchmon Lyusis] لأنها وضعت حداً للمحل والجفاف. أو من

[اناسخيسيس Anaschesis] أي الخلاص من النائبات. وهي اصل الإسم الآثيني [أناسيس Anaces] الذي منح [لكاستورو وللوكس] إذا كان علينا أنه نردها الى أصل أغريقي. وكانت مكافأة الصانع [ماموريوس] على مهارته أن أسمه بات يذكر بالثناء في القصائد التي يغنيها كهنة السالي وهم يرقصون بسلاحهم في شوارع المدينة على أن بعضهم يزعم أن السالي لايلفظون «ڤيتوريوم ماميوم Yeturium Mamwium» بل [فيتيرم ميموريام Veterem Ma-moriam] أي الذكر القديمة.

بعد أن أستحدث [نوما] هذه الرتب الكهنوتية المختلفة أقام بالقرب من معبد ڤستا، ما يسمى حتى يومنا هذا «ريجيا» أو بيت الملك. حيث كان يقضي جل أوقاته في التعبد وخدمة الأرباب، مرشداً الكهنة أو متحدثاً معهم في مواضيع دينية مقدسة. وكان لديه منزل آخر فوق جبل [كويرينا ليس] ما زالت آثاره باقية الى يومنا هذا. وكان المنادون يخرجون قبل أن يبدأ أي موكب ديني، أو صلاة، ينادون الناس بوجوب تركهم عمالهم والخلود الى الراحة. ويقولون ان الفيثاغوريين ما كانوا يسمحون للناس بأن يتعبدوا ويصلّوا الى آلهتهم على هواهم وكلما سمحت لهم الظروف بل أن يخرجوا من بيوتهم واذهانهم متهيئة لاداء الفريضة. ولذلك رغب [نوما] تبعاً لذلك أن لا يرى مواطنوه المراسيم الدينية أو يسمعوها وهم غافلون غير خاشعين، بل أن يتركوا ما بأيديهم من اعمال وان ينصرفوا بمجامع نفوسهم الى الدين بوصفه أرفع عمل للبشر وأكثر جدية. وأن تزول الضوضاء من الشوارع. وتقلّ ضجة الأعمال الجسديّة وينقطع مرور السابلة إفساحاً لسبيل المواكب الديني. وقد بقيت آثار لهذه العادة في رومه حتى يومنا هذا، اذ عندما يبدأ القنصل باستخارته بمراقبة الطير، أو بتقديم قربان. ينادى في الناس Ha-cage أي انصتوا لهذا!». وهو تحذير للحاضرين بأن يضبطوا أنفسهم ويخشعوا. وكثيرٌ من هذه التنظيمات تشابه ما وصفه الفيثاغوريون. فمن اقوالهم «لا تجعل المكيال بمثابة مقعد تجلس عليه[٤٤]. لاتحرك النار بالسيف[٤٥]. عندما تخرج الى سفرٍ فلاتنظر خلفك[٤٦]. فلتكن أُضحياتك لآلهة السماوات بعددٍ وتريّ، ولتكن اضحياتك لآلهة الأرض بعدد شفعي[٤٧]. » إن مدلولات كل هذه الوصايا لم تكشف للعامة، وكذلك بعض مبادئ [نوما] لا

(٤٤) بمعنى ان لانستسلم لدواعي الكسل.

(٤٥) اي «لاتزيد في غيظ من كان مغتاظاً».

(٤٦) في موضع آخر اثبت بلوتارخ الوصية بهذا الشكل «لا تكر من الحدود راجعاً» والمعنى واحد وهو «مت رجلاً، ولا تتحسر على الحياة وهي تتركك، ولا تتمّن ان تعود صغيراً».

(٤٧) يرى الاقدمون العدد الوتري اكثر كمالاً، ويعتبرونه رمز الاتحاد اذ لا يمكن قسمته الى نصفين متساويين كالعدو الشفعي. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد للتفضيل اي باعتبار الشهر الثاني لآلهة الارض على انه نجم عن ذلك آلاف من الرسوم الخيالية ما زال بعضهم يحتفظ بها الى يومنا هذا.

ترى لها معنى واضحاً كقولهم «لاتقدم قربان خمر الى الآلهة من خمرٍ فطيرة، لاتقدم اية أضحيات بدون خبز(٤٨). قم بالدوران لمّا تؤدي صلاتك للآلهة(٤٩). أجلس بعد أن تكمل فريضتك» إن الوصيتين الأوليين تشيران الى أن فلاحة الأرض واصلاحها هما جزء من الدين. واستدارة المصلين اثناء قيامهم بالفرائض انما يمثل دوران الأرض على ما زعموا. وفي رأيي: إنه لما كانت المعابد تستقبل جهة الشرق، فإن المؤمن يدخلها وظهره مستدبرُ القبلة اي مَشرق الشمس بينما وجههُ يستقبل الآلهة فبدورانه يؤدي صلاته للربّين معاً. هذا إلاّ اذا كان في تغيير الإتجاه في الصلاة معنى غامض مثل «العُملة المصرية»(٥٠) التي تشير الى تقلّبات حظوظ الانسان ووجوب الرضى بكل ما قسمه الاله من حظوظ أو غيره من أحوال مهما كانت وجهتها، فهي صحيحة ومناسبة. ويقولون أيضاً أن الجلوس بعد الصلاة هو علامة على أن دعوات المصلين قد استجيبت، والبركة التي طلبوها مُنحت لهم. ثمّ كانت الأعمال المختلفة مقسمه بفترات من الراحة. فلربما كان جلوسهم بعد فراغهم من عملهم، لأجل نيل رضا الآلهة عن عملٍ آخر سيبدأونه. وهذا ما يتسق تماماً مع ما ذكرنا قبلاً، وهو أن المشترع يريد تعويدنا على رفع صلاتنا الى الربّ لا بحسب ما تسنح به الظروف ولا بوجه العجلة لأجل الانصراف الى اعمال أخرى، ولكن بتوفير وقتٍ وفراغٍ لها. وبهذا التنظيم والتثقيف الديني أنتقلت المدينة دون ان تدري الى حالة من هدوء الطبع، وأمتلأت أعجاباً واحتراماً لفضائل [نوما] بحيث كانت تطيع كل ما يستنّه بثقة خالصة من أي شكّ وإن لم تكن مغرقة في الخيال وما وراء الطبيعة، ووجدوا به انساناً لا يعصيه شيء أو يستحيل عليه ولا يذكر عنه أمر الاّ ويصدق عليه.

وهناك حكاية هي انه دعا مرةً عدداً كبيراً من المواطنين الى مأدبة(٥١) وكانت الصحاف التي وضع فيها اللحم بسيطة جداً مما يستعمل في بيوت العامة والطعام نفسه كان اعتيادياً

---

(٤٨) الغرض الاساس من هذا الشرط ربما من أجل صرفهم عن تقدمه الدم واستدراجهم لتقديم الكعك وتماثيل الحيوانات المصنوعة من العجين أو ربما للتدليل بان الخبز هو أفضل هدية من الطبيعة. أمّا الخمر الماسخة فلا قيمة لها.

(٤٩) ربما لتمثيل عظمة رئيس الآلهة.

(٥٠) يقتبس كليمنت الاسكندراني (٥:٨) فقرةً من أحد نحاة تلك الدينة جاء فيها قوله: ان الكهنة المصريين كانوا يعبدون العجلة في أماكن العبادة لأنها تمثل سرعة التنقل وعدم الاستقرار. ويعبدون الزهر تذكيراً بقصر الحياة».

(٥١) يحدثنا [ديون ٢:١٥] ان [نوما] أشهد هؤلاء المدعوّين الرومان بعد ان أطلعهم على كلّ غرف قصره صباحاً بحقارة الاثاث الذي لا ينبئ عن المأدبة العظيمة التي تعين قيامها مساء ذلك اليوم. ثم انه ابقاهم معه الجزء الأكبر من ذلك اليوم وبعد ذلك دخلوا محل العشاء فوجدوا لدهشتهم كل شيء ينطق بالفخامة والنفاسة. وربما عزا هذا كلّه الى صديقه وخِلّه الخفيّ!

فقيراً، وعندما جلس الضيوف بدأ يحدثهم ان الآلهة التي أعتادت محادثته، قد زارته الآن. وعلى حين غرةٍ ظهرت في القاعة انواع مختلفة من أثمن الأقتراح وحفلت المائدة بأنفس الطعام واللحوم. إلاّ ان المحاورة التي قيل انها جرت بينه وبين [جوپتر] تفوق كل الأساطير الخيالية التي صنفت عنه. قيل أن آلهين نصفين هما بيكوس Picus وفاونس Faunus كان يختلفان الى ينابيع وخمائل «جبل آڤنتين» قبل أن يصبح مأهولاً ويدخل في المدينة، وربما كانا من جماعة المسوخ Satyr أو الپان Pan خلا انهما كانا يتجولان في كل ارجاء ايطاليا ويقومان ببعض انواع الحيل والخوراق عن طريق السِّحر والعقّار، كما عزا الأغريق ذلك الى ما يسمونهم انيدي داكتيلي Idaei Dactyli(٥٢)، وعزم نوما يوماً ان يفاجيء هذين الآلهين النصفين بسكب مزيج من الخمر والعسل، في مياه النبع الذي يشربان منه عادة. وعندما وجدا انهما وقعاً في الفخ خرجا عن هيئتيهما الحقيقيتين واتخذا مُختلف الاشكال وتزيّا بكلّ زيّ بشعٍ ومظهر غير عاديّ. ولكن لما وجدا أن لا فكاك لهما من الفخّ، ولا أمل في تحرير نفسيهما، اضطرا الى أن يكشفا له عن مختلف الأسرار، وما سيحصل من المستقبل. وخصوصاً تعويذة للبرق والرعد ما زالت مستعملة، ويقتضي لها بصل، وشعر، وسمك الپلشارد، ويقول بعضهم انهما لم يكشفا له سرّ التعويذة. إلاّ انهما استدعيا جوپتر من السماء بسحرهما. فراح يقول لنوما بلهجة غاضبة انه اذا أراد أن يسحر الرعد والبرق فعليه أن يفعل ذلك بالرؤوسِ فسأله نوما:

- كيف؟ أبرؤوس البصل؟

فأجاب چوپتر

- لا، برؤوس الرجال

واراد [نوما] أن يصرفه عن قسْوة هذه الوصفة فحوّل الموضوع الى جهة أخرى. بقوله

- قولك يعني، شعر رؤوس الرجال.

فأجاب چوپتر:

---

(٥٢) يخبرنا ديودورس نقلاً عن ايفوروس بأن [الأيدي داكتيلي] هم أصلاً من جبل (ايدا) في (فريجيا) وقد عبروا منها الى اوروپا مع (مينوس) الملك واستقروا أولاً في [ساموثراقي] حيث علموا سكانها الممارسات الدينية. ويُظن ان (اورفيوس) هو تلميذهم وهو أول من جاء الى اليونان بنوع ما من انواع العبادة. ويقال كذلك ان ألداكتيلي هم اول من استخدم النار وعرف خصائص الحديد والنحاس ولقنوها سكان البلاد الذين يسكنون قرب جبل پيريكنثوس. كما علموهم طرق الإفادة منها ومن أجل هذا ولكثير من مكتشفاتهم الأخرى عبدوا كما تعبد الآلهة بعد مماتهم واسمهم باليوناني [داختيلوس] وهي اصبع (عشر اصابع) يستخدم كتعويذة ضد المخاطر وتلبس حجارة معينة كتعويذة، تحمل اسمهم.

- لا بل أحياء - ...

فقاطعه نوما بقوله

- ... السمك؟

وكانت [ايجيريا قد علمته هذه الأسئلة. وعاد جويتر الى السماء وقد هدأت سورة غضبه وبات « Ileos » أي طيّب النفس. ولهذا أطلق على هذا الموضع اسم اليشيوم Ilicium[٥٣] من تلك الكلمة اليونانية، بعد أن صُحِّفَ اللفظ كما اثبتناه.

هذه الروايات على قدر ما هي مضحكة سخيفة تظهر لنا مشاعر الناس تجاه الآله، تلك المشاعر التي تمكنت منهم بحكم العادة. وتظهر أن أفكار نوما الخاصّة انحصرت كما قيل - في المسائل الآلهية الى حدّ لا مزيد عليه حتى انه عندما أبلغ بأنّ «الاعداء يقتربون» أجاب مبتسماً «وانا أضحي»!.

وهو الذي بنى أيضاً معبدي «الايمان»[٥٤] و«الحدود Terminus»[٥٥]. وعَلّم الرومان أن الحلف «بالايمان» هو أغلظ يمين يمكن أن يحلفوا به، وهم مازالوا يحفظونه[٥٦]. ويقومون لترمينوس اي آله الحدود، قرابين خاصة وعامة الى يومنا هذا، فوق حدود اراضيهم وشواخصها الحجرية. على أن تكون القرابين من صنف الأحياء، وإن كانت قبلاً ذبائح، فأبطلها نوما لأنه قدّر أن ربَّ الحدود الذي يحرص على السّلام ويشهد للحَقّ، لا شأن له بالدماء. ومن الواضح جداً أن هذا الملك هو أول من خطط الحدود بين اراضي رومه، لأن [رومولوس] كان دائم العدوان على اراضي جيرانه، ولم يؤثر عنه انه رسم حدوداً ما. فالحدود هي في الواقع وسيلة دفاعٍ لأولئك الذين يختارون رعايتها واحترامها. في حين انها شاهدٌ على ظلم الذين يعتدون عليها. والحقيقة هي أن البقعة التي استاثر بها الرومان في مبدأ الأمر، كانت صغيرة المساحة للغاية فوسعّها رومولوس بحروبه وقام نوما الآن بتقسيمها وتوزيعها على أفراد العامة

(٥٣) هنا يجانب پلوتارخ الصواب. وربما عُزى ذلك الى قلة تضلّعة في اللغة اللاتينية. ويخبرنا [أوفيد ٣:٣٢٨] ان جوپتر يطلق عليه اسم (اليشيوس) من فعل (اليجري) اي الخروج، لأنه خرج من السماء بهذه المناسبة.

(٥٤) Filles.

(٥٥) الآلهة تيرميني تمثل بالحجارة التي أمر [نوما] بوضعها على حدود الدولة الرومانية، وحول كل ارض خاصّة. كما انه امر تكريماً لها باقامة عيد سنوي سماه ترمينالیا في ٢٢ أو ٢٣ من شهر شباط وهو آخر يوم من أيام السنة القديمة. ولذلك ضوعف عندما قام يوليوس قيصر باصلاح التقويم. وعندها سميت السنة بيسكتال. والاضحية التي تقدم في هذه المناسبة هي امّا خنزير خنوص رضيع أو حمل. ان رفع رمز الآلهة ترمينيكان يعتبر اهانة عظيمة بحيث كان دم المجذف مباحاً ولايّ شخصٍ الحق في قتله وهو أمن من العقاب.

(٥٦) «اقسم بايماني Medius fidius» وهو يمينٌ روماني يعادل قولنا اليوم «بشرفي!» أو «بناموسي!».

المتظلمين الساخطين، مدفوعاً برغبته في ازالة الفقر المدقع الذي يدفع الى الغواية. ولتوجيه الناس الى الزراعة لإيصالهم الى حالة أفضل من النظام والاستقرار كذلك اعاد قسمة أراضيهم نفسها. ليس هناك مهنة فاضلة مثل الزراعة. وحياة الريف تولد رغبةً وتعلقاً شديدين بالسلم والدعة وتختلف عند كل الناس مهما أختلفت صفاتهم. تلك الروح من الشجاعة والصلابة وتجعلهم مستعدين للقتال دفاعاً عن كل شبر من أرضهم في حين انها تقضي على كل اعتداء متأتٍ من أعمال الظلم والعنف. ولهذا وزع نوما الاراضي بعد تقسيمها قطعاً مؤملاً ان تكون الزراعة تعويذةً تأسر نفوسهم وتصرف إهتمامهم الى السّلم، ومقدراً بأنها ستكون وسيلة للربح الأدبي فضلاً عن الكسب الاقتصادي. وسمىّ كل قطعةٍ ارض [باغوس Pagus] ، وعين لكلّ واحدةٍ منها رئيس رقباء، وكان يمتع نفسه أحياناً بتفقد هذه المستعمرات شخصيا ليكوّن احكامه الخاصّة على طبائع كُلّ امرءٍ من النتائج. وكان بحضوره يمدح ويكرّم ويستخدم أولئك الذين يحسن عملهم وبالتوبيخ واللوم يدفع المتكاسلين والمهملين(٥٧) الى مضاغفة جهودهم.

إلاّ أجلّ اعماله وأعظم مآثرة له، هي تقسيم الناس بحسب حرفهم وصناعاتهم الى جمعيات أو نقابات. فقد كانت المدينة تتألف، أو بكلمة أخرى - منقسمةً الى قبيلتين تعذر إزالة الخصام بينهما، في حين أن ذلك الخلاف كان يحول دون قيام أي وحدة، وبسبب نزاعات وثارات دموية مستمرة، وهداه تفكيره الى أن الشعب أقرب شيء الى المواد الصلبة لا يمتزج بعضها ببعض الا عندما تكوّم كومة واحدة وتسحق الى ذراتٍ وبهذه الطريقة تمتزج، فقرر أن يقسّم السكان جميعاً الى عددٍ من الاجزاء الصغيرة مؤملاً من استحداث تفرقة أخرى - انه يزيل التفرقة الأصلية الكبرى لأنها ستضيع في الصغرى. فميّز الناس بمختلف ما يتعاطون من حرفة أو صناعة، وأسس جمعيات للموسيقيين والصاغة والنجارين والصباغين، والاسكافية والسلأخين والصفّارين والفخارين. كما جمع كل أرباب الصناعات اليدوية الأخرى في نقابة أخرى. وعين لكل واحدة مجالس قضائها ومنظماتها الادارية ومراسيمها الدينية. وعلى هذه الشاكلة بدأت تضحمّل كُلّ صفوف التفرقات الحزبية لأول مرة ولم يعد يتحدث عن أي شخصٍ بوصفه رومانياً أو سابينياً. روموليّا أو طاطيّاً، وغدت التقسيمات الجديدة مصدراً للتمازج العام والتالف.

ومن مآثره الممدوحة جداً تغييره أو تعديله ذلك القانون الذي يمنح الحق للآباء في بيع اولادهم(٥٨)، مستثنياً من ذلك المتزوجين ومشترطاً رغبة وموافقة الأبوين إذ يبدو من القسوة

(٥٧) ان اهمال زراعة الحقل يعتبره الرومان جرماً يستحق عقاب الجسنور Censorium Probrum.

(٥٨) منح روملوس سلطة للاباء على ابنائهم، تزيد عن سلطة الأسياد على عبيدهم. ففي حين لا تجد السيد =

الشديدة أن تتزوج امرأة من شخص حُرّ، فتجد نفسها فيما بعد تعاشر عبداً.

وحاول أيضاً تنظيم تقويم سنويّ وهو ان لم يكن دقيقاً الغاية، لا يخلو من الأسس العلمية. كان الرومان في أيام رومولوس لايحددون اشهر السنة بايام معينة ومدد متساوية. فبعضها يحتوي عشرين يوماً وبعضها يبلغ خمسة وثلاثين يوماً أو أكثر. ولم يكونوا واقفين على اختلاف حركات الشمس والقمر وانما استقروا على قاعدة واحدة وهي أن السنة الكاملة تتألف من ثلاثمائة وستين يوماً. ولكن [نوما] حسب مقدار التفاوت بين السنتين الشمسية والقمرية بأحد عشر يوماً لأن القمر يكمل دورته السنوية بثلاثمائة واربعة وخمسين يوماً بينما تكملها الشمس بثلاثمائة وخمسة وستين. ولأجل أن يزيل هذا التفاوت ضاعف فرق الأحد عشر يوماً وزاد شهراً واحداً على كُلّ سنة ثانية وأمده أثنان وعشرون يوماً وهو يلي شهر شباط يوسمىً عند الرومان شهر [مرسيدينوس Mercedinus]، وقد أقتضى لهذا التعديل بمرور الزمن، تعديلاتُ أُخرى. كذلك غير نظام تعاقب الأشهر، فوضع شهر آذار في المرتبة الثالثة بعد أن كان أوّل أشهر السنة. وكانون الثاني جعله الأول بعد أن كان الحادي عشر. وشباط الذي كان الثاني عشر والأخير، جعله الثاني، ويعتقد الكثيرون أن [نوما] هو الذي أضاف شهري كانون الثاني وشباط أيضاً. ففي البداية كان لديهم سنه تتألف من عشرة أشهر فقط. وهناك من اقوام البرابرة ما يعدّون ثلاثة اشهر فقط في سنتهم. وسنة الاركاديين في اليونان، أربعة أشهر؛ وكانت سنة المصريين في مبدأ الأمر، شهراً واحداً على ما قيل، ثم جعلت اربعة أشهر. وهكذا فمع أنهم يعيشون في أحدث بلدٍ من البلدان(٥٩)، تراهم معروفين بأنهم أقدم الشعوب في العالم ويعدّون في شجرات سلالاتهم ارقاماً هائلة من السنين معتبرين الأشهر سنوات(٦٠).

= قادراً على بيع عبده أكثر من مرّة واحدة، نجد الاب يحلّ له بيع ابنه ثلاث مرات مهما كانت حالته القانونية ومهما بلغ من عمر. كان هذا العرف سائداً في بلاد اليونان الى زمن (صولون). وقد قام هذا بوضع حدود لها. فحرم بيع الابن عند بلوغه سنّ الرجولة، الاّ انه استثنى من التحريم البنات والأخوات اللاتي يفاجأن متلبسات بالزنا. ولم يطل امد التحديد الذي وضعه [نوما] لهذا المبدأ اذ ما لبث ان الغي بعده. الاّ ان حكم العشرة Decemvir في اللوح الرابع أحيا هذا التقليد (ديون ٢:٨) وعدل عنه تدريجياً بالتقدم الحضاري. لكن كان يحصل تطبيق للعرف في عهد شيشرون الأمر الذي يدّل على أن هذا الحق ظلّ سارياً بكلّ ما فيه من صرامة.

(٥٩) عندما جفّت الدلتا. وهي على أغلب الاحتمال احدث جزءٍ مأهول من البلاد المصرية [هيرونوتس ٢:٩ و ٥].

(٦٠) اذا افترضنا ان المصريين كانوا يسمون الشهر سنةً، فان حساباتهم وتواريخهم ستبدو أقرب الى الحقيقة نظراً الى عمر الدنيا حالياً. فهم يحسبون تسلسلاً للملوك يعود الى فترة (٣٦٠٠٠) سنة. على ان فرضيتنا تجعل عهود حكم ملوكهم قصيرة جداً لا يقبلها العقل. هذا مع العلم ان هيرونوتس يقول ان المصريين هم أول من بدء الحساب بالسنة الحوليّة وانهم أول من جعل السنة اثني عشر شهراً. ان الاسبقية التي يتباهون بها يجب ان يعزى والحالة هذه الى مدّهم الجزء الخرافي من تاريخهم الى عهد =

وامّا ان الرومان حصروا السنة كلها بعشرة أشهر في مبدأ أمرهم. ولم يحصروها بأثني عشر، فهذا يبدو واضحاً من اسم آخرها «ديسمبر December» ومعناه «الشهر العاشر». وكون آذار March هو الأول، فهذا ايضاً واضحٌ لأن الشهر الخامس بعده كان يدعى «كونتيليس Quintilis» والسادس يدعى [سكستيليس Sixtilis] وهكذا الى الأخير. اذ لو كان شهر كانون الثاني وشباط يتقدمان آذار، لوجب أن يكون (كونيتيليس) الخامس بالتسمية والسادس بالترتيب. وكذلك يكون طبيعياً أن آذار March. المُكرّس للآله مارس Mars هو الأول في تقويم رومولوس. وابريل April (نيسان) الذي أخذ اسمه من ڤينوس (أي أفروديت Aphrodite) هو شهره الثاني. وفيه يقربّون الى ڤينوس، وتستحمّ النساء في أوّل يوم «Calend» منه وهن ضافرات رؤوسهّن باكاليل الزّهر، ولوجود حرف (پ) في اسم الشهر، لا حرف (ف) يرى بعضهم انه غير مشتق من اسم [افردويت]، ويقولون انه من كلمة «اوپريو Operio» وهي كلمة لاتينية تعني «فَتح Opan» لأن هذا الشهر يأتي في أول الربيع، ويفتّح البراعم والأزهار، وينهي موسمها. ويليه ما يسمىّ أيار May من كلمة [مايا Maia] وهي اسم امّ [الرب عطارد] وهو مكرّس له. ثم يتبعه حزيران June [يونو Juno]. على أن بعضهم يجعل اسميهما مشتقين من اسم موسم بقوة السنة [مويورس Majores]. اما الأشهر الأخرى فقد سموّها بحسب ترتيبها فسمي الخامس [كوينتيلس]، والسادس [سكستيليس] والسابع [سپتمبر] والثامن [أوكتوبر] والتاسع [نوڤمبر] والعاشر [ديسمبر]. ثم أن [كوينتيلس] تبدل اسمه باسم «يوليوس Julius» من اسم قيصر الذي هزم [پومپي]، كذلك استبدل أسم سكستيليس [بأوغسطس] وهو القيصر الثاني الذي عرف بهذا اللقب وحذا [دوميتيان] حذو هذين، فأعطى اسمه للشهرين التاليين وعرفا بـ(جرمانيكوس Germanicus] و[دوميتيانوس Domitianus] ولكن اسميهما عادا اليها بعد أن أغتيل اي سپتمبر وأكتوبر وبقيا كذلك حتى الآن دون تغيير. ومن الأشهر التي اضافها [نوما] أو نقلها عن مواضعها،.شباط [فيروُوَري] من فبروا Februa وهو شهر التطهر وفيه يقدمون التقدمات الى الموتى ويحتفلون بعيد [لوپركاليا] وهو يشبه مراسيم التطهير في معظم تفاصيله، وكانون الثاني [جانوري] من يونو Juno وقد قدّمه [نوما] على آذار المكرس لمارس، والسبب الذي دفعه الى ذلك في اعتقادي هو رغبته الشديدة في التأكد والايضاح بأن الفنون والعلوم في زمن السلم، لها الارجحية على فنون الحرب وصناعتها. فقد كان [يانوس Janus] هذا إمّا

= سحيق جداً. واما عن مقولة پلوتارخ بان مصر هي بلاد حديثة العهد فهو قول غريب من رجل له مثل هذه المعرفة الواسعة. واما عن سنتهم ذات الأشهر الأربعة فما زال المتتبعون المختصون في حيرة من ذلك.

إلهاً نَصفاً أو ملكاً في العصور الغابرة السحيقة، وكان على وجه التأكيد محبًا للوحدة المدنيّة والاجتماعية، وعرف بأنه انتشل الناس من الحياة البربرية الهمجية. ولهذا السبب مثلوه بوجهٍ، اشارةً الى الحالتين أو الوضعين الاول منهما الوضع الذي كان عليه البشر، والثاني الوضع الذي آلوا اليه بعد أن انتشلهم.

ولمعبده في رومه مدخلان يسمونها بابيْ الحرب، لأنهما يبقيان مفتوحين في أيام الحرب ويغلقان في ايام السلم، والحالة الثانية كانت نادرة جداً ذلك لأن الامبراطورية الرومانية في حالة اتساعها وتضخمها كانت ابداً محاطة باقوام البرابرة وباعداء يتربصون بها الدوائر ولهذا ما عرفت للسلم طعماً إلاّ في القليل النادر. وقد أغلق هذا المعبد في أيام [اوغسطس قيصر] فقط[٦١]. بعد أن حقق انتصاره على [انطوني]، كذلك أغلق مرة ثانية عندما كان [ماركوس آتيليوس Marcus Atilius][٦٢] و[تيطس مانليوس Titus Manlius] قنصلين. ثم لم تمرّ فترة وجيزة من الزمن مفتوحين قط طوال حكم نوما وظلا مغلقين باستمرار لمدة ثلاثة وأربعين عاماً كاملة وهي مدة سلم لم يعرف مثلها من قبل ومن بعد ولم يكن الرومان الوحيدين الذين لان جانبهم، ومال بهم طبعهم الى الدعة والسلم بحكم ملك مسالمٍ رقيق الطبع، بل تعدتهم هذه الروح الى شعوب المدن المجاورة كأنما هَبّ عليها نسيم رخيّ من رومه. فبدأ الجميع يعانون تغييراً في المشاعر، وشاركوا كافة في الشوق العام الى لذة السلم ونعم النظام والاستقرار. الى حياة تستغرقها اعمال استنبات التربة وتنشئة الأولاد وعبادة الآلهة. وساد ايطاليا ايام أعياد، وحفلات الالعاب والتزاور بين الاصدقاء والألفة والاستضافة والكرم. وكان حبّ الفضيلة والعدل يتدفق من حكمة نوما كما يتدفق الماء من نافورة. وكان هدوء طبعه يشع بالهدوء والطمأنينة الى جميع الجهات ولذلك أصبحت مبالغات الشعراء وفقاعاتهم الكبيرة تتضامن الى الواقع البسيط بوصف ما حدث على النحو التالي: «... نسجت العناكب خيوطها فوق تروس الحديد»

أو قولهم: «الصدأ يأكل الرمح المسنون، والسيف ذا الحدين. ولايسمع بعدُ صوت أبواق النحاس. ما عاد النوم الهنيء يزايل عيون الناس[٦٣].

---

(٦١) قبل مجيء اغسطس قيصر أغلق معبد (يانوس) عدة مرات وخلافاً كما ذكر في المتن (غلقه في ٧٥٠ ق.م) فقد أغلق في ايام نيرون، وفي ايام فسپاسيان بعد تغلّبه على اليهود.

(٦٢) علينا ان نثبت «كايوس» بدلاً من «ماركوس». فزميله (تيتوس مانليوس) أغلق معبد (يانوس) في نهاية الحرب التيونية الأولى في ٥١٩ق.م. وظلت روما مشتبكة في نضال مستمر منذ عهد نوما حتى هذه الفترة.

(٦٣) اقتبس پلوتارخ هذه القصيدة من مجموعة قصائد (باكليدس) التي حفظها لنا [ستومبيوس] حول الإشادة بالسلم.

اذ لم تقم حرب ولا فتنة ولا انقلاب في أحوال الدولة طوال حكم [نوما] ولم يواجه بحقد أو نية سوءٍ ولم يحصل مؤامرة عليه أو تحاك خطة، مبعثها الطموح ضده، فإما كان الخوف من الآلهة هو الذي يعصمه من الخطر وإمّا الاحترام لفضائله، أو لعلّها نعم الحظ الآلهية التي كانت في ايامه ترعى البراءة الأنسانية هي التي جعلت حكمة مثلاً حيّاً وبرهاناً ساطعاً مهما كانت الوسائل – على ذلك القول الذي نطق به افلاطون بعد مرور زمن طويل وهو أن الوسيلة الوحيدة والدواء الناجع الوحيد للخلاص من الشرّ الانساني هو في اتساقٍ سعيد للأحداث حين توجد في شخص واحدٍ سلطات الملك وحكمة الفيلسوف لأجل أن ترفع الفضيلة الى سلطة مراقبة الشر والهيمنة عليه. وهذا الرجل الحكيم هو مبارك بشخصه، «ومباركون ايضاً أولئك الذين يستطيعون الاصغاء اليه والاستماع الى تلك الكلمات التي تخرج من فمه»(*).

وربما لم يكن هناك حاجة أيضاً للاكراه أو التهديد في التأثير على الجمهور لأن الصورة بنفسها هي المثل الساطع الواضح على الفضيلة في حياة اميرهم وهي التي ستؤدي بهم طوعاً واختياراً الى جادة الفضيلة والى مواجهة حياة طاهرة مباركة تمتاز بحسن النيّة والتعاون المتبادل ويدعمهما الخير والعدل وهذا أعلى مكسب يمكن أن يناله سعي الانسان. ونوما هو خير حاكم يغرس هذه الفكرة في قلوب رعاياه ويحملهم على أعتناقها. إنه المديح الذي لم يستحقّه أحد كما أستحقّه [نوما]. وهو ما يبدو جلياً.

هناك اختلاف بين جمهرة من المؤرخين حول أولاده وزوجاته فبعضهم يزعم أنه لم يتزوج بأحد بعد [طاطيا] ولم يكن لديه منها غير بنت واحدةٍ اسمها [پومپيليا Pompilia]، ويقول آخرون انه خلف اربعة ذكور آخرين وهم [پومپو Pompo، وپينوس Pinus، وكالپوس Cal-pus، وماميروكوس Mamerocus] وقد كان واحد منهم مؤسساً للأسر العريقة الشهيرة الأربعة [پومپوني، پيناري، كالپورني ماميركي Pomponii, Pinarii Calpranu, Mamerei وزادت هذه الأسر الى اسمائها لقب [ريكس Rex(٦٤): ملك] أيضاً لانحدارها من [نوما]. على أن طائفة ثالثة من الكتاب تقول أن شجرات النسب تلك لم تكن غير مجاملة وتملق اختلقها الكتاب لينالوا حظوةً عند هذه الأسر العظيمة، فعملوا لهم شجرات نسبٍ كاذبة متسلسلة من نوما. وقالوا أيضاً أن [پومپليا] ليست بنت [طاطيا] بل بنت [لوكريسيا Lu-creti] وهي زوج أخرى بنى بها بعد أن أختير ملكاً. ومهما بلغ أختلافهم، فكلهم يتفقون في

(*) افلاطون: الشرائع.

(٦٤) ركس Rex هو لقب اسرة ايميلي Aemilii واسرة مارچي Marcii. ولم يكن لقب پومپوني Pompomii أو پيناري Pinarii أو مامرچي Mamerci. وقد انحدر آل پيناري من أسرة كهنة هرقل وهم أعرق وأقدم عهداً من عصر [نوما]. انظر [ليڤي ١:٢٧، ديون ١:٩، ڤرجيل الاينياد ٨:٢٧١].

الرأي بأن هذه البنت تزوجت ابن [مارشيوس] وهو الشخص الذي اقنعه بتسلم مقاليد الحكم ورافقه الى رومه، فأختير عضواً في مجلس الشيوخ تكريماً له. وبعد وفاة نوما نافس [تُللوس Tullus] ابن [هوستيليوس] على الملكية. وبفشله في الانتخاب، بخع نفسه حسرةً وكمداً. إلاّ ان ابنه [مارشيوس] الذي تزوج [پومپليا] بقي في روما. وهو والد [انكوس مارشيوس] الذي عقب [تُلكوس هوستيليوس] في الملك وكان عمره خمس سنوات عند وفاة [نوما].

وعاش [نوما] حتى زادت سنّه على الثمانين وبعدها لم يقض نحبه بموت الفجاءة أو بعد مرضٍ حاد وأنمّا توفى بكبر السنّ وبتهافت قواه ووهنها التدريجي على ما قاله [پيسو Piso].

وقد أجتمعت في جنازته كل أمجاد حياته كاملةً، عندما التقت كلّ الدول المجاورة وهي في تحالف وصداقة مع روما، لتكريم وتشريف مراسيم دفنه بالاكاليل وبهدايا الشعوب. وحمل الشيوخ النعش الذي يضمّ جثمانه يتبعهم الكهنة، ثم موكب المشيعين المهيب، في حين ساهم الجمهور عامةً باحداثه ونسائه وأطفاله وهم يصرخون وينتحبون كأنما يندبون موت وفقد قريب عزيز لهم أعتبط وهو في شرخ شبابه لا ملكاً شيخاً بلغ ارذل العمر وقيل أن جثمانه لم يحرق، لانه أوصى بذلك[٦٥]، بل نحتوا ناووسيين من الرخام حسب وصيته وأدعوا جثمانه فيما دفنوهما في جبل يانيكولوم Janiculum، وكان في أحدهما جثمانه وفي الثاني كتبه المقدسة[٦٦]. التي دونت له خاصةً كما هي ألواح المشترعين اليونان. ولكن محتوياتها انطبعت في نفوس الكهنة وقلوبهم في اثناء حياته، حتى تشبعت بها اذهانهم وتشربت بروحها وغاياتها. وقد أوصى أن تدفن معه. كأنما هذه الوصايا المقدسة لا يمكن أن تبقى وتنشر في كتاباتٍ جامدة إلاّ وتفقد مكانتها واحترام النفوس لها. ولهذا السبب نفسه يقال ان الفيثاغوريين منعوا أن يحتوي تعاليمهم كتابة لا روح فيها[٦٧] بل فضلوا ان تحفظها الصدور والذاكرات القمينة بحفظها فيقولون عندما كان يتسرب بعض المعادلات الهندسية المعقّدة الغريبة الى شخصٍ غير جدير بها أن الأرباب تهدد بالاقتصاص من هذا العمل الشنيع والتجديف، بأشارة مخصوصة وبهيبة واسعة شاملة. وبتعاقب جملة من هذه الحوادث لتثبت

---

(٦٥) في الأزمان القديمة كانت جثث الموتى توارى التراب، ثم أخذ المصريون يحنطونها حفظاً لها اعتقاداً بعودة الروح اليها. اما اليونان فقد كانوا يحرقونها تفادياً لتفسخها وما يترتب على ذلك من آثار سيئة. على ان (پليني) يزعم بأن (سيللا) هو أوّل روماني أحرقت جثته.

(٦٦) يبدو ذلك مناقضاً لديون (١٢:٣) الذي يقول «بعد وفاة تللوس هو ستيليوس تسلم خلفه [انكوس مارچيوس] من الكهنة شرائع [نوما] الخاصة بالطقوس والعبادات وأمر بحفرها في الحجر وعرضها على الجمهور.

(٦٧) ذلكم ما مال اليه الكهنة المصريون. ومنهم انتقلت الى فيثاغوراس على ما يبدو ثم الى افلاطون ونوما لميلهم الى عادات تلك البلاد، وربما استمد الأخير من نفس المصدر.

وجوه الشبه في حياتي: [نوما وفيثاغورس] يسهل علينا الاعتذار لأولئك الذين يحاولون اثبات تجاوب في أفكارهما ووجود علاقة شخصية فيما بينهما فعلاً.

ويذكر [ڤاليريوس انتياس] أن الكتب التي دفنت في الصندوق أو الناووس المشار اليه بلغت اثني عشر مجلداً في الشرائع الدينية ومثلها من المجلدات في الفلسفة اليونانية ولما كان [ب. كونيلوس P. Cornelius] و[م. بيبوس M. Baebius] قنصلين بعد اربعمائة عام من وفاة نوما[٦٨]، سقط مطر عزيز وجرفت السيول العرمة التراب وكشفت عن التابوتين الحجريين وقد سقط عنهما غطاؤهما فشوهد أحدهما خالياً تماماً من أي اثرٍ لبقايا جسم بشري. ووجد في الآخر الكتب التي اشرنا اليها، فأخذت الى البريتور [بيتيليوس Petilius] وبعد أن قرأها وتأمل ما فيها، أقسم يميناً امام مجلس الشيوخ بأن محتوياتها لا تصلح في رأيه - للنشر بين العامة، فحملت المجلدات الى الكوميتيوم وهناك تمّ احراقها.

من حظ الأخيار أن قداستهم تمجد بعد موتهم وان الحسد الذي يضطغنه لهم الأشرار لا يعيش بعدهم طويلاً، وقد يسعد الحظّ بعضهم أن يشاهدوا موته قبل أن تحين آجالهم، وفي قضية [نوما] أيضاً كانت مصائر الملوك الذي عقبوه بمثابة طبقات عاكسة تطلق نور سمعته الساطع. فقد عقبه خمسة ملوك انتهت حياة آخرهم في المنفى وهو شيخ هرم بعد أن نحي عن العرش. ومن الأربعة الباقين ثلاثة اغتالتهم يد الخيانة والآخر وهو [تللوس هوستيليوس]. الذي خلف [نوما]، سخر من فضائل سلفه ولاسيما تعلقه بالعبادة وأعتبرها اعمال ضعف وخور نفسيّ وحوّل عقول الشعب الى الحرب إلاّ أنه أُلجم وكُبح جماح هذا التهور والطيش. وتردى هو نفسه في حمأة الدجل والشعوذة المختلفة جداً عن تُقى وتهجّد نوما حين ألمّ به مرض مزمن كثير الأوجاع وعندما مات بضربة صاعقة[٦٩]، ترك آخرين يقاسون ما قاسى من آلام.

---

(٦٨) هذا الحدث وقع في العام ٥٧٣ ق.م، ولعل بلوتارخ كتب (٥٠٠) يقول ڤارو: «ان شخصاً اسمه (ترنتيوس) كان يملك قطعة ارضٍ بالقرب من يانيكولوم. وقد شاعت الصدف ان واحداً من رعاته مرّ يوماً بقطيعه فوق قبر [نوما] فانكشفت له كتب قانون كان [نوما] قد دون فيها الاسباب التي دعته الى تقنين الديانة الرومانية بالشكل الذي رسمه. فحمل الراعي هذه الكتابات الى (البريتور) الذي أخذها بدوره الى مجلس الشيوخ. وبعد قراءة التعليق والاسباب الموجبة أمن بسلامة نيّة [نوما] وامر باحراق الكتب على ان يقوم (البريتور) بقذفها الى اللهب.

(٦٩) ضربت الصاعقة قصر (تللوس هوستيليوس) فاحرقته وهلك فيه هو وزوجه وأولاده. على ان بعض المؤرخين يقولون ان [انكوس مارجيوس] حفيد [نوما] الذي كان يطمح الى الملك. انتهز فرصة اشتداد العاصفة ففتك بالملك.

اوجه المقارنة بين نوما وليكورغوس

بعد انتهائنا من الكلام في سيرتي ليكورغوس ونوما، سنضع معاً نقاط اختلافهما كما هي مبسوطة هنا امام اعيننا وان كان العمل صعباً. إنْ أوجه الشبه بينهما واضحة: اعتدالهما، تديّنهما، كفاءتهما في الحكم ثمّ اختلافات جوهرية في شؤونهما العامة، أولها أن نوما قبل المُلك وليكورغوس نزل عنه. نوما تسلّمه دون رغبة فيه، وليكورغوس كان حائزاً له فتخلّى عنه. الأول ارتفع من شخصٍ عاديّ غريبٍ، الى منصب الملك، رفعه اليه آخرون. والثاني نزل من حالة الأمارة الى شخص عادي بمحض اختياره. إنه لمجدٌ مؤثل أن تنال عرشاً بالحقّ، ولكن أعظم منه أن تفضل الحق على العرش فالفضيلة التي جعلت الأول يبدو جديراً بالسلطات، هي نفسها سَمت بالآخر الى درجة عدم المبالاة به. وأخيراً، فكما يحزق الموسيقيون اوتار قيثاراتهم كذلك أرخى الأول منهما روحيّة اهل رومه المندفعة المُوتَرة الى درجة اوطأ شدهّا الآخر في سپارطا ورفعها الى نغمة أعلى عندما اضرت بها الفتن واصابها الانحلال والانقسام. وكان العمل الأصعب من نصيب ليكورغوس. اذ لم تكن مهمته اقناع مواطنيه بنزع دروعهم، وحل انطقة سيوفهم وانما كان يريد منهم نبذ ذهبهم وفضتهم، وترك اثاثهم الغالي وموائد طعامهم الفاخرة لم تكن مهمته الوعظ والارشاد الى حفظ تعاليم الدين واعياده وتقديم القرابين للأرباب كما يجب وتخليهم عن السلاح وانما حثهم على نبذ الولائم والحفلات والشراب، وصرف أوقاتهم في التمارين العسكرية المجهدة. وهكذا فبينا تجد الأول يحقق مسعاه كله بالاقناع وبحبّ شعبه له وتعلقه به، نجد الآخر بالكاد نجح في الأخير، بعد ان تعرضت حياته للخطر والمتاعب. وكانت فكرة نوما وحياً رقيقاً ودوداً، يناسبه تماماً، وهو ان يوجه اهتمام شعبه ويميل بهم الى السّلام والعدل، لترق طباعهم الوحشية الناريّة، وان سلمنا هنا بان معاملة [الهيلوت] وهي جزءٌ مما قررته شرائع ليكورغوس تُعدّ اجراءات لا مثيل لها في القسوة والظُلم، فعلينا الاقرار أن نوما كان أكثر انسانية بما لا يقاس، واقرب شبهاً بالمشترعين اليونان

فقد بلغ به الأمر ان منح للعبد المسترق حق الجلوس وتناول الطعام مع سيده[1] في عيد [زحل] حتى بتذوق بعض اطايب الحرية وملاذها. فهذه العادة أيضاً تعزى الى نوما. اذ يقولون أنه كان يرغب أن يُفسح لأولئك الذين ساهموا في استغلال الأرض مجالاً للتمتع بخيراتها. ويعللها آخرون، بأنها أحياء لعصر [زحل] حيث لم يكن هناك فرق بين السيد والعبد. والجميع يعيشون كالأخوة في حالة متقدمة من المساواة.

وبصورة عامة يبدو أن الأثنين كانا يسعيان الى غرض واحدٍ وغاية واحدة. وهو الوصول بالشعبين الى حالة الإعتدال، والتقشف أما من السجايا الأخرى فقد ركز احدهما جل اهتمامه في تقوية شعبه، والآخر في العدالة. إلاّ اذا أسندنا أختلافهما في السبل الى اختلاف أمزجة الشعبين وطباعهما واحوالهما وقابلية تطبيق قوانينهما. فنوما لم يعمل للسلم جبناً منه أو خوفاً بل لأنه لا يريد أن يظلم فيأثم، ولم يكن ليكورغوس بالذي يرغب في رفع الروح العسكرية في شعبه ليظلموا الأخرين، بل ليكونوا قادرين على حماية أنفسهم بها.

وفي سبيل الوصول بالأمزجة التي كوّناها في شعبيهما الى سبل واهداف عادلة وغايات سعيدة يحدان منها عندما تزيد في انطلاقها ويقويانها في مواطن ضعفه، وجدا نفسيهما مضطرين الى استحداث ابداعات عظيمة. فشكل النظام الحكومي الذي اقامه نوما، كان ديمقراطياً جمهورياً الى أقصى حدٍ فنقابات الصاغة والموسيقين والاسكافيين تؤلف طبقة العامة المختلفة الألوان والصور. امّا ليكورغوس فكان ارستوقرطياً صارماً جامداً، في حصره كلّ المهن اليدوية والأعمال الوضيعة بطائفة الخدم والأجانب، ولم يسمح لمواطنيه من أدوات العمل، الاّ بالرمح والترس اي صناعة الحرب فقط وخدمة إلهها مارس. ولم يسمح لهم بشيء من المعرفة والفهم غير اطاعة آمريهم العسكريين، والنصر على الأعداء في الحرب. ومنع اي مضاربة مالية بينهم بوصفهم رجالاً احراراً ولأجل جعلهم على هذه الصورة وابقائهم عليها تماماً طوال حياتهم، حَوّل كل ما يتعلق بأمور المال والنقود الى أيدي العبيد والهيلوت بما فيها من أعمال الطهي وخدمة البيوت. إلاّ أن نوما لم يُحدث مثل هذه التفرقة، وانما قمع الروح

---

(١) افي ساتُرْ ناليا، وكان يعيّده في الرابع عشر من شهر كانون الثاني. وتقرب القرابين تكريماً لذلك الذي جاء بسعادة ورخاء العصر الذهبي الى ايطاليا. وفيه ينعم الخدم بالحرية ويمارسون كل ضروب اللهو والمرح استعادة لذكرى المساواة الاجتماعية التي سادت ذلك العصر. وفيه يتبادل الاصدقاء الهدايا، ولا تعلن حرب ويوقف تنفيذاً احكام الموت بالمجرمين. على اننا لانعلم شيئاً عن منشأ العيد. يقول (ماكروبيوس) انه كان معروفاً في ايطاليا قبل بناء روما. وقد يكون مصيباً في قوله، لأن الأغريق كانوا يحتفلون بعين هذا العيد تحت اسم «خْرونْيا» [ماكروبيوس ساتورناليا ١:٧] ويؤكد (ريكارد) انه نشأ بعد حكم [نوما]، إمّا في عهد [تللوس هوستيليوس] واما في عهد [تاركوينيوس سوپربوس].

العسكرية، وسمح بحرية مطلقة للحصول على الثروة بكلّ وسيلة شاءها الانسان. ولم يهتّم بازالة الفروق الاجتماعية من هذه الناحية. وانما سمح للاغنياء بأن يزيدوا في ثرواتهم دون حدٍ. ولم يهتّم بازدياد الفقر وتفاقمه المطرد، وهو ما كان يجب عليه أن يحتاط له من البداية عندما كانت الفروق في احوال الناس المالية صغيرةً، والناس ما زالوا يعيشون في أحوال اقتصادية متقاربة نوماً ما. لم يتخلص من ذلك كما فعل ليكورغوس، ولم يتخذ التدابير والاحتياط للفتن والفوضى التي تنجم عن الحرص على المال.

فتن ليست ذات خطر قليل، بل هي البذرة الحقيقية والمبدأ الأولي لكلّ الشرور والمكاره العظمى وفي اعتقادي أنه لا يمكن لوم ليكورغوس على اعادة تقسيم الأراضي، ولا لوم [نوما] على عدم اعادة تقسيمها، إن هذه المساواة كانت القاعدة والأساس لجمهورية واحدة. اما في رومه حيث سبق توزيع الأراضي، فلم يكن ثم ما يدعو الى اعادة تقسيمها والاخلال بالاجراءات الأولى التي كان معمولاً بها على ارجح الظن.

واما بخصوص الزوجات والأولاد واحوال المجتمع فكلاهما اتبع سياسة صحيحة لإزالة التنافر والخلاف منه. على أن ساليبهما كانت مختلفة. فعندما يجد الروماني أن لديه عدداً كافياً من الأولاد، وعندما يرجوه جاره الذي لا ولد له أن يسلفه زوجه، فليس هناك ما يمنعه شرعاً تسليفها لمن يرغب فيها لفترة مؤقتة أو بصورة دائمة. في حين نجد الزوج اللقيديموني، قد يسمح لأي رجل آخر بزوجه، اذا رغب في انجاب اولاد منها، ولكنه يبقيها في منزله، وتظلّ الرابطة الزوجية الأولى وواجباتها كما كانت.

لا بل رأينا كثيراً من الأزواج، يدعون رجالاً الى بيوتهم لمضاجعة نساءهم، حتى ينسلن لهم أولاداً جميلي الخلقة حسني التركيب. اذن مالفرق بين العادتين؟ أنقول أن نظام اللقيديمونين هو نظام لا يهتم قَطّ بالنساء وانه يسبب لأغلبية الناس ازعاجاً وقلقاً لا نهاية له، تراقفه الهواجس والأحقاد؟ وان نظام الرومان الذي يحوطه مظهرٌ أكثر رقّة وسماحة، يرخي حجاباً على هذا التغير ويجعله أشبه بعقد زواج جديد ويتغاضى عن وضع عام اجتماعي لا يمكن احتماله؟ كذلك كانت انظمة [نوما] حول العناية بالفتيات أكثر مناسبة لهنّ وللجنس الأنثوي، في حين كانت انظمة ليكورغوس غير انثوية وصارمة فسحتا مجالاً كبيراً لتندر الشعراء عليهما [ومنهم مثلاً يبيكوس Ibycus)[٢] اذ أطلقوا عليها «فينوميريدس Phae-nomirides» اي الفخذ العاري وعملوا كيوربيدس[٣] على إثارة نار الغيرة في ازواجهن.

(٢) شاعر غنائي في ريجبيوم.
(٣) اندروماخة.

هؤلاء اللاتي كن مع الشبان في رائعة النهار، يخرجن من الدار وافخاذهن مكشوفة، وارديتهن تتطاير لتظهر عريهن.

ذلك لأن الغلائل التي ترتديها الفتيات العازبات مشقوقة الجانبين من الأسفل بحيث تنكشف عن افخاذهن العارية اثناء سيرهنّ. وقد وصف سوفوكلس[٤] ذلك وضعاً دقيقاً بقوله: «تلك [هرميون Hermione] الفتاة الصبية أيضاً بغلالتها التي ليس فوقها رداء، تنحس الى الخلف وتترك فخذها العاري حُراً مكشوفاً»

ولهذا قيل ان نساءهُن المسترجلات الجريئات مصدر ضيق لأزواجهن بالدرجة الأولى. سيدات مطلقات الأمر في بيوتهن، يدلين بآرائهن في الشؤون العامة بحرية تامة، ويتكلمن علناً دون قيدٍ في أهم المواضيع. إلاّ ان الأمهات وربات البيوت في عهد نوما، كن محترمات، وموضع اجلال أزواجهنّ، وهو من آثار ذلك التكريم الذي نلفه في أيام رومولوس بمثابة تعويضٍ عن اختطافهن عنوةً[٥] ومع ذلك فإن الحشمة الكبيرة تسود حياتهنّ. وهن ممنوعات من التدخل في الشؤون الخارجة عن طبعهن، والوقار مفروض عليهنّ والصمت عادة فيهنّ. لا يقربن الخمر مطلقاً ولا يتكلمن إلا بمحضر من أزواجهن حتى في ابسط الأمور. بحيث أنه عندما سُمح لامرأةٍ مرّةً بعرض قضيتها في ساحة القضاء، قيل ان مجلس الشيوخ ارسل يستفسر من العرافة، بماذا تنذر هذه الحادثة الخارقة[٦]!؟ والواقع أن سلوكهن العام الصالح وخضوعهن، وطاعتهن، يبرهن عليه بحقّ إشتهار عددٍ منهنّ بسوء الطبع والسلوك.

وكما يدون المؤرخون الأغريق في حولياتهم اسماء أوّل من امتشق السيف في الحروب الأهلية، أو قتل أخاه أو اباه أو أمه، فكذلك الكتاب الرومان يذكرون أن [سيوريوس كارثيليوس] كان أول من طلق امرأته، بوصفها حادثة لم يقع مثلها خلال مائتين وثلاثين عاماً اي منذ بناء المدينة. وان من تدعى [تاليا Thalaea] امرأة [پنياريوس Pinarius]،

---

(٤) القصيدة ٧٨٨.

(٥) فرض (رومولوس) عقوبة الموت على الزانية أو الشاربة خمراً. لانّ الزنا - على حدّ قوله - يفتح باباً لكل انواع الجرائم. والخمر تفتح باباً للزنا. وجاء في المآثر [ان اغناطيوس مجينيوس] قتل زوجه بيده لأنها عاقرت الخمر فبرّأه مجلس الشيوخ [پليني المرجع السالف ١٤:١٣] وهناك حادثة أخرى أفظع فقد حكم على امرأة سرقت مفاتيح مخزن بأن تُرجم فقام اقرباؤها برجمها حتى قضت نحبها. لقد خفت حدّة هذا القانون بتعاقب الاجيال فأصبح عقاب المرأة التي تصرعها الخمره هو حرمانها من البائنة.

(٦) ما بدأ في ذلك الزمن غريباً، اصبح فيما بعد عادياً. حتى ان كلّ امرأة مزعجة عن هذا الطراز تلقب بـ(افرانيا) نسبة الى زوج أحد أعضاء مجلس الشيوخ التي أشغلت ساحات القضاء بمراجعاتها. وثم (هورتنسيا) الفصيحة بنت الخطيب المصقع (هورتنسيوس) فقد تكللت بالنجاح مرافعتها في «الدفاع عن النساء عندما فرض عليهم ثلاثي الحكّام» غرامة، فقد ووفقت نحفضها الى حدّ كبير [٣:٨ و ٤].

اختصمت مع حماتها [جيفانيا] في عهد [تاركوينيوس سوپربوس Tarquinius Superbus] بوصفها أول حادثة من نوعها.

وتتسق تشريعاتهما وانظمتها بخصوص زواج البنات، مع تلك التي شرعت لتثقيفهن. ولم يسمح ليكورغوس بزواجهن إلاّ بعد يبلغن النضوج التام ويتوفر لديهن الميل. فالوصال الجنسيّ، عندما يكون متفقاً مع قوانين الطبيعة، يولد الحبّ والحنان عوضاً عن الكراهية والخوف الذي يرافق الوصال غير الطبيعي. ذلك هو رأي ليكورغوس كذلك تكون اجسامهن أكثر استعداداً لتحمل متاعب الحمل وتربية الأولاد وهو في رأيه هدف الزواج وغايته.

أمّا الرومان فيزوجون بناتهن قبل بلوغهنّ العشرين أو في السنوات الأولى بعدها. معتقدين ان اجسامهنّ وعقولهن معاً ستصل أزواجهن المقبلين وهي طاهرة لا تشوبها نجاسة. وتبدو وجهة نظر ليكورغوس من ناحية الولادة أصح وأقرب الى الطبيعة. أما نوما فيرى أن الحياة الزوجية المتواصلة أقرب الى الأخلاق(٧)، على أن القواعد التي وضعها ليكورغوس للعناية بالاولاد والاشراف على تربيتهم وجمعهم في زمر ووضعهم تحت طائلة النظام والضبط، كذلك تنظيمه الدقيق لوجبات طعامهم ورياضاتهم، كل ذلك يُظهر [نوما] مشترعاً عادياً. فقد ترك الأمر كله لرأي الأبوين ورغباتهما وحاجاتهما. فبإمكان الأب لو شاء أن يجعل ابنه مزارعاً أو نجاراً أو صفّاراً أو موسيقياً. حتى لكأنّ تدريبهم وتربيتهم منذ نعومة اظفارهم لغاية عامة مشتركة أمرٌ لا يستحق الاهتمام، فيكونون اشبه بمسافرين جمعتهم سفينة واحدة، ركبها كل واحد منهم بمحض اختياره ولغرضٍ خاص به لا وحدة عمل تجمعهم في سبيل المصلحة العامة إلاّ عندما يدق ناقوس الخطر، وفي حالات مخاوفهم الخاصّة تراهم عموماً لا يعملون إلاّ وفق ما تمليه مصالحهم الخاصة.

ولا مندوحة لنا الا أن نلوم المشترعين العاديين الذين قد تعوزهم المعرفة ويفتقرون الى السلطان، ولكن عندما يتسلم رجل حكيم كنوما، مقاليد السلطة المطلقة على شعبٍ طيّع. أفهناك شيء يستحق اهتمامه أكثر من موضوع تثقيف النشئ الجديد، وتدريب الشباب. ليس خلافاً لطبيعتهم، أو ضدّ أمزجتهم بل وفق أعلى نموذج عام للفضائل ومبادئ الاخلاق مما يجب أن ينشأوا عليه منذ أظفارهم؟ وبين الفوائد الكثيرة التي جناها ليكورغوس من خطّ سيره هذاو هو الثبات الذي ضمن بقاء قوانينه. ولم يكن للأيمان التي حلفها السپارطيون بان يقيموا

---

(٧) يفضل ارسطو [السياسة ٧:١٦] المبادئ السپارطية باعتبارها ذات فائدة عظمى بآثارها ومردورها على الانسان. وكان النظام الروماني في رأيه أقرب الى تحقيق الغاية المرجوة - ويقضي بتأخير الوصال الجنسي الى أن تغدو الأنثى أكثر تفهماً لواجباته وأهمية بعامل نضوجها وتقدمها في السنّ.

عليها، من أثر كبير لو لم تثبت في نفوس وأخلاق الصغار بالتدريب والثقافة، ولو لم يشرب حياتهم كلها بحب الحكومة التي أقامها. وكانت النتيجة أن الأصول والأسس التي بنى عليها تشريعاته ظلّت سارية اكثر من خمسمائة سنة. بقيت مثل صبغة عميقة ثابتة جداً، تسود كتلة الشعب باسره. في حين كان كل خطة نوما وهدفه استمرار السلم وحسن النية، وقد زال كل أثر لهذا بعد وفاته. إذ ما ان قُبض ولفظ آخر انفاسه حتى انفتح بابا معبد [يانوس] على مصاريعهما. واندفعت ريح الحرب، كأنما كانت حبيسة محصورة داخل هذه الجدران تجتاح ايطاليا وتملأ أرضها بالدماء والضحايا[٨]. وهكذا لا يكتب البقاء الطويل لاسمى الأعمال وأنبلها، لأنها تحتاج الى ذلك الجُصّ الذي يبقى اجزاءها ملتحمة وبناءها ثابتاً، وأعني به التهذيب والتثقيف. ولعل قائلاً يقول: ماذا اذن؟ ألم تتقدم رومه، وتزداد عظمتها بالحروب التي خاضتها؟ انه السؤال يتطلب اجابة طويلة، اذا قصدنا به ارضاء أولئك الناس الذين يرون «الحال الأفضل» في الغنى والترف والتملك. لا في الاستقرار والدعة والاستقلال. وهي جميعاً مظاهر لروح العدل. وعلى اية حال، فمما يرفع قدر ليكورغوس، ان الرومان بعد نبذهم أنظمة نوما وسياسته نمت امبراطوريتهم وتعاظمت قوتهم كثيراً بينما خمل شأن اللقيديمونيين حالما ابتعدوا عن انظمة ليكورغوس وهبطوا من أوج عظمتهم الى الحضيض. وبعد أن انحسر نفوذهم عن سائر بلاد الأغريق، تعرضوا هم أنفسهم لخطر الزوال التام على انك في الوقت نفسه لا يسعك إلاّ ان تجد الظروف التي جاءت بنوما علامة غريبة جداً، تكاد تكون آلهية المصدر، فهو أجنبيّ، أقنع بالمجيء مكرهاً وبقبول مملكة قام هو بنفسه بتغيير جهازها تغييراً تاماً، وكان سبيله الى هذا، الإقناع فحسب. حكم مدينة لم تكن في حينه قد غدت مدينة موحدة، ولم يلجأ الى السلاح أو أي عملٍ من أعمال العنف.

(في حين استخدم ليكورغوس قوة المواطنين النبلاء، ضَدّ معارضة العامّة) وانما بمجرد قوى الحكمة والعدالة، فيها وحدها تمكن من تحقيق الوحدة واحلال التفاهم بين الجميع.

---

(٨) يقصد حروبهم مع الفيديناتي والألبان واللاتين.

معلومات عن

بعض الآثار التاريخية والمباني الشهيرة

التي ورد ذكرها في الكتاب

١- الاكـربـوليـس [اليـارثـنـون]

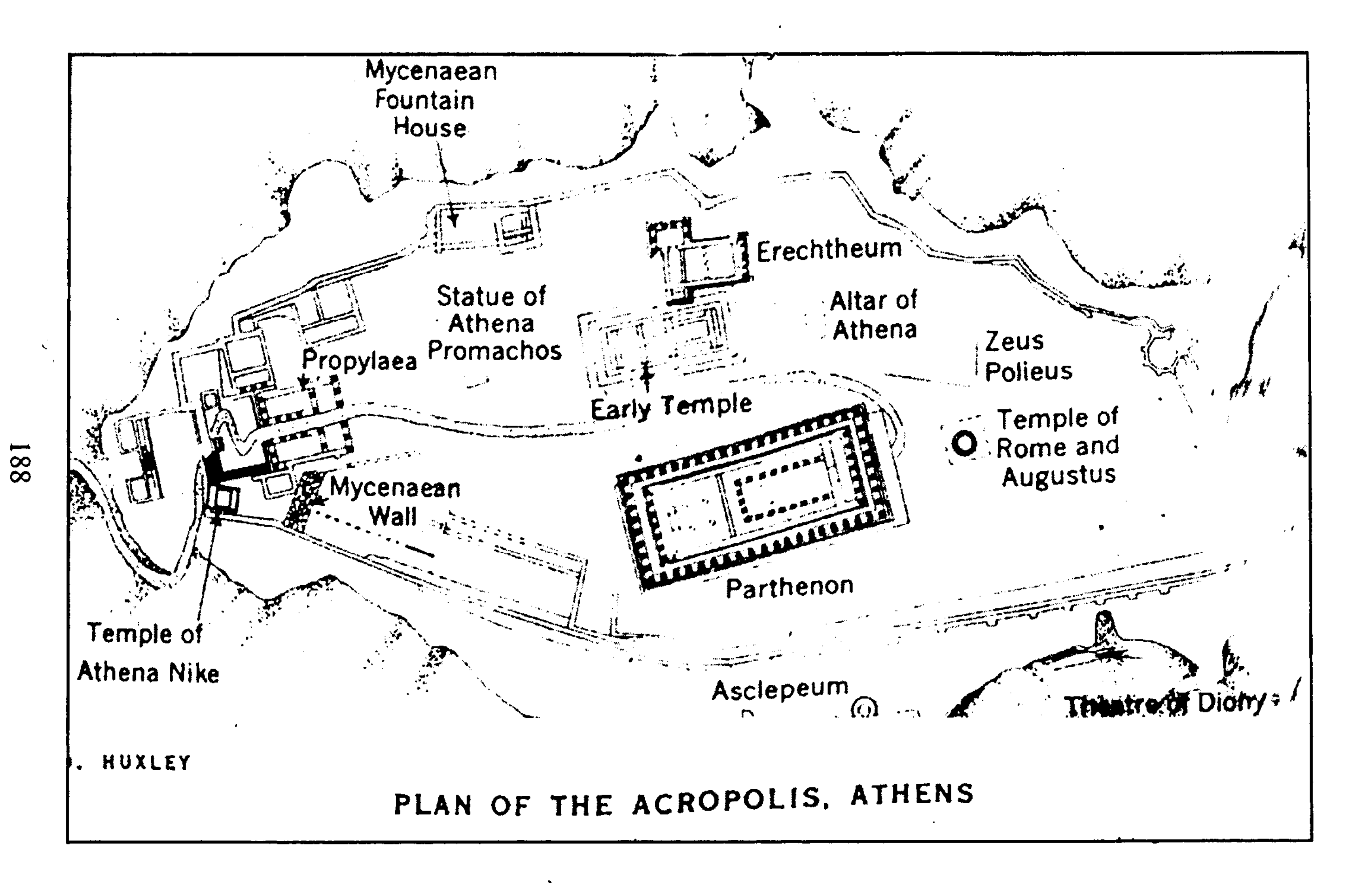
ومعنى الكلمة باليونانيـة (الأرض المرتفعة) وعرف باكروپـوليس اثينا لوجود تمثـال اثينا ومعبدها البارثنون فيـه ويقع وسط مدينة اثينا تقريباً على ارتفاع 150 قـدماً تقريباً وبطول 1150 قـدماً وعـرض 500. ويطلق الاسم عـادة على القـلاع التـي تبنى على نشـز من الأرض ليتـجمع حولها أماكن سكنى ولتغدو بمثابة قلعة حامية Citidal وكانت مسيجة وفيها اعتاد ملوك اثينا بناء قصورهم وهياكل آثينا التي تعرف باسم هيكاتومبيدون.

حينما نتحدث عن الاكروپوليس Acropolis يرد الى ذهننا في الحال الأثر الوحيد الباقي قائماً أو بالأحرى قشرته أو ما بقي من قشرته. وهو هيكل اثينا المعروف بالبارثنون وهي عند الرومان الآلهة منيرڤا وكلمة اكرپوليس كلمة عامة يمكن أطلاقها على أي موقع محصن وان كان خارج بلاد اليونان.

تحصينات الاكرپوليس في اثينا هدمها الفرس اثناء أحتلالهم المدينة وسووا بالأرض اسوارها وهي كلها. الاّ ان (كيمون) الذي سترد سيرته في واحد من الأجزاء التالية قام بتجديد معظم للسور المحيط به بعد معركة (يوريميدون) في العام 468 ق.م.

يحمنا من الاكرپوليس الذي كان في عهـود طويلة مقراً لحكام آثينا وحكوماتها. نيابة اليـارثـنون وهي أهم آثار الاكـرپوليس على الأطلاق. كـمـا بدت في الرسم التـخطيطي للاكرپوليس المنقول عن دائرة المعارف البريطانية (مادة آثينا).

ابنية قليلة في العالم استخدمت امكنة عبادة لديانات مختلفة. والبارثنون بقشرته المحطمة والمشوهة ما زالت تأخذ باللب. صمم بناءه (اكتينوس Actinus) على هيئة مستطيل كما يرى في الصورة عرضه 101.34 قدماً وطوله 224.14 قدماً. بدأ معبداً للالاهة آثينا وتحول الى كنيسة للعذراء مريم وانتهى بصيرورته مسجداً لنبيّ الله محمد. والسياح اليوم ومنذ حازت اليونان استقلالها في مطلع القرن التاسع عشر يصعدون الاكرپوليس ليتجولوا في ارجاء المعبد



PLAN OF THE ACROPOLIS, ATHENS

ويقفوا تحت اساطينه القائمة ليلتقطوا تصاويرهم. بوصفه اروع ما أنجزه الاغريق او ربما اي نحات آخر. ان الدقة الحسابية وجمال التصميم التحما معاً ليخرجا منحوته تنبض بالحياة، كأنها نحتت من قطعة رخامية واحدة هائلة الجرم بل حتى الرخام فيه يغير من الوانه بتغيير الضياء الواقع عليه. حتى الآن ورغم الخراب العظيم الذي نزل به فانه يمثل الميزات الرفيعة للطبع اليوناني وذوقه الغريزي كما عبر عنه منشئه الحاكم (پيركليس) بقوله «نحن نحب الجميل وان كان ساذجاً بسيطاً في ذوقنا. ونحن نهذب العقل دون خسارة الرجولة». كان ذلك في حدود 450 ق.م عندما شرع في بناء المباني الجميلة في هذه المدينة التي تحدّت قوة الفرس وتسلّمت قيادة العالم الأغريقي وكان الپارثنون ابرز تلك الابنية على الاطلاق اقيم في موضع هيكل قديم للآلهة عينها. طبق المهندس والنحات العظيم فيدياس Pheidias، تصميم اكتيونس وجرى العمل وفق تصاميمه بتعاون عدد كبير من المتعهدين المحليين على أساس القطعة. ومن ضمنها الاعمال المتعلقة بالمنحوتات والأشكال. كل طاقم من النحاتين يعمل لنفسه والقطعه النحوته (تمثال وما اشبه) سُقرت بستين دراخما.

انتهى بناء الپارثنون في 432 ق.م. باستثناء السقف الخشبي بقي الپارثنون في الاكرپوليس (يحمي) آثينا تسعة قرون سيما خلال حرب الپيلوپونيس بعد الانتهاء من تحصين الاكرپوليس لعام واحد 431 ق.م وبقى الپارثنون قائماً شامخاً رغم الخراب الذي احدثته هي وما تلاها من الحروب ورغم اضمحلال مركز المدينة حوفظت قدسية الاكرپوليس لوجود البارثنون فيه عند نشوب الجرب بين المقدونيين والأغريق. وقد قام والاسكندر نفسه بتزيين واجهته.

واهمل الاكرپوليس في احيان عديدة واعتدى عليه بالسرقات خلفاءُ الاسكندر المتنازعين فيما بينهم، وعومل الاكرپوليس باحترام عندما ضمت اليونان الى الامبراطورية الرومانية الاّ ان احفاد (پركليس) غرتهم معاملة الرومان واتفقوا على حلف عسكري ضد روما مع الملك الأرمني ميثيربدات وفي 88 ق.م فحاصر جنود (سيللا) المدينة واقتحمها وأطلق عسكره يقتل وينهب ويسلب.

والظاهر من وصف پاوسنياس في القرن الثاني الميلادي ان معظم ابنية الاكروپوليس وأظهرها البارثنون - سلمت وكانت قائمة مثلما بنيت قبل ستمائة عام.

في العام 330 م أعلن الامبراطور قسطنطين المسيحية ديناً رسمياً. وفي العام 400 ميلادية أنقلب الپارثنون من هيكل لآثينا الى كنيسة مسيحية للعذراء مريم (ثيودوكس) وكمل تحويل داخلها (المذبح) الى هيكل تقام فيه المراسم الدينية المسيحية مكرّسة على الطقس الارثدكسي. وازدانت الحيطان من الداخل بصور القديسين حتى السقوف بفن التكفيت

الرخامي (الفريسكو). وفي 1204 أقتحمت الكرپوليس غوغاء الصليبين في الحرب الصليبية الرابعة. بعد استيلائهم على القسطنطينية واقتسم الامراء والفرسان الطليان والفرنسيون الاقاليم اليونانية بينهم وكلهم عدوّ متحمس لمذهب الارثدكسي. هؤلاء الرعاع لم يكونوا على اطلاع بمجد اثينا وقدسية الاكرپوليس كانوا ويعتبرون الارثدكسية مجرد زندقة يجب انه تحارب بجميع الوسائل. فنهبوا كل ما هو ثمين في الپارثنون واذابوا الأوعية المقدسة واتلفوا مكتبة الاسقفية. وأصبحت اثينا من حصة نبيل بورغندي. وسمي الاكرپوليس باسم جديد بلغة مالكه وباسمه Cháteau de Sathines وجعل مقراً للحاكم العسكري الفرانكي. وسيم لكاتدرائية العذراء (الپارثنون) بطريرك فرنسي وصادق الپاپا انوسنت الثالث على هذه التغييرات.

في العام 1453 دخل محمد الثاني الفاتح القسطنطينية ودانت له اثينا التي دخلها دخول الظافر، حامداً الله لأنه «رأي في حياته امّ الفلاسفة» وبقي اربعة ايام يرتاد مواقعها الأثرية والتاريخية، وقال عنها «انها أعز عليه من كل مدن مملكته، وأعاد الاعتبار الى كهنة الارثدكس والغى الطقوس اللاتينية التي عاشت فيها حوالي قرنين ونصف قرن. الاّ انه كان استثناء عن سائر السلاطين الذين عقبوه، اذ ما جاءت نهاية القرن الخامس عشر حتى تحول البارثنون الى مسجد وانتهى دور كنيسة العذراء مريم، فالآغا التركي (القائد) لحامية المدينة اتخذ مسكنه في الاكرپوليس وفي ملحقات الكنيسة بالضبط وقسّمها الى دار حكومة ودار حريم وغاب الاكرپوليس في ثنايا التاريخ حتى القرن السابع عشر حيث أخذ الفضول السياح فوجهوا اهتمامهم اليه وتعاقبت الارساليات الدينية الجزويتية (في 1645، وفي 1772) وكتبت تقارير عن الزيارات وقبل انه يلحق الخراب التام بالاكروپوليس ذكر ان السفير الفرنسي في تركيا المركيزدي توانتيل قصده بصحبة رسام فلمنكي وعمل مخططاً له، وعقبه جورج ويلر البحاثة الكلاسيكي الانكليزي بصحبة رسام فرنسي بدراسة كلّ ما على قمة الاكرپوليس مستخدمين وصف پارسنياس.

في العام ١٦٨٧ هاجم البنادقة بقيادة فرانشسكو موروسيني الحامية التركية في الاكرپوليس بعد اجتياحهم معظم بلاد اليونان فتحصن الاتراك فيه واختزنوا بارودهم في البارثنون. وفي ٢٦ من ايلول ١٦٨٧ اسقط المهاجمون قنبرة وسط البارثنون فانفجر البارود وأحدث تخريباً هائلاً منها سقوط الجناح الغربي بكامله، وتشويه اوجه الكثير من التماثيل لم يكن هناك اي أملٍ باصلاح الخراب الذي احدثه هذا القصف لاسيما بالتماثيل ولم يكتف (موروسيني) بهذا التخريب بل حاول قلع تماثيل بوسيدون وخيول مركبة آثينا من المدخل

الغربي فسقط الجميع على الأرض وأصبحوا حطاماً لا يسوى نقلها الى مدينته شيئاً إلاّ انه ارضاءً لرغبته هذه قام بنقل اربعة أسود من الرخام ما زالت تزين قمة قصر الارسنال في البندقية.

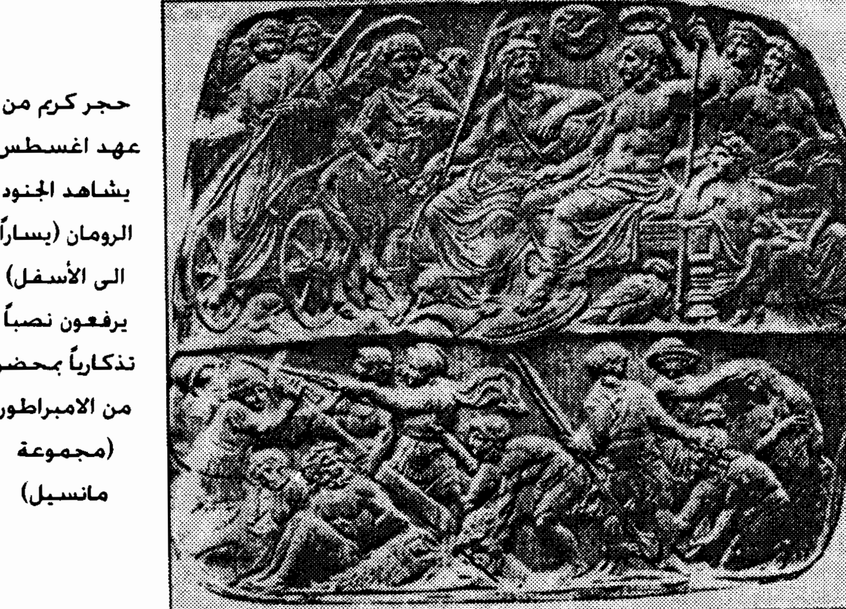
وفي العام 1801 استحصل اللورد آلجين سفير بريطانيا في استانبول رخصة من الترك تخوله حيازة ونقل اي قطعة رخامية من الاكربوليس عليها كتابات ونقوش ومن ضمنها التماثيل. وترجمت هذه الاجازة على نحو واسع وبسخاءٍ عظيم واستخدم لورد آلجين مئات العمال لنقل ما بقي من تماثيل البارثنون. وقد قدر عددها صدقاً أو كذباً بثمانين قطعة حملت كلها الى بريطانيا ، وهناك قام المتحف البريطاني بشرائها بمبلغ 35 الف پاون.

ثارت الخواطر على ما فعله لورد آلجين، وهجاه والشاعر البريطاني المفلق لورد بايرون ولقبّه بالسارق.

منذ حيازة اليونان استقلالها في 1827 واعلانها آثينا في 1834 عاصمة لها وهي تطالب كل جهة من الجهات التي نهبت الاكربوليس والبانثيون باعادة ما سلبته من تماثيل وقطع أثرية. كما بدت باصلاح ما أمكن اصلاحه من هذا الأثر العظيم وهدم المسجد ورفعت البنايات التي اقامها الترك كما أعيد نصب الاساطين المتهافتة وترميم ما بقي من سور الاكربوليس الى غير ذلك من اصلاحات ما أمكن.



نقش من عمود تراجان. يظهر مسيرة عسكرية حول خط الخيم في معسكر فرقة رومانية



حجر كريم من عهد اغسطس. يشاهد الجنود الرومان (يساراً الى الأسفل) يرفعون نصباً تذكارياً بمحضر من الامبراطور (مجموعة مانسيل)

٢ - دلفي

هيكل استخارة

يقع في اقليم (فيوكيس) بالقرب من قرية عرفت أيضاً باسم دلفي وعلى مجنبة من جبل پارناسوس القريب من آثينا.

كانت تعتبر دلفي عند اليونان مركز الأرض ويرتبط اعتبارها كذلك من أسطورة تقول ان رئيس الآلهة (زفس) أطلق نسرين اثنين، واحدٌ من جهة الغرب وأخرى جهة الشرق على أن يكون اتجاههما نحو المركز فالتقيا في دلفي.

وقد أبدت التنقيبات التي جرت موقعياً ان الموضع كان مسكوناً منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد. على ان التاريخ الحقيقي لدلفي بدأ في القرن السادس ق.م. اذ اصبحت مركز العرافة بالمستقبل بعد التحاقها بالعصبة الامفياكتونية واهم مراكز الكشف عن حجب المستقبل والنهي أو السماح بمباشرة هذا العمل او ذاك بوساطة الكاهنات أو العرّافات اللاتي يلازمنه. ولم تكن (دلفي) تستشار في أمور الدولة وحدها بل في شؤون المرء الخاصة وكثيراً ما كان لنتائج عرافتها القول الفصل في السياسة وميادين النشاط الوطني.

في دلفي كان يوجد شق في الأرض ينطلق منه غازٌ يؤثر في الأعصاب ويترك المستنشق في حالة من الهذيان وتقربه من الغيبوبة. وأفترض في هذا الغاز انه انفاس الآله اپوللو.

وعند الاستخارة كان ثم كاهنة تجلس على كرسي ثلاثي الارجل موضوعة فوق الشق لتستنشق الغاز. فتروح في شبه غيبوبة يخرجها عن وعيها لكنه لا يمنعها من الكلام. وعندما يقوم القادم بسؤالها وانتظار الجواب فانها تنطق بأقوال مبهمة قد لا ترتبط بعلة القدوم اليها وتعتبر الاستخارة فاشلة اي ان الآله لا يريد ان يقطع في القضية وانما يترك التصرف بها لاصحابها أو أنها تتقول باشياء مبهمة وعندها يقوم كاهن باخبار الزائرين بما قالت.

سيرى القاريء فيما بعد أن القادمين يقصدون دلفي من أماكن بعيدة بهدايا وتقدمات نفيسه استرضاء للموافقة الالهية على ما يخططون وينتوون أو النصح بالابتعاد عن عمل ما ينتوون أو معرفة ما يجب عليهم عمله او ما سيحدث وهم مطلقاً يعتقدون بما تشير عليهم النبؤة وفي العادة يكون الجواب اشبه باللغز يفهم باشكالٍ مختلفة ويفسّر بمعانٍ عديدة، وعلى سبيل مثال: ملك يريد شنّ حربٍ على ملك آخر، ما هي النتيجة؟ من سيكون الرابح؟ وتأتي الاجابة المحيّرة من فم الكاهنة: «ستسقط مملكة عظيمة!». وهنا يترتب على المستخير ان يقطع اي مملكة ستسقط أملكته أم مملكة خصمه؟

فقدت دلفي قيمتها وشهرتها بمجيء المسيحيّة ولم يعد لها قيمة بعد انقراض الوثنية. وبدأت (المدرسة الفرنسية) الاركيولوجية عملية التنقيب في الموقع في 1892. ومن نتائج ما توصلت اليخ آكتشافها هيكل ابوللو والمذبح الذي خصص لأهالي (جنوس) وهما في أسفل الاستاديوم والمسرح وآثارهما باقية.

٣- الـفـورم Forum

بالاصل ساحة مفتوحة (ميدان) تجدها في سائر المدن الرومانية تستخدم كأماكن لقاء أو كالاگورا اليونانية اي سوقاً عاماً للتبادل التجاري. أو لتصريف الشؤون السياسية أو المقاضاة أو مجلس قضاة ويكون مستوى السطح متساوياً وبهيئة مستطيل عادة ويحاط باعمدة أو بهياكل عبادة صغيرة (باسيليكا) أو معابد أو بنايات المحاكم أو ما سواها من ابنية تشيد للاغراض العامة. وفي قوانين الالواح الاثني عشر استخدمت الكلمة بوصفها مدخلاً للقبر. وفي المعسكر الروماني يكون الفورم فضاءً لا تحيط به بنايات أو اسيجة يقام الى جانب مقر قيادة الجيش (الپريتوريوم).

عموماً يراد من الكلمة اللاتينية الساحة المفتوحة أمام باب بناية أو مخرجها.

وفي روما أشارت الكلمة الى ساحة من الأرض كانت مستنقعاً جُفف - تقع بين تليّ الكاپيتولين والپالاتين. ويعرف للموقع أيضاً بـ(فورم رومانوم Forum Romanum). وقد خصص في العهد الملكي للاجتماعات العامة (الشعبية) عندما كان يتعذر الاجتماع من ميدان الكاپيتولينا Area Capitolina. وقبلها كان الفورم في روما يستخدم لألعاب المصارعة وغيرها. وقد بنيت فوق الأعمدة المحيطة به مقصورات للمتفرجين.

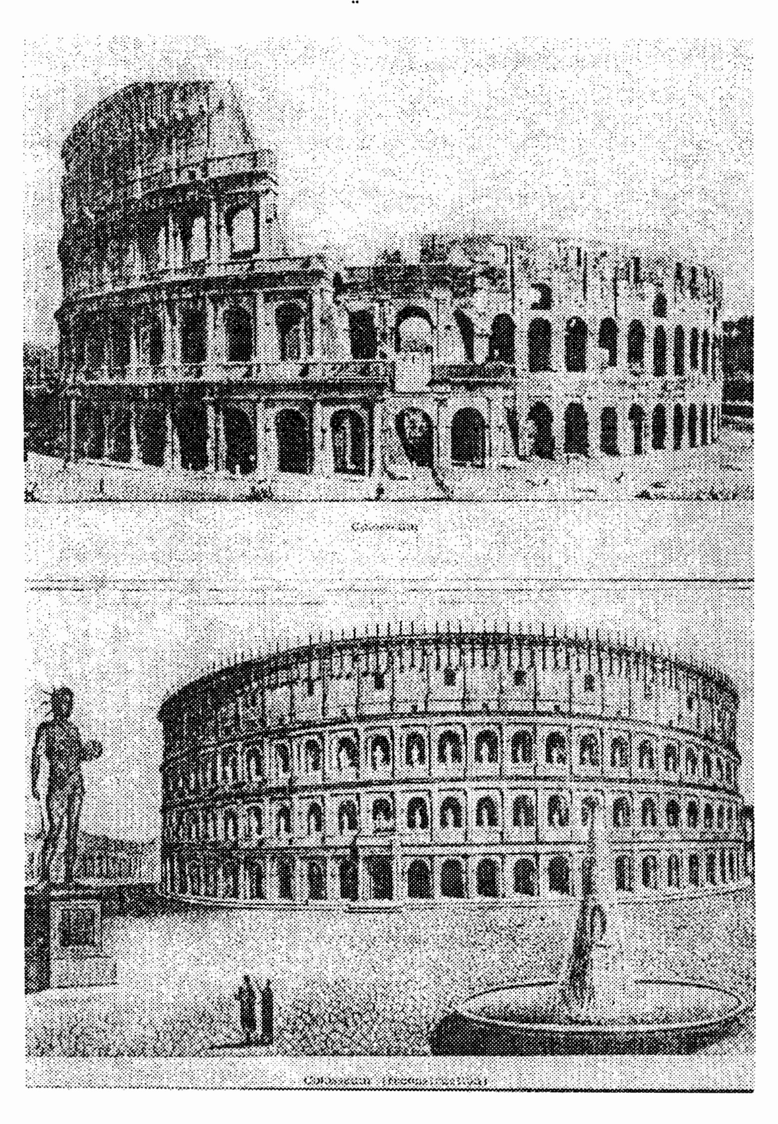
وباتساع رقعة المدينة أقيم أكثر من فورم واحد، ويختص كلّ منها بناحية حياتية، فاستحدث فورم قضائي تجرى فيه مرافعات المتقاضين ويجلس قاضٍ فيها للفصل في الدعاوى ويترافع امامه المدعون أو وكلاؤهم.

واستخدم فورم خصيصاً لبيع الخضراوات، وفورم قاصر على بيوع وشراء الماشية. وفي أواخر أيام الجمهورية وأوائل العهد الامبراطوري استحدث عدد من الميادن (الفورم) مثل فورم (پومپي) وفورم (تراجان) وفورم (ڤبساسيان) وقد خلف هؤلاء وغيرهم آثاراً لهم فيها.

في العادة يكون الفورم ذا سطح مستوٍ مرصوف وفي الأعياد العامة والاجتماعات

السياسية كان يسمح للعجلات بدخوله وهو مفتوح من جميع جانب ولا أبواب مُقدمة في أي جزءٍ منه والدخول والخروج لا يعوقه عائق.

هذا ما تأيد من فورم (مدينة پومپي) التي ازيح عنها رماد بركان ڤيزوڤ. فضلاً عن مخططات أخرى للفورم في مدن عدة، وأظهرها (فورم روما) الذي ترى صورته الحالية أو بعبارة أخرى انقاضه الى جانب مخططات له تعطي صورة واضحة لشكله الأول ومحتوياته.



٤- نظام الحكم الآثيني
(دولة المدينة Polis)
على ضوء اصلاحات صولون

الديمقراطية السياسية في نظام الحكم الآثيني وصلت الى أقصى نهاية منطقية لها. بطبيعة الحال هناك من ينكر على آثينا ديمقراطية نظامها لأن جميع النساء والعبيد والغرباء المقيمين فيها محرمون من حق التصويت، ولا يحق لهم في المداخلة وادارة شؤون الدولة. فآثينا ليست والحالة هذه ديمقراطية اذا عرّفنا الديمقراطية بأنها نظام يقضي بمشاركة جميع البالغين من السكان وانه لا يمكن ادراج نظامها ضمن ايّ نوع من أنواع ديمقراطيات عصرنا هذا، باعتبار الحجم والسعة وعدد السكان حيث كان من الواجب على كل دولة حديثة اناطة الحكم بممثلين واداريين محترمين فدولة المدينة كأثينا مثلاً قد يكون بحسابنا هذا مشكلاً من اشكال الانظمة الاوليغارشية[١]. اما اذا عرفنا نظامها بانه مشاركة جميع المواطنين في الحكم فبالامكان اعتبار آثينا دولة ديمقراطية. علينا أيضاً ان نتذكر بان من شروط المواطنة الاغريقية ان يكون الشخص مولوداً لأبوين أغريقيين أو أبٍ على الأقل. والدولة الاغريقية هي نضرياً أو شعورياً بالنظر الى هذا، مجموعةٌ من الاقرباء أو مجرد أهالي منطقة أو حيّ معين.

على ان التحديد الدقيق للديمقراطية بالنسبة الى ما نرى اليه حالياً ليس مهّماً[٢]. لأن

---

(١) Oligarchy: اللفظ التقليدي المستخدم لنعت حكم القلّة أو الصفوة المختارة عندما لا ينظر الحاكم بعين الرضا. استخدمه ارسطو لتعريف حكم الأقلية عندما لا يمارسه أفضل الاشخاص بل أظلمهم واسوأهم.

(٢) لما كان معنى كلمة ديمقراطية ينطوي على أهمية فبوسعنا أن نشرح المقصود بها في الاستعمال اليوناني، في الاحاديث العادية كلمة Demokratia تعني حرفياً «السيطرة بواسطة الشعب» اي الديمقراطية السياسية كما جئنا الى وصفها في المتن. إلاّ ان النظريين السياسيين لاسيما افلاطون وارسطو استخدموها لتعني «حكومة من الفقراء» وعلى هذا الاساس فقد ادانوها باعتبارها نظاماً أو شكلاً معكوساً من أشكال الاوليگارشية أو الديكتاتورية. أو حكم الطغيان. اي حكومة هدفها النفع الخاص وكلمة Polity والشيء بالشيء يذكر هي الاسم الذي لقبت به حكومة اتفق عليها الجميع دون أن تختص بطبقة.

اهتمامنا ينصبّ في كيفية عمل الاجهزة السياسيّة في اثينا وما هو مقدار تأثيرها وعملها في الحياة، وفي عقول الاثينيين.

الجمعية العامة هي الرأس، وهي السلطة العليا. وقد جاهد الآثينيون بكل طاقاتهم للابقاء على هيمنتها وعلى سلطاتها وان رمزياً (على الورق). ولم يكن هناك أية قابلية في اثينا لجهاز أو ماكنة ادارية تتولى زمام الحكم ذات فائدة بحجم صغير. وتتألف الجمعية العامة من كل ذكر بالغ، قَبِلهُ مجلس الديمي Deme (مجلس المنطقة) وأفتى بانه مؤهل وحائز الشروط المطلوبة شرعاً وانه لم يحرم شرعاً من حق التصويت بسبب ارتكابه جرماً خطيراً. والغي شرط الملكية والقدرة الملكية وأكتفى بشرط أوجب على الاثينيّ اثناء قيام حرب، أن يُزودّ نفسه بشكة سلاحه وجميع المعدات التي تؤهله للانخراط في الجيش وان يكون قادراً مالياً على تأمين حصانه والانفاق على علفه ان كان من صنف الخيالة.

على أن الحكومة Polis مكلفة من طرف آخر بالانفاق على مأكله عندما يكون في سلك الخدمة الفعلية. اما المواطنون ذوو الامكانات الماليّة الجيدة فهم يخدمون في صنف المشاة الثقيلة (الهوبلتيس Hoplite) وهم يجهزون انفسهم بالسلاح. اما الفقراء الذين لا يملكون ما ينفقون به على سلاحهم فهم يبقون في الاحتياط أو يستخدمون جذافين في الاسطول. ويخدم في الجيش الغرباء كالمواطنين سواء بسواء. ولا يستخدم العبيد لا في الجيش ولا في الأسطول الاّ عند الضرورة القصوى، عندما يحدق بالوطن أعظم الخطر وعندها يدعى العبيد للتطوع مع وعدٍ أو تعهد حكومي يوفى به دوماً بالعتق وحق المواطنة المدني الكامل Civl بدون حق المساهمة في العمل السياسي Politicia.

الجمعية العامة هي جلسة عامة علنية يحضرها كل المواطنين الذكور الذين لهم حق التصويت وهي السلطة الاشتراعية الوحيدة ولها سلطة الهيمنة بطرق ووسائل مختلفة في الاشراف على الادارة والقضاء.

في الإدارة: لم يعد للاريوباغوس القديم المؤلف من الاراخنة السابقين ما يعمله في الأزمنة المتأخرة، غير الفصل في قضايا القتول. كان الأراخنة (ج: ارخون) في زمن ما ذوي سلطة واسعة. تختارهم الجمعية العامة سنوياً بطريق الاقتراع العلني. ان مواطن في اي عمرٍ يمكن ان يرشح نفسه لملء كرسيّ واحدٍ من الأراخنة التسعة. واناطة أمر انتخابهم بالجمعية العامة يعني بالطبع ان سلطتهم مستمدة منها وان السلطة باقية عند الجمعية. والجمعية تلتئم مرة واحدة كلّ شهر. الاّ اذا اقتضى امرٌ طاريء عقد اجتماع غير عادي للفصل في قضية هامة.

الكلام في الاجتماع هو حق من حقوق المواطن عندما يفلح في استرعا انتباه الاعضاء للاصغاء اليه. ولكل مواطن حاضر الحق في اقتراح اي شيء ضمن قيود دستورية احترازية مرسومة.

إن جمعيّة كبيرة كهذه تحتاج الى مجلس أو لجنة تسمّى البولي Boule أو المجلس الذي يتألف من 500 عضو غير منتخبين لكن يختارون بالقرعة. لكل قبيلة (عشيرة) من القبائل العشرة خمسون عضواً. هذا المجلس يختار كما رأينا بشكل اعتباطي ويضم اعضاءً يختارون سنويّاً وهم بطبيعة الحال ذوو مشارب مختلفة لا يؤمل منهم كثير من الشعور التعاضدي الموحّد وهذا هو الغرض والهدف من الفكرة، لا شيء يهيمن على جوّ الجمعيّة العامة وتبقى حَرّة بوجه اي تغلّب أو تأثير.

الاجهزة الادارية تملأ باعضاء من المجلس التحضيري (البولي). ولما لم يكن بالامكان عملاً أن يحضر أعضاء الخمسمائة في جلسات متواصلة. فكثرتهم تحول دون تكوين هيئة تنفيذية فعّالة. لذلك يختار خمسون عضواً لتكوين مجلس البريتاني Prytany من القبائل العشرة، يبقى في حالة اجتماع لعُشر سنة. ويختار هذا المجلس رئيسه لكل يومٍ بالقرعة، اي يكون رئيساً له طوال اربع وعشرين ساعة فقط ويعتبر رئيساً تشريفيا للدولة(٣).

لوضع حدودٍ أخرى على تصرفات الهيئات الادارية فرض علي جميع الحكام الذين انتهت فترة خدمتهم تقديم حساب عن أعمالهم الرسمية ولا تنتهى مسؤوليتهم أو تعرضهم للاتهام حتى يقدموا هذا البيان الذي يسمىّ اوديت Audit. ويبقون شبه محجوزين ولا يحق لهم مغادرة اثينا او بيع اي شيء من ممتلكاتهم.

هناك دائرة واحدة لم يكن بالامكان تركها عرضة لمخاطر التصويت هي قيادة القوات البحرية أو البريّة. فهذه الهيئة وتسمى ستراتيگوي Stratigoi تتألف من جنرالية أو امراء بحر عشرة ينتخبون لمدة سنة واحدة كاملة واعادة الانتخاب جائزة بل هو امرٌ اعتيادي في الواقع. وليس بالأمر الغريب عند الاثينين ان يتولى جندي بسيط مهمة الجنرال ويتقلد رتبته في معركة، وان تراه في معركة أخرى وقد عاد جندياً بسيطاً. تلك هي الصورة الاكثر تطرفاً في المفهوم المبدئي للديمقراطية. اي «تَحكم (بفتح التاء) وان تُحكم (بضم التاء) بالتناوب».

---

(٣) اتفق ان تقلد سقراط الفيلسوف هذا المنصب يوماً واحداً عندما أشرفت حرب البلوپونيز على النهاية ودبّ الانقسام في الجمعية كما يحصل في بعض الأحيان. وطلبت الجمعية من دون اي علّة أو مبرر قانوني اصدار وثيقة اتهام بكل مجلس الجنرالية لفشلهم في انقاذ الناجين من المعركة البحرية (اركينوساي). إلاّ ان سقراط تحدّى الغوغاء ورفض انه يوضع الاقتراح في التصويت.

إن الجنرال أو الستراتيكوي بوصفه الموظف الوحيد الذي ينتخب بسبب مؤهلاته وقابلياته الخاصة ويتولى مثل هذا المنصب الذي لايدانيه منصب في خطورته، نجده يمارس نفوذاً عظيماً وسلطة واسعة في شؤون المدينة(٤).

ولايقتصر سلطان الجمعية على أمور الاشتراع والادارة بل يتعداه الى امور القضاء. وكما انه لايوجد هناك اداريون محترمون. كذلك لا يوجد قضاه محترفون ولا مدعون عامون ولا محامون، والمبدء السائد هو ان المغدور أو المدعي يتقدم بشكواه رأساً الى بني جلدته من المواطنين - الى المحاكم المحلية في المسائل الشخصية أو البسيطة والى المحاكم الآثينية في المسائل الجسيمة كالقتل والسرقة وسائر الجرائم المدينة. وتتألف للفصل فيها هيئة محلفين Juru وهيئة قضاة هي في الواقع قسمٌ من الجمعية العامة ويختلف حجمها بين مائة عضو وعضو واحد 101 والف عضو وعضو واحد 1001 بالنظر الى أهمية القضية. وليس هناك قاضٍ وانما مجرد شخص يرأس الجلسة المخصصة لسماع المرافعة من بين هيئة المحلفين وهو بهذا الاعتبار يشبه ما يدعى بـ(فورمان Forman) في نظام هيئة المحلفين الاوربية الحالية. وكما قلنا ليس هناك ادعاء عام ولا محامون والطرفان مكلفان بالسير في مراحل الدعوى بشخصيهما وان كان بمقدور المدعي أو المتهم - كما جرت العادة ان يسمح لهما باستخدام خطيب (كاتب خطب) يعدّ للمتهم دفاعه على شكل خطبة يجب ان يلقيها هو بنفسه ولا حق له بانابة آخر الالقائها عنه. كذلك الأمر بادّعاء المدعي.

تلك هي هيئة المحلفين الشعبيّة وكيفية تأليفها ومدى صلاحيتها هي الفصل في الوقائع وفي تطبيق القانون وليس هناك محكمة أعلى منها وليس هناك استئناف وان لم يكن يوجد عقوبة محددة في القانون للجرائم، ولذلك ففيما ان هيئة المحلفين عن فرض اي نوع من العقوبة يكون على المدعى الذي فاز في دعواه ان يقترح اولاً العقوبة التي يريدها وبعدها يقدم المحكوم اقتراحاً خصوصياً كبديل لاقتراح المدعي. ثم يترك الاختيار للهيئة القضائية بين الاقتراحين(٥).

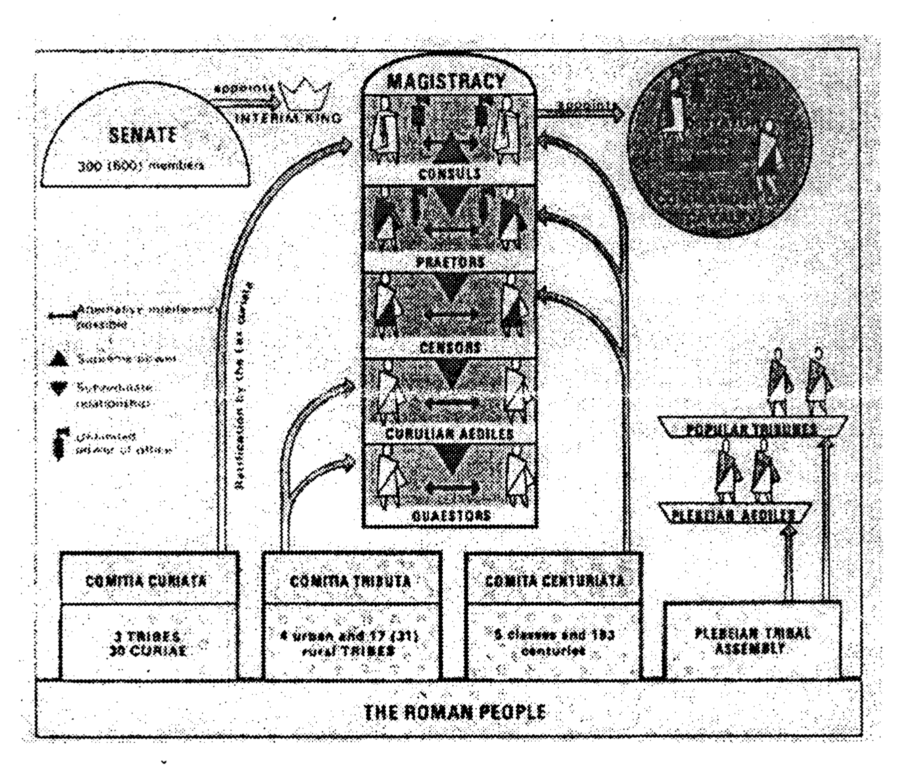
من كل ما جئنا الى شرحه. يستنتج القاريء ان شؤون الدولة في اثينا يديرها هواةٌ، وان

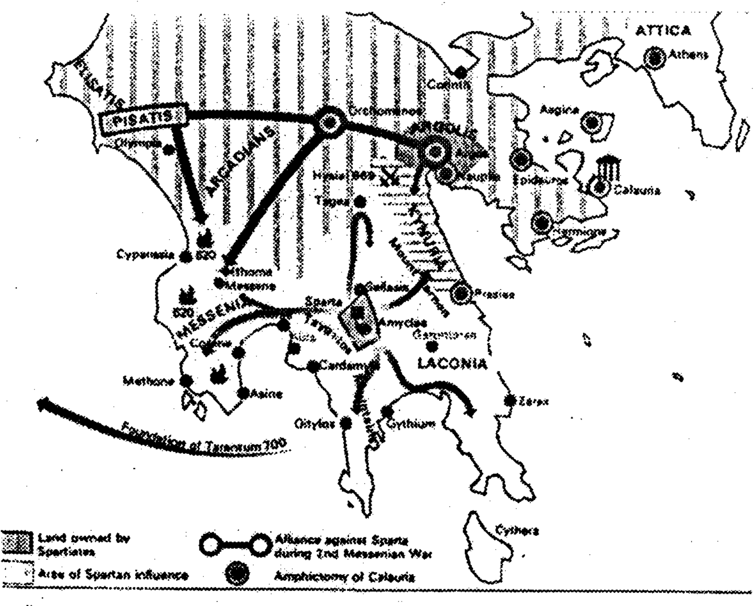
---

(٤) من خلال هذا المنصب ومركزه في الجمعية العامة استطاع بيركليس مثلاً أن يقود الاثينيين مدة طويلة.

(٥) هذا ما يفسر الاجراءات الفضائية في محاكمة سقراط (٤٧٠-٣٩٩ ق.م) التي وردت في كتاب افلاطون (ابولوجيا: الدفاع) (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) طلب المدعون فرض عقوبة الموت. الا ان سقراط اقترح تغريمه فحسب مينا واحدة لأنه لا يملك أكثر من هذا واصرّ على ذلك فأثار موجة من السخرية والتندر. في حين لو انه اقترح النفي فقد كان يسرّ ذلك هيئة المحلفين وتقبل به بكل سرور.

ذوى ألاحتراف لا يعطى لهم فسحة للعمل أو مجال لمارسة مهاراتهم الاّ الاقل منهم. القليل والواقع ان الخبير فيهم هو عادة (عبد شعبي) وكل آثيني التبعيّة أما جندي أو بحار أو مشترع أو قاضٍ أو عضو ادارة إن لم يكن (ارخوناً) وهو حتماً عضو في (البولي) وقد انتقد افلاطون وسقراط هذا النظام لا لانه غير فعال بل لأنه اودع الأمور بيد جهلة جهلاً تاماً بمزاولة (فنّ السياسة) لتحسين أحوال الناس.





ie Peloponnesus to 500 B.C.

ملحق

الجيش الروماني

النظام - التركيب - الاستحكام - العقيدة - النبوءات

الجندي الروماني أينما كان موجوداً ضمن تخوم الامبراطورية الواسعة الأرجاء يمحض ولاءه وإخلاصه المباشر والمطلق للدولة وللامبراطور والى آلهة روما الوطنية. ودين الجيش ينسرب بدقة وحذقٍ الى هذه المثل الموحدة فالجندي الروماني على هذا الأساس له ان يزعم بانه مشارك فعّال في مصائر روما ويستمد رضى النفس والراحة الفكرية من الاعتقاد بأنه انما ينجز واجباً مقدساً عن طريق هذه المشاركة. والتقوى على هذا الاساس تعد فعلاً من الفضائل عند العسكري كالشجاعة والحذاقة في استخدام السلاح وآلات الحرب. ولذلك كان الدين عاملاً هاماً في نجاح الماكنة الحربية الرومانية عبر العصور مثلما أمن للجيش الروماني عامل التفوق في التنظيم والضبط والتسليح والتاكتيك فمنذ أوائل العهد الجمهوري وجد الرومان في الدين رابطة وثيقة بين انفسهم وبين الآلهة من اعتقادهم بأن السلطة المطلقة الرومانية تنبثق من هذه الآلهة وهي التي تحميها. فالموضوع والحالة هذه وفي كل حين هو أمر في غاية من الاهمية. وليس هناك ما هو أكثر ظهوراً من المنجزات العسكرية وهي سرّ بقاء الامبراطورية ومصدر امنها.

ان الاصلاحات التي احدثتها الامبراطورية الاوغسطية (نسبة الى اغسطس قيصر) الى جانب اشاعتها النظام المبدئي في التطبيق، لم تستغن عن الكثير من التقاليد العسكرية الرومانية ولم تعمد الى خلخلة احكامها. وقد استغل اوغسطس قيصر مركزه بوصفه الفرد المنتصر في الحكم الثلاثي (راجع سيرة يوليوس قيصر). استغل مركزه هذا ليغدو «المواطن القائد Princeps » والامبراطور (القائد الاعلى للجيش Imperator) معاً وهو جمع في غاية الذكاء لسلطة واحدة دون لقبٍ أو صفة (ملك) فبوصفه پرنسيپس، كان كما وصفه احد

الكتاب «الاول بين الأقران Primus inter pares». لكن ختمه كان يساند مائة واربعين سيفاً من جنود فرقه واول ما عمله من اصلاح هو انقاص عدد الفرق الرومانية (والجنود هم مواطنون رومان) فأصبح قوام الجيش الروماني حوالي ٢٨ فرقة بعد ان كان ٥٠ وملاك الفرقة خمسة آلاف ضابط وجندي مقسمة الى خمسين سرية على رأس كلٍ آمرُ سرية (سنتوريون) وأنيط بكل فرقة واجب محدد لاتتعداه وألغى الجيش الاحتياطي القادر على الاخلال بتوازن السلطة.

والى جانب الفرق الرومانية كان هناك قطعات عسكرية نظامية من الشعوب الأخرى التابعة، نظمت بشكل ألوية (ج لواء Cohert) تعداد الواحد منها يبلغ ألفاً من الجنود والضباط وانيط بهذه الوحدات واجبات الدوريات والمحافظة على الأمن في الحدود، ومساندة الفرق الرومانية حيثما تمّ حشدها في النقاط الستراتيجية.

ويهيء الجيش له مخيماً (قلعة)، وهي قاعدة أو مقرّ منتظم له حين يخرج للقتال في ارض العدو، وهذه تكون بمثابة مقرات شتوية. يجرى فيها النظام الصارم ويطبق تدريب متواصل وتكون الوحدات في درجة انذار قصوى على الدوام. قانون انضباط حازم شديد خضع له الجنود والضباط معاً ولم يستثن منه أحد. وعندما يكمل جنود الاحتياط هؤلاء مدة خدمتهم بجدارة فانهم يمنحون صفة المواطن الروماني.

وكما بيّنا آنفاً ينسحب ولاء الجندي أيضاً الى الآلهة الرئيسة عند الشعب الروماني بالدرجة الاولى فضلاً عن ولائهم للامبراطور رئيس دولة وقائد عام للجيش معاً.

كان يفرض على العسكري قبل عهد (اغسطس) قسم يمين الولاء لقادة الميدان. وهو عمل فيه من الخطر ما فيه وكثيراً ما ادى الى حرب أهلية. اما الآن فليس هناك غير قائد واحد وله تقسم اليمين وهو كبير الآلهة (جوبتر او بتيمسوس ماكسموس) وهو الذي يتقدم الكل وبرمحه الذي يرسل الصواعق يحمي الدولة، وقواه الطاغية في التدمير مصورة على دروع ومجنات وتروس الجنود، وطيره الجارح النسر تراه يرتفع على قطب كالرّاية امام الجنود مصنوعاً من الفضة. والنزول عن هذه الراية او فقدانها يصم بالعار الاكبر حامله ويصيب الوحدة بهزيمة مخجلة لا منجى منها.

سنوياً وفي اليوم الأول من شهر كانون الثاني. يقام استعراض عسكري بكل شكة الحرب والسلاح امام كل مخيم (قلعة) يعلن فيه تجدد الولاء لجوبتر وتوقد له نار جديدة. ويتم لهذا الغرض تمهيد ساحة بمساحة ١٠٠ ياردة مربعة لتقام عليها منصة القائد لتلقى تحية القطعات وهي تمرّ به اثناء الاستعراض ويبنى فيها مذبح لجوبتر Tribunal وقد اكتشف هذا في مواطن

عديدة اوروبيه. فتكريم الامبراطور الحاكم وتأليهه هما القاعده التي لا يحاد عنها في كل معسكر روماني وهناك مذبح مكرس «لروح سيدنا الامبراطور» ويبنى بمواجهة العدو، ويحتفظ فيه بالراية والاوعية الدينية التقليدية وغير ذلك من ادوات المراسيم والاشياء والغنائم الثمينة ورواتب الجنود. ودوائر الادارة وأماكن حفظ السجلات تحتلها حجرات مساعد القائد وموظفيه ومعاونيه وتدعى كورنيكيولاريس Cornicularis وأمّا مقر القائد المركزي فيبنى له او ينصب له خيمة أخرى ويدعى بريتوريوم Praetorium. وفيها يجتمع اليه مجلس الحرب ورؤساء الاركان والضباط للتخطيط للحملة او المعركة المقبلة اذ كان يجب على القائد اضافة الى استشارة ضباطه والاستماع الى رأيه، ان تجرى عملية الاستخارة أو النبوءة وتسمع من فم (عرّاف) بعد تقديم اضحية (قربان) للاله. وتتم بأساليب عدة، ومن بينها فحص احشاء الاضحية، او مراقبة السارح والبارح من الطير، او في غرابة مشية الدجاج، او بظهور حيوان من جهة ما بشكل غير متوقع، او بعلامات مخصوصة في الرعود والبروق. وتحت اي ظروف خاصّة اي حدث قد يفسره (العارفه) بالشكل الذي يتراءى له، ومهنة العرافة عند الرومان هي هبة آلهية خصّ بها اناساً معينين دون غيرهم. لكن كان هناك فترات تعليم لمعهد دراسة العرافة يسبق مزاولتها.

مراسيم تقديم الاضحية هي بحدّ ذاتها مصدر عون شديد القوى للعّرافة. لكن الغرض الأساس منها هو تطهير وإعداد أولئك الذين سيشاركون في الحرب. والتقدمة العظمى هي ان يضحّى بخنزير وكبش وثور تقدم نيابةً عن الدولة.

هذه المراسيم لابد منها عند انطلاقة الجيش الروماني الى مغامرة او فتح عسكريين. وعندما تأتي نبوءة العراف مبشرة بالنجاح ومشجعة على الانطلاق تقوي النبوءة تأليه اصحاب الولاء بتقديم القرابين وستكون النتيجة النجاح بدون شك.

وفي حالة الاستيلاء على ارض جديدة، او استعادة أقاليم فقدتها روما يقام نصب تذكاري للمعركة التي خاضها الجيش في هذا السبيل. وهي من جملة التقاليد العسكرية الرومانية وقد نقلوه عن الأغريق. ويتخذ النصب التذكاري على شكل كدسٍ من الاسلحة والدروع والتروس وشكة الحرب وغيرها من آلات الحرب المنتزعة من جثث قتلى العدو في عين الميدان الذي جرت فيه المعركة وتحققت هزيمة العدوّ في العادة كانت هذه العدد الحربية تكدّس قطعه فوق قطعة كيفما اتفق وبدون ترتيب لتمثل العدو المنهزم وتكدّس عادةً عند قاعدة صليب خشبي يعلوه سيف وخوذة وتروس أو سلاح آخر. وكثيراً ما ينقش وصف للمعركة اذا كانت القاعدة مبنية بالحجر، او انها تنقش فوق المسكوكات والعملات. لاتزال آثار وخرائب لبقايا هذه الانصاب

قائمة. عرف منها النصب التذكاري الشهير الرابع في (لا تربي) بمقاطعة (موناكو) بمقابل الجانب البحري وكان قد اقيم في ١٦ ميلادية تذكاراً لاخضاعه ٤٦ قبيلة آلپيّة. وهناك ايضاً نصب الامبراطور التذكاري في رومانيا تخليداً لارواح ثلاثة آلاف جندي روماني فقدوا حياتهم.

ويعبد الجيش الروماني آلهة مختلفة متعددة الجنسيات تبعاً لتقاليدهم الدينية ويعبدون الارواح والاطياف والاشباح، وتبدو العبادة بتقديم صفوف معينة من الهدايا والقرابين والاضاحي. ويأتي الأول في التصنيف بطبيعة الحال دين الدولة الرسمي. رعبادة آلهتها الوطنية ويأتي اثر ذلك تقديس الامبراطور، وهو فرض واجب على كل روماني أو غير روماني خاضع للحكم الروماني[١].

وتقام حفلات دينية عديدة بصورة منتظمة وليس من المفروض فيها أن تكون رزينة ويحفّ بها الاجلال والوقار، بل كانت بالاصل بهدف الترفيه ولكن بصورة مهذبة وبجلال ديني وكان يتخللها في العادة ألعاب وتمثيل، وهي طابع المناسبات الرومانية منذ القدم فقد اقيمت بالاصل للترفيه والتسلية.

ويطول الحديث بنا عن الديانات غير الرسمية التي كان الجنود يزاولونها ويعتنقونها ومقدار قيمتها عندهم وانتشارها بينهم ففي زمن ما ولنقل القرنين الاول والثاني الميلاديين كانت عبادة الاله (ميثرا) الفارس معروفة جداً ومتفشية في الجيش الروماني يقيمون لها المناسبات كما يقيمون للآلهة الوطنية، وهياكل هذه الآلهة غير الوطنية كانت عادة تقام خارج المعسكر وبالقرب منه.

(١) في بلدة (الدورة) التي تقع على نهر الفرات. عثرت بعثة آثار من جامعة ييل على كدس كبير من وثائق البردي تعود الى مقر دائرة سجلات اللواء الپاليري (التدمري) الذي كان يعسكر هناك وقد وجد في أحد الاوراق التي لم يعترها تلف كبير قائمة بالاعياد الدينية فضلاً عن مناسبات الاعياد الرومانية. وكان فيها عدد من الآلهة الشرقية. وقد وجدت البعثة ان الايدي عدلت فيها وشطبت وأضافت. وفي الواقع كانت الصحيفة بمثابة تقويم عسكري، ويستشف منها ايضاً ان نوعاً من احتفال كان يجرى كل اسبوع تقريباً. إمّا بتقديم قربان الى آلهة وطنية او اقامة حفل تكريم لعضو من بيت الامبراطور ذكراً أكان أم أنثى.

صولون

SOLON

640-558



ذكر [ديديموس Didymus][1] النحوي، في جوابه على رسالة [أسقلپيادس Asclepi-ades] حول ألواح شريعة صولون، فقرةً أوردها المدعو [فيلوكليس Philocles] تشير الى أن اسم والد صولون هو [يوفوريون Euphorion] خلافاً لرأي جميع الآخرين الذين كتبوا عنه، فهم يتفقون بصورة عامة على أنه ابن [إكسيقستيدس Execestides] وهو رجل متوسط الثروة والنفوذ في المدينة، الا انه سليل اسرة من أعرق الأسر فهو منحدر من صلب [قدروس Codrus] وامّه كما يؤكد [هيراقليدس پونتيكوس] هي بنت عَمّ أم [پستراتوس] وكانت الوالدتان صديقتين حميمتين في مبدأ الأمر، لأنهما قريبتان من جهة، وبسبب نبل سجايا [پسستراتوس] وجماله الرائع من جهة أخرى[٢]. ويقولون ان صولون أحبّه أولاً. وأعتقد ان هذا هو السبب في عدم وصول عدواتهما، بعدما اختلفا حول الحكم - الى حدود العنف والحقد بالعكس فإن ودادهما السالف ظل يقيم في قلبيهما. ليبقى ذكرى مودتهما العزيزة حيةً:

إن جمرات صاعقة زفس الملتهبة ظلّت متوهجة.

كما صورها يورپيدس. وفي قصائد صولون أيضاً نجد شواهد على أنه لم يكن قادراً على مقاومة الجمال، ولا تحدّي الحبّ.

بمواجهته مثل ملاكم في الحلبة

---

(١) ديديموس الاسكندري من مدرسة ارسطوخوس، ومعاصر لاغسطس. وقال عن بعض الكتاب ان تعقيباته ولاسيما على خطباء الاغريق وشعرائهم بلغت أربعة الآف!

(٢) كان پسستراتوس رجلاً كريماً محبوباً في منتهى الرقة واللطف. وكان يلازمه ابداً عبدان أو ثلاثة يحملون حقائب مفعمه بالنقود الفضية فاذا ما وجد علائم مرض على شخص ما أو سمع بأن أحداً ما توفي فقيراً، بادر الى معالجة الأول على نفقته وتكفل بمصاريف تشييع الثاني ودفنه. واذا وجد مغموماً حزيناً تحرىّ عن السبب فان كان الفقر، بادر الى ستر الخلّة لكن لا بالشكل الذي يسلمهم الى الكسل والتواكل، وفتح ابواب بساتينه ومزارعه للمواطنين يقطعون ويجنون من ثمارها ما شاؤا. كان وسيماً بهيّ الطلعة هاش الوجه باشاً، رفيق اللسان متواضع الجانب. ويمختصر القول كانت فضائله حقيقية خالصة لا متعمّله. أو مقصودة أو مشوبه باغراض الهيمنة والاستبداد بحكم آثينا، ولو لم يكن كذلك لعدّ أفضل مواطن في آثينا على حدّ قول (صولون) نفسه. مدحه [هيرودوتس] كثيراً لحسن ادارته واثنى عليه [شيشرون: في الخطب ٣٤:٢] وأشاد ببلاغته وفصاحته.

كما نتبين من أحد قوانينه الذي حظر على العبيد[٣] المشاركة في الألعاب الرياضية ودهن أجسامهم بالزيت. أو أن يَعْلَقوا بحبِّ شاب. وبهذا جعل مثل هذه العلاقة وغيرها في مرتبة الشرف، وموضع الثناء. مقبولة من الوجهاء ومحرمة على الوضعاء.

وقيل أن [پسِستراتوس] كان متيماً بالمدعو [خارموس Charmus] وهو الشخص الذي أوقف له تمثال الحب في «الأكاديمي» بالقرب من الموضع الذي كان العداءون في سباق الشعلة المقدسة يشعلون منه مشاعلهم[٤]. وكتب [هرميپوس] يقول:

ضيّع والد صولون ثروته[٥] في التصدق والإحسان الى الآخرين وكان لديه اصدقاء كثيرون يرغبون في انقاذه من ضيقه إلاّ انه كان يخجل من أن يكون مديناً بفضل، لأنه منحدر من أسرةٍ اعتادت عمل الخير فلاتقبله. ولذلك انصرف صولون الى التجارة في شبابه، وان كانت طائفة من الكتاب تؤكد لنا أن انصرافه الى الأسفار لم يكن للربح وحده، بل في طلب العلم والخبر. ومن المؤكد انه كان محباً للمعرفة. اذ لما بلغ من العمر عتيّاً نراه يقول عن نفسه بصيغة الغائب:

«كل يوم أزداد عمراً، وأتعلم شيئاً جديداً».

وهو ليس من المولعين بالغنى، ولذلك يستوي عنده، الرجل...

«الذي تحتوي يده الفضة والذهب واحمال القمح ويملك الخيل والبغال، واقطاعات واسعة من الأراضي، مع ذلك الذي لايملك إلاّ خبز يومه والثياب التي تكسو ظهره والحذاء الذي ينتعله[٦] وزوجاً شابّة وولداً وامرأة شابة وولداً وعدداً من السنين يقضونها معاً فكلاهما في عرفه.

---

(٣) أفريبدس الباكاي ٨.

(٤) يقام سباق المشاعل ثلاث مرات في السنة ويتم في الپاناثينياي إكراماً لـ(منيرفا) و(پروميثيوس) كُل في عيده. ويتم احياؤها بالشكل التالي: ينير المتبارون مشاعلهم من مذبح (پروميثيوس) في السيراميكوس ويبدأون بالعدو بأسرع ما يمكن متجهين الى المدينة ومن يتنطفيء مشعلة اثناء ذلك، يخرج من الحلبة ومن يسبق الى الهدف يعلن فائزاً في المباراة [پاوسنياس ١:٣٠].

(٥) يضع ارسطو (صولون) في مرتبة الفقراء من مواطني أثينا. ويتخذ من آثاره الدلائل على ذلك. في الواقع لم يكن صولون غنياً. ففي شبابه كان انصرافه الى الشعر يستغرق معظم اهتمامه. ويقول افلاطون في رسالته (تيميون) «لو أن صولون أكمل كل قصائده (لاسيما ملحمته في تاريخ جزيرة الاطلانتيد التي جلبها معه من مصر) ولو خصص وقتاً لتنقيح واصلاح تلك الملحمة كما فعل غيره. لظهر وهو أشهر وأشعر وأبعد صيتاً من هوميروس وهسيود وكلّ شعراء الأقدمين. وواضح من سيرة حياته وكتاباته انه يتخلق باسمى الفضائل وأطيب مزاج واحبِّ الطباع.»

(٦) هذه المقطوعة والتي هي من المنسوبات الى ثيوغنس.

وكتب ايضاً في مكان وفي موضع آخر: لا ضير في أن أكون غنياً، لكني لاأريد الغنى ان جاء بوسيلة غير لائقة. العدل حَق وان كان بطيئاً(*).

من الممكن جداً أن يظهر الرجل الصالح أو السياسي بعض اهتمام بالحاجات الضرورية دون أن يُعتبر مهتماً بالصغائر والتوافه. وفي عصر [صولون] «لم يكن العمل مَعرّة لأحد» كما قال [هسيود](**) ولم تكن المحنة سبباً للتفرقة والامتياز، وكانت التجارة حرفة نبيلة فهي التي تأتي الى البلاد بالحاجات اللطيفة التي يستمتع بها البرابرة. وكانت واسطةً للتصرف بملوكهم ومصدراً لاينضب معينه للتجارب والخِبَر. وقد بنى بعض التجار مدناً كبيرة امثال [پروطيس Protis] مؤسس مدينة [ماسيليا] التي تعلق بها الغاليون أشد التعلق، وهي قريبة من نهر «الرون». وهناك أخبار تفيد أن [طاليس](٨) و[هيپوقراطيس] الحاسب كانا يزاولان التجارة. وافلاطون نفسه كان يسدّ نفقات رحلاته من بيع الزيت في مصر(٩).

وعزيت رقة صولون واسرافه وأسلوبه الشعبي، لا الفلسفي، في تصويره اللذات والمسرات باشعاره الى حياة التجارة فقد ركب الآف الأخطار، وكان من الطبيعي أن تعوض ببعض المتع والمسرات. اما انه يعد نفسه أميل الى الفقر منه الى الغني، فهو واضح من أبياته التالية:

كثيراً ما ينعم الاشرار بالغني في حين يجوع الخيرون

مع هذا فإني لن ابدل حالي بحالهم

وفضيلتي بذهبهم. لأن ما املكه يدوم

في حين يبدل الغنى مالكيه يومياً

الفضيلة شيءٌ لايستطيع ان سلبه أحد

في حين ترى الغنى يبدل اصحابه

(*) المقطع ١٣.

(**) الاعمال والأيام ٣١١.

(٧) ربما كان هذا الذي ذكره (جوستين) قائلاً انه واحد من أبرز المهاجرين الذين هربوا من (فوكسين) تخلصاً من سلطان الفرس وبنى مدينة مارسيليا والى الاسم عينه يعزو ارسطو تلك المستوطنة أيضاً. (اثيناغورس ١٣:٥).

(٨) العمل الذي عزي ثمّ طاليعي – اي التجارة هو على الغالب ما قصده ديوغينس لابيريتوس عند تدوينه سيره حياته (٢٦:١) فقد قال من أجل أن يبرهن على سهولة جمع المال والغنى. وبادراكه ببعد نظره وبصيرته أن المحصول من الزيتون سيكون كثيراً، فاتباعه قبل نضوجه وربح عظيماً من الصفقة.

(٩) بيع زيتون اليونان وبلاد اليهودية في مصر كان من الأمور وهو محصول أتياكا الوحيد. ولوفرته سمح صولون بتصديره.

ويبدو انه قرض الشعر، ولم يكن يرمي من ذلك بالأول الى هدف بل كان يعالجه للتسلية وتمضية الوقت ثم راح يضمّن المبادئ الفلسفية في قصائده ويشيع فيها كثيراً من التعاليم السياسية. ولم يكن قصده تسجيلها ونشرها، بل لتبرير أعماله. كما كانت أحياناً تهدف الى استنهاض هم الآثينيين وحثهم أو تأنيبهم وتوبيخهم، وزعم بعضهم انه حاول صياغة قوانينه في قالب شعر حماسي قبل سنّها. وقد اتحفونا بالمقدمة الشعرية:

ألا فلنتقدم بالصلاة الى زفس ابن كرونوس الملكي. ليمنح هذه الشرائع، شرائعي النجاح والشهرة(*)

وفي مجال الفلسفة اهتم أساساً بالناحية السياسية من الاخلاق شأنه في ذلك شأن معظم الحكماء. اما في العلوم الطبيعية فهو يكشف عن قصور ومعلومات بسيطة عتيقة كما يبدو من هذه الأبيات:

الغمام هو الذي يدفع بالثلج والمطر

والرعد لا يلبث أن يصدر من البرق الخاطف

والبحر يصطخب موجه عند هبوب الريح

لكنه لطيف سمح عندما يُترك وشأنه.

وعلى أغلب الاحتمالات أن طاليس في ذلك العهد، هو الذي ارتفع بالفلسفة من مجرد ممارسة، الى درجة الامتهان والاحتراف. وبقية الحكماء إنما سمّوا فلاسفةً لتضلعهم في المسائل السياسية.

ولقد قيل أنهم عقدوا اجتماعين في دلفي ثم في كورنث. بمسعى من [برياندر] الذي قام بتهيئة الاجتماع مع مأدبة العشاء. إلاّ أنّ مكانتهم ارتفعت أساساً عندما أرسلت اليهم جميعاً الطبلة ذات القوائم الثلاثة، فراح أحدهم يدفع بها الى الآخر تواضعاً وايثاراً، وأبى واحدهم تفضيل نفسه على صاحبه، بمنتهى الطيبة وحسن النية. والحكاية تروى على النحو الآتي:

كان بعض [الكوان Coan] يصطادون السمك بالشباك. فأشترى بعض الأجانب [الميليسين] مقدماً كلّ ما تخرجه رمية الشبكة في البحر فألقى بها الصيادون فخرجت بهذه الطَبَلة الذهبية التي قيل أن [هيلين] القتها في هذا الموضع عن عودتها من [طروادة] لما

(*) ما وصل من شعر صولون جمع في كتيب لـ Bergre باسم الشعر الغنائي الأغريقي Paetae Lyrid Gra-cii.

تذكرت بنؤة قديمة. وراح هؤلاء الغرباء ينازعون الصيادين على الطبلة. وسرى الخصام الى المدن حتى كاد يؤدي الى حرب. ثم فصل [ابوللو] في النزاع بأن حكم أن تُهدى اللقطة الى اوفر الناس حكمة. فأرسلت أولاً الى [طاليس] في مدينة [ميليطس]. وقد نزل له [الكُوان] عنها بكل سخاءٍ وهي التي كادت تؤدي بهم الى قتال [الميليسيين] جميعاً. إلاّ أن [طاليس] ابى قبولها قائلاً أن [بياس Bias] أوفر الناس حكمةً، فأرسلت اليه ومنه ارسلت الى آخر وهكذا دارت عليهم كرةً أخرى حتى طاليس، وبعد انتقالها من [ميليطس] الى [ثيبه] أوقفت على [ابوللوارسيمينين][١٠]. ويكتب [ثيوفراستس] انها عرضت على [بياس] أولاً في مدينة [پريان Priene] ثم الى [طاليس] في [ميليطس] ودارت على الجميع لتعود من جديد الى [بياس]، ثم ارسلت الى دلفي. تلك هي تفاصيل الحكاية عموماً. خلا أن بعضهم يقول ان الهدية لم تكن طبلة ذهبية ذات قوائم ثلاثة، بل هي كأس بعث بها [كروسوس Cruesus]. وقال آخرون بل هي صفيحة تركها [باثيكلس Bathycles].

وروي أن كلاً من [اناخارسيس Anacharsis][١١] [صولون]، وكلاً من [صولون و طاليس] كانوا عشراء واصدقاء. ونقل بعضهم اجزاء من احاديثهم وزعموا أن [اناخارسيس] قدم الى آثينا لرؤية صولون فطرق بابه وقال له انه غريبٌ عن البلد قصده ضيفاً، يريد صداقته. فأجابه صولون اليس من الأفضل له ان يبحث عن الأصدقاء في موطنه؟ فأجاب [اناخارسيس]:

- اذن فأنشيء صداقة معي أنت الذي تقيم في موطنك!

فأعجب صولون بحضور بديهة الطارق وذكائه، ورحب به في بيته وابقاه معه ردحاً من الزمن. وكان في ذلك الحين قد انصرف الى الشؤون العامة وقطع شوطاً في تهيئة قوانينه. ولما

---

(١٠) مشتقة من اسم هيكل مكرس لذلك الآله ويقع على ضفاف نهر اسيمينوس الذي يجرى بالقرب من ثيبة. اما عن حكماء الأغريق السبعة. فالمُجمع عليهم بصورة عامة هم باياس Bias السيريني. وخيلون السپارطي Chilon، وكليوبولوس Cgeobulus اللندوسي، وپرياندر Periander الكورنثي، وبيتاكوس Pit-tacus الميتيليني، وصولون Solon الآثيني، وطاليس Thales المليطي.

(١١) عُرف الصيثيون قبل صولون بزمن بعيد بالزهد والعفة ومكارم الاخلاق والعدالة. واناخارسيس هو منهم، أمير من أمرائهم. نزح الى اثينا في حدود الأولمپياد السابع والاربعين (٥٩٠ ق.م) وأهلّه عقله الراجح وسعه مداركه وكثرة تجاربه الى ان يعده بعضهم من ضمن الحكماء السبعة. إلاّ أن أحكم الحكماء لاينجو من الشذوذ. ولهم كغيرهم من البشر هفواتهم وسقطاتهم. وقد كان الأمر مع (اناخارسيس) كذلك اذ حمل معه طقوس (كيبيله) الأغريقية خلافاً لشرائع بلاده وظلّ يمارسها بصورة سرّية فأتفق ان واحداً من بني قومه أطلع على سرِّ فوشى به الى أخيه الملك الذي أسرع اليه ليصرعه بسهم مسدّد الى قلبه (هيرودوتس ٤:٧٦).

علم [اناخارسيس] بما يفعل ضحك منه واستغرب محاولة تنظيم حياة بني قومه بقوانين مسطورة، وتوسله بها الى ازالة الطمع والغش وقال له ان الشرائع اشبه بنسيج العنكبوت لا يقع في خيوطها الا الفقير والضعيف، في حين يسهل على الغني والقوي قطعها فأجابه صولون قائلاً: «إن الناس يظلون خاضعين للقوانين مادامت لا تستفيد ايه جهةٍ من خرقها، وانه بنى قوانينه لمواطنيه على هذه الفكرة والأسس ونظمها بحيث يدرك الجميع ان من الخير لهم ان يكونوا منصفين عدولاً متمسكين بالقانون لا ان يخرقوه. إلا ان الوقائع اثبتت أن [اناخارسيس] كان اصوب من صولون ونظرته أحق من آمال ذاك. ويؤثر عن [اناخارسيس] عندما كان عضواً في الجمعية العامة انه أظهر عجبه من أن الحكماء في اليونان يتكلمون فحسب، بينما الحمقى هم الذين يتخذون القرارات.

قالوا ان [صولون] رحل لرؤية [طاليس] في [ميليطس] وابدى عجبه من بقائه عازباً لم يتخذ زوجة ولم ينجب أولاداً فلم يجبه طاليس عن سبب عزوبته حالاً، لكنه أوصى بعد ايامٍ أحد الغرباء بأن يقول انّه غادر آثينا قبل عشرة أيام. فأخذ صولون يسأل عما وقع هناك من حوادث. فأجاب الرجل مطبقاً التعليمات التي أوصاه بها طاليس: «لا شيء يذكر، خلا تشييع جنازة شاب، شاركت فيه المدينة كلها لأن الميت كان كما قالوا ابن رجل محترم، بل أكرم أهل المدينة خلقاً ولم يكن في المدينة عندما توفي ابنه فقد مضى عليه زمن طويل في الأسفار «فأجاب صولون: يالشقاء هذا الرجل! ولكن ما اسمه؟» فقال الرجل: «لقد سمعته لكني نسيته الآن، وكل ما اذكر هو الكلام الكثير عن حكمته وعدله» وهكذا كان صولون يُدفع الى الشكّ بكلّ سؤال وزادت مخاوفه، وأخيراً استبد به القلق، وذكر للغريب أسمه وسأله هل أن الشاب الميت يدعى ابن صولون؟ فأومأ بالايجاب طفق صولون يلطم رأسه ويأتي بحركات وأقوال تنم عن كربٍ عظيم[١٢]. وهنا أسرع اليه طاليس وأمسك بيده وقال له مبتسماً: «هذه الأشياء يا صولون هي التي ابعدتني عن الزواج وانجاب أولاد. فهي صعبة شديدة حتى بالنسبة الى شخصك، ولكن لاتقلق، فالنبأ مختلفٌ من أساسه». هذه الرواية نقلها [هرميبوس] عن [پاتيكوس Pataecus] الذي يتباهى بأن له روح [ايسوبَ Aesop].

ومهما يكن من أمر، فانه مما لا ينسجم مع العقل السويّ، ولا مع الروح القويّة أن نتجافى

(١٢) الأمر سواء أكان في هذه المناسبة أو غيرها أي عند وفاة ابن له فقد كان جواب (صولون) انسانياً ومعقولاً للغاية عندما طلب منه أن يكفكف دمعه لأن البكاء غير مجدٍ فقال «ولهذا فانا أبكي!» اي لأني لاأرى فيه جدوى. وبهذا يقول الشاعر العربي اللسان اليوناني الأصل ابن الرومي مخاطباً عينيه عندما فجع بوفاة ابن له

بكاؤ كما يشفي وإن كان لا يجدي　　　فجودا فقد أورى نظيركما عندي.

السعادة خوفاً من فقدانها. اذ ينبغي على هذا الأساس ألا نسمح لأنفسنا بالرغبة في الغنى والمجد والحكمة مادام يلاحقنا الخوف من فقدانها كلها. لا بل الفضيلة نفسها، وهي أعظم ما يرغب المرء في امتلاكه فكثيراً ما تتأثر بالمرض وتناول العقّار. حتى [طاليس] نفسه وهو غير متزوج لا يسعه التحرّر من القلق إلاّ إذا بطل اهتمامه باصدقائه وأقربائه وبلاده في حين قيل أنه تبنىّ ابن أخته [كبيستوس Cybisthus] لأن النفس يلازمها عنصر العطف، ولأنها ما خلقت الا لتحبّ، ولتدرك وتفكر أو لتتذكر، فلا سبيل لها إلاّ أن تميل الى شخص غريب وتركز اهتمامها به عندما لا تجد من تحنو عليه من صلبها. والاشخاص الغرباء وغير الشرعيين ينالون الحظوة عندها فتتعلق بهم كمن يتعلق بمالٍ لا وريث له. والحب يأتي بالقلق والاهتمام وقد ترى أناساً لا يكفون عن التنديد بفراش الزوجية وبثمرته، فاذا مرض ابن أحدى خادماتهم أو محظياتهم أو مات. رأيتهم وكأن الحزن يكاد يقضي عليهم، فيبكون وينتحبون بحرقةٍ. وترى بعضهم يظهرون ذلك الحزن المُخجل العميق على فقد كلب أو حصانٍ. وآخرين يتحملون موت ابنائهم الصالحين الشرعيين دون أن يبالغوا في إظهار ما لايليق من الحزن، هؤلاء أمضوا حياتهم رجالاً بكل معنى الكلمة، وعاشوها على مبادئ العقل ضدّ صروف القدر، الى مثل هذه الآلام والأحزان التي لاتنتهي. وهم في واقع الحال لا يملكون فرصة الاستمتاع الآني بما هو موضوع حبهم، لأن احتمال خسارتهم المقبلة له تظلّ ابداً تسبب لهم قلقاً ورعباً وآلاماً مستمرة. وينبغي لنا ألاّ نتحصّن بالفقر ضد الغِنَى أو ضدّ الاصدقاء باجتناب كل المعارف أو ضدّ بنين بعدم انجابهم، بل يجب أن نتسلح بالعقل والأخلاق. وفي هذا الكفاية من القول.

بعد أن أتعبتْ الأثينين حربُهم العسيرة التي أعلنوها على الميغاريين بسبب جزيرة [سلاميس] وبلغت بهم حَدّ الضنى والانهاك. أصدروا قانوناً يعاقب بالموت كُلّ من يدعو بالقول والكتابة بلزوم استعادة الجزيرة أو بذل الجهود في سبيل ذلك. فأحنق ذلك صولون، وأدرك أن آلافاً من الشبان يريدون شخصاً يكون هو البادئ، ولكنه لم يجرأ على أن يكون أوّل المحرضين خوفاً من حكم القانون. فتصنع الجنون ودفع اسرته الى أن تذيع في المدينة بأن عقله قد أختل. ثم نظم في السرّ قصيدة وحفظها عن ظهر قلب حتى تبدو وكأنها من وحي البديهة، ثم هرع الى ساحة السوق وعلى رأسه قبعة[١٣] وتجمع الناس حوله وتبعوه حتى أعتلى منصّة المنادي وبدأ ينشد مرثيته بهذه الافتتاحية:

انا هو المنادي الذي جاء من سلاميس الجميلة.

(١٣) جرت عادة الآثينيين بالاّ يغطّوا رؤوسهم إلاّ عندما يلّم بهم مرض.

وأشعاري التي انشدها الآن هي بدلاً من الخطبة(١٤)

ويطلق على القصيدة اسم «سلاميس». وتتألف من مائة مصراعٍ وهي رائعة الأسلوب. وقد أثنى عليها اصدقاؤه. ولاسيما [بستراتوس] الذي حث الناس على العمل بالوصايا التي نضمتها. وبلغ الأمر أن ألغي القانون واستونفت الحرب تحت قيادة صولون. على إن الرواية الشائعة، تروى على الصورة الآتية: ابحر صولون مع [پسستراتوس] الى كولياس Colias فوجد النساء هناك يضحين الى [سيرس] جرياً على عادة أهل البلاد فأرسل الى سلاميس صديقاً يثق به، ليظهر بمظهر الخائن أمامهم ويقدم اليهم معلومات كاذبة وينصحهم أن يرافقوه حالاً الى [كولياس] اذا ارادوا الفوز ببعض النسوة الاثينيات فأسرع الميغاريون بأرسال رجال معه في سفينة وشاهدها صولون تقلع من الجزير- فأمر النسوة أن ينصرفن ودفع بعدد من الشباب المُرد اللابسين ثياب النساء ونعالهن وأغطية رؤوسهن، وقد تسلحوا بالخناجر. الى الرقص واللعب بالقرب من الساحل حتى ينزل العدوّ من السفينة ويغدو تحت رحمتهم، وأنطلت الخدعة على الميغاريين وغرهم مظهر الشبان المرد فتقدموا من الساحل ونزلوا والرغبة تراود كل واحد في أن يكون أوّل الفائزين بالغنيمة فلم ينج منهم أحدٌ وأعتلى الاثينيون ظهر السفينة وتوجهوا الى الجزيرة وأحتلوها.

ويقول آخرون انهم لم يحتلوها على هذه الشاكلة. بل أن صولون استنزل أوّلاً هذه النبوءة من دلفي:

أولئك الأبطال الذين يشوون في [اسوپيا Asopia] الجميلة كلهم دفنوا واوجههم
متجهة نحو الشمس الغاربة الآ فأذهب وأدخل السكينة اليهم بأفضل القرابين.

ثم أبحر نحو الجزيرة ليلاً، وضحّى للبطلين [پيريفيموس Periphemus وكيخريوس Cych-reus](١٥)، ثم أخذ معه خمسمائه متطوع من الآثينين (كان قد صدر قانون جديد يمنح أولئك الذين يستولون على الجزيرة ارفع المناصب في الحكومة وأخذ أيضاً عدداً من زوارق الصيد وسفينة واحدة ذات ثلاثين مجذافاً وأرسى في خليج سلاميس الذي يشرف على [نيسيا Ni-

(١٤) لم يصلنا منها غير ستة أبيات. أنظر المقطوعة ١-٣ في برك Bergk وانها تنطوى على لوم وتأنيب للآثينيين بسبب تخليهم عن (سلاميس) كما تتضمن تحريضاً واستنهاضاً للقتال في سبيلها.

(١٥) هو ملك سلاميس. ولديه هيكل كُرس له في تلك الجزيرة. يخبرنا پاوسنياس (٣٦:١) ان حيةً ضخمة شوهدت في احدى السفن الآثينيية اثناء المعركة البحرية بين الفرس والآثينيين. ولم تكن في الواقع غير البطل [كيخريوس] كما أبلغهم ابوللو.

saea]. ولم يسمع الميغاريون الذين كانوا ساعتئذ في الجزيرة غير أخبارٍ غامضةٍ، ففزعوا الى السلاح وأرسلوا سفينة لاستطلاع حركات العدوّ. فأسرها صولون وقبض على من فيها وملأها بالآثينيين وأصدر أمره بابحارهم الى الجزيرة بأقصى ما يمكن من السرية والكتمان وفي الوقت زحف براً على الميغاريين ببقية الجنود وأشتبك معهم في القتال، في حين استولى جنود السفينة على المدينة، وتؤيد هذه الرواية المراسيمُ الدينية التي اتبعت فيما بعد وهي: أن تبحر سفينة آثينية بكلّ هدوء أولاً الى الجزيرة ثم يعدو - وهو يهتف - نحو مرتفع [سكيراديوم -Sciradi um] ليلتقي بأولئك الذين يزحفون عليه براً. وهناك يقوم معبد للآله آرس Ares[١٥]، بناه صولون لانتصاره على الميغاريين ومن لم يقتل منهم في المعركة لم يفكهّم إلاّ بشروط.

إلاّ أن الميغاريين ظلوا يقاتلون، ومُني الجانبان بخسائر جسيمة حتى لجأوا الى المفاوضات وأختاروا السپارطيين محكمين في النزاع. ويؤكد كثيرون أن ثبتَ هوميروس أظهر مزيداً من العطف على قضية صولون فحشر سطراً في قائمة سفنه - اثناء ما كانت القضية امام المحكمين، فصارت الفقرة تقرأ على الوجه الآتي: «اثنا عشر سفينة جاء بها [اياكْس] الشجاع من سلاميس».

ويقال انه اضاف: «وصَفّ قواته في المواقع التي يقاتل بها الآثينيّون. على أنه الآثينيّن[١٦] يصفون هذه الحكاية بالثرثرة والهراء، ويذكرون ان صولون جعل الأمر يبدو للمحكمين، وكأن [فيليوس Philaeus واڤريساكيس Evrysaces] ولديْ أياكس قدّما الجزيرة الى آثينا هدية لأنهما منحا حقوق المواطنة الآثينية. وان أحدهما كان يعيش في براورون Brauron آتيكا والثاني في [ملاطيه Malite] وانهما كانا يملكان في مدينة [فيليادي Philaidae]، واسمها مشتق من [فيليوس]، وهي مسقط رأس [پستراتوس].

ومن حجج صولون التي استخدمها ضد الميغاريين، كيفية دفن جثث الموتى، فقال أنها كانت تدفن حسب عادات الآثينيين لا بحسب عادة الميغاريين. فالذي جرى العمل به عند هؤلاء أنهم يحولون وجوه موتاهم الى الشرق، أما الآثينيون فيوجهونها نحو الغرب[١٧]. إلاّ ان

---

(١٥) اي اينياليوس Enyalius.

(١٦) الالياذة [٢٠:م٥٥٧] قد لا يصح هذا البيت دليلاً. فهناك كثير من القصائد عند [هوميروس] تثبت ان سفن [أياكس] كانت قد أتخذت مواقعها بالقرب من التساليين (٦٨١:٨) و(كذلك سترابو ١٠). وفيليؤس الذي ذكر في المتن بعد هذا انما هو حفيد (اياكس) بحسب رواية پاوسنياس [٣٥:١].

(١٧) أنكر ديوغينيس ليئرتيوس ذلك انكاراً باتاً. إلاّ انه مخطئ على الأغلب لأن ايليان في [تاريخه ١٩:٧] يتفق مع پلوتارخ حول طريقة الدفن عند الآثينيين. وامّا بخصوص طريقة الميغاريين فهو يختلف معه اذ يقول انهم لا يتقيدون بشكل معين في دفنهم موتاهم ويتركون ذلك للصدف.

[هيرياس] الميغاري ينكر الحجة مؤكداً ان بني قومه يديرون وجوه موتاهم الى الغرب أيضاً. كذلك تعلل صولون بان الاثينين لا يدفنون الاّ ميتاً واحداً في القبر[١٨]. ولكن الميغاريين يدفنون اثنين أو ثلاثة في قبر واحد. ومهما يكن من أمرٍ فإن بعض نبوّات [ابوللو] التي ورد فيها ذكر الجزيرة باسم [سلاميس ايونيا][١٩] عززت من ادعاء صولون كثيراً. فحكم له القضاة السپارطيون الخمسة هم [كريتولايداس Critolaidas، وأمومفاريتوس Amomphare-tus وهيپسيخيداس Hypsechidas واناكسيلاس Anaxilas وكليوفييس Cleomenes].

وعظم شأن صولون وقوى مركزه بهذا. إلاّ ان ما بلغ به أعظم مواطن الشهرة والتقدير عند الأغريق هو نصحه بالدفاع عن نبوّة دلفي والوقوف الى جانبها وببذل العون وان لا يدعوا الكيريين Cirrhaeans[٢٠] يمتهنونها بل بوجوب المحافظة على شرف الآلهة، فبناءً على محاولاته أعلن الامفكيتويّون الحرب. ومن بين من يؤكد ذلك أرسطو عند ايراده ثبتا باسماء الفائزين في الالعاب البيثية. فهو يجعل صولون صاحب تلك المشورة. على أن صولون لم يكن قائد تلك الحملة كما يقول [هرميپوس]، نقلاً عن [ايانثس Evanthes] الساموسي Sami-an. وهذا ما ينفيه ايسخينس Aeschines الخطيب[٢١]. فقد ورد في سَجّل دلفي [الكمون] لا صولون كان قائد الآثينين... وكان فساد البكيلونيين قد استفحل في الجمهورية ونشر فيها الاضطراب اكنافه منذ عهد بعيد يرجع الى حكم [ميغاكلس] الأرخون عندما اقنع المتآمرين مع [كيلون Cylon][٢٢] الذين لجاؤوا الى معبد [مينرڤا] بالخروج منه ووعدهم بمحاكمة عادلة

(١٨) ويرجح بعض الشراح أن يكون سبب ذلك سعة البلاد وعدد سكان كلا البلدين.

(١٩) آيونيا القديمة تشمل آتيكا فقط.

(٢٠) هم سكان (كيرّا) وهي بلدة تقع على خليج كورنث أجتاحت بغزواتها المتكررة اراضي (دلفي) المجاورة، وحاصرت قواتها المدينة نفسها يحدوها الطمع في الاستيلاء على نفائس معبد (ابوللو). واستنجد بالإمفكتون وهم قادة دول الإغريق، فكان من رأي (صولون) أن يصدر استنكارٌ عامٌ للعمل ثم أرسل (كلستينوس) طاغية (سيكيون) قائده العام لحرب قوات (كيرّا) ونُصب (إلكيميون) قائداً للقوات الآثينيية والتحق صولون بوصفه مساعداً أو مشاوراً لـ(كلسيتنوس) والقى الجيش الاغريقي الحصار على [كيرا] ردحاً من الزمن دون ان يصيب نجاحاً. فاستُخير (ابوللو) وكان الجواب انهم ان يفلحوا في الاستيلاء عليها الى ان تلتطم امواج البحر الكيرّي بساحل بحر دلفي. هذه النبوءة أخذت الجيش على حين غرة، إلاّ ان صولون أسرع بالتفسير والحلّ، بان نصح (كلسيتنوس) ان يوقف كل أراضي (كيرا) على معبد (ابوللو) دلفي وبهذا تصبح دلفيّة وبالطبع سيلتطم الموج أنذاك بأراضي دلفي. ولما أصبحت من موقوفات دلفي تم الاستيلاء عليها وينوه (پاوسنياس ١٠:٣٧) بخطة أخرى أقترحها صولون، تنم عن رجاحة عقله وعمق تفكيره، وهي تحويل مجرى نهر (پليستوس) الذي تعتمد (كيرا) على مائه.

(٢١) في خطبته «ضد قطيسيفون».

(٢٢) ظل الحزب المناوىء للديمقراطية قائماً بعد مرور زمن طويل على ارساء قواعدها ولم يترك اصحابه وسيلة الاّ جربوها لاعادة نظام الحكم القديم. وكان (كيلون) انساناً جليل القدر رفيع المقام وصهراً =

فشدوا خيطاً بالصورة المقدسة وامسكوا باحدى نهايتيه وغادروا ملجأهم لحضور المحكمة[٢٣].

ولكن الخيط انقطع من تلقاء نفسُه عند وصولهم معبد [فوريس Furies] وكانت الربّة قد رفضت بسط حمايتها عليهم، وعندئذ قبض عليهم ميغاكلس والقضاة. ومن حيل بينه وبين المعبد منهم رجم بالحجارة، ومن هرب عائداً الى الملجأ ذبح على درج الهيكل. ولم ينج إلاّ أولئك الذين توسلّوا بزوجات القضاة. لكنهم بقوا نجسين، ينظر الناس اليهم نظرة الكراهية والاشمئزاز، وأستعادت بقية حزب [كيلون] قوتها، وأستمر شجارها مع أسرة [ميغاكلس]. وفي أيام صولون بلغت الشحناء أوجهاً وانقسم الجمهور الى حزبين، ولما كان صولون مرجعاً عاماً، فقد تدخل في الأمر بمعونة رؤوساء آثينا. وتمكن باللطف والتأنيب من إقناع النجسين بالمثول امام محكمة مؤلفة من ثلاثمائة مواطن نبيلٍ والخضوع الى القرار الذي يصدرونه وترافع ضدهم [ميرون Myron] و[فليا Phlya]. وأدينوا بنتيجة القرار، ومن كان منهم حيّاً نفي، ثم نبشت قبور الموتى منهم وأخرجت جثثهم والقيت خارج حدود البلاد. وفي اثناء هذه الاضطرابات والخبال انتهز الميغاريون فرصتهم فأنقضوا على الاثينيين وأنتزعوا منهم [نيسيا وسلاميس][٢٤] ثانيةً. زد على هذا ان المدينة غشيتها الأوهام، والمخاوف، وشتى الظواهر الغريبة. وأفتى الكهنة أن القرابين قد مَسّها بعض الدنس والنجاسة، وينبغي أن تظهر. فبعثوا يستقدمون [ايبيمنيدس Epimenedes][٢٥] الفايستي Phaeist من كريت. وكان هذا يعدّ

= لـ(ثياغينس) طاغية ميغارا،، وهو ممن ينفر من تغيير الحكام الفجائي. ويكره فكرة الركض وراء المنصب بوصفه فضلاً من الآخرين يطوق به عنق الفائز به، لاسيما وان حقه فيه واضح من جهة والدته. لذلك رتب خطة للاستيلاء على القلعة اثناء انعقاد الاولمپياد الخامس والأربعين. عندما يكون عدد كبير من الأهالي منشغلين بمشاهدة الألعاب. وقد تم تنفيذ ذلك وأستولى (كيلون) على القلعة. إلاّ ان (ميغالس) رئس الأراخنة آنذاك اتفق مع الحكام الآخرين وكل قوات أثينا وضربوا الحصار على القلعة وضيقوا على أصحاب المؤامرة الخناق حتى اضطر [كيلون وأخوه الى الفرار، تاركين بقية اصحابهم يتدبرون أمرهم بأنفسهم. يقول پلوتارخ: «من نجا من السيف، لجأ الى هيكل منيرڤا. لكن الحكام لاحقوهم وفتكوا بهم هناك وبذلك اسخطوا الآثينيين الذين أستنكروا عملهم بقتلهم في حرم الهيكل وهي جريمة عظيمة. هذه الحادثة يوردها مفصلةً (١:١٢٦).

(٢٣) في حدود العام ٦٣٦ ق.م أنظر المرجعين سالفي الذكر.

(٢٤) مدينة كانت تقع على خليج كورنث.

(٢٥) يخبرنا [ديوغينيس لايرتيوس] أنه بينما كانت تجرى عملية تطهير المنازل والحقول والاشخاص. جاء (ايبمنندس) بعدد من الغنم السود ومثيله من الغنم البيض وأطلق الجميع في [الاريوباغوس] وأمر الناس أن يتابعوها فرادى ويعينوا المواضع التي تضطجع فوقها ليقوموا بتضحيتها فيها. وعندها تقام مذابح ومنصات تخليداً لذكرى هذا التطهير الديني يقول (ديوغينيس) ان هذه المذائح التي لا تكنى باي اسم ظلت شاخصة حتى ايامه. وكان التعويض الوحيد الذي طلبه (ايبمنندس) من الآثينيين على عمله هذا، هو ان يعقدوا حلفاً مع بلاده (كريت). واما الاسطورة التي تقول انه رقد ٥٧ أو ٥٠ عاماً وظلّ على قيد الحياة. وحياته المحفوفة بالاسرار وعمره المديد، فكلّ هذا معروف وقد ذكره المؤرخون.

سابع الحكماء عند اولئك الذين لا يدخلون [پيرياندر] في عدادهم[٢٦]. ويبدو أنه كان يعتبر مفضلاً عند الأرباب، وعلى معرفة بكلّ الأسرار الدينيّة وما هو فوق الطبيعة منها ولذلك أطلق عليه رجال عصره [كيوريس][٢٧] الثاني. وابن الحوريّة المسماة [بالطه Balte]. ولما قدم الى آثينا وتوثقت علاقته بصولون، قدم اليه معونات في مناسبات مختلفة. وعبّد السبيل لتشريعاته وعدل من أشكال العبادات وقلل من صرامتها. وخفف من القواعد الخاصّة بالحداد فأدخل بعض القرابين لتقدم حالاً بعد التشييع، وأطرح تلك المراسيم القاسية البربرية التي تتعاطاها النساء عادة[٢٨]. إلاّ أن أعظم مأثرة له هو تطهير وتنقية المدينة، بفضل قرابين تهدئة، وتطهير معينة. واقامة بنايات مقدسة. وبهذه الواسطة جعلهم أطوع الى العدالة وأكثر ميلاً الى التآلف. وذكروا أنه نظر الى مونيخيا Munychia[٢٩]، واطال التأمل ثم قال لمن حوله «ما أشدّ عمى الانسان في أمور المستقبل! فلو تكهن الآثينيون أي فتنة وبلوى ستلحق هذه بمدينتهم لأكلوها أكلاً بأسنانهم ليتخلصوا منها[٣٠]، وثم نبوءة أخرى تعزى الى [طاليس] يقولون أنه أوصى اصدقاءه بأن يدفنوه في موضع خامل الذكر قذر من اراضي [ميليطس] قائلاً أن البقعة ستكون يوماً مركز لقاء الميلطيين الرئيس. وأكرم ايپيمينيدس أجل اكرام وعرض عليه أهل المدينة هدايا عظيمة وأغدقت عليه الامتيازات والنعم، إلاّ أنه اكتفى بطلب غصن واحد من الزيتون المقدس، فأعطي ما اراد وعاد الى بلاده.

بعد أن قُضي على الفتنة الكيلونية ونفي المُدنِسّون منهم، عاد الآثينيون الى شحنائهم الأولى ونزاعهم على الحكم، وكان يوجد احزاب وشيع مختلفة، بقدر ما كان يوجد اختلاف رأي في البلاد. كان حيّ التلال يحبذ الديموقراطية، وحيّ السهل يفضل الأوليغارشية، أما اولئك الذين يعيشون على الساحل فيريدون مزيجاً من النظامين، وبهذا حيل دون استظهار حزب على آخر[٣١] وكانت الفروق في الاحوال بين الاغنياء والفقراء في ذلك الحين قد بلغت اقصى الحدود حتى بدت المدينة في حالة خطيرة جداً، وليس هناك من وسيلة لانقاذها من

---

(٢٦) انظر ارسطو [دستورآثينا: ١].

(٢٧) من يدعى كيوريتس Curetes، انما هم الكهنة الكريتيون الذين يقومون على خدمة [زفس الإيديّ] واسمهم مشتق من اسم انصاف الآلهة الذين قامت الربة (ريا) بايداع (زفس) الطفل لديهم.

(٢٨) كالضرب على الصدور، وجرّ الشعور، ولطم الوجوه الخ...

(٢٩) ان اكروپوليس [پيريوس] يشرف ستراتيجياً لا على شبه الجزيرة وحدها بل على اثينا نفسها كذلك. وكثيراً ما وضع فيه فاتحو اثينا جنوداً.

(٣٠) تحققت هذه النبوءة (على ما يقولون) بعد ٢٧٠ سنة عندما ارغم [انتيپاطر] الآثينيين على القبول بحامية في ذلك الموضع. انظر سيرة [ديموستينس]. وأفلاطون يعزو اليه نبوءات أخرى.

(٣١) انظر ارسطو [دستور آثينا ٨:٤].

الاضطرابات والوصول بها الى حالة من الاستقرار إلاّ سلطة دكتاتورية مطلقة. وكان الجمهور كله مثقلاً بالديون للاغنياء وكان عليهم أن يختاروا إمّا زراعة اراضيهم لدائنيهم وأعطاؤهم سُدس المحصول فيسمون اذ ذاك: ثيتيس Thetes أو هكتوموري Hectemprii] وإما يسلموا اجسامهم لقاء الدين وقد يحجزون أو يرسلون الى العبودية في الوطن، أو يباعون للأجانب واضطر بعضهم الى بيع أولاده، (لأن القانون لا يمنع ذلك)، أو الهروب من البلاد خلاصاً من قسوة الدائنين. إلاّ أن معظمهم وهم اثبتهم جناناً بدأوا يتكتلون، ويبث أحدهم في الآخر روح الاقدام للوقوف في وجه هذا الظلم. واختيار قائد للقيام بتحرير الدائنين الذين صدرت الاحكام بحقهم وتوزيع الأراضي وقلب الحكومة.

وهنا ادرك أعقل الآثينيين أن صولون هو الشخص الوحيد من بين الجميع ممن ليس له علاقة بالمشكلة أو هو طرف فيها. وأنه لم يشارك في استغلال الاغنياء، ولم يعان بؤس الفقراء. والحوا عليه أن يمد يداً الى الحكومة، ويفضّ النزاع. وان كان [فانياس Phanias ولسبيان Lesbian] يؤكدان ان صولون احتال بحيلة على الفريقين لكي ينقذ بلاده. فوعد الفقراء سراً بتقسيم الأراضي، ووعد الاغنياء بضمان ديونهم، على أن صولون بالذات يقول عن نفسه أنه تردد في مبدأ الأمر في المساهمة في شؤون الدولة. لخوفه من مكابرة هذا الحزبِ، ومن طمع ذاك، ومع ذلك فقد انتخب (ارخوناً) بعد [فيلومبروتوس] ومنح سلطة سنّ القوانين والتحكيم ورضي به الاغنياء، لأنه غنيّ، ووافق عليه الفقراء لأنه نزيه. وقد أشيع عنه قبل انتخابه قوله «انه لن تقوم حربٌ لما تكون الأمور متوازنة.» وهذا ما أرضى جشع حزبي الاغنياء وخاصة حزب الفقراء[٣٢]. أولهما فَسّر التوازن: ان ينال كلّ امرءٍ نصيبه المناسب. وثانيهما فسره: ان تعمّ المساواة التامة الجميع. ولذلك ارتفعت آمال الجانبين. والّح رؤوساء القوم على صولون ليقبض على ناصية الحكم ففعل[٣٣] وليعالج الأمور على هواه وبكلّ حريةٍ حين أستتب الأمر له. وكان الكثير من العامة يرغبون أن يحكمهم رجل عادل حكيم، يصرف أمورهم بحكمته، لعلمهم أن التغيير الذي يفرضه القانون والعقل فقط، هو تغيير صعبٌ عسير المنال. ويقول بعضهم أن صولون تلقّى هذه البنوءة من ابوللو: «خذ المقعد الوسط، وكن مرشد السفينة فكثير من أهل أثينا هم الى جانبك». ولكن أصدقاءه المقربين عابوا عليه بالدرجة الأولى أباءه الحكم بنظام الملكية المطلقة بسبب الاسم المقترن بها فحسب[٣٤]. كأنّ فضائل الحاكم

---

(٣٢) المرجع نفسه [٤:٣].

(٣٣) في العام ٥٩٤ ق.م.

(٣٤) يجب علينا الاستدراك للقول انه كلمتي «طاغية» و«طغيان» اللتين تردان أحياناً في النّص لا تعني دائماً عند الاقدمين الحكم البغيض المتميز بالقسوة والعنف والاستغلال والفساد. فكثيراً ما كان الطغاة =

لاتستطيع أن تجعل منه شكلاً شرعياً من أشكال الحكم. لقد اقدمت [يوبيا Euboea] على هذه التجربة لما أختارت [تينونداس Tynnondas] وكذلك دويلة [ميتلين Mitylene] التي أمّرت عليها [پيتّاكوس Pittacus][٣٥] إلاّ أن هذا كلّه لم يثن صولون عن عزمُه. ولكنه على ما قيل - أجاب أصدقاءه: «صحيح أن الحكم المطلق بقعة جميلة، ولكن لا يوجد فيها مكان للنزول، وكتبٍ على نسخة من اشعار [فوكوس Phocus] ما يلي:

«فلأنيّ أنقذت أرضي. وكففت يدي عن الظلم والقسوة. وابيت أن اشوه اسمي الصالح بلطخةٍ أو بعار - لن آسف قطّ، وأعتقد ان ذلك سيكون رأس شهرتي»

ومنها يتضح أنه كان رجلاً عظيم الشهرة قبل أن يستنّ شرائعه[٣٦]. وقد سجّل صنوف السخريّة التي صُبت عليه لرفضه الحكم والسلطة في هذه الأبيات:

«لا شك ان صولون من الحالمين والسذّج فعندما تحبوه الآلهة بالنعم، تراه يرفضها بمحض اختياره. عندما تكون الشبكة ملأى بالسمك ويراها مفرطة في الثقل، يأبى أن يرفعها، جُبناً منه، وقلة عقل. لو اني اهتبلت تلك الفرصة في الغنى والحكم وكنت طاغية لآثينا يوماً واحداً لأعطيت جلدي للسلخ، وتركت بيتي يضمحل ويموت[٣٧].

وهكذا يجعل الفقراء والدهماء يلهجون بذكره. ومع انه رفض قبول الحكم، إلاّ انه لم يكن لينّ الجانب كثيراً في شؤونه، فلم يظهر امام السلطات ذليلاً طائعاً ولم يستنّ شرائعه لإرضاء أولئك الذين انتخبوه. فما كان جيداً من القوانين لم يدخل اليه تعديلاً أو يغير فيه لئلا...

«تخرّ الحكومة على ركبيتها وتتقوض تماماً»

لقد كان أضعف من أن يعمد الى صياغة نموذج حكم جديد أو يعيد تشكيله بهيئة يغلب

= يمارسون سلطانهم بشكل قانونيّ عادل. إلاّ ان بغضه والقيام ضدّه كان مصدره بصورة عامة المبدء الذي أختطه هذا الحكم لنفسه أعني السلطان المطلق الذي قد يخشى دائماً تطرّف من يمارسه والوصول به الى أقصى درجة من التحكم والبربرية، والى تبرير اي استغلال أو اغتصاب.

(٣٥) هو واحد من الحكماء السبعة قبض على زمام السلطة في (متيلين) فراح [الكيوس] الذي ما كان مواطناً ومعاصراً له ومدافعاً عن الحريات - يهجوه وينتقده ويخفض من شأنه، كما فعل بالطغاة الآخرين. فتغاضى [بيتاكوس] عنه ولم يكترث به. واقدم على قمع تمرد الأهالي بالقوة ونشر السلام والعدل والانسجام بين المواطنين ثم تنازل عن السلطة بمحض اختياره واعاد الحرية الى بلاده. إلاّ انه أرغِم في آخر عمره على تولى السلطة مجدداً باجماع ملحّ من المواطنين. فنطق بحكمته الشهيرة «الفضيلة لا تخلو من عوائق» وبعد أن حقق ما جيء به لتحقيقه أعتزل الحكم ليعود فرداً عادياً.

(٣٦) المقطوعة ٣٢.

(٣٧) المقطوعة ٣٣.

عليها الاعتدال. ولكنه طبق ما خيل له انه ممكن التطبيق عن طريق إقناع المستعدين للاقناع، وباستخدام القوة للمعاندين كما قال هو نفسه: «القوة والعدل، يعملان معاً».

ولذلك، فعندما سئل فيما بعد: هل ترك للآثينيين خير قوانين يمكن لأحد أن يعطيها؟» اجاب «تركت خير ما يستطيعون أخذه» وهذا أسلوب في الجواب يقول عنه المحدثون أن الآثينيين يلجأون اليه للتحقيق من سوء شيء. بأعطائه وصفاً جميلاً بريئاً لا يخدش الأسماع. فهم يسمون الطاهرات حظايا. والجزية: مكساً، والحامية حرساً، والسجن غرفة. ويبدو أن هذا من مبتدعات صولون. أساساً. فقد أطلق يقضي قانوناً بالغاء الديون مصطلح [سيساكثيا Siesacthea]. أي الإغاثة أو تخفيف الإعباء. فأول قاعدة وضعها هي الاعفاء الشامل عن كلّ ما تخلّف من الديون، ولا يحق في المستقبل لأي شخص أن يسخّر لنفسه عَمَل جسم مدينه ضماناً لدينه. على أن بعضهم ومنهم [آندروسيون Androtion] يؤكد انه لم يلغ ما تخلف من الديون وانما حفضت الفائدة فحسب وهو ما كان موضع رضى الناس فسمّوا هذه المنفعة [سيساكيثيا] كما شملوا بالتسمية، توسيع الكاييل ورفع قيمة النقدّ والقوة الشرائية(٣٨). فقد حددّ قيمة [اليـاون] مجدداً بمائة درهم [دراخمه] في حين كان قبلاً ثلاثة وسبعين درهماً، وهكذا فمع كون عدد القطع النقدية المدفوعة عن الدين كانت سواءً، إلاّ أنها أقلّ قيمةً. وهذا ما عاد بالفائدة الكبيرة على أولئك الذين يدفعون ديوناً كبيرة. وفي الوقت نفسه لا يخسر الدائنون شيئاً من ديونهم.

على أن معظم الكتاب يتفقون على أن الغاء الديون هو المقصود [بسيساكْثيا] اي ابراء الذمة. ويؤكد هذا في بعض مواضع من قصيدته التي يعزو فيها هذه المأثرة لنفسه: «لقد رفعتُ عن الأرض المرتهنة حجارة الرهن - وما كان منها مستعبداً أصبح حُراً.»(٤٠ أ)

ففيها يعزو لنفسه بانه رفع شارات الحجز عن الأراضي(٣٩) التي كانت العين تشاهدها من قبل في كل مكان وحرر الحقول التي كانت قبل ذلك محجوزة. وحرر أولئك الذين حبسهم دائنوهم. وأعادهم الى البلاد بعد أن ظلوا متشردين في الخارج كما اخبرنا عنهم: قضت الأقدار عليهم بالنأي والتشرد زمناً طويلاً فنسوا لغة موطنهم (لغة اتيكا).

وحررّ بعض أولئك الذين «رسفوا هنا في أغلال العبودية المخزية في بلادهم»(٤٠ ب).

---

(٣٨) انظر ارسطو [دستور آثينا ١٠ و ٥٠].

(٣٩) من عادة الآثينيين وضع بطاقة على المنازل أو الأراضي اشارة الى انها خاصّة أو محجوزة.

(٤٠ أ) المقطوعة ٣٦ الابيات الرابع وما بعده بعد ارجاعها من صيغة المتكلم الى صيغة الغائب. البيت ٦ من اقتباس ارسطو.

(٤٠ ب) المقطوعة ٣٦ (الابيات ٩-١٢ من برگ.) (الابيات ١١-١٤ من ارسطو).

وفيما هو يرسم هذه الخطط حصل أمرٌ مخجلٌ جداً، اذ لمّا قرّر الغاء الديون، وأخذ يفكرّ بأفضل الطرق للبدء بالتنفيذ واسرّ لأقرب اصدقائه اليه [كونون Conon وكلينياس Clinias وهيپو نيكوس Hipponicus] رهم ممن يضع فيهم أعظم الثقة - بأنه لن يتدخلّ في قضية الأرض، وإنما سيحررّ الناس من ديونهم فحسب. فأنتهزوا الفرصة وعجلوا باستدانة مبالغ كبيرة من المال وابتاعوا مساحات واسعة من الأراضي الزراعية لأنفسهم. ولما طبّق القانون بقيت املاكهم لهم دون أن يضطروا الى دفع المال الذي استدانوه. وهذا ما أثار الشكوك العظيمة في صولون ومما زاد في السخط عليه والكره، ان حالته المالية لم تتأثر بالقانون، إلا أنه بادر حالاً الى قطع دابر الشكّ بأن أبرأ ذمة كل مدينيه الذين يدينون له بخمسة تالنتات فأكثر حسب أحكام القانون، وكانوا كثيرين. على أن بعضهم مثل [پوليزيلوس Polyzelus] الرودسي، يقول أنه أبرأ من كان مديناً له الى حدّ خمسة عشر تالنت. وسُمّي اصدقاؤه أولئك منذ ذلك الحين بالمنافقين Chreocopidae أو قُطّاع الدين(٤١).

لم يُرض صولون بعمله هذا أيّاً من الحزبين، فالأغنياء سخطوا لخسارة اموالهم، والفقراء سخطوا لأن الأراضي لم يجر تقسيمها مجدداً وبقيت على حالها ولم تفرض المساواة التامة بين المواطنين على نحو ما فعله ليكورغوس في جمهوريته. والحق يقال أن ليكورغوس هو سليل هرقل الحادي عشر، فضلاً عن انه كسب اشياعاً واصدقاء عديدين بعد حكمه الطويل في [لقيديمونيا] ونال شهرة عظيمة ونفوذاً واسعاً استخدمها كلها في اشادة صرح نظام دولته وأعتمد غالباً على القوة لا على الاقناع، حتى انه فقد أحدى عينيه في معركة(٤٢)، كما كان قادراً على استخدام أحدى الوسائل لسلامة الدولة واستقرارها، وهو ازالة الفقر والغنى في مجتمعه، إلا أن صولون لم يبلغ هذا الحدّ في سياسته فقد كان متوسط الحال، ومع ذلك لم يتقاعس ولم يدخر وسعاً في ممارسة كل سلطته، ولم يكن ثم ما يعتمد عليه غير ثقة الناس به حسن ورأيهم فيه واعتمادهم عليه. أما أنه أثار سخيمة معظم من كان يؤمل نتيجة أخرى عنه، فهو ما أشار اليه في ابياته:

بالأمس كانوا يتيهون بي أعجاباً ويباهون واليوم ينظرون إليّ شزراً كأني عدوهم. الاصدقاء كلهم انقلبوا أعداء(٤٣).

---

(٤١) هنا مفارقة لفظية واضحة. فـ(كركوپيدي Cercopidae) الذي يطلقه الآثينيون على أنفسهم، يشبهم الى ملكهم الأول ككربوس Cecrops فيقولون انهم من نسله [جوڤينال ٨:٤٦].

(٤٢) ارسطو: الدستور الآثيني ٦.

(٤٣) المقطوعة ٣٤. الآن الابيات الأربعة فما بعدها من المقطوعة ذات الابيات التسعة التي اقتبسها أرسطو (انظر الدستور ١٢:٣).

ومع هذا فلو حاز اي امرءٍ «ما حزته من سلطان» على حدّ قوله. لما امتنع أو قصر عن احتلاب أدسم الحليب لنفسه وصادر الكل. ولكن لم يمرّ طويل زمن إلاّ وشعروا بفائدة ما صنع. فزال حقدهم عليه. وقدموا قرابين عامة أطلقوا عليها اضحية الغاء الديون [سيّساكثيا] وأختاروا صولون ليضع القوانين النموذجية الجديدة لجمهوريتهم، ومنحوه صلاحيات مطلقة في كل شيء، وسلطاناً ماله حدود على أقضيتهم ومجالسهم ومحاكمهم ومجالس شوراهم، ليقرر بنفسه مواعيد اجتماعاتها وعددها، وتخصيص الأموال لها. ومُنح صلاحية حلهّا أو الابقاء عليها حسبما يرتأيه.

وكان أول اعماله الغاء كل قوانين [دراكو Draco] (٤٤) لصرامتها الفائقة وعقوباتها القاسية، خلا ما يتعلق بجرائم القتل منها. كانت عقوبة الموت في قوانين [دراكو] تفرض تقريباً على كل الجرائم حتى تلك التي تعاقب على البطالة، أو على من يسرق رأس خسّ واحد أو تفاحة واحدة كان الموت عقابها مثل جرائم القتل والكفر. وصدق عنها حقاً قول [ديماديس Demades] (٤٥) الذين نبغ بعده بزمن طويل. «لم تكتب قوانين دراكو بالحبر، وانما كتبت بالدم». وسئل [دراكو] نفسه: لماذا جعل الموت عقاباً لمعظم الجرائم فأجاب «الجرائم الصغيرة تستحق ذلك. وليس عندي عقوبة أشدّ من الموت للجرائم الكبيرة».

ولما كان صولون يرغب في ابقاء الجهاز القضائي بأيدي الطبقة الغنية، وان يفتح امام العامة في الوقت نفسه أبواب أجهزة أخرى من أجهزة الحكم. فكانت خطوته الثانية هي أحصاء أموال المواطنين(٤٦) فرداً فرداً فالذين ملكوا خمسمائة ميكال من الغلة: مائعةً وجافة جعل منهم

---

(٤٤) كان [دراكو] ارخوناً في أول سنة وثاني سنة من الاولمبياد التاسع والثلاثين الموافق لـ٦٢٣ ق.م. مع أن اسم هذا الرجل الشهير يظهر كثيراً في صفحات كتب التاريخ القديم الاّ اننا لانجد أكثر من عشرة أسطر محترمة عنه وعن شرائعه، ويمكن القول بانه اول مشترعي آثينا، ذلك لأن قوانين أو بالأحرى «توصيات Precepts» (تريبطرليموس) كانت قليلة جداً لا تكفي لتثبيت الحقوق والواجبات ومن تلك الوصايا «أكرم ابويك» و«اعبد الآلهة». «لاتؤذِ حيواناً» وما الى ذلك. وكان (داركو) أوّل اغريقي عاقب على الزنا بالموت. وأعتبر القتل أشنع جريمة وأفظعها واراد ان يعزز كرهها في الذهن فشرع بان تجرى التعقيبات القضائية بحق الجمادات والأشياء الخالية من الروح ان كانت سبباً لإحداث الموت. لكنه الى جانب جريمتي القتل والزنا اللتين عوقبتا بالموت. فقد جعل عدداً من الجرائم الاصغر شأناً تستحق عقوبة الموت ايضاً وهذا ما أدىّ الى الغاء كلّ شرائعه تقريباً. فصرامتها المتناهية الشبيهة بالحدّ المسنون المرهف، جعلها كالنصل الذي ينفذ عميقاً وقد حفظ لنا بروفيري في (de Abstin) نصاً من تلك القوانين وهو ما تعلّق بالعبادة «انه لقانون ابديّ في آتيكا. ان تعبد الآلهة وجوباً، وكذلك تعبد الابطال بحسب تقاليد اسلافنا. في السرّ تعبد فقط وبصلاة لائقة، وبالثمار الأولى واراقة الخمر سنوياً».

(٤٥) خطيب آثيني عاصر فيليب المقدوني وابنه الاسكندر.

(٤٦) ارسطو دستور آثينا ٣:٧ وما بعده.

الطبقة الأولى هو أطلق عليها اسم [پنتاكورسيوميذيمني Pentacosiomedimini] [٤٧] (اي ذوي الخمسمائة مكيال). أمّا أولئك الذي ملكوا حصاناً أو مالاً يعادل ثلاثمائة مكيال فأطلق عليهم اسم [هيپادا تيلوميتس Heppada Telumtes]وجعلهم طبقة ثانية. أمّا من ملك ما يعادل مائتي مكيال فسماهم [زوبگيتي Zeugitae] وجعلهم الطبقة الثالثة أما الباقون فجعلوا طبقة رابعة وسمّاهم [ثيتيس Thetes] وهؤلاء لا يحق لهم ان يتولوا أي منصب حكومي. لكن لهم أن يحضروا الجمعية العامة ويعملوا عمل المحلفين، وهو عمل يبدو للوهلة الأولى شيئاً تافهاً، لكن سرعان ما تبيّن أنه حق ذو سلطان عظيم. لأن كل موضوع خلافٍ رئيسٍ يرفع اليهم ليصوتوا عليه، ولايستثنى منها حتى الامور التي هي من اختصاص الارخون اذ قرر ان تستأنف اليهم قضائياً.

وكذلك قيل أن صياغة قوانين صولون كان يشوبها الغموض وكانت معانيها مزدوجة التفسير مطاطيّة. وقد تعمّد ذلك لتزاد هيبة مجالسه القضائية. لأن غموضها وصعوبة تفسيرها وعدم توصل الناس الى فهم منطوقها الحرفي يضطرهم الى رفع دعاواهم الى القضاة المختصين الذين حذقوا الصناعة. اما عن المساواة الطبقية فهو ينوه بها على الصورة الآتية:

منحت الشعب سلطة كافية ولم اجردهم من الكرامة ولم أعطهم الكثير جداً واما اولئك الذين يملكون السلطة. ويتمتعون بالغنى الطائل فقد جعلتهم القوانين في نجوة عن كُلّ ما يحطّ من قدرهم. ووقفت بدرعي الجبار امام كلا الطبقتين ولم أدع أحد الفريقين يعتدي على حقوق الآخر [٤٨]

وقويّ من ضمانات أمن الطبقة العامة، بمنح الحق العام إقامة الدعوى عن اي جريمة من جرائم الايذاء العمديّ. فاذا تعرض اي فردٍ للضرب، أو بُتر منه اي عضو أو اعتدي عليه بأي شكلٍ من الاشكال، كان لكل مواطن الحق في اقامة الدعوى على المعتدي. وهدف صولون من هذا، أن يعوّد المواطنين أن يشعروا بشعور المعتدى عليه، كأنهم اعضاء في جسمٍ واحدٍ. وان تثور

(٤٧) ان هؤلاء [الپنتاكورسيوميديمني] يدفعون ثالنتاً واحداً لبيت المال. أمّا [الهيپاداتيلوانتيس] فيتوجب عليهم كما تدل عليه عبارة النص – أن يقتنوا حصاناً وان يخدموا في الجيش فرساناً. واما الزفْخيتي فقد أطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم وسط بين طبقة الفرسان وطبقة العامة (ذلك لأن الجذافين الذين يحتلون المتعد الوسط بين الثالاميت في قيدوم السفينة وبين الترواميت في الدفّة. ومع أن الـ(ثيتيت) الذين لا يدفعون ضريبة. لا صوت لهم في الجمعية العامة، فانهم كما لاحظ پلوتارخ حازوا أمتيازاً عطيماً باعتبارهم مرجعاً استينافياً في معظم الاحكام القضائية وقد بلغ استخدام هذا الامتياز من الخطورة حداً حسب رأي ارسطو (السياسة ٢:١٠) أن اثينا وقعت فعلاً بيد الرعاع وسلطانهم الطاغي.

(٤٨) المقطوعة ٥ وما بعدها. ارسطو [دستور آثينا ٢:١] أنظر أيضاً ٩:١ وما بعدها.

ضمائرهم للجريمة كأنها وقعت عليهم. وهناك قولة له تنسجم ومنطوق قانونه. اذ سئل ما هو النموذج الأمثل للمدينة في رأيه فأجاب: «المدينة التي يتساوى فيها المعتدى عليهم وغير المعتدى عليهم بحق ادانة ومعاقبة المعتدين.»

عندما ألفّ صولون مجلس [الاريوباغوس](٤٩) من الآراخنة السابقين الذين تولوا هذا المنصب السنويّ وكان هو واحداً منهم(٥٠)، لاحظ أن الشعب الذي تخلص من الديون مازال أمره مضطرباً يجأر بالشكوى فألّف مجلساً آخر قوامه اربعمائة عضو(٥١)، تنتخب كل طبقة من الطبقات الأربع، مائة عضو له. وواجبه تدقيق واقرار كل ما يفرض على الشعب من أوامر وقوانين، وبعد ذلك يتمّ عرضه على الجمعية عامة. اما المجلس الأعلى أو [الأريوباغوس] فقد جعله حارساً ومراقباً على القوانين وبذلك كان هذان المجلسان بمثابة مرساتين للنظام الجمهوريّ،

---

(٤٩) Areopayas: اي جبل مارس [اريوس = مارس Arius] و[پاغوس جبل Pagus] وهو موضع في اثينا مرتفع تعقد فيه أعلى محكمة قضائية [م.ت].
إن المحكمة الاريوباغية وان كانت أسسها قد ثبتت منذ عهد طويل الاّ انها فقدت الكثير من سلطاتها عندما قام (دراكو) بتفصيل محكمة ايفيتاي Ephetae. في الزمن القديم حتى مجيء صولون كانت هذه المحكمة تضمّ أناساً أشتهروا بغناهم ونفوذهم ورجاحة عقولهم. على انه لم يجز لعضويتها إلاّ من كان ارخوناً. وهذا ما حقق الهدف الذي رمى اليه فقد ارتفع قدر [الاريرباغوس] وسمت مكانتها وامست قراراتها محترمة، بحيث لم يعد احد يقوى على انتقادها أو رفضها. وظلّ الأمر كذلك أجيالاً عديدة.

(٥٠) بعد انقراض نسل الميذونتيذي Medontidae. حدد الآثينيون فترة حكم الأرخون بسنة واحدة. وجعلوا المجلس يتألف من تسعة بدل أن يتولاه ارخون واحد. بعبارة أخرى انهم حققوا ما كانوا يصبون اليه منذ عهد بعيد أعني أن يجعلوا حكامهم الأعلين تحت الرقابة الشعبية العامة. حصل هذا الانتقال العظيم الى الديمقراطية في آثينا أثناء الاولمپياد الرابع والعشرين الموافق للعام ٦٨٤ ق.م. كان لهؤلاء الحكام مظاهر تمييز وتكريم واضحة ومنها التسميةفالارخون الأول هو ايپونيموس Eponumus باسمه تختم السنة. والثاني يدعي باسيليوس أو ملك Basileus وقد جعلوا اللقب ثانياً لتجريده من صفة الأولوية. ووظيفة المنصب رعاية الشؤون الدينية وأطلقوا على الثالث اسم [پوليمارخوس Polemarchus] وللأشرف على شؤون الحرب. اما الستة الباقون فيحمل كلّ منهم لقب [تسموثيتي Thesmothetae] وهم الاوصياء على القوانين يراقبون تفسيرها وتطبيقها والمحافظة عليها وازالة الغموض والتناقض فيها. ويمرّ هؤلاء الحكام قبل انتخابهم بفحوص صارمة للغاية تشمل التحقيق الدقيق في أصلهم وفصلهم [يجب أن تكون الاجيال الثلاثة الأخيرة التي سبقته على الأقل من اسرته آثينية الجنسية من جهة الأب والأم] ودرجة تقواهم وعباداتهم للآلهة، وحبهم لابويهم وبلادهم وما يملكون من ثروة الخ... وقد بقي هذا المجلس قائماً حتى زمن الامبراطور الروماني كاللنيوس.

(٥١) رُفع عدد القبائل في عهد كاللستينوس الى عشرٍ بعد طرده أسرة الپسستراتيدي الحاكمة. ورفع عدد اعضاء مجلس شيوخه الى خمسمائة. كل قبيلة تنتخب خمسين عند نهاية العام. ويقدم زعيم القبيلة قائمة بالمرشحين ومن هؤلاء يختار العدد المقرر بالقرعة. ثم يقوم الشيوخ بتعيين الضباط الخمسين ويطلق عليهم اسم (پريتاني). ويترأس عشرة منهم الآخرين لمدة أسبوع ويسمون پروئدري ومهمتهم الحيلولة دون وقوع فوضى ومن هؤلاء يختار (إپستاته) أو رئيس لا يدوم منصبه أكثر من يوم واحد [ارسطو: دستور آثينا ٨:٤].

يقللان من تعرضها للنوء والغرق، ويجعلان الشعب أكثر هدؤاً واستقراراً. وهذه هي الاسباب التي دعت صولون الى انشاء مجلس [الاريوباغوس] ويبدو ذلك ثابتاً تاريخياً لأن [دراكو] لم ينوه بشيء عن وجود الاريوباغيين، في حين يشير الى [الزفيتي Zaphetae] في كل قضايا الدم. على ان لوح صولون الثالث عشر المتضمن القانون الثامن، كانت صياغته كالآتي: «كل من كان مجرداً من حقوق المواطنة قبل أرخونية صولون يستعيد حقوق مواطنته. إلاّ أولئك الذين ادانهم الاريوباغوس والايفيتي، أو ادانهم الملوك في البريتانيوم لارتكابهم جرائم القتل العمد مع سبق التصميم، والقتل قصداً، أو من دسّ الدسائس على الدولة أو تآمر عليها - على ان يكونوا في ديار الإبعاد عند سنّ هذا القانون».

من هذه الصياغة يتبين أن الاريوباغوس كان موجوداً قبل قانون صولون، فمن يمكن أن يحاكمه هذا المجلس قبل صولون إن كان هو الذي أوجد مجلس قضائه؟ اللهم اذا كان قد حذف شيء من النص أو شابه سوء صياغة أو عدم دقة وهو أمر محتملٌ. وأقرب صياغة الى الوضوح هي ان يقال «...أولئك الذين ادينوا بجرائم كان الحكم بها من اختصاص الاريوباغوس والايفيتي(٥٢) والبريتانيوم عند تشريع هذا القانون»

... يبقون مجردين من حقوقهم، لا تمحى عنهم وصمة العار، أمّا ما عداهم فيعاد اليهم اعتبارهم ويلغى الحكم عنهم. وعلى أية حال نترك الموضوع لحكم القاريء.

من بين قوانين صولون، قانون غريب عجيب، فهو يجرد حقوق المواطنة من كل من يقف على الحياد في اثناء ثورة أو تمرّد(٥٣). والظاهر أن المشترع لم يكن يرى بقاء اي مواطن فاقد الشعور والاهتمام بالمصلحة العامة، منصرفاً الى شؤونه الخاصة فحسب مهتماً بما يعود عليه بالفائدة، مجرداً عن أي تحسسّ باضطراب سياسي يداهم بلده، بل يجب عليه أن ينحاز فوراً الى الجانب المصيب أو الى الحزب الذي يكون الحق الى جانبه فيناضل ويتعاون معهم. لا أن يبتعد عن مواطن الخطر ويجلس مراقباً المعركة عن كثب ليرى من الغالب؟

---

(٥٢) كان أول عمل المجلس القضائي في عهد الملك [ديموفون ابن تيفس] للنظر في دعاوى القتل العمد والقتل القصد دون تصميم. ويتألف المجلس من خمسين قاضياً آثينياً، وعدد غير محدود من الارغوسيين. إلاّ ان [داركو] أخرج الارغوسيين. وأمر المجلس بأن يتشكّل من واحد وخمسين من افاضل الآثينيين وان لا يقل عمر العضو فيه عن خمسين سنة. ومنحهم سلطاناً يعلو على سلطان اعضاء الاريوباغوس. إلاّ أن صولون خفض هذه السلطة. بحيث جعل هذا المجلس تحت اشراف الاريوباغوس كما حدد صلاحيته القانونية.

(٥٣) يورد [اولوس غيليوس] النص الحرفي لهذا القانون. ويضيف قائلاً «ذلك الذي يقف الحياد، يجب ان يجرد من منازله ويخسر بلاده وأملاكه وان ينفى خارج الوطن. ويمدح (غيلويوس) قصد المشترع من هذا القانون حين يذّمه بلوتارخ.

ويبدو للمرء قانوناً سخيفاً تافهاً أن يسمح لزوجة ذات مال موروث بأن تتخذ أقرب ذوي زوجها عشيراً، إن لم يقم زوجها بمعاشرتها! على أن بعضهم يمدح القانون ويراه فعّالاً لردع أولئك العاجزين عن واجباتهم الزوجية ويسعون للزواج بالوارثات طمعاً بما لهنَّ، مستخدمين السماح القانونيّ ليخرقوا به سنن الطبيعة. اذ كان الواجب يقضي أما أن يعزفوا عن هذا الزواج أو أن يعيشوا حياةً زوجيّة شائنة، ويعانوا العار والخزي جراء طمعهم وخطأهم المتعمّد. هذا فضلاً عن أن اشتراط كون خليلها أقرب اقرباء زوجها هو عملٌ طيبٌ حتى يظل نسب الأسرة لثمرة هذه العلاقة.

ومما جرى مجرى هذا القانون في غرابته، ذلك الذي قضى أن يوضع العريس والعروس في غرفة مغلقة الباب حيث يأكلان معاً(٥٤) سفرجلة وان زوج الوارثة يجب أن يعاشرها ثلاث مرات في الشهر على الأقل فهذا يكون من قبيل التكريم لها واظهار الحب الواجب من الزوج لزوج عفيفة محصنة. وإن لم تنجب له أولاداً. وهو ما يقضي على كل اسباب الخلاف ولايؤدي بالخصام الطفيف الى قطيعة. وفي غير مثل هذه الزيجات، منع صولون دفع أي بائنة منعاً باتاً. فلا يكون للعروس غير ثلاث فساتين، وأثاث بيتية بسيطة(٥٥). لاشيء سوى ذلك. لأن صولون لم يشأ ان تعقد الزيجات على أساس الربح أو المال بل أن يسبقها الحب الخالص، واتفاق الميول، وانجاب الأولاد. كما طلبت أم [ديونيسيوس] من ابنها ان يقوم بتزويجها أحد مواطنيه اجابها قائلاً« حقاً اني حطمت قوانين البلاد بالطغيان الذي امارسهُ، لكنيّ لا أستطيع أن تحدّى قوانين الطبيعة أو اواخرقها بزواج غير متكافيء». مثل هذا الإخلال غير مسموح به في الجمهورية، كما انه لا يفسح اي مجالٍ لعقد مثل هذه الزيجات غير المتكافئة، التي لايربطها الحُبّ ولاتصل الى غاية ولا ثمرة. ولقد حق على كلّ حاكم بعيد النظر، أو مشترع للقوانين ان يقول لشيخ كبير السن ما قيل «لفيلوكتيتس Philoctetes](٥٦) في التراجيديا

---

(٥٤) ليس غريباً ان تاكل الوارثة وزوجها سفرجلاً (فكلّ المتزوجين حديثاً يأكلون هذه الثمرة) وهذا ما يجعل حديثهما المتبادل رائقاً. ولاسيما وانها تجعل رائحة الفم طيبة. لكن لداسيبه تفسيراً آخر من مؤداه الحرص المتبادل على سلامتها لأن السفرجل كما هو شائع لدى العامة ترياق للسموم ويظهر من [پليني: التاريخ الطبيعي ١١:١٥ و٦:٢٣) ان لهذه الثمرة منزلة عظيمة لدى الاقدمين من نواحٍ عدة.

(٥٥) تجلب العروس الى منزل الزوجية قصعة فخارية تسمى [فروغيتيوس] تخبز فيها ارغفة الشعير. كإشارة الى انها صارت تضطلع بأمور البيت وانها ستشارك في اشغال الأسرة.

(٥٦) تمثيلية بهذا الاسم لايعلم باسم مؤلفها على وجه الدقة. تدور احداثها حول [فيلوكتيتس] صديق هرقل ومرافقه. بعد موت هرقل ورث عنه سهامه المغموسة بدم الهيدرا. سقط أحد هذه السهام على قدمه بمحض الصدفة، فأحدث جرحاً ونغر الجرح فأضطر الأغريق الزاحفون على طروادة الى تركه وهو يقاسي آلاماً مبرحة في لمنوس. ولما لم يكن بوسعهم الاستيلاء على تلك المدينة بغير هذه السهام القتالة. فقد أرسلوا اليه وفداً يلتمسونها منه. بنى [سوفوكليس] من هذه الاحدوثة مأساة مازالت موجودة.

تزوج امرأة في مقتبل العمر ايتها الفتاة المسكينة: «خطأ انك تزوجت في حال ملائمة!»

ومن احكام هذا القانون انه «اذا وجد شاب تزوج امرأة غنية كبيرة السن. وقد ازداد بدانة وسمن كالقطاة وهو في مرتعه، أبعد عنها حالاً وتُزوج بامرأة صغيرة ذات سنّ مناسبة»... وفي هذا الكفاية.

من قوانينه الأخرى النافعة التي اصدرها، تحريم ذكر الموتى بسوءٍ[٥٧] فمن الصلاح والدين أن يحتفظ المرء للذاهبين بحرمة وقداسة، ولايعبث بذكرى من قضى نحبه. ومن حسن الخلق أيضاً أن يوضع حَدّ للشنآن، بمنع المواطنين من اغتياب الأحياء في المعابد وساحات القضاء ودوائر الحكومة، أو اثناء الألعاب العامة، ومن يفعل ذلك يجازى بدفع ثلاثة دراخمات للمقذوف من غرامة للحكومة قدرها دراخمان. فالعجز عن ضبط العاطفة، دليل على طبع ضعيف وسوء تربية يصعب تهذيبها في أغلب الأحيان، وقد يكون تقويمها مستحيل. وعلى القوانين أن تضع في حسابها جميع الاحتمالات ان كان غرض صانعها فرض العقوبات على القلّة المذنبة لأجل الإصلاح لا معاقبة الكثرة دون ما هدف أو غاية.

وكان موضع ثناءٍ عظيم لقانونه الخاص بالوصايا. فقبله لم يكن احدٌ يستطيع ان يوصي بماله. لأن تركة الميت هي ميراث مؤكد لأسرته لا ينازعها فيه أحد. فسمح صولون بالوصيّة، كذلك سمح بها في حالة ما لو كان الموصي بلا عقب ذكر فله ان يهب ماله لمن يشاء.[٥٨] وأظهر صولون بذلك أن رابطة الصداقة أقوى من رابطة القرابة، والميول البشرية أقوى من دواعي الضرورة وجعل مال المواطن ملكاً حقيقياً له يتصرف به دون قيد أو شرط إلاّ أنه منع وصية المحتضر وأبطل كل ما جاء منها نتيجة شدة مرضٍ أو بسبب سحر، أو سجن أو اكراه. أو اغراء اقدمت عليه المرأة الموصى لها، لأن الاغراء على ارتكاب خطأٍ هو في مستوى الاكراه وليس ثم فارق كبير بين الخديعة والإجبار وبين الاغراء والاكراه مادام كلا الأمرين يحدان من حرية العقل سواء بسواء[٥٩].

وأصدر قانوناً بتنظيم افراح المرأة وحدادها وكيفية مشيتها وألغى كل ما هو ضد الحشمة أو غير معقول. فلم يسمح للمرأة اثناء خروجها من الدار ان تلبس أكثر من ثلاث قطع من

(٥٧) حتى من قبل أولادهم. وهذا أقصى حدٍ للتحريم [ديموستينس].

(٥٨) «اولاد شرعيون» كما يضعها ديموستينس.

(٥٩) وكذلك رُسم أن لايستفيد الابناء بالتبني من الوصية. ولكن ما أن يرزقوا أولاداً شرعيين حتى يكونوا أحراراً في العودة الى الأسرة التي جاؤوا منها. اما اذا بقوا دون اولاد فان الاملاك الموروثة بفضل تبنيهم تعود الى اقرباء المتبني [ديموستينس].

الثياب، وان لا تحمل من اللحم والخمر ما تزيد قيمته على اوبول Obol واحد(*) أو سلّة يزيد ارتفاعها عن كيوبيت(**) واحد. وان لايخرجن ليلاً إلاّ في عربة يتقدمها مشعل مضيء[٦٠]. ومنع اهل الميت أن يضربن صدورهن اثارة للعواطف أو ان يندبن ميتاً في جنازة آخر[٦١]. وأبطل عادة التضحية بثور على القبر، ودفن أكثر من ثلاثة أردية مع الميت، وان لايزور القبر غير ذوي الفقيد[٦٢] باستثناء مناسبة التشييع. ومعظم هذه الأمور ممنوعة في قوانيننا الحالية. لكن يزيد عليها فيما بعد حالة واحدة، وهي أن تقوم مراقبات للنساء الثاكلات باصدار احكام طفيفة على كل من تسرف في حدادها واظهار حزنها.

ولاحظ صولون ان المدينة أخذت تكتظ بالأشخاص الذين يأتون الى اتيكا من كل حدب وصوب سعياً وراء الرزق، وان معظم البلاد قاحلة ماحلة وان تجار البحر لا يصدرون لمن لا يستوردون منه بالمقابل فوجه المواطنين الى التجارة. وسنّ قانوناً ينصّ على أن الأبن ليس مكلفاً باعاشة ابيه ان لم يقم الأب بتنشئته على حرفة ما[٦٣]، والحق يقال أن ليكورغوس ورث مدينةً خالية من الأجانب، وارضاً... «تتسع لجماهير غفيرة، تكفي ضعف عددهم»

على حَدّ ما قال [يوريبيدس] زد على هذا أن الشغيلة كانوا كثيرين حول سپارطا، ليس بينهم عاطل واحدٌ، وكلهم يعمل ويكدح. ولذلك كان مصيباً حين أعفى مواطنيه من الأعمال اليدوية والحرف الاعتيادية، ابقاهم تحت السّلاح وعلمهم صناعة الحرب لا غير. في حين أن صولون استوحى قوانينه من واقع بلاده، ولم يحاول جرّ الواقع الى قوانينه.

ووجد خصوبة الأرض اضعف من تؤمن عيشة المزارعين، ناهيك بعجزها عن اعاشة الجموع

(*) عملة يونانية قيمتها عشرة افلس تقريباً.

(**) قياس يوناني طوله ١٨ انجاً.

(٦٠) لمنعهن من ارتكاب اية جريمة تحت ستر الظلام.

(٦١) يسرد [ديموستينس] في (تيموكراتيس) قواعد صولون الخاصة بالجنائز على النحو التالي: «فلْتسبَح اجساد الموتى في البيت بحسب وصية الميت. وفي اليوم التالي قبل شروق الشمس تحمل منه ويتقدم الرجال الجنازة اثناء السير، وتسير النسوة في أعقابها. ويحظر على اية امرأة في الحداد ابن تدخل حَرم اي ميت أو تسير في جنازته حتى تنقضي على ميتها ثلاثة أعوام كوامل، الا اذا كان الميت الثاني بدرجة ان عم أو ابن خال. هذه القواعد اقتبسها مشترع «الالواح الاثني عشر» الروماني ففرضها على الرومان.

(٦٢) تعتبر هذه الزيارة عملاً من أعمال البرّ. اما زيارة الغرباء فهي مكروهة اذ يفترض انها تستبطن نية خبيثة مجرمة وهي سرقة عظام الميت لتستخدم في اعمال الشعبذة.

(٦٣) من يحكم بجريمة الكسل والبطالة ثلاث مرات. يعلن للملأ بأنه انسان «سيء السيرة»، وقال بعض الكتاب ان [دراكو] جعل البطالة مرةً واحدة جريمة عقوبتها الموت. إلاّ أن صولون خفف من هذه الصرامة وجعل عقوبة السيء السيرة الغرامة بمبلغ مائة درهم (دراخمة). ويؤكد هيرودوتس وديون [المرجع السالف ١ و ٦:٢] ان مثل هذا القانون كان مطبقاً في مصر ويحتمل جداً أن يكون صولون المطلع على قوانين تلك البلاد، قد أقتبس هذا المبدأ من هناك.

العاطلة التي لا تمتهن الزراعة. فأدخل التجارة في عداد المهن. وأمر مجلس الاريوباغيين بالتحقيق عن مصدر ارزاق كل فرد وعقاب العاطلين. لكن القانون التالي كما شرحه [هيراقليدس پونتيكوس] كان اشد صرامة، فقد قضى بأن لايجبر أولاد النساء غير المتزوجات بإعالة آبائهم غير الشرعيين. فمن يأبى شكليات الاتحاد الشريف بالزواج، يعتبر انه يعاشر النساء لأجل المتعة لا لإنجاب الولد، وبهذا يكون حرمانه من كد ابنه السفاح جزاءً وفاقاً لأنه حرم على نفسه كلّ حق له في تأديب أولاده. وجعل من ولادتهم نفسها فضيحة وعاراً.

واغرب ما في قوانين صولون تلك تتعلق بالنساء[٦٤]. فقد سمحت لكلّ امرءٍ بقتل الزاني حين يضبط في الفراش. لكن اذا اجبر اي رجل حُرٌ على الزنا، فعليه ان يدفع غرامة قدرها مائة دراخما، واذا اغواها يُغرم عشرين دراخما. أما أولئك اللاتي يبعن انفسهم علناً أي العاهرات اللاتي يذهبن علنا الى كل من يدفع لهن أجراً. فلا جناح عليهن وعلى معاشرتهن. وحَرّم بيع البنت والأخت إلاّ اذا ثبت انهن خلعن عذارهن، وان يكن عير متزوجات.

الحق يقال انه ليس من العدل في شيء أن يفرض على الذنب عقاب جدّ صارم أحياناً، دون اتاحة مجال لندم صاحبه، في حين يعاقب المرء عنه وأحياناً بعقوبة طفيفة جداً، بفرض غرامة زهيدة مثلاً، كأن القضية مجرد لعبة! إلاّ اذا كانت النقود في آثينا من الندورة بمكان آنذاك. فقلّة النقد تجعل هذه الغرامات عقوبات شديدة جداً. ونحن نرى في تقديم الأضاحي ان ثمن الشاة الواحدة والبوشل الواحد من القمح قد حددا بدراخما واحد لكل منهما. والفائز في الألعاب [الإستمية] يعطى مائة دراخما جائزةً. والفائز في الألعاب الاولمپية يعطى خمسمائة ومن يأتي بذئب يعطى خمسة. ومن يأتي بجروه يعطى درخما واحدة وقيمة الثور خمس دراخمات، وقيمة الشاة دراخما واحدة كما يؤكد [ديمتريوس] الفاليري. على أن الأسعار التي حددها صولون في لوحه السادس عشر بخصوص الحيوانات الممتازة هي بالطبع أعلى بكثير من هذه الأسعار، ومع هذا فهي واطئة جداً نسبةً الى الأسعار الحالية. لقد كان الاثينيون أصلاً اعداءً للذئاب ارضهم اصلح للرعي منها للزراعة. وبعض المورخين يؤكدون أن طبقاتهم لم تأخذ اسماءها من ابناء [أيون Ion] وانما من الصنائع المختلفة التي يزاولونها، فالجنود يسمون [هوپليتي Hoplitae]. والصنّاع [ايرغادس Ergades] والفلاحون [غيليونتس Gele-ontes] والرعاة والباحثون عن الكلأ [ايغيكوريس Aegicores][٦٥].

(٦٤) الزانية لايسمح لها بالزينة أو المشاركة في القرابين العامة. وان فعلت فلكل شخصٍ الحق في خرق ثيابها من دُبر وضربها في اي مكان من جسمها على ان لايؤدي الضرب الى القضاء على حياتها أو فقء عينيها.

(٦٥) هذا التقريب اللغوي العسير في تفسير اسماء القبائل القديمة الأربع التي اشتقت من أسماء ايون =

ولما كانت البلاد الاتيكية قليلة الانهار والبحيرات[٦٦]، وليس بها ينابيع ثرة والناس معظمهم يستخدمون الأبار التي يتولون هم حفرها. فقد سن صولون قانوناً يسمح بالاستقاء من الآبار العمومية التي تقع ضمن مسافة هپيكون Hippicon واحدٍ (أي اربع فورلنغات)[*] من المستقين. فاذا كانوا على مسافة أبعد فعليهم أن يحفروا بئراً خاصة بهم. فاذا حفروا الى عمق ستين قدماً ولم ينبط ماء فلهم الحق في أن يأخذوا ملء مكيالٍ (سعته اربعة غالونات ونصف غالون) يومياً من جيرانهم. لأنه كان يرى من الحكمة أن تؤمن الحاجة، وأن لا يشجّع المرء على الكسل. وكان ذكياً في أنظمته المتعلقة بشؤون الغراس، فمن يغرس شجرة جديدة عليه أن يبعد موضعها مسافة خمسة أقدام من حدود حقل جاره على الأقل. فاذا كانت شجرة تين أو زيتون فيجب أن لاتقلّ المسافة عن تسع أقدام لأن جذورها تمتد وتنتشر ولا يمكن ان يغرس هذان الصنفان قرب اي نوع من الأشجار الأخرى. إلاّ وألحقا بها ضرراً لأنهما تمتصان غذاءها وأحياناً تخنقها بعملية تنفسهما ومن يحفر حفرة أو ساقية فعليه أن يجعلها بعيدة عن أرض جاره بمسافة تساوي عمقها ومن يربيّ قفائر نحل فعليه أن يضعها ضمن مسافة ثلاثمائة قدمٍ من قفائر نحل شخصٍ آخر.

ولم يسمح بتصدير مادة الى الخارج غير الزيت ومن يصدر مادة أخرى غيرها يلعنه الأرخون لعنة دينية. أو أن يدفع عنه مائة دراخما والقانون التالي مثبت في اللوح الأول من القوانين فلا يظنن أحد - كما يؤكد بعضهم - انه لايعقل ان تصدير التين كان ممنوعاً في يومٍ ما وانّ المبُلغَ عن المخالفين كان يدعى «المتبصبص»[٦٧]! كذلك استنّ قانوناً بخصوص جراح الحيوان والأذى الذي يحدثه في الغير. فاذا عضّ كلبٌ شخصاً أوجب القانون على صاحبه أن يسلمه وقد ربط الى عنقه جذع خشبٍ طوله اربع اقدام ونصف قدم[٦٨]. وهو ضمان جيد لأمان الآخرين من غائلة الحيوان. أما القانون الخاص بحصول الأجانب على الجنسية الآثينية فهو مما

= الأربعة كما يقول هيرودوتس [٥:٦٦]، فالأول لا علاقة له بـ Nolpe اي الأسلحة. والثاني لا علاقة له بـ Ergon اي العمل. والثالث لا صلة له بـ ge اي الأرض. والرابع لا صلة له بـ aix اي العنزة.

(٦٦) يحدثنا [سترابو] عن وجود نبع ماءٍ غير بالقرب من ليكيوم. وينوّه افلاطون بنبع ماء بارد في غاية الصفاء. الا ان آتيكا هي بلاد قاحلة عموماً وكلّ من نهري ايليسوس، دارياداتوس لا يجريان باستمرار. حتى كنيسوس نفسه الذي كثيراً ما يتدفق ماؤه، ويلبث أن يجف صيفاً في أغلب الأحيان.

(*) مقياس طولي يبلغ حوالي ٢٢٠ ياردة فيكون الهيپكون حوالي ٨٨٠ ياردة.

(٦٧) الترجمة الحرفية يجب أن تكون «عارض التين» وقد أنتشر هذا الاسم فيما بعد فأصبح هكذا -Syco phant ويقترن بصفات رذيلة كالحقارة والذّلة والوضاعة.

(٦٨) هذا الحكم وعدد آخر من أحكام صولون، دخلت في أحكان الالواح الاثني عشر الرومانية. فقد أرسل الرومان في حدود ٣٠٠ ق.م وفداً الى آثينا لإختيار بعض القوانين اليونانية لقانونهم المدني.

يشكّ في صلاحه. اذ لم يسمح بهذا الامتياز الاّ لأولئك الذين حكموا في بلادهم بالنفي المؤبد أو من جاؤوا اثينا للتجارة تصحبهم أُسرهم. ولم يكن يقصد من هذا التحديد، تثبيط همة الاجانب في الحصول صفة المواطن الآثيني الحُرّ، بل لتحريضهم على المساهمة الفعالة الدائمة في الحكم، زد على هذا أن أولئك الذين اخرجوا قسراً من بلادهم أو تركوها بمحض اختيارهم سعياً وراء الرزق سيكونون أكثر إخلاصاً لبلادهم الجديدة من وطنهم الأول.

وأمّا قانون الملاعب العامة (واسمه پاراسيتين Parasitein)[٦٩] فهو نموذج للقوانين الصولونية بغرابته. لأنه يعاقب المتردد عليها كثيراً، مثلما يعاقب المنقطع عنها، فالأول مفرط في استمتاعه، والثاني مستخف بالدولة!

وحدد سريان هذه القوانين بمائة عام، وكتبها على ألواح، أو بكرات خشبية أو ما يدعى [آكسون Axon] تدار حول محورٍ وهي في خزانات. وقد ظلتّ بقايا منها في الپريتانيوم أو القاعة العمومية في آثينا معروضة للناس حتى أيامي. وقد عرفت حسب قول ارسطو باسم [كيربيس Cyrbes][٧٠] بدليل ابيات للكوميدي [كراتينوس Cratinus]:

«بعد استئذانك - أقول بفضل صولون وبفضل دراكو اللذين أشعلت [كيربيساتهما] النار التي حُمْصت بها حبات فاصوليائنا»[٧١]

لكن بعضهم يقول أنها [كيربيسات] تامّة تتضمن قوانين متعلقة شعبنا بالقرابين وبفرائض الدين وغيرها.

لقد أقسم المجلس كله على تأييد هذه القوانين. كما أقسم كل فرد من طبقة الـ: تسموتيتيا عند حجر ساحة السوق، بأن يقدم كل من خرق نصاً من نصوصه - تمثالاً ذهبياً مساوياً لجسمه الى دلفي[٧٢]. ولاحظ مقدار الاختلاف بين أيام الأشهر، وان القمر لايطلع ولايأفل بحسب

---

(٦٩) ومنها جاءت كلمة طفيلي Parasite المعروفة في أغلب اللغات الاوروپية على أنها كانت من الصفات المشرفة في الأزمنة القديمة [أثينيوس ٦:٦] اذ كان يقصد بها رفيق الطعان على مائدة القرابين. وبيان ذلك أنه كان ثم في بلاد الأغريق عددٌ من الأشخاص كرّم بهذه الصفة وظيفة افراده انتقاء الحبوب والثمار وما هو ضروري للتقدمات العامة. وقد أمر صولون بان تقدم كل قبيلة ذبيحة واحدة في الشهر وبعد انتهاء مراسيم القربان تقدم مأدبة عامة يساهم فيها كل فرد من القبيله بدورٍ والاّ شهُر به أو وجب عليه تقديم عذر مشروعٍ لتقاعسه.

(٧٠) ارسطو: [دستور آثينا ١:٧].

(٧١) معاصرٌ [پريكلس] وبعد صولون بحوالي مائة وخمسين سنة، عندما أهملت قوانين هذا الأخير تماماً.

(٧٢) في ذلك الزمان كان الذهب نادراً في اليونان، حتى ان السپارطيين الذين أمرتهم النبوءة بطلاء وجه تمثال ابوللو بالذهب. لم يجدوا الذهب الكافي. فأشارت العرافة الكاهنة عليهم بشرائه من (كروسوس) ملك ليديا.

حركة الشمس، فكثيراً ما يسبقها ويشرق قبلها. وأمر لذلك أن يسمّى اليوم قديماً أو جديداً معيداً الى الشهر القمري السابق ذلك الجزء الباقي منه قبل حصول الاندماج، ومضيفاً اليوم المتخلف الى الشهر القمري الجديد، ويظهر انه أوّل من فهم بيت الشاعر هوميروس:

«تلك نهاية الشهر القديم وبدأ الشهر الجديد»[٧٣]

وأطلق على اليوم الذي يتلوه «القمر الجديد». وبعد اليوم العشرين لم يعدّ بالاضافة اليه. بل بطرح العشرين من الثلاثين بحسب اوجه القمر المتناقصة. وعندما بدء بتطبيق قوانينه[٧٤] أخذ الزوار يتقاطرون اليه يومياً يمدحون بعضها وينتقدون بعضها وينصحون بتهذيبها وتعديلها الاّ ان القسم الاكبر جاء ليطلب معرفة السبب في وضع هذه المادة أو تلك تفسير واضح دقيق للهدف والمعنى. وتفادياً للحراجة وخوفاً من اساءة التفسير أو خليقاً بتنفيذ رغباتهم قرر التخلص من هذا الموقف الصعب ومصادر الحيرة هذه والحاح المواطنين «ففي الأمور الكبرى يصعب ارضاء الجميع[٧٥]» كما قال لنفسه وتحت الادعاء بالتجارة...

---

(٧٣) إكتشف صولون خطأ نظرية (طاليس) القائلة بان القمر يكمل دورته في ثلاثين يوماً. فقد وجد أن الوقت الذي تستغرقه الدورة هو تسعة وعشرون يوماً ونصف يوم. فأمر بأن يكون شهرٌ واحدٌ مؤلفاً من ٢٩ يوماً، وشهر ثانٍ مؤلفاً من ٣٠ يوماً بالتناوب وبعد هذا وجد ان مجموع ايام السنة القمرية ٣٥٤ فلأجل مساواتها بالسنة الشمسية امر باستحداث ٢٢ يوماً أو ٢٣ يزاد كلّ سنتين. كذلك أمر الآثينيين بتقسيم شهورهم الى ثلاثة اقسام وهي البداية والوسط والنهاية. كل قسم من الشهر يتألف من عشرة ايام. والشهر الأخير البسيط يتألف قسمه الثالث من تسعة أيام. وبحساب الايام فانهم يتداولون القول هكذا: أوّل يوم من مبدأ القمر أو ثاني يوم من وسط القمر (اي اليوم الثاني عشر من الشهر) أو آخر يوم من نهاية القمر (ويقصدون اليوم الثلاثين من الشهر).

(٧٤) نوّه بلوتارخ بذلك الجزء من قوانين صولون التي وجدها فريدة تستدعي الالتفات. إلاّ ان [ديوغينيس ليئريتوس] و[ديموستينس] ذكرا مجموعة أخرى لا يمكننا اغفالها هنا وهي: (١) من لا ينفق على امه وابيه بالشرير السيء الصيت. (٢) وكذا يعامل ناكرابوته. (٣) الرجل الذي يختلف الى بيوت الفسق والفجور يمنع من الكلام في الاجتماعات العامة. (٤) محظور على الوصي أن ينام أو يعاشر أو يتزوج والدة ذلك الذي نُصب وصياً عليه. (٥) لايناط تعليم القاصر بذلك الذي يليه في حق الميراث. (٦) يحظر على حُفّار الاختام الاحتفاظ بالاصل الذي نقش عنه الختم. (٧) من فقأ عين آخر فلتفقأ عينه. (٨) اذا ادمن (أرخون) على الخمر فيجب قتله. وأمّا الاحكام التالية فقد أوردها ديموستينس (أ) من رفض التطوع في الحرب أوفرّ وأظهر جبناً، يمنع من غشيان الاماكن العامة والميدان العام واماكن العبادات العامة. (ب) اذا فاجأ رجل زوجه متلبسةً بالزنا وعاشرها بعد ذلك فانه يعدّ من الاراذل. (ج) يلاحق القوّاد ويقتل عند القبض عليه. (د) إن قام أحد بسرقة في ساعات النهار، فليؤت به الى الضباط الأحد عشر، واذا قبض عليه متلبساً بسرقة في ساعات الليل فليقتل. أو يُجرح في حالة هروبه، ويحمل الى الضباط الأحد عشر في حالة القاء القبض عليه. وان سرق اموالاً عامة فعليه أن يدفع ضعفها. واذا شاء المحكوم (عند عدم رفع الغرامة) فليكبل بالاغلال لمدة خمسة ايام. وان جدّف أو ارتكب عملاً محرماً فليقتل.

(٧٥) المقطوعة رقم ٧.

ابتاع سفينة تجارية قاصداً السفر، ورحل وغاب فترة أمدها عشر سنوات، وكان يأمل من ذلك أن تثبت قوانينه في نفوس المواطنين ونزل مصر(٧٦) أولاً وسكن حسب قوله «قريباً من الموضع الذي منه يصب النيل فيه ماءه الدافق عند ساحل قنوب - Canopus».

وامضى ردحاً من الزمن يدرس مع [پسنوفيس Psenophis] من مدينة هليوپوليس، و[سونخيس Sonchis] السايتي Saite وهما أوسع الكهنةثقافة وعلماً. ومنهما ظفر بمعلوماته عن قصة جزيرة اطلانطيا Atlantia(٧٧). فقرر نقلها الى اليونانيين وشرع في نظمها شعراً على قول افلاطون. ومن مصر رحل الى [قبرص] فأحتفى به [فيلوقبروس Philocy-prus] وأكرمه إكراماً عظيماً. وهو أحد الملوك فيها، كان يحكم مدينةً بناها [دوموقون] ابن (تسيوس] بالقرب من نهر [كلاريوس] وموقعها حصين. إلاّ انها صعبة الوصول، غير مريحة للسكان. فأغراه صولون بأن ينقلها الى السهل الجميل المنبسط تحتها ويجعلها مدينة جديدة أجمل واوسع من مدينتــه تلك وبقي هناك وساعد في جمع السكان اليها، وفي هندسة تحكيماتها ودفاعاتها وجعلها مريحة للسكنى، بحيث تقاطر الناس اليها. وحذا ملوك قبرص الآخرين حذو [فيلوقبروس] وأختطوا مدنهم الجديدة بالشكل نفسه وإكراماً لصولون واعترافاً بفضله أطلق الملك اسمه على المدينة فصارت تدعى [صولي Soli] وكانت قبلاً [إيپي Ae-pae]. ونوه صولون بحادث تأسيسها في أحدى ملحماته المهداة الى [فيلوقبرص] اذ قال:

«ألا فلتعش على عرش [صولي] عمراً مديداً، وليخلقك ابناءٌ من صُلبك. ومن جزيرتك السعيدة [قبرص] فلتُرسل لي وانا أبحر - ريح رخاء، لتهبّ مباركةً حكمك الجديد. وليشع الإزدهار في مدينتك، ولترسِ بي الى البرّ بأمان.

ويرى بعضهم أن حكاية لقاء صولون [بكروسوس] لاتتفق مع الوقائع التاريخية. إلاّ اني لااستطيع أن اتعامى عن حادثة بلغت هذا المبلغ من الذيوع وأُسقطها من الحساب بعد أن

(٧٦) من المحتمل أن ذهابه الى مصر كان لغرض بقائه بعيداً عن الأحداث لا هرباً من طغيان [پسستراتوس]. كما يقول بعض الكتاب فسنّه لم تكن تتحمل ذلك في الثانية، وتعليل پلوتارخ لسفره هو الصحيح. و[اقنوب] مدينة تقع على مصب النيل ويدعوها هيرودوتس «معادي» وهيليوپوليس هي «المطريّة» وسايس هي «سا» وكلاهما من المدن العتيقة الموغلة في القدم.

(٧٧) انهى افلاطون هذا التاريخ من ذكريات صولون [كما يتضح من مناظرتيه طيماؤس وكريتياس). وبحسب ادعائه كانت الاطلانطيس الذي ينسب اليها المحيط الأطلنطي. أكبر مساحةً من آسيا الصغرى وأفريقيا (المعلومة آنذاك). وبصرف النظر عن سعتها فانها غرقت في يومٍ وليلة! ويحدثنا [ديودورس] ان القرطاجيين الذين أكتشفوها فرضوا عقوبة الموت على من يسكنها. ومن ضروب الحدس التي لحقت بهذه الاسطورة هو ان القرطاجيين عرفوا أمريكا عن طريقها. وهناك رأي آخر مؤاده ان الانطلانطيدي (الجزر السعيدة) هي المعروفة اليوم بجزر الكناري.

تواترت وقوي سنادها. هذا فضلاً عن ملاءمتها التامة لطبيعة صولون وجدارتها بحكمته وسعة عقله. وان كانت في الواقع لا تتفق وبعض الروايات التاريخية. التي لم تفلح جهود آلاف المؤرخين في ترتيبها وتنسيقها وفق نظام يتفق عليه الجميع وترضى عنه كل الآراء.
يقولون ان صولون قدم الى [كروسوس] بطلب منه. وكانت حاله عند اللقاء شبيهة برجل البرّ عندما يرى البحر لأول مرة في حياته، فكما يتوهم بكلّ نهرٍ يصادفه بحراً محيطا، كذلك كان صولون وهو يسير في بلاط الملك مشاهداً العدد الهائل من النبلاء وعليهم انفس الحلل، يحيط بهم الحرس الكثير والسعاة الصبيان. وتوهم في كل واحد بأنه هو الملك، حتى بلغ [كروسوس] وكان هذا يتحلّى باندر وانفس ما يخطر بالبال من الجواهر والذهب ويرتدى أغلى حلل الأرجوان- وبدأ منظره مهيباً فخماً يبهر العين. لكن صولون لم يظهر ما يدل على دهشة واستغراب عندما مثل امامه. كذلك لم يثن عليه بما كان كروسوس يتوقعه. بل اوضح بمسلكه لكلّ عين نفاذه انه رجل يحتقر كل مظاهر الأبهة والفخفخة، والاختيال الرخيص الذي ينطوى عليه المشهد. وأمر كروسوس خدمه أن يفتحوا لصولون ابواب خزائنه وكنوزه ويعرضوها لانظاره ولم يكن صولون ليرغب في شيء من هذا. لأنه كوّن فكرته الصائبة عن صاحبها حال ما وقع نظره عليه. ولما عاد من جولته تلك سأله كروسوس: هل عرف أحداً يرفل في مثل سعادته؟ فأجابه صولون انه عرف شخصاً يدعى [تيللوس Tellus] وهو مواطن اثيني من بني قومه. كان رجلاً نزيهاً ذا ابناء صالحين وثروة لا بأس بها. مات موت الأبطال في ساحة القتال دفاعاً عن بلاده. فوماه كروسوس بسوء الفهم وأفن الرأي لأن مقياس السعادة عنده لم يكن كثرة الذهب والفطنة. وانه فضلّ عليهما حياة وموت رجل بسيط مغمور النسب بالقياس الى هذا القدر في العظمة والسلطان. ثم انه سأله ثانية: هل عرف رجلاً أكثر منه سعادة غير [تللوس] فأجاب صولون: «بلى، [كليوبيس Cleobis] و[بيتون Biton] وهما شقيقان عظيما الحب بعضهما لبعض وابنان طائعان لوالدتهما الى أقصى حدود الطاعة ولما تأخر جلب ثورين لجرّ عجلتها، شدّ انفسيهما في النيّر وسارا بالعجلة الى معبد [جونو] وأكبر جيرانها سعادتها في ابنيها، فامتلأت حبوراً، وبعد تقديم القرابين واجراء المراسيم الدينية خرج الشقيقان ليصيبا شيئاً من الراحة وناما ولم يستيقظا، ماتا ميتةً هادئة هنيئة وهما في ذروة التشريف والتكريم». قال كروسوس غاضباً: «اذن فأنت لا تعدّنا بين السعداء قطّ؟» ولم يكن في نية صولون مجاملته، ولا اغضابه أكثر مما أغضبه قائلاً: «إن الآلهة أيها الملك قد تفضلت على الأغريق بكلّ النعم الأخرى على درجات معتدلة، لذلك كانت حكمتنا عادية بسيطة، لا حكمة ملوكية نبيلة. وهذا ما يمنعنا - بعد ملاحظتنا مالا يحصى من البلايا المحدقة بأحوال

البشر - من التجبّر والتأفف من متع حياتنا آلانية، ويحول بيننا وبين الدهشة لسعادة ايّ إنسان لأن التبدل يطرأ عليها بمرور الزمن. فالمستقبل المجهول قد يأتي بأي تغيير في حظوظ الانسان. ونحن لانعدّ المرء سعيداً إلاّ ذلك الذي حبته الآلهة بسعادة دائمة طوال حياته. ونحن لانميل الى وصف المرء بالسعادة وهو في متنصف حياته عرضةً الى تقلبات حظوظه. وليس من سلامة الرأي وثباته أن يُتوجَ مصارعٌ ويعلِن فوزه وهو ما يزال في حلبة النزال».

بعد هذا صرفه [كروسوس] وفي نفسه ضيق وانزعاج. ولم يعظه صولون بشيءٍ ما.

كان [ايسوپ] مدون الأساطير في [سارديس] قد حُل ضيفاً على كروسوس آنذاك بدعوة منه، ونال لديه خطوة كبيرة. وقد اصابه غمّ عظيم لاساءة استقبال صولون، فأتصل به وقدم له النصيحة بقوله: «اي صولون! فليكن حديثك مع الملوك إمّا قصيراً أو معقولاً فأجابه صولون: «لا هذا، ولا ذاك، لن يكون قصيراً ولا معقولاً. لذلك استخفّ [كروسوس] بصولون في حينه. لكن لما تغلّب عليه [كورش] وأستولى على مدينته، وأخذه حياً وحكم عليه بالحرق ووضع فوق اكداس الحطب مقيداً على مشهد من جميع الفرس وبحضور الملك كورش نفسه هتف بأعلى صوته ثلاث مرات: «ايه يا صولون!» فعجب الملك وارسل من يستفسر: اي رجل أو آله صولون هذا الذي استصرخه وحده في ضيقته شديدة؟ فافضى اليه [كورسوس] بالحكاية كلها قائلاً: «انه أحد حكماء الأغريق العظام، استقدمته لا ليعظني أو يعلمني شيئاً احتاج اليه. وانما لأريه سعادتي وأشهده عليها فظهر أن البؤس في فقدان تلك السعادة كان أشدّ وقعاً من لذة التمتع بها. عندما كنت حائزاً عليها بداخيرُها موضع أخذ وردٍ واحتمالات. اما الآن فقد جلبت خسارتها بلوى حقيقية يصعب احتمالها. وقد أدرك صولون ذلك ونظر الى نهاية حياتي فاستنتج ما سيكون مما هو كائن حينئذ ولم يعتمد على المجهول المشكوك فيه، ولم يزلزل حكمه ما رأى». لما سمع كورش ها الكلام - وكان اوفر عقلاً من [كروسوس] ووجد في المثل الشاخص امامه تجسيداً لنبؤة صولون، لم يكتف باطلاق كروسوس، والعفو عنه بل اكرمه طوال حياته. فكان لصولون أن يفخر في أنقاذ ملك ووعظ آخر.

عندما غادر صولون آثينا بدأ الخصام بين الآثينيين. فتزعم المدعو [اليكورغوس] حيّ السهّل. وتزعم [ميغالس ابن ألكميون] سكان الساحل ووقف [پسستراتوس] على رأس حزب حيّ المرتفعات[٧٨] حيث يسكن [الثيتس] أفقر الناس، وأعدى اعداء الاغنياء، وأخذت المدينة تتطلع الى حكم جديد، وان ظلّت تطبق قوانين صولون الجديدة. وكان امل الثيتس كبيراً

(٧٨) هذه الاحزاب الثلاثة التي انشعب اليها الآثينيون كنا قد نوهنا بها سابقاً وهي على التوالي «پيديائي Pe-diaei» و«پارالي Parali» و«ديكيكرئي Dicicrii».

في ان التغيير سيكون أصلح لهم، وسيجعلهم أقوى نفوذاً من الحزب المناوىء.

هكذا كانت الأحوال عندما آب صولون فاستقبله الجميع بتجلّة وإكرام. لكن كبر سنّه حال دون قيامه بأي عملٍ أو نشاط. بل حتى القاء الخطب العامة كالسابق. إلاّ أنه حاول رأب الصدع وتسوية الخلافات بالمباحثات الخاصة مع زعماء مختلف الأحزاب. وبدا له [پسستراتوس] أكثرهم تفاهماً بأنه كان لين العريكة الى أقصى الحدود، لطيفاً غاية اللطف في أقواله. وصديقاً كبيراً للفقراء[٧٩]، معتدلاً غاية الاعتدال في خصومته السياسية. وقد أوصله ذكاؤه وفراسته الى ما حرمته منه الطبيعة لذلك كان موضع ثقةٍ أكثر من الآخرين. وأشتهر بالحصافة وحب النظام والعدل، ومعاداة كل من يحاول النيل من نظام الحكم القائم. بهذا كله استمال أغلبية الجماهير ونجح في اقناعهم. ولم يلبث صولون أن فهم طبيعته، وأدرك نواياه ووقف على خططه قبل غيره. إلاّ انه لم يكرهه بسبب طموحه. وأخذ يحاول تعويده على التواضع وتخليصه من الطموح وكثيراً ما قال له وللآخرين. لو استطاع القائد أن يتخلص من حبّ العظمة ويجتثّها من فكره ويبرأ من رغبته في الحكم المطلق فلن يقوم مثله رجلاً فاضلاً ومواطناً ممتازاً في البلاد كلها. وكان [تسپيس Thespis] في تلك الأيام قد بدأ يغير في شكل التمثيليات التراجيدية، فتعلق الناس بها كبدعة جديدة، وإن لم تصل في حينه الى مرحلة المنافسة والمسابقة. وكان صولون بطبعه ممن يحبّون سماع الأشياء الجديدة وتعلمها وبما انه كان عاطلاً بالغاً ارذل العمر وليس لديه ما يشغل به نفسه غير الخمر والموسيقى، فقد ذهب لرؤية [تسپيس] هذا وهو يمثل جرياً على العادة. وبعد انتهاء والتمثيلية وجه اليه الكلام قائلاً: الا يشعر بالخجل وهو ينشر الاكاذيب نشراً امام هذا العدد الكبير من الجمهور؟ فأجابه [تسپيس] قائلاً: لا ضرر ثَمَّ في ترديد الأكاذيب وتمثيل المسرحيات. فرفع صولون عصاه ودق بها الأرض وقال: و«ويحك يا هذا! لو أننا حبذنا مسرحية كهذه وآثنينا عليها فسنجد انفسنا يوماً ونحن نباشر أمثالها!».

فلما أحدث [پسستراتوس] جرحاً بجسمه[٨٠] وحمل في عجلة الى ساحة السوق الكبرى وراح يُثير الناس موهماً أن خصومه هم الذين جرحوه بسبب نشاطه السياسي. فثار غضب

(٧٩) المقصود بالفقراء هنا ليس أولئك الذين تحلّ الصدقة عليهم. فأمثال هؤلاء لم يكن لهم وجود في آثينا. يقول [ايزوقراطس] «في تلك الايام لم يكن ثم مواطن مات بسبب الفقر. ولم يكن ثم من يستجدي في الطرقات جالباً على المجتمع العار».

(٨٠) يضيف هيرودوتس (٥٩:١) انه جرح أيضاً بغال عجلته، وفي خطبة حماسية لبني قومه ذكرهم بمآثرة في خدمتهم ضد الميغاريين الخ.. وقد وقع هذا الحدث في اثناء الاولمپياد الثامن والخمسين = ٥٦٠ ق.م [ارسطو دستور آثينا ١:١٤].

الجمهور وراح يهتف له، وتقدم منه صولون وقال له: «يا ابن هيپوقريطس، انك تقدم نسخةً غير دقيقة من أوديّسا [اوليسيوس] هوميروس، عملها ليخدع بها أعداءه، بينما فَعَلْتَها انت لخداع بني قومك[٨١]» بعد هذا هاج الجمهور وتدافع لحماية [پسستراتوس] وعقدوا اجتماعاً عاماً فيه تقدم أحدهم وهو [ارسطون] باقتراح يقضي بتخصيص خمسين حامل دبوّس لحراسة [پسستراتوس] فعارض صولون في ذلك وتكلم كثيراً بالمعنى الذي ضمنه الابيات التالية:

«لقد سحركم بكلماته المنحقه، وعباراته الأخاذة

الى ان يقول:

حقّا أن كل فرد منكم ذكيّ أريب بنفسه

ولكن ما أن تجتمعوا معاً حتى تكونوا اشبه بشخص غبيّ اجوف!»

ولاحظ ان الطبقة الفقيرة تميل الى تحبيذ الاقتراح بحماية [پسستراتوس] وقد هاج هائجهم، ورأى الخوف يستولي على الاغنياء وهم ينسلّون مبتعدين عن مكامن الخطر والأذى. فترك الاجتماع قائلاً: انه أعقل من بعض الناس، وأقوى من بعضهم الآخر. أعقل ممن يفهم الدوافع والغايات، وأقوى ممن فهم و خاف الوقوف في وجه الطغيان. وبعد ان صدر الشعب قراراً يقضي بحراسة [پسستراتوس]، لم تتم الموافقة حول عدد الحرس، إلاّ انه لم يهتم بذلك قلامة ظفر وجنّد العدد الذي شاء منهم وأحتل بهم [الاكروپوليس] فضجت المدينة وسادها الاضطراب، وهرب [ميغاكلس][٨٢] وكل افراد أسرته. اما صولون الهرم - المعدوم النصير فقد خرج الى ساحة السوق الكبرى والقى خطبة على المواطنين، أنّبهم فيها على ضعف نفوسهم وعدم مبالاتهم من جهة أخرى على ان لايخسروا حريتهم بهذا الشكل الذليل الخانع ثم قال قولته المشهورة:

«في الماضي كان وقف الطغيان مهمّة سهلة. أما الآن فليس أدعى الى التمجيد والفخار من العمل على ازالته عندما بدأ يذّر قرنه ويشتد ساعده.»

لكن الجمهور كان يخشى الانحياز الى صفّه. فآب الى معناه كئيباً وحمل شكة سلاحه ووضعها في شرفة امام باب داره، ومعها العبارة التالية: «لقد انجزت مهمتي في المحافظة على بلادي وقوانيين»[٨٣] ثم اعتزل كل شيء. ونصحه الاصدقاء بالفرار فأبى، وعكف على

---

(٨١) الاوديسيّ ٤:٢٤٤-٢٦٤.

(٨٢) ام افلاذون وهي سليلة أخٍ لصولون.

(٨٣) «وان على الآخرين أن يعملوا كذلك». أنظر [ارسطو دستور آثينا ١٤:٢].

قرض الشعر في تأنيب الآثينيين كقوله:

إن ركبتكم النوائب اليوم لجبن اصابكم كلكم فلا تلقوا باللوم على الآلهة. فهي آلهة خير والخطأ خطأونا جميعاً. لقد وضعتم كل الحراس بين يديه، وعليكم الآن ان تنفذوا ما يأمر به».

وقال له كثيرون ان [الطاغية] سينزع منه حياته لهذا السبب، وسئل على من يعتمد في البقاء إن كان مصمماً على الاستمرار في هذه الأقوال الجريئة فأجاب «على شيخوختي» ولكن لما تسلم [پسستراتوس] مقاليد الحكم أكرم صولون كثيراً ورعاه. ولم يبطل قوانينه وانما طبقها حتى على نفسه وارغم اتباعه على احترامها، وبعث يرجو ملاقاته وطلب النصح منه ووافق على كثير من اقتراحاته. حتى بعد أن انقلب طاغية مستبداً؛ لما اتهم بجريمة قتل أمام [الاريوباغوس]، مثل بكلّ هدوءٍ امامه لدفع التهمة عنه وتبرئة نفسه ولكن المشتكين لم يحضروا. وأضاف قوانين أخرى جديدة منها: تكفل الخزينة العامة بالانفاق على مشوهي الحرب. وهذا ما ذكره [هيراقليدس پونتيكوس]، قائلاً انه اتبع خطى صولون فيما رسمه بقضية المدعو [ثيرسيپوس Thersippus] الذي اصابته الحرب بعاهة ويؤكد [ثيوفراستوس] ان مشترع قوانين معاقبة العاطلين الذي سبب زيادة الغلّة في البلاد والاستقرار والهدوء انما هو [پسستراتوس] لا [صولون].

وتوقف صولون عن العمل في اثره الشعري العظيم «تاريخ أو أسطورة الاطلانطيد»، التي أخذها عن حكماء [سياس Sais][٨٤] ورأى من المناسب أن ينقلها للآثينيين، فبدأ بنظمها ولكنه توقف، «لا لضيق وقته، بل للكبر سنه وقصود همته عن عمل ضخم كهذا» على حَدّ قول افلاطون. فأوقات فراغه كانت كثيرة كما يشهد عليه بيته التالي:

«كل يوم ازداد سنّا، واتعلم شيئاً جديداً»

وهذا الآخر: «والآن - فان آلهة الجمال والغناء والخمر «التي هي مصدر سعادة معظم الناس اصبحت آلهتي ايضاً.

ورغب افلاطون ادخال تحسين على قصّة جزيرة الاطلنطيس[٨٥]، كأنها ضيعةٌ جميلة بحاجة الى وارث أقبلت تسعى اليه بسند ملكيتها، فعمل لها باباً فخماً وسوراً مهيباً وخطّ لها

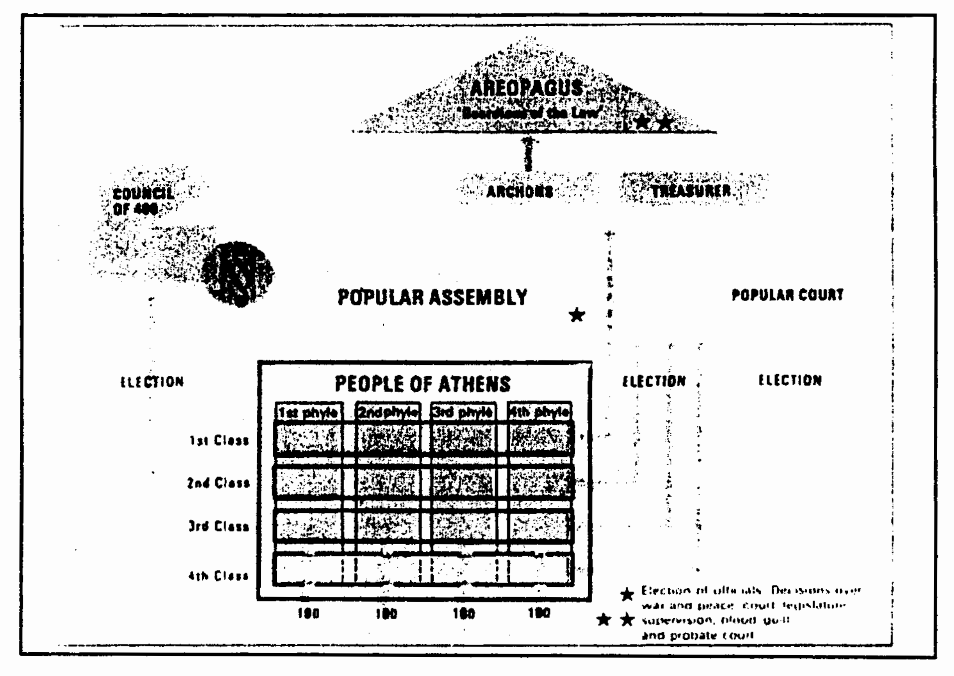
---

(٨٤) لا أثر لمثل هذا الكتاب ولعل نسبته اليه من نسج خيال أفلاطون.

(٨٥) يزعم [ديوغينس ليئرتيوس] انه مات في قبرص [٥٠:٦٢١]. وان تذرية رماد جسده تمّ بناء على وصيته. وسواء أكان ذلك صحيحاً أو ان تضيع ذلك جاء من الكتّاب، مباعتقادنا ان الجهة التي أختلقت ذلك كانت تريد أن اتشبيه بوصية [ليكورغوس] حول مصير جثمانه بعد موته.

باحات واسعة، وأعتنى بها بشكل لم يسبق لقصّة أو أسطورة أو رواية شعرية. إلاّ انه بدأها وهو في شيخوخةٍ، فمات عنها ولم يتمها. والقاريء يأسف حقاً لأن القسم الناقص هو الأكبر. ولأن المتعة التي ينالها من هذا الجزء متعة فائقة، وكما تركت اثينا معبد [جويتر اولمپس] ناقصاً كذلك تركها افلاطون. وهو الأثر الوحيد بين آثاره الكثيرة الذي خلفه ناقصاً.

عاش صولون مدة طويلة بعد استيلاء [پسستراتوس] على الحكم كما ذكر [هيراقليدس پونتيكوس] إلاّ أن [فانياس الايريسي Eresien]، يقول انه لم يكمل سنتين. لأن [پسستراتوس] بدأ عهد استبداده عندما كان [قومياس Comias] ارخوناً. ويقولون [فانياس] ان صولون مات في عهد [هيغستراتوس Hegestratus] خلف [قومياس]... أما حكاية نذرية رماد جثته في انحاء جزيرة [سلاميس] فهي سخيفة غريبة يصعب تصديقها(٨٦). أو لاتعدو أن تكون مجرد تخريف. على أن كثيراً من الكتاب الثقات أوردها ومنهم ارسطو.



دستور صولون

(٨٦) حفيد [ميغاكليس] الذي جلب على الأسرج العار وقد سمح له بالعودة من دار المنفى وتعرف اسرته باسم «الكمايندای Alcmaenidae».

پوپلیکولا

POPLICOLA

‹publicola›

503



هكذا كان صولون، وبه نقارن [پوبليكولا] - منحه الرومان هذا اللقب بالأخير إعترافاً بفضله[١] وزيادة في تكريم اسمه القديم [پوبليوس ڤاليريوس Publius Valerius][٢] وهو من نسل [ڤاليريوس] أحد مواطني روما الأوائل. وعرف بأنه رئيس العاملين على ازالة الخلافات بين الرومان والسابين. ذو لسان قوي في اقناع الملوك بالخلاد الى السكينة وتوحيد الشعب. هذا هو نسب [پوبليوس ڤاليويوس] على ما قيل. نال سمعة داوية في فترة حكم الملوك - لفصاحته، كما اشتهر بغناه. إلاّ أنه كان يوزع ماله بلا حساب على المعوزين، ويستخدم البلاغة بكفاءة ونشاط في خدمة العدالة، وغدا معروفاً أنه المرشح الوحيد ليستنّم المنصب الأول في البلاد فيما لو تغيّر نظام الحكم وأصبح جمهورياً. إن ارتقاء [تاركوينيوس سوپربوس Tarquinius Superbus] العرش بالخديعة[٣] والغش، وجعله المقام الملكي اداة للإعتداء والطغيان بدل ان يكون حكماً ملكياً عادلاً، ملأ الشعب كرهاً لحكمه وبموت لوكريسيا [التي قتلت نفسها بعد اعتدائه عليها[٤] حانت الفرصة للثورة، وشارك [لوشيوس

---

(١) في نهاية قنصليته الأولى عندما هدم منزله. وكسر شوكه الفاشيّ امام قوة الشعب وعظمته.

(٢) كان فاليريوس ڤوليوس -كما يقول ليڤي- أول رجل من أسرته أستقرّ في روما. وهو واحد من الزعماء الاشراف الثلاثة الذين تبعوا (طاطيوس) الى روما [ديوان ٢:١٠].

(٣) من الانتهاكات الأخرى انه وطيء جَسَد حميّه القتيل [سرڤيوس تللوس] وهو في طريقه للجلوس على العرش [ديون ٤:١٠] و[ليڤي ١:٤٨] وآخرين.

(٤) يقول ليڤي [١:٥٨] انها طلبت حضور ابيها وزوجها الى منزلها فاقبل [لوكريسيوس] أبوها برفقه [پوبليوس فاليريوس اي پوبليكولا] وزوجها [لوشيوس يونيوس بروتوس] وعدد كبير من عظماء الرومان وبكلمات قليلة كشفت لهم عن جلية الأمر. وصرحت بعزم ثابت بقرار انهاء حياتها بعد ان ثلم شرفها. وحثتهم على أن لا يتركوا الجريمة التي أقترفها مغتصبها دون عقاب. راحت كل جهودهم لثنيها من قصدها عبثاً وغيبت خنجراً في صدرها. بينما شاع الحزن والأسى في نفوس الجميع، وهنا استلّ بروتوس الخنجر الدامي ورفعه (وكان حتى تلك الساعة يتصنع الجنون كي لا يناله اذى المستبّد) وقال: «أقسم بهذا الدم الذي هو في منتهى الطهر. والذي لايمكن ان يبخسه الاّ دناءه تاركوين القذرة. اقسم اني سألاحق تاركوين الغطريس وامرأته الشريرة وأولادهما بالنار وبالسيف ولن أدع واحداً من هذه الأسرة يحكم روما. فأشهدي على قسمي هذا ايتها الآلهة»، بعد ذلك سلّم الخنجر لكولاتينُس ولوكريسيوس وڤاليريوس وبقية الحاضرين وربطهم بالقسم نفسه. يقول ديونيسيوس: ان بروتوس راح يخطب في الناس جهاراً وعلناً، حتى أن المؤتمرين انتخبره قنصلاً مع كولاتينُس ولما علم تاركوين بالثورة عملَ في العودة الى روما فوجد ابوابها موصدة في وجهه ورُفض دخوله الى المعسكر فذهب الى «كابي».

بروتوس Lucius Brutus] في الانقلاب. واتصل [بڤاليريوس] قبل أن يتصل بكل أحدٍ بدلاً من ملك. فوافق [ڤاليريوس] وقال ان المنصب من حق [پروتوس] لكونه مؤسس الديموقراطية. لكن لما كان اسم (النظام الملكي) بغيضاً من الشعب. وان توزيع السلطة بدأ أكثر اتساقاً واستساغة وموائمة للنظام الجديد. فقد انتخب اثنان ليمارساها، وكان [ڤاليريوس] يأمل أن يفوز بمنصب القنصل مع بروتوس(*)، فخاب فأله وانتخب [تاركوينيوس كوللاتينوس -Tar quinius Callatinus](٥) زوج [لوكريسيا] قنصلاً بدلاً منه رغم مساعي [بروتوس] نفسه(**). وهو رجل لا يرقى أحد مرقاه في الكفاءة، لكن البلاء، لخشيتهم من عودة الملوك الذين لم يكفّوا عن استخدام كل مجهوداتهم في الخارج وكل وسائل الاغراء في الداخل - استقرّ رأيهم عليه لكرهه الملوك كرهاً عميقاً واستحالة صفحه عنهم بأية حالٍ من الأحوال.

وأضطربت نفس [ڤاليريوس] لتوهمه ان حرصه على خدمة بلاده. صار موضع شكٍ، فهو شخصياً لم يتضرر باستبداد الطغاة، ولم يلحق به أذى. ولذلك انسحب من مجلس الشيوخ، وانقطع عن مزاولة المحاماة وأعتزل الحياة العامة، مما أطلق الالسنة بالحديث، واشاع في النفوس خوفاً من أن تدفعه ضغينته الى المعسكر الملكي فيكون بذلك دمار الدولة وهي مازالت تتأرجح بين على أثر الانقلاب الأخير. وكان [بروتوس] يشك أيضاً في نوايا عدد من أعضاء مجلس الشيوخ غيره، فعزم على ربطهم بيمين غموس في هياكل المعابد. وأقبل [ڤاليريوس] الى الفورم في اليوم المعين وهو في أطيب حالةٍ. وأصفى مزاج وتقدم الشيوخ في حلف اليمين على عدم الخضوع أو الميل الى قضية [تاركوين] بأي شكل من الأشكال، بل التمسك بالحريات العامة أشدّ التمسك. وهو ما ارتاح له الشيوخ كثيراً. وقوىّ أيدي(٦) القنصلين. وماعتم عمله التالي أن أظهر مدى إخلاصه ليمينه فقد جاء وفدٌ من [تاركوينيوس] يحمل مطاليب لطيفة خداعة يقصد بها التغرير بالناس والتمويه عليهم مظهرةً الملك بمظهر النادم على أعماله واعتداءاته، وعزمه على اتباع سياسة الاعتدال في رغباته. ووجد القنصلان من الضروري اذاعة تفاصيل هذه الوفادة على الجمهور إلاّ ان [ڤاليريوس] عارض الرأي ولم

(*) ليفي ١:٥٨، ٢:٢، ١١.

(٥) سمي بذلك لأنه حكم (كولاّسيا) وهي مدينة انتزعها من السابين تاركوين الأب. ووالده هو (ايجيريوس). وهو وتاركوين المكابر ابنا عم.

(**) ليفي ١:٦ و ٤.

(٦) بهذا انتهى عهد في روما (٢٤٤ ق.م) وهو التاريخ الشائع إلاّ ان هذا لا يتفق في الواقع مع منطق الاحداث فنحن لانجد في التاريخ منذ بدئه حتى هذا الزمن سبعة من الملوك (معظمهم لم يمت ميتة طبيعية) حكموا هذه المدة الطويلة من السنين بتعاقبٍ مستمر غير منقطع!

يقبل أن توضع الطبقة الفقيرة - التي كانت تخاف الحرب أكثر مما تخاف الاستبداد لو سنحت لها فرصة الخيار بينهما - موضع حيرة واغراء ازاء خطّة الملك الجديدة. ثم أقبلت سفارة ثانية برسالة مغادها أن الملك [تاركوينيوس] لا يمانع في النزول عن عرشه والقاء السلاح ان عُوّض هو واصحابه وحلفاؤه عن أموالهم واملاكهم التي تركوها(*)، ليعيشوا في منفاهم بالتعويضات. فمال فريقٌ الى الأستجابة للطلب ولاسيّما [كوللاتينوس] الذي تحمّس للاقتراح. إلاّ أن [بروتوس] وهو رجل صارم عنيد، اندفع الى [الفورم] وأعلن خيانة زميله القنصل، بقبوله دفع تعويضات للمستبدين، وتزويد أولئك (الذين كان مجرد منحهم ما يعيشون به في المنفى شيئاً منكراً) بأموال وارزاق تسهل لهم آثارة الحرب. وقد نجم عن هذا اجتماع عامٌ كان اول المتكلمين فيه [كايوّس مينيشيوس Caius Minicius] وهو من العامة. ان يعطي ما يريد الا ان بروتوس ذا الطبع الحاقد السريع الثورة أسرع الى الفورم وحضّ الرومان على رفض الطلب واستخدام الأموال ضدّ المستبدين(٧)، وحذرّ من ارسالها اليهم لئلا تستخدم ضدهم.

على ان قرار الرومان في الموضوع كان ضد ذلك. قالوا انهم الآن يتمتعون بحريتهم التي حاربوا لاجلها فينبغي عليهم ألاّ يضحوا بالسلّم لأجل المال، ولذلك كان من الأفضل ارسال املاك الطغاة(٨) اليهم. إلاّ أنّ طلب التعويض كان جزءً ثانوياً من خطّة [تاركوينيوس] فالقصد منه كان جسّ مشاعر الأهلين والتمهيد لمؤامرة جاهد اعضاء الوفد في سبيل تنظيمها، فأخرّوا عودتهم بحجة شراء بعض البضائع وبعثوا اشخاصاً آخرين الى مرسلهم وبقواهم، حتى تكلت مساعهم بالنجاح باستمالتهم أسرتين من أعرق الأسر في روما. فآل اكويللي Aquillii كان لديهم ثلاثة شيوخ في المجلس، وآل ڤيتللي Vitellii لديهم شيخان. وهؤلاء كلهم أولاد اختي [كوللاتينوس]. هذا فضلاً عن أن [بروتوس] كان مرتبطاً برابطة المصاهرة مع آل ڤيتللي، لأن زوجته وام اولاده هي أختهم(٩). وكان من ابنائه شابان يناهزان في السن ابناء آل

(*) ليڤي ٢:٣، ٥.

(٧) يقول [ديون] ان الموضوع نوقش بهدؤ وبكثير من التجردّ في مجلس الشيوخ، وعندما أستعصى الحَلّ، ووصلوا الطريق المسدود «هل يفضّل الشرف أم المنفعة؟» أحالوا المسألة الى الشعب. فصادق هذا بأغلبية صوت واحد على تفضيل الشرف. وضرب أول مثل للشعور بالكرامة الوطنية ويقول المؤرخ نفسه، انها لم تكن السفارة الثانية بل اقتراحاً ثانياً من السفارة الأولى وكان الغرض كسب الوقت.

(٨) المرجع نفسه ٢:٤، ٣.

(٩) يذكر [ديون] و[ليڤي] انها أمّ ولدين فحسب. لكن المؤلف يتفق مع أولئك الذين يقولون ان العدد أكثر من هذا، وان [ماركوس بروتوس] الذي شارك في قتل [قيصر] هو من ذرية أحدهم. ويتفق [شيشرون] مع الرأي الثاني أو انه يتظاهر بذلك ليضفي على قضية (بروتوس) وشخصية شعبية أكثر.

ڤيتللي وبربطهما معاً رابطة صداقة وثيقة فضلاً عن القرابة فيكادون لا يفترقون نهاراً. وتمّ ادخال ابني برتوس في المؤامرة، وأن يتحالفا مع بيتهم الكبير، ويعملا لتحقيق آمال التاركوينين في استعادة ملكهم، والتحرر من استبداد ابيهما وحماقته (كذا كان يطلقان كلمة الاستبداد على صرامة ابيهما مع المجرمين! في حين ان الحمق كان مظهراً يتقنع به منذ عهد بعيد ليحمي نفسه من اعتداء الطاغية. وقد ظلّت الصفة لاصقة به اسميّاً على الأقل) هكذا اتصل الشابان بآل أكويلي وتم التفاهم بينهم، ولم يتحرجا من ربط نفسيهما بقسم ديني غليظ موثق بلطعة من دم رجل قتيل قدم قرباناً لهذا الغرض! ولمس احشائه. واجتمع المؤتمرون في دار آل اكويلي[١٠].

وكان موضع الاجتماع داراً ملائمة مظلمة غير مطروقة. وصادف أن عبداً يدعى [ڤنديشيوس Vindicius][١١] كان في الدار بمحض الصدفة. وشاهد ما ظهر على القادمين من انشغال وعجلة. فركبه الخوف من افتضاح أمره وأخفى نفسه وراء خزانة. وأمكنه من مراقبة حركاتهم وسكناتهم وسماع أحاديثهم. فعلم بخطتهم وتتضمن قتل القنصلين، وتابعهم وهم يكتبون الرسائل الى [تاركوينيوس] بهذا المآل. ويدفعون بها الى السفراء الذين كانوا ضيوفاً في دار آل اكويلي[١٢][١٣] وحاضرين في الاجتماع.

بعد انصراف المؤتمرين، إنسلّ [ڤنديشيوس] سراً من البيت، لكن الحيرة استبدت به ولم يدر ماذا يفعل. لأن أخبار الأب [بروتوس] عن أبنيه، واخبار الخال [كوللاتينوس] عن اولاد الأخت بدأ له أمراً صعباً ثقيلاً وهو كذلك والحق يقال. ولم يكن ليركن أو يثق برومانيّ واحد ليفضي اليه بهذه الاسرار الخطيرة، كما لم يكن قادراً على التزام الصمت واحتمال عبء هذه المعلومات الثقيلة. أخيراً أسرع الى [ڤاليريوس]، مسوقاً بما أشتهر من رقة بتواضح، ولسهولة الولوج الى بيته الذي لم تكن ابوابه تغلق في وجه المحتاج ومظلمات الناس البسطاء، وكانت امرأة ڤاليريوس وشقيقة [ماركوس] حاضرتين لما نفض [ڤنديشيوس] ما في جعبته. فطار

(١٠ و١٢) يقول [ديون] شعر هذا العبد بشك مزاح يراقب الجماعة، ويؤكد ليڤي (٢:٤) انه كان على علم بالمؤامرة فعلاً. لكنه أجل كشفها حتى يجتمع لديه كل الدلائل الدامغة التي تقنع من يسمعها. ويقول ليڤي أيضاً انه قصد القنصلين ،أطلعهما على الأمر (٢:٤، ٦).

(١١) بل في بيت آل ڤيتيللي على ما يزعم ليڤي (٢:٤، ٥). وكان تاركوين قد نفذ حكم الموت بوالد (بروتوس) وشقيقه بسبب ما يتمتعان به من غنى لا غير.

(١٣) قد يكون ثم بعض غموض وعدم دقة. لم تجر العادة في ذلك الزمان بان ينزل السفراء في البيوت الخصوصية. فقد كان ثم منزل حكومي مخصص لهم. ويبدو من العبارات التالية في النص أن بعض رسائلهم وعدداً من خدمهم قد احتجزوا في قصر الملك السابق. والعبارة الواردة باللغة اليونانية قد تشير الى انهم دعوا من المنزل المخصص لهم، لقضاء بضعة ايام مع زعيم المتآمرين.

صواب ڤاليريوس وعلقه البغتة ولم يدع العبد يخرج من منزله وحبسه في غرفة ووضع امرأته حارساً على بابها كما ارسل اخاه في الوقت عين لمهاجمة قصر الملك، ووضع اليد اما امكنه على جميع المكاتبات. والقاء القبض على من فيه من خدم وحشم في حين أنطلق هو واتباعه المخلصون والاصدقاء وجمع كبير من الخدم والحاشية الى بيت [آكويلي] وكانوا بمحض الصدفة خارج الدار، فاقتحموا الأبواب عنوة» ووقعت ايديهم على الرسائل وهي ملقاة في جناح السفراء. وفي اثناء ذلك عاد آل كويلي الى منزلهم واشتبكوا مع المهاجمين عند المدخل محاولين استعادة الرسائل. فقاومهم المهاجمون والقوا بعباءاتهم على رؤوس خصومهم. وأخيراً وبعد كفاح طويل أفلت المهاجمون بغنائمهم وأسراهم وتسللوا الى [الفورم]. وحصل اشتباك مماثل في قصر الملك، حيث وضع [ماركوس] يده على بعض الرسائل الأخرى وهي مدسوسة داخل البضائع لأجل تهريبها الى الخارج، كما القى القبض على الموجودين من خدم الملك واستاقهم الى [الفورم]. وبعد ان قام القنصلان بتهدئة الوضع، جيء بالعبد [ڤنديشيوس] بايعاز من [ڤاليريوس] وطرحت التهمة علنا. وفُضت الرسائل، ولم يستطع الخونة انكارها. ومعظم الناس واقفون وكأن على رؤوسهم الطير، والهمّ مرتسم على الوجوه. ونوّه بعضهم بفرض عقوبة النفي. عطفاً منهم على [بروتوس] وكانت دموع [كوللاتينوس] وصمت [بروتوس] قد أشاعا بعض الأمل في الرحمة. الاّ أن [بروتوس] نادى ابنيه كلاً باسمه وقال لهما «الا تستطيع أنت يا [تيطس]، وأنت يا [طيباريوس] أن تدليا بدفاع عن تهمتكما؟» وكرر عليهما السؤال ثلاثاً فلم يلق جواباً خلا الصمت. فأشاح بوجهه ملتفتاً الى ضباط الحرس وقال «لم يبق إلاّ أن تؤدوا واجبكم» فأسرعوا وقبضوا على الشابين ونزعوا عنهما الثياب واوثقا كتافهما وراء ظهريهما. وشرعوا يجلدونهما بالعصي، وكان منظراً يفطر القلب. وقيل ان [بروتوس] لم يدُر رأسه ولم يسمح بأي نظرة عطفٍ تلين ملامحه الجامدة الصارمة وترقق منها. وانما كان ينظر اليهما بصرامة وهما يقاسيان مُرّ العذاب، الى أن طرحوهما أرضاً وقطعوا رأسيهما بالفأس، ثم غادر محل الاجتماع تاركاً النطق بباقي الحكم الى زميله(١٤). وكان عمله هذا يستحقّ ارفع الثناء وأشدّ التنديد في آن واحدٍ. إن سمو فضائله رفعته فوق

---

(١٤) قارن النص بما جاء في ليڤي ٢:٥، ٥-٩ فهو يدلي بحكاية مختلفة حول سلوك بروتوس وهي بالنص اللاتيني Quam inter Omme Tempus pater, Valtusqne etos eyus Spectacala esset, emimento animo Patrio inter Publicae Poenae Minstrium.
وتعريبه: خلال هذا الموقف المأساوي كانت كلّ الانظار عالقةً بوجه الأب، حيث كانت آلام الأب واضحةً للعيان.» قارن أيضاً (ديون ٥:٢) الذي يتفق مع پلوتارخ. اي ان بروتوس لم يكن يظهر اي حزن أو الم ساعة التنفيذ مهما كان شعوره الباطن الحقيقي.

مشاعر الحزن، أو أن عظم سلبه كل شعور بالحزن. وكلا الأمرين ليسا من الطبائع الانسانية الاعتيادية في شيء. فهو إمّا شعور آله، واما شعور همجي. على أن الأدعى بنا الى المعقول، إن يكون حكمنا عليه خاضعاً لسمعته لا ان تنال سمعته انتقاصاً من ضعف حكمنا عليه. وفي رأي الرومان أن عمل بروتوس هذا، في تثبيت دعائم الحكم الجمهوري كان أعظم من عمل [رومولوس] ببنائه مدينة رومه. وبعد مغادرة بروتوس [الفورم] استولى على المشاهدين، مزيج من الدهشة والرعب وران صمت عام وان أشاع التساهل والرخاوة التي عرف بها [كوللاتينوس] - بفض الثقة في آل اكويلي وشجعتهم على طلب مهلة للإجابة عن التهمة، وطلب تسليم عبدهم [ڤنديشيوس] وعدم بقائه في حماية متّهميهم، وبدا القنصل ميالاً الى تحقيق ذلك، وهمّ بغضّ الجمعية. لكن [ڤاليريوس] لم يقبل بتسليم العبد (وكانت جماعته تحيط به)، ولا بارفضاض الاجتماع قبل انزال العقاب بالخونة. أخيراً تمكن من تحكيم قبضته على آل [اكويلي] واستدعى [بروتوس] لمعاونته، وهاجم فكرة [كولاّتينوس] الخرقاء في فرصه على زميله ضرورة انتزاع حياة ولديه بيديه بينما مال هو الى يمنّ بحياة الخونة واعداء الشعب على بعض النسوة من قريباته. فاستاء [كولاّتينوس] مما سمعه وأمر ان ينتزع [ڤنديشيوس]، وهّم [اللكتور] باطاعة الأمر وشقوا الجمع الحاشد اليه وقبضوا عليه وراحوا يضربون كل من يحاول استنقاذه. فوقف اصدقاء [ڤاليريوس] على رأس المقاومة. وطالب الشعب باحضار [بروتوس] فجاء. وبعد أن ساد الصمت والسكون قال لهم. انه استعمل حقه في اصدار الحكم على ولديه وترك الباقي للاقتراع العام لكلّ المواطنين الأحرار. و«ليتكلم كل شخص ما يريد، وليقنع من يستطيع اقناعه» ولم يتطلب الأمر القاء خطب ومزيد من النقاش. فما أن طرحت قضية المتهمين في التصويت حتى ادينو بالاجماع وقطعت رؤوسهم.

كانت قرابة [كوللاتينوس] للملك المخلوع قد وضعته موضع شكّ واسم أسرته جعله مكروهاً. ممن كان يتعوذّ عند سماع كلمة [تاركوين] فحسب. فلما حصل ما حصل وادرك أنه مصدر سخط الجميع، استقال من منصبه وغادر المدينة سراً(١٥). وبالانتخاب الذين جرى لملء منصبه الشاغر فاز [ڤاليريوس] بأغلبية ساحقة، مع التكريم. واصبح قنصلاً جزاء اخلاصه وحرصه. ووجد أن ڤندشيوس يستحق بعض ما كوفيء هو به. فاعتقه وجعله مواطناً رومانياً ومنحه بعدها حق التصويت مع اي حزبٍ شاء الانضمام اليه. ولم ينل العبيد العتقاء حق الاقتراع ولا بعده بزمن، اي من عهد [ابيوس Appius](١٦) الذي ظفر بحبّ العامّة لهذه

(١٥) انظر ليڤي ٢:٢ و٣-١٠.

(١٦) ابيوس كلوديوس كايكيوس كان قد عين چنسوراً في العام ٣١٢ ق.م.

المأثرة ومنذ [ڤنديشيوس] حتى يومنا هذا وحالة العتق التام[١٧] تدعى [ڤندكتا Vindicta] نسبةً الى اسمه.

بعد ذلك، استبيحت اموال الملوك ونهبها العامّة، وقوّض بناء القصر، وكان أجمل جزءٍ من «حقل مارس[١٨] الذي يملكه [تاركوينيوس] قد كُرس لخدمة ذلك الربّ. واتفق ان كان موسم الحصاد، والغلّة المحصودة ملقاة على الأرض حزماً. ووجد من غير المناسب أن تلقى للدرس والتذرية أو تنجس بأي استعمال كان، لذلك حملوها الى ضفاف النهر ثم قطعوا أشجاراً وقذفوا بالجميع في الماء لأجل تكريس الأرض وهي خالية من كل شاغلٍ. وكان القاؤها واحدة فوق الأخرى متحاجزة فلم يحملها التيار بعيداً وحيث وقفت الدفعة الأولى منها وغاصت في القاع، تكدست الدفعات التالية ولم تجد مجالاً وأشتبك بعضها ببعض، وأخذ مجرى الماء يعمل على رصّها رصاً شديداً وأسفى عليها طبقات من الطمى فثبتت وكبرت وصارت أشبه بالسمنت يلتصق به كل ما يأتي به التيار من طرح. وتعذرّ على المجرى اقتلاعه بل رَصُّه وضَغطَهُ فزاد حجماً وتماسكاً بمرور الزمن واندامج حتى تكونَ سَدّ يوقف كل ما يأتي به التيار من تربة. وهو الآن جزيرة مقدسة تقع قرب المدينة، تزدان بمعابد الأرباب والمتنزهات، وتُسمّى باللاتينية «إنتر دوّوس پونطس Inter Duas Pontes»[١٩]. على أن بعضهم يقول أنه الأمر لم يقع اثناء تكريس حقل [تاركينوس] وانما بعد زمن، لما أوقفت [تاركوينيا] كاهنة ڤستا الحقل المجاور له على النفع العام فكرّمت. ومنحت أمتيازاً على سائر النساء. وهو ان تَكون شهادتها معتبرة، وان يكون لها حق الزواج فأبت استعمال الحق الأخير. وعلى هذه الصورة يروى بعضهم الحكاية.

لما يئس [تاركوين] من العودة الى عرشه بطريق التآمر، التفت نحو التوسكانيين فوجد

---

(١٧) هناك ثلاث حالات عتقٍ أصولية وليس بينهما ما يقضى اعطاء حق الاقتراع المعتوق. ولم يصل العبد المعتوق الى حالة المواطنة الكاملة الى في الجيل الثالث من نسله.

(١٨) كان الاصح قوله انه أعاد وقف حقل كاميوس ماريتوس لأن هذا الحقل كان قد أوقف على مارس منذ عهد رومولوس. وقد استعاده تاركوين وجعله لمنفعته الخاصّة [ديون ٥:٢].

(١٩) الجسر الفابريشي Ponte dei quatro capi بسبب التمثال المرمري ذي الرؤوس الاربعة، الذي قيل انه يمثل الرّب (يانوس). كان يربطه بالمدينة من ناحية الكاپتول. وجسر جستيا سانت بارثولونا -Ponte Ces tia st. Bartolonea من جهة باب يانيكولين Janiculine (ويسمى الآن جزيرة القديس بارثوليميو) نسبة الى اسم الكنيسة التي بنيت عليه تكريماً لهذا القديس. وقد تكون الحكاية أقرب الى التصديق لو أعتبرنا ان سرعة النهر كانت على أقلها في ذلك الموسم الصيفي القائظ بحيث ان الاشجار التي تقطع من (حقل مارس) المذكور ما كان بالإمكان ان تدفعها قوة التيار، وترتب على الرومان التعاون على جرّها ونصبها في مواضعها لتقوم هياكلهم وشرفات منازلهم على أسس واساطين أكثر ثباتاً. ان طول الحقل يعادل ربع ميل تقريباً وهو مدبب النهاية اشبه شيء بهيكل سفينة.

فيهم استعداداً وترحيباً[٢٠]، وشرعوا يعدون له جيشاً جراراً. فنهض القنصلان لمقاومتهم على رأس الرومان. وجعلا موضع اللقاء في موقعين مقدسين مخصوصين أحدهما يدعى البستان الآرسي Arsian والثاني هو المرج الايسوفي Aesuvian، ولما بدأت المعركة برز [ارنوس Ar-nus] ابن تاركوين لبروتوس القنصل الروماني، فاشتبكا يدفعهما الكره والغيظ لا اشتباك الصدفة، أحدهما يريد أن يطفيء غلّه وحقده على الاستبداد والآخر يريد ان يثأر لنفسه، فهمزا جواديهما واصطدما بعنفٍ فاق المعقول والروية فسقط قتيلين أحدهما بيد الآخر. وأصطدم الجيشان في معركة رهيبة انتهت بعد الجهد الجهيد بخاتمة طيبة فبعد ان ألحق الطرفان احدهما بالآخر خسائر متساوية فرقت ما بينهما عاصفة[٢١]، وانتهبت القلق [فاليويوس] لجهله نتيجة معركة اليوم ولرؤيته حزن رجاله لمشهد قتلاهم وفرحهم لخسائر العدو. وكان واضحاً للعيان أن عدد القتلى متساوٍ في الجانبين. وكل جيش أكثر احساساً بهزيمة خصمه من أحساسه بنصره، عند تقديره خسائره وأرخى الليل سدوله (ليل كالذي يتصوره المرء في أعقاب مثل هذه المعركة) واخلد الجيشان للراحة. واذا بالبستان يزلزل زلزاله على ما قيل - ويصدر منه صوت قائل: «ان خسائر التوسكان تزيد على خسائر الرومان بقتيل واحد فقط» وكان من المؤكد أنه بيان سماوي من آله»[٢٢]. فاستقبله الرومان بهتاف الفرح وعلامات السرور، بينما هجر التوسكان خيامهم خوفاً وذهولاً وتفرق معظمهم أيادي سبأ. واوقع الرومان بالباني وكانوا يناهزون خمسة الآف وأخذوهم أسرى واستولوا على كل ما في المعسكر. ولما احصي القتلى وجد ان التوسكان قد خسروا أحد عشر ألفاً وثلاثمائة قتيل أي بزيادة قتيل واحدٍ عن خسائر الرومان. هذه المعركة جرت في شهر شباط. وسار ڤاليريوس في موكب الظفر احتفاءً بها، وكان أوّل قنصل يسوق في موكب النصر مركبةً ذات اربعة جياد، وكان منظراً فخماً. وأستقبله الأهلون باعجاب خالٍ من الحسد أو الغيرة على ما قيل، ولم تكن المواكب التالية بمثل هذه الحماسة والروّحية قطّ. فلقد أكبر الشعب في [ڤاليريوس] التكريم الذي اضفيناه على ذكرى زميله الصريع، باضافته الى مراسيم التشييع خطبة التأبين، وكان وقعها عند الرومان جميلاً للغاية ووجدوها عملاً سديداً ومدحوها، حتى غدت عادة في عظماء الرجال أن يلقوا خطب تأبين عامة في جنائز المشاهير من المواطنين، مع تعداد مآثرهم[٢٣]. وقد ثبت ان

(٢٠) ليڤي [٢:٦، ٤] كان الترحيب من قبل أهالي ڤيي وتاركويني فحسب.

(٢١) ليڤي (١:١١، ٧) يقول ان التوسكان ولوّا مذعورين بعد المعركة.

(٢٢) يذكر ليڤي بصدد روايته الحادث عينه (٢:٢، ٧) انه الربّ سلڤانوس. ويزعم [ديون] انه [ڤاونوس]. وقال بعضهم انه صوت (پان) أحد مساعدي [باخوس] الذي كان أول من أستخدم هذه الخطة لأرعاب جيوش الاعداء.

(٢٣) لم تكن خطب التأبين معروفة عند الأغريق حتى معركة ماراثون كما يؤكد لنا [ديودورس ١١:٣٣] الذي =

قدم هذه العادة عند الرومان يزيد عن قدمها لدى الاغريق. إلاّ اذا اعتبرنا صولون أوّل منشيء لها - بقيام الخطيب [أناكسمينيس Anaximenes] في عهده.

إلاّ أن جانباً من تصرفات ڤاليريوس آلم الجمهور وأثار سخطه. [فبروتوس] الذي يعتبرونه أباً لحريّتهم لم يقبل الحكم إلاّ مع شريك في السلطة. فضم اليه واحداً ثم آخر أثناء حكمه. في حين ان ڤاليريوس بتركيزه السلطان كله في يده، لم يكن يعتبر بأية حالٍ خليفة [بروتوس] في منصب القنصل، بل خليفة [تاركوين] في الاستبداد. صحيح انه القى خطبة في تأبين [بروتوس] لكنه كان يشاهد و«العصي والفؤوس» تحفّ به من كل جانب وهو يهبط من منزله الفخم ولم يكن بيت الملك الذي هدمه بأفخم منه، تصرفات كهذه جعلته يبدو أقرب شبهاً بالملك المخلوع حقاً أن معناه المبني على [الڤيليا Velia] كان مهيباً بعض الشيء. فهو يعلو (الفورم) ويشرف على كل ما يجري منه والمرتقى اليه صعب. وكان موكبه وهو يهبط اشبه بالموكب الملكي المهيب. لكنه اثبت كم هو حسن لرجال السلطة المسؤولين ان تكون لهم آذان تسمح بدخول الحقيقة قبل دخول المداهنة والملق اليها. فلما ابلغه اصحابه بأقاويل الناس وغيظهم من سلوكه لم يستأ ولم نحاول في الأمر. ولم ينتظر لينبلج الصبح على منزله، بل ارسل يستقدم فعلةً وهدادين قوضّوه وسوّوه بالقاع. وفي الصباح الباكر تجمع الناس يتطلعون بدهشة واحترام الى عمله الجليل، مبدين اسفهم لهذا المنزل الجميل الذي اصبح أثراً بعد عين بسبب تحاملهم الظالم، كأن الذي انهدم ليس جماداً بل كائناً حياً. وأضطر القنصل [ڤاليريوس] الى البحث عن سقفٍ يظلّه عند اصحابه بعد أن فقد المأوى. فاستضافه هؤلاء حتى بنى له الشعب بيتاً على أرض خصصت له. وكان أقلّ فخامة من منزله الزائل. والآن يقوم في موقع هذا المسكن المعبد المعروف باسم [ڤيكا پوتا Vica Pota](٢٤).

= كان عمره ١٦ سنة عند وفاة بروتوس. فالقانون الذي استنّ بخصوص رثاء وتعداد مآثر عظماء القوم هو ذو تاريخ متأخر، ويسبق پلوتارخ الأحداث كثيراً عندما يحدد للقانون عصر صولون وحتى عند السماح به، لم يكن يخطى به الاّ أولئك الذي استشهدوا دفاعاً عن بلادهم في حين وسع الرومان من شموله ليدخل في حكمه كلّ من يقدم لبلاده خدمة في اي مجالٍ [ديون ٥:٣].

(٢٤) لعل المقصود بها ربّة النصر Victorese Passesor التي يقوم معبدها عند قدمة الڤيليا Velia. لكنه تجنباً لحسد الأهالي أنزل مواد البناء الى اسفل التل وبنى منزله هناك. ويلاحظ أن پلوتارخ اورد اسم ربة النصر اصلاً هكذا: اونيكي پوني ويعني باللاتينية القديمة (نصرٌ). وبما انه لم يفهمها حق الفهم فقد استبدلها بلفظة Vicus Publicus وهي لا تعني شيئاً هنا. على أن الاسم الذي جاء في المتن ظهر عند ليڤي [٧:٢] ويرجح انه مأخوذ من Vinceres و Potiri واما ما تلا ذلك من خطر على سكنى اي پاتريشي بالقرب من الكاپتول فقد عزاه پلوتارخ في محل آخر الى هذا السبب. لكن ليڤي (٦:٢٠) يجعله لاحقاً للحكم على مانليوس، فبعد ان أنقذ هذا السياسي الصرح من الغاليين حام الشك في انه يطمح الى اعلان نفسه ملكاً فحكم عليه بالقائه من فوق الصحرة التارپية.

قرر [ڤاليريوس] أن يجعل الحكومة وشخصه مظهرين محبوبين من الشعب، يدل ان يكونا مصدر مهابة وخوف. فأخرج الفؤوس من حزمة العصي. وكان عند دخوله قاعة الجمعية يخفض تلك الحزم دليل احترامه الشعب[٢٥]، واعتباره مصدر سلطته واساس حكومته. فقلّده القناصل الذين عقبوه وحرصوا على التقليد حتى يومنا هذا وفي رأيي أن إذلال المرء نفسه ليس وسيلة لأظهار التواضع فيه، وانما هو مجرد طريقة لتفادي التخرصات والنميمة بالأخذ بأسباب الاعتدال. لأن ما أطرّحه من مظاهر المنصب، اضافه الى سلطانه الحقيقي. وظلّ مرتاحاً مطمئناً الى انه سيبقى مطاعاً محبوباً. والدليل على ذلك انهم منحوه لقب «بوبليكولا» اي «محبّ الشعب»، فلصق به وأشتهر على بقيّة اسمائه، لذلك سنظلّ نشر اليه بهذا الاسم في بقية حديثنا عن سيرته.

وأطلق حرية الترشيح لمنصب القنصل[٢٦]. وقبل ان يفسح السبيل لشريكه المقبل، واحتياطاً لمفاجآت الصدف وعدم ثقة منه بها ولئلا يفسد الجهل والمنافسة خططه، استن بموجب صلاحيته فقط خير المبادىء واهم الأنظمة، وبدأ بملء شواغر مجلس الشيوخ التي كانت خالية بسبب فتك [تاركوين] باعضائه، أو لموتهم في الحرب الأخيرة، ويذكر المؤرخون أنه أدخل الى المجلس على هذا الأساس مائه واربعة وستين شيخاً. ثم انه سنّ عدة قوانين أعطت الشعب مزيداً من الحرية. ولاسيما ذلك القانون الذي يمنح المدانين حق استيناف أحكام القناصل الى الجمعية العامّة. وفي قانون آخر فرض عقوبة الموت على كل من يغتصب منصباً قضائياً دون موافقة الشعب. وسنّ قانوناً ثالثاً للترفيه عن فقراء المواطنين، قضى بالغاء الضرائب عنهم[٢٧]. وتشجيع أعمالهم وحرفهم. وهناك قانون في التمرد والعصيان على أوامر القناصل لايقل صلاحه عن القوانين الأخرى، توخى به منفعة عامة الشعب أكثر من منفعة النبلاء، لأنه يفرض على المتمرد أو العاصي غرامة قدرها عشرة ثيران وشاتين. وثمن الشاة عشرة اوبولات، وثمن الثور مائة[٢٨]. وقد حدد السعر هكذا لأن النقود في ذلك الحين كانت نادرة قليلة الاستعمال والتداول عن الرومان، إلاّ ان ثروتهم الحيوانية كبيرة. ولذلك تجدهم يطلقون على اي مال مُقيّم كلمة «پكيوليا Peculia» وهي مأخوذة من لفظة بيكوس Pecus اي ماشية. كما أنهم

---

(٢٥) إلاّ في فترات الحروب فقد كانت انفاس توضع وسط الحزمة.

(٢٦) إن أعطى بوبليكولا هذا الحق للجميع فعلاً فمن الأكيد انه لم يطبق فهو نفسه اتخذ التدابير كما سنرى - لانتخاب قنصلين باتريشيين هما لوكريسيوس وماركوس هوراشيوس واتخاذهما زميلين له على التوالي وكان [ليوشيوس سكسيتوس] أول قنصل من طبقة البليبيين يتولى المنصب بعد احقاب واحقاب من الزمن الذي يحدده بلوتارخ. ولم يدم هذا التقليد غير أحد عشر عاماً [ليڤي ١٨:٧].

(٢٧) أعفي الصنّاع والارامل، وكبار السن الذين لا أولاد لهم من دفع الضرائب.

(٢٨) قبل هذا كانت الغرامة باهظة جداً بحيث يصاب دافعها بالدّمار التام.

صكوا على نقودهم القديمة جداً صورة ثور أو شاة أو خنزير، وسموا اولادهم باسماء «سويللي Suillii» و«بوبولجي Bubulci» و«كاپراري Caprari» و«پورجي Porcii» - من كاپرا Capra اي عنزة، وپورجي اي خنازير Porci(٢٩).

ومع كل هذا الاعتدال والليونة، فرض على جريمة خطيرة واحدة عقوبة شديدة صارمة فقد أباح لأي مواطن ان يقتل اي شخص متآمر قبل المحاكمة، ولا جناح على القاتل اذا قدم دليلاً على تآمر القتيل اذ مع انه يبدو أمراً بعيد الاحتمال ان يظلّ أمرٌ خطير الغاية كهذا في طيّ الكتمان، كذلك ليس ببعيداً أن يبقى سراً، وإن ظهرت بوادر له قبل فرض الحكم. ولتفويت الفرصة على التآمر أو تعويقها أجاز لأيّ شخصٍ أن يحبط المؤامرة بقتل المتآمر فوراً. وعظمت مكانة [پوبليكولا] بقانون استحداث بيت المال. فقد وجد من الضروري ان يساهم المواطنون ببعض المال للنفقة على الحروب. ولم يرغب في ان تكون تلك الأموال تحت ضبطه شخصياً ولا أن يوكل بأصحابه أمر حفظها ولا ان يدعها تدخل البيوت الخاصّة. فجعل حفظها منوطاً بمعبد زُحل. ولذلك تراهم الى يومنا هذا يودعون الأموال المجباة هناك. ومنح الشعب حقاً في انتخاب شابين بمنصب أمين خزانة [كويستور Quaestor](٣٠). وأول اثنين تقلدا الوظيفة هما (پوبليوس ڤيتوريوس Publius Veturius] و[ماركوس مينيشيوس Marcus Minicius]. وتمّ جمع مبالغ كثيرة لأن الجباية حددت بمقدار مائة وثلاثين ألفاً، وأعفى الأيتام والأرامل منها. بعد هذا كله صادق على تعيين [لوكريشيوس Lucretuis] والد لوكريسيا قنصلاً مزاملاً له ومنحه حق التقدم عليه، إذ نزل له عن (الحرس الفاچيّ) احتراماً لِسنّه وبهذا استمر نظام الأقدمية بسبب السنّ الى يومنا هذا. الاّ أن القنصل الجديد [لوكريشيوس] توفي بعد ايام قليلة، فانتخب [ماركوس هوراشيوس] خلفاً له وبقي قنصلاً الى نهاية العام.

في تلك الفترة. وحين كان [تاركوين] في توسكانيا يتأهب لحربٍ ثانية مع الرومان، قيل

---

(٢٩) الأولى من لوس Lus اي الخنزير أيضاً. والثانية من Los اي الثور.

(٣٠) وظيفة المحتسب (الكويستور) هي المحافظة على أموال الخزانة العامة يحاسبون عليها عند ختام مدة وظيفتهم وهي سنة واحدة. كما انهم ينفقون من الأموال العامة على الخدمات العامة، ويستقبلون السفراء ويقومون برعايتهم ويهتمون بتأمين معيشتهم وتوفير السكن لهم. ولا يمكن ان يسمح لجنرال بموكب نصر الاّ بعد أن يقدم للمحتسب حساباً عن الاسلاب والغنائم التي أستولى عليها معززاً بالقسم. في المبدء كان يوجد في الدولة كويستوران، وباتساع الامبراطورية زيد في العدد، ومع أن هذا المنصب كثيراً ما كان يشغله قناصل سابقون الاّ انه كان يعتبر أوّل خطوة يخطوها رجل الدولة نحو المناصب الرفيعة. ويظهر أن پلوتارخ يشير هنا الى أوّل تاريخ لاستحداث هذا المنصب [انظر ليڤي ٤:١٤] على أن تاكيتوس في الحوليات [٢٢:٩] يعزو انشاءه الى عهد الملوك ويقول ان حق انتخابهم لم ينتقل الى الشعب الاّ بعد مرور ثلاثة وستين عاماً على طرد تاركوين.

انه وقع حادث عجيب: باشر [تاركوين] في فترة حكمه بتشييد بناء الكاپيتول حتى شارف على أكماله وقرر اما من تلقاء نفسه أو اطاعة لنبوءة، أن ينصب فوقه تمثال مركبة الجبس الاّ انه اضاع ملكه[٣١]. وكان التوسكان قد باشروا في صبّ المركبة وصنعوا كوراً. ولم يظهر الجبس تلك الخواص السليمة المعتادة فيه وهي الانكماش والتصلب بعد ان يُفخر ويتبخر منه الماء، بل انتفش وكبر حجمه حتى بعد التصلّب والبرودة بحيث أخترق جدران الكور ولم يكن بالامكان أخراجه من فوهته، كما كان نقله في غاية الصعوبة، وعَدّ السَحَرة هذه الظاهرة دليل قوة ونجاح كل من يملك التمثال. وقرر التوسكان الاّ يسلموه الى الرومان رغم الحاحهم بطلبه اذ ردّوهم قائلين: ان [تاركوين] احق به ممن نفاه. وبعد ايام قليلة اقاموا سباق خيل، وما يناسبه من حفلات والعاب، وفيما كان سائق مركبة النصر يسوقها بهدوء وعلى رأسه أكليل الغار، يريدان يخرج بها من الحلبة اذا جفلت الخيل ثمّ جمحت اما بمشيئة الهيئة، أو بحدث طرأ للخيل. فعجز السائق عن كبحها وأفلت زمامها من يده اذ أسرعت تعدو بكلّ قواها نحو روما غير عابئة بصياحه وانتهاره وقوة ساعده فأستسلم لها مضطراً ولم يحاول شيئاً معها حتى بلغت الكاپيتول، وهنا انقذف السائق منها عند مدخل [راتومينا Ratumena][٣٢]. إثارت هذه الحادثة عجب التوسكان وهلعهم فنزلوا عن تمثال المركبة للرومان.

كان [تاركوين ابن ماراتوس] قد نذر ان يبنى معبد [كاپيتولين جوپتر] في أيام الحروب مع السابين. فقام على بنائه مع بعده، ابنهُ أو حفيده المدعو [تاركوينيوس سوپيربوس][٣٣] ولكنه لم يتمكن من تكريسه لضياع الملك منه قبل تمامه. ولما كمل بناؤه وتمت زخرفته[٣٤]، رغب [پوبليكولا] في تكريسه إلاّ أن النبلاء حسدوه على هذا الامتياز فضلاً عن حقدهم السالف عليه لما أصابه من شعبية بسنّه القوانين وادارته دفة الحرب، مما كان يجعله أجدر الناس بهذا الشرف. على اية حال كانوا يحملون له ضغنا، فدفعوا زميله [هوراتيوس] الى طلب تكريس المعبد وفيما كان [پوبليكولا] يقود أحدى الحملات العسكرية صَوّت على طلب بالموافقة [هوارشيوس] وأخذوه الى الكاپيتول خلسة كأنهم عاجزون عن ذلك لو كان پوبليكولا

---

(٣١) كان نصب عجلة فوق اسطح المعابد من الأمور المألوفة. ويطلق عليها لهم فاستيجيا Fastigia والزيادة أو التوسع في أي شيءٍ كان يعتبر نذير سوءٍ وبشير يُمن في آن واحدٍ معاً.

(٣٢) اسم الشاب [راتوميناس]. أنظر [پليني ٤٢:٨].

(٣٣) ليڤي يشاركه في شكه [٤٦:١]. لكنه يميل للقول بانه ابنه. غير ان [ديون ٢:٤] اثبت بصورة لا يعتورها شك ان [لوشيوس] و[ارنوس] تاركونيوس هما حفيدا تاركوين الكبير.

(٣٤) يبلغ طول هذا المعبد ٢٠٠ قدم وعرضه ١٨٥، زينت أوجهته بثلاثة صفوف من الأعمدة. وحف بجوانبه الثلاثة الأخرى صفان من الأعمدة. واقيم في البهو ثلاثة محاريب ليونو ولجونو ولمنيرڤا و[ديون ١٣:٤] يعرض وصفاً مفصلاً له.

موجوداً، ويذكر بعضهم أن القنصلين[٣٥] اقترعا فرست قيادة الجيش على پوبليكولا خلافاً لرغبته. في حين يذكر بعضهم أن القرعة رست عليه في تكريس المعبد، وما حدث اثناء مراسيم التكريس.

يعزز هذا الرأي بعض الشيء على ما يبدو الثالث عشر من ايلول الذي وافق البدر التمّ لشهر [ميتاگتنيون Metagitnion] تقريباً، أجتمع الناس في الكاپيتول وخيم الصمت على الرؤوس، وبعد أن ادّى [هوراشيوس] المراسيم الواجبة وهم بنطق عبارات التكريس انتهز [ماركوس] شقيق [پوبليكولا] فرصة وقفته المقصودة قرب الباب، وصاح قائلاً «أيها القنصل إن جثة ابنك مسجاة في المعسكر» فأحدثت تأثيراً على كل الحاضرين إلا [هوراشيوس] فلم تنل من أعصابه وكان جوابه على هذا: «القوا الموتى خارجاً حيث شئتم، أنا لستُ في حداد» ثم باشر في اكمال المراسيم. وظهر النبأ كاذباً لكن [ماركوس] أعتقد أن المفاجأة قد تصرف هوراشيوس عن مواصلة الشعائر لكن هذا أدرك الحيلة، أو أظهر ضبط نفس ولم يفسح سبيلاً لمشاعره ان كان قد صدقها.

واصاب تكريس المعبد الثاني ما اصاب الأول من مصير. قلنا ان المعبد السابق بناه [تاركوين] وكرّسه [هوراتيوس] وقد احترق ابان الحروب الأهلية[٣٦]. أما المعبد الثاني فقد بناه [سيللا Sylla] ومات قبل تكريسه تاركاً هذا الشرف [لكاتولوس Catulus] فأنهزم هذا في الفتنة [الڤيتيلية]، وشرع [ڤسپسيان] ببناء الثالث يحالفه فيه النجاح الذي واكبه في كل الأمور الأخرى وعاش لدى اكتمال البناء لكنه لم يكن في عداد الاحياء عندما هدم. خلافاً [لسيللا] الذي مات قبل تكريس معبده. اذ ما أن قضى (ڤسپسيان) نحبه حتى اتت عليه النار. اما المعبد الرابع القائم الآن فقد بناه [دوميتيان]. ولقد قيل أن [تاركوين] انفق اربعين الف اوقية من الفضة على اقامة اسسه فحسب. اما المبالغ المنفقة على طلائه وزخرفته في

---

(٣٥) يؤكد ليڤي حصول القرعة (٨:٢) ولعل پلوتارخ أعتمد عليه في النقل. لقد كان ذلك شرفاً عظيماً لأن اسم الدكتاتور كان محفوراً على مدخل المعبد.

(٣٦) يشير الى تدميره اثناء حروب [ماريوس - سيللا] في ٨٣ ق.م. وقد قام الأخير باعادة بنائه مستخدماً اعمدة رخام انتزعها من معبد زفسي في أثينا. لكن لم يوفق الى تكريسه فقد عاجلته المنية قبل تمامه. وذكروا انه قال وهو يعالج سكرات الموت ان هذا هو أسوء ما صادف من حظّ طوال حياته. وكرّسه كاتولوس في العام ٦٩ ق.م. وقد أحترق مرة ثانية عندما كان ڤيتللوس يضرب حصاراً على (فلاڤيوس سابينوس) في الكاپتول في العام ٦٩ للميلاد. اي بعد ١٣٨ سنة من تشييده ولا يعلم من كانت له يد في احراقه. (تاكيتوس التاريخ ٣:٧١ و٧٢]. وجدد الامبراطور ڤسپاسيان بناءه. ثم أحترق مع الكاپتول في العام ٨٠ للميلاد بالأخير اعاد دوميتيان بناءه ونقش عليه اسمه دون ان يذكر شيئاً عن أوّل بناته [انظر سوتونيوس].

أيامنا هذه، فهي تزيد على ثروة أغنى أغنياء رومه، وتقدر بما يزيد عن أثني عشر ألف تالنت[٣٧]. وكانت اعمدته من المرمر [البنتيلي] بطول يتسق اتساقاً لطيفاً مع غلظها. وهي الأعمدة التي كنا قد شاهدناها في اثينا، ولم تزدد جمالاً ورواء عندما أعيد نحتها في روما، قدر ما فقدت من تناسق، اذ جُعلت مستدقة الأطراف نحيلة وان دهش المرء لما أنفق على الكابتوا فما عليه الاّ أن يلقى نظرة على احدى مقصورات قصر [دوميتيان] أو إحدى قاعاته أو على حمام من حماماته أو مسكن محظية من محظياته. وستكون على شفتيه قولة [ايبخارموس]:

« [الاشراف لايكشف عن عقلية حرة بل هو مرضٌ عضال والحق يقال] ».

فهو يقول مشيراً الى دوميتيان: «ليس هذا تقى منه ولا عظمة، وانما مرض البناء ورغبة كرغبة [ميداس Midas] في تحويل كلّ شيء الى ذهب أو مرمر» وفي هذا ما يكفي.

بعد المعركة التي فقد فيها [تاركوين] ابنه على اثر مبارزته مع بروتوس ولىّ هارباً الى كلوسيوم Clusium مستجيراً بـ[لاراس پورسنّا Laras Porsenna] أقوى ملوك ايطاليا، ورجل فاضل كريمٌ فأجاره وحقق سؤله وطلباته[٣٨] وأرسل في الحال أمراً الى رومه بأن تستقبل ملكها [تاركوين] ولما رفض الرومان ذلك أعلن الحرب عليهم محدداً الزمان والمكان اللذين قررهما للمعركة وزحف بجيش لجبٍ. وكان [پوبليكولا] قد أنتخب قنصلاً للمرة الثانية[٣٩] اثناء غيابه، وأنتخب [تيطس لركريتيوس] زميلاً له. فأسرع بالعودة الى رومه.

(٣٧) من أجل تقريب فهم المبلغ للاذهان. نقدر قيمة التالنت الواحد بالسعر الحالي للدولار اعني ما يعادل ٢١٠٠ دولار أو ١٠٠٠ پاون سترليني ان البون الشاسع ما بين ما يملكه المواطن العادي في ايام الجمهورية وايام الملكية يستحق التأمل هنا. ففي عهد (تراجان) لم يكن هناك غنيّ تزيد ثروته عن ٧٠٠٠٠٠ پاون سترليني. في حين أن (ايميليوس سكاوروس) اثناء توليه منصب (الايديل) اقام ملعباً مؤقتاً على حسابه كلّفه تسعمائة الف پاون استرليني. وتلك (ماركوس كراسوس) ضياعاً وقرى كانت تغّل له أكثر من مليوني پاون سنوياً. وترك [كورنيليوس بالبوس] في وصيته ٢٥ ديناري لكل مواطن روماني وهي تعادل خمسين شلناً بحساب القوة الشرائية المقارنة الحالية. وكان الكثير من الرومان من يملك ما بين عشرة آلاف وعشرين الف عبد. فلا عجب أذن ام رفع العبيد السلاح في وجه روما ونازلوا الجمهورية في حروب طويلة منهكة.

(٣٨) كثير من الشراح يرونه اسم تكريم يخلع على رئيس اللوكومون الاثني عشر أو ما يدعى بـ dodecaechy etruria. على ان (ديون) يعتبره اسماً لشخصٍ[٤:٤]. كان (تاركوين) توسكاني الأصل الى جانب كونه يساعد ملكاً وقع في ضيق. لم يذكر ليڤي ولا ديون أنه أعلن طلباته لروما.

(٣٩) في اثناء قنصلية پوبليكولا الثالثة وكان هوراشيوس پولثيللوس يزامله فيها - زحف (پوسينّا) على روما. و(ليڤي) في هذا يتفق مع پلوتارخ.

ولأجل أظهار معنوية أعلى من تحدّي [پورسنّا] بنى مدينة [سيگليوريا Sigliuria] (٤٠) وجيش پورسنا معسكر على مقربة منه. وانفق مبالغ طائلة في تسويرها وتحكيمها. ووضع فيها سبعمائة رجلٍ من المستعمرين كأن الحرب امرٌ تافه عنده. لكن [پورسنا] قام بهجوم عنيف وارغم المدافعين على التقهقر الى روما. وكاد جيش پورسنا يدركهم ويدخل المدينة معهم. لكن پوبليكولا انقذ الموقف بكرّةٍ على العدو من داخل المدينة، وأرغمهم على التراجع. ثم اشتبك معهم في معركة على ضفاف [التيبر] وقاومهم مقاومة ضارية وكان العدو يهاجم بجموع هائلة. واصيب [پوبليكولا] بجراح بالغة ونقل خارج ساحة القتال. ولم يكن حظّ زميله [لوكريتيوس] بأحسن من حظه وخاب امل الرومان وتقهقروا الى المدينة حفظاً على أرواحهم. وأحدق بروما خطر داهم وأشرفت على السقوط بيد العدّو الذي كان يندفع متقدماً فوق الجسر الخشبي ووقف [هوراشيوس كوكليس Horatius Cocles] (٤١) يصدهم بمعاونة اشجع محاربين في روما: [هرمينينوس Herminius ولارتيوس Lartius] وجاء لقب «كوكليس» لأنه فقد أحدى عينيه في الحرب. وقيل أن هذه الكُنية لصقت به لأنه افطس الانف مفلطحه حتى يكاد لا يبين له أنف ما بين عينيه فيخيل للناظر انه ذو عين واحدة، وكان القصد أنه يُكنى چكلوپس Cyclops (٤٢) لكن الاسم صُحّف الى «كوكلس». بقي [كوكلس] هذا صامداً يصد تقدم العدو حتى تمكن رفيقاه من كسر الجسر خلفه، فالقى بنفسه في الماء بدروعه وسلاحه وسبح الى الجانب الاخر، وهو مصاب بطعنة رمح توسكاني في فخذه. وأعجب [پوبليكولا] ببسالته وأقترح حالاً أن يقدم له كل رومانيّ رزق يوم كامل هديةً له. ثم منحه قدر ما يستطيع محراثه تحويط ارضٍ بخطٍ في يومٍ كاملٍ. كذلك اقام تمثالاً برونزياً تكريماً له في معبد [ڤولكان] على سبيل التعويض للعرج الذي أصابه من الطعنة.

القى [پورسنا] حصاراً شديداً على المدينة. وانتشرت المجاعة بين الرومان. كذلك قام جيش توسكاني جديد بشنّ الغارات على البلاد. ولما انتخب [پوبليكولا] قنصلاً للمرة الثالثة، قرر تقوية تحصينات المدينة والدفاع عنها دون اللجوء الى تحركات هجومية خارج المدينة. على أنه تسلل سراً (٤٣) وهاجم المغيرين التوسكان والحق بهم هزيمةً وقتل منهم خمسة آلاف.

---

(٤٠) لم تبنَ سيگليوريا على سبيل التحدي ولا في ذلك الزمن كما يزعم پلوتارخ بل كان بناؤها لتصير حاجزاً ضد اللاتين والهرنيشي في قنصليته الثانية. بل لعله الموضع الذي يطلق عليه ليڤي (١:٥٥) سيگينا.

(٤١) هو ابن اخ لهوارشيوس القنصل.

(٤٢) يقول (ديون): لقب بذلك لأنه فقد أحدى عينه في هذه المعركة. كان مقاتلاً رهيباً بدون شك فهو أحد ثلاثة صمدوا الى الأخير ثم انسحب رفيقاه قبل أن يكسر الجسر بعدهما (ليڤي ٢:١٠ يذكرها بتفضيل أكثر).

(٤٣) اذاع القنصلان خبراً قام العبيد الهاربون بنقله فوراً الى معسكر التوسكان، مؤداه ان كل القطعان =

إن قصّة [موشيوس Mucius](٤٤) تروى باشكال مختلفة ونحن هنا لا نرى مندوحة من ايراد الشكل الشائع لها: كان هذا رجلاً يجمع في شخصه كل الخصال والسجايا الحميدة، وابرزها الشجاعة والميل للقتال ولذلك قرر اغتيال [پورسنّا]. فتزيا بالزيّ التوسكاني ونطق بلغتهم. وخرج يقصد طلبته حتى بلغ معسكر الاعداء. ودنا من مجلس الملك. وكان يحف به النبلاء فوقع في حيرة لأنه لم يكن يعرف الملك بالوجه، وخاف السؤال للاستيثاق لئلا يفتضح أمره. ولم تطل به الحيرة بل امتشق سيفه وطعن أوّل شخصٍ ظنه الملك فقبض عليه في الحال وفيما كانوا يستنطقونه جيء الى الملك بمستوقدٍ يضطرم ناراً لأجل تقديم القرابين. فدّس [موشيوس] يده اليمنى(٤٥) في لهب جمراته وأخذ يحدق [بپورسنا] بوجه هادىء لا أثر لما يحسّ بالم فتملك پورسنا الاعجاب به وأطلق سراحه واعاد اليه سيفه، اذ رفعه وقذف به اليه فتلقاه [موشيوس] بيده اليسرى مما دعا الى تكنيته [سكيڤولا Scaevola] اي الأعسر. وذُكر انه قال معقباً: «لقد تغلبتُ على إرهاب پورسنا، لكن كرمه غلبني، والاعتراف بالمنّة تضطرني الى الكشف عما يقصر العقاب عن استخلاصه منيّ» ثم راح يؤكد للملك بأن ثلاثمائة روماني مثله يحومون الآن حول معسكره يحدوهم العزم على قتله وانهم يتحينون فرصتهم. وصارحه بأنه ليس آسفاً بفشله في القيام بمهمته فهذا حكم القدر. وان رجلاً شهماً شجاعاً مثله يستحق ان يكون صديقاً للرومان لاعدّوا. وأصدق [پورسنا] ظنّه وأعلن عن ميله الى المهادنة، لا خوفاً من الرومان الثلاثمائة حسب اعتقادي - بل تقديراً لشجاعة الرومان عموماً(٤٦).

يجمع كلّ الكتاب على أن اسم الرجل هو [موشيوس نكيڤولا](٤٧) إلاّ [اثندوروس Athendorus] ابن [ساندون Sandon]، فقد ذكر في كتاب مهدى الى [اوكتاڤيا] أخت [قيصر] ان اسمه [پوستموس] ايضاً. ولم يكن پوبليكولا يعتبر عداوة [پورسنا] خطراً على رومه قدر ما كان يعتبر صداقته ومحالفته عنهما لها وفائدة. لذلك عهد الى الملك [پورسنا] بمهّمة التحكيم بينه وبين [تاركوين]. وأثبت له ببراهين عديدة أن خصمه من اسوء الرجال وانه

= التي جيء بها من الارياف سترسَل للرعي في الحقول. وستكون تحت الحراسة. هذا الطُعم أجتذب العدو ليقع في كمين.

(٤٤) C. Mucius Cordus.

(٤٥) ليڤي (١٢:٢) يقول ان [پورسينّا] هدد موشيوس بالتعذيب وبالنار ليرغمه على الاعتراف بشركائه وعندها دسّ موشيوس يده في النار ليثبت له انه لا يقيم اي وزن لتهديده.

(٤٦) [ديون] يعزو الصلح الى هجوم پوبليكولا الناجح الذي جاء ذكره في النص. فيسرده بوصفه نتيجةً لمأثرة موشيوس.

(٤٧) ساندون فيلسوف روائي من طرسوس. كان معلماً لأغسطس ثم لـ طيبريوس قيصر.

يستحق الحرمان من الملك. لكن [تاركوين] رفض بغطرسة اي تحكيم، ولاسيما تحكيم [پورسنا] الذي نكث بعهد قطعه له، فأغضب جوابه هذا [پورسنا]، وشكّ في عدالة قضيته، كما أنه مال الى الأخذ بحجج ابنه ارنوس الذي حرص على مصلحة رومه. وعقد صلحٌ بين الطرفين على الشروط التالية: أن ينزل الرومان عن جميع الأراضي التي اغتصبوها من التوسكان. وان يعيدوا اليهم كل الأسرى، وان يستعيد الرومان كلّ من لجأ منهم الى التوسكان(٤٨). وتوثيقاً لعهد السلم هذا يقدم الرومان رهائن تتألف من عشرة من ابناء الپاتريشيين ومثله من بناتهم. وممن وقع عليه الاختيار [ڤاليريا] بنت پوبليكولا.

بعد هذه المواثيق توقف كل الأعمال العدوانية. وخرجت البنات الرهينات الى النهر للاستحمام في موضع يؤلف انحناءُ النهر خليجاً راكد المياه. ولم يجدن حراساً ولا مستطرقاً، فتشجعّن للسباحة الى الضفة الأخرى غير مباليات بعمق الماء وقوة التيار. ويؤكد بعضهم ان [كلوليا Cloelia](٤٩) عبرت على ظهر جوادٍ وحَمَلت الأُخريات على اللحاق بها. لكنهن أنّبنَ على عملهن بوصولهن سالمات ومثولهن بين يدي پوبليكولا واستنكر الأمر منهن وأشتد قلقه لئلا يفسر العمل تفسيراً سيئاً ويبدو هو أقل حرصاً على العهد من پورسنا. وان تفسر هذه الجرأة الانثوية، اخلالاً من الرومان وخيانة. فما كان منه إلاّ ان ردّهن الى پورسنا. لكن رجال [تاركوين] وقفوا على القضية فنُصبوا كميناً قوياً على الضفة الأخرى يريدون الايقاع بمن يرافقهن. وفيما هم مشتبكون اندفعت [ڤاليريا] بنت پوبليكولا مخترقةً صفوف الاعداء وافلحت في الفرار بمساعدة اثنين من خدمها اما الباقيات فقد طُوقّن واحدق بهم الخطر لكن [ارنوس] ابن پورسنا اسرع الى انقاذهن عندما بلغته الانباء. وانهزم العدو وسلم الرومان وشاهد [پورسنا] عودة الفتيات فسأل عمن دبّر الهروب واشار به، ولما ابلغ بأنها [كلوليا] رفعها بنظره اعجاب وسرور وامر ان يقاد اليه أحد خيوله فجيء بجواد مطهم فخم السرج نفيس الحلى واهداه لها. وهذا ما يقوم دليلاً للذين يزعمون ان [كلوليا] كانت الوحيدة التي عبرت النهر على ظهر جواد. اما من ينكر ذلك فيرى الهدية مجرد اعجاب توسكاني بجرأتها. وعلى اية حال يوجد تمثال فارسة ينتصب في [ڤيا ساكرا Via Sacra](٥٠) وانت ذاهب الى

---

(٤٨) طلب من الرومان اعادة سبع قرى كانوا قد انتزعوها من الڤيئيتين Veientes في الحروب السابقة (ليڤي ١٣:٢).

(٤٩) يدلي [ليڤي ١٣:٢ و٦-١١] برواية مختلفة جداً عن حادثة كلوليا. المثل الذي ضربه موشيوس في الشجاعة آثار حماسة الفتيات وتخليداً لذكراها أقام الرومان في رأس الطريق المقدس تمثال Virgo insid-ens equa.

(٥٠) بعبارة لاتقبل لبساً يذكر لنا (ديون) انه لم يعد لهذا التمثال اي أثر في زمانه (ايام أغسطس) فقد اتت النار عليه. على أن پليني (٦:٣٤) يتفق مع پلوتارخ في هذا.

الپالاتيوم، يقول بعضهم انه تمثال [كلوليا]، ويقول آخرون انه تمثال [ڤاليريا]. وبهذا تصالح [پورسنا] مع الرومان وقدم دليلاً آخر على سماحته بأن أمر جنوده بترك المعسكر بأسلحتهم فقط، وخيامهم ملأى بالقح وغيره من المؤونة، هديةً للرومان. ومن هنا جاءت العادة المطبقة الى يومنا هذا، وهو أن ينادى بكلمة «پورسنّا» عندما يبدأ أي بيع علني لبضاعة، تخليداً لعطفه، وترى في مجلس الشيوخ ايضاً تمثالاً برونزياً له عتيقاً ساذج الصفة(٥١).

كان [ماركوس ڤاليريوس] أخو پوبليكولا و[بوستيميوس توبيرتوس Postimius Tuber-tus] قنصلين عندما اغار السابين على الرومان وتمكن [ماركوس] بفضل معونة پوبليكولا، وتصريف الشؤون العامة عنه من احراز انتصارين كبيرين. قتَل في اولهما ثلاثة عشر ألف سابيني دون ان يخسر رومانياً واحداً. فأهدي له بيت بُني في الپالاتيوم(٥٢) على حساب الخزينة العامة اعترافاً بفضله. وفي حين كانت ابواب سائر البيوت تفتح الى الداخل. جعلت ابواب بيت ماركوس تنفتح الى الخارج، تأكيداً لأعتراف الجمهور الأبدي بجميله، لأن ذلك يشير الى افساحه لاي اقتراح في اقامة قرابين عامة. واليونان(٥٣) عموماً كانوا ينهجون هذا النهج في هندسة بيوتهم منذ القديم وهو ما يستدل عليه من تمثيلياتهم الهزلية لأن من يريد الخروج الى الشارع يعمل ضجة مسبقة قرب الباب تنبيها للمارة والمتسكعين في الشارع انتخب پوبليكولا قنصلاً للمرة الرابعة، لمّا هدّد التحالف بين السابين واللاتين باثارة حرب جديدة(٥٤)، كذلك انتشر خوفٌ غامض في المدينة بسبب تواتر حوادث اجهاض النساء، حتى لم تحصل ولادة واحدة في أجَلِها الموعود. ورجع پوبليكولا الى كتب [السبلليّن Sibyl-line](٥٥)، ثم ضحّى لپلوتو، وجدّد انشاء العاب معيّنة أمر بها ابوللو. فاعاد الى المدينة

(٥١) كذلك ارسل اليه المجلس سفارةً مع هدية تتألف من عرش مطعم بالعاج وصولجان وتاج من الذهب. ورداء النصر. ولم يذكر هو أو ليڤي شيئاً عن التمثال البرونزي هذا.

(٥٢) نصب امام هذا المنزل تمثال برونزي لثور وهو شعار ڤاليريوس الذي كان نصره سبباً في المحافظة على الزراعة وخيرات روما (انظر پليني ١٥:٣٦).

(٥٣) كان لـ(پوستيميوس) حصته في هذا النصر كما كان له سهمه في الأعمال الجليلة التي تمت.

(٥٤) يعرض ليڤي (٦:٢، ٢-٦) وصفاً جد مقتضب لهذه الحرب.

(٥٥) قصدت تاركوين امرأة مجهولة الهوية عارضةً عليه تسعة مجلدات من النبوءات كان قد دونها المدعو سيبيل من كوما وطلبت ثمناً لها مبلغاً كبيراً من المال أستكثره وابى شراءها. فأحرقت ثلاثة منها وعرضت عليه الستة الباقية بالثمن عينه فرفض بسخرية. فأحرقت ثلاثة أخرى وطلبت للثلاثة الباقية الثمن الذي حددته للتسعة. فأستغرب الملك من سلوكها العجيب ودفع بالكتب الثلاثة الباقية الى العرافين لفحصها فنصحوا بشرائها مهما غلى ثمنها، ففعل وعين اشخاصاً من ذوي الجاه والمكانة أطلق عليهم اسم دوويمڤري Duamviri ليكونوا اوصياء عليها. فحفظوها في خزانة تحت معبد (جوپتر) الكاپيتولي وبقيت هناك حتى أتت نار الحروب المارسيّة على المعبد [ديون ١٤:٤] هؤلاء الحفظة الاوصياء الذين زيد عددهم فيما بعد الى العشرة، كانوا يعودون الى تلك الكتب يستشيرونها بامرٍ من مجلس الشيوخ كلما أحدق =

الثقة بالآله. ثم استعدّ للقضاء على تهديد البشر لها، وبدت الاستعدادات العظيمة وأثر الحلف القويّ. وكان يوجد بين السابين شخص يدعى [ابيوس كلوسوس Appius Claus-es][٥٦] وهو من أعظمهم ثراء واقواهم جسماً، ولكن أخلاقه العالية ابرز ما فيه فهو ذو منطق حسن وكلام مقنع، على أنه لم يتخلص من الحاقدين والحساد وتلك حال جميع العظماء المشاهير، لقد زاد من حقدهم عليه وقوفه ضدّ هذه الحرب وظهوره بمظهر المدافع عن مصالح الرومان. وقيل ان غايته من دفاعه هذا، هو السيطرة على بلاده وادراكه التام مدى تحبيذ العامة لفكرته. ومدى خطلها عند العاملين لاثارة الحرب. وكان خائفاً من أحالته الى المحاكمة، لكن لما كان اصدقاؤه قد عاهدوه على الفكرة ووعدوه بالمساعدة فقد اثار فتنة بين السابين عوّقت نشوب الحرب. وكان [پوبليوكولا] واقفاً على دوافع هذه الفتنة، فلم يأل جهداً في تأجيج وتوسيع رقعتها. وبعث وفداً يحمل رسالة الى [كلوسوس] يمدحه فيها ويشيد بطيبته وحسن نواياه قائلاً انه يرى انه لا يليق بالمرء مهما بلغ الأذى الذي ناله، أن يطلب من بني قومه ثأره. ولأجل سلامته، يدعوه انه شاء الى النزوح عن أرض اعدائه والقدوم الى رومه وسيرحّب به الشعب الروماني ويستقبله بالاكرام اللائق بمقامه وسجاياه الرفيعة. فوزن [كلوسوس] المسألة وزناً دقيقاً ووجد انها خير حل تُمليه الضرورة. وشاور أصحابه واتصل هؤلاء بآخرين والتأم شمل الجميع وشدوا الرحال الى رومه. وكانوا خمسة الآف أسرة[٥٧] بأطفالها ونسائها. من أطيب السابين خلقاً وأهدأهم مزاجاً وابلغ [پوبليكولا] بدنوهم فخرج لاستقبالهم بكلّ مظاهر الحفاوة والصداقة منحهم فوراً حق التصويت وخصص لكل فرد مساحة من الأرض تبلغ ايكرين، على ضفاف نهر آنيو Anio، ومنح [كلوسوس] خمسة وعشرين (ايكرا) واعطاه مقعداً في مجلس الشيوخ، وهذه بداية لسلطة سياسية استخدمها بتعقّل وحكمة دفعت به الى احضان الشهرة واكسبته نفوذاً كبيراً. فكان عميداً للبيت (الكلودي)[٥٨] الذي لايقل شرفاً عن أعرق بيوت رومه.

= بالبلاد خطر عصيان أو حلت بالجيوش الرومانية هزيمة. أو حصلت مخاريق يظن انها طالع نحس. كما كان هؤلاء يترأسون تقديم القرابين، والعرض المرسحي الذي تأمر به تلك الكتب تهدئة للغضب السماوي.

(٥٦) يسميه [ديون ٥:٧] تيطس كلوديوس Titus Claudius وليڤي بسميه [آتّا كلوسوس Atta Clausus] وفيما بعد [ابيوس كلوديوس Aippius Cloudius].

(٥٧) هذا يعني عشرين الف شخصٍ على الأقل، بمعدل اربعة افراد في الأسرة الواحدة، كان نصيب كلّ فردٍ نصف ايكر.

(٥٨) في روما اسرتان شهيرتان باسم كلودي Cloudii أحداهما پاتريشية والأخرى پليبيّة. الأولى أطلق على أفرادها لقب پولكر Pulcher والثانية أطلق عليهم لقب مارجللوس Marcellus. وقد خرج من الثانية ثلاثة وعشرون قنصلاً، وخمسة دكتاتورين، وسبعة تقلدوا وظيفة چنسور، ونال اثنان من القواد فيها موكبي نصر وتكريمين. ومنها نبغ الامبراطور طيبريوس ومن اتباعه تألفت العشيرة الكلودية (أنظر ليڤي وديون).

إن نزوح هؤلاء هدأ من الأمور في بلاد السابين. على أن رؤوساءهم وزعماءهم ما كانوا يريدونهم ان يخلدوا الى الراحة والاستقرار. وزاد من حنقهم ان [كلوسوس] اجهض محاولة الانتقام الذي دبروه، بفراره وانحيازه الى الرومان بعد أن استمر في معارضته له ونجح بتعويق الحرب الى امدٍ. فساقوا جيشاً جراراً وعسكروا على مشارف [فيدينيا] ونصبوا كميناً بألفين من الرجال قرب رومه، ووزعوا قواته في عدد من الوديان والغابات وزودوها بأمر يقضي عليها بالخروج من مكامنها فتعيث في البلاد فساداً ونهباً وان تقترب من المدينة ثم تتراجع امام العدو لتجره خلفها وتوقعه في الكمائن. وما لبث پوبليكولا ان وقف على الخطّة من جماعة الفارّين فقسم قواته بمجموعات ثلاثٍ واناط بزوج بنته [پوستيميوس بابلوس Posti-mius Bablus] قيادة ثلاثة آلاف محارب يخرجون مساءً ويحتلون التلال التي تشرف على مكامن الأعداء، ويراقبون حركاته واناط بزميله القنصل [لوكريتيوس] قوة تتألف من اشجع الرجال واسرعهم لمقابلة خيالة العدوّ. بينما تولى بنفسه قيادة بقية الجيش الذي أوكلت اليه مهمة التعرض للجيش السابيني. وانتشر فجأة ضباب كثيف وقام [پوستيميوس] في الصباح الباكر بالهجوم على مواضع الكمائن بصياح داوٍ منحدراً من التلال. وهجم [لوكريتيوس] على الخيالة الحقيقة وحاصر پوبليوكولا وحلت الهزيمة بالسابين من كل ناحية عسكروا بها وراح الرومان يفتكون بالمنهزمين من غير ان يلقوا مقاومة اذ كان املهم بالنجاة هو الذي يوردهم موارد حتوفهم لأن كل موقع كان يتوهم الموقع الآخر سليماً صامداً فلا يبدي قتالاً ولا يثبت محاربوه في مواضعهم فيخرج من في معسكر الى الكمين، ومن هم في الكمين يهرعون الى المعسكر فيلتقي الفارون بالفارين ليجد الاثنان انهما يطلبان الحماية أحدهما من الآخر. على أنه قرب مدينة [فيدينيا] من السابين هو الذي انقذ البقية الباقية منهم، ولاسيما الهاربون من المعسكر. أما من لم ينجح في الوصول الى المدينة فإما هلك أو وقع أسيراً. ومع ان الرومان يعزون نصرهم الى أحد آلهتهم فإنهم يقرون بالفضل الى قيادة قائد واحد. ويقال ان الجنود كانوا يتحدثون فيما بينهم قائلين: «ان پوبليكولا دفع بالعدو اليهم وهو أعمى أعرج لا يعوزه إلاّ السلاسل، ليذبحوه بحد سيوفهم» وغنم الرومان ثروة كبيرة من الأسرى والأسلاب.

بعد أن انجز پوبليكولا نصره واودع مقدرات المدنية الى رعاية خلفائه القناصل. قضى نحبه وانتهت بذلك حياة حافلة بكلّ ما هو شريف ونبيل[٥٩]. على قدر ما تكون حياة البشر، وبدا

(٥٩) يقول ليڤي (١٦:٢ و٧) «في السنة التالية انتخب أكريبا مينيموس وپوبليكولا پوستيموس. كان پوبليكولا ڤاليريوس باجماع الكل اعظم الرومان وانبغهم في فنون الحرب والسلم توفي وهو في قمة مجده وبلغ من الفقر حداً انه لم يخلّف ما يكفي لسد نفقات جنازته لذلك دفن على نفقة الدولة. وليست النساء الحداد عليه مثلما فعلن عند موت بروتوس... كان على پلوتارخ هنا أن ينوه بفقرة تنويها واضحاً، لأن الجنازة التي =

وكأن الشعب لم يكرم الراحل في اثناء حياته الاكرام الواجب وانهم مازالوا مدينين له. فقرروا ان يكون تشييعه شعبياً وساهم كل مواطن بكوادرانس Quadrans(*) واحد للنفقات واستصدر قرار خاص للنساء بلبس الحداد عليه سنة كاملة وهي شارة تكريم انفرد بها دون غيره. ودفن حسب رغبة الشعب داخل اسوار المدينة(٦٠)، في جزء منها يدعى [ڤليا Velia]. ومنح نسله امتياز الدفن فيها. والآن لم يعد يدفن هناك أحدٌ عن أعضاء الأسرة على كل حال. اذ يحمل جثمان الميت اليها عادة ويوضع فيها، ثم يأتي شخص ويضع مشعلاً تحت الجنازة ثم يسحبه حالاً، كدليل على امتياز الميت وعلى تنازله عنه. وبعد ذلك يرفع الجثمان ويحمل الى المقبرة.

= تنفق عليها الدولة وهي أحياناً من قبيل الشرف الذي تحفله على الميت. ولا شك ان المبلغ الذي أكتبته السكان كان كبيراً.

(*) عملة رومانية.

(٦٠) في الأصل كانت عادةً إلاّ ان الالواح الاثنتي عشرة منعت الدفن داخل الاسوار. وبعد هذا صار دفن الموتى يتم على جانبي الطرق الخارجية العامة. وأحتفظ بامتياز الدفن المدينة لأولئك الذين قدموا خدمات جليلة للدولة كما هو الحال عند الاغريق. ويقول [ديون] انه امتياز خصّى به پوبليكولا لكن پلوتارخ يطذكر في موضع آخر ان [فاريچيوس] حظي بهذا الامتياز ايضاً كما حظي به كل من دخل في موكب نصر على ما يؤكده لنا پيرّ Pyrrho من ليپارا Lipara.



أوكتافيا

أوجه المقارنة بين پوبليكولا وصولون

هناك شيء فريد في هذه المقارنة، لا وجود له في أية سيرة من السير الأخرى. وهو ان أحدهما لابُدّ ان يكون مقلداً للآخر وان السابق كان خير مثال للاحق. فعند تأمل عبارة صولون التي فاه بها امام [كروسوس] بخصوص سعادة [تللوس]. يتضح انها أكثر انطباقاً على پوبليكولا. اذ ان سجايا [تللوس] وميتته المثالية اكسبته صفة اسعد الناس، ومع هذا فان صولون لم يشد به في شعره، كما لم ينل أحدٌ من صلبه ولا رؤوساء قومه امتياز نصب تذكاريّ لكن حياة پوبليكولا كانت ابرز حياة بين الرومان، لاخلاقه وللسلطة التي حازها. فيها قد مرّ على وفاته قرابة ستمائة عامٍ[1] ومازالت اسر رومه العريقة مثل پوبليكولي Popico-lae ومسّالي Messalae وڤاليري Valerie[2] تعتبره أصل عراقتها وبذرة نبالتها. ومع ان [تللوس] صمد في موقعه وقاتل قتال الجندي الباسل فأنه قتل على يد اعدائه لكن الأسعد منه حظاً، هو من قتل اعداءه ورأى بلاده منتصرة تحت زعامته وبلغت به مآثره وانتصاراته المجيدة، نهاية سعيدة، وهذا هو مطمع صولون. وان الصرخة التي أطلقها في قصيدته بهجاء [مينرموس Minnermus)][3] حول استمرار حياة الانسان: «الا فليسر قلب الصداقة المخلص في ركاب نعشي فيُصعد حسرة أليمة، ويُذرف دمعة رثاء».

وهي شاهد على سعادة پوبليكولا، فموته لم يقتصر على استدرار الدمع من عيون اصدقائه ومعارفه فحسب وانما كان مصدر حزن واسىً عامٍ لكلّ المدينة. وبدت النسوة وكأنهن فقدن به ابناً إو أخاً أو أباً. قال صولون «لست بمن يكره الغنى، لكني ارفض الغنى الذي يأتي بطريق غير مشروعة لأن عاقبته دينونة. على ان ثراء [پوبليكولا] جاءه بطريق مشروعة، لا بل انفقه

---

(١) يبدو من هذه العبارة ان پلوتارخ كتب هذه السيّر في بداية حكم الامبراطور تراجان.

(٢) أعني الڤاليري الآخرين وهم ماكسيمي، كورڤيني، پوتيتي، ليڤيني، فلاچي.

(٣) مخترع البيت المخمس في الشعر. هو شاعر موسيقي من كولوفون أشتهر بمريثاته بصورة خاصة. ولم يصل لنا منها غير مقطوعات قليلة وقد وصفه الشاعر (هوراي) فوق [كالليماخوس].

في اغراض سامية نبيلة. وصرفه على وجوه البر والاحسان ولذلك يجب علينا ان نقرّ بان پوبليكولا هو الأسعد وان ما اعتبره صولون اكمل الصلاح وأعظمه توفر في پوبليكولا ومارسه وتمتع به في موته.

ويمكن القول ان لصولون يداً في مجد پوبليكولا، كذلك يصحّ القول ان پوبليكولا يداً في مجد صولون باختياره اياه نموذجاً يحتذى ومرشداً في سن الأنظمة الديمقراطية وجدّه من السلطة المفرطة للمنصب القنصلي. والواقع انه نقل عدداً من قوانينه الى رومه مثل اعطاء الحق الجمهور في انتخاب الرؤوساء، ومنح الحرية للمحكومين باستيناف احكامهم امام الجمعية العامة كما أعطى صولون هذا الحق للمحلفين. انه لم ينشيء مجلس شيوخ[٤] كما عمل صولون، لكنه وسّع المجلس القديم حتى ضاعفه اوكاد. ويعود استحداثه منصب امين الخزانة الى صولون نفسه. والحكمة في هذه البدعة انصراف رئيس الدولة الفاضل الى الأمور الهامة، لا مباشرة الأمور الثانوية كالمسائل المالية، اما اذا كان سيّء الخلق فقد يزيد المال في غوايته ان انيط به المال والحكم معاً. وكره الاستبداد عند پوبليكولا أشدّ منه عند صولون، وفي قوانين صولون لا يمكن معاقبة شخص يحاول اثارة فتنة أو تدبير مؤامرة إلاّ بعد ادانته قضاءً. بينما اجاز پوبليكولا قتله قبل اجراء محاكمته. وارتفعت منزلة صولون حقاً عندما عرض عليه الحكم المطلق بحكم الظروف وقومه يلحوّن عليه في قبوله. الاّ أنه أبى ذلك. لكن فضل پوبليكولا لا يقل عن فضله، فقد تسلم قيادة لاحدّ لسلطانها فحولّها الى حقوق للجمهور، ولم يستعمل كل الصلاحيات التي يمارسها القنصل بحكم منصبه. وعلينا ان نتذكر بأن صولون كان أول من راعى ذلك:

الشعب يُجلّ قدر حكامه دوماً، عندما لايعتدون عليه ولايسايرونه.

ان الغاء الديون كان من معجزات صولون. وكانت وسيلته العظمى لتثبيت حريات المواطنين. إن كل قانون يمنح حقوقاً متساوية لسائر الطبقات هو قانون لا فائدة منه حين يضطر الفقراء الى تضحية تلك الحقوق على مذبح ديونهم. ففي هذه الحالة يكونون رهن اشارة الاغنياء وطوع امرهم سواء في المعابد العامة ومحرابها أو في دور العدل ودواوين الحكومة وعلى الخصوص في اثناء المناقشات العامة، إن أعظم نجاح لصولون اي الغاء الديون ادّى فعلاً

(٤) يفهم من النصّ ان پلوتارخ يقصد الشيوخ (أو مجلس الاربعمائة) لا المجلس الاريوباغي، ان مجلس الاربعمائة الذي يقرر ما يجب عرضه على الشعب من أمور. وليس ثم ما يمكن أقتراحه غير ما تم عرضه على الجمعية العامة وهضمه هؤلاء، لذلك المجلس على قدر الإمكان وسيلةً لكبح الشهوة الى الاستبداد عن دالحكام الاعلين، والرغبة في الحرية المنطلقة من كلّ إسار عند الطبقات الدنيا فالاريوباغوس يكبح الاولين، ومجلس الشيوخ اداة استئصال الثاني.

الى اجحاف بحقوق طائفة من الدائنين الاّ انه كان علاجاً خطراً فعّالاً انهى الأجحاف العام الذي أزم الوضع في المدينة. وسمعة صولون الشخصيّة وقيمته ترتفع كثيراً عما وصم به من سوء التغيير وانتقص من شأن مبادىء الحكم التي وضعها، فقد كانت نسيج وحدها، لم تحذ فيها حذو احدٍ وأكملها وحده دون معاونة آخرين وبمجهوده الفردي فحسب، على أن آخر حياة پوبليكولا كانت أسعد وأحلى من نهاية حياة صولون، فقد شهد هذا الأخير بام عينه انهيار جمهوريته. اما پوبليكولا فقد خلف دولته بحالة جيدة ونظام تام وبقيت كذلك حتى الحروب الأهلية. وترك صولون قوانينه بعد ان سنها وحفرها على الخشب وغادر آثينا ولم يخلف حماة لها في حين ظلّ پوبليكولا يجاهد في تثبيت اقدام نظام حكمه، سواء وجد في الحكم أم كان خارجه. ومع علم صولون بنوايا [پسستراتوس] واطماعه الاّ انه لم يحرك ساكناً لوقفه بل ظلّ مكتوف اليدين امام عملية الغضب وهي ماتزال تحبو على أربع في حين قوّض پوبليكولا صرح الملكية وسحقها وهي في عنفوانها ثابتة البنيان راسخة الجذور لطول العهد بها فكانت ميزاته مساوية لميزات صولون، اللهم الا حسن الحظّ (فقد حالفه وحده دون صولون). وحرية ممارسة السلطان وكلاهما عاملان كفيلان بتحقيق تلك الأهداف(٥).

وفي الشؤون العسكرية نرى أن [دياماخوس Diamachus] البلاتي Plataea، لايقرّ لصولون حتى بادارة دفة الحرب ضد الميغاريين كما اسلفنا. في حين ان پوبليكولا خرج منصوراً في معظم الحروب التي خاضها جندياً بسيطاً أو قائداً، اما في السياسة الداخلية فنجد ان صولون لم يتمكن من حمل مواطنيه على مواصلة الحرب لاستعادة سلاميس الاّ بالخداع وانتقال الجنون. اما پوبليكولا فقد عرض نفسه من البداية الى أعظم الأخطار. فأشهر السلاح ضدّ [تاركوين]، وكشف المؤامرة وفضحها وكان العامل الرئيس في القبض على المتآمرين والاقتصاص منهم. ولم يكتف بنفي المستبدين من المدينة بل قضى قضاً مبرماً على آمالهم في العودة. وكان مسلكة يتسم بالجراءة وقوة العزيمة في الأحوال التي تستدعي التحدي والمقاومة والمعارضة، وهو أجدر بالثناء في المواضيع التي تستدعي استخدام الكلام ولغة السلام وحيث يكون التطامن والتنازل واجباً. لقد نجح في كسب صداقة [پورسنا] وهو عدوّ رهيب لا قبل له بمقارعته. وقد يحتج بعضهم بان صولون استعاد سلاميس المفقودة في حين تنازل پوبليكولا عما غنمه الرومان من اراضٍ. لكن عامل الزمن يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار عند الحكم على الأحداث والوقائع، وسلوك السياسي الحكيم يجب قطعاً ان يتأثر بالوضع الراهن كثيراً ما

(٥) يقول (سترابو) انه أرسل في سفارة الى أمير من أمراء الهند يدعى الليتروخادس Allitrochades. وانه كتب تاريخاً للبلاد التي زارها، لا يصح الاعتماد عليه كثيراً.

يجب التنازل عن جزءٍ لئلا يفقد الكلّ، والسماح بالقليل لضمان الكثير. وبهذه الطريقة انقذ پوبليكولا املاك الرومان الخاصّة، باعادة ما غصبوه وكسب مؤناً من العدو لأولئك الذين كانت امنيتهم الكبرى الا بقاء على مدينتهم فحسب. وبايداعه الحكم في النزاع لخصمه نال النصر، فضلاً عن نيله ما كان هو نفسه ينزل عنه بطيب خاطر ليفوز بالنصر، الا وهو قيام پورسنا بانهاء الحالة الحرب وتركه الارزاق لهم. متأثراً بالسجايا الرومانية التي وجدها في قنصلتهم.

تيميستوكلس

THEMISTOCLES

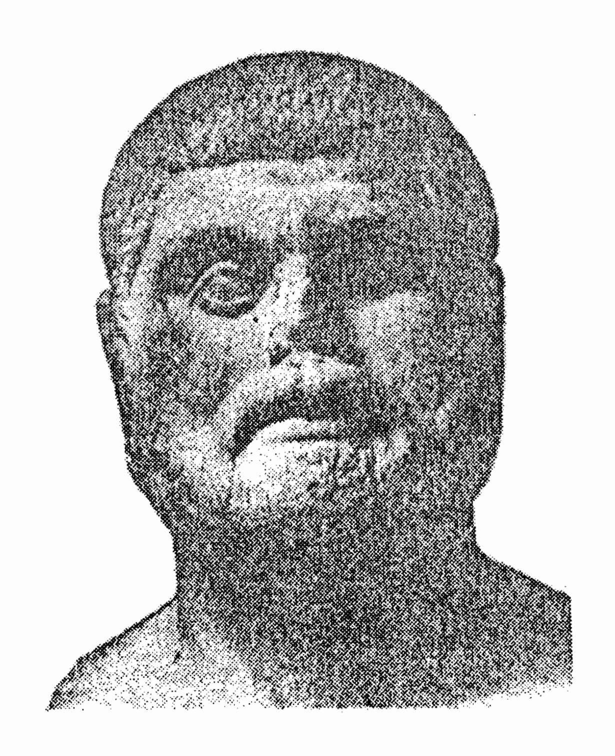
525-460 ق.م

اهم احداث عهده (ق.م)

٤٨٠ انتصار على احشويرش (ارتحششتا) في معركة سلاميس البحرية بعد عشرة اسابيع من مقتل ليونيداس في ثرموپيلي.

٤٧٩ هزيمة الفرس قيادة ماردونيوس في پلاتيا على يد پاوسنياس.

٤٧١ نفي تموستوكلي بقرار ابعاد ووصوله الى بلاط احشويرش.



تميستوكلس — متحف أوستا

كانت الملابسات التي صحبت ميلاد تمستوكليس أشد غموضاً وخمولاً من أن تشرفه(١).
فأبوه [نيوكلس Neocles] لم يكن من الآثينيين المبرزين، بل من سكنة مدينة [فرياري Phrearhi] (٢) ومن عشيرة ليونتس واما عن امّه فلقد قيل أنها وضيعة الأصل:

«أنا لست من معشر الأغريق النبلاء. أنا [آبروتونون Abrotonon] المسكينة المولودة في تراقيا. فلتحبني النساء الأغريقيات ما شاء لهن الهوى. فأنا أم تمستوكليس!» (٣)

على أن [فانياس] يذكر ان أم تمستوكليس ليست من تراقيا، بل من [كاريا Caria] وان اسمها [يوتيرپه Euterpe] لا [ابروتونون]، ويزيد [نياثس Neathes] على ذلك انها من مدينة [هليكارناسوس] في [كاريا]. ولما كان الابناء غير الشرعيين(٤)، وبضمنهم المولدّن، ومن كان أحد والديه غير آثيني، يترددون على [الكينوسارغس Cynosarges](٥) (وهو نادٍ للمصارعة خارج سور المدينة مكرس لهرقل - وهرقل هو كما لا يخفى من الأرباب المولدين لأن امّه من البشر)، فقد أقنع تمستوكليس عدداً من الشباب ابناء الوجهاء بغشيان ذلك النادي معه ليدلكوا اجسامهم بالزيت ويمارسوا الرياضة هناك. وكانت بدعةً اريبة تهدف الى ازالة التفرقة بين النبلاء والدهماء، ومحو التمايز بين الآثينيين الخلّص وبين المولّدين. على اية حال فهو لاشكّ يمت بصلة قربى الى البيت اللقوديمي(٦)، لأن [سيموندس] يذكر خبر بنائه هيكل

(١) ينمّ النص عن وجود مقدمة لهذه السيرة مفقودة.

(٢) هذا الحيّ من المدينة، سمي بهذا لوقوعه على الساحل قرب پيريوس حيث يوجد بئر بالقرب منه موضع يُحضر اليه كل محكوم بالنفي لجريمة قتل ارتكبها - عندما يتهم بجريمة أخرى [پاوسنياس ١:٢٨].

(٣) اثينوس ٨ ص ٥٧٦.

(٤) في آثينا قانون يقضي بان كل طفل من امّ أجنبية هو ابن سفاح وان كان ثمرة زواج شرعي. ولذا فهو لا يرث اباه. كما كان أحياناً يستثنى من العطاءات التي توزعها الدولة على مواطنيها [انظر سيرة پيركلس].

(٥) عن [پاوسنياس ١:١٩] في هذا الموضع كرست مذابح لكل من هرقل وزوجه هيبا Heba وامه ألكمينا، ورفيقه الذي يلازمه ايولاوس. وقد شرح (سويداس) أصل الكلمة. والغرض من الفصل الذي ذكره النص هو بلا شك للمحافظة على حسن السلوك ونقاء لغة الشاب.

(٦) Lycomedae من Lycus ابن پانديون. وهي أسرة أثينية قال پارسنياس عنها أن أعضاءها هم سدنة =

[فليا Phlya] الذي يعود الى تلك الأسرة وتزيينه بالتماثيل والصور وغير ذلك من الزخارف بعد أن أحرقه الفرس.

واجمع المؤرخون انه كان منذ فتوته مندفعاً متهوراً سريع الخاطر، ذا ميل شديدٍ الى خوارق الأعمال، وضروب النشاط مع وضاعه اصله، ولم يكن يقضي أوقات فراغه وعطله الدراسية في اللهوّ والتبطل كغيره من الفتيان، بل يعكف على كتابة خطبة أو نظم القريض لنفسه، في مواضيع لا تخرج عن نقد زملائه وفي الإعتذار والترسلّ، وما انفكّ استاذه يقول له «انك يا ولدي لن تكون شيئاً صغيراً، بل شخصاً عظيماً، ولست ارى لك خلاصاً من هذا، أعظيم شرٍ كنت أم عظيم خير». وكان يضيق بالوصايا التي تبذل له بخصوص تحسين سلوكه وأخلاقه ولا يكترث بها، كما كان يستثقل تعلّم كلّ ما يمت الى الموسيقى وسائر الفنون التثقيفية الأخرى، ويصغى بكلّ جوارحه الى كل الدروس التي تلقى عليه في السياسة والحكم وادارة الشؤون العامة، وهو اهتمام يثير الاستغراب ممن كان في مثل سنّه، ولاشكّ انه متأت من قابلياته الطبيعية لمثل هذه الأمور. ولما كان فيما بعد يجد نفسه في صحبة أناس جمعهم الانس والطرب وسائر ما يدعى باللهو الحرّ - ويوجد اليه النقد أولئك الذين يعتبرون أنفسهم في أعلى درجات التهذيب، كان مضطراً الى الردّ عليهم بصلافة: انه بالتأكيد لا يستطيع ان يستخدم ايّاً من الآلات الموسيقية الوترية، لكن اذا وضعت في يديه بلدة صغيرة خاملة الشأن، فبإمكانه أن يجعلها مدينة عظيمة شهيرة. ويقول ستيسمبروتوس Stesimbrotus(٧) من جهة أخرى. أن [ثموستوكليس] كان أحد المختلفين الى دروس (اناكساغوراس) وانه درس فلسفة الطبيعة على يد [ميليسوس Melissus] خلافاً لما ورد في التواريخ(٨). كان [ميليسوس] يقود الساميانيين Samian في حصار [پيركليس]، وپيريكاس أصغر سنّاً من تمستوكليس بكثير. وكان [اناكساغوراس] على صلة وثيقة [بپيريكاس] أيضاً، وبذلك يدعم هؤلاء قول

= معبد كيرسه Cerse ومتولى امور قرابينه في هذا المعبد الذي اعاد (ثيفس) بناءه تمارس طقوس التكريس وما اليها من الأسرار وقد انيطت حراسته بقبيلة چكروپيس.

(٧) من ثاسوس. شاعر غنائي وسوفسطائي مشهور في آثينا. عاش في ايام كيمون وپيركلس.

(٨) كانت ولادة [أنكساغوراس في السنة الأولى من الألمپياد السبعين (حوالي ٤٣٢-٤٦٠ ق.م) وهو في [كلازوميني] في ايونيا الآسيوية. من مفكري اليونان المشهورين كان عظيم النفوذ في آثينا عندما نُفي تمستوكليس. ربح تمستوكليس معركة (سلاميس) في السنة الأولى من الاولمپياد الخامس والسبعين ودافع [ميليسوس] عن [ساموس] قبالة پيركلس في السنة الرابعة من الالمپياد الرابع والثمانين. لذلك لم يكن ممكناً أن يتلمذ تمستوكليس على انكساغوراس الذي كان له من العمر عسرون سنة فحسب عندما انتصر هذا القائد في معركة سلاميس. كما انه لم يتتلمذ على ميليسيوس الساموسي الفيلسوف الطبيعي الشهير تلميذ پارمينيدس، اذ لم يعل قدره ويرتفع صيته الاّ بعد مرور ٣٥ سنة عن المعركة. ويذكر ان حصار ساموس حصل في العام ٤٤٠ ق.م.

القائلين ان تمستوكليس كان أحد المعجبين بـ[منيسيفيلوس Mnesiphilus] الفرياري الذي لايعد من الفصحاء ولا من من الفلاسفة الطبيعيين بل معلماً لما كان يدعى آنذاك - بالحكمة[٩]، وهو علم يتضمن شيئاً من الحكمة العمليّة. والحنكة السياسية ونشأ وتكامل من وقت صولون[١٠] كمذهب فلسفيّ. إلاّ ان المتأخرين الذين، خلطوا به صناعة المحاماة وعلوم القضاء وحوّلوا الجانب العملي منه الى مجرد فن للحديث وصياغة للعبارات، أطلق عليهم عموماً اسم السفسطائيين Saphist[١١]. ولصق تمستوكليس بـ(منيسيفيلوس) بعد دخول الأخير حلبة السياسة.

لم يكن تمستوكليس في مبدأ شبابه متزناً هاديء الطبع منتظم التصرفات، فقد أطلق لنفسه العنان وارسلها على سجيتها دون رادع من عقل أو إعارة اذن لنصحٍ[١٢]. فكان والحالة هذه عرضةً لشتىّ انواع المزالق، والتردي في اخطارٍ، وكان كثيراً ما يخلع العذار تماماً وينحدر بسلوكه الى أسفل دركٍ ويتخذ شرّ السبل وقد اقرّ هو نفسه بذلك اذ قال: «إن أكثر الأمهار جموحاً وشراسةً قد يغدو أجود حصان ان درب التدريب الصحيح وكسرت شكيمته». على ان الذين نبوا على هذه الوقائع قصصاً من نسبح مخياراتهم كقولهم ان اباه انكر نسبته اليه وان امّه ماتت حزناً لسوء سمعة ابنها، لاشكّ يفترون عليه ويكذبون. وهناك فريق يخالف مزاعمهم هذه ويقولون أن أباه صحبه لمشاهدة السفن القديمة وهي جانحة الى الساحل المحطمة متروكة. ليروعه عن ممارسة الشؤون العامة، وليوضح له كيف يكون مسلك الجماهير والدهماء ازاء قادتهم وزعمائهم، عندما لايبقى نفع فيهم.

---

(٩) في الواقع أن الحكماء الأولين كانوا في الوقت عينه من كبار الساسة. وهم الذين يمدون الحكومات بالانظمة والقوانين ويضعون المبادئ، وكان طاليس أول من تدرج في هذا السلم ليبرز عالماً طبيعياً.

(١٠) خلال فترة مائة عام أو مائة وعشرين تقريباً.

(١١) الصوفيست هم في الواقع بُلغاء أكثر منهم فلاسفة. برعوا في صياغة الكلام وتنميته بزخرف البيان. وهم سطحيون فكرياً كما يخبرنا [ديوغينس ليئريتوس]. وأول من سُمي بهذا هو (پروتاغوراس) الذي عاش في حدود الالمپياد الرابع والثمانين قبل ميلاد افلاطون بقليل. إلاّ ان سقراط الذي كان أكثر تعمقاً في مبادئ الأخلاق من السياسة والطبيعة والبلاغة والذي كان يهدف الى تحسين اوضاع العالم عملياً لا نظرياً، فقد أتخذ لنفسه لقباً أو صفة متواضعة وهو الفيلسوف Phelasophos اي محبّ الحكمة. ونبذ صفة صوفس Sophos اي الحكيم.

(١٢) يقول [ايدرمينوس] في صبيحة يوم شدّ تمستوكليس اربعاً من الغانيات الآثينيات الى عربة، وحملهن على سحب عربته هذه عبر السيرانيكوس على ملأ من الناس جميعاً في الوقت الذي كان الآثينيون يجهلون معنى الفجور والانغماس في اللهو والخمر والنساء. لكن ان كان مثل هذه الأمور مجهولاً حقاً عند أهالي آثينا فكيف تسنى لتمستوكليس أن يجد اربع عاهرات بمثل هذه الدرجة من الاستهتار والتبذل بحيث يقبلن بعرض انفسهم على هذا الشكل الفاضح؟

ومن الجلي الثابت أن ذهنه كان مشغولاً بالأمور العامة، مهتماً بها من البداية. كما تملكت روحه عاطفة جائحة للبروز والشهرة واللهفة الى ارفع المناصب. ولذلك قبل بدون تردد أن يكون موضع كره أكبر زعماء المدينة وأوسعهم نفوذاً وسلطاناً ولاسيما [اريستيدس Aristides] ابن [ليسيماخوس Lysimachus] الذي كان منه على طرفي نقيض دوماً. ومع هذا يبدو ان عداءهما المتبادل نشأ عن حادثة صبيانة تافهة جداً. فكلاهما كان متعلقاً بـ[ستسلاوس -Stes ilaus] الكيوسي Ceos الجميل الصورة، كما ذكر ارسطون الفيلسوف، وعلى أثر ذلك اتخذا مواقف متعارضة. وتنافساً في ميدان السياسة. ولا يعتقد أن تباين حياتيهما وأخلاقهما أدّى الى زيادة التناقض وحدة الخلاف. لأن اريستيدس ذو مزاج هادىء وخلق نبيل، وهو في الشؤون العامة يعمل دوماً لمصلحة الدولة بأمانة وأخلاصٍ وإنكار ذات، دون ان يسعى وراء المجد والشهرة لشخصه. وكثيراً ما كان يضطر مكرهاً الى معارضة (تمستوكليس) والتدخل للحيلولة دون ازدياد نفوذه، وذاك يثير الجماهير ويدفعهم الى كل انواع المغامرات، مبتدعاً مشاريع جديدة على الدوام.

لقد قيل ان تمستوكليس كان يصبو الى المجد، ويتلهف الى القيام بعظائم الأمور حتى بدأ مشغول البال متحفظاً كثير الانفراد بنفسه عندما نشبت معركة [ماراثون] مع الفرس، مع انه كان حدثاً. فاذا جرى الحديث أمامه عن مآثر القائد اليوناني المحنك [ميلتيادس]، اب الى بيته وامضى الليل مسهَّداً واجتوى المغاني التي اعتاد الاختلاف اليها لقضاء الوقت والتسلية وان سئل عما به ردّ على السائلين بقوله: ان التذكارات الحربية التي غنمها ميليتاديس لا تدع له سبيلاً للنوم» وكان يعارض كل من يقول ان معركة [ماراثون](*) ستضع نهاية الحروب، ويرى انها البداية لحروب اشدّ هولاً(١٣). ولذلك ظلّ في تأهب واستعدادٍ دائم وابقى المدينة مستعدة استعداداً حسناً متكهناً بما سيحصل، ببعد نظرٍ ولمصلحة بلاد اليونان بأسرها.

تعوّد الآثينيون اقتسام مستخرجات مناجم الفضة في [لورنتيوم](١٤) فكان تمستوكليس الرجل الوحيد الذي تجرأ فأقترح على الشعب الكفّ عن توزيعها بل صرفها على بناء السفن لاستخدامها في الحرب مع الايجنتان Aeginetans(**)، أغنى اقوام بلاد اليونان، الذين

(*) في العام ٤٩٠ ق.م.

(١٣) كان واثقاً تمام الثقة بان [داريوس] سيدرك بالأخير بالاّ سبيل له الى الاغريق الاّ مهاجمتهم بحراً بقوة لايستطيعون معها ابداء اية مقاومة.

(١٤) جبل يقع شرق اتيكا بالقرب من رأس (سونيوم). هذه المناجم أستغلت تماماً ونضبت في ايام پاوسنياس.

(**) ٤٨٤–٤٨٣ ق.م.

حققوا السيادة التامة على البحر بالسفن الكثيرة التي يمتلكونها. وسهل على تمستوكليس اقناعهم بذلك مجتنباً اي ذكر للخطر الآتي من [داريوس] والفرس الذين تفصلهم عن اليونان مسافة شاسعة ولم يكن زحفهم مؤكداً. لذلك ما كانوا يعتبرون حينذاك مصدر خطرٍ كبير. لكنه استخدم الكره الشديد الذي يحمله الآثينيون للايجنيتين استخداماً بارعاً، وحملهم على التأهب. وبنى بالمال المجتمع لهم مائة سفينة[١٥] وهي التي حاربوا بها [احشويرش: Xerx-es] فيما بعد. وأخذ يحوّل اهتمام المدينة منذ ذلك اليوم الى البحر بالتدريج اذ كان من رأيه أن بني قومه في البرّ ليسوا انداداً لجيرانهم، وان في امكانهم دحر الفرس بسفنهم وتزعم المدن اليونانية وبهذا «قلب الآثينيين من جنود محترفين الى بحارة وملاّحين يجوبون البحار» على حّد قول افلاطون[١٦]. وانتقد بأنه نزع الرمح والترس من أيدي الآثينيين وربطهم على لوح التجذيف. ويقول [ستسيمبروتوس] انه نجح في حمل المجلس على المصادقة رغم معرضة [ميليتاديس]. اما وانه جرح طهارة الحكم بهذا العمل واخلّ بتوازنه الصحيح، فهو مما لايقره الفلاسفة. لأن خلاص اليونان تحقق عن طريق البحر وان هذه السفائن هي صاحبة الفضل في اعادة تعمير المدينة بعد ان دمرت ولم تكن حالها حال المدن الأخرى المنكوبة. و[احشويرش] نفسه شاهد على ذلك، فمع ان قواته البريّة لم ينلها ضررٌ بعد هزيمته في البحر، فقد اضطر الى النكوص على اعقابه بعد أن أيقن بالاً قبل له بمقارعة اليونان. وارى انه لم يخلّف وراءه [مارادنويوس Maradonius] لأملٍ خالجه في امكان قهرهم، بل ليحول دون مطاردتهم له.

وأثر بعضهم عن تمستوكليس حبه المال والغنى[١٧]. ويعزو بعضهم ذلك الى رغبة في الاكثار من جوده وسخائه، فقد كان يحبّ التقريب الى الآلهة بكثرة. وينفق ويسرف في اكرام الغرباء، ولذلك كان دوماً بحاجة الى المال. على أن بعضهم اتهمه بالشحّ والخسّة، وقالوا انه لايتردد في بيع كل ما يهدى اليه من زادٍ ومؤن. ومرة طلب من [ديفليليدس Diphilide] مربي الخيول أن يعطيه مهراً، فرفض ذلك فهدده [تمستوكليس] بأنه لن يمرّ وقت طويل إلاّ وسيجعل من منزله حصاناً خشبيّاً. يقصد أنه سيعمل على اثارة نزاع وخصومة بينه وبين أقاربه. وفاق الجميع في اطّلابه المجد والشهرة. ولما كان فتى يافعاً لا يعرفه الناس دعا الى داره (ايسكليس Episcles) الهرميوني الضارب الشهير الحاذق، الذي كان الاثينيون يتنافسون على دعوته - ليعزف له على العود، وغرضه من ذلك ان يجلب انتباه الناس اليه

(١٥) العام ٤٨٠ ق.م.
(١٦) القوانين ٤: ص ٧٠٦.
(١٧) هيرودوتس ٨:١١٢، يصوره انساناً جشعاً لايشبع نهمه الى المال ولعل جمعه الثروة كان يقصد منها تحقيق اطماعه بشراء الاعداد الكبيرة من الانصار، أو ربما ارضاء لنزعة البذخ والاسراف فيه.

وليسألوا عن بيته ويخشوا مجلسه. وعندما حضر الالعاب الاولمپية بمتاعه الفخم ومآدبه الباذخة وخيامه واثاثه النفيس محاولاً الظهور بها على [كيمون] آثار عليه غضب اليونانيين الذين كانوا يرون ان هذا البذخ والفخفخة لا يجدران بشاب يافع غير مشهور لاينتسُب الى بيت عريق وليس لديه من الاسباب التي تؤهله لهذا المظهر. وفي مسابقة تمثيل فازت التمثيلية التي انفق عليها بالجائزة[١٨]، وكان مثل هذه المسابقات يثير وقتذاك كثيراً من الاهتمام والتنافس. ولذلك عمل تمستوكليس لوحاً ونقش عليه العبارة التالية «تمستوكليس الفرياري أشرف عليها Choregus وفرينيخوس Phrynichus[١٩] الّفاها. وأديمانتس كان ارخوناً عند اخراجها». وكانت العامة تحبّه كثيراً، فقد اعتاد تحية المواطنين باسمائهم، واظهار نفسه بمظهر الحكم العادل في مشاكل الناس. قال مرة (لسيمونيدس][٢٠] الشاعر الكيوسي الذي طلب منه أمراً غير معقول عندما كان قائداً للجيش[٢١]: «لن تكون ياسيمونيدس شاعراً مفلقاً إن كتبت شعرك باوزان مضطربة. ولن أكون حاكماً صالحاً إن صدرت قراراً غير عادلٍ ارضاءً لأحدهم» وفي مناسبة أخرى قال يسخر بسينونيدس: «انه رجل أقل تعقلاً من ان يتكلم ضدّ الكورنثيين سكان المدينة العظيمة. وأقل حصافة من أن ترسم له صور كثيرة ووجهه بهذا القبح».

وارتقى سلم الشهرة درجة درجةً وكسب محبة الناس. ومالبث ان تغلبّ حزبه على حزب [اريستيديس] ومنفاه دون محاكمة[٢٢].

---

(١٨) في زمانه بلغت التراجيديا اليونانية الغاية في النضج. وتعلّق بها الآثينيون تعلقاً شديداً حتى ان اهمّ ما كان يرضي الأهالي من حكامهم وعظمائهم هو ما يقدمه هؤلاء من عرضٍ لخير التراجيديات والاعداد لاخراجها مرسحياً بالزينات والزخرف. كما تخصص جوائز عامة للمجيدين المبرّزين.

(١٩) كان تلميذاً لـ(ثيسپس) مبتدع فن التراجيديا. وهو أوّل من أدخل العنصر النسائي الى التمثيليات. واهم ما قدمه «اكتيون، والكستس، دانائيده.» في حدود ٤٧٦ ق.م. وكان اسخيلوس معاصراً له.

(٢٠) أشاد [سيمونيدس] بمعركتي ماراثون وسلاميس في شعره. وقد نظم عدة قصائد ومرثيات وصلنا بعضها. كان صديقاً مقرباً ومحبوباً من (پاوسنياس) ملك سپارطه، و[هيرو] ملك صقلية. ولأفلاطون فيه رأي رفيع جداً حتى أنه خلع عليه لقب «الآلهي». أدركته الوفاة في السنة الأولى من الاولمپياد الثامن والسبعين وهو يبلغ من العمر تسعين عاماً تقريباً. ولهذا فلم يكن يتعدى الثمانين عندما وصف معركه سلاميس.

(٢١) ان عبارة «قائد جيش» الواردة في النص لا تنطبق على واقع تمستوكليس هنا وپلوتارخ يستخدم كلمة (زرادخوس) اي ارخون. في حين انه لا يمكن ان يكون كبيراً للاراخنة لأن صغر سنّه لاتؤهله لإشغال هذا المنصب ذي المسؤولية. ويظهر من توكيديدس (٩٣:١) وهيرودوتس [١٤٣:٧] أنه لم يبلغ هذا المنصب الرفيع الاّ بعد عدة سنوات.

(٢٢) ٤٨٢–٤٨٤ ق.م. لا يعلم من أستحدث عقوبة الإبعاد. يقول بعضهم انه (پسستراتوس) أو بالأحرى ابناؤه. ويقول آخرون أنها أوجدت بعد طرد اسرة بسستراتوس. في حين يدعى آخرون بانها قديمة تعود =

ثم زحف ملك الفرس على بلاد اليونان. واجتمع الآثينيون يتشاورون فيمن سينصب قائداً للجيش. وانسحب كثيرون من تلقاء أنفسهم وقد تهولّوا عظم المسؤولية. وكان ثم خطيب جماهيري يدعى ابيكيدس Epicydes ابن يوفيميدس Euphemides وهو رجل فصيح اللسان، خائر القلب عبد للغنى، رغب في تسلّم القيادة وبدأ حظّه جيداً في نيلها، بتفوقه في عدد الأصوات. وقيل ان تمستوكليس لخشيته ان تقع القيادة في مثل هذه اليد، ويضيع كل شيء – عمد الى شراء منافسه بالمال ودفع له مبلغاً لقاء تنازله.

ارسل ملك الفرس وفداً مع مترجم يوناني، الى الاغريق بطلب «الماء والتربة»[٢٣] اعترافاً منهم بسلطته عليهم وخضوعهم له. فقبض (تمستوكليس) على المترجم ونفذ فيه حكم الموت بموافقة الشعب. لأنه اذاع أوامر البرابرة ومراسيمهم باللغة اليونانية. فنال عمله هذا كثيراً من الثناء. ولم يسكت عن ارثميوس Arthmius الزيّلي Zelea[٢٤] الذي جلب ذهباً من ملك الفرس ليشترى به ذمم الاغريق، فأسقط عنه حقوق المواطنة والغى جنسيته هو وأولاده ونسله من بعده. على أن أعظم ما عزز مكانته وقوى فيه، هو وضعه حداً نهائياً للحروب الداخلية في اليونان ونجاحه في تسوية خلافاتهم وإقناعهم بنبذ العداوات جانباً طوال حربهم مع الفرس. وكان [خليوس Chileus][٢٥] الأركاديّ عوناً له في ذلك على مل قيل.

بعد أن أخذ على نفسه قيادة القوات المحاربة الآثينية. راح يُغري أهل آثينا بترك المدينة

= الى زمن [ثيسفس] وبمقتضى هذه العقوبة يتم ابعاد الرجال الذين يقوى نفوذهم بحيث يصبح خطراً على المجتمع ويهدد سلامة النظام – الى خارج البلاد لمدة عشرة سنوات [ديودورس المرجع السالف ١١-٥٥ يحدد الابعاد بخمس سنين]. ويجب على المُبعد ان يترك حدود اثينا خلال عشرة ايام. والاسلوب المتبع في اصدار هذه العقوبة هو: يعطى كل مواطن كسرة من الفخار أو صدفة فيكتب عليها اسم الشخص الذي وضع ابعاده قيد الاقتراع. ثم تجمع القطع الفخارية بعد أن تكمل ستة آلاف (عدد المصوتين) ثم يبدأون بفرزها فمن ورد اسمه في اكبر عدد من القطع ينفى عن البلاد لمدة عشر سنوات. وكان الابعاد شائعاً في ارغوس وميليتوس وميغارا وغيرها والابعاد هو غير النفي لأن الأولى مؤقتة، ولأن المبعد يحدد له محل اقامة ولاتُصادر امواله. وتوقع العقوبة في لحظات تطغى عاطفة الحسد والغيرة والغيظ على النفوس. ولايلحق بصاحبها عار ولاتشوه سمعته ولاتسقط حقوق مواطنته.

(٢٣) هذا يعني طلب الخضوع والاستسلام المطلقين. إلاّ ان هيرودوتس [٧:٣٢] يؤكد بأن كيخسرو لم يرسل مثل هذا الوفد لا الى الآثينيين ولا الى اللقيديميين. لقد عومل سفراء ابيه معاملة في منتهى الفظاظة عندما تقدموا بهذا الطلب، ذا القاهم الآثينييون في الخندق حيث أعتادوا القاء مجرميهم المحكوم عليهم بالموت قائلين بشماتة «هنا تجدون ما يكفيكم من الماء والتربة».

(٢٤) [زيلة] هي بلدة في آسيا الصغرى تقع بين كبدوكيا والبحر الأسود. الاّ ان ارغيوس عاش زمناً طويلاً في أثينا. ولم يعلن عن «رداعته» لأنه «أدخل الذهب الفارسي» وحاول افساد ذمم عدد من كبار الآثينيين به وتم نفيه بنفير البوق. ينوه [ديموستينس] به أيضاً في [الفيليبيات ٤].

(٢٥) وهو الذي مارس نفوذه عند اللقيديميين وأقنعهم بوجوب ارسال مساعدة للآثينيين ضد [ماردونيوس] فاستجابوا له.

حالاً والابحار بسفنهم ومفاجأة الفرس بالحرب وهم بعدُ على مسافة بعيدة من سواحل اليونان. فعارض فكرته كثيرون. فقاد قوة كبيرة مع اللقيديمونيين ومسكوا مَمّر تمپه Tempe للمحافظة على [تسالي] التي أبت الرضوخ لملك الفرس لكن لما عادت تلك القوات دون ان تحقق غرضاً وبات معلوماً ان التساليين فضلاً عن جميع البلاد الممتدة حتى [بويوتيا] قد دخلت طاعة [أحشويرش] بدأ الآثينيون يدركون قيمة نصيحة [تمستوكليس] وزادت اهميّة مدينتهم، ولذلك أقروا الحرب البحرية وبعثوا به على رأس الأسطول لحماية مضايق ارتميسيوم -Artemis sium(٢٦).

والتقت اساطيل الحلف هنا. ورغب كل الأغريق ان تكون القيادة العليا للقيديمونيين وان يكون زعيمهم [يوريبيادس Eurybiades] قـ داً عاماً لجميع القوات البحرية. إلاّ ان الآثينيين الذين كان عدد سفنهم يزيد على سفن كل حلفائهم(٢٧) أبوا أن يكونوا ثاني ايّ أوّل. حتى قام تمستوكليس مدفوعاً بادراكه أخطار هذا الخلاف، وتنازل عن القيادة الى [يوريبيادس] وحمل الآثينيين على القبول. وحفف وقع الأمر عليهم بقوله لهم: إن سلكوا في هذه الحرب مسلك الرجال فسيتحمل هو وحده كل المسؤولية الناجحة عن هذا التعيين. وسيجدون ايضاً ان الاغريق لن يترددوا في الخضوع الى قيادتهم طوعاً. واتضح ان تنازله هذا كان عاملاً أساسياً في خلاص بلاد الأغريق. وذيوع صيت الآثينيين في تفوقهم على أعدائهم بالشجاعة وعلى حلفائهم بالحكمة وبعد النظر.

وما ان وصلت العمارة البحرية الفارسية العظمى آفيتي Aphetae(٢٨)، حتى أصيب [يوريبيادس] بذهول للعدد الهائل من السفن الممتد أمامه. ولما أبلغ بأن مائتي سفينة أخرى تدلفّ خلف جزيرة سياثوس Sciathus، قرر ان ينسحب في الحال الى الشواطيء اليونانية، ومنها يبحر عائداً الى عدة مواقع في البيلوبونيس لينضم اسطوله الى الجيش البّري المعسكر هناك، فقد كان رأيه انه يستحيل التغلّب في البحر على القوات الفارسية المجتمعة. وخشي الأيوبويّن Euboeans ان يخذلهم الأغريق ويتركوهم تحت رحمة العدوّ. فأرسلوا [پلاغون

(٢٦) في الوقت ذاته فكرّ الاغريق في الدفاع عن شعب [ثرموپيلي] براً ووجهوا اسطولاً لمنع مرور الاسطول البارثي من مضايق (ايڤيا) فاجتمع الاسطول في ارتمسيوم وهي أحد مرافيء الجزيرة (هذه الواقعة يوردها [هيرودوتس بتفصيل ٧:١٧٣].

(٢٧) ينبئنا [هيرودوتس] بان الآثينيين ساهموا بـ١٢٧ سفينة عززت فيما بعد بـ٥٣ سفينة أخرى في حين كان مجموع ما ساهم له سائر الاغريق لا يتعدى [٩١] سفينة منها (٢٠) سفينة آثينية أصلاً كانت معارة للخلقيدونين [٨:١].

(٢٨) هذه البلدة تقع في خليج [مغنيزيا] وسميت كذلك لأن الارغنوط على قول [سترابو ٩٠] انطلقوا منها في سبيل بحثهم عن الجزة الصوف أو إستناداً الى قول هيرودوتس [٧:١٩٣] لأنهم اقلعوا منها تاركين هرقل.

Pelagon] للمداولة سراً مع [تمستوكليس] ومعه مبلغ كبير من المال، فقبله تمستوكليس منه وقدّمه هوية الى [يوربيبادس][٢٩] على حَدّ قول [هيرودوتس] ولم يعترض أحد من بني قومه[٣٠] الذي لم يكن عنده من المال ما يدفع به أجور بحارته، ولذلك كان شديد الرغبة في العودة. لكن تمستوكليس أثار عليه الاثينيين فهاجموه ولم يبقوا له ما يتعشّى به، فأدركه ألم شديد وامتعض، لكن [تمستوكليس] سارع بإرسال مقدار من الأرزاق اليه في صندوق ووضع في أسفله تالنتاً واحداً من الفضة. ورجاه أن يتعشّى الليلة، ويدفع غداً لبحارته. وإن لم يفعل فسوف يذيع بين الآثينيين، انه قبل رشوةً من العدو. هذا ما رواه [فانياس] اللسّبي.

ومع ان المعارك العديدة[٣١] التي نشبت بين الأغريق في مضايق [يوبويا] لم تكن معارك فاصلة يتقرر فيها مصير الحرب. إلاّ أن التجربة التي استخلصها الأغريق كانت ذات فائدة جليلة. فقد ثبت لديهم عملاً ، وفي مواجهة الخطر الحقيقي أن عدد السفن أو الغنى والأبهة والزينة وصيحات الفخر، واناشيد النصر البربرية ليس فيها مما يخيف الرجال الذين عجموا عود القتال وحلبوا أشطرَه، وسرعان ما أدركهم الاستخفاف بمثل هذه المظاهر وبرزوا الى الاعداء غير هيّابين وصارعوهم وقارعوهم وقد شهد [پندار] ما فعلوا في القتال عند ارتميسيوم ووصفه ادق وصف وأصدقه بقوله:

«... فهناك ثبّت أبناء آثينا، الحجر التي استقرت عليها الحرية منذ ذلك اليوم»

إن أوّل مرحلة الى النصر هو أن يتحلى المحارب بالشجاعة، وكانت ارتميسيوم تقع في [يوبويا] فيما يلي مدينة [هستيا Histiaea][٣٢] يليها ساحلٌ مفتوح نحو الشمال. وتقوم مقابلها على مسافة قصيرة [اوليزون Olizon] في بلاد يحكمها رسمياً [فيلوكتيتس -Phi

---

(٢٩) يرويه هيرودوتس بالشكل التالي [٨:٥] «لما لم يفلح الايفيان في اقناع [اڤريبيادس] بالبقاء في ساحلهم حتى يكلموا نقل زوجاتهم وأطفالهم. فانهم توجهوا الى تمستوكليس ودفعوا له ثلاثين تالنتاً. فرشا اڤريبيادس بخمسة منه. ثم لما كان [اديامنتس] الكورنثي القائد الوحيد الذي أصرّ على القاء المراسي، فقد صعد تمستوكليس الى سفينته وقال له باختصار «انك لن تتركنا يا اديامنتس، لأنك ستقبض مني لقاء قيامك بواجبك – ما يزيد على ما سيعطيك ملك الماديين لقاء خيانتك له». وبرّ تمستوكليس بوعده وارسل له ثلاثة تالنتات. وبهذا انجز ما اراده الايفيان وأستبقى لنفسه في الوقت عينه اثنين وعشرين تالنتاً.

(٣٠) السفينة المقدسة هي السفينة التي أعتاد الآثينيون ارسالها الى [ديلوس] محملة بقرابين الـ(ابوللو) وهي كما يدعون عين السفينة التي حمل بها [تيسيوس] الجزية الى [كريت]. [انظر سيرة تيسيوس].

(٣١) اشتبكوا في معارك ثلاث خلال ايام ثلاثة، في آخرها حقق [كلينياس] والد [الكيبياديس] الاعاجيب. وكان قد بنى سفينة حربية وجهزها بماءتي مقاتل من حُرّ ماله.

(٣٢) [استيئا] مدينة ساحلية في [ايفيا] و[أولنيرون] مدينة في تساليا. هنا يشير پلوتارخ الى قيام [فيلوقراطس] بارسال عدد من جنوده في حصار طوادة [هوميروس الالياذة ٢:٧١٧].

loctétes] وثم معبد صغير للآلهة ديانا يعرف باسم معبد الفجر يحفّ به الشجر وتكتنفه في سائر جهاته اعمدة من الرخام الأبيض إن فركتها بيدك تلونت بلون الزعفران وفاحت منها رائحة شبيهة برائحته. وقد نقش على أحدها الابيات التالية:

حارب ابناء اثينا في هذه المياه، عدداً لايدركه الحصر من
القبائل التي تدفقتّ من اصقاع آسيا. وبعد ان غلبوا هؤلاء
الميدين أقاموا لأرتميس هذا النصب شاهداً على ما عملوا.

وثم موضع مازالت العين تراه في ذلك الساحل. هو تلّ من الرمال كبير، يستخرج الناس من قلبه مسحوقاً أسود أشبه بالرماد، أو شيئاً أتت عليه النار، والمقول الشائع ان حطام السفن واجساد القتلى قد أحرقت هنا. لكن عندما وردت الأنباء من [ترموپيلي Thermopylae] الى ارتميسيوم[٣٣] تنعى لأهلها [ليونيداس Leonidas] الملك، وتقول ان [احشويوش] قد سيطر على كلّ المسالك البريّة، تراجعوا الى داخلية بلاد اليونان، وكان الآثينيون قد أوكل اليهم حراسة المؤخرة وحماية التقهقر وهو اشارة تكريم وواجب يحف به الخطر. وقد تاه الآثينيون وأختالوا زهوا لما تمّ على ايديهم نتيجة ذلك.

وعندما كان [تمستوكليس] يجوب البحر على طول الساحل، أخذ ينعم النظر في الامكنة والمواضع التي يحتمل ان ترُسى اليها سفن الاعداء. وعمد الى كل ما وجده فيها من صخور، وما نقله اليها من قطع رخام قريبة من مواضع الانزال المحتمل، أو على حافة الماء فنقش، نداءات ورسائل بخط كبير يناشد فيها الآيونيين أن يخلعوا نير الفرس ان كان باستطاعتهم ذلك وينضموا الى جانب الاغريق فهم اباؤهم واجدادهم وأصل نسبهم وهم اليوم يخاطرون بكلّ ما لديهم في سبيل حرياتهم. فإن تعذر عليهم ذلك فعليهم ان يعرقلوا زحف الفرس، ويوقعوا الاضطراب في خططهم ومعاركهم على الأقل. وكان أمله أن هذه النداءات ستدفع الآيونيين الى التمرد والثورة. أو اثارة المتاعب للفرس، عندما يساورهم الشكّ في أخلاص هؤلاء لهم.

ولم يبعث الأغريق بنجدات لما اجتاز [احشويرش] [دورس Dorus[٣٤]] وعزا بلاد [فيوكيس Pheocis] وراح ينهب مدنهم ثم يحرقها[٣٥]. وكان الآثينيون يودّون من صميم

---

(٣٣) كان على علم بأن [ثرموپيلي] هو شعب جبلي ضيق يقع بالقرب من [اڤريپوس]. في زمننا الحالي لا يرى اثر لهذا الخانق الجبلي نظراً لتراكم الرسوبيات. مما جعل الأرض المحيطة به مستوية.

(٣٤) مستوطنة في آسيا الصغرى. اصل أهلها من آتيكا.

(٣٥) يقصد نجدات من أخائيا والپلوپونيسوس. كان الدوريون قد انحازوا الى صفّ احشويرش الپارثي [هيرودوتس ٨: ٤٠].

قلوبهم أن تلتحم القوات الاغريقية بالفرس في [يوبوتيا] قبل أن يبلغوا اتيكا، مطبقين خطتهم البحرية التي اصرّ عليها تمستوكليس وهي التقدم بحراً حتى ارتميسيوم، الاّ ان الاغريق لم يستجيبوا لهم لأنهم ركزوا اهتمامهم كله بالپيلوپونيس، وتقرر تحشيد القوات كلها معاً في البرزخ، وبناء جدارٍ من البحر الى البحر في ذلك العنق الضيق من الأرض. واغتاظ الاثينيون وسخطوا حين وجدوا انفسهم مخدوعين بحلفائهم، على ما هم فيه من الوهن واليأس وارتخاء العزيمة بسبب الورطة التي كانوا فيها. فاشتباكهم وحدهم بحرب مع هذا الجيش الجرار دون معاونة الأغريق، ستكون عاقبته الهزيمة المؤكدة. والقوات الباقية كان مقرراً لها أن تترك المدينة وترابط في السفن، ولم يكن السكان كما أسلفنا راغبين في ترك مدينتهم، متصورين ان النصر بعيد المنال، وأنهم بعد تركهم معابدهم وتعريض قبور وانصاب اسلافهم الى عدوان الغزاة، لن يبقى لهم وسيلة أخرى للنجاة.

واسقط في يد تمستوكليس كما أسلفنا - وعجز عن تحبيذ الشعب رأيه(٣٦) وفشلت فيهم كل حجة عقلية أو منطقية، وهنا أطلق قابلياته الخلاّقة وراح يستخدم سلاح النبوءات والخوراق لغرض فكرته هذه فرضاً. فأولاً أختفى تنيّن [مينرڤا](٣٧) الذي كان محفوظاً في أعمق مكان من المعبد وقام كاهنه يذيع للناس بأن القرابين التي وضعت امامها لم تمسّ. وصرّح بايحاء من تمستوكليس أن الربّة تركت المدينة وسبقتهم في الهروب الى البحر، وأخذ يزيد من تذكيرهم بتلك بالنبوءة الأخيرة التي تحضهم على الركون الى الجدران الخشبية(٣٨)، موضحاً أن تلك الجدران المذكورة في النبوءة لايقصد بها غير السفن، وان جزيرة سلاميس لم تصفها النبوءة بالجزيرة البائسة الشقية بل بالصفات القدسيّة وما الى ذلك الاّ أنها ستكون في أحد الأيام

---

(٣٦) بالأخير نجح أعظم نجاح بحيث ان الجمهور الآثيني شرع يرجم كيرسيلوس Cyrsilus وهو خطيب كان شديد المعارضة له في الشؤون العامة. واما بخصوص إظهار الحبّ للوطن الأم، والتعلق بالنساء والاطفال المشردين، فقد أظهرن كرههن وخوفهن من فشل قضية الاغريق بسببهن فرحن يرجمن امرأة هذا الخطيب ايضاً.

(٣٧) استناداً الى هيرودوتس ٤١:٨] كان هذا التّنين حارساً للقلعة يعيش على التقدمات اليومية من اقراص العسل. وپلوتارخ على أكثر الاحتمال يعزو النبأ المذكور الى كاهنة [منيرڤا].

(٣٨) كانت هذه النبوءة الثانية التي تسلمها وفد الآثينيين من أرسطوتيكي عرّافة ابوللو. اما الأولى منهما فقد اتّسمت بالصرامة والشدة في الأمر بترك القلعة، وباعلان خراب المدينة الشامل. وكان تمستوكليس الموحي للكاهنة بهاتين النبوءتين دعماً للحظة التي نوى تطبيقها. وكان الرأي الارجح في تفسير عبارة «الاسوار الخشبية» التي تنصحهم النبوءة بالاحتماء بها انما تقصد بها القلعة لأنها محاطة بأطم خشبية. في حين فسرّها أخرون بأنها لا تعني غير السفن. وزعم تمستوكليس في مجال تفسيره الخاص. ان النبوءة لو قصدت ابادة الآثينيين لما وصفت اثينا بالمدينة «الخالدة» بل «التاعسة سلاميس». وان قولها «اولاد النساء» لا ينصرف الاّ الى الپارثيين الذين عرفوا بخنوثتهم الغاضحة [هيرودوتس ١٤٣:٧ و ٤٤١].

عاملاً غي أعظم الخير للأغريق. حتى نجح في مسعاه، واستحصل مرسوماً يقضي بأن تودع المدينة الى رعاية [مينرڤا][٣٩] ربة الآثينيين، وأن يمتطي متن البحر كل قادر على حمل السلاح بعد أن يعمل على ترحيل اولاده ونسائه وعبيده الى حيث يشاء. وبعد أن صودق على المرسوم باشر الآثينيون بنقل آبائهم ونسائهم وأولادهم الى [طروزين][٤٠] فاستقبلهم أهلها باكرام ومودّة، وصوتّوا على قرار يقضي ان تكون معيشة اللاجئين على حساب الخزينة العامة بأن يدفع [اوبولان] يومياً لكلّ شخص، مع السماح للاحداث بقطف الفاكهة من حيث شاؤوا، وان يدفع للعلمين أجور تعليمهم، وكان صاحب هذا الاقتراح [نيكاغوراس Nicagoras].

لم يكن في اثينا خزينة عمومية في ذلك الحين، الاّ ان المجلس الاريوباغى وزّع على كلّ مجند في الخدمة العسكرية ثمانية دراخمات على حدّ قول ارسطو وكانت هذه الخطوة عاملاً رئيساً في سَدّ حاجة الاسطول من الرجال ويعزو [قليديوس] هذه الخطوة الى عبقرية تمستوكليس. ولما كان الآثينيون في طريقهم الى ميناء پيريوس Pirieus، اكتشفوا أن الترس الذي يحمل رأس (ميدوسا) مفقود، وبحجّة البحث عنه عاث تمستوكليس سلباً في الانحاء المجاورة، وعثر بين ما وقع عليه، على مقادير كبيرة من النقود المخفية فصادرها لانفاقها على الحرب. وهكذا تمّ تجهيز الجنود والبحار تجهيزاً حسناً لرحلتهم.

كان منظر أهالي آثينا عند ركوبهم السفن مما يثير الرثاء والاعجاب في آن واحدٍ، فتراهم وهم يرحّلون آباءهم وأولادهم الى الجزيرة بهدوءٍ وجلد ولاتتحرك عواطفهم بالدموع والصراخ، وأشد ما كان يبعث على الألم ان النازحين اضطروا الى ترك عدد كبير من الناس الطاعنين في السن في السفن حيث هم. والحيوانات الأليفة نفسها لايتمالك المرء نفسه من الشفقة عليها حين يراها تهيم على وجهها سائبة في أزقة المدينة تنبح وتصيح كأنما تطالب بأسيادها واصحابها. ومما روي أن كسانتيپوس Xantheppus والد [پيركليس] كان يملك كلباً وفياً لم يتحمل البقاء وحيداً فقفز الى البحر وراح يسبح بمحاذاة السفينة التي أقلت سيده حتى بلغت جزيرة سلاميس فخرج من الماء وسقط ميتاً على الساحل من فرط الجهد، ويقال ان البقعة التي مازال ثم يطلق عليها «قبر الكلب» انما هي قبره.

من مآثر تمستوكليس العظيمة في هذه الأزمة، دعوة [اريستيديس] وهي مأثرة لاتقل شأناً عما سبقها. فقبل نشوب الحرب نفي هذا السياسي دون محاكمة بسعي الحزب الذي يتزعمه

(٣٩) نعتقد ان پلوتارخ وقع في تناقض. اذ كيف هذا في حين سبق له واخبر الآثينيين بان [منيرڤا] قد تخلّت عن المدينة؟!

(٤٠) قام آخرون بارسال ذويهم الى إجينا وسلاميس.

تمستوكليس وظلّ في دار الغربة، وقد تبين تمستوكليس بفكره الثاقب ان الشعب الآن آسفٌ لغيابه، وخشي من جهة أُخرى ان ينحاز للفرس ليثأر لنفسه ويلحق ضرراً بقضيّة اليونانيين فاقترح استصدار مرسوم يقضي بعودة المبعدين للمساهمة قولاً وفعلاً في قضية البلاد مع سائر المواطنين.

كان [يوريبيادس] بسبب بروز سپارطا على غيرها، قد نصب قائداً عاماً لكلّ الاساطيل الأغريقية، إلاّ انه كان قعيدهمة خائر عزيمة، كثير التردد في الساعات الحرجة. وكان من رأيه أن يرفع مراسيه ويبحر الى مضيق كورنث ليكون الاسطول قريباً من الموضع الذي عسكرت فيه الجيوش البرية. فعارض تمستوكليس في هذا. وتبودلت بهذه المناسبة تلك الأقوال التي أشتهرت وتناقلها الناس فيما بعد. قال [يوريبيادس] يريد أن يتخلص من لجاجة تمستوكليس: «الا تدري ان أولئك الذين يبدأون السباق قبل غيرهم يجلدون بالسياط»؟[٤١] فأجاب تمستوكليس «ومن يتخلف في السباق لايضفر له أكاليل الغار» فرفع [يوريبيادس] عصاه كأنما يهم بضربه. فقال له تمستوكليس «إضرب إن شئت، لكن اسمع» فعجب [يوريبيادس] لما أظهره من لين، وسمح له بالكلام، وبهذا تمكن تمستوكليس في الوصول الى أفضل التفاهم. وتوجه اليه أحد الواقفين قريباً منه، بقوله «لايجمل بمن ليس لديه مدينة أو منزل يخشى فقدانهما، إن يقنع الأخرين بالتنازل عن دورعم والنزوح عن بلادهم» فردّ عليه تمستوكليس قائلاً «حقاً اننا تركنا بيوتنا واسوارنا ايها العلج والوضيع، لأننا لم نر جديراً بنا أن نُستبعد لحرصنا على أشياء لا روح فيها ولا حياة، على أن مدينتنا هي أعظم مدن اليونان طراً، وقد جرّدت للحرب مائتي سفينة تقف الآن هنا للدفاع عنكم بعد أذنكم! فإن هربتم وغدرتم بنا كما فعلتم بنا مرةً في الماضي، فإن معشر الأغريق لن يلبثوا ان يسمعوا بنا استيلاء الآثينيين على بلاد جميلة ومدينة حرة كبيرة لاتقل بأية حال عن تلك التي فقدوها». هذا القول حمل يوريبياس على الشك في ان الآثينيين سيتركون خطّ القتال وينسحبون ان هو انسحب. وانبرئ أحد سكان اريتريا Eretria يحاجّ تمستوكليس فقال هذا له «الديك ما تتحدث به عن الحرب انت هي الشبيه بسمك الحبّار Cuttle الذي يملك غلاصم فارغه في موضع القلب.

وقيل، بينما كان تمستوكليس يقول هذا وهو منتصب في برج السفينة. شوهد بوم[٤٢] يطير

(٤١) لا بادرة تبدو من هذا القائد لتدل على افتقاره الى الشجاعة والبسالة بدليل ان اللقيديميين وهم أعدل الحكّام في تقديم ووزن اخلاق الرجال قدموا له غصن الشجاعة. كما انه عين قائداً لأسطولهم مرتين وان لم يكن يجري في عروقه دمٌ ملكيّ. هذه المحادثة عزاها [هيرودوتس ٨:٥٩] الى تمستوكليس واديامنتس قائد الكورنثيين؛ إلاّ أن نصّ پلوتارخ هو الراجح في ان اوريبيادس كان القائد العام.

(٤٢) طائر البوم مقدّس عند [منيرڤا] حامية مدينة آثنيا. وهو ينقش على كل الميداليات الآتيكية وقد شوهد =

عن يمين الاسطول، واقترب ثم حطّ فوق رأس الصاري. وهذا الفأل الحسن أقنع الاغريق بوجوب اتباعهم رأيه حتى أنهم تأهبوا حالاً للمعركة. ولكنهم نسوا نصيحة تمستوكليس بأسرع من لمح البصر عندما وصلت اساطيل العدوّ ميناء [فاليرم] على ساحل آتيكا. وغطت سفنهم الشواطيء وشاهدوا الملك يتقدم قواته البريّة الى الساحل بقضّها وقضيضها وعادت اعين البيلوبونيين تتطلع ثانية الى المضائق، وضاقت صدورهم بكلّ من لامهم على العودة الى ديارهم. واتفقت كلمتهم على الرحيل في تلك الليلة، وأعطيت للملاحين الجهة التي سيقصدونها.

وحزن تمستوكليس حزناً عظيماً لقرار الاغريق، وضياع فرصة الحرب في بحر ضيق الارجاء، ومداخل مائية قليلة السعّة، وآلمه أن يراهم ينسلون واحداً اثر الآخر كلّ الى مدينته. فأعمل التفكير واطال التأمل حتى اهتدى الى تلك الخطة التي قام بتنفيذها سيكينّاس Sicin-nas[٤٣] وكان هذا أسيراً فارسياً شديد التعلق بتمستوكليس، مربّياً لأولاده. يتوخى مصلحته ويعمل على خدمته. ولهذا يرغب ان يكون أول من يخبره بأن الآثينيين قد تأهبوا للفرار، ويشير عليه بأن يحول دون ذلك بالانقضاض عليهم اثناء الهرج والمرج، وهم بعيدون مسافةً عن جيشهم البريّ، وهذا ما يضمن له تدمير كل قواتهم البحرية فسرّ احشويرش بالرسالة سروراً عظيماً وصدّقها وعدّها صادرة من شخص لايريد له إلاّ الخير. وأصدر أوامر فورية لضباط سفنه بان ينطلق حالاً بمائتي سفينة ويحيط بكلّ الجزر ويضبط المداخل والمضايق حتى لايدع للأغريق سبيلاً للفرار. وبعد ذلك عليهم ان يحملوا مع باقي الأسطول على العدو، على رسلهم.

لم يعرف بتدبير تمستوكليس هذا أحد، الاّ ان ارستيدس ابن ليسيماخوس كان أول من حزره، فقصد خيمة عدوّه لا للتصافي وطرح الأحقاد، (لأنه نُفي بمساعيه) بل لينبئه بأن العدوّ قد طوقّهم. وكان تمستوكليس خبيراً بسماحة ارستيدس، ثم ان زيارته وقعت في نفسه موقعاً عظيماً في تلك اللحظة، فلم يكن منه إلاّ وصارحه بما فعله [سيكيناس] وطلب منه ان يستفيد من الثقة التامة التي يودعها فيه الأغريق، فيساعده على أغرائهم بالبقاء حيث هم ودخول المعركة مع العدو في المضائق. واستحسن ارستيدس الفكرة وذهب الى القادة الباقين وربانية السفن وحمسهم وشجعهم على النزال. على انهم لم يصغوا الى قوله حتى انفصلت

= في كل ما هو موجود فيها.

(٤٣) كان [اسخيلوس] موجوداً في هذه المعركة وقد تكلم عن [سيكيناس] اذ قال «واحدٌ من الاغريق من مرتبات الجيش الآثيني أخبر احشويرش الخ...» في الواقع ليس من المحتمل ان يوكل تمستوكليس أجنبياً أمر رعاية اولاده.

سفينة تينوسية Tenos[٤٤] بقيادة [پانيتيوس Panaetius] عن الفرس وجاءتهم وهم مازالوا في حيرة، فأبدت الانباء بأن كل المضايق والممرات البحرية مغلقة وعندئذ التهبت مشاعرهم وطارت أنفسهم شعاعاً فضلاً عن صيرورتهم امام الأمر الواقع، مما دفع الجميع الى احضان المعركة.

وما ان انبلج الصبح حتى صعد احشويرش موضعاً مرتفعاً ليستعرض اسطوله وينظم صفوفه. ويقول [فانوديموس Phanodemus] أنه جلس على نشزٍ فوق معبد هرقل حيث يفصل ساحل اتيكا عن الجزيرة قناة ضيقة الا أن ما دوّنه [آكستدوروس Acestodorus] يشير الى أن احشويرش اختار مجلسه في ضواحي ميغارا على التلول المسماة بالقرون. حيث جيء له بكرسي[٤٥] من ذهب وأحاط به امناء السرّ ليكتبوا كل ما يجري في القتال من احداث.

وفيما كان تمستوكليس يهّم بتقديم القرابين بالقرب من بارجة القائد، اذ جيء اليه بثلاثة من الأسرى جميلي الوجوه بثيابهم الفاخرة، الموشاة بالذهب وقيل انهم أولاد [احشويرش] وساندوكي Sandauce أخت احشويرش وما أن وقع نظر المتنبي [يوفرانتيدس Euphran-tides] عليهم حتى لاحظ ناراً تشب[٤٦] من التقدمات ويخرج منها لهب خارق وهو بشير بحادث سعيد، فأمسك بيد تمستوكليس وطلب منه تكريس الشبان الثلاثة للتضحية. وتقريبهم بالصلوات، الى «باخوس الناهش» لأجل النصر. وبذلك ينقذ الأغريق ويكتب لهم النصر. وانتاب تمستوكليس قلق شديد لهذه النبوءة العجيبة الرهيبة إلاّ أنّ العامة من الناس، الذين تراهم في اي ازمة عصيبة وكارثة عظيمة يتطلعون لخلاصهم الى وسائل غريبة، مسرفة، لا الى وسائل معقولة، ارتفعت اصواتهم بالدعاء [لباخوس] كافةً ودفعوا بالأسرى الى المذبح وفرضوا تقديم القربان مثلما أمر به الكاهن[٤٧]. هذا ما ذكره [فانياس اللّسبي] وهو فيلسوف واسع

---

(٤٤) جريدة صغيرة في البحر الإيجي وتعد ضمن المجموعة المسماة [كيكلادس] فاعترافاً بفضل هذه الجزيرة بالنسبة للحادث، نقش اسم سكنتها على مائدة ذات ثلاثة قوائم مكرسة لـ[دلفي] من بين اسمين آخرين أعتبرا قاهري احشويرش انظر هيرودوتس ٨٢:٨].

(٤٥) هذ الكرسي أو العرش – أهو من الذهب أو من الفضة أم منهما معاً، فقد وقع غنيمة بيد الأثينيين وحمل الى مدينتهم حيث كرّس في معبد منيرڤا مع سيف ماردونيوس الذهبي الذي غنم بعدئذ في معركة [پلاتيا] ولكن ديموستنيس (الكرسي يسميه الاقدام الفضية).

(٤٦) اللهب الساطع يعد دائما فالاً حسناً. أكان حقيقياً صادراً من المذبح أو وهمياً يخرج من رؤوس أناس أحياء! ويذكر ڤرجيل (الاينياد: ٦٨٢:٢) لهباً من هذا النوع ظهر حول رأس ايولوس. ويذكر (فلورس) انه شوهد فوق رأس [سرڤيوس تللوس]. ان العطاس الى جهة اليمين يعتبر كذلك من الفال الحسن عند سائر الاغريق واللاتين [انظر ارسطو في النفس ١١:١] وكذلك [هوميروس في الاوديسا ٥٤٥:٢٧] فهو يعتبر العطسة فالاً حسناً من اي جهة كانت.

(٤٧) وبعين الطريقة قدم كل من [خيوس] و[تيديدوس] و[لسبوس] قرابين بشرية الى باخوس الملقب =

الاطلاع في التاريخ.

وكان عدد سفن الاعداء حسبما اثبتها [اسخيلوس] الشاعر في مأساته المسماة «الفرس» بحسب اطلاعه الخاص:

«علمت ان احشويرش كان في المعركة يقود ألف سفينة. بينها مائتان وسبع بوارج سرعتها أكثر من السفن الاعتيادية. وهو ما استقرّ الرّأي عليه.»

وكان عدد سفن الآثينيين مائة وثمانين، في كل سفينة ثمانية عشر محارباً على سطحها، منهم أربعة رماة سهام والبقيّة مقاتلون.

وكما كان تمستوكليس قد أختار أصلح ميدان للقتال، فإنه والحق يقال لم يكن بأقل حكمة في أختياره ساعة الصفر للبدء. فلم يوجّه مقدّم سفنه نحو الفرس ولم يشرع في القتال حتى هبت ريح رخاء من البحر وجاءت معها بمدٍّ قوي الى البرزخ وكان ذلك في مصلحة سفن الأغريق لأنها منخفضة البدن تكاد حافاتها لاترتفع عن الماء إلاّ قليلاً ولقد ألحقت ضرراً بالغاً بالسفن الفارسية ذات الدفة والسطح العالي، فضلاً عن ثقلها، وبطء حركتها بحيث اصبحت فريسة سهلة لهجمات اليونان الخاطفة وكان الأغريق جميعاً يتابعون تحركات تمستوكليس، متخذين منه انموذجاً يحتذى، فضلاً ان أنه اتخذ موقعه مقابل سفينة القائد [آريامنيس Aria-menes] وهو رجل باسل شجاع تفوق سجاياه ومنزلته سائر اخوة احشويرش بكثير. شوهد هذا القائد يقذف بالرماح ويطلق السهام من بارجته الضخمة كأنما يطلقها من اسوار قلعة وكان كلّ من [امينياس Aminias] الدكيلي Decelean وسوسيكلس Sosicles البيديّ Pedian على ظهر سفينه واحدة، فعندما اختلط الحابل بالنابل والتقى جؤجؤ سفينة بدفة أخرى ووجهت الواحدة قيدومها النحاسي الى الأخرى فكبلتها فتلاحقتا حاول [آريامينس] الهبوط الى سفينتهما فهجما عليه بالرماح وقذفاه الى البحر فطفت جثته مع حطام السفن وعرفته ارتميسيا[٤٨] فحمل الى [أحشويرش].

= [بالناهش: Omodius] وهذه هي الواقعة الوحيدة التي دوّنت عن الآثينيين. ولم يذكرها هيرودوتس ويذكر (پاوسنياس) قصة تتعلق بتقريب مؤقت لقرابين بشرية في بويوتيا. وبخلافه فانّ باخوس مختصّ بمثل هذه القرابين فمن العادة في اليفا بـ(اركاديا) ان تجلد النسوء بالسياط فوق مذبحه.

(٤٨) أرتميسيا هي ملكة هاليكارناسوس. برزت في مقدمة القوات الپارثية وخاضت المعركة الى النهاية وكانت آخر من ترك ميدانها ، ولحظ الملك الپارثي ذلك فقال معقباً «سلك الرجال مسلك النساء، وسلكت النساء مسلك الرجال» أشتد حقد الآثينيين عليها كامرأة وكبطلة في عين الوقت وعرضوا مكافأة قدرها عشرة آلاف دراخمة لمن يقبض عليها حيّة، وهيرودوتس [٩٣:٨] يروي قصة نجاتها في آخر لحظة والخطة التي استخدمت من أجل ذلك. من الواجب ان لايخلط بينها وبين سميّتها امرأة [طاوسولس] ملك كاريا التي عاشت في عصرٍ لاحق.

وجاء في الأنباء لهباً عظيماً أرتفع في الفضاء فوق مدينة ايليوسيس Eleusis، ساعة احتدام القتال، وسمع منه ضجيج وأصوات في كلّ ارجاء سهل الثرياسيّين حتى بلغ البحر. وكان أشبه برجال يراسلون ويرافقون الصُوفيّ [إياخوّس Iacchus] وان ضباباً تجمع حيث تقوم الضجة أرتفع ثم زحف وسقط على السفن. وخيل للآخرين انهم شاهدوا أشباحاً على هيئة رجال بشكة سلاحهم وقد مدوا أيديهم مستنجدين من جزيرة (إيجينا) مقابل البوارج الأغريقية والمقول، انهم [الآياكسيدي Aeacidae][٤٩] الذين إستغاثوا وطلبوا العون قبل بدء المعركة.

واول من أستولى على سفينةٍ للعدوّ، هو [ليقوميدس Lycomedes] الآثيني قبطان أحد السفن. فقطع شعاراتها[٥٠] وكرّسها الى [ابوللو المكللّ بالغار]، وكان الفرس يقاتلون في لسانٍ بحريّ ضيق، بحيث تعذر عليهم تحشيد قطعهم البّحرية كلّها، وراحوا يتخبطوت ويقاتل بعضهم بعضاً، بهذا حقق الأغريق عامل التكافؤ في القوى، وقاتلوهم حتى اضطرهم الليل الى الكفّ عنهم، ونالوا نصراً عظيماً مؤزراً وصفه [سيمونيدس] بأنه نصر لا مُشبه له ولا قرين في كلّ ما عرف من الانتصارات البحرية المجيدة لا عند الاغريق ولا البرابرة. وكان بطبيعة الحال حصيلة البسالة والحماسة اللتين اجتمعتا في كلّ من خاض المعركة، مع حكمة تمستوكليس وعبقريته الفذة[٥١].

بعد هذه الموقعة البحرية حاول [احشويرش] بدافع الغيظ من فشله وأن يربط سيلاميس بالقارة بممربرى ثابت بالقاء اكرام من الصخور والحجارة حتى يجعل منها سداً، ثم يستخدم السدّ المتكون لنقل قواته البريّة الى جزيرة سلاميس. ثم يغلق المر تماماً بوجه الاغريق[٥٢].

ورغب تمستوكليس أن يستطلع رأي [اريستيدبس] فيما كان يفكر من خطّة، مقترحاً ان

---

(٤٩) ارسلت الى [ايجينا] سفينة لطلب المعونة من [اياكس] وذريته [هيرودوتس ٨:٦٤] واياكس هو ابن جوبتر من ايجينا أشتهر بعدالته حتى ان ادعيته حققت فوائد عظيمة للأغريق لاسيما في سنوات القحط التي اصابت البلاد [پاوسينياس ٢:٢٩] عين بعد وفاته واحداً من القضاة الثلاثة في العالم السفلي!

(٥٠) هي في العادة تماثيل وقطع من المنحوتات الخشبية تمثل اشكالاً شتى وتثبت في جؤجؤ السفينة لتمييزها عن غيرها أو لمحض الزينة.

(٥١) في هذه المعركة التي تعد من المعارك الكبرى في التاريخ القديم خسر الاغريق ٤٠ سفينة فيما بلغت خسارة الفرس ٢٠٠ خلافاً لأسر عدد أكثر من هذا بكثير.

(٥٢) يقول هيرودوتس (٨:٩٧) ان احشويرش اراد ان يوهم الأغريق بانه يعتزم تجربة الحظّ في معركة بحرية ثانية لئلا يقوم الاغريق بالاقلاع والاتجاه الى مضائق الهللسپونت وكسر الجسر العائم الذي بناه فوق السفن اثناء وجوده في (ساردیس) مستخدماً الصناع الفينيقيين والمصريين. فقد شدّوا السفن بعضها الى بعض بحبال وامراس. وكان عرض المضيق ميلاً واحداً تقريباً وقد ثارت عاصفة به فدمرت ما وفقوا الى مدّه قبل اكماله. واستبد الغيظ بالملك الفارسي. وحكاية أمره بجلد البحر بالسياط لسوء سلوكه معروفة. إلاّ أن المجهود في المحاولة الثانية لقي نجاحاً أكبر [المرجع نفسه ٧:٣٣-٣٦].

يقلع الاسطول [هلسپونت Hellespont] لكسر جسر السفن حتى «يتم حبس آسيا، وأسرها داخل اوروپا» لكن [ارستيديس][٥٣] كرهَ الخطة وقال له «الى الآن حاربنا عدواً لايهتمّ بشيء قدر اهتمامه بملذاته وترفه. فاذا حبسناه في بلاد اليونان وألجأناه الى عمل يائسٍ، فلا يعود الملك هادئاً ساكناً بقواته الجبارة وقد نشر فوق رأسه الشمسيّة المذهبة، يرقب القتال كما يرقب ملهاة. ان وجد نفسه محصوراً فسيحاول المستحيل، وسيشتد عزمه، ويظهر بشخصه في كل موقعة ومناسبة ولا يلبث أن يصححّ اخطاءه ويُظهر ما كان قد اخفاه قصوره وأهماله وسيكون أكثر حنكة في تقديره الأمور. لذلك لا يفيدنا في شيء يا تمستوكليس ان نحطمّ الجسر الذي بنيناه لا بل يجدر بنا أن نبني آخر إن امكننا - لكي نعجلّ في انسحابه».

فأجابه تمستوكليس قائلاً: «إن كانت هذه غايتنا فعلينا أن نستخدم حالاً كلّ حيلة ومواظبة وجهدٍ للتخلص منه بأسرع ما يمكن». ولأجل هذه الغاية وجد بين الأسرى خصياً من خصيان الملك الفارسي يدعى [ارناكسيس][٥٤] فبعث به الى سيده برسالة يقول فيها: بعد أن حقق الأغريق نصرهم البحريّ، قرروا الانتقال بأساطيلهم الى [هلسپونت] حيث السفن مشدودة بعضها الى بعض مثل جسرٍ ليتلفوها. ولما كانت مصلحته تهّم [تمستوكليس] فقد كشف له عن ذلك ليعجل في انسحابه الى البحار الآسيوية ووصوله الى مملكته، وانه في الوقت نفسه سيعمل على اعاقة وتأخير الأساطيل الحليفة عن اللحاق به. وما أن سمع احشويرش الرسالة حتى ارتعدت فرائصه[٥٥] وأسرع بالانسحاب من بلاد الأغريق فوراً. وقد افتضحت حيلة تمستوكليس واريستيديس فيما بعد وعرفت بتفاصيلها في معركة [پلاطيا Plataea]. حيث عرّض ماردومينوس Mardominus الأغريق لخطر خسارة كلّ شيء باستخدامه وحدة صغيرة من قوات احشويرش.

ويكتب [هيرودوتس] أن [ايجنيا] برزت بين سائر مدن اليونان الأخرى بانجازها أعظم خدمة في الحرب. بينما أقرّ كل الرجال على انفراد بفضل [تمستوكليس] وان كان ذلك ضد رغبتهم بسبب الحسد. وعندما عادوا الى مدخل الپيلوپونيسس وادلى عدد من القواد

---

(٥٣) هيرودوتس (١٠٨:٨) لم يكن [اريستيدس] المتكلم هنا: بل هو اوريبيادس القائد العام.

(٥٤) ذكر هيرودوتس (١١٥:١٣) سيكينيوس الذي كان قد أرسل من قبل في مهمة مماثلة.

(٥٥) بعد أن ترك احشويرش قائده (مردان) في اليونان بجيش قوامه ثلاثمائة ألف، انسحب بالباقي نحو تراقيا تمهيداً العبور البوسفور. ولم يكن قد امّن لجيشه ارزاقاً فعانى مشقة عظيمة في مسيرته التي استغرقت ٤٥ يوماً. ووجد أن الوضع لايسمح له لمواصلة السير بشكل مريح وعلى النحو الذي يرغب فيه تقدم جيشه بحاشية قليلة العدد. ووجد الجسر معطوباً بفعل عاصفةٍ فاستقل قارب صيد وعبر الى الجهة الثانية ومن المضايق واصل انسحابه حتى [سارديس].

باصواتهم على المذبح[٥٦]. لتقرير من هو أحق شخص بأعظم الإكرام، صوت كل واحدٍ منهم لنفسه في المقام الأول ثم صوتوا جميعاً لتمستوكليس في المقام الثاني وأخذه اللقيديمونيون معهم الى سپارطا وقدموا جائزة الشجاعة [ليوريبيادس] وجائزة الحكمة وحسن الادارة له وتوجوه باغصان الزيتون. وأهدوه أحسن مركبة في المدينة وأرفقوا ثلاث مائةِ شابٍ حتى حدود بلادهم اجلالاً له[٥٧]. وفي الالعاب الاولمپية التالية عندما دخل السباق شخصت انظار المتفرجين اليه ولم تعد تهتمّ بالمتسابقين وقضوا بقيّة اليوم يرمقونه باعجابٍ، ويعرّفون الأجانب الحاضرين بشخصه، ويختالون به عجباً ويعبرون عن تكريمهم له بالتصفيق وغيرها من تعابير الفرح حتى أقرّ هو نفسه لاصدقائه وقد امتلأ امتناناً بأنه يحصد الآن ثمرة كُلّ ما بذله من جهود في سبيل الأغريق.

وكان بطبعه يحبّ العظمة والتكريم حُباً جماً، وهذا يتضح من الحكايات التي أثرت عنه. فعندما اختاره الآثينيون قائداً للأسطول لم ينجز عملاً من الأعمال بصورة تامة أكان بشخصه أم بالدولة. وانما استمر في تأجيل البت فيها حتى يوم الإبحار، حتى يبدو بمظهر العظمة والسلطان وهو يصرف تلك الأمور المتراكمة العديدة دفعةً واحدة وما يستتبع ذلك من مقابلات مجموعة كبيرة من مختلف الناس، وعندما كان يستعرض جثث القتلى وهي تلقى في البحر، لاحظ عقوداً وأسورة من الذهب عليها. فمرّ بها غير آبه خلا أنه قال لصاحب له كان يتبعه: «خذ انت هذه الحلى، لأنك لست تمستوكليس». وقال لأنتيفاطس Antiphates، وهو شاب حسن الصورة كان يتحاشاه قبلاً، ثم راح يغازله بعد المجد الذي ناله: «لقد علمنا الزمان أيها الشاب درساً». وقال أن الآثينيين لم يمجدوه ولم يكرموه. وانما جعلوا منه في الواقع شجرة الدردار. يحتمون بها عندما يسوء الطقس، وما أن يغدو المناخ جميلاً حتى يقطفوا اوراقها ويقطعوا اغصانها. وعندما قال له ذلك السيريفي Seriphian[٥٨] انه لم ينل شهرته بفضله بل بعظمة مدينته، أجابه: «لقد اصبت القول. ما كنت لأنال الشهرة لو انحدرت من [سيريفوس]، ولا كنتَ تنالها لو جئتَ من آثينا».

ولمّا ظنّ واحد من القادة أنه حقق خدمات جليلة للآثينيين، مقارناً اعماله باعمال

(٥٦) مذبح [پنتيلون]. هذه المراسيم انما تقررت لتؤمن اصدارهم حكماً خالياً من التحيز لأعطائه بمحضر من الآلهة (هيرودوتس).

(٥٧) يقول هيرودوتس: انها المناسبة الوحيدة التي قدم اللقيديميون خلالها تكريماً مثل هذا لأي كائن ولـ(ديودورس ٢٧:١١) رأي آخر اذ يقول انهم ما اقدموا على ذلك إلاّ خوفاً من ان يحمل لهم ضغناً.

(٥٨) جزيرة صغيرة من مجموعة جزر كيكلادس. يهزء (جوفينال ١٠ المسوخ) بصغر حجمها ويصفها [تاكيتوس: الحوليات ٢١:٤] بانها صخرة يرسل اليها الرومان منفييهم في العادة.

تمستوكليس على سبيل التباهي، أجابه تمستوكليس «راح اليوم التالي للعيد» يعيب يوم العيد وينتقص منه قائلاً: ليس يوجد فيك الاّ العجلة والمتاعب والاستعدادات لكن عندما يحين يومي ترى كل انسان يجلس بهدوءٍ مستريحاً ويمتّع نفسه. فأقرّ العيد بصحّة ذلك قائلاً: لقد اصبت في هذا، لكن لو لم أكن سابقاً لك، لما جئت قط.» ثم استطرد يقول «وحتى لو كان الأمر كما تقول، فلولا تمستوكليس قد سبقك بمجيئه لما درى أحد أين ستكون الآن». وقال يمزح لتصرفات ابنه واستئثار باهتمام امه وتحكمه فيها وكيف انه استبد به عن طريق امه «...فالآثينيون يقودون اليونان، وأنا أقود الآثينيين وامكّ تقودني وانت تقود أمكّ» ولولوعه في أن يكون نسيج وحده في كل الأمور، كان يأمر المنادي عند بيع قطعة أرض تعود له - أن يضيف الى ندائه الملاحظة التالية «حول الارض جيران طيبون» وتنافس اثنان على يد ابنته، ففضل منهما الرجل ذا السمعة الحسنة، على الغنيّ، قائلاً انه يفضلّ رجلاً بلا مالٍ على مالٍ بلا رجل. وهذا هو أسلوب احاديثه(٥٩).

بعد النصر الذي اتينا الى وصفه بدأ يعيد بناء مدينة آثينا ويحصّنها ورشا الايغور اللقيديمونيين حتى لا يقفوا ضدّ هذا العمل، كما ذكر [ثيومپوپوس] إلاّ ان معظم الكتاب يقولون انه خدعهم واستبقهم في الأمر. اذ سافر الى سپارطا متعللاً بسفارة. وهناك اتهمه اللقيديمونيون باعادة بناء الأسوار القائلين أن [پوليارخوس Poliarchus] ما قدم من ايجينا الاّ لغرض الاحتجاج على ذلك، فانكر [تمستوكليس] وطلب منهم ان يبعثوا بوفد الى آثينا ليحققوا من صحة ذلك. وفي خلال تلك الفترة اكمل بناء الأسوار ووضع اعضاء الوفد في ايدي ابناء قومه كرهائن مقابل شخصه. ولما عرف اللقيديمونيون الحقيقة لم يتمكنوا من الحاق اي اذىً به. واضطروا الى اخفاء سخطهم وكل مظهر من مظاهر الحنق في وقتها واعادوه الى وطنه(٦٠).

وبعدها باشر في بناء ميناء [پيريوس] ادراكاً منه لموقعه الطبيعي الممتاز للغاية، ورغبة في ربط المدينة كلها بالبحر، وخالف السياسة التي جرى عليها الملوك الآثينيون الأقدمون الذين جاهدوا دوماً في ابعاد رعاياهم عن البحر وتعويدهم العيش على الزراعة وفلاحة الأرض لا على الملاحة وتطواف البحار، فنشروا حكاية عن وجود نزاعٍ بين [مينرڤا] و[نپتون] حول

(٥٩) ذكر شيشرون في [De Fiss ٢:٣٢] قولةً أخرى من أقواله تستحق التسجيل هنا. فعندما عرض عليه [سيموندنس] تعليمه فن تقوية الذاكرة ردّ عليه قائلاً «آه! ايجمل بك ان تعلمني فن النسيان لأني كثيراً ما تذكرت ما لايحسن ان اتذكره وتعذّر على نسيان ما يجب نسيانه».

(٦٠) تفاصيل هذه الحكاية أوردها [ثوكيديدس ١:٩٠] وعللّ ذلك بان اللقيديميين كانوا يخشون وقوع آثينا في يد العدو الپارثي خلال غزوة ثانية محتملة، وهي محصنة منيعة فتنقلب الى قلعة مفيدة في يد العدو.

السيادة على المدينة، وأن [مينرفا] ربحت القضية بإبرازها للمحكمين شجرة زيتون، إلاّ ان تمستوكليس لم يكتف بجمع الميناء في واحدة، بل جعل المدينة معتمدة اعتماداً مطلقاً على الميناء لا بل تابعة له هي والأراضي المجاورة للبحر الأمر الذي زاد من قوة الشعب وثقتهم بنفسهم ازاء النبلاء - وهذا ما ذكر - أرسطوفانس Aristophanes] واصبح النفوذ كلّه بيد البحارة والملاحين والصيادين[٦١]. ولذلك كان أحد أوامر الطغاة الثلاثين[٦٢] تحويل منصّات الاقتراع في الجمعية من اتجاهها الذي كان نحو البحر الى البرّ. مستندين في رأيهم هذا الى أن السيادة البحرية هي أساس الديمقراطية وان جماهير الفلاحين لاتعارض كثيراً في نظام الحكم الاوليغارشي.

على ان تمستوكليس كان يضمر تدابير أعلى وأخطر بخصوص التفوق البحري. فبعد رحيل احشويرش عن البلاد وعودة الأسطول اليوناني الى [باغاسي Pagasae] حيث قضى شتاءه. قال تمستوكليس من خطبة عامّة في أهل اثينا أن لديه فكرة في عمل شيء سيكون ذا نفع عظيم لهم وآثاراً كبيرة في سلامتهم ولكن لا يجمل التصريح به او اذاعته فأمره الآثينيون بأن يكشفه [لاريستيدس][٦٣] فقط فاذا وافق عليه باشره. وعندما ابلغه أن خطته هي احراق الاسطول الاغريقي في ميناء [باغاسي]، خرج اريستيدس الى الجمهور وأدلى برأيه في الحيلة التي تفتق عنها ذهن تمستوكليس. وقال في وصفها «لا يوجد اقتراح أخبث منه ولا أخزى»، وعند ذلك أمر الأثينيون تمستوكليس بالاّ يفكر فيها.

وأقترح اللقيديميّون في الجمعية العامة الامفكتيونية أن يطرد من المجلس ممثلو تلك المدن التي هي ليست اعضاء في العصبة، أو التي لم تحارب الفرس، فقام تمستوكليس يعارض هذا الاقتراح ويساند نواب تلك المدن خشية أن يؤدى اخراج التساليين وأهل [ثيبه] و[ارغوس] وغيرها، الى أن يغدو اللقيديميّون المسيطرين على الاصوات في المجلس. ونجح في اقناع الاعضاء المجتمعين بتغيير[٦٣] رأيهم في هذا الموضوع موضحاً لهم أن المدن التي ساهمت في الحرب لاتزيد عن واحدٍ وثلاثين وان معظمها في منتهى الصغر. وانه ليس من الممكن أو المعقول أن تستثنى مدن يونانية كثيرة وان يسيطر على المجلس العام مدينتان أو ثلاث مدن كبيرة. وبهذا أثار سخط اللقيديمونيين عليه، فمالوا الى [كيمون] ووجهوا كلّ رعايتهم

---

(٦١) «الفرسان» وقول ارسطوفان هذا هو هجاء في معرض المديح. انه يلوم تمستوكليس لأنه عمل على اشاعة التحلل الخلقي والتفسخ في المدينة وهو من مظاهر الموانيء.

(٦٢) كان قيام عهد الطغاء الثلاثين في آثينا ابتداء من ليساندر في العام ٤٠٤ ق.م.

(٦٣) بيلاگوري بالأصل. مأخوذة من اجتماعهم في ثرموبيلي. وسميت المضايق بهذا الاسم لقربها من الحمامات الحارة المجاورة ولأن فتحتها ضيقة مثل فتحة الباب.

وأكرامهم له ليجعلوه خصماً سياسياً [تمستوكليس].

وكان تمستوكليس مصدر مضايقة واحراجٍ للحلف، بابحاره المستقيم الى الجزر وجباية الأموال منها. ويقول [هيرودوتس] أنه جاء يطلب مالاً من سكان جزيرة [اندروس Andros] [٦٤] زاعماً لهم أنه «جاء ومعه ربّتان: ربّة الإقناع وربّة القوة»، فأجابوه «أن لديهم أيضاً ربتين عظيمتي الحول، هما ربّة الفقر، وربة المستحيل تقفان حائلاً دون دفع اي مبلغ من المال له.» ويهجوه [تيموكريون Timocreon] الشاعر الروديسي ويعرض به لتهافته على المال لقاء السماح بعودة بعض المنفيين الى بلادهم، في حين يهمله هو صديقه وضيفه. والأبيات هي التالية:

«ان كان ذلك ان تمدح [پاوسنياس]، وكذلك كزانتيپوس Xanthippus
وثالثهم [ليوتيخيداس]. فانا أظيفُ اليهم [اريستيديس] الذي
جاء من آثينا المقدسة، وهو الرجل الحقيقي بين الجميع.
مادام ليتو Leto يكره تمستوكليس،
ذلك الكذاب الخائن الغادر الذي لم يشأ اعادة صديقه
[تيموكريون] الى موطنه ليالیسوس Lalysus [٦٥]، طمعاً بالمال
لقد أخذ ثلاثة تالنتات من الفضّة وانصرف لعنة الله عليه.
ينفي بعض الناس بلا حق ويعيد بعضهم
ويقتل بعضهم الآخر، وهو لاينني يملأ جيبه بالمال. وفي
المضايق عمل مأدبة من اللحم الفاسد كانت مصدر ضحك وازدراء.
أكلوها ودعوا للآلهة أن يقوم أحد غيره بهذا الواجب في السنة الأخرى».

لكن [تيموكريون] اشتط في هجاء تمستوكليس وخرقه كل الحدود في التهجم عليه بعد صدور الحكم بابعاده - في قصيدة هذا مطلعها:

ألا يا ربّات الشعر (الميوزات) عودي الى جميع الاغريق
وانشدي هذه الأبيات المناسبة الجميلة لهم.

والحكاية هي أن قضيّة [تيموكريون] كانت قد وضعت موضوع بحث هل ينفى بسبب تعاونه مع الفرس أم لا؟ وكان [تمستوكليس] يحبذ نفيه وقد صوّت ضده. فعندما اتهّم تمستوكليس

---

(٦٤) هي احدى جزير كيكلادس بين آثينا ونخسوس وقد فصّل هيرودوتس في الطلب وفي الجواب [١١١:٧].

(٦٥) هي من مدن ساحل رودس سميت كذلك نسبةً الى لوحة مشهورة من عمل پروتوغونيس تمثل الصياد ايالیسوس وكلبه.

بتآمره مع الميديين نظم تيموكريون الابيات التالية بهذه المناسبة:

والآن لم يعد [تيموكريون] عميل الميديّين الوحيد حقاً
فهناك بعض الأوغاد الآخرين معه - ولست الوحيد
الذي خاب - فهناك ثعلب آخر نزل الميدان.

عندما بدأ أهالي آثينا يعيرون آذاناً صاغية لأولئك الذين يثلبونه وينتقصون منه، اضطر الى تفكيرهم بالخدمات الجليلة التي انجزها - باستمرار ولجاجة باعثة على الضيق. وسأل أولئك المستائين منه، عما اذا كانوا قد ملّوا من اغتنام المنافع الكثيرة من ذات الشخص الذي يذمونه، وبهذا القول ضاعف من كره الناس على ان أشد السخط كان مبعثه بناؤه معبداً لديانا، كتب عليه الكنية التي كنّاها بها [ارسطوبول Aristobule] اي «ديانا خير المشوارت» مشيراً بهذا او انه قدم خير المشورات لا للآثينيين وحدهم بل لكلّ الأغريق. بناه قرب بيته في الحيّ المسمىّ[ميليت] حيث يأتي ضباط الشرطة اليوم بجثث من ينفذ فيهم احكام الموت ويرمون فيها حبال الخنق وثياب المخنوقين وسائر حاجات اولئك الذين يُقضى عليهم. والى يومنا هذا يوجد تمثال صغير [لتمستوكليس] في معبد «ديانا خير المشورات» يمثله رجلاً ذا عقلية كريمة وملامح بطوليّة فائقة الحدّ. وبالأخير نفاه الآثينيون، وأستخدموا النفي بدون محاكمة لاذلاله والحطّ من كبريائه وسلطانه كما يفعلون عادة بكلّ من قوي سلطانه وطغت عظمته بحيث ما عادت تناسب مبدأ المساواة الذي يقوم عليه البناء الجمهوري فالنفي دون محاكمة وضع بالأصل لا لمعاقبة المذنب، بقدر ما كان لأجل قمع وتخفيف حدة الحاسدين الذين يسرهم إذلال عظماء الرجال، فبإلصاق هذا العار بهم ينفسون عن شيء من حقدهم وحسدهم.

بعد أن نُفي [تمستوكليس] (*) من آثينا، وعند وجوده في ارغوس افادت قضية [پارسنياس] (٦٦) اعداءه وزودتهم بمزيد من الحجج ضدّه وكان [ليوبوتس Leobotes]

(*) في سنة ٤٧٢ ق.م تقريباً.

(٦٦) هذا الرجل الفاضل هو ابن كليوبروتس، وملك لاسپارطة. دحر الپارثيين في معركة پلاتيا وأشتهر بالعدل والكرم والنزاهة. لكن اخلاقه انحطت وسفلت في الأخير اذ عقد معاهدة قبيحة مع الپارثيين أملاً في أن يساعده نفوذهم على امتلاك بلاد الاغريق كلها. وكان مشروعه يتلخص في تسليم البلاد الى [احشويرش] وان يحكمها هو باعتباره ملكاً تابعاً له على أن يزوجه ابنته. [ثوكيديدس ١:١٢٨] ما أن تبنى هذه الفكرة الغريبة حتى بدء بتقليد العادات الپارثية والنزوع الى حياة الترف التي يعيشونها. ونبذ ارتداء ثياب وطنه البسيطة. وصبر الايفوري عليه بعض الوقت ليتوفر لهم الدليل القوي على مشاريعه الخيانية. وما ان وضعوا ايديهم عليها حتى اصدروا أمراً بايداعه السجن لكنه هرب والتجأ الى معبد [منيرڤا خلقيوخوس] فما كان منهم إلاّ ان بنوا جداراً سدّوا به المداخل وقامت والدته بوضع اول حجر في البناء. وعندما =

الأركولي ابن [آلكيميون] هو الذي اتهم [پارسنياس] بالخيانة ودعمه السپارطيون في اتهامه هذا.

عندما باشر [پاوسنياس] في خطته الخيانية، عمل على أخفائها عن تمستوكليس في مبدأ الأمر مع انه كان صاحباً له. ولكن عندما رآه يطرد من البلاد وتبين شدة وقع النفي عليه، أقدم على الاتصال به والافضاء اليه بسرّه ورغب في ان يساعده وأطلعه على رسائل ملك الفرس وأوغر صدره على الأغريق، وصورهم له بناكري الجميل والأوغاد. على أن [تمستوكليس] رفض مقترحاته، وأبى أن يكون طرفاً في المشروع بصورة مطلقة إلاّ أنه لم يكشف سرّ هذه الاتصالات ولم ينه بسرّ المؤآمرة لأي أحد إمّا لأنه كان يأمل عودة [پوسنياس] الى صوابه، والعدوان عن نيته، أو لتوقعّه بأنّ محاولةً هوجاء طائشة كهذه ترمي الى أغراض شيطانية دنيئة ستنكشف بوسائل أخرى.

وبعد ان نفد حكم الموت [بپاوسنياس] ووجدت في حوزته رسائل ووثائق خطية حول هذا الشأن تدين تمستوكليس وتضعه موضع شبهة ثارت ثائرة اللقيديمونين عليه، واتهمه اعداؤه في آثينا بالتآمر. ولما كان غائباً عن آثينا فقد قدم دفاعه على شكل خطابات، مناقشاً بصورة خاصّة النقاط التي كانت في السابق محور اتهامه. وكان جوابه على اتهامات اعدائه الظالمة الكاذبة، رسالةٌ بعث بها للمواطنين وذكر فيها أن الشخص الذي كان طامحاً للحكم دوماً، ليس من طبيعته أن يُحكم ويُخدم أحداً، لن يبيع نفسه ولا وطنه أبداً ليكونا عبدين لبلاد عدوّة بربرية.

ولم يقم المواطنون الآثينيون وزناً لدفاع [تمستوكليس] بعد أن اقتنعوا بأدلّة متهميه وبعثوا بقوة من الشرطة للقبض عليه وجلبه. للمحاكمة أمام مجلس قضاء أغريقيّ، إلاّ أنه أنذر مسبقاً فانتقل الى جزيرة [كوركورا Corcura] وكانت حكومتها مدينةً له بفضل لأنه أختير فيما مضى حكماً في نزاع بينها وبين الكورنثيين(٦٧) فصل فيه بفرض مبلغ قدره عشرون

= أشرف على الموت جوعاً تمكنوا منه. وما أن وفقوا الى سحبه خارج المعبد حتى اسلم الروح [توكيديدس المرجع نفسه ١٣٤] و[ديون ٩:٤٠].

(٦٧) قدم تمستوكليس لأهل كوركورا خدمة هامة: كانت دويلات الأغريق تهّم بشن الحرب على هذه الجزيرة لأنها لم تنظم الى الحلف الأعظم ضد احشويرش. لكن تمستوكليس عارض الفكرة بقوله لو عاقبنا بهذا الشكل كل من لم ينضّم الى الحلف لاوقعنا بالبلاد الاغريقية ضرراً يفوق كثيراً ما كان سينالها من أذىً على يد الغازي. وعلى اية حال فقد غلب الخوف الذي كان يعتمل في احشاء أهل الجزيرة، على عرفان الجميل فلم يستقبلوا تمستوكليس خشية ان يثيروا مشاعر آثينا وسپارطه ضدهم. ورفضوا ان يقبلوه ضيفاً عندهم وبعثوا به الى ايبيروس. [ثوكيديدس ١:٣٠] تعتبر ليوكاس مستوطنة كورنثية صرفة.

تالنتا يدفعه الكورنثيّون، وأعتبر لمدة [ليوكاس Leucas] وجزيرتها مستعمرة مشتركة للمدينتين. ومن [كوركورا] هرب الى [ابيروس] والآثينيون واللقيديمونيون يجدّون في أثره وكان يتشبث بفرص نجاة يائسة تبدو مستحيلة. فقد فرّ لاجئاً الى [ادمتوس Admetus] ملك المولوسيّين. وكان هذا قد طلب طلباً من الآثينيين في عهد حكم تمستوكليس وأوج سلطانه. فرفض الطلب بشدّة واحتقارٍ واهانة، حتى أظهر الملك المهان ما يدلّ على انه سيثأر لنفسه منه إن ظفر به. على أن [تمستوكليس] في سوء حظّه هذا كان يخشى كره جيرانه الأخير ونقمة مواطنيه عليه، أكثر من خشيته سخط الملك - ولذلك وضع نفسه تحت رحمته واذلّ نفسه أمامه فبضراعاته بأسلوب غريب يختلف عن عادات البلاد الأخرى اذ حمل ابن الملك وكان طفلاً وجثا بالقرب من المستوقد امام الهة البيت، وهذا هو أقدس وأعلى أسلوب في الإستجارة عند المولوسيين، لا يمكن رفضه مطلقاً ويقول بعضهم أن [فثيا Phthia] زوج الملك هي التي أشارت على تمستوكليس بهذه الطريقة(٦٨) ووضعت طفلها أمام المستوقد. وقال آخرون أن الملك نفسه بالاتفاق مع تمستوكليس اعدّ وأخرج هذه التمثيلية ذراً للرماد على العيون، حتى يكون مقيداً بعهدٍ ديني يمنعه من تسليم المستجير لمطارديه وفي ذلك الزمن قام [ابقراطس Epicrates] الأخارني Acharnae بارسال زوجه وأطفاله اليه سراً من آثينا. ودفع حياته ثمناً لهذه الخدمة فقد ادانه [كيمون] وأعدمه الحياة، وفي رواية اوردها [ستسبمروتوس] (ربّما ناسياً ذلك بشكل ما، أو مستهدفاً أظهار تمستوكليس بمظهر القليل الإهتمام) قال أن المنفيّ أسرع يبحر الى صقلية، وهناك طلب يد ابنة [هيرو] طاغية [سيراقوس] ووعد أباها أن يُخضع له بلاد الأغريق.

ولما رفض [هيرو] طلبه غادره الى آسيا. إلاّ أن هذه الرواية مشكوك فيها، بدليل ما كتبه [تيوفراستس] في مؤلفه [الملَكية المطلقة Monarchy] قال: لما أرسل [هيرو] خيل سباق الى الالعاب الاولمپية ونصب سرادقاً فخماً باذخاً، القى تمستوكليس خطبته على الأغريق حمل فيها عليه وحرّضهم على قلع خيمة الطاغية ومنع خيله من المشاركة في السباق.

ويذكر [ثوكيديدس] بعد أن وصل تمستوكليس [بحرايحه] عن طريق البرّ استقلّ سفينة من [پيدنا Pydna] على خليج ثيرم [Therme]. ولم يكشف عن هويته طوال وجوده على ظهر السفينة حتى تبين له أن الريح تدفع بالسفينة قريباً من [نكسوس](*) وارتعب اذ رأى

(٦٨) ليس بالشيء الملفت للنظر يقدم المستجير ادعيةً لآلهة بيت الذي استجاره. كما فعل [اوليوس] عند وصوله بلاط [الكينونوس] (الاوديسي ٧:١٥٣) أمّا ان يقدم على ذلك وابن الملك بين ذراعيه مضمومٌ فتلك واقعة غير اعتيادية.

(*) حوالي ٤٦٩ ق.م.

الآثينيين يحيطون بها. فكشف عن حقيقته لقبطان السفينة وملاّحها وبين الرجاء والتهديد بقوله أنه سيتهمهما بمساعدته وبقبولهما رشوة مالية منه اذا خطر ببالهما ان يقتربا من الساحل وسيجعل الآثينيين يعتقدون بأنهما كانا يعرفان هويته عندما حملاه. وهكذا أرغمهما على الأقلاع والابتعاد وتوجيه السفينة الى ساحل آسيا ونقل اصدقاؤه جزءً كبيراً من ثروته سراً وبعثوها وراءه الى آسيا عن طريق البحر، في حين أن ما أكتشف وصودر منها قاربت قيمته الثمانين تالنتاً على ما يذكر [ثيوفراستس]. ويقول [ثيومپوپوس] بل مائة تالنت في حين لم يقوّم تمستوكليس بأكثر من ثلاثة تالنتات قبل أن يتولى الشؤون العامة(٦٩).

عندما وصل [كيمه Cyme] وعلم أن الكثير الرجال يكمنون له على طول الساحل ولاسيما [ايرغوتيلس Ergoteles] و[پثيدوروس Pythodorus] (إن القنيصة تسوى عناء الصيد لمن يكون شاكراً ان كسب مالاً باية وسيلة. وقد أعلن ملك الفرس للعموم عن استعداده لدفع مكافأة نقدية قدرها مائتا تالنت لمن يقبض عليه) فهرب الى ايجي Aegae وعي بلدة آيوليّة صغيرة، لا يعرفه فيها أحد غير مستضيفه [نيقوجينس Nicogenes] أغنى أغنياء [ايوليا] ومن أشهر من يعرف عند عظماء الرجال في داخلية آسيا. وفيما كان [تمستوكليس] يسكن داره متخفياً لعدة أيام وقع [اولبيوس Olbius] معلم أولاد نيقوجينس في غيبوبة وادركته نوبة وجدٍ آلهي على أثر تضحية عقبها عشاء. ونطق بالنبوءة التالية شعراً:

«الليل سيتكلم - والليل يرشدك بصوت الليل سيسدّد خطاك»(٧٠)

وبعدها آب [تمستوكليس] الى فراشه ورأى في الحلم حَيّة تلتف على نفسها فوق بطنه ثم تزحف الى عنقه ثم ما أن تمسّ وجهه حتى تنقلب الى عقاب نشر جناحيه فوقه ورفعه وطار به مسافةً بعيدة، ثم ظهر له قضيب المنادي الذهبي. فما كان من الطائر إلاّ وحَطّ به آمناً بعد متاعب ومشاق لا تُحصى.

وتمّ رحيله عن [نيقوجينس] بركون هذا الى الحيلة التالية:

ان اقوام البرابرة ومنهم الفرس، هم بصورة خاصة شديدو الغيرة، والشكّ والصرامة بخصوص نسائهم، لا زوجاتهم وحدهن بل إمائهن المشتريات وجواريهن، ويحرصون عليهن ويحجبونهن عن الأعين ولا يدعونهن خارج الدار بل يوصدون دونهن الابواب طوال حياتهن واذا سافرن، يحملن في هوادج صغيرة ترخى عليها السجف من كل الجهات وتوضع فوق مركبة. فهيأ

(٦٩) هذا لايستقيم قط مع ما وصفه پلوتارخ من البذخ والعزّ الذي كان يستمتع به تمستوكليس قبل ان يتولى وظيفة عامة.

(٧٠) اي «اسمع نصيحة وسادتك وستنجح».

[نيقوجينس] لتمستوكليس هودجاً كهذا واخفاه فيه وحملوه في الرحلة. وأوصى الحمّالين ان يزعموا للذين يصادفونهم في الطريف انهم يحملون فتاة أغريقية خارج [آيونيا] الى نبيل في البلاط الفارسي.

يقول [ثوكيديدس]، و[خارون Charon] اللمّپساكوسيّ Lampsacus أن [احشويرش] كان قد مات وأن تمستوكليس واجه ابنه ارتحششتا، إلاّ أنّ [ايفورس ودينون وقليتارخوس، وهيراقليدس Ephorua, Dinon, Clitarchus] وكثير غيرهم، يذكرون أنه التقى بأحشويرش إلاّ أن الالواح الحولية تتفق ورواية [ثوكيديدس]. ومع هذا لا يمكن الجزم اياً من الروايتين هي الصحيحة والمعتمدة(٧١).

عندما جوبه [تمستوكليس] بأحرج موقف له. قدّم نفسه أولاً [لأرطبان](٧٢) وهو قائد ألفٍ، وقائلاً له أنه أغريقي يرغب في ان يكلم الملك في امور هامة هي الآن شغله الشاغل فأجابه [ارطبان] «إن قيم الرجال الخلقية ايها الغريب، تختلف. فما هو شريف عند أحدهم قد لا يكون كذلك عند آخر. ولكن من الشرف والنبل للجميع أن يحافظوا ويحترموا شرائعهم الخلقية ولقد قيل لنا أن من خلق الأغريق الاعتزاز بحريتهم ومبدأ مساواتهم أكثر من اعتزازهم بأيّ شيءٍ آخر. أمّا عن فمن شرائعنا الممتازة العديدة نحن نعتبر اكرامنا الملك وعبادته أسمى ما في شرائعنا من مبادئ، إننا نعدّه صورة لرب الكون الأعظم. فإن أنت ارضيت شرائعنا وسجدت لملكنا وعبدته ففي الامكان ان تراه وتكلمّه، أما اذا كان رأيك خلاف ذلك. فعليك ان تتصل بغيري للتوسط لك. اذ ليس من العادات القومية هنا أن يسمح لأي شخصٍ بمقابلته إن لك يسجد له».

أصغى تمستوكليس لهذا الكلام ثم أجاب «آنا آتٍ يا أرطبان لأعمل على زيادة سلطة الملك ومجده، ولذلك لن أكتفي بتطبيق شرائعه على نفسي، مادامت مشيئة الآله أن يرفع الامبراطورية الفارسية الى أوج العظمة، بل سأعمل على أن يزيد عدد الساجدين والعابدين له كثيراً. ولن يكون هذا إذن عائقاً لي عن الاتصال به والافضاء اليه بما عندي». فسأله أرطبان: «ما الاسم الذي سنقدمك به اليه؟ لأن اقوالك تدلّ بأنك لست شخصاً اعتيادياً» فأجابه

---

(٧١) فيكون وصوله البلاط اليارثي في السنة الأولى من الالمبياد التاسع والسبعين أعني في ٤٦٤ ق.م (ديودورس ٩:٦) وهي السنة الأولى لتولي (ارتحششتا) العرش. ولكن بعض المؤرخين ومنهم ايفورس الكومي في (تاريخ الاغريق) وهو يلي تاريخ هوميروس في الأهمية يقول ان وصوله كان قبل هذا التاريخ بسبع سنين [ديودورس المرجع السالف] كذلك ثوكيديدس وديون والد كليتارخس الذي كتب تاريخاً لبلاد الفرس وهو من زمرة الاسكندر المقدوني.

(٧٢) ابن ارطبان قائد الحرس الذي قتل احشويرش وأقنع ارتحششتا بقتل داريوس اخيه الأكبر.

تمستوكليس: «لن يعلم اي انسان بذلك يا أرطبان قبل الملك». هذا ما يسرده [فانياس]، ويضيف [ايراتستينوس Eratosttenes][(٧٣)] في رسالته «عن الغنى» أن تمستوكليس توصل الى مقابلة [أرطبان] بمسعى من امرأة اريترية كانت في حرم ذلك القائد.

قد يكون كذلك وقد لايكون لكن عندما أدخل على الملك وقدم له فروض التجلة والتعظيم وقف صامتاً حتى أمر الملك المترجم بسؤاله عن هويته. فأجاب «أيها الملك أنا هو تمستوكليس الآثيني، وقد نفاني الأغريق. إن الأضرار التي ألحقتها بالفرس عديدة إلاّ أنّ المنافع التي كسبوها مني أعظم، فقد حلتُ بين قومي وبين مطاردتكم حالما سمح لي خلاص بلدي بإظهار الرعاية لكم أيضاً. لقد جئت تحدوني افكار متفقة مع النوائب التي اصابتني، متهيئاً لاقتبال عطفكم وغضبكم معاً، مُرَحّباً بعفوكم الكريم أو مستعداً لاحتمال سخطكم العظيم، ولديكم من بني وطني شهودٌ على الخدمات التي قدمتها لبلاد فارس. فانتفع بهذه الفرصة، لتظهر للملأ سجاياك، فهذا أحرى بك وأجدى لك ارضاء حنقك. إن انقذتني انقذت مستجيراً بك مخلصاً، وإن فعلت خلاف ذلك فستقضي على عدوّ للأغريق».

وتكلّم أيضاً عن النذير الآلهي كالرؤيا التي حلم بها في منزل [نيقوجينس] والأمر الذي نزل عليه في نبوءة [دودونا Dodona] حيث طلب منه [جوبتر] ان يقصد ذلك الذي كان أسمه شبيهاً باسمه مما فهّم أنه مرسل اليه من جوبتر لأن كليهما عظيمان ولكليهما اسم ملك.

واصاخ الملك السمع معجباً بروحيته وشجاعته، ولكنه لم يجبه بشيء في حينه. إلاّ أنه أظهر فرحه أمام ندمائه المقربين وحمد حسن حظه وعد نفسه في غاية السعادة لذلك. ودعا لآلهة [اهريمان][(٧٤)] ان يتجه رأي كلّ اعدائه اتجاه رأي الأغريق فيهينون ويطردون اشجع رجالهم من بينهم. ثم قربَ للآلهة، وعكف على الشراب ووصل به السرور حداً أنه صرخ في نومه ثلاث مرات «تمستوكليس الآثينين عندي».

وفي صباح اليوم التالي جمع الملك عظماء البلاط، وأمر باحضار [تمستوكليس] امامه فتوجس هذا شراً عندما رأى الحراس مثلاً يرمقونه شزراً عندما يعرفونه، فيسمعونه قارص الالفاظ، وتقدم من ناحية الملك الذي كان جالساً والباقون سكوت، فمرّ بـ[روكسان] وهو قائد الف، وسمعه يتمتم قائلاً دون أن يتحرك من مجلسه: «أيها الثعبان الأغريقي المراوغ الماكر! إن عبقرية الملك السامية تمكنت من أحضارك هنا». وعندما مثل أمامه سجد له كالسابق فحياه الملك وكلمة برقة قائلاً أنه مدين له الآن بمائتي تالنت، اذ من المعقول والعدل أن يتسلّم

---

(٧٣) رعاه [بطليموس آفريفيتس] من مسقط رأسه (كيرين) للاشراف على بأفلاطون الثاني.

(٧٤) أو أهريمن وهو آله الشر والظلام مسبب الطاعون والنكبات في الثنوية الفارسية.

المكافأة التي خصصها «لمن يأتي بتمستوكليس» ووعده بمال كثيرٍ وشجعه، وحضّه على التحدث معه بكلّ حرية عن شؤون الأغريق. فأجاب [تمستوكليس] أن حديث المرء يشبه السجّادة الفارسية النفيسة، لاتظهر زخارفها وصورها الجميلة إلاّ اذا فرشت بكامل ابعادها، فاذا ما طويت أو لُفتّ ضاعت تلك التهاويل أو بدت شوهةً للعين. لذلك فهو يرغب في مهلةٍ من الوقت وسر الملك بالمقارنة وسمح له بما شاء من الوقت فطلب سنة كاملة وفي خلالها اتقن اللغة الفارسية وتكلم بها مع الملك دون مساعدة مترجم، وكان المفروض ان يتناول الحديث شؤون اليونان فحسب. ولكن حدثت في تلك الفترة تغييرات كبيرة في بلاط الملك وطُرد عدد كثير من ندمائه فاستهدف تمستوكليس لنقمة العظماء الذين تصوروا أن الجرأة بلغت به الحدّ الذين أخذ معه يتكلم عنهم. لأن الاكرام الذي أصاب غيره من الأجانب كان لا شيء بالنّسبة لما أغدق عليه من النعم. فقد لازمه في لهوه ومجالس طربه ونزهاته في القصر ورافقه في صيده وجعله نديماً مقرباً حتى أنه سمح له برؤية والدته الملكة، ومحادثتها مراراً كثيرة، وبأمر منه سمح له بالاطلاع على أسرار المجوسيّة وتعاليمها.

وعندما أمر الملك أن يطلب [ديماراتوس Demaratus] اللقيديموني ما يريد منه وسينيله طلبه مهما كان، طلب هذا أن يعينه على دخول [سارديس] دخولاً رسمياً وأن يحمل على عرش خلال المدينة وان يزين مفرقه تاجٌ على عادة الملوك(٧٥)، فمدّ [ميثروبوستس] ابن عمّ الملك يده الى رأس ديماراتوس ولمسه قائلاً انه لا يملك عقلاً ملكياً يستأهل تغطيته بتاجٍ ولو أن [جوبتر] نفسه أعطاه برقه ورعده، لما أنقلب بهما الى جوبتر ثان! ورفض الملك أيضاً طلبه غاضباً وعزم ألاّ يرى وجهه ابداً، وأن لايقبل أي استرحامٍ بشأنه. على أن تمستوكليس تمكن من تهدئته واقنعه بالصفح عنه. وقد جاء في الأخبار أن ملوك الفرس المتعاقبين بعد، ممن كانت صلاتهم وثيقة بالأغريق، عندما كانوا يدعون أيّ يونانيّ جليل القدر لخدمتهم فإنهم يكتبون له عهداً بأن قدره عندهم سيكون عظيماً مثلما كانت مكانة تمستوكليس، تشجيعاً وترغيباً لهم. ويردون أيضاً كيف ان تمستوكليس عندما كان يعيش عيشة رغيدة هناك، وهو قبلة انظار الكثير، وجه الكلام الى ابنائه من حوله وهو جالس الى مائدة الطعام والخدم والسقاة يتسابقون الى خدمته «أولادي! كان الدمار سيلحق بنا لو لم نُدمّر!».

ويتفق معظم الكتاب أنه منح ثلاث مدن وهي [مغنيزيا Magnesia وميوس Myus(٧٦)

---

(٧٥) كان هذا أعظم تكريم يصدر عن ملوك الفرس.

(٧٦) ان الأراضي المحيطة بمغنيزيا الواقعة على نهر ميئاندر في أسيا الصغرى وغير البعيدة كثيراً عن أفسس، هي اراضٍ في غاية الخصوبة، حتى انها كانت تدر على تمستوكليس من غلّة ما يبلغ ثمنه اربعين تالنتاً. و[لامپساكس] في المضايق ينمو الى جوارها اجود الكروم في سائر المشرق. و[ميوس] أو [ميون]=

ولمپساكوس] لتأمين مطلبه من اللحم والخبز والخمر، ويضيف [نيانتس Neanthes] من [كيزيكوس Cyzicus] و[فانياس] الى هذه المدن مدينتين أخريين هما [پاليسكپيس Pa-laescpsis] لتأمين حاجته من الثياب، و[پيركوته Percote] لسدّ حاجته من الفرش والأثاث المنزلية.

وفيما كان في طريقه الى ساحل البحر لاتخاذ تدابير عسكرية ضد الأغريق، نصب له فارسي اسمه ايپكسيس Epixyes (وهو حاكم فريجيا العليا) كميناً لقتله، وكان قد أعد قبل زمن زمرةً من الپسيديين، ليهجموا عليه ويوقعوا به عندما يقف للاستراحة في بلدة تدعى «رأس الأسد»[٧٧]. الاّ ان ام الآلهة تراءت له أثناء غفوة الظهر فحلم انها قالت له: «ابتعد يا تمستوكليس عن الأسد وحاذر لئلا تقع في شدقيه، ولهذا التحذير اتوقع منك أن توقف ابنتك [منسيپتوليما Mniseptolema] على خدمتي». فعجب تمستوكليس لذلك وبعد أن نذر النذر المذكور للربّة. حاد عن الطريق العام وقام بدورةٍ وسلك سبيلاً ثانية مغيراً موضع استراحته المقرر، واناخ ركبه ليلاً في العراء. إلاّ أن أحد الخيول التي تحمل أثاث خيمته سقط في النهر ذلك اليوم. فعمد خادمه الى نشر السجاد والابسطة المبللة وعلقها لتجفَّ وفي الوقت نفسه لحق بهم الپسيديّون وسيوفهم مُشرعة إلاّ أن ضوء القمر لم يسمح لهم بمعرفة ما هو منشور في العراء بالضبط وحسبوه خيمة تمستوكليس، وظنوه يرتاح داخلها. ولما أقتربوا ورفعوا الابسطة المعلقة، انتهز اتباع تمستوكليس الكافين فرصتهم وهجموا عليهم واسروهم واعترافاً بفضل ربّة الأرباب عليه لانذاره بالخطر المحدق، أقام لها معبداً في مدينة مغنيزيا كرسّه باسم «دندمين Dindymene» امّ الآلهة ونذر لخدمتها فيه ابنته «منسيپتوليما».

وبوصوله [سادريس] زار معابد الآلهة، وعُني في أوقات فراغه باصلاح بنائها وزخرفتها، وبعدد التقدمات التي تقدم لها ولاحظ في معبد امّ الآلهة، تمثال العذراء النحاسي المسمىّ «حاملة الماء» ويبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام وكان قد أمر بصنعه وأقامته في موضعه ذاك، عندما

= وهي مدينة [كاريّة] تقع على مصب النهر المذكور سابقاً - غنية بالحاصلات لاسيما بالاسماك [ثوكيديدس ١٣٨:١] وقد جرت العادة عند ملوك الشرق بان يمنحوا اصدقاءهم وخلصاءهم غلاّت مدن أو مقاطعات بدلاً من مبالغ مالية. والملك يعطي من المدن التي تعود له مثلاً مقداراً مما تدره من الخمور، أو المآكل او الأموال أو الاكسية.

و(بيركوتي) هي الأخرى مدينة من مدن المضايق تقع بين ابيدوس ولامپساكس. وپاليسكيس تقع في (ترواد).

(٧٧) لم يرد اسم ليونتكيفالس لا في سترابو أو ستفانوس البيزنطي أو ايلين واما امّ الارباب فهي (ريا Rhea أو كيبيله Cybele أو الأم الكبرى Magna Mater)، كما تسمى ايضاً دنديميني Dindymene مشتقاً من اسم جبل ديندِيمون في فريجيا.

كان مراقباً للماء في أثينا - وأنفق على صنعه من الغرامات التي كان يفرضها على أولئك الذين يغتصبون المياه العامة بحرفها عن مجاريها وتحويل أنابيبها، لاستعمالهم الخاصّ. وسواء أأدركه بعض الحزن لرؤية تمثاله مأسوراً، أو لرغبته في إطلاع الآثينيين على الحظوة الكبيرة التي نالها من الملك، والسلطان الواسع الذي متّعه به، راح يفاوض حاكم المدينة ليقنعه باعادة التمثال الى اثينا. فاستشاط القائد الفارسي غضباً وأبلغه انه سيكتب للملك بهذا، فانتاب تمستوكليس خوف شديد للعاقبة، وعمل على الاتصال بزوجات ذلك الحاكم ومحضياته ووصلهن بالهدايا النقدية حتى انفثأ غضب الحاكم. وقد جعلته هذه الحادثة أكثر حذراً وتحفظاً في سلوكه وتصرفاته خشية حسد عظماء الفرس وتحاملهم. ولم يواصل رحلته في ارجاء آسيا، كما ذكر [ثيومپوپوس] وانما عاش عيشة هادئة مستقرة في منزله بمغنيزيا. وقضى أياماً طوالاً على هذا المنوال آمناً مطمئنّاً يحترمه الجميع ويرفل في النعم والعطايا، ويكرمه اعاظم رجال الفرس. وكان الملك في ذلك الزمن مشغولاً في أمور آسيا الداخلية، غير مهتّم بشؤون الأغريق.

لكن عندما شبت الثورة في مصر، وخفّ الآثينيون الى مساعدتها(*) ومخرت سفن الأغريق عباب البحار حتى وصلت (كليكيا) و(قبرص) وجعل (كيمون) نفسه سيد البحار، تحول اهتمام الملك ثانية الى بلاد اليونان وعزم عزماً أكيداً على تأديب الأغريق والحدّ من سلطانهم المتنامي على حساب سلطانه. وبدأ يعبئ جيوشه ويرسل الى القادة باوامره العسكرية، وبعث رسلاً الى تمستوكليس في مغنيزيا يذكره بالوعد الذي قطعه، ويطلب منه العمل ضد الأغريق - على أن ذلك لم يزد من حقد تمستوكليس على الآثينيين ولا من سخطه؛ ولم تفتنه فكرة المجد والقيادة العليا التي سيتقلدها في هذه الحرب، ولعلّه قدرّ أن الهدف سيكون بعيد المنال، لا لأن الأغريق كانوا في ذلك الزمن تحت قيادة [كيمون] بصورة خاصة وغيره من القرّاد المحنكين الذين كانوا يحرزون النصر تلو النصر ويفوزون بمعارك رائعة، بل بالدرجة الأولى لأنه كان خجلاً من تلويث المجد الذي نالته مآثره العظيمة السابقة وانتصاراته العديدة وغنائمه العسكرية. ولذلك قرر ان يضع حداً لحياته بشكل يناسب السبيل الذي سلكته فيما مضى(٧٨). فقربّ للأرباب ودعا اصحابه الى مأدبة فأكرمهم وصافحهم واحداً واحداً ثم شرب دم الثور(٧٩)، كما جاء في الرواية الشائعة. أو السم النافع كما يزعم آخرون. وانتهت حياته

(*) في السنة ٤٥٩ ق.م.

(٧٨) عندما كانوا يضحون بالثور، تلقّى بعض دمه في قدحٍ وشربه ساخناً فقضى عليه (حسب قول پليني) لأن هذا الدم يتخثر في الحال.

(٧٩) لايوجد موضع في اتيكا باسم [الكيموس] وانما توجد مقاطعة تسمى (اليموس) وتقع شرق (پيريوس) =

في مدينة مغنيزيا وله من العمر خمسة وستون عاماً انفق معظمها في الحروب والسياسة وفن القيادة العسكرية. وأبلغ الملك بأسباب موته وكيفيته، فازداد به أعجاباً واستمر يظهر العطف لأقربائه وأصحابه.

خلّف [تمستوكليس] ثلاثة ابناء من زوجه [آرخيپّه Archippa] بنت ليساندر الالوپيكي Alopece وهم [ارخيپتوليس Archiptolis وپوليوكتوس Poleuctus وكليوفانتطس Glio-phantus]. وذكر افلاطون ان ثالثهم كان فارساً ممتازاً فحسب وهو ما عدا ذلك شخص مغمور. وابنه الرابع الذي ولد له قبل هؤلاء واسمه [نيوقليس] مات صغيراً بعضّة حصان. وابنه الخامس [ديوقلس] تبناه جدّه [ليساندر] وخلفّ بنات كثيرات منهمنّ [منسيپتوليما] التي ولدت له من زوجه الثانية، تزوجها اخوها غير الشقيق [ارخيپتوليس]، و[ايطاليا Ital-ia] التي تزوجت [پانثيوديس Panthaides] من جزيرة [خيوس]. وابنته الأخرى [سيباريس Sybaris] تزوجت [نيقوميدس] الآثينيّ. بعد وفاة تمستوكليس رحل ابن أخيه [فراسيكلس Phrasicles] الى مغنيزيا وتزوج بنتاً أخرى له اسمها [نيقوماخ] بموافقة أخوته وتعهد برعاية صغرى الاولاد: [آسيا] ولدى المغنيزيين ضريح فخم لتمستوكليس يقوم في وسط ساحة السوق الكبرى. ولا يستأهل منّا الذكر ما أورده [اندوكيدس Andocides] في خطابه لأصحابه حول رفاة [تمستوكليس]، وكيف ان الآثينيين سرقوا قبره وذروا رماد عظامه في الهواء. فقد أختلق هذه الرواية ليثير الحزب الاوليغارشي على عامة الشعب. وليس ثم حيّ يجهل أن [فيلارخوس Phylarchius] انما يخترع اختراعاً وينسج من الخيال في تاريخه حتى لم يكن يعززه غير مرسحٍ فعلي. فقد عمل من [نيوقلس وديموپوليس] ابنين لتمستوكليس، ليثير العواطف ويحرك الشجون والمشاعر، كأنمّا يكتب تمثيلية مأساوية. ويقول [ديودوروس] الفلكي في كتابه «عن القبور» تخميناً لا عن معرفة ثابتة: يوجد بقية عن بناء قرب ميناء [پيريوس] حيث تخرج الأرض بهيئة المرفق من مرتفع الكيموس Alcimus[٨٠] عند اجتيازك اللسان الأرضي الى الداخل حيث البحر هادىء دوماً وعلى هذا البناء يقوم قبر تمستوكليس[٨٠] على هيئة مذبح ويؤيد ذلك [افلاطون] الكاتب الكوميدي في ابياته التالية:

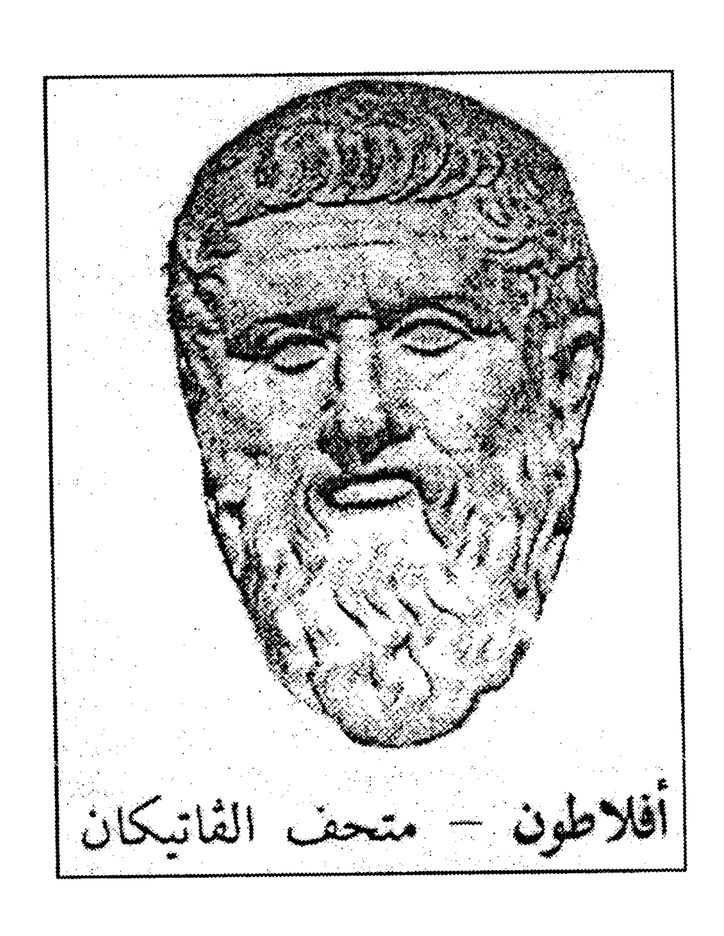
يقوم ضريحك على موضع رائع من الساحل. والتجار مازالوا يقرؤنه التحية مع

= أشتهرت بوجود معبد لـ(كيريس) فيها ولأنها مسقط رأس المؤرخ (توكيديدس). لذلك كان مڤريسيوس موفقاً في تصحيحه [پاوسنياس ١٣:١].

(٨٠) يقول توكيديدس ١٣٨:١. ان عظام تمستوكليس نقلت سرّاً الى اتيكا بمسعى أقربائه وتطبيقاً لوصيته ودفنت هناك. الاّ ان (پاوسنياس) يتفق مع [ديودورس] بانّ الآثينيين الذين ندموا على ما فرط منهم بحق رجلهم العظيم، كرموه باقامة ضريح له في پيريوس. ويقول (پاوسنياس) انه كان قائماً في ايامه.

الأرض القادمين اليـها. وسيظلّ ينظر اليهم وهم غـادون رائحون، خـارجون داخلون. ويرقب السفن وهي تمخر الماء تحته.

وظلّت عـادة اكرام نسل تمستوكليس متبعة في مغنيزيا الى يومنا هذا. والآن يتمتع بها تمستوكليس آخر من أهل اثينا تعرفتُ به وتوثقت صداقتي معه في دار الفيلسوف امونيوس.



أفلاطون – متحف الفاتيكان



ديانا والأيلة

كاميللوس

CAMILLUS

(Marcus Furius)

ت 365 ق.م

من بين الأمور العديدة البارزة التي تروى عن [فيوريوس كاميللوس] كان أعجبها وأروعها طراً أنه لم يبلغ منصب القنصل قطّ، في حين ظلّ يتقلد ارفع القيادات بصورة مستمرة يواكبه النجاح تلو النجاح، واختير دكتاتوراً خمس مرات، ودخل ظافراً اربع مرات، ولقب بباني روما الثاني. أن السبب في ذلك يعود الى أحوال الجمهورية ووضعها في ذلك الحين، لأن العامة رفضوا انتخاب قناصل لخلافهم مع الشيوخ[1] وأنتخبوا عوضاً عنهم حكاماً أسموهم بالتريبيونات العسكريين، لهم صلاحيات القناصل وسلطاتهم كافةً. وكان المأمول من هذا الاجراء أن يتناقص أذى الحكام لأن الحكم سيكون موزعاً على عددٍ أكبر. فوضع ادارة الحكم في ايدي ستة أشخاص لا اثنين.

كان فيه بعض الاطمئنان لخصوم الحكم الاوليغارشي. تلك هي حالة الزمان عندما بلغ كاميللوس أوج مجده وعظمته. ومع أن الجمعية العامة Comitia كانت تجمع في بعض الأحيان خلال تلك الفترة[2] فينتخب القناصل إلا انه لم يستطع اقناع نفسه بطلب المنصب القنصلي ضدّ رغبة الشعب. أمّا في وظائفه العامة الأخرى العديدة فمسلكه: عندما يكون مطلق السلطة، ان يمارسها كأنها موزعة بينه وبين غيره. والفضل في النتائج يعود له وحده في جميعها، وان كان ثم شارك في القيادة. وعدالته جعلت حكمه امنا من الحسد بالدرجة الأولى وأن قابليته وكفاءته هي التي ادخرت له المقام الأول الذي لم ينازعه فيه أحدٌ بالدرجة الثانية.

---

(١) الخلاف القديم حول توزيع الأراضي تجدّد. والعامة تصرّ على أن كل مواطن يجب ان يحصل على حصة متسارية، فيجتمع مجلس الشيوخ عدة مرات ليرفض هذا الاقتراح. أخيراً نصح [ابيوس كلوديوس] بكسب عدد من التريبيونات للعامة، باعتباره العلاج الوحيد العناد المجلس والتحكم الذي يمارسه، فنفذ الشعب هذه النصيحة. اذ دفع اليأس العام بالعامة الى انتخاب تريبيونات عسكرية بدلاً من القناصل. وقد خرج بعض التريبيونات من طبقة البليبيان (ليڤي ٤:٤٨).

(٢) من ٣١٠ عندما لبتدأوا بانتخاب التريبيونات العسكريين (ليڤي ٤:٧) ص ٣٨٨ ق.م عندما صار القناصل ينتخبون بصورة مستمرة - كان يجرى انتخاب قلةٍ من القناصل بين حين وآخر. لكن لم ينتخب اثناء فترة ادارة كاميللوس أكثر من قنصل واحدٍ أو اثنين وكانت الجمعية العامة مئوية القوام Centuriata اذ يتم تصويت الجمهور بمجموعات تتألف كلٍ منها من مائة فصرّت لاختيار اصحاب المناصب الرفيعة كالقنصل، والچنسور والپريتور وكان عدد التريبيونات العسكريين في المبدء ثلاثة فقط.

لم يكن آل فيوري Furii[٣] في ذلك الحين بيتاً رفيعاً بارزاً قط[٤]. وهو الذي رفع من شأن نفسه بأعماله. وصار يشار اليه بالبنان، فقد خدم بأمرة الدكتاتور [پوستيميوس توبرتنس] في المعركة الكبرى ضدّ الإكويين Aequians والڤولسيكيين Voliscians[٥]. قد خرج راكباً صهوة جواده عن بقية الجيش وهاجم العدوّ فأصيب فخذه بطعنة سنان مقذوف. فلم يأبه وترك الرمح مغروراً في مكانه واستمر يهاجم أشجع مقاتلي العدو حتى هزمهم. فأنعم عليه لمبسالته هذه بمنصب الچنصور Censor[٦] الى جانب مكافآت أخرى، وكانت هذه الوظيفة في ذلك الحين خطيرة، ذات سلطة كبيرة. وقد أُثِر عنه عملٌ طيّب جداً خلال فترة بقائه في تلك الوظيفة. كان المقاتلون يسقطون صرعى في الحرب ويتركون ارامل كثيرات فأصدر أمراً يقضي بأن يتزوج العازبون بهنّ طوعاً، وإلاّ تفرض على من لا يقبل، غرامةٌ شخصية كما أنه أخضع الأيتام للضريبة كاجراء ضروريّ لتنفيذ الأمر الأول، وكانوا قبلاً معفويّن منها، وكانت الحروب المستمرة تتطلب نفقات أكثر من العادة لهم إلاّ أن ما أضنك الرومان أكثر من ايّ شيء هو حصار [ڤيي Veii]. يسميّ بعضهم هؤلاء القوم بـ(الڤيينتاني Vientani] وهي كبرى مدن التوسكان ولاتقل عظمةً عن روما لا في عدد الجنود ولا في مقدار السلاح. ولاعتبار نفسها على هذه الدرجة من الغنى والثراء، ولاعتدادها بفنونها وحضارتها وقوتها، دخلت في مناسبات شريفة كثيرة مع الرومان اطلاباً للمجد والسؤدد. أمّا الآن فقد تخلوا عن مطامحهم

(٣) اسم الأسرة [فيوريوس] و[كاميللوس] هو اسم الابناء الفضلاء الذين يخدمون في هيكل أحد الآلهة. وكان كاميللوس اول من أحتفظ به وجعله أسماً أخيراً له. امّا اسمه الصغير فهو [ماركوس].

(٤) ربما قصد پلوتارخ به الرفعة العسكرية لا الرفعة المدنية. ففي العام ٢٦٦ ق.م وجدنا سكستوس فيوريوس يتولى منصب القنصلية [ديون ٣:٨ وليڤي ٢:٣٩]. وفي فترة تقل عن قرنٍ واحد ما بين تريبيونية كاميللوس الأولى وتلك الفترة نجد ما لا يقل عن سبعة عشر من هذه الأسرة قد وصلوا الى هذا المنصب.

(٥) كان ذلك في العام ٣٢٤ ولكاميللوس من العمر ١٤ سنة أو ١٥. ومع ان المواطن الروماني لا يحمل السلاح عادة قبل السابعة عشرة ومع ان پلوتارخ يؤكد بان شجاعته الفائقة في ذلك الحين هيأت له الأسباب لتسنم منصب الچنصور، ان كان الأمر كذلك فلابد انه انتخب لشجاعته فحسب اذ لم يكن من المألوف ان يسند مثل هذا المنصب الى حدث له مثل هذا العمر. في الواقع ان كاميللوس لم يصل الى هذه الوظيفة الاّ في العام ٣٥٣.

(٦) ان سلطة المحتسب (الچنسور) اول استحداثها في العام ٣١١ لتأسيس روما، في زمن الجمهورية كانت جدّ واسعة. فمن صلاحياتها طرد اعضاء مجلس الشيوخ وتأنيب الفرسان وتوبيخهم. ومنع الپليبيان من الادلاء باصواتهم في الاجتماعات العامة. الاّ ان الاباطرة أستقلوا بها وأحتكروها ولم يعد اللقب يشرف حامله. فيعمد الى التخلي عنه. واما ما ذكره پلوتارخ عند قيام كاميللوس باجبار عزّاب الرومان على الزواج بارامل الحرب. فانه يدخل ضمن سلطات الچنسور ويدعى: Caelibes esie Prohobento ومن واجباتهم ايضاً الاحصاء السكاني العام Census الذي يجب اجراؤه كل خمس سنوات. [انظر ديون ١١:١٥، ليڤي ٤:٨-٢٤]. شيشرون: ٣] وغيرهم.

الغابرة بعد أن أضعفتهم الهزائم الكبيرة، فحصنوا أنفسهم باسوار عالية قوية وجهزوا المدينة بمختلف انواع الأسلحة الهجومية والدفاعية وتمونوا أيضاً بالقمح وكلّ أنواع المؤون والأرزاق، واحتملوا بكلّ راحة حصاراً كان على محاصريهم أشق مما هو عليهم وأنكى. لأن الرومان لم يتعودوا البقاء بعيداً عن ديارهم إلاّ في أيام الصيف ولمدة ليست بالطويلة، وكان شأنهم دوماً أن يقضوا الشتاء مع أهلهم، فلهذا اضطرهم المفوضون [التريبيونات] الى بناء حصون في أرض العدو واقامة تحكيمات قوية حول معسكرهم لدمج فصلي الصيف والشتاء معاً. وساد الشكّ في أن القادة يتباطؤن ويتماهلون كثيراً في تضييق الخناق على المدينة بعد أن كادت تمر السنة السابعة على الحصار[٧]، حتى بلغ الأمر الى حَدّ اقالتهم من القيادة واختيار أخرين لادارة الحرب ومنهم [كاميللوس]، فأصبح (تريبيويا) للمرة الثانية[٨]. إلاّ أنه لم يعط في حينه دوراً في الحصار، لأن الواجب الذي وقع له بالقرعة هو قتال الفاليسكان Faliscans والكابينات Capenares[٩] الذين انتهزوا فرصة انشغال الرومان التّام فراحوا يعيثون في بلادهم سلباً ونهباً واستطاع [كاميللوس] أن يكسر شوكتهما رغم حراجة موقف الرومان بحرب التوسكان، والحق بهما خسائر فادحة وأجبرهما على الفرار والتحصن وراء الاسوار.

وفي اثناء احتدام المعارك هذه، حصلت ظاهرة غريبة ادت الى قلق واضطراب عظيمين في بحيرة ألبان Alban. بدت هذه الظاهرة اشبه بخارقة من الخوارق لأنها فاقت كُلّ ما سبق خَبَرُه من الخوارق، وتحدّت كلّ التفاسير المعروفة على ضوء الأسباب الطبيعية[١٠]. كان وقت بدء الخريف، وقد انتهى الصيف، ولوحظ أن الفصل الجديد خلافاً للعادة لم يكن ممطراً ولا كثير الاضطراب بالرياح الجنوبية وغاض ماء كثير من مختلف البحيرات والبرك والينابيع، التي

(٧) من التريبيونات الستة العسكريين المعينين في تلك السنة اثنان منهما فحسب كانا على رأس القوات التي حاصرت (ڤيي) هما [لوشيوس ڤرجينيوس] و[مانيوس سرجيوس] ثانيهما قاد الهجوم واولهما اشرف على الحصار. وفيما كان الجيش منقسماً بهذا الشكل قامت قوات الفالسكيين والكاپيناتي بالأنقضاض على سرجيوس، في الوقت الذي اندفع المحصورون من الداخل وهاجموه خارج الأسوار. وظن الرومان الذين تحت امرته انهم يواجهون كل قوات [اتروريا] فانهارت معنوياتهم وتقهقروا، وكان بوسع (ڤرجينيوس) انقاذ الموقف. الاّ ان كبرياء (سرجيوس) ابت عليه طلب العون من زميله وقرر هذا ان لا يقدم له اية مساعدة. فأوقع العدو مذبحة هائلة في صفوف الرومان (ليڤي ٥:٨).

(٨) في العام ٣٩٦ ق.م.

(٩) يقول ليڤي (١٤:٥) ان ڤاليريوس پوتيتوس] التريبيون العسكري للمرة الخامسة هاجم الفالسكيين ودمرهم وكذلك فعل (كاميللوس) بالكابيناتي اذ اوقع بهم خسائر عظيمة في الأرواح وغنم منهم الكثير.

(١٠) كان علماء ذلك الزمن قادرين على مساعدة الرومان في فهم هذه الظاهرة الطبيعية. و(سترابو) الذي عاصر (آغسطس) كان بوسعه حَلّ اللغز أيضاً من تعليقاته على بحيرة فوچيني التي تدعى اليوم «بحيرة قلعة گوندولفو».

تحفل بها ايطاليا، وبعضها جَفّ تماماً. وبعضها لم يعد فيه إلاّ حثالة. وظلّت مناسيب مياه الأنهار واطئة جداً كما هو حالها صيفاً، إلاّ بحيرة [ألبان] التي تتغذى بمياه أخرى غير مائها والتي تحيط بها الجبال ذات الاشجار المثمرة من كلّ جانب، فقد فاض ماؤها دون ما سبب (الاّ اذا كان آلهياً) وارتفع منسوب مياهها بشكل ظاهر حتى سفوح الجبال وأستمر في الارتفاع الى أن بلغ قممها كل ذلك دون أن يعتري ماءها هياج أو ثورة. وكانت في مبدأ الأمر منظراً عجباً للرعاة والسارحين بالماشية. ولكن عندما تشققت الأرض التي كانت تمسك مياهها، بسبب ضغط كمية الماء المتزايدة وانكسرت كما ينكسر السد الكبير إندفعت المياه الى الاراضي الواطئة بسيول عرمة دفاقة وطغت على الحقول المحروثة والاراضي المزروعة لتنصبّ في البحر. ولم يقتصر أثرها على الرعب الذي اشاعته في نفوس الرومان، بل ساد الاعتقاد كل سكان ايطاليا، بأنها مقدّمة لحادث خارق للعادة وكان أكثر الكلام عنها يجري في المعسكر الذي يحاصر (ڤيي)، ولذلك بلغت انباؤها المدينة المحصورة نفسها.

وكما يحصل عادة في الحصار الطويل، يلتقي كلا الفريقين ويتبادلان الحديث بعضهم مع بعض، وأتفق أن رومانيا وصل حبل الودّ بينه وبين أحد أهل المدينة وصار موضع ثقته، وكان هذا واسع الاطلاع في نبوءات الأقدمين، ذا شهرة فوق العادة، في تفسير الأسرار الالهية، ولحظ الروماني أن رفيقه هذا كان في غاية السرور لحكاية البحيرة، بادي الاستخفاف بالحصار، فقال أنها ليست المعجزة الوحيدة التي حصلت للرومان فقد رأوا معجزات أخرى أعظم منها وأعجب، وانه ليودّ أن يقصها عليه ليكون على بينة واتماماً لفائدته من هذه البلايا العامة. فسارع الرجل الى قبول عرضه متلهفاً ومتوقعاً سماع اسرار عجيبة. فأخذ الروماني يلهيه بالكلام ويصرف انتباهه مبتعداً به شيئاً فشيئاً عن ابواب المدينة وهو مستغرق في الحديث حتى اذا صارا على مسافة بعيدة ارتمى عليه وطوقه من وسطه (وكان أقوى منه) وبمساعدة آخرين هرعوا اليه من المعسكر حَمَلَهُ مقبوضاً عليه الى قواد الجيش. ووجد الرجل نفسه امام الأمر الواقع ولم ير مناصاً مما قدر له، فباح لهم بنبوءة (ڤي) السريّة. وهي أن المدينة مستبقى ممتنعة عن العدو ولايمكن الاستيلاء عليها إلاّ اذا حُولت مياه بحيرة [ألبان] المتجهة الى البحر، عن مجراها الجديد هذا بحيث لا تعود تصبّ في البحر[11]. وابلغ مجلس الشيوخ بذلك واقتنعوا بالأمر، فقرروا أرسال مندوبين الى دلفي يطلبون الراي من الآلهة وكان

(١١) يورد ليڤي (١٥:٥) النبوءة على هذا النحو «لن تؤخذ ڤيي حتى ينضب ماء بحيرة ألبا». [انظر ايضاً شيشرون. النبوءات ١:٤٤].

الوفـد يتـألـف من أناس رفـيـعي المقـام وهم [لـومـپـينيـوس كـوسـاسّ Lucunius Cossas وفـاليـريوس پوتيـتـوس Valerius Potitus وفـابيـوس امـبـوسطوس Fabius Ambustus] فـأبحـروا واسـتـخـاروا الآلهـة. فـعـادوا بجـواب خـاص وهو أن الرومـان يـهـملون بعض المراسيم المتعلقة بالأعـيـاد اللاتـينيّـة[١٢]، وأمـا عن بحـيـرة [ألبـا] فـان النبـوءة أمرت أن يحـال دون البحيرة والبحر باقامة سد ان كان ذلك مستطاعاً. وان تبقى مـياهها ضمن حدودها الأولى وإن لم يكن ذلك ممكناً فـعليـهم أن يصرفـوا الماء الى الاراضي المنخفـضـة بفـتح السـواقي والخنادق لتجفّ. فـأبلغت الرسالة وقـام الكهنة بانجاز مـا يتعلق بالقرابين وخرج الناس للعـمل في تحويل الماء عن البحر[١٣].

وفي السنة العـاشـرة للحـرب، سـحب مـجلس الشـيـوخ كل السلطات من القـادة ونصـبـوا [كاميللوس] دكتاتوراً[١٤]، فنصب بدوره [كرنـيليوس سكيـپـيو Cornelius Scipio] قائداً للخـيّـالة. وكـان اول عـمله انـه نذر للآلهـة اذا انـتـهت الحـرب نهـاية حـسنة فـسـيُحي الالـعـاب العظمى القديمة تكريماً لهم[١٥]، ويوقف معبداً على الربّة التي يسميها الرومـان [ماتوتا Ma-tuta] اي [الأم]. ومع أن الطقـوس التي تقـام لهـا تحـمـل المرء على الاعـتـقـاد أنهـا الربّة [ليـوكوثيـا Leucothea]. لأنهم يأخذون أمـةً الى الجزء السرّي من المعـبد وهناك يضـربونهـا بالأيدي ثم يخرجونها[١٦]، ويحملون أولاد أخوتهم بين احضانهم بدلاً من اولادهم[١٧]. وعلى العمـوم بانّ الطقـوس التـي تصاحب القرابين تذكـر المرء برعـاية [باخوس] لـ[إينو] والكوارث التي أحدثتها خطية زوجها. بعـد هذا النذر زحف كاميللوس على بلاد الثاليسكان وهزمهم في معركة طاحنة هم وحلفاؤهم الكاپينات. ثم تفـرّغ الى حصار [ڤي] ووجد أن الاستيلاء عليـها بهـجوم، هو مـن الصعـوبة بمكان، ومـحـاولة تنطوي على مـخـاطر جمّـة، فبدأ يحـفر انفاقـاً تحت

---

(١٢) العيد المقصود هنا، هو أكثر الأعياد حرمةً عند الرومان وقد انشاه (تاركوين) المكابر [ديون ٤:١١] وكان للرومـان فيه الصدارة لكن وجب على كلّ أهالي لاسيوم حضـوره والمشاركة في تضحية الثور (لجوپتر لاسيالس). وقد يمتد العيد اربعة أيام. والمدّة يحددهـا القناصل بمحض رغبتهم.

(١٣) ما زال هذا المشروع الهندسي باقياً ومياه بحيرة ألبا تجرى خلاله.

(١٤) في العـام ٣٩٥ ق.م ويقـول ليـڤي (١٩:٥) نجم عن هذا التـحـويل انقـلاب فكري عـام وحلت الثـقـة مـحل اليأس.

(١٥) نوع من السباق يجرى في الملعب الكبير. انشـاه الدكتاتور [پوستوميوس] بعيد اشتباكه مع اللاتين عند بحيرة (ريگيللوس). وقد أتى [ديون] الى وصف مراسيها بتفصيل.

(١٦) وتدعى ايضاً [اينو Ino] وهي مثل [ماتوتا] فقد كانت تغار من أمة لها تعلق بها زوجها (اثاماس).

(١٧) كانت (اينو) والدة بائسة جداً. فقد شاهدت ابنها [ليارخوس] يقتل اباه اي زوجها. فقذفت بنفسها في البحر مع ابنها الآخر (ميليكرش) لكنها كانت أسعد حظاً كخالة. لقد حفظت حياة باخوس وهو ابن اختها المدعوة سيميلي Semele [انظر اوڤيد].

الأرض وكانت التربة حول المدينة هشة سهلة الحفر، فعمد الى حفرها على عمق كبير حتى يتعذر أكتشافها وفيما كان العمل مستمراً بها، لم يترك للعدوّ مجالاً للشكّ في حرصه على ابقائهم فوق الأسوار بهجماته المستمرة لصرف انظارهم عن الخطة حتى أمتدت الانفاق الى قلب المدينة وبلغت القلعة الداخلية القريبة من معبد [جونو] وهو أعظم المعابد في المدينة واجلّها مكانة... قيل أن امير [التوسكان] كان ساعتئذ يقرّب للآلهة، وان الكاهن بعد أن فحص احشاء الأضحية صاح بصوت عالٍ أن الربّة ستمنح النصر لأولئك الذين يكملون تقدمة القربان. فسمع الرومان الذين كانوا في النفق كلماته هذه ففتحوا الثغرة حالاً(١٨) وخرجوا الى العراء بجلبة شديدة وقعقعة سلاح فاوقعوا الرهبة في العدو ففر لايلوي فحملوا التقدمات وأخذوها الى [كاميللوس]. إلا أن هذا الحكاية تبدو محض أسطورة. ومهما يكن من أمرٍ فإن المدينة اقتحمت عنوة وانهمك الجنود في النهب وجمع كميات لاتحصى من الأموال والغنائم. وتطلع كاميللوس من برجٍ عالٍ الى ما حصل فبكى أولاً مشفقاً. ولكن عندما أقبل أقرب الذين يحيطون به لتهنئته على نجاحه رفع يديه الى السماء ونطق بالدعاء التالي «يا جوپتر ذا الحول والسلطان، ويا أيتها الآلهة التي هي الحكم الفاصل فيما هو خير وشرّ. انتم تعلمون بأننا لم نثأر لأنفسنا من مدينة اعدائنا الاشرار الظالمين إلاّ بسبب وجيه وانما بدافع من الضرورة فحسب أرغمنا على ذلك. واذا ما حصلت مصيبة في مجرى الأمور لموازنة هذا الحدث السعيد، فأرجو أن تتحول عن المدينة وعن الجيش الروماني، وتقع على رأسي وان يصيب الرومان بأقل أذى ممكن». وبعد أن أكمل دعاءه هذا واستدار ليمضي (من عادة الرومان أن يدوروا الى اليمين بعد العبادة أو الدعاء). عثر وسقط وسط دهشة الحاضرين جميعاً، إلاّ أنه أقال نفسه من العثرة حالاً وقال لهم أنه نال ما طلبه من الآلهة وهو حادث بسيط جداً، وقع له لموازنه اسعد حظ حُبي به الرومان.

وبعد نهب المدينة تماماً قررّ ايفاءً بنذره - أن يحمل تمثال (جونو) الى روما. وتهيأ العمّال(١٩) لذلك، وقام بالتضحية للربّة، وصلى لها قائلاً لاشك انه سيسرّها قبول عبادتهم لها، والتنازل متفضلة باحتلال مكان بين الآلهة التي تعبد في روما. وقيل ان تمثالها أجاب

---

(١٨) الكلمات والعبارات التي تخرج من افواه اشخاص لا علاقة لهم في موضوع بحث أو مسألة لا دخل لهم فيها، لا تهمل وانما تفسر بحسب الذوق فتحمل محمل فألٍ حسنٍ أوفال سيء ان انطبقت باي شكل على قضية تشغل البال وعندها فيبذلون أقصى الجهود لتحقيق ذلك الفأل ان خيل لهم بأنه يبشرّ بخير أو لتحاشيه ان انذر بشرّ.

(١٩) العمال المقصودون هناك ليسوا بشغيلة اعتياديين قد ينقص لمسهم من قدر هذا الضم الشهير [ليڤي ٥:٢٢] وانما هم شبان أمتازوا بالوسامة يتمّ انتقاؤهم من بين سائر افراد الجيش سبقوا لهم ان اجروا مراسيم التطهر وارتدوا ثياباً بيضاً ويقومون بحملها بأعظم التجلّة.

بصوت منخفض أنها مستعدة وراغبة. ويكتب المؤرخ [ليڤي Livy] أن كاميللوس اثناء صلاته لمس الربّة ودعاها وأن بعض الحاصرين صاحوا أنها ترغب في الإنتقال. وان أولئك الذين ايدّوا حصول المعجزة، ودافعوا عنها، وجدوا حجّة دامغة واحدة تعزّز دفاعهم هي حظوظ المدينة السعيدة العجيبة التي لا يمكن أن تصل بها الى هذا الأوج من العظمة والسلطان من بداية خاملةٍ تافهة لولا العديد من الدلائل المثيرة الى العناية الآلهية والتعاون. ومن الاعاجيب التي جرت مجراها، ما لوحظ على التماثيل من حبّات العرق، أو ما سمع من أنين يصدر عنها، وما يخيل للناظر انها تدور الى الخلف وتطبق اجفانها، الى آخر ما ذكره المؤرخون الأقدمون ونحن بدورنا نستطيع أن نروي حكايات عجيبة مختلفة من هذا القبيل، سمعناها عن أناسٍ احياء، لايمكن أن ترفض بسهولة. إنما من الخطورة بمكان أن نشرع في تصديق هذه الحكايات، أو أن نستعجل في تكذيبهافالنفس البشرية بالغة القصور والعجز عن ضبط ارادتها، أو الصبر على حدودٍ معينةٍ، تراها تسبق أحياناً الى الأوهام والتخريف. وتراها أحياناً تلجأ الى الاستحفاف والازدراء بكلّ ما هو فوق الطبيعة إلا أن خير الأمور أوسطها، وأجتناب التطرّف هو أفضل السبل. وسواء أأدرك [كاميللوس] الزهو والخيلاء لمأثرته الكبرى في فتح المدينة التي كانت منافسة لروما بعد أن صمدت للحصار عشر سنين، أو لأصابته بالعظمة جراء اخضاعه الاقوام المجاورة، فقد اتخذ لنفسه سلطات الحاكم القضائي والمدني. إن افراطه في الشعور بالغرور والعظمة بدا جلياً في تجاوزه حدود الابهة في موكب نصره، فقد دخل المدينة راكباً عجلة حربية تجرها أربعة خيول شهباء، وهو عمل لم يسبقه فيه قائد من قبله، ولم يجرأ عليه أحدٌ من بعده، لأن الرومان يعدون واسطة لنقل التي هي على هذا الشكل - من المقدّسات وهي وقفٌ على ملك الآلهة وأبيها لا ينازعه فيها أحد[٢٠]. وهذا العمل باعد ما بينه وبين قلوب مواطنيه الذين لم يعتادوا مثل هذه المظاهر والأبهة.

والمأخذ الثاني الذي أخذوه عليه، هو معارضته القانون الذي يقضي بتقسيم المدينة. فالستريبيونات الشعبيون تقدموا باقتراح ينص على تقسيم العامّة والشيوخ الى قسمين، أحدهما يبقى في روما والآخر ينتقل الى المدينة المفتوحة، ويتمّ الاختيار بالقرعة وكانوا يريدون بهذا، التخفيف من زحام مدينة روما وتوفير مجال العيش فضلاً عن ضمان سلامة حدودهم ومصائرهم بسكناهم في مدينتين كبيرتين هامتين. اذن فقد تبنّى عامة الشعب الساخط هذه الفكرة بحماسة وكانوا هم الأغلبية - وأخذوا يعقدون اجتماعات مستمرة في [الفوروم]

---

(٢٠) يقول ليڤي [٥:٢٧] انه شارك (ابولو) بهذه العدة. ويظهر ان العجلات التي تجرها ستة خيول لم تكن معروفة عند الرومان. كما انه كاميللوس طلا وجهه بالقرمز وهو اللون الذي تطلى به تماثيل الأرباب عادة.

وينادون بضرورة وضع الاقتراح في النص محدثين ضجة كبيرة إلاّ ان الشيوخ والنبلاء كانوا ضد الفكرة، يعارضونها بقوة محتجين بأن هذا الاجراء لن يقسمّ روما بل سيدمّرها[٢١]. وقصدوا كاميللوس يطلبون منه العون. فخشي هذا العاقبة إن وصل الأمر نهايته الحديّة وآل الى اتخاذ قرار حاسم، فعمل على اشغال عامة الشعب بأمور أخرى. وأحبط المشروع، وهكذا اصبح مكروهاً. إلاّ ان السبب الأظهر والأعظم لبغضتهم له نجم عن قضية أعشار الغنائم الحربية. والجمهور هنا قويّ الحجّة في السخط عليه إن لم يكن محقاً. إذ يبدو أنه نذر لاپوللو قبل القائه الحصار على [ڤيي] أن يوقف عليه عشر الغنائم إن وقعت المدينة بيده. ثم استولى على المدينة ونهب أموالها وسواء أكره ازعاج الجنود ومضايقتهم، أو نسي نذره بسبب تراكم أشغاله في تلك الفترة، فقد تركهم يتمتعون بذلك الجزء من الغنائم أيضاً وبعد مرور وقت وبتوطدّ سلطانه، أحال موضوع النذر للبحث امام مجلس الشيوخ. وقد أعلن الكهنة في الوقت عينه بدوام ملاحظتهم للقرابين أن هناك علامات تدل على الغضب الآلهي، وان ذلك يتطلب عطايا وتقدمات.

وقرر مجلس الشيوخ وجوب الايفاء بالنذر. ولما وجد من الصعب أن يعيد توزيع الغنائم، قُرر أن يدفع كل شخص عشر حصته من الغنيمة مع حلفه اليمين. وهذا ما أضنك الجنود وضايقهم، لأنهم فقراء الحال، فبعد ان تحملوا الكثير من هذه الحرب تراهم يجبرون الآن على اعادة هذا المقدار الكبير من المال من حلالهم بعد انفاق الذي أصابهم. وتشبث كاميللوس بأضعف دفاع بعد أن هوجم وقامت القيامة عليه. مُبرراً فعلته هذه بنسيانه نذره فحسب. فأحتجوا بدورهم أن نذره ينصّ على استخلاص عشر أسلاب العدوّ. أمّا الآن فهو يجبيها من عشر أموال المواطنين. وعلى اية حال اعاد كلّ شخص عشرهُ المفروض عليه ورسُم ان يصنع بثمنه وعاء من الذهب المصبوب ويُرسل الى دلفي وكان الذهب من الندرة بمكان في المدينة. والحكام يفكرون في كيفية الحصول عليه. فأجتمعت السيدات الرومانيات وتداولن في الأمر معاً وقدمت بالمساهمة في المشروع كل واحدة بشيء من حليها الذهبية حتى اجتمع منه مازنته ثمانية تالنتات. واعترافاً بفضلهن هذا قررّ مجلس الشيوخ أن يكرمهن الاكرام الواجب، فأصدر أمره باباحة القاء خطب تأبين للموتى من النساء اسوةً بالرجال. وكانت العادة قبلها أن لا تلقى ايّ مرثية عامة بحق امرأة ميتة[٢٢]. واختار الرومان ثلاثة سفراء من أعرق الأسر

---

(٢١) كانوا يخشون بأنْ تتحول المدينتان بمرور الزمن الى دولتين تحتربان فيما بينهما حتى تقعا معاً فريسة لأعدائهما.

(٢٢) دفع للنسوة قيمة الذهب وليس بسبب هذه المناسبة بل بعدها عندما قمن بجمع كلّ حليّهن الذهبية اكمالاً للمبلغ الذي طلبه الغاليون ليعطى لهن حق إلقاء خطب التأبين [انظر ليڤي ٥:٥٠]. اما الامتياز الذي =

وارسلوهم صحبة الاناء الحربيّ، الذي بدأ رائعاً بدقة صنعته وجمال زخرفه. وكان البحر خطراً أبهدونه بعواصفه على حدٍ سواء - كما تبينوا هم بأنفسهم حتى كادوا يغرقون وكانت نجاتهم من قبيل المعجزات عندما وصلوا الى جزر[٢٣] [ايلوس Aelus] والريح رخاء فادركتهم سفن الليپاريين Leparians، وقد حسبوهم قراصنة. وأستولوا على سفينتهم ولم ينجوا من الموت إلاّ بعد الدعاء والصلاة وقطروا السفينة الى الميناء وعرضوا مقتناهم واشخاصهم للبيع عبيداً بوصفهم غنائم شرعية ولأن هؤلاء كانوا قراضنة ولم يخل سبيلهم إلاّ بشق الأنفس بعد تدخل وتوسط رجل واحد هو [طيماسيثيوس Themasitheus]، وكان يتقلد منصب القائد، فقد استخدم كل وسائل الاقناع وأطلقهم بعد جهد كبير واعادهم بحراسة بعض سفنه. وسهل سفرتهم وساعدهم على تقديم النذر، ولهذا نال التكريم الذي يستحقّه في روما.

وواصل [تريبيونات] الشعب ضغطهم مجدداً بخصوص تقسيم المدينة، ويشاء حسن الصدف ان تنشب الحرب بينهم وبين الفاليسكان، مما أعطى الحرية لرؤساء الرومان في اختيار الحكام الذين يريدونهم. وان يعينوا [كاميللوس] تريبيوناً عسكرياً[٢٤]، مع خمسة زملاء. وكانت الأمور تتطلب قائداً ذا سلطان وسمعة فضلاً عن التجربة والخبرة. وبعد مصادقة الشعب على الانتخاب زحف بقواته على أرض [الفاليسكان] والقى الحصار على [فاليري Falirii] وهي مدينة جيدة التحصين. كثيرة المؤن ومخازن السلاح، وإن أدرك صعوبة الاستيلاء عليها وما يتطلب لذلك من وقت طويل إلاّ أنه كان يرغب في إلهاء المواطنين وإبقائهم خارج المدينة منشغلين حتى لا يظلوا عاطلين في ديارهم لايعرفون ما يصنعون بأوقات فراغهم غير التحزب للتريبيونات واثارة النعرات الحزبية والشغب السياسي وهذا في الواقع انجع دواءٍ للرومان، يشفيهم من كلّ الامراض التي يعانيها الحكم لجمهوريّ، كفعل الاطباء النطاسيين.

ولم يهتم أهل [فاليري] بالحصار كثيراً لاعتمادهم على قوة المدينة فضلاً عن أسوارها المنيعة التي تحميها من كل جانب. فكان السكان - خلا حرس الاسوار يروحون ويغدون في الطرقات بثيابهم العادية، والاولاد يداومون في المدارس. يأخذهم معلمهم للنزهة واللعب بالقرب من الأسوار لأن الفاليريين كالاغريق اعتادوا تخصيص معلم واحدٍ لعدة تلاميذ تدفعهم

= أعطي لهن في المناسبة التي يذكرها پلوتارخ فهو السماح لهنّ بركوب العجلات، في مجال الالعاب العمومية وفي القرابين والعجلات المكشوفة من نوع أقل درجة في الشوارع.

(٢٣) ايتوليان أو ايوليان: هذه الجزر التي يسكنها قوم الليپاري تقع بين ايطاليا وصقلية، وسميت بهذا لما قيل بانها كانت موضع سكن الرب ايكلوس Aeclus وموطن رياحه. ولطبيعتها البركانية فهنا ايضاً يعزو القدماء وجود حدّاد الآلهة فيها.

(٢٤) كان ذلك في ٣٩٢ ق.م.

الى ذلك رغبتهم في تنشئة الصغار من البداية على الاجتماع ومصاحبة بعضهم بعضاً.

كان هذا المعلم يبطن نية الغدر بالڤاليريين عن طريق أولادهم، ولهذا عمد الى أخذهم يومياً الى الخارج بالقرب من السور، ولم يكن يبتعد بهم كثيراً في مبدأ الأمر. وبعد أن ينتهوا من تمارينهم يعيدهم الى منازلهم. ثم أخذ بالتدريج يبتعد بهم حتى أصبحوا بالتمرين المتواصل لا يخشون ولا يهابون كأن الخطر ليس قريباً منهم. وأخيراً جمعهم كلهم وأخذهم الى ربايا الرومان. وسلمهم طالباً أن يؤخذ هو الى كاميللوس. فجيء به اليه ومثل امامه في الوسط وافاد قائلاً أنه سيّد ومعلم أولئك التلاميذ ولكنه فضّل عطفه على كلّ الواجبات الأخرى وجاء لتسليم تلاميذه له وبهم يكون تسليم المدينة كلّها. وعند سماع كاميللوس اقواله هذه تملكه الذهول والعجب لهذا الغدر والتفت الى الحاضرين وقال «لا شكّ ان العنف والظلم مظهران من مظاهر الحرب بالضرورة ومع هذا فهناك مبادئ معينة يجب على الناس الطيبيّن مراعاتها حتى في الحرب، وليس النصر غاية تبلغ من السموّ ما يبرر لنا التحلل من واجباتنا وارتكاب اشنع الأعمال واحّطها. والقائد العظيم يجب أن يعتمد على مواهبه وكفاءته لا على نذالة الآخرين».

وبعد أن قال ذلك، أمر الضباط بتمزيق ثياب المعلم الخائن وشد يديه الى الخلف وسلّم تلاميذه عصيّاً وسياطاً وامرهم بإنزال العقاب به. ثم طرده الى المدينة. وفي ذلك الوقت أكتشف الڤاليريون الخيانة وارتفع النواح والعويل في كل ارجاء المدينة لفاجعتهم بابنائهم، وراح الرجال والنساء يتراكضون نحو الأسوار والأبواب وهم في منتهى الحزن. فاذا بهم يشاهدون التلاميذ عائدين وهم يجلدون استاذهم العاري المكتوف اليدين، فارتفعت أصواتهم بالدعاء لكاميللوس وسمّوه بالمنقذ والأب. واحدث هذا العمل أثره الشديد لا في الآباء وحدهم بل في بقية السكان الذين عاينوا ما وقع وامتلأوا أعجاباً وحباً بعدالة كاميللوس وعقدوا في الحال اجتماعاً عاماً ارسلوا على أثره وفداً اليه لعرض استسلامهم له، ووضع انفسهم تحت تصرفه، فبعث كاميللوس السفراء الى روما، فأحضروا امام مجلس الشيوخ وتكلموا عما جاؤوا بخصوصه على هذا الشكل: «إن الرومان الذين يفضلون العدل على النصر، علموهم على حب الخضوع والطاعة أكثر من حبّ الحرية، وانهم لا يقرّون قط بأنهم أقلّ قوة من الرومان قدر ما يقرون بأن الرومان يفوقونهم في كرم السجايا». وأحال مجلس الشيوخ الأمر الى كاميللوس للبت فيه وتقرير ما يراه مناسباً، ففرض مبلغاً معيناً من المال على الڤاليريين وعقد صلحاً مع الشعب الفاليسكاني كلّه وعاد الى بلادهُ.

إلاّ أن الجنود الذين كانوا يتوقعون نهب المدينة هاجموا كاميللوس بقارص الكلام عندما عادوا خالي الوفاض واتفقوا مع بقية المواطنين في نعته، بعدو الشعب وبالرجل الذي يقف ضد

المصلحة العامة. وبعد ذلك عندما جدّد [تريبيونات] الشعب اقتراحهم بتجزئة المدينة ووضعوه في التصويت ظهر كاميللوس معارضاً له بصورة علنية، غير مكترث برضا الجمهور عنه[٢٥]، وهاجم محبذّيه بشدة وظلّ يعارض ويناقض رغبة الجمهور وميلهم الى ان رفض الاقتراح، ولكنهم ظلّوا على كرههم له. حتى عندما حلت به مصيبة عظيمة بفقد أحد ابنيه بمرض، فإن الشعور بالعطف نحوه لم يخفف قط من غلواء التحامل ضدّه. ولم يكن معتدلاً في حزنه على ثكله فهو رقيق الشعور مرهف الحسّ بطبيعته وعندما قُدّم الإتهام ضدّه ظلّ في منزله يشارك نساء بيته حدادهن.

كان متهمه [لوشيوس ابيوليوس Lucuis Apuleius] وموضوع التهمة هو احتجاز الأسلاب التوسكانية لنفسه. إذ أُشيع ان أبواباً نحاسية معينة وهي جزء من الأسلاب قد ظلّت في حوزته وتألب سخط الناس عليه وكان واضحاً أنهم سيتشبثون بأي فرصة تعنّ لإدانته. فجمع اصحابه وزملاءه الجنود وغيرهم ممن تولى القيادة معه وكان عددهم كبيراً. ورجاهم أن يحولوا دون تعريضه لتهم باطلة وضيعة وتركه هدفاً لسخرية اعدائه وسخيمتهم. فتداول اصحابه في الأمر وتشاوروا وأجابوه بقولهم انهم لا يعرفون كيف يمكنهم مساعدته في مسألة الإدانة، إلاّ أنهم سيساهمون كلّهم في دفع أية غرامة تفرض عليه. فلم يستطع تحمل هذه المذلّة العظيمة وعزم وهو في فورة من غضبٍ على ترك المدينة والذهاب الى المنفى. فودّع زوجه وابنه وتوجه بهدوء نحو باب المدينة[٢٦] ووقف هناك ثم استدار وبسط يديه نحو الكاپيتول وصلى للأرباب قائلاً أنه إذا كان خروجه من وطنه متأتياً عن الغدر وسوء النيّة لا لذنبٍ قارفه، فلتكن ندامة الرومان عنه عاجلة. ولتشهد البشرية جمعاء على حاجتهم اليه ورغبتهم في عودته اليهم».

وكان مثله مثل [آخيل Achilles][*] الذي خرج الى المنفى وهو يصب لعناته على بني قومه وأدين دون أن يحضر أو يقدّم دفاعاً عن نفسه وعوقب بغرامة قدرها خمسة عشر ألف [آس Asse][٢٧]، وهي تعادل بعيار الفضة ألفاً وخمسمائة دراخما. وكان [الآس] عملة ذلك العهد، وعشرة من هذه السكة النحاسية تعدل [ديناريوساً Denarius] واحداً أو ما

(٢٥) فاز الپاتريشي باكثرية صوت قبيلة واحد. وسُروّا للغاية من موقف الشعب حتى انهم اصدرو في صباح اليوم الباكر قانوناً يقضي بمنح ستة ايكرات من أراضي (ڤيي) لكل وبّ اسرة. ولكل عازب لا يملك وسيلة رزق واضحة. فقابل الشعب ذلك بالسماح بانتخاب القناصل بدلاً من التريبيونات العسكريين [انظر التفاصيل في ليڤي ٥:٣٠].

(٢٦) كان ذلك بعد الاستيلاء على (فالوري) باربع سنوات اي في ٣٨٩.

(*) الالياذة ١:٤٩٧-٤١٢.

(٢٧) الآس As هي عملة زهيدة القيمة.

سمي بالقطعة ذات العشرة». ولم يبق روماني واحدٌ بعد دعاء كاميللوس إلاّ وهو مؤمن أن جزاءً عادلاً فجائياً سيتبع ذلك الظلم وأنه سيصيب ثأره حتماً للغدر الذي هزّ الدنيا هزا وانما وجده مرّ الطعم ووقعه اليماً. لقد نالت روما عقابها كاملاً بكل ما فيه من خزي وعار وأخطار وحار. والأمر سواء، أكانت نكبتها قضاءً وقدراً أم بسعي أحد الأرباب الذي لم يشأ أن تبقى الفضيلة مهضومة الحق لا ينتصف لها[٢٨].

وأوّل إشارة كانت نذيراً بالكارثة، هي موت الچنصور [يوليوس][٢٩] لأن الرومان يجلّون هذه الوظيفة أجلالاً دينياً ويعدونها من الوظائف المقدسة. والأمر الثاني هو رؤيا [ماركوس كويدشيوس Marcus Coedicius] وهذا رجل لايتمتع بمكانة عالية وليس من الشيوخ، لكنه عرف بالصلاح والاستقامة، قصد هذا تريبيونات العسكر قبل خروج كاميللوس الى منفاه، وأبلغهم بأمر يستدعى التأمل، قال انه كان يمشي ليلة امس في الشارع الذي يسمىّ «بالطريق الجديدة» فناداه أحدهم بصوت جهوري فالتفت فلم يشاهد أحداً وانما سمع صوتاً أقوى من صوت الآدمي ينطق بهذه الكلمات «يا ماركوس كويديشيوس»! اذهب فجر يوم الغد الى تريبيونات العسكر». سخروا من القصة وتندروا عليها، وبعدها بقليل خرج كاميللوس من المدينة الى المنفى.

والغاليوّن هم من الشعب [الكلتّي Celtie][٣٠] قيل أنهم أرغموا على ترك موطنهم لأن بلادهم لا تكفي حاجتهم من الرزق جميعاً فنزحوا انتجاعاً لديار أخرى. وكان فتيانهم والمحاربون فيهم يعدوّن بالآلاف فضلاً عن النساء والأطفال الذين يزيدونهم عدداً، حتى بلغت بهم رحلتهم بحر الشمال واستقروا في اقصى جزء من اوروپا، بن جبال [پيرينيا Pyrenean] وجبال الألب، بعد عبورهم جبال [ريفينا Riphaean] وعاشوا ثمّ زمناً طويلاً مجاورين اقوام (السينون Senones) [الكلتوري Celtorii][٣١] وبعد ان ذاقوا الخمر التي عرفوها لاول مرة مرة ايطاليا فتعلقوا واشاعت فيهم نشوة ولذة لم يجدوها في غيرها فأحتقبوا سلاحهم وزحفوا بنسائهم وأظفالهم نحو جبال الالب سعياً الى الأرض التي تنتج ثمرة هذا العصير غير مبالين

(٢٨) يعتقد الأقدمون ان الربّة (غسيس) تخصصت في الاقتصاص من ذوي الاعمال الشريرة في هذه الحياة. لاسيما الكبرياء ونكران الجميل.

(٢٩) في النصّ الاغريقي خطأ ارتكبه الناسخ الجاهل فقد كتب بدل ذلك «شهر يوليوس» اي تموز. فعند وفاة [يوليوس] هذا، استخلفه ماركوس كورنيليوس في منصب الچنسور. وأفتتحت چنسوريته السيئة لا ينتخب چنسورٌ لملء الشاغر اذا مات السلف. وانما يرغمون زميله الحيّ الآخر على الاستقالة (ليڤي ٥:٣١).

(٣٠) الكلت Celtae هو الاسم الذي يطلقه الاقدمون على سكان الغرب والشمال حتى سكيثيا.

(٣١) اراضي السينوني تشمل السيَن Sen والاوكسير Auxerre وترويي Troye، حتى مدينة (پاريس) ولا يعرف اصل الكلتري ولعل الكلمة مصحفة. لم يرد ذكرهم عند ليڤي (٥:٣٤ و٣٥).

بغيرها من الأراضي وقيل ان شخصاً يدعى [ارنوس] هو الذي عرفهم بالخمر وكان المحرض الأساسي لمجيئهم الى ايطاليا[٣٢] . وهو رجل توسكاني عريق الأصل طيب الخلق، إلاّ انه وقع في المشكلة التالية: كان وصيّاً على يتيم من أغنى ابناء البلاد وأجملهم صورة، اسمه [لوكومو Lucumo][٣٣] . ربي منذ طفولته في كنفه ومع أسرته. وعندما شبّ عن الطوق لم يترك بيت مربيه تعلقاً به وأعلن رغبته في البقاء، وظل زمناً يغازل امرأته وتغازله وتطارحه الحب ويطارحها سراً حتى لم يعد في الامكان ابقاء عاطفتهما في طيّ الكتمان ولا اخفاؤها عن العيون. فاستأثر الشاب بالمرأة بصورة علنية فراجع الزوج القضاء، ولكنه لم ينل حقه بسبب ما تمتع به خصمه من جاه وكثرة مالٍ، فترك بلده، ولسماعه بوجود بلاد الغال توجه اليهم وكان دليلاً لهم في حملتهم على ايطاليا.

في مبدأ دخولهم استحوذوا على كل البلاد التي سكنها التوسكان من قديم الزمان وهي تمتد من جبال الألب الى البحرين كما تشهد بذلك الأسماء. فالبحر الشمالي أو الادرياتي، أخذ اسمه من المدينة التوسكانية [ادريا Adria] أما البحر الواقع الى الجنوب فاسمه «بحر الجنوب» فحسب، وكانت البلاد كلها خصبة، حافلة بالشجر المثمر، والمراعي الممتازة، حسنة الإرواء بمياه الأنهار. وفيها ثماني عشرة مدنة كبيرة جميلة تحفل بالصناعات المختلفة والغنى، وكل مباهج الحياة وافانين اللهو. وطرد الغاليون التوسكان منها وأستقروا فيها وقد جرى هذا منذ عهدٍ جد بعيد.

كان الغاليون في الزمن الذي تتكلم عنه يحاصرون المدينة التوسكانية [كلوسيوم Clu-sium]. فأستنجد أهلها بالرومان وطلبوا التوسط لدى البرابرة بالوفود والرسائل. وبعثوا بثلاثة اشخاص من أسرة [فابي] وكلهم ذوو مكانة عالية وصيت حسن في المدينة، فأحسن الغاليون استقبالهم احتراماً لاسم روما، وأوقفوا الهجوم على الأسوار وجلسوا يتفاوضون معهم. وسأل الوفد عن الأذى الذي نالهم من الكلوسيين فالجأهم الى الاغارة على مدينتهم، فضحك [برينّوس Brennus] ملكهم وأجاب قائلاً ان الأذى الذي الحقه بنا الكلوسيون هم

(٣٢) يحدثنا ليفي ان ايطاليا كان معروفة للغاليين قبل هذا الزمن بمائتين من السنين. وان كان هو الآخر قد نوّه بقصة (اونوس) واستطرد ليقول ان هجرة الغاليين الى ايطاليا وغيرها من البلدان كان سببها ضيق بلادهم عن استيعاب عددهم المتكاثر وان الأخوين بللوفيسوس وسيگوفيسوس أقترعا على الاتجاه الذي سيسلكه كل منهما. فوقعت ايطاليا من نصيب الاول ووقعت المانيا من نصيب الآخر وكان الأول في رأي ليفي أوفر حظاً.

(٣٣) لوكومو Lucumo ليس هو الاسم بل لقب الشاب وهو صاحب لوكوموني. وقد كانت اتروريا مقسّمه الى اثنتي عشرة دويلة من تلك الدويلات.

عـجـزهم عن الزراعـة إلاّ القليـل جداً من الأراضي الواسـعـة التي يمتلكونهـا واصـرارهـم على التمسك بها ورفضهم التنازل لنا عن اي جزءٍ منها ونحن غـربـاء كثيرو العدد فقراء. وانتم أيها الرّومـان أيضاً كنتم على شـاكلتنا، اضربْكم [الألبان، والفيـديناتي Fidenate والأوربان] من قبل، والآن يلحق بكم [الڤيينتيون والكابينات] وكـثير من [الڤاليسكان والڤولسكان] الأذى نفسه، فتستـعبدونهم وتنهبون بلادهم وتستحوذون عليها وتقرّضون مدنهم، ولايعد عملكم هذا من قبيـل القسوة والاعتداء فـانما انتم تتبعون أقدم الشرائع، تلك التي تمنح مقتنيـات الضعيف للقويّ، مبتداها الاله ومنتهـاها الحيـوان فكلّ هذه الكائنات بطبيعتـها تسلّم بحق الأقـوى في غـصب الأضعف فكفاكم أيهـا الرومـان شفقـة على الكلوسيين الذين نُحاصرهم لـئلا تعلّموا الغاليين درساً في العطف على أولئك الذين تظلمونهم، وتحركوا فيهم النخوة لمساعدتهم».

ادرك الرومان من هذا الجواب بأنهم لا قبل لهم باقناع [برينوس] فقصدوا الكلوسيين وراحوا يشجعونهم ويحرضونهم على مهاجمة البرابرة بمساعدتهم. أقترحوا عليهم ذلك إمّا لاختبار قوة أهل المدينة، أو لإظهار شجاعتـهم هم. وتمّ الهجوم وحمي الوطيس بالقرب من الأسوار. وكان أحد الفابيين الثلاثة واسمـه [كوينتوس امبوستـوس] يمتطي جواداً قوياً فـأعمل به مـهمـازيه واندفع كالبرق نحـو أحد الغـاليين وهو رجل ضخم الجسم شديد العضل لمحه وهو على حصانه بعيداً عن الآخرين. ولم تكشف هويتـه في مبدأ الأمر لسرعة القتال ولمعان دروعـه التي حالت دون تركيز الانظار فيـه، لكن [برينّوس] عرفـه حالما جندل الغـالي وبدأ بجمع شكّة سلاحه. فأشهد الآلهة على ما حصل خلافاً للتقاليد والأعراف المتبعة بين الشعوب المعتبر عند الجميع جزءً من الدين، مـشيـراً الى ذلك الذي جـاء في سفـارةٍ سلمية وهـو الآن يشـارك في أعـمـال العدوان ضدّه.

ومـا كان منه إلاّ ان سحب رجاله ورفع الحصار عـن [كلوسيوم] وسار على رأس جيشـه الى رومـا مبـاشرةً. ولم يشـأ أن يبدو عمله هذا ذريعةً واستغلالاً للإهانة وتوخياً لابداء استعداده لتفـادي ايّ سبب للقتـال، أرسل منادياً يطلب الرجل لانزال العقاب به وفي الوقت نفسه استمر في زحفه على رسله.

اجـتـمـع الشيـوخ في رومـا. وكـان كـهنة [الڤيسـيـال] بين الكثـيـرين الـذين نددوا بعـمـل [الفابيين] ومن أكثرهم استنكاراً. وهؤلاء طلبوا من الشيـوخ انطلاقاً من اسباب دينيـة – أن يُحمّل الشخص الذي ارتكب هذا الجرم كلّ الوزر والعقاب الذي يستحقه عمله. وبذلك تبرأ ذمة البقيـة. لقد نصب [نوما پومپليوس] أعدل الملوك وأطيبهم خلقاً هؤلاء [الڤيسيـال] ليكونـوا حمـاة للسلام وقضـاةً ومحكمين في كل الأسبـاب التي تبـرّر اعلان الحرب. وعـمـد

الشيوخ الى إحالة القضية الى مجموع الشعب للبت فيها. وتكلّم الكهنة هناك ضدّ آل فابي كما فعلوا امام الشيوخ. إلاّ أن العامّة استهانوا بسلطة هؤلاء الى الحدّ الذي بادروا معه الى اختيار [فابيوس] واخوته [تريبيونات]عسكريين نكايةً بهم واحتقاراً[٣٤]. ولما سمع الغاليون بذلك استشاطوا غضباً واطرحوا جانباً كل استبطاء، وأسرعوا غاية ما أمكنهم الى هدفهم يشيعون الرعب في من يمرّ به زحفهم ويذهل لعددهم وما تجهزوا به للحرب من عددٍ هائلة، واستبد بهم الخوف للوحشية والعنف اللذين أظهرهما جيشهم اللجب حتى أدركهم الخوف على بلادهم وأعتبروها في حكم الضائعة ولم يعد لديهم شكّ في أن مدنهم ستلحق ببلادهم، ولكن الغاليين خلافاً لما كان متوقعاً - لم يلحقوا بالمدن ضرراً خلال مرورهم، وأعلنوا بأنهم ذاهبون الى روما وان الرومان هم اعداؤهم لا غير وانهم يعتبرون كل الأقوام الأخرى اصدقاء لهم.

وبينما واصل البرابرة زحفهم السريع ساق التريبيونات العسكريون الرومان في ساحة القتال استعداداً للحرب ولم يكونوا أقل عدداً من الغاليين[٣٥] (إذ كان عدد مشاتهم لا يقل عن اربعين ألفاً) على أن غالبيتهم جنود مستجدون، لا عهد لهم بسلاحٍ قبلاً ذلك، زد على هذا انهم كانو قد اهملوا فرائضهم الدينية تماماً، ولم يتسيرّ لهم أضاحٍ مناسبة ولم يستخيروا المتنبئين وهو ما جرت به العادة في أوقات الخطر وقبل المعركة. ولم يكن الجم الغفير من القادة بأقل أهمية ينتخبون زعيماً واحداً ويمنحونه لقب [دكتاتور] لإدراكهم أهمية توحيد الجنود كلهم تحت أمره جنرال واحدٍ في الأيام العصيبة، وبوضع السلطة المطلقة كلها في يديه، أضف الى كل هذا، ان الضباط تذكروا معاملة كاميللوس لجنوده فحرصوا الآن في قيادتهم على أن يتطامنوا لجنودهم ويتحروا رضاهم وتركوا المدينة وهم على هذه الحال وعسكروا بالقرب من نهر آلليا Allia على بعد عشرة اميال تقريباً من رومه. وعلى مسافة غير بعيدة من مصبّه في [التيبر] وهذا داهمهم الغاليون وبعد مقاومة ضعيفة مخزية هزموا هزيمة شنعاء ودب الخلل في صفوفهم وسادتهم الفوضى ودفعت ميسرتهم بطرفة عين الى النهر وهلكت كلها. اما الميمنة فلم يلحقها التلف لانها تفادت الاصطدام بانسحابها من الأرض المنخفضة الى رؤوس التلال ومن هذه المواقع تمكن القسم الأكبر من ولوج المدينة. وامّا الآخرون فقد هرب الكثير منهم ونجوا، وتعب العدوّ من كثرة القتل، وانسحب ليلاً الى [ڤيي] وهو على يقين بأن رومه لن تقوم لها قائمة وأن من فيها في حكم الهلكي.

---

(٣٤) كان ذلك في العام ٣٨٧ ق.م بجسب رأي بعض المؤرخين أو ٣٨٨ بحسب رأي آخرين.

(٣٥) في الواقع كانوا أقل عدداً منهم لأن الغاليين كانوا قد حشدوا سبعين ألفاً لذلك اضطر الرومان قبل الاشتباك الى مدّ جناحيهم بحيث اضعفوا القلب. فكان ذلك من اسباب انكسار صفوفهم بسرعة.

جرت هذه المعركة في حوالي التغير الشمسي الصيفي[٣٦] وكان البدر تماً. وهو عين اليوم الذي حلت الفاجعة الآليمة [بالفابي] عندما وقع ثلاثمائة رجل من هذه الأسرة بيد التوسكان فافنوهم عن بكرة ابيهم. ومن هذه الخسارة الثانية ومن الهزيمة أطلق على ذلك اليوم اسم [اللينسس Allinsis] نسبةً الى النهر (ألليا)[٣٧] ومازال يسمى به.

اما موضوع الأيام النحسة، وهل يجب علينا أن نعتبر أيّا منها كذلك، وهل أحسن هيراقليطس صنعاً في تأنيب [هسيود] لتقسيمه الأيام الى أيام نحسٍ وايام سعدٍ. وبلوغه من الجهل حدّ اعتباره الأيام سواء لاتختلف، فكلّ هذا ناقشتهُ وبحثتهُ في موضع آخر. ولكن مناسبة هذا الموضوع لا تجعلني[٣٨] خارجاً عن الصدد إن أوردت امثلة قليلة نتعلق به. ففي اليوم الخامس من شهر [هيپودروس] البويّوسي الذي يوافق شهر [هيكاتومبيون] الآثيني حقق البويوسيون نصرين فريدين، أولهما في [ليوكترا Leuctra] والآخر في [جريستوس Geres-tus] وذلك قبل ثلاثمائة عام وفيهما قهروا [لاتمياس Lattamyas] والتساليين، وبهما تأيدت حرية اليونان واستقلاله. وفي يوم السادس من شهر [بيودروميون] الحق الأغريق الهزيمة المنكرة بالفرس في معركة (ماراثون). وفي اليوم الثالث هزموهم في پلاطيا Plataea، كما هزموهم كذلك في [ميكاله Mycale]، وفي اليوم الخامس والعشرين دحروهم في معركة (اربيلا) ونال الآثينيون نصرهم البحري في [نخسوس] بقيادة [خابرياس] في تمام بدر شهر [بيودروميون]، وغلبوهم في اليوم العشرين منه في سلاميس كما بيّنا في رسالتنا «عن الأيام». وكان شهر [ثارجيليون Thargelion] أنحس شهر للبرابرة ففيه تغلّب الاسكندر على قادة [داريوس] في [غرانيكوس Granicus] وتغلّب [تيمولون] على القرطاجنييّن في صقلية. في اليوم الرابع والعشرين واليوم نفسه والشهر نفسه يبدو على قول كل من ايفورس Ephorus وكاللستينس Callisthenes[٣٩أ] وداماستس Damastes[٣٩]. إن طراودة

(٣٦) في السادس عشر من تموز من العام ٤٧٦ ق.م سقط الفابيّ.

(٣٧) Torrento de Catine. وقد أشير الى اليوم في التقويم الروماني اشارة واضحة باسم Dies Alliensis.

(٣٨) عمد الاقدمون الى اعتبار ايام مهنية ايام نحس، وأخرى ايام سعد اما لقوة سحرية عزوها في الاعداد بسبب طبيعة الآلهة التي تشرف عليها. أو جراء متابعة الاحداث الاليمة والسعيدة التي تقع في ايام مخصوصة ونحن نجد ان هسيود وڤرجيل قد اهتما ببحث هذه الفروق التي لا علاقة لها بالفلسفة.

(٣٩) التساليون بقيادة [لاتامياس] اندحروا امام البويوتيين قبيل معركة [ثرموپيلي] وقبل اكثر من مائة عام من معركة لڤيكترا. هناك ايضاً خطأ في اسماء ومواضع بويوتية فـGeraestus ؛ جيريستوس، يجب ان تقرأ Geressus (جريسوس. لان الأولى هي نتوء داخل في ايڤيا. والثانية هي قلعة في بويوتيا. راجع پاوسنياس ٩:١٤.

(٣٩ أ) كاللستينس المؤرخ أحد تلاميذ ارسطو. راح ضحية شكوك سيده الاسكندر المقدوني الذي كان قد دون سيرته، وداماستس هو من مدينة سيكيوم Sigeum. خلف بعض الآثار التاريخية منها تاريخ =

فتحت. ويظهر من الجهة الأخرى أن شهر [ميتاغتنيون Metagitnion] الذي يسمىّ [پانيموس Panimus] في [بويوسيا] ليس بالشهر السعيد تماماً عند الأغريق ففي اليوم السابع منه هزمهم [انتيپاطر Antipater] في موقعة [كرانون Cranon] والحق بهم الدمار التام. وقبلها هزمهم [فيليب] في [خيرونيا] وفي اليوم والشهر والعام عينها أباد البرابرة كل أولئك الذين غزوا ايطاليا بقيادة [ارخيداموس Archidamus] [٤٠]. ويهتمّ القرطاجنيون أيضاً باليوم الحادي والعشرين من الشهر نفسه لأنهم مُنوا فيه بافدح الخسائر في الأرواح وباشنع هزيمة. ولست أجهل أن الاسكندر دمرّ طيبه للمرة الثانية في حدود ايام «عيد الأسرار». وبعدها في العشرين في الشهر نفسه (اي بيودرميون) إصطدم الآثينيون بالجيش المقدوني، وهو اليوم الذي أخرجوا فيه الصوفيّ اياكوّس Jacchus وفي اليوم ذاته. فقد الرومان جيشهم الذي كان بقيادة [كيپيو Caepio] على يد الكمبريين Cimbri[٤١] وفي السنة التالية تغلبوا على الأرمن و[ديكران] بقيادة (لوكوللوس Locullus]، ومات الملك [أطالوس Attalus] وپومپي كلّ في يوم ميلاده. والمرء يمكنه أن يتذكر كثيراً من الناس كانت حظوظهم متقلبة مختلفة في اليوم نفسه.

على أية حالٍ كان ذلك اليوم من أيام النحس عند الرومان ولأجله اعتبر يومان آخران كذلك[٤٢]، في كل شهر. وسيطر الخوف والخرافات أكثر فأكثر كما تفرض العادة. على اني اسهبت في شرح ذلك بدقة في «مسائلي الرومانية».

ولو أن الغاليين طاردوا الهاربين بعد المعركة حالاً، لما نفع علاجٌ في انقاذ روما من الدمار التام ولما سلمت البقية الباقية من الهلاك. واستبد الرعب بأولئك الذين نجوا بحياتهم من المعركة فسرى منهم وانتشر في المدينة وزرع الفوضى والقلق في النفوس. ولكن الغاليين لم يدركوا جسامة النصر الذي حازوا، وتملكهم الفرح فعكفوا على اللهو والولائم وتوزيع الغنائم والأسلاب وبذلك منحوا فرصة لأولئك الذين تأهبوا لمغادرة المدينة والنجاة، وأمهلوا أولئك الذين آثروا البقاء، للتأهب والإستعداد لهم. وهؤلاء الذين قرروا البقاء، تركوا المدينة كلها واحتشدوا في الكاپيتول بعد أن حصنوه باسوار جديدة ونصبوا عليه مجانيق.

وكان في مقدمة ما أهتموا به ذخائرهم المقدسة فنقلوا معظمهما الى الكاپيتول إلاّ أن

= انساب (ثوسه) في حصار طروادة.

(٤٠) كان هذا الأسير في طريقه الى نجدة [تارنتوم] عندما قتل في [مادوريا] وهي مدينة قريبة من مدينة كاسال نوڤو في كالابريا.

(٤١) حصل هذا في العام ١٠٤ ق.م وكانت خسارة الرومان تربو على ثمانين الفاً.

(٤٢) اليوم الذي يلي (كالند) واليوم الذي يلي (ايدز) في كل شهر.

[عذارى ڤستا] حملن النار المقدسة وهربن بها مع ذخائرهن المقدسة الأخرى. ويقول بعضهم أنه لم يكن في عهدتهن غير النار الخالدة التي رسم [نوما] أن تعبد بوصفها مصدر الأشياء كلها. لأن النار هي أشدّ كائن فعاليةً في الطبيعة. وكل حادثٍ هو إمّا حركة، وإمّا تلازمه حركة وكلّ اجزاء المادة الأخرى، ما دامت بدون حرارة، تبقى جامدة ميتة وتتطلب اضافة نوع من الحياة أو الفعالية في عنصر الحرارة، وعند هذه الإضافة - بأي شكلٍ تمت - فإن المادة تكتسب قابلية الفاعلية، أو المفعوليّة. ولهذا السبب جعل [نوما] للنار حرمة وقدسيّة، وأمر أن تبقى مشتعلة بأستمرار بوصفها صورة للقوة الخالدة التي تنبعث منها وتصدر عنها كل الأشياء، ولهذا عرف [نوما] بالنبوغ والحكمة التي أدت بالناس الى الظنّ بأنه متصل [بالميوزات]. ويقول بعضهم الآخر أن هذه النار تبقى موقدة أمام الذخائر المقدسة، كما تبقى في بلاد اليونان لأجل التطّهر، وان هناك أشياء أخرى مكنوزة في أكثر اجزاء المعبد سرية لتظّل في نجوة عن الانظار كافة، خلا تانك العذارى اللاتي يسمين بالڤستالات. وأكثر الآراء شيوعاً هو أن تمثال [باللآس] الذي جلبه [اينياس] الى ايطاليا - محفوظٌ هناك. على ان بعضهم يقول أن تماثيل الساموتراقيين Samothracions هي المحفوظة هناك ويقصون كيفية نقل [دردانوس Dardanus][٤٣] لها الى [طروادة]، وكيف أنه أقام تلك الطقوس عند بنائه المدينة وأوقف تلك التماثيل عليها. وبعد أن تمّ الاستيلاء على المدينة سرق [إينياس] تلك التماثيل وأحتفظ بها لديه حتى جاء الى ايطاليا. إلاّ ان أولئك الذين يدعون معرفة بالموضوع أكثر من هذا يؤكدون وجود برميلين حجمهما ليس بالكبير أحدهما مفتوح ليس فيه شيء، والاخر مختوم وممتليء. ولكنهم لم ير أي واحدٍ منهما مخلوقٌ خلا إقدس العذارى. ويظنّ آخرون أن من يقول هذا وأهمٌ وان مصدر وهمه هو أن العذارى وضعن معظم ذخائرهن المقدسة في برميلين في زمن الغزو الغاليّ هذا، واخفينها تحت اطباق الثرى في معبد [كويرينوس] ومنذ ذلك الزمن والموضع يسمّى «البراميل».

ومهما يكن من أمرٍ، فإن العذارى حملن اثمن الأشياء وأهمهّما، وهربن بها، وأخترن طريق فرارهن بحاذاة النهر، حيث كان يسلك الطريق نفسه، مواطن بسيط من رومه يدعى [لوشيوس

(٤٣) قيل ان [دردانوس] الذي عاصر موسى الكليم (حوالي ١٤٨٠ ق.م) كان اصله من اركاديا. وقد رحل عنها الى ساموثراكي. وبعدها تزوج (ناتيا) أو (اريستا) بنت تيوكر Teucer فريجيا. ذكرنا فيما سبق شيئاً عن الآلهة الساموثراكية، ونزيد هنا قول [ماركوبيوس]. وهو ان الآلهة ماكين Dü Magni التي جلبها (دردانوس) من ساموثراكي هي في الواقع آلهة البيت التي جاء بها (اينياس) من هناك الى ايطاليا. ويقول [ديون] انه شاهد تلك الآلهة في معبد قديم بروما. وهما من صناعة موغلة في القدم تميلات شابين جالسين وبيد كلٍ رمح.

البينيوس Lucius Albinius] وهو من بين من فر. وقد أدركهنّ بعجلته التي حملّها زوجته وأطفاله ومتاعه، وشاهدهنّ وهن يرزحن تحت عبء الذخائر المقدسة الخاصة بالأرباب، وفي حالة من الأعياء والضنك لا توصف، فأنزل زوجه وأطفاله وأخرج امتعته واركب العذارى في العجلة لكي ينجين بها الى أحد المدن الاغريقية(٤٤). إن هذا العمل الورع والاحترام الذي أظهره [البينيوس] بهذا الشكل البارز، تجاه الألهة في هذا الوقت العصيب، لايمكن ان يمرّ به المرء مَرّ الكرام ولا يصحّ. السكوت عنه. على أن الكهنة الذين يخدمون أرباباً أخرى، وأكبر الشيوخ سِناً، وهم قناصل سابقون لما ذاقوا لذة النصر وتمتعوا به، عَزّ عليهم مغادرة المدينة. فأرتدوا ثيابهم الدينية المقدسة بالنفيسة. وقام [فابيوس] الكاهن الأعلى باكمال مراسيم الصلاة وقدم الجميع نذورهم الى الآلهة(٤٥). وبعزم منهم على جعل حياتهم فداءً لبلادهم جلس كُلّهم على كراسيهم العاجية في [الفوروم](٤٦)، منتظرين ما سيأتي به القدر. وفي اليوم الثالث للمعركة ظهر [برينوّس] على رأس جيشه في المدينة. ووجد ابوابها مفتوحة على مصاريعها ليس عليها حراس ولا رأى فوق الأسوار جنوداً، فداخله الشكّ أوّل الأمر وظنها خطة مبيتة للايقاع به، أو حيلة لاستدراجه، ولم يحلم أن الرومان بلغوا هذا الحَدّ من اليأس والقنوط. لكن لما تحقق من الأمر، دخل من الباب الكولليني Colline وأستولى على روما في المائة الثالثة والسنة الستين من بعد بناء المدينة بزمن قليل هذا إن جاز لنا افتراض وجود سجلّ تاريخي دقيق بالاحداث السابقة(٤٧) التي كانت هي نفسها السبب في صعوبة تحديد الفترات الزمنية للأحداث التاريخية التالية لها ويبدو أن بعض الإشاعات البسيطة قد تسربت الى بلاد اليونان عن فتح المدينة. أذ نرى [هيراقليدس پونتيكوس] الذي عاش بعد هذه الحوادث بزمن وجيز(٤٨)، يتحدث في كتابه «عن الروح»: بأن خبراً ورد من الغرب، عن جيش متقدم من

---

(٤٤) يذكر ليڤي ان [البينوس] قادهم الى (كايري) وهي من مدن (اترويا) وحسن استقبالهم. وكان بينهم بعض الكهنة والكاهنات الرومان الهاربين. بقيت القستالات زمناً طويلاً في (كايري) يمارسن واجباتهن الدينية المعتادة. ومن هنا جاءت كلمة [كيريمونيا Ceremonie] كنعتٍ لطقوسهن.

(٤٥) يعتقد الرومان ان الاضطراب والفوضى سيشيعان بين صفوف العدو بهذه القرابين التي تقدم لربة جهنم.

(٤٦) هذه الكراسي العاجية كورولي Curule لايجلس عليها الاّ من تقلد ارفع المناصب. ان من يحق له استخدامها يحمل أيضاً عصا عاجيّة.

(٤٧) يقول ليڤي (٦:١) في تلك الازمان لم يهتم الرومان كثيراً بالكتابة ثم ان تعليقات الكهنة وغيرها من المدونات المتخلفة الخاصّة منها والرسمية قد تلفت عندما أحرق الغاليون المدينة.

(٤٨) عاش في ذلك العصر بالذات. كان أوّلاً تلميذاً لافلاطون ثم لأرسطو وكان افلاطون في الحادية والاربعين عندما أجتحت روما. وهذا الاحتلال لم يخلّف صدى داويا في بلاد الاغريق مما يدل على أن العلاقة بين القطرين كانت ضعيفة لايؤبه بها.

بلاد [الهيپربوريين Hyperborian] قد استولى على مدينة اغريقية تدعى روما وان الغزاة أستقروا في موضع ما من تخوم البحر المحيط. ويظهر ان أفلاطون الفيلسوف كان قد سمع انباء صحيحة عن فتح الغاليين المدينة، لكنه يسمى منقذها «لوشيوس» في حين لم يكن هذا لقب كاميللوس، بل «ماركوس»، على أن هذا موضع أخذ وردّ وتخمين. ونعود الى موضوعنا: بعد أن وقعت روما في قبضة [برينوّس]، وضع حرساً قوياً حول الكاپيتول ثم قصد الفوروم وهناك علته الدهشة لمنظر العدد الكبير من الرجال وهم جالسون على تلك الصورة والصمت يخيم عليهم. ولاحظ انهم لم يقوموا عند مجيئه ولم تتحرك عضلة في وجوههم أو تغير شيء من قسماتهم وانما ظلوا غير مكترثين أو خائفين مستندين على عصيّهم جالسين بكلّ سكون يحدق أحدهم في الآخر. وبقي الغاليوّن مسمرين في الأرض برهة طويلة يتأملون بدهشة في المنظر العجيب، لايجراؤن على التقدم اليهم أو لمسهم، متوهمين بأنهم جماعة من المخلوقات التي تفوق البشر، ثم أنّ واحداً منهم كان أكثر شجاعة من زملائه. تقدم من [ماركوس پاپيريوس Marcus Papirius] ومد يده ومَسّ ذقنه بلطف ومَسَد لحيته الطويلة فرفع پاپيريوس عصاه وأهوى بها على رأس الغالي بضربة شديدة فانتضى هذا سيفه وقتله، وبدأت بذلك المذبحة اذ حذا الباقون حذوه ووقعوا فيهم قتلاً وأفنوهم ثم استداروا ليضعوا السيف في رقاب كل من اعترض سبيلهم وراحوا ينهبون البيوت ويسلبون ما فيها واستمروا عدة أيام في ذلك، ثم اشعلوا النار بها وهدموها حتى سوّوها بالقاع، وقد أثار حنقهم أولئك المتحصنون في الكاپتول لأنهم لم يقبلوا الإستسلام، وإنما راحوا يصدون هجومهم من مواقعهم الدفاعية ملحقين بعض الخسائر وهذا ما استفزهم ودفعهم الى احراق المدينة ووضع السيف في رقاب كل من وقع في ايديهم صغيراً كان أم كبيراً، رجلاً أم امرأة بالغاً أم طفلاً.

واستمرّ حصار الكاپتول زمناً طويلاً، وبدأ الغاليون يشعرون بحاجتهم الى المؤونة[٤٩]، وقسموا قواتهم، جزءٌ منها بقي مع ملكهم يضيق الحصار على الكاپتول والباقي خرجوا للغزو ونهب المدن والقرى وانتزاع الأرزاق اينما حلّوا، وتفرقوا الى زمرٍ وعصابات كل منها توجه الى ناحية لا على وجه التعيين وبدون خوفٍ أو اكتراث لما قد يجابهها من أخطار. على أن أكبر وحدةٍ منهم وأكثرها نظاماً توجهت الى مدينة [ادريا] وهي المدينة التي أختارها [كاميللوس] سكناً له منذ رحيله عن روما... وكان قد اعتزل كلّ عملٍ وقنع بالعيش الهادىء لكن روحه بدأت الآن تتوثب ويدب فيها النشاط. ولم يفكر في اجتناب العدو أو الفرار. بل في التربص

(٤٩) لم يكن الغاليون مستعدين للحصار كما ان كلّ احتياطي الغلة كان مختزناً في (ڤيي) انظر (ليڤي ٥:٤٢).

بفرصة للثأر منه وكان مدركاً أن الادرياتيين لا يشكون نقصاً في الرجال وأنّما هم بحاجة الى المغامرة والتدريب بسبب قلّة تجربة ضباطهم وجبنهم. فبدأ يتحدث الى الشبان أوّلاً بقوله لهم انهم يجب الاّ يعزوا نكبة الرومان الى شجاعة عدوّهم، ولا الخسائر التي نزلت بهم بسبب أفن الرأي قيادة الرجال الذين لاحق لهم في النصر وان الحدث كان شاهداً على سلطان القدر وتحكمه، وأنه من البسالة حتى عند الخطر - أن يُصدّ غازيا بربريا اجنبياً، غايته من الحرب أن يدمّر ويخرّب، كما تفعل النار. فاذا تحلوا بالشجاعة والعزم فهو مستعد لوضع فرصة للنصر بين ايديهم، دون تريث قطّ. ولما وجد الشبان ميّالين الى ذلك، قصد حكام المدينة ومجلس شوراها، وأقنعهم أيضاً، ثم جَنّد كُلّ قادر على حمل السلاح ورتبهّم ووزعهم داخل الأسوار بأسلوب يصعب على العدوّ ملاحظة وجودهم وكان العدوّ قد اقترب بعد أن اكتسح البلاد وجردها كل شيء وبات الآن وهو مثقل بالغنائم، وضرب خيامه في السهول دون ان يأخذ بأسباب الحذر والحيطة. وقضى ليلته في فجور وشراب ولهوٍ حتى خارت قوى الجنود وتطرحوا اعياء وساد السكون التام في المعسكر ولما علم كاميللوس من كشافته بحقيقة الأمر خرج بالادرياتيين عليهم، وفي هدأة الليل قطع المسافة التي تفصل بين العسكرين بكلّ سكون حتى بلغ مواقعهم وأمر بان يُنفخ في الأنفار، وان يطلق رجاله صيحة الحرب فأوقع الرعب فيهم من كل جهةٍ في حين أن السكر والنعاس اثقلا حركة عدوّهم. ودفع الخوف ببعضهم الى الصحو والعمل على تنظيم صفوفهم بكيفية ما تمكّنهم من المقاومة فترة من الزمن وماتوا وسلاحهم في ايديهم. إلاّ ان القسم الأكبر منهم فوجئوا وهم غارقون في سكرهم ونومهم فذبحوا قبل أن تصل ايديهم الى سلاحهم. أما الذين استفادوا من ظلام الليل وهربوا، فقد عثر عليهم مبعثرين هائمين على أوجههم في الحقول وأسرتهم الخيالة التي أرسلت لمطاردتهم.

وذاعت انباء هذه الموقعة بسرعة وانتشرت في المدن المجاورة وبعثت روح الحماسة في الشباب ودفعتهم الى القدوم من كلّ حدب وصوب والتطوّع في جيشه. ولم يكن متحمساً لذلك، أكثر من أولئك الرومان الذين نجوا من معركة [آليا] ولجأوا الى [ڤيي]، فقد راحوا يتحسرون ويلومون أنفسهم بقولهم:

- أيتها السماء! أيّ قائد حرمت المشيئة الآلهية رومه، لتكرم (ادريا) وترفع من قدرها بمآثره! وتلك المدينة التي ولدت ربّت هذا الرجل العظيم ضاعت الآن وذهب ريحها، ونحن الآن بلا قائد، خلف أسوار أجنبيّة. عاطلون نشاهد ايطاليا يحيق بها الخراب امام أعيننا. تعالوا نبعث الى الادريانيين نطلب منهم ارجاع قائدنا الينا، أو أن نذهب نحن اليه والسلاح في ايدينا، لأنه لم يعد شخصاً منفياً، ولم نعد نحن مواطنين وبلادنا في قبضة العدوّ.

واتفقوا جميعاً على هذا وأرسلوا الى كاميللوس يطلبون توليه القيادة لكنه اجاب بأنه لن يفعل ذلك إلاّ اذا أصدر أولئك الذين في الكابتول، أمراً بتعيينه بصورة شرعية. لأنه يجلهّم ماداموا في الوجود ويعتبرهم منتخبيه(٥٠)، فإذا أمروه فسيطيع بلا تردد، ولن يقحم نفسه في شيء إن لم يكن برضاهم. وأعجب الرومان بتواضع كاميللوس وخلقه لدن ابلغوا بجوابه هذا، لكنهم وقعوا في حيرة. بخصوص العثور على رسول لأبلاغ الكابتول بالقضية. أو بالأحرى كان يبدو ضرباً من المحال وصول ايّ شخصٍ الى القلعة والعدوّ يطوقها ويحتل المدينة تماماً.

وكان بين الشبان فتى اسمه [پونتيوس كونينيوس Pontius Coninius] من أسرة لاتمتاز بشيءٍ، لكنه جسور مقدام ملبّ لداعي المجد. عرض نفسه لأخطار الرحلة ولم يأخذ معه اية رسالة لجماعة الكابيتول لئلا يعرف العدوّ نوايا كاميللوس، في حالة وقوعه في ايديهم. وارتدى ثياباً رثة أخفى تحتها قطعاً من الفلّين وقطع معظم رحلته غير متخفٍّ وفي وضح النهار، حتى وصل المدينة ليلاً، ولم يتمكن من عبور الجسر لأن البرابرة كانوا يحرسونه، فنضا عنه ثيابه ولم تكن كثيرة أو ثقيلة وشدها حول رأسه وعومّ جسمه بالفلينّ سابحاً الى المدينة فدخلها مجتنباً الأحياء التي كان العدوّ فيها يقظاً مهتدياً الى ذلك بأصواتهم والضياء. وقصد الباب الكرمنتالي حيث الهدؤ أعظم وتلّ الكاپتول أشدّ انحداراً ووعورة لكثرة ما على سطحه من الصخور الحادة والمشققة. وصعّد هذا السفح ووصل بكثير من المشقة الى جوف الجُرف وقدّم نفسه للحراس وسَلّم عليهم وأعلمهم باسمه، فأخذه الى القُواد، وأستدعى مجلس الشيوخ حالاً فشرع يقصّ عليهم بالترتيب انباء نصر كاميللوس الذي لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً. واحوال الجنود ومفاوضاتهم، ثم راح يلّح عليهم بتثبيت آمريّة [كاميللوس] فهو الوحيد االذي يعتمد عليه بنو قومهم خارج روما. وبعد سماع المجلس ذلك، ومداولته قرر تعيين كاميللوس دكتاتوراً وارسلوا [پونطيوس] من حيث أتى فتمكن من أختراق صفوف العدو من غير أن يكتشف أمره وحالفه النجاح في ايصال قرار الشيوخ الى الرومان خارج روما، فتسلموه فرحين.

ولدى وصول كاميللوس وجد عشرين الف محارب شاكي السلاح متأهباً. وبهذا العدد، وبما أحضره من القوات الحليفة تهيّأ للاشتباك مع العدوّ.

وفي روما، بينما كان بعض البرابرة يمرون بالصدفة بالموضع الذي سلكه [پونطيوس] ليلاً

(٥٠) ويحدثنا (ليڤي) ان الجنود الرومان في (ڤيي) تقدموا الى من تبقى من اعضاء مجلس الشيوخ في الكابتول.. بطلب الأذن لهم أن يعرضوا القيادة على (كاميللوس) وهذا دليل على النضج السياسي الذي تحلى به المواطن الروماني.

للوصول الى الكاپتول، اكتشفوا آثار ايدٍ واقدام في عدة أماكن مسيره وتسلّقه، كما وجدوا في مواضع أخرى بقعاً على سطوح الصخور أزيلت نبتاتها ومواضع أنهيار ترابي جديد، فرجعوا الى الملك وأبلغوه بذلك فذهب وشاهدها بنفسه ولم يقل شيئاً في حينه وعند حلول الليل أختار من رجاله البرابرة أرشقهم قداً وأكثرهم اعتياداً على التسلق لعيشهم في الجبال. وخطب فيهم قائلاً:

- إن العدوّ قد دلّنا بنفسه على طريقة للتغلّب عليه، لم يكن لنا علم بها من قبل، وبرهن لنا أنها ليست بالصعبة أو المستحيلة على همم الرجال. ومن العار الكبير أن نحسن العمل بالبداية ونفشل في النهاية، فيدركنا اليأس ونتولى عن موضع متوهمين انه لايقتحم في حين اثبت لنا العدوّ بالذات وجود وسيلة قد تؤدي الى الاستيلاء عليه. وما يسهل بلوغه على رجل واحدٍ، لن يكون صعباً على الكثير من الرجال، واحداً بعد واحدٍ، اما ان اضطلع بالأمر جماعة فسيكون كل واحد منهم عوناً وقوة للآخر وسيكافأ كُلّ رجل يُبلي بلاءً حسناً ويكرّم تكريماً.

لما سمع الغاليون اقوال الملك، قبلوا المهّمة بكلّ سرورٍ، وما أن حَلّ الليل بهدوئه حتى بدأت جماعة كبيرة منهم تتسلق المرتفع الصخري معاً بكلّ سكون متشبثين بالنتوءات الصخرية الشديدة الانحدار، ومصعدّين بمشقة لم تكن بالكبيرة كما توقعوا في أوّل الأمر، حتى أن الزمرة الأولى منهم سبقت الى القمّة ونظمت صفوفها وفاجأت نقاط الحراسة الخارجية واستولت على مواقع المراقبة وكان رجالها يغطون من نومهم إذ لم يلحظ زحفهم كلبٌ أو رجل. ولكن كان يوجد بالقرب من معبد [جونو] اوزّ مقدّس[٥١]، هذا الأوز كان يُعنى باطعامه وتغذيته في الأوقات الاعتيادية أما الآن فقد امست حالته سيئة بسبب شح القمح. وهذا الحيوان مستوفز، دقيق السمع بطبيعته، حسّاس لأقل صوت أو حركة. وقد زاد الجوع من رهافة حسه وابقاها يقظة قلقةً، فأنتبهت حالاً الى مقدم الغاليين فضجّت وراحت تصيح وتتراكض هنا وهناك حتى ايقظت كل من في المعسكر، وكان البرابرة في الجهة الأخرى فادركوا أن أمرهم قد أنكشف فلم يحاولوا اخفاء محاولتهم وتقدموا للهجوم وهم يصيحون ويضجون. وأسرع الرومان يمسك كل منهم بأوّل سلاح تقع يده عليه، وفعلوا ما أمكنهم في ظرف مفاجيء كهذا وكان [مانِليوس Manlius] وهو ذو منصبٍ قنصلي، وقوة في الجسم، وشجاعة نادرة، أول من

(٥١) بات الأوز منذ ذلك الحين موضع تكريم أهالي روما. وظلّ يربّى عدد كبير فيه على حساب الخزينة العامة. ونصب تمثال ذهبي للحيوان تخليداً لأولئك الابطال. وكان يطاف بعدد من الأوز كل سنة محمولاً على وسائد من المخمل ذات زخارف ونقوش انيقة، في الوقت الذي تمت عندهم كراهة الكلاب فكانوا يخوزقون واحداً سنوياً بخشبة [پليني وپلوتارخ].

تصدى للمهاجمين واشتبك في قتال مع اثنين من رجال العدوّ في آن واحدٍ فقطع بحدّ سيفه ذراع أحدهم اليمنى، اثناء ما كان هذا يرفع سيفه ليهوي به. ثم صفع وجه الآخر بدرقته فسقط وهوى من أعلى الصخرة ثم علا المتاريس ووقف صامداً فلحق به آخرون لشدّ ازره. ودفع الباقين الى التقهقر، ولم يكن عددهم كبيراً في الواقع ولم يحققوا شيئاً يستحق الذكر في هذه المحاولة الجريئة.

بعد أن نجا الرومان من هذا الخطر أمسكو بضابط المراقبة في الصباح اليوم الباكر وقذفوا به من أعلى الصخرة على رؤوس اعدائهم وصوّتوا لمنح مكافأة [لمانليوس] على نصره. وكانت مكافأة رمزية ترمي الى تكريمه لا منفعته. فقد قدم له كل رجل منهم جرايته اليومية من الارزاق وهي نصف پاوند من الخبز وثُمن پاينت من الخمر.

ومن تلك الموقعة بدأت أحوال الغاليين تسوء وتتردى يوماً بعد يومٍ، وأدركتهم الحاجة الى الطعام، إذ لم يعد باستطاعتهم نهبه من الانحاء المجاورة خوفاً من كاميللوس(٥٢)، وتفشت فيهم الأمراض بسبب العدد الكبير من الجثث التي تكومت أكداساً ولم تدفن. ولما كانوا يعيشون بين الخرائب والرماد المتكدس طبقات كثيفة تأتي الريح وتثيره، بالأضافة الى الحرارة الشديدة الخانقة، فقد اصبح الهواء جافاً مخنقاً، وأدّى استنشاقه الى تدمير صحتهم. على أن السبب الأساسي هو تبدل المناخ عليهم، لاعتيادهم العيش في بلاد جبليّة كثيفة الظلّ، كثيرة الوسائل الواقية من الحرّ. وهم الآن في أرضٍ منخفضة غير صحيّة بالمرة وفي فصل الخريف(٥٣). أضف الى هذا فترة الحصار الطويلة ومصاعبه، فقد تصرمت عليهم سبعة أشهر وهم امام الكاپيتول. ولذلك كان التلف فيهم عظيماً وتصاعد عدد الموتى بينهم حتى عجز الاحياء عن دفنهم، ولم تكن أحوال المطوقين في الواقع بأحسن من البرابرة مطلقاً فقد تفشت المجاعة بينهم وزادت حدةً، وتعاظم يأسهم لعدم سماعهم شيئاً عن كاميللوس لاستحالة ارسال مبعوث اليه بسبب حراسة البرابرة الشديدة. وهكذا ساءت أحوال الطرفين بحيث بدأ حديث عن الصلح فيما بين جماعات من ربايا المتحاربين عندما راحوا يتبادلون الأحاديث، وتبنىّ الفكرة قادة الطرفين. واتصل [سولپيشيوس Sulpicius] التريبيون الروماني بزعيم الغاليين برينوّس، وتمّ الإتفاق على أن يدفع الرومان ألف وزنة من الذهب، للغاليين، ليجلو هؤلاء عن المدينة وتخومها حال تسلمهم الفدية. ووثقت المعاهدة باليمين وجيء بالذهب إلاّ ان الغاليين

(٥٢) كان كاميللوس بعد سيطرته التامة على الريف قد وضع حاميات ونقاطاً عسكرية في جميع الطرق، فاصبح محاصراً لمحاصريه!

(٥٣) خريف روما في العادة سيء.

وضعوا موازين مغشوشة سراً في مبدأ الأمر ثم أخذوا يسحبون الميزان ويخلّون بالوزن بصورة علنيّة. وطفق الرومان يحتجون ساخطين، وعندها نزع برينّوس سيفه ومنطقته بأسلوب استفزازي مهين وقذف بهما الى كفة الموازين وعندما سأله [سولپشيوس] عن القصد من ذلك. فأجابه «ماذا يمكن أن يقصد منها إلاّ الويل للمغلوب؟»(٥٤) فسارت مثلاً من الأمثال وثار الغضب ببعض الرومان حتى فكروا في حمل ذهبهم والعودة للبناء تحت وطأة الحصار، ومال بعضهم الى التغاضي، والتغافل عن اهانة طفيفة، وأن لا يعتبروا العار في دفعهم أكثر مما هو واجب مادام العار هو في دفع اي مبلغ مهما ضئول، فهذا هو العارُ بحد ذاته ولا يمكن النزول اليه إلاّ عند الضرورة.

وظلّت هذه الخلافات قائمة فيما بين الرومان من جهة وبين الغاليين من جهة أخرى، دون أن يتوصل الطرفان الى تسوية حتى وصل كاميللوس بجيشه - الى ابواب روما. وعلم بحقيقة ما يجري فأمر القسم الأكبر من قواته أن تزحف خلفه ببطء وبنظامٍ واسرع هو يتقدمها بنخبة من محاربيه، حتى بلغ معسكر الرومان فأفسح له الجميع واستقبلوه بوصفه حاكمهم الأوحد، والصمت والنظام يسودهم، فأخرج الذهب من الميزان وسلمه الى ضباطه وطلب من الغاليين أن يرفعوا موازينهم ومعاييرهم وينصرفوا، قائلاً لهم: من عادة الرومان أن يحرروا بلادهم بالحديد لا بالذهب. وعندما بدأ برينوس يضجّ ويقول: إنه عومل معاملة غير عادلة بنقض هذا الاتفاق، أجابه كاميللوس: إن الاتفاق لم يبرم بصورة شرعية، والصلح غير قائم ولاتترتب عليه اية تبعات لأنه يتقلدّ منصب الدكتاتور وليس هناك حاكم شرعي غيره بحكم القانون. وان الاتفاق عقد مع أناس لا يملكون صلاحية ابرامه. أمّا الآن فلكلّ منهم ان يبسط وجهة نظره ويقول ما يريد قوله، لأنه جاء مزوّداً بصلاحية كاملة بحكم القانون. للعفو عمن يطلب عفواً ويعاقب المسيء إن ظّل مقيماً على غيه. وعندها استشاط [برينوّس] غيظاً، ووقع اشتباك آنيّ، وامتشق الجانبان السيوف والتحما بدون نظامٍ، وكان الاضطراب لابد منه لأن ميدان المعركة كان ما بين المنازل وفي الأزقة الضيقة ومواضع ينتفي فيها النظام تماماً. إلاّ أن [برينوس] سيطر على الموقف في الحال، وأمر رجاله بالكفّ عن القتال وسحبهم الى معسكرهم بخسارة قليلة ثم استيقظ ليلاً وترك المدينة منسحباً بكلّ قواته وبعد ان قطع ثمانية أميال تقريباً خيم على جانب من الطريق المؤدية الى مدينة [غابي Gabii]. ولم يكد الصبح ينبلج حتى ادركه [كاميللوس] وهو مستعد تمام استعداد لملاقاته باسلحة ممتازة وبرجال مفعمين ثقة وشجاعة ودارت رحى معركة طاحنة استمرت وقتاً طويلاً. أسفرت عن هزيمة ساحقة للغاليين ومنوا فيها

(٥٤) Vae Victis!

بعدد كبير من القتلى وخسروا معسكرهم وامّا الناجون فقد طوردوا وقتل بعضهم وتفرق الجزء الأكبر ايادي سبأ يفتك بهم الناس الذي خرجوا اليهم من المدن والقرى المجاورة(٥٥).

وهكذا كان الاستيلاء على روما، غريباً في بابه كما كان خلاصها بعد أن بقيت في قبضة البرابرة سبعة أشهر كاملة. فقد دخلوها في الخامس عشر من تموز، وطُردوا منها في حدود الخامس عشر من شهر شباط التالي، ودخل كاميللوس الميدنة في موكب النصر وهو مما يستحقه فعلاً بعد أن انقذ بلاده الضائعة وأعاد المدينة الى أهلها على حَدّ شائع القول. وأنضم الى موكبه أولئك الذين فروا مع زوجاتهم واولادهم وصحبوه الى المدينة، وأولئك الذين حوصروا في الكابتول، وآلت بهم الحال الى شفا الهلاك جوعاً خرجوا لاستقباله وآخذ الطرفان يعانق بعضهم بعضاً عند اللقاء، وجرت دموعهم فرحاً، ولسعادتهم التي فاقت الحدود كانوا بين مصدق ومكذب للواقع. وظهر الكهنة ورجال الدين حاملين الأشياء المقدسة التي كانوا قد أخفوها هناك قبل رحيلهم أو أخذوها معهم في فرارهم. وعرضوها للمواطنين سليمة». فلما رآها هؤلاء شعروا وكأن الآلهة عادت معها الى المدينة. وبعد أن قدم كاميللوس القرابين للآلهة وطهّر المدينة وفقاً للتعليمات التي أشار بها الخبيرون بالأمور. باشر في اصلاح المعابد القائمة واقام معبداً جديداً للرب «صوت» أو «اشاعة»، في البقعة التي سمع فيها [ماركوس سيديشيوس] ذلك الصوت السماويّ ينبئه بقدوم جيش البرابرة.

وكان من أصعب الأمور وأشق المهام تعيين وكشف المواقع المكرسة في وسط الانقاض المتراكمة. ولكن دأب [كاميللوس]، وجهود الكهنة المتواصلة بلغت بالمهّمة حدّ النجاح. وعندما طرحت مسألة اعادة بناء المدينة التي دمرت تدميراً تاماً، تملّك الجموع يأسٌ واحجموا عن الاضطلاع بعمل يحتاج الى مواد ليست لديهم، وزاد في ترددهم حاجتهم الشديدة الى الراحة والاستجمام بعد كدحهم وتفضيلهم ذلك على مطالب جديدةمن قواهم المنهوكة وحالهم المزرية. ولذلك توجهوا بانظارهم الى مدينة [ڤيي] بصورة لا شعورية وهي مدينة حسنة البناء وفيرة الرزق. وأعاروا أذانهم الصاغية لحيل المتملقين المتشوقين الى ارضاء رغباتهم، ومالوا الى سماع أقوال رجال السوء المحرّضة على [كاميللوس]. كقولهم: انه يمنعهم عن الانتقال الى مدينة صالحة لسكناهم، ويرغمهم عن البقاء والعيش بين الانقاض، سعياً وراء طموحه، ومجده الشخصيّ. وانه يريد أعادة بناء انقاضٍ محترقة حتى يرتفع قدره، عم مجرد رئيس حكومة،

(٥٥) هناك سبب وجيه للشك في صحة الجزء الأخير من هذه الحكاية وقد نقلها پلوتارخ عن (ليڤي) بقضّها وقضيضها. الاّ ان پوليپيوس يذكر ان الغاليين قد تسلموا الذهب من الرومان فعلاً. قفلوا عائدين الى بلادهم بسلام. وهذا ما يؤيده [جوستين] و[سوتيونيوس] بل [ليڤي] نفسه في محلّ آخر من تاريخه (١٠:١٦).

وزعيم روما وقائدها الى مؤسس روما أيضاً، (باستثناء رومولوس).

لذلك خاف الشيوخ من فتنةٍ، فلم يقبلوا باعتزال كاميللوس السلطة في بحر السنة وان كانوا يرغبون في اعتزاله، اذ لم يحدث أن بقي دكتاتور في منصبه أكثر من ستة أشهر.

ولم يأل الشيوخ أنفسهم جهداً في تشجيع المواطنين على العمل وتهدئة ثورتهم بالإقناع والملاينة وطيّب الكلام، ونوّهوا لهم بمزارات اسلافهم وأضرحتهم وذكروهم بالإماكن المقدسة، والمشاهد الدينية التي أوقفها [رومولوس ونوما] وغيرهما من الملوك. وتركوها لهم ليقوموا عليها ويحفظوها. ومن أقوى وسائل الإقناع الدينية التي استخدموها معهم قضية عثورهم على رأس مقطوعٍ عن الجسم لم يمرّ عليه زمن طويل - اثناء وضع أسس بناء الكاپتول[٥٦]. واعتباره اشارة الى حكم القدر بأن يكون هذا الموقع رأس كل ايطاليا. ولفتوا انظارهم الى النار المقدسة التي أعاد ايقارها عذارى ڤستا بعد الحرب وقالوا:

- اي عار هو خسرانهم الكاپتول وأطفاؤهم النار، وتركهم المدينة تنعي من بناها، ليسكنها أجانب وأغراب، أو لتكون مرجاً ترعى فيه المواشي؟

مثل هذه الحجج والبراهين، يرافقها العتاب مرةً والتعنيف مرةً أخرى؛ تلقى على الافراد بصورة خاصّة، وعلى الجماعات بصورة عامة في الاجتماعات، لم تجد غير الاعتذار والحسرات التي يبعثها القنوط وكان الردّ عليها يتلخص في أن شملهم الآن قد اجتمع بعد أن تحطمت سفينتهم، وهم مازالوا عراة وغرثى، ومن العسير ارغامهم على شدّ أوصال مدينة ممزقة متهدمة، في حين توجد مدينة أخرى كاملة البناء حسنة التموين، تحت تصرفهم.

واستحسن كاميللوس أن يحال الأمر الى المناقشة العامة والاقتراع، ونهض هو بالذات يتكلم مخلصاً في تحبيذ البقاء، وفعل كثيرٌ غيره، وبالأخير استدعى [لوشيوس لوكريتيوس] الذي كان منصبهُ يؤهله الى التقدم في الكلام على الجميع، وطلب منه كاميللوس أن يلفظ حكمه، ثم يتعاقب الآخرون بعده للإدلاء بآرائهم حسب الترتيب المرسوم. فساد سكون تام

(٥٦) وقعت هذه المعجزة في عهد الملك (تاركوين) الذي لاشك انه وضع الرأس هناك بنفسه فقد وجد حاداً يقطر منه الدم. وقد وجدوه عندما كانوا يحفرون الأسس وكأنما قد قُطع لتوه Olenus Calenus وأدركت الحيرة أحد العرافين الذين استشيروا في الأمر. فبعد ان عجز عن تفسير الظاهرة بشكل تبدو انها في مصلحة بلده. قال متردداً: إن الموضع الذي وجد فيه الرأس يجب ان يكون كاپتولاً لايطاليا كافةً (ديون ١٢:٤) ويورد [پليني] في تاريخه الطبيعي هذه القصّة (٢:٢٨) أمّا (ليڤي) الذي يقدم تعليلاً أكثر بساطة فهو يتفق مع (ديون) على أن لفظة (كاپتول) أخذت عن هذه الحادثة. ويزعم (ارنوبيوس: ٤) مستشهداً بكثير من المراجع القديمة ان اسم الرجل الذي وجد رأسه مفصولاً هو Tolus Vulcentonws تولس ڤلچنتانوس فيكون Capt - toli = Capitolium إلاّ ان (ڤارو) لم ينوه باي شيء حول الموضوع.

وماكاد [لوشيوس] يفتح فاه للكلام حتى اتفق مرور قائد مائة [سنتوريون] بسريته المخصصة للحراسة، على مقربة من الكاپتول، وسمع المجتمعون صوته العالي يأمر حامل الراية بالوقوف حيث هو نصب الراية لأن الموقع خير المواقع أو أنسبها للبقاء. هذا الصوت المنطلق في تلك اللحظة الحرجة، وفي ازمة شديدة من الشكّ والقلق على المستقبل، اتخذه الشعب هادياً ونذيراً، الى ما ينبغي عمله بصدد القضية. وما كان من [لوشيوس] إلاّ أن أتخذ وضع المصليّ العابد، وأدلى بحكم يتفق ومشيئة الآلهة على حَدّ قوله، واحتذى خدوه كل من عقبه. وأحدث الأمر تغييراً مفاجئاً في مشاعر الأهلين والتفت كل واحدٍ الى صاحبه يشجعه ويحضّه وأنطلق الجميع وباشروا في أعمال البناء ولم يجر عملهم وفق خطوط منتظمة أو تصميم مرسوم وانما كان أعتباطياً مضطرباً اذ انهمك كل فرد باول قطعة أرض صادفها أو وافقت مزاجه، وأدّى هذا الاستعجال والفوضى في البناء الى تشييد مدينة جديدة ذات أزقة ضيقة متعرجة سيئة النظام، ومنازل متزاحمة ومتلاصقة يعلو أحدهما الآخر. فقد قيل ان بناءها كله تمّ في غضون سنة واحدة[٥٧] مع أسوارها الخارجية وابنتها الداخلية. غير أن الاشخاص الذين عينهم كاميللوس لمهمة تثبيت مواقع جميع الاماكن المقدسة في هذه الفوضى العامة، واعادة بنائها كلها. وصلوا في اثناء طوافهم حول الپالاتيوم - الى هيكل مارس وكان البرابرة قد أحرقوه وهدموه على آخره حتى سووه بالقاع كفيره من الابنية، وفيما هم يزيلون الانقاض ويمهدون الأرض عثروا بمحض الصدفة على عصا العرافة التي تعود لرومولوس[٥٨]، وكانت مدفونة تحت كدسٍ من الرماد، تسمّى هذه العصّ [ليتوس Lituus] وهي عادة معقوفه النهاية والعرافون يستخدمونها للتربيع الفلكي عندما يقومون بتنبؤاتهم بطريقة مراقبة مسارّ الطير، وكان رومولوس عرافاً يشار اليه بالبنان، ولما اختفى تسلم الكهنة عصاه تلك وحفظوها ذخراً مقدساً محجوباً عن أعين الناس ولمسات ايديهم. فلما وجد هؤلاء العصا سليمة في حين أتت النار على كل شيء حولها. راحوا يبنون أضخم الآمال لروما، وأستنتجوا من هذا الحادث برهاناً على سلامة مستقبلها وخلودها.

لم يكد الرومان يتنفسون الصعداء مما دهاهم حتى ابتلوا بحربٍ جديدة. اذ ان الآيكويّين Aquians والڤولسكيين واللاتين، غزوا بلادهم دفعةً واحدةً وبصورة مباغتة. كما القى التوسكان الحصار الشديد على مدينة [سوتريوم Sutrium][٥٩] وحليفتهم. وطوق اللاتين

(٥٧) سببت سرعة بناء المدينة متاعب ومشاكل عديدة لاسيما بخصوص المجاري العامة التي كانت تمتد عادة تحت الشوارع الرئيسه فقد صارت تمتد تحت المنازل الخاصة (ليفي ٥:٥٥).

(٥٨) ينوه شيشرون في [النبوءات ١:١٧] بهذا الاكتشافات أيضاً.

(٥٩) ساتري أو سوتري في توسكاني. وجبل مارشيوس قرب لانوثيوم يبعد عشرة فراسخ تقريباً عن روما.

جيش التريبيونات العسكريين الذين كانوا معسكرين حول جبل [مويشيوس Maecius]، وضيقوا عليهم الخنادق حتى أصبح معسكرهم في خطر فبعثوا الى رومه برسل النجدة. وكان كاميللوس وقتئذ قد انتخب دكتاتوراً للمرة الثالثة.

توجد روايتان مختلفتان عن وقائع هذه الحرب. وسأبدأ بأبعدها خيالاً وأحفلها بالأساطير: قيل ان اللاتين بعثوا يطلبون من الرومان بعض بناتهم المولودات لآباءٍ أحرار، ليتخذوهن زوجات. ولم يكن هذا الطلب يتعدى أحد امرين إما أنهم يريدونه ذريعة للتحرش، وإما أن يكون نيةً صادقة ترمي الى احياء العلاقة الماضية بين الشعبين. واستبدت الحيرة بالرومان وعَزّ عليهم الوصول الى قرار، فهم من جهةٍ يخشون حرباً جديدة إثر حرب ما كادت تضع أوزارها بعد امن نالهم منها ما نالهم. وكانوا من جهة أخرى يشكون في أن «طلب زوجات» ما هو في الحقيقة إلاّ طلب رهائن، كُسي عبارات مهذبة رقيقة وكلمات رشيقة من قبيل «التحالف» و«المصاهرة» وما اشبه، وبينما هم في حيرتهم تلك، انبرت لهم خادمة بيت اسمها [توتولا Tutula] أو [فيلوتيس Philotis] كما يسميها بعض الكتاب. وأقنعت حكام رومة بتنفيذ خطتها وهي أن يرسلوا معها عدداً من أجمل الخادمات وأصغرهن سنّاً بعد أن يلبسنهنَّ ثياب عرس العذارى النبيلات، وأن يتركوا البقية لحيلتها ومكرها، فوافق الحكام وأختاروا العدد الذي طلبته. وجملوهن بالذهب ونفائس الحلل، وأرسلن جميعاً الى اللاتين الذين كانوا يعسكرون في موقع قريب من المدينة. وعندما جَنّ الليل قامت البنات بسرقة سيوف العدوّ النائم. وأعتلت [توتولا] أو [فيلوتيس] شجرة تين بريّ ونشرت خلفها رداء صوفياً سميكاً ورفعت مشعلاً بمواجهة رومه، وهي الإشارة المتفق عليها مع قادة الرومان فقط، أُخفيت عن سائر المواطنين الآخرين) وهذا ما أدّى الى خروج الرومانيين من المدينة في فوضى عامة، وكان الضباط يدفعون رجالهم الى أمام دفعاً. والرجال ينادي أحدهم الآخر بالإسم، وصعب عليهم أن يعيدوا النظام الى صفوفهم وهجموا وهم بهذه الحالة على مواقع العدوّ واقتحموا موانعه وكان معسكرهم وافنوا معظم من فيه. وقد جرى ذلك في اليوم السابع من شهر تموز الذي كان يعرف في حينه بشهر كونتيليس. والعيد الذي يحل في هذا اليوم من السنة انما هو تذكار لما جرى في تلك الوقعة، اذ يخرج الناس زرافات من المدينة وهم يتنادون باسماء مألوفة مثل [كايوس أو ماركوس أو لوشيوس!] وغيرها تمثلاً بالحالة التي كانت تسود الرومان عند خروجهم العاجل على اللاتين وهم يتنادون بالأسماء، ويلي ذلك مشهد خادمات البيوت، يبرزن في العيد مرتديات أزهى الثياب، ويجرين هنا وهناك لاعبات لاهيات، ممازحات كل من يصادفنه، ثم يلجأن الى تقليد معركةٍ فيما بينهن أظهاراً لدورهن في قتال اللاتين. وبعد ذلك يجلسن تحت

ظلال اغصان التين ليأكلن ويشربن. ويعرف هذا اليوم باسم [نوني كاپروتيني: Nanae Cap-rotionae] ويظن بعضهم أنه مشتق من «شجرة التين» وهي الشجرة التي ارتفع منها مشعل الخادمة كما تقدم. لأن الأسم الروماني للتينة هو [كاپريفيكوس Caprificus]. ويعزو فريق من الكتاب، كل ما يجري قوله وعمله في هذا العيد الى ظروف انتهاء حياة رومولوس. فقد غاب عن الأنظار خارج اسوار روما، عندما انتشر ظلام دامس وهبت عاصفة هوجاء مفاجئة. [قال بعضهم أنها ظاهرة كسوف شمسيّ] فالاسم اللاتيني للعنزة هو [كاپرا Capra] والوضع الذي أختفى منه رومولوس كان يعرف باسم «مستنقع العنزة» آنذاك.

على أن عامة الكتاب يفضلون الرواية الأخرى عن الحرب وتفاصيلها تروى على النحو الآتي بعد أن أنتخب كاميللوس دكتاتوراً للمرة الثالثة، وعندما أبلغ بأن جيش التريبيونات العسكريين قد طوقه اللاتين والڤولسكيون، دعا الى النفير العام. ولم يقتصر في دعوة من بلغ سنّ الخدمة، بل جند من لم يناهزها. ثم أنه قام بجولة استطلاعية واسعة حول جبل [مريشيوس] في غفلة عن عيون العدوّ وبعدها ساق جيشه الى مؤخرته. ثم أعطى الإشارة بقدومه الى الرومان المطوقين باشعال عدة نيران، فبث الشجاعة في نفوسهم وتهيأوا للتعرض للعدو ومبادأته بالهجوم.

ولكن اللاتين والڤولسكيين الذين دبّ الخوف فيهم لانكشافهم للعدوّ من الجناحين بادروا للانسحاب وراء مواقعهم وأخذوا يحصنون معسكرهم بمتاريس وموانع قوية من جذوع الأشجار على جميع الجهات، قرروا الانتظار لحين وصول نجدات من بلادهم، مع توقعهم المعاونة من التوسكان حلفائهم. وأدرك كاميللوس خطتهم، فخاف أن يؤول أمره الى الوضع الذي أرغمهم هو عليه، أعني أن يُطوّق هو، ولذلك قررّ ان لايضيع وقتاً، ولما كانت متاريسهم من الخشب وللاحظته أن ريحاً شديدةً تهبّ باستمرار عند بزوغ الشمس من الجبال باتجاه المعسكر، فقد هيّأ مقداراً من المواد الملتهبة وحشد قواته على خطّ الصّولة، وأعطى أمر الهجوم لجزء منها بالقذائف فأندفعوا الى العدو بصيحة عظيمة وجلبة شديدة من ناحيةٍ، بينما توجه هو بالوحدات التي ستطلق النار، الى الجهة التي تهبّ الريح نحو معسكر العدوّ، عادةً وكمن هناك يتحينّ فرصته. ولما بدأت المعركة وبزغت الشمس انطلقت ريح شديدة من الجبال فأعطى اشارة الحركة والهجوم وقذف بكميات ضخمة من المادة الملتهبة واستعرت النيران في متاريس الخشب القريبة ثمّ سرت الى المعسكر نفسه وقامت الحرائق في شتى ارجائه ولم يكن اللاتين قد استحضروا من الوسائل ما يدفع عنهم غوائلها ويعمل على إخمادها وعمت المعسكر وأخذت تلتهمهُ فلم يجدوا مفراً من الابتعاد عنه مسافة قليلة، ثم أنهم وجدوا أنفسهم مرغمين على

خوض المعركة فألقوا بأرواحهم في أيدي عدوّهم الذي كان لهم بالمرصاد أمام المتاريس مستعداً بسلاحه، ولم ينج منهم إلاّ نفر قليل. أما الذين مكثوا في المعسكر فقد راحوا طعمة للنيران، وعمل الرومان على اخماد الحرائق قبل أن تأتي على الأسلاب والغنائم.

بعد أن تحقق لكاميللوس النصر المؤزر، أناب عنه ابنه [لوشيوس] لحراسة الأسرى واحصاء الغنائم في المعسكر واستاق جيشه مخترقاً بلاد العدو فسقطت في يده عاصمة الايكويين، وأخضع الڤولسكيين، ثم أسرع متوجهاً الى [سوتريوم] لمعاونتها في حربها مع التوسكان وليس لديه أية فكرة عما حَلّ بها. وكل ما كان في علمه انها مازالت في خطر وان التوسكان يشدوّن عليها الحصار، على أن الحقيقة كانت خلاف ذلك فقد استسلم [السوتريوّن] وفتحوا ابواب مدينتهم لأعدائهم فدخلوها وطردوا جميع سكانها منها بعد ان سلبوها كل شيء ما خلا ثيابهم التي يرتدونها ولقيهم كاميللوس في الطريق يدفعون زوجاتهم وأولادهم أمامهم ويندبون سوء حظهم وهم في حالة من البؤس لاتوصف فثارت عاطفة كاميللوس، وابصر جنوده يذرفون الدمع عليهم ويظهرون مشاعر الحزن العميق، وأهالي [سوتريوم] المنكوبون يتشبثون بهم ويتعلقون باذيالهم. مخلف بالاّ تغيب شمس اليوم إلاّ ويكون قد أنتقم لهم، وزحف حالاً الى المدينة، مخمّناً أنه سيجدها لاهية غافلة بمن فيها، غير محروسة، ففاتحوها استولوا على مدينة غنيّة كثيرة الغنائم وما عادوا يخشون عدواً من الداخل ولا مغيراً من الخارج، وكان كاميللوس صادقاً في حدسه فلم يعرف العدو بقدومه حين أقترابه ولم ينتبه له حتى عند دخوله المدينة واحتلاله أسوارها التي لم يترك فيها العدوّ ولا حارساً واحداً، وكان التوسكان قد أووا جماعات متفرقة الى البيوت يعاقرون الخمر ويلهون، ولما فطنوا الى أن عدوّهم قد أكمل الاستيلاء على المدينة كانوا ثملين بما عبّوا من الخمر، متخمين بما التهموا من اللحم، لا بل غاية ما تمكن منه أقليتهم هو الفرار. أما الأغلبية فإما انتظروا موتهم المخزي وهم داخل البيوت، أو استسلموا للفاتح. وهكذا استولي على مدينة سوتريوم مرتين في يوم واحدٍ، وأولئك الذين كانوا يملكونها فقدوها وأولئك الذين فقدوها استعادوها وكل ذلك بفضل كاميللوس. إستحق كاميللوس بهذا موكب نصر آخر. نال فيه من الرفعة والسمعة ما ضاهى به النصرين الأولين، فمن كان سيء النظرة اليه من المواطنين، ومن كان يعزو انتصاراته الى الحظّ لا الى نبوغ فيه، أرغمتهم أعماله الأخيرة على التسليم بقابلياته العظيمة وحيويته وعلى وجوب إكرامه وتمجيده.

كان [ماركوس مانليوس] أبرز خصومه وأقوى حسّاده. وهذا هو الشخص الذي تصدى للغاليين عندما هجموا ليلاً على الكاپتول، وأجبرهم على الانسحاب، ولهذا السبب منح لقب

[الكاپتولي Capitolin]. أحتل هذا الرجل المقام الأول في الجمهورية، لكنه عجز عن مطاولة شهرة كاميللوس ومجاراة سمعته شريفة، فلجأ الى السبيل المعروف لانتزاع السلطة المطلقة، وأعنى به خطب ودّ الجماهير، ولاسيما أولئك الذين غرقوا في الديون. وراح يدافع عن فريق بالتزامه قضاياهم ضدّ دائينهم وينقذ الفريق الآخر بالقوة والشدة. ويمنع القضاء عن ملاحقتهم بالدعاوى. ولم يمرّ به طويل زمنٍ إلاّ وأجتمع له عدد كبير من الساخطين، كانت ضوضاؤهم وصخبهم في [الفوروم] يلقيان الرعب في قلوب كبار القوم ووجهائهم فلم يجد [كوينتيوس كاپيتولينوس Quintius Capitoliunus] الدكتاتور الذي نصب لأجل قمع الحركة - سبيلاً غير زجّ مانليوس في السجن، فكان ردّ الجمهور الآني على ذلك أن بادر «بتغيير ثيابه» والناس لا يلجأون الى تغيير ثيابهم إلاّ عندما تحلّ نكبة عامة. فخاف الشيوخ فتنةً لا تبقي ولا تذر وسارعوا الى إخلاء سبيله. لكن مانليوس زاد عتوا بعد أطلاق سراحه واشتد عنفاً في آهدافه وملأ المدينة فوضى وخراباً. فلم يجد الشيوخ بداً من انتخاب كاميللوس لمنصب الحاكم العسكري [تريبيون]. وعين هذا يوماً لمحاكمة [مانليوس]، والاجابة عن التهمة التي رفعت ضده. وكانت الجلسة في موضع لايساعد المدعين في مرافعتهم، لأنه يشرف على البقعة التي خاض فوقها مانليوس معركته مع الغاليين - وهي في الكاپتول بالقرب من الفوروم. فكان المتهم يمدّ ذراعيه الى تلك الجهة باكياً مذكراً مستمعيه بمأثرته تلك. مثيراً عواطفهم. فحار قضاته في أمره ولم يدروا ما يفعلون، وراحوا يؤجلون المرافعة عدة مرات؛ فهم من جهة لا يرغبون في تبرئته من الجرم الذي تضافرت عليه دلائل كافية جداً. وهم من جهة أخرى عاجزون عن تطبيق أحكام القانون ومأثرته الجليلة مائلة أمام أعينهم. وفكر كاميللوس في الأمر ملياً ثم أمر بنقل المحكمة الى البستان [الپتيلنيّ Petiline] خارج السور، فمن هناك لايمكن مشاهدة شيء من الكاپتول. وواصل المدعي شرح التهمة، وتمكن القضاة من وزن أعماله واستنكارها وادانوه، فافتيد الى الكاپتول والقي منكوساً من فوق الصخرة، وبذلك كانت تلك البقعة شاهداً على أعظم مجد له، وتذكاراً لأسوأ نهاية له. وهدم الرومان بيته وبنوا فوق ارضه معبداً للربة [مونيتا Moneta] وصدر مرسوم يحظر على أي فرد من الپارتريشين سكنى الكاپتولين في المستقبل.

وطلب من [كاميللوس] تولي منصب الحاكميّة للمرة السادسة، فأعتذر عنه بكبر سنّه. ولعلّه شعر بخوفٍ من أن يقلب الحظّ له ظهر المجن فيبادره بنحسه بعد أيام السعد[٦٠]، على

---

(٦٠) وذلك كي لايُغري موقع القلعة الممتاز المشرف على سائر المدينة، الى استعبادها أو يسهل الوصول الى ذلك الغرض فقد اتهم [مانليوس] بالسعي لنصب نفسه ملكاً ولم يستطع اثبات براءته أو =

أن أظهر الأسباب لرفضه كان ضعف صحته فقد أبتلي بمرضٍ في ذلك الحين. لكن الشعب لم يقبل بايّ عذر وراح الناس يصرخون انهم لايريدونه ليركب خيلاً أو ليسير على قدميه، وانما يريدون منه سلامة الرأي وحسن المشورة. وهكذا اضطروا على تسلم زمام القيادة، على أن يسوق أحد زملائه الحكام [تريبيون] الجيش حالاً لمواجهة [البرينستيين Praenestines] والڤولسكيين الذين أجتاحوا أراضي حليفات روما بقواتٍ كبيرة، فخرج كاميللوس على رأس الجيش اليهم. وتوقف وعسكر على مقربة منهم. وفي نيته أن يماطل في الحرب، ان لم يكن منها بدٌ حتى يستعيد قواه وينظم صفوف جيشه لخوض اية معركة تحمها الضرورة. أو يجبر عليها . إلاّ ان زميله [لوشيوس فيوريوس Lucius Furius] كان قليلاً الصبر، تتملكه رغبة جامحة في نيل المجد وأطلاب المعالي، فلم ير رأيه والحّ في دخول المعركة وراح يثير حماسة صغار ضباط الجيش ويغذيهم بالشعور نفسه. وخشي [كاميللوس] أن يظنّ بأنه ما أعطى قرار التريّث إلاّ لحرمان الشبان من مجدٍ يصبون اليه وينالونه من حملة عسكرية شريفة الغاية، وافق على أقتراح زميله وهو كاره، وتخلّف في المعسكر بسبب ضعفه وليس معه غير نفر قليل[٦١]، وهاجم [لوشيوس] العدوّ بنزقٍ وتهوّر، فصُدّ هجومة وعندما أبلغ كاميللوس أن الرومان أنكفأوا الى خلف وأخذوا ينهزمون، لم يستطع ضبط أعصابه وقفز عن فراشه وأسرع بالنفر القليل المتخلف معه، لمقابلة المندحرين لدى ابواب المعسكر شاقاً طريقه بين المنهزمين - قاصداً صَدّ المطاردين، وكان لعمله هذا ردّ فعله فأولئك الذين دخلوا المعسكر فارّين داروا على أعقابهم في الحال وتبعوه، وأولئك الذين خرجوا من المعسكر هاربين، أتجهوا اليه والتفوه حوله وأخذ واحدهم يلوم الآخر على تركه جانب قائده! بهذه الوسيلة تمكن من صَدّ زحف العدوّ في قتال ذلك اليوم.

وفي اليوم التالي صَفّ كاميللوس فرقة بنسق المعركة وصال على العدو صولة شديدة

= استدرار الرحمة من الشعب مع انه ابرز ثلاثين شكة سلاح غنمها من ثلاثين خصماً التحم معهم في قتال اليد باليد وقضى عليهم جميعاً، كما كُرم باربع تشريفات بينهما (Mural) اكليلان. وثمانية تيجان سدن. كما انقذ كثيراً من المواطنين وفي مقدمتهم سرڤيليوس قائد الخيالة. ويزيد پليني في تاريخه الطبيعي فيقول (٢٨:٧) عندما كان مانيلوس في السابعة عشرة من عمره، غنم اسلاب عدوين. وكان اول فارس في روما يوضع على رأسه تاج الغار. وتلقى جسده ثلاثة وعشرين جرحاً بقيت ندوبها ظاهرة في قتال شريف. وعند انقاذه سرڤيليوس تلقى طعنتين غائرتين في ساقه وذراعه. ويضيف (ليڤي) قوله انه صدر قرار بان لا يسمى أحد من اعتاب اسرته باسمه.

(٦١) من الخرافات المنتشرة بين الرومان ان (نمسيس) آلهة الانتقام قد تبتلي المرء بنكبة بعد عمرٍ طويل حالفه النجاح وحسن الحظ دون انقطاع وكاميللوس الذي بلغ الآن السادسة والستين تقريباً (٣٧٩ ق.م) هم بتأدية يمين التقاعد المعتاد والتخلي عن الحكم بسبب المرض الاّ ان الشعب رفض حتى سماع هذا الاقتراح منه [ليڤي ٦:٢٢].

وهزمهم هزيمة شنعاء ولحق بهم الى معسكرهم حتى أختلط الحابل بالنابل ودخلوا معسكرهم معهم واستولوا عليه وأبادوا بحدّ السيف معظمهم. ثم، لما سمع باستيلاء التوسكان على مدينة [ساتريكوم Satricum](٦٢) وقتلهم كل أهاليها وهم رومانيون. بعث الى رومه بمعظم وحداته ذات السلاح واستبقى له وحدات مسلحة بأخف الأسلحة، مما أمتاز بالبسالة والإقدام، وهجم بهم على التوسكان المسيطرين على المدينة وكسرهم شرّ كسرة، وقتل عدداً منهم وطرد البقية. وعاد الى روما محمّلاً بغنائم كثيرة، مقدّماً بهذا دليلاً ساطعاً على نبوغه وحكمته الفائقة وعلى صحة رأي أولئك الذين لم يعدموا الثقة فيه عندما فضلوه على الشبان الطموحين المشوقين الى القيادة وعزل الشيخ العليل العازف عن الحكم، مبرهنين بذلك على أن ضعف جسم القائد وشيخوخته لا يجردانه من الإقدام أوحدّة الذهن.

لذلك، فعندما وردت الانباء بتمردّ التوسكولان Tusculan، انيطت بكاميللوس مهمّة قمعه، وخير في تعيين زميل مساعدٍ له من أحد الحكام. وكان كل زملائه متلهفاً الى هذا المنصب فمرّ بالجميع مرور الكرام ووقف عند [لوشيوس فيوريوس] فأختاره دون غيره خلافاً لما كان متوقعاً، وفيوريوس هذا، هو الذي قاد الهجوم الفاشل الطائش ضد رغبة كاميللوس في الحرب الأخيرة كما مَرّ بنا، وكاد يخسر المعركة والحرب كلها. وكان غرض كاميللوس من أختياره، هو أن يداوي نكسته ويمحو عارها عنه على ما يبدو.

ولما سمع التوسكولانيون بمقدم كاميللوس، لجأوا الى حيلة للرجوع عن تمردهم وتفادي النتائج فكان كاميللوس يمرّ بحقول امتلأت بالزراع والرعاة المنصرفين الى اعمالهم كأنما في عزّ السلّم. ووجد ابواب المدينة مفتوحة على مصاريعها، والتلاميذ يذهبون الى مدارسهم، ورأى الصناع والبقالين في دكاكينهم عاكفين على أعمالهم اليومية، ووجهاء القوم يروحون ويغدون في المحلأت العامة بثيابهم العادية(٦٣). وأسرع قضاة المدينة لتهيئة مقرات سكنى للجيش الروماني كأن شيئاً لم يحصل، وكأنهم لا يشعرون بأي خوفٍ أو خطر، ولا يثقل ضميرهم ذنبٌ. ولم تنطل هذه المظاهر على كاميللوس، وتشككه في انباء خيانتهم إلاّ أن قلبه رقّ لهم لما رآه من ندامتهم، فاشار عليهم بمراجعة مجلس الشيوخ والعمل على تهدئة غضبه، وتبرع هو نفسه بالتوسط في أمرهم والدفاع عنهم. وهكذا برئت ساحة المدينة وقبلت في حظيرة المواطنة رومانية(٦٤). وتلك هي أهم أعمال كاميللوس أثناء حاكميته السادسة، وأجدرها بالذكر.

---

(٦٢) يقول [ليڤي ٦:٢٢] انه اتخذ مقراً على مرتفع مع وحدات الرديف لمراقبة سير المعركة.

(٦٣) هذا الموضع ليس السوتريوم الذي جاء ذكره قبلاً. ويبدو ان پلوتارخ قد خلط بين الموضعين.

(٦٤) التوكا Toga هو ثوب السلم، والساكوم Sagum هو لباس الحرب وينوه ليڤي [٦:٢٥] ببعض ازياء أخرى يرتدونها بالمناسبة.

بعد كل هذه الأحداث أثار [ليشينيوس ستولو Licinius Stolo] مشكلة كبيرة واقام رومه واقعدها وألب العامّة على الشيوخ برفعه شعار حق العامّة في أختيار واحد من القنصلين الحاكمين من طبقتهم، لا أن يكونا قاصرين على طبقة الپاتريشيين. وكان قد تمّ انتخاب [تريبيونات] الشعب ألاّ أن طبقة العامة أوقفت عملية انتخاب القنصلين وحالت دونها(٦٥). ولما كان عدم وجود رئيس دولة، يؤدي الى تفاقم الوضع وازدياد الفوضى. فقد لجأ الشيوخ تطمينا لرغباته وخلافاً لرغبة الشعب الى انتخاب كاميللوس دكتاتوراً للمرة الرابعة(٦٦)، وضد رغبة كاميللوس الذي ان يكره الاصطدام بأناس اعطتهم خدماتهم الماضية الحق في أن يقولوا له ان مآثره الحربيّة التي انجزها بفضلهم هي أجلّ وأعظم شأناً من الأعمال السياسية التي أنجزها بالتعاون مع الپاتريشيين. وهؤلاء في الواقع لم يبرّزوه ويدفعوا به الى أعلى المنصب الاّ غيره وحسداً أو بكلمة أخرى اذا نجح سيسحق الشعب، وان فشل سيسحق نفسه. وعلى اية حالٍ ولأجل أن يعالج الأمر انجع معالجة ممكنة في تلك الساعة، ولبلوغ علمه باليوم المحدد الذي سيطرح فيه تريبيونات الشعب اقتراحاً بسن هذا القانون أصدر أمراً بالنفير العام، ودعا الشعب الى الخروج من الفورم والذهاب الى المخيمات مهدداً بفرض غرامات ثقيلة على المخالفين. فقابل التريبيونات تهديده، باحتجاج صارم وهددوه بفرض غرامة عليه قدرها خمسون ألف دراخما من الفضّة اذا أصرّ على منع افراد الشعب من الادلاء باصواتهم عند الاقتراع على القانون. وسواء أخشي كاميللوس نفياً آخر، أو حكماً بالإدانة لا يتفق

(٦٥) المواطن الروماني الأصيل الذي يتمتع بحقوق المواطنة كاملة؛ له ان يملك منزلاً في روما، وان يدلي بصوته في الجمعية العامة. ويرشح نفسه للوظائف الحكومية. وهو من ثم منتسب الى واحدة من القبائل الرومانية. اما الانسان الحُرّ في عهد الجمهورية فهو محروم من هذه الامتيازات. والبلدان الأخرى والمستوطنات الرومانية التي يتمتع أهلها بحق المواطنة فلبعضها الحق في المشاركة في الاقتراعات العامة وترشيح أهاليها للوظائف في روما. في حين حرم بعضها الآخر من ذلك. ولم يعط للتوسكولان حقوق المواطنة الاّ بعد ذلك بزمن [ليڤي ٦:٢٠].

(٦٦) دام هذا الاضطراب خمس سنين في اثناء قيام التريبيونات بمنع اجتماع الكوميسيا وهو ضروري لانتخاب القناصل وكبار الحكام. وكانت المناسبة التالية السبب في ذلك: قام [فابيوس أمبوستوس] بتزويج بنته الكبرى من [سرڤيوس سولپيشيوس] الپاتريشي الذي كان وقتذاك تريبيوناً عسكرياً. وزوج الصغرى من [لوچينيوس ستولو] وهو پليبي غنيّ. واتفق ان الأخت الصغرى اثناء قيامها بزيارة لأختها، ان عاد زوجها من الفورم وراح حرسه اللكتور يطرقون الباب بعصيهم طرقاً شديداً فخافت الأخت الصغرى فضحكت أختها ساخرة بجهلها بالحياة الراقية التي تحياها. فآلمتها الإهانة كثيراً. ولكي يهدئ ابوها من روعها قال لها انها ستجد عما قريب في بيتها من الحياة الراقية والابهة ما يفوق ذاك الذي تجده في بيت شقيقتها. واتفق الأب والزوج مع [لوشيوس سكستيوس] الذي أصبح أول قنصل بعد نهاية الفترة – واقترحوا عدة قوانين منها تخفيض سعر الفائدة. وتحديد الملكية الزراعية بحدٍ اقصى لا يتجاوز الخمسمائة ايكر. وجواز انتخاب أحد القنصلين من بين عامة الشعب وقد اورد ليڤي ٦:٣٤-٣٨ كل التفاصيل في هذا الباب.

وشيخوخته ولا يناسب ماضيه المجيد، فقد وجد نفسه أعجز الناس عن وقف زخم الجماهير الذين استفحل أمرهم واضطرمت أنفسهم بالثورة والتمرد. فأنسحب الى بيته لوقتٍ ما، ثم أدعى المرض عدة ايام، وأخيراً استقال من منصب الدكتاتور[٦٧]، فانتخب الشيوخ دكتاتوراً آخر، بادر حالاً الى تعيين [ستولو] زعيم المعارضة، آمراً لقوات الخيّالة. وتقرّر سن قانون جديد وصادق عليه ووضعه موضع التنفيذ - وقع هذا القانون وقع الصاعقة على الشيوخ فقد حدد ملكية الأراضي الزراعية بما لا يزيد عن خمسمائة ايكر مساحةً، وبهذا علت منزلة [ستولو] كثيراً، ولكن يمرّ طويل زمن[٦٨] حتى وجد [ستولو] يحتفظ بمساحة تزيد عن التحديد، ففرضت عليه العقوبات التي قررها قانونه!

ثم حُلّ النزاع حول انتخاب القناصل - وكان هذا علة الخلاف والنقطة الأساسية للتناخر، ظلّ يمدّ الخلاف بين طبقتي الشيوخ والعامة بوقودٍ لاينضب معينه.

ووصلت في اثناء ذلك، انباءٌ تشير الى أن الغاليين ينوون اعادة الكرّة، وقد تقدمت جحافلهم من البحر الادرياتي مندفعة نحو روما بجموع هائلة، وفي أعقاب هذا النبأ تواترت الأخبار عن أعمال التخريب التي يرتكبها العدو، فقد كان يترك الأرض التي يجتازها قاعاً صفصفاً، والأهالي يفرون من أمامهم، يهيمون على أوجههم في الجبال مبعثرين، ولم يصل منهم الى روما الاّ نفر ضئيل. إن مخاوف هذه الحرب هدأت الحالة في روما، وأعادت الى المدينة وحدتها، وأختار الشيوخ والعامة، والنبلاء والدهماء بالأجماع كاميللوس، لمنصب الدكتاتور مرةً خامسة وكان يشارف ثمانين من عمره. لكنه لم يدّع المرض أو خور القوى في هذه المرة كما أدعى قبلها، تقديراً منه للخطر الذي يتعرض له الوطن، ومستجيباً لداعي الضرورة الملحة. وباشر في الحال بالتجنيد.

علمته تجربة الحرب مع الغاليين، ان قوة هؤلاء تكمن في سيوفهم البتّارة، فهم يهوون بها بشكلٍ اعتباطيّ خشنٍ لا فنّ فيه، فيبقرون ويبترون الاعظاء ويقطعون الرؤوس والاكتاف بصورة وحشية فعّالة. لذلك أمر بضع خوذٍ حديدية واقية يرتديها معظم رجاله، وأوصى بصقلها وتلميعها من الخارج حتى تنزلق فوقها سيوف الأعداد أو تتكسّر. كما أُمر بثبت اطارات خفيفة من النحاس حول التروس لأن الخشب لا يتحمل ضربات السيوف الشديدة كذلك دربّ جنوده على استعمال رماحهم الطويلة في القتال القريب. وعلمهم كيف يدرّءون بها

---

(٦٧) في ٣٦٦ ق.م.

(٦٨) زعموا بوجود شيء مخالفه في الاستخارة التي تمت بعد تعيينه. [ليڤي ٦: ٣٨]. وقد خلفه [پوبليوس مانليوس] في المنصب.

ضربات سيوف العدو عندما يلتحمون بهم.

إقترب الغاليون من نهر [اكينو] يجرون خلفهم اثقالاً لا تحصى، وهم متخمون باسلاب تفوق الحصر. نظم كاميللوس جيشه لخوض المعركة، فاختار موقعه على تلّ سهل المرتقى فيه كثير من الوهاد والمنخفظات وأخفى في تلك التعاريج معظم فرقه. وأبقى القسم الأقل فوق التل بشكل ظاهر ليبدو وكأنه لجأ الى القمة بدافع الخوف. ولأجل تثبيت الخدعة في نفوس العدوّ، تركه ينهب ويسلب دون أن يتعرض له حتى دنا وأصبح على مشارف خنادقه وكاميللوس رابض في مواقعه الحصينة خير تحصين. لايأتي بأقل حركة، حتى رأى القسم الطلائعي منه يتفرق زمراً في النواحي ينهب ويخرب ويدمرّ.

أما القسم الذي بقي في المعسكر فقد عكف على الشراب والقصف موصلاً الليل بالنهار ملقياً جانب الحذر. وفي هدأة من الليل قام كاميللوس بتحشيد أخف فرقه سلاحاً وارسلها في المقدمة لاعاقة العدو عن تنظيم صفوفه، ولايقاع الفوضى فيهم بالمشاغلة والهجمات المتكررة عندما يهمون بالخروج من المعسكر وعند ابنلاج الفجر انحدر بالقسم الأكبر من الجيش وهم بنسق الهجوم - الى الأرض المنبسطة وكان جيشاً جراراً يتوثب أقداماً وشجاعة، لا كما حسبه البرابرة فرقةً صغيرة أطاش الرعب صوابها.

وكان أوّل ما زعزع ثقة الغالبين وأفقدهم الشجاعة هو أن شرف المبادأة بالهجوم كان لأعدائهم خلافاً لما توقعوا وثاني ما أثر فيهم تلك الوحدات الخفيفة السلاح والحركة تفاجئهم بالكرّات الشديدة دون أن تتيح لهم فرصة لتنظيم صفوفهم وفق الأصوال الحربي الذي اعتادوه فشاعت الفوضى فيهم، ووصل الضنك بهم حداً أن اضطروا الى القتال بصورة اعتباطيّة لا نظام فيها، ولما زجّ كاميللوس بفرقه الثقيلة، اندفع البرابرة اليهم بقوة وسيوفهم مشرعة فراح الرومان يكيلون لهم الطعن برماحهم ويتقون ضربات السيوف على الاجزاء التي يحميها الحديد حماية جيدة. وتثلمت سيوف الغالبين المصنوعة من معدن سيّء السقي والتوت وتكسرت في ايديهم وخرقت الأسنّة تروسهم وانغرس فيها كثير حتى ثقلت بها، فأضطروا الى ترك أسلحتهم وحاولوا الاستفادة من أسلحة أعدائهم، وراحوا يحاولون انتزاع الرماح من تروسهم. ولما وجدهم الرومان عزلاً لاسلاح في ايديهم، امتشقوا سيوفهم وكانوا يتقنون استخدامها - وأوقعوا مذبحة كبرى في الصفوف الأولى، بوقت قصير. بينما هربت البقية وتفرقت في الأراضي المجاورة. وكان كاميللوس قد أستعدّ لذلك من قبل باحتلال المرتفعات والتلا. وكان الغاليون يعرفون أن العدوّ ان يصعب عليه الاستيلاء على معسكرهم لأنهم تركوه دون حراسةٍ وحماية لوثقهم بالنصر، ولذلك لم يلجأوا اليه في فرارهم.

قيل أن هذه المعركة جرت في السنة الثالثة عشرة[٦٩] بفتح روما. ومنها فصاعداً ارتفعت معنويات الرومان، وازدادوا شجاعة، وتغلبوا على مخاوفهم من البرابرة، الذين عزوا هزيمتهم السابقة الى تفشي الوباء فيهم، وسوء حظوظهم، أكثر مما عزوه الى بسالة الرومان. في الواقع أن هذا الخوف كان شديداً عند الرومان حتى انهم سنوا قانوناً يقضي باعفاء الكهنة من الخدمة العسكرية، إلاّ عند غزوات الغاليين.

كان هذا، آخر عملٍ عسكري انجزه كاميللوس. لأن استسلام مدينة القيليترانى Velitrani طوعاً لم يكن الاّ مجرد عملية تابعة. إلاّ أن أعظم المعارك السياسيّة وأشقهّا حلاً مازالت تنتظر منه تسوية، وكان عليه أن يخوضها ضد الشعب.

عاد الجيش الى أرض الوطن ثملاً بخمرة النصر والنجاح مصراً على تغيير القانون السائد، وانتخاب قنصل واحدٍ من طبقتهم فعارض الشيوخ في ذلك أشدّ معارضةٍ ولم يسمحوا لكاميللوس بالاستقالة من منصب الدكتاتور، نشبثوا به متوهمين بأن احتماءهم باسمه العظيم وسمعته، يضاعف من قدرتهم على النضال لابقاءنظام الحكم ارستقراطي الشكل.

لكن، بينما كان كاميللوس جالساً على منصّة الحكم يصرّف شؤون الدولة، إذ صعد اليه ضابط ارسله تريبيونات الشعب، وأمره بالنهوض والسير خلفه، ووضع يده عليه كأنما يريد القبض عليه ونقله. فأمتلأ الفوروم بضجيج وصخب لم يسمع بمثله من قبل. وحاول بعض من كان حول كاميللوس أن يصدوا الضابط وقذفوا به من فوق المنبر. وراحت الجماهير في الأسفل تهيب بالضابط أن يقتاد كاميللوس وينزله عن مقعده. وأستبدت الحيرة بكاميللوس وأسقط في يديه. ولم يدر كيف يخرج من هذا الموقف الصعب. على انه لم ينزل عن سلطاته بل جمع الشيوخ وأخذهم الى المجلس وقبل ان يدخل دعا للآلهة أن تلهمهم الحلّ الصائب وتبلغ بهم الى نتيجة خيرٍ وسط هذه المحنة ونذر بقسم مغلظ أن يبني معبداً لـ[كونكورد Concord] أن أنكشفت الغمة وزالت المحنة. ثم عقدت الجلسة، وأصطدمت آراء المجلس اصطداماً عنيفاً وكثر الجدال، أخيراً نجح أكثر الاقتراحات اعتدالاً، وأحسنه قبولاً عند العامة. وبه تمت الموافقة على تعيين قنصل من العامة الى جانب القنصل الآخر[٧٠]. وعندما أعلن كاميللوس قرار المجلس لعامة الشعب، أستبد به الفرح، وصالح الشيوخ صلحاً صميماً لم يسبق مثيله من قبل. ورافق الجمهور كاميللوس الى منزله بتظاهرة عظيمة، حافلة بضروب التجلة والتعظيم،

---

(٦٩) بعد ١١ سنة (اي في ٣٥٦ ق.م) فرض عليه يوبليوس ليناس غرامة مقدارها عشرة آلاف ستدركه لأنه كان يملك الف ايكر بالاشتراك مع ابنه الذي أخرجه من السلطة بسبب ذلك [ليفي ١٦:٧].

(٧٠) ليس ثلاثة عشر بل ثلاثة وعشرون عاماً [ليفي ٤٢:٦].

ومظاهر الغبطة. وأجتمع المواطنون كافةً في اليوم التالي وصوتوا بتأييد اقامة معبد [كونكورد] تحقيقاً لنذر كاميللوس، على أن يشييد بمواجهة بناية مجلس الشيوخ والفورم. كما صوتوا على اضافة يوم رابع الى أيام العيد الثلاثة المعروفة «بالأعياد اللاتينية». ورسموا في تلك المناسبة، أن يقدم كل الرومان قرباناً وعلى رؤوسهم أكاليل الغار مضفورة.

في الانتخابات العامة التي أشرف عليها كاميللوس أنتخب [ماركوس اميليوس Marcus Aemilius] قنصلاً عن الپاترتشيين. و[لوشيوس سكسيتوس Lueius Sextius] أوّل قنصل عن العامة. وكان هذا آخر أعمال كاميللوس.

في السنة التالية أنتشر في رومه وباءٌ أهلك عدداً لا يحصى من عامة الناس، وراح ضحيته معظم الحكّام ومن بينهم [كاميللوس]. وليس يصح القول انه أعتبط، أو مات قبل أوانه باذا فكرنا في عمره الكبيرة أو أعماله الكبيرة، إلاّ ان الحزن عليه فاق الحزن على كلّ من ماتوا بهذا الوباء مجتمعين(٧١).

أهم الأحداث في عهده (ق.م)

٣٨٧ معاهدة السلام التي عقدها القائد السپارطي انطالقيداس مع الفرس وبموجبها أصبحت المدن الاغريقية في أسيا الصغرى خاضعةً للفرس.

٣٧٧ (خابرياس) زعيم الآثينيين يهزم القائد اللقيديي [پوليسدس] في معركة [نخسوس] البحرية.

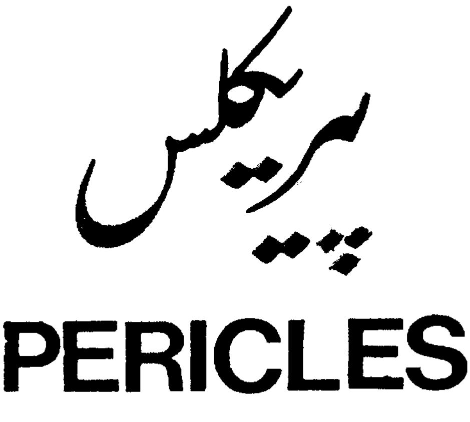
٣٧١ الثيبيون بقيادة (اپامنداس) يهزمون اللقديميين في لڤكترا.

---

(٧١) بعد ان فرض عامة الشعب ارادتهم بتعيين احد القنصلين من بينهم وتم احياء المنصب القنصلي والتخلص من منصب التريبيون العسكري نهائياً. إلاّ ان طبقة الپاتريشي لم تتنازل عن هذا الامتياز إلاّ بعد استحداثها وظيفة جديدة هي منصب الپريتور الذي نصّ على ان يكون من الپاتريشي دائماً. والقناصل هم جنرالات في الجيوش الرومانية وهم في الوقت عينه قضاة مدنيون. لكن لما كانوا في ميادين القتال في أغلب الأحيان فقد روعى من الانسب أن تسحب منهم الواجبات المدنيّة وتناط بقضاة يطلق عليهم اسم «بريتور» يلون القناصل في درجة الوظائف العامة. وأول پريتور نصب في روما كان ابن (كاميللوس). وبالمناسبة فقد استحدث في عين الوقت منصب الكورول ايديل (ليڤي ٧:١) الذي سيأتي الكلام عنه. وفي حدود العام ٢٥١ ق.م. استحدث منصب بريتور ثانٍ وانيط به حلّ النزاعات والخلافات التي تنشب بين الاجانب غير الرومانيين. وعند الاستيلاء على صقليةٍ وسردينيا أضيف اثنان أخران، وأضيف عدد آخر عند فتح اسپانيا.



مارس



PERICLES

495 _ 425



إتفق أن القيصر(*) شاهد بعض اغنياء الأجانب في (رومه) يحملون الجراء والقردة الصغيرة، يهدهدونها ويحتضنونها ويدللونها ويضمونها الى صدورهم بإعزاز وحبّ، وكان من الطبيعي أن ينتهز الفرصة ليسأل: هل تعودّت النساء في بلادهن أن لايحملن أطفالاً؟» إن هذا النقد الملكي الوجيه أحرى كثيراً بالناس الذين يغدقون على الحيوانات والبهائم ذلك الحب والعطف اللذين، ما زرعتهما الطبيعة في أنفسنا إلاّ لنخصّ به بني جنسنا من البشر، وللعلّة نفسها يحق لنا العتب على أولئك الذين يسيئون استخدام حبّ الاستطلاع، والاستفسار ويصرفونه في أمور لاتستأهل من اسماعهم وأبصارهم اهتماماً، في حين تراهم لايبالون بما هو حسن بذاته، ولايكترثون بما يصلح ويستقيم لهم.

إن مجرد الحسّ الظاهر، لما كان جامداً عاجزاً عن الأستجابة لتعبيرات الأشياء التي تقع في طريقه أو تعترضه، فقد لا يقوى على ملاحظة أو اقتبال كل ما يعنّ له أياً كان، مفيداً أو ضاراً. لكن الأمر يختلف عندما يستخدم المرء قواه العقلية. ففي كل انسان قوة طبيعية لتكييف نفسه لكلّ مناسبة عندما يشاء وان لديه مقدرة على تغيير نفسه وتحويلها بأسهل ما يمكن الى ما يجده حسناً له. لذلك كانت مهمة الإنسان أن يتتبع خير الأشياء وأن يستخلص أصلحها، وبذلك لايكون عمله قاصراً على تشغيل وتنمية قوى إدراكه، بل الانتفاع بتلك القوى أيضاً. وكما يكون لون من الألوان أبهى للعين من غيره، وكما تكون لطافته ورونقه باعثاً على تقوية النظر وزيادة حِدته، كذلك ينبغي للانسان أن يستخدم بشعور من البهجة قوى ذهنه في الأمور الكفيلة بصقله وتنشيطه، لمنفعته الخاصة، ومصلحته .

تلك الأمور المحفزة للذهن نجدها في أعمال الفضيلة، لأنها تخلق في عقول قرائها العاديين دوافع وحوافز قد تؤدي بهم الى محاكاتها، في حين أن الأعجاب بما سواها لا يستتبع حتماً نشوء رغبة قوية في النفس الى محاكاتها. بالعكس، والف مرة بالعكس، فنحن عندما نعجب بصناعةٍ، لانكترث أو نهتّم كثيراً بالصانع أو الفنان، كحالة أعجابنا بالعطور أو الأصباغ

(*) المقصود أغسطس قيصر.

الحمراء، اننا نميل الى هذه الاشياء، كأشياء فحسب ولا نفكر بالعطارين والصباغين الذين صنعوها، أكثر من كونهم أناساً عاديين من عامتهم ودهمائهم.

لم يركب [انتستينس Antisthenes][1] متن الشطط لما قال رَداً على ما سمع أن المدعو [ايسمينياس Ismenias، خير نافخ بالناي]، فقال: «قد يكون كذلك، إلاّ انه مخلوق بشريّ بائس لا غير، وإلاّ ما كان نافخ ناي ممتازاً» وقال الملك [فليپس] لابنه الأسكندر شيئاً في الموضوع نفسه. فقد عزف هذا الابن مقطوعة موسيقية عزفاً مبدعاً عجيباً في مجلس لهو وطرب. فعقب أبوه على ذلك بقوله: «الا يدركك الخجل يا بنيّ، لعزفك عزفاً ممتازاً؟»[2] والقصد من هذا انه يكفي الملك أو الأمير أن يجد لنفسه فراغاً من الوقت أحياناً، لينصت الى موسيقى الآخرين، وأنه ليرفع من قدر الفن كثيراً عندما يجد في نفسه رغبة في حضور مجلس يمارس فيه آخرون هذه الأمور الفنيّة الرفيعة.

ومن يشغل نفسه في مهنٍ وضيعة، ينهض شاهداً ضد نفسه على إهماله وعجزه عن الاتيان بالأعمال الصالحة المفيدة، في تلك المعاناة التي يتكبدها اثناء انجازه الأمور القليلة الفائدة، أو التي لا فائدة فيها. ولن يجد أي شاب نابغ أريب أي رغبة في أن يكون [فيدياس Phidias] عندما يشخص بنظره الى تمثال جوپتر في [پيزا Pisa][*] أو يتمنى أن يكون [پولقليطوس Polycletus] عند مشاهدته تمثال [جونو] في [ارغوس] ولا أن تتأثر نفسه بأشعار [اناكريون Anacreon] أو فيليطاس Philetas أو ارخيلوخس الى الحد الذي يشتاق أن يكون أحدهم. اذا حازت أعجابنا قطعة دقيقة الصنع أو أي اثر فنيّ لجمالهما ورعتهما فليس ضرورياً أن يستحق صاحبها أعجابنا أيضاً ومن حيث ان هذه الأشياء لاتفيد ناظريها ولاتجديهم نفعاً في الحقيقة، فإن الناظر اليها لايشعر بأيّ شوق لمحاكاتها، كما أنه لايجد اي حافزٍ يدفع رغبة فيه أو يحرك جهداً منه لصنع شبيه لها.

أمّا الفضيلة فتأثيرها آنيّ عميق يبعث الرغبة الى محاكاة صانعيها عادةً، ونحن نتملك ثمار الحظ ونتمتّع بها، أما ثمار الفضيلة فنهفو الى ممارستها ومزاولتها. نحن نُسرّ بأن نأخذ الثمار الأولى من الآخرين، لكننا نتمنّى أن يأخذ الآخرون منّا الثمار الثانية. إن الثروة الأخلاقية حافز واقعيّ عمليّ، ما أن يقع عليها النظر حتى توحي الى نفس الناظر بدوافع

---

(١) تلميذ سقراط ومؤسس المذهب الفلسفي المعروف بالفلسفة الكلبيّة نبع في حدود (٣٦٥-٤٤٤ ق.م) وهو معلم ديوكينيس.

(٢) وقع (فيليب) نفسه في خطأ شبيه بهذا الذي عنّف ابنه بسببه فمرة أختلف مع احد الموسيقيين حول مبادئ الموسيقى. فصاح مخاطبه قائلاً «السماوات لا تسمح لك بان تعرف عن هذا الموضوع أكثر منيّ».

(*) أعني أولمپيا.

لمحاكاتها واحتذائها. وليس تأثيرها على العقل والخلق مجرد اندفاع للتقليد. بل هو تأثير عميق تفصيليّ خلاّق للغرض الخلقي الذي ننتويه.

لهذا وجدنا من الملائم أن نصرف الوقت ونبذل الجهد في تدوين سير مشاهير الرجال. وألفنا هذا الكتاب العاشر في سيرتي پيركليس وفابيوس وماكسيموس الذي ادار دفة الحرب ضدّ [هنيبال]، والرجلان متشابهان في أخلاقهما الأخرى ونواحيهما الحسنة، وهما كذلك سواءً في مزاجهما الرقيق ولين عريكتهما واستقامتها وسلوكهما العام. صنوان في مقدرتها على تحمل الأمزجة المتناقضة الجامحة لبني قومهما وزملائهما في الحكم. ولذلك افادا بلديهما كثيراً وأصلحا من أمور وطنيهما. وسواء أإتخذا السبيل القويمة الى الغرض المشروع آنفاً أم لم يتخذا، فهذا ما سنترك الحكم فيه للقاريء، مستهدياً بما سيجده هنا.

كان پيركليس من قبيلة [أكامنتس Acamantis] ومن مواطني مدينة [خولارغوس Cho-largos] ونسبه أعرق الأنساب سواء من جهة ابيه أو أمّه. [فكزانتيبوس Xanthippus] أبوه، هو الذي هزم قادة ملك فارس في معركة [ميكاله Mycale]، تزوج [اغاريستي Aga-riste] [3] حفيدة [كلسطينيس Clisthenes] الذي قام بمأثرة طرد ابناء [پسستراتوس] ووضع حداً نهائياً لطغيانهم وأغتصابهم الحكم، فضلاً عن سنّه مجموعة من الشرائع، وإقامته نموذجاً صالحاً للحكم يتفق تمام أتفاق وسلامة الشعب واستقراره.

في آخر أيام حمل أمّه به، رأت في الحلم أنها ضاجعت أسداً. وبعد أيام وضعت پيركليس، وكان كامل التكوين إلاّ رأسه فهو مستطيل بعض الاستطالة غير متناسق، ولذلك لاتجد صورة له أو تمثالاً إلاّ والرأس مستورٌ بخوذة. ويظهر أن الصناع والمثّالين ما كانوا يرغبون في إبراز ذلك العيب الجسمانيّ.

ولقبّه شعراء آثينا [سخينوسيفالوس Scinocephalus] أو «رأس العُنْصُل» مأخوذاً من كلمة [سخينوس Schinos] وهي تستعمل أحياناً لتسمية نبات العُنصلان أو بصلة البحر.

---

(٣) نجد عند هيرودوتس (١٣١:٦) النسب الكامل لپيركلس. كان «كلستينيس» ملك [سيكيون] ابنة واحدة تدعى [أغاريستي] فزوجها بـ[ميغاكليس] ابن [آلكيمون] فكانت ثمرة الزواج ابنان هما [كلستينيس] و[ابيوقراطس]. وولد للثاني منها ابن دعي بـ[ميغاكليس] وابنة سماها [آغاريستي] وهي والدة پيركلس. ولذلك فهي ليست حفيدته بل بنت أخيه.

إن معركة (ميكالي) في ايونيا، وقعت في اليوم نفسه وبين النتيجة العظيمة التي آلت اليها معركة (پلايتي) في ٤٧٩ ق.م. اذ ترك الفرس في ميدان القتال اربعين الف قتيل، وهلك عدد أكبر من هذا اثناء المطاردة. ولم يكتب النجاة للبقية الاّ بالتقهقر المشين والاحتماء باسوار ساردين. وكانت خسارة الاغريق تزيد عن اية خسارة حلت بهم في اية معركة أخرى خلال تلك الحروب كلها.

ويورد لنا أحد الشعراء الساخرين. المدعو [قراطينوس Cratinus] [٤] في «الحوليّات الخيرونات Cheirons» بأن:

«الزمان القديم» تزوج مَرّج، بالملكة «تمرّد» فكانت نتيجة الزواج، ذاك القذر الطاغية المدعو بيركليس في الأرض جامع الرؤوس Head Compeller! في السماء.

وفي «آله الانتقام اللعنة Nemesis» يوجه الكلام اليه قائلاً:

يقال يا ربّ - يا أنت «رأس» الآلهة المبارك الأعلى القوى[٥] أخا الجود والكرم!

ويصفه [تيلقيدس Teleclides] الشاعر الآخر: وهو جالس في الاكروپوليس وقد ارهقته المتاعب السياسية:

ينوء تحت عبء رأسه. وهو الآن من خارج مقصورة رأسه ذات الأحد عشر متكأ مسبباً المتاعب والضجة العظمى.

وفي مسرحيّة هزلية لشاعر ثالث هو [ايپوليس Eupolis] اسمها «النَصَف Denes» يسأل عن ابناء كل خطيب ديماغوغي من الديماغوغيين الذين جعلهم في مسرحية (قادمين من جهنم) (ايداس)، عندما خرج پيركليس في الاخير تراه يهتف:

هل صعد الى فوق، رأس القبائل التي تدور في تلك العوالم الواسعة؟

واتفق معظم الكتاب ان الاستاذ الذي لقنه الموسيقى هو [دامون Damon] (يقولون ان المقطع الأول من اسمه يلفظ قصيراً)، على أن [أرسطو] يخبرنا أن [پيتوقليدس Pythoe-lides] هو الذي جعله يتقن هذه الفنون ويحذقها، وليس ببعيد أن يكون [دامون] هذا من السفسطائيين، أحتال باحتراف الموسيقي على حماية نفسه كي يخفى عن الناس عامةً نبوغه في المسائل الأخرى وتحت ستار هذا الزعم لازم الرياضيّ الشاب پيركليس في شؤون السياسة، أو بكلمة أخرى باعتباره مدرباً في التمارين الرياضية، وعلى أية حال لم تكن «قيثارة»

---

(٤) قراطينوس هو كاتب هزليات قديمة. كتب آخر مقطوعة له وهو في السابعة والتسعين من العمر. واقبوليس الذي كان اسبق منهم عند عبوره المضايق وقع «ضحية خياله الشعري الساخر».

(٥) كان پيركلس يلقب بـ(اوليمپوس) أو (جوپتر) كما نوه پلوتارخ بذلك فيما بعد. والشاعر هنا يوجه اليه القول بهذه الصفة ويشير اليه بكلمة «المبارك» أو «ذي الرأس الأكبر». وليس في العربية كلمة كهذه ذات معنى مزدوج ولفظ واحد. وفي الابيات الأولى لقب بـ(كيفالگيرتس) أو جامع الرؤوس (كان رأس پيركلس لفرط ضخامته، يبدو وكأنه مجموعة رؤوس) بدلاً من نيفاليگيرتس أو جامع الغيوم. وهي صفة من صفات (جوپتر) المعروفة.

دامون ناجحة كل النجاح لستر نفسه اذ نفي عن البلاد دون محاكمة، لمدة عشر سنوات متهماً بتدخله لمصلحة السلطة المستبدة، وبهذا اتاح للمرسح فرصة التندر عليه، فمثلاً نجد افلاطون الشاعر يخترع شخصية مسرحية ويسألها:

«اذن قل لي أولاً من فضلك يا دامون، أنت الخيرون الذي زود پيركليس بصنعته[٦] وتتلمذ پيركليس أيضاً على زينو Zeno [الأليائي Elea][٧] الذي عالج فلسفة الطبيعة بعين الطريقه التي عالجها [پارامينِدس] إلاّ أنه أبلغ الذروة في فن لا ينازعه فيه أحد، وهو وحض حجج خصومه في الجدال واسكاتهم؛ ودونك وصف [تيمون الفيلوسي] له:

«كذلك كان لسان زينو الجبار؛ لسان ذو حدّين يستطيع أن يبرهن على خطأ أي قولٍ مهما كان»

إلاّ أن [أناكساغوراس] الكلازوميني Clazomenae كان الأكثر لصوقاً بپيركليس، وهو الذي أفاده أكثر من غيرهم، لاسيما بتوسيع مداركه والارتفاع بوعيه على كلّ المفاهيم الشعبيّة الاعتيادية، وفتحّ عينيه على سموّ المقاصد ورفعة الأخلاق. كان رجال العهد قد لقبوا هذا الفيلسوف بـ[نوس Nous] اي العقل، أو النبوغ إما بدافع أعجابهم بمواهبه العظيمة الفائقة التي برزت في علوم الطبيعة. وإما لأنه أوّل الفلاسفة الذين عزوا المسبب الأول للوجود، لا الى المصادفة وحكم الظروف ولا الى الضرورة والوجوب، بل الى ادراك محضٍ نقيٍّ خالص يعمل في الأشياء الأخرى المركبة والمختلطة، كعنصر فصلٍ أو عنصر اتحادٍ بين النظير والنظير.

وكان أحترام [پيركليس] لهذا الفيلسوف وأعجابه به لا حدّ لهما ولا غرو فقد أثر في نفسيته وملأها بالادراك المتسامي أو كما يوصف بالادراك الضارب في كبد الفضاء، ولم يكن معين هذا الادراك قاصراً على سموّ الغاية، وسلامة القول البعيد جداً عن تهريج البلاغة الغوغائية، المضلِّلة الوضيعة، بل أوجد فيه الى جانب ذلك رباطة جأشٍ وهدواً ووقاراً في حركاته وسكناته، حتى لم يعد يقوي حادث طاريء على حديث استرسل فيه. وكانت نبرات صوته قوية هادئة مطردة. الى غير ذلك من الميزات التي تخلف أعظم التأثير في سامعيه.

---

(٦) وكلمة (خيرون) هنا ذات معنيين فهي إمّا تفهم في العبارة هكذا: "أأنت معلم پيركلس؟ أو تفهم" - "أأنت أكثر شراً من پيركلس؟"

(٧) (إيليا) بلدة ايطالية ومستوطنة للفوكيين. وعلينا ان لا نخلط هنا بين زينو هذا وبين زينو الاليائي موجد الفلسفية الرواقية. فالمقصود هنا هو رجل نال احترام بلاده لمحاولته انقاذها من يد أحد الطغاة. فقبض عليه الطاغية وأمر ان يوضع تحت مدقّه الجصّ ويدقّ حتى يموت إلاّ ان ميتته حققت ما لم تحققه حياته فقد عصف الغضب بمواطنيه لهذه الجناية ووثبوا على الطاغية مرتكبها ورجموه حتى الموت.

ومرة أبتلي بشخص وضيع متهتك ظلّ يشتمه ويهينه على مسمع منه طوال اليوم وهو منشغل في ساحة السوق بتصريف أمرٍ عاجل، فلم يأبه به وأستمر في عمله بصمت تام، ثم قفل الى منزله عند حلول المساء وهو في تمام هدوئه والرجل يجرى في أعقابه يلاحقه بالشتائم ويرشقه ببذيء القول طول الطريق. ودخل پيركليس بيته وقد جنّ الليل، فأمر أحد خدمه أن يحمل مصباحاً ويرافق الرجل حتى منزله.

الحق يقال، ان الشاعر الدرامي [ايون Ion] يذكر أن سلوك [پيركليس] مع مجالسيه كان متسماً بالخيلاء والتعاظم، وغطرسته هذه كان يتخللها قدر كبير من الاستخفاف والازدراء بالآخرين، ويتحفظ في إطرائه بساطة [كيمون] ومرونته وكياسته الطبيعية في سلوكه مع الناس. وعلى كل حال، فأيون هذا يرمي الى أن يعامِل الأخلاقَ معاملته لمشاهد تمثيلية مأساوية، فيحشر فيها بعض المواقف الهزلية، مما لا يمكن الركون الى اي منها(٨). واعتاد [زينو] أن طلب ممن يسمون رزانة [پيركليس] بتظاهر المشعبذ أن يروحوا ويتصنعوا تلك الرزانة الى أن يزرع فيهم هذا التقليد حباً حقيقياً لهذا الخلق النبيل وأدراكاً له.

ولم يكن هذا، كل ما جناه پيركليس من مخالطته لاناكساغوراس إذ تدل الدلائل أنه صار وفقاً لتوجيهاته ينفر من تلك الخرافات التي يتطلع اليها الجاهل مشدوهاً خاشعاً وهي تبدو في السماء مثلاً... تلك الأوهام التي تستولي على عقول من لايدري اسبابها، فيذهلون للظواهر الخارقة للطبيعة ويكون سريعي الاستشارة لقلة التجربة التي تنّحي ادراك العلل الطبيعية جانباً، وتضع الأوهام الطائشة المحدودة الأفق، موضع الأمل الخيّر، وأطمئنان التُقى المنبعث من الفهم والادراك.

وتحضرني حكاية عن پيركليس: أُحضر له من مزرعته الريفية يوماً، كبش ذو قرن واحدٍ. فلما وقع نظر العَرّاف [لامپون Lampon] على القرن بارزاً من وسط جبهة الرأس صلباً قوياً، نطق بتفسيره قائلاً: لما كان يوجد في تلك الفترة رأيان أو مصلحتان أو حزبان قويان في

---

(٨) التمثيلية التراجيدية كانت بالاول عبارة عن جوق من المنشدين لتكريم باخوس. وكان الممثلون يرتدون ازياء تنكرية كالمسوخ وكثيراً ما كانوا اثناء التلاوة والالقاء يتبادلون عبارة المزاح بدون حدود. بعدها اتجهت الجوقة الى الجدية والوقار فبدت تراجيكوميدية اي مزيج من المأساة والهزل. وبمرور الوقت بدأ التراجيديون يعالجون مواضيع جدية وبدأ الممثلون شخصيّات وقورة مؤدبة. وتم التخلص من المزيج المتناقض في التمثيلية واصبحت دراما تامة الابعاد الاّ أن الممارسة العملية حتى في الزمن الذي نحن بصدده كانت تقتضي عرض ثلاث مقطوعات تراجيدية جديّة. وبعدها اعتاد الشعراء ان يختموا مسابقتهم على الجائزة بقطعة ساخرة. ويوجد من هذا النوع تمثيلية جيدة هي «السيكلوبا» لـ[يوريپيدس].

وأيون هو مرسحي تراجيديٌ من مدينة (خيوس) ومن بعض اصولٍ لآثاره جائتنا مقطوعات قليلة من مرثياته.

المدينة، أحدهما يتزعمه [ثوكيديوس][٩]، والثاني يرأسه [پيركليس] فان الحكم سيؤول الى من خرجت إشارة الأقدار هذه من أرضه! فلم يكن من اناكساغوراس الاّ أن فلق جمجمة الكبش نصفين، وعرض للحاضرين أن الدماغ لم يتخذ موضعه الطبيعيّ، ولأنه مستطيل كالبيضة فقد التمّ من كل تجاويف القحف الذي يستوعبه وأجتمع في نقطة الموضع الذي نشأ منه جذر القرن البارز. في حينه أثار اناكساغوراس أعجاب الحاضرين بشروحه وتعاليله، إلاّ أن الأعجاب [بلاسپون] فيما بعد لم يكن بأقل منه، عندما هزم [ثوكيديدس] وقبض پيركليس على زمام الحكومة والدولة.

ولست أجد أي غرابة في القول بأن كلاهما كان مصيباً، فيلسوف الطبيعة ذاك، والعراف هذا فاولهما كشف عن سبب تلك الظاهرة كشفاً صحيحاً وأظهر للملأ علتها. أما الثاني فقد أبان الغرض من وجودها. وكانت مهّمة أولهما الوصول الى أصل تكوينها وتفسيره، اي ايضاح السبب في نموّ القرن بهذه الهيئة الشاذة. في حين قصرت مهمة ثانيهما على التنبؤ بالغاية التي استهدفها نموّه وعلام تدّل، وأي خبر يستبطن؟

لقد خفي عن القائلين بان البحث عن مسببات الخوراق يؤدي الى ضياع وتلف ما تنبيء به وتدل عليه انهم يضيعون مع تلك الخوارق السماوية كل البراهين والدلائل المثبتة للمكوّنات الانسانية، والتناسق البشري. ومثل هذه، كمثل اصطفاق حلقات الرمي النحاسية بعضها[١٠] ببعض، وكتعارض انوار النيران المرشدة ليلاً، وكتصادم ظلال المزولات الشمسية؛ فلكل من هذه سببٌ ووسيلة ولكلّ سبب دليل الى آخر... إلاّ ان هذا البحث قد يلائم موضعاً آخر غير هذا الموضوع ولنكتف بما عرضنا منه.

كان پيركليس في شبابه يتردد من مواجهة الجمهور الى أقصى حدٍ، اذ كان يُعتقد بانه يشبه [پسستراتوس] الطاغية شبهاً شديداً بملامحه وتركيبه البدني، وكبار السنّ المعمّرون الذين أدركوا الطاغية، فيذهلون للشبه العجيب بين صوتيهما عندما ينصتون لعذوبة نبرات [پيركليس] وسرعة كلامه وذلاقة لسانه.

واطال [پيركليس] التأمل في حالة، فكر في ثرائه العريض ونبل محتده، وكثرة اصدقائه المتنفذين، ورأى أن هذا قد يؤدي به الى أعتباره من الاشخاص الخطرين على النظام فيحكم

(٩) سياسيّ معاصر لـ(پيركلس) وواحد من مناوئيه. وابوه هو [اوروليوس] في حين ان اسم والد المؤرخ الشهير هو (ميلسياس).

(١٠) ان ضرب الأحلاق أو الصناجات النحاسية بعضها ببعض هي اشارة عسكرية عند الاغريق أحياناً، في حين انها عند الرومان اشارة يدعو بها المصارعون للنزال (شيشرون: الخطابة ٣) كما تستخدم الحلقات في المحاكم لدعوة المتقاضين.

عليه بالنفي فخوفاً من هذا عمد الى الابتعاد عن شؤون الدولة ولم يتدخل في شيء. لكنه برهن على شجاعةٍ وبسالةٍ في خدمته العسكرية. وبموت [اريستيدس] وطرد [تمستوكليس]، وانشغال [سيمون] بالحملات العسكرية التي قادها الى أجزاءٍ من بلاد الأغريق وقضائه معظم أوقاته خارجاً، تقدم [بيركليس] بعد طول تفكير ليأخذ مكانه، لا الى جانب الأغنياء والأقلية، بل الى جانب المعدمين والأكثرية، خلافاً لميله الطبيعي البعيد جداً عن الديمقراطية، وأغلب الاحتمالات انه خشي أن يشك في أنه يطمح الى السلطة المستبدّة، كذلك لأن [كيمون] كان يؤيد الحزب الارستقراطي، والمبرزون ورجال الطبقة العليا متعلقون به شديدو الحب له. فلم ير بداً من الانتماء الى حزب العامّة يحدوه في الوقت نفسه غرضان: ان يحصنّ نفسه من أي سوء، وأن يضع يده على الوسائل الفعّالة لمناجزة خصمه [سيمون].

ما أن أستقرّ رأيه على هذا حتى أتخذ أسلوباً جديداً في حياته، وبدّل من عاداته، وأعاد تنظيم أوقاته. فلم يُر بعدها سائراً في شارع غير الشارع المؤدي الى ساحة السوق وقاعة مجلس الشورى، وأجتنب دعوات الخلان الى ولائم العشاء، وانقطع عن زيارة الاصدقاء، وأنهى كل علاقة له من هذا القبيل وتفرغ للجمهور تفرغاً تاماً ولم يكن هذا كله بالجهد القليل. ولم يسمع عنه بعدها انه قصد صاحباً له لتناول العشاء إلاّ مرة واحدة، عندما تزوج قريبه [يوريبطليموس Euryptolemus] إذ بقي في الحفل حتى تمام مراسيم تقدمة الخمر، وبعدها أسرع بالنهوض وترك المائدة عائداً الى بيته(١١).

كان يدرك إن هذه اللقاءات الوديّة من شأنها ان تزيل الكلفة وتمحو عامل التفوق بسرعة شديدة. وفي العلاقات الصميمة الوثيقة يصعب جداً الاحتفاظ بمظاهر الوقار والرزانة، ويزداد التصرف على التمايز الحقيقي عندما يكشف صاحبه عنه كشفاً جلياً، وفي أخيار الرجال الحقيقين لا شيء منهم يستأهل أعجاب مراقبي السلوك الظاهري، مثل حياة أقرب اصدقائهم الاعتيادية اليومية.

وعلى كلٍ، ولأجل أن يجتنب [پيركليس] اي شعور بالابتذال، أو تكوّن اشباعٍ في الجمهور من رؤيته، لم يكن يظهر في المجتمع كثيراً، ولا يتكلّم في كلّ شأن، ولا يحضر جلسات الجمعية العامة دائماً. بل كان على حدّ قول [قريطولاوس Critolaus] يدّخر نفسه للمناسبات الكبرى، مثل سفينة سلاميس(١٢)، ويصرف الأمور الثانوية عن طريق أصدقائه، أو يدفع

(١١) أعني حتى جيء بالخمر لمجلس الطرب والشرب. وبُديء بتعاطي الرّاح.

(١٢) الى جانب تلك المهام الكبرى الخاصّة التي تستخدم لها سفينة (سلاميس) فهي ترسل لنقل الجنرال الذي يريد الآثينيون منه تقديم حساب. واما كريتولاوس المشاء فقد كان موفداً من قبل مجلس شيوخ روما في ١٥٥ ق.م مع ديوغينس الرواقي، وكاريناس الاكاديمي.

متكلمين آخرين بتوجيه منه، ومن هؤلاء الأنصار [أفيالطس Ephialtes] الذي قضى على سلطة المجلس الاريوباغي، وسقا الشعب جرعة من الحرية كبيرة وقوية جداً - على حَدّ تعبير افلاطون[١٣]، بحيث أصبح صعب القياد، متمرداً على كل نظام، أو على حد قول الشعراء الساخرين - كالحصان الجموح -...

«الذي لم يعد فيه الصبر على

اطاعة اللجام تراه يعضّ في ايوڤيا، يطأ الجزر»

وأخذ أسلوب حديثه المتسق تمام اتساق مع السبيل الذي سلكه في الحياة ورزانة آرائه. عن نغمات تلك الآلة التي منحها له اناكساغوراس. وأما بخصوص تثقيف نفسه فقد أستمر في الإفادة وتقوية ألوان بلاغته الخطابية من صيغة علم الطبيعة، ففضلاً عن نبوغه العظيم بالسليقة، توصل كما قال أفلاطون الآلهي[١٤] الى الإفادة من الطبيعيات: فبلغ تفوقه العقلي هذا وقدرته الواسعة في استيعاب كل العلوم ثم أخذه بكل ما هو مفيد له من فن الكلام ما جعله يرتفع على الأقران بمسافة شاسعة. وقيل أنه ما لُقبّ بالاولمپي إلاّ لهذا السبب. إلاّ أن بعضهم يقول أن اللقب جاءه بسبب تزيينه المدينة بكثير من المباني العامّة. ويرى آخرون أنه سُميّ بذلك لما أظهره من كفاءة في تصريف شؤون الدولة، سواء في السلم أو في الحرب. ولا يستبعد أن تكون التسمية نتيجة اجتماع عدة مآثر وخصالٍ في شخصه. ومهما يكن، ففي الكوميديات التي ألفت آنذاك، كلمات متطايرة تعرّض به تعريضاً حاداً إمّا بقصد قدحه والنيل منه واما على سبيل الفكاهة والنكتة المحضة. ومنها يظهر أن تسميته هذه جاءت من أسلوب كلامه، فهي تنوّه «برعوده وبروقه» عندما يقف خطيباً في الجماهير، وتشير الى «الصواعق المرعبة التي تتفجر من لسانه»[١٥].

يتناقل الكتاب حديثاً لثوكيديدس ابن ملسياس عن پيركليس قاله على سبيل التندر في براعة لسانه. وكان ثوكيديدس أحد المواطنين السراة البارزين، ومن أشدّ خصوم پيركليس، وعندما سأله [ارخيداموس] ملك اللقيديمونيين أيهما أظهر في المصارعة؟ هو أم پيركليس؟ أجابه قائلاً: «عندما أرفعه وأطرحه على الأرض بمسكةٍ تتفق مع الأصول، يغلبني باصراره على أنه لم يسقط، ويحمل المتفرجين على تصديقه وتكذيب أعينهم». والواقع هو أن پيركليس كان شديد الحذر فيما يتكلم وكيف يتكلم. وبلغ به الأمر أنه كان يبتهل للآلهة كلما

(١٣) افلاطون [الجمهورية: ٨].

(١٤) فيدروس: افلاطون.

(١٥) ارسطوفانس: الآخارنانيوس.

صعد منبراً[(١٦)] بالاّ تدع لسانه يزّل بكلمة واحدة غير مناسبة للمقام ولا للموضوع.

ولم يترك أثراً مخطوطاً عند موته، إلاّ بعض المراسيم والبيانات ولم يسجلّ التاريخ من أقواله إلاّ النزر اليسير. كقوله مثلاً «يجب أن ترفع [ايجينا] من [پيريوس] كما يزال القذى من العين.» وقوله: إنه رأى الحرب وهي تزحف في طريقها نحوهم من البيلپونيوس. ومرة عندما كان [سوفوكليس Sophocles] مندوباً مفوضاً يزامله في القيادة وكان يصعد معه ظهر سفينة، أخذ يطري جمال فتىً التقيا به وهما في طريقهما الى السفينة فقال له پيركليس: «ياسوفوكلس! لا يكفي أن تكون يدا الجنرال نظيفتين، بل عيناه أيضاً».

ويحدثنا [ستيسمبروتوس] أنه قال في أثناء تأبينه أولئك الذين سقطوا صرعى المعركة في [ساموس][(*)]:

أنهم كالآلهة اصبحوا من الخالدين «فنحن لانرى الآلهة بالعين المجردة، بل نعزو اليها الخلود بالعبادة التي نقدمها لها وبالنعم التي تسبغها علينا، وهو الوصف نفسه ينطبق أيضاً على أولئك الذين يموتون في سبيل وطنهم».

كان ثوكيديدس[(١٧)] يصف حكم پيركليس بالحكم الارستقراطي المتستّر باسم الديمقراطية، وهو في الواقع سيادة فرد أوحدٍ عظيم، المقام ويقول كثيرون بعكس ذلك، ويذكرون ان عموم الشعب شجع بفضله وأقدم لأول مرة على الاستيلاء على أراضي الآخرين الممنوحة اقطاعاً لهم وعلى غيرها من الشرور، كاباحة ارتيادهم الملاعب والمسارح، ودفع مخصصات لهم عند أداء واجبٍ عامٍ فبهذه التدابير السيئة وبتأثير من سياسة العامة انقلب الشعب من ذلك الجدّي الحريص الدؤوب عن كسب رزقه من كدحه، الى شعبٍ محبّ للترف واللهو والخلاعة. وبين هذين الرأيين في حكم پيركليس لا مناص لنا من جلاء السبب في هذا التغيير على ضوء الحقائق المادية[(**)].

بالأول: قالوا أنه استمال قلوب الشعب لما قرّر منازلة كيمون ومزاحمته على سلطانه الكبير. اذ وجد نفسه أقل ثراء ومالاً من خصمه الذي أفاد من سعة ثروته برعاية الفقراء والحدب عليهم، فكان يدعو الى مائدة عشائه ليلياً، مواطناً أو أثنين من المحتاجين، وكان

---

(١٦) يقول كوينتليان انه يدعو بأن لا تخرج كلمة واحدة غير حسنة لأذان المتستمعين. وهذا أقرب الى منطق لأن [سويداس] يذكر ان پيركلس كان يكتب خطبه قبل القائها على الجمهور. وهو أول من عمد الى ذلك من الخطباء.

(*) ٤٤٠-٤٣٩ ق.م.

(١٧) المرجع السالف ٢،٦٥، ٩ في تقريظه لپيركلس.

(**) دستور اثينا ٢٧ : ٤.

يكسو العجزة ثياباً، ويهدم جدران بساتينه واسيجتها، ليجني الثمار منها كل من يريد ويقدر ما يشاء، وبهذا حقق الغلبة على بيركليس بهذه الأساليب الجذّابة لقوى الشعب. لكن بيركليس أخذ بنصيحة شخصٍ يُدعى [ديمونيدس Demonides] [18] الأويائي على ما ذكر [ارسطو]، فعمد الى توزيع النقود العامة؛ مشترياً الجماهير بوقت قصير. فقد خصص المال للملاعب وفرض أجوراً لخدمات القضاء [19]، وغير ذلك من أشكال المنح والهبات، أستخدمها سلاحاً ضد المجلس الاريوباغي للحدّ من سلطانه. ولم يكن هو عضواً فيه، إذ لم يجر تعيينه بالاقتراع في منصب يؤهله للعضوية، كأرخون بسيط، إو ارخون بوليمارخ فمنذ قديم الزمان وأرخون Thesmothetes أو ارخون Basileus او ارخون بوليمارخ هي من الوظائف الانتخابية. ومن تنتهي وظيفته فيها يغدو عضواً من المجلس الاريوباغي. فبعد أن ثبت بيركليس قدمه وأمن جانب جماهير الشعب وجه مجهودات حزبه ضدّ هذا المجلس وحقق نجاحاً باهراً، بأن سحب منه حق النظر في معظم الدعاوى والنزاعات القضائية التي كان من صلاحيته اجراء المرافعات فيها، وتم ذلك بمسعى [افيالتس] ومجهوداته. وعمل على إبعاد [كيمون] أيضاً باعتباره موالياً للقيديمونيين، وعدواً للشعب [20]. وكان المواطن الأول من حيث النسب والمال، وفاز بانتصارات باهرة على البرابرة، وملأ المدينة بالأموال وغنائم الحرب؛ على ما دوّن في تاريخ حياته.

حقاً كان نفوذ بيركليس عند الشعب عظيماً هائلاً.

لقد حدد القانون مدة النفي بعشر سنين. لكن [كيمون] عاد من منفاه قبل انتهاء المدة [*] - والسبب في ذلك ان اللقيديمونيين دخلوا حدود [تناغرا] [21] بجيش لجب فنهضت اثينا لحربهم، فأنضم كيمون الى معسكر قومه وتقلد سلاحه وانتظم في صفوف قبيلته، يريد بذلك ازالة الشكّ في موالاته للقيديمونيين. مقدماً برهاناً في المغامرة بحياته الى جانب بني قومه.

---

(١٨) هي مقاطعة في آتيكا. أو ربما قصد بها احدى الجزر المسماة سپورادس Sporades في بحر ايجه. أشتهرت بوجود قبر هوميروس فيها.

(١٩) هناك انواع عديدة من المحاكم في آثينا. وتؤلف من عدد معين من المواطنين ويصرف لكل مواطن (أُوبول] واحد من الخزانة عن كلّ قضية ينظر فيها. ويحاول بعض الاشخاص ان يكسبوا شعبية وشهرة فيحاولون المطالبة برفع هذا الأجر.

(٢٠) الخيانة العظمى التي نسبت اليه هي انه قبل هدايا ورشاوى أخرى في المقدونيين مما جعلته يتخلى عن الاستمرار في فتوحاته بعد أن وضع يده على مناجم الذهب في (تراقيا) وكان جواب (كيمون) انه وسع رقعة الحرب الى أقصى حدّ ممكن ضد التراقيين والاعداء الآخرين أما عدم توغلّه في مقدونيا فذاك يرجع انه لا يريد ان يكون عدواً وخصماً للبشرية كلها. وقد تم ابعاد كيمون في ٤٦١ ق.م.

(*) أي في سنة ٤٥٧ ق.م.

(٢١) في بويوتيا ما بين اسمينوس واسوبوس.

إلا أن اتباع پيركليس تكالبوا عليه وأرغموه على الانسحاب من الحرب لأنه محكوم بالنفي. والظاهر ان پيركليس بذل في هذه الحرب مجهوداً يفوق ما بذله في أية حربٍ. وانه عرض نفسه للخطر بنوعٍ خاص. كذلك أبلى أصدقاء [كيمون] فيها خير بلاءٍ هؤلاء الذين أتهمهم پيركليس مع صاحبهم بممالأة اللقيديمونيين[٢٢]. وهزم الآثينيون في الحرب وطوردوا حتى حدودهم، وكانوا، بتوقعهم هجوماً جديداً كاسحاً في أوائل الربيع القادم - يشعرون بالأسف والأسى على خسارة [كيمون] وبالندم لطرده. وكان پيركليس أشدّ احساساً من غيره بما يخالجهم من هذه المشاعر، فلم يتردد ولم يتوان في انالتهم يتفاهم وتقدم باقتراح يقضي بالسماح لـ[كيمون] بالعودة الى الوطن. فتم له ذلك. وعند عودته قام بعقد صلح بين المدينتين[٢٣]، مستفيداً من منزلته الكبيرة عند اللقيديمونيين وحبهم له بقدر كرههم پيركليس وغيره من الزعماء الشعبيين.

على أن فريقاً من الكتاب يزعم ان پيركليس لم يقترح عودة [كيمون] إلاّ بعد أن عقد معه اتفاقاً يتضمن شروطاً سرية خاصة وكان الوسيط بينهما [الپينيكي Elpinice] أخت [كيمون]، وتقضى الشرط أن يعيّن [كيمون] قائداً عاماً لأسطول تبلغ عدته مائتي سفينة، يقوده للاستيلاء على ممتلكات ملك الفرس، وأن يتفرد پيركليس بالحكم في المدينة.

ويظنّ ان [الپينيس] هذه، كانت قد حققت لأخيها كيمون منّة على يد [پيركليس]، إذ أقنعته بأن لا يشتد في تعقيب التهمة على كيمون وان يترفق به عندما حوكم بتهمة الخيانة العظمى[٢٤]، وكان هو عضواً في لجنة الاتهام التي عينها مجلس العموم. اذ جاءته [الپينيس] راجية في امرِ أخيها فأجابها مبتسماً «انك يا الپينيكي قد بلغت من الشيخوخة مبلغاً لا يسمح لك بمعالجة مثل هذه الأمور» لكن لما حضر الجلسة المخصصة لشرح التهمة والادعاء عليه بها. وقف للكلام مرة واحدة فقط، ليقدم استقالته من العضوية ثم خرج حالاً من قاعة المحكمة، وبهذا كان أقلّ متهمي كيمون تحاملاً عليه، وضرراً به.

فكيف يجوز لنا أن نصدق [ايدومينيس Jdomenes][٢٥] الذي يتهم پيركليس بما يفهم منه أنه الذي دبرّ مقتل السياسي الجماهيري المحبوب [أفيالطس] غيلةً وغدراً؟ وهو صديقه الحميم وأحد اركان حزبه طوال حياته السياسية، بدافع الحسد بله غيرةً من سمعته الداوية؟

(٢٢) كانوا يبلغون المائة عدّاً كما سنرى في سيرة [كيمون].

(٢٣) في العام ٤٥٠ ق.م.

(٢٤) مع هذا فقد حُكم على [كيمون] بغرامة قدرها خمسون تالنت (٢٠٠٠٠ پاون سترليني تقريباً) ولم ينج من حكم الموت الاّ بعد اللتيا والتي. اذ انقذ أغلبية ثلاثة أصوات فحسب!

(٢٥) مسقط رأسه لامبساكُس. وهو تلميذ ابيقور. كتب تاريخاً حول اتباع سقراط وتلاميذه.

لاأدري من اين نبش هذا المؤرخ، تلك القصص. قاصداً تلويث اسم رجلٍ لم يسلم في الواقع من الاخطاء واللوم، إلاّ انه ذو نفس نبيلة، وشخصيّة متمسكة باهداب الشرف، وهي سجايا لايمكن أن تفسح للقسوة والوحشية موضعاً أو سبيلاً اليها. واما حقيقة حكاية [إفيالطس] فهي كما أوردها ارسطو على النحو الآتي(*): اصبح افيالطس غولاً مرعباً لحزب الاقلية بسبب دفاعه عن حقوق الشعب دفاعاً لايعرف المهادنة ولا المساومة، وبمحاسبته المجرمين بحق الشعب ودوام اتهامه لهم. فضاقوا به ذرعاً وهم على كل حال اعداؤه - فكمنوا له وأغتالوه سِراً بتوجيه ارسطوديكوس Aristodicus التناغرْي.

وانتهت أيام كيمون في هذه الدنيا وهو قائد الأسطول في قبرص[٢٦].

ووجد الحزب الارستوقراطي تعاظم سلطان پيركليس في المدينة وبروز شخصه على الجميع، فأدركت الحاجة الي شخص يوضع في مقابلته، لثلم حدّ سلطانه وفلّ غراب تفوقه لئلا يؤول به الى الحكم الفردي المطلق، فرشحّ [ثوكيديدس] الألوپيكه Alopece وهو شخص حكيم عاقل من أقرب اقرباء كيمون - ليقود المعارضة ضدّ پيركليس، ولم يكن ثوكيديدس يطاول (كيمون) في الفنون العسكرية، إلاّ أنه كان يفوقه في تملك ناصية البيان، والسياسة وبدوام لبثه في المدينة ودخوله مع خصمه في معارك خطابية انتخابية تمكن بوقت قصير من ايجاد توازن حزبي في عالم الحكومة. فقد أبى أن يبقى أولئك الذين يتسمون بصفة الأمانة والصّلاح (البارزون وذوو السمعة) على أسوأ حالٍ من التفرق هنا وهماك، ضائعون بين عامّة الناس لا أثر لهم، زاهدون في مكانتهم الرفيعة، معزولون مهملون في زوايا الخمول؛ عمد [ثوكيديدس] الى انتشالهم من وهدتهم واحداً واحداً وجمع كلمتهم ووحدهم، وتمكن بثقلهم من تحقيق التوازن المنشود مع الحزب الآخر كما في كفتي الميزان. والواقع أنه كان يوجد من البداية ما يشبه الصدع أو الشقّ الخفيّ، كما في قطعة حديد، يقوم حداً فاصلاً بين النوازع الشعبية والنوازع الارستقراطية. إلاّ ان التناحر المكشوف والمنافسة بين هذين الخصمين زاد في الصدع عمقاً، وقسم المدينة الى حزبين: حزب الشعب وحزب الأقلية. لذلك عمد پيركليس في هذا الوقت بالذات الى اطلاق العنان للشعب أكثر من أي وقت مضى وجعل سياسته خادمة لاهوائه وصار يبذل الجهود المستمرة لارضائه باقامة مهرجانات عامة أو أحتفالات دينية أو ولائم أو مواكب وغير ذلك، تحريّاً لأدخال المسرة والبهجة في حياته، مثلما يستمال الأطفال بالالعاب والملاهي، التي لا شأن لها برفع مستواهم الثقافي وتهذيبهم، وتمادى في التودد الى الشعب بأن عمد كل

(*) ارسطو: دستور أثينا ٢٥:٤.

(٢٦) في حصار كيتيوم ٤٤٩ ق.م.

سنة الى ارسال ستين سفينة الى البحر مشحونة بالمواطنين الذين تدفع لهم الدولة أجر ثمانية أشهر ليتعلموا فنون الملاحة ويتدربوا على خدمة السفن. وبعث بألف مواطن الى جزر [الخيرسونيز][٢٧] لأعمار الأرض وزراعتها بتوزيع اراضيها عليهم بالقرعة. وأرسل خمسمائة الى جزيرة [نكسوس]، ونصف هذا العدد الى [آندروس]، والفاً الى [تراكيا] ليشاطروا قوم البيزالتي Bisaltae العيش. وبعث بآخرين الى ايطاليا عندما تقرر اعادة تأهيل مدينة [سيباريس Sybaris][٢٨] التي تسمى الآن [ثوري Thurii]. فعل ذلك لتخليص المدينة من العاطلين الذين يصيرون بسبب البطالة كتلة مزعجة من الفضوليين المتطفلين ويكون فيه أيضاً علاج لتشغيل فقراء المدينة وسدّ خلّتهم، كذلك تفيد هذه الجاليات في اخافة حلفائهم وصدهم عن محاولة الانتقاض أو اجراء اي تغيير، فهم بمثابة حاميات اثينية تعيش في وسطهم.

إن تشييده المباني العامة والمعابد والهياكل، هو الذي أعطى آثينا رواءها وجمالها وجعلها محطّ اعجاب الأجانب ودهشتهم، وها هي الآن الشاهد الوحيد الأغريقي، بأن السلطان الذي فخرت به، والغنى السالف الذي كانت ترفل فيه لم يكن حديث خرافة ولا ضرباً من الخيال. مع هذا فان أعماله الانشائية هذه كانت دون سائر أعماله الأخرى في الحكومة، مطعناً أتخذه أعداؤه للنيل منه، وراحوا يستنكرون باعتراضاتهم التافهة في المجالس والاجتماعات العامة بقولهم: أنظروا كيف فقدت جمهورية آثينا سمعتها في الخارج وآضت هدفاً للنقد والتجريح، لنقلها خزينة دول اليونان العامة من جزيرة [ديلوس][٢٩] الى مدينتها وأطلقت يدها فيها تغترف ما تشاء، وكيف أن حجتهم بنقلها خوفاً من استيلاء البرابرة عليها ولغرض وضعها في حرز حريز، فقدت قوتها ونُسفت نسفاً باعمال پيركليس. وكيف أن «بلاد الأغريق لها كل الحقّ في أن تسخط وتستنكر هذا العمل وتعتبره أهانة غير محتملة، وتعد نفسها ضحية تحكّم وطغيان عندما ترى أموال الخزينة التي شاركت في جمعها بدافع الضرورة الملجئة لسدّ نفقات الحرب. تبذرّ تبذيراً وتصرف بشكل لا مبرر له على طلاء مدينتنا وتجميلها وتزيينها بالتماثيل والمعابد التي كلفت ألف تالنت[٣٠] كالمرأة المزهوة بنفسها حين أثقلت بالجواهر».

وقال پيركليس للشعب رداً على هذا - أن الآثينيين غير مضطرين أبداً الى تقديم اي

---

(٢٧) في العام ٤٤٧ ق.م.

(٢٨) في العام ٤٤٤ ق.م. هذه المدينة كانت قد دمرت ثلاث مرات آخرها في العام ٥١٠ ق.م. ولم يعد پيركلس بناءها فوق ارضها وانما اقامها في أرض مجاورة.

(٢٩) المساهمة السنوية النقدية للدويلات الأغريقية في الحرب المقدونية، كانت تودع مع المبالغ الأخرى في معبد ابوللو بـ(ديلوس) وتكون بعهدة امناء يعيّنهم جمهور الأغريق. فقام پيركلس دون اي مبرر بنقلها عنوةً الى آثينا وانفقها في اقامة البنايات العامة لتجميل المدينة.

(٣٠) قيل ان [الپارثنون] أو معبد [منيرڤا العذراء] كلف هذا المقدار [انظر الملحق].

حسابٍ عن هذه الأموال لحلفائهم، ما دامت آثينا قد تكلفت بالدفاع عنهم وبواقفها للبرابرة بالمرصاد لحمايتهم، في حين لا يقدم هؤلاء الحلفاء حصاناً واحداً أو رجلاً أو سفينة؛ وانما يساهمون بالمال فحسب في المجهود الحربي «هذا المال الذي يخرج من ملك معطيه الى مُلك متسلّمه، عندما يقوم هذا المتسلم بانجاز الشروط المترتبة عليه». ثم زاد على ذلك بقوله، أن المدينة بعد أن أستعدت تمام استعداد لكلّ طاريء، واختزنت كل ما هو ضروري للحرب، لها كل الحق والمبررات في انفاق ما فاض من مالها هذا، على المشروعات التي ستضفي بعد اكمالها شرفاً خالداً عليهم، وستمدّهم أثناء القيام بها بموارد رزقٍ عظيمة . وبما أن ذلك يتطلب صناعات مختلفة وأعمالاً كثيرة فقد اقتضى تحشيد كل أرباب المهن والحرف اليدوية الماهرة وتوزيعها على المشاريع. وبذلك غدا الجمهور كله شغيلة حكوميين تدفع أجورهم من أموال الدولة، فضلاً عن تجميل مدينتهم وإصلاحهما بسواعدهم. كان الرجال الذين أهلتهم قواهم وأعمارهم للخدمة العسكرية يعيشون في الثكنات العسكرية خارج الوطن بما تدفع له الدولة من رواتب، وكان من خطة پيركليس وتدبيره أن لايبقى الجماهير الكادحة وذوو الحرف الدقيقة الذين لايخضعون لنظام، مستثنين عن غيرهم محرومين من الأموال العامة، كما لا يمكن أن تصرف لهم أجور ورواتب من غير عوض أو مجهود يبذلونه، لذلك ارتائ بعد موافقة الشعب أن يقوم بهذه المشاريع الضخمة وخطط أسلوب العمل بحيث انها تحافظ على استمرارية العمل حتى يتم انجازها دون فترة عطالة. وبذلك تمنح فرصةٌ لمزاولة مختلف الفنون والحرف فلا يحرم اي فرد بقي في الوطن من سهم طيّب عادلٍ في الأموال العامة لايقلّ عن أسهم أولئك الذين يعملون في البحر أو في حاميات الخارج، أو في حملات عسكرية.

وكانت المواد الانشائية التي استخدمت، الحجر، والنحاس، والعاج، والذهب والأبنوس، وخشب الأرز. واما ارباب الصناعات والحرف التي أقتضى مزاولتها في هذه المواد منهم الحدادون والنجارون، والصهّارون واللحامون والصبّابون وقاطعو الحجر، والصباغون والصاغة وصناع العاج والطلاؤن، والمطرزون، والخزّافون. ثم أولئك الذين نقلوا تلك المواد الى المدينة؛ التجار، والملاحون، وربابنة السفن في البحر، وسائقو العجلات، ومربو المواشي، وصانعو العربات وصانعو الحبال، ونساجو الكتّان والأسكافيون، والدباغون، ومعبدّو الطرق وعمال المناجم. وكما يقوم الرئيس في الجيش على رأس كل سريّة من الجنود، فكلّ صناعة كان لديها سريتها الأجيرة من أعمالها الدائميين المهرة وشغيلتها. يجرى ضمهم معاً كما في خطّ قتالٍ، لتكون الآلة والجسم في انجاز الأعمال. وهكذا توزعت الفرص والخدمات في هذه المشاريع العامة بصورة واسعة ضخمة على كل عمرٍ وحالةٍ.

وبرز العمل للعيان، لا تقلّ روعة حجمهُ عم جمال شكله الصناع يبذلون جهدهم ليفوقوا على المواد والتصميم بجمال صناعتهم، على ان أعجب شيء هو سرعتهم في انجاز العمل.

ظنوا أن كل مشروع منفردٍ يتطلب لانجازه سلسلة متعاقبة من الرجال ذوي اعمارٍ مختلفة، كل منهم يجب أن يكون ضليعاً في مهنته في ذروة خدمه وعنفوان مهارته. وقالوا أيضاً أن [زيوكسيس Zeuxis] سمع مرة الرسّام [اغاثارخوس Agatharchus] يتبجح بانجاز عملٍ من أعماله بسرعة وسهولة، فقال معقباً «أما انا فيلزمني وقت طويل» لأن السهولة والسرعة قد لا يورث العمل المنجز قوة دائمة ودقة في الجمال. إن قوة الحيوية وقابلية البقاء في عمل ثمّ، لهو خير مكافأة وتعويض عن الزمن الطويل الذي انفق فيه. ولذلك كان الاعجاب بآثار پيركليس شديداً بصورة خاصّة، فقد تمت بوقت قصير، لتبقى زمناً طويلاً وعد كل قطعة منها تحفة أثرية ساعة انجازها لجمالها ورونقها مع انها بدت وكأنها مصنوعة في تلك اللحظة بالذات لجدتها واتقانها. هناك نوعٌ من الرواء والجدة في آثاره، تخفظها من عوادي الزمان، كأن حيوية خالدة وروحاً آبدة تقمصتها أثناء عملها.

وأشرف [فيدياس] علي كل الأعمال وكان المهندس العام. على انه استخدم اساتذه عظاماً وصناعاً حاذقين في مجالات واقسام مختلفة، فبنى [قلليقراطس Callicrates] و[اقتينس Gctinus]، صرح[٣١] البارثنون الذي هو بهيئة مربع طول ضلعه مائة قدم، وبدأ [كوريبوس Coroebus] ببناء الهيكل في [اليوسيس Eleusis] حيث يقام الاحتفال بالأسرار، ونصب الأعمدة على الأرضية أو المشى ثم ربطها معاً بالعوارض العليا. وبعد موته أضاف [ميتاجينس Metagenes] الإكسپيتي Xyptte، الأفريز، ورصف الأعمدة العليا. وسقّف [كسرينوكليس Xenocles] الخولارغوسي عقادة المشكاة فوق معبد [كاستور وپوللكس]، وقام قلليقراطس ببناء الحائط الطويل[٣٢] الذي قال عنه سقراط(*): أنه سمع پيركليس بأذنه يقترح على الجمهور اقامته، وقد سخر [كرانيتوس] بهذا الأثر لطوله عند أكماله قائلاً.

كـدّس الخطيب الحجارة فوق الحجارة
بكلمات منقوضة إلاّ أن الكلمات لا تبنى جداراً.

---

(٣١) بني هذا المعبد داخل اسوار القلعة وأطلق عليه اسم هيكاتومپيدوم لأن طول ضلعة ناهز بالأصل مائة قدم وبعد أن أحرقه الفرس اعاد پيركلس بناءه وقد أحتفظ باسمه وان وسع مساحته كثيراً. ما زال هذا المعبد قائماً حتى يومنا هذا وهو قبلة السيّاح.

(٣٢) طول الجدار خمسة اميال. وسمكه من الأعلى يتسع لمسيرة عربتين معاً. وهو يصل پريوس بالمدينة.

(*) افلاطون (غورغياس).

وأمّا الأوديوم Odeum أو قاعة الموسيقى، التي ملئت من الداخل بالمقاعد وصفوف من الأعمدة، والذي جعل سقفها من الخارج يبدأ من القمة منحدراً الى الجانبين فقد قيل لنا أنه بني تقليداً لفسطاط ملك الفرس(٣٣). وكان ذلك بأمرٍ من پيركليس أيضاً. فجعله منه [كراتينوس] مناسبة للتعريض والسخر، في مهزلته المسماة «النساء التراكيّات» اذ قال:

ها هو رأس جوبتر البصلي قادم. انه الاديوم الجديد الشبيه بقبعة فوق هامته، بعد ان زال عنه خطر النفى الى الأبد.

وكان پيركليس مغرماً بالبروز أيضا، فحصل على مرسومٍ يقضي بانشاء مباراة في الموسيقى يقام سنوياً في الپاناثينيا Panathenaea، وأختير هو حكماً، فنظم الطرائق والقواعد التي يلتزم بها المتبارون في غنائهم أو عزفهم على القيثار أو الناي وكان الحاضرون في تلك المناسبة أو غيرها فيما بعد يجلسون في قاعة الموسيقي هذه ليروا ويسمعوا تجارب في الحذق والبراعة.وتمّ عمل الپروپيليا Propylaea أو مداخل [الاكرپولس] في خمس سنين وكان [منسيكلس Mnesicles] المهندس الرئيس لها. وقد وقعت اثناء بنائها حادثة غريبة، أظهرت ان الربّة كانت راضية عن العمل. تتعاون وتساعد في انجازه على الوجه الأكمل. زلت قدم أحد الصناع، وكان انشطهم وأحذقهم فسقط من ارتفاع كبير وغدا في حالة خطرة وقطع الاطباء الأمل في شفائه. وفيما كان پيركليس مهوماً قلقاً عليه أذ ظهرت له [منيرڤا] ليلاً في الحلم وشرحت له أسلوباً في علاجه(٣٤)، فطبّقه وشفي الرجل بوقت قصير وبسهولة. وتخليداً لهذه المناسبة أمر باقامة تمثال نحاسيّ [لمنيرڤا] لُقب «بالصحّة» في القلعة بالقرب من الهيكل، وقيل أنه كان هناك في الأيام السالفة. إلاّ ان [فيدياس] هو الذي صنع تمثال الربّة من الذهب، ونقش اسمه على قاعدته(٣٥). والواقع أن المشاريع كلها كانت تحت مسؤوليته الى حدّ ما وكان له كما قلنا صلاحية الاشراف على كلّ الفنانين والحرفيين العاملين، بسبب الصداقة التي تربطه بپيركليس. وقد جعله هذا المنصب موضع حسدٍ، وأدىّ الى صبّ الشتائم والأهانات على حاميه بصورة مخزية، وتأليف الحكايات عنه كقولهم أن [فيدياس] كان يتصيد النساء الحرات

---

(٣٣) في هذه البناية يعقد سوق القمح أيضاً وكل ما يمت اليه بصلة وقد أحرقه (سيلّلا) اثناء حصار (آثينا). فاعاد اريوبارزانوس ملك كبدوكيا بناءه.

(٣٤) للنبات المسمى Parthenium الذي هو من فصيلة اعشاب الماتريكاريا - تاثير عجيب جداً على الاضطرابات العصبية. (پليني: التاريخ الطبيعي ٧:٢٢) يورد قصّة هذا الشفاء العجيب ويشتق اسم النبات من علاقته بالربّة العذراء وينوه ايضاً بتمثال هذا العبد الذي أمر پيركلس النحاتَ (ستيپاس) القبرصي بصنعه.

(٣٥) قيل ان التمثال كان من الذهب والعاج. ولپاوسنياس (٢٤:١) وصف مفصل له.

اللاتي يأتين لمشاهدة العمل، لحساب لذة پيركليس. وعندما وصلت هذه الحكايات كتاب المدينة الهزليين، راحوا يتفننون في اذاعتها والتعليق عليها، ولوّثوا سمعته بكل ما توصلت اليه قريحتهم من بذيء القول. واتهموهُ زوراً بعلاقة مع زوج [مينيپوس] وهو صديق له عمل معه في الحروب مساعداً وضابط ركن. كذلك زعموا أن صديقاً آخر له اسمه [پيريلامپس Py-rilampes] يربي طيوراً، كان يهدي طواويس لخليلات پيركليس[٣٦]. وكيف يعجب المرء كأيّ عددٍ المزاعم الغريبة التي يطلقها أناس عاشوا حياتهم كلّها على السخر والتفكهة، وكانوا على أستعداد في اي وقت لتضحية سمعة رؤوسائهم على مذبح الحسد المتبذل والاضطغان. كأنما لروح ما شريرة.

تجرأ حتّى [ستسيبمروتوس التراكي] على أن يتهم پيركليس بأشنع تهمة وأكثرها خيالاً زاعماً بوجود علاقة آثمة له مع زوج ابنه. من الصعوبة بمكان تتبع الحقيقة وأستخلاصها من التاريخ عندما يجد أولئك الكتاب المتأخرون فترات طويلة من الزمن تقف عثرة في سبيل وجهات نظرهم، وعندما تجد المدونات المعاصرة لكل سيرة أو حدثٍ مشوّهة الحقيقة، ممسوخة، إمّا مداهنة وتملقاً، وإمّا حسداً وسوء نية.

عندما راح الخطباء المنحازون الى ثوكيديدس وحزبه ينادون كما كانت عادتهم منددين بپيركليس لتبذيره الأموال العامة، وايقاعه الخلل في عائدات الدولة، نهض في الجمعية العمومية وطرح القضية امام الشعب: هل أنه أنفق كثيراً؟ فأجابوا: «كثير جداً، كثير جداً» وعند ذلك قال: «اذن ما دام الأمر كذلك، فلترفع النفقات كلهاعن عاتقكم ولتقيد على حسابي على أن يسجلّ أسمي على جميع المباني المشيدة»[٣٧]. وعندما سمعوا هذا، هتف له بصوت عالٍ: إمّا بدافع دهشتهم من عظمة نفسه أو حرصاً على مجد هذه الآثار، وطلبوا منه انفاق المزيد والاستمرار في عمله هذا بالشكل الذي يراه مناسباً وأن لا يألوا في ذلك جهداً أو مالاً حتى ينجزها.

وبالأخير بلغ النزاع بينه وبين ثوكيديدس مرحلته النهاية، وآل الأمر الى التساؤل من منهما سيفلح في نفي الآخر من البلاد، فخاض پيركليس غمار هذه المعركة الحافلة بالخطر، وقذف بخصمه الى الخارج، وقضى قضاءً تاماً على الحلف الذي نُظم ضده.

---

(٣٦) هذه الحيوانات كانت وقتذاك نادرة وغالية الثمن جداً.

(٣٧) من عبارة اوردها (ثوكيديدس) يبدو ان الخزينة الآثينية العامة كانت تقوّم في ذلك الحين بتسعة آلاف وسبعمائة تالنت (اي ما يعادل اربعة ملايين پاون سترليني) صرف منها پيركلس على اقامة البنايات العامة أكثر من الثلث ولذلك كان من الطبيعي ان يفتح تحقيق بكيفية الصرف.

وبذلك ازال الانقسام والتفرقة من المدينة ازالة تامة، ونعمت بعدها بالهدوء والوحدة. وحكمّ قبضته على كل آثينا، وكل الشؤون المتعلقة بالآثينيين، غراماتهم الحربية، جيوشهم، سفنهم، الجزر، البحار، سلطانهم الواسع الرقعة على الأغريق الآخرين وعلى البرابرة. وكلّ المستعمرات التي ملكوها، وحصونها في بلاد الشعوب الخاضعة لهم، أمّا بموجب معاهدات التحالف، أو بمقتض صداقتهم مع الملوك.

بعد كل هذا، لم يعد پيركليس شخص الأمس، لم يعد كما كان سابقاً مع الجماهير ذلك الرقيق اللين العريكة المحبوب المستعد حالاً للنزول عند رغباتهم وتلبية طلبا تهم من ضروب التسريات والترفيه، كقائد الدفّة يتحولّ مع الريح. ونبذ تلك الرعاية المتراخية، المنطلقة والتودد للشعب الذي وصل في بعض الحالات الى حد تخطيّ العرف والقانون. وأبدل اللهجة الانيقة اللينة الوقع، بصرامة الحكم الارستقراطي الملكيّ، مستخدماً اياه لمصالح البلاد العليا باستقامة ودون انحراف، فاستطاع بشكل عام أن يقود الجماهير ويسوسها دون ما ارغام بل برغبة منها وموافقة، عن طريق اقناعها بما يجب عمله. وارشادها الى كيفيته. وأحياناً كان يلح ويدفعها دفعاً الى حدّ التطرف خلافاً لارادتها. وجعلهم يخفضون جناحاً لكل ما فيه نفعهم شاؤوه أم أبوه. وكان يعمل ذلك والحق يقال ببراعة الطبيب النطاسي الذي يسمح لمريض بداء مزمن معقد، ويكبده في ظرف آخر آلاماً شديدة ويسقيه الأدوية لتحقيق شفائه.

نشأت وترعرعت طبعاً - مختلف مشاعر السخط بين الشعب الذي كان پيركليس يمارس عليه سيطرةً وضبطاً لا حدود لهما، فعرف ذلك السياسي العظيم كيف يعالج أمر كل فرد من أفراده ويعامله المعاملة الصحيحة. واستخدم سياسة الأمل والخوف استخداماً حاذقاً وجعلها كعصوي سكان الدفّة. يسبر بالعصا الأولى مسالك ثقتهم في أي وقت شاء، ويرفع بالعصا الثانية معنوياتهم ويشدّ من عزماتهم عند كُلّ نكسة أو خيبة. وأظهر بجلاء أن بلاغة اللسان، أو فن الكلام هو خير ضابط لأنفس الرجال (اذا استخدمنا لغة افلاطون) وان مهمته الرئيسه هي مخاطبة الشعور والعاطفة وهما أوتار الروح ومفاتيحها، تتطلب من يد الضارب عليها لمسات رشيقة حذرة. على أن قوة عارضته لم تكن وحدها مصدر سلطانه المطلق، بل وجد الى جانبها. السمعة التي كسبها في حياته، والثقة التي توحيها شخصيته وطهارة نفسه من اي شكل من أشكال الفساد، وتساميه على كل الاعتبارات المالية ومتاع الدنيا - كما يؤكد لنا ذلك ثوكيديدس. واذا ضربنا صفحاً عن جعله آثينا العظيمة بذاتها، مدينةً لا يسمو أي خيال في وصف غناها وعظمتها، ومع انه كان - بما مارسه من سلطة ونفوذ - أكثر من يدٍ مساوٍ للعديد من الملوك، والحكام المستبدين، الذين يورث طائفة منهم ملكهم لأولادهم، فهو من

جهته لم يزد في الميراث الذي تلّقاه عن والده درهماً واحداً.

زودّنا ثوكيديوس والحق يقال بكلمة صريحة، عن عظمة سلطانه وفيما تركه الشعراء الهزليون أكثر من أشارة اليه بأسلوبهم الجارح التعريضي، وهم يخلعون على اصحابه واتباعه اسم «اليسستراتوسيين الجدد» ويهيبون به أن يصرف النظر عن كل نية في سلوك طريق الاستبداد والتحكم، كأن ما بلغه من السؤدد والتفوق، لم يعد شخصه مناسباً للديمقراطية أو الحكم الشعبي، ولا بامكانه التجاوب معها. ويقول [تلقليدس][*] أن الآثينيين تنازلوا له...

«عن اتاوات المدن، ومعها المدن أيضاً، يحلّ ويربط كما يشاء وان يبني إن شاء - اسواراً حجرية حول مدينة ما. وان ينقض تلك الأسوار إن طاب له ذلك. وسلموا له معاهداتهم، وأحلافهم وسلطانهم ومستعمراتهم، وسِلمُهم وحربَهم وثرواتهم، وكل أسباب فلاحهم الدائم.»

ولم يكن هذا حظاً واتاه في صدفة من صدف الدهر السعيدة، ولا ثمرة نعمة مزدهرة لموسمٍ واحدٍ لا غير. لكنها حالة طويلة الأمد، بقي فيها اربعين سنة[**] وهو يحتّل أرفع مقامٍ بين رجال السياسة من أمثال افيالطس، وليوقراطس Locrates وميرونيدس Myronides وكيمون، وتولميدس Tolmides وثوكيديدس، كما استمرت بعد نفي ثوكيديدس واندحاره خمسة عشر عاماً أخرى ، مارس خلالها قيادة منفردة مستمرة غير منقطعة، اذ كان يعاد انتخابه جنرالاً كل سنة، وظلّ حريصاً على استقامة لم تصمها وأقل وصمة، على أنه لم يكن في غير شؤون الحكم مهملاً غير مبالٍ، فكان يرعى شؤونه المالية مثلاً. وقد ورث عقارات عن أبيه، فحرص على ان لا يلحقها الخراب، أو العيب بسبب الإهمال، وعلى ان لا تأخذ من اهتمامه وعنايته وقتاً لانصرافه الذي يكاد يكون تاماً الى شؤون الحكم. وأختار لادارتها أسلوباً كان في رأيه أسهل وأدّق ما وجد. فكان يبيع كل ما تنتجه من غلّة سنوية صفقة واحدة، ويموّن بيته بما يقتضي بشراء الحاجات العائلية من السوق ولذلك ضاق أولاده ذرعاً بأسلوب والدهم هذا عندما بلغوا أشدّهم، ولم يشذّ عنهم نسوة البيت فقد كان يقترّ عليهن، وشكون من تلك الادارة حيث كل شيء يتمّ حسابه من يوم الى يوم بمنتهى الدقة فلا ينقص شيء ولا يفضل شيء الى الغد، ولم تكن هذه بحالة أسرة سريّة بارزة. كل ما يخرج وكل ما يدخل، وكلّ ما يؤخذ وكل ما يعطى الكيل يجرى حسابه بالعدد والقياس وكان قد أوكلّ خادماً واحداً لادارة البيت اسمه [ايفانجلوس Evangelus] وهو رجل كان يتميز بذكاء

(*) من مسرحية لايُعرف لها اسم.

(**) ما بين ٤٦٩ و ٤٢٩ ق.م تقريباً.

مطبوع، أو كان يعمل وفق توجيهات پيركليس، فقد بلغ الغاية في فنّ الاقتصاد المنزلي.

ولم يكن في كل هذا ما ينسجم وفلسفة اناكساغوراس[٣٨]، إن كان صدقاً ما روي عن خروجه من منزله وتركه أرضه مرعى للأغنام وعيشته عيشة عامة الناس ودهمائهم اطاعة لإلهام رباني، أو لسموّ نفسٍ فيه، على أن حياة الفيلسوف المفكرّ وحياة السياسيّ النشيطة لا تتشابهان في رأيي. فأولهما يستخدم في مسائل العقل الخيّرة السامية، ذكاءه وعبقريته، وكلاهما لا يحتاج الى اداة أو مادة محسوسة، أما الثاني فإنه بتوجيه قابلياته العقليّة وطاقاته الى واقع الاستعمال البشري، قد تتاح لنفسه فرصة لتتدفق بالخير، لا بالضرورة، بل بدافع النُبل والصلاح لذلك نرى [پيركليس] يرفه عما لايحصيه عدّ من مواطنيه الفقراء.

ومهما يكن من أمر فثم حكاية تروى عن [اناكساغوراس] الذي خمل ذكره واختفى في زوايا النسيان بينما كانت أمور الدولة تستأثر بكلّ وقت پيركليس واهتمامه. بلغ هذا الفيلسوف مبلغ الشيخوخه، وعقد العزم على أن يكون موته بامتناعه عن الطعام. فبلغ ذلك پيركليس بمحض الصدفة. فأذهله الخبر وارعبه وأسرع اليه في الحال واستخدم كلّ حيلة ورجاء ومنطق ليثنيه عن عزمه، ولم يكن في ذلك محزوناً على حالة أناكساغوراس قدر ما كان أسفاً على نفسه، خوفَ أن يفقد ذلك الناصح الذي خبر قيمته وقدرها، وعندها نضا اناكسوغوراس ثوبه مظهراً جسمه عارياً وقال: «يا پيركليس، حتى أولئك الذين تدركهم الحاجة الى مصباح، فأنهم يزودونه بالزيت».

بدأ اللقيديمونيون يظهرون امارات القلق لتنامي قوة الآثينيين وعمد پيركليس من جهته، ليرفع معنويات الشعب، وينميّ في رؤوسهم فكرة إطلاب المجد بعظائم الأعمال، الى أقتراح يقضي بدعوة كل الأغريق اينما كانوا أفي اوروپا أو آسيا في كل مدينة صغيرة أكانت أم كبيرة، لإرسال مندوبين الى جمعية عامة تعقد في آثينا، أو مؤتمر عام للمداولة والمشاورة في أمور المعابد الاغريقية التي أحرقها البرابرة، وفي القرابين المفروضة عليهم بموجب النذور التي قدموها للأرباب على سلامة بلاد اليونان عندما قاتلوا البرابرة، وكذلك للبحث في شؤون الملاحة البحرية، وعقد معاهدة حرية فيما بينهم، حتى لا يتعرض أحدهم لسفن الآخر فيما بعد.

وأوفد عشرون شخصاً تزيد اعمارهم عن الخمسين[٣٩] للدعوة الى المؤتمر، خمسة منهم ذهبوا

---

(٣٨) جرت عادة الاقدمين ان يقوم الشخص الذي ينوي الانتحار باسدال غطاء على رأسه بصرف النظر عن الاسباب التي دعته الى ذلك أفي سبيل بلاده أو التخلص من متاعب الحياة [ديوغينس لايئرتوس يقول ان هذا الفيلسوف اورث أقرباءه.

(٣٩) هو سنّ البلوغ التام عند الآثينيين. من بلغه جازله حق التصويت في الاجتماعات والانتخابات العامة.

لدعوة الآيونيين والدوريين Dorians في آسيا وسكان الجزر حتى [لسبوس ورددس]، وخمسة منهم رحلوا لزيارة كل أرجاء [هللسپونت وتراقيا] حتى [بيزنطة] وخمسة غيرهم، لزيارة بويوتيا وفوكيس Phocis وبيلوپونسوس ومنها يرحلون الى القارة المجاورة عبر بلاد اللوكريين Locrians حتى أكارنانيا Acarnania وامبراكيا Ambracia، والباقون يأخذون طريق [يوبيا] الى الأوتيانيين Oetaean وخليج ماليا Malia والى أخائيا[٤٠] [فوثيوتيس Phothiotis] والتساليين. وقد نبّه جميعهم يتصلوا بالشعوب التي يمرون بها ويفاتحوها ويقنعوها بالحضور والمساهمة في مداولات السلام، وتنظيم شؤون الأغريق معاً.

ولم ينتج شيء من هذا، ولم تجمع المدن معاً عن طريق المندوبين. كما كان منتظراً. وقيل أن اللقيديمونيين عملوا على إحباط المشروع من طرفٍ خفي[٤١]. وكان أوّل فشل للمحاولة في البيلوپونيس. واني أرى من المناسب أن أشرح تفاصيلها هنا لإظهار نفسية پيركليس وسمو أفكاره.

نال في قيادته العسكرية صيتاً داوياً لحنكته ومهارته في فنون الحرب. فهو لا يشتبك بمحض رغبته في قتال ما اذا كان في نتيجته شكّ كثير، أو خطورة. ولم يحسد قائداً على مجدٍ ناله من مغامرات طائشة تكللت بنجاحٍ باهر وحالفه فيها الحظّ، مهما بلغ به أعجاب الآخرين. ولم يرهم جديرين بالتقليد والمحاكماة وانما كان لايفتأ يقول لمواطنيه انه لن يألوا جهداً قط في العمل على توفير حياة دائمة خالدة لهم جميعاً. وسيبذل في ذلك قصاراه. ولما رأى [پيركليس] ان تولميدس ابن [طولميوس Tolmoeus] المليء بالثقة نتيجة انتصاراته السابقة[٤٢] التيّاه الفخور بالمكانة التي رفعته اليها أعماله العسكرية - يقوم بالاستعداد لمهاجمة البويوتيين في عقر دارهم حين لم يكن له في الحملة اية فرصة للنصر. ولما رآه يستميل اشجع الشبان وأكثرهم أقداماً فتطوعوا في الخدمة تحت لوائه وعددهم ألف مقاتل، عدا قواته الأخرى، حاول پيركليس جهده في الجمعية العمومية، أن يثنيه ونصحهُ بالعدول عن قصده ووجه اليه عبارة مأثورة ظلت تضرب في الامثال: قال ما مفاده ان لم يأخذ بنصيحته، فلن يخسر شيئاً إن تربّص بالزمن وانتظر إقباله، وهو خير الناصحين. هذا القول لم يقم له وزن كبير في حينه، لكن الأنباء وصلت بعد أيام قليلة، بهزيمة تولميدس وقتله في معركة بالقرب من [كوروينا Coronea] وأن عدداً كبيراً من أشجع المواطنين سقطوا صرعى معه. فأكبر

---

(٤٠) يقصد بالاخيين الاغريق عموماً في بعض الأحيان. لاسيما عند الكتابة عن الشعراء ويقصد بهم سكان منطقة معينة من البلوپونيسي. لكن علينا أن نعرف ان المقصود بهم هنا - هم أهالي من تسالي.

(٤١) لا عجب ان يعارض اللقيديميون في هذا! اذ ان الموافقة عليه تعني اعترافهم بالآثينيين سادة الاغريق وما كان بمقدور الآثينيين محاولة ذلك دون أمرٍ أو مرسوم صادر من الامفكتيون.

الناس كلمة پيركليس، ونال منها سمعة كبيرة، فضلاً عن أزدياد ايمان الشعب بحكمته ومحبته بني جلدته.

الاّ أن حملته الى [الخرسونيز](٤٣) هي التي أشاعت من الرضى والارتياح في النفوس ما لم تُشعها أية حملة من حملاته، لأنها أكدت سلامة الأغريق الذين كانوا يسكنون تلك الجزر. فعلاوة على أخذه معه متواطنين آثينين جدد، ومدّه المدن بقوة جديدة من الرجال، سوّر عنق البرزخ بجدار دفاعي من البحر الى البحر وبذلك أوقف غارات التراقيين الذين كانوا يطوقون الخرسونيز، فقطع دابر حرب مستمرة طاحنة، كانت تهدد البلاد منذ عهد طويل، بموقعها المكشوف لغزوات وموجات جيرانها من البرابرة. وتئن وتتلوى من وطأه شرور عصابات قطاع الطرق الذين أستقروا على حدودها وفي داخلها.

ولم يكن الأعجاب والأشادة بعمليّة تطوافه حول الپيلوپونيسوس(٤٤) بأقل من تلك. فقد أنطلق من پيكيا Pegae أو النافورات، وهي مينا ء [ميغارا] بمائة من السفن ولم يكتف باجتياح سواحل البحر، كما فعل [تولميدي] من قبل، وانما نزل البرّ بجنوده وتقدم مسافة كبيرة في داخلية البلاد، وجعل كثيرين يلوذون بحمى اسوارهم، بمجرد الرعب الذي أحدثه ظهوره، وفي نيميا Nemae هزم [الاسيكونيين Sicyonians] ونصب تذكاراً لفوزه. وكانوا قد صمدوا بوجهه أشتبكوا معه في قتال. ثم عقد بين الآثينين وبلاد آخائيا Achaia حلفاً وأخذ منهم جنوداً وخبأهم في سفنه وعبر بالاسطول الى القارة، وسار به على مصبّ نهر آخيلاؤس Achelaus، واجتاح أكارنانيا وألجأ [الوينادي Oeniadae] الى الاحتماء بأسوار مدينتهم وخرب بلادهم ونهبها ثم عاد الى الوطن ملقياً مرساه، بفائدتين: أنه أظهر لأعدائه بأسه. وظهر لبني قومه سالماً غانماً. اذ لم يعنّ في كل السفرة حادث سوء لأي واحدٍ من مرؤوسيه ولو بمحض الصدفة.

ودخل أيضاً البحر الأسود Euxine(٤٥) بأسطول كبير حسن العدّة وحصل للمدن الأغريقية على كلّ التسهيلات الجديدة التي ارادوها، ودخل في علاقات صداقة معهم وأظهر لشعوب لبرابرة، عظمة الآثينين وقوتهم ومقدرتهم التامة وثقتهم بإمكانهم الملاحة اينما شاؤوا، واثبت للملوك والأمراء المجاورين، أن بوسع الآثينيين السيطرة على البحر جميعه. وترك [للسينوپيين Sinopians] ثلاث عشرة بارجة حربية، مع جنودها بقيادة [لاماخوس Lamachus]

---

(٤٢) اجتاح البلوپونيسس وأحرق سفن قرطاجة، وهزم السيكيونيين الخ... الخ على انه اندحر امام اللقيديميين في كورونيا ٤٤٧ ق.م.

(٤٣) العام ٤٤٧ ق.م.

(٤٤) العام ٤٥٣ ق.م.

(٤٥) ربما كان ذلك في حدود العام ٤٣٦ ق.م.

لمساعدتهم ضدّ [طيمسيليوس Timesileus](٤٦) الطاغية وعندما قضى عليه وعلى شركائه واديلوا عن السرير، صدر مرسوم بإبحار ستمائة يوناني من الراغبين - الى [سينوپ -Si nope] ليستقروا هناك ويعيشوا بين السينوپيين ويشاطروهم المنازل والأراضي التي كان الطاغية وحزبه قد ضبطوها.

إلاّ انه لم ينزل في الأمور الأخرى الى نوازع المواطنين الطائشة النشوانة. ولم يحد عن قراره في اتباع ما يحبون وتحقيقه لهم. فقد اسكرتهم وادارت رؤوسهم قوتهم وانتصاراتهم الرائعة، وأشتدت رغبتهم في استعادة (مصر)(٤٧) وتدويخ سواحل الفرس. والحق يقال كان هناك عدد كبير ممن تملكته حتى في ذلك الزمن - تلك الرغبة المشؤومة النحسة، بحيازة جزيرة صقلية(٤٨) الرغبة التي أشعلها خطباء حزب [الكيپيادس Alcibiades] فيما بعد - ناراً ملتهبة لا تبقى ولا تذر. وكان هناك بعض من يحلم بتوسكانيا(٤٩) وقرطاجنة، ولم يكن ميلهم هذا خالياً من أسباب وجيهة في حالتهم هذه من الرخاء وكثرة أملاكهم ومستعمراتهم.

إلاّ أن پيركليس استأصل هذه الرغبة في الفتوح الخارجية من جذورها وبددّ بلا رحمة أحلامهم واجتثها اجتثاثاً، وكانت متخفرة ناشطة دوماً لما لايُحصى من المشاريع والمغامرات، ووجه طاقاتهم لترصين ما حصلوا عليه وتثبيته وأشغل بذلك معظم أوقاتهم. معتبراً فرض الكفاية منهم النجاح في كبح جماح اللقيديمونيين. فهؤلاء كان يراهم الخطر الحقيقي الداهم، ولم يكن يتردد في اظهار مشاعر كرهه لهم في كثير من المناسبات. ونخصّ منها بالذكر ما أقدم عليه أثناء الحرب المقدسة(٥٠). وحكاية ذلك أن اللقيديمونيين ساقوا جيشاً الى [دلفي] وأستعادوا معبد أپوللو للدلفيين، من يد الفوسيين الذين كانوا قد ظبطوه. فتربص پيركليس، حتى رحلوا وبادر في الحال الى الدخول بجيش، وأعاد الفوسيين الى المعبد. وكان اللقيديمونيين قد نالوا من الدلفيين امتياز الأولوية باستخارة الآلهة، وسجلوا أمتيازهم هذا بعهدٍ نقشوه

(٤٦) لم يرد ذكر اسم هذا الطاغية في اي موضعٍ آخر. و(سينوبه) هي من مدن [پافلاغونيا] استعمرها الميليسون. وتقع على ساحل البحر الأسود.

(٤٧) كان الآثينيون [توكيديدس ١٠٩:٢] يسيطرون على مصر الاّ ان [ميغابيس] أحد قواد [ارتحشثتا] تولى طردهم منها في السنة الأولى من الاولمپياد الثمانين. ولم يتكلم عن نجاح حملة پيركلس على الپلوپونيسس في السنة الرابعة من الاولمپياد الحادي والثمانين. وليس من الغريب اذن ان يتحدث الآثينيون الآن وهم في أوج قوتهم - عن استعادة نفوذهم في بلادٍ كانوا قد فقدوها قبل فترة قصيرة.

(٤٨) خمسة عشرعاماً أو ستة عشر بعد وفاة پيركلس.

(٤٩) بعد أن فكّر الآثينيون في ازدراء صقلية لابد ان يراودهم حلم التوسع في الأراضي الواقعة الى شمالها والى جنوبها.

(٥٠) في حدود العام ٤٤٨ ق.م سميت كذلك لعلاقتها بمعبد دلفي وهناك ما هو أكثر شهرة وبعين الاسم في عهد فيليب المقدوني.

على جبهة الذئب النحاسيّ القائم هناك(٥١)، فبادر پيركليس الى كسب امتياز مماثل للآثينين من الفوسيين، وأمر فنقش على الصفحة اليمنى من جسم الذئب النحاسي نفسه.

وتشهد الحوادث التي تعاقبت شهادة قويّة على صواب عمله وحكمته في صد اندفاعات الآثينين، وقَصْر مجهوداتهم على الدائرة الاغريقية. فبالدرجة الأولى ثار الايڤيون(*) عليه، فزحف بقواته عليهم واخمد ثورتهم، وتلا ذلك مباشرةً انباء اشارت انقلاب الميغاريين عليهم وان جيشاً معادياً يتقدم على حدود [آتيكا] بقيادة [پلستراناكس Plistoanax] ملك اللقيديمونيين. فأنسحب پيركليس من [يوبيا] وعاد باسرع ما يمكن ليجابه حرباً تهدّد موطنه نفسه انه لم يغامر في الدخول بمعركة مع جيش عزيز الجانب تواق للقتال، بل ولادراكه ان [پلستواناكس] الشاب اليافع، كان يطيع في أكثر الأمور نصيحة [كلياندريدس Clean-srides] الذي بعثه [الايغور] مع الجيش ليكون بمثابة وصيّ ومساعدٍ للملك الشاب، فقد قام سَراً باختبار نزاهة هذا المستشار ونجح في افساد ذمته بمبلغ من المال، ودفعه الى الاشارة على الملك بالانسحاب وتمّ انسحاب الپيلوپونيسيين من آتيكا، وانحل الجيش وتفرق افراده عائداً كلٌّ الى موطنه. فاستشاط اللقيديمونيون غيظاً وعمدوا في سورة من غيظهم هذا الى فرض غرامة ثقيلة على ملكهم، فعجز عن تسديدها واضطر الى ترك [لقيديمون](٥٢). وهرب [كلياندريدس] وحكم عليه بالموت غياباً. وكلياندريدس هذا، هو والد [غيليپوس Gylipus] الذي استظهر على الآثينيين في صقلية. ويظهر ان الطمع كان مرضاً موروثاً في الأسرة، أنتقل من الأب الى الأبن، اذ قبض عليه فيما بعد متلبساً بعمل جرمي مماثل وطرد بسببه من سپارطا. وقد اتينا الى المزيد من الشرح في هذا، عند كلامنا عن سيرة [ليساندر].

وذكر [پيركليس] في أثناء تلاوته تقريره عن هذه الحملة امام الجمعية العمومية، انه أنفق عشرة تالنتات، بمناسبةٍ معينة في سبيل المصلحة العامة، فصادق الشعب على الصرف دون سؤال أو تحقيق في باب الصَّرف. ويؤكد بعض المؤرخين ومنهم [ثيوفراستوس] الفيلسوف ان پيركليس اعتاد كل سنة أن يبعث سراً الى سپارطا بعشرة تالنتات رشوة لرجال الحكم فيها، لا ليشتري سلمهم، بل ليشتري الزمن، وليستعد على مهله ويكون الأقدر والأكثر استعداداً للحرب.

---

(٥١) قيل انه قبض على الذئب ووضع الى جانب الذبح الكبير لأن ذئباً قتل لصاً كان قد سرق المعبد ويعوائه المتواصل دل أهل دلفي على الموضع الذي أخفى فيه المسروق [پاوسنياس ١٠-١٤].

(*) في ٤٤٦ ق.م.

(٥٢) يقول توكيديدس [٢١:٢] ان رعيته حكموا عليه بالنفي بعد ان شكوا في انه قبل الرشوة لينسحب من الحياة العامة.

بعد هذا وجّه جيشه فوراً الى الثائرين، وهاجم جزيرة [يوبيا] بخمسين بارجة وخمسة آلاف مقاتل وأستولى على مدنها وطرد المواطنين الخلقيديين Chalaidians الملقبين [هيپوبوتي Hippobotae] أيّ «علاّفي الخيل» ويعتبرون من أغنى السكان وابرزهم سمعةً. وأخرج كل [الهستيانيين Histiaeans] من البلاد، وأحّل محلهم جالية آثينية، ضارباً بهؤلاء مَثَله الوحيد في الصرامة والشدة لأنهم كانوا قد أسروا سفينة آتيكية وقتلوا كل من فيها.

وعقد هدنة بين الآثينيين واللقيديمونيين، أمدها ثلاثون سنة. وأصدر مرسوماً جمهورياً بالحملة على جزيرة [ساموس][*]، ولرفضها طلبه بإيقاف حربها مع الميليسيين. ولما كان الرأي يميل الى أن هذا الإجراء ضد الساموسيين إنما أتخذ ارضاءً لسپاسيا Spasia فمن المناسب ان نذكر هنا شيئاً عن هذه المرأة. أيّ جاذبٍ فيها واي دهاء مكنها من ايقاع أعظم ساسة العصر في حبائل حبها واستهوائه. ومن ثم اتاحة المجال لحديث الفلاسفة[٥٣] عنها كثيراً، لا بما يشيتها أو يجرحها.

ومن الثابت انها [ميليسيّة] بالولادة[٥٤]. وانها ابنة [أكسيوخوس Axiochus] وقيل انها كانت تمكنت من امتلاك ناصية رجال من ذوى النفوذ والجاه الكبير بتقليدها، [تارجيليا Thargelia][٥٥] العاهرة التي عاشت في العهد الآيوني القديم، وقد عرفت بجمالٍ نادر، وشخصية ساحرة للغاية يزينهما ذكاء وحصافة مدهشين. وكان عشاقها بين الأغريق كثيرين، وأستمالت كل من كان ذا علاقة بها لموالاة الفرس وخدمة مصالحهم بنفوذهم ومراكزهم العالية. وبذلك زرعت بذرة التحزّب للميديّن في مدن كثيرة. هذا عن [تارجيليا]، ويقول بعضهم أن [سپاسيا] أستأثرت بقلب پيركليس، واعزازه، لوقوفها الواسع على السياسة وحذقها أساليبها. وكان [سقراط] نفسه يختلف اليها أحياناً مع بعض معارفه، وأعتاد كثير ممن يختلفون اليها أن يصحبوا زوجاتهم للاستماع اليها. ولم تكن مهنتها تمت الى الشرف بصلة ما، ومنزلها في الواقع دار للعاهرات الشابات. ويخبرنا [ايسخينيس Aeschines][٥٦] أيضاً أن [ليسيكليس Lysicles] وهو تاجر أغنام ذو منبت وضيع، وخلق دنيء، أصبح فهو أوّل شخصية في اثينا بعد موت پيركليس، بسبب معاشرته [سپاسيا][٥٧]. ونحن، وان كُنا

(*) في ٤٤٠ ق.م.

(٥٣) سقراط وافلاطون.

(٥٤) [ميلتوس] من مدن [ايونيا] أشتهرت بكثرة مشاهير الرجال الذين ولدتهم حتى ضرب بها المثل.

(٥٥) نالت ملك تساليا بفضل جمالها. لكنها أعتُطبت وهي في ريعان الشباب اذ فتك بها واحد من عشاقها.

(٥٦) اسخينوس السقراطي. في محاورة عنوانها «آسپليا» لم تصلنا.

(٥٧) لايُعلم المنصب الذي اشغله هذا الشخص والدرجة التي رفع اليها. فمن اثنين بهذا الاسم بلغا مرتبة =

لانأخذ مقدمة [مينيكزينوس Menexenus] لافلاطون، مأخذ الجدّ التام، فإن ما تضمنت عن أسپاسيا فيه واقع تاريخي، جاء فيه انها اشتهرت باختلاف كثير من الآثينيين الى مجلسها ليتعلموا فنّ الكلام منها[٥٨]. ويبدو أن تعلّق پيركليس بها كان مبعثه العاطفة والحبّ على أية حال. كان متزوجاً بقريبة له، سبق أن تزوجت بهيپونيكوس Hipponicus قبله وأنجبت له [كاليّاس Callias] الملقب بـ«الغنيّ»، ثم أنجبت لپيركليس طوال عشرتها الزوجية له – ولدين وهما [كزانتيپّوس Xonthippus وپارالوس Paralus] ثم انفصل عنها برضاها بعد أن ضاقا بالعيش معاً لعدم انسجامهما، فبنت برجل آخر، وتعلق هو باسپاسيا وأحبها حباً جارفاً، وكان يقرؤها التحية ويقبّلها يومياً كلما غادر البيت أو عاد اليه من ساحة السوق.

ولقبت بأسماء عديدة في التمثيليات. منها «أومغال الجديدة» و«ديئيانيرا Deianira» ولقبت أيضاً «بجونو» وأعطاها كراتينوس[٥٩] صفتها الحقيقية «العاهرة».

«لقد حملت له يونو هذه، بتلك العاهرة التي لاتعرف الحياء المسمّاة أسپاسيا».

ويبدو انها انجبت له إبنا. ففي تمثيلية [ديمي Demi] [ليوپوليس Eupolis] قدّم شخصية پيركليس وهو يسأل عن سلامة ابنه فيجيبه ميرونيدس Myronides و «إبني هل هو حيّ»

«أجل... انه أصبح رجلاً متزوجاً منذ زمن طويل لو لم يخش سوء السمعة لولادته من أمّ عاهرة.»

أشتهر أمر أسپاسيا على ما يقال وذاع صيتها، حتى أن [كورش] الذي نازع [ارتحشتا] العرش الفارسي سَمىّ أحَب محظياته اليه باسم اسپاسيا وكانت تدعى قبلاً [ميلتو Milto] وهي فوسيّة الأصل وابوها [هرموتيموس Hermotemus]. ولما سقط كورش في المعركة قتيلاً، حُملت الى الملك[٦٠]، فكان نفوذها في بلاده كبيراً... خطرت لي هذه الأشياء وأنا

= السلطة في اثينا، توفي أولهما بعد سنة واحدة من موت پيركلس، ولم يكن محتملاً ان انتفع الى هذا الحدّ بعلاقته مع اسپاسيا خلال مثل هذا الموقف القصير. اما الثاني الذي كان اصل السبب في نكبة (خيرونيا) [ديودورس ١٦:٨٨] فقد نفذ فيه حكم الموت جراء ذلك في تاريخ متأخر عن الأول بتسعين عاماً. وليس من المعقول ان تكون اسپاسيا قد عاشت قرناً من الزمن وهو محتفظة بنفوذها.

(٥٨) يجب الاّ نتصور ان اسپاسيا انما برعت في مطارحات الهوى والحديث التافه الخفيف. في الواقع ان احاديثها كانت جدية عميقة حتى ظن معظم أهل المعرفة الآثينيين بأنها هي التي كتبت خطبة التأبين الشهيرة التي القاها پيركلس مخلداً ذكرى أولئك الذين سقطوا في حرب ساموس. ولايستبعد ان قام پيركلس بشن هذه الحرب بناء على اقتراح منها، انتقاماً من منازعة المليسيين وقيل انها رافقته في الحملة وانها شيدت معبداً تخليداً لنصره هذا [انظر ثوكيديدس ١:١١٥].

(٥٩) في مسرحية الخيرونيون Cheirons.

(٦٠) أنظر كزنيفون: اناباسيس ١:٢، ١٠.

أكتب القصّة فلم أجد من المناسب اغفالها.

على أية حالٍ، كان من أهم المآخذ على پيركليس أقتراحه في الجمعية العمومية أعلان الحرب على ساموس مناصرةً للميليسيين، واكراماً لخاطر اسپاسيا، فالدولتان كانتا مشتبكتين في حرب على [پرين Priene]، وكانت كفّة الساموسيين راجحةً فيها، ولذلك ابوا القاء سلاحهم والاستجابة الى فضّ النزاع بطريق التفاوض وان يكون الآثينيون المحكمين فيه. فجهز [پيركليس] أسطولاً وأتجه الى جزيرتهم حيث قضى على حكومة الأقلية فيها وأخذ خمسين رهينة من كبار رجالهم ومثله من أولادهم وبعث بهم الى جزيرة [لمنوس] وأبقاهم هناك. وذكر بعض المؤرخين أنه رفض عرضاً بافتدائهم بتالنتٍ واحدٍ لكل منهم، فضلاً عن هدايا كثيرة عرضها عليه أولئك الذين كانوا يكرهون جداً اقامة نظام ديمقراطيّ عندهم؛ زد على ذلك أن [پسوثنس Pisuthnes][٦١] الفارسي أحد ضباط الملك، الذي كان ذا نوايا طيبة للساموسيين، أرسل اليه عشرة آلاف قطعة ذهبية ليصفح عن المدينة، فردّها [پيركليس] ورفض كل العروض. ومضى قدماً في ما أختطه للساموسيين، وما وجده مناسباً وأقام النظام الديمقراطي عندهم[٦٢] ثم ابحر عائداً الى آثينا.

إلاّ أنهم مالبثوا ان ثاروا، وأفلح [پسوثنيس] في تهريب الرهائن اليهم وأمدّهم بكلّ وسائل الحرب. فكرّ پيركليس راجعاً اليهم باسطوله فلم يجدهم غافلين ولا متهيبين، بل تبين فيهم عزفاً راسخاً على نيل السيطرة البحرية؛ وكانت النتيجة أن پيركليس نال نصراً ساحقاً بمعركة بحرية ضارية قرب جزيرة تراجي[٦٣]، فقد هزم باربع وأربعين بارجة، سبعين بارجة للعدوّ منها عشرون تحمل جنوداً.

وبنصره هذا وما تلاه من مطاردةٍ للعدوّ، حقق سيطرته على الميناء والقى حصاراً عليهم وضيق الخناق، وكانوا رغم ذلك يحاولون أن يواصلوا كَرّاتهم بشتىّ الأشكال، ويشتّبكوا في القتال تحت أسوار المدينة، لكن پيركليس اتمّ تطويقهم من كل جهة وحصرهم في مساحة ضيقة جداً من الأرض، بعد أن وصله من آثينا أسطول كبير آخر[٦٤]. ويذكر معظم الكتاب أن پيركليس أخذ ستين بارجة وأنطلق بها الى عرض البحر عازماً على أعتراض سفن الفينيقين التي خفّت لمعونة الساموسيين، وقتالهم في أبعد نقطة ممكنة عن الجزيرة. على أن

(٦١) هو ابن هشتاسب. كان حاكماً على (ساردیس) وتبنى قضية الساموسيين طبعاً لأن كبار قومهم هم من الموالين للفرس.

(٦٢) كذلك وضع فيها حامية [ثوكيديدس ١:١١٥].

(٦٣) تراجيئاي هي جزيرة من مجموعة جزر سپورادس مقابل ساموس.

(٦٤) يتألف من أربعين سفينة آثينية و٢٥ سفينة أخائية ولسبوسيّة [ثوكيديدس ١:١١٦].

[ستسمبروتوس] يزعم انه ما خرج الاّ ليستولي على قبرص، وهو زعم لاينطوي على إصابة ومهما كانت نيته، فالظاهر انه أخطأ الحساب. لأن [ميلسوّس Melissus] القائد الساموسيّ آنذاك وابن الفيلسوف [ايثاجينس Ithagenes] أغرى أهل المدينة بمهاجمة القوات الآثينية الباقية امّا مزدرياً العدد القليل من سفنهم، أو مستفيداً من قلة تجربة ضباطهم وكسب الساموسيون المعركة وأخذوا عدداً من الأسرى كما عطلوا عدداً من السفن وتمت لهم السيطرة على البحر، ونقلوا الى الميناء كل ما يحتاجونه للحرب، ولم تكن بتناول يدهم قبلاً. يقول [ارسطو] أن [موليسوّس] كان قد استظهر على پيركليس مرة واحدة في معركة بحرية سابقة.

ووسم الساموسيون الآثينين الأسرى وسماً على جباههم يُمثل صورة بوم غسلاً لإهانة سبق ان أصابهم بها خصومهم هؤلاء. فقد وسموا عدداً منهم بوسمٍ يمثل سامينةً Samaena وهذا نوع من السفن واطيء مسطح من ناحية القيدوم ليبدو كالأنف الأشمّ، وهو من المؤخرة عريض واسع رحيب يتسع لحمولة كبيرة، ويسهل قياده، وسميت بهذا الاسم لأن أوّل مَن صنعها كان في [ساموس] بنيت بأمر من [پوليقريطس Polycrates] الطاغية وهذا الوسم الذي رسم على جباه الساموسيين نوهت به الفقرة التالية - من أرسطوفان(٦٥):

«لأن الساموسيين - وا أسفي - قومٌ مُعَلَّمون بالحروف».

ما أن بلغت أنباء النكبة پيركليس، حتى خفّ مسرعاً لانقاذ قواته(٦٦) وأوقع بميلسوّس الهزيمة وراح يطارد جيشه حتى حصرهم وراح يبنى حولهم جداراً وغايته ايقاعهم جميعاً في قبضته والاستيلاء على المدينة. وان كان في هذا الاسلوب تضحية في بعض النفقات، والوقت فهو ينّم عن حرصه على أرواح مواطنيه وعدم التفريط بخسارة فيهم. ولكن صعب عليه كبح الآثينين الذين أغضبهم هذا التأخير وكانوا تواقين للقتال مصرين عليه. فقسم الجيش كله الى ثماني وحدات. وسحب قرعة بينهما فكل وحدة يخرج لها حبّة الفول البيضاء تسحب من خطّ القتال وتعطي أجازة فيها يروّح الأفراد عن أنفسهم ويطربون ويلهون، بينما تستمر الوحدات السبع الأخرى في القتال. والى هذا يعزى تسمية الآثينيين ليوم طربهم ومرحهم باليوم الأبيض أشارة الى حبّة الفول البيضاء(٦٧).

ويخبرنا المؤرخ [ايفوروس Ephorus] زيادة على ما تقدم، أن پيركليس استخدم في ذلك

---

(٦٥) من مسرحية «البابليون» لم تصلنا.

(٦٦) يقول ثوكيديدس ان النجدة التي ادركته كانت تتألف ثمانين سفينة.

(٦٧) تعتبر حبة الفول البيضاء اشارة على البراءة في القضايا الجنائية وقد جرت العادة بذلك منذ زمن أبعد مما ذكر.

الحصار آلات الثغر، فقد كان شديد الاهتمام بالمستنطبات العجيبة، تواقاً لاختبارها. وقد عاونه في ذلك [آرتيمون Artemon] المخترع الميكانيّ، وكان يرافقه في حملته، ولعرج فيه اعتاد أن يجلس في محفّةٍ لينقل الى مواقع العمل كلما أستدعى الأمر وجوده، ولهذا السبب سُميّ [پيريفوريتوس Periphoretus]. إلاّ أن [هيراقليدس پونتيكوس] يثبت عكس ما تقدم، مستنداً الى شعر [اناكريون][٦٨] الذي جاء فيه تنويه [بارتيمون پريفوريتوس] هذا قبل حرب ساموس والأحداث الأخرى المعاصرة لها باجيال عديدة. يقول انه كان حريصاً على راحته، شديد الحذر من مداهمة الخطر على حين غرة. لهذا أعتاد قضاء جل أوقاته داخل البيوت، وأناط باثنين من خدامه أن يرفعا فوق رأسه ترساً نحاسياً لئلا يسقط عليه شيء من فوق. وان أستدعت حاجةٌ ملحّةٌ خروجه، حمل في محفّة متدلية من قضبان على مستوى واطيء من الأرض ولذلك سُميّ [پريتوريتوس].

في الشهر التاسع استسلم الساموسيّون، وسلّموا مدينتهم. فهدم پيركليس أسوارها وصادر سفنها وفرض على الأهلين غرامة مالية ثقيلة، دفعوا جزءً منها في الحال، واتفق على تسديد الباقي في أجلٍ مضروب. وسلّموا رهائن ضماناً لحسن سلوكهم. وقد ألف [درويس Duris] الساموسي مأساة درامية حول هذه الأحداث متهماً فيها الآثينيين وپيركليس بالفظائع والقسوة الشديدة - دون اعتبارٍ ما للحقيقة، بينما لانرى ثوكيديدس او انيوروس او ارسطو يذكرون شيئاً من هذا. ذكر مثلاً أن پيركليس ساق ضباط السفن وجنودها الى ساحة السوق في [ميليتوس] وهناك شدّ وثاقهم على ألواح خشبية وأبقاهم هكذا عشرة ايام حتى اصبحوا بين أحياءٍ وأموات، ثم أصدر أمره بسحق رؤوسهم تحت ضربات الدبابيس وإلقاء جثثهم في الشوارع والساحات العامة دون دفن؛ كيف يمكن تصديق هذا؟

وعلى اية حالٍ، كان من المحتمل جداً ان يبالغ (دوريس) في المصائب التي حلت بموطنه ليخلق شعوراً بالنفور العام من الآثينيين. فهو كثيراً ما يبالغ في سرده التاريخي حتى يتعدى بعضه حدود الحقيقة[٦٩]، وإن لم يكن منساقاً وراء غرض أو عاطفة.

والحاصل، عاد پيركليس الى اثينا بعد اخضاعه الساموسيين، وأهتم بدفن أولئك الذين سقطوا في ساحة الحرب، دفنة مشرّفة لائقة، وألقى بتلك المناسبة خطبة تأبين حسب العادة،

---

(٦٨) تجد هذه الابيات في الاثيناوس (٩:١٢). الحقيقة ان المرء لا يسعه الاّ الاستغراب من وجود شخصين بعين الاسم وعين الاخلاق والنقص العقلي. إلاّ ان المهندس الذي رافق پيركلس ربما لا يتفق في شيء مع الآخر ما عدا الاسم. وان پلوتارخ وقع هنا في وهم عندما عزا اليه كل هذه التفاصيل.

(٦٩) عاصر بطليموس فلاديلفوس. يقول عنه شيشرون ان دقيق وامين.

اثناء مواراتهم التراب، أثارت عظيم الإعجاب(٧٠)، حتى أنه عندما هبط من المنبر، أقبلت عليه النسوة وأخذن يمدحنه وقُدنه من يده وضفرن على رأسه أكاليل الغار والشرائط، كاحتفأهنّ بالرياضي الفائز في الالعاب. وهناك دنت [ألپينيكي] منه قائلة: «لقد اتيت يابريكليس بأعمال البطولة والبسالة وهو ما تستحقه اكاليل غارنا التي جعلتنا نفقد كثيراً من كرام مواطنينا لا في حروب مع الفينيقيين أو الماديين كحروب كيمون، بل لقهر وأخضاع دولة حليفة ارتبطت معنا برابطة الدم والصداقة» وقيل انه كان يبتسم ابتسامة رقيقة اثناء حديث الپينيكي، ولما أنتهت ردّ عليها بهذا البيت من الشعر:

«ينبغي للعجائز من النساء الاّ ينشدن التعطر»(٧١)

وقال عنه [آيون] أن العظمة ركبته بعد مأثرته هذه في انتصاره على الساموسيين، وبدأ ينظر الى نفسه نظرة التيّاه المُدلّ فلقد أقتضى عشرة أعوام [لأغاممنون Agamemnon] حتى يستولي على مدينة من مدن البرابرة. في حين لم يقتض پيركليس أكثر من تسعة أشهر للاستيلاء على أعظم مدن الآيونيين واقواها. ولهذا كان له ملء الحق في الفخر بهذا المجد الذي كسبه لنفسه. فقد كانت حرباً تنطوي على مخاطرة كبيرة، وكان هناك شكّ أكبر في نتيجتها. هذا اذا صدق ما قاله لنا [ثوكيديدس]عن اقتراب ساموس على قيد خطوة في انتزاع السيادة البحرية من أيدي الآثينيين.

بعد هذا(٧٢)، بدأت حرب الپيلوپونيس تتخذ شكلاً خطيراً وتبلغ مرحلتها الحاسمة. ونصح پيركليس مواطنيه ان يرسلوا نجدة للكوكريين Cocyraeans الذين تعرضوا الهجوم الكورنثيين(٧٣). وان يضعوا يدهم على جزيرة ذات موقع سوقي بحريّ هام جداً. مادام بادر

---

(٧٠) هذه المرثية التي اُلقيت في السنة الرابعة من الالمبياد الرابع والثمانين هي غير الخطبة الشهيرة التي القاها بمناسبة تأبين أولئك الذي سقطوا صرعى في بداية حروب البلوپونيسس. في السنة الثالثة من الاولمبياد السابع والثمانين (توكيديدس ٢:٣٥-٤٦). ان الاريوباغوس هو الذي يختار الخطباء في هذه المناسبات. ولم يكن بالشرف القليل لپيركلس ان يختار مرتين لتعزية بلاده بالفاجعة.

(٧١) معناه «لقد بلغت من الكبر حداً بحيث لايجمل بها التدخل في الشؤون».

(٧٢) اي بعد الاستيلاء على ساموس بخمس سنين. وبالضبط في السنة الثانية من الالمپي السادس والثمانين [بدأت حروب البلوپونيسس في السنة الثانية من الالمبياد السابع والثمانين].

(٧٣) هذه الحرب بدأت في ٤٣٣ ق.م بخصوص اراضي ايپيدامنوس المدينة الصغيرة في مقدونيا التي بناها الكوركيري. وكان لهؤلاء قوة بحرية عظيمة لا تعدلها الاّ بحرية الآثينيين. طلب هؤلاء والكورنثيون المعونة من الآثينيين في آن واحد ومن قصائد الشعراء الهزليين وهم صدى صوت الجمهور الأمين - يمكن ان نعزو سبب الحرب الى الغضب الذي اجتاح اسپاسيا لاهانة وجهها اليها بعض من شبان ميغارا. ويزعم آخرون ان پيركلس انما شنها لحماية نفسه والتخلص من تقديم حساب على فترة حكمه. إلاّ أن هذه الاسباب غير معقولة لأنها ليست جديرة بسياسيّ شهير مثله لا تستقيم مع خلقه ومنزلته. ويدحض =

كل [البيلوبونيس] بالاعمال العدوانية ضدهم. فوافق الجميع على اقتراحه بلا تردد، وصوّتوا على ارسال معونة ونجدات عسكرية لهم. فبعث پيركليس اليهم بلقيديمونيوس(٧٤) ابن كيمون على رأس عمارة بحرية تتألف من عشر سفن لا غير. وكان يقصد بهذا الإجراء ان يجنبّه الإهانة. فلما كان بين اسرة [كيمون] واللقيديمونيين عطف متبادل وصداقة فقد تعمد أن ينيط به هذا العدد الضئيل من السفن حتى اذا فشل في مهمته وأخفق في تحقيق مأثرة في الحملة فلن يعزى ذلك الى ممالأة للقيديمونيين أو على الأقل لكيلا يشكّ في مسلكه أو يتهم بالغدر؛ والواقع أن ارساله كان ضدّ رغبة پيركليس، لأنه ما فتيء يحتاط للحيلولة دون ارتقاء ابناء كيمون في مناصب الدولة، وحجته في ذلك أن أسماءهم وحدها تجعل الناس لا ينظرون اليهم نظرة المواطنة الآثينية، بل أن يعتبروهم أجانب وغرباء عنهم. فأحدهم يدعى [القيديمونيوس]، والآخر [تسالوس Thessalus] والثالث [ايليوس Eleaus]، والمظنون أن ثلاثتهم جاؤوا من أم اركادية. ومهما قيل عن نجدة السفن العشر والانتقاد الموجه اليها باعتبارها معونة تافهة جداً، لقوم كانوا يعانون ضيقاً شديداً كما أنها في الوقت نفسه وقعت بمبرّر قوي لأولئك انتقدوا پيركليس لتدخله في الحرب. فان آثينا بعثت بعد ذلك بقوات أكبر، الى [كوركيرا Corcyra](٧٥) الا انها وصلت بعد انتهاء القتال. وأشتد سخط الكورنيثين وغضبهم على الآثينيين واتهموهم علناً في لقيديمون، وساندهم الميغاريّون في ذلك متظلمين من قيام الآثينيين بابعادهم عن كل سوق وطردهم منها ومن جميع الموانيء الواقعة تحت سيطرتهم خلافاً للحقوق العامة المشتركة التي أقسم على أحترامها كل دول الأغريق في عهد السّلام المتفق عليه. وأعلن الايجينيون أيضاً بأنهم عوملوا معاملة سيئة قاسية وطلبوا من اللقيديمونيين انصافهم ولم يجرأوا على تسمية الآثينين واتهامهم بالاعتداء جهراً. كما أعلنت مدينة [پوتيديا Poti-daea] الثورة على سادتها الآثينين في الوقت نفسه، وكانت قبلاً من مستعمرات الكورنيثين. فألقى عليها الجيش الآثيني الحصار وكانت سبباً آخر من أسباب الحرب.

ومع هذا فقد وفد الى اثينا سفراء للتوسط في السلام، وبذل [ارخيدامـوس] ملك اللقيديمونيين مجهودات صادقة للوصول بمعظم الشكاوي والخلافات التي هي مدار النزاع -

---

= ثوكيديدس هذه المزاعم وهو محايد غزير المعلومات. والتعليل المعقول الوحيد هو الحسد الذي ابتليت به آثينا بسبب ما بلغته من منعة وقوة ومهابة بعد انتصارها في الحرب الميدية. وسلوكها المشوب بالتعالي والعجرفة واستنكار سپارطة لروح التسلط فيها.

(٧٤) يقول [ثوكيديدس] لم يكن قصد الآثينيين مساعدة الكوركيري بصورة فعالة. وانما كان ارسالهم العمارة البحرية الصغيرة من أجل المراقبة ومتابعة تطورات القتال في حين يصاب الفريقان بالانهاك هذا فضلاً عن انه لم يكن القائد الوحيد فقد زامله في القيادة كل من ديوتينس و«پرونياس» (١:٤٥).

(٧٥) إلاّ أن هذا الأسطول الذي تألف من عشرين سفينة حال دون اشتباك ثانٍ كانوا قد تهيأوا له [ثوكيديدس ١:٥٠].

الى حلول عادلة مرضية للأطراف المعنية، ولتهدئه عواطف الحلفاء المستوفزة وكان من المحتمل جداً ان لا تقع مغبّة الحرب على الآثينيين لأي سبب من أسباب النزاع لو أنهم وافقوا على الغاء قرارهم ضدّ الميغاريين، وهو الذي عمل على اثارة عاطفة العداء للميغاريين في نفوس الآثينيين، فانه يُعدّ مثير هذه الحرب الأوحد.

ويذكر المؤرخون في هذا العدد، أن السفراء الموفدين رحلوا من لقيديمون الى اثينا للبحث في هذه القضية، وقيل أن پيركليس تعلل بوجود قانون يحرّم عليه انزال أو الغاء اي لوح كتب عليه قرار اتخذه الشعب. ومنها اللوح الذي كتب عليه القرار ضد الميغاريين، فعقبّ أحد السفراء المسمىّ [پوليالسيس Polyalscis] قائلاً: «لا بأس اذن، لاتنزلوه، بل أديروه على وجهه الثاني اذ لايوجد قانون يمنع ذلك»(٧٦). ومع أن قوله هذا كان تعريضاً جميلاً بپيركليس، فانه لم يزحزح الرجل عن موقفه ولم يثنه عن عزمه؛ ويغلب الاحتمال أن يُظنّ فيه نية خفيّة أو عداوة مستترة بينه وبين الميغاريين، ولكن تصرفه التالي ينفي هذا الظنّ، فعند طرح التهمة للعامة، وهي اغتصابهم جزءً من الأراضي المقدسة على الحدود(٧٧)، تقدم هو نفسه باقتراح يقضي بارسال منادٍ اليهم أولاً ثم الى اللقيديمونيين ثانياً يحمل صيغة الاتهام للميغاريين، وهذا عمل يبرهن بما لا يقبل الشكّ على نية طيبة تتحرى العدل. ثم ان المنادي الموفد [انتيموقريطس Anthemocritus] قضى نحبه. وظنّ أ للميغاريين ضلعاً في مرته. فقام [خارينوس Charinus] يقترح اصدار بيان ضدهم بالصيغة الآتية: «سيكون من الان فصاعداً عداء مستحكم لا شافع فيه بين الجمهوريتين. وإنْ وَضَع ميغاريٌ قدماً في آتيكا يقتل حالاً. وان يضاف الى أوّل اليمين المعتادة التي يحلفها القوّاد العسكريّون، تعهدهم بالقيام بغارتين على بلاد الميغاريين سنوياً، وان يدفن [انتيموقريطس] بالقرب من الباب الثراسي، المسمىّ الآن ديپليلون Diplylon أو الباب المزدوج.»

وانكر الميغاريون انكاراً باتاً تهمة تدبير مقتل انتيموقريطس(٧٨) وتنصلّوا منها والقوا اللوم كله على أسپاسيا وپيركليس مستشهدين بالابيات الأخارنية Acharnian المشهورة التالية:

---

(٧٦) للمزيد من التفاصيل قارن ثوكيديدس [١:١٤٠] وغيره.

(٧٧) ان الارض التي تقع بين ميغارا وآتيكا، كرّست للربّتين الالوسينيّن [كيريس] و[پروسپريني] كذلك اتهم پيركلس الميغاريين بانهم كانوا يؤمنون الحماية للعبيد الآبقين.

(٧٨) لم يورد [ثوكيديدس] اي ذكر لهذا المنادي، على ان الميغاريين كانوا يعتبرون مدبري هذا القتل حتى انهم عوقبوا عليه وإنْ بعد اجيال عديدة. ولهذا السبب حرمهم الامبراطور هادريان كثيراً من الامتيازات، والالطاف التي خصّ بها مدن الاغريق الأخرى ان ضريح انثيموقريطس كان على جانب الطريق المقدسة المؤدية الى ايليوس [پاوسنياس ١:٣٦].

خرج الى الميغاريين بعض رجالنا الأغرار الطائشين السكارى. واغتصبوا منهم عاهرتهم [سيميثا Simaetha] فلأجل أن يثأر المغاريون لهذا العمل. إقتحموا منزل [اسپاسيا] وأختطفوا عاهرتين منها.

ليس من السهل معرفة السبب الحقيقي للحرب. إلاّ أن الجميع يلقون تبعته على پيركليس، لأنه حضَ على رفض الغاء البيان الصادر ضدٌ الميغاريين. وزعم البعض أن رفضه الطلب بصورة باتة كان متمشياً مع مصالح البلاد التامّة، نابعاً من معنوية عالية. فقد استخلص فكرة، ان الطلب الذي تقدمت به السفارة، كان يرمي الى اختبار اعصاب الآثينيين، وانّ اي تنازل منهم سيؤخذ بمثابة اقرارٍ بضعفهم، ويظهرهم بمظهر العاجز الذي لا مخرج له غير هذا الحلّ؛ وهناك من يقول أن الرفض كان مبعثه التحدي والرغبة في القتال، اظهاراً لقوته، وخلقة مناسبة لتحقير اللقيديمونيين.

وأشدّ الدوافع هي الحادثة التالية التي أكدّت علاقتها الوثقى بالحرب، معظم الشواهد والأدلة: كان فيدياس قد قام بعملٍ تمثال لمنيرڤا على نحو ما بيّنا، وقد ابتليَ بعداوة الكثيرين غيرة منهم وحسداً لأنه يتمتع بمكانة كبيرة وصداقة متينه عند پيركليس وهذا ما دفعهم الى تلفيق تهمة عليه ساقته للمحاكمة الشعبية، وغرضهم من هذا أن يختبروا اتجاه الشعب كقاضٍ اذا ما ستحت لهم فرصة تقديم پيركليس امامه بتهمةٍ ما. وكان سبيلهم الى فيدياس وانهم اغروا عاملاً من عمّاله يدعى [مينون Menon] ودفعوا به الى ساحة السوق وبيده عريضة يطلب فيها منحه الأمان الجمهوريَ عند ادعائه على فيدياس، فأجيب طلبه، وسُمح له بسرد شكواه. وفي المرافعة التي أقامها الادعاء العام ضده امام الجمعية العمومية لم يثبت عليه سرقةٌ أو غش، لأن فيدياس الذي أخذ بنصيحة پيركليس من البداية وعمد الى الذهب المخصص للتمثال فكساه كالقميص به بصورة يمكن معها نزعه ووزنه بصورة دقيقة، على أن صيت أعمال پيركليس العمرانية هي التي جرت المصائب على فيدياس، ولاسيّما تصويره حرب الامازونات في سبيل ترس الآلهة. فقد رسم صورته، شيخاً أصلع الرأس رافعاً صخرة عظيمة بكلتا يديه. ورسم صورة أخرى تشبه پيركليس شبهاً تاماً وهو يحارب الامازونات، وكان وضع اليد المسكمة بالرمح أمام الوجه محاولةً بارعة من المثال لحجب الشبه الى درجة ما، إلاّ انه كان واضحاً وضوحاً كافياً من الجانبين.

وعلى هذا أودع [فيدياس السجن ومات فيه بمرض[٧٩]، أو على ما قيل بسمٍ دسه له أعداء

(٧٩) يزعم بعضهم انه نفي وانه صنع في فترة منفاه تمثاله الشهير «جوبتر في الاولب» الذي لم يبذه في الفن والدقة غير تمثال [منيرڤا] الذي جاء ذكره في المتن.

پيركليس لإثارة فضيحةٍ أو شكوك على الأقل حول پيركليس بوصفه قاتله. واقترح [غليكون Glycon] اعفاء [مينون] من الضرائب والمكوس وايصاء القادة بالمحافظة على سلامته فأجاب الشعب بالموافقة.

ثم تلا ذلك الاتهام اسپاسيا بتعاطي البغاء، بشكوى قدمها [هرميپوس] الممثل الكوميدي، وزاد عليها تهمة أخرى، هي استقبالها في بيتها مواطنات من طبقة الأحرار، ليستمتع پيركليس بعشرتهن. كذلك تقدم [ديوبيپوس Diopithes] باقتراح سن قانون يقضي برفع الدعوى العامة على كل الأشخاص الذين يهملون شعائرهم الدينية أو يبشروا بالمبادىء الجديدة عن الأمور العليا، موجها الشكّ الى پيركليس عن طريق [اناكساغوراس]، وكان قبول العامة بهذه الأمور وموافقتهم على التهم، يتمثلّ في اصدارهم بياناً (بناءً على أقتراح [دراكونيتدس Dracontides] يقضي بمحاسبة پيركليس على الأموال التي انفقها أمام اليريتان[٨٠] وان القضاة يجب أن يجزوا المرافقة بالبطاقات التي توضع فوق هيكل الاكروپوليس، فذبح الربة في الاكروپولس[٨١] داخل المدينة، لكن [هاغنون Hagnon] الغى الشرط الأخير من البيان، وأقترح أجراء المحاكمة امام ألف وخمسمائة مواطنٍ محلّفٍ. سواء أشاء الادعاء اسناد تهمة السرقة أو الرشوة أو غيرها. وتشفعّ پيركليس باسپاسيا ذارفاً دموعاً غزيرة وترجى المحلفين في أمرها شخصياً، على ما روى [ايسخينوس]، ولكنه عمد الى أخراج اناكساغوراس من المدينة لخوفه عليه[٨٢]، وتأمل فوجد انه لم يفلح مع الشعب في قضية فيدياس خوفاً من أن يتعدّى الاتهام اليه. لذلك استعجل باشعال نار الحرب وكانت خامدة هامدة حتى الساعة أوقد لهيبها مؤملاً بهذه الخطّة أن يضيّع معالم التهم ويبعثر الجهود

(٨٠) هم كما ذكرنا في حاشية سابقة اعضاء مجلس الشيوخ الخمسمائة الذين اصبحوا السلطة العليا في ذلك الزمن.

(٨١) في بعض القضايا الخارقة للعادة، حيث يتطلب من القضاة التمسك بأدق موازين العدالة والشكليات، عليهم ان يتسلموا رقاعهم من فوق مذبح [نبتون] على حد قول هيرودوتس ١٢٨:٨، وعليها يدونون احكامهم أو أن يتناولوا حبات الفاصوليا البيضاء أو السوداء. وما يقصده پلوتارخ من قوله «... وان يجروا المرافعة داخل المدينة» يصعب اعطاء تفسير له إلاّ اذا كان المقصود به الجمعية العامة للشعب كله. امّا الألف والخمسمائة التي جاءت بعد العبارة فربما كان يقصد بها محكمة هلياي، سميت بهذا لأن القضاة يجلسون في الهواء الطلق معرضين لاشعة الشمس. والمحكمة من هذا النوع تتشكل من هذا العدد في الحالات الخاصّة.

(٨٢) كان اناكساغوراس يؤمن بالوحدة الالهية اي بوحدانية الله الحكيم الخبير العليم خالق هذا الكون الجميل من عالم الفوضى. إن كان هذا دين المعلم فلاشك ان الناس سيتنتجون بان التلميذ [پيركلس] على دين المعلمه وانه يرفض فكرة تعدد الالهة السائدة في ذلك زمن. هذا الرفض ينطوى على أعظم الخطر. فقد تبين بعد فترة وجيزة اي في عهد سقراط بأنها عقيدة مهلكة.

في ملاحقتها واسكات تحامل الأعداء والحساد. فالمدينة عادةً تلقى بحملها عليه في الملمات، والخطر ولا تثق بغير قيادته لقوة شكمية وحزمه.

تلك هي مجموعة الأسباب التي دفعت پيركليس، على الاّ يرضى لأهل آثينا بالانصياع الى مقترحات اللقيديمونيين. إلاّ أن وجه والحقيقة فيها غير واضح.

واللقيديمونيون من جهتهم، كانوا يدركون أن بإمكانهم حمل الآثينيين على قبول أية شروط شاؤوها لو نجحوا مرة واحدة في ازاحة پيركليس ولذلك أرسلوا يطلبون منهم طرد «الدنس» الكيلوني Cylon الذي علق بپيركليس من جهة أمّه، كما ذكر لنا [ثوكيديدس][٨٣]. فباؤا بعكس ما أملوا، وبدلاً من وصفهم شخصيته بأنها موضع شكٍّ ونفرة. رفعوا من قدره في نظر مواطنيه وزادوا الثقة فيه، بوصفه اكره الناس الى أعدائهم وأخوف ما يخافون. وأستبق پيركليس غزوة [ارخيداموس] لآتيكا على رأس حلف الپيلوپونيسوس بابلاغه الآثينيين أن ارخيداموس في أثناء أجتياحه البلاد، سيستثنى متعمداً أراضيه من التخريب إما لحقوق صداقتهما والتكريم المتبادل بينهما. وأمّا لإعطاء أعداء پيركليس فرصة للنيل منه بالشبهات. لذلك فهو يهب للدولة كل اراضيه وما عليها من بناء، اللانتفاع العام!

ومالبث اللقيديمونيون وحلفاؤهم أن هاجموا أراضي آتيكا بجيش جرار تحت قيادة [ارخيداموس]. وخربوا ودمروا حتى بلغوا [آخارني][٨٤] وهناك ضربوا خيامهم متوقعين ان الآثينيين لن يحتملوا وسيخرجون لقتالهم دفاعاً عن بلادهم واستنقاذاً لشرفهم، لكن پيركليس ابى أن يتعرض لستين ألف مقاتل من اليلپونيين والبويوتيين - في معركة تنطوي على مخاطر كبيرة قد تؤدي الى ضياع المدينة نفسها، وبذل جهوداً عظيمة في تهدئة المتشوقين الى القتال المستائين المتألمين لما آلت اليه الأمور، ونصحهم بخير الكلام كقوله «الأشجار اذا قلمت أو قطعت لا تلبث أن تنمو ثانية. لكن خسارة الرجال لا تعوض بسهولة». ولم يدع العامة الى الاجتماع، لئلا يرغموه على عمل معاكسٍ لخططه إلاّ أنه كان أشبه بقائد الدفّة البارع أو ملاّح السفينة عندما تثور العواصف الهوج وهو في عرض البحر، يتخذ كل التدابير ويحتاط ويتأكد بأن كلّ شيء هو في محلّه، ثم يتبع ما يمليه عليه علمه وبراعته، ويحصر كل مجالات تفكيره في شأن سفينته، غير ملقٍ بالاً على دموع الركاب المدرارة، ولا على ضراعة المصابين

---

(٨٣) يقصدون افراد الأسرة الألكيمونية التي كانت قد وصمت بوصمة عاد الدم عندما قتل الأرخون ميغاكليس في حدود العام ٦٣٦ ق.م اتباع (كيلون) كفراً منه وتجديفاً. انظر سيرة صولون [ثوكيديدس ١:١٢٦ و١٢٧].

(٨٤) أقليم أخارني وهو أكبر الاقاليم المرتبطة بأثينا يستطيع أن يجند من مواطنيه ثلاثة آلاف مقاتل. وكان يبعد عن المدينة الفاً وخمسمائة خطوة فحسب.

بالخوف ودوار البحر. فاحكم أغلاق مداخل المدينة، وثبت الحاميات العسكرية في كل المواقع السوقية، زيادة في الحذر، متبعاً وحي ضميره ورايه غير مكترث بمن ينتهرونه سخطاً عليه واستنكاراً لخططه. وكان كثير من أصدقائه يلحون بالرجاء وكثير من أعدائه يتهددونه بالويل، ويتهمونه بخطأ ما يفعل. وعمد عدد كبير الى نظم الأغاني وقصائد الهجاء فيه، وراح أهل المدينة يتغنون بها ويذيعونها زيادة في الفضيحة، وكلها تصبّ اللوّم عليه لجنبه في تمشية شؤون القيادة، والتنازل الذليل للعدوّ عن كل شيء.

ومن هاجمه، [كليون Cleon] (٨٥). فقد أستفاد من شعور السخط المتنامي ضدّه، متخذاً من هجومه مرقاة للزعامة، كما بدا من (مخمّس) هرميبرس واليك مصراعين منه:

«أيا ملك المسوخ والهزل! أستبقى أبداً

تستخدم الكلام التافه بدل السيف؟

فبه وحده كنت تدير دفة الحرب

حتى الآن فتزعج آذاننا حتى لكان

تيلس Teles قد جاءت ثانية؟

لو أن أصغر مدية وضعت على المسنّ

ليكون حدّها ماضياً، فانك تصرّف

أسنانك فرقاً كأنك أصبت بضربة كليون النارية

على أن هذا لم يحدث أثراً ما في پيركليس. لم يعبأ قلامة ظفر بتلك التهجمات، بل أحتملها بصبر، وسكت محتسباً عن الإهانات التي صبّوها عليه والتخرصات التي ارادوا بها تشويه سمعته. مضى في خطته قدماً، فبعث بأسطول مؤلف من مائه بارجة الى الپيلوپونيسس وبقى هو في المدينة لتصريف الأمور برقابته المباشرة، الى أن رفع اسپلوپونيسس مضاربهم ورحلوا، على أنه أخذ بتوزيع الأموال العامة وأصدر قانوناً يقضي باعادة توزيع الأراضي الزراعية. وطرد كل أهالي [ايجينا] ووزع اراضيها بالقرعة على الآثينيين، سعياً لإرضاء عامة الشعب المتألم الحانق من الأسلوب الذي اتبعه في الحرب وترفيهاً لهم وتخفيفاً عن شقائهم لما عانوه من الحرب، ورداً للكيل الذي كاله العدوّ لهم،

(٨٥) هو عين [كليون] الذي سخر منه (ارسطوفانس). تمكن من الفوز برتبة الجنرال، نتيجة خطبه وافانينه السياسية.

أجتاح الاسطول الذي أرسله الى البيلوبونيسس قسماً واسعاً من بلادهم وعاث سلباً ونهباً في المدن والقرى، ثم ما عتم أن زحف هو براً على بلاد الميغاريين[٨٦] بجيش وخرّب ودمرّ على هواه، ولو أن ما لقيه [البيلوبونيون] من الآثينيين في البحر، يقل عما لقيه الآثينيون في البرّ منهم، لما أطالوا أولئك من أمد الحرب. بل وسارعوا الى انهائها[٨٧]، وهو عين ما تنبأ به بيركليس وتوقع حصوله لولا تدخل المشيئة الربّانية التي تعمد أحياناً الى احباط مساعي البشر، والإخلال بخططهم.

فالبدرجة الأولى دهم المدينة المرض الوبائي أو الطاعون وراح يقضي على زهرة شبابها وأصلبهم عوداً، وأصاب بعدواه النفوس فضلاً عن الأبدان فعميت البصائر، وساءت الأمزجة، وهبّ الناس كالمجانين المسعورين يصرخون في وجه بيركليس، وراحو كالمصابين بنوبة هذيان يصبون جام غضبهم على طبيبهم المعالج، أو بالأحرى على ابيهم. اذ طفق اعداؤه يروجون بينهم أن سبب الطاعون انما هو ناشيء عن تقاطر أهل الريف الى المدينة وأكتظاظها بهم وأضطرارهم الى العيش مزدحمين في أماكن ضيقة ان استطاعوا الى ذلك سبيلاً، وأنحشروا معاً في منازل صغيرة وأكواخ فاسدة الهواء. في قيض الصيف، وبقوا يعيشون داخلها عيشة التعطل والخمول بعد أعتيادهم العيش في الهواء الطلق النقيّ، وكان الحديث العام: إن الحرب التي اثارها هو، كانت السبب والعلّة في تكالب العدد الضخم من المتعطلين في عملٍ ما وابقائهم مكدسين تكديساً كالبهائم تفتك بهم العدوى دون أن يهيء لهم أسباباً للانتقال أو الوقاية.

اراد بيركليس أيجاد حلٍّ لهذه المآسي واصابة العدوّ بشيء من القلق، فأعد مائة وخمسين[٨٨] بارجة وأصعد اليها قوات كبيرة من المشاة والخيالة المجربين وتهيأ للأبحار، مُفسحاً للأمل سبيلاً الى نفوس مواطنيه، باعثاً الخوف والفَرَق في نفوس أعدائه بهذه القوة الضخمة. وبعد أن سد كل بارجة حاجتها من الرجال وصعد بيركليس سفينته، شاءت الصدف أن يقع كسوف[٨٩] شمسيّ فاكفهر الجو وساد الظلام فجأة فتطيّر الجميع واعتبروه دليل نحسٍ

(٨٦) جرّد حملته في الخريف بعد انسحاب اللقيديميين [ثوكيديدس ٢:٣١].

(٨٧) في الواقع عدلوا عنها وعادوا الى سپارطة. إلاّ ان ارخيداموس عاد في السنة التالية وان لم يلحظ پلوتارخ ذلك. وفي اثناء هذه الهجمة الثانية انتشر الطاعون في العام ٤٣٠ ق.م [قارن توكيديدس ٢:٤٧-٥٤] الذي يصفه وصفاً دقيقاً ويقال انه جاء من بلاد الجيشة ونشر دماراً تاماً وهو في طريقه.

(٨٨) كان قوام الحملة مائة سفينة آثينية استوعبت اربعة آلاف مقاتل. ولحق بها سفن نقل كانت تحمل الخيول. كما كان ثم خمسون سفينة أخرى من خيوس وليسبوس [ثوكيديدس ٢:٥٦].

(٨٩) هنا أيضاً يخلط پلوتارخ بين حملتين والكسوف انما وقع في مبدء الحملة الأولى (ثوكيديدس ٢:٢٨).

عظيم. والتفت پيركليس فرأى قائد دفة سفينة يتملكه الرعب والحيرة لايدري ما يفعل مما كان منه الاّ ان رفع عباءته ونشرها وهي مفجوجة امام وجه الملاح فحجب نظره «أيرى في هذا الستر بأساً أو أي اشارة الى ضرر محتمل؟ «فأجاب الرجل بالنفي. فقال پيركليس «فكيف اذن وبأية صورة يختلف هذا الحجاب، عن احتجاب الشمس إلاّ بأن الذي سبّب الظلام هناك أعظم من العباءة»، هذه حادثة كان الفلاسفة يروونها لتلاميذهم.

ومهما يكن لم يقم پيركليس على ما يبدو بمأثرة بحرية تستحق الذكر وتوازي استعداداته الكبيرة، عند الحلاقه ذلك الأسطول. ثم انه القى حصاراً على المدينة المقدّسة [إپيداروس Epi-daurus][٩٠] ولما ظهر ما يدل على قرب استسلامها له، تفشىً المرضى بين جنوده فقضى على أمله، ولم يصب الداء الآثينيين وحدهم بل سرت عدواه الى كل من كان على صلة بالجيش. أخيراً وجد أن صبر الآثينيين قد نفد، وروحهم بلغت التراقي. فبذل جهوداً جبارة في تهدئتهم وتقوية عزائمهم فكان كمن يضرب في حديد بارد[٩١]، وعجز عن ازالة سخطهم أو أرضائهم ولم تنجح أي حيلة معهم. والقوا بأصواتهم جميعاً ضده، وأستعادوا سلطتهم منه ونحوّه عن القيادة مع تغريمه مبلغاً من المال، أقلّ ما قدّره المؤرخون بخمسة عشر تالنتاً، وأكثر ما ذكروه خمسون، ويحدثنا [ايدومينيوس Jdomeneus] أن المدعي وصاحب الشكوى كان (كليون)، وإن [سمياس Simmios] يتأثر في ذلك خطى [يثوفراستوس]. اما هيراقليدس پونيتكوس فهو يتفق مع [لاكراتيداس Lacratidas] في مقدار الغرامة.

بعد هذا اشغلت الاضطرابات العامة الناس عنه، أو بعبارة أخرى أفرغ الشعب سمّ حنقهم كله في الضربة التي وجهت له، وحلّف حمته في مكان اللسعة، وتركوه لشأنه . إلاّ ان أحواله العائلية كانت أسوء ما يخطر بالبال. فكثيرٌ هم أصدقاؤه ومعارفه الذين قضوا بالوباء. أما أعضاء أسرته فكان التنابز والتباغض ينهش فيهم، ورفع جميعهم ما يشبه راية العصيان عليه؛ كان ابنه الشرعيّ البكر [كزانيتپوس] متلافاً سفيهاً بطبعه؛ وزاد من سوء حاله زواجه ببنت [تيساندر Tisander] ابن [اپيليكوس Epilycus] الغريرة المسرفة وكان يشكو مرّ الشكوى تقتير أبيه عليه ومنحه مرتباً تافهاً لا يدفعه له إلاّ باقساط زهيدة. وفي أوقات متباعدة. وبسبب ذلك بعث الى صديقٍ يوماً يطلب اقراضه بعض المال باسم ابيه، زاعماً أنه

(٩٠) في آركيا. كرست لـ(اسكولاپيوس) ويصفها پلوتارخ بالمقدسة ليفرقها عن بلدة أخرى في (لاقونيا) بالاسم عينه. لم يأت (ثوكيديدس) الى ذكر هذه الفاجعة، لكنه يقول ان پيركلس فشل في محاولاته تلك لا في [اپيداروس] وحدها بل (طروزين) و(ايرميوني) وغيرها ولم يستدل الاّ على (پروسيا) وهي بليدة بحرية في لاقونيا.

(٩١) حفظ لنا ثوكيديدس (١١:٦٠-٦١) خطبته بهذه المناسبة.

فعل ذلك بأمرٍ منه. وأقبل الدائن على پيركليس يطالب بدينه، فامتنع هذا عن الدفع فاقام عليه الدعوى. ووقعت الإهانة على الابن وقعاً شديداً وتحلل من قيود البنوة وراح يندّد بأبيه علناً وأخذ يتندر في مبدأ الأمر بقصص عن أحاديث ابيه في مجلسه ومناقشاته مع السوفسطانيين كذكره مثلاً: كيف أن واحداً ممن كان يجيد الألعاب الخمس المفضلة، قتَلَ [ايپتيموس Epitimus] الفارسالي Pharsalion بطعنة رمح أو خِطيّ من دون ان يدري ما فعل، وخلافاً لارادته وكيف قضى ابوه خمسة أيام في نقاش جدي مع [پروتاغوراس Prota-goras][٩٢] في أيّهم المسؤول عن القتل: ألرمح؟ أم الرجل الذي قذفه أم اساتذة اللعبة المؤسسون لهذه الألعاب، وذلك بحسب أسلم المباديء العقلية وأقربها الى المنطق.

وكذلك يذكر لنا [ستسبمروتوس] أن [كرانتيپوس] هو الذي روج بين الناس تلك القصّة الشنعاء عن علاقة زوجه بأبيه. وعلى العموم ظلّت القطيعة بين الأب والابن ولم يرأب الصدع حتى موت الابن باول موجة وباء الطاعون. وفي غضونه أيضاً فقد پيركليس أخته ومعظم خلانه وأقربائه ومن أقرب الانصار له في شؤون الحكم وأنفعهم. وعلى كلٍ بقي عزمه لم يهن ازاء هذه الصدمات، ولم يبد ضعفاً أو يفضح مشاعره وظلت معنوياته عالية، وفكره ثاقباً ولم تنل منهما تلك النكبات. ولم يُر باكياً أو محزوناً، أو يحضر دفن أيّ من أصدقائه أو أقربائه، حتى ثكل ابنه الشرعي الثاني وهو الواحد الباقي. فخارت قواه لشدّة الضربة، ومع ذلك حاول التصبّر، والتجلدّ، الى أن حَلّ يوم قيامه بشعائر التشييع، فتغلّبت عليه العاطفة أمام منظر فقيده، عندما قام بضفر أكليل الزهر على الرأس، فصرخ صرخة أليمة. وتفجرّ دمعه الحبيس وسال حاراً على خديه. تلك هي المرّة الوحيدة التي أبدى فيها مثل هذا الضعف سائر حياته.

بعد أن أخذت المدينة تختبر القادة العسكريين الآخرين، لغرض مواصلة الحرب، وتعجم عود الخطباء لغرض اناطة شؤون الدولة بهم، وعندما تبين لها أن ليس فيهم من يضاهيه أو يعدله، ولا من يجاريه في الحزم والبراعة في الحكم بما يكفي لائتمانهم على واجبٍ له مثل هذا الوزن من الخطورة؛ انتابها أسف شديد لخسارتهم الفادحة به، وعزمت عليه أن يعود مرة أخرى ناصحاً لها وخطيباً، وقائداً كما كان.

وكان اذ ذاك منزوياً في بيته حزيناً كاسف البال. وأفلح [الكيپيادس Alcibiades] وغيره من الأصدقاء باخراجه من عزلته، والظهور للشعب، فما كاد المواطنون يرونه حتى أظهروا

(٩٢) پروتاغوراس من ابديرا تلميذ ديموقريطس. كان اذكى وابرع سوفسطائيي زمانه. الف خلال فترة نشاطه الذي دام اربعين عاماً. أكثر مما انتجه [فيدياس] المثال. وأثر عنه الالحاد لقوله «ليس ثم شيء مؤكد حول وجود الآلهة أو طبيعتها».

عرفانهم بجميله وأعتذروا له عن معاملتهم الظاهرة له، فتسلّم شؤون الدولة مجدداً. وعندما انتخب جنرالاً، كان أول عمل قام به الغاء القانون الخاصّ بالأطفال غير الشرعيين. وكان هو الذي تسبب في سنه، كي لاينطفي اسم أسرته ونسبه بعد موت وارثه الشرعي الوحيد وحكاية سن هذا القانون تعود الى الزمن الذي بلغ فيه پيركليس أوج عزته وسلطانهُ غير محرومٍ من الاولاد الشرعيين، فأقترح سنّ قانون لايحمل صفة المواطنة بمقتضاه إلاّ من ولد من أبوين آثينيين[٩٣]. وعلى أثر ذلك أهدى ملك مصر اربعين ألف بوشلٍ من القمح لتوزع على المواطنين الآثينيين. مما أدّى الى اقامة دعاوى وقضايا اثبات نسبٍ لايمكن احصاؤها. وهي قضايا لم تكن معروفة حتى ذلك الحين، لعدم أهميتها. وعانى كثيرون الأمرّين من التلفيق والتزوير، وناهز عدد المحكومين بذلك. الخمسة آلاف وبيعوا في سوق النخاسة عبيداً جراء ذلك[٩٤]. أمّا عدد من اجتاز هذه المحنة وأثبتوا مواطنتهم الآثينية الحقّة فقد تبين عند الاقتراع أنه يبلغ اربعة عشر الفاً واربعين مواطناً[٩٥].

يبدو من الغريب أن يلغى مثل هذا القانون، بعد تطبيقه على هذا المدى الواسع، ومن الأغرب أن يلغى بمسعىً من الرجل الذي الحّ في سنّه. على ان المصيبة التي قصمت ظهر پيركليس والحزن الذي أبتلى به لفجيعته بأسرته كان لهما أثرهما اللبات في تحطم كلّ معارضة والشفاعة له عند الآثينيين. وأشفقوا عليه شفقة ذلك الرجل الذي عوقب على غطرسته وتعاليه عقاباً كافياً بشكله ومعاكسة الأقدار بالمصائب، ووجدوا أن آلامه تستحق رثاءهم، بل تستحقّ منهم الندم على ما أتوه بحقه، وبدأ رجاؤه بالغاء القانون في نظرهم، مجردّ طلب يعرضه رجلٌ ويستجيبه رجال وسمحوا له بقيد ابنه في سجلّ الأخوية، وبمنحه اسم أسرة پيركليس. هذا الابن قتله الشعب الآثيني مع زملائه القواد[٩٦]، بعد أن حقق انتصاره على [الپيلوپونيين] في [أرغينوسيه Arginusea].

(٩٣) بحسب قول پلوتارخ في مفتتح سيرة تمستوكليس، ان هذا القانون سُنّ قبل ان يتولى پيركلس الحكم ولعلّ هذا تشدد في تطبيقه بسبب روح العداء لكيمون الذي كان من اولاد انصاف آثينيين.

(٩٤) ان عدم شرعية الاولاد لا تجعلهم في مرتبة الرقيق. وانما تدرجهم في عداد الغرباء.

(٩٥) عدد قليل جداً في الواقع. عندما كانت آثينا تفكر في بناء مستعمرات لها، واخضاع جيرانها. وقهر الشعوب الأخرى.

(٩٦) في السنة السادسة والعشرين للحرب كان الآثينيون قد عينوا عشرة قواد لادارة الحرب وبعد ان انتصروا حوكموا وحكم على ثمانية منهم بالموت نفذ بحق ستةٍ منهم في الحال (منهم ابن پيركلس غير الشرعي) كانت الجريمة الوحيدة التي ادينوا بها هي انهم لم يقوموا بدفن قتلى المعارك. حصل هذا زمن أرخونية (كاللياس) في السنة الثالثة من الاولمپياد الثالث والتسعين اي بعد ٢٤ سنة تقريباً من وفاة پيركلس ويعرض كزنيفون في كتابة (الهلينيات Hellenies) وصفاً مفصلاً لما حصل. كان الفيلسوف سقراط في تلك الفترة، واحدة من قضاة (الپريتان) لكنه رفض رفضاً باتاً ان يتولى مباشرة وظيفته.

في الزمان الذي جرى به تسجيل الأبن، أصيب بيركليس بالوباء على ما يبدو، ولم تكن اصابته صاعقة حادة كالآخرين، وإنما جاءته بصورة خفيفة هادئة وأخذت تستفحل شيئاً فشيئاً وكان يعتورها كثير من النكسات والتقلبات، وأخذ الداء يخترمه إختراماً ويذهب بقواه ويقضي على مداركه الروحية العقلية، ففي كتاب القوى الأدبية Moralia » لبثوفراستوس. تجد فقرة عن حالة بيركليس المرضية عند بحث الكاتب عن مسألة تغيّر مدارك الناس بتغيّر ظروفهم، وعاداتهم الخلقية، وهل أن أمراض البدن يوقع فيها الخلل فيظهر على تصرفاتهم انحراف عن قواعد السلوك العامة. فقد دوّن ذلك الكاتب ان بيركليس كان يعرض على عائديه تعويذة أو «حجاباً» علقته نساء بيته في عنقه ليقيه السوء. كأنما اراد الكاتب القول ان بيركليس قد بلغ به المرض وضعاً خطيراً، بدليل إعتقاده بسحر هذه التعاويذ الحمقاء.

ولما حانت ميتّتهُ، لازمه نخبة من أصدقائه المواطنين ممن بقوا على قيد الحياة، وراحوا يلهجون بعظمة مآثرة ويثنون على أعماله الشهيرة، معددّين انتصاراته العسكرية. اذ أقام ما لا يقلّ عن تسعة أنصاب نصر، تشريفاً للمدينة التي تولى قيادتها وقهر أعداءها. واصلوا أحاديثهم فيما بينهم أعتقاداً منهم أنه لايعي ما يذكرون ولا يفهمه لاشتداد وطأة العلّة عليه. إلاّ ان سمعه كان يتابع ما يقال فقاطعهم هنا قائلاً: انه ليستغرب مديحهم، وتقليد الثناء لأمور كان للحظّ دور رئيس في تحقيقها ولم يكن القائد الوحيد الذي أسعدته الصدف بانجازها وان أمثاله لكثيرون. على أنهم نسوا أن ينوّهوا بأعظم مأثرة وأعزّها جانباً... «فبمجهوداتي لم يلبس الحداد آثينيّ واحدٌ».

حقّاً أن بيركليس شخصيّة تستأثر منا بأشدّ الأعجاب. لا لهدوء طباعه وعفّتها، وهو الخلق الذي ظلّ يلازمه في معظم حياته، وفي مجابهة الخصومات العديدة الشديدة التي واجهته خلالها، بل للمعنوية العالية، والروح السامية التي جعلته قادراً وهو يزاول سلطاته الضخمة، على قمع كل عاطفة، انتقامية واشفاء غليله من أي خصم، وكبح نفسه عما تريد. ولم يعامل أي عدوّ معاملة من لا يمكن التفاهم أو المصالحة معه. ويظهر لي شخصياً، أن هذه السجيّة وحدها، تفسّر بسبب تلقيبه بالاولمپي، ذلك اللقب الصبياني الفخم! فطبيعة بمثل هذه الرقة، وحياة خلت من هنوات العاطفة وهي في أوج سلطانها وارفع منزلتها، لتستأهل لقب «الاولمپي»، هذا بحسب مفاهيمنا عن الكائنات الالهية التي نعزو اليها سياسة العالم وحكمه بوصفها الفاعلة لكلّ ما هو خيرٌ، وبعدها عن كلّ فعل شرٍ. خلافاً لما يقول الشعراء، فهؤلاء يضللوّنا بخيالهم الجاهل الأخرق الذي يفضحه شعرهم الكاذب، فيسمون دار الأرباب منزلاً هادئاً مطمئناً آمناً من أي خطرٍ أو مفاجأة لاتزعمهم فيه الريح ولا الغيوم يشع منهم على حدٍّ

سواءٍ وبصورة دائمة نور نقيّ صافٍ رقيق. منازلُ أكثر ملائمة للطبيعة الخالدة المباركة، يقولون هذا في الوقت الذي يؤكدون أن الآلهة كثيرة المتاعب لا تخلص من العداوات والبغضاء وغير ذلك من العواطف التي لاتلائم أو تليق بأقل الناس عقلاً وادراكاً... لكن ربّما كان هذا الموضوع أليق للمعالجة والشرح في فرصة مناسبة أخرى.

إن السبيل الذي سلكته سياسة الدولة العامة بعد موت پيركليس سرعان ما كشفت عن مدى الخسارة به[٩٧]. فالحاقدون على ما ناله من سلطان في حياته، التي كسفت شمس حياتهم، راحوا بعد تركه المسرح السياسيّ يجربون الكثير من الخطباء والزعماء الشعبيين، ليدركوا أنه كان المفرد العلم، وانه لن يقوم مثل له بطبعه وسلوكه، ولن يجدوا شخصاً أكثر أعتدالاً منه، وأوسع إدراكاً وهو في أعلى درجة من سلطانه. ولا أكثر منه رزانه ومثاراً للأعجاب في رقتّه وحنانه. وبدت لهم تلك السلطة الفردية التي أطلقوا عليها قبلاً «حكم الطغيان، والفردية المطلقة»، وكأنها القلعة الرئيسة لسلامة البلاد. ومهما بلغ عظم الفساد، وما نجم بعده من أضطراب وشرور، فقد أفلح في ستره باضعافه وقمعه، وبذلك منعه من بلوغ مرتبة الداء العضال الذي لايمكن البرء منه، وكان سبيله الى ذلك الغفران والصفح الرفيق.

أهم الأحداث في زمنه (ق.م)

٤٤٠ أخضع ساموس التي ثارت على الآثينين.

٤٣٩ بدأت الحرب بين كورنث وكوركيرا.

٤٣١ يصير الحرب البِليپونيس التي دامت ٢٧ سنة ـــ فترة من هُوَل.

٤٢٩ يموت بعد حكم آثينا ربع قرن.

(٩٧) توفي في السنة الثالثة لبدء الحرب البيلونية في ٤٢٩ ق.م.





وجها قطعة نقدية (٢٩٣ ق.م)

فابیوس ماکسیموس

FABIUS (Maximus)

(Cunctator)

275 – 203

بعد أن سردنا سيرة وأعمال پيركليس العظيمة، يتقدم تاريخنا بنا الى سيرة [فابيوس] وجده الأعلى ابن [لهرقل] وحورية أو امرأة من نساء تلك البلاد ولدته على ضفاف التيبر، وكان أوّل فابيوس من تلك الأسرة الشهيرة الكبيرة العدد[١] وعميدها. ويقول آخرون أن لقبها الأول كان [فودي Fodii] لأن أوّل اعضاء الأسرة كانوا مغرمين بحفر النُقر لايقاع الوحوش وصيدها. وكلمة Fobese المرادفة لكلمة [حَفَر] ما زالت مستعملة في اللاتينية. وذلك Fos-sa أي خندق. ويتعاقب الزمن استبدل الحرفان فأنقلب الأسم الى [فابي Fabii][٢]. وسواء في ذلك أكان الأمر صدقاً أو كذباً، فالثابت أن هذه الأسرة انجبت عدداً كبيراً من أبرز الرجال. وفابيوسنا هنا، هو الجيل الرابع المنحدر من [فابيوس روللوس Rullus][٣] الذي كان أول من قلد الأسرة شرف اضافة لقب [ماكسيموس] اليها؛ ويلقّب فابيوس كذلك بـ[ڤيروّكوسوس Verrucosus] لثؤلولة في شفته العليا، ولقب أيضاً في حداثته [بأوڤيكولا Ovicula] أو الحَمَل بسبب وداعته المتناهية. وكان ثقل لسانه وبطئه وتعسّره في التعلّم، وتردده في مشاركته الأولاد الآخرين العابهم، وخضوعه وسهولة انقياده لأيّ انسان كأنما لايملك ارادة خاصة جعلت أولئك الذين تغرّهم المظاهر السطحيّة منه، وهم الأكثرية الغالبة، يحكمون عليه بالغباء والبلادة. في حين تبنيت أقلية الناس أن تثاقله هذا نابع عن الرصانة والثبات،

---

(١) ليڤي [١١:٥٠، ١٦، ٢١] هذه الأسرة اضطلعت كلها بالحرب ضدّ الفييدسنثيين في العام ٤٧٧ ق.م. فقد بعثت بستة وثلاثمائة من المقاتلين كلهم يحمل اسم «فابي». وقد قتلوا جميعاً وتعود شهرة الأسرة الى اعضاء فيها تقلدوا أعلى المناصب في الدولة، ومنهم اثنان تولى كل منهما منصب القنصل ست مرات.

(٢) پليني [تاريخ الطبيعة ١٨:٣] يرد الاسم الى صفةٍ فيقول انهم كانوا بالاصل من ابرع زارعي الفاصوليا Fabae!

(٣) او روتليانوس [پليني: المرجع السالف ٨:٤] تولى القنصلية خمس مرات وحقق انتصارات عديدة هامة على السامنيين والتوسكان وغيرهما من الشعوب. إلاّ ان لقب مكسيموس (العظيم) الذي لصق به لم يكن سببه ما ذكرنا. بل ناله ايام كان چنسوراً (محتسباً) اذ جمع كلّ قبائل روما باربع فقط. وكان سكان المدينة قبلها متفرقين بين القبائل بصورة عامة. وقد ضمن له هذا السلطة العليا في الجمعيات الشعبية [ليڤي ٩:٤٦]. وقد سميت المجموعة بالقبائل الحضرية Tribus Urbana تقابلها القبائل الفضلى Tribus Rusti-cus وهي تعيش عادة في الريف.

وتوضحوا قوة ذكاءٍ، وإرادة لها إقدام الأسد في ذلك. وما أن بلغ مرحلة العمل حتى برزت مواهبه وظهرت على حقيقتها، ووَجَد الناس عموماً أن ما عرف به من أفتقار الى الحيوية إنما هو التحرر من العاطفة. وثقل لسانه وبطء حركته، نتيجة للحكمة الحقّة. وأفتقاره الى السرعة، وتثاقله هما اية الاستمرارية والصرامة فيه.

وبعيشه في جمهورية عظيمة يحيط بها اعداء كثيرون، رأى من الحكمة أن يعوّد جسمه على التمارين العسكرية، ليشتّد عوده بسلاح الطبيعة الوحيد هذا. كما أخضع لسانه لنظامٍ يتسق ويتسع لحياته وخلقه، مدرباً أياه على فن الخطابة الجماهيرية. ولم يكن في بلاغته الكثير من التنميق الشعبيّ المبتذل ولا تلك الصناعة الفارغة بل كان فيها قدر كبيرٌ من الحسّ والشعور. قوية عقليّة شبيهة بأسلوب [توكديدس]. وما زال موجوداً الى الآن خطاب تأبينه بمناسبة موت أبنه الذي قضى نحبه قنصلاً. وكان قد ألقاه أمام الجمهور.

تقلد منصب القنصلية خمس مرات(٤). وكان له شرف الدخول في موكب الظفر اثناء فترة قنصليته الأولى للانتصار الذي اجرزه على [الليغوريين Ligurians](٥) في معركة فاصلة، ودفع بهم الى مجاهل جبال الألب. ومنذ ذلك الحين لم يعودوا يغيرون، أو يغزون جيرانهم. وبعد هذا أغار [هنيبعل](٦) على ايطاليا وكان عند دخوله قد فاز بمعركة عظيمة بالقرب من نهر [تريبيا Trebia] وأخترق توسكانيا بعد ان دوّخها بجيشه الظافر مخربّاً كل البلاد المجاورة، ومالئاً روما نفسها بالذهول والرعب. وزاد من قلق الأهالي وخوفهم بعض الظواهر الطبيعية من الرعود والبروق الفائقة للعادة، وانباء عن حصول خوارق غريبة جداً وغير مسموع بمثلها. فقد قيل أن بعض التروس عرقت دماً، وان عدداً من آذان أهالي [آنتيوم] امتلأت بالدماء اثناء قيامهم بحصاد القمح. وان السماء أمطرت حجارة محمّرة من شدة الحرارة، وان الغاليريين شاهدوا السماء وقد أنشقت وسقطت منها رقوق كُتب على أحدها بصورة واضحة «لقد رفع مارس سلاحه»(*) الاّ أن هذه الخوارق لم يكن لها تأثير على القنصل [فلامينيوس](٧) المتهوّر الأهوج الطبع الذي ارتفعت درجة اندفاعه عالياً بانتصاره الأخير

(٤) اول قنصلية له كانت في ٢٣٢ ق.م أو في ٢٣٤ على قول ليڤي [١٧:٢٢] والخامسة تولاها في العام ٢٠٨ ق.م. وقد مضى على الحرب الفونية الثانية، عشرُ سنواتٍ تقريباً. اما قنصلياته الثلاث الأخرى فكانت على التوالي في الأعوام ٢٢٧ و٢٢٤ و١٩٣ ق.م.

(٥) الليغوريون سكنوا الساحل الممتد من نهر جنوا حتى موناكو في فرنسا.

(٦) دخل هنيبعل ايطاليا في ٢٢٧ ق.م حسب زعم ليڤي (٣٨:٢١) اثناء قنصلية كورنيبليوس سكيپيو وسميرونيوس لونگوس. ودحر أولهما في معركة تيجينوس، قبل ان يهزم ثانيهما في معركة (تريبيا).

(*) Mauors telum Suum Concutit (ليڤي ١:٢٢).

(٧) يصوره [پوليبيوس ٣] رجلاً ذرب اللسان شديد الكبرياء لكنه فاشل كجنرال. فقد كان واثقاً من النصر =

غير المتوقع على الغاليين، أذ حاربهم خلافاً لأوامر مجلس الشيوخ ونصح زميله. ولك يجد فابيوس الاشتباك مع العدّو ينطوي على حكمة - من الجهة الأخرى، لا لأنه كان يعلق مزيداً من الأهتمام على الخوارق(٨) التي كان يراها أشدّ غرابة من امكان فهمها بسهولة، بل لأنه كان يرى القرطاجنيين قليلي العدو يفتقرون الى المال والتجهيزات، فوجد أن خير ما يعمله هو تحاشي الدخول في معركة ضدّ قائدٍ عجم القتال عود جيشه، وبلته المعارك العديدة فلا غاية له الاّ دخول المعركةٍ، بل أن يرسل العون الى حلفائهم، والسيطرة على حركات مختلف المدن الخاضعة وترك قوة اندفاع هنيبعل تتضاءل وتضعف وتنطفيء كاللهب بالافتقارها الى الوقود.

لم تفلح هذه الأسباب الوجيهة في [فلامينيوس] الذي احتجّ قائلاً انه لم يسمح بتقدم العدوّ الى المدينة، ولن يكون مضطراً بالأخير الى الدفاع عن روما من خلف أسوار روما، كما فعل [كاميللوس] في الماضي. وبناء على هذا أمر قادة الفرق بوضع الجيش على خطّ القتال. تأهباً للمعركة، وخرج هو يريد ركوب جواده، وما قفز على صهوته حتى أصيب الحيوان بنوبة هياج لا يعلم سببها ورمح براكبه فسقط فلامينيوس على الأرض، إلاّ أن هذه الإشارة لم تثنه عن عزمه وأستمر في تطبيق خطته وزحف عن هنيبعل الذي كان قد تمركز قرب بحيرة [ثراسيمينه Thrasymene] في توسكانيا وفي لحظة التقاء الجمعين حدثت هزة أرضية دمرت عدة مدن وغيرت مجاري الأنهار وجرفت أطنافاً جبلية عالية ولفرط لهفة المتحاربين الى القتال لم يشعروا قطّ بشيء منها.

وسقط [فلامينيوس] في هذه المعركة صريعاً بعد أن قدم كثيراً من الدلائل على بسالته وأقدامه. وسقط حوله أشجع المحاربين في الجيش، وبلغ مجموع القتلى الكلي خمسة عشر ألفاً. وأسر مثل هذا العدد(٩). ورغب [هنيبعل] في أن يضفي على جثمان [فلامينيوس]

= الى الحدّ الذي كان يوجد في جيشه من العبيد المعيدين بالسلاسل أكثر من الجنود. أحرز هذا النصر في ٢٢٤ ق.م في حين كان اندحاره المتوقع جداً متأتياً من أسباب ثلاثة: فأوّلاً كان جيشه أقل عدداً من جيش عدوه، وثانياً انه أهمل عمل الاستخارات ورفض قراءة الرسائل الواردة اليه من مجلس الشيوخ ولم يفضها إلاّ بعد ختام المعركة. وثالثاً وزّع قواته للمعركة بصورة لاتتفق وأصول الفنّ الحربي. إلاّ ان براعة بعض ضباط ركنه صحح تلك الاخطاء [انظر پوليبيوس: ٢، وليڤي ٢٠: ٤٩].

(٨) لم يكن [فابيوس] زميلاً لـ(فلامينيوس] هنا وانما كان سرڤيليوس جمينوس.

(٩) مع أن هنيبعل نال نصراً ساحقاً إلاّ انه ترك الفاً وخمسمائه قتيل بعضهم مات بعد المعركة متأثراً بجراحه [ليڤي ٢٢:٦]. لقد جرّ الرومان الى كمين نصبه لهم بين مرتفعات كوردتوما وبحير ثراسيمينه. ويتفق پلوتارخ مع ليڤي حول عدد قتلى الرومان الاّ انه يجعل عدد الأسرى ستة آلاف. في حين يؤكد [پوليبيوس] ان العدد أكثر من هذا بكثير. نجا من الرومان حوالي عشرة آلاف كان معظمهم مثخناً بالجراح واتجهوا صوب روما. إلاّ ان أغلبية الجرحى سقطوا موتى على قارعة الطريق. ولفظت والدتان انفاسهما لغلبة عاطفة الفرح عندما شاهدتا ولديهما يدخلان المدينة. =

مراسيم التشييع التكريميّة، فقام ببحثٍ مضنى عنه، ولم يجده بين القتلى ولم يعرف مصيره. في المعركة السابقة التي جرت قرب [سِّريبيا] لم يستعمل القائد الذي كتب التقرير عنها، ولا المراسل الذي نقل نبأها، عبارات صريحة واضحة المفهوم(١٠)، ولم توصف بأكثر من معركة غير فاصلة تساوت فيها خسائر الطرفين. ولكن الأمر كان مختلفاً في هذه المعركة اذ ما أن وصلت انباؤها الى البريتور [پومپونيوس Pomponius] حتى جمع الناس وقال لهم بصراحة دون أن يحاول التغطية والمواربة: «أيها الرومان! لقد غُلبنا في معركة عظيمة(١١)، القنصل فلامينيوس قد قتل، وعليكم أن تفكروا فيما يجب عمله لسلامتكم».

فكان كمن فتح بأنبائه باباً لريح شديدة على البحر، فماجت المدينة وعمتها فوضى تامة. في هذا الموقف العصيب لم تجد أفكارهم شيئاً ثابتاً تستقرّ عليه. وايقظهم الخطر الداهم أخيراً، فهداهم تفكيرهم افي اتخاذ قرار بتعيين [دكتاتور] قد يتمكن من تصريف الشؤون العامة بسلطة منصبه المطلقة، وبحكمته الخاصة وشجاعته، ووقع اختيارهم بالاجماع على [فابيوس](١٢) الذي بدا خلقه جديراً برفعة المنصب، وعمره متقدم به الى الحَدّ الذي يمنحه الخبرة المنشورة، دون ان يجرده من النشاط وقوة العمل، وجسمه قادر على تنفيذ ما تختاره نفسه، وطبعه هو مزيجٌ منجانسٌ من الثقة والحذر.

بعد أن ثُبِت فابيوس في منصب الدكتاتور، قام أولاً بتعيين [لوشيوس مينوشيوس Lucius Minucius](١٣) قائداً للخيالة، ثم طلب من مجلس الشيوخ الأذن لنفسه بأن يوجه القتال في الميدان وهو ممتط حصانه. وهو ما كان محظوراً على القواد العسكريين الرومان بمقتضى قانون قديم. إمّا لأنهم يضعون كل قوتهم في مشاتهم، فيبقون قوادهم العامين معهم. وإمّا ليُذكر القواد دائماً أنه مهما بلغت سلطتهم من الرفعة. فالشعب ومجلس الشيوخ ما زالوا أسيادهم، ومنهم يتلقون الأوامر والأذون. وعلى أية حال ففابيوس عَمد الى احاطة نفسه بفصل كاملٍ من

= وسقط (فلامينيوس) صريعاً. جندله غاليّ يدعى [روكاريوس] بعد ان فتك بضابط ركنه الذي حاول عبثاً أن أن يحمي قائده.

(١٠) كتب سمپروتيوس الى مجلس الشيوخ معتذراً بسوء الطقس عن عجزه على تحقيق النصر (پوليبيوس ٣).

(١١) ليڤي: المرجع نفسه ٧. يقول أن الأمر اليومي الذي أصدره الجنرال لم يكن يزيد عن هذه العبارة «أيها الرومان، أننا خسرنا معركة عظيمة».

(١٢) لايمكن لأحد ان يتولى سلطات الدكتاتور أو يمنح هذا اللقب غير القنصل. ولما كان القنصل الباقي (سرڤيليوس) على رأس جيشه فقد قام الرومان بتعيين [فابيوس] نائباً للدكتاتور [Prodictator] بمبادأة خاصّة وسلطان وتجلى عرفان روما للجميل انهم سمحوا لذريته من بعده بوضع لقب دكتاتور بدلاً من برودكتاتور ضمن قائمة القابه (ليڤي ٢٢:٨ و٣١].

(١٣) پوليبيوس وليڤي [المرجعان السالفان] يثبتان اسمه [ماركوس مينوشيوس روفوس Marcus Minucius Rufus. ولم يعينه (فابيوس) بل اختاره العموم.

الكتور قوامه اربعة وعشرون يلازمونه بمثابة حرس شخصيٍ ليجعل سلطة واجبه أكثر ظهوراً وبروزاً، والشعب أكثر خضوعاً وطاعة. وعندما يأتي القنصل الباقي لزيارته يبعث يطلب منه صرف حرسه، مع [فاجيانهم] اي سلاحهم أي أن يتجرد من مظهر السلطة ليظهر أمامه شخصاً عادياً.

وأول عملٍ هام قام به بعد توليه منصب الدكتاتور، كان عملاً دينياً منسجماً تماماً مع الوضع: فقد أصدر بياناً تأنيبياً للشعب ذكر فيه أن هزيمتهم الأخيرة لم يكن سببها افتقار جنودهم الى الشجاعة بل الى إهمالهم شعائرهم الدينية عموماً. وحثّهم على أن يطرحوا كلّ خوفٍ من العدوّ ولم يفعل ذلك بقصد اشغال عقولهم بالاوهام بل لرفع معنوياتهم واستخدام الشعور الديني لبث الشجاعة في نفوسهم وتقليل خوفهم من العدو، والايحاء اليهم بأن السماء تقف في صفهم وعلى هذا الأساس قرر استخارة النبوءات السريّة المعروفة «بكتب كيبيل»، فوجد فيها على ما قيل مختلف النبوءات التي تشير الى أحداث الزمن وتقلبات حظوظه، المقبلة ولكن يحرم عليه أن يكشفها للناس.

ومن ثمّ خرج الدكتاتور الى الشعب ونذر أمامهم قرباناً، يقدم فيه كل نتاج الموسم القادم في ايطاليا كلها، من بقرٍ وماعزٍ وغنم وخنازير في الجبال والسهول وتعهد باقامة الاحتفالات والمهرجانات الموسيقية على أن ينفق عليها مبلغ حُدّد بـ٣٣٣ سِسترتيا Sestertia و ٣٣٣ ديناريوس وثلث ديناريوس[١٤] لا غير، وهو يعادل بعملتنا ٨٣٥٨٣ دراخماً وأوبولين. ويصعب علينا معرفة السرّ في تحديد المبلغ بهذا الرقم، إلاّ اذا كان إكراماً للعدد «٣» لأنه أول الأعداد الوترية، وأول رقم يحوي بذات نفسه مصدراً للاعداد، وبكلّ الصفات التي تعود للاعداد عموماً.

وبهذه الوسيلة نفخ فابيوس في قلوب الشعب آمالاً جديدة في المستقبل أذ جعلهم يوقنون ان الارباب تقف الى صفهم. أما هو فقد وضع ثقته في نفسه فحسب، مؤمناً بأن الآلهة لن تمنح النصر، وتنعم بالسعد إلاّ لمن يتحلّى بالبسالة وبعد النظر. وعلى هذا الأساس أنطلق فابيوس لمناجزة [هنيبعل] لا بنيّة التحرش به وجره الى معركة، بل بقصد اضعافه واتعابه بمرور الزمن. وكسب عنصر التفوق العددي والماديّ ومقابلته القلة بالكثرة، فكان يعسكر دائماً في الأراضي المرتفعة لئلا تطاله خيالة العدوّ ويلاحقه بدون هوادة ولا يدعه يغيب عن نظره، فإن سار لحق به وإن عسكر فعل مثله مع محافظته على مسافة كافية بينهما حتى لا يضطره خصمه الى

---

(١٤) الديناريوس عملةٌ تساوي الدراخما ويعادل اربعة سيستيرتي Sestertii وبذلك يكون مجموع السيستيرتي ١/٣ ٣٣٣, ٣٣٤، وبتحويله الى دراخما يصبح ١/٣ ٨٣٥٨٣ وهو ما يتفق مع النص.

خوض معركة. متخيراً دائماً والمرتفعات ليأمن صولة الفرسان. وهكذا لم يدع للعدوّ لحظة واحدة من الراحة وابقاه دوماً في حالة انذار.

وأثارت خطة التأخير هذه في معسكر فابيوس شكاً في إقدامه. وكان هذا الشكّ في معسكر هنيبعل أكثر منه عند الرومان إلاّ أن [هنيبعل] كان الرجل الوحيد الذي لم تنطل عليه الحيلة ولم تفته براعة الخصم وخطته السوقية ولقد أدرك أن القرطاجينيين لن يتمكنوا من أستخدام سلاحهم المتفوق إلاّ اذا أفلح في استدراج الجيش الروماني إو اضطره الى خوض معركة وان قواهم ستتناقص باطراد وستشح ارزاقهم بالتدريج ولن ينالوا من عدوّهم فتيلاً. فعزم على أن يحبط تدابيره هذه بكلّ ما أوتي من حيل ومراوغة حربية. وان يستدرجه الى اشتباك، مثل مصارع عظيم الدهاء، يرصد كل فرصة لينال مسكة جيدة والتحاماً وثيقاً من خصمه. فمرةً كان يهاجم، ومرة كان يحاول صرف انتباهه، وابعاده الى مختلف الجهات، مجاهداً بكلّ وسيلة لاغرائه بالتخلي عن خطته المأمونة. ولم يكن لكلّ هذه الحيل اي تأثير على تصميم الدكتاتور، واصْراره. إلاّ ان الجندي البسيط لم يكن يرى في خطة فابيوس طعماً أو جدوى. بل تعدى هذا الاستحفاف الى آمر الخيّالة نفسه، فمنيوشيوس التواق الى قتال مُبتسر، الجريء الواثق من نفسه كان قبلة انظار الجنود، وقد عمل هو نفسه الى بث الحماسة الهوجاء في نفوسهم وملئها بالآمال الجوفاء التي كانوا ينفسوّن عنها بتوجيه قارص اللوم الى فابيوس. وأطلقوا عليه لقب «مرافق هنيبعل»[١٥] لأنه لم يكن يفعل شيئاً خلا متابعته غدوةً ورواحاً والقيام بانتظاره، ثم راحوا يعلنون قائلين ان [مينوشيوس] هو القائد الوحيد الذي يليق بقيادة الرومان، وهذا ما ملأه فخراً، وإعجاباً بنفسه حتى أخذ يتطاول ساخراً من أختيار فابيوس معسكرات جيشه في شعاب الجبال، قائلاً أنه ليُجلسهم فيها كأنما هم في ملعبٍ مدرجٍ، ليشهدوا منها النيران تأتي على بلادهم والدّمار يعمها. وفي بعض الأحيان كان يسأل أصدقاء فابيوس: هل يقصد صاحبهم بنقلهم من جبلٍ الى آخر، أن يرتفع بهم الى السماء بالاخير لعدم وجود أمل لهم في الأرض؟ أم يقصد أخفاءهم في طيات السحب عن جيش هنيبعل؟ فينقل أصحابه الحديث الى الدكتاتور ويحاولون إقناعه بضرورة الاشتباك وبالعدّو إجتناباً للاستنكار العام. فيجيبهم بقوله: «لأكونن أجبن مما يصورّونني لو أني تخليت عن فكرتي الخاصّة خوفاً من ملامتهم التافهة. ولست أجد عيباً في أن يتملك المرء خوفٌ على سلامة بلاده؛ لكن من يحيد عن السبيل الذي أعتزمه نزولاً عند رأي آخر، أو خشيه توجيه

---

(١٥) ذلك لأن وظيفة الپيداكوكي منذ القديم وكما يدل عليه الاسم هو رعاية الاطفال في نزهاتهم القصيرة والعودة بهم الى البيت.

اللوم اليه، أو خوف اساءة فهم مقاصده، فهذا غير جدير بمنصبٍ كمنصبي. وبسلوكه هذا يجعل من نفسه عبداً رقيقاً لأولئك الذي كان واجبه تصحيح اخطاءهم وتقويم اعوجاجهم».

ثم سرعان ما ارتكب هنيبعل خطأ كبيراً. أراد ان تستجّم خيول جيشه في اراضٍ جيدة المرعى، والابتعاد بجيشه الى مسافة تخرجه عن رقابة خصمه فأمر ادلاّءه بأخذه الى اقليم [كاسينوم Casinum] [١٦] وأوهمهم سوء نطقه بالأسم أنه يريد [كاسيلينوم Casilinum] التي يمرّ من وسطها نهر [لوثرونوس Lothronus] (يطلق عليه الرومان اسم قُلتورنوس Vol-turnus] وكانت أراضيها تكتنفها الجبال وليس من منفد فيها غير الوادي الذي يجرى فيه هذا النهر الى البحر فيصبّ في ساحل وعرٍ جداً غير مأمون - مخلفاً وراءه أراضي سبخة كثيرة المستنقعات وضفافاً رملية عميقة الغور. وتمكن فابيوس لمعرفته بالمسالك والطرق - من الاستدارة بجيشه والوصول الى المنطقة قبل هنيبعل، ووضع نخبة من فرقة قوامها أربعة آلاف مقاتل في مدخل الوادي واقفله. ثم تمركزت بقية الجيش في التلال المجاورة، وأتخذت مواقع مستحكمة، وانتقى وحدة تحمل أخف الأسلحة وأرسلها لمهاجمة مؤخرة [هنيبعل]، وكان نجاحها كبيراً فقد عزلت ثمانمائة من رجاله وأوقعت الفوضى في كل جيشه. ولما أدرك هنيبعل غلطته، وتبين الخطر الذي أحدق به أمر بالادلاء فصلبوا حالاً، ونظر فرأى العدوّ يحتلّ أفضل المواقع وامنعها وان الأمل باختراق جبهته معدوم، في حين أخذ الرعب واليأس يتسربان الى نفوس جنوده وسرى الاعتقاد فيهم بأنهم محاطون بطوق محكم يصعب جداً الخلاص منه.

إلاّ أن هنيبعل لم يقنط في حالته هذه، ولجأ الى حيلة بارعة. أمر بشدّ مشاعل، في قرون ألفين من ثيران معسكره شَدّاً محكماً ثم أشعلها عند حلول الليل وأمر ان تساق الحيوانات نحو المرتفعات المشرفة على المَمّر في بطن الوادي، ونحو مواقع العدوّ. وجعل جيشه يسير الهوينا في الظلام خلف قطعان الثيران. وكانت الماشية في مبدأ الأمر تسير بخطى منتظمة بطيئة وتبدو والمشاعل في رؤوسها اشبه بجيش يزحف في الليل، وتثير الدهشة والعجب في نفوس الرعاة وأصحاب المواشي في التلول المجاورة. وعندما بلغت النار جذور قرونها جن

---

(١٦) إجتاح هنيبعل سافينوم وأكتسح أقليم بينيڤنتم وهو مستوطنة رومانية والقى الحصار على تيليسيا وهي مدينة تقع على سفح جبال الإپنين. لكنه وجدان عملياته هذه لم تفد في حمل (فابيوس) على تغيير خطته. فقرر استخدام طعم أكثر اغراء وهو دخول كامپانيا أخصب سهول ايطاليا واجتياحه امام سمعه وبصره لعل ذلك يدفعه الى الاشتباك في معركة. كما أن أحتلال كاسينم سيحول دون ارسال فابيوس نجدات لحلفائه. الاّ ان الخطأ الذي نوه به پلوتارخ في النص. جعل ادلاّءه يأخذونه لا الى سهول (كاسينُم) بل الى خانق كاسيلينوم Casilinum الضيق الذي يفصل سافينوم عن كامپانيا. ويخبرنا ليڤي (١٣:٢٢) ان رئيس الادلاء جُلد وصلب فحسب وهو أكثر احتمالاً لأن هنيبعل لم يؤثر عنه التسرع والاسترسال في الحنق الى حدّ السخف وحرمان نفسه من خدمات الادلاء الآخرين.

جنونها وراحت تعدو هائجة وقد أعماها الالم وتفرقت شذر مذر تهزّ رؤوسها هزاً عنيفاً فتنشر النار حواليها وتشعل اللهيب في الأشجار التي تمرق من بينها. وكان منظراً مفاجئاً لفصائل الحراسة الرومانية على المرتفعات. عندما راؤوا اللهب الذي راؤه كأن مصدره رجال يزحفون بالمشاعل شاع القلق فيهم معتقدين بأن العدوّ يتقدم نحوهم من عدة جهات وانهم مطوقون. فتركوا مواقعهم وخلفوا الممّر وأسرعوا يلوذون بمعسكرهم على التلال. وما أن تمّ انسحابهم حتّى قامت وحدات مشاة هنيبعل الخفيفة حسب أوامره باحتلال المرتفعات، وبعد زمن وجيز وصل الجيش كله باثقاله وسار مجتازاً الممّر آمناً.

قبل يمضي الليل كله أكتشفت فابيوس الخدعة اذ وقع بيده واحدٌ من تلك الثيران، وأبقى جنوده طوال الليل مستعدين بسلاحهم خشية من كمينٍ في الظلام. وما أن انبلج الصبح حتى شرع في مهاجمة مؤخرة العدوّ وكادت الاشتباكات التي حصلت جراء ذلك في الأراضي الوعرة توقع الخلل والفوضى العامة في جيش هنيبعل لو لم يفصل من مقدمة جيشه وحدة اسپانيّة، أشتهر رجالها بمهارتهم في تسلق الجبال فضلاً عن خفتهم وسرعة حركتهم. فأندفعوا نحو الجنود الرومانيين ذوي السلاح الثقيل وقتلوا منهم عدداً كبيراً وبذلك أعجزوا [فابيوس] عن استمراره في مطاردتهم وأجبروه على التوقف. وهذا ما أرى الى السخط الشديد على الدكتاتور وازدياد السخرية به وقالوا: لقد غذا الآن جلياً أن نقصه عن خصمه لا يقتصر على الشجاعة والأقدام فحسب، بل على بعد النظر واصالة الرأي وحسن القيادة وهي المزايا التي وعد أن ينهى بها الحرب.

وعمد هنيبعل الى رفع سخطهم عليه، بزحفه الى المناطق القريبة من ممتلكات فابيوس الخاصة وأراضيه وأمر فعاث جيشه حرقاً وتدميراً بكلّ ما يحيط بها، محظراً أياهم أن يمسوا أملاك خصمه بأدنى ضرر، بل ووضع حرساً عليها، فكان تأثير عمله على الجمهوري الروماني كما توقع ونُقلت انباؤه الى روما. فاشاع التريبيونات عليه آلاف الحكايات المخزية، بتحريك وتحريض من [ميتيليوس Metilius] خاصّةً، ولم يقم بهذا مدفوعاً بحقده على فابيوس، قدر ما كان بدافع صداقته لقريبه [مينوشيوس]. اذ كان يعتقد أن الحطّ من سمعة فابيوس سيرفع من شأن صديقه. وكان مجلس الشيوخ مستاءً من فابيوس أيضاً، الأتفاق الذي عقده مع هنيبعل على تبادل الأسرى، وكانت الشروط تنصّ على أن الفريق الذي يبقى له عدد من الأسرى بعد عملية تبادل رجل برجل، فانه يفتدى بمبلغ مائتين وخمسين(١٧) دراخماً للرأس

(١٧) ليفي (٢٢:٢٣) يصف هذه العملية بـ Ardenti Pondo bina et Selibras in militem ومن هذا صرنا نعلم ان اليوندو Pound الروماني يعادل وزناً مائة دراخما يونانيـة أو (مينا) واحدة. إن عدد فضالـه =

الواحد. وعلى هذا بقي مائتان وأربعون رومانياً بعد التصفية ولم يكتف مجلس الشيوخ برفضه المصادقة على مبلغ الفدية، بل وجه اللوّم لفابيوس على الاتفاق باعتباره غير لائق بشرف الجمهورية ولا متفقاً مع مصلحتها. لأن هذا من شأنه أفتداء رجالٍ أوقعه جنبهم في قبضة العدوّ. وسمع فابيوس كل هذا وأحتمله بصبرٍ لاينفد ولم يكن في حوزته مالٌ، كما أنه كان مصراً على الايفاء بعهده لهنيبعل وأستخلاص الأسرى، فبعث بأبنه الى روما ليبيع ارضاً له ويأتيه بثمنها الكافي للفدية. ففعل ابنه ما أمر به ودفعت الفدية وسُلِمّ الأسرى الذين أبدى معظمهم استعداده لدفعٍ نصيبه من الفدية الى فابيوس فرفض العروض رفضاً باتاً.

وفي حدود ذلك الزمن استدعاه الكهنة الى روما للمشاركة في قربان معيّن، بمقتضى واجبات وظيفته، فأضطر الى ايداع قيادة الجيش الى [مينوشيوس] وقبل أن يرحل لم يكتف بمعاملته معاملة القائد العام بل أخذ يرجوه متوسلاً بالاّ يشتبك في معركة مع هنيبعل اثناء غيابه. لكن أوامره ورجاءه ونصحه ضاعت كلها في [مينوشيوس] إذ ما أن ولاّه ظهره حتى بدأ يبحث عن فرص لمهاجمة هنيبعل، ووردت اليه ابناء عن إرسال العدوّ جماعات كبيرة للنهب والسب فلاحق فصيلة منها وأوقع بها مقتلة عظيمة وطرد البقية الى معسكرتها مشيعاً الرعب في الآخرين الذين أحسوا بوطأة العدو حين أخترق صفوفهم. إلاّ أن هنيبعل عندما سحب كل قواته المتفرقة الى داخل المعسكر قام مينوشيوس بتقهقر منظم دون ان تلحقه خسارة[١٨]. وكان نجاحاً زاد من خيلائه وتهوره، ملأ جنوده، بثقة عالية مندفعة وأنتشرت الانباء في رومه. وقال [فابيوس] عندما أبلغ بذلك: إن أخوف ما يخافه هو نجاح [مينوشيوس] إلاّ أن حماسة الشعب كانت عظيمة، دفعت بهم مسرعين الى [الفورم] ليستمعوا الى خطاب التريبيون [ميتيليوس]، مدح فيه [مينوشيوس] واشاد ببسالته، وبلغ بها أعلى عليين وهاجم [فابيوس] هجوماً عنيفاً واتهمه لا بالافتقار الى الشجاعة وحدها، وانما الى الاخلاص. وليس هو وحده بل كثير من الرجال البارزين وعظمائهم. قائلاً هؤلاء هم الذين جاؤا بالقرطاجنيين الى ايطاليا، وغايتهم سحق حرية الشعب وأستقلاله، ولهذا السبب بادروا فوراً الى وضع السلطة العليا في يد شخصٍ واحدٍ، قد يُعطى بطئه وتأخره، وقتاً كافياً لهنيبعل، حتى يسيطر على ايطاليا، ويمنح أهل قرطاجنة الوقت والفرص لامداده بنجدات جديدة حتى يكمل فتوحه.

= الأسرى الرومان هو ٢٤٧ بحسب زعم ليفي ومع هذا فانه يختلف عن پلوتارخ في قول الأخير انه مجلس الشيوخ ابى دفع فديتهم. فيقول انما اجل الدفع فحسب.

(١٨) عن ليفي (٢٢:٢٤) انه خسر خمسة آلاف، بينما لم تكن خسارة العدو تزيد عن هذا باكثر من ألف.

وتقدم فابيوس الى المنبر وليس في نيته الردّ على التريبيون، وانما ليقول فحسب: بأنه يلزم الاستعجال في تقديم القربان ليسرع في العودة الى الجيش ومعاقبة [مينوشيوس] الذي عمد الى القتال خلافاً لأوامره. فملأت كلماته نفوس السامعين بالاعتقاد بأن حياة [مينوشيوس] هي في خطر لأن الحكم بالموت والسجن هما من سلطات الدكتاتور ولأنهم كانوا يخافون أن يكون فابيوس الوديع الخلق عادةً، صعب التهدئة عند استشارته، قدر ما كان يصعب إثارته. ولم يجسر أحد على رفع صوته بالإحتجاج. إلاّ [ميتيليوس] الذي كان منصبه يمنحه الحصانة ليقول ما يشاء (في فترة سيادة الحكم الدكتاتوري، تبقى لهذه الحاكمية سلطتها ولا تُلغى) فقد ابدى للشعب بجرأة مدافعاً عن [مينوشيوس]، مستصرخاً الجمهور بألاّ يعمل فيه قرباناً لعداوة فابيوس، ولا يسمح بالقضاء عليه مثل ابن [مانيليوس توركواتوس Manlius Torquatus] (*) الذي أحتزّ ابوه رأسه لنصر قاتل في سبيله وربح معركته، خلافاً لأوامره مع انه تكلل بالغار. وأخذ يحثهمّ على سحب السلطات الدكتاتورية من فابيوس، ووضعها في يدٍ أجدر وأقدر وأكثر استعداداً لاستخدامها في مصلحة البلاد. ومع أن هذه الملاحظات خلفتّ في النفوس تأثيراً كبيراً إلاّ أنها لم تبلغ حَدّ عزل فابيوس من منصب الدكتاتور، لكنهم رسموا أن يكون [لمينوشيوس] سلطة معادلة لسلطة الدكتاتور في ادارة دفة الحرب. ولم يكن لهذا سابقة في حينه(١٩)، إلاّ انه طبق بعد زمن قليل على الهزيمة في [كاني Cannae] فعندما الدكتاتور ماركوس جونيوس يقود الجيش اختاروا في روما [فابيوس بوتيو Fabius Buteo] دكتاتوراً، ليعين شيوخاً جدداً يأخذون امكنة الشيوخ العديدين الذين قتلوا. ولكن ما أن أكمل املاء الشواغر بالعدد الكافي، وبصورة علنية، حتى أستغنى عن حرسه من [اللكتور] وانسحب مع كل بطانته ومضى في تصريف أعمالهُ في الفورم بكلّ هدوء مختلطاً بالناس كأي فردٍ بسيطٍ.

وظنّ أعداء فابيوس أنهم حقروه وسحقوا كبرياءه سحقاً كافياً برفع [مينوشيوس] الى درجة مساوية له. في السلطان. إلاّ أنهم أخطاؤا وجهلوا خلق الرجل. فثم يعتبر حمتهم هذا خسارة له. بل كان مثل [ديوجينس] الذي قيل له أن بعضهم «يهزأون له» فأجاب «لكني لست مهزأة» وقصده من هذا أن المهانين حقاً، هم أولئك الذين تحدث الإهانة فيهم أثراً. وهكذا كان الحال بفابيوس فقد رضخ بهدوء عظيم وعدم مبالاة لما وقع. وقدم برهاناً للفكرة الفلسفية وهي أن الإنسان الصالح المستقيم غير قابل للتحقير. على أن حنقه الوحيد كان متأتياً من خوفه أن

(*) خالف الابن الأمر القنصلي واشتبك مع العدو الاثيني في نزال فردي، في المعركة الكبرى على قدمة جبل شيزوفيوس ٣٤٠ ق.م.

(١٩) يخبرنا ليفي بان مقترح المرسوم هو ترنتيوس ڤارو، الذي ساءت سمعته كثيراً بهزيمته في (كاني).

يؤدي هذا القرار الأخرق، الى خسارة قضية البلاد، باتاحة الفرصة لمرض الطموح العسكري المزمن في مرؤوسه، ولكيلا يؤدي تهور [مينوشيوس] الى تورطه في مأزق، عاد الى الجيش بأقصى السرعة واتم السرية.

فوجد [مينوشيوس] مزهواً مرتفع المعنوية بمنصبه الجديد، حتى انه لم يرض بالسلطة المشتركة وطلب ان تكون قيادة الجيش العامة بالمناوبة، يومٌ له ويوم لفابيوس. فرفض فابيوس طلبه وأقترح قسمة قطعات الجيش وعلّته في هذا ان القائد المنفرد أقدر على قيادة قطعاته العسكرية الخاصة وبهذا تسلم الفرقتين الأولى والرابعة. وأختص [مينوشيوس] بالفرقتين الثانية والثالثة، وقسماً القوات الاحتياطية بينهما بالتساوي.

وبالتعظيم الذي ناله [مينوشيوس] لم يعد يصبر عن التباهي بنصره، عن طريق الازدراء بالمنصب الرفيع والسلطان القوى أعطي الذي منصب الدكتاتور. وذكرّه فابيوس بأناةٍ ولينٍ، أن الخصم الذي يقارعه هو هنيبعل لا فابيوس، ولكن ان قضت الضرورة عليه أن ينافس زميله، فخير منافسه له هي في مثابرته واهتمامه بالمحافظة على روما لئلاً يقال: رجل أصطفاه الشعب وخصّه بثقته، كانت خدمه أسوء وأقلّ شأناً من رجلٍ أساء الشعب معاملته واذلّه.

ولكن القائد الشاب المستخف بهذا التأنيب، المزدري بالنصح باعتباره تواضع الشيخوخة الكاذب، ارتحل بقواته حالاً وعسكر وحده[٢٠]. ولم يكن هنيبعل غافلاً عن هذه الأحداث، وانما ربض وأخذ يتحين فرصتهُ منها. واتفق أن كان بين جيشه وبين [مينوشيوس] نشزٌ من الأرض، بدأ له موقعاً مفيداً يمكن انشاء مواضع فيه، وكانت الحقول المحيطة به تبدو من بعيدٍ مستويةً متطامنة وان ملأتها الوهاد والتضاريس الوعرة والوديان غير الظاهرة للعين وكان من أسهل الأمور على هنيبعل حيازة هذه الأراضي لو شاء، إلاّ أنه أراد أن يجعلها طُعماً، أو فخاً يقتاد به الرومان الى اشتباك في الموسم الملائم. فلما انفصل [مينوشيوس] عن [فابيوس] رأى الفرصة مؤاتية لغرضة، ولذلك عمد الى وضع عددٍ كافٍ من جنوده في تلك المغاور والأخاديد ليلاً[٢١]، ثم أرسل في الصباح الباكر وحدة صغيرة، تقدمت حتى أصبحت على مرأى من [مينوشيوس] وبدأت تحتل نشز الأرض، فابتلع مينوشيوس الطعم كما توقع، ودفع أولاً بوحداته الخفيفة، ثم اتبعها ببعض الخيالة لطرد العدوّ، وأخيراً لما شاهد هنيبعل بشخصه يزحف لمعاونة رجاله، تقدم بنسق المعركة، بكلّ قواته والتحم بالقوات المسيطرة على المرتفع

(٢٠) هنا يختلف ليفي مع بلوتارخ احتلافاً جوهرياً بقوله ان الفرقتين الأولى والرابعة كانتا مناطتين بـ(مينوشيوس) في حين اودعت قيادة الثانية والثالثة الى (فابيوس). على ان (پوليبيوس) يخالف الاثنين هذا وقد كانت المسافة بين المعسكرين حوالي الف وخمسمائة خطوة.

(٢١) خمسمائة فارس راجل (پوليبيوس ٣).

وصمد لمقذوفاتهم، وظلّت المعركة زمناً متوازنة، ولكن ما أن تأكد هنيبعل أن الجيش العدوّ كلّه قد تقدم مسافة كافية في تلك السهول الوعرة المتعادية ودخل في الفخاخ التي نصبها بحيث أصبح ظهره مكشوفاً لرجاله الكامنين في المغاور والأخاديد، حتى أعطى الاشارة فبرزوا من مخابئهم واندفعوا يهاجمون مؤخرة مينوشيوس من كلّ جهةٍ وهم يصيحيون صيحات مرعبة. وكانت المفاجأة عظيمة والمقتلة أعظم، وأصابت الجيش الروماني فوضى عامة وأختلت صفوفه. وفقد [مينوشيوس] ثقته بنفسه وأخذ ينقل ابصاره من ضابط الى آخر. فوجد الجميع غير مستعدين لمواجهة الخطر على السواء. يميلون الى الفرار، ولم يكن الفرار مأموناً كذلك، لأن الخيالة النوميديين Numidia كانوا قد أنتشروا في ارجاء السهل يجرون اذيال النصر، وهم يعقبون المنهزمين ويمزقونهم تمزيقاً.

لم يكن فابيوس يجهل الخطر المحدق ببني قومه. وقد أدرك ماذا سيحدث جراء تهور [مينوشيوس] ومكر هنيبعل لذلك أبقى رجاله في حالة الإنذار وسلاحهم بأيديهم متأهبين لتعاقب الأحداث. كما أنه لم يضع ثقته في تقارير الآخرين وانما راح يستطلع هو بنفسه كل ما حدث على رأس جيشه، فلما وجد جيش [مينوشيوس] يحيط به العدوّ وان التنقلات الأرضية ومظاهر القتال تدل على أنهم أقرب الى الهزيمة منهم للصمود ضرب منكبه بكفّه(٢٢) وأطلق تنهيدة عميقة وقال لمن حوله «ايه يا هرقل! لكم كان [مينوشيوس] أسرع الى تدمير نفسه مما توقعت وإن بدأ الأمر أبطا مما اراد هو!». ثم أمر حامل الراية بالتقدم الى الامام وسار الجيش خلفه، وهو في الطليعة يحثهم قائلاً «علينا أن نسرع لانقاذ مينوشيوس الباسل المحبّ لوطنه وإذا كان قد تعجّل في قتال الاعداء، فسنتحدث اليه عن هذا في وقت آخر».

وهكذا صال فابيوس على العدوّ وهو في الطليعة وطهر السهل من النوميديين بالأول، ثم انقض على الوحدات التي تهاجم مؤخرة الرومان وأباد كل من وقف في سبيله واجبر فلولها على التقهقر السريع انقاذاً لحياتها ولئلا تكون حالها حال الرومان المطوقين. ولما رأى هنيبعل رجحان الكفّة السريع، وفابيوس يشقّ طريقه صعداً، نحو المرتفع بين صفوف الجند، غير مبالٍ بالجهد الذي تتحمله سنّه المتقدمة، وانه قد يتمكن من الانضمام الى [مينوشيوس]، نكص على أعقابه وأطلق بوق التقهقر وسحب قواته الى معسكرهم، ولم يكن الرومان بأقل رغبة منهم في الارتداد سالمين. وقيل أن هنيبعل قال لأصدقائه متندراً بهذه المناسبة: «ألم أقل لكم أن هذه السحابة(٢٣) التي كانت تحوّم دائماً فوق الجبل ستنقضّ علينا بعاصفةٍ، إن عاجلاً أو آجلاً؟»

---

(٢٢) ينوه هوميروس بعادة ضرب الفخذ بالكف في ساعة الخطر أو المفاجأة ويضرب الجبين بالكف بدلاً من الفخذ أحياناً.

(٢٣) يورد ليڤي قول فابيوس بهذا النص: =

وآب فابيوس الى معسكره بعد أن جمع رجاله الأسلاب من ميدان القتال. دون أن يوجه كلمة لوم، أو عبارة قاسية لزميله. وجمع [مينوشيوس] أفراد جيشه معاً وخاطبهم بقوله:

- قيادة جيش عظيم بلا خطأ، أمرٌ يفوق طاقة البشر، لكن التعلم من الاخطاء والاتعاض بها، هو مما يليق بالرجل العاقل الصالح. قد تحملني اسبابٌ معينة على الشكوى من الأقدار لكن لدي أسباباً أكثر منها تحملني على شكرها، ففي ساعات معدودات أصلحت خطأ طويل اللبث مزمناً، وعلمتني باني غير جدير بقيادة الآخرين، بل محتاجٌ الى ان يقودني الآخرون. كما علمتني بالاّ نحاول التفوق على من كان العمل برأيهم فائدة لنا. لذلك سيكون الدكتاتور قائداً لكم في كل الأمور، أمّا أنا فبقائي علي رأسكم الآن، يحدوني اليه اظهار امتناني له ليس الاّ، ولأكون أول من يطيع أمره».

وبعد أن فرغ من كلامه أصدر أمراً بتقدم كل النسور الرومانية وان يتبعه كل رجال جيشه الى معسكر [فابيوس]. وجمد الجنود ذاهلين لطرافة المنظر عندما دخل، وعلتهم الحيرة والشك في الغرض من هذه المظاهرة، ولما دنا من خيمة الدكتاتور خرج هذا لاستقباله، فأسرع [مينوشيوس] وألقى براياته تحت قدميه ونادياً أياه بيا أبي! بصوت مرتفع. بينما حيّا جنوده، زملاءهم في المعسكر كما يحيون الأسياد المحسنين وهي التحية الواجبة على العبيد المعتوقين لأولئك الذين انالوهم حريتهم. وبعد ان هدأت الضجة وساد الصمت انشأ [مينوشيوس] يقول:

- لقد أحرزت أيها الدكتاتور نصرين في هذا اليوم، أحدهما نصر على هنيبعل وكان سبيلك اليه بسألتُك وحنكتُك، والنصر الثاني على زميلك، وكان سبيلك اليه حكمتك وطيبتك بالنصر الأول انقذتنا وبالنصر الثاني ثقفتنا. وعندما كان يجللنا عار الهزيمة على يد هنيبعل جاءت هزيمة أخرى له على يدك فاعادت الينا شرفنا وسلمت ارواحنا. واني لا أجد أسماً اناديك به أعزّ وانبل من اسم الأب المشفق. وان كانت بركة الأب لا تداني ما حبوتني به. من أبٍ ظفرت وحدي بنعمة الحياة. واليك انا مدين ليس بها وحدها، بل بحياة كل من هم تحت أمرتي.

ثم أنه ألقى نفسه بين ذراعي الدكتاتور. وفعل افراد الجيش كذلك بعضهم ببعض وهم مسرورون والدموع تجول في أعينهم.

لم يمرّ طويل زمن على هذا، حتى أعتزل فابيوس منصب الدكتاتور وأعاد الحكم للقناصل[٢٤]. وطبق من خلفه أسلوبه في ادارة الحرب. وأجتنبوا كلّ التحامٍ بهنيبعل في

.Non Celerius Quam Timui, Depehemdit Fortun a Temeritatem =

(٢٤) ليفي (٢٢:٣٢) استعفى (فابيوس) من منصب الدكتاتور بعد انقضاء الأشهر الستة وسلم القيادة الى =

معركة فاصلة. وقصروا مجهودهم على أمداد حلفائهم بالمساعدات، والمحافظة على المدن والحيلولة دون سقوطها بيد الاعداء. ثم تولى القنصليّة [تيرنيتوس ڤارو Ternitius Varro] [٢٥] بعد زمن، وهو رجلٌ مجهول النسب خامله، إلاّ أنه جريء مقدام يتمتع بشعبية كبيرة، وبدأ واضحاً أنه مزمع على توريط البلاد كلها في مخاطر جسيمة بتهوره وجهله. فقد راح يوالي الخطب في المجالس قائلاً: مادامت روما تعهد بقيادة جيوشها الى امثال فابيوس فلن تكون للحرب نهاية. وأخذ يتبجّح بقوله أنه سيحرر أرض ايطاليا من قبضة الأجنبي في اليوم الذي يقع نظره على العدوّ. وبهذه الوعود التي بذلها ونادى بها، إمكنه ان يعبيء أعظم جيشٍ جردته روما لقتالٍ. فقد جنّد فيه ثمانية وثمانين ألف مقاتل[٢٦]. إلاّ أن ما كان يوحي بالثقة لعامة الشعب، كان من جهة أخرى يصيب العقلاء المجرمين بالرعب وليس فيهم أكثر خوفاً من فابيوس. فلو قُدّر لهذا العدد الضخم من زهرة شباب الرومان أن يباد في القتال، لضاع كلّ أمل في سلامة روما، اذ لا احتياطي آخر لها غيره. وعلى هذا الأساس راجعوا القنصل الثاني [اميليوس پاولوس Aemilius Paulus] وهو رجل ذو تجارب عظيمة في الشؤون الحربية إلاّ أنه لايتمتع بشعبية، فضلاً عن شدة خوف فيه من الجماهير، تولدّ عن إدانتها له لمخالفةٍ ما أرتكبها[٢٧]. فحكم ولذلك كان بحاجةٍ الى التشجيع ليحدّ من اندفاع زميله الأهوج. قال له فابيوس؛!

- إن شئت أن تؤدي الى بلادك خدمة نصوحاً وتكون نافعاً لها، فعليك أن لا تكون أقلّ معارضةً لاندفاع [ڤارو] الأحمق من يقظة هنيبعل المستوفزة. لأن كلاهما اتفقا على تقرير مصير روما بمعركةٍ حربيةٍ. والأجدر بك والأقرب الى العقل أن تصدقنّي أكثر مما تصدق[ڤارو] في كل ما يتعلق بهنيبعل، عندما أقول لك: انه اذا أمتنعت خلال هذا العام عن قتاله. فإما سيهلك جيشه من تلقاء نفسه، واماّ سيكون مسروراً للرحيل بمحض

= قنصلي تلك السنة [سرڤيوس] و[اتيليوس] والأخير حلّ محل [فلامينيوس] الذي صرع في ثراسيميي. وبلوتارخ يقتضي خطى [پوليبيوس] في سرد هذه الاحداث.

(٢٥) ابن قصّاب، ورث مهنة ابيه في شبابه لكنه أغتنى فعاف حرفته الحقيرة واستجلب قلوب الجمهور بدعم أكثر التريبيونات فوضويةً وحباً للشغب وبهذا الاسلوب وصل الى منصب القنصلية (ليڤي ٢٢:٢٦).

(٢٦) جرى العرف الروماني على تجنيد اربع فرق عسكرية كل سنة. في الأوقات العصيبة والازمات تؤلف الفرقة الواحدة من خمسة آلاف راجلٍ روماني وثلاثمائة فارس وكتيبة لاتينية واحدة بعدد متساوٍ من المشاة وضعف العدد من الخيالة. ويبلغ المجمع الكلي لقوة هذه الفرق البشرية ٤٣٠٠٠ مقاتل. إلاّ انهم جندوا بهذه المناسبة ثماني فرق بدلاً من أربعة. امّا ليڤي فيكتفي بالقول ان القوات المجندة كانت ضخمة جداً.

(٢٧) كان هو واخوه قد حققا نصراً على الالليريين واخضاهم لكنهما اتهما بالتحيز في تقسيم الغنائم، أو كما يقول [اوريليوس ڤكتور] باختلاس الأموال العامّة. وثبت عليهما ذلك وفرضت عليهما غرامة كبيرة وكانت غرامة أميليوس أقل (ليڤي ٢٢:٣٥).

اختياره. ويظهر هذا بجلاء من نفور البلاد والمدن الايطالية كلها من محالفته، وان جيشه الآن يكاد لا يبلغ ثلث ما كان عند أول مجيئه، ودعك من كل الانتصارات التي أحرزها.

فأجاب [پاولوس] على هذا [كما ذكر بعضهم]:

- لو اني أخذت شخصي فحسب بنظر الإعتبار لفضلت تعريض صدري لاسلحة هنيبعل عن تعريضه مرّة أخرى لقضاء بني قومي الذين هم شديد والرغبة فيما لا توافقون عليه. ومع هذا، ومادام مصير روما في كفة القدر، فالأحرى بشخصي وخلقي أن أرضي وأطيع [فابيوس] ولو أجتمع عليّ الثقلان والعالم كله.

هذه التدابير السديدة، هزمتها لجاجة [ڤارو] وتسرعّه فعندما خرج القنصلان معاً لتسلّم قيادة الجيش لم يتوصل الى حَلّ غير القيادة المنفصلة اي أنّ كل قنصل يتناوب القيادة يوماً[٢٨].

وبحلول يوم [ڤارو] في القيادة أختار موضع الجيش بمواجهة هنيبعل في قرية تدعى [كانيّ Cannae][٢٩] بالقرب من نهر [اوفيدس Aufidus]. وانتهز أول يومٍ آخر لقيادته فنشر العباءة القرمزية فوق خيمته وهي اشارة المعركة. وأفزعت القرطاجنيين تلك الجرأة، وتفوق العدوّ العددي الذي ناهز الضعف. إلاّ أن هنيبعل أمر بالتأهب واعتداد السلاح وخرج مع بطانة قليلة للإستطلاع ومتابعة تحركات العدوّ وهو ينظم صفوفه للمعركة من مرتفعٍ لا يبعد كثيراً عنهم. وانبرى [غيسكو Gisco] القرطاجنّي (وهو من اتباعه المساوين له في المقام) يقول: إن عدد جيش العدوّ مدهش فأجابه هنيبعل بلهجة جدٍ لا أثر منها للمزاح: «هناك يا غيسكو شيء واحدٌ إدعى الى الدهشة، غاب عن ملاحظتك» ولما سأله غيسكو عَمّا هو؟ قال: «في كلّ هذه الجموع الزاخرة أمامنا لايوجد شخص واحدٌ اسمه غيسكو» وأغرقت السريّة كلها في الضحك لهذه المزحة غير المنتظرة من قائدهم. وعندما هبطوا من المرتفع ونقلوها لمن لقوه فكان الضحك عاماً متواصلاً، لا قبل لهم بوقفه، ولما شاهد الجيشُ حاشية هنيبعل تعود من مهمة الاستطلاع وهي مغرقة في الضحك والمزاح، استنتج أنه دليل على الازدراء العميق بالعدوّ. وأن ضعفه هو الذي جعل قائدهم في تلك الساعة منشرح المزاج.

(٢٨) يقع بلوتارخ في خطأ. فقد كانت القاعدة الأصولية عند الرومان ان القناصل يتناوبون قيادة الجيش اثناء ما يكون الاثنان في الواجب عينه (پوليبيوس: ٣).

(٢٩) يقول [ليڤي وايپان وفلورس] ان (كانيّ) هي قرية حقيرة خاملة اشتهرت للمعركة التي جرت قريباً منها. إلاّ أن پوليبيوس الذي عاصر الحروب الفيونية يصفها بالمدينة قائلاً انها دمرت قبل سنة واحدة من اندحار الجيش الروماني. وفي هذا يوافقه سيليوس ايتالكوس، بعد ذلك اعيد بناؤها اذ ان (پلِيني) يصنفها بين مدن (ابوليا). وما تزال خرائبها شاخصة حتى يومنا هذا بالقرب من مدينة (باري).

وكعادة هنيبعل، لجأ الى الحيلة والستراتيج للافادة من الموقف. ففي المقام الأولى، نظم صفوف رجاله بحيث يكون مهّب الريح[٣٠] من خلفهم وكان اتجاهها في ذلك الوقت نحو الانقلاب الى عاصفة هوجاء تامة تكتسح السهول الرملية العظيمة وتحمل باندفاعها سحابة من الغبار فوق الجيش القرطاجنيّ وتلقى بحملها في وجوه الرومان، فتلحق بهم أذى عظيماً وتعوقهم في القتال كثيراً، وعمد في المقام الثاني الى وضع خيرة رجاله في الجناحين. أما القلب فقد وضع فيه اسوء وحدات جيشه واضعفها. وأوصى الجناحين بتطبيق الخطة التالية: عندما يقوم العدوّ بهجوم كاسح على قلب الوحدات المتقدمة التي يعلم انها ستتقهقر لعجزها عن احتمال الصدمة وعندما يتقدم الرومان في مطاردتهم ويكونون مشتبكين بالقتال على مسافة كافية ما بين الجناحين. فعلى الميمنة والمسيرة أن تطبقا من الجانبين عليهم، وتحاولا تطويقهم[٣١]. ويظهر أن هذا هو السبب الرئيس في خسران الرومان. فقد القوا بكامل ثقلهم على قلب هنيبعل فتقهقر، فاستحال شكل جيشه الى هلال كامل، ومنحوا فرصة نادرة لضبّاط القوات المختارة للهجوم عليهم من اليمين واليسار على الجناحين. وأوقعوا تقتيلاً وابادةً بكلّ من لم يرتدّ الى الخلف قبل أن يتصل جناحا القرطاجنيين في مؤخرتهم. والى هذه الكارثة العامة قيل أن خطأ غريباً حصل عند قوات الخيالة قد ساهم فيها. فقد أصيب جواد اميليوس باذىً فرمح سيدّه. فترجل عدد من الفرسان المحيطين به حالاً لمعاونته. ولما رأى الجنود الرومان قادتهم يتركون خيلهم، ظنوها إيعازاً لهم بالترجل هم ايضاً والهجوم على العدوّ راجلين. وسمع هنيبعل يقول وهو ينظر الى المشهد: «إني لأعظم سروراً بهذا، مما لو جيء بهم إليّ مقيدين أيادي وأرجلاً»(*). وعن تفاصيل هذه الموقعة نحيل قارئنا الى أولئك الكتاب الذين كتبوا عنها بتوسع[٣٢].

وفرّ القنصل [ڤارو] الى [ڤينوسيا Venusi] بشرذمةٍ من الاتباع أما [اميليوس پاولوس]، فبعد أن عجز تماماً عن ايقاف هزيمة رجاله، جلس على صخرة وجسمه كله تغطيه الجراح، وروحه لاتقل عن جسمه جراحاً متوقعاً أن يُرحم بضربة قاضية. وبلغ تشويه وجهه وكثره الدماء

(٣٠) هذه الريح الحارة التي تهب من الشرق والجنوب. يسميها ليڤي ٢٢:٤٦ [ڤولتورنوس] واسمها الحديث [سيروكّو]. ولما كان الجيش الروماني يواجه الجنوب فقد عانى منها الكثير وساءت حاله بها. والتأثير المعروف الذي تخدثه هو الخمول والضعف بدرجة كبيرة.

(٣١) يذكر ليڤي خطة أخرى لجأ اليها هنيبعل. فقد تظاهر خمسمائة من افارقته النوميديين بالانضمام الى صفوف الرومان الاّ انهم انقلبوا عليهم عند احتدام المعركة وهاجموا الجنود الرومان من الخلف.

(*) النص في ليڤي ٢:٤٩: Quam Mallem vinetod mihi trodeset.

(٣٢) لاسيّما پوليبيوس وليڤي (٢٢: ٤٧-٤٩) الذي كان پلوتارخ يعتمده اعتماداً رئيساً. على انهما لم ينجحا قط في اعطاء فكرة دقيقة واضحة عن الخطة التي أعتمدها هنيبعل في المعركة بصورة عامة.

التي تلطخه مبلغاً لم يعد معه معروفاً من أقرب أصدقائه وخدمه أثناء مرورهم به. وأخيراً عرفه الشاب الپاتريشي [كورنيليوس لينتولوس Cornelius Lentulus] فترجل عن حصانه وعرضه عليه طالباً فيه أن ينهض وينجو بحياته الضروريّة لسلامة البلاد. التي هي الآن في أمسّ الحاجة الى قائد عظيم مثله. ولكن لم يثنه شيء عن عزمه أو يقنعه بقبول العرض ورجا الفتى [لينتولوس] والدموع تجول في عينيه أن يمتطي حصانه. ثم أستوى قائماً ومد اليه يده مصافحاً وأمره أن يبلغ [فابيوس ماكسيموس] بأن [اميليوس پاولوس] قد أتبع توصياته الى النهاية ولم يحد قيد أنملة عن تلك الآراء التي تمّ التفاهم عليها بينهما. ولكن سوء حظّه جعل [ڤارو] يتغلّب عليه بالدرجة الأولى وهنيبعل بالدرجة الثانية. وبعد أن زوّد [لينتولوس] بتوصيته وصرفه، توجه الى مثار النقع حيث المعركة حامية الوطيس والقى بنفسه على سيوف العدوّ. وقيل أن الرومان خسروا في هذه الموقعة خمسين ألف قتيل(٣٣)، وأربعة آلاف أسير أستسلموا في ميدان القتال وعشرة آلاف أخذوا في معسكري القنصلين.

والحّ أصحاب هنيبعل لإقناعه باستثمار فوزه، ومطاردة الرومان المنهزمين حتى ابواب روما، مؤكدين له أن لن تمرّ عليه خمسة ايام الاّ ويكون في الكاپيتول يتناول عشاءه. وليس من السهل التكهن بالاعتبارات التي منعته من ذلك. وقد يبدو أنّ التدخل الرباني هو الذي سبب التردد والاحجام الذي ابداه الآن، وحمل [باركاس Barcas] القرطاجنيّ على أن يقول له ساخطاً: «إنك يا هنيبعل تعرف كيف تحرز النصر، إلاّ أنك لا تعرف كيف تفيد منه(٣٤)» على أن هذه الموقعة أحدثت تبدلاً عجيباً في أموره. فقد أصبح فهو السيد المطلق على أفضل الأقاليم والمدن في ايطاليا(٣٥)، وسيطر على [كاپوا Capua] نفسها التي تلي روما بالأهمية

---

(٣٣) ليڤي في المرجع السالف يذكر ان الرومان خسروا عشرين ألفاً وان حلفاءهم خسروا مثل هذا العدد فضلاً عن (٢٧٠٠) خيال بينهم كويستوران وواحد وعشرون ترييبوناً وعدد ممن كان قد تولى مناصب القنصلية والپريتورية والايديليّة ويخصّ منهم بالذكر سرڤيليوس جمينوس، ومينوشيوس قائد الفرسان. فضلاً عن ثمانين شيخاً من الاعضاء الحاليين في المجلس أو المنتخبين للدورة القادمة وكانوا قد تطوعوا للقتال. ووقع ثلاثة آلاف راجل في الأسر وثلاثمائة من الخيالة، يقول أيضاً ان هذا النصر كلّف القرطاجيين ثمانية آلاف من اشجع مقاتليهم. ويزع (پوليبيوس) ان سبعين ألفاً قد قتلوا وان أكثر من عشرة آلاف. من غرائب ما وقع انه وجدوا نوميديًا حياً تحت روماني ميت. كان الروماني قد بترت يداه فعجز عن استخدام سلاحه للقضاء على النوميدي فألقى بثقله عليه وباسنانه قطع اذنيه وانفه قبل أن يفارق الحياة (ليڤي المرجع نفسه ٥١).

(٣٤) يصور ليڤي (مهربال) هكذا Tum Maharbal: "Non omnia nimirum eidum di dedere Vincere scis Hannibal victoria ati nesas. ومهربال هو قائد الخيالة الرومانية. ولعله ذلك الذي كان يلقب بـ(باركاس) مثل هملقار. أن زوموراس يحدثنا بأن هنيبعل ادرك غلطه فيما بعد حين أمسك عن تعقيب فلول العدو بعد انتصاره. وقد اعتاد أن يهتف متحسراً في أحيان كثيرة: آه لي من كاني! آه لي من كاني.

(٣٥) الايوليوّن، والسامنيت، والتارنت وغيرهم.

والغنيّة الزاهرة، كل ذلك وقع بيده وخضع لحكمه، وهو الذي لم يكن قبلها - يملك مدينة واحدة أو سوقاً أو ميناءً، خالي الوفاض معدماً لايجد ما يطعم به رجاله إلاّ ما يأتيه عن طريق النهب من يومٍ الى يوم، ولا موضع ينسحب اليه ويتحصن فيه أو يتخذه قاعدة لعملياته، وانما كان يطوّف على غير هدى كأنما يقود عصابة ضخمة من الأفّاقين.

هناك قول ليوربيدس «يكون المرء في وضع سيّء حين يتوجب عليه أن يمتحن صديقاً كذلك يبدو أن وضع دولة ما لن يكون فضل عندما ترى نفسها بحاجة الى قائدٍ كفوء». وهذا ما كان عليه الرومان في ذلك الحين. فنصائح فابيوس، واعماله التي نعتوها قبل الموقعة بالجبن والخوف، صاروا ينظرون اليها الآن من الزاوية المعاكسة القصوى ووجدوا فيها ما فاق حكمة البشر السويّ. حتى لكأن للقدرة الآلهية يداً في هذه النظرة البعيدة، وانها التي تكهنت بغم فابيوس بنتيجةٍ صعب تصديقها حتى بعد وقوعها خلافاً لحكم الآخرين جميعاً. ولهذا بادروا الى وضع كلّ ما بقي لديهم من آمل فيه. وكانت حكمته الهيكل المقدس والمعبد الذي لاذوا بحماه بغية النجاة. ولقد منعتهم نصائحه أكثر من أيّ شيء آخر، من التشرد وترك مدينتهم، كما كان الوضع عندما أستولى الغاليّون على روما. وهذا الذي كانوا يعتبرونه خائر القلب رعديداً عندما كانوا - حسبما توهموا - في أمانٍ ومنعةٍ، صار الآن الرجل الوحيد الذي لم يظهر أثراً لخوفٍ في هذا الإضطراب والشقاء العام غير المحدود. وانما كان يسير في الشوارع بهدوءٍ وثقةٍ يكلّم ابناء قومه ويبادلهم الحديث ويضع حداً لانتحاب النساء، ويكبح الاجتماعات العامة التي يتولى عقدها من يريد التنفيس منهم عن كربه واحزانه. وبسعي منه عقد الشيوخ اجتماعاً، أو شاع روح الأمل في الحكام وكان هو نفسه روح كلّ دائرةٍ وحياتها.

ووضع حرساً على أبواب المدينة لمنع الأهالي الخائفين من مغادرتها ونظم واختصر مراسيم الحداد على القتلى زماناً ومكاناً. وأمر أن تقوم كل أسرة بما يقتضى من هذه الشعائر داخل المنازل وان لا تزيد مدة ممارستها عن شهر واحدٍ، يقوم أهل المدينة كلهم بالتطهر وفك الحداد بعد نهايته مباشرةً، وقررّ الغاء الاحتفال بعيد [چيرس Ceres] (٣٦) الذي وقع في تلك الاثناء لئلا تنكشف قلةُ المحتفلين به، ومظاهرُ حزنهم وبؤسهم، عَظِمَ الخسارة التي وقعت. فضلاً عن أن العبادة الأكثر قبولاً عند الآلهة هي التي تنبع من قلوبٍ منشرحة. على الشعائر المتعلقة بتهدئة غضبها وأطلاب إشارات سماوية ومع ذلك فقد اقيمت بخير ما امكن تحت

---

(٣٦) لم يكن هذا السبب الحقيقي المؤدي الى الغاء العيد ويقع عادة في الثاني عشر من شهر نيسان. بل لأنه يحرم على الذين يقضون ايام الحداد ان يُعيّدوا فيه. وانك لاتجد وقتذاك امرأة في روما إلاّ وهي في حداد. والواقع هو ان الاحتفال بالعيد أجل حتى نهاية فترة الحداد التي أختصرت الى ثلاثين يوماً كي لا تتأخر المراسيم الدينية الخاصّة والعامة أكثر مما تأخرت.

اشراف الكهنة والعرافين وارسل [فابيوس پكتور F. Pictor] وهو قريب لفابيوس ماكسيموس الى دلفي ليستوحي نبوءةً من العرافة. وفي ذلك الزمن تحقق زنى [ڤستالتين] فقتلت واحدة نفسها، ودفنت الثانية حيةً كما جرى به العرف(٣٧).

دعنا قبل كلّ شيء نبدي أعجابنا بالمعنوية العالية والتماسك الشديد اللذين تتمتع بها هذه الجمهورية الرومانية. فعندما جاء [ڤارو] مدحوراً مهزوماً يجلله الذلّ والعار، وبعد أن آل أسلوب تصريفه الأمور الى النكبة والخزي خرج الشيوخ والعامة جميعاً لاستقباله عند أبواب المدينة، وأضفوا عليه كل مظاهر التكريم والاحترام. وبعد ان ساد السكون أخذ الحكام ورؤوس الشيوخ ومنهم فابيوس، يثنون عليه امام الشعب لأنه لم ييأس من سلامة الجمهورية بعد هذه الخسارة الفادحة وانما جاء ليتسلم مقاليد الحكم بيده وينفذ أحكام القوانين ويعاون ابناء قومه في جهودهم لأجل نصرٍ مقبل(٣٨).

وبدأت قلوب الرومان تنبض بالحياة وتنتعش عندما وصلت الى روما ابناء تشير الى ان هنيبعل زحف بجيشه الى انحاء أخرى من ايطاليا على أثر المعركة، وطفقوا يبعثون بالقادة والجيوش لمناجزته. وأختص بأعلى القيادتين [فابيوس ماكسيموس] و[كلوديوس مارچللوس Claudius Marcellus] وكلاهما من المشاهير، ولكن على أسسٍ مختلفة. فمارچللوس كان كما ذكرنا في سيرته. رجل أعمالٍ وإقدامٍ، سريعاً جريئاً بشخصه - وكما وصف هوميروس ابطاله: عنيف يعشق القتال. وكان تاكتيه الحربي الذي واجه به هنيبعل الاقدام والجرأة وحب المغامرة، وهو الطابع الذي اتسمت به معاركه. إلاّ أن فابيوس ظلّ مقيماً على مبدئه الأول وما زال مقتنعاً بأن متابعة هنيبعل دون قتاله كفيل على الأقل بانهاكه والقضاء عليه مثل مصارع بلغ نهاية طاقته. وباستعمال كلّ قواه، غالباً ما تراه يستنفدها فجأة فيتهاوى منهوكاً ويخسر الشوط. ويذكر لنا [پوسيدونيوس] أن الرومان يسمون مارچللوس سيفهم، وفابيوس درعهم. ومن قوة الأول وثبات الثاني، يخرج مزيج يكون فيه خلاص روما. ووجد هنيبعل بالتجربة إن اصطدامه بأولهما يشبه التقاءه بنهر ثرثار سريع المجرى يدفع به الى الخلف إلاّ أنه لايعدم أن

---

(٣٧) يضيف ليڤي [المرجع السالف ٥٧] ان [كانتيليوس] عشيق احداهن جلد حتى فاضت روحه. وان الديكاميتر راجعوا كتب الكبيل فأمروا باربع ضحايا بشرية «تدفن أحياءً في سوق الحيوانات: ذكر وانثى اغريقيان. واثنان من أهالي اليونان.

(٣٨) من تعليق [ليڤي] على هذا قوله «ولو كان جنرالاً قرطاجيّاً للقي شرّ ميتة. ويحدثنا ڤاليرويوس ماكسيموس [٣:٤ و ٥:٤] قائلاً ان الشيوخ والعامة حزموا عن طورهم بأن عرضوا عليه منصب الدكتاتور، إلا انه رفضه بكلّ تواضع. ويخبرنا فرونتينوس [٤: ٥-٦] انه ظلّ بقية حياته مرسلاً شعر ذقنه ورأسه لا يأكل على اريكه كغيره من الرومان ويقول عندما يقابل بمظاهر التكريم ان على الرومان أن يحظوا بحكام أوفر حظاً منه.

يعمل كسراً في ضفافه، وأمّا الثاني، فمع أنه يمرّ بالقرب منه هادئاً ساكناً، فهو يجرفه ويلتهمه التهاماً. وأخيراً أستقر رأيه على هذا: انه يخشى [مارچللوس] عندما يتحرك. ويخشى [فابيوس] عندما يكون ساكناً. وكان عليه طوال تلك الحرب أن يواجه أحدهما أو كليهما. فكلّ من هذين القائدين تولى منصب القنصلية خمس مرات، وبقيا جزءً دائماً في جهاز القيادة العسكرية إمّا بصفة قنصل أو پرو قنصل أو پريتور، حتى وقع [مارچللوس] في الفخ الذي نصبه له هنيبعل وقتل وهو قنصل للمرة الخامسة. إلاّ أن كلّ مكره وبراعته لم يفلح مع [فابيوس] فلم يتعرض هذا للخطر إلاّ مرة واحدة. وذلك عندما وردته رسائل مزورة عن لسان أعيان مدينة [ميتاپونتوم Metapontum] يعدونه فيها بتسليم مدينتهم إن قدم اليها بجيشه، وبالصداقة والتحالف الذي ينتظره. وكاد يقع فريسة لهذه المؤامرة، إلاّ انه قررّ التقدم نحوها بجزءٍ من قواته. بعد استطلاع الحظ من مسرى الطير فوجدها تشير سوء العقبى فعدل عن مسيره. ومالبث أن علم بأن الرسائل من صنع هنيبعل الذي أعد لاستقباله كميناً محكماً. وحرّي بنا أن نعزو هذا الحظ الى بركة الآلهة أكثر مما نعزوه الى بُعد نظر [فابيوس].

كان مسلكه رائعاً في اجتناب تمرد المدن وثورة الحلفاء بالمعاملة الرقيقة العادلة، وعدم استخدام الشدة أو اظهار الشكّ عند أقل اشتباهٍ. وذُكر عنه أنه أبلغ عن شخصٍ يدعى [مارسيان Marsian] (٣٩) مشهور بالبسالة معروف بشرف النسب، بأنه كان يكلم بعض الجنود سراً، عن الهروب من الجيش. فلم يلجأ فابيوس الى استخدام أي شدّةٍ معه، بل بعث في طلبه وقال له إنه ليعلم بالأهمال الذي أصاب مؤهلاته وخدماته الممتازة، وهو خطأ عظيم من الضباط الذين يمنحون مكافأتهم لا على أساس الكفاءة والمؤهلات، بل على غلطة منك إن شعرت بغبنٍ وراجعت أحداً غيري». ثم أنه خلع عليه جواداً مطهماً وهدايا أخرى، ومنذ ذلك الحين وهذا الرجل مثلٌ يضرب في الاخلاص والتفاني، في سائر الجيش. فقد ادرك بعمق بصيرته انه اذا كان سائسو الخيل ومدربا الكلاب يستخدمون أساليب لينة رفيقة لتذليل طباع هذه الحيوانات الشرسة، ولا يلجأون الى خربها أو معاملتها بالشدة. فأولى بأولئك الذين يقودون الرجال أن يحاولوا غرس حبّ النظام والضبط بأسوء مما يعامل البستانيون النبت البريّ الذي يفقد بالتشذيب والعناية طباعه الوحشية بالتدريج، ليؤتي أفضل الثمر.

وفي مناسبة أخرى أبلغه بعض ضباطه أن رجلاً من رجالهم يتغيب كثيراً من موقعه ويخرج

---

(٣٩) ليفي [١٥:٢٣] يعزو هذه الحكاية الى [مارچللوس] لا الى [فابيوس] ويقول ان الاسم الوارد هو (بانيتوس) أو Bandius بانديوس في سيرة مارچللوس. وهو مواطن من (نولا) وجل نصف ميت بين أكداس القتلى بعد معركة (كاني) وقد خصّ بامتياز الدخول على الجنرال متى شاء.

ليلاً، فسألهم اي نوع من الرجال هو ؟ فأجمعوا كلهم بانه لا يوجد في سائر الجيش من هو أفضل منه، وانه مواطن من [لوكانيا Lucania]، ثم طفقوا يروون مآثر عدة راوه يقوم بها. فأمر فابيوس بتحقيق دقيق عنه، وعلم أخيراً إن الغياب الكثير الذي لوحظ منه كان لزيارة فتاة وقع في حبّها. وعندها أمر بعض رجاله أن يبحثوا عن الحبيبة سراً، وان يأتوا بها الى خيمته، ففعلوا، ثم أنه أحضر [اللوكانيّ] وانفرد به وقال له أنه يعرف جيداً بكثرة غيابه عن المعسكر ليلاً، وهو أخطر جريمة ضدّ النظام العسكرية والقوانين الرومانية، لكنه يعلم كذلك مبلغ شجاعته، ولا يجهل ايضاً الخدمات الجليلة التي قدمها، وهو لأجلها يرغب في العفو عنه والتغاضي عن خطأه لكنه وسعياً وراء ابقائه في حدود النظام – قررّ أن يضع حارساً عليه يكون مسؤولاً عن حسن سلوكه. وبعد ان قال هذا، أخرج له الفتاة وخاطب الجندي المرتعب المذهول بالمفاجأة: «هذا هو الشخص الذي سيكون ضامناً لك. وسنرى حسن سلوكك المقبل هل أن تجوالك الليليّ كان بسبب الحب أم لغرض أسوء منه!».

وثم واقعة أخرى تشابه هذه، كانت عاملاً على دخوله مدينة تارنتوم(*) واحتلالها. بعد أن خسروها بدسيسة:

يوجد فتى [تارنتيّ] في الجيش له أخت تسكن [تارنتوم] التي كانت في قبضة العدوّ، هذه الاخت كانت شديدة الحب لأخيها، متعلقة به للغاية، وعلم الأخ أن بروتياً [Bruttian] نصبه هنيبعل قائداً لحامية المدينة، قد توّله بحبّ أخته. وخيل له أن علاقة كهذه قد تثمر ما فيه خير للرومان، وأتصل بفابيوس وانهى اليه بخطته ثم ترك الجيش كمن فرٌ منه ظاهرياً، وذهب الى تارنتوم. ومرت الايام الأولى و[البروتيّ] ممتنع عن زيارة الأخت لأنهما ما كان يعرفان ان الأخ على بينة مما يقوم بينهما من حبّ. على أن الفتى [التارنتي] أنتهز فرصةً ليخبر أخته بكيفية سماعه عن تعلق رجل كبير المقام والسلطة بها وطلب منها أن تكشف له عن هويته. «فاذا كان شجاعاً حسن السمعة فلا يهمّ أصله وقوميته، مادام السيف في هذا العصر يمزج كلّ الشعوب ويجعلهم متساوين والاضطرار يجعل كلّ عمل شريفاً حيث الحقّ ضعيف، فعلينا أن نحمد اللّه إذا أتخذ شكل الرقّة». وعندئذ بعثت الفتاة تدعو صديقها. وعرفته بأخيها وأظهرت بعدها تجاوباً معه أكثر من الماضي. وزاد عطفها عليه بالنسبة التي توثقت بها صداقته بأخيها. الى أن أعتقد [التارنتي] بأن الضابط البروتي أصبح مهيئاً لقبول العروض التي أعدّها له، وأنه وهو الجندي المرتزق الواقع في اسر الحبّ، سيكون على اتمّ استعداد للرضا بالمكافآت السنحية التي وعده بها فابيوس، حسب الشروط التي سيتفق عليها.

(*) خسرها الرومان في ٢١٢ واستعادوها في ٢٠٩ ق.م.

والنتيجة تم عقد الصفقة، بتسليم المدينة للرومان. وهذه هي الحكاية الشائعة إلاّ أن بعضهم يرويها بشكل آخر. فيقول أن هذه المرأة التي أتخذت آلة لحمل [البروتي] على تسليم المدينة لم تكن [تارنتيّة] بل [بروتية] وانها جارية لفابيوس. ولكونها بروتية، وعلى سابق معرفة بحاكم المدينة البروتي فقد بعث بها سراً لإغرائه وإيقاعه في الشرك.

وعمد فابيوس الى تغطية مساعيه هذه - صرفاً لانتباه هنيبعل الى خطته - باصداره أمراً الى الحامية الرومانية في [ريگيوم Rhegium] بأن تجتاح البلاد البروتية وتعيث فيها سلباً ونهباً وان تلقي حصاراً على [كاولونيا Caulonia] وتكتسح الموقع بكلّ شدة وزخم. وكان قوام تلك الحامية ثمانية آلاف رجل هم أسوء ما في الجيش الروماني ومعظمهم من الهاربين استاقهم مارچللوس[٤٠] في صقلية بحالة غير مشرفة، ولم تكن خسارة هؤلاء بالأمر المزعج أو الاليم للرومان ولذلك القى بهم فابيوس طعما لهنيبعل، لصرف انتباهه عن [تارنتوم] فابتلعه حالاً وساق قواته الى كاولونيا. وفي الوقت نفسه كان فابيوس قد عسكر في ظاهر تارنتوم والقى عليها الحصار وفي اليوم السادس منه تسلل الفتى التارنتيّ ليلاً من المدينة. بعد أن تفحص بدقة الموضع الذي كان مقرراً أن يدخل منه الرومان المدينة حسب الاتفاق مع القائد البروتي، وقدم تقريراً بالموضوع كله الى فابيوس. الذي لم يجد من السلامة في شيء أن يعتمد اعتماداً تاماً على المؤامرة، بل أعطى الأمر بالهجوم العام براً وبحراًمن الجهة الأخرى بينما كان يتقدم بقواته سراً الى الموضع المتفق عليه - وفي الوقت الذي هرع التارنتيون لصد الهجوم عن المدينة، تسلّم فابيوس الاشارة في البروتي فتسلق الأسوار ودخل المدينة دون مقاومة.

وعلينا الإقرار هنا أن الطموح الجرمي تغلّب عليه فيما يبدو. اذ اراد أن يظهر للعالم بأنه فتح تارنتون بالحرب، وبمجهوده العسكريّ لا بالخيانة والخدعة، فأمر رجاله بقتل [البروتيين] قبل الآخرين، إلاّ انه لم ينجح في تثبيت هذا الانطباع كما رغب، ولم يحصل من جراه إلاّ على صفة القسوة والغدر. وقُتل عدد كبيرٌ من التارنتيين أيضاً وبيع ثلاثون ألفاً منهم في أسواق العبيد، وأعطي الجيش أسلاب المدينة، وجيء الى الخزينة العامة بثلاثة آلاف تالنت من النقد. وفيما كانوا ينقلون الأموال المنهوبة سأل الضابط المتسلّم ما الذي ينبغي عمله بآلهتهم؟ يقصد صورها وتماثيلها فأجاب [فابيوس]: «فلندع للتارنتيين آلهتهم الغاضبة» ومع هذا فقد حمل

---

(٤٠) لم يستقدم مارچللوس هذه القطعات العسكرية. والمسؤول عن استقدامها هو زميله [ليڤينوس]. الأول غادر صقلية قبل الاستيلاء على سيراقوز في [ليڤي ٢٦:٤٠] العدد يخفض الى اربعة آلاف كانوا يعيشون على كل انواع السرقات طوال اقامتهم في المدينة الصقليّة «انما ترنا».

تمثال هرقل الضخم. ووضعه في الكابتول الى جانب تمثال له على ظهر جواد، مصبوب من النحاس(٤١). وهي أعمال تختلف كثيراً عن أعمال مارچيللوس في مناسبة مماثلة، أظهرت في الواقع انسانيته وطيبة للعالم، كما أوضحناها في سيرة حياته(*).

قيل أن هنيبعل كان على بعد خمسة أميال عندما بلغه نبأ سقوط [تارنتوم] فأعلن قائلاً «لقد ظفرت روما أيضاً بهنيبعل، خسرنا تارنتوم مثلما كسبناها» وأسرّ الى خاصتّه للمرّة الأولى بأنه كان دوماً يرى السيطرة على ايطاليا أمراً عسيراً أمّا الآن وبالقوات التي لديه، فهو يرى الأمر مستحيلاً.

وبهذا الفوز منح فابيوس امتياز موكب النصر في روما، وفاق بفخامته وروعته موكبه الأول(٤٢) وأخذ الرومان ينظرون اليه كبطلٍ مغوار تعلّم كيف يقارع خصمه، ويحبط مكائده بسهولة ويصيب حذقه ومهارته بالعقم. والواقع هو أن جيش هنيبعل كان في هذا الزمن قد أصيب من جهة بالانهاك لدوام خوضه الحروب، ومن جهة بالضعف والتفسخ الخلقي لإفراطه في الترف والشهوات. وقد ازعج [ماركوس ليڤيوس Marcus Livius] التكريم والشرف الذي خُلع على فابيوس. وكان هذا حاكم [تارنتوم] عندما سلمت غدراً الى هنيبعل، فأنسحب متحصناً في قلعتها وظلّ ممتنعاً فيها حتى استعادها الرومان.

وفي احدى المناسبات صرح علنا امام مجلس الشيوخ إن الفضل في استعادة تارنتوم(٤٣) يعود الى مقاومته أكثر مما يعود الى مجهود [فابيوس فردّ عليه ضاحكاً «لقد أصبت كبد الحقيقة. فلو لم يخسر [ماركوس ليڤيوس] [تارنتوم]، لما استعادها فابيوس ماكسيموس».

ومن آيات التكريم والاعتراف بالجميل التي أضفاها عليه الشعب، انتخاب ابنه(٤٤) متصلاً لدورة السنوية التالية(**). وبعد تسلمه مهام منصبه بفترة وجيزة، عرضت أمور تتعلق

---

(٤١) من صنع ليسپّوس [سترابو ٦].

(*) أغنى مارچللوس روما بالتحف الفنية الاغريقية التي أخذها من سيراقوسه في ٢١٢ ق.م ويختلف راي ليڤي عن المؤلف فيقول ان فابيوس فتك بالأهالي وحافظ على الآلهة أما مارچللوس فقد حافظ على الارواح ولكنه نهب الآلهة.

(٤٢) بعد انتصاره على الليغوريين – انظر ما سبق.

(٤٣) ليڤي، يبدو هنا أقرب الى المنطق والمعقول. فالفخر المعزو الى ليڤينوس هنا وهو يكاد يحال الى المحاكمة، يظهر بعيداً عن الواقع. انظر كذلك شيشرون: الخطب ٢:٦٧.

(٤٤) يجانب پلوتارخ هنا الدقة الزمنية احياناً. فمن (ليڤي) يبدو أن ابنه وكان يحمل اسمه بالضبط، قد انتخب قنصلاً قبل استيلاء الأب على تارنتوم باربع سنين، ويحفظ لنا [ڤاليريوس ماكسيموس] بهذه المناسبة دليلاً دامغاً على تواضع الأب فابيوس ووطنيته. فقد علّق على دوام انحصار المنصب القنصلي في أعضاء اسرته قائلاً أن هذا خطر قد يهدد كيان البلاد.

(**) في السنة ٢١٣ ق.م.

بشؤون الحرب يقتضي تصريفها فجاء الأب للقاء الأبن ممتطياً جواده إما بداعي الشيخوخة والضعف أو ربّما متقصداً بذلك لاختبار ابنه، ولحظ الابن ذلك وهو ما يزال بعيداً عنه بمسافة، فأمر واحداً من حرس اللكتور أن يطلب من أبيه الترجل وأن يقول له، إن كان لديه عملٌ مع القنصل فعليه أن يدخل ماشياً. وبدأ على الحاضرين الاستنكار لصفاقة الابن وتجاسره على أب يتمتع ببالغ الاحترام لسنةً وسلطانه وتحولوا بانظارهم الى [فابيوس] وهم صامتون، فما كان منه إلاّ أن ترجل بسرعة وتوجه الى ابنه بمثل الركض وذراعاه مبسوطتان وعانقه قائلاً:

- أجل يا بني! ونعم ما فعلت. لقد أحسنت فهم السلطة التي أودعت اليك، وعرفت حق المعرفة على من تمارسها. فتلك هي السبيل التي استخدمها أجدادنا الأولون لرفع شأن روما. مفضلين دوماً شرفها وحنقها على ابائهم وأولادهم[٤٥].

والواقع أنه قيل عن والد جدّ فابيوسنا هذا[٤٦] ما يشبه ذلك. فقد كان بلاشكّ أعظم الرومان في عصره سمعةً وسلطاناً، نصب قنصلاً خمس مرات، وشُرِّف بالعديد من مواكب الظفر للانتصارات التي حازها. لم يرايّ بأس في أن يخدم برتبة ضابط تحت إمرة ابنه[٤٧] عندما ذهب بوصفه قنصلاً الى تسلم القيادة[*]. وعندما منح الابن فيما بعد[**] شرف الدخول في موكب النصر لحسن خدماته ركب الأب جواده خلف عجلة النصر كواحد من بطانته. فجعل من هذا مجداً له، إذ كان فعلاً أعظم الرومان على الاطلاق باقرار الجميع. كما انه يمارس سلطة الأب الكاملة على ابنه، ومع هذا خضع لحكم القوانين ولسلطة الحاكم.

على أن حمدنا ومديحنا بفابيوس لايُحَدّ بهذا. فقد ابنه بعد زمن وكان مثار الاعجاب في تحمله الخسارة العظمى بوداعة تليق بأبٍ فاضل وانسان حكيم. ومن عادة الرومان عند موت شخصٍ كبير المقام أن يلقى أحد أقربائه الأدنين خطبة تأبين، فقبل أن يقوم بهذا الواجب والقى خطبة في [الفورم] سجّلها كتابةً فيما بعد.

بعد أن أرسل [كورنيليوس سكيپيو] الى اسپانيا وانتصر على القرطاجنيين في عدة معارك

---

(٤٥) يقول ليڤي [٢٤:٢٦] بعد أن مرّ بأحد عشر لكتوراً وهو على صهوة جواده. أمر ابنه اللكتور الثاني عشر بان يقوم بواجبه. إلاّ أن فابيوس الأب أسرع يترجل وهو يقول «اني لأرغب يا بُني أن أعرف هل تدري بأنك قنصل؟ أم أنت لا تدري؟

(٤٦) يقصد به فابيوس روللوس الذي ورد ذكره في أول السيرة. [ليڤي ٣٨:٨].

(٤٧) هو كوينتُس كوركيس فابيوس هزمه السافيت. وكاد يعزل من منصب القنصلية لو لم يعد ابوه أن يقوم برعايته وتسديد خطاه في حملته الثانية وان يستخدمه مساعداً له [انظر ليڤي ٥:٩، وڤاليريوس ماكسيموس ٧:٥].

(*) في ٢٩٢ ق.م.

(**) في ٢٠٥ ق.م.

وطردهم من تلك البلاد وحصل لروما على مدن وأراضٍ ذات موارد عظيمة، عاد الى الوطن فأستقبله الشعب باعظم مظاهر الغبطة والحبور وكانت حماستهم به لا نظير لها وأنتخبوه قُنصلاً للدورة السنوية التالية برهاناً على امتنانهم. وكان يدرك انهم يأملون منه أعمالاً جساماً، ولقد رأى بعد تفكير أن قضيّة المنازعة على ايطاليا مع هنيبعل، هي مهنة الشيخ العاجز، فأقترح لنفسه مهّمة في غاية الخطورة وهي جعل قرطاجنة نفسها مرسح جربٍ، وملء وملء افريقيا بالجيوش والسلاح ونشر الخراب في ارجائها. وبهذا يُرغم هنيبعل على الانسحاب للدفاع عن بلاده بدلاً من غزو بلاد الآخرين، وسعياً وراء هذه الغاية بدأ يستخدم كل نفوذه وتأثيره على الشعب. إلاّ ان [فابيوس] عارض الفكرة بكل قوته، واقام المدينة وأقعدها قائلاً للرومان: لاشيء يوحي اليهم بهذه الآراء الخطرة إلاّ تهوّر وطيش فتى أهوج حارّ الرأس. ولم يدخر وسعاً للحيلولة دون تبنيّ هذه الخطة بالقول والفعل. ونجح في اقناع الشيوخ[٤٨] بالانحياز الى رأيه إلاّ أن العامّة أعتقدت أنه يغار من شهرة (سكيپيو) ويخاف أن ينجز الفاتح الشاب مأثرة عظيمة جليلة وربما يحرز شرف طرد هنيبعل من ايطاليا أو حتى انهاء الحرب التي ظلّت مستعرة عدة سنوات وكانت تحت ادارته تتعثر وتتلكأ.

وإن شئت الحقيقة، فإن [فابيوس] عارض مشروع [سكيپيو] في مبدأ الأمر، بدافع الحذر والفطنة، جاعلاً نصب عينه سلامة المواطنين ليس غير والخطر الذي قد تتعرض له الجمهوريّة بالنتيجة. ولكنه أندفع أكثر فأكثر في معارضته بعامل المنافسة والطموح عندما وجد مكانته ترتفع عند الشعب يوماً بعد يوم، فأنقلب في معارضته عنيفاً جارحاً، شخصياً حتى بلغ الأمر به الى الإتصال بكراسوس Crassus القنصل زميل [سكيپيو] وحثه على التمسك بالقيادة في ذلك الاقليم وعدم النزول عنه لزميله[٤٩]، بل عليه أن يقود الجيش بنفسه الى قرطاجنّة إن أستقرّ رأيه على ذلك. كذلك أوقف دفع المال [لسكيپيو] لانفاقه على الحرب ولذلك أرغم على استدانته بكفالته وضمانته من مدن [اتروريا Etruria] التي كانت متعلقة به للغاية. وكان [كراسوس] من الجهة الأخرى لا يرغب أن ينبرى لمعارضته ولا مغادرة ايطاليا، فهو بطبعه يكره كل أنواع الخصام والمعارضة كما وأنه يقوم باعباء وظيفة الكاهن الأعظم ومن شأنها أن تبقيه دائماً في البلاد.

---

(٤٨) بحسب المناقشات في مجلس الشيوخ بهذه المناسبة [انظر ليڤي ٢٨: ٤٠-٤٤] تجد كذلك خطبتي سكيپيو وفابيوس. وهما من أطرف ما يمكن.

(٤٩) لم يكن (كراسوس) يستطيع قيادة الجيش خارج ايطاليا بحكم منصبه الديني اذ كان يتقلد وظيفة (الكاهن الأعلى) وعليه أن يبقى (تاكيتوس الحوليات ٤٣:٧١). لذلك لم يكن من المحتمل ان يصرّ فابيوس على طلبه ويصل به الى هذا الحدّ. وان بدا السبب هو حبس الضروري من الارزاق عنه. ويفصّل ليڤي في العون الذي ساهمت به المدن الصديقة: كيري، پوپيولونيا، تاركويني، قولاترا، أربسيوم وغيرها وغيرها.

فحاول فابيوس وسائل أخرى لمعارضة المشروع وعرقل عملية النفير والتطوع وصرح في مجلس الشيوخ وأمام العامّة أن [سكيپيو] فضلاً عن هروبه من وجه هنيبعل، يعمل على تجريد ايطاليا من كلّ قواها، وأختلاس شباب البلاد لزجهم في حربٍ خارجية تاركين وراءهم آباءهم وأولادهم وزوجاتهم والمدينة نفسها دون دفاع تحت رحمة عدوّ فاتح منتصر على ابوابهم. بهذا كله آثار قلق الجمهور، الى حدٍ لم يسمحوا لسكيپيو أخيراً إلاّ باستخدام الفرق المعسكرة في صقلية للحرب، مع ثلاثمائة محارب يثق بهم ثقة خاصة كانوا قد خدموا تحت امرته في اسپانيا. ويظهر أن [فابيوس] إتبع في هذه الإجراءات ما أملاه عليه طبعه الحذر.

ولكن؛ ما ان نزل سكيپيو البرّ الافريقي، حتى بدأت(*) الأنباء ترد الى روما عن الانتصارات العجيبة والأعمال الرائعة التي يأتيها. وقد أيدّت وصفَها الغنائمُ التي ارسلها الى الوطن، ووقوع ملك نوميدي(٥٠) في الأسر، والمقاتل العظيمة في رجالهم. وحرق وتدمير معسكرين للعدو بما فيهما من كميات كبيرة من الأسلحة والخيل، وعندما أضطرت هذه الكوارث القرطاجنين، الى ارسال وفدٍ لهنيبعل تطلب منه العودة الى الوطن وصرف النظر عن آماله العقيمة في ايطاليا ورحل منها(**)، لأجل الدفاع عن قرطاجنة، هللت روما وكبّرت وعظّمت اعمال [سكيپيو] وخدماته الجليلة. ولم يكن لهذا كله تأثير على موقف [فابيوس] حتى أنه ارتائ أن يستبدل [سكيپيو] بخلفٍ يحل محلّه، متخذاً من «تقلبات الحظّ» وهو السبب القديم سنداً لادعائه، حتى لكأن آله الحظّ سيدركها الملل في ايثارها الشخص نفسه ببركتها! بهذه اللهجة بدأ عدد كبير من الناس يرتابون في اقواله ويستنكرونها منه. وبدت وكأنها سوء نية وتشاؤم، وخور نفس متأت من كبر السن أو خوف من ذكاء هنيبعل مبالغ فيه. بله عندما عبأ هنيبعل جيشه في السفن وغادر ايطاليا، لم يستطع أن يمسك نفسه عن المعارضة وتعكير فرح روما العام، مصرحاً بمخاوفه، وشكوكه قائلاً لهم أن الجمهورية لم تقع في خطرٍ مثلما هي فيه الآن وأن هنيبعل أقوى حراساً داخل اسوار قرطاجنة مما كان في ايطاليا. وان [سكيپيو] سيقضى عليه القضاء المبرم أذا ما أشتبك بمعركة مع جيوشه المنتصرة التي ما زالت تشعر بحرارة دماء العدد العديد من جنرالات الرومان ودكتاتوريهم وقناصلهم

(*) في السنة ٢٠٤ ق.م.

(٥٠) وقع سيفاكس في الأسر [ليفي ٣٠:٥ و ١١] بعد حرق معسكره ومعسكر هسدروبال. وهلك اربعون الفاً من الاعداء بالنار وبحدّ السيف وأسر أكثر من خمسة آلاف بينهم عدد كبير من نبلاء قرطاجنة. مع أحد عشر شيخاً، وغنمت مائة واربع وسبعون راية وأكثر من الفين وسبعمائة حصان نوميدي. وستة من الفيلة وقتل ثمانية. مع مقادير كبيرة من الأسلحة.

(**) في السنة ٢٠٣ ق.م.

الصرعى. وأجفل الشعب الى حدٍ ما، بهذه التصريحات حتى بدأوا يعتقدون أن الخطر أقرب اليهم كلما كان هنيبعل. أبعد عنهم. على أن [سكيپيو] لم يعتم أن قاتل هنيبعل والحق به هزيمة نكراء، وسحق عظمة قرطاجنة تحت قدميه(٥١)، وسنح بني قومه ما صبوا اليه من غبطة وسعادة فاقت آمالهم وثبتت قواعد امبراطوريتهم التي أضحت مهزوزة مضعضعة بكثير من العواصف.

على أن فابيوس ماكسيموس لم يعش ليرى نهاية هذه الحرب السعيدة وسقوط هنيبعل النهائي، ولا ليفرح لعودة الحياة المطمئنة السعيدة الى الجمهورية. ففي حوالي الزمن الذي غادر هنيبعل ايطاليا(٥٢)، سقط مريضاً وتوفي(*). في [تيبه] قضى [اپامنداس] نحبه فقيراً لا يملك شروى نقير حتى انه دفن على نفقة العامة. وقيل انه لم يعثر في داره إلاّ على قطعة نقد واحدة صغيرة القيمة. ولكن فابيوس لم يكن بحاجة الى هذا فالشعب نفسه تكفل بنفقات تشييعه باكتتاب خاص ساهم فيه كل مواطن باصغر قطعة نقد كدليل على حبهم له(٥٣) وبهذا أعتبروه والدهم العام وجعلوا مماته لا يقل شرفاً عن حياته.

اهم الاحداث العالمية في زمنه

٢٠٧ ق.م: اسد روبال في طريقه لنجدة هنيبعل - يهزم ويقتله كلوديوس نيرو.

٢٠٢ ق.م: يتغلب سكيپيو افريقانوس (الأكبر) على هنيبعل في موقعة زاما Zama بافريقيا.

٢٠٠ ق.م: بدأت الحرب المقدونية الأولى وأستمرت اربع سنين تقريباً.

---

(٥١) لاشك ان پلوتارخ يشير الى السفراء الشيوخ الذين ارسلوا الى سكيبيو عارضين عليه الصلح. اذ ما ان بلغوا خيمة الجنرال حتى انبطحوا على الأرض أمام قدميه جرياً على ما اعتادوه في بلادهم (ليڤي المرجع السالف) وثم حادثة اذلال مشابهة لزعماء المدينة العشرة الذين ارسلوا بعد معركة زاما Zama الكبرى، لعقد الصلح. [انظر أيضاً پوليبيوس ١٥].

(٥٢) بعد ذلك بقليل اتمّ هنيبعل انسحابه من ايطاليا وكان ذلك في ٢٠٤ ق.م. لابد وان (فابيوس) اصبح الآن شيخاً هرماً. فقد قال ليڤي معتمداً على من الكتاب انه ظلّ في منصب الكهانة اثنتين وستين سنة متوالية.

(*) في السنة ٢٠٣ ق.م.

(٥٣) يجب أن يكون المبلغ ضخماً جداً. فقد بلغ تعداد المواطنين الرومان في السنة التالية (٢١٤٠٠٠).

أوجه المقارنة بين فابيوسْ وپيركليس

لدينا هنا سيرتان غنيّان بالأمثلة، كلاهما ضربتا بالقدح المعلىّ في الحنكة السياسية والعسكرية، ولنقم الآن أولاً بمقارنتهما من جهة الكفاءة الحربية... ترأس پيركليس جمهوريته عندما كانت في أرفع درجة من الازدهار والرخاء، عظيمة السلطان منيعة الجانب، لذلك قد يتوهم ان نجاحه هو نجاح اعتياديّ وحسن طالع حفظه من كل عثار أو كارثة.

إلاّ أن مهمة فابيوس الذي اضطلع باعباء الحكم في أحرج الأوقات وأصعبها لم يكن ملزماً بمحافظة وترصين دولةٍ ثابتة الاركان مزدهرة الأحوال يرفل سكانها في بحبوحة من العيش. فضلاً عن أنّ انتصارات [كيمون] وغنائم النصر التي جاء بها [ميرونيدس وليوقريطس] مع العديد من مآثر [تولميدس] الشهيرة، إستخدمها پيركليس أساساً في ملء المدينة بمظاهر الافراح واللهو والحفلات الدينية أكثر من أستخدامه لها في توسيع وتوطيد دعائم امبراطوريتها. في حين وجد فابيوس أمامه عند توليه الحكم حالة ترتعد لها الفرائص. من جيوش رومانية ابيدت. وجنرالات وقناصل لها قتلوا، وبحيرات وسهول وغابات مملوءة بجثث القتلى. وأنهار أختلط ماؤها بدماء بني قومه. ومع هذا، فبأحكامه الناضجة الرصينة وبقوة ارادة فيه لا تتزعزع. كان كمثل من أسند بكتفه جدار الجمهورية المتقوض ومنعه من الإنهيار، بسبب ضعف واخفاق الآخرين وربما كان أسهل على المرء أن يحكم مدينة روّضها الزمان واناخ عليها بكوارثه وبلاياه، وأرغمها الخطر المحدق على الاصغاء لصوت العقل، من أن يسرج سرجاً على الطيش والجموح، وحكم شعب نعموا بعهد طويل من الاستقرار والرخاء كالآثينيين عندما أمسك پيركليس بأعنة الحكم. ولكن الشجاعة في فابيوس، وقوة ارادته الفائقة للعادة لم تقف حائرة خائرة امام مخلفات الكوارث المكدسة التي كان أهالي روما يومئذ يرزحون وئينون تحتها.

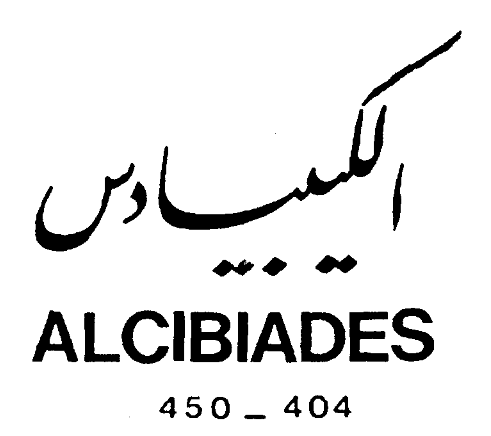
ويجوز لنا أن نضع استعادة تارنتوم أمام عمل پيركليس بجزيرة [ساموس]. وان نعادل فتح [ايوبيا]، بفتح مدن [كامپانيا]، وان كان إخضاع [كاپوا] بالذات قد تمّ على يد القُنصلين

[ڤولڤيوس Fulvius وآپيوس Appius]. ولم أجد معركة فاصلة واحدة أنتصر منها فابيوس باستثناء معركته مع [الليغوريين Ligurians] التي كوفيء عنها بموكب ظفرٍ. في حين نجد پيركليس قد أقام تسعة أنصابٍ لتسعة أنتصارات نالها براً وبحراً. إلا أننا لانجد عملاً لپيركليس يمكن مضاهاته بمأثرة انقاذ [مينوشيوس] الخالدة. عندما انتشل فابيوس جيشه وشخصه من هلاك محقق، انه لعمل جليل أمتزج فيه الاقدام بالحكمة والانسانية. ويبدو من جهة أخرى أن پيركليس لم يعان ما عاناه [فابيوس] من هنيبعل بثيرانه الملتهبة. فقد وقع عدوه تحت رحمته دون مجهود منه وبمحض الصدفة، ومع ذلك فقد تركه ينسّل انسلالاً من قبضته في جنح الليل، وعندما انبلج الصبح تعرض لأذاه واستبقه في ساعة النصر، وسيطر عليه أسيره بالأمس. وإذا كان من صفات القائد الجيّد أن لا تقتصر نظراته على الحاضر، وانما أن يتصف ببعد نظر فيما يستقبل من الزمان، فلا شكّ أن پيركليس يتفوق على فابيوس من هذه الناحية. لأنه حذّر الآثينيين وأنذرهم مسبقاً، بويلات الحرب وبما سيُجرّ عليهم طمعهم في ما يزيد عن مقدرتهم على ادارته. ولم يكن [فابيوس] بهذه المقدرة على التنبؤ عندما أخذ على الرومان تحمسهم لخطة [سكيپيو] ووجد فيها خراب الجمهورية. ولهذا كان پيركليس متنبئاً حسناً لنجاحٍ سيء، وكان فابيوس متنبئاً سيئاً لنجاح حسنٍ. والواقع أن خسارة منفعة بسبب فقدان الثقة في النفس ليست بأقل لوماً، من الوقوع في خطر بسبب الافتقار الى بعد النظر، على العموم. فكلاً النقيصتين مع أختلاف طبيعتيهما تنبعان من جذر واحد، هو الافتقار الى الخبرة واصالة الفكر.

وأمّا من الناحية السياسية فقد عزي الى پيركليس اثارة الحرب، عندما لم يقنع بالشروط التي عرضها اللقيديمونيون عليه. الحق يقال ان فابيوس أيضاً لم يكن بالذي يتنازل للقرطاجنيين عن أية نقطة بل كان مستعداً للمجازفة بالكلّ ولا يرضى باقتطاع جزءٍ من الامبراطورية الرومانية. إن طيبة فابيوس وحسن معاملته لزميله[مينوشيوس] تدين - بطريق المقارنة محاولات پيركليس لنفي [سيمون وتوكديدس] الرجلين النبيلين الارستقراطيين، اللذين حكم عليهما بالنفي والتشريد بسعيٌ منه. ولقد كانت سلطة پيركليس في أثينا أوسع وأعظم من سلطة فابيوس في روما. ولذلك كان أسهل عليه أن يحول دون الارهاصات الناجحة عن اخطاء ضباط آخرين وقلة كفاءاتهم، ولم يخرج أحد عن أمره غير [توليدس]، فقد قاتل [البويوتيين] خلافاً لرغبة پيركليس ونصحه، فقتل. إن قوة نفوذه جعل الآخرين يخضعون لحكمه ويطيعون أوامره. في حين ان فابيوس الواثق من حجته وصحّة حكمه لافتقاره الى السلطان الواسع - لم يملك الوسائل الكفيلة باصلاح هفوات الآخرين. ولقد كان من حسن حظ

الرومان لو أعطي سلطة أوسع، عندئذ ستقلّ الكوارث التي حلت بهم - على ما نعتقد.

أمّا عن الجود والبذل العام فقد أشتهر پيركليس بعدم قبوله اي هدية، وأشتهر فابيوس بافتداء الجنود الأسرى بماله الخاص وان لم يزد المبلغ عن ستة تالنتات. وفي الوقت نفسه لم يكن أحد كپيركليس بملك الفرص للشراء فقد عرض عليه الملوك والأمراء والحلفاء الهدايا الثمينة، ومع هذا لم يكن هناك أعفّ منه وأبعد عن الفساد، ويجب الأقرار هنا أن جمال المعابد والمباني العامة الفخمة التي زين بها پيركليس بلده لا تضاهيها في الرواء والهندسة كل ما بني وأقيم في روما من تأسيسها حتى أيام القياصرة وهو واحدٌ وهم كثيرون.



ALCIBIADES

450 — 404

المعروف عن [الكيبيادس] أنه منحدر بالأصل من نسل[1] [ايفريسكي Evrysaces] [*] ابن [أجاكس] من جهة الأب، ومن [الكيمون] من ناحية الأم. ووالدته [دينوماخي Dinom-ache] هي بنت [ميغاكلس] وابو [كلينياس Clinias] الذي جهز سفينة على نفقته الخاصة، نال أعظم الشرف في المعركة البحرية بالقرب من [ارتميسيوم] [2] وقتل فيما في موقعة [كورونيا Coronea] [**] ضد [البويوتيين].

وكان [پيريكليس واريفرون Areiphron] ابنا [كزانتيپوس] يتصلان به بنوع من القرابة من ناحية أوصيائه، وفي رواية لا أراها تخلو من الحقيقة، ان شعور الوّد الذي كان يحمله له [سقراط] يرجع غالباً الى ما ذاع عنه ومع أننا لا نجد كاتباً واحداً بين الكاتبين يذكر لنا خبراً عن والدة [نقياس Nicias] أو [ديموستينس] اللآماخُسي، أو [فورميون Phormion] الثراسيبولي Thrasybulus] وكلهم رجال ذاع صيتهم في تلك الفترة، فاننا نعلم أشياءً حتى عن مرضع الكيبيادس، فأسمها [أميكلا Amycla] وهي من لقيديمون. ونعلم أيضاً ان [زوپيروس Zopyrus] [3] كان معلماً ومرافقاً له والخبر الأول جاءنا من [انتستينس] والثاني أورده [أفلاطون].

ومن النوافل هنا أن نتحدث عن جمال الكيبيادس، ويكفي القول في هذا الصدد أن هذا

(*) افلاطون: الكيبيادس: ١.

(**) في السنة ٤٨٠ ق.م.

(١) شهد عدد كبير من أفاضل المؤرخين بعراقة اسرته ونبل محتده، وكادوا يجمعون كافة في الاتفاق على الخطوط العامة لسيرته مع أختلاف طفيف في الجزئيات. ان جدّ ميغاكلس المذكور في المتن، كام قد تزوج (اغاريستي) بنت (كلستينس) طاغية سيكيون. وانحدر من [الكيميون] الذي أشتهر اسلافه منذ عهد [تقيسفسن] مع العلم ان (خزانيتيوس) والد (پيركلس) تزوج أغاريستي ثانية هي بنت عم للأولى.

(٢) انظر هيرودوتس [١٧:٨] إن معركة (كورونيا) التي قتل فيها. انما وقعت في السنة الثانية من الاولمپياد الثالث والثمانين [ديودورس المرجع السالف ٦:١٢]. وكانت من أعظم النكبات التي حلت بالآثينين. فالقسم الأعظم منهم بات بين قتيل أو أسير. وصرع جنرالهم [توليدس] وقامت المدن البويوتية المستسلمة العديدة بافتداء الأسرى.

(٣) يحدثنا افلاطون في رسالته [الكيبيادس: ١] أن [زوپيروس] هذا، هو عبد تراقي أبق طاعن في السن.

الجمال بقي زاهراً طوال حياته ولازمه منذ حداثته وشبابه حتى رجولته، منسجماً مع كل مرحلة من مراحل عمره انسجاماً عجيباً، ومكسباً شخصه جلالاً وسحراً ومع أن قول [يوربيدس]:
«جمال الخريف، جميل أيضاً»

لايصدق بشكل عام، إلاّ أنه حقيقة واقعة في [الكيبيادس] من بين القلّة التي انطبق عليها القول. وهذا يعود الى جمال تكوينه ومتانة بنيته الطبيعية. ولقد قيل ان لثغة لسانه كانت تزيد من حلاوة نطقه، وتضفي على حديثه المتسارع طابعاً جذاباً، وشعوراً بالثقة والاقتناع. وقد اثبت [ارسطوفانس] ذلك في الأبيات التي نظمها بالتندر على [ثيوروس Theorus] قال: «قال الكيبيادس: لكم هو شبيه (بكولاكس Colax] قاصداً [كوراكس Corax = الغراب]، ثم يعلق الشاعر على هذا قائلاً: «ما أجمل ما يلثغ بالحقيقة!»

كذلك يشير [ارخيبوّس][٤] الى هذه اللثغة في قصيدة يسخر بها من ابن الكيبيادس:
«ولكي يتوهمه الناس صنو أبيه وشبهه تراه يمشي وكأنه مجبول بالنغمة غارق في الترف تاركا أهداب ثوبه تجرجر على الأرض خلفه. ويحني رأسه بقلة أكتراث ويتصنع اللثغة في حديثه.

وبدا في سلوكه مفارقات ومتناقضات بحسب تقلبات الزمن العجيبة المتعددة له. على أن الطموح ورغبة الاستعلاء كانت من أبرز النوازع التي تدمغ شخصيته بطابع قوي، وبدت منها لمحات في أقواله وتصرفاته أيام كان صبياً. فمرة ضايقه خصمه في مباراة مصارعة، ولما تبين أنه سيطرح أرضاً عضّ يد خصمه بكلّ قوته فأرخى في الحال قبضته عنه وقال «اراك يا الكيبيادس تعضّ كالمرأة» فردّ عليه «لابل كأسدٍ!» وفي مناسبة أخرى كان يلعب الزهر مع اتراب في عرض الشارع وهو بعد صبيٌ يافع، فأقبلت عربة حمل نحوهم، وكان قد حان دوره لالقاء الزهر فأهاب بالسائق أن يقف لأن رميته ستكون في طريق مرور العربة، فلم يكترث الرجل بقوله وواصل السير فأفسح بقية الصبيان للعجلة وانسحبوا الاّ [الكيبيادس] فقد انبطح على الأرض امام العربة ووجهه الى أسفل متحدياً السائق ان يمرّ ان استطاع. ففزع الرجل وبادر الى شدّ اعنّه الخيل وايقافها، وشاع الخوف في نفوس المستطرقين وأخذوا يتصايحون وهرعوا لإقالة الصبي.

وتميزت معاملته لمعلميه بالطاعة - عندما بدأ يتلقى أصول العلم. إلاّ أنه أبى ممارسة النفخ بالناي[٥]، وعده مهنة وضيعة لا تليق بالمواطن الحُرّ. وحجته في هذا ان العزف على العود أو

---

(٤) أحد كتاب الكوميديات الأقدمين.

(٥) هذا ما جاء ارسطو الى ذكره في [السياسة] فقد بحث ببعض اسهاب فوائد دراسة الموسيقى ومضارها.

المزهر لايحدث تشويهاً في جسم المرء أو وجهه بأية حالٍ من الأحوال، لكن النافخ بالناي يكاد لايعرف حتى من أقرب اصدقائه عندما يقوم بالعزف. زد على هذا أن العازف على المزهر يستطيع ان يغني أو يتكلم أثناء عزفه، لكن استعمال الناي يؤدي الى اطباق الفم وحبس الصوت ومنع اللسان عن النطق...

«فلندع اذن النفخ بالناي لشبّان [ثيبه] الذين لايعرفون كيف يتكلمون. أما نحن الآثينيين فلدينا - كما قال لنا أجدادنا - الربّة [منيرڤا] حاميةً والربّ [ابوللو] حامياً، الأولى نبذت الناي وعافته، والثاني سلخ جلد النافخ به[٦]» وهكذا عمل [الكيبيادس] بين جدّه وهزله على التخلص من ممارسة نفخ الناي، وغرس في الآخرين كرهه أو أن الشبان راحوا يتحدثون عن أحتقار الكيباديس له وسخريته بمن يتعلمه، فسقط هذا الفنّ وأُهمل بصورة عامة.

وفي النقد الشديد الذي ألّفه [أنتيفون Antiphon][٧] ضدّ الكيبيادس، ذكر انهُ هرب في حداثته مرةً ولجأ الى منزل [ديموقريطس] وكان هذا ممن أختص به وصاحبه. فعزم انتيفون التشهير به على الملأ، وهم بذلك لو لم يشنه [پيريكليس] بقوله: «إن كان قد مات فالتشهير به لن يعجلّ بالعثور عليه أكثر من يومٍ واحدٍ. وإن كان حيّاً سالماً فسيكون عملك سبّة له طوال حياته». ويقول [انتيفون] أيضاً، انه قتل واحداً من خدمه بضربة عصا في نادي سبرتيوس Sibyrtius للمصارعة. لكن ليس من المعقول أن نصدق كل ما يتخرص عدوه عنه، بعد اقراره علناً انه عازمٌ على تشويه سمعته.

ولم يمرّ وقت طويل حتى أخذ الكثير من ذوي الحسب والوجاهة يتنافسون دوماً على مصاحبته ووصاله، انما كان يجتذبهم منه ألمعيته وجماله الفتانّ اللذين فاقا العادة. على أن حبّ [سقراط] العظيم له، يصحّ أن يتخذ شاهداً قوياً على سجايا الفتى النبيلة وخلقه الحميد، وقد تمكن هذا الفيلسوف بنفاذ بصيرته من الكشف عنها في جمال خلقته، وفي مواطن سريرته. فقد وجد أن مقامه وثراءه والعدد الكبير من الآثينيين والأجانب يتملقونه ويمتدحونه، أمور قد تؤدي الى افساده، ولذلك قرر أن يتدخل في أمره ما وسعه ذلك للمحافظة على نبتة تبشر بأعظم الخير لئلا تذبل وهي ماتزال زهرة لم تنضج ثمرتها. فالحظّ لم يسعد أحداً كما أسعد الكيبيادس ولم يحطه كما احاطه بالكثير مما يدعى باللغة الدارجة «أموالاً». أو حماه

(٦) يشير افلاطون الى هذه العقوبة التي انزلت بـ(مارسياس) لكنه يعزو اسبابها الى أمور أخرى. وفضلاً عن هذا فأن الربة [أثينا منيرڤا] القت بالناي جانباً بعد أن شاهدت خديّها المورمّين المتقرحين منعكسين على صفحة ماء النبع. وغلب (ابوللو) المسخ (مارسياس) في مباراة على العزف فسلخ المغلوب حياً.

(٧) سفسطي العقيدة. عاش في أيام سقراط. وورد ذكره عند گزينفون في (الميموارىليا ١) وهو بصدد مناقشة هذا الفيلسوف. ولا وجود لهذه المحاورة وربما عزي ذلك كذباً الى [انتيفون].

من كل سلاح من أسلحة الفلسفة أو حصنه من أي غائلة من غوائل الطعن والتجريح. فقد كان من البداية هدفاً لتملق الذين لاينشدون غاية سوى ارضائه. مما كان يعمل على أضعاف نفسه، ويكرّهه بنصيحة اي ناصح أو واعظٍ صادق النية. ويشاء حظ عبقريته أن يستخلص له [سقراط] صديقاً من دون الجميع. فلصق به وأجتوى الاغنياء وأكابر القوم المتكالبين على صحبته، وما عتم حبل الودّ أن توثق فيما بين الاثنين بشكلٍ لا انفصام له. وأنقلب حال [الكيبيادس] فصار يعير أيضاً صاغية لكلّ حديث خلا من التهتك وفكرة العشق المخنث ومظاهر التودد السخيفة المتبذلة، وعرف حق المعرفة إنه يعاشر إنساناً هدفه الكشف له عن نواقصه العقلية، وقمع تعاليه الباطل المتبذل فمالبث: «عَرَفُه أن نام وذهبت كبرياؤه وتهدل جناحه كالديك المغلوب»

ووقعت مجهودات سقراط في نفسه موقع التقدير العظيم بوصفها أصحّ الوسائل التي تلجأ اليها الآلهة لإصلاح الشباب والعناية بهم. وعاد يحتقر ذاته، ويعجب بسقراط، ويداخله الفرح للعطف الذي يلقاه منه. ويقف موقف الخاشع من فضائله، وبدأ دون أن يشعر، يكّون في ضميره صورة انعكاسية متبادلة للحب و «لأنيتروس Anteros» الذي تكلم عنه افلاطون. وكان موضع دهشة عامة إذ رآه الناس يشارك سقراط طعامه ونزهاته ويساكنه خيمته، بينما أخذ يظهر صدوداً وتحفظاً تجاه كل من يحاول انشاء صلة به. ووصل صدوده من هؤلاء حَدّ الخشونة والمعاملة المهينة القاسية، ويذكر بنوع خاص معاملته لأنتيوس Anytus ابن [انثيميون Anthemion] الذي كان مغرماً به الى حَدّ الوله. ودعاه هذا الى وليمة كان قد أعدّها لبعض الأغراب فرفض [الكيبيادس] دعوته. إلا أنه أفرط في الشراب في منزله مع أصحاب له، وخرج ثملاً يقصد محل الوليمة ليلعب لعبة مزاح. ووقف عند باب الغرفة حيث المدعوون في قصفهم ولهوهم ونظر الى الموائد وقد تكدست فوقها اقداح الفضة والذهب، فالتفت الى خدمه وأمرهم أن يجمعوا نصفها ويحملوه الى بيته ثم غادر المنزل(٨)، مترفعاً حتى عن الدخول الى غرفة الوليمة وعصفت سورة من الغيظ في نفوس الجماعة، وراحوا يندوون بمسلكه الشائن المهين، لكن انتيوس اسكتهم قائلاً انه لايتفق معهم في هذا، وان الكيبيادس أظهر كياسةً وحسن تصرفٍ عظيمين اذ أخذ الجزء بينما كان يستطيع أن يأخذ الكلّ!

وكان سلوكه هذا واحداً مع جميع عاشقيه الذين يريدون وصاله، إلاّ أجنبياً واحداً كان كما

---

(٨) يقول [أثينيوس] انه لم يأخذها لنفسه. لكنه انتزعها من صديقه الغني ليعطيها [تراسيللوس] الفقير. وهو ما يخفف من وقع الحكاية الى حدٍ ما. كان انتيوس أحد الرؤوس الذين وجهوا الاتهام لسقراط فيما بعد.

تروى الحكاية يملك عقاراً صغيراً ليس له غيره فباعه بمبلغ يناهز مائة (ستاتر)[٩]، وقدّمه لالكيبيادس ورجا منه قبوله فابتسم الكيبيادس مسروراً بهذه المبادرة ودعاه الى العشاء وبعد أن أكرمه وأحتفى به أعاد اليه ذهبه وطلب منه الحرص على الحضور في اليوم الثاني عندما تعرض جباية الضرائب العامة للمزايدة وان يتدخل بين المزايدين ولا يكفّ عن رفع السعر. فطفق الرجل يعتذر لأن المبلغ المطلوب جسيم للغاية وقد يبلغ كثيراً من التالنتات. إلاّ أن [الكيبيادس] الذي كان في ذلك الحين يحقد حقداً خاصاً على متعهدي الجباية الحاليين - هددّ الرجل بالضرب إن هو رفض طلبه. وفي اليوم التالي حضر الغريب ساحة السوق وزاد تالنتاً واحداً على السعر الحالي. فثار غضب الجباة ثم أخذوا يتشاورون فيما بينهم وتوجهوا نحوه طالبين منه تسمية التأمينات التي ثبت أهليته، مستنتجين بأنه لن يجد أي ضمانٍ. فافزعه هذا الطلب وبدأ يتراجع ولكن الكيبيادس الذي كان واقفاً عن كثب نادى الحكّام قائلاً: «ضعوا أسمي الى جانب اسمه. انه صديق لي وساكون ضامناً له». ولما سمع المزايدون الآخرون ذلك، ادركوا أن محاولتهم هذه قد أخفقت. وكانوا في محنةٍ لأنهم ارادوا بارباح السنة التالية أن يدفعوا بدل تعهد السنة السالفة. ولم يجدوا مخرجاً من ورطتهم هذه إلاّ بالرجاء من الرجل الغريب وتقديم مبلغ من المال. ولم يرض الكيبيادس له بأقل من [تالنت] واحد، وعندما دفع له ذلك أمره بكفّ يده عن المزايدة، وبهذه الحيلة أخرجه من ضيقه المالي.

ومع أن [سقراط] كان له كثير من المنافسين الأقوياء. فان سجايا الكيبيادس الخلقية الطيبة أعطت صداقته السيادة على كل المنافسين. كانت كلمات الفيلسوف تؤثر فيه أعمق تأثير حتى تستدر الدموع من عينيه، وتهزّ نفسه هزاً عنيفاً. على أنه كان في بعض الأحيان يستمريء تملقّ المتحلقين عندما يزينون له تعاطي مختلف الملذات، فيترك [سقراط] الاّ أن الفيلسوف يتبع آثاره كأنما يطارد عبداً آبقاً. وكان السيبيادس يحتقر الناس ولم يحترم أو يجلّ أحداً سواه. ويقول الفيلسوف [كليانثس Cleanthes] في معرض حديث له عن شخص كان لصيقاً به: إن اذنيه هما مجال تأثيره الوحيد فيه، بينما كان منافسوه على صداقته يملكون منه سائر المجالات الأخرى للتأثير فيه. وليس من سبيل للشكّ في أن (الكيبيادس) كان ضعيفاً للغاية أمام مباهج الحياة سهل الوقوع في حبائلها. وان العبارة التي استخدمها ثوكديدس لوصف سبيل العيش المفرط في الملذات الذي اختطه الكيبيادس يؤكد هذا الاعتقاد الاّ ان الذين حاولوا افساده استفادوا بالدرجة الأولى من نزوعه الى الطموح والغرور ليدفعوا

(٩) عملة (ستاتر) تزن اربع دراخمات آتيكية. وقد تكون من الذهب أو الفضة. والفضة منه تعادل قيمته دولاراً امريكياً واحداً على وجه التقريب. أما (ستاتر داريكوس) فهو النقد الذهبي الآتيكي ويجب أن يكون أعلى قيمة من هذا بكثير اذا ما حسبت نسبة تحويل الذهب الى فضة بواحدٍ الى عشرة.

به قبل الآوان الى ركوب أعظم المغامرات. وأقنعوه بأنه ما أن ينصرف الى الشؤون العامة حتى تكسف شمسه شمس كل الساسة والقادة، بل سيفوق پيريكليس شهرة وسلطاناً في بلاد الأغريق. وكثيراً ما لاحظ سقراط مع هذا - أن مثل الكيبيادس كمثل الحديد تلينه النار وتصلبه البرودة وتشدّ أجزاءه ثانية. تضله الكبرياء والترف سواء السبيل، ليعود نادماً مصححاً أخطاءه بنصائح الفيلسفوف، ويستقيم ويتضّح عندما يوضح له النقائص الكثيرة التي فيه، وكم هو بعيد عن كمال الأخلاق.

عندما اجتاز دور الحداثة قصد مرّة مدرسة للنحو وطلب من الاستاذ أحد كتب هوميروس. ولما أجابه انه لايوجد شيء من مؤلفات هوميروس، أهوى عليه بلكمةٍ وخرج. ومرة قال له معلم آخر أنه نقحّ آثار هوميروس بنفسه. فقال الكيبيادس:

- كيف؟ وهل تصرف وقتك في تعليم الصبيان القراءة؟ أنت الذي تتمكن من تصحيح هوميروس ما أجدر بك أن تثقف الرجال.

ورغب يوماً أن يبادل پيريكليس الحديث فقصد منزله فقيل له أن پيريكليس ليس فارغاً له، لأنه مشغولٌ في التفكير بكيفية تقديم تقرير باعماله للآثينيين فقال الكيبيادس وهو ينصرف خير له أن يفكر في كيفيةٍ يتجنب بها تقديم أي تقريرٍ ما».

وفي مطلع شبابه كان جندياً في الحملة التي جردت على [پوتيديا][*] وكان سقراط يساكنه في عين الخيمة، ويقف في المعركة الى جانبه. ومرة حصل اشتباك عنيف، أبديا فيه شجاعة عزّ نظيرها إلاّ ان الكيبيادس أصيب بجرح ووقف سقراط حاجزاً امامه يحميه، ولم يساور الشكّ أحداً في أن هذا العمل أنقذ صديقه مع سلاحه من الوقوع في يد العدوّ وكان العدل يقضي أن يمنح سقراط جائزة البسالة لعمله هذا. إلاّ أن القادة مالوا الى منح الكيبيادس هذا الشرف بسبب مركزه الطبقي. وكان سقراط يرغب في أن يزيد من تعطشه الى المجد النبيل القصد، فأنبرى أوّل شاهدٍ له، والحّ عليهم لضفر أكليل الغار على رأسه وخلع شكة سلاحٍ كاملة عليه. وبعد هذا، لما هُزم الآثينيّون في موقعة [دليوم Delium][١٠] وفيما كان سقراط مع فلولٍ قليلة العدو تتراجع ماشيةً، اذ لمحه الكيبيادس وكان على صهوة حصانة، فلوى عنانه ولم يمضِ عنه بل وقف ليحيمه من الخطر، حتى نقله سليماً معاني رغم أن زخم الهجوم كان شديداً

(*) في العام ٤٣٢-٤٣١ ق.م.

(١٠) يخبرنا [لاخيس] الذي كان ملازماً سقراط في ذلك الحين ان الآثينين ما كانوا ليهزموا لو وقف سائرهم الوقفة التي وقفها سقراط وصمدوا وادوا واجبهم مثله [ثوكيديوس ٢:٢، ٤:١٠١]. ان افلاطون الذي نقلنا عنه هذه الرواية عن حادث (پوتيديا) يزعم اثينيوس بأنه أختلق هذه الرواية على كلٍ ليكرم ذكرى استاذه. وهذه المعركة جرت في الالمپياد التاسع والثمانين اي بعد وقعة پوتيديا بثماني سنوات.

عليهم والمقتلة فيهم عظيمة. على أن ذلك حصل بعد زمن بعيد.

ومرة صفع [هيپونيكوس Hipponicus] والد كالّياس Callias وهو رجل عظيم الشأن كبير المقام لنسبه العريق وثرائه، فعل ذلك دون سبب أو استفزاز أو سورة غضب مفاجئة، أو خصام نشأ بينهما. بل لأنه تراهن مع صديق له في لحظة مزاحٍ، بان يقدم عليها. وسخط الناس سخطاً شديداً على هذا الاعتداء عندما انتشر خبره في المدينة. إلاّ أن الكيبيادس قصد منزل هيپونيكوس في صباح اليوم الثاني الباكر وطرق الباب، فسمح له بمواجهة المعتدى عليه، وهناك بادر الى خلع ردائه الخارجي وعرض جسمه العاري له ليجلده ويعاقبه كما يحبّ ويشتهي فنسي هيپونيكوس كل ما شعر به حنق ولم يكتف بالعفو عنه بل زوجه بعد قليل بابنته [هيپاريته Hipparete]. ويقول بعضهم أن كالياس ابنه هو الذي اعطى هيپاريت، وليس اباه. ومهرها بعشرة تالنتات، وان الكيبيادس عندما انجبت له ابناً أرغمه على أعطائه عشرة تالنتات أخرى مجتحاً بأن الاتفاق قد تمّ بينهما على ذلك عندما تنجب هيپاريت. ودبّ الخوف في قلب كالياس من أن يدبّر الكيبيادس اغتياله فأعلن في اجتماع عمومي للمواطنين الآثينيين، أن بيته وأمواله كلها وقفٌ للدولة إن توفي بلا عقب. وكانت هيپاريت زوجاً مخلصة رفيعة الخلق، إلاّ أنها زهقت أخيراً وعيل صبرها للإهانات التي كانت تلقاها من زوجها لمعاشرته المستمرة للعاهرات الآثينيات والاجنبيات، فانفصلت عنه ولجأت الى منزل أخيها ولم يبد الكيبيادس أهتم بالأمر مطلقاً وواصل حياته الدنسة إلاّ أن القانون كان يتطلب أن تحضر بنفسها أمام [الأرخون] لا بوكيل ينوب عنها وتقدمّ الدليل الذي يعطيها حق الادعاء بالطلاق. فتطبيقاً لحكم القانون تقدمت بشخصها للإدعاء، فجاء الكيبيادس ورفعها بيديه وحملها الى منزله ماراً بساحة السوق دون أن يجرأ أحدٌ على أعتراض سبيله أو استخلاصها منه. فبقيت في كنفسه حتى وفاتها التي حصلت بعد فترة ليست طويلة عندما كان الكيبيادس في [أفسُس Ephesus]. ولم تكن هذه الفعلة تعتبر من الكبائر أو مما لايليق بالرجال. لأن القانون الذي أوجب على طالبه الطلاق أن تحضر في مجلس علني، يبدو أنه قصد بهذا أعطاء زوجها فرصة لاقناعها والعمل على اعادتها.

كان [الكيبيادس] يملك كلباً اشتراه بسبعين [مينا] (*)، ضخم الجسم في غاية الرشاقة والجمال. وكان ذيله أظهر حليةٍ فيه، فعمد الى بتره[١١]، وراح كل اصحابه يلومونه على فعلته وقالوا أن آثينا آسفة على ما حل بالكلب ولا حديث لأهلها إلاّ أستنكارها مضحك

(*) ما يعادل ٧٠٠٠ دراخما.

(١١) عن لونكهورن: إن التمثال الأثري النفيس الذي يمثل هذا الكلب مقطوع الذيل موجود الآن في دونكومبه پارج في مقاطعة يوركشاير بانكلترا. الموقعة حصلت في العام ٤٢٤ - انظر افلاطون [المحاورات].

وقال: «ما قصدته حصل بالتمام اذن. كانت رغبتي أن يتحدث الآثينيون عن هذا حتى لايتقولوا بالسوء عني».

وقيل أن أول حضوره مجلس العموم كان مناسبة تقديمه منحةً مالية للشعب. ولم يكن عمله هذا نابعاً عن سبق تفكير به، بل صدر منه عفواً بينما كان ماراً في سبيله، اذ سمع صيحةً فسأل عن السبب فأعلم أنه تبرّع عامٌ للشعب فجاء اليهم وتبرّع هو أيضاً. فهتف له الجمع وصفقوا، وأخذ بالمفاجأة، حتى أنه نسيَ سمانيّاً quail كان يخفيه تحت عباءته، فأجفلته الضجة وأفلت طائراً، وزادت هذه الحادثة من ضجيج الناس وهتافهم وأنطلق كثير منهم وراء الطائر، وتمكن أحدهم، [انطيوخُس Antiochus] الملاحَ من امساكه واعادته له، فجعلته هذه الحادثة من أعزّ اصدقاء الكيبيادس(١٢).

كان لديه كثير من المؤهلات العظيمة للدخول في معترك الحياة السياسية فشرف نسبه، وثراؤه، والبسالة التي ابداها في مختلف المعارك وكثرة أصدقائه ومشايعيه، فنحت كل الأبواب بوجهه على ما يقال إلاّ انه لم يرض أن يدع نفوذه مع الشعب يستند كل شيء غير موهبة الخطابية ومضاحته. أما وانه استاذ من الخطابة فهذا ما يشهد به الشعراء الساخرون. وأعترف له أقدر الخطباء الجماهريين إنه الى جانب مواهبه الأخرى - بلغ الذروة في فن الخطابة، بخطابه الزي ألقاه ضَدّ ميدياس [Midias](*).

واذا وثقنا بكلام [ثيوفراستوس] وهو من دون كل الفلاسفة أكثرهم تحقيقاً وتدقيقاً وحبّاً للتاريخ، فلنا أن نذكر أن الكيبيادي كان ذا قدرة عجيبة على استنباط واستخراج كل ما هو صائب وصالح القول لأي غرض ولأي مناسبة، مع وضعه في قالب لفظي بليغ لفظاً وتركيباً، وعندما لا تحضره العبارات المناسبة أو الكلم الدقيق فكثير ما يسكت وهو في وسط حديثه ويظلّ صامتاً حتى يقع على التعبير المنشود ويسيطر على نفسه.

وكانت نفقاته الضخمة على خيول الالعاب العامة والعدد الكبير الذي يحتفظ به من العجلات موضع حديث الناس، اذ لم يرسل أحد غيره -ملكاً كان أم شخصاً عادياً- سبع عجلات مرة واحدة الى الالعاب الاولمپية وان يفوز دفعة واحدة بالجوائز الأولى والثانية والرابعة

(١٢) في تلك الايام كانت تربية طائر السماني شائعة. وكان سقراط قد نصح الكيبيادس بقوله ان بروزه في الحياة العامة يقتضي منه المزيد من الدراسة يحقق تفوقه على قادة العدو. ثم عقب بمزاح قاس «كلاّ كلاّ يا الكيبيادس، ان الدرس الوحيد الذي انشغلت به هو كيف تتفوق على [فيدياس] في تربية السّماني! [افلاطون: الكيبيادس ١] كان اسم الرجل الذي امسك بطائر الكيبيادس سيبقى مغموراً لو لم يُنيبُه في قيادة الاسطول عند غيابه. وعندما سخت له فرصة أصيب بشرّ هزيمة.

(*) ديوستينس: «ضد ميدياس» ١٤٥٠.

(على قول ثوكديدس)[*] أو الثالثة (على قول يوربيدس). فيسبق بدرجة عالية جداً كل امتياز عرف أو منح في هذا الباب. وقد حيّا يوربيدس فوزه بالابيات التالية:

إن نشيدي هذا واجب لك عليّ يا ابن كلينياس

النصر نبيل ولكن الانبل منه أن تنجز ما لم ينجزه أحد من اليونانيون قبلاً

أن تفوز في سباق العجلات الكبير، بالدرجة الأولى والثانية، وتخرج من السباق دون أن يصيبك التعب.

وتجعل المنادي يطلب ثلاث مرات أكليل زيتون زفس[١٣]

إن التنافس الذي ابداه مختلف وفود الدول - في تقديم الهدايا له زاد من قدر نجاحه. وضرب له وفد [أفسّس] خيمة ذات زخارف في نهاية الفخامة، وأهدته مدينة [خيُوس] علفاً لخيوله مع كثير من حيوانات الأضاحي. وأرسل له وفد [ليسبوس] خموراً وزاداً للولائم الكبرى التي أقامها[١٤]. على أن لم يخلص من الألسن الحادة والنقد رغم كل هذا، وحصدوه إما لسوء طبع أعدائه. أو لسوء سلوكه. فقد قيل أن آثينياً يدعى [ديوميدس] من سراة القوم، وصديق لالكيبيادس، كان شديد الرغبة في الفوز بالسباق الأولمبي وكان قد سمع الكثير عن العربة التي تملكها الدولة في [آرغوس]، ولعلمه أن الكيبيادس يتمتع بمنزلة ونفوذ كبيرين هناك واصدقاء كثر، رجا منه أن يتوسط لشراء العجلة له، واتباع الكيبيادس العربة فعلاً وأختصها لنفسه، تاركاً وديوميديس يتميز غيظاً منه. ويبتهل الى الآلهة ويدعو الناس ليشهدوا الظلم الذي أصابه. ويبدو أن دعوى أقيمت في المحكمة بهذا الخصوص، كما يوجد لدينا مقولة عن العجلة كتبها [ايسوقريطس Isocrates] دفاعاً عن ابن الكيبيادس. إلاّ ان المدّعي في هذه الدعوى هو [تسياس Tisias] لا [ديوميدس].

وما أن بدأ يدخل معترك السياسة ويتدخل في شؤون الحكم وهو ما يزال فتىً يافعاً، حتى أضعف منزلة جميع أولئك الذين استوحوا الثقة من الشعب، ما عدا [فاياكْس] ابن

(*) هو Epini Kion أو ترتيله، النصر مثل اناشيد پندار الميسورة.

(١٣) فاز الكيبيادس بالجوائز الأولى والثانية والثالثة بشخصه في حين فازت عربته في غيابه مرتين.

(١٤) يكتب [انتستينوس تلميذ سقراط ان مدينة [خيوس] كانت تقدم العلف لخيله. وخيزيكوم تؤمن له الأضاحي، هذه العبارة تستحق التأمل فقد علمنا منها ان ذلك لم يقتصر على مناسبة ذهاب الكيبيادس الى الالعاب الاملبية بل تعداه الى حملاته العسكرية وتنقلاته. فيقول بهذا الصدد: «كلما سافر الكيبيادس قامت اربع مدن على خدمته كما تقوم وصيفات على الخدمة في البيت. و(أفسيس) تمدّه بخيم فاخرة شبيهه بالخيام الفارسية. و[خيوس] تمده بعلن دوابه. و[خيزيكوم] تمدّه بالاضاهي والارزاق موائد طعامه، [لسبوس] ترسل اليه الخمر وكل ما هو ضروري لادارة بيته».

[ايرسيستراتوس Erasistratus] ابن [نسياس] ابن [نيكيراتوس Niceratus] الذي وقف وحده في حلبة المنافسة خصماً له. كان [نسياس] قد عاد وهو في سنٍّ متقدمة، ونصب قائداً أعلى. وكان [فاياكس] كالكيبيادس سياسياً صاعداً. وهو سليل بيت عريق لكنه يقلّ شرفاً وعراقة عن نسب الكيبيادس كما كان يقلّ عنه في أمور شتىّ أخرى في مقدمتها البلاغة. على أنه كان يتمتع بمقدرة نادرة على الاقناع في مجال الأحاديث الخاصة، لا في نقاش عام امام الشعب. وكما قال فيه [يوپوليس Eupolis]:

«هو اخر المتحدثين واعجز الخطباء»

هناك مقالة نقد كتبها [فاياكس][*] في الكيبيادس. ذكر فيها مما ذكر. أنه كان يستعمل يوميّاً على مائدة طعامة أواني الذهب والفضة التي تعود للمواكب والحفلات العامة كأنما هي ملك خاص[١٥] به.

كان ثمّ رجل اسمه [هيپربولوس Hyperbolus] من مدينة [پيريثودي Perithodae] يذكر عنه (ثوكديدس)[١٦] أيضاً، بأنه رجل سيء الخلق، وموضع سخرية عامة لكلّ الكتاب الهزليين في عصره، لايهتم قطّ بما يقولون عنه مهما بلغت أقوالهم من السوء فيه. وهو عادم الاكتراث بالسمعة، قليل الإحساس بالعار، خُلُقٌ ير يعدّه بعض الناس جراءة وشجاعة. في حين أنه وضاعةٌ وقلة حياء. لم يكن يحبّه أحدٌ إلاّ أن الناس كثيراً ما أستخدموه كلما انصرفت نيتهم الى تحقير شخص في الحكم أو اساءة سمعته. وفي هذا الوقت كان الشعب بناء على تحريض هذا الرجل، مهيئاً للأضطلاع باجراءات أصدار حكم بالنفي لمدة عشر سنوات وهو ما يطلق عليه «النفي من دون محاكمة Osracism». وكانوا يلجأون الى هذه العقوبة لإذلال وطرد المواطنين الذين تفوقوا على غيرهم في في السطان والشهرة وكانت دوافع الحسد والغيرة في عملهم هذا تغلب على دافع التخوف والحذر من خطر المحكومين بها. ولم يكن أنذاك من شكّ في ان العقوبة ستقع على أحد الثلاثة. وبذل الكيبيادس جهده ليقيم ائتلافاً بين الاحزاب وفاتح [فسيساس] بمشروعه، وكانت نتيجته وقوع النفي عن نصيب [هيروبولس]. ويقول

(*) هذه المقالة وصلتنا من بين خطب اندوفيدس (الرابعة) وهي واضحة التصنيع نحلّها مؤلف مجهول لسان فاياكس.

(١٥) الظاهر انه كان يستعير هذه الصحاف المكرّسة فيبخسها بالاستعمال الدنيوي ولا يعيدها الا قبيل المواسم الدينية للعرض كي يبدو للأغراب وكأنها ملكه وانه أعارها للمدينة. اما (فاياكس) فقد جاء ثوكيديدس الى ذكره ووردت مقالته هذه بين خطب [اندوقيدوس: الخطب ٤] وهي خطبة واضحة الزيف نحلّها كاتبها المجهول لسان [ماياكس].

(١٦) التاريخ الطبيعي ٨:٧٣.

آخرون انه لم يشاور [نسياس] في هذا الأمر بل [فاياكس]، وبمساعدة حزبه ضمن قرار النفي بحق [هيپربوليس] عندما كان أقل الناس توقعاً له، فقبل هذا لم يقع تحت طائلة العقوبة شخص نكرة وضيع. وكان الشاعر الساخر افلاطون مصيباً كبد الحقيقة في قوله عن [هيپربوليس]: «مع هذا استحق المصير الجدير بالغابرين، المصير الذين لايستأهله أمثاله من الرجال لأمثاله، وللعبيد الموسومين بميسم العبودية.

على أننا أثبتنا في موضع آخر تفاصيل أوفى، مما نما الى علمنا في هذا الشأن.

ولم يكن الكيبيادس بأقل هَمّا بخصوص المنزلة الرفيعة التي نالها [نيقياس] لدى اعداء اثينا، من التشريف الذي خلعه الاثينيون عليه في الوطن. فمع أن [الكيبيادس] كان الشخص المعين رسمياً لاستقبال كل اللقيديمونيين عند قدومهم الى آثينا، ومع أنه أهتم إهتماماً خاصاً بالأسرى الذين أخذوا في [پيلوس Pylos][(١٧)] فإنهم خصّوا [نيقياس] وحده بالتكريم والتجلة بعد أن نالوا سلماً واستعادوا الأسرى بمسعى [نيقياس] بالدرجة الأولى وكان القول المأثور في بلاد الأغريق أن بيريكليس بدأ الحرب و[نيقياس] انهاها، وان السلم نُعت رسمياً[(١٨)] بسلم [نيقياس] اظطرب الكيبيادس اضطراباً شديداً لهذا الأمر ولما كان الحسد يملاؤه فقد راح يعمل على تشتت شمل العصبة المتحالفة. فوجد أولاً ان الأرغوسيين يريدون الحماية من غائلة اللقيديمونيين خوفاً وكرهاً.

فعقد بينهم وبين آثينا حلفاً معززاً بميثاق سري، واتصل بصورة شخصية وبطريق المراسلة مع رؤساء المستشارين في ارغوس مشجعاً أياهم على طرح جانب الخوف من اللقيديمونيين، وعدم التنازل لهم عن شيء ما. ونصحهم بالتريث قليلاً وان يبقوا شاخصين بأنظارهم الى الآثينين الذين أدركهم الندم الشديد للجنوح الى السّلم وانهم لن يلبثوا ان ينقضوه.

ووجد [الكيبيادس] أيضاً أن اللقيديمونيين كانوا قد عقدوا صلحاً ومعاهدة تحالف مع البويوتيين، من شروطها أن يسلّموا لهم مدينة [پاناكتوم Panactum] سليمةً، إلا أنهم لم يسلّموها إلاّ بعد أن دمّروها[(١٩)] مما أثار غضب الآثينيين الشديد. ولذلك أسرع الكيبيادس

---

(١٧) في العام ٤٢٥ ق.م وهي تعزى خطأ الى [نيقياس] من قبل پلوتارخ وغيره من المؤرخين. فثوكيديدس يعلمنا ان تسمية (الكيبيادس) جاءت من الجهة اللقيديمية. وان «حقوق الضيافة» المذكورة في النصّ بدأت بين ابيه [كلينياس] وبين الكيبيادس والد اڤيديوس Eudius أحد الايغوري الذي كان قد حلّ ضيفاً عليه في آثينا، فمنح اسمه لابنه (تكريماً) وعلى سبيل المقابلة بالمثل سمّى الكيبيادس أحد ابنائه (باڤيديوس)اسم الضيف اللقيديمي:

(١٨) جرى عقده في السنة ٢٤١ ق.م.

(١٩) قلعة على حدود بويوتيا وآتيكا. [انظر ثوكيديدس ٥:٣، ٤٢].

ينتهز الفرصة، ليسعرً من غيظ مواطنيه مهاجماً [نقياس] هجوماً عنيفاً ومتهماً إياه بأشياء كثيرة لم تكن تخلو من الحقيقة. منها انه لما كان جنرالاً لم تبدر منه بادرة لأسر جماعة من جنود العدو[٢٠] كان قد قطع عليها سبيل الهروب في جزيرة [سفاكيتريا Sphacteria]، ولما قام آخرون بأسرهم سعي شخصياً الى إطلاق سراحهم وإعادتهم الى اللقيديمونيين لنيل الحظوة عندهم. ثم انه لم يستخدم نفوذه لديهم، لمنعهم من عقد هذا الحلف مع الكورنثيين والبويوتيين، بينما عمد من الناحية الأخرى الى اعتراض سبيل بعض الدول الأغريقية التي كانت تحبذ عقد معاهدة تحالف وصداقة مع آثينا لأن اللقيديمونيين لايرغبون في ذلك.

وفي هذا الزمن الذي بدأت منزلة [نيقياس] وسمعته تهويان الى الحضيض في عيون الشعب بمساعي الكيبيادس وفنونه، وأتفق أن حضرت سفارة من لقيديمون الى آثينا وصرح اعضاؤها انهم جاؤوا يحملون شروطاً مرضية جداً وانهم مفوضون مطلقو الصلاحيّة في تسوية كل ما هو موضوع نزاعٍ بشروط مبنية على أسس العدالة والمساواة. ونالت مقترحاتهم قبول مجلس الشورى وأعلن انعقاد مجلس العموم في اليوم التالي لتجرى فيه مناقشة عروضه. فأشتبدّ القلق بالكيبيادس لتطور الأمور بما لايشتهيه، وعمل على ان يجتمع بالسفراء سراً فتمّ له ذلك. ووجه اليهم القول التالي:

- ما الذي تسعون وراءه يا رجال سپارطا؟ أهكذا يغيب عن بالكم أن المجلس اعتاد دائماً أن يتخذ موقف الإحترام والإعتدال من كل السفراء؟ إلاّ أن جماهير الشعب خلاف ذلك فهي طموحة مندفعة بطبعها وراء المغامرات العظيمة والمطالب الضخمة، وإن علموا بانكم خولتم صلاحيات مطلقة فسيشددو عليكم النكير، ويرغموكم على شروط غير معقولة فإياكم والسذاجة، وحذار من سلامة النية إن كان قصدكم الاتفاق مع الآثينيين على شروط متوازنة فيها. والاّ انتزعت منكم امتيارات لا تتفق وخططكم. وابدأوا بالتعامل مع الشعب على أسس ومبادىء معقولة، واحذروا من القول بانكم مفوضون مطلقو الصلاحية».

---

(٢٠) بعد أن فقد اللقيديميون قلعة (پيلوس) في ميسينيا. وضعوا حامية جزيرة [سفاكتيرتا] المقابلة لها، قواتها (٣٢٠) جندياً مع عدد من الهيلوت بقيادة [إپيتادس ابن بولوبروس] وأعتذر نيقياس عن الخروج الى الجزيرة واحتلالها وان يتولى منصب القائد في حينه. إلاّ ان (كليون) وُفق الى استعادتها وقتل عدد من افراد حاميتها وسوق البقية أسرى الى آثينا وكان بينهم مائة وعشرون سپارطياً نالوا حريتهم بفضل نيقياس. بعد هذا استعاد اللقيديميون القلعة فقد فشل انتيوس الذي قاد النجدة، في الوصول اليها لمعاكسة الريح وعاد الى آثينا فحكم عليه بالموت واستبدل الحكم بغرامة كبيرة. فكان أول من يفتدي حكم موته بالمال على هذا الشكل.

بعد أن أنهى حديثه هذا حلف لهم الأيمان بأنه سينجز ما وعدهم من المساعي لقضيتهم وبهذا الشكل ابعدهم عن نيقياس وجعلهم يعتمدون عليه اعتماداً كلياً. وغادرهم وهم يلهجون بالثناء على حصافته ونفاذ بصيرته. وفي اليوم المضروب اجتمعت العامّة، وتقدم السفراء فنهض الكيبيادس وسألهم بكلّ احترام وتوقير: «ما نوع الصلاحيات التي تزودوا بها؟» فأجابوا أن تفويضهم غير مطلق. وهنا بدأ الكيبيادس وكأنه موضوع الإهانة لا فاعلها، وأخذ يندد بهم بصوت داوٍ وينعتهم بالمراوغين والخداعين قائلاً إن هؤلاء لم يأتوا ليقولوا ويعلموا ايّ شيء يتفق ومبادىء الصدق وسلامة القصد. وثارت ثائرة مجلس الشورى وضج الجمهور سخطاً عليهم. أمّا [نيقياس] الذي كان يجهل اللعبة فقد استبدت به الحيرة وكان كغيره مذهولاً خجلاً من التغير في كلام اعضاء الوفد.

وبهذا رفضت سفارة اللقيديمونيين رفضاً باتاً. وأعقب ذلك انتخاب الكيبيادس جنرالاً. فبادر في الحال الى عقد حلفٍ اثينيّ مع الأغوسيين[٢١] والأليائيين وأهالي مدينة [مانتينيا Mantinea].

لم يقع عمل الكيبيادس موقع رضا أحدٍ من الناس، إلاّ أنه كان مناورة سياسية بارعة ادت الى شقّ البلوپونيسوس كلها تقريباً، وتقويض بناء وحدتها. والى تأليب ذلك العدد الضخم من المحاربين ضد اللقيديمونيين امام [مانتينيا] في يوم واحدٍ فقط. الى ذلك إنها نقلت ميدان الحرب الى مسافة بعيدة جداً عن تخوم الآثينيين. فاذا حدث وأنتصر العدوّ فإن انتصاره لن يفيده كثيراً. أمّا اذا هزم فقد لا تسلك سپارطا نفسها على أغلب الإحتمال.

بعد خوض المعركة قرب مانتينيا[٢٢]، حاولت فرقة الألف المنتخبة الأغوسيّة، الإطاحة بحكومة الشعب في أرغوس وبسط سلطانهم عليها، وخفّ اللقيديمونيون الى مساعدتهم، وأزالوا الحكم الديمقراطي. إلاّ ان الشعب قام بانتفاضةٍ مسلّحة واحرزوا بعض النجاح[*]، وعاجلهم الكيبيادس بالنجدة فكمل انتصاره وأعيد الحكم الديمقراطي. وتمكن الكيبيادس من إقناعهم ببناء اسوار طويلة[**] توصل المدينة بالبحر لتصبح ضمن متناول يد آثينا. وأمدّهم بشغيلة وبنائين من آثينا وأظهر منتهى الإخلاص في معاونتهم وكان المجد والسلطان الذي ناله لايقل عما نالته جمهورية آثينا.

---

(٢١) في السنة الرابعة من الاولمبياد التاسع والثمانين: ٤٢١ ق.م. عقد صلحاً مع هذه الدول أمدُه مائة عام.

(٢٢) وقعت المعركة في السنة الثالثة للاولمپياد التسعين اي بعد مرور ثلاث سنوات على الاتفاق مع ارغوس. [ثوكيديدس ٦٦:٦ وما بعده] وذلك في العام ٤١٨ ق.م.

(*) في ٤١٧ ق.م.

(**) في ٤١٩ ق.م.

ثم وجه اهتمامه الى [باتري Patrae][٢٣] وتمكن من اقناع أهاليها بربط المدينة بالبحر أيضاً ببناء اسوار طويلة. ولما قال أحد الناس لهم على سبيل التحذير أن الآثينيين سيبتلعونهم في نهاية الأمر. ردّ الكيبيادس بقوله: «ربما كان الأمر كذلك. إلاّ أن عملية البلع ستتم بالتدريج وسيكون البدء من القدمين، اما اللقيديمونيون فسيبدأون من الرأس ويمزقونكم بطرفة عين».

لم يهمل حثّ الآثينيين على الاهتمام بالبرّ وتثبيت مصالحهم فيه وظلّ باستمرار يذكرّ الشبان بالقسم الذي ادّوه في معبد [اغراولوس Agraulos][٢٤]: ويقضي ان يعتبر حقول القمح والشعير والخمر والزيتون حدوداً لآتيكا. وهو كناية عن حقهم بملكية كل الأراضي الزراعية والمثمرة.

إلاّ أنه مزج كل هذه المآثر السياسية وبعد النظر وذلاقة اللسان، بحبّ الترف، المفرط، والاسراف في الشراب والمأكل، والحياة المتحللة من المبادىء الخلقية. وكان يرتدي ثياباً قرمزية سابغة كزيّ النساء، ويسحب ذيولها على الأرض خلفه عند مروره في ساحة السوق، وأمر بنزع الألواح الخشبية في سفينة لينعم باستلقاء ليّنٍ اذ أن فراشه لايفرش على السطح، بل يعلق في الهواء بسيور من الجلد وترسه الكثير الوشي والزخرفة، لم ينقش عليه الشعار الآثينيّ الاعتيادي[٢٥]. وانما رسم عليه صورة [كيوبيد] ممسكاً بشرارة صاعقة. هذه المظاهر وأمثالها ملأت نفوس كرام المواطنين بشعور التقزز والإشمئزاز، وسخطوا للحياة الفاجرة التي يحياها، ولاستهتاره بالقوانين. ووجدوها تصرفات شنعاء بحد ذاتها تحمل في طيّاتها بذور السيطرة والطغيان. ولقد اجاد [ارسطوفانس] التعبير عن مشاعر الشعب تجاهه حين قال:

«انهم يحبونه، ويكرهونه ، ولا يطيقون العيش بدونه».

وبلغ النهاية في الإعجاز ودقة التعبير تحت ستار الكتابة إذ قال:

«من الأفضل أن لا تربّي شبلاً تلاطفه داخل الأسوار المدينة وان فعلت، فعليك أن تعامله معاملة الوحش!».

والحق يقال ان كرمه، وأقامته الحفلات واللهوّ للعامة، وما الى ذلك من ضروب البذل للجمهور، لم يكن يعدله فيها أحد. وأن عراقة أسلافه، وقوة عارضته، ومهابة شخصه ومتانة

---

(٢٣) مدينة من مدن آخائيا. هذا المشروع احبطه أهل كورنث وسيكيون وغيرهما من المدن المجاورة.

(٢٤) هيرودوتس وپاوسنياس يثبتانها [اغلاوروس]. إلاّ أن ما اثبته پلوتارخ هو الصحيح.

(٢٥) للمدن والاشخاص شعارات خاصّة ترسم على صفاحهم. وشعاراتينا المعروف هو (البوم) أو (الزيتون). ولايسمح بحمل الشعار بالنسبة للاشخاص الاّ للبارزين من القوم او من قام بعملٍ مجيد.

تركيبه التي خالطتها شجاعة فائقة، وبراعته في الفنون العسكرية، كل هذا حَكَم على الآثينيين أن يتحملوا تهتكه، ويتغاضوا عن أشياء كثيرة فيه وأن ينعتوا أخطاءه بأخف النعوت كما هي عادتهم، وان يعزوها الى اغترار الشباب وسماحة الطبع. ومن بين المآخذ عنه أنه أبقى الرّسام [آغاثاركوس Agatharcus](٢٦) أسيراً حتى انتهى من زخرفة وطلاء بيته ومن بعدها أطلقه ونفخه بمكافأة. كذلك اعتدى على [طورياس Taureas] بالضرب لأنه عرض بعض التمثيليات منافسة له بها، قاصداً منازعته الجائزة. وأختار لنفسه أسيرة ميلانية Melan وانجب منها ولداً أهتم بتربيته وتعليمه، وأعتبر الآثينيون ذلك انسانية عظيمة منه، مع أنه كان السبب الأساس لذبح كل الرجال جزيرة (ميلوس)(٢٧) من البالغين سنّ الخدمة العسكرية كانت قبضته تقع عليه لانه كان أحد محبذي اصدار البيان وعندما نقش الرسام [ارسطوفون Aristophon] صورة [نيميا Nemea](*) العاهرة جالسةً والكيبيادس في حضنها، تقاطر الجمهور زرافات لمشاهدتها وابدوا سرورهم بها. إلاّ أن الناس المتقدمين في السن استكرهوها واستفظعوها. ووجدوها وامثالها شراً مستطيراً، واتجاهاً نحو الإستبداد. لذلك لم يتعد [ارخستراتوس Archastratus] الحقيقة إذ قال أنّ الآثينيين لايستطيعون تحمّل [الكيبيادس] ثانٍ، ومرة عندما بلغ درجة كبيرة من النجاح في خطبة ألقاها. هرع اليه كل المجتمعين يهنئونه ويثنون عليه، ولم يمرّ [تيمون] ذو الطبع الانطوائي، به عرضاً ولم يتجنبه كما فعل غيره، بل توجه نحوه متقصداً، وامسك بيده وقال له:

- امض في سبيلك يا بنيّ ولا تتردد، وزد من رصيدك عند الشعب، لأنك ستجرّ عليهم يوماً من المصائب ما يكفيهم.

وسخر بعض الحاضرين من قوله، وبعضهم اسمعه قارص الكلام. إلاّ أن عبارته نفذت عميقاً في نفوس بعضهم. وكذا كان أختلاف حكم الناس عليه، مثلما كانت أخلاقه كثيرة الشذوذ.

كان الآثينيون منذ عهد [پيريكليس] ينظرون الى صقلية نظرة طمع واشتهاء(٢٨). إلاّ انهم

(٢٦) كان لهذا الرسام صلة بعشيقة الكيبيادس. انظر [ديوستينس].

(٢٧) إحدى جزر كيكلادس. وهي مستعمرة لقيديمية حاصرها (الكيبيادس) بست وثلاثين سفينة و(٨٠٠٠) مقاتل صيف العام ٤١٦ ق.م الموافق للالبياد التسعين. وأستولى عليها بعد أن وصلته نجدة في السنة التالية. ويسرد توكيديدس تفاصيل المذبحة التي أعقبت فتحها لكنه لايذكر شيئاً عن الرسوم. ولعله اراد ان ينقل تبعة ما حصل على الحقد الذي ملأ الجنود فأهاجهم آنياً. دون ان يهتم به الآثينيون.

(*) پاوسانياس: (١: ٢٢: ٧) تمثيل لمنطقة نيميا في الالعاب التي فاز فيها. الاصل الاغريقي: يشير الى انها عاهرة.

(٢٨) تمكن پيركلس بذكائه وسلطانه القوى من كبح هذه الرغبة العارمة عند الآثينيين. الاّ انهم بعد موته بسنتين أثنتين، ارسلوا بعض السفن الى ريگيوم لنجدة الليونتيين الذي كانوا ضحية هجمات الصقليين =

لم يحاولوا شيئاً الاّ بعد موته. فقد ارسلوا بدعوى مساعدة حلفائهم، نجدات متوالية في شتىّ المناسبات لأولئك الذين كانوا موضع اضطهاد [السيراقوزيين] ممهدين بذلك الطريق لإرسال قوات أكبر. إلاّ أن الكيبيادس هو الذي اضرم نار الرغبة واججها في النفوس، واقنعهم بألاّ يمضوا في غايتهم سراً بعد الآن ولا ان ينفذوها شيئاً فشيئاً، بل أن يجردوا عليها أسطولاً كبيراً ويبسطوا سلطانهم على الجزيرة كلها. وملأ الجماهير بآمال عريضة مثلما كان هو مفعماً بها بل وأكثر، ففتح صقلية كان عندهم نهاية الطموح، بينما كان عنده مجرد البداية. وحاول [نيقياس] جاهداً أن يثني الشعب عن تجريد الحملة، بشرحه لهم أن الاستيلاء على [سيراقوز Syracuse] أمر صعب للغاية إلاّ أن الكيبيادس ما كان ليحلم بأقل من فتح قرطاجنة وليبيا، وببلوغه هذه الغاية التي تجعله حالاً سيّد ايطاليا والپلوپونيس. كان يبدو له غزو صقليّة مجرد مستودع لتفجير الحرب. وشاعت الحماسة في نفوس الشباب لهذه الآمال الجسام وأخذوا يرهفون آذانهم الى كبار السنّ منهم يحدثونهم عن عجائب البلاد التي سيشاهدون، فيشيع الفرح في نفوسهم. وانك لتلقى العدو الكبير من هؤلاء الفتيان جالسين في ميادين المصارعة والمحلات العامة يخططون على الأرض خريطة الجزيرة، وليبيا وقرطاجنة. وقيل أن [سقراط] الفيلسوف وميتون Meton المنجم لم يكونا يأملان خيراً للجمهورية من هذه الحرب. أولهما متكهناً بما سيأتي بوساطة جنّه الذي يلازمه - على ما قيل، وثانيهما أظهر المخاوف من نتائجها إمّا بعد تحليل منطقيّ عقليّ للمشروع، أو باستخدامه فن التنجيم والاستخارة. ولهذا تصنّع الجنون وأمسك بمشعل موقد وبدأ وكأنما يريد أحراق منزله. وذكر آخرون انه لم يتصنع حالة جنونٍ بل عمد سراً في موهن من الليل الى أحراق بيته وفي اليوم التالي انهى بفجيعته الى الجمهور لكي يحملهم على استبقاء ابنه الذاهب للحرب، تخفيفاً عنه ومواساة له. وبهذه الحيلة خذع بني قومه وحصل منهم على بغيته.

وعُين [نيقياس] جنرالاً مع [الكيبيادس] كرهاً عنه وخلافاً لرغبته وجَهد في العزوف عن القيادة أكثر كرهاً بها لوجوده مع الكيبيادس، إلاّ أن الآثينيين رأوا أن ارسال الكيبيادس وحده، دون وجود من يكبح جماحه مما يضرّ بمجرى الحرب، ولذلك عمدوا الى معالجة تهوره بحذر نيقياس ولم يكن تعيينه ناجحاً عن هذا السبب وحده، فالجنرال الثالث في الحملة [لاماخوس] مع تقدمه في السنّ ابدى في عدة معارك ما برهن انه لايقل حِدّة وتهوراً عن

= وبعدها بسنة واحدة أرسلوا عدداً أكبر من السفن. وعقبوها باسطول أكبر بعدها بسنتين أخريين. إلاّ أن الصقلبيين اتحدوا فيما بينهم وصدوا هذه الحملات تباعاً. وبلغ الغضب بالآثينيين حداً أنهم حكموا على الجنرالين بيثودورس وسوفوخلس بالابعاد جراء فشلهما. كما فرضوا على الجنرال الآخر (أفويميدون) غرامة ثقيلة.

[الكيبيادس] نفسه. وعندما بدأوا يتداولون حول عدد القوات وطرق تجهيزها بالمؤون والعتاد الضروريين قام [نيقياس] بمحاولة أخرى لمعارضة الفكرة ومنع وقوع الحرب إلاّ أن الكيبيادس خالفه ونقل القضيّة الى مجلس العموم[٢٩]. وهناك أقترح خطيب يدعى [ديموستراتوس] منح القوّاد الثلاثة صلاحيات مطلقة بخصوص التأهب للحرب، واتخاذ كلّ التدابير المتعلقة بها. فصودق على إقتراحه. وعندما تمّ كل شيء للحملة، ظهرت نبوءات نحسٍ عديدة. ففي ذلك الوقت وقع عيد [أدونيس Adonis][٣٠] وفيه أعتادت النسوة أن يعرضن في كل أنحاء المدينة صوراً وشواخص تمثل رجالاً موتى يحملون الى المدفن وان يمثلن شعائر الجنازة بالندب والعويل واناشيد الرثاء. على أن التقطيع الذي أحدث في صور شواخص و[مارس][٣١] أدّى بأغلبها الى تشويه في أوجهها خلال ليلة واحدة . وأفزع ذلك كثيراً من الأشخاص الذين تعوّدوا الاستخفاف بمعظم ما هو من هذا القبيل. وأشيع أنه من عمل الكورنثيين لأجل السيراقوزيين الذين كانوا مستعمرةً لهم[٣٢]، آملين أن يعدل الآثينيون عن الحرب أو يؤخروها، كردّ فعل لهذه الخوارق. إلاّ أن النبأ لم يؤثر في الناس أي تأثير، ولم يكن رأي أولئك الذين لم يعتقدوا بوجود اي اشارة نحسٍ في الحادثة، إلاّ مجرّد كونها عملاً فاضحاً مباحاً قام به فتيان طائشون على سبيل المزاح اثناء خروجهم من اجتماع لهو وشراب. إلاّ أن مجلس الشورى والجمعية العامّة أفزعتهم وأغضبتهم الحادثة ونظروا اليها نظرة شكّ وعدّوها تمهيداً لمؤامرة عدد من الاشخاص لقلب نظام الحكم وواصلت الجمعية والمجلس اجتماعاتهما أياماً، للتحقيق الدقيق في كل ما يستدعي الشكّ.

وفي أثناء التحقيق أحضر [اندروكلس Androcles] وهو غوغائي- عدداً من الأرقاء والاجانب. ليتّهموا الكيبيادس وبعض اصدقائه بتشويه الصور الأخرى بعين الطريقة.

---

(٢٩) هذه الخطب التي تستحق القراءة للاسلوب الجميل في ايضاح الاجراءات الحكيمة الحذرة التي باشرها نيقياس. والتهور والطيش اللذين باشرهما الثاني. حفظها لنا ثوكيديدس، أو ربما قام هو بتدبيجها (٦: ٩-١٨).

(٣٠) في عيد [ادونيس] تبدو كلّ المدن بمظاهر الحداد. وتعرض الرسوم امام كلّ باب. وتحمل في المواكب تماثيل ڤينوس وادونيس مع اوعية معينة فيها تراب انبتوا فيه قمحاً واعشاباً وخسّاً وتدعى هذه الأوعية بـ(حدائق ادونيس). وترمى في البحر بعد ختام الاحتفال. ويحتفل كل بلاد اليونان ومصر به، كذلك كان اليهود يحتفلون به عندما انتقلوا الى عبادة الاوثان (حزقيال ٨:١٤) وفي خلال ساعات الاحتفال كثيراً ما ترى النسوة جالسات يندبن ويبكين من أجلّ تموز اي أدونيس.

(٣١) كان الآثينيون ينصبون تماثيل (مارس) امام ابواب بيوتهم. وهي على شكل قطع صخرٍ مربعة يوضع فوقها رأس ذلك الرب. ويقول باوسيناس [٤:٣٣] إن سائر الاغريق استعاروا منهم هذا التقليد. اما التشويه الذي ينوه به پلوتارك فقد جرى قبل هذا التاريخ كما يؤكد [ثوكيديدس ٦:٢٨].

(٣٢) أرسل هؤلاء المستوطنون بقيادة (ارخياس) وهو أحد الهيراقليدي [ثوكديدس ٦:٣] و[سترابو: ٥].

والتجذيف على الأسرار الآلهية وإتيان أعمال كفرٍ بحقها في مجلس شراب، ومثل [ثيودوروس] دور المنادي، وبوليتيون Polytion تقمص شخصية حامل المشعل، وقام [الكيبيادس] بدور رئيس الكهنة. وظهر بقية الجماعة بدور المرشحين للرسامة واقتبلوا درجة التكريس. هذه الوقائع تضمنّها بلاغ المعلومات الأولى الذي قدمه (تسّالوس ابن سيمون] ضدّ الكيبيادس حول اتهامه الإستخفاف الإلحادي بالربّتين [سيربس] و[بروسپرين] الأمر الذي اسخط الشعب عليه وأحنقهم للغاية، و[اندروكلس] اخبث اعدائه زاد في الطين بلّة وهوّل التهّمة فأقلق أصدقاءه للغاية. ولكن لما علموا أن البحارة الذاهبين الى صقلية يقفون في صفّه وكذلك الجنود. وعندما أعلن الجنود الالف الاحتياط من أرغوس ومانتينيا أنهم ما تكلفوا عناء هذه الحملة العسكرية البحرية البعيدة المدى إلا لأجل الكيبيادس، فإنْ أُسيئت معاملته فسيعودون الى ديارهم، عادت اليهم شجاعتهم، وخفوا عجالاً للاستفادة من الفرصة، وتزكيته، وأصيب اعداؤه بالخزي مرّة أخرى نكصوا خوفاً من أن يكون الشعب أكثر رقّة في حكمهم عليه، بسبب ما لديه من خدمات. فلأجل ان يحولوا دون ذلك، سعوا الى دفع خطباء آخرين، ممن لم يعرف عنهم عداوة لالكيبيادس، بينما لايقل حقدهم عليه عن أولئك الذين صرحوا بعداوتهم له، الى ان يقفوا في الجمعية ويخطبوا بهذا المعنى: «إنه لمن السخف أن يتعرض رجل انتخب قائداً لمثل هذا الجيش، بصلاحيات مطلقة، وبعد أن وصلت القوات الحليفة، وتمّ تحشيد جنوده – لخسارة الفرصة بينما يقوم الشعب بالاقتراع على انتخاب القضاة الذين سيحاكمونه، ويصبون الماء في الأواني لقياس الوقت المخصص لدفاعه[٣٣].
«دعوه يبحر في الحال، وليرافقه السّعد، وعندما تضع الحرب أوزارها، يتفرغ الى تنظيم دفاعه شخصياً حسب أحكام القانون». وأدرك الكيبيادس سوء القصد في هذا التأجيل، ووقف في الجمعية قائلاً انه لأمر فظيع أن يعهد اليه بقيادة مثل هذا الجيش العظيم، وهو يرزح تحت عبء تهم ووشايات يستحق عليها عقوبة الموت إن لم يفلح في تبرئه نفسه من الجرائم التي الصقت به، ولكن إن فعل ذلك وبرهن على براءته، فاذ ذاك يمكنه التفرغ الى الحرب بكلّ سرورٍ، اذ لايعود بعدها في خوف من اي متهمٍ كاذبٍ.

(٣٣) أستخدمت الساعات المائية اثناء المحاكمات الشعبية في اثينا لتحديد اوقات المرافعات. ويتم ايقاف هذه الساعات عند شروع الشهود بالادلاء بشهاداتهم ويقوم بهذا ضابطٌ يختار لهذا الغرض من طبقة العامة. ويخبرنا [پوللوكس] ان الماء في القضايا الخاصة بالخروج على القوانين – يقسم الى ثلاثة اجزاء. جزءٌ مخصص للمدعي ولتلاوة نصوص القانون ولأقوال الدولة، وجزءٌ مخصص للمتهم وشهوده. وجزءٌ مخصص للقضاة ان لم تعلن برادته بالقرار الاول ذلك لأن القضاة – كما هي العادة الآن عند أكثر المحاكم – يصدرون حكمين الأول بالادانة أو البراءة، والثانية بتحديد العقوبة في حال التجريم.

إلاّ أنه لم ينجح في اقناع الشعب برأيه وأمروه بالابحار فوراً[٣٤]، فرحل مع الجنرالين الأخرين وكانت الحملة تتألف من ١٤٠ بارجة حربية تقريباً و ٥١٠٠ محاربٍ، وحوالي ١٣٠٠ نابل ورامي مقلاع، وجنود خفاف السلاح، وكل ما يتعلق بذلك من تجهيزات ومؤون.

وبلغ ساحل ايطاليا ورسا في [ريجيوم Rhegium] وهنا أدلى بآرائه عن الأسلوب الذي ينبغي اتباعة في ادارة دفة الحرب. فعارضه [نسياس]، ووافقه [لاماخوس]. وأقلعت الحملة الى صقلية في الحال، وأستولت على [كاتانا Catana. وهذا كل ما تمّ تحقيقه أثناء وجود الكيبيادس، إذ استدعي الى اثينا بعدها بقليل لاجراء لمحاكمته.

كما ذكرنا قبلاً لم يكن يوجد ضدّ الكيبيادس إلاّ شك ضئيل، والتهم التي الصقها به بعض العبيد والاجانب. إلاّ أن أعداءه زادوا في هجومهم عنفاً اثناء غيابه ووحدوا بين كسر التماثيل، والكفر بالأسرار وصوروها كأنما أرتكبت معاً تمهيداً لعين المؤامرة التي كانت ترمي الى قلب الحكومة[٣٥]. وشرعت الجمعية في زجّ كل المتهمين في السجن دون تفريق ودون سماع دفاع منهم، وأدركهم الندم بالنظر الى جسامة التهمة - لأنهم لم يجروا محاكمة الكيبيادس وإصدار حكم بحقه في حينه. وعومل كل أصدقائه ومعارفه الذين وقعوا في يد الشعب وهو في سورة غضبه هذه المعاملة فظة وعذّب. ولم يذكر [ثوكيديدس] اسماء المخبرين[٣٦] إلاّ ان غيره من الكتاب اوردوا اسم [ديوقليدس Dioclides] و[تيوسر Teucer]. ومن هؤلاء الشاعر الساخر [فرينيخوس Phrynichus] الذي نجد في شعره الأبيات التالية:

> بربك يا [هرميس][*] العزيز! كن على حذر وانتبه لئا يكسر انفك المرمري. فلو لحق بك أذى فقد تدرك الحاجة بك الى [ديوقليدس] جديد ليطلق كذبة.

ويردّ الشاعر نفسه عن لسان [مارس] بالجواب التالي: «سأفعل ذلك وأكون على حذر ولن

(٣٤) في السنة الثانية من الاولمپياد الحادي والتسعين اي في منتصف صيف ٤١٥ ق.م.

(٣٥) قالوا انه دبّر مؤامرة لتسليم المدينة للقيديميين وانه أقنع الارگيف بالغدر بهم.

(٣٦) مع هذا ذكر اندركلس [٨:٦٥] باعتباره واحداً من خصوم الكيبيادس الالداء الى جانب شركة پينونيكوس واندوكيدس. اما المخبرون فهم عبدٌ اسمه [اندروماخوس] و[تيفكر] الميغاري الذي أقرّ على نفسه وليس على الكيبيادس. واغاريستي زوج [الكمايونيدس] و[ليدوس] وهو من عبيد [فيريكلوس] ونال [تيفكر] ألف دراخماً من الخزينة العامة مكافأة. وأبرز [ديوقليدس] عبداً من عبيده ليشهد بانه رأى على ضوء القمر أكثر من ثلاثمائة رجل وهم دائبون على تشويه التماثيل. وأشار بالاسم الى أربعين منهم بينهم [اندوقيدس] واعضاء اسرته وابيه الاّ ان [اندوقيدس] اتهمه بشهادة الزور وأثبت التهمة عليه فحكم عليه بالموت وجرى تنفيذه به.

(*) عطارد = مارس.

أدع بعد الآن ذلك الغادر تيقكر، ذلك الاجنبي الخائن يفخر بمكافأة أخرى على شهادة الزور.

في الواقع أن متهمي الكيبيادس لم يسندوا اليه شيئاً معيناً ثابتاً وعندما سئل أحدهم: كيف تسنّى له معرفة هويات الاشخاص الذين شوهوا وجوه التماثيل، قال انه رآهم على ضوء القمر، وهذا تزوير وافك واضح لأن القمر في وقت الحادث كان هلالاً في اوله. وهذا ما أثار الاستنكار وصيحات الاحتجاج من ذوي الفهم والمعرفة، إلاّ أن جماهير الشعب كانت متعطشة الى سماع المزيد من التهم ضده، فالنار الأولى ما زالت مستعرة في النفوس، وقد ظهرت آثارها في اصدار أمر القبض فوراً على كل المتهمين وزجهم في السجن.

وكان من بين المكلفين والموقوفين المحالين للمحاكمة الخطيب [اندوكيدس Andocides] الذي يُرجع المؤرخ [هيللانيكوس] نسبه الى [يوليسيس]. وهو ممن كان موضع شكّ دائمٍ في بغض النظام الديمقراطي السائد، ومناصر لحكم القلّة. والسبب الأول الذي جعله موضع اتهام بتشويه التماثيل، هو بقاء تمثال مارس الكبير المجاور لبيته سليماً لم تنله يد التشويه، من بين التماثيل الشهيرة القليلة التي ظلت سالمة. وكانت قبيلة [ايجيس Aegeis] قد اقامته نصباً تذكارياً، إلاّ انه سميّ منذ الصاق التهمة باندوكيدوس، [بمارس اندوكميدس] مع أن النقش الكتابي في القاعدة يدل على خلاف هذا. واتفق أن هذا الرجل وثق عرى صداقة حميمة مع شخص بين الموقوفين بالتهمة نفسها، يدعى [طيماؤوس Timaeus] وهو أقل منه منزلة وشخصيّة الاّ انه أشتهر بسعة الحيلة والجسارة، فأقنع [اندوكيدس] باتهام نفسه مع عدد قليلٍ بهذه الجريمة، وعلل ذلك بقوله له: إن اعترافه هذا سيضمن له العفو حسب احكام المرسوم الشعبي. وفي الوقت نفسه سيكون احتمال الحكم على كل الباقين المعترف عنهم ضعيفاً في حين أنّ الاحتمال قويّ في الحكم على كبار القوم امثاله. فخير له أن يهتم بنفسه وينقذ حياته بكذبة من أن يتجرع غصص ميتة مخجلة كأنما هو مجرمٌ حقاً. وان كان يهتم بالمصلحة العامة، فالأجدر هو التضحية بمتهمين قليلين بهذه الوسيلة، سعياً لانقاذ الكثير من الأشخاص المتازين، وحمايتهم من غضب الشعب. فراقت الفكرة له واعترف على نفسه وبعض الأفراد الآخرين ونال عفواً بموجب احكام القانون في حين نفذ حكم الموت بجميع من أعترف عنهم ما عدا نفراً قليلاً نجحوا في الفرار. واتهم [اندوكيديس] خدمه انفسهم لينال المزيد من الحظوة لكن سخط الشعب رغم هذا كله لم يهدأ، وبعد أن لم يعد يشغلهم أمر المشوهين عما هم فيه، توجهوا لصب جام غضبهم كله على الكيبيادس دون ان تأخذهم عجلة. وبعثوا بسفينة اسمها «السلاميسي» لجلبه. إلاّ انهم أوصوا الموفدين بالا يستخدموا العنف بايّة حالٍ، وان لايلقوا

القبض عليه، بل يتوجهون اليه بكامل الإحترام ويطلبون منه بأدب أن يتبعهم الى اثينا لحضور المحاكمة وتبرئة نفسه امام الشعب. وكانوا يخشون عصيان الجيش وتمرده في بلاد العدوّ وهو في الواقع من أسهل الأمور عند [الكيبيادس] لو رغب فيه. فقد هبطت معنوية الجنود عند رحيله، وأعتقدوا أن الحرب في المستقبل ستنهج نهجاً متباطئاً متعثراً تحت قيادة نسياس. إذا ما سُحب الكيبيادس من القيادة لأنه كان بمثابة مهماز لاحتثاث القتال. فمع أن لاماخوس كان مثال المعسكري المقدام، إلاّ ان فقره جرّده من السلطة والاحترام في الجيش.

وكان من أثر رحيل الكيبيادس انه اخرج [ميسيلنا] في ايدي الأثينيين[٣٧]. اذ كان يوجد لطائفة من سكانها رغبة في تسليمها وعندما ارادوا ذلك أبلغ الكيبيادس السيراقوزيين بالأمر وكان يعرف الأشخاص، فأحبط المشروع كله. وعندما بلغ [ثوري] نزل الى الساحل وأخفى نفسه عن أولئك الذين يبحثون عنه. إلاّ انه كشف عن نفسه لواحد يعرفه فسأله هذا اليس له ثقة ببلاده؟ فأجابه الكيبيادس «أثق بها في أي شيء، ما خلا الأمور التي تمسّ حياتي، ففي هذه لا أثق حتى بأميّ، اذ ربّما زلّت يدها فألقت بالكريّة السوداء بدلاً عن الكرية البيضاء» ولما سمع فيما بعد ان الجمعية نطقت بحكم الموت عليه، كان كل ما قاله هو هذا «لأجعلنهم يشعرون بأني حيٌّ!.

وكان نص لائحة الاتهام التي رفعت ضده كما يأتي: «ثسالوس ابن كيمون، من مدينة لاشيا Lacia: «يعرض بلاغ اتهامٍ الكيبيادس ابن كلينياس من مدينة [سكامبونيدا Scambonida] بأرتكاب جرمٍ ضدّ الربّه [سيريس] والربّة [بروسبرين]، بتمثيل الأسرار المقدمة تمثيلاً هزلياً محقراً، وعرض ذلك على اصحابه في منزله حيث أرتدى حللاً لايلبسها إلاّ رئيس الكهنة عندما يقوم بعرض الذخائر المقدسة، وأتخذ لنفسه منصب رئيس الكهنة وجعل پوليتيون حاملاً للمشعلٍ وثيودورس من مدينة [فيجيا Phegaea] منادياً. وحيّاً بقية اصحابه باعتبارهم رهباناً ومكرسين مستجدين Myastae، فعل كل ذلك ضد قوانين ودستور [الايومبولپيدي Eumolpidae][٣٨] ومنادي وكهنة معبد [اليوميس]».

---

(٣٧) ركب سفينة خاصة به لا سفينة تعود الى [سلاميس ميسانا] وذلك في ايلول في العام ٤١٥ ق.م.

(٣٨) كلمة Mystae تعني أولئك الذين رشحوا او كرّسوا لتلقى الأسرار. وهؤلاء يجب ان يبقوا سنة واحدة تحت الاختبار وليس لهم خلال هذه المرة أن يتقدموا في أكثر من ممر الهيكل. ولا يساهمون الاّ في الأسرار الدنيا. وفي آخر السنة تفتح لهم ابواب المذبح ليشاهدوا الربّة بكامل بهائها. ان يومپولوس وهو مواطن تراقي سكن [ايليوس] كان أول من رتب وأنشأ هذه الأسرار الخاصّة بالربة [كيريس ولذلك صار نسله سدنةً لها. واذا انقرض النسل فمن يخلفه يجب أن يلقب بلقبه [انظر باوسنياس ١:٣٨].

وحكم أيضاً بتهمة الاستخفاف بالمحكمة لعدم حضوره وصودر كل ممتلكاته وأمر كل الكهنة والكاهنات بلعانه رسمياً الاّ أن [ثيانو Theano] بنت [منون Menon] من مدينة [ارغول] عارضت في هذا الجزء من الحكم وعلى ما ذكر- انها قالت ان واجبها الديني المقدس يحتّم عليها ان تقدم الصلاة والدعاء لا اللعنات والشتائم.

وبادر الكيبيادس وهو مثقل بهذه الأحكام والعقوبات القاسية، الى الفرار من [ثوري] أولاً واتجه الى الپيلوپونيسوس مستقراً في [ارغوس] فترة من الزمن. ولما وجد ان لا أمل هناك في العودة الى بلاده ولخوفه من أعدائه، بعث يطلب من حكام سپارطا الأمان وحق اللجوء السياسيّ مؤكداً لهم بأنه سيعوض لهم بخدماته المقبلة عن كل الأذى الذي لحقهم منه عندما كان عدواً لهم. فمنحته سپارطا الأمان المطلوب فأسرع الرحيل اليها، وأحسنوا استقباله، وتمكن حال وصوله من اقناعهم بلا حذر أو تردد - بأن يرسلوا مساعدات للسيراقوزيين واشتد في حثهم واثارة حماستهم حتى انهم بعثوا فوراً [غيليپوس Gylippus][٣٩] الى صقلية لسحق القوات التي يملكها الآثينيون هناك. والنقطة الثانية التي أشار بها، هي تجديد الحرب ضد الآثينيين وقتالهم في عقردارهم. أما النصيحة الثالثة وهي الأهم، فكانت تقضي بتحصينهم [ديكيليا Decelea] وهذا من شأنه ان يستنفد ويقضي على موارد الآثينيين وجمهوريتهم[٤٠].

إن الشهرة التي كسبها من هذه الخدمات العامة تعادل الإعجاب الذي أثارته حياته الخاصة في النفوس. فقد أجتذب وسحر كل الناس بتعوده وتخلّقه الاخلاق السپارطية. فالناس الذين رأوه يحلق شعر رأسه ويستحم بالماء البارد ويأكل وجبة طعام بدائية ويتعشى بالشورباء السوداء، يشكون، بله لايصدقون بأنه كان لديه طاه في بيته. أو أنه عرف حلاّقاً أو أنه لبس في حياته عباءة من الارجوان الميليزي. وقد لوحظ عنه أنه تميّز بتلك العبقرية العجيبة والبصيرة النفاذة التي مكّنته من خطب ودّ الناس، فهو عظيم المقدرة على ترويض نفسه بسرعةٍ، يسهل عليه تبنيّ عادات الناس وطرق عيشهم، وممارستها بلا حرج أو تكلّف، ويتلون

(٣٩) لم يضع [ثوكيديدس] اسم هذا الجنرال على لسان الكيبيادس اثناء الخطبة.

(٤٠) هاجن (آغيس) ملك اللقيديميين آتيكا على رأس جيشه والكورنثيين وغيرهم من أقوام الپلوپونيسي، وبناء على مشورة الكيبيادس أحتل [ديكيليا] وحصنها في السنة الرابعة من الاولمبياد الواحد والتسعين = ربيع العام ٤١٣ ق.م وتقع على متنصّف الطريق بين آثينا وحدود بويوتيا. وبهذا حُرم الآثينيون من مناجم الفضة. ومن بدلات ايجار اراضيهم. ونجدات جيرانهم. وعرض قطعان مواشيهم للنهب. وامن ملجأ لعبيدهم الابقين الذين ترك ما يزيد عن عشرين الفاً منهم آثينا ومعظمهم صناع ماهرون وفنيون. لكن النكبة الكبرى وقعت في بداية الحرب وفي صقلية فقد خسروا أهدافهم فضلاً عن سمعتهم وأسطولهم وجيشهم وقواده.

بأسرع مما تتلون الحرباء، والقول الشائع ان الحرباء تستطيع أن تتخذ لنفسها اي لون تشاء إلاّ لوناً واحداً وهو الأبيض، غير ان [الكيبيادس] كان قادراً عن تكييف نفسه والانسجام مع أي جماعة يجد نفسه فيها، أشراراً كانوا أم أخياراً، وبالسهولة نفسها يمكنه أن يتجلبب بثوب الفضيلة أو الرذيلة، حسبما يمليه الموقف. ففي سپارطا انصرف انصرافاً تاماً الى الرياضة البدنية، وظهر بمظهر المتحفظ المقتصد. وفي آيونيا كشف عن نفس مرحة خالية البال مترفة خَلودٍ الى الكسل والخمول. وفي تراقيا لم يكن يصحو من سكر أو يغادر مجلس شراب. وفي تسّاليا تراه وكأنه سُمّر على صهوات الخيل. وعندما قذف به العيش الى كنف [طيسافرنس Tisaphernes] نائب الملك Satrep الفارسي، ظهر على جميع الفرس وبزّهم في معالم الأبهة والفخفخة. وما ذلك لأن مزاجه الطبيعي سهل التغيير ولا لأن أخلاقه الحقيقية ذات جوانب متعددة، بل لأنه وُهبَ قابلية فذةً في أن يلبس لكلّ حالة لبوسها، وأن يتخذ الهيئة المناسبة كلمّا أحسّ بأن ممارسة ما تعوده ودرج عليه قد يكون مصدر ضيقٍ وازعاج لعشيره أو جليسه فقد ابى الاّ ان يحرص على حسن المعشر عند من يخاطبهم... وان رآه. أحدٌ في لقيديمون وحكم عليه بمظهره الخارجي لما وسعه إلاّ بالتمثّل بمأثور القول: «ليس هذا ابن [أخيل]، بل أخيل نفسه» الذي اجتهد [ليكورغوس] في تكوينه أما ميوله وتصرفاته الحقيقية الأصيلة فقد كانت تثير مثل هذه التساؤلات «أظلتّ المرأة نفسها أم بُدلت؟»[٤١] فقد أغوى الكيبيادس [تيميا Timaea] زوج [آغيس] الملك اثناء غيابه مع الجيش في الخارج فحبلت منه، ولم تحاول نكران ذلك. ولما وضعت حملها وكان ذكراً سمته رسمياً [ليوتخيدس Leotychides] إلاّ انها كانت تسرّ لصديقاتها وخدمها همساً بأن اسمه [الكيبيادس]، الى هذا الحدّ بلغ بها العشق. أما هو فيقول بلهجة اللامبالي «لم أقدم على ذلك لمجرد الاستمتاع بالإهانة، ولا اشباعاً لعاطفةٍ، بل قدرت أن يكون قومه ملوكاً على اللقيديمونيين يوماً ما».

وانهى كثير من الناس الى [آغيس] بالقصّة، إلاّ أن صروف الزمان كانت أقوى مؤيدٍ لها. فقد قلقت نفس [آغيس] من هزة ارضية، فابتعد عن زوجه [تيميا] ولما يطأها طوال عشر أشهر، وبما أن وضع [ليوتخيديس] حصل بعد هذه الفترة مباشرة فانه لم يعترف بالبنوّة، ولهذا لم يورثه العرش.

على أثر الهزيمة التي حلّت بآثينا في صقلية بعثت [خيوس] و[ليسپوس] و[سيزيكوس Cyzicus] بسفراء الى سپارطا لينهوا اليها بعزمهم على شق عصا الطاعة على آثينا.

---

(٤١) هذا البيت انشدته (الكترا) عن لسان (هيلين) في (اورستس) وهي تمثيلية ليوربيدس. بعد أن أكتشف بها وقد تقدمت بها السن نفس المباهاة والاعتزاز بجمالها.

وتوسط [البويوتيون] لأهل [ليسپوس] وتدخل [فارنابازوس Pharnabazus] لصالح أهل [سزيكوس]. لكنهم فضلوا أوّلاً مساعدة [خيوس] قبل غيرها بسعي الكيبيادس.

وركب هو نفسه متن البحر وطاف ارجاء آيونيا ونشر الثورة فيها بصورة مفاجئة وألحق بالآثينيين افدح الخسائر والأضرار بالتعاون مع قادة لقيديمونيا. إلا أن [آغيس] ظلّ يلاحقه بالعداء بسبب ما لما فعل بزوجه، وبدافع الحسد منه للمجد الذي ناله؛ ولم يكن وحده في هذا الحسد، بل جاراه فيه أعيان سپارطا وعظماؤها، اذ كانت تعزى الى مقدرته كلّ مأثرة أو موقعة ناجحة، وبالأخير حملوا حكام المدينة على إرسال الأوامر الى آيونيا، لقتله، ولكنه أبلغ مقدماً وبالسرّ فخشي النتائج، إلاّ انه ظلّ يتعاون تعاوناً وثيقاً مع اللقيديمونيين مع أخذه الحذر بالاّ يقع تحت رحمتهم. وبالاخير يمّ شطر [طيسافيرنس] نائب ملك الفرس، ومالبث أن عدّ أقرب المقربين اليه وأوسعهم نفوذاً. فهذا البربري الذي لم يكن قطّ طيب القلب والنوايا بل أخاً مكرٍ وشرٍ، أعجب بمجلس الكيبيادس، ودهائه العجيب. والحق يقال إن جاذبية حديثه وعشرته اليومية لم تقو على مقاومتها أي طبيعة بشرية. ولا يتخلص من أسرها أمرء، ولايستثنى من ذلك أولئك الذين خافوه وحسدوه فهولاء أيضاً كانوا يضمرون له نوعاً من العطف ويستأنسون بمجلسه ويرتاحون الى صحبته لذلك انجذب [طيسافيرنس] علق الكيبيادس ومداهنته وهو الفظّ بطبعه، وعدوّ الأغريق الأول - واندفع الى منافسة صاحبه في التوادّ والأكرام بما لا مزيد عليه حتى انه أمر باطلاق اسم «الكيبيادس» على أجمل بساتينه التي كانت تحتوي على مجاري ماء صحيّة، ومماشي وأرصفة وخمائل وجواسق للاستراحة، وتوفرّ على تجميلها باروع الزخارف وافخمها. وبقيت تعرف باسمه ويشار اليها كذلك.

هكذا عاف الكيبيادس خدمة مصالح السپارطيين بعد أن فقد ثقته فيهم ولخوفه غدر [آغيس]، وطفق ينسج الخطط للايقاع بهم. وراح يقبحهم في عين [طيسافيرنس] ويخصّه على قطع سيل المساعدات عنهم وقصرها على القليل. ويثنيه عن تشجيعه لهم على تدمير آثينا التام. وان يزودهم بالقليل القليل من المال، لإتعابهم وأضعافهم تدريجاً دون أن يشعروا، فاذا استنزف الجانبان قواهما بحرب سجالٍ طويلة الأمد، كانا على أتمّ الاستعداد للخضوع معاً لملك الفرس. فاستحسن [طيسافيرنس] مشورته وطبقها حالاً وأخذ يلهج به ويعلن عن أعجابه الشديد به. وأخذ سائر الأغريق ينظرون نظرة أمل ورجاء في السيبيادس، والآثينيون الممتحنون في بلواهم، خالطهم الندم أيضاً على العقوبة القاسية التي فرضوها عليه. كما أنه كان شديد القلق والخوف من وقوعه في يد اللقيديمونيين اعدائه لو قدّر لهم القضاء على جمهورية آثينا قضاءً تاماً.

في ذلك الحين كانت آثينا قد حشدت كل قواتها في [ساموس][*] وعبأت أسطولها هناك وجعلتها نقطة انطلاق لاخضاع من شق عصا الطاعة عليهم من الحليفات، ولحماية ما تبقى من ممتلكاتهم. وحاولوا بمختلف الوسائل الصمود لاعدائهم في البحر. وكان أخوف ما يخافونه [طيسافيرنس] والأسطول الفينيقي ببوارجه المائة والخمسين الذي قيل انه أنطلق في عرض البحر. فلو وصل هذا الاسطول، لرجحت كفة الأعداء وفقدت الجمهورية كل أملٍ.

أدرك الكيبيادس هذا كله، فبادر في الحال الى الاتصال سراً بزعماء قومه وكانوا في [ساموس) ونفخ فيهم روح الأمل بقوله انه سيسعى الى جعل [طيسافيرنس] صديقاً لهم؛ وانه لايقدم على هذا العمل الطيب حُبّا في اوزاع الشعب ودهمائهم، ولا كسباً لهم وتوخياً للاعتماد عليهم، بل لأجل فضلاء المواطنين وأخبارهم إن هم أقدموا على محاولة القضاء على عتو الدهماء، كرجال شجعان. وتسلم أزمة الحكم، والعمل على انقاذ المدينة من الفوضى. فحبذ الجميع اقتراح الكيبيادس، ولم يعارض إلاّ القائد [فرينيخوس Phrynichus] [الديراديسي Dirades] فقد أبدى شكه -وله الحق في ذلك- بان الكيبيادس لايهتم سواء أظلّت الحكومة بيد الشعب أو انتقلت الى طبقة المواطنين العليا، وهو الآن ينشد بكل وسيلة، التوطئة لعودته الى أرض الوطن، فراح يحرض على الشعب ويؤلب ليكسب الآخرين الى صفه، ولأجل أن يأسر عقولهم ويقع عندهم موقعاً حسناً». ولكنه كان كمن يضرب على حديد باردٍ. وادرك أنه جاهر بعداوةٍ لالسكيبيادس لارجوع له عنها. فخابر في السرّ [أستيوخوس Astyochus] قائد اسطول العدوّ محذراً اياه من السكيبيادس، ومشيراً أن يقبض عليه بتهمة الغش والخيانة. ولم يكن يدري إنه خائن يتعامل مع خائن آخر!

فاستيوخوس كان متلهفاً لنيل الخطوة عند [طيسافيرنس] عن طريق السكيبيادس، فبادر الى نقل كل ما ورده من [فرينيخوس] الى الكيبيادس. فأسرع الى ارسال رسل الى [ساموس] ليفضح خيانة [فرينيخوس]. فبلغ حنق القادة على زميلهم مبلغاً عظيماً وتكالبوا عليه يوبخونه ويهاجمونه. ولم يجد سبيلاً لانقاذ نفسه من المأزق، وكان الخطر يطبق عليه. فحاول أصلاح الشرّ بشرٍ أعظم وبعث برسالة أخرى الى [اسطيوخوس] يعاتبه فيها على نميمته والفضيحة التي سببها له. وقدم له في الوقت نفسه عرضاً جديداً، يتم بمقتضاه تسليم كل قطع الاسطول الآثيني مع جيشهم اليه. ولم يصب الآثينيون بضررٍ جراء ذلك، اذ عاد [اسطيوخوس] ينقل الاقتراح لالكيبيادس. وكان [فرينيخوس] يتوقع ذلك منه وينظر تهمة جديدة يبعث بها الكيبيادس الى بني قومه، فلأجل أن يردّ الكيد عنه ويقلل من أهمية نبأ

(*) في شتاء ٤١٢-٤١١ ق.م.

الكيبيادس، أنذر وأشار بتحصين المعسكرات والتأهب لركوب السفن. وفيما كان الآثينيون منهمكين في استعدادهم، وصلتهم رسائل أخرى من السيبيادس فيها تحذير لهم من [فرينيخوس] لأنه يريد تسليم اسطولهم الى الأعداء. فلم يهتموا بالخبر هذه المرة، وقدروا أن السيبيادس الذي كان على بينة تامة من خطط العدوّ واستعداده، يبقي من تلك المعلومات مجرد الفائدة الشخصية، ليحسن في عينهم ويدخل في آذانهم صحة التهمة التي عزاها الى [فرينيخوس][*].

لكن عندما هجم [هرمون Hermon] على [فرينيخوس] في ساحة السوق وقضى عليه بطعنة خنجر، بوشر بالتحقيق عن اسباب القتل، وكانت النتيجة ادانة القتيل رسمياً بالخيانة، ومكافأة القاتل بضفر أكاليل الغار على رأسه ورؤوس شركائه، عمد اصدقاء [الكيبيادس] المقيمون في آثينا الى شرح المسألة للزعماء الآثينيين في [ساموس] فبادر هؤلاء الى ارسال [بيساندر Pisander] ليقوم بمحاولة قلب نظام الحكم في العاصمة وليبث الشجاعة في نفوس المواطنين الارستقراطيين، حتى يأخذوا مقاليد الحكم بايديهم، ويزيلوا النظام الديمقراطي، وان يضع أمامهم اقتراح [السكيبيادس] بالسعي لكسب صداقة [طيسافيرنس] ومحالفته، عند وقوع هذا التغير.

هذا هو اللون الذي تلّون به، والزعم الذي روج له، أولئك الذين تأمروا على الاطاحة بالنظام الديمقراطي في اثينا واقامة حكومة الاوليغارشية في مكانه. ما أن نجحوا في مسعاهم وسيطروا على الحكم تحت اسم «حكومة الألاف الخمسة» [في حين لم يكونوا غير اربعمائة][٤٢]. حتى نبذوا السكيبيادس وأهملوا أمره. وراحوا يتقاعسون في ادارة دفة الحرب لأنهم من جهة كانوا يوجسون خيفة من الشعب الناقم على هذه الردّة والكاره لها ولأنهم من جهة أخرى كانوا يأملون من اللقيديمونيين شروط صلح مناسبة. لأن هؤلاء كانوا دوماً على وئامٍ مع حكومات القِلّة.

وأرغم أهل المدينة على الخضوع لأساليب القمع والاضطهاد، وأعدم المستبدون عدداً كبيراً

(*) في صيف ٤١١ ق.م بعد أن عزل فرينيخوس من قيادته في ساموس وأظهر نفسه مسانداً متحمساً للثوريين الاربعمائة في آثينا.

(٤٢) اقترح أولاً أن لايخسر السلطة الاّ للطبقة السفلى من عامة الشعب وان توضع بيد خمسة آلاف من أغنى المواطنين ومقدّميهم لكن عندما اكتشف (بيساندر) وزملاؤه قوة حزبهم اقترحوا اصدار قرار بالغاء نظام الحكم الحالي وأن ينتخب خمسة من الـ(بريتاني) وان لهؤلاء الخمسة الحق في انتخاب مائة. ولكل واحدة من المائة أن ينتخب ثلاثة وان هؤلاء الاربعمائة المنتخبين يكونون مجلس شيوخ تستقر فيه السلطة العليا. ويقوم المجلس باستشارة الخمسة آلاف كلما وجدوا حاجة لذلك. هذا وقد نجح المؤتمرون في سنّ هذا القرار. [توكيديدس ٦٧:٨ و٦٨].

ممن تجرأ على نقد ومعارضة «حكم الاربعمائة» علناً. ولما وردت هذه الانباء الى [ساموس] ثار الغضب بهم وتملكتهم رغبة الابحار فوراً الى [پيريوس]. وبعثوا يطلبون من [الكيبيادس] الحضور، وانتخبوه جنرالاً، وامروه ان يقودهم للقضاء على المستبدين. فكان ردّ الفعل عنده خلافاً لما يتوقع اي امرءٍ من رجل رفعه تقدير الجمهور على حين غرة الى مركز القيادة لم يجد السكيبيادس نفسه مرتبطاً باي عهدٍ يقضي عليه بتنفيذ مطالب أولئك الذين خلقوا من لاجيء مطرود جنرالاً لمثل هذا الجيش العظيم وقائداً لهذا الاسطول الضخم، ولا مجبراً على الخضوع لمشيئتهم وبادر بحكم منصب القيادة الذي تسلمه الى معارضة تلك القرارات الهوجاء التي ساقهم اليها غيظهم الفجائي. وسعى لمنعهم من اقتراف الخطأ الجسيم الذي همّوا بالاقدام عليه وأنقذ بذلك الجمهورية من الفناء بحقٍ وحقيق. فلو انهم ابحروا الى اثينا، لتركوا كل آيونيا والجزر وهللسپونت تقع غنيمة باردة في أيدي العدو دون اي مقاومة. في حين لايكون للآثينيين المنشغلين في حربهم الأهلية إلاّ قتال بعضهم بعضاً داخل أسوارهم. كان السبياديس هو العامل الوحيد أو العامل الرئيس الذي حال دون الكارثة، ولم يقتصر على استخدام وسائل الأقناع مع قادة الجيش، بل نزل الى الجنود بنفسه واتصل بهم فرداً فرداً يرجو بعضهم ويضغط على بعضهم الآخر، وابدى [تراسيبولوس Thrasybulus] الاستريائي Stiria[*] صاحب أعلى صوت بين كل الآثينيين، همّةً قعساء في هذا الصدد على ما قيل لنا. فقد ظلّ ملازماً لالسكيبيادس في جولاته لينادي أولئك الذي استعدوا للإبحار ويطلب منهم العودة.

وأدّى السكيبيادس خدمة جليلة أخرى. هي مسعاه لايقاف الاسطول الفينيقي الذي كان اللقيديمونيون يتوقعون ان يبعث به ملك الفرس لمساعدتهم، او لانحيازه الى جانب الآثينيين إن جاء. وبادر الى الأبحار على جناح السرّعة لتحقيق ذلك. تقدمت العمارة البحرية حتى شوهدت بالقرب من [آسپيندووس Aspendus][٤٣]. إلاّ ان [طيسافيرنس] منع تقدمها الى ابعد من هذا نكايةً باللقيديمونيين إلاّ ان الفريقين اعتقدا انها لم تحرف عن قصدها الاّ بجهود السكيبيادس ومساعيه. واتهمه اللقيديمونيون خاصةً، بأنه نصح البرابرة بالوقوف على الحياد وترك الأغريق يدمّر بعضهم بعضاً، اذ كان واضحاً ان وصول مثل هذه القوة العظيمة الى ايّ فريق، سيرجح كفته على الآخر ويمكّنه من الاستيلاء عن كل ممتلكات الآخر البحرية.

لم تمرّ فترة وجيزة، إلاّ وتمّ طرد «الاربعمائة»[٤٤] المستبدين من دست الحكم وراح اعوان

(*) يجب ان يميز هذا الجنرال الشهير عن ثراسيپولوس ثراسو (في الفقرة ٣٦).

(٤٣) مدينة ساحلية في [پامفيلية] بين رودس وقبرص.

(٤٤) اغتصبوا السلطة في حزيران ٤١١ ق.م. وتم القضاء عليهم في ايلول من تلك السنة. وهي السنة الثانية من الاولمبياد الثاني والتسعين، ولنذكر القاريء بوجوب التفريق بين هذا المجلس وبين مجلس الشيوخ =

الكيبيادس يدعمون بكلّ قواهم العناصر التي كانت تعمل على اعادة الحكم الديمقراطي.
الجماهير الشعبية لم تكتف الآن بمجرد الرغبة في عودة الكيبيادس الى الوطن، بل أصدرت أمراً له بذلك. إلاّ انه لم يشأ أن يكون مديناً بمنةٍ للشعب ولا ان يكون موضع اشفاقه . وحلف ان لايطأ ارض الوطن خالي الوفاض، بل مثقلاً بمجدٍ أو خدمة للبلاد . ولذلك ابحر من ساموس بعددٍ قليل من السفن ومخر عباب بحر [كْنيدوس Cnidos] وحوّم حول جزيرة [كوس Cos].
ولما بلغه ان [ميينداروس Mindarus] قائد الاسطول السپارطي قد خرج بكلّ عمارته الى [هللسپونت] وان الآثينيين يجرون في أعقابه. لوى عنانه وأسرع يلحق بالقواد الآثينيين. وشاء حسن الحظ ان يكون وصوله في احرج ساعةٍ بسفنه الثماني عشرة. فقد اشتبك الاسطولان قرب [ابيدوس Abydos] في معركة ضارية وأستمر القتال حتى الليل. سجالاً ولم يستظهر فريق على آخر استظهاراً بيّناً. وكان رجحان الكفة موضعياً. هذا متغلب هنا وذاك مستظهرٌ هناك والعكس بالعكس. وخلّف ظهور سفنه في نفوس الفريقين اعتقادين خاطئين إذ ارتفعت معنويات العدوّ. وأدرك الآثينيين الفزع، إلاّ انه رفع العلم الأثيني على صاري سفينة القيادة. وحمل حملة صادقة على سفن البلوپونيسوس التي كانت بيدها المبادأة وهي تطارد سفن الآثينيين. فهزمها ومزّقها وأخذ يطاردها من مسافة قريبة حتى أرغمها على الجنوح الى الساحل فتحطمت عليه، فتركها بحارتها وسبحوا الى البّر. رغم وجود [فارنابازوس] الذي خفّ الى معونتهم برّاً، وعمل ما أمكنه لحمايتهم من جهة الساحل. وبالاختصار، غنم الآثينيون من الاعداء ثلاثين سفينة وأستعادوا كل سفنهم الأسيرة. وأقاموا نصباً تذكارياً لانتصارهم.

بعد أن ظفر الكيبيادس بهذا النصر الكبير، أبى عليه زهوه وخيلاؤه إلاّ أن يُشهِد [طيسافيرنس] على حاله الجديدة، فتزود بالهدايا والجوائز، وأعتدّ بكل ما يتفق ومنزلته وأنطلق لزيارته. إلاّ ان النجاح لم يحالفه في هذا كما تصور [فطيسافيرنس] كان منذ زمن بعيد موضع ريبة اللقيديمونيين، وفيه خوف من سخط الملك لهذا السبب وجد في زيارة الكيبيادس فرصةً نادرةً فقبض عليه وأرسله سجيناً الى [سارديس] متوهماً بأن عمله الشائن هذا سيرفعه في عين الملك ويكون له صك براءة من اي أيامٍ سابق.

ولكن لم يمض شهرٌ واحدٌ على أعتقاله حتى أفلح في الهروب، وبجواد حصل عليه تمكن من الوصول الى [كلازوميني Glazomenae]، وهناك ألبس آسره [طيسافيرنس] ثوب عارٍ جديد باعلانه أنه كان مسهماً في خطّة فراره. ومن هناك رحل الى معسكر الجيش الآثيني(*).

= الذي ابتدعه صولون ويتكون من عددٍ مساوٍ.
(*) في مبدء ربيع ٤١٠ ق.م. كان الآثينيون في كارديا وهي مدينة بالخرسونيز الشرقية.

حيث علم أن القائدين [مينداروس] و[فارنابازوس] موجودان معاً في [سيزيكوس]. فقام بين الجنود خطيباً. ومما قاله «إن القتال براً والقتال بحراً -ولعمر الآلهة- القتال ضد المدن المحصنة، يجب أن يكون قتالاً واحداً غير مجزأ بالنسبة اليهم. وإن لم يحققوا نصراً كاملاً في كل مكان فلن يوجد مالٌ لهم.». ثم أمر بركوب السفن واتجه مسرعاً الى [پروكونيسوس Pro-connesus]. وأصدر أمره باحتجاز كلّ ما يعترض الاسطول من المراكب والسفن الصغيرة وايداعها في الوسط لئلا يسبق العدوّ علم بقدومه، وزاد في سرّه كتماناً هبوب عاصفة مطرية عظيمة صحبها رعدٌ وظلام داجن. والحق يقال أن العدوَّ لم يكن الوحيد في جهله، لأن الآثينيين أنفسهم ما كانوا يعرفون وجهة سيرهم فالأمر كان فجائياً غامضاً قاصراً على ركوب السفن واطلاقها في عرض البحر، دون وجود نيةٍ مسبقة. وبعد ان انجاب الظلام شوهد الأسطول البلوپونيسيّ جاثماً على مقربة من ميناء [سيزيكوس] يختال فوق سطح الماء. وخشي الكيبيادس أن يكتشفوا قوته الحقيقية فيصيبهم الذعر ويحاولون النجاة بالهروب براً، أمر بقية ضباط السفن ان يخففوا السرعة ويلحقوا به عن كثب. بينما تقدم هو بأربعين بارجة وأظهر نفسه للعدوّ وأستفزهم للمعركة، فانخدع العدوّ بضآلة عدد السفن واستهانوا بها وبادأوه القتال وكل اعتقادهم أن عدوّهم لايملك غير هذه القوة. ولكن ما أن حمي الوطيس حتى لاحت طلائع القسم الأكبر من الأسطول واطبقت عليهم فأدركهم الذعر ونزلوا البرّ لائذين بالفرار، إلاّ ان الكيبيادس أخترق القلب، بعشرين من أفضل سفنه وأسرع الى الساحل وأنزل جنوده وشرع في مطاردة العدوّ الذي ترك سفنه وهرب براً، ففتك بعدد كبير منهم، وخفّ [فارنابازوس] و[مينداروس] لمعونتهم ولكنهما هزما شرّ هزيمة وقتل [مينداروس] بعد ان أبلىٰ خير بلاءٍ وفرّ [فارنابازوس] ناجياً بجلده وغنم الآثينيون عدداً كبيراً من قتلى العدو(٤٥) وأسلاباً كثيرة وأسروا سفنهم وأحتلوا [سيزيكوس] التي جلا عنها [فارنابازوس] وابادوا حاميتها البلوپونسيّة. وبذلك لم يكن كسبهم قاصراً على [هللسپونت] وأنما طردوا اللقيديمونيين بالقوة من كل البحار الأخرى. وضبطوا عدداً من الرسائل كانت في طريقها الى حكّام سپارطا، جاء فيها شرح للهزيمة الساحقة بالأسلوب السپارطي الموجز المقتضب «آمالنا قُضي عليها. [مينداروس] قتل. الرجال يشكون الجوع. لاندري ما نفعل...».

وبلغ الزهو والغرور بالجنود الذين حاربوا تحت أمرة الكيبيادس في القتال الأخير حداً عظيماً، وثملوا بخمرة النصر حتى أنهم راحوا ينظرون الى أنفسهم نظرة صناديد لايشق لهم

(٤٥) ليس هذا التعبير غريباً. فلجثث القتلى حرمتها الكبيرة وهي تفتدى كذلك. وما علينا الاّ التذكر بان الآثينيين فرضوا عقوبة الموت على قوادهم المنتصرين في معركة [ارغينتس] لإهمالهم دفن القتلى.

غبار ولا يقف دونهم شيء. وترفعوا عن مخالطة الجنود الآخرين الذي عانوا عدداً من الهزائم. اذ حدث قبل فترة غير طويلة(*) ان [ثراسيللوس Thrasyllus] أصيب بهزيمة قرب [أفسّس] وان الأفسوسيين أقاموا نصباً تذكارياً من النحاس ازدراءً بالآثينيين(٤٦). فراح جنود الكيبيادس يعيرون الجنود الذين كانوا تحت أمرة [ثراسيللوس] بهذه النكسة معظمين أنفسهم وقائدهم في الوقت نفسه كما انهم رفضوا القيام بالتدريب العسكري معهم أو مساكنتهم معسكراً واحداً. ولكن لم يمرّ طويل زمن إلاّ وهاجم فارنابازوس بقوات عظيمة من المشاة والخيّالة - وحدات تراسيللوس التي كانت منصرفة الى السلب والنهب في ارض [ابيدوس]. فخفف الكيبيادس اليه وتعاونا على هزيمة [فارنابازوس] وجّدا في أثره حتى جن الليل. هذه الحادثة ألفت بين القلوب وعاد الجميع الى المعسكرات جذلين يهنيء بعضهم بعضاً. وفي اليوم التالي أقام الكيبيادس نصباً تذكارياً، وأنطلق لاجتياح كل الاقاليم الذي يسيطر عليها [فارنابازوس] مستخدماً السيف والنار فلم يقف في سبيله أحدٌ. وأسر عدداً كبيراً من طبقة الكهنة والكاهنات، إلاّ أنه أطلقهم بدون فدية. ثم استعدّ لمهاجمة الخلقيدونيين(٤٧) الذين كانوا قد شقوا عصا الطاعة على آثينا، وقبلوا بحاكم وحامية من لقيديمونيا. لكنه استخبر بأنهم نقلوا غلالهم وماشيتهم من حقولهم واودعوها اصدقائهم البيثيين، فوجه حملته نحو تخوم هؤلاء، وبعث رسولاً يتهمهم بهذا العمل. وكان ذعرهم من زحفه عظيم الوقع اذ مالبثوا أن سلّموا له الغنائم ودخلوا معه في حلف.

فانثنى الى [خلقيدون] والقى عليها الحصار وأحاطها بسورٍ من البحر الى البحر(*) لعزلها تماماً، فزحف [فارنابازوس] عليه بقواته لفكّ الحصار، وحشدّ هيپوقريطس حاكم المدينة كل قواته وحمل على الآثينيين في عين الوقت، فقسم الكيبيادس قواته الى قسمين لمقابلة العدوين في آن واحدٍ، وأرغم [فارنابازوس] على فرار مخجل، وكرّ على هيپوقريطس وهزمه وقتله مع عدد من جنوده. وبعدها أبحر الى [هللسپونت] للتزود بالمال، فأستولى على مدينة [سيلمبريا Selymbria](٤٨). وهنا تعرض الى خطر جسيم بسبب تهوره وقلّة حذره. فقد تعهد. بعض السكان أن يسلموا له المدينة بلا حرب وكان الاتفاق يقضى أن يعطيه المؤتمرون الإشارة بالدخول

(*) في صيف ٤١٠ ق.م بعدنصر كيزكوس.

(٤٦) كانت الانصاب في باديء الأمر تقام من الخشب وتبقى حتى يعفو عنها الزمن ويمسح العداء بين الشعوب مسحاً. إلاّ ان الأفسسيين أقاموا النصب من النحاس تخليداً لذكرى العار لاثيني. ولهذا راح جنود (الكيبيادس) يسخرون من جنود (ثراسيللوس).

(٤٧) مدينة على البوسفور الأيمن وأنت تتجه الى البحر الأسود.

(*) في ربيع ٤٠٩ ق.م.

(٤٨) مدينة في تراقيا على ساحل (پروبونتس). كزينفون يسميها سيامبرايا.

من مشعلٍ مضاء يرفع فوق السور بعد منتصف الليل لكن احد المتآمرين خالجه الندم عن الخيانة، فخشي الآخرون أن يفتضح أمرهم، وأكرهوا على أعطاء الاشارة قبل الموعد المتفق عليه وما ان لمح الكيپيادس المشعل مرتفعاً في الهواء حتى هرع الى الأسوار، ولم يكن جيشه متأهباً بعد، ولذلك كان في رفقته ثلاثون رجلاً تقريباً. بعد أن أمر أن يلحق به الجيش بأسرع ما يمكن. وبلغ السور ليجد الباب مفتوحاً له، فولجه مع رجاله الثلاثين وعشرين آخرين من ذوي السلاح الخفيف لحقوا به في آخر لحظة. وما أن صارت الشرذمة داخل المدينة حتى جوبهوا بأهاليها يحملون عليهم شاكي السلاح. فبهت وتحيرّ في أمره. اذا بقي وقرر الاشتباك معهم ضاع منه سبيل نجاته. أمّا النكوص فصعب عليه، إذ انه لم يعرف هزيمة، ولم يفرّ في معركةٍ. ولهذا طلب السكوت بصوت النفير. ثم أنه أمر أحد رجاله أن يعلن قائلاً: «عبثاً ترفعون أيها السلمبريون السلاح في وجه الآثينيين، هذه العبارة خففت من غلواء الفريق التائق للقتال اذ توهموا ان كل جيش العدوّ قد صار ضمن اسوار المدينة. ورفعت معنويات الآخرين الذين أختاروا التفاهم على تسوية. وفيما هم يتبادلون الحديث ويتداولون الاقتراحات دخل كل جيش الكيبيادس المدينة. والآن وبعد تخمينه الصحيح بأن السلمبريين جانحون الى السلم حقاً، ولخوفه ان يعمد التراقيون من جيشه الى نهب المدينة (وكانوا قد أنضموا الى جيشه بأعداد كبيرة إكراماً له) أمرهم بالانسحاب خارج الأسوار كافةً. ولتقديم المدينة الطاعة عفاها من النهب وفرض عليها غرامة مالية فحسب، ثم انسحب منها بعد أن وضع فيها حامية آثينية.

وفي أثناء هذه الوقائع توصل القادة الآثينيون الذين يحاصرون حخلقيدون] الى عقد معاهدة صلح مع [فارنابازوس] على الشروط التالية:

أن يدفع لهم مبلغاً معيناً من المال وأن يعود الخلقيدونيون الى حمى جمهورية آثينا. وان لايقوم الآثينيون بغارات على الأقليم الذي يحكمه [فارنابازوس] وأن يسمح [فارنابازوس] بمرور سفراء آثينا في طريقهم الى ملك الفرس.

ثم لما عاد الكيبيادس طلب [فارنابازوس] أن يصادق هو أيضاً على المعاهدة ويحلف يميناً على التمسّك بها. فرفض الكيبيادس أن يفعل ذلك إلا بعد أن يحلف [فارنابازوس]. وعندما تمت المراسيم على هذا النحو، ساق الكيبيادس حملةٍ على البيزنطيين الذين كانوا قد شقوا على آثينا عصا الطاعة، وأقام أطاماً حول المدينة(*).

إلاّ أن [انكسلاووس Anxilaus] و[ليكورغوس] وآخرين عرضوا تسليم المدينة غيلةً أذا تعهد الكيبيادس بحفظ ارواح السكان وأموالهم، فنشروا اشاعة عن وجود حركة غير متوقعة

(*) أثناء شتاء ٤٠٩-٤٠٨ ق.م.

في آيونيا أضطرته على رفع الحصار والانسحاب. وفي اليوم عينه أظهر علائم الرحيل والإقلاع بجميع الاسطول، إلا أنه عاد ليلاً وانزل الى الساحل كلّ جنوده وزحف نحو الأسوار بسكون وخفة وفي الوقت عينه أدخل سفنه الى الميناء مفتعلاً أقصى ما يمكن من الحركة والضجيج والصياح والعنف.

فاعترت البيزنطيين الدهشة وفوجئوا من حيث لايتوقعون وفيما هم يسرعون للدفاع عن مينائهم وسفنهم، سنحت الفرصة لأنصار الآثينيين بادخال الكيبيادس الى المدينة بكلّ أمان. ومع ذلك لم تنته المسألة بدون قتال، فقد تصدّى البلوبونسسيون والبويوتيون والميغاريون، الجنود الخارجين من السفن وأرغموهم على ركوبها ثانيةً، ولما سمعوا أن الآثينيين دخلوا من الجانب الآخر، نظموا صفوفهم وأندفعوا اليهم، على أن الكيبيادس تمكن من النصر بعد قتال ضارٍ، وكان يقود بنفسه الميمنة و[ثيرامينيس Theramenes] يقود الميسرة. و خذ ثلاثمائة أسير تقريباً، وهم كل ما تبقى من قوات العدوّ. وبعد انتهاء المعركة لم يقتل بيزنطي واحدٌ أو يطرد خارج المدينة تطبيقاً للشروط المتفق عليها لتسليم المدينة وهيالاً يضار أحد من سكانها لا بنفسه ولا بماله. ووقف [انكسيلاووس] فيما بعد في لقيديمون متهماً بهذه الخيانة فلم يستنكر عمله، ولم يعترف بخطأه. وكانت حجّته انه ليس لقديمونياً بل بيزنطياً وان الخطر لم يكن مُحدقاً باسپارطا بل ببيزنطة. فقد أحكم الحصار حول المدينة واستحال نقل الارزاق اليها، وكان رجال حامية البلوبونسسيين والبويوتيين يلتهمون كل ما هو مختزن في حين يتضور البيزنطيون جوعاً مع زوجاتهم وأطفالهم. ولذلك فانه لم يخن بلاده ويسلمها للعدوّ وانما انقذها من فواجع الحرب، متأثراً بذلك خطى معظم مشاهير رجال لقديمونيا الذين لايرون أكثر شرفاً وكرامةً من تحقيق كل ما هو نافع لبلادهم. فأحترم اللقيديمونيين دفاعه هذا وبرأوا كل المتهمين.

وهزّ الشوق الكيبيادس الى موطنه أو بالأحرى تاق الى ان يعرض على بني قومه شخصاً ظفر لهم بانتصارات عديدة. فأبحر الى اثينا(*) وزينت السفن التي رافقته بالعديد من التروس وغيرها من غنائم الحرب وسحبت خلفها كثيراً من البوراج التي أستولي عليها. مع شعارات وزينات الكثير الآخر الذي أغرق وحُطّم، ويبلغ مجموعها الكلي مائتين ولا يُعتدّ كثيراً بما أورده [دوريس Duris] الساموسي الذي يّدعي نسباً بالكيبيادس - من القول أن [خريسوغونوس Chrysogonus] أحد الفائزين في الالعاب [البيثية] كان ينظمّ حركة مجاذيف السفن بانغام نايه فتتحرك بانسجام الايقاعات الموسيقية، وأن [كاليِّديس -Callip

(*) من ساموس في ربيع ٤٠٨ ق.م.

pides] الممثل التراجيديّ كان يلقى الكلام الى النوتية وهو مرتد جزمته وطيلسانه الأرجواني وماليها من حلله وحليّه السركسيّة. وان سفينة القيادة رفعت شراعاً ارجوانياً عند دخولها الميناء. كل هذه الوقائع لم يرد ذكرها عند [ثيوپومپوس أو ايفوروس أو گزينفون] والحقيقة هي أنه لايُعقل البتة أن يعود المرء الى موطنه وقومه من نفي طويل الأمد تخلله كثير من المصائب والنوائب مثلما يعود نشوانٌ طروبٌ من مجلسٍ لهو وشراب. وأمّا الواقع فكان بعكس هذا اذ دخل الكيبيادس الميناء متوجساً خيفة مرتعد الفرائض. ولم يجرؤ على النزول الى اليابسة حتى شاهد ابن عمّ له يدعي [يوريطموس Euryptemus] مع آخرين من أصدقائه ومعارفه، وهم وقوف على الرصيف متلهفون لاستقباله ودعوته للنزول. وما أن وطئت البّر قدمه حتى اندفعت اليه الجماهير مستقبلةً وكأنها لا ترى أحداً من القواد الآخرين غيره. وتزاحمت عليه وتكأكأت وحيته بهتافات شقت عنان السماء وراحت تتبعه خطوة خطوة. وأخذ القريبون منه يضفرون الأكاليل على رأسه. أما الذين لم يصلوا اليه فقنعوا بالوقوف بعيداً ومتابعته بانظارهم. وكان كبار السنّ والعجزة يدلّون الصغار عليه بالاشارة اليه. إلاّ أن الفرحة الشعبية ما زجها شيء من الدموع، والسعادة الحاضرة شابتها ذكرى مؤلمة للمصائب التي عانوها. وعاد بهم الفكر الى الماضي وتبينوا أنهم ما كانوا ليصابوا بنكسة صقلية، ولا ليهزموا في اي موقعة حربية لو تركوا تصريف الأمور وقيادة الجيوش لالكيبيادس، لما تسلّم مقاليد الأمور قبلها كان حالهم سيئاً فقد قُضي على نفوذهم في البحر أوكاد. وعجزوا عن حماية ضواحي مدينتهم من البرّ، كما كان التناحر الحزبي قد مزقهم وبلغ بهم وضعاً مشينا من البؤس. وسرعان ما انتشلهم من وهدتهم، وأنقذهم من حالتهم المزرية ولم يكفه أن يستعيد لهم سلطانهم الداثر على البحر بل قلب هزائمهم الى انتصارات في كل برّ.

سبق للشعب ان أصدر مرسوماً بعودة الكيبيادس من المنفى، بناءً على اقتراح [كريتياس Critias]⁽٤٩⁾ ابن [كالليسخروس Callaeschrus] كما يظهر من مرثيته التي أراد بها تذكرة الكيبيادس بالخدمة التي قدمها له:

من اقتراحي صدرَ ذلك المرسوم الذي جاء بك الى الوطن من منفاك الشاق.
الاقتراع العام أنا الذي بدأته، وصوتي هو الذي وضع الختم على المرسوم.

---

(٤٩) صدر هذا المرسوم قبل ثلاث سنوات في آخر خريف العام ٤١١ ق.م. بعد اسقاط مجلس الاربعمائة وكريتياس هو ابن عم افلاطون وهو الذي ذكره في محاوراته وأصبح صديقاً لالكيبيادس بعد عداء مستحكم. ان الشهوة الى السلطة تدمّر كل الروابط. فقد كان من الدّ اعدائه عندما أصبح الكيپيادس واحداً من الطغاة الثلاثين. وأرسل يؤكد لليساندر بأن آثينا لن ترتاح وسپارطا لن تأمن الاّ بتصفية الكيپيادس. قتلُ [كريتياس] فيما بعد، قتله (ثراسيبولوس) عندما تولى هذا انقاذ آثينا من حكم الطغاة.

ثم دُعي الجمهور الى اجتماع عام(*)، ووقف الكيبيادس بينهم خطيباً فأسهب في وصف ما عاناه متأسياً متألماً. ثم شكا بلهجة رقيقة من المعاملة الفظة التي عومل بها، وعزاها جميعاً الى معاندة الاقدار وشرّ الجنيّ الذي يلازم روحه. ثم انتقل فأفاض في الكلام عن مستقبلهم وآمانيهم. وحثهم على التمسّك باهداب الشجاعة والأمل الباسم. وقام المواطنون بوضع تيجان الذهب على مفرقه، وانتخبوه قائداً عاماً للبرّ والبحر ومنح صلاحيات مطلقة. كما أصدروا قراراً باعادة املاكه المصادرة اليه، واوعزوا الى اليومولپيدي Eumolpidae والمناديّ الأقدس، بَحلّه من اللّعان الديني الذي نطقوا به بموجب الحكم الصادر عليه فاطاع الجميع، ألاّ أن الكاهن الأعظم [ثيودوروس] أعتذر بقوله «إن هو برئ، فاني ما لعنتُه مطلقاً».

وبصرف النظر عن سير أمور الكيبيادس سيراً حسناً يتفق مع المجد الذي بلغه. فإن كثيراً من الناس ما زالوا قلقين بعض الشيء، ينظرون الى ظروف تطهير عودته نظرة شؤم. ففي اليوم الذي وصل الميناء كانت اثينا تحتفل بعيد الربة [منيرڤا](٥٠) التي يطلقون عليها [پلنتيريا Plynteria] ويقع في الخامس والعشرين من شهر [ثارجيليون] عندما يقوم [الپراكييرغيدي Praxiergidae باحياء شعائر الطقوس السريّة الخاصة بهم. فينتزعون كل الحلي والزينات من تماثيل الربّة ويسدلون أغطية وستائر على الجزء الذي تحتلّه من المعبد لحجبه عن النظر ولذلك بعتبره الآثينيون انحس يوم واشأمه ولا يأتون عملاً مهماً من أعمالهم فيه. وبموافقة قدوم الكيبيادس فيه، تصوروا أن الربّة لم ترحبّ به ولم ترتح اليه لأنها أخفت وجهها ورفضته. ومع هذا كلّه سار كل شيء وفق رغبته. وعندما تمّ اصلاح السفن المائة التي عادت معه، وهيئت للأبحار، اخرته رغبة شريفة حتى ختام الاحتفال بالأسرار المقدسة، فمنذ احتلال [دسيليا Decelea] وسيطرة العدوّ على كل الطرق المؤدية الى اليوسيس من آثينا، والموكب يسلك سبيل البحر لا تصاحبه أيه شعائر لائقة. فقد أضطروا الى حذف مراسيم القرابين والرقص وغيرها من الطقوس الأخرى التي جرت العادة بادائها في مراحل من الطريق. عندما يتقدم المركب الى [ياكوّس Jacchus](٥١). فوازن الكيبيادس القضية في فكره، ووجد في إعادة جلال هذه الشعائر القديمة عملاً مجيداً فيه تكريمٌ للآلهة وارتفاع جديد لمنزلته بين

(*) في أوائل صيف ٤٠٨ ق.م.

(٥٠) في هذا اليوم يغسل تمثال منيرڤا. وتحاط المعابد بخيط إشارة الى انها مقفلة في وجه المصلين كما جرت العادة في ايام النحس. ويحمل تين مجفف اثناء الموكب لأنه أول فاكهة تؤكل بعد الاكورن. اما البراكيرغيدي فهم الكهنة المختصون بـ(منيرڤا).

(٥١) يدوم عيد كيريس وپروسپرين تسعة أيام، وفي اليوم السادس يحمل من كيريس تمثال [باخوس] أو [اياخوس] الذي يعتقدون انه ابن جوپتر ويطاف به في موكب. ولفظ [اياخوس] يطلق أحياناً على الترتيلة التي تنشد اثناء مسيرة الموكب أو حتى على ايام العيد برمته.

الناس. وقرر مرافقة الموكب في طريق البرّ، وحمايته بجيشه من العدوّ. فاذا بقي [آغيس] في موضعه ولم يعترض سبيله فسيكون في هذا اضعافٌ لسمعته وصيته. واذا أضطر الكيبيادس الى خوض حربٍ مقدسةٍ في سبيل الآلهة ودفاعاً عن أقدس وأجلّ شعائر الدين، فسيكون ذلك على مرأى من بلاده وسيثبت بها لبني قومه مدى بسالته. ما أن قرّ رأيه على هذا وابلغها للايومولپيدي والمنادين، حتى بادر الى وضع ربايا عسكرية على رؤوس التلال. وعند انبلاج الصبح أطلق كشافته ترود الطريق. ثم أخذ معه الكهنة والرهبان والمكرسّين واضعاً اياهم في وسط رتل جنوده وقادهم بنظام دقيق وهدوٍ تامٍ. وكان موكباً جليلاً رائعاً وقال أولئك الذين لايضمرون كرهاً لالكيبيادس انه مارس فيه وظيفتي الكاهن الأعظم والقائد العسكري في وقت واحدٍ ولم يجرؤ العدوّ على القيام باي عمل ضدّه فوصل المدينة بأمان ولم يكن ارتفاع قدره في وعين ذاته بأقل من ارتفاع منزلته في عيون الشعب لهذه المأثرة المجيدة. وسرح بهم الخيال حتى وصل الى حَدّ الايمان بان قيادته تجعل جيوشهم منيعة عن العدوّ لايمكن قهرها. وأشتد تعلق أوزاع الشعب ودهماؤه به بحيث راحوا يصرخون برغبتهم في نصب نفسه حاكماً «طاغية» عليهم، ولم ير بعضهم معرّة «في مفاتحته بذلك ونصحه بأن يجعل نفسه في نجوة عن الحسد والبغض، بازالة قوانين الشعب ومراسيمه، وقمع الثرثارين الذين يلحقون الدّمار بالدولة، ليكون قادراً على تصريف شؤون الحكم وحده دون خوفٍ من حسابٍ أو ادانة.

وليس في الإمكان معرفة المدى الذي وصله ميله في ضبط السلطة المطلقة، وكل ما نعرفه أن اعيان المدينة وكبراءها كانوا شديدي الخوف من ذلك، حتى انهم استعجلوه في الابحار، وعينوا الزميلين اللذين أختارهما هو، وسمحوا له بكلّ ما طلب[٥٢]. فأنطلق بأسطول قوامه مائة سفينة[*] فبلغ [اندروس] وهناك قاتل أهلها وقاتل اللقيديمونيين الذين ساعدوهم وتغلبّ عليهما معاً. على أنه لم يفلح في الاستيلاء على المدينة، وهذا ما أطلق ألسنة أعدائه بمختلف التهم ضدّه. والحقيقة هي: اذا كان ثم شخص في الدنيا دمّره مجده، فهو الكيبيادس. لأن انتصاراته المستمرة، كونت فكرة معينة عن شجاعته وألمعيته، وهي أنه اذا فشل في أمرٍ ما سعى اليه، فالسبب هو إهماله. ولن يعتقد أحدٌ بأن السبب هو إفتقاره للسلطة. إذ كان الظنّ السائد عنه أن لاشيء يصعب عليه إذا عالج أمره بجدٍّ وحزمٍ.

وأخذ الآثينيون يتوقعون يومياً وصول الانباء عن إخضاع [خيوس] وبقية [آيونيا] وعيل صبرهم لأن الأمور لا تسير بالسرعة التي كانوا يقدرون لها. ولم يفكروا بمبلغ حاجته الى المال،

(٥٢) يخبرنا گزينفون بأنّهما [ارسطوقراطس] و[اديمانتوس] وقد اقتصرت مشاركتها في القيادة على البرّ.
(*) في نهاية تشرين الأول ٤٠٨ ق.م.

وبانّ مواصلة الحرب ضدّ عدوّ لاينقصه شيء من الأعتدة والأرزاق تأتيهم من ملك عظيم، وكثيراً ما لجأ الكيبيادس الى النزول عن أسلحته ليؤمن المال والأرزاق لإطعام جنوده. وهذا ما فسح مجالاً لآخر اتهام وُجّه اليه. فقد أرسِل [ليساندر Lysander] من لقيديمون ليتسلّم قيادة أسطولهم ومعه مبلغ كبير من المال نفحه به [كورش] ملك الفرس. فراح يدفع لكلّ بحار اربعة [اوبولات] أجوراً يومية وكانت ثلاثةً قبلاً، ولم يكن الكيبيادس قادراً حتى على دفع ثلاثة [اوبولات] لرجاله، وحزم أمره أخيراً على دخول [كاريا Caria] للحصول على المال وترك قيادة الاسطول في غيابه [لأنطيوخس] وهو رجل بحر مجربّ، إلا أنه متهور متسرع قليل الشعور بالمسؤولية[٥٣]. مع أوامر صريحة له بأن لايشتبك في قتال مع العدوّ مهما استفزّ. إلاّ انه لم يبال بالأوامر وأستخف بها الى الحدّ الذي عمد الى سفينة الخاصة وسفينة أخرى فأنطلق بها الى أفسس حيث يرسو اسطول الاعداء وراح يخطر بسفينتيه أمامهم وأقترب منهم متحرشاً حتى قَيَاديم السفن واستخدام كل وسائل الاستفزاز الممكنة قولاً وعملاً. فأوسق ليساندر سفناً قليلة بالرجال ولاحقه، فخرجت كل السفن الآثينية لمعاونة انطيوخس، ولم يكن من ليساندر إلاّ وجرد الاسطول كلّه وأشتبك الفريقان في المعركة ودارت دائرتها على الآثينيين ونال بها نصراً ساحقاً. وقتل انطيوخس. وأخذ ليساندر أسرى من السفن والرجال. واقام نصباً تذكارياً.

وأسرع الكيبيادس الى ساموس حال سماعه بالنبأ، ثم خرج منها بكل اسطوله يريد ليساندر، إلاّ أن هذا القائد لم يخرج اليه وابى النزال قانعاً بالنصر الذي كسبه.

وكان [ثراسيبولوس] أبن ثراسون Thrason أشدّ رجال الجيش حقداً على الكيبيادس وكرهاً به، حتى أنه سافر الى أثينا بقصد رفع شكوى عليه، واثارة اعدائه في المدينة ضده. وقام خطيباً في الاجتماع الشعبي واوضح «إن الكيبيادس فرّط بمصالحهم وأتلف أمورهم وحفر سفنهم بمجرد الإهمال المكابر لواجباته، وأودع قيادة الجيش في غيابه أناساً أصبحوا موضع ثقته من جراء مجالس الشراب والقصف وبذيء الكلام. في حين كان يروح ويغدو على هواه يجمع الأموال، وينغمس في الوان من الترف والبذخ والفجور بين عاهرات [آبيدوس وآيونيا]، واسطول العدوّ قريب متربص بنا الدوائر مستعد اللأنقضاض». واصاخ الآثينيون سمعهم لهذه الشكاوى وأظهروا حنقهم وعدم رضاهم بانتخاب قادة آخرين للجيش[٥٤].

(٥٣) وهو الذي أمسك له بالسماني. يقول كزينفون ان ليساندر أخذ خمس عشرة سفينة وانسحب بعد المعركة الى (لسيپوس).

(٥٤) وهم بحسب قائمة كزينفون: كونون وذيوميذون وليونتس، پريكلس وابراسينيدس وارسطوقراطس وارخستراتوس وپروتوماخوس وثراسيلوس وارسطوغينس.

لما سمع الكيبيادس بما جرى بادر الى ترك الجيش كله[٥٥] خشية مما سيعقب، وجمع حوله جيشاً من الجنود المرتزقة وهاجم على حسابه الخاص أولئك الثراقيين الذين يسمون أنفسهم بالأحرار ولا يعترفون بسلطة اي ملك. وبهذه الوسيلة جمع ثروة طائلة وفي الوقت عينه حافظ على الأغريق الذين يقطنون الحدود من غارات البرابرة.

كان الجنرالات الثلاثة الجدد [تيديوس Tydeus وميناندر Menander وآدمينتوس Adi-mentus] قد أتخذوا [ايگوسپوتامي Aegospotami][٥٦] قاعدةً لهم بكلّ ما بقي للآثينيين من سفنٍ، وكانوا ينطلقون الى البحر صباح كل يوم من هذه القاعدة لاستدراج [ليساندر] الى معركة. بأسطوله الراسي قرب [لامپاسكوس Lampascus] ويعودون بعد كل اشتباك للاستراحة بقية اليوم احتقاراً للعدو وعدم مبالاة به، ودون نظام ولم يكن الكيبيادس الغريب منهم[*]. بمن يتعامى عن الخطر المحدق بهم أو بالذي يقلل من شأنه ولم يهمل التصريح لهم بذلك اذ ركب جواده وإقبل عليهم وشرح لهم أنهم أختاروا قاعدة غير صالحة ابداً، لأنها لا تمتاز بمناعةٍ ولا تمنحهم أماناً من غارة، كما أنها بعيدة عن أية مدينة مما يضطرهم الى جلب تجهيزاتهم وارزاقهم الضرورية من [سيستوس Sestos] البعيدة. وأشار أيضاً الى عدم مبالاتهم بوضع الجنود عند نزولهم الى البرّ، وحذرهم من مغبة تركهم الحبل على الغارب لهم يتفرقون دون نظام ويروحون ويغدون كما شاؤوا في حين كان اسطول العدوّ الذي هو بقيادة جنرال واحدٍ، يقظاً متربصاً بهم، مطيعاً للنظام الى آخر حَدّ وعلى مسافة قريبة جداً منهم. ونصحهم بالانتقال بالاسطول الى [سيستوس][٥٧]. فلم يكترثوا لقوله، وأمره [تيديوس] بلهجة مهينة أن ينصرف قائلاً انه ليس القائد الآن، وانما هناك آخرون يقودون الجيش. وبادر الكيبيادس الى الانصراف وقد لاحت له نية غدر. وقال لاصحابه الذين رافقوه الى خارج المعسكر: لو احترم الجنرالية رأيه ولم يعاملوه بهذا الاحتقار الذي لايحتمل، لأفلح خلال أيام معدودات في إرغام اللقيديمونيين مهما كرهوا، إمّا على قتال الآثينيين في البحر،

(٥٥) آخذاً معه بارجة واحدة. انسحب بها الى القلاع التي بناها ربما ليتخذها ملاذا.

(٥٦) يتخطى پلوتارخ هنا ثلاث سنين في غضونها حلت هزيمة بـ(كونون) بعد ان توغل قليلاً في أرض العدو وفي السنة التالية وهي السنة السادسة والعشرين من الحرب الپلوپونيسية نال الآثينيون نصر [ارغينتس]. وقاموا باعدام ستة من جنرالاتهم بتهمة بسيطة تقدم بها زميلهم [ثيرامينيس]. وفي السنة الأخيرة ابحر الآثينيون الى [ايغوس – پوتامي] وهو موضع على مقربة من المضايق. مقابل لامپلسكوس كما جاء في المتن – الفترة تبدأ من ربيع ٤٠٧ حتى خريف ٤٠٥ ق.م.

(*) في قلعته قرب پاكتيي Pactye (كزنيفون الهيللنيون ٢:١:٢٥).

(٥٧) الضباط الذين يؤمرون على الجيوش الاغريقية واساطيلها يطلق عليهم اسم جنرال أحياناً، ويطلق عليهم اسم اميرال أحياناً. لأنهم عادة يشرفون على الحركات العسكرية في البرّ والبحر على حَدّ سواء.

أو مغادرة سفنهم. وعد بعضهم كلامه هذا مجرد ادعاءٍ فارغ، وقال آخرون أن المسألة ممكنة إذ انه قد يأتي بمجموع كبيرة من الخيالة والنبّالة التراقيين ليهاجمهم براً ويشيع الفوضى في معسكرهم(٥٨). وسرعان ما أثبتت الأحداث صحة استنتاجه وحكمه على اخطاء الآثينيين. فقد انقضّ عليهم [ليساندر] فجأة، وهم أبعد الناس عن الشكّ في الأمر، وبلغ عنف هجومه حداً لم يفلت من يده غير [كونون Conon] وحده بثماني سفن فقط(٥٩). أما البقية وكان عددها يناهز المائتين فقد أستولى عليها وساقها خلفه غنيمةً مع ثلاثة آلاف أسيرٍ أعمل السيف في رقابهم جميعاً، وبعد فترة قصيرة أستولى على آثينا نفسها وأحرق كل ما وجده فيها من السفن وهدم اسوارها الطويلة(٦٠). ودبّ الخوف في نفس الكيبيادس اللقيديمونيين، الذين غدوا سادة البحر والبرّ من غير منازع، فرحل الى [بيثينيا]، بعد أن بعث اليها بأموال كثيرة، وأخذ معه ما يزيد على ذلك، وترك في الحصن الذي كان يقيم فيه مقداراً يزيد بكثيرٍ على ما سبق ذكره. إلاّ أنه خسر جزءً كبيراً من ثروته في [بيثينيا] فقد سطا عليه بعض التراقيين هناك وسرقوهُ وعندها قرّر الذهاب الى بلاط [ارتحششتا] وكان واثقاً أن الملك لن يجده أقلّ مواهب من [تيمستوكليس] عند امتحانها، زد على هذا أنه أنما يقصده في قضيةٍ أنبل وأشرف مما قصده به تيمستوكليس. فلم تكن غايته عرض خدماته ضدّ بني قومه ووطنه كما فعل تمستوكليس، بل ضدّ اعدائهم. أراد أن يحصل على عون من الملك للدفاع عن بلاده. وقدّر أن [فارنابازوس] لن يبخل عنه بحق اللجوء فقصده في [فريجيا].

وظلّ يعيش هناك ردحاً من الزمن يتبادلان الودّ والاحترام والتكريم وكانت حال الآثينيين أثناء ذلك - يرثى لها، اناخ البؤس عليهم بعد خسرانهم كل مستعمراتهم، وزاد في شقائهم حرمانهم الحريّة أيضاً، وقيام ليساندر بتعيين ثلاثين حاكماً مطلقاً في المدينة، واذ ذاك وفي وسط خرابهم بدأوا يستعيدون الأفكار التي عرضت عليهم ولم يوافقوا عليها حين كانت السلامة ممكنة. وأقرّوا باخطائهم الماضية وندموا على حماقاتهم ووجدوا في اساءتهم معاملة الكيبيادس الثانية خطيئة لايمكن اغتفارها. فقد طردوه دون أن يرتكب خطأً بنفسه، بل ولمجرد حنقهم على مرؤوس من مرؤوسيه فقد بضع سفن بصورة مخجلة، أرتكبوا هم أنفسهم جريمة أدعى الى الخجل والعار بحرمان الجمهورية من أشجع قوادها وأعظمهم حنكة ودهاء. وكانوا

---

(٥٨) عندما يُرسي الاسطول مدة معينة. تنزل عادةً قوات بريّة وبحرية وتعسكر في البرّ على الساحل.

(٥٩) هربت سفينة تاسعة تعرف باسم (پارالوس) لتحمل انباء الهزيمة الساحقة الى آثينا. ولجأ (كونون) الى قبرص. وكان ايڤاكوراس ملكها (انظر سيرة ليساندر).

(٦٠) حصل ذلك في السنة الرابعة من الاولمپياد الثالث والتسعين اي في السنة الثامنة والعشرين من الحرب البلوپونيسية.

يشعرون مع ذلك أن مجرد وجود الكيبيادس في قيد الحياة، يجعلهم يتشبثون بالأمل الواهي، ويمنعهم من اليأس التام بأحياء الجمهورية في آثينا. وكانت أنفسهم قانعة بأنه ان لم يستطع وهو في المنفى أن يجلس عاطلاً غير مكترث فسيكون الآن أقل صبراً على السكوت وتحمل إهانة اللقيديمونيين لبلاده، وأشد سُخطاً على استبداد الحكام الثلاثين، إن واتته الفرصة. وليس من قبيل السخف أو اضغاث الأحلام ان تخالج أفراد الشعب مثل هذه الامنيات وها هم «الحكام الثلاثون» أنفسهم شديدو اللهفة الى تسقّط اخباره ومتابعة كل حركاته وسكناته. وبمختصر القول بيّنَ [كريتياس] لليساندر أن اللقيديمونيين لن يصفو لهم الجوّ في بلاد الأغريق، وليس ثم ضمان لسيادتهم عليها إلاّ بالقضاء التام على الديمقراطية الآثينية. واذا كانت المظاهر تشير الى خنوع الآثينيين وصبرهم على هذا العدد الضئيل من الحكام فان مجرد علمهم بان الكيبيادس ما زال حيّاً، لن يدعهم يذعنون أو يرضون بحالتهم الراهنة.

إلاّ أن ليساندر لم يقتنع بهذه الحجج، حتى بلغته بالأخير أو امر سرية من حكام لقيديمون، تريد منه بصراحة أن يعمل على قتل [الكيبيادس]. ولا يعرف هل أن الدافع الى هذا، كان خوفهم من حيويته وجراءته في الاضطلاع بكلّ ما هو خطر أو اطفاءً لحقد [آغيس] عليه. وعندما وصلت الأوامر بذلك الى [ليساندر] بعث رسولاً الى [فارنابازوس] يطلب منه تنفيذ ذلك. فعهد [فارنابازوس] الى [ماچيوس Magaeus] أخيه، و[سوساميثريس Susamith-tes] عمّه بالأمر. وكان الكيبيادس في حينه يسكن قرية صغيرة فريجيّة مع [تيماندرا Timandra] مخطيته. ورأى فيما هو نائم الحلم التالي: وجد نفسه يرتدي ثياب مخطيته وهي تحتضنه بين ذراعيها وتصفف شعره وتجمّل وجهه بالمساحيق كأنه امرأته»، وزعم آخرون أنه رأى في الحلم [ماجيوس] يحتز رقبته ويحرق جسده. وعلى أية حال انه شاهد هذه الرؤى قبل مقتله بزمن قصير. وهؤلاء الذين أرسلوا لقتله لم يكن لديهم الشجاعة الكافية لدخول منزله، بل طوقوه اولاً ثم أشعلوا النار فيه. وما ان أدرك الكيبيادس نيتهم حتى جمع مقداراً كبيراً من الثياب والأثاث وغطى بها النيران محاولاً اخمادها ثم لفّ طيلسانه حول ذراعه اليسرى وامسك بسيفه المنتضى بيده اليمنى وقذف بنفسه وسط اللهب وخرج منها سليماً قبل أن تحترق ثيابه، وتراجع البرابرة الى الخلف حالما رأوه ولم يجرؤ أحد على التقدم منه أو الاشتباك معه بل وقفوا على مسافة وأجهزوا عليه بالسهام والرماح المقذوفة، وأنصرف البرابرة بعد قتله. فرفعت [تيماندرا] الجثّة وغطتها ولفتها بثيابها[٦١]. وقامت على دفنها

(٦١) دفنته في ميليّسا. وقد أعلمنا [آثينيوس ١٣:٤] أن النصب كان باقياً في عهده وانه شاهده بعينه وقد أمر الامبراطور هادريان تخليداً للرجل العظيم ان يصنع له تمثال من مرمر (پاري) وينصب فوق الضريح وأمر بتضحية ثور له، كل سنة... =

دفنة لائقة محترمة على قدر ما سمحت به ظروفها وقيل أن بنت [تيماندرا][٦٢] هذه هي [لايس Lais] الشهيرة، الملقبة بالكورنثيّة وان كانت من [هيكّارا Hyccara] وهي بلدة صغيرة في صقلية. هناك فريق يتفقون على وقائع موت الكيبيادس التي سردناها في كل تفاصيلها، خلا انهم لايعزون سببها الى [فارنابازوس] أو [ليساندر] أو اللقيديمونيين. بل يزعمون أنه كان يعاشر في منزله سيدة صغيرة السن من أسرة نبيلة هتك عرضها، ولم يستطع أخوتها احتمال عارها فأشعلوا النار في المنزل الذي يسكنه وقتلوه وهو يحاول النجاة بالشكل الذي فصّلناه.



(ادونيس)

= الى جانب الروايتين اللتين رواهما بلوتارخ هنا حول كيفية موته، توجد رواية ثالثة [ديودورس ١٤:١١] الذي يعزو السبب الى الحسد الذي كان يكنه له [فارنابازوس] السياسي الدنيء. ويقول ارسطو: الطبيعة ٢٩:٤ كان موته في [الافوس] وهو جبل في فريجيا.

(٦٢) [داماساندرا Damasandra] كما يسميها [اثينيوس] ويضيف قائلاً: ان [ثيودوتا] مخطيته الأخرى قامت بكلّ ما في امكانها لتشييعه ودفنه دفنة لائقة.

کرِیولانوس

CORIOLANUS

(Caius Marcius)

5 Th.C



أنجب البيت الپاتريشي المسمى [مارچيي Marcii] في روما، كثيراً من عظماء الرجال ومشاهيرهم، ومن بين الغابرين [آنكوس مارشيوس Ancus Marcius] حفيد [نوما][(١)] لابنته، وخَلَفُ [تللوس هوستيللوس] في العرش الروماني، ومن الأسرة نفسها نبغ أيضاً [پوبليوس Pubbius وكونيتوس مارشيوس] اللذان أسالا الى روما أفضل وأكبر كمية من الماء عرفها أهلها. ومثلهما [چچنوسوريوس Cecnsorinus] الذي أختاره الشعب مرتين لمنصب أمين بيت المال، وحملهم هو نفسه على أصدار قانون يحرم على المرء ان يتولى هذا المنصب مرتين، على أن [كايوس مارشيوس] الذي أكتب عنه هنا؛ كان يتيم الأب، نشأ وربي في فترة ترمل امّه. فأثبت لنا بهذا أن فقد الأب لايمنع أحداً من توقلّ درجات المجد والشهرة، والتحلي باسمى الفضائل في الحياة، ولا أن يكون عقبة دون التفوق والصلاح الحقيقي. وعلى أية حال، فأشرار الناس مغرمون في القاء تبعة شرهم ورداءتهم على سوء طوالعهم والإهمال الذي عانوا في الصغر. وانه كذلك لشاهدٌ لايقل قيمةً عمّا أسلفنا على صواب رأي أولئك الذين يؤمنون بأن الخلق الكريم الممتاز المتجردّ عن الضوابط والقيود الملائمة، هو أشبه بالتربة الخصبة غير المحروثة، فهي أهل لانتاج الكثير من السّيء والرديء أيضاً. وفي حين تراه يتنقل من نجاح الى نجاح في كل اعماله الشريفة بقوة روحٍ فيه، وفاعليةٍ متأججة واستمرارية عنيدة لازمت كل ما أضطلع به من مهامٍ، كان من جهة أخرى يرخي العنان لجموح عاطفته واطلاق العنان لها. ولقد كان من نتيجة إصراره العنيد على عدم إنزال نفسه الى ارادة الناس المحيطين به أو تكييف به أو تكييف أحاسيسه وأخلاقه لهم أن جعل نفسه عاجزاً عن العمل مع الآخرين. إن أولئك الذين كانوا يرقبون معجبين، كيف كانت طباعه صامدة ازاء كل مناعم الملذات، واغراء الكسب الماديّ، صابرة على مشاق الخدمة، في حين أنمت صلابة إرادته العامّة

---

(١) تزوجت پومليا بنت نوما بـ(مارچيوس) ابن سابيني، عندما أقنع (نوما) بقبول المنصب الملكي وتبعه الى روما، كان يأمل هو أن يخلفه في هذا المنصب. لكنه ما لبث عن بخع نفسه عندما أغفل وتخطوه لينصبوا (توللوس هوستيليوس]. ومن زيجة پومپليا ولد (انكوس) ابن مارچيوس ووصل الى المنصب الذي حرم منه جدّه. ومن هذه الأسرة جاء (كريولانوس). والماء المنوه به في السطر التالي هو أصفى ماء في روما. وقد جيء به بعد شق ساقية له من منبعه طولها ستون ميلاً.

تلك الصفات الملازمة لها مثل ضبط النفس والعزيمة والاستقامة؛ لم يسعهم إلاّ أن يضيقوا ذرعاً بصرامته وفظاظته وغطرسته واستبداده التحكميّ. وهي من حياة المواطن ورجل السياسة وان الدراسة والثقافة والتمرس في الفنون لا تنطوي على فوائد لطلاّبها، أعظم من فوائد الدروس الراميّة الى التهذيب البشري، والتحضّر. فهذه تدرّب أخلاقنا الطبيعيّة على الخضوع للحدود التي يرسمها العقل، وتجنبنا التطرف الجامع.

في تلك الأزمان كانت هذه المؤهلات تعتبر في روما أرفع ما يمكن أن تسمو اليه النفس، والأعمال الحربية هي ميدان ممارستها الوحيد وخير دليل على ذلك: الكلمة اللاتينية «Vertuten: الفضيلة[*]». فانها مرادف دقيق لشجاعة الرجل، حتى لكأن البسالة، والفضائل مجتمعة شيءٌ واحد، وانهم يستخدمونها كصفة عامة لتفوقٍ خاصٍ بشخص.

و[مارشيوس] الذي كان ميله يندفع به الى بطولات الحرب بحماسة تفوق ايّ من في سنّه، بدأ بالتدريب على السلاح منذ نعومة أظفاره. ولما كان يدرك ان الأسلحة ما هي إلاّ ادوات عرضيّة، مصنوعة لا تأثير لها، ولا قيمة كبيرة فيها عند من لم تزودهم الطبيعة باسلحةٍ حسنة التركيز معدة إعداداً جيداً للخدمة، فقد انصرف الى تكييف وتدريب كيانه على ضروب الفعاليات وشتىّ فنون القتال. فجمع فيه خَفّة العداء، وثقل المصارع الذي يصعب التخلص من قبضته حالما تطبق على الخصم في التحام، وبلغ في ذلك الغاية حتى كره منازلوه من بني قومه ولداتِه أن يصرحوا بنقص كفاءتهم ازاءه، وأعتادوا أن يعللوا قلة حيلتهم فيه وضعفهم بقوة جسمه، قائلين أنها لا تعرف معنى الانهاك ولا التعب، ولا يمكن الوقوف أمامها.

وأوّل ما دخل معترك الحرب وهو غلامٌ مراهق[٢]، كان في آخر معركةٍ [لتاركوينيوس سوپربوس] ملك روما الذي طرد من البلاد. فبعد محاولات فاشلة عديدة بذلها للعودة، راح الآن يبذل الجهد الأخير ويتامر بكلّ شيء في رميةٍ واحدة. ووحد كل اللاتين قواهم وزحفوا معه نحو المدينة لأجل أعادته الى العرش لا لشدة رغبتهم في خدمة تاركوينيوس وارضائه، قدر ما كان يدفعهم الى خوفهم من شوكة الرومان وغيرةً من ازدياد نفوذهم الذي ارادوا كبح جماحه وايقافه عند حدٍ. وتقابل الجيشان واشتبكا في معركة فاصلة ظلت متراوحة[**]، وكان [مارشيوس] في قلبها وفي مثار نقعها يقاتل ببسالة بمشهدٍ من الدكتاتور، وفي أثناء ذلك لمح جندياً رومانياً يسقط على الأرض بضربة من خصمه فبرز اليه ووقف دونه وقتله وأنقذ

(*) معناها الحرفي الرجولة.

(٢) في ٤٩٦ ق.م المعركة المشار اليها وقعت بالقرب من بحيرة (ريگلس) في عهد الدكتاتوري [اولوس پوستيموس]. لم يذكر لا ليڤي ولا ديون شيئاً عن هذه المأثرة اثناء حديثهما عن وقائع ذلك اليوم.

(**) قرب بجدة Regillus في ٤٩٨ ق.م.

الجندي الجريح. وعلى أثر انتصار الجنرال الروماني توّجهُ لهذا العمل باكليل مصنوعٍ من أغصان البلوط[٣]. وهي عادة درج عليها الرومان في تكريم أولئك الذين ينقذون حياة أحد المواطنين وليس من المعروف هل يقصد من العادة تكريم خصوصي للبلوط نفسه على سبيل ذكرى الاركاديين[*] الذين أشتهر أمرهم لنبوءة ابوللو سمتهم بأكله البلوط[**]. وان السبب فيه يعود الى سهولة حصولهم على ثمر البلوط في كل المواضع التي حاربوا فيها، أو لأن أكليل البلوط المقدس عند [جوبتر] حامي المدينة، أعتبر لهذا السبب حليةً مناسبة لمن ينقذ حياة مواطنٍ. والحق يقال أن شجرة البلوط تحمل أجمل الثمر وأكثره من بين كل الأشجار البريّة المثمرة وهي أيضاً أقوى ما يستنبتُ من الشجر وثمرها كان القوت الأساس للأقدمين من البشر، والعسل الذي يجدونه فيها كان أول ما شربوا. ويحق لي القول أيضاً أن الدبق الذي ينمو عليها يزوّد المرء بالطيور وغيرها من الحيوانات ذات اللحوم الذيذة، لأنه يوقعها في شراكه الصمغية.

وكان هذا من بواكر مآثر [مارشيوس]. ويقال أن [كاستور وبوللوكس] ظهرا في هذه الموقعة، وانهما شوهدا بعدها مباشرة في روما بالقرب من النافورة التي يقوم الآن معبدها في مكانها، حصاناهما ينضحان عرقاً، يذيعان انباء النصر على الشعب في [الفورم]. وتعين الخامس من تموز الذي هو يوم النصر، عيداً دينياً مكرساً للأخوين التوأمين.

ومما يلاحظ بصورة عامة إن الشبان عندما تبلغ بهم المقادر مراقي الشهرة والصيت في عُمر مبكرٍ، فانهم يستنيمون لها ويقفون عندها. وهي كفيلة باطفاء غلتهم واشباع نهمهم المحدود، وإن كان طبعهم يشوبه قليل من روح المباراة والمنافسة. والأمر على العكس عند عظماء الرجال وصناديدهم وأقوياء الأخلاق منهم بأن أول أشتهارهم يحتثهم ويدفعهم كما تدفع الريح الى ملاحقة أمجاد أخرى. وهم لاينظرون الى ثمرات فضائلهم نظرتهم الى مجرد تعويض نالوه عما فعلوه. بل يعتبرونها بمثابة عهودٍ قطعوها على أنفسهم للقيام بمآثر أخرى في المستقبل، وهم يخجلون ويستنكفون من المجد الرصيد الذي كسبوه. وبكلمة أخرى يترفعون عم جعله حجاباً مسدلاً على ما مرّ من أعمالهم وغطاءً يدفن تحته بهاء الأعمال التي قدر لهم انجازها في

---

(٣) «التاج المدني» يرفق به امتيازات كثيرة. فالفائز به الحق في وضعه على رأسه قدر ما شاء ومتى ما شاء. وعلى الشيوخ ان ينهضوا أحتراماً له كلما ظهر به للجمهور. وله أن يطالب بوضع معقد له بينهم في الاجتماعات العامة وان يكون لجدّه الصلبي وابيه عين الامتياز. وهو تشجيع لذوي المواهب والمؤهلات لا يكلف العامة شيئاً. وكان بمنح بالأصل لكل مواطن ينقذ مواطناً آخر من خطر الموت.

(*) اول مستعمرين لروما بقيادة ايفاندر Evander.

(**) هيرودوتس ١:٦٦.

المستقبل. ولقد كانت روح [مارشيوس] من هذا المعدن النبيل، فهي طموحة أبداً للتفوق على ذاتها دائماً، وهو لم ينجز عملاً فائقاً إلاّ وكان موقنا أن القدر يريد له عملاً آخر أعظم من سالفه في فرصة تالية. ولازمته الرغبة في تقديم دلائل مستمرة جديدة على بطولته وسيطرت على كيانه تماماً. فراح يضيف مجداً الى مجدٍ ويكدس النصر فوق النصر. وجعل من ذلك ميدان منافسة بين آمريه، ايهما يبز الآخر في تكريمه والثناء عليه؟ ولم يعد من أي حربٍ أو معركة خاضها في تلكم الأيام الاّ وهو متوج باكاليل الغار مثقل بالجوائز والمكافآت وفي الوقت الذي نرى غيره يجعل المجد والمنزلة الرفيعة آخر مطاف بسالته، نجد [مارشيوس] يجعل سعادة أمّه نهاية مجده. فالغبطة التي تتملكها عندما تسمع الثناء عليه، وتراه وهو يتوج باكاليل النصر، وبكاؤها فرحاً عندما يعانقها وتضمّه الى صدرها، تجعله يشعر بذات نفسه، انه نال أعظم ما يناله بشرٌ من تشريف وسعادة. وقيل أن [إپامنناس] كان يتملكه مثل هذا الشعور تماماً. فأهنأ لحظة عنده، هي أن أباه وامّه عاشا ليسمعا بالنجاح الذي حققه في القيادة وبانتصاره الكبير في [ليوكترا Leuctra]، إن الحظّ الذي أسعده بمشاركة ابويه في الاستمتاع بلذة نجاحه، لم يمكن [مارشيوس] إلاّ من واجب تقديم كل فروض الشكر والامتنان لأمه [ڤولومنيا Volumnia][٤] وحدها، كما لو كان ابوه حيّاً ولذلك لم تكن نفسه تشبع من حنانه وأحترامه لها. حتى أنه لم يفترق عنها عندما اتخذ زوجاً ورزق بأولاد بناءً على رجائها ورغبتها وظل يعيش معها تحت سقف واحد.

في ذلك الحين، أكسبته استقامته وشجاعته صيتاً كبيراً ونفوذاً طائلاً في روما. وكان مجلس الشيوخ بمحاباته اغنياء المواطنين، في خلافٍ مستعصٍ مع طبقة العامّة التي أخذت تجأر بالشكوى المرّة من المعاملة الفظة اللاإنسانية التي يلاقونها على أيدي المرابين[٥]، فكثير منهم أثقل كاهله بالديون، وكثيرون جردوا من كل مقتنياتهم وأملاكهم بطريق البيع أو الرهن تسديداً للدين. أما من بلغ الأمر بهم نهاية الأملاق بسبب المصادرات الماضية ولم يعد لديهم ما يصحّ مصادرته، فقد سيقوا الى السخرة والعمل الشاق دون أي اعتبار للجراح والندوب التي خلفتها في أجسامهم خوضهم شتىّ المعارك، دليلاً على خدماتهم الوطنية. وكان السابين آخر من أصمته السّهام. فقد وثقوا بعهدٍ قطعه لهم دائنوهم الاغنياء أن يحسنوا معاملتهم ويكونوا أكثر رفقاً بهم في المستقبل. وأنيب [ماركوس ڤاليريوس] القنصل، بايعاز من مجلس الشيوخ لمتابعة تطبيق هذا العهد واستنجازه. لكن، بعد أن حارب السابين الأعداء

(٤) ومن الكتاب الآخرين الذين ذكروا [ڤولمنيا] أسماً لزوجه، ديون وليڤي وڤاليريوس.

(٥) أو كما قال الآخرون ان الدكتاتور [ماكسيموس ڤاليريوس الذي وعد الشعب بقانون الغاء الديون [ديون ٦:٥].

ببسالةٍ، وحققوا النصر، لم يجدوا رفقاً من الدائنين ولا سماحةً كذلك صرح المجلس بانه لايذكر شيئاً عن وجود عهدٍ كهذا! وجلس ساكتاً غير مكترثٍ، وهو يشاهد افواج المدنيين يساقون كالعبيد، وأموالهم ومقتناهم ينزع منهم قسراً كالسابق. وبدأت الثورة تعتمل في النفوس وذرّ قرن التمرد علينا، وعقدت اجتماعات عامة ذات طابعٍ خطير في انحاء المدينة. ولم يخف أمر هذا الاضطراب الداخلي عن عين العدوّ، فأغار على البلاد وعاث فيها سلباً ولما أعلن القنصلان النفير وطلباً حضور كل من بلغ سنّ الخدمة العسكرية الى مقرات التجنبيد، لم يلبّ أحدٌ من المواطنين الدعوة في بضعة ايام فبادر مجلس الشيوخ الى عقد اجتماع للمداولة في الأمر واتخاذ قرارٍ إلاّ أن اعضاءه اتقسموا على أنفسهم وأختلفت وجهات نظرهم، فبعضهم ارتاي‌ء التنازل للفقراء عن القليل وخطب ودّهم بالتخفيف من صرامة القانون المتناهية، وارخاء قبضتهم عن حقوقهم المهضومة جداً. وعارض بعضهم الآخر هذه المقترحات وكان [مارشيوس] أشدّ الاعضاء الآخرين تحمساً لرأيه وهو أن قضيّة المال من كلا جانبيها، ليست الموضوع الأساسي. وقال إنّ أعمال التمرّد والعصيان ما هي إلاّ الخطوة الأولى الوقحة نحو أعلان الثورة الصريحة على أحكام القانون. وان واجب قمعها قبل أن يذرّ قرنها يقع على عاتق الحكومة، ويتوقف على حكمتها في معالجة الموقف.

وواصل مجلس الشيوخ عقد اجتماعات عديدة في فترة من الزمن قصيرة، لبحث المشكلة ولكنها لم تسفر عن نتيجة أو قرارٍ معين.

وعندئذٍ أقتنع العامة بأن احتمال انصافهم من ضيمهم يكاد يكون منعدماً. فأتفقوا فيما بينهم على رأي واحدٍ وأجمعوا أمرهم على ترك المدينة دفعةً واحدة. فخرجوا واحتلوا المرتفع المسمّى «بالجبل الأقدس» وأنتشروا في السهل القريب من نهر [آنيو](*) دون القيام بايّ عملٍ من أعمال الشغب أو العنف. وانما كانوا يرفعون أصواتهم بالشكوى وهم راحلون: بأنهم كانوا في الواقع قد طردوا من المدينة قبل زمن طويل، لقسوة الأغنياء وظلمهم. وان ايّ جزءٍ من ايطاليا لن يبخل عليهم بالماء والهواء، والمدفن، وهذا كل ما كانوا يحصلون عليه في روما، اللهّم إلاّ إمتياز الموت والجرح في الحرب دفاعاً عن دائنيهم!.

وتوجّس المجلس خيفة من نتائج ذلك فأختار من أعضائه شيوخاً من طبقتهم، اكثرهم استقامة وشعبية وبعث بهم لمفاوضة طبقة العامّة. وأسهب رئيس المفاوضين [مينينيوس أغريبّا Menenius Agrippa] في النصح والرجاء من الشعب، نيابة عن المجلس، وختم كلامه الصريح بالحكاية المشهورة الآتية:

(*) يبعد ثلاثة أميال عن المدينة (ليفي ٢:٣٢-٢٠).

«حدث مرّة ان اعضاء الجسم كلها ثارت على المعدة واتهمتها بأنها العضو العاطل الوحيد، والذي لايقدم اي خدمة للبدن، في حين يتعب سائر الاعضاء ويقوم بأشق الأعمال لإشباع نهمها، وسدّ حاجاتها وشهواتها. فسخرت المعدة من رقاعة الأعضاء التي يظهر انها لا تعلم شيئاً عن واجب المعدة، حيث انها لا تتسلّم الغذاء إلاّ لتوزيعه من قبلها على بقية الاعضاء، تلك هي القضية بينكم ايها المواطنون، وبين مجلس الشيوخ. انّ الخطط والمقرارات التي تنقل اليكم وتضمن لجميعكم الفائدة والمصلحة، انمّا تهضم هناك كما ينبغي».

وحَلّ الصلح والوئام، ونزل مجلس الشيوخ الى مطالب العامّة حول انتخاب خمسة محامين[٦]، لأولئك المحتاجين الى المعونة. وهم الذين يقال لهم «مفوضو الشعب: تريبيوني Tribune» في أيامنا هذه. يتمّ انتخابهم سنويّاً. وأوّل من تولى هذا المنصب [جونيوس بروتوس Junius Brutus][٧] و[سيثنيوس ڤيللوتوس Sicinnius Vellutus]، اللذين تزعما العامّه في خروجهم من المدينة.

وهكذا عادت الوحدة تسود المدينة وفزع العامة الى سلاحهم فوراً وساروا الى الحروب وراء قادتهم، بحميّةٍ ونشاط. وامّا عن [مارشيوس] فمع أن غيظه لم يكن بالقليل، لتغلب ارادة مجموع الشعب على مجلس الشيوخ وتحقيقهم مطاليبهم، ومع أنه وجد عند الكثير من الپاتريشيين السخط والاستنكار نفسه للتنازلات الأخيرة، فقد رجاهم مع ذلك أن لايكونوا أقل حماسة واندفاعاً في خدمة الوطن والبذل له، من العامة على الأقلّ، بل أن يبرهنوا على تفوقهم في الجدارة والكفاءه أكثر من تفوقهم في الغنى والجّاه.

كان الرومان وقتذاك يخوضون حرباً مع الڤولسيين. الذين اتخذوا [كوريولى Corioli] عاصمةً. ولذلك ضرب القنصل [كومينيوس Cominius] الحصار على هذا الموقع الهام، ولخوف بقية الڤولسيين أن تسقط، حشدوا كلّ ما أمكنهم من القوات واستقدموها من كل

(٦) كان عددهم خمسة في الأول. وبعد سنوات قليلة ضمّ اليهم خمسة آخرون. وقبل أن يترك الجمهور [مونس ساچير Mons Sacer] استنوا قانوناً جعلوا فيه شخص التريبيون مصوناً ومقدساً. ورسموا بأن على أن تكون مهّمة التريبيون الوحيدة التدخل لايقاف كلّ اعتداء يقع على افراد الطبقة العامة من جانب الاسياد وهو ما يدعى بـIntercesso ومؤداه أن يقف التريبيون على قدميه وينطق بكلمة واحدة (Veto: أنا امنع) ذلك. وتوضع للتريبيونات مقاعد عند باب مجلس الشيوخ ولا يدخلون المجلس الاّ عندما يستدعيهم القناصل لتبادل الرأيء حول مسألة تتعلق بمصالح الشعب.

(٧) اسم هذا التريبيون [لوچيوس جونيوس] وبما أن لوچيوس جونيوس بروتوس قد أشتهر لأنه انقذ البلاد من تحكم الملوك فقد اضاف الى اسمه لقب [بروتوس] مما عرضه الى كثير من السخرية والتعليق الفكه. (الكلمة اللاتينية Butus تعني بالدراج الغبي، وباللغة الأدبية الثقيل).

ناحية لأجل فكّ الحصار عنها، وكانت خطتهم أن يشتبكوا مع الرومان أمام المدينة، ليمكن حصرهم من الجانبين. ولكيما يجتنب كومينيدس هذا الموقف الصعب، قسم جيشه الى قسمين وزحف بأحدهما للهجوم على الفولسيين عند أقترابهم من الخارج تاركاً [تيطس لارتيوس Tit- us Lartius] وهو من أشجع الرومان، على رأس القسم الثاني لمواصلة الحصار. وتبينت الحامية الفولسيّة في داخل المدينة كم كان عددها قليلاً فدفعها اليأس الى الهجوم على المحاصرين، ورجحت كفتهم أولاً وطاردوا الرومان حتى خنادقهم. وهنا خرج عليهم [مارشيوس] بسريّة قليلة العدد ومزق أوّل المهاجمين تمزيقاً، وأجبر الباقين على تخفيف وطأة هجومهم ثم أطلق صيحة عظيمة بالرومان وأهاب بهم لتجديد المعركة. فقد كان في إهابه كل ما يتطلب من الجندي ليس قوة الساعد وشدة الطعن وحدهما بل قوة الصوت وصرامة النظرات التي من شأنها أن تُلقي الرعب في قلوب العدوّ - كما قال [كاتو Cato]. وأستجمعت طوائف من صحبه قواها، وهرعت لإسناده فأنقلب هجوم العدوّ الى تقهقر، إلاّ أن [مارشيوس] لم يقنع بمشاهدتهم يلمون شعثهم وينسحبون بل شدّ عليهم النكير وصكّ مؤخرتهم صكاً عنيفاً ودفعهم بما يشبه الهزيمة السريعة الى ابواب مدينتهم. وهنا تبين أن الرومان يريدون النكوص على أعقابهم، مدحورين لفرط ما يمطرهم العدوّ بالرماح من فوق الأسوار. وإن ليس بين من تبعه ألشجاعة الكافية للتفكير في الاختلاط بالعدوّ الهارب والدخول الى المدينة المكتظة بالعدوّ المستعدّ بسلاحه. على أنه وقف وأخذ يحثهم على المحاولة صارخاً، أنّ القدر لم يفتح أبواب [كوريولي] لايواء الهاربين قدر ما فتحها لاستقبال الفاتحين. والتحق به عدد قليل كانوا راغبين في مشاركته في المغامرة، فشقوا طريقهم خلال الحشود المندفعة وأفلح في الوصول الى الباب واقتحمه من وسطهم ولم يجرأ أحدٌ على مقاومته في مبدأ الأمر. إلاّ أن العدوّ تشجع عندما تبين قلة عددهم، وحمل عليهم فدارت معركة يقف القلم عن وصفها وفيها تمكن [مارشيوس] من التغلّب على كل مهاجم تصدى له بقوة الساعد وخفة القدم وجرأة النفس، ونجح في تشتيت شمل العدوّ الذي فرّ ناجياً الى داخل المدينة. أما الباقون فقد استسلموا له والقوا سلاحهم. وبهذا اتاحوا [للارتيوس] فرصة كبيرة جداً للزحف على المدينة ببقية الرومان وأحتلالها بسهولة وإطمئنان.

بعد أن تمّ إحتلال [كوريولي] بهذه الصورة المفاجئة، انصرف القسم الأعظم من الجنود الى النهب والسّلب، و[مارشيوس] الذي أحنقه هذا العمل راح يؤنبهم ساخطاً، ويصف أعمالهم بالدناءة والضّعة، فبينما يخوض القنصل وبنو جلدتهم معركة مع القسم الثاني من جيش الفولسيين، ويخاطرون بارواحهم في القتال، وجدهم يسيئون استخدام وقتهم في الركض وراء

الغنائم هنا وهناك. مبتعدين عن مكامن الخطر بحجّة أغتنام الأموال. ولم يعره أذناً صاغية إلاّ نفر قليل، فما كان منه إلاّ أن وضع نفسه على رأسهم سالكاً الطريق الذي تحرك منه جيش القنصل قبله وكان وهو يكدّ دؤوباً يدعو للآلهة كثيراً أن تسعده بالوصول الى ميدان الحرب قبل نهاية المعركة، وبلوغ [كومينيوس] لمعونته في اللحظة المناسبة، والمشاركة في أخطار القتال. وكان من عادة رومان ذلك العصر، عندما تتحرك قطعاتهم الى خط المعركة، ويكونون على وشك أن يرفعوا تروسهم ويشدون عباءاتهم على خواصرهم، أن يتبادلوا وصاياهم غير المكتوبة أو الشفوية فيما بينهم، وأن يسموا وارثيهم بشهادة ثلاثة أو اربعة شهودٍ. وقد لحق بهم مارشيوس ليجدهم في تلك الحالة والعدو على قيد النظر منهم.

ولم يكن اضطرابهم بالقليل عندما وقع عليه نظرهم وهو يسبح بالعرق والدم وليس معه إلاّ شرذمة. ولكنه أسرع الى القنصل وعيناه تومضان سروراً ومد اليه يده، وقصّ عليه تفاصيل الاستيلاء على المدينة، ولما رأى الجنود [كومينيوس] يحتضنه ويحيّه أيضاً أنتعشت قلوبهم جميعاً وارتفعت معنوياتهم وسمع من كان قريباً منهما ماحصل، وضمّنه من كان بعيداً وصاح الكل بصوت واحدٍ يطلبون الأمر بالمعركة وسأل [مارشيوس] منه اوّلاً عن كيفية تنظيم الڤولسيين جيشهم واين وضعوا خيرة رجالهم فأجابه أنه يعتقد أن جنود [الانتيات Antiates] في القلب هم خيرة محاربين. وانهم لا نظير لهم في الإقدام والشجاعة. فقال [مارشيوس] «فدعني أطلب منك، ولأحصل على موافقتك في وضعي أمامهم» فحقق القنصل رجاءه وقد أمتلأ أعجاباً ببسالته ولما التحم الجمعان وراح الجنود يصوبون رماحهم بعضهم الى بعض، وسبق مارشيوس سائرهم في الهجوم، عجز الڤولسيون المتصّدين له عن أن ينالوا منه قتيلاً، وكان يخرق صفوفهم أنىّ حمل عليهم، ويشقّ فيهم شقاً عميقاً إلاّ أن الشق يعود ثانية ليطبق عليه من الجانبين ويحصره في وسط السلاح المشرع. واذ أدرك القُنصل الخطر الذي يتعرض اليه، دفع بنخبة من المقاتلين اليه لنجدته، وعندئذ حمي الوطيس واستشرى القتال حول [مارشيوس] وسقط عدد كبير من القتلى في رقعة صغيرة من الأرض. وأشتدت وطأة الرومان على أعدائهم، واذاقوهم مرّ القتال حتى ارغموهم على الانكفاء وزحزحوهم عن مواقعهم ثم أخرجوهم من ميدان القتال. وطلبوا من [مارشيوس] متوسلين وهم يهمون باستثمار الفوز - أن يعود الى المعسكر ويرتاح بعد ما رأو ما اصابه من الإرهاق وخور القوى لما فقده من دماء. فأجابهم أن التعب لم يخلق للمنتصرين واندفع معهم لمطاردة العدوّ. وهزمت بقية الجيش الڤولسيّي على هذه الشاكلة وقتل منهم خلق كثير وأسر ما لايقل عدده عن القتلى.

وفي اليوم التالي قدم [لارسيوس] نفسه مع أفراد الجيش الى القنصل في سرادقة. فنهض

[كومينيوس] وبعد أن قدم فروض الشكر الواجبة للآلهة على النصر الذي توجت به تلك الحرب. التفت الى [مارشيوس] وألقى كلمة ثناءٍ لا نظير لها بحقّ بلائه النادر المثال وشجاعته الفائقة التي كان شاهداً عياناً لقسم منها في المعركة الثانية. وسامعاً لتفاصيل القسم الأول من فم [لارسيوس][8] وبشهادته. ثم طلب منه أن يختار لنفسه العُشر من كل الأموال والخيل والأسرى التي في ايديهم قبل اجراء اي توزيع منها على الآخرين. وقدم له هدية شخصية اعترافاً باعماله المجيدة وهي جواد بكامل سرجه وزينته. وهتف له جميع افراد الجيش. على أن [مارشيوس] برز الى الأمام، وأعلن عن قبوله الجواد مع الشكر وامتنانه للمديح الذي ناله من قائده. وقال: أنه ينبغي له رفض كلّ ما يراه أميل الى مجرد منافع للجنود المرتزقة من كونه ميزة من إمتيازات الشرف، ولذلك لايسعه قبول العشر ويقنع بالسهم الذي يقع له عادة أسوة بغيره. «ولديَّ رجاء خاص واحدٌ أطلبه وأملي ان لايرفض. عندي بين الڤولسيين صديق كريم، رجل ذو فضيلة واستقامة. وقع اليوم أسيراً وآل الى العبودية بعد الغنى والحريّة. فأرجو أن تسمحوا لتدخلي في أمره بأنقاذه من أحدى مصائبه، والحيلولة دون بيعه كعبد من العبيد.» وآثار رفض [مارشيوس] ورجاؤه هتاف استحسان أشدّ من السابق وكان الذين أعجبوا باستعلائه الكريم عن الجشع أكثر عدداً من المعجبين العديدين بشجاعة التي ابداها في القتال. وان عين الأشخاص الذين شعروا بشيء من الحسد والكره عندما رأوه يُخصّ بالتكريم على هذه الشاكلة، لم يسعهم إلاّ أن يقروا بأنّ الرجل الذي لايتردد في رفض مكافأة بهذه الطريقة النبيلة لهو أرفع بكثير من ايّ مستحق لها. وقد كان أعجابهم وانذهالهم أشدّ بسجيته تلك التي جعلته يحتقر المال والمنفعة المادية، من سجاياه ومآثره الأخرى السابقة التي أنالته لقبه. انه لأسمى عملاً أن يحسن المرء استعمال المال من استعمال السّلاح، إلاّ أن رفضه وعدم استعماله هو انبل من استعماله.

ولما سكتت الهتافات ونداءات الاستحسان استأنف [كومينيوس] حديثه قائلاً: «من العبث أيها الرفاق الجنود أن نحاول حمل الرافض المتأبيّ على قبول هدايانا بالقوّة والإلحاح ولذلك فلنعطه هديةً من النوع الذي لايمكن رفضه قطّ. فلنصوّت على إقتراحٍ يقضي بتسميته [كريولانوس] من الآن فصاعداً، إلاّ اذا رأيتم أن مأثرته في [كوريولي] قد سبقت هي نفسها اي قرارٍ بهذا الشأن» وهكذا جاء هذا الاسم الثالث [كريولانوس] موضحاً بأن [كايوّس] هو الأسم المجرد الشخصي، والثاني وهو اسم الأسرة أو اللقب [مارشيوس] الذي يعرف به بيته

(٨) هو الضابط الذي تُرك لمواصلة حصار (كوريولي). ان شهرة مارچيوس بسبب العمل البطولي كانت تكسف مأثرة القنصل كما يخبرنا ليڤي [٣٣:٢] ولم يخلد اسم [پوستيميوس كوتينيوس] إلاّ لأنه كان حفاراً على النحاس دعت اليه الحاجة عندما عقدت معاهدة الصلح من اللاتين فيما بعد.

وأسرته. والثالث هو أضافة تالية، جرت العادة على اتخاذه لصفة عارضة من صفات الحياة لحقت بصاحبه، جسمانية كانت أم خُلقية أو لسجيّة طيبة في صاحبه. مثلما كان الأغريق أيضاً يلصقون اسماء اضافية في العهود الأولى بالاسماء الأصلية في بعض الحالات بسبب عمل أو مأثرة ما. فتجد مثلاً اسم «سوتر Soter»(*) و«كاللينيكوس Callinicus»(**) أو لمظهر شخصيّ كقولهم «فيسكون Physcon (ذو البطن المفتوحة) وغريپوس Grypys (ذو الأنف المعقوف)». أو لميزات طيبة كقولهم «يورغيتس Eurgetes (المحسن) و«فيلادلفوس Phila-delphus (محب الأخ أو الأخت) أو لحسن حظ كقولهم يوديمون Eudaemon (المتنعم) والأمير الثاني من عائلة وهو لقب باتوس(٩).

ولقب عدة ملوك أيضاً بألقاب سخرية مثل انتيغونس الذي اشاع له لقب دوسون Doson (الرجل الكثير المواعيد). وبطليموس الذي لقبّ لاثميروس Lathymerus (فول العلف) وهذا النوع من الالقاب هو أكثر انتشاراً عند الرومان فقد لقب شخص من أسرة ميتللي Metelli بلقب ديادماتوس Diadematus لأنه كان يخرج للناس زمناً طويلاً وقد عصب رأسه بعصابة تغطى ندبةً في جبينه وثم آخر من الأسرة نفسها لقب چلير Celer لسرعته في تهيئة وعرض حفلة مصارعين بمناسبة تشييع جنازة ابيه خلال ايام قليلة. بتلك السرعة والحمية اللتين عُدّا من الخوارق. ويوجد الى يومنا هذا بعض من أنتسب اسمه الى حوادث طارئة حصلت اثناء ولادته. فالطفل الذي يولد وابوه بعيد عن البيت أو هو في سَفَر يدعي بروكولوس Pruculus أو پوستيموس Postiumus اذا ولد بعد موت ابيه وعندما يولد توأمان ويموت أحدهما اثناء الوضع يدعى الحيّ منها ڤوبيكوس Vopiucus. ومن ذوي الشواذ جسمانياً لم يقتصروا على اشتقاق اللقبين سيلا Sylla (البقع) ونيجر Niger (أسود) ورفوس Rufus (الأحمر). بل كايكوس Caecus (الأعمى). وكلودي Claudii (الاعرج). يريدون تعويد شعبهم لحكمة فيهم، بالا يكترثوا لا لفقد البصر، ولا لأي عاهة جسمية أخرى، والاّ يدركهم الخجل من تلبية أي نداء بهذا الاسم كما لو كان أسمهم ولا يعدونه نقيصة أو مجلبة للعار. ولنكتف بهذا القدر من الموضوع فسبيلنا اليه موضع آخر.

(*) الحفيظ.

(**) المنتصر.

(٩) يقول هيرودوتس [١٥٩:٤] انه أعطي للثالث وليس للثاني [ملك كيرينه] ومن قبيل هذه الالقاب والصفات أشتهر ثامن ملك من ملوك البطالمه بلقب (سوتر). كما منح لانطيوخوس وديمتريوس وكاللينيكوس لسلوقوس الثاني رابع ملك على سورية. و(فيكون) لبطليموس سابع ملك على مصر و(غريبوس) لانطيوخوس التاسع عشر ملك سورية.

ما أن وضعت حرب الڤولسيين اوزارها حتى أحيا زعماءُ الشعب الخطباء الشعبيون القلاقل الداخلية، وأثاروا نزاعاً آخر دون سبب جديدٍ أو شكوى أو ظلم واقع، وانمّا جعلوا من المصائب التي تأتي حتماً في أعقاب التناحر السابق، حجّة لمهاجمة الپاتريشيين. كان معظم الأراضي الصالحة للزراعة قد ترك دون حراثة أو بذار، فالحرب لم تمنحهم فترة راحة، أو مجالاً لاستيراد الأقوات من بلادٍ أخرى. فشحّ الطعام في روما الى درجة متناهية(١٠). ولاحظ مثيرو الشعب انه لايوجد من القمح ما يمكن شراؤه، وإن وُجِد فلا مال هناك لشرائه. فراحوا يختلقون الروايات والحكايات على الاغنياء ويذيعونها همساً، وكلها ترمي الى تصوير المجاعة بأنها نتيجة حقدهم وبتدبير متعمدٍ منهم. وفي ذلك الوقت أقبل وفدٌ من [الڤيليترانى Velitrani] الى روما باقتراح تسليم مدينتهم للرومان، وبرغبتهم في أن ترسل مستوطين جدد ليسكنوها، لأن الوباء الذي اجتاحها لم يبق من مجموع سكانها إلاّ ما يناهز العُشر. وأعتبر الرومان البعيدو النظر هذه الضرورة الڤيليترانية، فرصة نادرة المثال على ضوء أوضاعهم العصيبة الراهنة. لأن المجاعة المتفشية أوجب القيام بالتنفيس عن المدينة وتخليصها من فائض السكان. وكانوا يأملون من هذا أيضاً تبديد سُحب الثورة المجتمعة بالتخلص من أكثر المواطنين عنفاً وأحمى المشاغبين رأساً، وتفريغ عناصر الفوضى والمرض خارج جهاز الدولة على ما يقال.

وعلى هذا الأساس قام القنصلان بتسجيل اسماء المواطنين الذين وقع عليهم الإختيار للسكنى في مدينة [ڤيليتري Velitrae] التي كادت تقفر. كما أخطروا بقية المواطنين بوجوب التأهب لحمل السلاح ضدّ الڤولسيين. وكان الهدف من ذلك سياسياً وهو الحيلولة دون فتنة داخلية باشغال جماهير الشعب في أمور خارجية. ورأيهم هو أن يؤدي أختلاط الفقير بالغنيّ والپاتريشيّ بالپليبنيّ في صفوف الجيش ومعسكراته وقيامهم معاً بخدمة وطنيّة واحدة - الى حلول التصافي ووصل حبال الودّ فيما بينهم.

إلاّ أن المفوضين الشعبيين [سيبخيوس] و[بروتوس] تدخلا في هذه الاجراءات وأعلنا أن انقنصلين يخفيان أشنع وأقسى عملية تحت الإسم البرّاق اللطيف «الإعمار والإسكان»، وانهما يطوحان بالعدد الكبير من فقراء المواطنين الى وهدة الدمار والخراب بعرضهما عليهم السكن في مدينة اثقل هواؤها بالوباء، وغطيت أرضها بجثث الموتى. وانهما يدفعان بهم الى غضب

(١٠) انسحب العامة الى الجبل المقدس Mins Secer قبل موعد الفلاحة ولم يبرم صلح بينهم وبين الپاتريشي حتى انقلاب الشتاء. وهكذا ضاع وقت البذار [ديون ١:٧ و٢] وأرسلت روما وكلاءها لشراء القمح من أقطار أخرى كاتروريا وكامپسانيا وڤولسكي حتى بلغوا صقلية. لكنهم عادوا خائبين الاّ من اتروريا. [انظر ليڤي ٢:٣٤].

آلهةٍ غريبةٍ عنهم. وكأن حقدهما لم يكفه القضاء على فريق منهم جوعاً، وتعريض الفريق الآخر الى شرّ طاعون فتّاك، تراهما الآن يباشران أيضاً عملية إقحام المواطنين في حرب لا ضرورة لها، حرب أثاراها بتدبير منهما فحسبٍ. وبهذا لايعود يبقى نائبةٌ أو مصيبة للامتصاص من المواطنين، بسبب رفضهم الاستخذاء للأغنياء واستعبادهم، إلاّ مارسوها بحقهّم.

بهذه الأقوال وأمثالها جُنّ جنون الشعب، ولم يلبّ أحد منهم الأمر القنصلي بالحضور وقيد اسمه في سجلّ التطوع، وأظهروا عزوفهم التام عن طلب المباشرة بزراعة الموسم الجديد، فأسقط في يد مجلس الشيوخ ولم يدر ما يقول وماذا يفعل إلاّ ان [مارشيوس] الشاعر بقوة نفوذه، المعتمد على رصيد مآثره الماضية، والمتأكد من أعجاب ومشايعة خيرة رجال روما وأشرافها ما لبث أن أخذ بيده زعامة معارضة المؤيدين لمطالب الشعب. وتم إرسال المستعمرين الى [ڤيلتري] من الذين خرجت اسماؤهم بالقرعة، وأرغموا على الرحيل تحت التهديد بانزال أشدّ العقاب بهم. ولما بقي الآخرون مصرين على رفض الخدمة العسكرية والخروج لحرب الڤولسيين، قام [مارشيوس] بتعبئة اتباعه ومناصريه ومن أستطاع أقناعه، وشن بهم غارة على تخوم [الانتيات] وسطا على قدر جسيم من القمح، وغنم كثيراً من الماشية والأسرى، وعاد الى روما منتصراً ولم يحتفظ لنفسه بشيء مما غنمه، إلاّ أن جنوده عادوا مثقلين بالأسلاب يسوقون انعامهم وأسراهم أمامهم. هذا المشهد أفعم المستنكفين عن القتال أسفاً وقهراً وأدركهم الندم لسوء موقفهم، وأمتلأوا حسداً وغيرة من أخوانهم، وبذلك رسخ في نفوسهم كره عميق لمارشيوس، وحنقوا عليه وعلى سمعته الداوية ونجم سلطانه الصاعد الذي قد يستخدم ضدّ مصالح الجماهير.

ولم يمرّ طويل زمن حتى تقدم [مارشيوس][11] مرشحاً لمنصب القنصل، وكانت الظواهر تشير الى ان الجمهور بدأ يميل الى جانبه ويحبذ انتخابه، اذ كان الشعور السائد أنه من المخجل أن ينبذ رجل كمارشيوس عريق النسب، ذي مؤهلات وكفاءة، بعد قيامه بتلك الخدمات الجليلة الفريدة في بابها.

ولقد جرت العادة أن يمتزج المرشحون لمنصب القنصل بكلّ طبقات الشعب ويدعون لانتخابهم بالخطب والكلام الرقيق وسائر ضروب التزلف والاستمالة، وان يحضروا الى [الفورم] وليس على أجسامهم من ثياب غير الرداء الفضفاض المسمىّ «توگا Toga»، ولا يخلو القصد من

(١١) في ٤٩٠ ق.م. لاينوه ليڤي بموضوع ترشيح. وكان [ماريشيوس] يلح على مجلس الشيوخ للاستفادة من حالة المجاعة وارغام العامّة (الپليبيان) على التنازل عن تريبيوناتهم. فأحنق العامة حتى أنهم حاكموه غيابياً وأصدروا حكماً بنفيه، فالتحق بالڤولسكيين. وتتفق رواية پلوتارخ مع رواية [ديون ٧: ٢١-٦٤] في هذا الصدد.

هذا إمّا تواضعاً في اللباس أمام الجماهير ليحسنوا في عينه، وإمّا ليسهل من أصيب منهم بجراحٍ - أمر عرض ندوبها الشاهدة على حسن بلائهم. ومن المؤكد أن الظهور بالثوب الفضفاض من دون مشدّ أو حزام لايقصد به إزالة ايّ شكّ في نفي مظنّة الرشوة والفساد عن صاحبه المرشح الذي يريد أن يخطب ودّ الشعب. إن صفقات البيع والشراء لم تتسلل في عمليات الانتخاب، والمال لم يصبح من مقومات النجاح الأساسية في الاقتراع العام إلاّ بعد قرون عديدة من القرن الذي نحن الآن بصدده.

فعندما بدأ الفساد يستشرى استبيحت حرمة مجالس القضاء، وهوجمت حتى المعسكرات. وأصبح المال فهو سيد الدّولة بلا منازع عن طريق استئجار الشجاعة وشراء البطولة، واستعباد الفضّة للحديد. وأنقلب النظام الجمهوري الى حكم فرديّ ملكي. ولله در القائل: إن أوّل من هدم حريات الشعب هو أول من أغرقهم بالهدايا والأعطيات. وفي روما يظهر أن الفساد تسلل في الداخل سراً وبصورة متدرجة، فلم يظهر للملأ فجأة ولم تلحظه العين في مسراه، وليس يعرف الضبطَ أول من أستخدم الرشوة مع المواطنين وأوّل من أفسد دور القضاء والمحاكم. في حين كان المشهور في آثينا إن [أنتيوس ابن انتيميون](١٢) هو أوّل من رشا القضاة لما حوكم في آخر مرحلة من نهاية حرب البلوبونيوس، بتهمة تسليمه حصن [بيلوس](*) الى العدوّ، وهو عهد كان يسيطر فيه على (فورم) روما جيل طاهر نقيّ ذهبّي من الرجال.

وكعادة المرشحين لمنصب القنصل، كشف مارشيوس عن الندوب والجراح الظاهرة في جسمه، من جراء الوقائع والمعارك العديدة التي أبلى فيها أحسن بلاد خلال سبع عشرة سنة متصلة، فأثر فيهم تأثيراً عميقاً وراح أحدهم يقول للآخر: إن السماحة الشعبية تفرض انتخابه قنصلاً. ولكن لما أزف يوم الاقتراع، وظهر [مارشيوس] في الفورم تحفّ به بطانة فخمة من الشيوخ، ويحيط به جميع الپاتريشيين، وسيماؤهم تنطق بعظيم اهتمامهم بالأمر، وحركاتهم تنمّ عن جهدٍ يبذلونه في سبيل إنجاح [مارشيوس] فاق اي جهدٍ بذلوه في مناسبة مماثلة أخرى، توجس الجمهور خيفة وأصيب بصدود مفاجيء عنه، وارتدوا عن العطف الذي ابدوه له، واستبدلوا النية الطيبة له، بشعور السخط والحنق والتقت هذه العاطفة الأخيرة بالخوف من أن يستخدم الپاترشيون هذا الرجل الارستوقراطي الخلق، العظيم النفوذ سلطة المنصب الممنوح له لغمط حقوق الشعب وسلبه الحريات التي بقيت له. فعدلوا عن انتخابه وولّوا قنصلين آخرين. وكان

---

(١٢) تانت شهرته من توجيهه الاتهام لسقراط.

(*) بقعة على الساحل الغربي من مسينيا في البلوبونيس. احتلها الآثينيون في ٤٢٥ ق.م (توكيديدس ٢:٤ - ٤١. في ٤١٠ حاصرها اللقيديميون فسلمت حاميتها المسينية وفشل أسطول اثيني في قهرها.

هذا أشبه بطعنة نجلاء اصابت مجلس الشيوخ في الصميم وشعر اعضاؤه إنهم قُصِدوا بالإهانة أكثر مما قصد [مارشيوس]، ولم تكن حالته بأفضل منهم، وصعب عليه احتمال العار بايّ قدرٍ من الصبر والاحتساب فلقد كان دوماً يطلق العنان لما في نفسه ولا يجعل لمشاعره ضابطاً وكان يعتبر صفتي الكبرياء والتّحدي في الطبع البشري مرادفتين للنبل والشهامة أما النظام والعقل فلم يزرعا فيه صفة الاتزان وضبط النفس وهما من السجايا الأساسية التي تلازم رجل السياسة. انه لم يتعلّم كم هو ضروري وجوهري لمن يتولى الشؤون العامة، ويتعامل مع بني البشر، أن يتجنب غرور النفس والاعتزاز بها، تلك الصفة التي يقول عنها أفلاطون «انها تنتمي الى عائلة العُزلة»(١٣)، لم يتعلّم أن يتّصف قبل كلّ شيء بقابلية الكظم، والسكوت على سوء المعاملة التي كانت موضع احتقارٍ عموماً. إن [مارشيوس] الصريح كل الصراحة، والمستقيم الذي كان يؤمن بأن الشجاعة الحقة هي قهره كل معارضة والقضاء على كل مناجز. لم يكن يستطيع أن يتصور بأن ما انفجر في نفسه هو الضعف والأنوثة في طبعه. أعنى قروح الغيظ هي التي تفجرت من مكامن نفسه، فجعلته ينسحب وهو ممتليء حقداً ومرارة وضغنا على الجمهور. وزاده حنقاً رؤيته الشبان الپاتريشيين المعتزين بعراقة أصولهم المخلصين لقضيته، الذين ناصروه باخلاص لم تُجن منه أية فائدة؛ وهم يظهرون الآن علائم سخطهم، ويحاولون تعزيته والتسرية عنه. ولا عجب فقد كان لهم قائداً ومعلماً متفانياً في فنون الحرب والقتال، وكان نموذجهم المحتذى في مجال المنافسة الحقّة والاستباق الى المجد والبطولات، الذي يجعل المتنافسين ثيني بعضهم على مآثر بعض باخلاص خالٍ من الغيرة والحسد.

وفي وسط هذه الغليان السياسيّ وصلت شحنات كبيرة من القمح الى روما. قسم منها ورد من أنحاء ايطاليا، وقسم معادل له قدمه [غيلو Gelo] ملك سيراقوز هديةً لروما. وداعب الكثيرين الأمل بانفراج الأزمة على أثر ذلك، مُقدرّين ان المدينة ستتخلص من أنياب الفاقة والعسر، ومن مضاعفات النزاع الداخلي. وبادر المجلس الى عقد اجتماع فوريّ وتقاطر الجمهور وأحاط بقاعة المجلس ينتظر بلهفة نتيجة الإجتِماع، وكان يتوقع أن يجرى تخفيض من أسعار السوق التي أرتفعت إرتفاعاً جسيماً، وان يتمّ توزيع شحنة القمح المهداة بدون ثمن. وفعلاً نصح بعض أعضاء المجلس باتخاذ قرارٍ بهذا. إلاّ إن [مارشيوس] هبّ قائماً وهاجم بكلّ عنفٍ كل من تكلم لمصلحة الجمهور ونعتهم بالمتزلفين للأوشاب، والغادرين بالنبلاء، قائلاً أنهم سيرسخون بهذه المنحة، جذور البذور السيئة من الوقاحة والغطرسة التي غرسوها في نفوس الشعب، خدمةً لأغراضهم الخاصّة. وانهم ليفعلوا حسناً لو انتبهوا الى تلك

---

(١٣) ترجمتها الدقيقة من اليونانية القديمة: «الأنَفَة تعيش مع العُزلة تحت سقفٍ واحد».

الجذور واجتثوها قبل أن تخرج شطئها، لا أن يدعوا طبقة البليبيين تزداد قوةً ومناعة بمنحهم حق تعيين حكام ذوي سلطان عظيم «كمفوضي الشعب: تريبيون». وهاهم الآن يمارسون نفوذاً واسعاً في دوائر الدولة ما دام يلبّى لهم كل طلب، وما دام لايوجد كابحٌ لاراداتهم وما داموا يرفضون اطاعة أوامر القناصل ويأبون الانصياع لأي قانون أو حكم قضائي ويمنحون لقب القضاة لزعماء احزابهم... و«عندما تؤول الأمور بنا الى هذه النهاية، ونجلس نحن هنا لنقرر لهم منحاً وهبات. مثل الاغريق الذين أودعوا السلطة العليا في أيدي جماهير الشعب، فليس لنا من حيلة إلاّ أن نسلّم مقاليد أمورنا اليهم طائعين ونقوم على رعايتهم ومداراتهم لأجل خرابنا جميعاً. لاشكّ في أن هذا الكرم لايمكن أن يعتبر مكافأة عن خدمات عامة. لطالما أبوا المساهمة فيها، وهم أعرف بذلك من غيرهم، ولا منحةً عن الفوضى والأنقسام الذي أحدثوه. فكانوا بها كالمتبرئين من وطنهم والمتخلفين عنه. ناهيك بالإهانات والشتائم التي كانوا دوماً مستعدين لقذف مجلس الشيوخ بها. واخال أنهم يرون الدافع الى تقرير المنحة لهم خوفنا منهم وتزلفاً اليهم، لذلك لايمكن أن يوضع لتمردهم حَدّ، ولن يقفوا عن أثارة القلاقل والاضطراب، وأنّ التنازل لهم، محض جنون، ولو كان لدينا ذرة من العقل، وشيء من العزم فعلينا ألاّ نهدأ بل نسترجع منهم كل سلطات المفوضين الشعبيين(١٤) التي انتزعوها منّا ابتزازاً. لأن بقاءها في ايديهم معناه هدم السلطة القنصلية، وعامل تفرقة مؤبدة في مدينتنا، التي أصابها منه الآن جرح بليغ لم تصب بمثله من قبل وبفتق ليس ثم احتمال في التحامه مرة أخرى، ولا أمل في رأبه والعودة الى الرأي الموحّد، والكفّ عن اذكاء نار الخلاف وصيرورتنا مصدر عذاب أحدنا للآخر»(١٥).

وبدوام ضرب [مارشيوس] على هذا الوتر الحساس ضرباً بارعاً، نجح في اذكاء المشاعر العنيفة في نفوس الشيوخ الپاتريشيين الأصغر سناً، وحمل كل الأغنياء تقريباً على الانحياز الى صفه، فلهجوا باسمه ووصفوه بالرجل الأوحد في المدينة الذي ارتفع فوق الرّياء، وتحدّى القوة. على أنه لقي معارضةً من بعض كبار السنّ، يدفعهم الخوف من النتائج. والواقع انه لم ينجم عنه إلاّ الشرّ المستطير. اذ عندما أدرك مفوضو الشعب الهدف الذي يرمي اليه [مارشيوس]، خرجوا من المجلس مسرعين وأهابوا بالحشود المجتمعة أن يتراصوا ويتكاتفوا ويسرعوا الى معونتهم. ثم عقدوا إجتماعاً جماهيرياً أنقلب الى تظاهرة عاتية. ولخصّ

(١٤) كان التريبيونات مؤخراً قد سنوا فقانوناً يجعل مقاطعتهم اثناء الخطاب جريمة معاقباً عليها.

(١٥) حذف بلوتارخ أخطر وأهم فقرة في خطبة كريولانوس. فقد أقترح في هذه الفقرة ابقاء سعر القمح كما كان عليه من ارتفاع ليبقى الشعب معتمداً على السلطة خاضعاً لها. [انظر ديون]

للجمهور كلام [مارشوس]، فثأرت ثائرته واجتاحته عاصفة من الحنق، وهمّوا باقتحام المجلس، إلاّ أن مفوضي الشعب حالوا دون ذلك، بالقائهم التبعة كلها على [كريولانوس]. وعلى أثر ذلك بعث المفوضون بحرسهم الخاص يطلبون حضوره امامهم للدفاع عن نفسه. فردّهم عنه باحتقار عندما أبلغوه بأمر الحضور، فدخل التريبيونات بأنفسهم عليه ترافقهم ثلة من ضبّاط [الايديل Aediles] وهم حرس السوق، يريدون أخذه بالقوة، ومدّوا ايديهم اليه فأنبرى الپاتريشيون لانقاذه، ثم طردوا مفوضي الشعب، بل أعتدوا بالضرب على ضباط السوق مناصريهم. لكن الليل وضع حَداً للنزاع، ولما انبلج الصّبح وتبين القنصلان مبلغ هياج أفراد الشعب وسخطهم، وشهدوا كيف يتقاطرون من كل حدبٍ وصوبٍ الى [الفوروم]، أدركهما خوف عظيم على المدينة بأسرها. فطلبا اجتماع مجلس الشيوخ مرة ثانية. لاتخاذ قرار من شأنه تهدئة خواطر الجماهير الساخطة المستنفرة، ومخاطبتهم بلغة السماح واللين، واصدار قرارات تقسم بالتساهل. وانهم اذا فكروا في الوضع الراهن بحكمةٍ، فسيجدون أن الحالة لا تتحمل التمسّك بمقاييس الشرف، والتمشدق بالمجد والسؤدد. ومثل هذا الموقف الحرج يتطلب تدابير رفيقة ومعالجة ليّنة، ومقررات معتدلة انسانية. وعلى هذا الأساس وافقت أغلبية المجلس وباشر القنصلان في تهدئة هياج الشعب بخير ما استطاعا، وأخذ يجيبان بأناة وصبرٍ. على اتهاماتهم وشكاواهم التي صبّوها صبّاً على مجلس الشيوخ واستخدما نهاية الرقة والاعتدال في لومهم ومعاتبتهم على سلوكهم المندفع. وابلغوهم أنه لن يكون هناك فرق في الأسعار بين الطبقات.

ولما هدأت سورة القسم الأكبر منهم وبدا من مسلكهم الهادىء الوديعٍ إطمئنانهم لما سمعوا. أنتصب مفوضو الشعب وأعلنوا باسم الجمهور قراراً مفاده إنه مادام مجلس الشيوخ قد ثاب الى رشده وأختار الروّية وقرر أن ينصفهم، فهم من جهتهم مستعدون لإطاعة كل ما هو عادل ومنصف، لكنهم على أية حالٍ مصرون على أن يتقدم [مارشيوس] باجوبةٍ عن التهم الآنية:

فأولاً: أيسعه الإنكار بأنه حمل مجلس الشيوخ على تغيير نظام الحكم والغاء امتيازات الشعب؟

ثم: عندما طلب منه الحضور للإجابة على التهمة، ألم يعصي أمر الاستقدام؟

وأخيراً: ألم يعمل بكلّ ما في وسعه على اثارة فتنة وحرب أهلية بتسببه في الاعتداء على ضباط (الايديل) وغير ذلك من ضروب الاهانات والاعتداءات العلنية.

وإسناد هذه التهم الى [مارشيوس] كان يرمي إمّا الى إذلاله وارغامه على إظهار خضوعه

للشعب (إن ظلّ راغباً في خطب وده والتزلف اليه خلافاً لطبعه). وإمّا الى احلال القطيعة النهائية بينه وبين الجمهور (إن شاء أن يبقى أميناً على طبعه، وهو ما توقعوه منه بحكم معرفتهم باخلاقه).

وهكذا حضر [مارشيوس] امام جمهور الشعب ليقدّم اعتذاره ويبريء نفسه، وهو ما كان الشعب يتوقعه، فحافظ على الهدوء والسكينة، وانصّت اليه دون مقاطعة، إلاّ أنه راح يستخدم لغة وقحة وأسلوباً تهجمياً كان فيه متهما لا معتذراً، لا بل كانت نبرات صوته ومظهره المعتدّ ينمان عن غطرسة واستهانة تقرب من الازدراء والاحتقار للسامعين، بدل الاستخذاء والتواضع المنتظر منه. فتملك الجمهور غضب شديد، وأظهر علائم نفاد الصبر والاشمئزاز. ونهض [سينّيبوس] أكثر المفوضين صرامة وعنفاً، وبعد مداولة سرّية مع زملائه الآخرين، أعلن امام الجميع قراراً مفاده أن مفوضي الشعب حكموا على [مارشيوس] بعقوبة الموت، ثم انه أمر [الايديل] بأخذه الى الصخرة التاربيّة وقذفه من حالق الى الهاوية دون تأخير. فتقدم هؤلاء لتنفيذ الأمر الذي تميزّ بالقسوة والصرامة حتى في أعين بعض [البليبيين]. وعندها جنّ جنون الپاتريشيين ألماً واستفظاعاً وهرعوا وهم يضجون ويصيحون لانقاذه، واستخدم بعضهم الأيدي فعلاً، لمنع تنفيذ أمر القبض وتحلقوا [مارشيوس] وجعلوه في وسطهم، وعمد بعضهم الى مد الأيدي الضارعة لوقف هذا الاجراء العنيف المتطرف لأن الكلام في مثل هذه الضجّة لايفلح عادةً. وادرك اصدقاء مفوضي الشعب ومعارفهم صعوبة أخذ [مارشيوس] الى موضع تنفيذ العقوبة وكم سيسفك من الدماء، ويهلك من الناس ويقتل من الپارتريشيين، فاقنعوهم بالعدول عما هو خلاف القانون. والاّ يقتلوه قتلة سريعة شنعاء كهذه دون محاكمة اصولية، بل أن يودعوا مصره الى الاقتراع الشعبي العام.

بعد مرور فترة من التأمل، التفت [سيچنيوس] الى الپارتريشيين وسألهم: ماذا يقصدون من انتزاع [مارشيوس] عنوة واقتداراً من قبضة الجمهور وهو في سبيل تنفيذ العقوبة به؟ فردّ عليه الپاتريشيون بالسؤال المماثل: «بل قل لنا كيف سوّلت لكم أنفسكم أن تجرّوا واحداً في أعظم رجال روما جراً الى ساحة الاعدام بطريقة بربرية لا قانونية ومن دون محاكمة؟ وما هو قصدكم من ذلك؟». فقال [سينسيوس]:

– «حسن جداً، لن نترك لكم سبباً للخصام من هذه الجهة... ولن ندع لكم علة للشكوى من الشعب. الشعب الآن يلبيّ طلبكم وصاحبكم هذا سيحاكم وفق القانون»

ثم وجه القول الى [مارشيوس]:

– نعيّن لك يا مارشيوس، اليوم الثالث إعتباراً من «يوم السوق» القادم، لتحضر وتدافع عن

نفسك وتحاول ان أمكنك اثبات براءتك امام المواطنين الرومانيين الذين سيفصلون في قضيتك بالتصويت.

ورضي الپاتريشيون بهذه الهدنة. وافرخ روعهم وعادوا الى منازلهم مسرورين بنجاحهم في المحافظة على حياة [مارشيوس].

في غضون الفترة التي سبقت موعد المحاكمة (إعتاد الرومان أن يعقدوا جلسات المحاكم في كل يوم تاسعٍ ومن هنا جاء الاسم اللاتيني [موندنياي Mundinae)[١٦]، نشب القتال بين الرومان والأنتيات[١٧]، وتوقع الپاتريشيون أن يستمرّ حيناً، وبذلك شاع فيهم الأمل في إمكان التملص من اجراء المحاكمة، وقدروا أن تهدأ أسورة غضب الشعب، ويقلّ سخطه حتى يضمحل بمرور الزمن عليه، هذا إن لم تصرف الحرب والمشاغل الأخرى اذهانهم عن الموضوع بصورة نهائية. وعندما توصلوا الى عقد صلح عاجلٍ خلافاً لما توقعوا وعاد الجيش الى روما من آنتيوم، عاد القلق والارتباك يسود صفوف الپاتريشيين وبادروا الى عقد عدة اجتماعات ليقرروا خطّة لا تفريط فيها بمارشيوس أو أعطاء فرصة لمثيري الشعب لخلق اضطرابات جديدة. ووقف بينهم [أپيوس كلوديوس Appius Claudius] المعروف بأنه أشدّ الشيوخ نفوراً من الامتيازات الشعبية، وقال منذراً: «إن مجلس الشيوخ سيقضي على نفسه قضاءً تاماً، ويخون الحكومة إذا سمح للشعب مرةً واحدةً بتولي سلطة أصدار حكم على ايّ پاتريشيّ.» إلاّ أن الپاتريشيين الأكبر سناً، والأقرب الى افئدة الشعب عارضوا بقولهم «ان جماهير الشعب لن تكون شديدة القسوة والصرامة كما يخيّل لبعضهم. ولكنها ستكون أكثر ميلاً للدعة والسكينة عند منحها تلك السلطة، فالذي دفعها الى طلبها لم يكن اذلال مجلس الشيوخ وانما الفكرة التي تكونت عندها وهو أن المجلس هو الذي قصد اذلالها وتحقيرها، ألا فلتمنح لها هذه السلطة مرة واحدة وليكن ذلك دليلاً على الاحترام وشعور التعاطف والودّ. إن مجرد حيازة الشعب سلطة التصويت في هذا الشأن سيزيل فوراً العداء فيما بيننا».

ولما وجد [مارشيوس] محنة المجلس والتوتر الذي يسوده بسببه، وحيرته بين عطفه عليه، وخوفه من الشعب، طلب من مفوضي الشعب أن يعرفوه بالجرائم التي ينوون إسنادها اليه، واصول التهم التي ستجرى المرافعة فيها امام الشعب، فأجابوه أنه متهم بمحاولة اغتصاب الحكم. وانهم سيثبتون عليه محاولته وشروعه في اقامة حكم استبدادي[١٨]. فنهض

(١٦) يقول [ديون ٨:٧] كان ثم فترة سبعة أيام فقط. بين ايام السوق.

(١٧) ورد نبأ مفاجيء الى روما يفيد بان أهالي (انتيوم) وضعوا ايديهم على سفن سفراء (غيلون) اثناء عودتهم الى صقلية بل انهم صادروا السفن واعتقلوا السفراء. وعندها تهيأ الرومان بسلاحهم لمعاقبة أهالي [انتيوم] لكن هؤلاء ما لبثوا أن عادوا للطاعة وتم الصلح.

مارشيوس وتقدم قائلاً:

- فلنذهب أذن الى الشعب، لتبرئة نفسي من هذه التهمة الباطلة امام جمعيتهم العامّة. اني أعرض نفسي بملء اختياري الى أي نوعٍ من المحاكمة، ولن اتظلّم من أي عقابٍ يفرض عليّ، وكلّ ما أطلبه هو أن تنحصر تهمتي بما ذكرتموه الآن، وان لا تخدعوا المجلس.

فوافقوا على شروطه، وذهب الى موضع المحاكمة. لكن، عندما اجتمع الشعب تقدم مفوضوه باقتراح مراوغ، وهو أخذ الأصوات لا على أساس [الجنتوري] كما جرت العادة عليه بل على أساس رؤوس القبائل[19]، وهو تغيير يمكنّ الغوغاء الحاقدة المشاغبة التي لا قيمة عندها للعدالة والنزاهة من صبّ جام حقدها فعلاً على رؤوس الاغنياء واشراف القوم ومن اعتاد بذل الخدمة للدولة اثناء الحرب. وبعد هذا عمد المفوضون الى تغيير مواد الإتهام، في الوقت الذي تم القرار على الاّ يحاكم مارشيوس إلاّ عن تهمة الاستبداد والاستئثار بالحكم وهي تهمة ضعيفة يتعذر اثباتها عليه. فأسقطوا هذه التهمة واستعاضوا عنها بتهمة تحريضه في مجلس الشيوخ. ومعارضته في تخفيض أسعار القمح، ومطالبته بالقضاء على سلطات مفوضي الشعب. وأضافوا أيضاً تهمة ثالثة جديدة، بخصوص توزيعه الغنائم والأسلاب الحربية التي انتزعها من الأنتيات عند غزوه بلادهم، لأنه خصّ بها من تطوع في جيشه فحسب في حين يقضي القانون السائد بايداعها بيت المال[20]. ولقد قيل ان هذه التهمة أحرجت موقف [مارشيوس] أكثر من أية تهمة أخرى لأنه لم يستعد ولم يكن متوقعاً استجوابه عنها، لذلك

---

(١٨) استناداً الى [ديون] قال مارشيوس في معرض دفاعه عن نفسه «... فضلاً عن اصابتي بهذه الجراح التي ترونها في سبيل انقاذ المواطنين: الا فلندع التريبيونات يقسرون لنا إن استطاعوا - كيف يمكن ان تنسجم مثل هذه المآثر مع النوايا الغادرة التي يتهموني بها» إلاّ ان [ديون] لم يذكر بان التريبيونات وافقوا على الشروط التي ذكرها النصّ.

(١٩) منذ عهد الملك [سرڤيوس توليوس] صارت الأصوات تؤخذ بطريقة الجنتوري اي المئات اذ قدروا حتماً ان مارچيوس سيبرّاً أن أخذت الأصوات بهذه الطريقة. فالفرسان وأغنى المواطنين هم الأغلبية. حيث تؤلف الطبقة الأولى أو العليا ٩٨ صوتاً من أصل ١٩٣ وهي مجموع الطبقات الستّ. لكن التريبيونات الاذكياء، افتوا بأنه في قضية تتعلق بحقوق المواطنين يجب أن يكون لكل مواطن واحد صوت واحدٌ ولم يرضوا باحصاء للأصوات الاّ على اساس القبائل. والى جانب محكمة جميعة المائة Teibuna Comitia Centuriata، توجد أيضاً الكيورياتا Curiata التي أقامها (رومولس) وتقسم سكان روما الأصليين الى ثلاث قبائل في كل قبيلة عشرة أفخاذ Curiae. [ديون ٢:٣-٥]. بقي هذا النظام ساريا حتى مجيء [سرڤيوس توليوس] الذي ابدله بالطريقتين الأخريين في أحصاء آراء الجمهور.

(٢٠) افاد التريبيون [دجيوس] «إن هذا دليل واضح على نواياه الشريرة فبالأموال العامة ضمن له مخلوقات وحرساً يساندونه في ما أعتزمه من أغتصاب للسلطة. الا دعوه يثبت انه كان حائز السلطة التي تؤهله لتوزيع هذه الغنيمة دون خرق للقانون دعوه يُجب مباشرة عن هذه القضية وحدها دون ان يلجأ الى فنون وتعلاّت أخرى القصد منها تضليل الجمعية...» [ديون ٩:٧].

لم يكن دفاعه قوياً مقنعاً بسبب عامل المفاجأة. ولما بدأ على سبيل الاعتذار والقنصّل - يعظّم من مآثر أولئك الذين شاركوا معه في القتال، وبما أن من تخلّف عن الحرب كان أكثر عدداً ممن تطوع، فقد قوطع بصيحات الإستنكار والتنديد. وأخيراً جاء دور التصويت، فأدين بأغلبية ثلاث قبائل(*)، وفرضت عليه عقوبة النفي المؤبد.

بعد النطق بالحكم ترك الجمهور محل الاجتماع بتظاهرة صاخبة وهتاف مدويّ فاق بكثير اي تظاهرة قام بها الشعب بمناسبة نصرٍ على عدوٍّ. في حين وجم اعضاء مجلس الشيوخ وأستولى عليهم الحزن العميق. وادركهم ندم شديد لأنهم لم يحاولوا شتىّ الطرق للحيلولة دون طغيان ارادة الجمهور، ولسماحهم له بممارسة هذا القدر الكبير من السلطة، فكانت نتيجتها اساءة استعمالها والتعسف في تطبيقها. ولم تكن الحاجة تدعو لتفحص ثياب الناس أو استقراء علامة مميزة فيهم للتثبت من طبقته، فمن كان فرحاً منهم بالنتيجة، فهو پليبي، لاشكّ فيه، ومن بدأ واجماً كئيباً فهو باتريشيّ.

وكان [مارشيوس] الشخص الوحيد الذي لايشعر بذلّةٍ أو صدمةٍ. فمن سيمائه وملامحه وتصرفاته كان يبدو مثالاً لضبط النفس وفيما كان الأسى يعمر قلوب اصحابه كافة، ظلّ الرجل الوحيد الذي لم تؤثر فيه مصيبته. لا لأن ترويضه العقليّ علمه الرضا بحكم القدر، ولا لأن رقّه طبعه جعلت القناعة خلقاً فيه، فالأمر بعكس ذلك تماماً اذ شاع في كيانه حقد عميق متأصل الجذور عنيف، لايحّس له ألماً كثيرٌ من الناس. الحق يقال أن الألم يتحول بفاعلية حرارته اللاهبة الى غضبٍ، ويُفقد صاحبه كل مظهر من مظاهر التخاذل والكآبة، وفي الغاضب حيوية كثيرة، كالمصاب بالحمىّ المحرقة ففي مرضه حرارة مادية ظاهرة، وفي عمل الروح والحق يقال عوارض مرضيّة ظاهرة من ارتجاف والتهابٍ وانتفاخٍ، وكان يبدو مثلها في حالة [مارشيوس] المضطربة، وتظهر في أعماله وحركاته.

عند وصوله البيت اقرأ التحية والدته وامرأته وكانتا تذرفان دموعاً غزيرة وتنتحبان وتعولان، فنصحهما بان يقصدا في مشاعرهما والاّ يستسلما للحزن جراء مصيبة(٢١)، وبعدها توجه الى ابواب المدينة فوجد اشراف روما كلهم مُجتمعين لتوديعه. ولم يصحب معه متاعاً ولم يطلب شيئاً أو يرجو رجاءً من مشيعيه، وفارقهم وليس في ركابه غير ثلاثة أو أربعة من الاتباع وأنطلق الى موضع في الريف حيث مكث بضعه ايام يُطارحه مختلف الأفكار التي

(*) يقول ديونيسيوس هاليكارناسوس (٦٤:٧) صوت لبراءته ٩ من أصل ٢١ قبيلة.

(٢١) وضع كريولانوس ولديه في رعايه امّه جدتهما ولأولهما عشر سنين من العمر. والثاني صغير جداً. [ديون ٩:٧].

يدفعها الغيظ والسخط الى رأسه، ولم يكن فيها فكرة ذات هدف نبيل أو صالح. وكان عقله يدور به باحثاً عن أجدى الوسائل لاطفاء جذوة انتقامه من الرومان. حتى استقر رأيه بالأخير على أن يشنّها حرباً شعواء عليهم، عن طريق أقرب الجيران اليهم، وعزم مبدئياً على جسّ نبض الفولسيين، والتأكد من مدى استعدادهم لذلك. وكان يعلم انهم ما زالوا شديدي القوى كثيري الموارد في المال والرجال. وأن بأسهم لم يضعف بالدرجة التي أشتدّ حنقهم على الرومان وكرههم، بسبب الهزيمة الأخيرة التي ذاقوها منهم.

كان يعيش في [آنتيوم] رجل يُدعى [توللوس اوفيديوس Tullus Aufidius] له بين الفولسيين ما للملك من مكانة واحترام بسبب ثرائه وشجاعته وشرف أسرته. وكان [مارشيوس] يعلم أنه يكن له من العداء الشخصيّ ما لايكنه لأي روماني آخر، فقد تبادلا اثناء المعارك عدة تهديدات وتحديات ودعوات للنزال. وبهذه التحرشات المتبادلة التي كان من شأنها أن تثير حماسة صغار الجنود وتدفعهم الى خضّم المعركة، اضافت العداء الشخصي الى الخصومة الطبيعية بين المتحاربين. ومع كُلّ ذلك فقد توقع في [توللوس] سماحة خُلقٍ، وقدّر ان ليس بين الفولسيين قبله، يرغب في فرصة تتيح له ردّ أذى الرومان صاعاً بصاعٍ، ولذلك أقدم على ما أيدّ قول القائل:

من الصعب ان تقاتل الغضب. فهو يشتري
كلّ ما يريد. وان كان ثمن ذلك حياتنا

وتنكر بثيابٍ غيرت من هيئته بحيث ينكره كل من يعرفه، مثل ما فعل [يوليسيس] في: «انه دخل مدينة اعدائه الألداء[٢٢]».

وكان دخوله [آنتيوم] في حوالي المساء، ومرّ في الشوارع دون أن يعرفه أحد من المارة الكثيرين ووصل منزل [توللوس] ودخلها دون ان يحسّ به أحد وقصد الموقد وجلس اليه دون أن ينطق بكلمة واحدة مغطياً رأسه[٢٣]. ولم يسمع افراد الأسرة إلاّ أن يندهشوا، ولكنهم احجموا عن انهاضه أو طرح سؤال عليه. لما كان يحفّ بصمته وهيئته من جلالٍ ومهابة. إلاّ أنهم أبلغوا [توللوس] بالحادثة الغريبة وكان يتناول عشاءه فنهض حالاً ودخل عليه وسأله عمن يكون، وما الذي جاء به الى منزله فكشف [مارشيوس] عن هويته وحسر رأسه وبعد فترة صمت قال:

---

(٢٢) الاوديسي [٤:٢٤٦] إما لأجل قياس جدار طروادة وامّا لإقناع هيلين بالتعاون مع مواطنيها الأغريق.

(٢٣) يعتبر الموقد مكاناً مقدساً في البيت -، لأن فيه آلهة الأسرة. وكل مستجير يأتيه وكأنه يلوذ بحرمٍ.

- إن كنت لاتذكرني يا توللوس، وان كنت لا تصدق عينيك، فالضرورة نقضي أن أكون المتهّم لنفسي. أنا [كايوس مارشيوس] مسبب الأذى الكثير للڤولسيين. ولو أنكرت هذا فلقبي [كريولانوس] الذي احمله الآن هو وحده دليل كاف عليّ. التعويض الوحيد الذي نلته عن كل الأخطار التي تعرضت لها، والمصاعب التي خضتها، هو ذلك اللقب الذي يكشف عن عدائي لقومك. وهو الشيء الوحيد الذي بقي لي جردت وحُرمت كل الامتيازات الأخرى، جراء حسد الرومان حقدهم، وبسبب جبن وغدر الحكام وأولئك الذين ينتمون الى طبقتي وأخرِجتُ من بلادي منفياً، وصرت مستجدياً متسكيناً عند موقد نارك. لا باحثاً عن الأمان والحماية قدر ما انا باحث عن الانتقام ممن طردني. ولو كنت خائفاً من الموت لما جئت. وأعتقد اني حصلت على مرادي بوضع نفسي بين يديك. فان كنت تريد حقاً قتال أعدائك فهيّاً اذن وأستفد من البلية التي تراني فيها. للنهوض بهذه المهمّة، وتحويل سوء حالي الى نعمة عامة للڤولسيين. فأنا في الواقع أكثر فائدة في قتال لكم، من القتال عليكم، والأفضليّة التي املكها الآن هي وقوفي على كل أسرار العدوّ الذي سأهاجمه. فإن كنت عازفاً عن القيام باية محاولات أخرى، فلست بالراغب في الحياة هنا، ولا يكون جميلاً منك استضافة شخص طالما كانت خصماً لك ومنافساً والآن عندما يعرض عليك خدماته يتضح لك أنه غير صالح لك ولا نافع.

عندما وعى توللوس كل هذا الكلام جُنّ فرحاً ومدّ اليه يده اليمنى وصاح:

- قم يا [مارشيوس]، وأستجمع شجاعتك. لقد جئت لأنتيوم بأعظم السّعد، فيما قدمت نفسك له من فائدة. ولك أن تتوقع كل ما هو حسن من الڤولسيين.

ومن ثم أخذ يظهر له الإكرام والحفاوة وضروب العطف. وقضيا عدة أيام بعدها في التداول معاً بخصوص امكانيات الحرب.

وفيما كانت هذه الخطط تتخذ شكلها الماديّ، كان الاضطراب والفوضى يعمان روما، بسبب العداء المستحكم بين اعضاء مجلس الشيوخ وقد زاد حدةً الآن بإدانة [مارشيوس]، والى جانب ذلك أخذ العرّافون، والسحرة والكهنة وحتى الناس العاديون يتناقلون انباءً عن علامات وخوارق لايمكن الاستهانة بها. ومنها ما اشيع حدوثه على النحو الآتي: هناك رجل يدعى [تيطس لاتينوس] انسان رقيق الحال ذو خلق طيب هادىء، بعيد كل البعد عن الاوهام والخيال والشعبذة، وأبعد من ذلك عن المبالغة والتفاهة رأى في المنام كأن جوپتر جاءه وطلب منه أن يخبر اعضاء مجلس الشيوخ بأنهم وضعوا على رأس موكبه الديني راقصاً سيئاً غير ذي أهلية. ولكنه لم يهتمّ بالحلم ولم ير فيه أي أهمية لأول وهلة. ولكن بعد أن تكرر مرة

ثانية وثالثة، فقد أبناً عزيزاً عليه، وأصيب هو نفسه بالفالج وحمل الى مجلس الشيوخ على محفة ليدلي بتفاصيل حلمه، وتقول الحكاية أنه أبلّ من مرضه وأستوى على قدميه حال ابلاغ الرسالة. وذهب الى بيته دون مساعدة أحدٍ. وتملك المجلس العجب والحيرة، وراحوا يبحثون الأمر بحثاً دقيقاً. أما ما كان يشير اليه الحلم فهو هذا: أحد المواطنين في روما كان يملك عبداً ارتكب جرماً شنيعاً، فسلّمه لزملائه الأخرين وأمرهم بجلده في السوق ثم قتله. وفيما هم ينفذون أمره هذا بجلد البائس الذي كان يتمطىّ ويتقلص ينقلب ظهراً لبطن وعلى كل شكل من الأشكال والحركات الغريبة بسبب الألم الذي يحسّه. اتفق أن أقبل في أعقابهم موكب ديني تكريماً لجويتر. فأستنكر عدد من السائرين فيه مشهد الخادم المجلود إلاّ انه لم يتدخل أحدٌ منهم أو يقم بعملٍ أكثر من مجرد النطق بعبارات اللوم المعتاد والتنديد بالسيد الذي حكم على عبده بهذه العقوبة القاسية. فالرومان كانوا يعاملون عبيدهم في ذلك الزمان، معاملة انسانية للغاية. عندما يشتغلون ويكدحون معهم جنباً الى جنبٍ فمن الطبيعيّ أن ترتفع الكلفة بينهم، وأن يعاملوهم برقة، ومن أشدّ العقوبات التي كانت تفرض على العبد المخطيء، أن يحمل قطب الخشب الذي يسند محور العجلة ويدور بها في الجوار، والعبد الذي يحلّ به هذا العار، فيشاهده الجيران وأهل البيت ينفذ العقوبة، يسقط من عيون الناس، ولايعودون يثقون به أو يعتمدون عليه، ويطلق عليه اسم فورچيفر Furcifer، من كلمة فوركا Forca اللاتينية ومعناها العمود الخشبيّ أو الجذع.

عندما قصّ [لاتينوس] حلمه، وانكفأ الشيوخ يتساءلون عمن يكون ذلك الراقص السّيء المكروه، فتذكر بعض الجماعة الذين أستلفت نظرهم غرابة العقوبة التي حلت بالعبد البائس، كيف جُلد على طول الشارع ثم ازهقت روحه. وأيد الكهنة هذا التخمين عندما استشيروا. فعوقب صاحب العبد وأمروا باقامة احتفال جديد للموكب الديني تكريماً للرب. وبالمتابعة نذكر [نوما] الحكيم في تنظيمه الوظائف الدينية، فهو يبدو بصورة خاصّة شديد الحرص في توجيهه لها. ووضع نصب عينه انتباه الشعب اليها وإحترامه لها. وقد رتبّ عند قيام الحكام والكهنة بالمراسيم الدينية، أن يسبق موكبهم مناد يخرج للناس وينادي بأعلى صوته: Hogage: أعملوا هذا الذي تهمون به؛ وبهذا ينذر الناس بالتنبّه للشعائر المقدسة التي سيمارسونها، وان لايدعوا عملاً دنيوياً أو مشاغل يومية تشوش المراسيم أو توقع الخلل فيها. ومعظم ما يأتيه الناس. في هذا الصدد مفروض عليهم فرضاً، بكيفية ما. وأعتاد الرومان اقامة الشعائر الدينية، ومواكب صلواتهم لأقل الأسباب واتفه الدواعي. فإن حدث وتعثرّ أو كبا حصان من الخيل التي تجرّ العجلات المسماة «تنسي Tensae» أو إذا جمع السائق أعنتها بيده اليُسرى،

يأمرون باعادة المراسيم كلها من الأول. وفي العصور المتأخرة بلغ الحال بهم الى حدٍ أنهم كرروا شعائر قربان واحدٍ ثلاثين مرةٍ لحصول خطأ أو هفوة أو حادث في اثناء الحفل. هكذا كان مبلغ احترام الرومان وشدة حذرهم في شعائر الدين.

وأخذ [مارشيوس] و[توللوس] يتداولان في مشروعهما سراً مع رؤساء [آنتيوم] ويحثونهم على غزو الرومان بينماهم متناحرون فيما بينهم وكان يظهر أن الخجل يصدهم عن قبول الاقتراح لأنهم عقدوا هدنة يتم بموجبها وقف القتال لمدة سنتين، ولكن ما لبث الرومان أن هيأوا لهم حجّة لنقض الهدنة. باعلانهم في اثناء الالعاب بوجوب مغادرة كل من جاء من الفولسيين لمشاهدة الألعاب وعدم بقاء أحدهم في روما قبيل مغرب الشمس. ودفعهم الى ذلك الإحتقار أو خبر ملفق عن الفولسيين. ويؤكد البعض أن هذا العمل هو من تدبير [مارشيوس]. فقد بعث سراً برجل الى القنصلين، ليتهّم الفولسيين كذباً وبهتاناً، بانهم يدبرون غزوة مفاجئة لرومان اثناء انشغالهم بالألعاب، واشعال النار في روما[٢٤]. فألهب هذا التحقير المرزي مشاعر الفولسيين، وملأهم حنقاً على الرومان. واهتبل [توللوس] فرصته فراح يعمل على تسعير النار وزيادتها ضراماً، وأخذ يهوّل الأمر على مواطنيه حتى أقنعهم أخيراً بارسال وفدٍ الى الرومان يطلب منهم اعادة الأراضي والمدن التي أقتطعوها من بلادهم جراء الحرب الأخيرة. فأجاب الرومان حانقين: إن الفولسيين كانوا البادئين في إشهار السلاح، وسيكون الرومان آخر من يضعه. وعاد الوفد بهذا الجواب فدعا توللوس الفولسيين الى اجتماع عامٍ، وجرى التصويت على اعلان الحرب. ثم انه اقترح انه يُدعى [مارشيوس]، ونزع الاحقاد من النفوس وتناسيها، وطلب أن يثقوا بأن الخدمات التي سيقدمها لهم مارشيوس بوصفه صديقاً لهم وشريكاً، ستزيد كثيراً على جميع الأضرر والخسائر التي ألحقها بهم عندما كان خصماً لهم.

فاستدعي [مارشيوس]، فحضر ووقف بينهم متكلما، فأجتذب الجمهور الى صفّه وأقنعه بالثقة في كفاءته وبراعته وحسن مشورته وجراءته، بقوة عارضته أكثر مما أقنعه بسجلّ بطولاته وأعماله المجيدة السالفة. وانتدب الى جانب [توللوس] ليتولى منصب جنرال في جيشهم، مزوداً بسلطة مطلقة في كل ما يتعلق بادارة الحرب. ولما كان يخشى ان يطول الوقت في تحشيد كل قوات الفولسيين وتعبئتها تعبئة تامة، بحيث يفقد عامل المباغتة، فقد ترك

(٢٤) قال توللوس «وحدنا من دون سائر الشعوب لايروننا نستحق الحضور لمشاهدة هذه الالعاب. نحن وحدنا نطرد من الأعياد العامة كاحقر الكفرة وارذل المجرمين! اذهبوا الى مدنكم وقراكم وأظهروا الشارة المميزة التي وسمنا بها الرومان». ليفي [٢:٣٧، ١-٧] يقول انه جاء الى مجلس الشيوخ بتدبير سابق مع مارشيوس. لكن پلوتارخ هنا ينحو منحى [ديون ٨:٣]. على أن كريولانس كان صاحب اقتراح اعادة الاراضي والمدن التي استلبها الرومان منهم.

أوامر لحكام المدينة بخصوص أمور التعبئة والتأهب وجمع ما تحت يده من المتطوعين الأكثر تحمساً. وزحف بهم غير منتظر أو متريث، ووقع على الحدود الرومانية بغزوة مفاجئة لايتوقعها أحدٌ[٢٥]، واستولى نتيجة ذلك على غنائم كثيرة جداً زادت عما استطاع الڤولسيون حمله، أو استهلاكه في معسكرهم.

على أن المؤون العظيمة التي غنمها والخراب الذي أحدثه في البلاد كان بالنظر اليه والى ما سيتلوه اصغر النتائج المتوخاة من غارته، فالبلاء العظيم الذي اراده وصبا اليه كان في الواقع توسيع شقّة الخلاف بين الپاتريشيين وعامة الشعب في روما، وزيادة الشكوك في نفوسهم. وسعياً وراء هذه الغاية عمد أثناء اتلافه المزارع وأملاك الناس الاخرين - الى بسط حمايته على املاك رحقول أشخاصٍ معينين منهم وعدم مسّها بسوءٍ ولم يسمح لجنوده بالنهب منها أو سلب ما فيها. وبهذا تجددت الملاحاة ونشب الخصام مجدداً، وأشتدّ وبلغ درجة لم يبلغها من قبل: الشيوخ يلومون العامّة للظلّم الذي الحقوه بمارشيوس، والعامة لايترددون في اتهام الشيوخ بأن حملة [مارشيوس] هي من مكائدهم وتحريضهم انتقاماً منهم وبغضاً بهم، في حين جلس الآخرون على التلّ خوفاً وضعفاً كمتفرجين غير مكترثين بما يجرى في ميدان الحرب. لأن لديهم في شخص عدوّ بلادهم حارساً وحامياً خارجياً لمتلكاتهم وثرواتهم.

بعد أن توجّت حملة [مارشيوس] بالنصر وعادت بالفائدة الجليلة على الڤولسيين انسحب بهم الى بلادهم سالمين وقد أشتدّ عودهم وارتفعت معنوياتهم وعادوا يستهينون بعدوّهم بعد رهبةٍ وتخوفٍ.

عندما تمّ حشد كلّ قوات الڤولسيين في ميدان عرض الحرب وظهرت بفيالقها الجسيمة وأستعدادها العظيم، بدت جيشاً جراراً فوجد من المستحسن أن يترك جزءٌ منه لحماية المدن وحراستها، وان يزحف بالقسم الآخر على الرومان. وطلب [مارشيوس] من [توللوس] أن يختار القيادة التي يريدها. فقال [توللوس] «لما كان يعلم ان «مارشيوس] لايقلّ عنه بسالة وأقداماً، ويفوقه في حسن الطالع، فهو يحبذ أن يراه قائداً للجيش الخارج للحرب. في حين يقوم هو بتدابير الدفاع عن المدن في الداخل، ويضطلع بتأمين حاجة جيش الهجوم من مؤون وتجهيزات». وهكذا تحرك [مارشيوس] وقد زاد قوة وسلطاناً - نحو مدينة [چيركيوم Cir-caeum] وهي مستعمرة رومانية، وقَبلِ استسلامها ولم يلحق أذىً بسكانها. ثم غادرها ليجتاح بلاد اللاتين وكان يتوقع لقاء الرومان فيها لأنهم اصدقاؤهم وحلفاؤهم، وكثيراً ما اعانوهم وانجدوهم. إلاّ أن القوم في روما لم يظهروا حماسةً وميلاً الى الخدمة في الجيش،

(٢٥) قام تللوس في الوقت عينه بغارة مماثلة على أراضي اللاتين. وعاد بعين النتائج الطيبة [ديون ٨:٢].

كذلك لم يكن القنصلان يريدان التورط في مخاطرة حربيّة، لأن فترة وظيفتهما كادت تنتهي. فصرفا سفراء اللاتين خائبين. ولم يجد [مارشيوس] أمامه جيشاً يقاتله، فزحف على مدنهم وأستولى عنوةً على [توليريا Toleria] و[لاڤيچي Lavici] و[پيدا Peda] و[بولا Bola]، وهذه كلها قاومت زحفه فلم يكتف بنهب منازلها بل ساق سكانها عبيداً. وفي الوقت نفسه أظهر رعاية خاصة لكلّ من انحاز الى صفّه. ولما كان يخشى قيام جيشه باعمال تخريب لم يأمر بها فقد أختار موقعاً بعيداً لمعسكره، متعفناً عن التعرض للأراضي والمزارع.

بعد أن فتح مدينة [بولا] وهي لاتبتعد أكثر من عشرة اميال عن روما نفسها ونهب منها أموالاً لا تحصى ووضع السيف في رقاب سكانها الذكور البالغين، وردت ابناء نجاحه وفتوحاته الى الڤولسيين الذين تخلفوا لحماية المدن، فلم يصبروا على البقاء حيث هم وأسرعوا ساكي السلاح للانضمام اليه، قائلين انه جنرالهم وقائدهم الأوحد الذي لايطيعون غيره. وذاع صيته واسمه في كل أرجاء ايطاليا وكانت الدهشة عامة لانقلاب الخطّ الفجائي عند شعبين، كانت خسارة أحدهما وربح ثانيهما من عمل شخصٍ واحدٍ.

كانت روما تعجّ بالفوضى الشديدة، وأهلها زاهدون عن خوض اية حربٍ. يقضون كل أوقاتهم في النزاع وحبك المؤامرات من تحت الستار ولوم أحدهم الآخر. حتى وردت الانباء بأن العدوّ يضيق الخناق على [لاڤينيوم Lavinium] التي يوجد فيها تماثيل آلهتهم ابائهم الحارسة[٢٦]، والذخائر المقدسة ومنها نشأ شعبهم الروماني بوصفها أول مدينة في ايطاليا بناها [اينياس] هذه الأنباء أحدثت تغييراً عاماً غير عاديّ في أفكار الشعب وميوله. إلا انها ولدت شعوراً بالصدود عند الپاتريشيين أكثر غرابة. فقد مال الشعب الآن الى الغاء الحكم الذي اصدره على [مارشيوس]، ودعوته للعودة الى المدينة. فأجتمع مجلس الشيوخ لاعادة النظر في القرار، وعارض الاقتراح أولاً ثم رفضه. إمّا لمجرد رغبته في معاكسة الشعب ومناقضته في كل ما يريده أو ربّما لأنهم لايريدون أن يكون مارشيوس مدينا باعادة اعتباره الى عطف الشعب. أو ربّما لادراكهم الآن بوجود شعور سخط ضد [مارشيوس] نفسه لأنه يصبّ البلوى على الجميع سواء بسواءٍ مع ان سوء معاملته لم يصدر من الجميع، ولصيرورته عدواً لسائر البلاد مع علمه أن كبار القوم وأخيارهم كانوا الى جانبه، وقد تألموا لما أصابه.

وأعلن الشيوخ قرارهم هذا، وأسقط في يد الشعب لأنه لايملك سلطةً في اقرار ايّ شيء بالاقتراع العام أو سنّه قانوناً، إلاّ اذا سبقه مرسومٌ من مجلس الشيوخ.

وزاد حنق [مارشيوس] عند سماعه بما جرى، وتخلّى عن حصار [لاڤينيوم][٢٧] وزحف نحو

(٢٦) بالأصل جيء بها من طراودة [انظر سيرة رومولوس].

روما بسرعة جنونية. وعسكر على بعد خمسة أميال من المدينة تقريباً، في موضع يدعى «خنادق كلويليا Cluilia » وخلق وجوده القريب رعباً عظيماً وقلقاً، إلاّ أنه وضع أيضاً حداً لإنقسامهم في حينه، إذ لم يعد أي منهم أقنصلاً كان أم شيخاً - يستطيع معارضة الشعب في دعوة [مارشيوس] للعودة. وعلموا أن الجماهير محقّة في إقتراحها بمصالحته عندما رأوا نساءهم يتراكضن جيئة وذهاباً في الشوارع مرعوبات، والعجّز وكبار السن يملاؤون المعابد كلها يبكون ويرسلون الدعاء والضراعة. وقُصارى القول فقد كل سكان المدينة اسباب الشجاعة والعقل الضرورية لتدبير أمرهم. وأدرك الخاص والعام أن مجلس الشيوخ ارتكب خطأ فاحشاً في استحداث سبب عداء جديد مع [مارشيوس] بينما كان الواجب يفرض عليه نسيان الأحقاد والتفكير في جبر الخواطر وتهدئتها. وبين هذين، حلّ الوفاق محل الخلاف بين مختلف الفئات، واتحدت الآراء، وتوصلوا بالاجماع الى قرار يقضي بارسال وفدٍ اليه يعرض عودته الى بلده. ويطلب منه وضع حدٍ لأهوال الحرب وويلاتها، وأختير أعضاء الوفد من أقربائه وأصدقائه(٢٨) الذين يتوقعون منه خير ملقى وأحسن استقبال لما تربطه بهم من العلاقات والوشائج العديدة القديمة. إلاّ انهم كانوا مخطئين جداً في ظنّهم. فبعد أن أقتيدوا اليه في المعسكر وجدوه جالساً تخفّ به مظاهر السلطان ويحيط به عظماء الڤولسيين، ويبدو عليه التجهّم والصلافة. وطلب منهم أم يفصحوا عن أسباب مجيئهم ففعلوا بأرق عبارة والطف أسلوبٍ وأنسب سلوكٍ للهجتهم. وبعد أن فرغوا من أقوالهم ردّ عليهم بجوابٍ لاذعٍ مفعم بالقسوة الغاضبة والمرارة، بخصوصه وبخصوص اساءتهم معاملته. وأمّا بوصفه جنرالاً للڤولسيين فقد طلب اعادة كل المدن والأراضي التي انتزعوها منهم بالحرب الأخيرة وأن يعطوا الڤولسيين نفس الحقوق وامتيازات المواطنة في روما، التي منحت سابقاً للاتين، مادام لايوجد ايّ ضمانٍ في حلول سلمٍ ثابت دائمٍ دون شروط عادلة متعادلة للجانبين. وأعطاهم ثلاثين يوماً مهلةً للتوصل الى قرار.

بعد أن انصرف الوفد، عمد مارشيوس الى سحب قواته خارج الأراضي الرومانية؛ فتذرع مبغضوه وحاسدوه من الڤولسيين الذين لم يستطيعوا تحمل نفوذه بين الشعب، بهذا العمل واتخذوه حجّة للتنديد به ومن بينهم [توللوس] نفسه. لا لأذى شخصيّ لحقه من مارشيوس بل لضعفٍ في طبيعة النفس البشرية، اذ لم يسعه إلاّ أن يشعر بالذلة عندما وجد مجده السالف يكسف تماماً، ويغدو هو بالذات شخصاً عادياً في نظر الڤولسيين، لايثير الأعجاب ولا

(٢٧) ترك وحدة من الجنود لمواصلة الحصار [ديون ٨:٤].

(٢٨) اورد [ديون: المرجع السالف] اسماءهم هكذا: ماركوس مونيشيوس، پوستيمي،س كومينيوس، سپوريوس لارغيوس، پوبليوس يناريوس، كونيتس سوليشيوس. ويورد ديون خطبه رائعة القاها مونشيوس بالمناسبة، وجواب كريولانوس عليها.

يكترث به أحدٌ، في حين ارتفع عندهم رصيد زعيمهم الجديد بحيث ما عادوا يرون غيره. وفي رأيهم أن القادة الآخرين ينبغي لهم أن يقنعوا بذلك الجزء من السلطة الذي يراه مناسباً لهم. ومن هذا زرعت أولى بذور الشكوى والإتهام وأخذت تنتشر سراً، وتلاقى المشاغبون وأخذ يعمل الواحد منهم على إلهاب سخط الآخر، بالقول: ان الانسحاب الذي قام به هو في الواقع غدرٌ بالجيش وبالمدن، بل أفدح وانه تغرير وتعمد اضاعة أخطر فرصٍ وأنسبها للعمل، تلك التي يتوقف عليها الفوز بكلّ شيء أو خسارة كل شيء. ففي فترة الأيام الثلاثين هذه يمكن أن يحصل ايّ شيء في الدنيا.

على أن مارشيوس لم يضيع لحظة واحدة من هذه الفترة. فقد أستولى خلالها على سبع مدن عظيمة عامرة بالسكان، دون أن يجرأ الرومان على مد يد العون اليها. فقد شلهم الخوف شللاً تاماً وأفقدهم الحركة ولم يبد منهم ما يدل على الحياة أو الحسّ. وبانتهاء فترة الثلاثين يوماً ظهر [مارشيوس] مرة أخرى على رأس جيشه، فبعثوا اليه بوفدٍ آخر، يرجوه ان يخفف من حنقه ويسحب جيش الفولسيين، وبعدها يعرض ما يراه مناسباً للطرفين من المقترحات فإن الرومان لايقبلون باي تنازل تحت التهديد، واذا وجد أن الفولسيين محقون في طلب أي أمتياز، فبإمكانهم الحصول على ما يريدون ضمن حدود معقولة إن تخلّوا عن السلاح.

وكان ردّ [مارشيوس] انه لن يجيب بشيء بوصفه قائداً للفولسيين أمّا بوصفه رومانياً وما يزال يملك صفة الروماني، فهو ينصحهم بله يحضّهم - والحالة هذه - على ترك هذا الموقف المتعنت، والتفكير في عقد صلح مناسبٍ، على ان يذهبوا الآن ويعودوا بالموافقة على مطاليبه السالفة - بعد انقضاء ثلاثة أيام أخرى. وإلاّ فليعلموا أنهم لم يعودوا أحراراً في دخول معسكره بسعايات ووساطات لا طائل تحتها.

لما عاد الوفد وأطلع الشيوخ على جواب [مارشيوس]، ادركوا أن بناء الدولة وصرحها يتعرضان الآن الى عاصفة هو جاء وأن الأمواج لن تلبث ان تطغى عليهم وتغيبهم في اللّجة. فلم يروا مناصاً من «انزال الماساة المقدّسة» على حَدّ شائع القول، وهو ما كان يلجأون اليه في أشدّ ساعات الضيق. اذ صدر الأمر لطبقات الكهنة جميعاً، أولئك الواقفين على الأسرار أو سدنتها، وأولئك الذين يستوحون النبوءات من حركات الطير حسبما درج عليه الناس؛ أمروا كافةً أن يخرجوا ولا يتخلف منهم واحد، بحللهم وكسوانهم الكهنوتية التي يرتدونها عادةً اثناء ادائهم وظائفهم الدينية وينتظمون بموكب حبريّ ويسيرون الى [مارشيوس] ليطلبوا منه كالسابق - سحب قواته ثم التفاوض عن الڤولسكان (الڤولسيين) مع بني قومه الرومان. ورضي أن يستقبلهم في معسكره إلاّ انه لم ينزل لهم عن أي شيء، ولم يرقق لهجته وعباراته،

وطلب منهم بصلافةٍ لايشوبها تنازل أو تطامن أن يختاروا بصورة نهائية بين أمرين الطاعة أو القتال. فالشروط الأولى كانت شروط سلم لا غير. وفشلت هذه الوساطة الدينية ايضاً ورجع الكهنة خائبين، واذ ذاك قرر الرومان البقاء داخل المدينة والسهر على اسوارها. وهكذا كانت خطتهم قاصرة على صدّ كل هجوم قد يقوم به العدوّ. ووضع كل آمالهم في تقلبات الخطّ المفاجئة، وفي عامل الزمن لا غير. فقد كانوا يشعرون بعجز تام في المحافظة على ارواحهم، وأستولى على المدينة المزيد من الرعب والإضطراب، وسرت اشاعات مشؤومة تبنيء كلها بشرٍّ مستطير. ثم وقع حادث يشبه ما نقرأ عنه كثيراً في آثار [هوميروس] ولولا ذلك لأخذه الجمهور مأخذ الحقيقة الواقعة. فنحن نجده يقول في وصف مناسبة خارقة للعادة.

« ثم [باللاس] نزلت عليه الربّة ذات العيون الزرق الحادة بالالهام (اثينا) »[٢٩].

ويقول في موضع آخر: على أن واحداً من بني البشر وجّه عقله بان دخل في قلبه الى الخوف مما سيقوله الآخرون.

وقال أيضاً: « أكانت تلك فكرته الخاصة، أم أمراً القاه عليه الربّ؟ »[٣٠]

في هذه المواقف يميل الناس الى تكذيب الشاعر وعدم الاعتداد بما يقول، كأنما بعرضه المستحيلات، وتصديه للخيال العابث المجرّد، ينكر عمل الفكر الانساني المترويّ، وعامل اختياره الحُرّ، وليس هذا ما نجده دائماً في صور هوميروس ووصفه. فان الاستنتاجات المألوفة منها والمحتملة والاعتيادية يعزوها دوماً الى قوانا البشرية، وبذلك كثيراً ما يقول

« ... على أني لا أركن إلاّ لنصح نفسي العظيمة »[٣١].

وفي بيت آخر: « ... وأصغى [آخيل] متأملاً وأخذ مختلف الأفكار يتزاحم في رأسه العظيم »[٣٢].

وفي ثالث: « ... من رغبات نفسها - لم تنل فتيلاً الشاب النبيل بللروفون Bellerophom المتسلح بدرع الحكمة »

لكن عندما يتسم الحدث بطابع الخروج عن المألوف، والخارق للعادة، ويبدو بشكلٍ ماورائي المنشأ، ويتطلب تعليلاً آلهياً من قبيل الالهام المفاجيء، فهُنا فحسب تتدخل القوى السماوية لا لإحباط الارادة البشرية، بل لتنشيطها واتبعاثها، لا لخلق قوى أخرى فينا، بل لتزويد قوانا

(٢٩) الاوديسيّ ١٨: ١٥٧ و ١٥٨.
(٣٠) المرجع نفسه ٩:٣٣٩.
(٣١) المرجع نفسه ٨:٢٩٩.
(٣٢) الالياذة ١:١٨٨.

بصور وبعوامل محرضة، هذه الصور لاتجعل عملنا عملاً لا إرادياً باي شكل من الاشكال، بل لتفسح المجال بالأحرى للعمل الارادي التلقائي، يساعده ويوآزره الشعور بالثقة والأمل. اذ ينبغي لنا إمّا ان ننكر انكاراً باتاً على عاملٍ التأثير الربّاني ايّ شكل من الاشكال السببيّة والابداع فيما نعمله وإلاّ، فبايّ سبيل تعمل فينا الموزآرة والمساعدة الالهية؟ نحن بالتأكيد لانستطيع الافتراض بأن الكائنات الالهية هي التي تسير حركة اجسامنا وتوجه ايدينا وأقدامنا الى هذا السبيل أو ذاك لنتنكب طريق الزلل قولاً وعملاً: وواضح انها تحرضّ العنصر العملي والاختياري في طبيعتنا بمحرضات أولّية معينة، عن طريق صورٍ ترسمها في مخيلتنا وافكارٍ تودعها في ضميرنا، فإمّا تثيرها وتوجهها الى السبيل القويمة، أو تحرفها أو تمسكاً عن سلوكها.

وفي الارتباك العام الذي أتيت الى وصفه، قام معظم سريّات الرومان وعقائلهنّ بالذهاب الى معبد [چوپتر كاپيتولينوس] وبعضهن قصدن معابد أخرى. ومن بين هاته النسوة [ڤاليريا] بنت [پوبليكولا] الكبير الذي قام بأجل الخدمات للرومان في السلم وفي الحرب. كان پوبليكولا قد قضى نحبه منذ زمنٍ كما أوردنا في سيرة حياته. إلاّ ان ڤاليريا ادركت هذا العهد، وكانت تتمتع بمقام كبير واحترامٍ في روما، ولم يشن سلوكها وحياتها نُبل مولدها. تملكت هذه المرأة فجأةً عاطفة أو فكرة من النوع الذي اتيتُ الى شرحه. ووقعت على السبيل القويمة بهديٍ ربّاني. فنهضت وطلبت من الأخريات النهوض ومرافقتها في الحال الى منزل [ڤولمنيا] امّ [مارشيوس]. ففعلن ودخلن ليجدنها جالسة مع كنتها وقد وضعت احفادها في حُضنها وتكلمت [ڤاليريا] باسم رفيقاتها اللاتي كن يحطن بها، قالت:

- جئناك ياڤولمنيا وانت يا ڤرجيليا كما تأتي نساءً الى نساءٍ لا بأمرٍ من مجلس الشيوخ أو بتحريض من أحد الحكام. إن الكائن الالهي نفسه وقد أثرت فيه صلواتنا ودعواتنا تراىء لي ودفعنا الى زيارتكما لنرجو منكما رجاءً واحداً تتوقف عليه سلامتنا وسلامة قومنا، إن قبلناه وحققناه فسترتفعا الى أعلى مقام بلغته النساء السابينيات اللاتي استبدلن العداوة القتالة بين آبائهن وأزواجهن، بالصداقة والسلام فهيّا بنا الى [مارشيوس]، وشاركا معنا في رجائنا، واحملا عن امتكما هذه الدعوة العادلة لخيرها. فهي مع الأخطاء والاذيّات الكثيرة التي أتتها، لم تصبكما بأذى ولا فكرّت هي في الإساءة اليكما بشيءٍ وهي في ذروة هياج حقدها، انها الآن تعيدكما اليه سالمتين، وان كان الأمل ضعيفاً في نيل شروط عادلة منه.

وأمّن جميع النسوة على اقوال [ڤاليريا] بكلمات الاستحسان والرضا. وأجابت ڤولنيا على

ذلك بما يلي:

- إن حصتي وحصة ڤرجيليا من المصائب العامّة لا تقل عن حصصكّن يا بنات قومنا على أن لدينا مصيبة خاصة انفردنا بها عنكنّ. وهي فقدنا كفاءة [مارشيوس] وصيته، ومشاهدتنا اياه وهو سجين سلاح الاعداء، لا محروساً به. واني مع هذا اعتبر أعظم بلوى حلت بروما هما الحالة التاعسة، والعجز المخجل اللذان جعلاها تعتمد علينا نحن الاثنتين. فعندما لا تَرَيْنَ [مارشيوس] يقيم أي وزن واعتبار لوطنٍ كان عليه أن يفضله على أمّه ويضعه فوق زوجه واولاده. يكون من الصعب جداً أن آمل ببقاء أي منزلة وأعتبار لنا عنده. وعلى كل حال، استفدن من خدمتنا وقدننا إن شئتنَّ اليه، فبإمكاننا على الأقل أن نلفظ مع التماسنا اليه آخر انفاسنا.

قالت هذا وأمسكت بيد [ڤرجيليا] والاولاد(٣٣) وذهبن جميعاً الى معسكر الڤولسكان. فكان موكبهن منظراً مفجعاً أليماً أثرّ كثيراً حتى على العدوّ الذي راح يتابعه بالنظر وهو صامت صمت الاحترام والمهابة. في تلك الساعة كان [مارشيوس] جالساً في مقرّه يحفّ به اركان حربه وكبار ضباطه فلما لمح جماعة النسوة يقتربن من مجلسه ادركته الحيرة ولم يفهم للأمر معنى ثم لما تبين أمّه على رأس الجماعة زايله جلده وفارقته صلابته وغلبت عليه عاطفة الحنان، وأرتبك جداً ولم يقو على البقاء جالساً في دست الحكم، فأسرع لاستقبالهن وحيّا أمّه وعانقها عناقاً طويلاً، وانثنى الى زوجه وأولاده ليفعل كذلك، ولم يدّخر دمعة في عينيه، ولا حناناً ولا ملاطفة، بل سمح لعواطفه الجيّاشة ان تحمله وتنطلق به متحررة ناشطة من إسارها.

وبعد أن شفا غليله، ولحظ أن أمّه تريد أن تقول شيئاً له، دعا مجلس الشورى الڤولسكاني للاجتماع وجلس الجميع يصفون الى اقوالها التالية:

- يا بنيّ! إن ثيابنا وملامحنا قد تفصح لك دون كلام أو نطق عن شقائنا منذ ان نفيت وغبت عنا. والآن فلتفكر في نفسك ألسنا أشقى امرأتين في العالم؛ حين نجد أشهى وأعذب منظر تمنيناه ينقلب الى أبشع موقف واشدّه هولاً؟ فبعامل من سوء طالع لا أدري كنهه ترى [ڤولمنيا] ابنها، وترى [ڤرجيليا] زوجها يرفع السلاح لدكّ أسوار روما! حتى الصلاة التي كانت دوماً مصدر سلوى وعزاء للنساء في كل ضيق وبلوى، أمست عندنا مصدر ألمٍ واضطرابٍ. لأن أفضل الدعاء الذي نرفعه الى الآلهة، لايتفق ودعاء

(٣٣) أخبرت (ڤاليريا) القنصلين بنيتها في الأول. فأخذا الاقتراح الى مجلس الشيوخ الذي وافق عليه بعد نقاش طويل. عندها ركبت هي وعقائل روما في مركبات هيأها لهن القنصلان واتجهن بها الى معسكر الأعداء مشيعه بتحيات وهتافات الشيوخ والعامة معاً.

الأخريات. ونحن في الوقت عينه لا نستطيع أن نضرع الى الآلهة لتنصر روما ولرعايتك من السوء معاً، بل أن اسوء ما يمكن أن يلحق بنا الاعداء من لعنة، كان موضع نذورنا ودعواتنا. وزوجك وأولادك يعيشون محنةً أليمة، فإمّا أن يحرموا منك وإمّا أن يحرموا من تربة الوطن. أمّا انا فقد وطدت العزم على استباق احدى النتيجتين اللتين ستسفر عنها الحرب بالنسبة لي. فان فشلتُ في اقناعك بتفضيل السلام والوئام على الحرب والخصام ونجحت في حملك على الاحسان للفريقين بدل أن تقضي على احدهما، فخذها منيّ كلمة صدق وكن على يقين بأنك لن تبلغ بلادك إلاّ بعد ان تطأ أولاً جثة تلك التي جاءت بك الى النور. من الصعب علي ان انتظر واتسكع في هذه الحياة حتى اليوم الذي أرى ولداً لي إمّا يقاد أسيراً في موكب النصر بزمام بني جلدته، وإما أن يدخل منتصراً عليهم. ولو اني طلبتُ منك انقاذ بلادك باهلاك. الڤولسكان، فإن الأمر سيصعب عليك حقاً يا بنيّ، من الضعة والعار أن تجلب الدمار لبني قومك، ومن الظلم والشرّ ان تغدر بمن وضع ثقته فيك. على أن ما نريده هو حَلّ مناسب لنا ولهم[٣٤]. وانه لمما يشرف الڤولسكان ويرفع قدرهم كثيراً وهم في تفوقهم العسكري هذا، أن يعمدوا الى أعظم نعمتين في الدنيا: السلم والصداقة، وإن نالوا منهما قدراً مساوياً لا غير. وإن نلنا هاتين البركتين، فسيكون لك الشكر العام بوضعك العامل الرئيس لوجودهما. فإن لم يتسّن ذلك، فلا سبيل لك الاّ ان تتحمل وزر الشعبين كليهما. وتستهدف لومهما. إن فرص الحرب غير مؤكدة، على أن ما هو أكيد في هذه الساعة هو أنك لن تنال من فتح روما صيتاً اللهم الاّ تقويضك صرح بلادك كلها أنك جلبت البؤس والشقاء لاصدقائك والمحسنين اليك، ارضاءً لعاطفة الانتقام فيك.

وكان [مارشيوس] يصغي الى أقوال أمّه صامتاً لاينطق بكلمةٍ. ولما رأته [ڤولمنيا] يقف برهةً كالأبكم بعد فراغها من الكلام، استطردت تقول:

- يا بني! ما معنى سكوتك هذا؟ اليس هو واجباً أن تغلّب ارضاء امك بتحقيق رجائها، على كل شعورك بالأذى والظلم؟ أهو من أخلاق عظماء الرجال ان يتذكروا الأخطاء التي ارتكبها الناس بحقهم؟ أو ليس من شيم الانسان الصالح الكبير النفس أن يذكر تلك المنافع التي نالها كتلك التي يبذلها الآباء للابناء؟ وان يجازوهم عليها بالاحترام والاكرام؟ وانت، وعهدي بك صلب القناة لا تلين قطّ في عقاب ناكري الجميل، يجب ألاّ تكون أكثر اهمالاً لهذا الواجب من الآخرين فلا تحفظ جميل غيرك. لقد فرضت على

(٣٤) طلبت هدنة أمدها سنة كاملة يتم خلال البحث عن تسوية لعقد صلح ثابت دائم.

بلادك عقاباً، الاّ انك لم تدفع لي دَيْني بعد، الحق يقال أن الديّن والأخلاق اللذين لا إكراه فيهما كانا يجب أن يدفعاك الى اجابة طلب شريف عادلٍ كهذا الذي أعرضه فاذا كان الأمر خلافاً لذلك، فعليّ أن أتوسلّ بآخر ما لدي من حيلة...».

ما أن أنهت كلامها حتى القت بنفسها على قدميه وكذلك فعلت زوجه وأولاده. وهنا صرخ [مارشيوس].

- آه يا اميّ! ماذا صنعت بي؟

ثم رفعها وهو يضغط يدها اليمنى بشدة غير اعتيادية وقال:

- لقد نلت للرومان نصراً ما بعده نصر، لكنه سيهلك ابنك الذي غلبته أنت وحدك لا سواكِ!

وبعد تبادل أحاديث خصوصية مع أمه وزوجة فترةً قصيرة، اعادهما الى روما حسب مشيئتهما.

وفي صباح اليوم التالي، قوّض المعسكر وعاد بالڤولسكان الى ديارهم. وفي أنفسهم انطباعات مختلفة من فعله هذا، فبعضهم كان ينددً به ويدين تصرفه، وبعض من كان يميل الى السلم وقفوا على الحياد. وفئة ثالثة اسخطهم ذلك جداً، إلاّ انهم لم ينظروا اليه نظرتهم الى الغادر المخادع، بل وجدوا ضعفه الأخير واستسلامه تحت هذا الضغط العاطفي، مما يمكن اغتفاره والتغاضي عنه. وعلى أيّة حال فان أوامره لم تلق معارضة من أحدٍ، وتبعوه بمنتهى الطاعة وان كانت طاعتهم هذه ناجمة عن أعجابهم بخلقه، أكثر من احترامهم لسلطته.

في الوقت عينه، كشف الرومان عن مبلغ الخوف الذي كانوا يشعرون به، وخشيتهم من الحرب، بما بدأ منهم من تصرفات بعد أن انجابت عنهم سحبها. ما ان تأكد حرس الأسوار من تقويض الڤولسكان معسكرهم وارتحالهم، حتى عمدوا الى فتح ابواب المعابد كافة بطرفة عين. وراحوا يتوجون رؤوسهم الاكاليل ويستعدون لتقديم الأضاحي والقرابين، كعادتهم عندما تردهم انباء نصرٍ ساحق ولكن فرحة المدينة كانت فريدة بصورة خاصة في تكريمهم النسوة واظهار دلائل الاعتزاز والإكبار لهن من الشيوخ ومن العامة على حدٍ سواءٍ. ولهج الجميع بمأثرتهم وقال أنهن بلا مماراة منقذات الوطن. وأصدر مجلس الشيوخ أمراً باستجابة كل ما يطلبنه من تكريم، وان يحقق لهن الحكام كل رغبة، وكانت طلبتهن قاصرة على اقامة معبد للآلهة الانثى [فورتونا: الحظّ]. وعرضن أن تسدّ نفقات اقامته من تبرعاتهم الخاصّة، إن تعهدت المدينة بالصرف على القرابين من الخزينة العامّة وغير ذلك من مراسيم التكريم الخاصة بالآلهة، فلم يسع مجلس الشيوخ إلاّ الاعجاب بروحهّن الوطنية، وأمر بانشاء المعبد فوراً، واقامة تمثال فيه

للربة على حساب الخزينة العامة[٣٥]. إلاّ أن النسوة اكتتبن فيما بينهن بمبلغ لعمل تمثال آخر لربة الحظّ الذي يؤثر عنه الرومان انه نطق بالعبارة التالية عندما كان يجرى نصبه: «بركات الآلهة هي هديتكن ايّتها النساء».

يقولون إنّ هذه العبارة سمعت مرة أخرى من فم التمثال. مؤكدة بذلك رأينا في امكان وقوع ما يبدو انه قريب من المستحيل.

من المحتمل أن تشاهد التمثال وهي يتضح عرقاً، أو تنحدر من احدقيته الدموع أو أن يتجمع على سطحه قطرات متحلبه ذات لون دمويّ، لأن المادة التي صنعت منها وهي الخشب أو الرخام كثيراً ما تتقشر أو تدركها عفونة ينجم عنها رطوبة، وقد تنشأ على سطوحها ألوان مختلفة من جراء التفاعل الداخلي أو من تأثير الهواء الخارجي، وبهذه العلامات، لم يكن من الغرابة والسخف أن يتصور المرء ان الآلهة تريد انذارنا بحدث مقبلٍ. ويحدث أيضاً ان يصدر من التماثيل والصور اصوات قريبة الشبه بالأنين أو التاوه من جراء تشققٍ فجائي، أو انفصال داخلي قوي بين اجزائها. أمّا ان تصدر أصوات قولية ذات تعابير واضحة ولغة دقيقة من جمادٍ فهو في رأيي من المستحيلات. اذ لم يعرف قطّ عن روحٍ انسانية أو الهيّة انها نطقت بكلمات أو عبارات لغوية من ذات نفسها ومن دون وجودها في جسم ذي اجهزة واعضاء منتظمة العمل، وحاسة نطق. ولكن لما كانت وقائع التاريخ بما تواتر فيها من الشهادات العديدة الموثوقة، ترغمنا على التسليم بهذه الظاهرة، فعلينا ان نعلل ذلك مستنتجين بأن انطباعاً معيناً خلاف الاحساس البشري الاعتيادي يؤثر على الجزء المتخيل من طبيعتنا، فيبتعد بنا عن الحكم الصائب بحيث يحملنا على الاعتقاد بأننا نحسّ احساساً مادياً لا غبار فيه كما يحدث لنا في النوم. فنحن نتخيّل بأننا نسمع ونرى بينما الأمر ليس كذلك. على ان الاشخاص الذين يكنون إحتراماً عميقاً للآلهة. ويتمسكون بالدين أشد تمسك، لايسمح لهم احترامهم وتمسكهم بما يعتقدون، بانكار أو دحض اي شيء من هذا القبيل، وحجتهم القوية تكمن في ايمانهم بالصفات الأثيرية العجيبة للقوى الالهية التي لا مجال لمقارنتها بقوانا البشرية، لا من حيث طبيعتها ولا من حيث فاعليتها. ولا من أسلوب فعلها أو قوته؛ وليس مما يناقض العقل، انها تفعل أشياءً لا نقوى عليها نحن، ونبتدع أموراً غير ممكنة بالنسبة لنا لاختلافها عنّا من شتى الوجوه، وفي مقدمة الاختلاف أفعالها الخاصّة، وليس لنا الاّ الاعتقاد

(٣٥) أقيم في الطريق اللاتيني Via Latina، على بعد اربعة اميال من روما في عين المكان الذي وفقت فيه ڤيتوريا في التغلب على عناد ابنها [ڤاليريوس ماكسيموس ٨:١) أمّا ڤاليريا التي كانت أول من أقترح هذا الوفد الناجح فقد صارت اول كاهنة للهيكل الذي كانت ترتاده الرومانيات كثيراً (ليڤي ٢:٤٠).

بأنها لاتشبهنا قط، وانها بعيدة جداً عَنّا. يقول (هيراقليدس):

«ان الشكّ الذي يلازمنا، ضيع علينا معظم المعرفة باللاهوت».

لما عاد [مارشيوس] الى آنيتوم، بدأ [توللوس] فوراً باعداد الوسائل الكفيلة بالقضاء عليه وكان كرهه العظيم له بقدر خوفه منه - كان يدرك جيداً لو أن، مارشيوس أفلت من يده الآن فإن احتمال سنوح فرصة أخرى كهذه، بعيد جداً. فبعد تأليبه عدداً من بني قومه عليه، طلب منه اعتزال منصبه وتقديم الحساب للڤولسكان عن أعماله. ولخشية [مارشيوس] من الخطر الذي يتعرض الفرد البسيط الذي سيكونه، بينما سيبقى توللوس في منصب القائد الحائز أعظم السلطة بين المواطنين، أجاب قائلاً انه مستعد لاعتزال منصبه متى ارتاىء سحب سلطته أولئك الذين تسلمها منهم، كما انه مستعد في الوقت ذاته لتقديم الحساب عن تفاصيل أعماله وتصرفاته متى رغب الانتيات.

وعقد اجتماع عام، وتقدم الخطباء الشعبيون للكلام حسب الخطة المرسومة- ومرادهم اثارة حفائظ الشعب واضرام كوامن احقادهم. وعندما حان دور مارشيوس ونهض للاجابة، سكت فجأةً أكثرهم صخباً وهياجاً، إحتراماً له. وتُرك يتكلم دون ان يقاطعه أحد. وظهر على أخيار الناس كافة وكل من كان يصبو الى السلام أنهم سيصيخون السمع اليه بكلّ عطف وانهم سيحكمون عليه بما يتفق مع العدل والوجدان.

فدبَّ دبيب الخوف في [توللوس] وخشي نتيجة الدفاع الذي كان [مارشيوس] يهّم بالقائه، فهو خطيب مفوّه ساحر اللسان، زد على هذا فان الخدمات الجليلة السالفة التي قدمها للڤولسكان حفظت له في قلوبهم وما زالت تحفظ وداً وعطفاً لايقلل من شأنه أي اعابة أو تنديد بسلوكه الأخير، والحقيقة هي أن الاتهام كان بحدّ ذاته دليلاً وشاهداً على عظمة نفسه لأن الشعب لاحق له في الشكوى منه أو اعتبار نفسه مخدوعاً ومغبوناً لأن مارشيوس عدل عن اخضاع روما. فبفضله وحده اصبحوا على قاب قوسين من فتحها لهذا قدّر المتآمرون ان الحكمة تقضي عليهم بالاستعجال في الأمر وعدم التأخر، ليتذقوا طعم المشاعر الشعبية في حكمها لصالح مارشيوس فصاحت الفئة الجريئة من حزبهم ان لا ضرورة تدعو للاصغاء الى غدارٌ خائن والسماح له بالبقاء في منصبه وممارسة سلطة الطاغية المستبد بين ظهرانيهم. قالوا هذا وحملوا على [مارشيوس] حملة رجلٍ واحد، وفتكوا به في محل الاجتماع[٣٦].

وسرعان ما تبيّن أن عملهم هذا لم يقع موقع رضىً وقبولٍ من غالبية الڤولسكان، اذ خرجوا

---

(٣٦) يقول [ديون] انهم رجموه حتى قُضي عليه. ويتفق مع پلوتارخ إلاّ في قوله ان الاشتباكات التي حصلت بينه وبين تللوس استمرت عدة أيام. أما شيشرون (الخطب ١٠) فيفضل الرأي القائل بأنه بخع نفسه.

زرافات ووحداناً من مدنهم العديدة لاستقبال جثمانه واظهار آيات التكريم والاجلال له. ودفنوه دفنة مشرفة تليق بمقامه(٣٧)، وزينوا ضريحهُ بمختلف تهاويل السلاح والشواخص، وجعلوه مثل اي نصب تذكاري لبطل نبيل، وقائد شهير. ولم يظهر من الرومان شيء يدّل على تكريمه أو تحقيره عند سماعهم بمقتله. على انهم استجابوا الى طلب النساء الرومانيات في ان يقمن عليه الحداد ويندبنه لمدة عشرة أشهر، بمقتضى العادة التي جروا عليها عند فقدهم اباً أو ابناً أو أخاً. وهذه أطول مدة من مدد الحداد على الميت التي رسمتها قوانين [نوما پومپليوس]، كما ذكرناها بتفصيل في سيرة حياته.

ولم يمرّ طويل زمن حتى شعر الڤولسكان بفداحة خسارتهم فيه، ومدى حاجتهم اليه. فقد أختلفوا باديء ذي بدءٍ مع الايكويين Aeqiuians، حلفائهم واصدقائهم حول تعيين جنرال لقواتهم المشتركة، فأقتتلوا فيما بينهم وسفكت الدماء وهلكت ارواح كثيرة. ثم انهم منوا بهزيمة نكراء على يد الرومان، فيها فقد [توللوس] حياته. وابيدت زهرة جيوشهم ابادة تامة وبهذا ارغموا على الخضوع لهم. وقبول سلم وفق شروط غير مشرفة لهم، وصاروا بذلك، تابعين لروما خاضعين لسلطانها.

(٣٧) قتل كريولانوس في السنة الأولى من الاولمپياد المائة والثالث والعشرين بحسب هذه الرواية. لكن (ليڤي) نقلاً عن كاتب قديم جداً يدعي [فابيوس پكتور] يخالفه في الرأي ويقول انه عاش حتى بلغ من العمر عتياً ومات ميتةً طبيعية.

أوجه المقارنة بين الكيبيادس وكوريولانوس

بعد أن أتينا الى وصف كل أعمالهما التي تستحق الذكر؛ لنا أن نقول عن القسم العسكري منها أن الكفتين فيهما تقفان على مستوى واحد لايميل الثقل بأحدهما دون الأخرى أبداً فبمقياس كاد يكون متساوياً أظهرا كلاهما في مناسبات عديدة بسالة الجندي وأقدامه، وابديا براعة القائد وبُعد نظره، خلا أن انتصار الكيبيادس ونجاحه في عدة معارك بحرية وبريّة، يضفي عليه صفة القائد الأكمل. وطالما كان كل منهما في بلاده متسلماً القيادة فقد كسب لها من المجد والرفعة ما يعادل الأذى الذي الحقه بها عند نفيه منها. ولقد شعر عقلاء الناس كلهم الكيبيادس الى استخدامها في حياته السياسية لخطب ودّ الشعب وكسبه الى صفّه. ونفروا من التعالي الاوليغارشي والغرور والغطرسة التي استخدمها [مارشيوس] في بلاده وكانت موضع كره الجمهور الروماني له. لايمكن أن يكون هذان الموقفان موضع تقريظ أو تقدير. على أن الرجل الذي يحببّ نفسه للآخرين بالمداهنة والريّاء لايلام بقدر ما يلام من يلجأ الى السبّ والإهانة ليتحاشى الظهور بمظهر المداهنة والريّاء. إن إطلاب السلطة عن طريق تحقير النفس، والاستعباد للجمهورلهو الإنحطاط بعينه. إلاّ أن الوصول الى السلطة بالإرهاب والعنف واضطهاد الناس، هو انحطاط وظلم عظيم.

كان [الكيبيادس] حسب فهمنا لخلقه، رجلاً بسيطاً صريحاً لاشكّ فيه. اما الكيبيادس السياسيّ ورجل الدولة فكان مراوغاً بعيداً عن الاستقامة. ونال الملام الأعظم من الأسلوب الغادر غير الشريف الذي اتبعه مع سفراء اللقيديمونيين، حسب رواية [ثوكيديدس] - فانهى به عهد السلام والاستقرار. على ان سياسته هذه التي ورطت مدينته في الحرب ثانية واوصلتها الى منزلة وطيدة وحققت لها مكانة رفيعة بما ضمنه لها الكيبيادس من تحالفٍ مع [ارغوس] و[مانتينا]، كذلك [مارشيوس]، فهو على حدٍّ ما روى [ديونيسيوس]، استخدم وسائل غير شريفة لإثارة حرب بين الرومان والڤولسكان عندما أفتعل نبأ كاذباً حول سوء نوايا مشاهدي الالعاب، إن الدافع لهذا العمل، لهو اقبح من دافع الكيبيادس الى عمله، حسب

رأيي لأن سببه لم يكن الحسد السياسي ولا روح المنافسة والمباراة، بل لمجرد ارضاء عاطفة حقد «لم ينل عنها أحدٌ عوضاً على الاطلاق» كما يقول [إيون]، فقذف باقاليم كاملة من ايطاليا في لجّه الفوضى، وضحّى بكثير من المدن البريئة على مذبح عاطفة كرهه بلاده. الحق يقال، ان الكيبيادس سبّب ايضاً نكبات عظيمة لبني قومه، لكنه أمسك عن ذلك حالما تغيرّ شعورهم نحوه، وبعد أن طرد من البلاد للمرة الثانية؛ لا نجده يتشفى بالاخطاء التي ارتكبها قوادها، ولا أغتبط بعثراتهم. ولم يجلس على التلّ غير مكترث بالخطر الذي يداهمهم، بل قام بشبيه العمل الذي قام به [اريستيديس] [لثيموستوكليس] واستحق عليه الثناء الأعظم. أقبل على القادة وهم أعداء له، وبيّن لهم ما يجب أن يعملوه. أمّا [كريولانوس] فقد هاجم في مبدأ الأمر كل قومه، وان كان جزءٌ منه فقط اساء معاملته في حين وقف القسم الآخر في صفّه وتحمل معه الإساءة - في الواقع وعطف عليه، وهو أنبل الجزئين وافضلهما وثانياً: إن العناد الذي ركبه في مقاومة السفارات العديدة والرجاءات والتوسلات التي استهدفت تهدئة غضبه الشديد وشعوره بالإهانة، أظهرت أن أثارته الحرب الزبون على بلاده وتأليب الاعداء ضدها كان الغرض منه القضاء عليها وتدميرها لا استعادتها ونوالها. على أن هناك فرقاً واحداً قد نستخلصه، فقد يقال أن [الكيبيادس] لم يُعده الى احضان اثينا إلاّ الخطر الذي كان يحدق به وهو بين السپارطيين، فكان عامل الميل لهذا الخوف والكره معاً. في حين لم يكن [مارشيوس] يستطيع ترك الڤولسكان بصورة شريفة بعد أن أكرموا وفادته، وأمرّوه على جيوشهم وجعلوه موضعاً لثقتهم التامّة، فكان موقفه يختلف اختلافاً بيّنا عن موقف [الكيبيادس] الذي لم يرغب اللقيديمونيون حتى في استخدامه عاريةً، أي استعماله ثم نبذه. فكان ينقلب من منزل الى منزل في المدينة ومن جنرال الى جنرال في المعسكر حتى اضطر أخيراً الى وضع نفسه تحت رحمة [طيسافيرنس]. إلاّ اذا وجب علينا الافتراض بأنه لم يلجأ اليه ويستمنح رضاه الاّ للحيلولة دون القضاء التام على مسقط رأسه. المدينة التي كان يصبو للعودة اليها. أمّا من ناحية المال فلقد قيل لنا أن [الكيبيادس] أهتم كثيراً باطلابه وجمعه عن طريق الرشاوى وانفاقه باسوء ما يمكن في البذخ والتبذير. لكن [كوريولانوس] ترفع عنه، حتى عندما أرغمه على قبوله قوّاده، على سبيل التكريم. وان السبب الأساسي الذي ابتلاه ببغض العامّة عند المناقشات حول ديونهم، كان وطئه الفقراء بقدمه لا لأجل المال، بل قحةً منه واعتداداً بنفسه.

ذكر [انتيپاطر Antipater] في رسالة له كتبها عن موت [ارسطو] الفيلسوف العبارة التالية «من بين الصفات التي تخلّى بها، قوة العقيدة». وافتقار خلق [مارشيوس] الى هذه

المزيّة جعل كل أعماله المجيدة، وفضائله الحميدة غير مقبولة من المنتفعين بها و«الكبرياء والاعتداد بالنفس صنوان للعُزلة» كما يقول [افلاطون]، وهذا ما جعله مكروهاً. أما الكيبيادس، فالبراعة التي حازها في معاملة كلّ أمرءٍ بأحبّ أسلوب اليه خلافاً لمارشيوس، لم يكن عجيباً أن يلقى كلّ انتصاراته اعظم التكريم وخالص الامتنان، حتى غلطاته نفسهابين آن وآخر، تجد فيها نوعاً من البركة، واللطف. ولذلك تراه رغم الأذى الكثير الذي احدثه بالمدينة، يعاد انتخابه للسلطة والقيادة تكراراً، في حين فشل [كوريولانوس] في سعيه لنيل المنصب الذي استحقه بخدمة العظيمة الأول، رغم ما أحدثه من ضرر بقي محبوباً ولم يكره. والثاني لم ينجح في نيل محبّة بني قومه بكل الأعجاب الذي ناله.

زد على هذا، ما يجب قوله وهو أن [كوريولانوس] لم يحز لبلاده نجاحاً ونصراً عندما تولى القيادة العسكرية. وانما كانت انتصاراته كلها لعدوّه ضدّ بلاده. واما [الكيبيادس] فخدماته لآثينا كثيرة، قائداً وجندياً. وطالما يكون موجوداً فهو المتفوق أبداً على خصومه السياسيين ولا يفلح الدّس عليه الاّ في غيابه. وأدين [كوريولانوس] حضورياً في روما وبالشكل نفسه قتله الڤولسكان، ولم تكن ادانته أو قتله بأي وجه حقٍ أو تطبيقاً لمبدأ العدالة، إلاّ انهما لا تخلوان من أسبابٍ وحجج نشأت عن أعماله نفسها. مادام فرّط في فرص عسكرية مواتية، بعد رفضه كل المقترحات السليمة علناً، ونزوله عند وساطة النساء سراً، دون اللجوء الى عقد صلحٍ وتثبيت دعائم سلمٍ. كان يجب عليه أن يحصل على موافقة أولئك الذين وضعوا ثقتهم فيه قبل أن يعتزم الانسحاب، هذا اذا كان حقاً يعتبر مصلحتهم فيه هي الأقوى أو أن قلنا بأنه لم يكترث بمصلحة الڤولسكان وانه ما شنّ الحرب (التي عافها الآن) إلاّ ليشفي غليله ويرضي عاطفة حقده، فان العمل النبيل لن يكون الصفح عن بلاده بسبب أمّه، ولكنه عمل أمّه لوطنها. ما دامت امّه وزوجه جزءً لايتجزأ من البلاد التي أحدق بها الخطر. لقد رفض رفضاً قاسياً شفاعة الجمهور، ووساطة السفراء، وضراعة الكهنة، وبتنازله عن كل شيءٍ كفضلٍ خاصٍ حابى به أمّه، فقد أكرمها إكراماً أقل وقعاً من تحقيره المدينة التي ما نجت إلاّ بوساطة امرأة واحدة على ما يبدو، ورغم الاخطاء التي ارتكبتها. فضلٌ كهذا هو الواقع فضلٌ مقيتٌ مرّ المذاق، غير معقول في أعين الطرفين. لقد انسحب دون يلبيّ طلب خصومه، أو يطلب الموافقة على انسحابه من أصدقائه. والعلّة كلّها تكمن في خلقه المتعالي المعتدّ والمستوحش الغطريس، وهو خلق مكروه من معظم الناس في كلّ الحالات، وتكون الطامة الكبرى أن اقترن هذا الطبع بطموحٍ الى الرفعة والامتياز، فإنه ينقلب الى قسوةٍ ووحشيّة صرفة.

يأبى بعض الناس أن يستمنحوا الشعب فضلاً لزعمهم بأنهم ليسوا بحاجة الى أي تكريم منه، ويتميزون غيظاً عندما لايظفرون به. ومن المؤكد أن [ميتيللوس واريستيديس وابامنداس] لم يطلبوا فضلاً من الجمهور، وكان ذلك لأنهم والحق يقال، لم يقيموا أو يقدروا قيمة الهبات التي يحبسها الشعب بمجموعه أو يمنحها. كذلك لم يظهروا حقداً أو يستولدوا ضغنا لبني قومهم عندما أبعدوا الى المنفى أكثر من مرة، بل لم تزايلهم الرغبة في العودة قط، وكانوا يعملون لها وللمصافاة مع الشعب عند تحول الشعور العام نحوه ومن كان ازهد الناس في طلب المنّة والفضل ولا يُعطاه. والشعور بالكرامة الجريحة لما يحبس عن المرء ما يهفو اليه من الرفعة والمكانة، لاينشأ الاّ عن الشهوة العارمة اليهما. ولم يؤثر عن [الكيبيادس] انه أخفى سروره واغتباطه باي تكريم ناله. كما كان يتألم من الإهمال وعدم الاكتراث، لذلك حرص دوماً أن تكون علاقاته طيبة مع بكلّ من عرفه. وكبرياء [كوريولانوس] حالت بينه وبين اظهار اللطف والرعاية لمن كان بيدهم رفعة واعلاء شأنه. ومع هذا فان غرامه الشديد بالمعالي جعله يشعر بالكرامة الجريحة والغيظ لما أهمل الشعب أمره. وتلك ناحية النقص في طبعه. وطبعه فيما عدا هذا نبيلٌ فرقّته وعفته وامانته تجعله في مصاف عظماء الأغريق وأطهارهم، وهو على كلّ ليس من الفئة التي ينتمي اليها [الكيبيادس] أقل الناس تمسكاً بهذه السجايا، وأكثرهم إهمالاً لها.

تیمولیون

TIMOLEON

410 _ 336



بدأت بكتابة السيَّر لأجل الآخرين، إلاّ أني وجدت نفسي أباشرها وأعكف عليها لأجل نفسي. فأخلاق وطبائع هؤلاء العظماء، صارت عندي أشبه بالمرآة التي ألحظُ فيها كيفية تقويم حياتي وتعديل سيرها. هذه الكتابة في الواقع لا تخرج عن وصف الحياة اليومية واللقاءات والمخالطات البشرية، ونحن في تحقيقاتنا عنها نلتقي ونرحبّ بضيوف متعاقبين فنظر الى:

«... منزلتهم والى خُلقهم وطبعهم»

ونختار من أعمالهم الأنبل، والأجدر بالذكر:

«فآه! واية لذة عظيمة تلك التي ينال المرء منها»

وأية وسيلة أقوى أثراً منها في رفع مستوى اخلاق المرء!

يقول لنا [ديموقريطس] «ينبغي لنا ان نتمنى لأنفسنا لقاء السمح الكريم من جمهرة الأطياف التي تسبح في الأثير المحيط بنا، والأخلق بنا أن نختار منها الأقرب الى اذواقنا وطباعنا، أي الاطياف الصالحة الخيرة، لا الطالحة الشريرة.»

هذا القول إنّما يقحم في الفلسفة مبدأ غير صحيح في ذاته، يؤدي بالمرء الى معتقدات خرافية لا نهاية لها، وهذا مخالف لطريقتي؛ فبدراستي التاريخ، وبالعادة التي الفتُها في الكتابة روضّت ذاكرتي على إقتبال واستبقاء صور أفضل الشخصيات وابرزها في الحياة. وهذا ما مكّنني من معالجة نفسي وتحريرها من الانطباعات الخسيسة الوضيعة الفاسدة المنتقلة اليّ بعدوى سوء العشرة المفروضة على نفسي رغم أنفي - بدواء تحويل افكاري نحو الأمثلة الرفيعة الشريفة، بمزاج هادىء مبهج. وقد أخترت الآن لكتابتي من هذه الطائفة مثلين هم[تيموليون الكورنثي] و[پاولوس اميليوس] رجلان وقفا على درجة واحدة من سلّم الشهرة لا باخلاقهما بل بالنجاح الذي أصاباه في الحياة. حتى بات من المشكوك فيه أن يدينا بأعظم أعمالها الى حسن حظهما، ام الى سعيهما وألمعيتهما.

كانت أحوال السيراقوزيين قبل إرسال [تيموليون] الى صقلية، قد آلت الى الوضع الآتي:

بعد أن عمد [ديون Dion] الى طرد [ديونيسيوس] الطاغية، قُتل غيلةً وخيانةً، وأنقسم أعوانه الذين ساعدوه في تحرير سيراقوز، على أنفسهم. وكادت المدينة تقفر من سكانها لكثرة تبدل يد الحكام عليها. ولتعاقب سلسلة من المصائب والويلات فيها[١]. وبات قسم من صقلية بلقعاً يباباً خالياً من السكان لاستمرار الحروب مدة طويلة، ووقع معظم المدن التي نجت من التدمير في ايدي البرابرة والجنود العاطلين غير المرتبطين بخدمة، المستعدين لمصانعة اي شكل من الاشكال الحكم. تلك هي الحال عندما اهتبل [نيسيوس Nysaeus][٢] سيّد [سيراقوز] في السنة العاشرة لنفيه. وليستعيد مجدداً سلطانه ويستقر في ملكه. لقد كان غريباً أن يفلح حزبٌ صغير جداً خلال الفترة الأولى من حكمه، في تجريده من أعظم سلطاته وأشدّها استبداداً. على أن الأغرب منه نجاحه في استعادة تلك السلطة وهو في المنفى لا حول له ولا طول، وفرض نفسه حاكماً مطلقاً على من طردوه. ووجد من بقي في سيراقوز أنفسهم مرغمين على طاعة طاغيةٍ وخدمته. طاغية مستبدٌ، فظّ الطبع (ان استخدمنا أخف وصف له). أمتلأ غيظاً الآن الى درجة الوحشية بما اصابه من بلايا ونكبات. ولجأ سراة القوم وأخيارهم الى [هيكيتس Hicetes] حاكم [الليوتينيين][٣] في الوقت المناسب، ووضعوا أنفسهم في حمايته وأختاروه قائداً لهم في الحرب لا لأنه يَفْضَل في شيء أي طاغية مستبد عنيد، بل لأنه الملجأ الوحيد الذي وجدوه في حينه ومما منحهم شيئاً من الثقة منه: إنه من أسرة سيراقوزيّة، ويملك القوات التي تمكنّه من منازلة قوات [ديونيسيوس].

في هذا الوقت ظهر القرطاجنيون على ساحل صقلية بأسطول عظيم، وراح سكان الجزيرة يرصدون المكان والزمان الذي يختاره الغزاة للنزول الى بلادهم. ودفعهم الرعب من الاسطول الى ارسال وفد الى بلاد اليونان لطلب العون من الكورنثيين الذين كانوا مَحَل ثقتهم أكثر من غيرهم[٤] لا للقرابة التي تصل فيما بينها ولا للفوائد العظيمة التي طالما جنوها من وضع

(١) قُتل ديون الذي طرد ديونيسيوس الأبن من سيراقوز في ٣٥٧ ق.م وقام قاتله [كاليپوس] باغتصاب السلطة لنفسه لكنه طرد منها بعد عشرة اشهر. وقتل بعين الخنجر الذي غيبّه في صدر صديقه. وأقبل هيپارينوس Hipparinus أخو ديونيسيوس يقود اسطولاً كبيراً احتل المدينة وابقاها تحت حكمه زهاء سنتين وأنقسمت صقلية الى شيع واحزاب وكتل حاكمة.

(٢) كان رجلاً عسكرياً لامعاً. وقائداً عاماً بأمرة ديونيسيوس.

(٣) هؤلاء القوم كانوا يسكنون مدينة اسمها ليونتيني كما يثبتها هيرودوتس وهي لا تبعد كثيراً عن شمال سيراقوز بين نهري ليسّوس وفيويوس. يعزى بناؤها الى الخلقيديين. ويطلق على الريف المحيط بها ليوستريگوني أو مخيم ليونتيني وأشتهر بخصوبته.

(٤) أوجد أرخياس الكورنثي المستعمرة السيراقوزية في ٧٣٢ ق.م. كان الفينيقيون قد غزوا صقلية قبل ذلك بثلاثمائه عام وانشأوا فيها مستعمراتهم.

ثقتـهم فـيـهم بـل كذلك لما أظهـرته كـورنث دومـاً من شـدّة تعلق بالحـرية، ونفرة من الطغـيـان ودخولها في عدة حروب لا سعياً وراء الكسب والعظمة بل، دفاعاً عن حرية الأغريق ليس إلاّ. إلاّ أن [هيكتيس] الذي جعل هدف قيادته تحرير السيراقوزيين من ظلم طاغية، لإستعبادهم بطغيانه؛ كان قد اتصل سراً بالغزاة القرطاجنيين وفاوضهم وتوصل الى اتفاق معهم، بينما كان يمتدح جهراً غايات اتباعه السيراقوزيين، حتى انه ارفق بوفدهم الى الپيلوپونيس وفداً من لدنه لا لرغبته في نيل أية معونة أو نجدة تأتي منهم. بل كان أمل أن يرفض الكورنثيون بذل العون وهو أمر قريب الإحتمال بسبب الاضطراب الذي كان يسود بلاد الاغريق وانشغال هؤلاء فيه، واذ ذاك يكون أقدر على تحقيق مصالح القرطاجنيين بسهولة، وتنفيذ ما تعهد لهم به، وبهذا الأسلوب يتمكن من استعمال الغزاة الأجانب اداة لتحقيق اغراضه، وقوة احتياطية له يوجهها ضدّ السيراقوزيين أو ضد [ديونيسيوس] حسبما تدعو اليه الظروف وقد أنكشفت خطته هذه فيما بعد.

وصلت السفارة الى الكورنثيين، وعرضت مهمّتها. وكان هؤلاء القوم دوماً شديدي الرعاية والإهتمام بكلّ جالياتهم وزراعتهم في الخارج. إلاّ أنهم خصّوا [سيراقوز] بأعظم اهتمامهم وكان الوضع في كورنث مستقراً اذ ذاك، والقوم يتمتعون بظلّ السلام الوارف والراحة فصوتوا بالإجماع على تقديم العون لهم. وفي اثناء ما كانوا يتداولون في أختيار قائد للحملة، والحكام يجاولون في طلبات مختلفة من أولئك الطمّاحين الى المجد. نهض واحدٌ من الجمع الحاشد ونطق باسم [تيموليون] ابن [تيموديموس Timodemus] الذي كان قد توارى منذ زمن طويل عن ميدان الشؤون العامّة ولم تكن لديه اية فكرة أو دعوى لهذا النوع من المناصب. ويبدو وكأن إلها من الآلهة أوحى الى قلب هذا الرجل بذكر اسمه، وظهرت محاباة آلهة الخظّ، وحسن نواياها في انتخابه، وفي مرافقتها كُلّ أعماله التالية حتى لكأنها أوصت بجدارته وأضافت السموّ والشهوة الى اخلاقه الشخصية لغاية في نفسها. كان [تيموديموس] أبوه و[ديمارست Demariste] أمّه من الطبقة العليا في المدينة. وامّا عنه فقد أشتهر بحبّ وطنه، ورقّة طبعه، خلا مقته الشديد للطغاة واشرار الناس وكانت قابلياته الطبيعية في الحرب والقتال حسنة التكوين فيه بحيث أنه ظل يظهر شجاعةً وأقداماً نادرين في آخر مآثره ووقائعه عندما بلغ من العمر اراذله، لايقلاّن ابداً عن الكفاءة والألمعيّة التي بدأت في كلّ مشاريع شبابه. وكان أخوه الأكبر [طيموفانس Timophanes] لايشبهه في شيء، فهو حادّ الطبع متهور أحمق، أفسده بعض اصدقائه، والجنود الاجانب الذي كانوا يلازمونه وأغوا في نفسه حب النزوع الى السلطان المطلق، ويبدو انه كان قد كسب اسماً وتبريزاً في كل فنون الحرب، بل

كان ركّاب اخطارها وفارسها المجلّي، ولهذا وقع حُبه في قلوب الناس، ورفعوه الى مناصب هامة لحسن بلائه وجسارته وكان فضل تيموليون عليه في وصوله الى مركزه كبيرا، فقد دأب على اخفاء هفواته أو التقليل من شأنها على الأقل، يكسو بثنائه العاطر كلّ ما يستأهل الثناء من أعمال اخيه، ويدفع الجانب الطيب من شمائله مشجعاً لتنطلق بما فيها من فوائد وحسنات.

حدث مَرّة في معركة خاضها الكورنثيون ضدّ قوات [ارغوس] و[كليوني Cleonae] [٥]، أن كان تيموليون جندياً في صنف المشاة، و[طيموفانس] يقود خيالتهم، فاستهدفت حياته الى خطر جسيم اذ جُرح حصانه وكبابه ورمحه الى أواسط العدوّ في حين تفرقت عنه كتيبته وولت الأدبار فزعاً، وكانت الشرذمة الباقية القليلة العدو التي تواجه قوات عدوه متفوقة قد دبتّ فيها الفوضى وعجزت عن الصمود ولو لساعة. وما أن علم [تيموليون] بالخطر المحدق قد هرع لانقاذه وستر بترسه جسده الذي أصيب هو ودروعه بكثير من طعنات الرماح والسيوف. وقاتل العدو حتى أرغمه على التقهقر بعد لأي وحمل أخاه وعاد به حيّاً سالماً.

وعندما خشي الكورنثيون على حرية مدينتهم بالسماح لحلفائهم بدخولها، اصدروا مرسوماً يقضي بتجنيد اربعمائة جندي اجنبيّ مرتزق للمحافظة عليها، وسلمت قيادتهم [لطيموفانس] فما لبث ان تجبّر ولم يرع مبدءً من مبادىء الشرف، وجعل نفسه حاكماً مطلقاً واخضع البلد الى سلطانه الفرد. وبعد ان فتك بالعديد من رؤساء القوم ممن خشي صولتهم ومقاومتهم نواياه دون إدانة ولا محاكمة؛ اعلن نفسه طاغيةً لكورنث. ووقع هذا على [تيموليون] وقعاً أليماً، معتبراً شرور أخيه مصدر خزي له وبلوى. وحاول اقناعه بالمنطق والعقل بالعدول عن سبيل الغواية والطموح السيء النقيبة. وان يبحث عن وسيلة لاصلاح ومعالجة الشرور التي الحقها ببني قومه. فازدرى [طيموفانس] تحذيره المخلص ورفضه. وكرر [تيموليون) محاولته وأخذ معه [اسخيلوس] قريبه شقيق امرأة طيموفانس، وكاهناً نبيّاً صديقاً يطلق عليه ثيومبوبوس في تاريخه اسم [ساتيروس Satyrus]، ويسميه [ايفوروس Ephorus] وطيماؤوس في تاريخهما [اورثاغوراس Orthagores]. عاد اذن الى أخيه برفقة هؤلاء، وتحوطوه وأخذوا يلحفون عليه بالرجاء في الموضوع نفسه وينصحونه باخلاص الى الاصغاء لصوت العقل وأبدال طرائقه. لكن [طيموفانس] راح يضحك ساخراً من سذاجة الرجال ثم انفجر بهم محنقاً ساخطاً فما كان من [تيموليون] إلاّ أن انتحى جانباً عنه ووقف يبكي بوجه مستور في حين انتضى آلاخران سيفيهما ووثبا على الطاغية وقتلاه في الحال[٦].

---

(٥) آخر قرية ارغوليّة من جهة كورنث.

(٦) لديدورس الصقلي (١٥:١٠) رواية أخرى مختلفة، قال: بعد أن قام تيموليون بقتل أخيه بيده في ميدان =

وسرعان ما شاع النبأ. وأشاد سراة الكورنثيين وكرامهم بتيموليون كثيراً، وقدرّوا فيه بغضه الجور وسمّو نفسه التي جعلت التزاماته تجاه وطنه أقوى من وشائج القربى، رغم كونه رقيق الطبع، شديد الحب والعطف على أسرته، وهكذا قدّم ما هو عدل وخير على الربح والفائدة والمصلحة الشخصيّة. فأخوه الذي أنقذ حياته بشجاعة خارقة عندما كان يحارب في سبيل كورنث ببسالة وأخلاص، قام الآن بقتله لأنه استعبدها فيما بعد باستبداده القذر. فكانت تضحية منه في غاية النُبل. على أن أولئك الذين لايعرفون كيف يعيشون في ظلّ الديمقراطية، ممن تعوّد حطّة التزلف الوضيع للحكام ورجال السلطة، راحوا سراً يسلقون [تيموليون] بالسنتهم الحداد، ويشيرون اليه بالرجل الذي أقترف عملاً لا أشنع منه ولا اقبح، مع انهم أظهروا في العلن شدة اغتباطهم بمقتل الطاغية. فانتاب [تيموليون] الغمّ والكآبة الشديدة. ولما علم كم كان وقع الأمر شديداً على أمّه، وكيف أنها جأرت بالشكوى الأليمة وصبّت عليه أقسى اللعنات وأهولها كأولئك الآخرين. قصَدَها ليشرح لها ما وقع ويبرّر عمله لها، فوجد أنها لا تريد حتى النظر اليه اذ أغلقت ابوابها دونه لئلا يجد سبيله اليها. فنال منه الهمّ كثيراً وطاش صوابه وبلغ به اليأس حداً أن قرر معه وضع نهاية لقلقه بقتل نفسه بالاضراب عن تناول الطعام حتى الموت. إلاّ أن عناية اصدقائه وسهرهم المتواصل والشدّ عليه بين الالحاح والتوسّل، الى استخدام القوّة والارغام ادّى في نهاية الأمر الى أن يقرر ويعد باحتمال العيش شريطة أن تحترم عزلته التامة، وابتعاده عن اي عشرة. وهكذا تقطعت الاسباب بينه وبين الحياة العامة وحلت بينه وبين المجتمع جفوة تامة وخرج من كورنث وظلّ بعيداً عنها مدة طويلة يهيم على وجهه في الحقول والفيافي تعذّبه افكاره وتقضّ عليه مضجعه. ينفر أشدّ النفرة من اي صلة بالناس أو علاقة بالحياة الاجتماعية.

حقيقة لا جدال فيها: وهي انه ليس ثم أسهل من هزّ عقول الناس وافقادها التوازن والصواب بكلمة مدح أو قدح تقال لها. إلاّ اذا كانت الأحكام المتخذة والغايات المنشودة مبنيّة على قاعدة الفلسفة والوعي، فتحوز صفتي الثبات والمتانة. وليس يكفي في العمل أن يكون عادلاً ممدوحاً بحدّ ذاته. بل يجب أن ينشأ من دوافع مكينة ومبدأ راسخ، وسيظلّ اذ ذاك جميلاً في اعيننا. ونبقى راضين عنه رضاءً تاماً لايتزعزع. فإن لم يكن العمل كذلك، فسيسلمنا ضعفنا الى القلق والاضطراب عندما يدبّ في مظهري الصلاح والجمال اللذين زيّنا

= السوق، ثارت ثائرة المواطنين وهاج هائجهم فلاجل تهدئة الخواطر التأمت الجمعية العامة وفي حمى النقاش وصل سفراء صقلية وطلبوا جنرالاً. فصار الإجماع على تيموليون إلاّ انهم حذروه قائلين: «إن أديت واجبك بنجاح فستعامل معاملة من قضى على طاغية. وان أخفقت فستعامل كمجرم قتل اخاه. إلاّ ان رواية پلوتارخ قد تكون ارجح وقد ايدتها مراجع أخرى.

لنا العمل، دبيبَ البلى وتُخْلِق جدّته في خيالنا، كالناس النهمين، فهم يتهافتون على ألذّ ما في الصحفة من اللقّم، ثم ما يلبثون أن يعافوها عندما تتخم بطونهم بالأكل فيحسوّن بالضيق والتعب مما كانوا شديدي الاشتهاء له.

إن الكره الذي يعقب الحبّ، يفسد خير الأعمال، والندم يجعل اروع الأعمال وأحسنها تأديةً، وضيعاً حافلاً بالاخطاء. في حين لايتغيرّ الاختيار المبنيّ على أسس المعرفة والتحكيم العقلي، بعوامل الخيبة والإخفاق، ولا يُسلمنا الى الندامة. وقد يتفق أن يكون عملنا عند انجازه، أقل نجاحاً من المأمول، وفي هذا الصدد أذكر قولاً مأثوراً [لفوكيون Phocion]. كان هذا قد وقف من تدابير [لوسثينيس Leosthenes] موقف المعارضة الشديدة المستمرة. وعندما رأى علائم النجاح تتوالى وقومه مغتبطين بها، يقدمون القرابين بمناسبة الانتصار، قال لهم:

- إن السرور الذي قد ينتابني فيما لو كنت أنا الذي حقق لكم انتصار ليوسثينيس بدلاً منه، يعادل سروري لكوني أنا الذي أدلى برأي ضدّه.

ولدينا جوابٌ آخر أشدّ من هذا وأوقع. عندما طلب [ديونيسيوس] الأكبر الزواج من أحدى بنات [اريستيدس] اللوكري Locria صاحب افلاطون. ردّ عليه بما يأتي:

- أفضل أن أرى العذراء تدرج في قبرها، على أن اراها في قصر طاغية!

وفي سورة غضب [ديونيسيوس] لهذه الإهانة، عمد الى قتل ابناء [اريستيدس]، ثم عاد يسأله بوقاحة: أما زال مصراً على رأيه السابق في مصائر بناته، فأجابه اريستيدس:

- لايسعني إلاّ أن أتألم، لوحشية اعمالك، إلاّ اني لستُ بآسف على حريّة كلماتي.

على أن الآلام التي استولت على [تيموليون] لما فعله، حَطّمت عزيمته وسحقت روحه، وسواء كان مأتاها تعاسة مصير أخيه، أو الأحترام الذي يكنّه لأمّه فقد بقي زهاء عشرين عاماً عازفاً عن شرف المساهمة في حياة بلاده السياسية، ولما قُدّم اسمه مرشحاً لمنصب الجنرال وايّد الترشيح إقبال الجمهور بكلّ سرور على الاقتراع له، قصده [تيلكليدس Teleclides] وكان في حينه أقوى وأبرز رجل في كورنث وبدأ يحضه على القبول بقوله، أن الواجب يحتّم عليه الآن أن يتصرف كما يتصرف الرجل الشجاع الجدير بالاحترام...

- لأنك إن أظهرت في مهمتك هذه تفانياً وبطولة فسنجمع على أنك أنقذتنا من طاغية حقاً. وإلا كنت قاتل أخيك في نظرنا.

وفيما كان يستعّد للإبحار، ويجنّد المحاربين، وصلت الكورنثيين رسائل من [هيستيس] توضح تمرده وخيانته. اذ ما أن توجّه سفراؤه الى كورنث حتى ألقى بحظه الى جانب

القرطاجنيين، وفاوضهم في معاونته على ازاحة [ديونيسيوس] وحلوله محلّه في [سيراقوز]. ولما كان يخشى على خطته الفشل في حالة وصول جيش وقائدٍ من كورنث قبل تنفيذها، فقد بعث بكتاب على جناح السرعة ليحول دون ذلك، قائلاً بالاً حاجة تدعوهم الى تكبدهم العناء والنفقات والتعرض لأخطار حملةٍ الى صقلية، فقد اضطره تباطؤهم في ارسال النجدة الى قبول التحالف مع القرطاجنيين ضدّ [ديونيسيوس]، وان هؤلاء سيتربصون بحملتهم، ويهاجمونها في عرض البحر باسطول ضخمٍ. وازالت تلاوة هذا الخطاب على الجمهور كلّ تردد في النفوس، حتى البارد غير المكترث بالحملة منهم، وثارت كوامن سخطهم على [هيسيتيس] وأضطرمت نفوسهم غيظاً وأقبلوا جميعاً على تجهيز حملة تيموليون بحماسة واخذوا يستعجلونه في الرحيل.

لما جُهزت السفن، وكملت أهبة الجنود من كل النواحي. حدث أن حملت كاهنة الربّة [بروسپرينا: ربة الخصب] حلماً أو نزلت عليها رؤيا، خلاصتها إنّ هذه الربّة وامّها [سيريس: آلهة الزراعة] ظهرنا في عدة السّفر، وقالتا للكورنثيين انهما ستبحران الى صقلية مع [تيموليون]. وعندما قام الكورنثيون ببناء سفينه مقدسة اسموها «سفينة الربّات» وكرسوها لهما. ثم أن تيموليون رحل الى [دلفي] بنفسه وضحّى لاپوللو، ثم نزل الى موضع الوحي من المعبد، ليفجأ بالرؤى الخارقة الآتية: انزلقت عصابة رأسٍ مطرزة بالتيجان وصور النصر من بين الهدايا المقدمة وطارت في فضاء المعبد ثم سقطت مباشرة على رأسه، وهكذا بدأ وكأن ابوللو يتوجّه بالنجاح مقدّماً ويرسله الى هناك للفتح والنصر. وأنطلق في عرض البحر بعشر سفن فقط: سبع منها كورنثية، واثنتان من [كوركيرا][٧] وواحدة تبرع بها الليوكاديون Leuca-dia، ودخل أحشاء البحر ليلاً تدفعه ريحٌ رخاء وعلى حين غرّة انشقت السماء وخرج منها لهبٌ ساطع مُنتشر واخذ يحوم فوق سفينته، ثم تجمّع اللهب ليغدو مشعلاً شبيهاً بالمشاعل ملازماً جانبها، ليديها بنوره الى الجزء الايطالي الذي قرروا النزول فيه وايّد السحّرة أن هذه المعجزة تؤيد حلم الكاهنة، لأن الربتين ترافقان الحملة فعلاً. وقد ارسلتا هذا النور من السماء ليتقدمهما: ذلك لأن صقلية مكرّسة [لپروسپرينا] لزعم الشعراء أن حادثة الخطف وقعت هناك وان الجزيرة أعطيت مهراً لها[٨] عندما تزوجت [پلوتو]: آله الموتى وجهنم.

شجعت هذه الخوارق الآلهية أفراد الحملة كثيراً. فانطلقوا باقصى سرعتهم في رحلتهم

(٧) هي كورفو وقد عرفت ايام هوميروس موطناً للفياكيين. وليكاديا هي شبه جزيرة مجاورة. أشتهرت بلسانها المشهور باسم «قفزة الحبّ».

(٨) في اليوم الثالث من الزفاف أعطت العروس هدية للعريس عند ظهورها لأول مرة دون برقع بحسب عادات ذلك الزمان. ولهذا السبب يطلق عليها اليونان كلمة «أناكالوبسوريون».

يشقون عباب الاوقيانوس حتى وجدوا أنفسهم بعد زمن قصير يجرون على طول الساحل الايطالي. إلاّ أن الانباء التي وردت تيموليون من صقلية أقلقته كثيراً وثبطت عزائم جنوده. فقد تغلّب [أكيتيس][٩] على [ديونيسيوس] في ساحة القتال وأخضع لسلطانه معظم أحياء مدينة سيراقوز نفسها، وهو في تلك اللحظة يطوقه ويحاصره في قلعتها وفي ما يسمى بالجزيرة حيث هرب وجعلها ملجأه الأخيرة. في حين كان على القرطاجنيين حسب الاتفاق، ان يحولوا دون نزول [تيموليون] في أي ثغر من ثغور صقلية. فبطرده وطرد اتباعه، يمكنهم على هونهم وهواهم تقسيم الجزيرة فيما بينهما. وعلى هذا الأساس بعث القرطاجنيون بعشرين من بوارجهم الى [ريجيوم][١٠] ومعها سفراء من [هيسيتيس] الى تيموليون، وقد حمّلهم تعليمات مناسبة لخطتّه هذه ومقترحات خادعة للإلهاء وحكايات ظاهرها معقول، لستر وتزويق غايات غير شريفة. أمروا أن يقدموا اقتراحاً يتضمن الطلب من تيموليون ان يحضر الى [هيسيتيس] ان شاء ويشاركه كلّ فتوحاته بعد ارساله السفن والجنود الى كورنث لأن الحرب تكاد تكون في حكم المنتهية. والقرطاجنيون قد أغلقوا المدخل وعزموا على صدّهم اذا حاولوا اقتحام سبيلهم عنوةً الى الساحل، وعندما التقى الكورنثيون بالوفد في [ريجيوم] ووعوا رسالتهم وشاهدوا السفن الفينيقية راسية في الخليج ثارت كرامتهم للاهانة وسادهم سخط عامٌ على [هيسيتس] وتملكهم خوف شديد على جيرانهم الصقليين Sicaliotes، الذين سيكونون ثمناً وتعويضاً [لهيسيتيس] على غدره من جهة، وغنيمة للقرطاجنيين بسبب ما يمارسونه من سلطان على [هيسيتيس] من جهة أخرى.

كان أشبه بالمستحيل هزم السفن القرطاجنية التي تقع عليهم الطريق وعددها ضعف عدد سفنهم. كذلك كانت مسألة دحر الجنود الظافرة التي يقودها [هيسيتيس] في سيراقوز وأخذ زمام المبادأة منه بأولئك الجنود الذين ابحروا في الحملة.

ذلكم هو الموقف برمته. فبعد أن تحدث [تيموليون] برهة مع وفد [هيسيتيس] ورؤساء القرطاجنيين قال لهم: إنه موافق بكلّ سرورٍ على مقترحهم (واي جدوى في رفضه؟) لكنه يرغب قبل عودته الى [كورنث] أن يكون أهالي [ريجيوم] على بينّة تامة بكل ما دار من مفاوضات بينهما وان تذاع لهم بشكل علنيّ لأن المدينة اغريقية، وتربطها بالجانبين صلة الصداقة، وهذا

---

(٩) وجد اكيتيس نفسه بحاجة الى ارزاق فانسحب كم حصار سيراقوز متجهاً الى بلاده فخرج عليه (ديونيسيوس) وهاجم مؤخرته إلاّ ان (إكيتيس) استدار وواجهه وقتل ثلاثة آلاف من رجاله ثم تعقبه الى داخل المدينة وأحتل جزءً منها. ويذكر بلوتارخ أن المدينة التي قُسمت بأسوار قوية بدت وكأنها مجموعة من المدن.

(١٠) (من أعمال كالابريا) تقع في مضيق مسينا.

التدبير سيكون ذا أثر كبير على سلامة عودته، كما سيجعلهم متمسكين وملتزمين بشروط الاتفاق لمصلحة أهالي سيراقوز حيث كانوا أشهدوا على أنفسهم علناً بمساعدتهم.

كان هدف [تيموليون] من كل هذا تحويل الأنظار عمّا بيتّه، وهو اهتبال فرصة للإنسلال باسطوله من بين سفنهم، ولم يكن سراة المدينة واعيانها يجهلون غرضه، بل عمدوا الى مساعدته في تنفيذه، تحدوهم رغبتهم الشديدة في تولي الكورنثيين زمام الأمور في صقلية، ويدفعهم خوفهم العظيم من مغبّة مجاورة البرابرة لهم. ولذلك دُعي الى عقد اجتماع عامٍ وأغلقت ابواب المدينة لئلا ينشغل المواطنون عنه بشؤونهم الخاصّة، وتعاقب الخطباء على المنبر كل بدوره لشرح الموضوع للشعب، ينتهي واحد ليبتديء آخر وهكذا دون التوصل الى نتيجة، يتعمدون تبديد الوقت بالكلام الفارغ حتى تخرج السفن الكورنثية من المرفأ. وكان ربابنة السفن القرطاجنية قد عُوِّقوا في المدينة لهذا الغرض، ولم ينتبهم اي شكّ، لأن [تيموليون] بقي معهم، وكان يبدي اشارات من يحاول التهيؤ لالقاء خطاب. ثم وردته اشارة سريّة تعلمه بخروج بوارجه كلها الى عرض البحر[١١]، خلا سفينة التي كانت بانتظاره، وتمكن بالتخفي ومساعدة [الريجيين القريبين في المنصّة، من النزول عنها سراً والتسلل بين الحشود وأسرع الى الميناء ليبحر فوراً ويدرك باقي السفن؛ ووصل الاسطول كله الى [تارومينيوم Tauromeni-um] المدينة الصقلية. وكان حاكمها المدعو [أندروماخوس Andromachus] قد دعاهم قبلاً، فاستقبلهم ورحب بهم أحسن ترحيب. كان اندروماخوس هذا، والد المؤرخ [طيماؤوس]، وهو بلا جدال أو مقارنة خير حكام صقلية آنذاك. فقد نشر العدل في المدينة. وجعل الكلمة العليا للقانون، وكان يمقت الطغاة مقتاً شديداً، ويعاديهم عداءً صريحاً. لذلك سمح [لتيموليون] بانزال جنوده هناك، واتخاذ مدينته مقراً لادارة دفة الحرب، وأقنع السكان بالانضواء الى صفوف الحملة الكورنثية ومساعدة [تيموليون] في أنجاز مهمته.

بعيد إرفضاض اجتماع [ريجيوم] أدرك القرطاجنيون المتخلفون هناك ان تيموليون أفلت منهم، فثار ثائرهم. وسخطوا لانطلاء الحيلة عليهم[١٢]. قدر ما أفعم الريجيون سروراً. ولم يسعهم الا الابتسام والضحك عندما راح الفينيقيون يتشاكون الغش والخديعة. ثم انهم بعثوا برسول الى [تاورومينيوم] على ظهر أحدى سفنهم. وهناك أخذ يتوعد ويستفزّ بأسلوبه البربري الوقح، ثم التفت الى [اندروماخوس] وصار يتهدده بالويل والثبور إن لم يبادر الى

---

(١١) خيل القرطاجيين ان اقلاع السفن التسع الى كورنث انما هو نتيجة انفاق تمّ بين قادة الفريقين وان السفينة العاشرة انما ابقيت لنقل (تيموليون) الى (اكيتيس).

(١٢) اي «الحيلة الفينيقية» وقد جرت مثلاً: Fraus Punica.

اخراج الكورنثيين من مدينته فوراً. ثم مد يده مقلوبة الكفّ وقلبها الى فوق قائلاً انه سيعمل هكذا بمدينته، أي يقلب عاليها سافلها في غمضة عين وبكلّ سهولة، فقلّد [اندروماخوس] حركة يده ساخراً وأمره بالانصراف حالاً إلاّ اذا اراد ان تُطبقّ لعبته هذه البارعة على السفينة التي أقلّته.

وبلغ (ايكيتيس) نجاح تيموليون في خرق الحصار ونزوله البرّ، فأستولى عليه خوف عظيم من النتائج، وأرسل يطلب من القرطاجنيين تخصيص عدد كبير من سفنهم لخفارة الساحل والسهر عليه، ويئس السيراقوزيون من سلامة ارواحهم. فالقرطاجنيون سادة الميناء[١٣]، و[ايكيتيس] مطلق السلطان على المدينة. و[ديونيسيوس] متحصنّ في القلعة. بينما لايسيطر تيموليون في صقلية الاّ على هامش أو حافةٍ منها وهي بلدة [تاورومينيوم] الصغيرة. وقواته لا تذكر، وأمله ضعيف. كان تحت أمرته ألف جندي على اكثر تقدير. ولا يملك من القمح ما يقيته به، ولا من المال لدفع المرتبات حتى لهذا العدد الضئيل. ولم تسعفه المدن الأخرى بشيء من الإمداد، اذ لم تكن لها ثقة به، بعد الارهاب والإضطهاد الذي ذاقته على ايدي قادة الجيش سابقين، وخصوصاً غدر [كاليبوس Callipus] الاثيني، واللقيديموني [فاراكس Pharax]. فبعد أن أوضحا أن مجيئها يهدف الى استنقاذ حريتهما من يد الطغيان والقضاء على المستبدين، وضمنا العون من أهاليها؛ بلغ طغيانهما حداً عُدّ معه العهد المباد عصراً ذهبياً، وأعتبر الصقليون من مات في عهد الطغيان السالف أسعد حظاً ممن عاش ليرى تلك الحريّة المزهقة للأنفاس. ولهذا ما كانوا يتوقعون خيراً من القائد الكورنثي وتصوّروا انها المهزلة عينها يعاد تمثيلها ثانية، ورأوا فيه سيداً جديداً مليئاً بالادعاءات الخادعة، والعهود الكاذبة يعمل على اجتذابهم الآمال العِراض، والأماني البراقة. فأعلنوا شكهم في اقواله، ورفضوا العروض التي قدمت اليهم باسمه، إلاّ أهالي [دارانوم Adranum]. وهي مدينة صغيرة مكرّسة للربّ [ادرانوس][١٤] الذي يُجّل كثيراً في صقلية. فهؤلاء دبّ فيهم الخلاف وأنقسموا حزبين أحدهما اتصل [بهسيتيس] وحلفائه القرطاجنيين لإرسال نجدة له. والآخر فاوض [تيموليون]. وحكمت الصدف أن تصل النجدتان في وقت واحد، رغم الجهود العظيمة التي بذلها الجانبان لاستباق الوصول. زحف [ايكتيس] على رأس جيش قوامه خمسة آلاف بينما خرج [تيموليون] من [تاورومينيوم] وليس معه أكثر من ألفٍ ومائتين. وتاورومينيوم

---

(١٣) عبأ القرطاجيون مائة وخمسين سفينة حربٍ، وستين ألف رجل وثلاثمائة مركبة حربية [ديودوروس ١٦:٦٧].

(١٤) من الشعار الذي جاء في النصّ بعدئذ يجب أن يكون مارس وهيكله محروساً بمائة كلبٍ. والمدينة نفسها تقع في أسفل جبل (إتنا) على نهرٍ بعين الأسم يصدر من الجبل.

تبعد من ادرانوم بحوالي ٣٤٠ فُرلُنغ [٩٣ ميلاً حديثاً تقريباً] وكانت مسيرته في اليوم الأول تمتاز بالبطء، وبكثرة التعسكر في غضون مراحل سير قصيرة. إلاّ أنه غذّ السير في اليوم التالي وبعد أن أجتاز أرضاً شديدة الوعوثة بلغه وقت المساء أن [هسيتيس] وصل [ادرانوم] وهو يقوم بضرب خيامه امامه، واذ ذاك هرع ضباطه ورؤساء عسكره الى وقف تقدم حرس المقدمة ليرتاح الجيش ويكون في حالة نشاط واستجمام عند التحامه بالعدوّ. إلا أن تيموليون خرج اليهم مسرعاً وأوقفهم عند حدّهم وامرهم باستيناف التقدم واستخدام كل همّة ممكنة لمفاجأة العدوّ الذي سيكون في حالة فوضى واضطراب، لأنه باشر بضرب خيامه واعداد وجبة عشائه حال انتهاء مسيرته. ثم ان تيموليون حمل ترسه ووضع نفسه في مقدمة الرّتل، وبهذا قادهم الى نصرٍ أكيد. ان بسالته ارغمت كل جنوده على السير خلفه بالشجاعة والعزيمة نفسها حتى باتوا على بُعد لايزيد عن ثلاثين فُرلُنغ [١٦٠٠ يارد] وقطعوا هذه المسافة بسرعة خاطفة وحملوا على العدوّ الذي كانت الفوضى تسوده فتقهقر في أوّل التحامٍ. ثم وبعد مقاومة ضعيفة ومناوشة قصيرة أنقلب التقهقر الى هزيمة عامة خسر فيها العدوّ ما لايزيد عن ثلاثمائة قتيل وضعف العدد من الأسرى. ووقع معسكره وكل ما فيه من عفشٍ غنيمةً في يد تيموليون. وكان من أثر هذا الهجوم أنه فتحت [ادرانوم] ابوابها لاستقبال المنتصر والانضواء تحت رايته وحدثوه بمزيج من الإعجاب والذعّر كيف انفتحت ابواب معبدهم من تلقاء ذاتها ساعة بدء الهجوم. كما لوحظ أيضاً أنَّ الرمح الذي يمسكه تمثال الآله راح يهتز في يده، وشوهدت حبّات من العرق تنحدر على وجهه. والظاهر ان هذه الخوارق لم تكن قاصرة على التنبؤ بالنصر المنجزّ بل هي البشيرٌ بانتصارات [تيموليون] المقبلة ايضا. وكان النصر الأول هو السبب لظهورها.

وبادرت المدن المجاورة والحكّام بارسال موفدين اليه يلتمسون صداقته، ويعرضون عليه الخدمات. ومنهم [مامرقوس Mamercus](١٥) طاغية [كتانا Catana] وهو محارب ذو مراسٍ، وامير ثريّ، عرض عليه التحالف. على أن الأهم من كلّ هذا هو ان [ديونيسيوس] الذي ركبه اليأس وبلغ شفا الاستسلام، وبدافع من أحتقاره [لهسيتيس] على اثر هزيمته النكراء المخزية، وأعجابه بشجاعة [تيموليون]. حقق الاتصال بالقائد الكورنثي وببني قومه، وأعلن لهم رغبته في تسليم نفسه والنزول عن القلعة اليهم، فسرّ [تيموليون] وقبل فوراً بهذه العروض غير المتوقعة وبعث بالقائدين الكورنثيين [اقليدس، وتيليماخوس] على رأس فوج من جيشه قوامه اربعمائة مقاتل لاحتلال القلعة والاحتفاظ بها. وأمرهم بألاّ يدخلا بكلّ

---

(١٥) يثبته «ماركوس» [ديودورس: المرجع السالف].

جنودهما حالاً أو على مرأى من الناس لما في ذلك من محذور ومادامت حراسة العدوّ يقظة، بل أن يتسللّوا الى الداخل بفصائل قليلة العدد. وهكذا تم احتلال القلعة وقصر [ديونيسيوس] ووضعوا ايديهم على كل الارزاق والمؤون التي كان قد استحضرها وأدخرها لتمكينه من مواصلة الحرب. كما وجدوا عدداً لا بأس به من الخيل ومختلف الآت الحرب والحصار ومقادير لا تحصى من الأسلحة والأسنّة تكفي لتسليح جيش قوامه سبعون ألفاً، في مستودع أعدّ لأختزانها منذ عصر سحيق. كذلك وجدوا ألفي جندي من اتباع ديونيسيوس فضمّوا الى قوات [تيموليون]. أما الطاغية فقد نقل كنوزه ونفائسه الى سفينة ابحرت به سراً مع قليل من اصحابه دون ان يفطن اليها [هيسيتيس]، حتى بلغت به معسكر [تيموليون] فدخل بثياب عادية مما يرتديه عامة الناس لأول مرة في حياته(١٦). وبعد ذلك بقليل أرسل الى كورنث في سفينة واحدة، ومعه مبلغ يسير من المال.

ولد [ديونيسيوس] وربُي في افخم بلاطٍ ملكي. وكان أشدّ الحكام استبداداً وطغياناً. قبض على ناصية السلطان وظلّ يمارسه عشر سنين بعد وفاة ابيه وقضى بعد حملة [ديون] اثنتي عشرة سنة أخرى في حروب طاحنة، وفتن دائمة وتقلبت به حظوظه فيها ولبست ازياء شتىّ. وجوزي في اثنائها بنكبات ومصائب تزيد كثيراً على ما اقترفه من آثام وزرعه من شرور خلال فترة ملكه الأولى. وعاش ليشهد بعينه موت ابنائه وهم في عزّ رجولتهم. وهتك اعراض بنا ته وهن في زهرة عُذرتهن ورأى الانتهاك الشنيع لستر اخته التي هي امرأته(١٧)، فبعد أن تعرضت هذه لشتى الإهانات الوقحة من الجنود قتلت مع أولادها والقيت جثتها في البحر.

بنزول [ديونيسيوس] برّ كورنث تقاطر الاغريق من كل انحاء البلاد لمشاهدة ذلك الطاغية الرهيب الأسبق يدفعهم حُبْ الاستطلاع، ولتوجيه بعض القول له. أمّا الفريق الذي دفعه خالص الكره والإحتقار للتشفي بمصيبته فقد جاؤوا ليطاؤا انقاض حظّه المحطم الزائل على حَدّ شائع القول، الاّ ان الفريق الذي كان إهتمامه وعطفه منصرفاً الى التأمل في تقلبات حياته والزعازع التي عصفت بها، فلم يسعهم إلاّ ان يجدوا فيها دليلاً على قوة وجبروت العالم الآلهي غير المنظور على الضعف البشري والأشياء المنظورة.

لم تضع يد الطبيعة أو يد الفن(١٨) في ذلك الحين، أمراً يمكن مضاهاته بما عملته الاقدار

---

(١٦) كان الوحيد الذي ولد وهو طاغية. في حين أن جميع الطغاة الآخرين ولدوا من أصولٍ خاملة ليرتقوا ان هذا المنصب.

(١٧) سوفراسينه بنت ابيه من زوجه ارسطوماخه.

(١٨) باضافة عبارة «يد الفن يريد پلوتارخ القول ان الشعراء التراجيديين الذين يعالجون على الأغلب موضوع سوء طوالع الملوك والأمراء لم يصوروا مثيلاً لمصيبة فرد كهذه المصيبة.

وابدعه الحظّ في معجزة [ديونيسيوس]. فهذا الذي كان قبل فترة ليست طويلة حاكم صقلية الأعلى تراه الآن يتسكع في سوق السّمك، إو يجلس في دكّان عطّار، يحتسي شراب الخمارات الرخيص المشعشع بالماء، أو يخاصم امرأة من الإوشاب في قارعة الطريق، أو يتظاهر بارشاد مغنيات المسرح، ويسترسل معهن في جدالٍ عنيف حول هارمونية المقطوعات الغنائية، وايقاعاتها وسلالمها الموسيقية، مما يؤدينه هناك. وكان سلوكه هذا موضع انتقاد مختلف الناس. وظنّ كثيرون ان تصرفاته هذه متأتية من ضعف طبعه، ومزاحه الشكس، أمّا الناس الأبعد منهم نظراً وتفكيراً فقد عللوا ذلك بأنه يؤدي به دوراً سياسياً، القصد منه تعويد الكورنثيين على الإستهانة بشخصه وصرف النظر عن خطورته فلا يعودون يشعرون بايّ شكّ في نواياه ولا يحاذرون من ردود فعل حظه العاثر فيه، أو تبينوا رغبة منه لتغيير حاله. واجتناباً لما يأتي به هذا الشكّ، تعمد الظهور بمظهر يخالف طبعه الحقيقي، بتقمص مظهر الرقاعة والحمق في حياته الخاصّة واوقات فراغه.

مع هذا فقد سجلّ التاريخ له أقوالاً وردوداً على أسئلة، يبدو منها رجلاً كيفّ نفسه لوضعه الجديد تكييفاً خسيساً وضيعاً. ويتجلى بعض هذا من اعتراف ادلى به عند وصوله الى [ليوكاديا Leucadia] وهي من مستعمرات كورنث كسيراقوز، اذ قال لسكانها: انه وجد نفسه شبيهاً بالأولاد المذنبين الذين لايتحرجون في الكلام امام إخوتهم، إلاّ ان الخجل يعروهم إذ يواجهوا آباءهم، وأنه ليسرّه العيش بينهم في جزيرتهم هذه، بينما يشعر بنوع من التهيب والرهبة، فيه كره وصدود لكورنث التي هي أمٌ لكليهما، ويظهر الأمر أكثر وضوحاً في اجابة له على سؤال اجنبيّ لقيه في كورنث، هزأ بأسلوب فظّ مهين وتعرض بالقدح والزراية للاحاديث التي اعتاد [ديونيسيوس] تبادلها مع الفلاسفة والحكماء، (كانت صحبتهم مصدراً من مصادر سروره) عندما كان ملكاً، وتساءل بالنتيجة ما الذي افاده كلّ هذه الأحاديث الفلسفية الحكيمة من أفلاطون فأجابه: «أو تظنني لم أنتفع بفلسفته، وها أنت تراني اتحمل عثار حظّي على خير وجه؟». وعندما رغب منه [ارسطوگزينس Aristoxenus] الموسيقي وعدد آخر أن يفسر لهم كيف اضرت به تعاليم افلاطون، واين هو موطن استيائه منها، أجابهم:

- من بين الشرور العديدة التي ترافق الحكم الاستبدادي المطلق، يبرز في مقدمتها انه لايعود واحد من الاصدقاء المعتمدين والموثوق بهم، يجرأ على الكلام بحريّة، أو قول الحقيقة الصريحة. وبهذا حُرمتُ افضال تعاليم افلاطون.

وفي مناسبة أخرى كان من بين أصحاب الفكهين، رجل يريد دوماً أن يظهر بمظهر الفطنة

ودقّة النكته، فعلى سبيل التندر [بديونيسيوس] قام بنفض طيّات ثيابه عند دخوله الحجرة التي كان يوجد فيها [ديونيسيوس] إشارة الى أنه لايخفى بينها سلاحاً - كأن ديونيسيوس ما زال طاغيةً، فعلّق هذا رداً على عمله بقوله: انه يفضّل أن يراه وهو يقوم بعمله هذا عند تركه الغرفة اثباتاً بأنه لم يخف حاجةً ويخرج بها...»

وعندما بدأ [فيليب المقدوني] يتحدث في مجلس شرابٍ على سبيل المزاح معه عن القصائد والتمثيليات التراجيدية التي خلفها ابوه [ديونيسيوس الأكبر] وتظاهر بالعجب من توفر الوقت له لتأليف هذه القطع الرائعة الفريدة(١٩) رغم اشغاله الكثيرة اجابه ديونيسيوس اجابة مفحمةً.

- انه الفها في ساعات الفراغ هذه التي نبددها أنا وأنت وأولئك الذين يسمّون بالمحظوظين ونحن عاكفون على الرّاح والأقداح.

لم يتيسرّ لأفلاطون الفيلسوف لقاء [ديونيسيوس] في كورنث فقد طواه الردى قبل قدومه. إلاّ أن [ديوجينس] [السينوبي Sinope] سلّم عليه عند أول لقاء معه في الشارع موجّها اليه هذه العبارة الغامضة:

- هيه يا ديونيسيوس! ما أقل ما تستأهل من عيشك الحالي!

فوقف [ديونيسيوس] وأجاب:

- شكراً لك على التعزية يا ديوجينس.

فقال ديوجينس:

- على تعزيتك؟ ألست تظنّ اني أقصد خلاف ذلك. واني لناقم لأنّ عبداً مثلك لو نال ما يستحقّ فعلاً لوجب ان تترك وحيداً تهرم وتموت وانت طاغية كما كان شأن ابيك من قبلك. بينمت تستمع الآن برخاء عيش بسطاء الناس، وتمرح وتعبث في مجتمعنا؟

ولهذا لما أتأمل حكايات [فيلستوس Philistus] المحزنة حول بنات [ليتينس Lep-

(١٩) عن ديودورس الصقلي [١٤:١٠٩، ١٥:٦] كان ديونيسيوس الكبير يعتزّ كثيراً بما ينظمه من الشعر وان كان يدرك انه من اسوء الشعر. وحاول الشاعر المفلق [فيلوكزينس] مصارحته بالحقيقة. متحاشياً خداعه بفكرة طيبة يظنها عن قابلياته. لكنه ارسله للعمل في المناجم بسبب ذلك. ثم أعادة في اليوم التالي الى مكانته الأولى التي كان يحتلها ثم راح يردد على مسامعه قصائد بذل مجهوداً كبيراً في نظمها عله يسمع منه اطراءً. إلاّ ان الشاعر بدلاً من اطرائها نظر الى الحرس وخاطبهما وهو يبتسم «اعيدوني الى المناج الحجرية» ومع ذلك كله فقد شارك ديونيسيوس في مباراة الشعر اثناء الالعاب الاولمپية فسخر السامعون وصفروا له وحطموّا السرادق الفخم الذي نصبه تحطيماً تاماً. لكنه نجح في الفوز بجائزة في آثينا نتيجة تحيز واضح من المحكمين. وقد عبّ كثيراً من الخمر بهذه المناسبة، وفجر وفسق حتى ركتبه آلام عظيمة فاعطاه الأطباء منوماً لم يفق منه قطّ.

tines] [٢٠] حين تجده يطلق الزفرة الاليمة عليهن لسقوطهن من علياء السلطان ونعمائه في هاوية البؤس وحياة الذُل، لا أرى زفرته تلك أكثر من بكاء امرأةٍ على فقد صندوق ادهانها أو ثيابها الارجوانية، أو حلّيها الذهبيّة الزهيدة. وفي اعتقادي ان حكاياتٍ كهذه قد لا تُعدّ متقحمةً على أهدافي من كتابة السيَّر، أو تعتبر غير مفيدة بحدّ ذاتها في نظر القراء غير المستعجلين كثيراً، أو من تشغلهم عنها أمور أخرى.

وعلى كلٍ، فاذا بدت نكبة [ديونيسيوس] غريبة أو استثنائية، فلا شكّ في أن حظّ تيموليون أغرب ودهشتنا منه لن تكون بأقل من استغرابنا من الأول. فقد تمكن في ظرف خمسين يوماً لنزوله صقلية من الاستيلاء على قلعة [سيراقوز] وارسال [ديونيسيوس] الى منفاه في البلوبونيسوس، هذه البداية المحمودة رفعت من معنويات الكورنثيين في بلادهم حتى أمروا له بنجدة قوامها الفان من الرجالة ومائتان من الخيالة. فنزلت في [ثوري Thurii] ومرامها العبور منها الى صقلية. إلا ان البحر كان يعجّ بسُفن القرطاجنيين مما جعل عبورها متعذراً فأضطرت الى البقاء فيها متربصة بفرصةٍ. إلاّ انها لم تضيع وقتها سدى فقد قامت بعمل نبيل عندما خرج الثوريون لقتال اعدائهم [البروتيين] ودفعوا مدينتهم الى يد الحملة الكورنثية للدفاع عنها والسهر على حراستها ففعلت كأنها مدينتها، ثم سلمتّها لأهلها بكلّ امانة.

في اثناء ذلك كان [ايكيتيس] مثابراً على حصار قلعة [سيراقوز] ومنع كل أمداد من الوصول اليها بحراً لإنجاد الكورنثيين الذين يدافعون عنها. وفي الوقت نفسه استأجر اثنين من الأجانب المجهولي الهوية وارسلهما الى [ادرانوم] لاغتيال [تيموليون]، الذي لم يكن قطّ يحيط شخصه باي حرسٍ. وكان في تلك المدينة آمناً مطمئنا على سلامته يختلط بالسكان غير محاذرٍ، والأيام ايام اعيادٍ لألهتهم. وتشاء الصدف أن يعلم الرجلان أن [تيموليون] سيقوم بتقديم القربان فأسرعا الى المعبد وقد أخفى كل منهما خنجراً تحت معطفه، وشقا طريقهما خلال الجمع الحاشد مقتربين شيئاً فشيئاً من المذبح. وفيما كان أحدهما يتطلع الى الآخر منتظراً اشارة الوثوب على الضحية، هجم رجل ثالث على واحد منهما وضربه بالسيف على رأسه فخرّ صريعاً في الحال. وبرح القاتل وزميل القتيل مكانيهما حالاً. الأول شق طريقه شاهراً سيفه الدامي وهرب لايلوى حتى لاذ بقمة صخرية عالية تشرف على هاوية. أما الثاني

(٢٠) طاغيه «ابوللونيا» وهي مدينة صقليّة قرب رأس پاكينوس. كتب فيلطس تاريخ مصر باثني عشر مجلداً، وتاريخ صقلية بأحد عشر وتاريخ الطاغية ديونيسيوس بخمسة. ويفضّل شيشرون (الخطابة ٢:٢) ثالثها على الأثنين الأولين.

فقد تشبث باركان المذبح وراح يتوسل [بتيموليون] ليصفح عنه ويمنحه الحياة، وسيفضي اليه بتفاصيل المؤآمرة، فأمّنه وغفر له، فاعترف بالمهمة التي كلّف بها هو وزميله، وبينما كانت هذه الحقيقة تنجلي قبض على القاتل وانتزع من ملاذه الصخري واقتيد وهو يصرخ ويحتج قائلاً انهم يرتكبون ظلماً في القبض عليه، لأنه أخذ بثأرٍ حقٍ عن دم أبيه الذي كان القتيل قد فتك به في مدينة [ليونتيتي Leontini]. وأيد قوله هذا عدد كبير من الحاضرين، الذين لم يسعهم الا يبدوا عجبهم من افاعيل الأقدار الغريبة والطرائق المدهشة التي تسلكها والسهولة التي تدفع حدثاً من الأحداث لتحرك به حدثاً آخر يختلف اختلافاً بيّنا عن باعثه وان كان منبثقاً منه فتراها توحّد ما بين الحدثين المفترقين، وتجمع الدقائق والتفاصيل المتباعدة وتصل الأعمال المنفصلة واحدها بالآخر تحقيقاً لمآربها. فاذا بالاشياء المتنافرة ظاهراً، والتي لايربطها رابط، تغدو في كفّ القدر نهاية وبداية بعضها لبعض»على حَدّ ما يقال.

وتأكد للكورنثيين أن عمل الرجل لا جناح عليه فضلاً عن وقوعه في أحسن ظرفٍ فأكرموا صاحبه ووصلوه بما يعادل عشرة جنيهات بعملتهم لقد أعار خدمات حقده العادل للروح الحارسة التي كانت تحمي [تيموليون] وظلّ مدةً طويلة لايشفي غلة حقده الذي يضطغنه وأجّل الأخذ بثأره بتدخل الأقدار، حتى يُنقذ به [تيموليون].

إن هذه النجاة التي رسمها حسن الحظّ تعدت آثارها ونتائجها الحاضر الى المستقبل. فقد زرعت أعلى الأماني والآمال في النفوس، ورفعت درجة الاعتماد على [تيموليون] ودفعت الناس الى احترامه وإجلاله قدر إجلالهم لمقدّساتهم. وأعتبروه رسولاً بعثت به السماء لتحرير صقلية والانتصاف لها من طغاتها. ولمّا وجد [هيسيتيس] فشل موآمرته، وانتقاض كثيرين من اتباعه عليه وانحيازهم الى [تيموليون]، بدأ يُنحي على نفسه باللائمة لاقتصاده الأحمق في قواته الكبيرة. فقد كان تحّت تصرفه جحافل القرطاجنيين كلها مستعدة للعمل رهن اشارته وهو لايستخدم منها إلاّ اقساطاً اقساطاً ووحدات صغيرة بحذرٍ وتوجّس حتى لكأنه يختلسها اختلاساً، أو يخجل من زجّها في القتال. فقرر أن يطرح هذا التردد وبعث يستقدم [ماغو Mago] أمير بحرهم وكل اسطوله، فأقلع هذا القائد بعمارة بحرية جبارة لايقل عدد بوارجها عن مائة وخمسين، وأستولى على ميناء سيراقوز، وأنزل ستين ألفاً من الرجالة عسكروا جميعاً داخل المدينة. فصدق ما قيل منذ أقدم العصور وما تناقلته الناس حتى يومها، بأن صقلية ستقع غنيمة في يد البرابرة. وكان هذا الإنزال ختام النبوءة فالقرطاجنيون قبل هذا لم يفلحوا في الاستيلاء عليها طوال حروبهم وصداماتهم الدموية الماضية مع أهاليها وها هوذا [هيسيتيس] يمهد لهم السبيل ويضعُ كل شيء في ايديهم، ويجعل المدينة معسكراً للبرابرة.

وبهذا وجد جنود الكورنثيين في القلعة الخطر العظيم يحدق بهم وأشتدّ بهم الضيق. وأنقلب شحّ قواتهم الى حاجةٍ ماسةٍ لأن الموانيء محروسة حراسة دقيقة، وقد أقفلها العدوّ ببوارجه وهو دائم التعرض لهم بالمناوشات وقتال الأسوار، لايترك لهم سبيلاً للراحة، أو ساعة واحدة لنزع سلاحهم. ويضطرهم الى توزيع قواتهم لصدّ مختلف انواع الهجمات من جميع الجهات.

وأحتال [تيموليون] على هذه الورطة بارسال كميات من القمح بقوارب صيد وزوارق صغيرةمن [كتانا]، وسهل على هذه ان تتسلل عبر السفن القرطاجنية وقت هبوب العاصفة فتمرق مُروقاً عندما يُرغم هياجُ البحر سفن الحصار على الابتعاد أحداها عن الأخرى، ولما اتضح [لهيسيتيس وماغو] تدبير العدو في اغاثة قواه المحصورة، قررا مهاجمة [كتانا] قاعدة التموين، وخرجا من [سيراقوز] يقودان خيرة وحدات الجيش، ورأى قائد القلعة الكورنثي [نيون Neon] أن بقية الجيش في [سيراقوز] تتراخى في حصار القلعة وتهمل رصد مزاغلها ومداخلها أعتداداًمنها بنفسها واطمئناناً الى ضعف المحصورين، فلم يلبث أن فاجأها بهجوم كاسح منتهزاً فرصة تفرق وحداتها فقتل منها وهزم البقية ووفق في الاستيلاء على منطقة [اكرادينا Acradina] وهي منطقة من سيراقوز عرفت بمناعتها وقوة تحصينها. والحقيقة هي أن سيراقوز تألفت من اجتماع واتصال عدة مدن كانت متقاربة(٢١). وقد غنم [نيون] منها مقادير كبيرة من المال والقمح، ولم يجلُ عنها الى القلعة بل عمد الى تقوية تحصيناتها، ووصلها بالقلعة بسور محكم رغير ذلك من التحكيمات. وأخذ على عاتقه الدفاع عن الاثنتين.

عندما بلغ [ماغر رايسكيتس] مشارف كتانا، ادركهما فارس مُرسلٌ من سيراقوز لإبلاغهما نبأ سقوط [أكرادينا]. فقفلا عائدين بقواتهما على جناح السرعة، والفوضى والاضطراب يسود صفوفها، وهكذا عجزا عن أخذ المدينة التي خرجا اليها، وخسرا ما كان تحت سيطرتهما.

هذه الانتصارات التي لايمكن نكران عنصر الشجاعة والمهارة فيها، اسهم الحظ ومحاسن الصدف بدورٍ رئيسٍ فيها، إلاّ أنه يصعب جداً ان يعزى الحادث التالي الى شيء غير حسن الحظّ ومحاباة الأقدار: قلنا أن الاحتياطي من جنود الكورنثيين ظلوا معسكرين في [ثوري]

---

(٢١) هناك رابع منها وهي: الجزيرة أو القلعة التي هي بين الميناثين. الاخرادنيا وهي على مسافة قصيرة من الأولى. وتيخه وقد أطلق عليها هذا الاسم من هيكل الهة الخط ونيابيوليس أو المدينة الجديدة [انظر ليفي ٢٥:٢٤ وقارن بديودورس ٧:١٣) والى هذه المدن يضيف بعض الكتاب ومنهم پلوتارخ مدينة خامسة يسمونها إيپيولي.

لايستطيعون الابحار الى صقلية خوفاً من بوارج القرطاجنيين التي كانت لهم بالمرصاد بقيادة [هانو Hanno]، ومن غوائل البحر الذي اجتاحه النوء واهاجته العواصف أياماً عدة فبات من الخطر ركوبه. ولهذا قرروا الوصول الى مدينة [ريجيوم] براً فأخترقوا بلاد [البروتيين] معتمدين على قوتهم وحذرهم وبلغوا هدفهم والبحر مايزال هائجاً صخاباً. وفي تلك الاثناء توصّل [هانو] الى فكرةٍ خالها مجديةً. لم يتوقع أن يغامر الكورنثيون في الابحار، ورأى من العبث الانتظار أكثر مما أنتظر، وكان يتوهم في نفسه أبرع ستراتيجي، وأمهر خبير في التمويه على العدو ونصب الفخاخ له. بناء على هذا أمر بحارته بضفر أكاليل الزهر على رؤوسهم، وتزيين السفن بالتروس الاغريقية والقرطاجنية، وأقلع متجهاً الى [سيراقوز] بمظاهر النصر هذه مستخدماً كل المجاذيف عند مروره تحت القلعة وبكثير من الهتاف والضجيج قاصداً بث الهلع في قلوب المحصورين والإيحاء لهم بأنه لم يجيء الاّ بعد ان قضى على النجدة الكورنثية وهي في عرض البحر متجهة نحو صقلية. وفيما هو يواصل لعبته هذه امام سيراقوز، كانت النجدة الكورنثية في [ريجيوم]، وامامها الساحل خالٍ من سفن العدوّ، والريح ساكنة والبحر هادىء كأنما حدث بمعجزة. فأسرعوا يركبون كل ما وقعوا عليه من زوارق صيد ومراكب خفيفة، وأقلعوا ليبلغوا ساحل صقلية بسلام وهدوء لا مثيل لهما. حتى انهم انزلوا خيولهم وأخذوا يقودونها من اعنتها سباحةً وزوارقهم متجهة الى الساحل.

نزلت الحملة كلها واستقبلها تيموليون، وبفضلها تمكن من أحتلال [مسينا Messena] فوراً، ومنها تقدم بنظام بديع نحو [سيراقوز] واضعاً اعظم ثقته في نجاحه الأخير، لا بما لديه من قوات. اذ لم يكن مجموع جيشه الكليّ يزيد عن أربعة آلاف. ومع هذا فقد انتاب [ماغو] القلق والاضطراب عندما ابنيء بمقدم [تيموليون]. وزاد وضعه سوءً وتعاظم خوفه بالحادثة التالية:

تحيط بسيراقوز مستنقعات مترامية[٢٢]، تستمدّ ماءها العذب الكثير من الينابيع فضلاً عن البحيرات والأنهار التي تصّب في البحر ويتكاثر في هذه المياه السمك الجريّ (الحنكليس) حتى لتعجّ بها، ويتقاطر الناس على صيدها. فكان الجنود المرتزقة الذين يستخدمهم الفريقان يقضون أوقات فراغهم في ممارسة هذه الرياضة معاً، فيجتمعون في كل فترة هدنة او وقف قتال ويتبادلون احاديث الودّ فيما بينهم، اذ كانوا كلهم من الأغريق ليس بينهم عداء شخصيّ (على شجاعتهم وبلائهم في الحرب). وفيما كانوا يوماً يصطادون أخذوا باسباب الحديث

(٢٢) هناك مستنع يدعي ليسمليا [ثوكيديدس ٧:٥٣] وآخر يعرف بـ(سيراكو). ومن هذا الأخير أخذت المدينة اسمها. وهذان المستنقعان يجعلان هواء المدينة فاسداً وغير صحي بالمرّة.

فأعلن هذا عن أعجابه بالبحر القريب، ولهج آخر بالثناء على ما يجده المرء من راحة ورفاهة في بنايات سيراقوز ومحلاتها العامّة. فتدخل أحد الكورنثيين قائلاً:

- وانتم الذين جئتم من بلاد الأغريق كافة[٢٣]. الا تشفقون على هذه المدينة الرائعة الجليلة، لتدعوها فريسة للبرابرة، باذلين الجهود، لتثبيت قدم القرطاجنيين في بلاد قريبة جداً من بلادنا. وهم شرّ الخلق وأشدّهم وحشية، بينما كان جديراً بكم أن تجعلوا بين بلادنا وهؤلاء القرطاجنيين، سدّاً من الأقوام، أمنع وأقوى من هؤلاء الصقليين. أإلى هذا الحدّ بلغت بكم قلة الفطنة لتعتقدوا بأن القرطاجنيين جاؤوا من «اعمدة هرقل» والمحيط الاطلنطي متجشمين كلّ هذه المخاطر لتثبيت مُلك [هيسيتيس] فحسب؟ هذا الرجل الذي لو اقام وزناً للاعتبارات واتصف بما يليق بالقائد، لما تنكرّ لأرومته وأسلافه وجاء باعداد بلاده في محلهم. في حين كان يستطيع التمتع بالمكانة والقيادة المناسبة برضىً من تيموليون وبقية الكورنثيين.».

راح مرتزقة [ايكيتس] من الاغريق يرددون هذه الأقوال في معسكرهم مما زوّد [ماغو] بأسبابٍ للشكّ في وجود مؤامرة تحاك ضدّه، فتمسك بها وتعللّ. واتخذها حجة للرحيل الذي كان قد اعتزمه منذ أمدٍ. ولم يعر اذنا صاغية لتوسلات [هيسيتيس] والحاحه عليه بالبقاء لإظهار مدى تفوقهما على العدوّ. على أن [ماغو] كان يدرك انهما أدنى من تيموليون بكثير لأن البسالة والحظّ الى جانبه ولا قيمة لتفوقهما العددي ازاء هذين العاملين. فأسرع يركب سفنه ويقلع بها الى افريقيا وترك صقلية تفلت من يده بصورة لا تشرفه. ولدوافع موهومة صورتها مخيلته يعيا العقل السويّ عن تبرير اتخاذها سبباً وجيهاً للرحيل.

وبعد إقلاعه بيوم واحد تقدم [تيموليون] نحو المدينة بنسق المعركة. ولما سمع هو واركان حربه بالفرار الفجائي وشاهدوا ارصفة الميناء خالية تماماً لم يمسكوا أنفسهم عن الضحك والتندر والتنديد بجبن [ماغو] وعلى سبيل السخرية والمزاح اذاعوا في المدينة بياناً يعلن عن استعدادهم لدفع مكافأة لكلّ من يستطيع ان يأتيهم بنبأ مغادرة الاسطول القرطاجنيّ ديارهم! على أن [هيسيتيس] قرر خوض المعركة وحيداً، وعدم ارخاء قبضته عن المدينة بل الصمود في المناطق التي يسيطر عليها والثبات في المواضع الجيدة التحصين الصعبة الاقتحام. وقسم تيموليون قواته الى ثلاثة جحافل. وحمل بنفسه على الجبهة التي يجرى فيها نهر [اناپاس Anapas] وهي جبهة منيعة صعبة التقحم وأمر الجحفل الذي يقوده الضابط الكورنثي [ايسياس Isias] بالهجوم من موقع [اكرادينا]في حين يحاول [دينارخوس Dinarchus]

(٢٣) المرتزقة الاغريق في جيش هذا الأخير.

و[ديماريتوس] اللذان جاءا بالنجدات من كورنث، الاستيلاء على منطقة [اپيپولي Epipol-ae] بالجحفل الثالث وحمل الجيش كله حملة شديدة في وقت واحد من جميع الجبهات، فانهارت مقاومة [هيسيتيس] وفرّ جنوده. وعلينا هنا أن نعزو أخذ المدينة عنوة وسقوطها السريع بعد اندحار العدو - إلى بسالة المهاجمين وحنكة قائدهم دون جدال. ولكن الأمر الذي لايجعلنا ننكر دور حظّ تيموليون هو أن الكورنثيين لم يخسروا رجلاً واحداً أقتيلاً كان أم جريحاً حتى لكأن ثم مباراة وتحدياً بين حظه وعمل حظه اعني وجود نوع من المنافسة في مجالات أعماله نفسها بحيث جعل الحظ هدفه أن يتفوق ويطمس على كل ما يُقدم عليه من أعمالٍ. وينبغي لمن يسمع الثناء عليه لمآثره الجليلة أن يعجب بمحاباة الحظّ لها أكثر مما يعجب بالجهد الشخصي فيها. وتعدت انباء نجاحه صقلية وملأت ايطاليا دهشةً. حتى بلاد الاغريق فقد أهتزت من اقصاها الى ادناها حبوراً وفخراً بجلائل أعماله بعد بضعة ايام فقط من وقوعها، حتى ان الكورنثيين الذين لم يعرفوا بنزول نجداتهم في الجزيرة، واذ بانباء نزولها وانتصارها تردهم في آن واحدٍ. بهذا السبيل المفلح كانت عجلة الأمور تدرج، وبهذه السرعة والنشاط كان الحظّ يطلق سناد الكفاءة الطبيعية، كمفخرة جديدة من مخافرها.

بعد أن سيطر [تيموليون] على القلعة، تجنب الخطأ الذي وقع فيه [ديون] قبله. فلم يضَن على البلد بشيء في سبيل فخامة ابنيتها وجمالها. ولكي يجتنب مظنّة السوء التي أدت أولاً الى بغض [ديون] وسببت أخيراً في سقوطه، أمر أن يدور المنادي مُعلناً لأهالي سيراقوز بأن كلّ من يرغب في المساهمة بالعمل، فعليه أن يأتي ومعه فأس ومجرفة وغيرها من الأدوات ليعاون في هدم التحصينات التي اقامها الطغاة. فتقدموا للعمل جميعاً كرجل واحدٍ معتبرين الإعلان واليوم الذي أذيع فيه، أقوى دعامة لحرياتهم، وانقضوا على القلعة فهدموها، وقوضوا القصور والأنصاب التذكارية وكلّ ما يمت الى ذكرى الطغاة السالفين، ونقضوها حجراً على حجر، وبعد أن سوّى ارضها بنى فوقها دوراً للقضاء لتوزيع العدل بين الأهالي وبنى أيضاً دوائر للحكومة الجمهورية التي أقامها على انقاض الحكم المستبد.

وكانت المدينة عندما دخلها خالية من السكان تقريباً. بعضهم قضى نحبه بسبب الحروب الأهلية والفتن والثورات، وآخرون هربوا من الطغيان. وبلغت قلة السكان فيها حَدّاً أن ساحة السوق العامة في سيراقوز وكانت تمتاز بسعتها تكاثر فيها العشب ونما وغطّاها فأصبحت مرعى للخيل يتطرّح سائسوها على العُشب بينما هي ترعى الكلا. كذلك هجرت مدن أخرى تماماً باستثناء القليل. فصارت مرتعاً ومأوى للخنازير البرّية والإيائل، فكان المتعطلون يرتادونها للصيد فيجدون فرائسهم في مشارفها وبالقرب من أسوارها. وتعذر أقناع من لاذ

بالريف أو التجأ الى القلاع، بترك مستقره أو قبول دعوة للعودة الى المدينة، فقد بلغت كراهتهم من مجرد اسم المجامع، والاجتماعات وانواع الحكومات والخطب العامة حداً عظيماً لأنها هي التي انجبت معظم المستبدين الذين تعاقبوا على حكمهم واضطهادهم. وفكر تيموليون مع السيراقوزيين في المعضلة، وتأمل الخراب الشامل، وضعف الأمل في محاولة الاقناع التي ارتأها. ثم فضلّ الكتابة الى بلاده، بطلب ارسال جالية أغريقية لتأهيل سيراقوز. والاّ بقيت اراضيها المتاخمة بوراً. كذلك ذكر انه يتوقع حرباً أعظم من سابقتها مصدرها افريقيا لأن الانباء التي وصلته تشير الى ان [ماغو] بخع نفسه وأن القرطاجنيين الساخطين على تصرفه في الحملة الأخيرة، أمروا أن تُسمّر جثته على صليب، وهم الآن عاكفون على تهيئة قوات جبارة للهجوم على صقلية في الصيف القادم.

وصلت رسائل تيموليون الى كورنث. وفي الوقت نفسه عرض وفد سيراقوز رجاء اهلها اليها بأن يولوا مدينتهم البائسة رعايتهم وأن يصيروا مرة أخرى مؤسسين لها. ولم يغرّ الكورنثيين الطمع بفائدة من هذه العروض، ولا كانوا يريدون الاستيلاء على المدينة واستغلالها. لذلك قصدوا بالاول دورة الالعاب التي كان الاغريق يضعونها في منزلة القداسة ثم الى مختلف الاجتماعات الدينية المعقودة وأطلقوا المنادين يعلنون قائلين: إن الكورنثيين الذين قضوا الى الاستبداد في سيراقوز وطردوا الطاغية، يَدُعون بهذا كلّ المبعدين والمنفيين السيراقوزيين وأيا من الصقليين الى العودة لسكنى المدينة، مع تمتعهم الكامل بالحرية بموجب قوانينهم الخاصّة. وان الأراضي ستوزع عليهم بانصبة عادلة متساوية. ثم انهم ارسلوا مبعوثين الى آسيا وعدة جزر يسكنها كثير من اللاجئين المتفرقين، وطلبوا منهم السفر الى كورنث، وهناك سيزودون بسفن وربابنة وقافلة حراسة لتأخذهم الى سيراقوز على نفقة الكورنثيين. وكان من أثر هذه العُروض الكريمة التي انتشرت انباؤها وشاعت، أن أرتفعت مكانة الكورنثيين ونالوا الكثير من الثناء والمديح تعويضاً لسخائهم وشهامتهم وانقاذهم تلك البلاد من جور الظالمين، وتخليصها من يد البرابرة، واعادتها بالاخير الى أصحابها أهل الحق من السكّان. فأجتمع هؤلاء في كورنث، ولما وجدوا عددهم قليلاً طلبوا من الكورنثيين أن يزوّدوهم بعدد آخر منهم ومن سائر بلاد الأغريق لينضموا اليهم كنازحين مشاركين. فأرتفع عددهم الى عشرة آلاف وابحر الجميع الى [سيراقوز]، وفي غضون هذه الفترة تقاطر على تيموليون من ايطاليا وصقلية حشود عظيمة بلغ رجالها على قول (اثانيس Athanis) ستين ألفاً. فقسم بينهم الأراضي كلها. وباع المنازل بألف تالنت. وبهذه الطريقة مكّن السيراقوزيين الأصليين من استعادة بيوتهم، كما توسّل بها الى جمع المال للمصلحة العامة، واملاء الخزانة التي خلت تماماً

وعجزت عن سدّ اي نفقات، لاسيما مصاريف الحرب، حتى أنهم لجاؤا الى عرض تماثيلهم للبيع. واتبعت في هذا طريقة نظامية. وكان يرسو قرار المزايدة على اي منها بأغلبية الاصوات. كأنما تجري مرافعة لعدد كبير من المجرمين. وقيل أن تمثال المستبد القديم [جيلو Gelo] قد استثني اثناء النطق باللعان على التماثيل الأخرى تكريماً له وأعجاباً به، وبسبب الانتصار(٢٤) الذي حازه على القوات القرطاجنية في نهر [هيميرا Himera].

وهكذا تمّ بعث الحياة السعيدة في [سيراقوز] وأكتظت بالسكان لنزوح الناس اليها من كل الأمصار. ورغب [تيموليون] بعدئذ في تحرير مدن أخرى من عبودية مماثلة، والقضاء قضاءً مبرماً على الحكم المستبد وازالته من صقلية. فزحف على البلاد التي كانت ترزح تحته، وأرغم [هيسيتيس] أولاً على التخليّ عن مصالح القرطاجنيين وهدم القلاع التي كان يسيطر عليها واعتزل الحكم ليعيش بين [الليونتينين] فرداً عادياً. وحذا حذوه [ليتينس] طاغية [ابوللونيا Apollinia] وكثير من المدن الصغيرة الأخرى، بعد ابدائه بعض المقاومة، ورؤيته الخطر الذي يكمن في هزيمة عسكرية، فاستسلم. فأبقى [تيموليون] عليه وارسله الى كورنث، معتبراً قيام المدينة الأم بعرض هؤلاء الطغاة الصقليين على الأغريق في المنفى وبحالة بائسة، من قبيل الأعمال المجيدة ومن دواعي الفخر. وبعد هذا عاد الى سيراقوز حتى يتفرغ الى سَنّ دستورٍ جديد(٢٥)، وليساعد [كيفالوس Cephalus] و[ديونيسيوس] اللذين بعثت بهما كورنث لوضع القوانين، في تثبيت أهم موادّه واحكامه. ورغب في الوقت نفسه أن لايبقى جنوده المأجورون عاطلين، وإن يغنموا لأنفسهم شيئاً من العدوّ بالأحرى، فبعث بقسم منهم تحت قيادة [دينارخوس] و[ديماريتوس] الى ناحية من الجزيرة ما زالت تحت السيطرة القرطاجنيين. فاستنفروا عدة مدن للثورة على البرابرة. وغنموا ما أمّن لهم الحياة الباذخة فضلاً عن توفيرهم من اسلابهم ما يكفي لمواصلة الحرب. في تلك الاثناء نزل القرطاجنيون في ساحل [ليليبيوم Lilybaeum] الصخري بجيش قوامه سبعون ألفاً نقلتهم مائتا سفينة ضخمة، فضلاً عن الف سفينة أخرى موسقة بآلات الحصار والثغر، والعجلات الحربية، والقمح وغير ذلك من المهمات الحربية. وكل هذا يدل على ان نيتهم شنّ حربٍ طاحنة هدفها طرد الاغريق كافةً وبصورة نهائية من صقلية لا حرباً متقطعة متدرجة كالسابق.

---

(٢٤) هُزم هملقار الذين انزل قواته في صقلية وكانت تبلغ ثلاثمائة ألف مقاتل في السنة الثانية من الاولمپياد الخامس والسبعين [ديودوروس].

(٢٥) من الأنظمة الحكيمة التي قررها انتخاب رئيس قضاة كل سنة يطلق عليه أهالي سيراقوز لقب «امفيپولس جوپتر اولمپيوس» وبهذا أضفي عليه شخصية مقدسة وكان أول من تولى المنصب (كومينس) ومنها جاءت عادة السيراقوزيين في حساب سنيّهم بحكم هؤلاء القضاة.

كانت في الواقع قوة كافية للتغلب على الصقليين حتى ولو كانوا قلباً واحداً متحدين فيما بينهم لم تضعفهم النزاعات الحادة. وبسماع القرطاجنيين ما حَلّ من دمار بمستعمرتهم، زحفوا على الكورنثيين ونار الغيظ تأكل افئدتهم، بقيادة الجنرالين [هسدروبعل Asdrubal] و[هميلقار Hamilcar].

ووصلت الانباء عن عدوهم وقوتهم الى سيراقوز فجأة، فدبّ الفزع في الاهلين حتى انه لم ينضم للجيش من عشرات الألوف فيها غير ثلاثة آلاف أو أقل. أمّا الجنود الاجانب الذين يتقاضون أجراً فكان عددهم اربعة آلاف فقط، دبّ الهلع في قلوب ألفٍ منهم فتخلوا عن [تيموليون] وهو في مسيرته الى العدو وتركوا صفوف الجيش، فبدأ عليه الاهتياج والذهول وذهبت المفاجأة بلبّه وشتتتّ خاطره وهو أمر لم يكن منتظراً منه في هذه الساعة الحرجة من حياته أن يحاول الاشتباك بجيش قوامه سبعون ألفاً، وليس معه غير خمسة آلاف من الرجالة والف من الخيالة في حين كان المنطق يقضي بابقاء هذه القوات من للدّفاع عن المدينة، إختار ان يحركها من [سيراقوز] ويكبّدها مسيرة أيام ثمانية. فإن هُزموا في ميدان القتال فلا موضع يتقهقرون اليه ولا قبور تضم رفاتهم أن سقطوا قتلى في المعركة. على ان [تيموليون] وجد في كشف الجبناء عن أنفسهم قبل المعركة فألاً حسناً وحدثاً لايخلو من فائدة. وانصرف الى تقوية معنوية الباقين وتشجيعهم. وأسرع بهم الى نهر [كريميسوس Crimesus][٢٦] حيث بلغه ان القرطاجنيين قد حشدوا قواتهم.

وفيما كانت قواته تتوقل مرتفعاً لتستطلع من قمته جيش العدو وقواه المحشودة إذ بها تلتقي بقطارٍ من البغال المحملة بأعشاب البقدونس. فعدّه الجنود فأل سوءٍ وطالع نحس، فهذا النبات كثيراً ما تزين به اضرحة الموتى. وهناك مثل سائر مشتق من هذه العادة فيقال عن المريض مرضاً عضالاً، انه ليس بحاجة الى شيء غير البقدونس. ولأجل ان يهدىء تيموليون من روعهم ويطمئن خواطرهم ويحرر اذهانهم من كل الخرافات ونذر الشر؛ توقف وارتجل خطبة مناسبة للحال قال فيها «ان الحظ اسعدهم الآن بأكاليل النصر التي جاءتهم منقادة من تلقاء نفسها ووقعت في ايديهم كبشير من بشائر الظفر: فهذا النبات يتوّج به الكورنثيون ابطالهم الفائزين في الالعاب الاسثمية. مُعتبرين البقدونس في ذلك العصر شعار الفوز في الالعاب الاسثمية كما هو الآن شعار الرياضة [النيمية Nemean] ولم يبدأ استعمال أغصان الصنوبر بديلاً عنه إلاّ في زمن ليس ببعيد جداً عن عصرنا هذا.

وختم تيموليون كلمته بتناول مقدار من البقدونس وعمل إكليلا منه لنفسه وحذا حذوه

---

(٢٦) نهير في صقلية يشير اسمه الى عشب البقدونس الذي ينمو على ضفافه بكثرة.

ضباط جيشه وسائر قطعاته. وفي تلك الاثناء لاحظ العرافون عقابين يطيران نحوهم. أحدهما مُنشنب مخالبه في أفعى. والآخر يطلق وهو طائر صيحة عالية تدل على الجرأة والتحدي. فوجهّوا اليهما انظار الجنود الذين جثوا كافةً وتوجهوا الى الآلهة بالصلاة ودعوها الى شدّ ازرهم كان الوقت أولّ الصيف، ونهاية الشهر المسمى [تارجيليون] غير البعيد كثيراً عن الانقلاب الفصلي: Solstic. وكان النهر يُصعِدّ ضباباً كثيفاً ينتشر فيسدل على السهل كلّه ستاراً من الظلام. لذلك تعذر عليهم لفترة من الزمن ان يستوضحوا شيئاً من معسكر العدوّ. خلا اللغط والمزيج غير الواضح من الأصوات التي تتناهى الى المرتفع، مما ينشأ عادة من حركات بعيدة وضجيج جموع غفيرة. بعد أن اتمّ الكورنثيون صعود المرتفع وبلغوا القمّة، والقوا بتروسهم جانباً ليصيبوا شيئاً من الراحة، أرتفعت الشمس في كبد السماء وأصعدت معها الا نجرة من الاسفل وتجمّع الهواء المثقل بالضباب وتكاثف عالياً وكوّن سحباً فوق الجبال وانقشع الضباب عن الأراضي الواطئة فآضت الرؤية واضحة، وبدأ نهر [كريميسوس] لهم ثانية والاعداء يعبرونه اولاً بعجلاتهم الحربية الضخمة التي تجر واحدتها اربعة خيول، وتلاها عشرة آلاف مقاتل راجل يحملون اتراساً بيضاً وتدل نفاسة أسلحتهم وبطء مشيتهم وأسلوب خطوهم أنهم قرطاجنيون. ثم جاءت في أعقابهم حشود متدافعة من مختلف الأقوام تتسابق على العبور متزاحمة دون نظام وادرك تيموليون أن النهر يتيح لهم فرصة في الانفراد بقتال اي عدد من الاعداء يقررون الاشتباك معه الاشتباك معه فوراً ووجه انتباه جنوده الى انقسام قواتهم الى قسمين منفصلين بمجرى النهر فبعضهم اتمّ العبور في حين كان يهمّ الآخرون بعبوره. واعطى اشارة [لديماريتوس] ليهجم بخيالته على القرطاجنيين حتى يوقع الخلل في صفوفهم قبل ان يلمّوا شعثهم وينتظموا في نسق المعركة. ثم انحدر بنفسه الى السهل واضعاً السيراقوزيين في القلب مع أقوى وأصلب الجنود المرتزقة يحيطون بشخصه ثم أنتظر قليلاً ليرى ما يحققه هجوم خيالته. وتبين له أن العجلات الحربية التي كانت تجرى ذاهبة آيبة امام الجيش، لم يقتصر عملها هذا على منع الخيالة من الالتحام بالقرطاجنيين، بل كانت ترغمهم على الدوران لئلا تخترق صفوفهم وتمزقها، ثم يعودون فيصولون مجدداً. فما كان منه إلاّ أن قبض على ترسه وصاح بالمشاة أن يتبعوه بثقةٍ وشجاعة وبدا وكأنه يكلمهم بلهجة لا بشرية، وبصوت أقوى من الاصوات الاعتيادية. والأمر سواء أكان صوته قد ارتفع تلقائياً بالحماسة والحمية اللتين ابتعثهما تصميمه على قتال العدوّ، أو أن ربّا من الأرباب كل تحت لسانه - كما خيل لكثيرين، فإن جنوده رودّوا صدى صيحته وطلبوا أن يدفع بهم الى قلب المعركة فوراً فأعطى الخيالة اشارة الانسحاب من الجبهة الأمامية حيث توجد العجلات وكرّ على الأعداء

من الزاوية ليكون الهجوم من المجنبة. وثبت قدمه جيشه الأمامية برص الرجال ووضع الترس لصق الترس. وأمر بأن ينفخ في النفير وهجم.

تلقى القرطاجنيون الهجمة الأولى وثبتوا لها. فان جسومهم كانت مغطاة بالزُرد الحديدية ورؤوسهم محمية بالخوذ النحاسية، فضلاً عن تروسهم الكبيرة التي كانت تردّ عنهم طعنات الرماح اليونانية. لكن لمّا احتكم الجمعان الى السيوف، والتفوق فيها يعتمد على البراعةٍ لا القوة وحدها. ولمّا سمع هزم رعود قاصفة مصدرها قمم الجبال، تخللتها ومضات بروق تخطف الأبصار، وأعقبها حلول ظلام داجن حام برهةً فوق المرتفعات وذرى الجبال ثم هبط لنشر جناحيه على ميدان القتال حاملاً معه عاصفة مطرٍ وريحٍ وبَرَد. اندفعت هذه العاصفة الى الاغريق ومسّت ظهورهم مَسّاً ثم مضت واناخت بكلكلها على وجوه البرابرة. وانثال المطر عليها وبهر البرق الاعين، فصعب الأمر على القرطاجنيين وأسقط في يدهم، شأنهم في هذا شأن كل مستجدّ في هذه العوارض لأنهم لم يتعوّدوها، لاسيّما هزيم الرعد ودويّ زخات المطر، والضجّة التي تنشأ عن اصطدام البرد بالأسلحة والدروع المعدنية مما حال دون سماعهم أوامر ضباطهم والى جانب هذا كان الطين من أصعب العوائق للقرطاجنيين. لأن تجهيزاتهم لم تكن بالخفيفة، فقد أرهقوا أنفسهم كما ذكرتُ بالدروع الثقيلة. ثم أن قمصانهم الداخلية أشبعت بالماء، كما أمتلأت به ثنيات صُدُرهم فأثقلتهم وأعاقت حركتهم في القتال، وسهلت على الأغريق أن يطرحوهم ارضاً فلا تقوم لهم قائمة اذ يتعذر عليهم القيام وأسلحتهم بأيديهم من فرط ثقل الحديد. وارتفعت مياه[كريميسوس] أيضاً بفعل الأمطار، والحاجز الذي اعترض مجراه من أعداد العابرين الوفيرة. فطغى على الضفاف وانساح في السهول المجاورة التي تشقها الأخاديد والسواقي النازلة من سفوح المرتفعات، وملئت ماءً فآضت مجاري ونهيرات لا مسالك معينة لها، فتعثر فيها القرطاجنيون وتاهوا في شبكتها ووجدوا أنفسهم في أخطر مأزق. وبمختصر القول العاصفة تصبّ عليهم جام غضبها والأغريق اتمّوا ابادة اربعمائة مقاتل من خطوطهم المتقدمة. وانكفأ الجيش على الأعقاب وراح ينهزم، فلحق المنتصرون باعداد كبيرة منه واعملوا فيها حَدّ السيّف أما البقية فقد أتجهت الى النهر وأخذت تعبر الى الضفة الأخرى فأصطدم جنودها بالوحدات القادمة من وسط النهر فجرفهم التيار وأغرقهم. ولكن القسم الكبير منهم حاولوا الصعود الى المرتفعات والإحتماء بها. فأدركتهم وحدات العدو الخفيفة وقضت عليهم. وقيل أن ثلاثة آلاف[٢٧] من بين عشرة آلاف قتيل كانوا من المواطنين القرطاجنيين، خسارة فادحة ونكبة عظيمة لقومهم! فهؤلاء القتلى كانوا من خيرة مواطنيهم

(٢٧) يقول [ديودوروس ١٥:٨] ان عدد القتلى بلغ الفين وخمسمائة.

حسباً وثروةً وجاهاً. ولم يسجل تاريخهم قطّ مثل هذا العدد من القتلى القرطاجنيين في اي معركة لهم قبل هذه لأنهم عادةً يستخدمون الأفارقة والاسپان والنوميديين في حروبهم، فاذا هزموا فإن الغُرم والأذى يقع على عاتق الأقوام الأخرى.

واتضح للاغريق حالاً مكانة القتلى وحالتهم الاجتماعية من نفاسة الغنائم لأنهم عندما بدأوا بجمعها - لم يأبهوا لا بالحديد ولا بالنحاس، فالمعادن الأكثر نفاسةً كانت كثيرة، وكانت رؤية الفضة والذهب أمراً اعتيادياً. وأمّا عن الأسرى فقد سُرق الجنود عدداً كبيراً منهم وبيع خلسةً، ومع هذا فقد جيء بحوالي خمسة آلاف وسلّموا للمسؤولين للمنفعة العامة. وأغتنم مائتا عربة حربية ايضاً. وبدت خيمة [تيموليون] بأفخم وازهى منظر فقد ملئت بشتى أنواع الأسلاب وعلقت في جوانبها مختلف التذكارات الحربية والزينات منها ألف درعٍ صدريّ ذي صنعة دقيقة وجمالٍ أخاذ، وتروس يبلغ عددها عشرة آلاف. ولم يكف عددُ المنتصرين لعملية تجريد القتلى من سلاحهم. ولنفاسة الغنائم وكثيرتها تأخرت اقامة النصب التذكاري للمعركة، ثلاثة ايام. وبعث [تيموليون] بابناء انتصاره الى كورنث مع أفضل وابدع الأسلحة المغتنمة، شاهداً واثباتاً. ورفع اسم بلاده عالياً في ارجاء الدنيا. ولهج الناس بالثناء عليها اذ يروا معابدها وحدها دون سائر المدن اليونانية الأخرى. مزدانة مكتظة بما انتزع من البرابرة أعداء الشعب الأغريقي عنوةً واقتداراً لا بغنائم وتقدمات سلبوها من بني الأغريق الآخرين. نتيجة سفك دماء اخوانهم والاعتزاز عندما يرون امثال هذه الأقوال مكتوبة عليها: لقد انتشل الكورنثيون وقائدهم تيموليون أغريق صقليه من عبودية القرطاجنيين، ولهذا فانهم يقدمون الى الأرباب هذه القرابين اعترافاً بجميل فضلهم وامتناناً منهم وهي عبارات تنمّ عن عدالة الفاتحين فضلاً عن شجاعتهم.

بعد أن أكمل تيموليون عمله هذا، أبقى الجنود المرتزقة في اراضي العدو لمصادرة وحمل كل ما يجدونه في المناطق الخاضعة لقرطاجنة وساق بقية الجيش عائداً الى [سيراقوز] وأصدر ساعة وصوله أمراً بنفي الجنود المرتزقة الألف الذين تخلوا عنه بدناءةٍ، وانفصلوا عن جيشه قبيل المعركة. وأرغمهم على مغادرة المدينة قبل مغيب الشمس. فابحروا الى ايطاليا وهناك ابادهم [البروتيون] الى آخر نفر رغم عهد الأمان الذي قطعوه لهم. وهكذا لاقوا جزاءهم العادل من القوى الالهية على خستهمّ وغدرهم. على أن [مامیرقوس] ومن بعده [هيسيتيس] جددا حلفهما مع القرطاجنيين ربما بدافع الغيظ من انتصارات تيموليون، أو لتأكدهما بأنه ممن لايمكن التفاهم معه ولا المهادنة وان لا وجه للقاء بينه وبين الطغاة. وأشتدّ الحاحهما على حليفتهما بارسال جيش وقائدٍ جديدين الى صقلية. إلاّ اذا قامروا بخسارة كل

شيء. أو في حالة تخليهم نهائياً عن الجزيرة. فبعثوا بالقائد [غيسكو Gisco] على رأس عمارة بحرية قوامها سبعون بارجة. تحمل عدداً كبيراً من جنود الأغريق المرتزقة. وكان هذا اول تطوع لهم في خدمة القرطاجنيين. والظاهر أن مستأجريهم كانوا معجبين بهم يعلقون آمالاً جساماً على بأسهم وشدّة مراسهم. وتمّ توحيد قوات الحلف في [مسينا]. وفي تلك المناطق تمكنوا من الفتك باربعمائةٍ من مرتزقة تيموليون. ونصبوا كميناً أيضاً لجميع المرتزقة الآخرين الذين كانوا بقيادة [يوثيموس Euthymus] [الليوقادي Leucadian] في موضع من المستعمرة القرطاجنية يقال له [هيراي Hierae][٢٨] وافنوهم. كانت هذه الحادثة أقوى دليل على رعاية الحظ لتيموليون فهؤلاء القتلى وكانوا من جماعة [فيلومليس Philomelus] وفوكيس Phocis وانومارخوس Onomarchus] الذين أقتحموا معبد ابوللو في دلفي وشاركوهم في الكفر والتجديف[٢٩]. فجفاهم الكّل ونبذوهم كما ينبذ الملاعين فأضطروا الى التجوال في أرجاء البلوبونيسوس بلا هدف أو عملٍ حتى ضمهّم تيموليون الى حملة صقلية بسبب حاجته الى الجنود وحالفهم النجاح في كل المعارك التي خاضوها تحت أمرته. حتى زالت الأخطار الجسيمة. فاذا بآجالهم تحين عند ارساله اياهم لإسناد قطعاته الأخرى، فيهلكوا جميعاً وتذهب ريحهم بعيداً عن تيموليون، بجماعات وشراذم صغيرة هنا وهناك، وبهذا تحقق الانتقام الالهي الذي كتب عليهم وكان خادماً طيعاً للحظ الذي ما برح يحرس تيموليون مانعاً كل أذى واحجاف عن أخيار الرجال اثر عقاب ينزل بالأشرار، إن حرص الآلهة على رعاية البركات والنعم التي أدخرتها لتيموليون كان عظيماً في حالتي النجاح والفشل والسعد والنكد.

كان التحقير والاهانات التي عاناها السيراقوزيون من الطغاة، أشدّ وقعاً عليهم من كل الاضطهادات الآخر. خذ مثلاً [ماميرقوس]، كان هذا الطاغية الكثير الزهو بنفسه والاعتداد بموهبته في نظم الشعر والتراجيديا انتهز فرصة تقديمه للآلهة تروس الجنود المرتزقة الذين فتك بهم، ليفخر بانتصاره في هذين البيتين البذيئين:

---

(٢٨) ليس ثم موضع في صقلية بهذا الاسم. وربما كان المقصود (هيتي) وهي قلعة ذكرها الكتاب الاقدمون.

(٢٩) بدأت في السنة الأولى من الاولمپياد المائة والثمانية. وكانت اسباب نشوبها كما يلي: فرض أهالي امفكيتون على أهالي فوكيس غرامة ثقيلة بسبب اجتياحهم ونهبهم أراضي [كيّرا الموقوفة على ابوللو. فعجز هؤلاء عن دفعها فصودرت اراضيهم كلها وأوقفت على أپوللو. فجمع [فيلونيلوس] الأهالي وحرضهم على نهب كنوز معبد دلفي واستخدامها لاستئجار جنود للدفاع عن انفسهم. وقد جرّ هذا الى حرب السنوات الستّ. هلك خلالها معظم من حلّت عليه لعنة ابوللو حسب تعبير ديودورس ١٦:١٥ و ٢٧ و ٦٠]. فقد هوى فيلوميلوس من منحدر فهلك. وانومارخوس الذي خلفه في القيادة قتله جنوده وعلقوه على صليب. واخوه فاياللوس مات بآكلة داء الصدر. ولم تخلص نسوتهم من اللعنة لأنهن لبسن الحلى التي نهبت من المعبد.

هذه التـــروس[٣٠] المزدانـة بالـذهب والأرجــوان والعـــاج

انما غـنـمـــانـاً مـن حـــربـنـا مـع أنـاس فـــقـــراء!

ثمّ عندما زحف تيموليون الى كالاوريا Calauria]، بادر [ايكيتس] بالاغارة على تخوم سيراقوز فضم مقداراً كبيراً من الأسلاب وعاث فيها فساداً وأحدث كثيراً من التخريب ثم قفل عائداً الى [كالاوريا] مستخفاً بتيموليون وقوته الضعيفة التي كانت معه اذ ذاك. فلم يعترضه بل تركه يتقدمه مسافةً، ثم لحق به بفرسانه مشاته الخفيفة، ولما أدرك [هيسيتيس] ان العدوّ يتابعه بادر الى عبور نهر [داميرياس Damyrias][٣١] وتوقف وصَفَّ جنود للقائه وكانت مواضعه جيدةً منيعة اشاعت في نفسه الثقة فقد أفاد من وعورة الممرّ وارتفاع الضفتين وشدّة انحدارهما. وفي تلك الاثناء وقعت مشادة غريبة بين الضباط على اسبقية الهجوم، اذ لم يكن واحد منهم يرغب أن يكون زميله سبّاقاً عليه والجميع يدعون بحق التقدم على سائرهم في القتال. وكان من المحتمل جداً أن يغدو عبورهم النهر فوضى تامة ويختلّ حبل النظام بتكالبهم وتزاحمهم. لذلك قرر تيموليون تسوية الأمر بالقرعة وأخذ من كُلّ مطالب بالحق خاتماً وجمعها في ذيل عباءته وهزّها، وشاء القدر أن يكون أول خاتم أخرجه ذا نقش يمثل نصباً تذكارياً لانتصارٍ على شكل ختمٍ. فهتف الضباط فرحاً ولم ينتظروا حكم الخطّ في البقية وانما مضى كل منهم لطيته وعبروا النهر باسرع ما يمكن وحملوا حملة واحدة على العدوّ الذي لم يحتمل عنف الهجوم وأطلق السيقان للريح تاركاً سلاحه مع ألف قتيل في ميدان القتال.

واستعجل تيموليون الزمن، فزحف على مدينة [الليونتينيين] وأخذ هيسيتيس وابنه [يوبوليموس Eupolemus] وقائد خيالته [يوثيموس] أحياء. اذ ان جنودهم انفسهم قدموهم الى تيموليون مقيدين بالحبال. وقتل [هيسيتيس] وابنه لكونهما من الطغاة والخونة، ولم يجد [يوثيموس] رحمة ولا غفراناً ولم تشفع له شجاعته الذائعة الصيت. لأنه متهماً بسب الكورنثيين وإهانتهم عند أول نزول لهم في صقلية. فقد أثر عنه انه قال لأهالي [ليونتيين] في خطاب له حول نزول القوات الكورنثية: إن الأنباء ليست مخيفة. ولا خطر يحسب حسابه من جراء: «خروج نساء الكورنثيات من منازلهن!»

حقاً إن التعريض المهين والكلام البذيء الفاضح أشدّ وخزاً وأبعث على الحقد في نفوس الرجال من أعتداء اليد واعمال السوء أنّ الناس لايعبرون على الإهانة بقدر ما يعبرون على الجراح. والضرر والأذى الفعلي الذي يوقعه الخصم قد يمكن اغتفاره ففي حالة الحرب لايتوقع

(٣٠) وهي التروس التي أخذت من معبد دلفي.

(٣١) أو «لاميرياس» فالفرق بين نطق A الاغريقية و A اللاتينية خفيف جداً.

أقلّ من هذا. في حين ان قارص الكلام وفاحشه قد يبدو مظهر كره وحقد لا ضرورة له، نابعٌ عن الافراط في الحقد والتمادي في الاضطغان.

لما عاد تيموليون الى سيراقوز دفع المواطنون بزوجات هيسِّيتيس وبناته وابنه الى المحاكمة الشعبيّة وحكموا على الجميع بالموت. ويبدو أن هذا العمل كان أقل أعمال تيموليون تشريفاً في حياته فلو انه تدخل، لحَفَظَ حياة هؤلاء النسوة التاعسات. وظاهر الحال يؤيد انه لم يقم للأمر وزناً وسلمهم للجماهير التي كانت متحرقة لأخذ ثار [ديون] الذي طرد ديونيسوس، فان [هيسيتيس] قبض على زوجه [أريته Arete] وأخته [اريستوماخه Aristomache] وابنه الذي لم يتعد دور الحداثة والقاهم في اليمّ وهم أحياء، كما فصلنا ذلك في سيرة [ديون]. ثم توجه الى [كتانا] لقتال [ما ميرقوس] والتحم معه في معركة قرب نهر [ابولوس Abolus][٣٢] وهزمه فهرب من وجهه بعد أن خلفّ أكثر من ألفي قتيل منهم عدد كبير من الفينقيين الذين أرسلهم [غيسكو] نجدةً له، وعلى أثر ذلك طلب القرطاجنيون عقد الصلح فأجيب طلبهم واتفق الجانبان على الشروط التالية: أن يكون نفوذ القرطاجنيين قاصراً على الحدود التي يرسمها مجرى نهر [ليكوس Lycus][٣٣]، وان لايمنع السكان الراغبون في النزوح الى اراضي سيراقوز من الرحيل مع ذويهم وأموالهم. وان تتعهد قرطاجنة بقطع كل ارتباط والغاء كل اتفاق لها مع الطغاة. ولم يجد [ماميرقوس] اليائس المنبوذ إلاّ أن يستقل سفينة للابحار الى ايطاليا، مستهدفاً حضّ [اللوكانيين Lucanians] على حرب تيموليون وسيراقوز. إلاّ ان بحارة السفينة عادوا بها من حيث أتت وسلموا مدينة [كتانا] الى تيموليون، فاضطر [ماميرقوس] الى الفرار خوفاً على حياته واللجوء الى [مسينا] حيث يحكم [هبّو Hippo] الطاغية. فتقدم تيموليون والقى الحصار على المدينة من البرّ والبحر وخشي [هبّو] سوء العاقبة وحاول الافلات خلسة من طوق العدو باحد السفن إلاّ أن أهالي [مسينا] فاجاؤها قبل اقلاعها وامسكوا بالطاغية، ثم جمعوا أولادهم من المدارس كافةً وجاؤوا بهم الى الملعب ليشاهدوا منظر انزال العقوبة بالطاغية المتجبر. ضربوه أولاً بالسياط، ثم قتلوه علناً. واستسلم [ماميرقوس] الى تيموليون بعد أن تعهد له هذا بأن تجري محاكمته في سيراقوز، وان لايشارك تيموليون في الاتهام. فاقتيد الى المحاكمة بناء على ذلك ووقف ليجيب عن التهم امام الشعب المحتشد وباشر في القاء خطبة أعدها من قبل تتضمن الدفاع

---

(٣٢) بطليموس وآخرون يسمونه Alabus او Alabis او Alabon وهو قريب من [هيبله] بين [كاتانا] و[سيراقوز].

(٣٣) ربما نقل پلوتارخ الاسم كما وجده عند [ديودورس ٨٢:١٦] إلاّ ان المؤرخين الآخرين يطلقون عليه أليكوس أو هاليكوس. ولعل القرطاجيين أضافوا اليه «ألـ» أو «ها» التعريف الخاصة بلغتهم.

عن نفسه. فقوطع بالضجيج والهتاف العدائي. ولاحظ من سلوك العامة واشكالهم أن لا أمل فيهم فألقى عباءته جانباً وأسرع يعدو في أرجاء الملعب باقصى ما يطيق. ثم نطح صخرة في أسفل المقاعد قاصداً القضاء على حياته، إلاّ أنه لم يفلح واخطأ الموت الذي اراده، فقبض عليه واذيق ميتة اللصوص وقطاع الطرق.

بهذا قطع [تيموليون] أعصاب الطغيان ووضع حداً للحروب. كانت صقلية في أوّل نزوله تسبح في بحر من الفوضى، وكانت أمورها قد أختلتّ الى حدٍ كره أهلها السكنى فيها ونزحوا عنها تخلصاً من الشرّ والبؤس. فما لبث تيموليون أن أصلح من شأنها. وأعاد اليها مظاهر الحضارة والمدنية وجعلها قبلة انظار الجميع، ومطمحهم، وتقاطر اليها الاجانب من شتىّ الامصار للسكنى في المدن والبلدان التي تركها أهلها قفرا يباباً. وأكتظت مدينتا [اگريگنتوم Agrigentum وغيلا Gela] الشهيرتان بالسكان ثانية وكان القرطاجنيون قد خربوهما وهدموهما بعد الحروب الآتيكية. عَمَّر الأولى منهما [ميجيللوس Megellus وفيريستوس Phirestus] الاليائيان. وعمر الثانية [غُرغُس Gorgus] السيوسيّ. وأجتمع فيهما سكانهما الأصليون الذين أعيد جمعهم من شتى الانحاء، ونازحون جدد من الخارج. ولم تكن مهمة تيموليون قاصرة على تأمين العيش الآمن المستقرّ للجميع بعد هذه الحرب الضروس، وانما تعداه الى بذل المعونة ومديدَ المساعدة لهم. ولذلك لُقبّ بمؤسس البلاد. وكان هذا الشعور يسود أهل صقلية كافةً. وأستولى عليهم اعتقاد وهو انه لا سبيل للسلم يسلك ولا اصلاح للقوانين ولا توزيع للأراضي الزراعية ولا اعادة لبناء اجهزة للحكم يتم بل ولا اي شيء حسن يتحقق الاّ اذا كان تيموليون طرفاً فيه أو كان مهندسه الأول. ليقوم على انجازه واحكام صنعه. أو هندمته بلمسات دقيقة أخيرة من يده ليغدو جميلاً في عين اللّه والانسان.

انّ بلاد اليونان أنجبت في ذلك العهد عدداً من عظماء الرجال وعباقرتهم. وأشتهروا كثيراً بجلائل الأعمال من الامثال [تيموتيوس Timotheus وآغيسيلاوس Agesilaus وپيلوپيداس Pelopidas واپامننداس (النموذج المحتذى الأول لتيموليون). إلاّ أن جلال خير أعمالهم تضاءل بالشدة والجهد العسير الذي بذل فيها (باستثناء الضرورة التي الجأته الى قتل أخيه) إلاّ وينطبق عليه شعر [سوفوكليس] كما لاحظ طيماؤوس:

> ايتها الآلهة! ماذا فعلت ڤينوس بل ماذا فعلت النعمة الالهية، باجتماعهما معاً في الأعمال البشرية!؟».

فكما يظهر الجهد والتعب والزخرفة في شعر انتيماخوس Antimachus[٣٤]، ورسوم

---

(٣٤) شاعر ملحمي. من كولوفون وهي مدينة آيونية. نبغ أيام سقراط وأفلاطون ونظم قصائد حملت اسم =

[ديونيسيوس](٣٥) وتُحفُ [كولوفون Colophon] مع انها تزخر بالحركة والقوة، اذا ما قورنت باشعار [هوميروس] ورسوم نيقوماخوس(٣٦) التي تتضمن سحراً عجيباً الى جانب قوتها وجمالها العام - ذلك السحر الغريب المتأتي من سهولة عملها وبداهته كما يظهر للمتأمل لأول وهلة، كذلك كانت أعمال وحملات [اپامنناداس واغيسيلاوس] العسكرية، يظهر فيها الجهد الكبير والمشقة اذا ما قورنت باعمال [تيموليون] السهلة الانجاز المنقادة طبيعياً... والنبيلة الاهداف أخيراً. وهذا ما يُرغم اجتهادنا العادل غير المتحيزّ على الحكم بأن اعمال [تيموليون] ليس مبعثها الحظ وانما هي نجاحات للمؤهلات المحظوظة، وان كان هو بالذات يعزو ذلك النجاح الى محاباة الآلهة له ليس إلاّ. ولذلك تجده يقول في رسائله الى اصدقائه الكورنثيين وخطبه في أهالي سيراقوز: انه ليشكر الآله الذي خلصّ صقلية، وشاءت ارادته أن يشرفه باسم ولقب «المنقذ» الذي تلطف عليه به. ولهذا بنى في منزله هيكلاً يضحيّ فيه لآلهة الحظّ التي حبته بعطفها. وأوقف المنزل نفسه على «الروح القدس».

كان المنزل قد اختاره السيراقوزيون له هديةً وصرحاً تذكارياً لمآثره وبطولاته. كما منحه قطعة أرض من أفضل وأجمل الاراضي في البلاد. وكان يقضي فيهما جلّ ايامه مستمتعاً بحياة خاصة هادئة مع زوجه وأولاده الذين استقدمهم من كورنث، لأنه لم يعد الى وطنه قطّ لعزوفه عن اضطرابات بلاد اليونان ونزاعاتها، أو لأنفته من تعريض نفسه للغيرة العامة (وهو أخطر الأذى الذي يتعرض له كبار القادة عادةً ويتأتى من شهوتهم الى الرفعة والسلطان التي لا تقف عند حدٍّ)، وكان حكيماً في اختياره قضاء بقية أيامه في صقلية لينعم بقسط من آثار أعماله. وأعظمها طُراً مشاهدته ذلك العدد الكبير من المدن تنمو وتزدهر وتعمر بالألوف العديدة من الناس. وهم يحيون حياة رغيدة راضية بجهوده ومساعيه.

وعلى كلّ حالٍ فان قول [سيمونيدس] «لا مفرّ من قيام عَرْفٍ على رأس كلّ قبرّة» ليس قاصراً على هذا المثل وحده، بل ينطبق على كل نظام ديمقراطي، فلابدّ أن يبرز فيه معارض مزيف ومتهم كذاب. وكذلك كان الأمر في [سيراقوز] اذ انبرى اثنان من الخطباء الجماهيريين

= مدينة ثيبة Thebiad.

(٣٥) كان رسّاماً. ولذلك سمي بالانتروپوكرافوس (پلين ٣٥:١٠). ويخبرنا ان نيقوماخُس كان يرسم بيد سريعة ماهرة وان لوحاته كانت تباع بما يعادل ثمن بلدة! اتفق معه اريستراتوس طاغيه سيراقوز على رسم صورة ولم يكن يبدو أنها ستحتاج الى كثير من الوقت. إلاّ أن نيقوماخس تباطأ ولم يقدم الاّ بعد ايام موافقاً على القيام بالرسم. إلاّ ان الطاغية نقم عليه لامبالاته وفكر في عقابه. لكن الرسام اكمل عمله خلال المدة المتفق عليها وبلغ فيه الابداع بحيث نال رضى الطاغية.

(٣٦) توفي في العام ٣٢٧ ق.م بعد أن حكم صقلية ثماني سنوات [ديودورس ١٥:٩٠].

وهما [لافيستيوس Laphystius وديميانتوس Demaenetus] وأنشأ يفتريان على تيموليون ويشوّهان سمعته وطلب أولهما منه أن يتعهّد بالإجابة على التهم التي ستوجه اليه. وأبى تيموليون أن يتدخل الجمهور في الاجراءات القضائية أو يعمل على ايقافها مدفوعاً بسخطه واستنكاره وحجته في ذلك أنه ما خاض هذه الحروب الطاحنة، وتكبد تلك المشاق والأخطار إلاّ للوصول الى هذه الغاية اي ان يكون لكلّ مواطن الحقّ في الرجوع الى القانون بكلّ حرية عندما يشاء. وعرض [ريمنيتسوس] للشعب لائحة بعدد من التهم ضده عن أعمال عزاها اليه عندما كان قائداً للجيش. فلم يجب تيموليون بشيء خلا قوله انه مدين بالكثير للآلهة لانها حققت له رجاءً طالما ناشدها انجازه. وأعني به أن يعيش ليرى السيراقوزيين وهم يتمتعون بحرية القول، وهي تبدو الآن وكأنها ملك يمينهم.

وهكذا اعترف الجميع انه قام بأشرف ما قام به أي أغريقي معاصر له وأشتهر وحده وبرّز في تلك الأعمال التي أعتاد فلاسفه الأغريق وخطباؤهم سردها ليحمّسوا ويرفعوا بها معنويات ابناء جلدتهم في سائر خطبتهم وتقاريضهم التي يلقونها في الاجتماعات الدينية القومية. وقدم دليلاً دامغاً على حكمة ادارته وشجاعته بمواجهة البرابرة وبانسحابه المسبق من مصائب الحروب الأهلية التي ما لبثت أن أجتاحت بلاد اليونان، وتجنيب صقلية الدماء دون أن يلحقها عيب أو أن تلوث سمعته، يقابل ذلك عطفه على الأغريق وعلى اصدقائه بصورة عامة. كذلك تقديمه تلك التذكارات التي غنمها في معارك لم يسفك في أغلبها دم كورنثي أو سيراقوزيّ واحد. فجنبهم ذرف الدموع ولبس الحداد، زد على ذلك انه انتشل صقلية في غضون أقل من ثماني سنوات من عللهم المتأصلة وفسادهم الداخلي ودفع بها حُرّةً الى ايدي أهلها.

وطعن في السنّ وبدأ يشعر بضعف في بصره لينطفيء تماماً بعد زمن قصير، لم يحرم الرؤية لازورار الحظّ عنه ولا لإقدامه على عمل كانت نتيجة تلك العاهة، بل هو ضعف وراثي داخليّ ظهر بشكل طبيعي فيه بمرور الزمن. فلقد قيل أن عدداً كبيراً من اقربائه وافراد اسرته تعرضوا لهذا الضعف الذي تفاقم بهم، حتى فقدوا ابصارهم مثله في أواخر حياتهم. ويحدثنا [اثانيس] المؤرخ ان بقعة بيضاء صغيرة نزلت على انسان عينه ايام كان يقود الحرب ضدّ [هيوّ وماميرقوس] ومنها أمكن الجميع ان يتكهنوا باقتراب العمى منه. إلاّ ان ذلك لم يمنعه من مواصلة الحصار وادارة دفة الحرب حتى وقع الطاغيتان في قبضته إلاّ أنه أعتزل منصب القائد الأعلى حال رجوعه الى سيراقوز وطلب من المواطنين اعفاءه من أي تكليف آخر. ولاسيّما بعد تحسنّ الأحوال وسيادة الأمن والاستقرار. ولم يكن ثم ما يدعو الى العجب لإحتماله مصيبته برحابة صدر ودون ان تبدر منه اشارة الى نفاد الصبر أو الضيق. إلاّ ان

الاحترام والاعتراف بالجميل الذي أظهره له السيراقوزيون بعد فقده بصره - يستحّق اعجابنا والحق يقال. اذ اتخذوا لهم عادة في زيارته أفواجاً وجماعات وكانوا يصحبون الاجانب من الزائرين الى منزله ومزرعته ليسرّوا أيضاً بمشاهدة منقذهم النبيل. وكان حجّهم هذا مصدراً من مصادر سعادتهم وغبطتهم. لقد تعلق هو الآخر بالأرض التي حررها، وأبى إن يستمتع بعودة الظافر الى اليونان بعد بطولاته وانتصاراته ولم يقم وزناً للاستعدادات الفخمة التي اتخذت في الوطن لاستقباله، وآثر البقاء حيث هو وانهاء حياته فيها. وأسمى ما أكرم به تيموليون وأكبرها دليلاً على منزلته في نفوس السيراقوزيين، أنهم اصدروا قانوناً يحتم عليهم الا يستعيروا الاّ خدمات جنرال كورنثيّ في حالة اشتباكهم بحرب مع بلاد أجنبية. ومن مظاهر التشريف النبيلة التي اتبعوها في مجالس اداراتهم العامة مما يقوم شاهداً على مدى أحترامهم له، أنهم كانوا ينشدون ابداً مشورته في الأمور الهامة المعقدة، ولايستغنون عن رأيه في الأزمات، أما المسائل الصغرى فكانوا يعالجونها بأنفسهم. وفي تلك المناسبات كان ينقل الى الملعب محمولاً على محفّة وهو جالس. فيمرّ في الساحة العمومية وعندما يستقرّ في الملعب يحيّيه الجمور كلّه باسمه المجرد، فيردّ على تحيتهم ويصمت برهة لتنقطع هتافاتهم وتمنياتهم الطيبة له. ثم يرهف اذنه الى مواضيع المناقشة ويدلي برأيه، وبعد أن يوضع في الاقتراع العام وتتم الموافقة يرفعه الخدم الى المحفة ويخترقون به المواطنين المجتمعين خارجاً وهتافهم وتهاليلهم تدوي من الجانبين. وبعد انصرافه يعودون الى النظر في الأمور الثانوية. كذا كان حبّه متأصلاً في النفوس وهو على حافة قبره. كان حبّاً مشبعاً بالاحترام والحنان الواجب للأب الذي والد الكلّ.

ثم ان وعكة جدّ بسيطة انتابته إلا انها كانت كافية لانهاء حياته بمعونة الزمن. وأعلن عن تخصيص ايام معينة يتفرغ السيراقوزيون في أثنائها الى تهيئة كل ما هو واجب وضروري لتشييعه، ولافساح المجال أيضاً لمشاركة السكان المجاورين والأجانب في المراسيم. وكان يحفّ بالجنازة كلّ مظاهر العظمة والأبهة والروّعة وزين النعش بتذكارات الحرب وغيرها من الحلى وحملته نخبة من الشبان ووضعوه على البقعة التي كان [ديونيسوس] قد شيد فوقها قلعته فجاء هو وقوضهما. وحضرت المراسيم ألوف مؤلفة من الرجال والنساء وقد ضفروا اكاليل الزهر على رؤوسهم وارتدوا الثياب الجديدة النظيفة حتى بدأ التشييع وكأنه عيد شعبيّ. وكانت كلماتهم ودموعهم التي تمتزج بالمديح والدعوات لتيموليون الراحل، تظهر أن ولاءهم لم يكن مجاملةً وتكريمهم ليس ارغاماً وجبراً بل هو تعبير عن حزن حقيقي وأظهار لحبهم الصادق. أخيراً وضع النعش فوق كومة من الخشب وأشعلت فيه النار. وفي أثناء ذلك بدأ

[ديمتريوس] أعلى المنادين صوتاً، يقرأ البيان العام التالي:

«أصدر أهل سيراقوز مرسوماً يقضي بدفن [تيموليون ابن تيموديوس الكورنثي] على نفقة الخزينة العامة وخصص مبلغ مائتي مينا لذلك. ووضع جوائز سنوية تخليداً لذكره، تمنح للفائزين في مباريات الموسيقى وسباق الخيل وغيرها من الرياضات البدنية، لأنه كسر شوكة الطغاة وهزم البرابرة وعمر المدن الرئيسة بسكان جدد بعد أن هجرها أهلها. وأعاد للأغريق الصقليين نعمة الحياة الحرة وميزة العيش وفق شرائعهم الخاصة».

وتمادوا في تكريمه وتخليد ذاكره، فبنوا له ضريحاً في الساحة العامة. وأحاطوه فيما بعد بصفوف من الأعمدة، ثم الحقوا به معاهد رياضية للشباب، يمارسون فيها مختلف الالعاب البدنية، وأطلقوا عليها اسم [تيموليونتيوم Timoleonteum]. وظلوا يحافظون على شكل الادارة والنظام الحكومي[٣٧] والقوانين والدساتير التي وضعها لهم وعاشوا زمناً طويلاً يرفلون في بحبوحة من الرخاء والدّعة[٣٨].

(٣٧) من قوانينهم التي صاغها ديوقليس، بقي بعضها يمارس وتتعلق بصورة خاصة بالوصايا والعقود. اما بخصوص الواجبات والحقوق المدنية التي غيرها الطغاة أو صادروها فقد صححها أو أعادها. وقد طلب في هذا الصدد معاونة كيفالوس [ديودوروس ١٦:٨٢].

(٣٨) انقطع هذا الازدهار بعد ٣٠ سنة تقريباً بالفظائع التي ارتكبها اغاتوكلس الذي نصب نفسه طاغية على سيراقوز.

إميليوس پاولوس

ÆMILIUS PAULUS

في ترجمة لونكهورن وترجمة كوليز وردت المقدمة التي صدرها پلوتارخ لسيرة تيموليون هنا.



أجمع المؤرخـون كافةً أن أسرة «إمـيلي Aemilii» هي أحد الأسر الرومانية الپارتريشية العريقة. ويخبرنا أولئك المؤرخون الذين يؤكدون بأن [نوما] الملك كان تلميذاً [لفيثاغورس] أن أوّل من خلف اسماً لذريته هو [ماميرقوس] ابن [فيثاغورس] الفيلسوف الذي كان يلّقب «إميليوس» ارشاقته ولياقته في الكلام. واقبل الحظّ ايضاً على معظم سلالته الدين ارتفعوا الى مصاف العظماء لكفاءاتهم وقابلياتهم. حتى سوء الحظّ الذي لازم [لوشيوس پاولوس] في معركة [كاينّي][(١)] فهو دليل على حكمته وبسالته. فبعد أن عجز عن أقناع زميله بالعدول عن المجازفة في معركة، شارك معه في الهجوم إلاّ انه لم يكن زميله في الفرار، بالعكس فقد صمد في الميدان وقتل وهو يحارب في حين تخلّى عنه من كان شديد العزم على الاشتباك، وكان [لاميليوس] هذا، بنت اسمها [اميليا] تزوجت [سكيپيو الكبير]، وابن اسمه [پاولوس] وهو موضوع سيرتي هذه.

في مطلع رجولته التي صادفت عهداً اشتهرت فيه روما بنشاهير الشخصيات، تميز اميليوس، بابتعاده عن العلوم والدراسات التي أعتاد تلقيها الشبان الوجهاء، ولم يسلك الى الشهرة السبل نفسها. لأنه لم يمارس الخطابة لكي يمتهن المرافعة في قضايا الناس، ولم يؤثر عنه الانحناء عند التحية أو العناق أو مصاحبة الدهماء تزلفاً لهم. وهذا كلّه من الوسائل المعتادة للتقرب الى الناس وخطب ودّهم، لا لأنه قاصرٌ عنها، بل لكونه اختار الاستئثار بمجد البطولة والاستقامة والصلاح وهي اسمى الأمجاد وأكثرها خلوداً وفي هذه الفضائل ما لبث أن بزّ كلّ اقرانه. وكانت وظيفة [الايديل] الكريمة أوّل ما تقلّده. فقد تنافس عليها ضدّ اثني عشر مرشحاً بلغت كفاءاتهم ومؤهلاتهم حداً انهم تسنموا فيما بعد منصب القنصلية كافة بالتعاقب. ثم أنتخب فيما بعد الى صنف الكهنة الذين يعرفون [بالاوغور][(٢)]، ووظائفهم

---

(١) إعتباراً من لوشيوس اميليوس الذي كان قنصلاً في ٤٨٣ ق.م وهزم الڤولسكيين حتى لوشيوس پاولوس والد پاولوس اميليوس الذي قتل في كاني ٢١٥ ق.م كان قد أشتهر عدد كبير من أفراد هذه الأسرة بانتصاراتهم ونجاحهم الاداري.

(٢) كان بإمكان الاوگور (العراف) ان يحبط اي عمل من الاعمال العامة أو ان يجيزه بزعم بزعم ان الاستخارة موآتية أو غير موآتية. وفي معهد الاوگور هذا يدخل معظم الپاتريشيين الذين يرغبون في =

عند الرومان أن يراقبوا ويسجلّوا النبوءات المستخلصة من مسّار الطير، أو معجزات الفضاء ولذلك تفرغ الى دراسة عادات بلاده القديمة دراسة دقيقة، وتمكن من أسرار دين اسلافه حتى ارتقى بوظيفته التي كانت مجرد لقب شرفٍ يُطلب لنفسه، الى مرتبة من الصناعة والفن عالية جداً بمجهوده الخاصّ واثبت صحّة التعريف الذي وصفه الفلاسفة للدين بوصفه «علم عبادة الآلهة»[٣] وكان يحرص عند قيامه باي واجب ديني على الدقة والمهارة، ويتفانى فيها كأنما لا يشغله في الدنيا غيرها. وهو لا يحذف من الشعائر جزءً مهما ضؤل ولايضيف شيئاً مهماً قلّ بل كان يشدد على زملائه من الطائفة أن يلتزموا حتى بما قد يبدو تافهاً ويشتد في توصيتهم بأن توهمهم بسهولة تهدئة غضب رب من الأرباب واستعداده للصفح عن الأخطاء غير المقصودة، لا ينفي كون اي تراخٍ واهمال هو خطر شديد على السلامة العامة اذ لم يبدأ أي شخص قط في الاخلال سلامة بلاده بخرق شرائعها خرقاً شنيعاً. وان من يهمل في الجزئيات يوجد سابقةً وتعلّه للإهمال في الكليات والواجبات الهامة. ولم يكن أقل من هذا تشدداً في تطلبه مراعاة النظام الروماني القديم في الأمور العسكرية. وعندما تولى القيادة لم يبذل اي مجهودٍ في تعزيز مكانته بين الجنود[٤] والتحبب اليهم بخطب ودّهم ومجاملتهم في حين كان هذا عادة جرى عليها كثيرٌ من القادة في ذلك الزمن. ففي فترة قيادتهم الأولى يظهرون المحاباة والتردد للمادون كي يضمنوا لأنفسهم فترة ثانية. على انه استعاد لبلاده عظمتها الغابرة وسؤددها بتلقين الرومان قوانين الضبط العسكري بالعناية والدّقة التي يستخدمها الكاهن في تدريسه اصول الشعائر والأسرار المرعبة. وبصرامته في معالجة أمر كل من يخرق تلك القوانين أو يعتدي عليها مقداراً ان النصر على الأعداء هو بحدّ ذاته نتيجة لاحقة للتدريب الصحيح، والنظام الدقيق.

بينما كان الرومان مشتبكين في حربٍ مع أنطيوخوس الأكبر[٥]، مستخدمين ضدّه عدداً من خيرة قادتهم وأكثرهم تجارب، نشبت حرب أخرى في الغرب، وضجّت أسبانيا بقعقعة السّلاح[٦]. أرسلوا اليها [اميليوس] برتبة [بريتور] لا بستة فؤوس، وهو العدد الذي يتقدم

= الانصراف الى العمل السياسي.

(٣) انظر افلاطون «افثيفرون».

(٤) الجنود الرومان يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية ولهم أن يدلوا باصواتهم في كل الشؤون المدنية والعسكرية ذات الشأن.

(٦) بدأت الحرب مع انطيوخس الكبير ملك سورية في حدود العام ١٩٢ ق.م اي بعد معركة كاني باربع عشرة سنة. وكان يقود الجيوش الرومانية كلابريو ثم الأخوان سكيپيو بعده. وقد ارتضى أكبرهما أن يكون مجرد معاون لأخيه [ليفي ٣٧:١].

اصحاب هذه الرتبة عادة ،إنّما بأثني عشر فأساً. لذلك كان في منصبه البريتوري يتمتّع بمظاهر سلطان القنصل. وهزم البرابرة في معركتين(٧) وقتل منهم ثلاثين ألفاً: ويعزى نجاحه هذا أساساً الى حكمة القائد وادارته. فبمهارته العظيمة في أختيار أصلح ارضٍ وبمباشرته الهجوم في معبر أحد الأنهار حقق لجنوده نصراً سهلاً. وبعد ان سيطر على مائتين وخمسين مدينة وبلدة خضع له أهاليها تلقائياً وربطوا أنفسهم بقسمٍ على الطاعة والولاء، غادر الاقليم والسلم يخيم عليه وعاد الى روما دون أن يضيف الى ما يملك درهماً واحداً من الحرب وكان في الواقع وبصورة عامة لا يكترث لجمع المال وان كان يعيش دوماً عيشة باذخة مسرفة على ما يملك وهو ليس بالكثير، حتى انه لم يخلّف حين وفاته ما يكاد يفي بصداق امرأته.

كانت [بابيريا Papiria] أولى زوجيه. وهي بنت [ماسو Maso] الذي كان قنصلاً فيما مضى. عاش معها زمناً طويلاً في رباط الزوجية ثم طلقها مع أنها انجبت له ابنين من انبل الابناء، فهي أمّ [سكيپيو] الشهير، و[فابيوس ماكسيموس]. ونحن لا ندري سبب انفصالهما هذا. إلاّ أن جانب الحق الذي يبدو في حكاية ذلك الروماني الذي طلق زوجه قد يفسّر لنا السبب في قضيتنا هنا: كان هذا الروماني موضع لومٍ شديدٍ من اصدقائه، وراحوا يسائلونه: أليست هي عفيفة؟ أليست هي جميلة أليست هي ولوداً؟» فرفع نعله وسألهم «أليس هو جديداً؟ أليس هو جيد الصنع؟ ومع هذا فلا أحد منكم يدري اين يؤذيني.» ومما هو مؤكد أن الاخطاء الكبيرة والفاضحة لا تؤدي الى انفصال الزوجين في كثير من الأحيان. في حين يكون مجرد المضايقة الخفيفة المتكررة الناجمة عن التنافر في الطبع أو سبباً للفرقة. ففي هذه الحالة يتعذر على الرجل والمرأة العيش معاً في أي درجة من الوئام.

وبعد أن ترك [اميليوس] [بابيريا] بنى بزوجه الثانية فأنجبت له ولدين رباهما في منزله. وحوّل الولدين الآخرين إلى أعظم وأشرف أسرتين في روما. فالأكبر(٨) تبناه [فابيوس ماكسيموس] الذي تقلد منصب القنصلية خمس مرات ورباه في بيته. والثاني كفله ابن [سكيپيو افريقانوس] وهو ابن عمّته، فسماه [سيپيو].

أوأعن بنيته فإحداهن تزوجت ابن [كاتو Cato] والثانية تزوجت [ايليوس توبيرو Aelius Tubero] وهو رجل فاضلٌ جداً ويعد بين الرومان خير من جمع بين الجود والفقر. وكان لديه

(٧) يتكلم ليفي (المرجع السالف ٥٧) عن معركة واحدة ناجحة. فيها أخترق ايميلوس پاولوس الاستحكامات الاسپانية وفتك بثمانية عشر الفاً وأسر ثلاثمائة.

(٨) اتخذ له اسم كونيتس فابيوس اميليانوس. وهو اب الخطيب الشهير [كوينتس فابيوس] وكذلك أخوه افريقانوس الأصغر أو الثاني الذي ازال قرطاجة من الوجود في ١٠٥ ق.م. فقد أتخذ هو الآخر اسم اميليانوس.

ستة عشر قريباً كلهم صلبيوّن من أسرة [ايلي Aelii] لا يملكون غير حقل واحدٍ كان يكيفهم العيش، ويسكنون في بيت صغير واحدٍ أو كوخٍ بالأحرى يأويهم مع ذريتهم الكثيرة وزوجاتهم، ومن بينهن بنت [اميليوس] صاحبنا. ولم تكن تخجل من فقر زوجها مع ان اباها تقلد منصب القنصل مرتين، وأستقبل استقبال الفاتحين مرتين. بل كانت تفخر وتعتز بسجاياه التي ابقته فقيراً والأمر يختلف أختلافاً بيّنًا عند الأخوة والأقارب في مثل سنه. فان لم تفصل ما بين ميراثهم ارض واسعة أو أنهار وجدران على الأقل فتجعلهم بعيدين بعضهم عن بعض، فإن الشجار والخصام لا ينقطع فيما بينهم. إن التاريخ - والشيء بالشيء يذكر- يقدم نماذج من هذا النوع لأولئك الذين يعتبرون ويرغبون في التعلم والصلاح.

ونعود الى موضوعنا فتقول: بعد أن أختير [اميليوس] قنصلاً خرج الى حرب [الليغوريين Ligurians][٩] أو الليغوستينيين Ligustines] وهم قوم يسكنون بالقرب من جبال الألب، أشتهروا بالإقدام وكثرة الحروب بدأ يُكسِبهم جوارُهم من الرومان مهارة في فنون الحرب. وكانوا يشغلون القسم الأقصى من ايطاليا المنتهي بسفوح الألب وتلك الأجزاء من الألب التي تلامس مياه بحر التوسكان وتواجه افريقيا يساكنهم على الساحل الغاليون والايبريون. وكانوا في ذلك الزمن قد وجهّوا إهتمامهم الى البحار ووصلوا في ملاحتهم حتى «اعمدة هرقل» - بسفن خفيفة تناسب أغراضهم وهي القرصنة ونهب وتدمير كلّ ما يمرّ بهم في تلك الأنحاء. هؤلاء انتظروا قدوم [اميليوس] بجيش قوامه اربعون ألفاً، أي خمسة أضعاف الجيش الروماني الزاحف إلاّ ان اميليوس تغلّب عليهم والجأهم الى الفرار واضطرهم الى الاحتماء بأسوار مدنهم. وعرض عليهم وهم في وضعهم هذا، شروط صلح كريم. اذ كان من سياسة الرومان أن لا يقضوا قضاءً تاماً على الليغوريين لأنهم أشبه بحرس أو سَدٌّ يحول دون مختلف محاولات الغاليين التوغل في ايطاليا. وبثقة تامة من [اميليوس] سلموا اليه مدنهم وسفنهم. فأبقى على الأولى، ولم يتعرض بالهدم إلاّ لتحصيناتها واعادها اليهم إلاّ انه صادر السفن ونقلها معه تاركاً فحسب، تلك المراكب التي لا يزيد عدد مجاذيفها عن ثلاثة، وأطلق سراح عددٍ كبيرٍ من الأسرى الذين استولوا عليهم براً وبحراً رومانيين وأجانب. تلك هي أجدر أعماله بالذكر في فترة قنصليته الأولى.

وبعد هذا ألمح كثيراً الى رغبته في تجديد قنصلية فترة ثانية، ورشحّ مرة وعندما قوبل ترشيحه بالرفض، وتخطاه الناخبون صرف النظر عن الرغبة بصورة باتة وتفرغ لواجبات كهانته وتثقيف أولاده الذين لم يكتف بتنشئتهم كما نشأ هو على أصول التربية الرومانية القديمة،

(٩) ليفي [٤٠:٢٥] كان ذلك في السنة التي تلت انتخابه قنصلاً.

وإنمّا بتعليمهم على الأصول اليوناني، وأبدى في ذلك إهتماماً فائقاً للعادة. فجاء باساتذة لتعليمهم النحو والمنطق والبلاغة، فضلاً عن معلمين للرسم وضع التماثيل، ومدربين في الفروسيّة والكلاب، وأساتذة لرياضة الساحة والميدان، كلهم من بلاد اليونان. ولو لم تعقه شؤون الدولة لانضمّ اليهم في دراساتهم وأشرف على انجازهم تمارينهم، لقد كان خير أب في روما وأشدهم حُبّاً باولاده.

في المحيط السياسيّ لتلك الفترة من الزمن كانت الحرب بين الرومان وبين [پيرسيوس Perseus](١٠) ملك مقدونيا، تحتل مركز الصدارة. وكانت الأصوات في روما تجأر بالشكوى والتذمر الشديدين من قوّادهم(١١). فهؤلاء كانوا يديرون أمور الحرب بشكل يبعث الأسى والخجل. لإفتقارهم الى الحنكة والشجاعة حتى أن الخسارة التي يلحقونها بالعدوّ كانت أقل بكثير مما ينالون منها على يده. أولئك الذين أرغموا منذ زمن غير بعيد - انطيوخوس الأكبر على الجلاء عن بقية آسيا(١٢) والانسحاب الى ما وراء جبال طوروس، والاقتصار على سورية مسروراً لشرائه الصلح بخمسة عشر الف تالنت(١٣). أولئك الذين لم يمر زمن طويل على انتصارهم على [فيليب] الملك في [ثسالي] وتحرير الاغريق من النير المقدوني(١٤) لا بل انتصارهم على [هنيبعل] نفسه ذلك الذي فاق كل الملوك في البأس والسلطان بمدى بعيد، وأعتبر الرومان سُبّةً وعاراً عليهم أن يجد [پيرسيوس] نفسه نداً للرومان وقريناً قادراً على شنّ حربٍ ضدهم على قدم المساواة لمدة طويلة بما تبقى فقط من قوات أبيه المحدورة. جاهلين ان فيليب بعد هزيمته قد رفع كثيراً من مستوى الجيش المقدوني قوةً ونظاماً.

أتخذ [انتيغونس Antigonus](١٥) لنفسه ولعقبه لقب ملك وهو أقوى وأبرز قادة [الاسكندر] وخلفائه. وكان له ابن يدعى [ديمتريوس]، أنجب ابناً سماه [انتيغونس] عرف بلقب [غوناطاس Gonatas] وخلف هذا بدوره ابناء دعاه [ديمتريوس] مات بعد ان حكم فترة قصيرة واورث الملك لابنه الصغير [فيليب] ولخوف رؤساء المقدونيين من وقوع فوضى عظيمة

---

(١٠) كانت الحرب المقدونية الثانية مع [پرسيوس] قد بدأت في العام ١٧١ ق.م.

(١١) هؤلاء القادة هم: پاولوس ليچينيوس كراسوس، تلاه اميليوس هو ستيليوس مانچيتوس، ثم كونيتس مارشيوس فيليوس الذي مدّ في أجل الحرب طويلاً. من خلال سنوات قنصلياتهم الثلاثة.

(١٢) قبل ذلك بسبع عشرة سنة.

(١٣) يقول ليڤي بل أثنا عشر الفاً تدفع باقساط متساوية خلال اثني عشر عاماً [المرجع السالف ٣٨: ٣٨].

(١٤) نهض فلامنينوس (انظر سيرته) بهذه المهمة. فأهلك ثمانية آلاف من رجال فيليب في ساحة القتال وأسر خمسة آلاف. بعدها أرسل منادياً يبشر بنبأ عودة الحرية الى بلاد الاغريق.

(١٥) انتيغونس هذا فتك بـ[اڤمينس] وانتزع (بابل) من يد (سلوقوس) وبعد ان دحر ابنه ديمتريوس اسطول بطليموس كان أول من لبس التاج من بين خلفاء الاسكندر وأتخذ لقب ملك.

في البلاد، جراء حداثته، استدعوا ابن عمٍ لابيه المتوفى يدعى [انتيغونس] أيضاً وزوجوه بالأرملة والدة [فيليب]، وجعلوه أول الأمر وصياً وقائداً للجيش فحسب. ولما وجدوا بالتجربة أنه يحكم المملكة بعدلٍ ويحقق لها الخير منحوه لقب ملك. وهذا هو الذي عُرف بلقب [دوسون Doson](*) كأنما كان واعداً جيداً ومُنجزاً سيئاً. وخلّفه [فيليب] في الملك وكان في شبابه قد أظهر ما يبشر بآمال كبيرة في أنه سيضاهي خير الملوك. وانه سيعيد لمقدونيا يوماً ما منزلتها وعظمتها السالفة. وسيثبت انه الرجل الوحيد القادر على الحدّ من السلطان الروماني الذي قويت شوكته وارتفع وامتد ليشمل الدنيا. إلاّ أن نيته خابت عندما حلت به الهزيمة أمام [تيطس فلامينيوس] في معركة حاسمة بالقرب من [سكوتونيا Scotussa]، ووضع نفسه وكلّ ما يملك تحت رحمة الرومان، مغتبطاً لتمكنه من الخلاص بدفعٍ غرامة زهيدة. ولكن ما لبث أن ضاقت نفسه ذرعاً بالأمر ولم يطق عليه صبراً فبعد أن راحت السكرة وجاءت الفكرة - وجد نفسه يعيش أكثر شبهاً بالعبد المستسلم للراحة، من الحرّ الشجاع العاقل، يحكم مملكته وفق إهداء الفاتحين وبحسب مشيئتهم، فتركز كل افكاره في الحرب ودفعته الى الأستعداد لها بكلّ ما وسعه من حيلة وخفاءٍ. ولهذا ترك مدنه الواقعة على الطرق الخارجية دون حاميات، وجرّد سواحل بلاده البحرية من الحراسة حتى بدت مهجورة، إظهاراً لعدم اهتمامه بها. بينما راح في الوقت نفسه يحشد قوات كبيرة في المناطق العليا من البلاد، ويمدّ نقاطه العسكرية الداخلية وقلاعه ومدنه بالمال والسلاح والرجال القادرين على حمل السلاح يُعدّ بها عدته للحرب. إلاّ انه أبقى استعداده هذا سراً. وكان قد اختزن في مستودعاته الحربية ما يكفي لتسليح ثلاثين ألفاً. وفي اهرائه ومواقعة الحصينة أحتكر ثمانية ملايين بوشلاً من القمح. ومبالغ طائلة من المال تكفي لصرف رواتب ونفقات عشرة آلاف من الجنود المرتزقة يدافعون عن البلاد لمدة عشر سنوات. وقبل أن يضع فكرته هذه موضع التنفيذ أو يفيد من استعدادته العسكرية قضى نحبه حزناً وتأنيبَ ضمير، بعد أن أدرك هول ما فعل بقتله ابنه البريء [ديمتريوس] بسبب وشاية شخص أكثر اجراماً، أو أورث ابنه الثاني [پيرسيوس] الذي خلّفه على العرش، كرهه للرومان، إلاّ انه لم يكن كفوءاً لتحقيق مأربه لافتقاره الى الشجاعة ولسوء طباعه. وكان الطمع في مقدمة امراض نفسه وأخطائها. وهناك أيضاً رواية تتضمن طعناً في نسبه. خلاصتها أن امرأة فيليب الملك أخذته من أمّه الحقيقية [غناثينيون Gna-thaenion] (وهي امرأة أرغوسية تعيش على مهنة الخياطة) فور وضعه، وقدمته لزوجها على انه ابنه، وربما كان هذا السبب الرئيسي لدسّه على [ديمتريوس] وموته اذ كان لا شكّ

(*) دوسون معناها ذلك الذي سيعطي.

يخشى أن ينكشف عن ميلاده الوضيع طالما يوجد خلف شرعيّ في الأسرة.

وبصرف النظر عن هذا، ورغم خلقه الوضيع وطباعه الدنيئة فقد وضع ثقته في قوة موارده وشن حرباً على الرومان واستمر بها سجالا وقتاً طويلاً يصّد خلالها الهجمات، بل حتى يهزم بعض القادة من ذوي الرتب القنصلية وبعض الجيوش والاساطيل الكبيرة. وهزم [پوبليوس ليجينيوس Publius Licinius] أوّل من غزا مقدونيا، في معركة خيالة[١٦] وقتل الفين وخمسمائة من الجنود المدربين واسر ستمائة. وباغت اسطولهم وهو ملق مراسيه امام [اوريوم Oreum][١٧] فاستولى على عشرين سفينة حمل موسقة بحملها وحطم ما كان محمّلاً بالقمح واستولى على أربع بوارج ذوات طبقات مجاذيف اربع. وخاض معركة ثانية ضدّ هوستيليوس وهو قنصل عسكري، اثناء توغله في البلاد وأجبره على التقهقر بعد قتال ضارٍ بالقرب من [اليميائي Elimiae]. وتحدّاه مرة أخرى للقتال عندما دبرّ غارة تسلليّة على (تسالي) فخاف هوستيليوس النتيجة وأبى القتال. ومضى أبعد من هذا أظهاراً لازدرائه بالرومان ورغبة في اشغال نفسه خلال فترات وقف الحرب معهم، فحمل على الدردانيين Dardanians وقتل من هذا الشعب البربري عشرة آلاف وحمل عنهم غنائم كثيرة. وتمادى، ففاوض الفاليين [ويسمون أيضاً باستيرني: Basternae] سراً وعقد معهم حلفاً. وهؤلاء شعب محارب أشتهر بالفروسيّة كان يسكن مشارف الدانوب. واستمال (الألليريين Illyrians) بوساطة ملكهم [گنتيوس Genthius]. للإنضمام اليه في الحرب. وذكرت الأخبار أيضاً أن البرابرة يهمّون بغزو ايطاليا من بلاد الغال الجنوبية القريبة من ساحل الأدرياتي[١٨]، باغرائهم بالوعود والمكافآت.

وعند ما أحيط الرومان علماً بهذه الأمور وجدوا ان الضرورة تقضي بألاّ يتمّ أختيار قادتهم بعامل المحاباة والرجاء والتوسط. بل المبادرة الى انتخاب جنرالٍ ذي كفاءةٍ وحكمة للتصرف في الأمور الجُسام. وكذلك كان پاولوس اميليوس. فمع تقدمه في السن ومشارفته على الستين، فقد ظلّ قوي البدن، غنياً باولاده وأختانه الشجعان، فضلاً عن العدد الكبير من أقربائه واصدقائه المتنفذين وكلهم اجتمعوا عليه يلحّون لكي يستجيب الى رغبة الشعب الذي

---

(١٦) قدم لنا ليڤي وصفاً لهذه المعركة في آخر كتابه الثاني والاربعين. عرض (پرسيوس) الصلح على المندحرين بشروط سهلة كأنما هو المغلوب. إلاّ ان الرومان رفضوها. اذ كان من مباديء الرومان أن لا يعقدوا صلحاً وهم مغلوبون.

(١٧) في اڤبويا.

(١٨) انظر پوليبيوس. وهو كاتب معاصر. يروي عما حصل في السفارة التي بعث بها [پرسيوس] لقد حاول ايضاً مع [يومينيس] ملك بثينيا وأرسل وفداً الى انطيوخوس ملك سورية قائلاً ان الرومان اعداء جميع الملوك على حَدّ سواء الاّ أن يومينيس طلب الفاً وخمسمائة تالنت فتوقفت المفاوضات. وقد أحدثت المفاوضات بحدّ ذاتها جفوةً بين الرومان وبين صديقهم يومينيس ولم يستفد منها پرسيوس.

دعاه لقبول منصب القنصل. فأبدى في أول الأمر احجاماً وخجلاً من الشعب واراد أن يتخلص من الحاحهم مظهراً تردده في تولي المنصب. ولكنهم ظلوا يتوافدون على منزله يومياً ويقفون على بابه طالبين منه الخروج والذهاب الى مقرّ الانتخاب، ويشتدون في الالحاف عليه بالصياح والهتاف، حتى نزل الى رغبتهم. وعندما بدا بين المرشحين، بدا وكأن ظهوره ليس للادعاء بالمنصب بل ليجيئهم بالنصر والنجاح، هكذا بدا عندما دخل مخيّم الاجتماع. فأستقبله الجميع بالأمل والغبطة العظيمين وأختاروه بالاجماع قنصلاً للمرة الثانية ولم يصبروا على اجراء الاقتراع كالعادة حول الاقليم الذي سيكون من نصيبه وانما أعلنوه في الحال، قائداً للحرب المقدونية. وقيل أنه بعد صدور الأمر بتعيينه قائداً ضد [پرسيوس] وتكريم الجمهور العظيم بمرافقته الى منزله وجد بنته الطفلة [ترتيا Tartia] تبكي فجذبها اليه وسألها عن سبب بكائها فطوقت عنقه بذراعيها وقالت وهي تقبله:

- الا تدري يا أبي أن [پرسيوس] مات؟

تقصد كلباً صغيراً بهذا الاسم ربي معها في الدار. فأجاب اميليوس :

- فأل حسن يا ابنتي، واني لأتقبّلها كما أتقبّل نبوءةً!

لقد ذكر شيشرون Cicero الخطيب هذه الحكاية في كتابه عن «النبوءات»[١٩].

جرت العادة أن يرتقي القناصل الذين تمّ انتخابهم منصّة معدّة لذلك الغرض والقاء خطبة على الجمهور يضمنونها شكرهم وامتنانهم لما حبوهم به من الثقة. وهكذا اجتمع لاميليوس جمهور لسماعه فكان مما قاله:

- عندما رشحت نفسي لمنصب القنصل أول مرةٍ فاني كنت في حاجة الى التكريم انا نفسي. أما الترشيح للمرة الثانية فلأنكم كنتم فعلاً في حاجة الى جنرال، ولهذا لا أرى ما يدعوني الى تقديم الشكر لكم.

فاذا حكمتم بأن في مقدوري ادارة شؤون الحرب بصورة أكثر فائدة ونجاحاً، بشخص آخر غيري فاني متنازل له عن طيب خاطر. واذا وضعتم ثقتكم الكاملة بي فعليكم ألاّ تنصبوا من أنفسكم زملاء لي تشاطرونني الوظيفة أو تنتقدون أعمالي أو تقدموا تقارير، بل عليكم أن تعملوا بدون كلام - على إمدادي بالوسائل الضرورية والمعونة الواجبة للاستمرار في الحرب. أو لو كان قصدكم أن تتولوا قيادة قائدكم فان هذه الحملة ستكون أخيب من سالفتها.

---

(١٩) يقول ليڤي [٤٤:١٧] بعكس ذلك.

وأشاع بهذه الخطبة إحتراماً عميقاً له في نفوس المواطنين، كما بعث آمالاً عراضاً في النجاح المقبل. وسُرّ الجميع لأنهم تخطوا الطامحين الى المنصب والباحثين عنه بالتملق والمداهنة، ليستقر قرارهم على قائد له من الحكمة والشجاعة ما يكفل قوله الحقيقة والمصارحة مهما كانت مؤلمة. الى هذا القدر كان الرومان يحنون هاماتهم في طاعة القنصلية والمعقولات، ولولا ذلك لما حكموا الدنيا وغدوا أسيادها.

ويمم اميليوس وجهه شطر الحرب فوراً. وأنطلق مسرعاً الى معسكر جيشه في رحلة موفقة خالية من الأخطار رعاه خلالها طالع سعوده؛ على اني حين أتامل بحسن نهاية الحرب تحت قيادته، فلا يسعني إلاّ استبعاد الحظّ من تلك الاعمال المجيدة والمآثر السامية. (لا مثلما عزوت اليه أعمال قادة آخرين) وأن كان قد أشتهر للغاية بحسن الحظّ. إن انتصاراته كانت حصيلة جرأته الفائقة، واصالة افكاره، وتوجيهه الحازم لأتباعه واصدقائه وحضور بديهته، ومهارته في أختيار أصلح الآراء وأجدر المشورات في احرج ساعات الضيق والخطر العظيم. هذا ان لم يذهب بي الرأي الى أن جشع [پرسيوس] وحبه الشديد للمال كان بمثابة مطلع يمن لأميليوس. والحق يقال أن حرص [پرسيوس] على ماله قضى بالدمار والخراب التام على كل الاستعداد الحربي العظيم الرائع الذي أصعد آمال المقدونيين الى درجة الايمان بكسب الحرب لا محالة. فقد دعا عشرة آلاف من [الباستيرني] وكل واحد منهم يلازمه واحد من المشاة[٢٠] وكانوا كلهم جنوداً محترفين لا يعرفون غير القتال صناعة وتجارة، ولا غرض لهم إلاّ التغلّب على من يقاومهم. ولا يفقهون شيئاً من الزراعة أو ملاحة السفن أو الرّعي. وصل هؤلاء مديكا[٢١] وضربوا خيامهم فيها وأمتزجوا بجنود الملك. وكانوا ضخام الأجسام يمارسون تمارين عجيبة، كثيري المباهاة، يوقع اصواتهم الجهيرة الرعب في قلوب العدوّ. وكل هذا رفع معنويات المقدونيين الذين اعتقدوا حالاً بأن الرومان لن يصمدوا أمامهم، وسيصابون بذعر وهلع لمنظرهم الغريب وحركاتهم المتسمة بطابع القوة والعنف. بعد أن بث [پرسيوس] الحماسة في نفوس جنوده وانعش آمالهم. تقدم رؤساء الجيش الحليف يطلبون من [پرسيوس] ألف قطعة ذهبية لكلّ واحدٍ فذهل وطار صوابه لجسامة المبلغ. وما لبث أن انسحب عنهم وحرم

(٢٠) وصف ليڤي [٤٤:٢٦] هذه الخيالة وصفاً جيداً الى جانب جندي المشاة المرافق أذ يقول «أقبل عشرة آلاف خيّال ومثلهم من المشاة يسايرون الخيالة خطوةً بخطوة. ما ان يفقد احد الخيالة حصانه حتى ينضم الى المشاة» وقد تبنى الرومان هذا التنظيم في صنف الوحدات الخفيفة وأطلقوا عليه اسم Velites بناء على اقتراح السنتوريون [كوينتوس ناڤيوس] اثناء حصار [كاپوا] في الحرب الفينونية الثانية [ليڤي ٢٦:٤]. ما ان علم پرسيوس بقدوم الباسكرناي حتى ارسل انتيغونس لاستقبال ملكهم كلودنديقوس فقال هذا ان الغاليين لن يخطوا خطوة واحدة دون ان يدفع لهم المال. فرفض پرسيوس ذلك لفرط بخله وقصر نظره.
(٢١) منطقة ميديكو في تراقيا تقع بين نهري ستريمون ونيسوس (أونستوس).

نفسه من معونتهم. وكان بهذا أشبه شيء بوكيل أملاك للرومان لا عدواً لهم. وكيل عليه أن يقدم حساباً بنفقات الحرب لمن شنّ عليهم الحرب، بل وكأن خصومه اساتذة يلقن على ايديهم ما يفعل، وهم الذين حشدوا له مائة ألف مقاتل دفعةً واحدة، ناهيك باستعداداتهم الأخرى. لقد كان يواجه هذا الجيش اللجب في حرب عظيمةٍ تضمّ هذا العدد الضخم من المحاربين، ومع هذا لم يبذل شيئاً من ماله بل ختم على خزائنه. وأستبد به الخوف من مسّها حتى لكأنها ملكُ لغيره. هذا ما فعله رجل لا هو باللّيدي ولا بالفنيقيّ، بل رجل له حق الادعاءِ بالانتماء الى [الاسكندر] و[فيليب]، وتصله بهما وشائج النسب. إن الرجال الذين فتحوا العالم كانوا يرون أن الامبراطوريات يجب أن تشرى بالمال، لا أن يُشرى المال بالامبراطوريات. ومما جرى مجرى الامثال قولهم: «إن مدن اليونان لم يفتحها [فيليب] بل فتحها المال». ولما زحف الاسكندر بجيشه على الهند، ولاحظ بطئاً في مسيرة المقدونيين لما أثقلوا به أنفسهم من غنائم الفُرس بدأ فأشعل النار في عرباته، وحمل الآخرين على احتذاء حذوه. وبتخلصهم من هذه الأثقال أمكنهم الانطلاق الى المعركة دون عائق. أمّا [پرسيوس] فلم يدفع الغائلة عن نفسه وأولاده ومملكته بجانبٍ صغيرٍ من أمواله وكنوزه الطائلة، وأختار أن يحمل أسيراً مع عدد آخر من مواطنيه بأسم «الأسرى الاغنياء»، ليُري الرومان الأموال الطائلة التي جمعها وادّخرها لهم. إنه لم يكتف بمخاتلة الغاليين، واعادتهم من حيث أتوا. بل بعد أن أشبع [گنثيوس] ملك الايلليرين بالوعود ومنّاه بثلاثمائة تالنت لقاء مساعدته في الحرب، أمر أن يحصى المبلغ بحضور رسُله وان تختم حقائبها. وعندها ظنّ [گنثيوس] ان المال أصبح ملكاً له، فبادر الى ارتكاب عملٍ قبيح مخجلٍ بقبضه على سفراء روما وحبسهم. فاطمأن [پرسيوس] ورأى انه لم يعد بعد بحاجة الى دفع المال [لگنثيوس] لشراء عدائه للرومان بعد أن صنع بسفرائهم ما ولد عداءً ابدياً وورطه في حرب لا مناص منها بهذا الغدر الفاضح. وهكذا احتال على الملك البائس فسلبه تالنتاته الثلاثمائة، دون اي وازع من ضمير. وشاهد طرده هو وزوجه وأولاده من مملكته كما تطرد الطيور من عشها - بالجيش الذي ساقه الرومان عليه تحت قيادة [لوشيوس آنيشيوس][٢٢].

لم يتهوّل اميليوس خصمه بل لم يقم له وزناً في الواقع، الاّ أنه أعجب باستعداداته وقوته. اذ كان قد عبّأ أربعة آلاف من الخيالة وما يناهز أو يكاد اربعين ألف راجل. بشكك سلاحٍ كاملة للكراديس المقدونية المعروفة بالفلانكس Phalanx نشرهم في مواقع تحاذي الساحل

(٢٢) أنظر ليڤي [٤٤: ٣٠ و٣١] دامت الحملة ثلاثين يوماً فقط ووصلت انباؤها روماً قبل ان عرفت التفاصيل. ومن اسم غيتوس هذا اشتق اسم عشب الجنطيانا لأنه أوّل من أكتشف مرارته المفيدة [پليني ٢٧:١٧].

على سفح جبل الأولمب في أرضٍ لا منفذ اليها من كل الجهات، أحكم تحصينها بالمواقع والعوائق الخشبية فأضت منيعة يصعب اقتحامها. وكان [برسيوس] يأمل أن يغلب خصمه اليأس والتعب بالتأخير. وكثرة الإنفاق. إلا أن اميليوس كان في هذا الوقت بالذات يعمل الفكر ويزن الآراء ويقلب في ذهنه إمكانات الهجوم ووسائله. ولقد وجد جنوده ناقمين متذمرين من تأخير الهجوم، بسبب إفتقارهم الى الضبط والربط العسكريّ وهم يهتبلون كل فرصة للتدخل وتعليم قائدهم واجباته! فانحى عليهم تقريعاً وتوبيخاً، وحظر عليهم التدخل فيما لايعنيهم، ونبههم الى الاهتمام فحسب باليقظة والاستعدادهم وسلاحهم بصورة مستمرة. وان لايستعملوا سيوفهم. بوصفهم رومانيين إلاّ عندما يرى قائدهم ذلك. كما أنه منع الحرس الليلي من اصطحاب رماحهم الثقيلة عند قيامهم بنوبات خفارتهم، ليكونوا أكثر انتباهاً، وأقوى على مغالبة النوم حين لايوجد سلاح فعّال في يدهم يدافعون به عن أنفسهم اذا فاجأهم العدو.

وكان شحّ الماء مصدر ضيق الجيش الرئيس. فما توفر منه وهو نزر مجّ يصدر أو بالأحرى ينزل بقطراتٍ من ينبوع قريب للبحر. ورأى اميليوس أن يعسكر فوق سفح جبل الاولمب الشاهق المشجرّ. ومن نموّ الغابات الكثيف وازدهارها استنتج وجود مياه جوفية ذات مجارٍ باطنيّة فحفر عدداً كبيراً من الآبار والحُفَر على طول قدمة الجبل ما لبث الماء أن نبط منها نقياً عذباً وفاض منها الى السواقي التي حفرت لها والاحواض التي رتبت لاستقبالها. في الواقع هناك بعض من ينكر وجود صهاريج ماءٍ ممتلئة في باطن الأرض في المواضع التي تنبثق منها الينابيع وانها عندما تنبثق يسيل ماؤها ويتحدرّ ليس إلاّ. انهم ينكرون ذلك ويزعمون أن هذا المخزون من الماء انما يكون أوّل تكوينه واجتماعه من تميعّ المواد المحيطة به وأن هذا التغيير يتمّ بالضغط والبرودة، عندما تتبخر الرطوبة ويشتد الضغط على البخار يصبح مائعاً. مثل اثداء النساء فهي لا تشبه الأوعية الملأى بالحليب معدّ ومهيأ دائماً للسيلان. وإنما يتغير غذاؤهن في اثداؤهن، الى حليبٍ ويسيل خارجاً بالضغط. وكذلك الحال في المواضع الباردة الغنيّة بالينابيع، فهي لا تحوي أيّ مياه جوفية أو صهاريج لتزويد كل البحيرات والانهار العميقة الغور كأنما تستمّد الماء من مصادر لاتنضب قطّ. إلاّ أنها تكثف الأبخرة والاهوية وتضغطها وتحيلها الى تلك المادة المائعة. ولذلك تجد الماء يندفع بهذا الضغط في الأمكنة التي تحفر وتفتح، وتعطي من الماء بقدر ما يترطب البخار ويتميّع (مثل ما تحتلب اثداء النساء عند الضغط عليها) في حين ان الاراضي المهجورة التي لا تحفر، تعجز عن انباط الماء لأنها تحتاج الى الحركة التي هي سبب التميع. إلاّ أن أصحاب هذا الرأي يتيحون الفرصة للمرتابين بقولهم

- يجب والحالة هذه وللأسباب نفسها الاّ يوجد دمٌ في الأجسام الحية وان الدماء يجب أن تتكون بالجراح اي أن نوعاً من الروح أو اللحّم يتحول الى مائعٍ أو مادةٍ سائلة! زد على ذلك أن تعليلهم تدحضه الوقائع العملية فالناس الذين يحفرون انفاقاً سواء في أوقات الحصار أو بحثاً عن المعادن، قد يصادفون انهاراً لم تجمع ماءها شيئاً فشيئاً (كما يقضي التعليل، أي اذا كان تكوينها يتم في اللحظة التي تثغر الأرض) بل تتدفق فجأة باندفاع كميات عظيمة من الماء بعنف ثم يقف التدفق فجأة كما يُرى كثيراً عند قطع صخرةٍ. ولنترك هذه المسألة.

ظلّ اميلليوس ساكناً عدة أيام. وقيل لم يحدث أن جيشين عظيمين كانا متقاربين بهذه الدرجة، هادئين ساكنين بهذه الدرجة. وعندما استنفد تجربة كل شيء، وقلب وجوه النظر في كل الانباء والمعلومات. أبلغ بوجود ممر واحدٍ فقط تُرك دون حراسة[٢٣] يقع في [پيرّبيا Per-rhabia] بالقرب من بثيوم وپترا. وتغلب فيه عامل الأمل بترك العدو هذا الموضع من غير دفاع على عامل التخوف من وعورة الممرّ وصعوبة اجتيازه فأمر بعقد مجلس حربٍ للتداول في الأمر، وكان من بين الحاضرين [سكيپيو] الملقب [ناسيكا Nasica] ختن [سكيپيو افريقانوس]، (نال أعظم النفوذ فيما بعد في مجلس الشيوخ)، وعرض نفسه لقيادة الجيش الذي تقرّر ارساله للاحاطة بقوات العدوّ، وتلاه [فابيوس ماكسيموس] ابن اميليوس البكر وكان في شرح شبابه، فاشاع اندفاعه وحماسته الشديدين السرور في نفس أبيه، وأمّرهما على قطعات عسكرية أختلف في عددها [پوليپيوس Polybius] مع ما ذكَرهَ لنا [ناسيكا] نفسه. قال هذا في رسالة مقتضبة بعثها الى أحد الملوك[٢٤] بخصوص الحملة أن الجيش الذي قاده كان يضم ثلاثة آلاف مقاتل ايطالي غير روماني. وأن ميمنته قوامها خمسة آلاف والحق به مائة وعشرين فارساً مع سرية مختلطة قوامها مائتان من التراقيين والكريتيين ارسلها [هرپالوس Harpalus].

اتجه [ناسيكا] بقطعاته نحو البحر وعسكر بالقرب من «هراقليوم»[٢٥]، موهماً العدوّ بأنه يريد ركوب البحر والاقلاع للاحاطة بالعدو من جهة البحر. وعندما انهى الجنود وجبة عشائهم

---

(٢٣) من تاجرين في پيرينيا في تساليا [ليفي ٤٤:٣٥] وبيثيوم أو بيثوم هي مدينة في مقدونيا، وپترا قلعةٌ في البلاد نفسها.

(٢٤) لا وجود لا لرسالة [ناسكا] ولا لتقرير [پوليبيوس].

(٢٥) اذاع القنصل أنهم سيستقلّون الاسطول الذي كان قد أُمر بالارساء بعيداً عن الساحل بقيادة البريتور أوكتاڤيوس، موهماً العدو بأنه يقصد أجتياح سواحل مقدونيا. لكن القصد الحقيقي كان اخراج [پرسيوس] من معسكره [ليفي ٤٤:٣٥]. وهذه المدينة (هراكليوم) وهي واحدة من أكثر من أربعين مدينة بهذا الاسم منتشرة في ارجاء العالم القديم - تقع في لنسنتس وهو من اقاليم مقدونيا لاتبعد كثيراً عن غرب خليج (ثيرما).

وخيمَ الظلام، جمع الضباط وأبلغهم بالخطة الأصلية. وأنطلق يسري طوال الليل في الاتجاه المضّاد مبتعداً عن البحر حتى بلغ به السُّرى الى موضع يشرف عليه معبد ابوللو وفيه اراح عسكره برهةً.

يرتفع جبل الاولمپ في هذا الموضع الى ما يزيد عن عشرة فُرلُنغات (حوالي الفي يارد) كما يظهر من ابيات نظمها الشخص الذي قاس ارتفاعه واليك هي:

إن قـمـة الأولمپ من الموقع الذي يقـوم عليـه

معبد ابوللو، يبلغ ارتفاعها عشرة فرلنغات كاملة

بخطٍ عمودي. وقد تزيد عن عشرة فُرلنغات

بمائة قدمٍ إلاّ أربع. وإن گزيناغوراس

Xenagoras ابن يوميوس Eumelus بلغ هذا الموضع

فالى الملتقى أيها الملك، وقم بحجّك المبرور

يقول علماء الهندسة - ليس بين الجبال ما يزيد ارتفاعه عن ألفي ياردٍ وليس بين البحار ما ينزل عمقه الى أكثر من هذه المسافة ومع هذا فيبدو ان [كزيناغوراس] لم يقم بقياساته تلك اعتباطاً وانما بحسب قواعد العلم وبآلات وافية بالمرام.

هنا قضى ناسيكا ليلته، وكان أحد الجنود الكريتيين قد فرّ في اثناء المسيرة ولجأ الى العدوّ، وهناك أفضى الى [پرسيوس] بفحوى الخطة التي رسمها الرومان لتطويقهم. وكان پرسيوس خالي الذهن تماماً من إحتمال قيام اميليوس بمثل هذه المحاولة، وهو جاثم لا يحرك ساكناً أمامه. فصعق للنبأ، إلاّ أنه لم يضع جيشه في الإنذار ولم يتم بتحريكه. بل أكتفى بوضع عشرة آلاف من المرتزقة والفين من المقدونيين تحت أمرة [ميلو Milo] وأمره بمسك كل الشعْب والمسالك وتثبيت اقدامه فيها. ويحدثنا [پوليبيوس] ان الرومان فاجاؤا هؤلاء وهم نائمون. لكن [ناسيكا] يقول أن المعركة كانت ضارية والصدام دموياً على القمة. وانه هو نفسه نازل تراقياً من المرتزقة واصماه بطعنة رمح نجلاء فأرداه قتيلاً وان العدوّ أرغم على التقهقر وألقى بمعاطفه وفر فراراً مخزياً تاركاً سلاحه ودروعه في الميدان. واستأنف [ناسيكا] تقدمه وهبط بالجيش سالماً الى السهل.

وملك الخوف [پرسيوس] بعد هذه الموقعة، وهبطت آماله الى الحضيض فبادر الى نقل معسكره باسرع ما أمكنه. وكان عليه أن يختار أحد أمرين، أما التوقف أمام [پيدنا -Pyd

na] وهذا يؤدي به الى المخاطرة بمعركةٍ حتماً. وامّا أن يقوم بتوزيع قطعات جيشه على المدن المقدونية وينتظر قدوم الحربِ الى عقر داره. حربٌ إن وجدت سبيلها الى بلاده صعب الخلاص منها دون سفك دماءٍ ثرة وهلاك أنفس كثيرة. إلا أن ما أحيا في نفسه الشجاعة هو قول اصدقائه له، بانه متفوق على العدوّ عددياً. وان عزيمة الرجال تشتد وبسالتهم تتضاعف لما يدافعون عن أولادهم وزوجاتهم، سيّما اذا كانت بمحضر ومرأى من ملكهم المعرضّ الى الاخطار نفسها. فضرب خيامه حيث هو وأخذ يتأهب للقتال. فأستطلع الأرض ووزع القيادات والأوامر كأنما قرر أن يحمل على الرومان حالما تبدو له طلائعهم وكان الموقع صالحاً لحركات الفلانكس التعبوية ومناوراتها، لأنها تتطلب ارضاً مستوية، وميداناً خالياً من العوائق. وكان فيها أيضاً آكام لا تُحصى تتصل أحداها بالأخرى وتفيد في حركات الكرّ والفرّ للقطعات الخفيفة والاشتباكات الجانبية، ويخترق وسطها [ايسوت Aeson وليوكس Leucus] وهما نهران قليلا العمق في ذلك الوقت من آخر الصيف. إلاّ انه كان المحتمل أن يخلقا للرومان بعض المتاعب.

في اللحظة التي انضّم اميليوس الى [ناسيكا] اتخذ نسق المعركة وتقدماً نحو العدوّ. واستعرض اميليوس صفوفه المنتظمة في أسلوبٍ رائعٍ فلم يسعه إلاّ الاعجاب والدهشة واصدر امره بالوقوف. وأخذ يفكر في الأمر ملياً. وراح صغار الضباط المتحمسين للقتال يلحون عليه وهم راكبون الى جانبه - ببدء المعركة فوراً وكان ناسيكا المنتشي بخمرة نجاحه الأخير في الأولمپ أشدّهم الحاحاً ولجاجة. فردّ عليه اميليوس باسماً

- كذلك كنت أفعل وانا في مثل سنّك يا صديقي، الاّ ان الانتصارات المتعددة هدتني الى السبل التي يمكن ان تؤدي بالرجال الى الهزيمة، وهي التي تمنعني من القاء الجنود في خضّم المعركة وقد اعياهم السير الطويل[٢٦] ضد جيش مستعدٍ منتظم الصفوف.

ثم انه أصدر أمراً بأن تنتظم طلائع الجيش وقطعاته التي يشاهدها العدوّ بنسق المعركة لتبدو وكأنها مستعدة للصولة. أما الباقي فعليه أن يخندق ويقيم التحكيمات لحماية المعسكر. حتى ينفسح مجال للمؤخرة القصوى أن تدور على نفسها شيئاً فشيئاً وتنسحب بالتعاقب وتحلّ صفوفها بحيث لا يشعر بها العدوّ. وبهذا تتمّ عسكرة الجيش دونما ضجّة أو عائق.

عندما جَنّ الليل وانهى الجنود وجبة العشاء وتهيأوا للراحة والنوم، زحف الظلام فجأة على وجه القمر وكان بدراً تمّاً، مرتفعاً في كبد السماء، وراح نوره يتضاءل بالتدريج متخذا ألوانا

(٢٦) ليڤي [٤٤:٣٦ - ٣٨] انظر خطبة (ناسكا) وجوابيْ ايميليوس عنها (احداها آنية، والثانية صدرت في اليوم التالي) فضلاً عن تفاصيل أخرى.

مختلفة، ثم حُجب تماماً بخسوف كليّ. فأنشأ الرومان على جاري عادتهم يقرعون الأواني النحاسية ويرفعون المشاعل والاخشاب الملتهبة في الهواء. ليحتثوا النور اليه(٢٧)، وكان ردّ الفعل عند المقدونيين عكس ذلك تماماً فقد استولى عليهم ذهولٌ ورعب عام، وسرت الشائعة في المعسكر من اقصاه الى ادناه، بأن هذا الخسوف هو نذير سوء حتى للملك نفسه. أمّا [اميليوس] فقد كان خبيراً في هذه الظاهرة غير جاهل بأسباب هذا الشذوذ في الطبيعة، فحقيقة الأمر: ان القمر في مسراه يدخل ظِلّ الأرض في دورة معينة من دورات الزمن ويظلّ مستتراً حتى يجتاز منطقة الظلام. وبعدها تلقى الشمس عليه نورها فيشع ضياءً. وكان [أميليوس] انساناً ورعاً تقيا حريصاً على مراسم القرابين. واقفاً على علوم النبوءات، فما أن لحظ القمر يستعيد نوره حتى قرب له أحدى عشرة بقرة من الأبكار، وعند انبلاج الفجر ضحّى بعشرين منها متعاقبة للربّ [هرقل] دون أن يظهر ما يشير الى قبوله الأضاحي وعندما قدم القربان الحادي والعشرين وردت الاشارة بأن النصر سيكون حليف من يقف موقف الدفاع. فنذر [أميليوس] قرباناً عظيماً عمومياً لـ: (هيكاتومب Hecatomb) وألعاباً رسميّة لهرقل. وامر رؤساء العسكر بالاستعداد للمعركة. وقدر لهم أن تبدأ عندما تتحول الشمس الى الغرب وتميل الى المغيب لئلا تبهر أشعتها عيون الجنود إن دارت رحى المعركة صباحاً. اما هو فقد أمضى تلك الفترة في خيمته التي كانت مفتوحة نحو السهل حيث معسكر العدوّ.

يذكر بعض المؤرخين أن أميليوس أستخدم عند حلول المساء لحمل العدوّ على المبادأة بالقتال حتى يتخذ هو موقف الدفاع تحقيقاً للنبوءة. فأطلق حصاناً بدون سرج نحو العدوّ وأرسل وراءه بعض الرومان ليتظاهروا بطرده، وهكذا بدأت المعركة. ويقول آخرون أن [التراقيين] هاجموا بقيادة المدعو [الكساندر] قطار حيوانات نقلية للرومان كانت تحمل علفاً للمعسكر. فدفع أميليوس بسبعمائة من الليغوريين لإسناد القافلة. وبدأت النجدات تتوالى تباعاً على الفريقين، حتى آل الأمر الى التحام الجيشين الرئيسين.

وكالربّان البعيد النظر، استنتج أميليوس بفكره الثاقب، مبلغ ما في العاصفة القادمة من هول، لشدّة اندفاع الجيشين والموجات التي كانت تتعاقب على الميدان، فخرج من خيمته ليمرّ بين صفوف فرقه مشجعاً ومحمّساً. كما تبين [ناسيكا] الذي اندمج بالمشتبكين وهو على جواده، ان قوات العدوّ كلها قد دخلت ميدان القتال وهي توشك على الالتحام. برز التراقيون

---

(٢٧) يخبرنا ليڤي أن (سولپيچيوس كاللوس) وهو تريبيون روماني قد تنبأ بالخسوف وأخبر القنصل ثم أنهى الأمر للجيش باذن منه ولذلك لم تبد الظاهرة مفاجأة للجيش الروماني ولم تشع الخوف فيهم كما هو شأن الناس ازاء هذه الظاهرة. وبهذا زادت ثقة الجنود الرومان بضباطهم ودخلوا المعركة وهم في أفضل حالٍ نفسيّ.

في المقدمة أولاً، وأوقع منظرهم الهلع في نفسه كما أخبرنا بشخصه. فقد كانوا ضخاماً عُتُلاً يحملون تروساً صقيلة كالمرآة تبرق بريقاً، ويشتملون بمعاطف سوداء، وتكسو سيقانهم طماقات معدنيّة راقية، وقد اردفوا وهم يتقدمون رماحهم المستقيمة المثقلة بالحديد، على أكتافهم اليمنى. وأعقبهم الجنود المرتزقة يحملون مختلف انواع الأسلحة، مختلطين بمحاربي (بايونيا Pæonia) ثم تلتهم صفوة من المقدونيين، تم انتقاؤها ممن عرفوا بالقوة والشجاعة وعنفوان الشباب تلمع أجسامهم بما عليها من الدروع الصقيلة وتبهر العيون معاطفها الارجوانية. وفيما كان هؤلاء يتخذون مواقعهم تحركت من المعسكر على أثرهم القطعات المعروفة باسم «التروس البرونزية» وهي معبّأة وفق نظام [الفلانكس] حتى بدأ السهل كله متوهجاً بالنحاس المجلوّ ساطعاً بالفولاذ المصقول، ورددت الآكام صدى هتافهم يحمّسون به بعضهم بعضاً. ويحثونهم على القتال. وصالوا صولة سريعة جريئة بترتيبهم هذا، فوقع أوّل القتلى منهم على مسافة لا تبعد عن معسكر الرومان أكثر من أربعمائة يارد. ونشب القتال حامياً، وبرز أميليوس الى الميدان ليجد أن الفصائل المقدونية المتقدمة قد أتمت غرز اسنّة رماحها في تروس الرومان وسمرتهم وحالت دونهم ودون اعمال سيوفهم فيهم، لما رأى ذلك، ولما شاهد بقية المقدونيين يتناولون درقاتهم المعلقة في أكتافهم اليسرى ويضعونها أمامهم درئُتم يوجهون أسنة حرابهم الى تروس أعدائهم، راعته قوة هذا الجدار من التروس المنيعة ومظاهر الإلتحام في تلك الجبهة الزاخرة بالسلاح فانتابه قلقٌ وذهول. لم تقع عينه من قبل على شيء كهذا ولقد ظلّ المنظر راسخاً في ذهنه بعد المعركة، كثيراً ما تحدث عنه ووصف الشعور الذي تملكه وقتئذ. وعلى أية حالٍ نفض عن نفسه الوجل، وأنطلق على صهوة جواده يجول في صفوف جيشه دون درع يحمي صدره، ولا خوذة تقي رأسه والهدوء والبشاشة تضيئان أساريره.

ويحدثنا [پوليبيوس] أن ما جرى في معسكر المقدونيين كان خلاف ما فعله اميليوس. اذ ما أن حمي وطيس المعركة حتى سارع ملك المقدونيين في الابتعاد بدناءة وخسّة ميمّماً شطر مدينة پيدنا(٢٨) بحجة تقديم قربان [لهرقل]، ذلك الآله الذي أنف عن قبول قرابين الجبناء التافهة وترفع عن تحقيق شروط النذور التي لاترضى السماء عنها. فالحق يقال انه لضرب من المحال أن يقبل الأرباب بفوز الخائر بالجائزة، أو انتصار المنسلّ من المعركة أو نجاح من لم يتعبه الوصول الى النجاح، أو أن يظفر الأشرار بما يتمنوّن. ولقد استجيب دعاء أميليوس،

---

(٢٨) [پيدنا] هي بلدة من مقاطعة پيريا في أقليم مقدونيا قرب رأس ثيرما أمّا پللاّ التي هرب اليها فيما بعد فهي تبعد عنها بمسافة قليلة الى الشمال وقد أشتهرت بكونها مسقط رأس الاسكندر الكبير.

لأنه صلّى للنصر والسيف في يده، وقاتل وهو يطلب عون الآلهة.

وثم مؤرخ ما، يدعى [پوسيدونيوس Posidonius][٢٩] الذي يزعم انه عاش في ذلك الوقت كان قد دون تاريخاً مفصلاً لپرسيوس، وشهد تلك الأحداث وضرب سهماً فيها، هذا المؤرخ ينفي ترك [پرسيوس] الميدان خوفاً أو بحجة تقديم القرابين ويقول أنه أصيب بضربة من ساق حصان في فخذه قبل المعركة بيوم واحد، وكانت اصابة خطيرة أعجزته تماساً، إلاّ أنه أمر أن يؤتى له بأحد خيول الركوب وبرز الى الميدان وهو أعزل رغم الحاح اصدقائه جميعاً؛ وبات هدفاً لما يحصى من الحراب يرشق بها من كل جهة، فاخطأته جميعاً الاّ واحداً مرق من جنبه الأيسر بقوة عظيمة فمزق ثيابه وأحدث في لحمه جرحاً سطحياً ظلّت ندبته مدة طويلة. هذا ما أثبته [پوسيدونوس] في صدد الدفاع عن پرسيوس.

عجز الرومان عن فتح ثغرة في [الفلانكس]. فما كان من [ساليوس Salius] أحد قواد البليغنيين Pelignians إلاّ وأختطف علم كتيبته وقذف به في وسط الأعداء. (عند الايطاليين كان يعتبر التخليّ عن الراية عاراً كبيراً وثلماً للشرف مهما كانت الظروف)، فاندفع البليغنيون بجنون ووحشية لاستعادتها، ووقعت مذبحة مريعة في صفوف الجانبين هؤلاء كانوا ينزلون الضربان بسيوفهم على قنا العدوّ ليقطعوها تقطيعاً أو يعملون على دفعهم الى الخلف بتروسهم أو إزاحتهم الى جانب بأيديهم وكان المقدونيون قابضين على قنطارياتهم الطويلة بكلتا اليدين يخرقون بأسنتها اجسام من تعترض سبيلها فتثقب دروعهم. وليس ثم درعٌ اوزرد يصمد لهذا السلاح. لقد سار البليغينون والمارسيون Marrucians[٣٠] الى حتوفهم الأكيدة دون أعتبارٍ بشيء وبحالةٍ من الهياج الوحشي لاتوصف فخروا صرعى في ساحة الوغى. أبيد اول خطٍ منهم ابادة تامة وأضطر من يليهم الى التقهقر بشكل لا يمكن وصفه بالهزيمة. وانسحبوا الى اكمة [أولوكروس Olocrus].

يقول [پوسيدونيوس]، لما شاهد [أميليوس] ما حصل مزق ثوبه عن جسمه، وهم بعض جنوده بالفرار، واحجم الباقي عن الاشتباك مع الفلانكس، فقد اصابهم يأس من فتح ثغرة فيه والتوغل في داخله فلقد كان وايم الحق سداً منيعاً لايمكن الدنّو منه ولا اقتحامه بخط قنطارياته الطويلة متلاحماً متقارباً يواجه المهاجمين انى تولوا، على أن طبيعة الأرض

(٢٩) قد يكون المقصود [پوسيدونيوس] الأيامي الذي كتب تكملة لتاريخ پوليبيو. اذ انه كان في روما زمن قنصلية [مارچللوس] وبعد هذه المعركة بمائة وثمانين عاماً. وقد اعتبره پلوتارخ على ما يظهر مؤرخاً متطفلاً أو قليل الأهمية عندما ذكره بعبارة تنّم عن ذلك.

(٣٠) من هذه الأقوام الايطالية كان المارسيون أول من سكن هناك وأصلهم من [السابين] وقد عاش هؤلاء في منطقةٍ مُعينة على ساحل البحر الأدرياتي.

المتعادية لم تكن تسمح للفلانكس بنشر جبهة طويلة تظلّ فيها التروس متلاحمةً آخذاً بعضها بحُجُز بعضٍ على امتدادها ولاحت لأسيليوس ثغرات وفراغات كثيرة فيه واستفاد مما يحصل عادة في اشتباكات الجيوش الكبيرة حيث يقوم المحاربون بمناورات وجهودٍ متباينة. ففي موضع يشتد ضغطهم على العدوّ ويستميتون في التقدم. وفي موضع آخر يتقهقرون. إذ أسرع الى حلّ صفوف فرقهم وأعادهم الى تنظيم الكوهورت Cohort الروماني المعتاد، وأصدر اليهم أمراً بأن يحملوا حملات متقطعة وبفترات متتالية هدفهم منها فتح ثغرات في جبهة العدوّ. وحظر عليهم أن يقوموا بهجوم شامل عليه بكلّ القوات، بل ان يشتبكوا معه في معارك جانبية ثانوية. أبلغ أميليوس هذه الأمر الى قوادّ الفرق، فنشروها بدورهم على الجنود. ثم بداؤا يطبقون الخطّة فما يكادون يلجون الثغرات ويتخللون الفراغات ويفصلون كتائب العدوّ بعضها عن بعض حتى يبداؤا بهجماتهم الموضعية، بعضهم يتعرض له من الجوانب حيث يكون مكشوفاً لايستره سلاح. وبعضهم يلتّف عليه ليهاجمه من الخلف. وبهذه الخطّة نجحوا في تحطيم الفلانكس المقدوني وكانت قوته تكمن في العمل الموحد والوحدة المتلاحمة. وآلت المعركة العامة بالنتيجة الى قتال الفرد للفرد، أو الفصائل الصغيرة للفصائل الصغيرة حيث ضربات سيوف المقدونيين القصيرة لاتنال مأرباً من تروس الرومان الطويلة، في حين لا تصمد دروعهم الخفيفة لطعنات سيوف الرومان القوية الثقيلة، فكانت تخترقها وتنفذ الى الأبدان. ولا نطيل القول، ما لبث المقدونيون ان انكفاؤا على الأعقاب وولوا الأدبار.

في زخم القتال، سقط سيف [ماركوس] ختن اميليوس وابن [كاتو] من يده وكان قد أبلى خير بلاء وأظهر من الشجاعة ما لا زيادة عليه. فحزّ ذلك في نفسه، ولا غرو فهو شاب فائر الدم وابن رجل شهير، ربي على أسمى المبادئ الخلقية وأشدها صرامة، فكانت تدفعه دائماً الى ابداء الشجاعة التي تجعله قُدوةً. ولهذا هانت الدنيا في عينه وعَدّ حياته عبئاً عليه أن عاش ليرى اعداءه يغنمون سلاحه فأخذ يركض هنا وهناك، مستوضحاً الوجوه وكلّما تبين له في احدهما صديقاً أو زميلاً أنهى اليه بمصيبته ورجا منه العون حتى اجتمع له عدد كبير من الشجعان فشقوا طريقهم كتلة واحدة وهو في مقدمتهم بين صفوف جيشهم وحملوا على الموقع فهزموا من فيه بعد معركة ضارية وكثير من الجرحى وأكثر منهم قتلى واتموا أحتلاله وأنطلقوا يبحثون فيه عن سيف [ماركوس] حتى استخلصوه من أكداس الأسلحة والقتلى. فطاروا فرحاً بنجاحهم وارتفعت اصواتهم بنشيد النصر، ثم واصلوا هجومهم وقد تضاعفت حماستهم - على من بقي صامداً في مواقع العدوّ. أخيراً تمّ القضاء على ثلاثة آلاف مقدوني ثبتوا الى آخر لحظة وواصلوا القتال بشجاعة مذهلة حتى النهاية. ووقعت مقتلة عظيمة بالغاريّن أيضاً

حتى أمتلأ السهل وسفوح التلال بجثتهم وصبغت الدماء مياه نهر [ليوكوس] الذي لم يعبره الرومان الا في اليوم التالي للمعركة. وقيل أنه قتل ما يزيد عن خمسة وعشرين ألفاً من جنود العدوّ. في حين يذكر [پوسيدنيوس] أن قتلى الرومان لم يزيد عن المائة ويقول [ناسيكا] انه ثمانون ليس غير. لقد تقرر مصير هذه المعركة في فترة وجيزة جداً على سعتها وأهميتها وضخامة الجيوش التي خاضتها فقد بدأ الاشتباك في الساعة الثالثة بعد الظهر وما أن أزفت الرابعة حتى كان العدوّ يولى الأدبار. وقضى المنتصرون بقية النهار في مطاردة الفارين فقطعوا في هذا، حوالي ثلاثة عشر وأربعة عشر ميلاً. ولما ثابوا الى المعسكر كان الليل قد تقدم بهم كثيراً. وأستقبلهم خدمهم بالمشاعل وجاؤوا بهم الى خيامهم التي كانت مضاءة ومزدانة بأكاليل الغار واللبلاب[٣١]، وهم يهتفون لهم ويهللون فرحين. لكنّ القائد العام كان حزيناً لأن أصغر ابنيه اللذين جاءا معه الى الحرب، لم يعد مع المنتصرين. كان أحبّ ابنائه الى قلبه لعلمه بتفوقه على كل أخوته في الشجاعة والخصال الحميدة فهو جريء، ركّاب خطر طماحاً الى المجد، ما زال في مطلع شبابه يافعاً[٣٢]. ولم يكن لاميليوس من سبيل الاّ ان يعتبره من الهالكين في حين أن قلّة تجربته في الحرب جعلته يتوغل كثيراً في صفوف الأعداء ويتأخر. ترك الجنود عشاءهم وحملوا المشاعل والمصابيح وتوجه فريق الى خيمة اميليوس بينما خرج فريق الى الخنادق يبحثون عنه بين قتلى أوّل الهجوم. وران الأسى والوجوم على المعسكر كله وضجّ السهل باصوات الرجال وهي تنادي [سكيپيو]. فهو على يفاعته موضع حبّ وأعجاب الكلّ لأنه بزّ اقرانه باخلاقه الرفيعة التي كانت تؤهله للقيادة والمشورة. وانصرم الليل أغلبه وكاد اليأس يستولى على الباحثين، واذا به يعود والدماء الجديدة تعلوه لقد افرط في استثماره نصره الأول وتمادى في الاستمتاع بفوزه مثل كلب أصيل. ذلكم هو [سكيپيو] الذي دوّخ قرطاجنة [ونومانتياً Numantia] وقوضهما، وكان بلا مماراةٍ أعظم من يستحق الاجلال والتعظيم بين كلّ الرومان، وأكبرهم سلطاناً ومكانة بينهم. هكذا أرجأت آلهة الحظّ استياءها وغيرتها من النجاح العظيم الى مناسبة أخرى وتركت أميليوس يستمتع بهذا النصر دون أن تشوبه شائبة أو يخالطه اذى.

---

(٣١) الغار هو النبات المقدس عند ابوللو واللبلاب هو النبات المقدس عند باخوس. إن باخوس يخلط أحياناً بينه وبين هراقليوس، كان محارباً. واننا لنقرأ في الاساطير عن حملاته في الهند. الاّ ان العادة التي درج عليها الرومان بتزيين خيم المنتصرين بنبات اللبلاب - ربما نشأت من سبب أكثر بساطة. يقول يوليوس قيصر انه وجد في معسكر پومپي خيمة لنتولُس وغيره من القادة مُزدانة باللبلاب اذ كانوا قد وثقّوا أنفسهم بالنصر.

(٣٢) كان يبلغ السابعة عشرة من العمر اذ ذاك.

أما عن [پرسيوس]، فقد بادر الى الفرار من [پيدنا] بخيالته التي لم تلحقها خسارة تذكر، وبلغ [پللاً Pella] وهنا أنضمت اليه فلول الرجالة الذين أخذوا ينحون باللائمة والتقريع على الخيالة ويصمونها بالخيانة والجبن وامتدت ايديهم لانتزاعهم من فوق سروجهم وإلقائهم على الأرض فتشابكوا بالأيدي وتضاربوا وخشي [پرسيوس] عاقبة الخلاف فحاد في سيره عن الطريق العام ونزع عنه ثياب الأرجوان لئلا تُعرف هويته، ووضعها امامه ونزع تاجه وحمله بيده ثم نزل عن صهوة جواده ليسهل عليه تبادل الكلام مع اتباعه، وظلّ يقوده من الزمام ثم توقف أحد الجنود متظاهراً بشدّ سير نعله، وتبعه آخر متعللاً بارواء حصانه، وأحتج ثالث بشرب الماء وهكذا بداؤا ينفضونّ من حوله متباطئين متسكعين بالتدريج. ولم يكن يدفعهم الى هذا خوفهم من العدوّ قدر ما كانوا يخشون بطش [پرسيوس]، فقد دفعه اضطرابه واختلال عقله بسبب ما أصابه، الى محاولة تبرئة نفسه بالقاء وزر الهزيمة على كل شخصٍ. وبلغ مدينة [پللا] ليلاً فقصده [يوكتوس Euctus] و[يودئيوس Edæus] أمينا بيت المال وأثارا سخطه بتعدادهما له اخطاءه الماضية، وبالجراءة التي أظهراها، واللوم الذي أختارا له وقتاً غير مناسبٍ فطعنهما بخنجره وقتلهما. وبعد هذا تخلّى عنه الجميع خلا [ايڤاندر] الكريتي، و[ارخيديموس الايتولي] و[نيون] البويوسي. أما من الجنود العاديين فلم يتخلّف غير الكريتين لا بدافع من أخلاصٍ بل لطمع في ثروته الطائلة التي حرصوا عليها كما يحرص النحل على قفيره. فوزع عليهم منها بعض الاقداح والأواني الذهبية والفضية وغيرها مما بلغت قيمته خمسين تالنتاً[٣٣]. لكن عندما خرج من مدينة [امفيپوليس Amphipolis] الى [غاليپسوس Galipsus][٣٤] وهدأت مخاوفه بعض الشيء عاد اليه داؤه القديم المعروف «الجشع» فراح يتظلم الى اصدقائه قائلاً انه اضطر بحكم الظروف القاسية الى النزول للكريتيين عما يخصّ الاسكندر الكبير، وأخذ يتوسل الى من كانت في حوزتهم والدموع تجول في عينيه، بأن يسمحوا له بافتدائها بالمال. وأدرك الخبيرون بنفسيته أنه يريد أن يلعب بالكريتي على الكريتيي. اما من صدقّهُ واعاد اليه فقد خرج بصفقة المغبون، اذ لم يدفع لهم شيئاً مما وعدهم. بل وتمكن بالحيلة ان يبتزّ من أصدقائه ثلاثين تالنتاً (كله وقع في يد العدوّ بعد زمن وجيز). ثم انه ابحر بما معه من أموال الى [ساموثراكي Samothrace] وهناك لجأ الى معبد [كاستور وپوللوكس][٣٥].

---

(٣٣) كان يخشى ان يدفع بها اليهم لئلا يثير المقدونيون حقد الآخرين [ليڤي المرجع نفسه ٤٥].

(٣٤) في أحدى المخطوطات كتبت Alpsus.

(٣٥) حمَل معه مبلغاً قدره (٢٠٠٠) تالنت. كان الخوف مستولياً على پرسيوس عند وصوله [امفيپولس] لئلا يسلمه الأهلون الى الرومان خرج يحمل فيليب الابن الوحيد الذي صحبه فصعد المنبر وحاول الكلام إلاّ =

عُرف المقدونيون دائماً بحبّهم لملوكهم وشدّة إخلاصهم لهم. والآن بعد أن تحطّم قطبهم الرئيس أنهارت معنوياتهم وأعلنوا الطاعة لاميليوس، ومكّنوه من بلادهم في غضون يومين ليس غير. وهذا يؤيد الرأي القائل بمحالفة الحظّ له على ما يبدو. إن العلامة السماوية التي نزلت عليه في [امفيلپوليس] كانت من قبيل الخوارق الطبيعية.

فعندما كان يقرّب هناك وقبل بدء الشعائر المقدسة نزل من السماء برق على الهيكل بصورة مباغتة وأشعل النار في الخشب فأكمل حرق القربان وعلى أية حال فإن أجلى المظاهر الخارقة للطبيعة التي حصلت بمشيئة من السماء - يبدو من حكاية الاشاعة التي أنتشرت في روما عن نصره. ففي اليوم الرابع لهزيمة [پرسيوس] في [پيدنا] وبينما كان أهالي روما يشاهدون سباق خيل[٣٦]. بدأت فجأة اشاعة من مدخل الملعب مؤداها ان [اميليوس] قد هزم [پرسيوس] في معركة عظيمة. وانه يقوم الآن بإخضاع مقدونيا كلها لسلطانه. وسرى هذا النبأ بين الناس ليخلق فرحةً عامة فتعالت الهتافات والتهليل، وضجت المدينة به طوال اليوم. وعندما لم يتعيّن مصدر النبأ وظهر أن كل شخص كان ينقله الى الآخر على علاّته، صرف عنه النظر مؤقتاً واسقط من الحساب الى أن وصلت الأخبار المؤيدة بعد أيام قليلة[٣٧]. فعدت الاشاعة الأولى من قبيل الخوارق. لاحتوائها على الواقع والحقيقة تحت مظاهر الخيال. وقيل أيضاً ان انباء المعركة التي جرت قرب نهر [سارغا Sarga][٣٨] في ايطاليا، أنتقلت الى البلوپونيسوس في اليوم بالذات. كذلك معركة الميدين في [ميغال] فقد وصلت انباؤها الى [پلاطيا Plataea] في فترة يوم واحد أيضاً. وعندما هزم الرومان اتباع [تاركوين] وحلفاؤهم اللاتين شوهد في روما بعدها بقليل، شخصان طويلا القامة مهيبا الطلعة زعماً انهما يحملان انباءً من المعسكر، ورجح انهما [كاستور وپوللوكس] وكان أول حديث لهما قرب النافورة. فأبدى عجبه لما سمح منهما وقيل انهما ابتسما ومسّا لحية الرجل مساً رفيقاً فتحول شعرها

= ان العبرة خنقته ولم يساعفه اللسان بعد عدة محاولات فطلب من [ايڤاندر] أن يتكلم عنه إلاّ ان الأهالي الذين كانوا له من الكارهين رفضوا الاستماع اليه وهتفوا «إذهب، اذهب لقد قرّ رأينا أن لانعرض أنفسنا وزوجاتنا وأطفالنا للخطر بسببكم، فالهرب الهرب وأتركنا لعلنا ننال أفضل ما يمكن الحصول عليه من شروط الغالب». وكان ايڤاندر الشخصيّة الرئيسة في عملية اغتيال [يومنيتس] وقد فتك برسيوس بايڤاندر بعد ذلك في [ساموثراكي] خشية أن يكشف دوره في الاغتيال.

(٣٦) ڤاليريوس ماكسيموس [١:٨، ١] يقول ان مصدر الاشاعة هو شخص يدعي [ڤاتينيوس] وهذا نقلها عن شابين يمتطيان جوادين اشهبين (كاستور وپوللوكس... طبعاً!).

(٣٧) تأيد الأمر بوصول كوينتوس فابيوس ماكسيموس ابن ايميلوس، ولوكوللوس لينتولوس، وكوينتوس ميتللوس الذين أرسلهم [ابيلوس] فبلغوا روما في اليوم العشرين الذي عقب المعركة.

(٣٨) في (ماغناغريكيا) وهي ليست بالبعيدة عن (ريجبيوم).

من الأسود الفاحم الى الاشقر الذهبي، وهذا ما أيد صحة اخبارهما. وألصق بالرجل لقب [اهينوباربوس Ahenobarbus][39]: اي ذا اللحية الصفراء. وفي زمننا هذا وقع حدث يجعل كل ما اتينا الى ذكره قابلاً للتصديق. فعندما شق [انطونيوس] عصا الطاعة على [دوميتيان] أعترى روما غمّ عظيم اذ توقعت حروباً طاحنة تأيتها من ناحية جرمانيا. وعلى حين غرّة سرت اشاعة النصر على افواه الناس دفعة واحدة، دون أن يدري أحد مصدرها، وضجت المدينة كلها بانباء تشير الى مقتل انطونيوس، وابادة عسكره عن بكرة ابيه إلاّ شرذمة[40]. وقوي الاعتقاد ورسخ في النفوس حتى عدداً كبيراً من الحكّام أخذوا يقدمون القرابين. وعندما حُقق عن المصدر ولم يعثر عليه تضاءلت الاشاعة وأخذ كل أمرءٍ يزيحها عن عاتقه ليلقيها على الآخر، وأخيراً ضاعت في الجمّ الغفير كأنما غيبها البحر الاوقيانوس ولم يعد أحد يذكرها بكلمة في المدينة لانها لم تجد حقيقة تدعمها. ومع هذا زحف [دوميتيان] بقواته الى ميدان القتال. فالتقى بالسعاة القادمين وسلمّوه رسائل تنبئه بالنصر وعند التأمل وجد أن ظهور الاشاعة كان يوافق اليوم الذي تحققت فيه الغلبة، مع العلم ان المسافة بين منطلق الاشاعة وميدان المعركة كانت تزيد عن الفين وخمسمائة ميلٍ. في الواقع ان اموراً كهذه لا تجد معاصرينا تعليلاً أو تفسيراً.

ولنعد الآن الى موضوعنا، وصل الى [ساموثراكي]، القائد الروماني [كيينوس أوكتافيوس Cnaeus Octavius] وألقى مراسي اسطوله تحتها. وسمح [لپرسيوس] أن يبقى متمتعاً بحق اللجوء إكراماً منه واجلالاً للأرباب[41]. إلاّ أنه اتخذ كل الاحتياطات للحيلولة دون هروبه بحراً. على أن [پرسيوس] لم يقم وزناً لهذا وانما أتصل [باوروااندس Oroandes] الكريتي وهو صاحب سفينة صغيرة، واقنعه بان ينقله هو وأمواله بحراً. وبرهن هذا على انه نموذج صادق للكريتيين فقد نقل المال الى السفينة وأوصى پرسيوس أن يكون هو وأولاده وأقرب خدمه وأكثرهم ضرورة مجتمعين علي الرصيف القريب من معبد [سيريس] ليركبوا السفينة. لكن اوروااندس أقلع بغنيمته من المال في مساء ذلك اليوم دون أن يأخذ پرسيوس. كان يكفي هذا بؤساً وعاراً أن يضطر الى الهبوط هو وزوجه وأولاده من نافذة ضيقة في الجدار وهم الذين لم يعرفوا في حياتهم معنى الضيق أو الفرار. وها هو الآن يطلق الزفرات من قلبه الذي أثقله الألم والشقاء، عندما استوقفه أحدهم وهو يدور في ارجاء الساحل هائماً يبحث

---

(٣٩) اسمه [لوشيوس دوميتيوس] ومن نسله نيرون الامبراطور.

(٤٠) شبت هذه الثورة في جرمانيا العليا في العام ٩٢ ق.م.

(٤١) كانت آلهة ساموثراكي تتمتع باحترام ومهابة خاصين عند سائر الاقدمين ديودورس.

عن السفينة. وأبلغه أن [اروانـدس] هو الآن في عرض البحر. كان الوقت فجراً، فلم يبق له اي أملٍ بالفرار[٤٢] وقفل راجعاً مع زوجه فبلغا الجدار ركضاً وان كان الرومان قد لمحوهما قبل أن يصلوهما بزمن. وكان هو نفسه قد وضع أولاده وديعةً عند [ايون] أخلص ندمائه في الماضي، واحد الغادرين به في الحاضر. وهذا ما حمله بالدرجة الأولى على تسليم نفسه لأولئك الذين كان أولاده تحت رحمتهم (الحيوانات نفسها قد تقدم على ذلك عندما ينزع منها صغارها).
وكان قد وضع أكبر ثقته في [ناسيكا] فقصده ولم يجده هناك، فلم يسعه إلاّ أن يندب سوء حظه وان يسلّم نفسه الى [اوكتاڤيوس] بعد أن سُدّت أمامه كل السبل. وهنا تبين انه مبتلى برذيلةٍ أحطّ من الجشع وأعني بها التهالك على الحياة، وكانت سبباً في حرمانه العطف وهو الشيء الوحيد الذي يأبى الحظّ عن استلابه حتى من أحَطّ الناس وأعظمهم شراً، فقد طلب أن يؤخذ الى [اميليوس][٤٣]، فنهض هذا من مقعده وتقدم لاستقباله يحفّ به اصدقاؤه وأدمعت عيناه لمنظر رجل كبير المقام هوى الى الحضيض عندما غضبت عليه الآلهة وعثر به حظّه. وهنا بدأ [پرسيوس] في أخزى موقف وأدعاه الى الاشمئزاز، إذ ألقى بنفسه تحت قدمي أميليوس وأخذ يقبل ركبته ويولول ويصرخ مستجيراً صرخات لا تمت الى الرجولة بصلة. فلم يحتمل اميليوس ذلك ولم يطق سماعه وخزره بنظرات يشيع فيها الأسى والغضب وقال له:

- لماذا تتعب نفسك أيها الشقيّ في تبرئة الحظّ من أشدّ ملامك له بسلوكك هذا الذي يظهرك بمظهر المستحق لهذه النكبة ويجعل سعادتك الزائلة تبدو وكأنها أكثر مما تستحق، لاحالتك الحاضرة؟ ثمَ لماذا تحطّ من قيمة انتصاري وتجعل فتوحاتي تافهة بالكشف عن جبنك والبرهنة على أن خصومتك تحط من قدر الرومان. إن البسالة المنكوبة تستدرّ الاحترام العظيم حتى من قلوب الاعداء، لكن الجبن وإن لم يكن كثير النجاح، إلاّ أن الرومان لا يجابهونه إلاّ بالاحتقار.

ومع هذا فقد أنهضه ومد اليه يده، وأوصى [توبيرو] أن يبقيه عنده. ثم أنه دعا ولديه وختنيه، وطائفة من وجهاء الرومان الشبان الى دخول خيمته معه. وظلّ جالساً مدة طويلة وهو مطرق لا ينطبق بحرفٍ حتى اعجبوا لأمره، وأخيراً راح يحدثهم عن الحظوظ وأحوال البشر فقال:

---

(٤٢) يقول ليڤي انه أخفى نفسه في أحدى زوايا معبد (كاستور وبوللوكس) لا تلفت النظر.

(٤٣) ما أن صار الملك في امفيپولس تحت رحمة (اوكتاڤيوس) حتى وضعه في سفينة القيادة وحمّل كل أمواله وكنوزه ثم أرسل ساعياً سريعاً الى اميليوس يعلمه بالأمر. فارسل هذا (توبيرو) ختنه مع آخرين من علية القوم ووجهائهم لأستقبال [پرسيوس] وكذلك أمر بنحر الذبائح وكأنه نال نصراً جديداً. وخرج كل من كان في المعسكر لمشاهدة الملك الأمير الذي توجّه وحيداً نحو خيمة اميليوس وهو مشتمل بمعطف أسود.

- مما قدر لذلك الذي يعلم جيداً بأنه بشرٌ لا أكثر، أن يعتز بنفسه ويُصعّر خده وهي في أحسن حالٍ من الرخاء والرفاه، وان يتيه عجباً وخيلاء عندما يفتح مدينة أو بلاداً أو مملكة، لا أن يفكر في تغيّر حظّه هذا تفكيراً متزناً. فعلى كل المحاربين أن يجدوا فيه عبرة، ويتخذونه مثالاً لضعفٍ قد ينتابهم، ولاحتمال تعرضهم للخطأ بصورة عامة، وان يتعلموا منه درساً وهو أن لاثبات ولا دوام لحالٍ والى كم يستطيع المرء أن يضمن السلامة لنفسه؟ في حين أن النصر والنجاح هو في مقدمة ما يوجب علينا التخوف من أنقلاب حظوظنا. وتأملنا القليل في جوهر الأشياء، وملاحظتنا دوران المقادير السريع، وعرضة أحوال المرء الى التبدّل أن يشعرنا بالترح ونحن في وسط الفرح العظيم. عندما ترون سليل الاسكندر نفسه الذي بلغ أعلى درجة من السلطان وحكم أعظم امبراطورية يوطأ بالأقدام في فترة من الزمن وجيزة، لا تزيد عن ساعة واحدة. عندما ترون ملكاً يحيطه جيش جرار وما هي لحظة إلاّ وهو يتسلّم قوت حياته من أيدي المنتصرين عليه. أقول ايسعكم الايمان بثبات وخلود ما نملكه في ايدينا مع وجود ما يدعى بتقلبات الحظّ؟ كلاّ أيها الشبان، دعوا جانباً كبرياءكم الباطلة وزهوكم الفارغ بالنصر، وأجلسوا جلسة التواضع ولا تحولوا أنظاركم عَمّا سيأتي به الزمن، وما كتب لكم في لوح المستقبل يحمل أن يعكس ما قد يجعله غضب الآلهة الأخير نهايةً وختاماً لسعادتنا الحاضرة».

وقيل أن [اميليوس] أسهب في هذا وتلكم كثيراً، وبعدها صرف الشبان فخرجوا وهم يشعرون باتضاع كبير، وان خيلاءهم وزهوهم قد استؤصلا من نفوسهم تماماً.

بعد هذا، وزع [اميليوس] قطعات جيشه على المقرات في المدن ليصيبوا الراحة. وخرج هو في زيارة لبلاد الأغريق. وقضى هو الآخر فترة راحة مفيدة مشرفة له ذات طابعٍ انساني لا تقلّ خطراً عن أعماله الحربية، فقد خفف من ضيقة الناس أثناء رحلته وأصلح حكوماتهم ووزع الهبات والعطايا على المحتاجين، من القمح والزيت وما شاكلها مما أكتظت به مستودعات الملك المغلوب. فقد قيل انه أختزن كميات لم تنضب. حتى بعد أن أنتهى تحقيق جميع الطلبات وتوزيع كل الهبات. ووجد في دلفي عموداً عظيم الجرم مربع الشكل من الرخام الأبيض أُعد ليكون قاعدةً لتمثال الملك الذهبي فأمر ان ينصب فوقه تمثاله قائلاً أن العدل يقضي بأن يُخلي المغلوب مكانه للغالب وذُكر أنه نطق في [اولمپيا Olympia] القول الذي سمعه الجميع: «إن [فيدياس] نحت جوپتر [هوميرس]» وعندما وصل المفوضون الرومان العشرة من روما(٤٤)، أعاد الى المقدونيين مدنهم واراضيهم، ومنحهم حق العيش في حريّة

(٤٤) هؤلاء الموفدون العشرة كانوا من درجة قنصل. وقد قدموا لمساعدة ايميلوس في وضع أسس لحكم =

يمارسون شرائعهم الخاصة دونما تدخل وأكتفى باستيفاء غرامة للرومان قدرها مائة تالنت وهي ضعف ما كانوا يدفعونه لملوكهم. ثم احياء مختلف حفلات التمثيل والالعاب الرياضية، وقدم القرابين للأرباب وأقام الولائم وضروب الملاهي، وقد سددت نفقاتها كلها من خزائن الملك. ولم يبخل بشيء من المال في احيائها. وأظهر فيها مبلغ علمه بالمقامات وأماكن الضيوف في تلك المناسبات، وبأيّ أسلوب يستقبل كل واحدٍ وفقاً لمنزلته وقيمته. وانجز ذلك بدقةٍ جميلة انتزعت الأعجاب من الأغريق فقد وجدوا أنه قوي الملاحظة في ما يتعلق بأصول الدعوات والحفلات، دقيق الذوق حتى في هذه الصغائر رغم انشغاله في الأمور العظيمة. ولم يكن بما يشينه أن يبدو هو نفسه بين كل هذه المظاهر الفخمة الرائعة أبهى المشاهد وادعاها الى الإعجاب ومصدر أعظم السرور لمدعويه. ولقد قال لاولئك الذين بدوا مشدوهين من اهتمامه ومواظبته: إن ما يظهره من دقّة في تنظيمه وليمةً لا يقلّ عما يظهره في تنظيم وادارة جيش والثاني منهما يجعله مرهوب الجانب في نظر العدو. والأول يجعل الوليمة مقبولة من الضيفان ولم يكن ثناء الخلق على كرمه وسمّو روحه بأقلّ من ثنائهم على سجاياه وشجاعته. لم يطق صبراً على المقادير العظيمة من الفضة والذهب التي كدّست أكداساً في قصور الملك، ودفع بها الى أيدي أمناء بيت المال الكويستورية Quæstor لتودع الخزانة العامة. وسمح فحسب لابنيه اللذين عرفا بحبهما للعلم أن يستأثرا بكتب الملك. وعندما جرى توزيع جوائز البسالة النادرة منح [ايليوس توبيرو] ختنه، اناء ذهبياً يزن خمسة ارطال، وهذا هو [توبيرو] الذي نوهنا سابقاً به، وقلنا أنه كان واحداً من ستة عشر قريباً يعيشون معاً في بيت واحدٍ ولا يملكون إلاّ حقلاً صغيراً. ولقد قيل أنه الاناء الوحيد الذي دخل منزل آل [ايلي] ليس عن طريق الشراء بل المكافأة للشجاعة وتكريماً ولم يكونوا قبل هذا قد استعملوا ذهباً أو فضة لا هم ولا زوجاتهم.

بعد أن أعاد أميليوس الأمور الى نصابها[٤٥] غادر اليونان. وفي مقدونيا نصح المقدونيين بألا يفرّطوا في الحرية التي نالوها بمساعي الرومان وان يحرصوا عليها باطاعتهم القانون والمحافظة على وحدتهم وتماسكهم[٤٦]. ثم انه توجه الى [ابيروس]. وكان قد تسلّم أوامر من

= جديد. وعن مهمتهم واسمائهم أنظر ليفي [١٧:٤٥ و١٨] لم يفهم الأغريق المقصود بالحرية التي جاءهم بها الرومان لاسيما وقد أقترنت بغرامة مقدارها مائة تالنت! كما وجدوا تناقضاً في البيان نفسه فقد تحدث عن تركهم يمارسون تطبيق قوانينهم الخاصّة في حين فرضت عليهم في الوقت عينه قوانين جديدة وانذروا بغرض المزيد. وما كان يقلقهم أشدّ القلق هو تقطيع اوصال مملكتهم ووضع نهاية لوحدتهم الوطنية.

(٤٥) بنهاية هذه الاجراءات أمر بتنفيذ حكم الموت بـ(اندرونيكوس] من اتيوليا، وبـ(نيون) من بويوتيا فقد كانا صديقي (پرسيوس) دائماً ولم يتخلياً عنه.

(٤٦) هذه الامتيازات التي حُبي بها المقدونيون من الرومان لم تكن بالأمر الفائق العادة. فقد قسمت بلادهم =

مجلس الشيوخ تقضي أن يمكن جنوده الذين حاربوا [پرسيوس] تحت امرته، من نهب مدن تلك البلاد، ولكي ينجز تنفيذ الأمر بصورة مفاجئة ويأخذ السكان على حين غرّة، بعث يستقدم عشرة من رؤساء كل مدينة وعند حضورهم أمرهم أن يهيئوا له كل ما يوجد من المنازل الخاصة والمعابد من الذهب والفضة ويأتوا به اليه في يوم حدده لهم. وأرسلهم وبرفقة كل وفد نقيباً [سنتوريون = قائد مائة] مع سرية جنود بحجة التفتيش عن الذهب وتسلّمه. ولكن لما حلّ اليوم المتفق عليه هبوا في كل المدن وأنطلقوا لتنفيذ قرار النهب والسلب، وساقوا في ساعة واحدة مائة وخمسين ألف عبد رقيق من أهاليها. ونهبت سبعون مدينة. على أن كلّ ما أعطي من هذا الخراب الشامل والدمار التام، لم يكن ليزيد عن أحد عشر دراخما للجندي الواحد. وبعد هذا كان الناس يرتعدون من سماع كلمة اعلان حربٍ بعد أن عادت ثروة أمّة بكاملها، بهذه الفائدة التافهة والربح الضئيل على كل فردٍ عند توزيعها.

بعد أن أنجز أميليوس هذا العمل الذي كان يتنافى تماماً مع طبعه الرقيق وخلقه السمح، أنحدر الى [اوريكوس Oricus][٤٧] ومنها أركب جنوده السفن مبحراً الى ايطاليا، ومخر عباب التيبر على ظهر سفينة الملك، وهي ذات ستة عشر رصيف تجذيف. وكانت قد تزينت زينة مفرطة بغنائم الأسلحة وأقمشة الأرجوان والقرمز. حتى أن الرومان المحتشدين على الضفاف لاستقباله أخذوا يتلمضون مسبقاً بحلاوة موكب نصره القادم، وهم يرقبون سفينته تشق الماء متهاديةً ضدّ التيار. إلاّ أن الجنود الذين اثارت كنوز پرسيوس الجشع في نفوسهم ولم يحصلوا على ما توهموه حقاً لهم، كانوا يبطنون سخطاً وحنقاً على اميليوس، وظهر سخطهم هذا على شكل شكوى من صرامة قيادته وطغيانه. وأشارت الدلائل الى انهم راغبون عن منحه موكب نصر. وعلم بوجهة نظر الجنود هذه، [سرڤيوس غالبا Servius Galba] عدوّ اميليوس. وكان يخدم تحت أمرته بمنصب [تريبيون]، فخرج يعلن بكلّ جرأة ان اميليوس لا يستحق موكب نصر، ودخل بين الجنود يبذر الفتنة ويحرض عليه فزاد من صدودهم عن أميليوس، وتمادى في هجومه بأن طلب من مفوضي (تريبيونات) الشعب أن يسمحوا له بارجاء سرد اتهاماته وحججه الى اليوم التالي لأن الساعات الاربع الباقية من النهار لا تكفي. لكنهم ابوا عليه ذلك وأمروه بالكلام فوراً دون تأجيل إن كان لديه شيء. فبدأ يلقي خطبةً طويلة عريضة ملأها بشتى المفتريات وصنوف الملام حتى أنتهى الوقت وزحف الظلام،

= الى اربعة أقاليم وحرم بحكم القانون على أي شخصٍ أن يتزوج أو يتاجر أو يبيع عقاراً لآخر ليس من سكنه للأجانب وأوجب على كل نبلائهم وأطفال هؤلاء الذين تزيد أعمارهم عن الخامسة عشرة بان ينقلوا فوراً الى ايطاليا كما وضعت السلطة العليا في سائر مقدونيا بأيدي شيوخ رومانيين معينين.

(٤٧) ميناء في مقدونيا.

ففض التريبيونات الاجتماع. وأشتدت ثورة الجنود واحدقوا [بغالبا] وعقدوا الخناصر على مؤامرة، وفي صباح اليوم الباكر حاصروا [الكاپتول] وهو الموضع الذي عينه التريبيونات لعقد الاجتماع الثاني.

وفي ساعة الصباح الأولى وضعت قضية موكب النصر في التصويت، وباشرت القبيلة الأولى بالتصويت ضدّه، فأنتشر النبأ بين الأهالي حتى بلغ مجلس الشيوخ. كان الجمهور والحق يقال، شديد الألم لما يلاقيه اميليوس من نكران وسوء معاملة، لكن هذا الألم لن يتعدّ حَدّ الكلام ولم يخلّف أثراً. وأستنكر رؤساء المجلس هذا العمل ووصفوه بالحطّة والنذالة وأخذوا يحضوّن بعضهم بعضاً على وضع حَدٍ لتمرد الجنود ووقاحتهم، والاّ فلن يلبثوا أن يخرجوا عن طورهم، واذ ذاك يتعذر ضبطهم ويلجأون الى أعمال العنف اذا ما ترك لهم أمر حرمان اميليوس من موكب النصر.

ثم أنهم ساروا بعدد كبير يشقون لأنفسهم طريقاً بين الجموع الحاشدة الى محل الاجتماع وطلبوا من [مفوضي الشعب] تأجيل التصويت الى أن يتكلموا بما في ضميرهم امام الشعب. فأوقف التصويت وبعد أن ساد الصمت نهض [ماركوس سرڤيليوس Marcus Servilius] الحائز درجة القنصل، وكان قد أشتهر بفتكه بثلاثة وعشرين خصماً تَحدّوه كلهم في معركة واحدةٍ، ووجه الكلام الى الجمهور قائلاً:

- لقد وضح لي الآن أكثر من أي وقت مضى، كم كان عزيزنا اميليوس پاولوس قائداً عظيماً، واني لأعجب حقاً اذ أرى كيف استطاع تحقيق هذه الانتصارات العظيمة بجيش ساده التمرد وركبته الحطّة والدناءة. كما اني لا أجد في نفسي قدراً من الدهشة يكفي شعباً فخر بالانتصارات على الايلليريين والليغوريين وأبى الآن، حقداً وحسداً، أن يستمتع بمنظر الملك المقدوني يقاد الى الأسر حيّاً بقوة الرومان وسؤددهم، ويخفّ به كل تراث فيليب وأمجاد الاسكندر. وانتم الذين تقدمتم الى الأرباب بالقرابين فور سماعكم بأصغر أشاعة نصرٍ أنتشرت في المدينة بمحض الصدفة، وتوجهتم اليها بالدعاء ليكون النبأ حقيقياً، أليس غريباً منكم أن تخدعوا الآلهة وتحرموها الاكرام الواجب وتخدعوا انفسكم بحرمانها فرصة النصر، بعد أن عاد القائد يحمل لكم فتوحاتٍ لا شكّ فيها ولا شبهة. وكأني بكم لا تطيقون رؤية ثمرة مجهوده العسكري، أو كأني بكم عازمين على الصفح عن عدوكم! ومن هذين البديلين يجمل بكم أن تحرموه موكب النصر خير لكم من حبسه عنه حسداً له وحقداً! الى هذا الحدّ بلغ بكم سوء النيّة، حتى تعيروا أذناً صاغية لرجلٍ ليس في جسده الأملس الطريّ من فرط الراحة والعناية البيتيّة الزائدة - أثر ما لندبةٍ

حين يقف أمامنا هنا منتقصاً من قيمة جزال ومطالباً بالحدّ من حقوقه، جنرال علمته جراحنا كيف يحكم على بسالة القادة وجبنهم».

قال هذا ونضا عنه ثوبه وعرض صدره العاري الذي ازدحمت فيه الندوب ثم دار على عقبيه ليكشف عن أجزاء أخرى من جسمه جرت العادة سترها. ثم توجه بالخطاب الى [غالبا] قائلاً:

- لعلك تسخر بي لما أفخر به الآن أمام أخواني المواطنين؛ إني ما أصِبت بها إلاّ في مجال خدمتهم التي اثبتتني على صهوات الخيل ليلاً ونهاراً. ولكن، اذهب فاجمع الأصوات وانا في أثرك، وكن منتبها الى الوضيع وناكر الجميل، والى من آثر الملق والمداهنة على اطاعة أمر قائده.

قيل إن هذه الخطبة افحمت الخصوم والجمت ألسِنَة الجنود، وقلبت آراءهم رأساً على عقب فبادرت القبائل الى اعلان موكب نصر لاميليوس وقد تمّ تنظيمه على الشكل التالي:

نصبت الجماهير منصات ومنابر في الفورم وفي ملاعب السركس Circus (وهو الأسم الذي يطلقونه على محلات سباق الخيل) وفي كل المواضيع التي يمكن رؤية المواكب منها. وأرتدى المتفرجون ثياباً بيضاء وفتحت ابواب المعابد جميعاً وكانت مزدانة بالاكاليل يفوح منها البخور والعطور. واخليت الطرق ومنع المرور فيها وعين عدد كبير من ضباط الشرطة لحفظ النظام فكان يدفعون الناس الى الخلف ويمنعون احتشادهم في الطرق وعبورهم في الشوارع الرئيسة. ودام الموكب ثلاثة أيام كاملة. ولم يتسع اليوم الأول لكلّ ما خصص له، وقد شاهد المتفرجون التماثيل والصور والمنحوتات الضخمة التي غنمت من العدوّ وهي تمثل مختلف الآلهة؛ حُملت على مائتين وخمسين عربة ومرت تباعاً.

وفي اليوم الثاني شاهد الجمهور رتلاً من عربات النقل أثقلت بأبدع الدروع المقدونية، الفولاذية منها والنحاسية. وكانت قد صقلت بهذه المناسبة فأخذت ترسل بريقاً يخطف البصر. وكانت قطع السلاح مكدسة كدساً ظاهره الاهمال وباطنه تدبير متعمد ينطوي على براعة. والقصد منها أن تبدو مكدسة كيفما أتفق فألقيت اللأمات والخوذ فوق التروس، والزُرد فوق طماقات الساق وطرحت الدرقات الكريتية بعضها على بعض، والقيت دروع الصدر وكنانات النّشاب التراقية بين لجُم الخيل. وبرزت من كل هذا ذبابات السيوف عارية عن اغمادها، مختلطة بالحراب المقدونية الطويلة. كانت هذه الأسلحة قد شدّت وحزمت بقدرٍ من الرخاوة يسمح لها أن تصطفق وتحتّك فيخرج منها رنين حادُّ وضجة مزعجة رهيبة، تبعث الخوف والرعدة في أوصال الناظر اليها، وان كانت غنائم من عدوّ مغلوب.

بعد هذه العربات أقبل ثلاثة آلاف رجل يحملون فضة مصكوكةً نقداً، في سبعمائه وخمسين وعاءً كل واحد منها يزن ثلاثة تالنتات. ويحمله أربعة رجال، وتقدم آخرون يحملون آنية وأكواباً من الفضة رتبت بنظام دقيق ليجعل منها منظراً بديعاً، وهي من التحف العجيبة من ناحية احجامها ودقة صنعتها وغرابة نقشها.

وفي الصباح الباكر لليوم الأخير تقدم الموكب نافخو الأبواق، يوقعون اللحن الذي يضربه الرومان لتحريض الجنود على القتال، وليس الحان المواكب والاحتفالات الدينية والاستقبالات الرسمية. ثم تلتهم ارهاط من الشباب وعليهم معاطف سوداء مزركشة الحوافّ يقودون مائة وعشرين ثوراً مسّمناً مطلية القرون رؤوسها مزدانة بالشرائط وأكاليل الزهر، ولحق بهم صبيان أيفاع يحملون أوعية ذهبية وفضية، تحوي القرابين السائلة. وأعقبها رتل يحمل العملة الذهبية في أوعية يزن الواحد منها ثلاثة تالنتات وعددها سبعة وسبعون[٤٨]. ثمّ تلاهم حملة الوعاء المكّرس للآلهة الذي أمر أميليوس بصنعه وزنته عشر تالنتات[٤٩]، وهو مكفّت بالاحجار الكريمة. ثم مرت أكواب [انتيغونس] و[سلوقوس Seleucuse]، والاكواب المصنوعة في تراقيا وصحاف الذهب التي كانت تستعمل في مائدة [برسيوس] وضع فوقها سلاحه ودروعه وعلاها تاجه. ثم انقضت فترة، بعدها أقتيد أولاد الملك الأسرى تحفّ بهم بطانة من خدمهم وحشمهم ومعلّميهم وكلّهم منخرطون في البكاء يرفعون الى المتفرجين أيدي الضراعة. وكانوا يحثون الأولاد على أحتذائهم في التوسل لاستدرار العطف وكان بينهم إبنان وبنت. حال صغر سنهم دون شعورهم بمقدار بؤسهم. وعدم الشعور هذا جعل حالهم أدعى الى الألم والرثاء. فشخصت عيون الرومان المشفقة الى الأحداث وسمرت فيهم بحيث لم يشعروا ببرسيوس عندما مَر، ولم يقو كثيرون على مغالبة دموعهم. تابع الجميع هذا المشهد بمزيج من الأسى والفرح حتى غاب الوُلدْ عن النظر.

ثم مَرّ [برسيوس] وهو متشح بالسواد وفي قدميه حذاء مقدونيّ. وبدأ ذاهلاً شارد الذهن لعظم بلواه، وتبعه رهط كبير من أصدقائه وندمائه وقد قلب الغمّ سحناتهم، وحملوا المتفرجين على الاستنتاج من بكائهم ومن دوام تطلعهم الى [برسيوس] بأنهم يحمّلون حظه العاثر معظم شكواهم، وانهم لا يكترثوت بمصائرهم - وكان برسيوس قد رجا في اميليوس أن يجنبه هذا

---

(٤٨) بحساب پلوتارخ كان ثم ما وزنته ٢٢٥٠ تالنت من العملة الفضية، و٢٣١ تالنت من العملة الذهبية. وبحسب ما أورده ڤاليريوس أنتياس فان الكميّة تزيد عن ذلك. ويقول ڤيليوس پاتروكولوس أنها ضعف هذا المبلغ. وربما كان قوله أصبح من تقديرات غيره. لأن النقود التي جلبت من مقدونيا حررت الرومان من دفع الضرائب لمدة (١٢٥) سنة.

(٤٩) هذا الاناء يزن ستمائة پاوند، لأن زنة التالنت الواحد تساوي ستين پاوند. وقد كُرّس لـ(جوپتر).

الموقف ولا يدخله في مسيرة الموكب. فبعث اليه اميليوس الذي سبق له ان أحتقر جبنه وتهالكه على الحياة - بجواب مفاده ان الأمر منوط به الآن كما كان منوطاً به في الماضي - وقصده أن يقول له أن هذا العار يمكن تفاديه بالموت، وهو ما لا قبل لهذا الرجل الخائر القلب به. فظهر مخنثاً جباناً لأملٍ ما يساوره، وسمح لنفسه أن يعرض كجزء من غنائمه!

بعد هذا عرض اربعمائة تاج من الذهب الخالص قدمتها لاميليوس وفود المدن تكريماً لنصره. ثم لاح [اميليوس] وهو جالس في عجلة حربية فخمة الزينة (رجل قمين بالنظر حتى وهو مجرد عن شارات السلطة) وكان متسربلاً بالأجوان المنسوج بخيوط الذهب. وفي يده اليمنى غصن من الغار، ومرّت خلفه قطعات الجيش كلها يحمل افرادها جميعاً أغصان الغار وهم في نظام الكتائب والسرايا. وكان بعضهم ينشد القصائد التي تتخللها النكات التعليقات اللاذعة جرياً على العادة الرومانية في هذه المناسبات[٥٠]، وراح بعضهم ينشد أغاني النصر، ومشيداً ببطولات [اميليوس] الذي كان محط اعجاب كل الرجال وتقديرهم. وامّا الطيبون منهم فما كانوا يشعرون نحوه بايّ حسدٍ، إلاّ قدر ما قد تشاء ارادة أحد الأرباب التقليل من سعادة عظيمة جداً ومفرطة فيعمد الى تعقيد شؤون الحياة البشرية بحيث لا يعود يخلصُ أحدٌ من النوائب والمصائب. وقد صدق [هوميروس] وأجاد في قوله «إن الذين يعتبرون أنفسهم موضع يمن وبركة، هم كل من كان حظّه من الخير والشر متساوياً»[٥١].

كان لاميليوس اربعة ابناء، اثنان منهما تبنتهما أسرتان كما أسلفت وهما [سكيپيو] و[فابيوس] أما الباقيان اللذان انجبهما من قرينته الثانية فقد نشأ في بيته. وتوفيا في مقتبل العمر. الأول مات قبل دخول ابيه ظافراً بخمسة ايام وله من العمر اربعة عشر عاماً ومات الثاني بعد تمام موكب النصر بثلاثة ايام وله من العمر اثنا عشر عاماً. ولم يبق روماني واحد الاّ وهو عميق الشعور بما اعتلج في نفس اميليوس من آلامٍ. ولم يبق من لم ترتعد فرائصه من قسوة الحظّ. وعدم تردده في صبّ هذا القدر الكبير من الزح على بيت، كان ممتلئاً بالسعادة والبشر، حافلاً بالقرابين. وفي مزجه الدموع والحسرات بأناشيد النصر والظفر.

واهتدى أميليوس بتفكيره المجرد الى أن الشجاعة والاقدام ليسا مجرد الثبات امام السلاح والرماح، بل الصمود في وجه صدمات الحظّ ونوائبه. ولهذا ثبت وكيف نفسه لهذه الاضداد والمتناقضات في أحواله، بترجيحه الخير على الشرّ، وموازنة شؤونه الخاصة بشؤونه العامة،

---

(٥٠) اورد سوبتونيوس في السيرة التي كتبها ليوليوس قيصر نماذج من أناشيد انشدت بمناسبة النصر الذي حققه على الغاليين.

(٥١) يشير هنا الى فقرة من خطبة أخيل الموجهة لبريام [الالياذة ٢٤:٥٢٦].

ولم يترك اي مجال لاستلاب شيءٍ من عظمة انتصاره، والحظّ من شأنه. فما أن فرغ من موارة ابنه الأول التراب حتى دخل في موكب النصر. وما أن أكمل مراسيم دفن موت الثاني بعد تمام الموكب حتى بادر الى عقد اجتماعٍ عامٍ وخطب في المواطنين خطبة رجل لا يحتاج الى تعزية الآخرين، بل الآخذ على نفسه معونة أخوانه المواطنين في الضراء التي عاناها هو نفسه. قال:

- أنا الذي ما كنت أخشى قطّ كل ما هو بشريّ، ظللت دائماً أشعر برهبة وتخوفٍ من تقلبات الحظ وغدره، ولهذا السبب بالذات كان الحظ في هذه الحرب يساير كلّ أموري مثلما تسير الريحُ الرخاءُ السفينة، وهو ما جعلني اتوقع تغييراً وتحولاً. لقد قطعت البحر الآيوني في يومٍ واحدٍ وبلغت [كوركسيرا] مبحراً من [برنديزيوم Brundisium]. ومن هناك وصلت [دلفي] بعد خمسة ايام وضحيت فيه. وفي خمسة ايام أخرى كنت بين عساكري في مقدونيا. وبعد أن أنجزت قربان تطهير الجيش المعتاد، باشرت واجباتي فوراً وفي غضون خمسة عشر يوماً وضعت نهاية مشرفة للحرب. لكني بقيت هدفاً لانقلاب الحظّ عليّ، وأنا ماض في سبيل تصريف شؤوني السبيل الممهد العظيم اليُسر. كنت أخشى أكثر ما أخشى تغيّر ربة الحظّ عليّ وأنا آمن بعيد عن غائلة اي عدوّ. وانتابني الشعور نفسه وانا في عرض البحر انقل جيشي المظفر الى ارض الوطن مع غنائم هائلة وملك أسير. والواقع أن الشكّ لم يبرحني حتى بعد عودتي اليكم سالما ورؤيتي المدينة ترفل باثواب البهجة وتعمها الفرحة والبشائر وتفرط في تقديم القرابين وبقيت غير مطمئن، وانا العالم الخبير بان ربة الحظّ لا تغدق النعم العظيمة إلاّ اذا ما زجتها النقمة وشابها الترح. ولم أستطع أن احرّر ذهني من الخوف. وبقي فكري يكدح ويجاهد كشأنه دوماً ليتكهن بما سيحلّ من سوءٍ بهذه المدينة، حتى سقطت هذه البلية عليّ بين اسرتي، وحملت الى القبر جثمانيْ اعز وأغلى ابنين، هما خلفاي الشرعيين واحداً اثر الآخر وليس لي ثالث بعدهما - جرى ذلك في وسط الاحتفالات بالنصر. وانا الآن شخصياً مطمئن، آمن من الخطر على الأقل فيما يحظى عندي بأعظم الاهتمام. واني في الواقع واثق ومقتنع بأن ربة الحظ ستبقى من الآن فصاعداً الى جانبكم ولن تلحق بكم اي أذى بعد أن شفت غليل حسدها كاملاً من نجاحنا الأعظم بما فعلته به وأخذته منيّ. لقد جعلت الفاتح مضرب المثل في تغير حال البشر كما جعلت الأسير الذي قاده في موكب النصر، مع فارق واحدٍ وهو ان [پرسيوس] وان كان مغلوباً - ما زال يتمتع باولاده، بينما حرم المنصر عليه من هذا.

تلك هي الخطبة القيمة الرفيعة التي قيل ان اميليوس وجّهها الى الشعب نابعةً من قلب

مخلص، ليس فيه تصنع أو افتعال.

ومع اشفاق أميليوس على حال [پرسيوس] ورغبته في بذل ما يمكنه من عون بما هو في حدود سلطته، إلاّ انه لم يفلح في أكثر من العمل على نقله من السجن العمومي [الكورچير Corcer] الى مكان أكثر نظافة وأحفل بالراحة واليق بالبشر. وذكروا أن [پرسيوس] أضرب عن تناول الطعام حتى الموت اثناء ما كان تحت الحراسة. وقال بعضهم أن موته كان من أعجب وأغرب ما حدث: فقد حفظ له حراسه الجنود ضغينه وبغضاً شديداً لسبب ما، ولم يجدوا طريقة لازعاجه ومضايقته أجدى من حرمانه النوم باقلاقه كلما اراد ان يخلد الى الراحة واستنبطوا حيلاً ووسائل لابقائه مستيقظاً على الدوام، فرق جسمه ونحل حتى مات[٥٢].
ولحق به اثنان من ابنائه بعد زمن قصير، وقيل ان ابناً ثالثاً له اسمه [الاسكندر] أصبح فنّاناً بارعاً في نحت وحفر التماثيل الصغيرة. واتقن اللغة الرومانية قراءة وكتابةً مما أهلّه الى وظيفة كاتبٍ قضائية كان فيها مثالاً للنزاهة وقدوة في الاخلاص للعمل.

وعزوا الى اميليوس منفعة طيبة للشعب من جراء فتحه مقدونياً وهي المبالغ الطائلة التي صبّها في الخزانة العامة مما جلبه فأعفي الناس من اداء الضرائب الى عهد قنصلية [هرتيوس Hirtius] و[پانسا Pansa] ويصادف ذلك أول الحرب بين [قيصر] و[انطوني].

ولوحظ أمر غريب عجيب في حياة [اميليوس] وهو انحيازه الدائم الى طبقة الاشراف رغم تعلق الشعب الشديد به وأجلالهم له ولم يؤثر عنه أنه قال أو عمل شيئاً ينطوي على توددٍ للجماهير، أو أستجلابٍ ارضاها، بل كان دوماً يقف في صف الأشراف في كلّ المسائل السياسية. وهذه هي المثلبة التي قذف بها ابيوس Appius في وجه [سكيپيو افريقانوس] ابنه بعد زمن. كان هذان أقوى رجلين في روما وقتذاك، متنافساً على منصب الرقيب العام Censor أولهما يعضده الاشراف ومجلس الشيوخ وهو الحزب الذي لم يتخلّ عنه آل آپي Ap-pii مطلقاً. أما الثاني فقد ركن الى نفوذ عامة الشعب وتعلقه وعلى منزلته الرفيعة، وفي ذات يوم لمحه [آپيوس] قادماً الى الساحة العامة يحفّ به أخلاط من الدهماء وعامة الناس ورهط ممن لم يمرّ على عتقه وحريته زمن طويل. إلا انهم كانوا يمتازون بكفاءتهم في دخول أي حوار يعمل على جمع كلمة العامة واستخدامهم في تحقيق كل ما يطلبون بالضجيج والالحاف.
فناداه بصوت جهير قائلاً:

- ايه يا اميليوس پاولوس! لو عرفت ما يحدث فوق الأرض، لما وسعك الاّ اطلاق الزفرات في

(٥٢) أورد هذا [ديودورس الصقلي ٢٦]. وقيل ان [فيليب] توفي قبل ابيه، لكن لا يعرف متى كان ذلك واين؟ لأن كتب ليفي وديودورس التي تعالج هذه الفقرة - مفقودة.

قبرك! فهاهوذا ابنك يطمح الى وظيفة المراقب العام بمعاونة [اميليوس] الدلّال العمومي [ليچينيوس فيلونيكوس Licinius Philonicus]!

لقد كان [سكيپيو] أبداً موضع ثقة الشعب لأن سيل فضله لم يكن ينقطع عنهم، ولكن [اميليوس] اباه رغم بقائه في صف الاشراف، كان يتمتع بمنزلة شعبية لا تقل باية حالٍ عن أكثر الناس أطلاباً لثقة الشعب، وسعياً وراء حبّه بمختلف الوسائل. لقد أظهرت الجماهير ذلك عندما وجدته لائقاً لمنصب المراقب العام[٥٣] فآثرته به دون كل الشخصيات الرفيعة التي سعت اليه، وهي ثقة تعدّ في أعلى درجات القدسيّة لما تتضمن من سلطة عظيمة ناهيك بتدخلها في شؤون أخرى. فللمراقب العام سلطة طرد اي عضو في مجلس الشيوخ وتعيين من يراه لائقاً، بدلاً منه. وله أن يفرض عقوبة فضح الشبان المتعطلين بمصادرة خيولهم. ومن سلطته أن يقوّم اموال كل فرد لأغراض دفع الضريبة، وان يقوم باحصاء النفوس العام [بلغ عدد رجال في الاحصاء الذي اجراه اميليوس عندما كان يمارس الوظيفة: ٣٤٧,٤٥٢ رجلاً بالغاً. وأعلن إسناد زعامة مجلس الشيوخ الى (ماركوس ليپيدوس) الذي أكرم بهذا المنصب اربع مرات قبلها، ورفع عن مقعد المجلس ثلاثة هم أقلّ الشيوخ منزلة وأهمية وأجرى مثل هذه التعديلات في احصاء طبقة فرسان الجيش الروماني بمعاونة زميله في الوظيفة (مارشيوس فيلپوس).

فيما كان اميليوس منشغلاً في كثير من الأمور الخطيرة، ابتلي بداءٍ دلت اعراضه الأولى على الخطورة، ثم تبين بعد زمن أنه ليس كذلك، على انه كان مزعجاً مستعصياً. فابحر الى [ڤيليا Velia][٥٤] في جنوب ايطاليا للاستشفاء نزولاً عند نصح اطبائه، وبقي قريباً من البحر مدة طويلة مستمتعاً بكلّ ما اتيح له من هدوء وراحة. في حين ظلّ الرومان يشتاقون الى عودته، وكثيراً ما عبروا عن مشاعرهم ورغبتهم في قدومه جهراً في الملاعب والمحلات العامة. ثم انه دنا موعد تقديم قربانٍ دينيّ دعت الضرورة اليه، وخيل لأميليوس أن جسمه يقوى على المشاركة فيه، فعاد الى روما. وأنجز المراسيم الدينية مع بقية الكهنة. وكان الشعب في اثناء ذلك يتكالب عليه ويحيط به حشوده لتهنئة بسلامة العودة وطيب المقام، وفي اليوم التالي قربّ الى الآلهة أعترافاً بفضلها في شفائه. وبعد انتهائه من ذلك عاد الى منزله وجلس الى الطاولة ليتناول غداءه واذ بنوبة مفاجئة تعتريه فراح يهذي، ثم غاب عن الوعي تماماً وفي

(٥٣) أنتخب لوظيفة الچنسور مع [كوينتوس مارشيوس فيليپوس] بعد قنصليته الثانية باربع سنوات. ومما يذكر ان هذا المنصب استحدث في العام ٤٤١ ق.م.

(٥٤) يكتب پلوتارخ «إليا Elea» هنا تفريقاً لها عن (ڤيليا) ويقول انها مدينة ايطالية لئلا يخلط بينها وبين سميتها في بلاد الاغريق.

اليوم الثالث(٥٥) لفظ انفاسه الأخيرة. وبذلك انتهت حياة لم تجد في اي نمط أو أسلوب من الأشياء سبيلاً قد يؤدي بها الى السعادة، حتى أن روعة جنازته كان فيها من الغرابة ما يستوقف النظر ويدعو الى العجب. فلقد كُرِّمت فضائله وسجاياه بالجليل المهيب من المراسيم عند مواراته التراب اذ انها خلت من الذهب و ومظاهر الفخفخة المعتادة في تلك المناسبات وحفلت بالحبّ والثقة والاحترام لا من ابناء وطنه وحدهم بل من الاعداء الذين قاتلهم أيضاً فقد تعاون على حمل نعشه والسير به كل الشبان الاشداء من الاسپان والليغوريين والمقدونيين(٥٦)، وسار خلفه الطاعنون في السنّ منهم، ينادونه بالمحسن اليهم والمحافظ على أوطانهم. لأنه كان يعامل المغلوبين بالعطف والتسامح، ولا ينفك في كل أدوار حياته يهتم بشؤونهم ويواصل بذل الخير لهم ويقضي لهم حاجاتهم كأنهم من ذويه وأقربائه. وذكروا المؤرخون أن تركته لم تزد عن ثلاثمائة وسبعين ألف دراخماً خلّفها لابنيّه بالتساوى الاّ أن أصغرهما [سكيپيو] نزل عن حصته لأخيه لأن أسرة [افريقانوس] التي تبنته كانت ذات ثراء عريض.

هذا ما جاءنا عن حياة وسيرة أميليوس(٥٧).

---

(٥٥) في ١٥٩ ق.م.

(٥٦) بعض النبلاء المقدونيين الذين كانوا آنذاك في روما. ويقول ڤاليريوس ماكسيموس [٢:٤:٣] انه كان أشبه بموكب نصرٍ ثان فقد حمل هؤلاء نعشه وهو مثقل برسوم وأشكال تمثل مناظر من هزيمة بلادهم.

(٥٧) هناك قولة واحدة وجهها لابنه (سكيپيو) تستأهل الذكر هنا: «الجنرال الكفؤ لا يبدء معركة الاّ عندما يُدفع اليها كضرورة لابدّ منها».

أوجه المقارنة بين تيموليون وباميليوس پاولوس

تلكما قصتا حياة هذين الرجلين العظيمين، وهما عند المقارنة متشابهتان بدون شكّ باستثناء أختلافٍ بسيط للغاية. فقد حاربا عدوين قويين: حارب أحدهما المقدونيين ونازل ثانيهما القرطاجنيين. وكان نصرهما مجيداً. الاول انتزع مقدونيا من خليفة [انتيغونس] السادس في المُلك. والثاني حرّر صقلية من الطغاة المغتصبين وأعاد الى الجزيرة حريتها السالفة. إلا اذا كان سجّلنا لاميليوس ميزة على صاحبه، وذلك باشتباكه مع جيش [پرسيوس] الكامل العدة والعدد، المؤلف من رجال كثيراً ما تغلبوا على الرومان في سوح القتال. في حين كان تيموليون قد وجد خصمه [ديونيسيوس] في أسوء حال، وأكثره يأساً. وبطريق المعادلة تقدّم تيموليون اميليوس لأنه قضى على حكم طغاةٍ عديدين، وسحق جيشاً قرطاجنياً جراراً، بعدد تافه لا يذكر من الرجال الذين جمعهم من كل صقع وبلد وليس كجيش اميليوس المتجانس المؤلف من جنودٍ نظاميين حسني الضبط عجم القتال عودهم وتعودوا الطاعة. خلافاً لجيش تيموليون الذي جمعهم اليه أمل الكسب والربح لا خبرة ولا مراس لهم في القتال تحكمت فيهم الفوضى وتعذّر قيادهم.

عندما تتكلل خاتمه الحروب بالنجاح، وتكون وسائل بلوغهاغير متساوية فان أعظم التقدير هو بالتأكيد، للقائد الذي حقق انتصاره بقوات أقلّ عدداً.

وكلا الرجلين عرفا برصانة الخلق، وحسن المسلك في معالجتهما كل ما عَنّ لهما من مهامٍ وواجبات إلا أن اميليوس انفرد عن صاحبة بأن لشرائع وعادات بلاده التي ربي عليها وثقف منذ نعومة اظفاره يداً في صلاحه لتولى الشؤون العامة وتصريفها، في حين أن تيموليون كوّن شخصية بمجهوده وسعيه الخاص وهذا واضح: لأن الرومان في ذلك العصر كانوا على حدٍ سواء شعباً منظماً طائعاً يحترم القانون، ويتبادل أفراده الخضوع والانصياع بعضهم لبعض، بينما نرى والدهشة تأخذ بلبّنا أنه لم يخلص قائد واحد من قواد اليونان في صقلية من الفساد والتفسح باستثناء [ديون]، ولهذا كان الكثير يحقدون عليه، ويتهمونه كذباً بعمله على اقامة

نظام ملكي هناك، وفق النظام اللقيديموني. ويكتب [طيماؤوس] أن سوء الحال أدى بالسيراقوزيين حتى الى اخراج [غيليپوس Gylippus] من البلاد بصورة غير مشرفة له بعد أن دَمرّ سمعته الذي لم يقف عند حدا ما ظهر منه عندما كان قائداً للجيش، ويورد كثير من المؤرخين حكايات عن الاعمال الشريرة القذرة التي ارتكبها [فاراكس] السپارطي، وكاليپوس Callippus الآثيني لغرض نصب نفسيهما ملكين في صقلية. من هما هذا الرجلان؟ ماذا كانا يملكان من قوة ليندفعا الى تحقيق فكرتهما هذه؟ كان أولهما تابعاً لديونسيوس عند طرد الطاغية من صقلية. وكان ثانيهما آمر سرية مشاة مأجور، من مرتزقة [ديون] جاء معه الى صقلية. لكن تيموليون أرسل نزولاً عند رجاء السيراقوزيين والحاحهم وجاء مزوداً بسلطة قائد ولم يكن بحاجة الى من يؤمره لأن سلطة جاءت منقادة اليه برجاءٍ وطلب. إلاّ انه مع هذا تنازل عن سلطانه بملء رغبته فور اتمامه تحرير صقلية من الغاضبين المضطهدين.

ومما يستحق أعجابنا هو أن اميليوس فتح مملكة مقدونياً الواسعة الفنية دون أن يلمس أو ينظر الى مالٍ، ولم يفد منها فلساً واحداً في حين عُرف بالكرم وسخاء اليد على الآخرين بكلّ ما يملك. وليس قصدي أن أضع علامة استفهام على تيموليون لأنه قبل منزلاً ومزرعة ثمينة في الريف، هدية من السيراقوزيين فليس قبولها مما يخلّ بقواعد الشرف، على أنه يكون أعظم شاناً ومجداً في رفضه لها. واسمى ما ترتفع اليه النفس هو عزوفها عن شيء لا غبار على أخذه، وبما أن أقوى الاجسام واصحها هي التي تستطيع احتمال صبارة الشتاء، وحمارة الصيف وقت تغيّر الفصول الفجائي بكامل اليُسر، وبما أن أصحّ العتود وأشدّها ثباتاً هي التي لا تتورم بالرخاء والعيش الهنيء، ولا تذوى وتضمر بالنوائب والملمات، لذلك نجد خلق اميليوس بقي ثابتاً بارزاً على سلوكه وتصرفاته، ظلّ سامياً رفيعاً حتى عندما فقد ابنين عزيزين مثلما كان عندما حقق أعظم انتصاراته وفتوحه. في حين أن تيموليون بعد أن أنزل العقاب العادل باخيه وهو عمل بطولي لا جدال فيه، استسلم لحزن لا مبرر له وحط من قدر نفسه بالغم والكآبة وحرم نفسه عشرين سنة، من الظهور في المحلات العامة أو ممارسة اي عمل سياسيّ.

والحق يقال أن من الحسن والجميل جداً أن يُشجب أي عملٍ وضيع، ويقابل بالكره والاحتقار، أما أن يظلّ المرء عرضةً للخوف من اي شكل من أشكال الملام، أو التقريع، فهذا يدل على قلب رقيق سليم الطوية، ولا يدل على قلب باسل شجاع.



PELOPIDAS

364 _ 420 ق.م

سمع [كاتو الأكبر Cato Majer] أحدهم يثني على آخر بالاقدام والجرأة التي لا حدود لها في المعركة فقال: «هناك فرق كبير بين التقدير الواجب للبسالة وبين الاستهانة بالحياة». وهو قول في غاية الصواب. فنحن نعلم على أقل تقدير أنه كان [لأنتيغونس] جنديٌ مقدام لا حَدَّ لجرأته وكان يشكو علةً وسقم بدنٍ، فسأله عن سبب سوء حاله ولما علم بدائه أمر اطباءه ببذل جهدهم في شفائه. وما أن شفي البطل المغوار، حتى زايلته الجرأة وطلق ركوب الاخطار طلاقاً لا رجعة فيه ولم يعد يظهر ذلك الاندفاع الاهوج في المعارك. فعجب [انتيغونس] لأمره وأخذ يلومه على تبدّل حاله، فلم يخف الجندي عنه السبب اذ قال:

- سبب جبني أنت يا مولاي! بانقاذي من ذلك البؤس والشقاء الذي كان يدفعني الى الاستهانة بالحياة.

وهذا الشعور نفسه كان يحدو السيباريتي Sybarite[1] في قولهم عن السپارطيين: إن استسهالهم الموت في الحرب، ليس مما يستوجب الاعجاب والتقدير، مادام ذلك يحررهم من عملهم الشاق وحياتهم البائسة. في حين كان الواقع يقضي على [السيباريت] وهم شعبٌ رقيق خانع أن يكرهوا الحياة، لأنهم لم يكونوا يخشون الموت في اطلابهم المجد وشوقهم الى السؤدد. لكن اللقيديمونيين وجدوا أن سجاياهم تحقق لهم سعادة في الحياة وفي الممات سواءً بسواءٍ. كما نجد في قول القائل:

> ماتوا، لا استهانةً منهم بدمائهم وارتخاصاً لارواحهم
>
> ولا بتوهمهم أن الموت هو شيء حسن بذاته.
>
> لم يكن من رغبتهم أن يعيشوا لا أن يموتوا،
>
> بل أن ينهضوا باعبائهما، بصورة تستحقّ الثناء.

---

(١) مستعمرة يونانية أسست منذ زمن قديم في خليج تارنتوم. كان موقع المستعمرة الجغرافي وغنى أهلها وقوتهم قد وصل بهم حتى الترف الذي ضرب به المثل. كانت عاصمتهم تدعى أولاً [سيباريس] من اسم النهر الذي يجرى قربها. ثم أبدل الاسم بـ(يثوريوم) أو (يثوري).

والمجاهدة في اجتناب الردّى ليس موضع لوم إن لم يكن الغرض من الحياة العيش الدنيء الذليل. وليست الرغبة في الموت من الخصال الحميدة إن كان الدافع اليها أحتقار الحياة. ولهذا نجد [هوميرس] يحرص دوماً على أن يدفع باشجع ابطاله وأكثرهم أقداماً - الى ميدان المعركة وهم مدججون بالسلاح الجيدّ. ولذلك كان المشترعون اليونانيون ينزلون العقوبات بأولئك الذين يتركون دروعهم ولايعاقبون من يفقد رمحه أو سيفه، ففي عرفهم أن الدفاع عن النفس هو أقرب الصفات الى الرجولة من الهجوم في المعركة. وهذا يصدق خصوصاً على حاكم المدينة أو القائد العسكري. وبحسب تصنيف [إفيقراطس Iphicrates] [٢] اذا كانت القطعات الخفيفة بمثابة اليدين للجيش واذا كانت الخيالة بمثابة قدميه والمشاة بمثابة صدره، فإن القائد هو الرأس. وعندما يقتحم القائد مواطن الخطر، لا يخاطر بحياته وحدها بل بكلّ من تعتمد سلامتهم على سلامته، والعكس بالعكس. لقد كان [كاليكراتيداس Callicratidas] عظيماً في كل شيء سوى الخطأ الذي تضمن جوابه لكاهنٍ نصحه بأن ينتبه لسلامته لما بدأ في قربانه من دلائل غير طيبة. فقد قال «في هذه الحالة لن تفقد سپارطاً رجلاً واحداً». الحق يقال أن [كاليكراتيداس] ليس غير فردٍ واحدٍ عندما يشارك في معركة برية أو بحرية، انّا بوصفه جنرالاً فهو يجمع في حياته حياة الكلّ، ويصعب أن يعتبر فرداً واحداً اذا ادّى موته الى هلاك عدد كبير. وخير من هذا الجواب، جواب [انتيغونس] الشيخ عندما اضطر الى القتال في [اندروس]. فقد قال له أحدهم «ان سفن الاعداء تزيد سفننا عدداً» فأجابه قائلاً «وأنا؟ بكم من السفن تعدّني؟» يقصد بهذا أن القائد المجرب الباسل تقويمه بالكثير. ومن الواجبات الأولى التي تحتمها وظيفته هو المحافظة على نفسه فبانقاذها من الخطر انقاذ من تعتمد سلامتهم على سلامته. وانه لا يسعني الاّ الاشادة [بتيموثيوس Timotheus] الذي قال لـ[خاريس Chares] عندما كشف له عن الجراح التي اصابته وترسه المخروق بسنان رمح:

- على أنيّ كنت أشعر بالخزي والعار في اثناء حصار ساموس عندما سقط رمحٌ بالقرب منيّ، لأني انكشفت للعدوّ مثل صبيّ غرير وانا جنرال أقود جيشاً عرمرماً.

الحق يقال ان مخاطرة الجنرال بحياته لا غبار عليها إن كانت تصل الى حَدّ تقرير نتيجة فاصلة. فهنا ينبغي عليه أن يقاتل بنفسه ويقامر بحياته غير مبالٍ بالعواقب الحتميّة التي قد تجعل قائداً يموت في اراذل الشيخوخة على الأقل، إن تجعله يموت بسبب الشيخوخة. أمّا اذا كانت الفائدة من اقدامه قليلة، والخسارة من سقوطه كبيرة، فمن يرغب في أن يخاطر بحياة جنرال، لأجل الحصول على نجاحٍ جزئي يستطيع ان يحرزه اي جنديّ بسيط؟

(٢) جنرال أثيني شهير. كان مغموراً إلاّ أن أعماله رفعت في صيته.

هذا، حسب اعتقادي، ما يجدر بي أن أوطيء به لسيرة كلّ من [پيلوپيداس، ومارچللوس] وكلاهما من عظماء الرجال، وكلاهما سقطا بسبب اقدامهما وبسالتهما. كانا من الشجعان المعدودين وكسباً لبلاديهما انتصارات عظيمة ورفعا من شأنها لحسن بلائهما في الحرب ضدّ عدوين رهيبين. فالتاريخ يذكر عن ثانيهما دحره [لهنيبعل] وهو في أوج قوته. وأولهما هزم اللقيدمونيين في معركة فاصلة حينما كان هؤلاء سادة البحر والبرّ. إلا أنهما خرقاً كلّ حدفي تهورهما وارتخصا الحياة بطيش لا مثيل له في حين كان الحاجة الى أمثالهما من القادة ماسه جداً. إن الشبه الذي يجمع بين خصالهما، وأتفاق ميتتيهما دفعني الى أن أقرن ما بين سيرتيهما.

انحدر پيلوپيداس ابن [هيپوكلس Hippoclus] من أسرة شريفة في [ثيبه]، مثل [إپامنداس]. ونشأ في خفض من العيش ورغده وورث وهو صغير مالاً كثيراً. فجعل همّه التفريج عن ضيق المستحقين الطيبين من الفقراء، مبرهناً على أنه سيد ماله لا عبداً له. وقد رأى افلاطون «أن من الرجال فريقاً ضاق عقله عن استعمال ثروته. وفريقاً من السفهاء اساء استخدامها، فالأول يعيشون عبيداً مخلدين لأرباحهم، والأخيرون يظلون دوماً عبيداً لملاذهم وشهواتهم». وهناك فريق ثالث من قبيل من سمح لنفسه أن يتنعّم بجود پيلوپيداس شاكراً كرمه وعطفه ألاّ [اپامنداس] صديقه، فانه لن يستطع اقناعه بشيءٍ مما يملك من دون سائر اصدقائه، فلم يَر بُداً من النزول الى مستوى فقره، وجدان الرضى في لبس الثياب الرثة مثله، وتناول طعامه التافه وأحتمال للمشاق لا يهن، وأبداء جرأة لا تعرف احجاماً في ميدان الحرب. وكان مثل [كاپانيوس Capaneus] في يوريبدس: «يملك ثروة طائلة، ولا تراه يفخر بها»

اذ يدركه الخجل وبفضل حياة اپانداس المنفردة وتفلسفه، أصبح فقره العتيد الموروث أخفّ وأسهل حملاً. إلاّ أن [پوليپداس] تزوج امرأة من أسرة رفيعة وأنجب أولاداً، ومع هذا فقد بقي لا يفكر في مصالحه الخاصة إلاّ تفكيراً ثانوياً، وانصرف انصرافاً تاماً الى معالجة المسائل العامة، فضيع ثروته. فلما توجه اصدقاؤه بلومه، والتأكيد على ضرورة المال الذي أهمل شأنه، أجابهم قائلاً:

- أجل، فهو ضروري لنيقوديموس Nicodemus. مشيراً الى رجل مقعدٍ ضرير.

وبدأ كلاهما مؤهلين بطبعهما لكلّ أسباب المعالي والبروز. على أن [پيلوپيداس] فضّل الرياضات البدنية بينما شُغِل [اپامنداس] بالدراسة والعلم. وكان أولهما يقضي ساعات فراغه في الصيد والاختلاف الى الپاليسترا Palaestra (مدرسة المصارعة)، والثاني كان

يداوم سماع المحاضرات وممارسة التفلسُف؛ ومن آلاف المزايا الجديرة بالثناء فيهما، التقدير المعقول الذي لا يوازيه شيء، لتلك الرغبة الدائمة في عمل الخير والصداقة التي صاناها من كل ما يشينها في حملاتهما العسكرية، وأعمالهما العامة، وفي فترة حكمهما الجمهورية. فلو نظر ايّ شخص الى حكم [اريستيديس مع ثموستوكلس]، و[سيمون مع پيركلس] و[نيسياس مع الكيپيادس] لهالة الفوضى والحقد، والتباغض الذي كان يسود علاقة كل زميلين. ولو تحول بنظره الى [پوليپيداس واپامنداس] وتأمل العطف والاحترام الذي كان يظهره أولهما للثاني، لما وسعه إلاّ الاقرار بأنهما أفضل قرينين وأكثرهما انسجاماً في الحكم والقيادة، وأحق وأحفى بالتجلّة من الآخرين الذين كانوا أكثر انشغالاً في مناصبة العداء بعضهم لبعض، من مناجزتهم لاعداء البلاد. ويعود السبب الحقيقي في هذا الى خصالهما الحميدة وأخلاقهما العالية، فهما لم يجعلا الثروة والجاه هدف مساعيهما - وهو هدف لابُدّ يؤدي الى الشنآن المنطوي على التنافس والخصام - بل كانا من البداية موطنيّ النفس بدافع سامٍ على أن يريا بلادهما تنعم بامجاد أعمالهما. ولهذه الغاية جنّد الواحد منهما مؤهلات الآخر واستخدم كما لو كان واستخدمها مؤهلاتهما معاً ويرى كثيرون أن جبل الودّ المتين هذا قد شدّهما منذ معركة [مانتينيا][3] التي شاركا فيها جنباً الى جنبٍ. اذ كانا بين افراد النجدة التي ارسلتها [ثيبه] لتعزيز صفوف اللقيديمونيين اصدقائها وحلفائها في ذلك الحين. فقد وضعا في صنف المشاة معاً واشتبكا مع الاركاديين. فانكفأ الجناح اللقيديموني على اعقابه وفرّ عدد كبير. فما كان منهما إلاّ أن ضمّا ترسيهما وصمدا في وجه المهاجمين. فأصيب [پيلوپيداس] بسبعة جراحٍ امامية، وخرّ صريعاً فوق كومة من قتلى الجانبين. ومع أن اپامنداس عَدّه في حكم الميت، فقد تقدم للدفاع عن سلاحه وجثته، وحارب جمهرة كبيرة من الاعداء بمفرده. مفضلاً موته على التفريط بصديقه البائس. وخارت قواه لاصابته بطعنة رمح في صدره وضربة سيف في ذراعه، فخفّ ملك السپارطيين [آغيسيپوليس Agesipolis] من الجناح الثاني الى نجدته وأنقذهما في آخر لحظة.

بقي اللقيديمونيون بعد هذا، يظهرون الصداقة (لثيبه)[4]، وهم في الواقع ينظرون نظرات

(٣) علينا أن لا نخلط بين [اپامنداس] فتلك كانت عزماً على اللقيديميين وهذه كانت غنماً. وربما وقعت المعركة موضوع حديثنا في السنة الثالثة من الاولمپياد الثامن والتسعين [ديودورس ٢٥:٥].

(٤) وجدت سپارطا طوال حروب الپلوپونيسي حليفاً مخلصاً في الثيبيين. وبمساعدة سپارطا استعاد هؤلاء حكمهم على بويوتيا التي كانوا قد فقدوها بسبب هزيمتهم امام الفرس. وبالأخير تعاظمت قوتهم وجبروتهم حتى انهم رفضوا عقد معاهدة سلام مع انتلقيداس ولم يقبلوا إلا بعد أن ارغموا. وعلمنا من [پوليبيوس] ان اللقيديميين خلال فترة الساعة تلك لم يسحبوا حامياتهم من أية مدينة أغريقية رغم انهم أعلنوا حرية تلك المدن.

الشكّ الحاقد الى تنظيمات المدينة وقوتهما. وكان بغضهم منصبّاً بالدرجة الأولى على حزب [ايسمنياس Ismenias] و[اندروقليدس Androclides] الذي ينتمي اليه پيلوپيداس، وهو حزب ينهج منهج التقدم ويعمل على ارساء دعائم الحريات لمواطني المدينة. ولذلك استمر به كلّ من [ارخياس Archias] و[نيونتيداس وفيليب] وهم من الاثرياء ذوي المطامع الاشعبية الذين ارادوا إحلال النظام الاوليغارشي، فطلبوا من [فيوپيداس Phoepidas] القائد السپارطي وكان ماراً بالمدينة بقوات كبيرة[٥]، أن يفاجيء [قادميا Cadmea] ويشتت شمل الحزب المعارض لهم ويبعد اعضاءه عن البلاد لاقامة نظام حكم اوليغارشي، وبهذه الوسيلة يتمّ اخضاع المدينة لسلطان السپارطيين. فقبل باقتراخهم، وفأجاء الثيبيين في عيد [كسيريس][٦] من حيث لايتوقعون واستولى على القلعة. وقبض على [ايسكنياس] وحُمل الى سپارطا وهناك قتل بعد زمن وجيز. لكن پليوپيداس، وفيرينيكوس واندروقليدس وعدداً كبيراً آخر تمكنوا من الفرار، فأعلنوا رسمياً بأنهم خارجون على القانون. وبقي اپامنداس في البلاد اذ لم يكن الطلب عليه شديداً فقد جعلته الفلسفة خاملاً، وأحاله الفقر عاجزاً.

وعزل اللقيديمونيون [فيوپيداس] وفرضوا عليه غرامة قدرها مائة وخمسون ألف دراخما، إلا انهم لم يسحبوا حاميتهم من ألقاديميا وابقوها. فراح كل الأغريق يعجبون للتناقض بعد أن عاقبوا الفاعل، ووافقوا على الفعل. ومع أن الثيبيين الذين فقدوا استقلالهم، وآضوا عبيداً لأرخياس وليونتيداس لم يعد لديهم اي أمل في التحرر من هذا الطغيان الذي وجدوا كلّ قوة سپارطا العسكرية تحرسه، ولا وسيلة عندهم لكسر النير إلاّ اذا أمكن ازاحة هؤلاء من سيطرتهم على البحر والبرّ، فإن ليونتيداس وعصابته، علموا أن المبعدين يعيشون في اثينا مقدرِين من الأهالي ويحترمهم كلّ الأخيار والطيبين فبادروا الى الائتمار سِراً بحياتهم وأغروا بعض الاشخاص المجهولين فنجحوا في اغتيال [اندروقليدس] إلاّ أنهم لم يفلحوا في الباقين. وبعثوا ايضاً برسائل من سپارطا الى الآثينيين، حذروهم فيها من ايواء المبعدين أو تشجيعهم باية صورة. بل أن يعمدوا الى طردهم بوصفهم اعداء الداء للإتحاد الاغريقي. إلاّ أن الآثينيين لم يلحقوا اي أذىً بالثيبيين اللاجئين تدفعهم الى ذلك ميولهم الطبيعية الموروثة الى العطف ومجازاة الثيبيين عن جميلهم في الماضي فقد ساعدهم هؤلاء كثيراً في المحافظة على نظامهم

(٥) كان [فوبيداس] يزحف على مدينة [اولينثوس] في الوقت الذي أخذه أخوه [اڤيدوميداس] يضيق عليها الخناق بجيشه اللقيديمي وبعدها قام ليونتيداس أو ليونتيادس أحد الپوليمارخيين - بتسليم مدينة ثيبته وقلعتها [كزينفون: الهللينييون ٥].

(٦) أو عيد تسموفوريا. يحتفل النساء بهذا العيد في كارميا. وهو أكبر أعياد ك التي تقيمها الاغريقيات ويحيين فيه أيضاً ذكرى أعظم بركتين خصّ بهما البشر وهما الزراعة وسز ..

الديمقراطي وأصدروا مرسوماً عاماً بما مفاده كلّ اثيني يجتاز [بويوسيا] مسلحاً لغرض مقاتلة الطغاة، على أي بويوسيّ أن يتغاضى عنه كأنه لم يره ولم يسمع به».

ومع أن پيلوپيداس كان من أصغر أعضاء الحزب سناً، إلا انه كان من انشطهم، لأيني الاتصال بكلّ مبعد على حدة سِراً فيثير حماسته، وكثيراً ما كان يخطب في اجتماعاتهم قائلاً انه لمن العار والحقارة إهمال بلادهم المستعبدة المحتلّة والقناعة بالعيش هكذا عيشة التعطل والأمان والكسل معتمدين على مراسيم الحكومة الآثينية، متبصبصين بدافع الخوف لأي خطيب معسول اللسان، قادر على استمالة الجمهور: كلاً أبداً، بل ينبغي عليهم أن يخاطروا في سبيل هذا الهدف العظيم ويتخذوا لهم مثلاً وقدوة من شجاعة [تراسيبولوس Thrasybu-llus] النادرة. وكما أنه زحف من [ثيبه] وكسر شوكة الطغاة الآثينيين، فعليهم أن يزحفوا من آثينا ويحرروا [ثيبه]. ونجح في اقناعهم بهذه الطرائق والأساليب فبعثوا سِراً الى ثيبه ببعض الاشخاص الى جملة من الاصدقاء ما زالوا في المدينة، وكشفوا لهم عن خططهم، فتمت الموافقة عليها وعرض [خارون Charon] وهو شخصية بارزة جداً – منزله لاستقبال المؤتمرين. واحتال أحدهم المدعو [فيلليداس Phillidas] على أن يُعين بمنصب كاتم سِرّ لكلّ من [ارجناس وفيليب] وكانا في ذلك الحين يملآن وظيفة [البوليمارخ] أو القائد العام. وكان اپامنونداس قد نجح في اثارة حماسة الشباب. اذ كان يشجعهم في اثناء التمارين الرياضية على تحدي السپارطيين والدخول معهم في حلبة المصارعة. فاذا ما وجدهم يترنحون بنشوة انتصاراتهم وفوزهم. خاطبهم بحدّةٍ وقسوة بقوله أنه لمن العار الكبير أن يصل بهم الجبن الى الحدّ الذي لا يتورعون عن خدمة من لا يفوقهم بالقوة.

وحُدّد يوم التنفيذ وأتفق المبعدون على أن يمكث [فيرينيكوس] في السهل الثرياسي Thria-sian[٧]، في حين يتقحم أوّل الخطر فئة قليلة من الشباب بمحاولة دخول المدينة. فاذا فاجأهم العدو وقضى عليهم فعلى الآخرين أن يُعنوا بأولادهم والأبويين. وعرض پيلوپيداس نفسه أولاً، وتبعه [ميلون Melon] و[داموقليدس Damoclides] و[ثيوپومپوس]، رجال من أسر عريقة المحتد يحبّ ويخلص بعضهم لبعض إلاّ في اطلاب المجد واظهار الشجاعة فهم خصوم دائمون ينافس أحدهم الآخر. وكانوا اثني عشر فقط، ودعوا صحبهم الباقين وبعثوا برسول الى [خارون]، ثم انطلقوا في سبيلهم يرتدون معاطف قصاراً ويحملون عصيّ صيدٍ ويجرّون كلاب صيدٍ ليبدوا بمظهر صيادين يتجولون في الحقول بحثاً وراء صيدٍ، وبذلك يبعدون عنهم شبهة كل من يلقاه. ووصل رسولهم الى [خارون] وأخبره بأنّ أصحابه سيصلون وشيكاً فلم يثن

(٧) ثرياسيوم هي مدينة بالقرب من جبل [كيثيرون].

الخطرُ [خارون] عما اعتزمه وبقي محافظاً على كلمة الشرف التي قطعها مقدّما منزله لايواء المؤتمرين القادمين. على أنه كان يوجد شخص اسمه [هپوسثينيداس Hipposthenidas]. وهو رجل ذو مبادئ قويمة لا غبار عليها، محب لوطنه، صديق للمبعدين، إلا أنه كان يفتقر الى العزم والارادة التي تتطلبها طبيعة العمل المفروض وقصر الوقت. ولذلك تهوّل المغامرة الوشيكة وبدأ الآن لأول مرة يتحسب للأمر: فوجد القضية تنحصر في الاعتماد على تلك القوة الضعيفة التي سيقدمها المبعدون للقيام بعمل لا يقل عن الاطاحة بالحكومة والتغلّب على كلّ قوة سپارطا، فانسلّ الى منزله وبعث بصديق له الى [ميلون وپيلوپيداس] ينصحهم بالعدول عن المغامرة مؤقتاً والعودة الى اثينا تربصاً بفرصةٍ أفضل، فعاد الرسول المدعو (خليدون Chlidon) الى بيته مسرعاً وأخرج جواده وسأل عن السرج. ولما كانت زوجه تجهل موضعه، ولم يظهر له أثر منذ أدعت أنها اعارته لصديقٍ فبدأ يتلاومان ثم انتقلا الى التلاعن ودعت عليه زوجته أن تكون سفرته نحسةً له ولكلّ من أُرسله وهكذا أمتدّ الخصام بهما حتى وجد [خليدون] أن عاطفته ضيّعت عليه الجزء الأكبر من يومه. وعندها رأى في ذلك نذير شؤمٍ فعدل عن التفكير في الرحلة، وانصرف الى شأن آخر. فتأمل كيف كاد الفشل يحيق بهذه المشاريع المجيدة والعظيمة في ساعة مولدها الأولى.

وأنقسم [پيلوپيداس] وصحبه الى قسمين، وكانت الدنيا نهاراً عندما دخلا المدينة من طريقين مختلفين وهم مرتدون ثياب الريفيين. وكان اليوم عاصفاً ثم أخذ الثلج يسقط وهذا ما ساعد في اخفائهم كثيراً لأن معظم الناس أووا الى بيوتهم بسبب سوء الطقس. وأستقبلهم شركاؤهم في الداخل، حال وصولهم وقادوهم الى منزل [خارون] فأجتمع فيه من المعبدين وغيرهم ثمانية واربعون لا غير. وكان خطّة القضاء على الطاغية بهذا الشكل: ذكرت قبلاً أن كاتم السرّ [فيلليداس] هو شريك للمبعدين ومطلع على كلّ تدابيرهم، وقد دعا ليلة التنفيذ الى داره [ارخياس] وآخرين الى وليمة مجلس وشراب وأستقدم بعض نسوة المدينة لهذا الغرض. حتى اذا لعبت الخمرة بالرؤوس وانصرف المدعوون الى ملاذّهم أعطيت الاشارة الى المؤتمرين للايقاع بهم، وتمّ ذلك كما رسم ولكن قبل أن تسري نشوتها في اوصال [ارخياس] تماماً أبلغ بأن المبعدين قد دخلوا المدينة سراً. وكان بلاغاً صحيحاً طبعاً لكنه غامض غير مؤكدٍ تماماً: ومع ذلك بذل [فيلليداس] مجهوده في تحويل مجرى الحديث الى موضوعٍ آخر، إلاّ أن [ارخياس] أرسل أحد حراسه الى [خارون] يطلب حضوره فوراً وكان الوقت ليلاً وپيلوپيداس واصحابه قد أكملوا التأهب للعمل وهم في المنزل بعد. ودق الباب فجأة بعد أن اتّموا لبس دروع الصدر وشدوا انطقة السيوف، فتقدم أحدهم من الباب ليسأل عن الأمر، ولما علم من

الحرس أن [البـوليـمارخ] طلب احضـار [خارون] عـاد في غـاية الاضطراب ليطلع الآخرين، فتوهموا حالاً أن المؤامرة كلها قـد افتضحت، وانهم سيـمزقون إرباً قبل يتمـكنوا من تحقيق أي عملٍ يثبت بسالتهم على الأقل: على انهم اتفقوا جميعاً، بوجوب اطاعة خارون للأمر والذهاب الى [البوليمارخ] دفعاً للشكّ. وكان [خارون] والحق يقال شجاعاً جميع القلب ثبت الجنان في وجـه الخطر، إلا انه كـان في هذا الموقف شـديد القلق لئلا يـظنّ به اصـحـابه المؤتمرون، ويوصم بالخيانة ويُحـمّل وزر مـوت هذا العدد الـكبيـر من أبسل المواطنين. لذلك عـمد الى احضـار ابنه بعد أن استعدّ للرحيل - فـجيء به من جناح النسـاء وكان صـبيّاً حدثاً لكنه بدأ أجمل وأقوى كل من هم سِنّه. فأخذه ودفع به الى [پيلوپيداس] قائلاً:

- إن وجدتموني خائناً، فعاملوا هذا الصبيّ معاملة عدوّ لايستحق اي رحمة!

إن هذا الحرص الذي ابداه [خارون] استـدرّ الدمع من عـيـون الكثـيرين. واحتجّ الكلّ بشدّة على وصول الأمر به الى حَدّ افتراض سوء النية والحطة باي واحد منهم عند ظهور الخطر الداني الى درجة اللوم والشـكّ في أخلاصه وابوا عليـه أن يدخل ابنه في المسألة، وان يبـقيه بعـيداً عن مكامن الأذى: فلعله يخلص من غـائلة الطـاغـية ويعـيش ليـثـار للمدينـة واصدقـائه؟ على أن [خارون] رفض نقله الى محل أمين وتسـاءل قائلاً:

- أي حيـاة وأي سـلامـة تكون أشـرف من الموت مع أبيـه ومع مـثـل هؤلاء الصـحب الكرام بشجاعةٍ واقدام؟

وبعـد أن دعا الآلهـة لحمايتـه، وحيّاهم جـميعاً وشجعـهم، انصرف وهو يعـمل الفكر ويقلب وجوه النظر، مخـفظاً من صـوته وساتراً مـن سيـمائه مـا من شـأنه ان يفضـحه، ومظهراً أقل مـا أمكنه مما يضمره في نفسه.

وعندما بلغ الباب خرج اليه [ارخياس] مع [فيلليداس]، وقال له:

- سمعـت يا خارون بقدوم بعض الرجال الى المدينة قـبل قليل، وانهم يتجولون في انحـائها وأن بعض الناس ينضمون اليهم.

فانتاب [خارون] الاضطراب، إلاّ انه سأل:

- من هم؟ من يخفيهم؟

ولما وجد أن [ارخيـاس] ليس على علمٍ تامٍ بالقضيـة اسـتنتج أن المؤامرة لـم تنكشف، وان المعلومات التي وصلته لم يكن مصدرها ايّ مساهم مطلّع، وعندئذ قال له

- لاتزعج نفسك بهـذه الاشاعات الفارغة: وعلى اية حال فسوف اتحقق منها بنفسي إذ ينبغي

الاّ يهمل ايّ خبر من هذا القبيل.

فما كان من [فيلليداس] الواقف إلاّ وطفق يثني عليه ثم أعاد ارخياس الى مجلسه وسقاه حتى اثمله، ومد من أجل الوليمة ليكون ختامها صحبة النساء. وعندما عاد [خارون] وجد الرجال مستعدين لا كالمؤمل بالسلامة والفلاح، بل كالمتأهب للموت بشجاعة بعد أن يوقع مذبحة بالاعداء. فأبلغ [پيلوپيداس] والآخرين بجلية الأمر، لكنه ادعى امام آل بيته بأن [ارخياس] طلبه لشأن آخر وأخترع حكاية مناسبة ولكن ما ان أوشكت هذه العاصفة على الختام حتى دفع «الحظّ» بأخرى فقد اقبل رسول الى [ارخياس] يحمل اليه رسالة من سميّه [ارخياس] كاهن الأسرار [الهيروفانت Hierophant] في اثينا. وكان صديقاً له ومستضيفاً. ولم يكن مضمون الرسالة مجرد شكوك غامضة عابرة، بل حقائق ثابتة كشفت عن تفاصيل الخطة كلها كما تبين ذلك فيما بعد. فجيء بالرسول أمام [ارخياس] الذي كان في حالة سكرٍ شديد فسلمه الخطاب قائلاً:

- يرغب المرسل ان يقرأ خطابه فوراً. إنه يتعلق بموضوع هام جداً.

فأجابه [ارخياس] باسماً:

- الأمور الهامّة غداً!

وتناول الخطاب ودسّه تحت الفراش، وعاد يستأنف ما انقطع من حديث مع [فيلليداس]. وذهبت كلماته هذه مثلاً عند الأغريق حتى يومنا هذا.

عندما بدت الفرصة مناسبة للعمل انطلق المؤتمرون بفرقتين، واتجه [پيلوپيداس وداموقليدس] وجماعتهما المداهمة [ليونتيداس وهيپاتيس Hypates][(٨)] وكان منزلاهما متجاورين. وأنطلق [خارون وميلون] الى حيث [ارخياس وفيليب] وقد غطى جميعهم دروع صورهم بثياب النساء ووضعوا قلائد كثّة من الصنوبر والشربين أخفاء لمعالم وجوههم. وما وصلوا الباب حتى أخذ المدعوون يصفقون ويهللون، متصورين انهم النسوة اللاتي كانوا يتوقعونهنّ. ودخل المؤتمرون وأجالوا بصرهم في الغرفة ليتثبوا من كل الموجودين، ثم انتضوا سيوفهم وتقدموا من [ارخياس وفيليب] بين الموائد وكشفوا عن هوياتهم. وأقنع [فيلليداس] فئة قليلة من المدعويين بالهدوء. أما الذين حاولوا مساعدة [البوليمارخ] فقد سهل قتلهم لحالة السكّر فيهم إلاّ أن مهمة [پيلوپيداس] ورهطه، كانت اصعب من مهمة زملائهم. فقد

(٨) لم يدع هؤلاء للحفل لأن [ارخياس] الذي كان يتوقع لقاء امرأة رفيعة المقام، لم يختر أن يرى ليونتيداس هناك.

قصدوا [ليونتيداس] وهو رجل عظيم القوة أريب، ووجدوا باب منزله مغلقاً وقد آوى الى فراشه، فطرقوه زمناً طويلاً دون مجيب وأخيراً سمعهم أحد الخدم فجاء ورفع المزلاج فأندفعوا الى الداخل فور فتحه، وأزاحوا الخادم جانباً وأسرعوا الى حجرة [ليونتيداس]، وأدرك من الضجة والركض، حقيقة ما يقع فهبّ من فراشه قائماً وأشهر خنجره إلاّ انه نسي إطفاء النور ليعرقلهم ويجعل المهاجمين تائهين يقع أحدهم على الآخر في الظلمة. وهكذا استقبلهم في غرفته المضيئة وهو بالباب وطعن اول الداخلين وكان [سكفيسودورس Cephisodorus] وعند سقوطه التحم بالثاني وهو پيلوپيداس، وكان المر ضيقاً وجسد سفسودورس يعترض السبيل، وتلا ذلك صراع عنيف وحشيّ، وأخيراً تغلّب پيلوپيداس وبعد أن قتل [ليونتيداس] خرج وجماعته يريدون هيپاتس وأقتحموا بيته بالطريقة نفسها، فعرف مما هو مبيت له وهرب الى الجيران، إلاّ انهم لحقوا وادركوه وقتلوه.

وبعد ذلك انضموا الى [ميلون]. وبعثوا يستعجلون المنفيين الذين تركوهم في [آتيكا]. وأعلنوا حرية المواطنين الثيبين[٩]، وانزلوا الغنائم من الأروقة. وكسروا ابواب مخازن صانعي الاسلحة القريبة وسلّحوا من جاء لنصرتهم. وأقبل [أپامنداس وغورغيداس Gorgidad] وهما شاكياً السلاح يقودان جمهرة من الشباب المندفع الملتهب حماسة، ومن خيرة كبار السنّ، وساد المدينة هياج عظيم وضربت الفوضى اطنابها، وامتلأت ضجيجاً وحركة، وأشعلت الأنوار في كلّ بيت، وراح الناس يتراكضون هنا وهناك، على أن الأهلين لم يجتمعوا كتلةً واحدة فقد صعقوا لما حدث، وجهلوا حقيقة ما يجري بالضبط. وفضلوا التريث وانتظار ما سيأتي به الغد. ولذلك اتجه الاعتقاد بان الضباط السپارطيين أخطأوا بوقوفهم موقف المتردد وعدم مهاجمة المؤتمرين بينما كان تحت امرتهم حامية تتألف من الف وخمسمائة مقاتل فضلاً عن كثير من الأهلين الذين لجأوا الى القلعة، إلا أنهم يتحركوا من القلعة وهم قلقون للضجة والحرائق، وتراكض الناس. وما أن انبلج الصبح حتى كان المبعدون القادمون من آتيكا، داخل المدينة وكلهم شاكو السلاح. وعقد اجتماع شعبي عام بمسعى من [اپامنداس وجورجيداس] وقدما الى الشعب [پيلوپيداس] ورهطه يحفّ بهم الكهنة وبايديهم قلائد الزهر، وانثنى هؤلاء يحضون الشعب على القتال في سبيل الوطن والآلهة، فهبّ المجتمعون دفعة واحدة عندما بدوا لهم واستقبلوهم بالهتاف والتهليل، ورحبوا بهم كما يرحبون بالمنقذين.

وما أن تقرّر انتخاب [پيلوپيداس] قائداً عاماً [لبويوثيا]، حتى باشر بالتعاون مع [خارون

(٩) وكذلك قام پيلوپيداس بارسال [فيليداس] الى جميع سجون المدينة لأطلاق سراح شجعان الثيبيين الذين اعتقلهم الطغاة السپارطيون وكبلّوهم بالاغلال.

وميلون] بالقاء الحصار على القلعة ومداهمتهما بهجومٍ من كلّ الجهات لتحريرها، وكان مستعجلاً في ذلك لئلا يخرج جيش من سپارطا لانجاد من فيها(١٠). وقد نجح في مسعاة بعد أن كان على قاب قوسين من الفشل، إذ وافق على شروط خروج السپارطيين ورحيلهم عن البلاد، وفيما هم في طريق العودة التقوا عند [ميغارا] بكليومبروتوس Cleombrotus الزاحف على [ثيبة] بقوات كبيرة. وادان السپارطيون كلاً من [هريپيداس Herppidas وارسيسوس Arcissus] حاكميهما في [ثيبة] ونفذوا فيهما حكم الموت. أما الحاكم الثالث [ليسانوريداس Lysanoridas] فقد فرضوا عليه غرامة فادحة ففرّ الى [پلوپونيسوس](١١).

هذه المأثرة كانت أشبه بمأثرة [ثراسيبولوس Thrasybulus]، من ناحية بأس القائمين بها، وأخطارها، وتطوراتها ونهايتها الناجحة، حتى وصفها الأغريق بالأخت التوأم لها. أذ يندر ان تجد أمثلة أخرى لها، حيث فئة صغيرة ضعيفة جداً تتغلب باقدامها الخارق على عدوّ وفير العدد عظيم السلطان، وينجم عن انتصارها مثل هذا القدر من النفع والخير للبلاد. إلاّ أن الأحوال التي طرأت نتيجة هذا، زادت من شهرة النصر ورفعته. فقد بدأت في تلك الليلة بالذات الحربُ التي قضت القضاء المبرم على كل ادعاء لسپارطا في الزعامة، وانهت الى الأبد تلك السيادة التي كانت تمارسها آنذاك على البر والبحر معاً. في تلك الليلة لم يداهم [پيلوپيداس] قلعة أو حصناً أو مدينة محصنة وانما كان الرجل الثاني عشر الذي دخل بيتاً خاصاً، فحلّ وكسر سلاسل الحكم السپارطي - (ان عبّرنا عن الحقيقة بالمجاز) وكان يبدو قبل ذاك محكماً لا فكاك منه.

وغزا اللقيديمونيون [بويوتيا] بجيش عرم. وتخوف الآثينيون من الأخطار، فأعلنوا انهم ليسوا بحلفاءٍ [لثيبه] وضيقوا على كل منحازٍ الى قضية البويوتيين. ونفذوا حكم الموت ببعض، ونفوا وغرمّوا آخرين: وبدت قضية [ثيبة] يائسةً لا أمل منها لفقدها النصير والحليف. على أن پيلوپيداس وجورجيداس اللذان تسلما زعامة [بويوتيا] دبّرا خلق نزاع بين اللقيديمونين والآثينيين فاهتديا الى الحيلة الآتية: كان المدعو [سفودرياس Sphodrias] قد ترك في [ثسپايي Thespiae] على رأس جيش سپارطي لاستقبال ونجدة الثيبيين المنشقين.

(١٠) لما لم يكن محتملاً احتلال موقع منيع كهذا خلال يوم واحدٍ وبالقوة القليلة العدد التي كان يقودها پيلوپيداس آنذاك. فعلينا ان نرجع الى ديودورس ١٦:٢٥ وكزينفون: الهلينيون ٥، ليخبرانا بأن الآثينين في فجر اليوم التالي الذي تمّ فيه أحتلال المدينة. قاموا بارسال خمسة آلاف من الرجاله والفين من الخيالة بقيادة كزينفون ووصلت من مدن بويوثيا تعزيزات أخرى قواتها سبعة آلاف أو أكثر فشاركت قوات پيلوپيداس بالحصار. إلاّ ان المدينة صمدت عدة أيام ثم استسلمت بعد أن نفدت ارزاقها.

(١١) من التقاليد التي درج عليها المقاتلون السپارطيون ان يموتوا والسيف بيدهم دفاعاً عن الموضع الذي أوكل اليهم أمر الدفاع عنه.

وهو في الحقيقة قائد مشهور بشجاعته في ميدان القتال إلاّ انه مأفون العقل، مليء بآمال خيالية، ومطامح رفيعة. إن هذا الرجل أرسل پيلوپيداس وزملاؤه تاجراً من أصدقائهم يحمل اليه بالسرّ مبلغاً من المال... ونصيحةً - كانت أقوى أثراً من المال. قال له انه ليجدر برجل في مثل منزلته أن يسعى وراء مغامرة عظيمة، وانه لن يجد خيراً من غزو الآثينيين وهم في غفلة من أمرهم، ويباغت ميناءهم [پيريوس] اذ ليس ما يسرّ سپارطا أكثر من الاستيلاء على آثينا، كما أن الثيبيين لن ينبروا طبعاً لمساعدة أناس يبغضونهم ويعتبرونهم خونةً في الوقت الحاضر. وظل يضرب فيه على هذا الوتر حتى اقنعه، فزحف ليلاً عن آتيكا وتوغل بجيشه حتى بلغ [اليوسيس][١٢]، وعند هذه المرحلة من مغامراته اصيبت قلوب رجاله بالتردد فأنسحب الى [تسپايي] ولكن بعد أن أنكشفت نـ اياه وورّط قومه في حرب خطرة. بعد هذه الحادثة أخذ الآثينيون يبعثون بالمساعدات الى ثيبة وهبّوا ساخطين الى البحر مبحرين الى عدة أمكنة ومقدمين المعونة الى كلّ بلد يوناني يرغب التخلص من نفوذ السپارطيين.

وفي تلك الفترة خاض الثيبيّون بمفردهم عدة معارك مع السپارطيين في [بويوتيا]، وأشتبكوا كثيراً بالعدوّ، ولم تكن تلك المعارك بالكبيرة لكنها مهمّة في تدريبها وتلقينها أياهم فنون القتال، وبهذا انصرفت اذهانهم الى الحرب، وتعودت ابدانهم المشاق فكسبوا الخبرة والشجاعة بهذه الصدامات المتعددة، مما يفصح عنه قول [انتالكيداس Antalcidas] لاغيسيلاوس بعد عودته جريحاً من [بويوتيا]:

- لقد أجزل لك البويوتيون العطاء حقاً، مكافأة لك على تلقينهم فنون الحرب رغماً عنهم وكرهابها.

وإن شئت الحقيقة، فان [اغيسيلاوس] لم يكن استاذهم في هذا. بل أولئك الذين أطلقوهم بذكاء وبعد نظر على أعدائهم كما تطلق صغار الكلاب، وعادوا بهم سالمين جميعاً بعد أن اذاقوهم حلاوة النصر، وقوة العزيمة. وپيلوپيداس يستأهل أعظم التكريم من بين كل هؤلاء الزعماء: اذ ما أن أنتخب جنرالاً لأول مرة، حتى بقي يقود الرجال سنة بعد أخرى طوال حياته إمّا بمنصب قائد «الكتيبة المقدسة» أو قائداً عاماً للجيش البويوتي وهو أكثر المنصبين لصوقاً به. هُزم السپارطيون بالقرب من [پلاطيا Platæa] و[تسپايي] ولاذوا بالفرار. وقتل [فيوبيداس] الذي أحتل القلعة [قادميا]. وفي [تناغرا] ابيدت قوة كبيرة وقتل قائدها

(١٢) كان أملهم أن يبلغوا [پيريوس] ليلاً، لكنهم وعندما أصبح الصباح وجدوا انهم لم يتقدموا أكثر من [اليفسيس]. وادرك [سفودرياس] أن أمره انكشف فاجتاح في رجعته ضواحي آثينا. وأستدعى اللقيديميون [سفورديماس] وأتخذ الايغوري الاجراءات القضائية ضدّه. الاّ ان [اغسيلاوس] بشفاعة والحاح من ابنه الذي كان صديقاً لابن سفوردياس - عمل على انقاذه [گزينفون المرجع السالف ٥].

[بانثيودس Panthoides]. إلاّ أن هذه الإشتباكات وغيرها لم تصب المنهزمين بيأسٍ تامٍ، وان رفعت من معنويات المنتصرين اذ لم تقع بين الفريقين معركة فاصلة، أو قتال منظم، وانما مجرد غزوات مفاجئة تمليها الفرص والمناسبات ويسودها الكرّ والفرّ، ثم الهجوم ثم الانسحاب وهكذا. إلاّ أن معركة [تيجيري Tegyrae] التي كانت مقدّمة وتمهيداً [لليكوترا] رفعت من سمعة پيلوپيداس كثيراً. اذ لم يكن لايّ من القادة الآخرين أي فضلٍ فيها، ولم يظهر العدوّ أي دعوى بنصرٍ بها. كانت مدينة [الاورخومينيين] منحازة الى جانب السپارطيين، وقد عززت الحماية فيها بكتيبتين، وكان [پيلوپيداس] شاخصاً اليها ينتظر فرضته فلما سمع أن الحامية انتقلت الى [لوكريس Locris] وان [اورخومينيس Orchomenes][13] باتت بلا حماية زحف عليها بكتيبته المقدسة وكوكبةٍ من الخيالة، وعند وصوله مشارفها وجد التعزيزات القادمة من سپارطا تتقدم نحوها. فقام بدورةٍ حول قدمات الجبال وانسحب بجيشه الصغير عبر [ميجيري] وهو السبيل الوحيد الذي يمكن مروره منه لأن نهر [ميلاس Melas] تنتشر مياهه حال فيضانه ويكوّن مستنقعات وبركاً صالحة للملاحة، ويجعل كل الأرض السهلة التي تتخللها غير صالحة للسيّر. والى اسفل المستنقعات بمسافة قصيرة يقوم معبد ومهبط وحي [ابوللو تيجيريوس] المهجور قبل زمن ليس بالطويل، وكان مزدهراً حتى الحروب الميدية، بكاهنه [ايخيقراطس Echecrates]. ويزعمون أن هذا الرب ولد هناك. والجبل المجاور يسمى [ديلوس Delos]، وهنا أيضاً يعود نهر [ميلاس] الى مجراه، ومن خلف المعبد يجرى ماء نبعين عجيب بحلاوته وكثرته وبرودته. نبع يسمى [فيونكس Phoenix] ونبع يسمى [ايلويا Elœa] الى يومنا هذا. حتى لكأن [لوچينا Lucina] لم تولد بين شجرتين بل بين ينبوعين. وثم موقع قريب ظاهر يدعى [پتاوم Ptoum] يقال أنها روّعت اثناء وجودها فيه بظهور خنزير برّي. وتتصل حكايات [پيثون Python] و[تيطيوس Tityus] بهذه المواقع أيضاً على المنوال نفسه. واني لأضرب صفحاً عن كثيرٍ من النقاط التي يمكن استخدامها موضع نقاش. لأن اساطيرنا لا تضع هذا الرب في مصافّ الأرباب المولودين ثم تحولوا الى آلهة خالدين، مثل [هرقل]، [باخوس] اللذين رفعتهم فضائلهم فوق طبقة البشر وقابلية الفناء إلاّ أن ابوللو آله خالد غير مولودٍ من بشر[14]، اذا استندنا في حكمنا هذا على أي حقيقةٍ مما أنحدر الينا من أقدم الواقفين على هذا الموضوع، وأوفرهم حكمةً.

---

(١٣) واحدة من أكبر وأهم مدن بويوثيا. وكان فيها حامية لقيديمية وقتذاك.

(١٤) هذه فقرة تستدعي تأملاً عظيماً: يؤمن الحكماء والفلاسفة القدماء امثال فيثاغوراس وأفلاطون وغيرهما. إنّ الله ينجب ابناءهم مثله خالدون. وانهم لم يولدوا من رحم امرأة وهم يساوونه في جوهره ان هذه الفكرة انحدرت اليهم من أقدم العصور وما ورد عنها من مآثر كان ينوّه بابن الله الخالد مع الأب.

وبينما كان [الثيبيون] يتقهقرون من [اورخومينوس] نحو [تيجيري] كان السپارطيون يتقدمون من [لوكريس] في الوقت نفسه. واذا بهما يلتقيان. ولما بات هؤلاء على مرأى من الثيبيين يتقدمون عبر المضيق قال أحدهم لپلوپيداس:

- لقد وقعنا في يد العدو ؟

فاجابه:

- ولم لايكون هم الذين وقعوا في ايدينا ؟

وأمر خيالته فوراً بترك المؤخرة والهجوم. بينما جمع مشاته كتلة واحدةً وكانوا ثلاثمائة[١٥]، مؤملاً بهذه الطريقة أن يفتح ثغرة لنفسه في تشكيل عدوه الأكثر عدداً منه، من أي جهة يقوم بالهجوم. وكانت قوة السپارطيين تتألف من كتيبتين (الكتيبة قوامها خمسمائه على ما يذكر [يفوروس]، أو سبعمائة على ما يقول [كالليستينس Callis-thenes]، ويزعم آخرون ومنهم [پوليبيوس] أنها تسعمائة). بقيادة [جورجوليون Gorgole-on] و[ثيومپوپوس]. فقررا التقدم لمهاجمة الثيبيين وهما واثقان من النصر والتحم الفريقان، وكان زخم القتال على أشدّه حيث يقف القادة. ووقع القائدان السپارطيان قتيلين أولاً ولحقت بالقوة التي تحيط بهما خسارة فادحة فما لبثت القوة كلها أن خارت معنوياتها وفتحت طريقاً للثيبيين كأنها تريد مرورهم ونجاتهم. لكن پيلوپيداس دخل الثغرة دون أن يفكر في الافلات بل استدار نحو الصامدين من الاعداء وأوقع بهم قتلاً وذبحاً، عقبه فرارٌ من صفوف السپارطيين. ولم تستمر المطاردة مسافة طويلة لخوف المنتصرين من الاورخومينيين المجاورين، ومن نجدات لقيديمون. مهما يكن فقد نجحوا في شق طريقهم عنوةً بين أعدائهم وتغلبوا على قوتهم كلها. لذلك عمدوا الى اقامة نصب تذكاري لنصرهم ونزعوا أسلحة القتلى ثم قفلوا راجعين الى مقرهم مزهوين بما حققوا. لم يهزم السپارطيون في كلّ حروبهم العظيمة التي خاضوها ضدّ الاغريق أو البرابرة أمام قوة أصغر من قوتهم قبل هذا. ولم يندحروا في معركة فاصلة وكان عددهم فيها مساوياً لعدد خصمهم. ومن هذا ساد الاعتقاد بأن شجاعتهم لا يقف أمامها شيء، وان سمعتهم الداوية كانت توقع الرعب في قلوب أعدائهم فيخسروا المعركة قبل دخولها. لأنهم لا يجدون أنفسهم أكفاء لرجال سپارطا حتى عند تساوي الفرص. على أن هذه الموقعة علمت الأغريق في المقام الأول أن الشجاعة والعزيمة وشدّة المراس ليست قاصرة على

(١٥) هذا العدد القليل كان زهرة الجيش الثيبي. وقد خلع عليه لقب «الكتيبة المقدسة» أو «عصبة المحبين» تكريماً لأفراد الوحدة وقد عرفوا جميعاً وبلا استثناء، بولائهم وأخلاصهم لدولتهم الثيبية وبمفاداتهم بعضهم لبعض [انظر افلاطون: المحاورات].

رجال [يوروتاس] والبلاد الواقعة ما بين [بابيس Babyce] و[كناصيون Cnacion] بل عندما يثور الشباب خجلاً من الدناءة والخِطّة، ويكونون مستعدين للمغامرة في سبيل قضية عادلة، عندما يخشون العار أكثر مما يخشون الخطر، فاذ ذاك تجد أمامك أشجع الخصوم، وأشدهم بأساً، أيّاً كانت البلاد التي انجبتهم.

كان [غورغيداس] على ما يزعمون، أوّل من ألّف الكتيبة المقدسة من ثلاثمائه رجلٍ مختارين. وكانت مهمتهم حراسة القلعة ولذلك كانت الدولة تنفق عليهم وتزودهم بكلّ ما هو ضروريّ لتدريبهم، ومن هنا جاء اسم «كتيبة المدينة». لأن الحصون كان يطلق عليها اسم المدينة عادةً، ويقول آخرون أنها تألفت من شبان ارتبط بعضهم ببعض برباط الودّ الخاصّ. وهناك قول فكه شهير [لپومينوس Pommenes] «هو» إن [نسطور] شاعر هوميروس، لم يكن بارعاً في قيادة الجيش حين نصح الأغريق أن يضعوا قبيلة في صف قبيلة وأسرة لُصق أسرةٍ حتى «تساعد القبيلةُ القبيلةَ، ويعاون القريب قريبه!» بل كان عليه أن يضع المحبّ الى جنب حبيبه». لأن الرجال الذين ينتمون الى عشيرة واحدة، وينحدرون من أسرة واحدة، قليلاً ما يهتم احدهم بالآخر عندما يتأزم الموقف. ولكن عصبةً شدت عراها الصداقة المبنيّة على الحبّ، لا يُفلّ غرابها ولا تنفصم آصرتها. لأن المحبوبين يدركهم العار اذا أظهروا خِسّةً وجبناً أمام محبوبيهم، فتراهم يندفعون الى ركوب الخطر بكلّ سرور لانجاد بعضهم بعضاً. وليس هذا بالذي يدعو الى العجب مادامٍ إهتمامهم بمحبيهم الغائبين يزيد عن اهتمامهم بالحاضرين منهم. كقصّة ذلك الذي هم عدوّه بقتله، فكان رجاؤه الحارّ منه أن يقضي عليه بطعنة في صدره لئلا يدرك حبيبه الخجل لدن يراه جريحاً في ظهره. ومن الاساطير المتداولة، أن [ايولاوؤسٍ Iolaus] الذي عاون [هرقل] في أعماله وقاتل الى جانبه، كان حبيباً له. وذكر [ارسطو] أن المتحابين كانوا يقسمون على الوفاء فوق تُربة [ايولاؤوس]. فمن المحتمل والحالة هذه أن تلك الكتيبة سميت «مقدسة» بسبب ذلك، لان [افلاطون] يُسمّي المحبّ «الصديق الملهم الهيأ»[١٦]، وقيل أنها لم تخسر معركة قطّ، حتى الموقعة التي جرت قرب [خيرونيا]: شَخَصَ [فيليب] الى ميدان القتال بعد نهايته ليتنقد جثث القتلى فبلغ الموضع الذي سقط فيه «الثلاثمائة» صرعى معاً. اثناء اشتباكهم مع [فلانسكه] فادركه عجب شديد، ولما علم انهم «كتيبة المحبين» بكى وقال:

- لا كان ذلك الرجل الذي يشكّ في أن هؤلاء الرجال أقدموا على أي فعل دنيء، أو عانوا منه.

---

(١٦) افلاطون المحاورات.

لم تكن نكبة [لايوس Laius[17]] سبب نشوء هذا الشكل من العلاقة ما بين الثيبيين كما خيل للشعراء؛ فإن أوّل نشوئها كان على يد المشترعين وهدفهم منها تطرية الطباع الجامحة اثناء الصغر. فجعلوا للعب بالناي مقاماً جلياً في مناسبتي اللهو والجدّ على السواء. وأهتموا كثيراً بتشجيع هذا اللون من الصداقة في مدارس المصارعة، لترق امزجة الشباب وتلين طباعهم، وحداهم هذا الى افضل عملٍ وهو جعل الربة [هارموني Harmony] بنت [مارس] و[ڤينُس] ربتهم المفضلة. لأن التحام القوة والشجاعة، بالرقة وحسن السلوك الى «انسجام» يجمع كل عناصر العشرة والاجتماع في نظام تامٍ توافقي.

وزّع [غورغيداس] افراد هذه الكتيبة على الصفوف الامامية من المشاة، فتضاءلت بسالتهم، لأن تفرقهم وانفراط عقدهم، وأختلاطهم بمن يقلّ عنهم عزيمة وبأساً حرمهم فرصتهم العادلة لإظهار كفاءاتهم كاملةً. على أن [پيلوپيداس] الذي عجَمَ بأسهم وخبره في [تيجري] حيث قاتلوا بمفردهم ملتفين حول شخصه، لم يفرّق ما بينهم قطّ. وأبقى قوام الكتيبة على حاله. وكان يسند اليهم الواجب الأول في أعظم المعارك. اذ كما يكون عدو الجياد المشدودة الى العجلة أشدّ وأسرع من عدوها منفردةً (لا لأن قوتها المتحدة تشق الهواء بسهولة بل لآن مغالبتها بعضها بعضاً وتنافسها على السبق يذكي حماستها، ويلهب روحها بالإقدام) كذلك فكر [پيلوپيداس] أن ذوي البأس والعزم - باستفزازهم أحدهم الآخر الى أشرف الأعمار، سيكون أكثر نفعاً وأشدّ مراساً وأقداماً إن اتحدوا معاً.

بادر اللقيديمونيون الى مسالمة كلّ الاغريق، ثم وحدّوا كلّ قواتهم ضدّ الثيبيين. وأخترق ملكهم [كليومبروتوس] الحدود بجيش قوامه عشرة الآف راجلٍ وألف فارس. الى ما قبل هذا كانت [بويوتيا] مهددة بالاحتلال فحسب، أما الآن فان شبح الفناء التام والدمار العامّ يخيم عليهم. واستولى على البلاد رعبٌ لم تعرف له مثيلاً من قبل. وترك [پيلوپيداس] منزله الى الحرب فلحقت به زوجته وتوسلت به باكية أن يكون حذراً على حياته فأجابها قائلاً:

- الجنود البسطاء يُنصحون بالحذر على حياتهم يا زوجي العزيزة. أمّا القادة فيُنصحون بالحرص على سلامة الآخرين.

ولما بلغ المعسكر ووجد امراء الجيش منقسمين الى رأيين فبادر ينحاز بداهةً الى جانب [ابامنداس] الذي كان من رأيه الاشتباك مع العدوّ. ولم يكن [پيلوپيداس] وقتذاك قائداً عاماً لبويوتيا، بل آمر الكتيبة المقدسة، واهلاً لتلك الثقة التي تناسب مثله رجلاً قدم لبلاده الكثير في مجال حرصه على حريتها واستقلالها. فكان له القول الفصل واتفق على القتال،

(١٧) او لاكوس Lacus.

وعسكروا في [ليوكترا] أمام السپارطيين. وهنا رأى [پيلوپيداس] رؤيا أسلمته الى قلق عظيم: في السهل المتد امامه كانت ترقد جثث بنات [سكيداسوس Scedasus]، ويطلق على المرقد [ليوكتريداي Leuctridæ] نسبة الى شهرة الموضع. وقد تمّ دفنهن هناك بعد أن اغتصبهّن وقتلهّن جماعة من السپارطيين الأغراب. بعد ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء راح الأب يطلب الانتصاف في لقيديمون فلم يفز بطائل وعاد ليبخع نفسه على قبر بناته وهو يرسل أهول اللعنات والدعوات بالشرّ الى السپارطيين. ومنذ ذلك الحين والنبوءات والعرافة تترى منذرة قوم الجناح بالحذر الشديد من الانتقام الآلهي في [ليوكترا] وأغلق الأمر على الكثيرين ولم يفهموا المقصود بطبيعة الحال، وكان الغموض ناجحاً عن الموقع فهناك بُليدة لاكونيا Laconia الواقعة على ساحل البحر، هي الأخرى تدعى [ليوكترون]، وثم موضع قريب من مدينة [ميغاپوليس] في [اركاديا] يدعي [ليوكترا]، كما ان هذا الحادث وقع قبل المعركة بزمن سحيق.

خيل لپيلوپيداس وهو نائم في الخيمة أنه رأى هاته العذارى يبكين على قبرهنّ ويلعنّ السپارطيين. ورأى [سكيداسوس] يقول: اذا رغبوا في النصر فعليهم أن يضحوا لبناته بعذراء ذات شعر كستنائي. وعدّه [پيلوپيداس] أمراً ينطوي على قسوةٍ والحاد، إلاّ انه نهض وقصّ الحلم على العرافين وأمراء الجيش، فكان من رأي بعضهم أن الأمر صحيح واجب الطاعة. وضربوا امثلة من التاريخ القديم تبريراً لوجهة نظرهم. فذكروا [مينيوكيوس Menœceus] ابن [كريون Creon] و[ماركاريا Marcaria] بنت [هرقل]. واوردوا امثلة من الأرمنة المتأخرة فذكروا [فركيديدس Pherecydes] الفيلسوف الذي ضحاه اللقيديمونيون، وما زال جلده محفوظاً عند ملوكهم تنفيذاً لما قضت به النبوءات. و[ليونيداس] الذي انذرته النبوءة فنفذ ما أمرته وضحّى بنفسه لمصلحة البلاد الاغريقية. و[ثيموستوكلس] الذي قدم اضاحي بشرية الى [باخوس أوميستوس] قبيل خوضه معركة [سلاميس] وكل هؤلاء برهن نجاحهم على صواب أعمالهم. وعلى الضدّ من ذلك فعل [آغيسيلاوس] فقد خرج من الموضع نفسه لقتال الاعداء الذين قاتلهم [اغاسمنون] في ما مضى، وأمر في حلم جاءه في [آوليس Aulis] ان يضحي بابنته قرباناً فحال ضعفه دون ذلك، وكانت نتيجة حملته الفشل والخيبة الذليلة(١٨).

---

(١٨) كزينفون: الهّلينيون ٧: يعلمنا ان پيلوپيداس في اثناء سفارته الى ملك الفرس شرح له بان الكره الذي حفظه اللقيديميون لأهل ثيبه سببه انهم لم ينضموا الى قوات اغيسيلاوس عند خروجه لحرب الفرس، ولأنهم منعوه من التضحية بابنته في [اوليس] عندما طلبتها [ديانا] ولو فعل ذلك لضمن النجاح في حربه.

على أن الفريق الآخر وجده فريضةً بربريةً لا يمكن أن يكون محل رضى الكائنات العليا، وقالوا أن الجبابرة والأعاصير ليست هي التي تحكم العالم، بل هو الأب الكليّ الأسمى، للآلهة وللبشر، ومن السخف أن يتصور سرور آله من الآلهة أو قوة من القوى العليا. بقتل البشر وتضحيتهم وان وجد بينهم من كانت صفته هذه، فعلينا الاّ نعتد بهم، لضعفهم هذا الذي يجعلهم أعجز عن أسداء العون لأحد، فمثل هذه النزوة القاسية اللامعقولة لا تحيا لا تصدر الاّ من عقول ضعيفة مأفونة.

وفيما كان امراء الجيش بين أخذٍ وردٍّ، و[پيلوپيداس] يعاني أعظم الحيرة، اذ بمهرة تتفلت من قطيع وتروح تعدو في ارجاء المعسكر، حتى وصلت موضع اجتماعهم فوقعت فجأة بلا حراك. وبينما أخذ بعضهم يبدي عجبه للونها الكستنائي الفاتح، وبعضهم يعجب برشاقة تكوينها، أو بقوة صهيلها وشدّته، أستغرق الكاهن العراف [ثيوقريطس Theocritus] في التفكير، ثم هتف بپيلوپيداس:

- دونك يا صاحبي الطيب فأنظر! ها هي الضحية قد أقبلت فلا تنتظر عذراء أخرى سواها. وخذ ما بعثت به الآلهة لك.

فوثبوا على المهرة واقتادوها الى قبر العذارى بالمراسيم الدينية والصلوات المعتادة، وضحوا بها منشرحي الخاطر، واذاعوا بين صفوف الجيش حكاية رؤيا [پيلوپيداس]، وكيفية تقديمهم القربان المطلوب منه.

وعند بدء المعركة عمل [إپامينداس] على إمالة [فلانكسه] الى جهة اليسار محاولاً قدر استطاعته فصل الميمنة المؤلفة من السپارطيين عن بقية الوحدات الاغريقية، ومبادهة [كليومبروتوس] بهجوم عنيف وفق نظام الرتلّ ضدّ ذلك الجناح. فأدرك العدوّ الخطة، وبدأ بتغير نظام اصطفافه بفتح ونشر ميمنته على جبهة واسعة للالتفاف حول [اپامينداس] وتطويقه مستفدين من تفوقهم العدديّ الساحق. إلاّ أن [پيلوپيداس] اسرع يقود كتيبة الثلاثمائة الى الميدان كالريح العاصف قبل أن يفلح [كليومبروتوس] في مدّ خطّه وسدّ الثلمات فيه، وهكذا وثب عليهم وصفوفهم مختلفة. كان الجنود اللقيديمونيون يعدوّن أعظم الجنود في الدنيا خبرة وأحسنهم تدريباً. ولم يتعودوا شيئاً أو يتمزقوا عليه قدر ما تعودوا المحافظة على نظامهم عند انتقالهم من وضع الى وضع في المعركة فلا يقع في صفوفهم أي خلل، ولا يترددون في السير وراء اي قائد أو مساعد قائد، بتشكيلات منتظمة. ويندفعون الى اي موضع يكون الخطر على اشده. وفي هذه المعركة تجاهل [اپامينداس] سائر القوات الاغريقية وحصر همّه بالسپارطيين، فصكّهم بفلانكسه وأقبل [پيلوپيداس] باندفاع وسرعة لا

تصدق. فهدّ شجاعتهم، وأوقع البلبلة في خططهم التعبوية، وبدأ الفرار الأعظم ثم المقتلة الكبرى فيهم مما لم يعرف مثله من قبل(١٩). ونال [پيلوپيداس] وهو بمنصب قائد كتيبة صغيرة لا جنرالاً رفيع القيادة، شهرةً ومجداً من هذا النصر لا يقل عنا ناله أپامنداس الذي كان يشغل منصب القائد العام لبويوتيا.

مهما يكن، فقد تقدم كلاهما نحو الپيلوپونيسوس زميلين في القيادة العليا وحصلا من الحلف السپارطي على أكبر جزء من البلاد المتحالفة، وهي [ايليس Elis]، [وارغوس] و[اركاديا]، ومعظم [لاكونيا]. وكان الوقت أقسى الشتاء، ولم يبق من الشهر الأخير غير أيام قلائل. وفي بداية الشهر التالي كان من المقرر أن يّعين الضباط الجدد ومن يتأخر من الضباط القدماء في تسليم وحداته يقطع رأسه. فاشار قادة الجيش بالإنسحاب خوفاً من حكم القانون، وإجتناباً لشدّة برد الشتاء. إلاّ أن [پيلوپيداس] انضّم الى [اپامنداس] في حث بني قومه وتشجيعهم على القتال، وزحفا بهم على سپارطا وعبروا [يورتاس] واستولوا على مدن عديدة وأجتاحوا البلاد وتوغلوا حتى بلغوا البحر.

كان الجيش الذي جرده الثيبيون يبلغ سبعين ألفاً من الأغريق، وتبلغ نسبتهم فيه واحداً الى اثني عشر إلاّ أن سمعة الرجال رغبت كل حلفائهم في الانضواء تحت لوائهم واتخاذهم زعماءً، بدون اتفاق أو معاهدة تنصّ على هذا، ولا شكّ في أن ارفع القوانين واولها هو أن يكون من في حاجة الى الحماية مطيعاً للقادر على الدفاع عنه. وكالبحارة الذين يظهرون الوقاحة والعنجهيّة في الطقس الهادئ والبحر الساكن وفي اثناء مكوثهم في الميناء يتطاولون حتى على الربّان، فاذا ما أقبل النوء وعصفت العاصفة وبات الخطر ماثلاً رأيتهم يتصاغرون للربّان ويتسابقون الى خدمته معلقين عليه كل آمالهم، كذلك كان الأرغوسيون والاليائيون والاركاديون، تراهم في مؤتمراتهم العامة ينازعون الثيبيين على القيادة العليا، فاذا جاءت المعركة، أو داهمهم الخطر العظيم، واحتموا بقادتهم الثيبيين طوعاً، وتأثروا خطاهم دون تردد. وقد وفق الثيبيون في هذه الحملة فوحدّوا بلاد [اركاديا] وطردوا السپارطيين الذين كانوا قد

---

(١٩) لم يكن الجيش الثيبي يزيد عن ستة آلاف مقاتل باي حال من الأحوال [ديودورس ١٥:٥٥ وكزينفون: ٦] في حين كان جيش خصمه مع خيالته التي كانت أفضل تدريباً وكفاءة في حين لم يكن يمتطي الخيل من المحاربين اللقيديميين الا أغنياءهم الأمر الذي جعل هذا الصنف سيء النظام سيء التغذية بفرسان تنقصهم البراعة والدراية. كما انه سدّ عجزه العددي بترتيب وحداته بعمق خمسين مقاتلاً في حين كان العمق السپارطي اثني عشر. ولما استظهر الثيبيون وقتلوا [كليمربوتس] استمات السپارطيون وهدفهم استنقاذ جثة ملكهم فاشفع الجنرال الثيبي انتصاره الأول بانتصارٍ ثانٍ تسببَ عن مغامرة السپارطيين بهجوم ثان. ولم يصدق حلفاء سپارطا معهم في القتال اذ كانوا يتوقعون نصراً دون أن يسبقه قتال أما الثيبيون فقد خاضوا المعركة وحدهم دون حلفاء [ديودورس وكزينفون]. نشبت هذه المعركة في العام ٣٧١ ق.م.

أستعمروا [ميسّينيا Messenia] وسكنوها. ثم استدعوا الميسينيين القدماء، وأسكنوهم جميعاً في [ايثوم Ithome] وفي [كنچرايه: Cenchreae][٢٠] عند رجوعهم، شتتوا شمل القوات الآثينية التي كانت تريد الايقاع بهم اثناء عبور المضيق، لعرقلة سيرهم.

وازداد الحب والاعجاب بشجاعتهما في نفوس سائر الاغريق لما ابدياه من بسالة وحققاه من انتصارات. في حين زاد حسد مواطنيهم لهما لصعود نجمهما، فاعدوا لهما استقبالاً شائناً مخجلاً. وحوكما بتهمة عقابها الموت، لأنهما لم يسلّما قيادتيهما في أوّل شهر [بوكاتيوس Buvatius] كما يحتمّه القانون، بل احتفظا بها اربعة أشهر أخرى فوق مدتهما، وانجزا خلالها تلك الاعمال الباهرة في [ميسينيا واركاديا ولاقونيا] وحوكم [پيلوپيداس] أولاً، وتعرضت حياته لأعظم الخطر، إلاّ انهما بُرئا. وتحمل [اپامنداس] الاتهام والمحاكمة بصدر رحبٍ وصبر جميلٍ، وعدّ هذه المحنة جزءً هاماً من فضيلتيّ الشجاعة والسماحة اللتين تعلمانه بانّ الأذى الذي يصيبه في حياته السياسية لا يبرر له أن يحمل موجدة!. أما پيلوپيداس فكان حاد الطبع عاطفياً وقد اثاره اصدقاؤه وحثوه على الانتقام للإهانة، فاهتبل المناسبة الآتية: كان [مينيقليداس Meneclidas] الخطيب أحد أولئك الذين وحدوا جهودهم مع [ميلون] و[پيلوپيداس] في منزل [خارون] لتدبير الانقلاب ضدّ الطغاة. إلاّ انه لم يقم بمآثر توازي ما قاما به، وكان خطيباً مصقعاً ذرب اللسان، إلاّ انه متحلل الخلق، سيء الطبع. وحصر همه في النيل من پيلوپيداس والحطّ من قدر مآثره واستمر في ذلك حتى بعد المحاكمة. وهدفهُ الانتقاص ممن علوه قدراً وفضلوه، والصاق الاتهامات بهما. وتمكن من إبعاد [اپامنداس] عن منصب القيادة العامة. وظلّ مدة طويلة صاحب اليد الطولى. إلاّ أن نفوذه لم يبلغ به حَدّ نزع حبّ [پيلوپيداس] من قلوب الشعب وحرمانه عطفهم. فعمد الى خلق خصومةٍ بينه وبين [خارون]. إن الحاسدين من طرازه يجدون لذتهم وراحتهم في الانتقاص ممن عجزوا عن التفوق عليهم، واظهارهم بمظهر أسوء من الآخرين، لذلك دأب في مبالغته بتعظيم أعمال [خارون] في خطبه العامة، وفعدقا المديح على حملاته وانتصاراته، وحاول تخليد النصر الذي احرزته الخيالة التي قادها في [پلاطيا Platæa] (قبل معركة ليوكترا)، بالشكل التالي: كان [اندروكسيدس Androcydes] الكيزيكيني Cyzicenian الرّسام قد استؤجر لتصوير معركة سابقةٍ، فانصرف الى العمل بها في ثيبه. ثم قامت الثورة وأستعرت نيران الحرب، فحفظ الثيبيون الصورة وهي تكاد تكمل. فأخذ [مينيقليداس] يعمل على اقناع الثيبين بتكريسها

(٢٠) حصل هذا بسبب خطأ من ايفيقراطس وهو قائد أشتهر بالحنكة والدهاء فقد نسي ان يضع جنوداً في ممرّ كنخريسي في حين وضعهم في مركز أقل أهميّة وخطراً.

لخارون ونقش اسمه عليها. وقصده من هذا أن يطمس مآثر [پيلوپيداس واپامنناداس]. وكانت دعوى سخيفة، واقتراحاً غير معقول، معناه وضع نصر منفرد لم يقتل فيه إلاّ سپارطي مغمور الأسمه [جيرانداس Gerandas] مع أربعين من جنوده، في موضع أعلى من كل تلك المعارك الهامة العديدة، ولذلك انبرى [پيلوپيداس] يعارض الاقتراح بوصفه مخالفاً للقانون قائلاً ان العرف الذي جرى الآثيبيون عليه، يقضي بالا يخلّد رجلٌ منفرد أيّاً كان. بل أن تعزى الانتصارات كلها للشعب. غير انه ظلّ طوال المناقشات يثني على خارون أجمل الثناء، وحصر همّه في محاولة الكشف عن خبيئة [مينيقليدس] وأظهاره على حقيقته، شخصاً دساساً حاقداً، وطلب من الثيبيين إن ارادوا الاقدام على عمل ممتاز ان يعاملوه بما حقيق به وأقنعهم الى أن فرضوا على [مينيقليدس] غرامة فادحة عجز عن دفعها، وحاول بعد ذلك أن يثير القلاقل في الحكومة. هذه الأمور تنير لنا بعض الجوانب من حياة [پيلوپيداس].

عندما أعلن [الاسكندر] طاغية [فيري Pheræ][(٢١)] الحرب على قسم من مدن الثساليين، وبيت السوء للجميع، بعثت المدن بسفارة الى [ثيبه] تطلب عونها. وكان [پيلوپيداس] يعلم أن انشغال [اپامنناداس] في شؤون [الپيلوپونيسوس] يمنعه من المساهمة فعرض نفسه لقيادة التساليين في كفاحهم، لأنه لم يكن يريد ان تستسلم شجاعته ومهارته للكسل والبطالة، فضلاً عن ان انسحاب [اپامنناداس] من واجبه لا ينطوي على حكمة أو فائدة. وما أن وصل [ثساليا] بجيشه حتى استولى على [لاريسّا Larissa]، ثم حاول اصلاح سلوك [الاسكندر] الذي أعلن ولاءه - واجتهد في حمله على نبذ أسلوب حكمه المستبدّ، واحترام القانون والحكم بعدلٍ ورفقٍ، لكنه وجد فيه وحشاً ضارياً عنيداً لا تلين قناته، وبلغته عدة شكاوى عن جوره وبطشه، فضيق عليه الخناق حتى اضطره الى الانسلال سِراً من المدينة هو وحرسه.

وعلى أثر ذلك ترك [پيلوپيداس] التساليين آمنين. وقد زال عنهم كل خوف من الطاغية، وحل ما بينهم الصفاء والوئام، وانحدر الى [مقدونيا][(٢٢)]: وكان [بطليموس Ptolmy] اذ ذاك في حرب مع الاسكندر ملكها. وقد بعث الفريقان المختصمان بطلبه ليستمع الى خلافهما وليحكم فيما بينهما ويعاون الجانب المهضوم حقه. فقدم وصالحهما، ودعا المنفيين الى العودة وأخذ [فيليب] أخا الملك وثلاثين من أولاد الأشراف بمثابة رهائن، وجاء بهم الى [ثيبه]،

---

(٢١) دس لعمّه پوليفرون السمّ بعد ذلك وجعل نفسه طاغيةً في مكانه. وكان پوليفرون نفسه قد فتك باخيه پوليدوروس والد الكساندر. لقد غصب هؤلاء تساليا وكانت دولة حُرّة [ديودورس ٢٥-٦١، كزينفون ٦].

(٢٢) خلّف أمنتاس الثاني ثلاثة أولاد شرعيين هم الكساندر، وپردكاس، وفيليب، كما خلف ابنا غير شرعي هو (بطليموس) الذي حارب الكساندر وقتله غدراً وكان حكمه ثلاث سنوات.

مبرهنا للاغريق على مبلغ الثقة والسمعة التي نالها الثيبيون بفضل نزاهتهم[٢٣] وجراءتهم، وفيليب هذا[٢٤]، هو الذي حاول فيما بعد أن يستعبد الاغريق، ولم يكن في حينه يتعدى الصبّا، يعيش مع [پامينس Pammenes] في [ثيبه]. ومن هنا ظُنّ انه اقتدى في اعماله التالية بأپامنداس ورجّح انه اتخذ من براعته في الحرب وخفته مثلاً يحتذيه. وهذا على كل حال جانب يسير من سجايا [اپامنداس] أمّا عن دماثته ونزاهته وكرمه وطيبة التي برز فيها حقاً، فلم يتصف [فيليب] بواحدة منها لا طبعاً ولا تطبعاً.

وبعد فترة من الزمن عاد الثساليّون يشكون [الاسكندر] الفيري لإثارته الفتن في المدن. فخرج [پيلوپيداس] مع [اسميناس Ismenias] في سفارة اليه من [ثيبه] بدون جيش لأنهما ما كانا يتوقعان قتالاً، على أن يستخدما الثساليين عندما تضطرهما الحاجة. ودبّ الاضطراب في الوقت نفسه – في احوال مقدونيا مرةً ثانيةً بعد أن عمد [بطليموس] الى اغتيال الملك، وتسلم زمام الحكم. فبعث اصدقاء الملك يستدعون [پيلوپيداس] فلم يرفض التدخل في الأمر ألاّ انه كان مفتقراً الى جيش خاص به، جنّد بعض المرتزقة من البلد وتقدم بهم لمواجهة [بطليموس]، ولما تقابلت القوات عمد بطليموس الى افساد مرتزقة پيلوپيداس بالمال واغرائهم بعصيانه. ومع هذا فقد كانت اوصاله ترتعد خوفاً من مجرد اسم خصمه وشهرته، فأقبل عليه كما يقبل التابع على متبوعه وأعلن الولاء وطلب الصفح معتذراً بأنه ما مارس الحكم إلاّ ليحفظه لأخوة الملك الميّت، وانه مستعد لتقديم الدليل على كونه صديقاً لأصدقاء [ثيبه] وعدوّاً لأعدائها. وضماناً لهذا وضع ابنه [فيلوكزينوس Philoxenus] وثلاثين من لداته بمثابة رهائن فارسلهم [پيلوپيداس] الى [ثيبه]. على انه حنق بصورة خاصة على مرتزقته لما أظهروه من غدر وخيانة. ولما علم أن معظم أموالهم وزوجاتهم وأولادهم في [فارسالوس Pharsalus]، فكر أنه يصيب منه انتقامه كاملاً لو تمكن من الاستيلاء عليها. فجمع حوله عدداً من الثساليين وزحف بهم على [فارسالوس] ولم يكد يدخلها حتى ظهر (الاسكندر) الطاغية بجيش على أبوابها. وحسب [پيلوپيداس] انه جاء لتبرئة نفسه من الجرائم التي عزيت اليه، فخرجا اليه، متصورين ان سلطة [ثيبه]، ومنزلتهما وسمعتهما تقيهما اي اعتداء، مع علمهما التام بقسوته وتهوره. ولما وجد الطاغية انهما وحيدان اعزلان بادر بالقبض عليهما وأحتلال [فارسالوس]، فاستولى على رعيته خوف عظيم، وساد

---

(٢٣) في هذا العهد كانت كل دويلات الاغريق قد نسيت إهتمامها بقضية الحرية. ولم يعد من بين كلّ هذه الحكومات من طبق النظام الجمهوري ويهتم بأمور المستضعفين والمظلومين ويشعر بالوطنيّة غير جمهورية ثيبة. ديودورس ١٥:٦٠.

(٢٤) هو والد الاسكندر الكبير.

الاعتقاد عندهم - بعد هذا الاعتداء الدنيء الصارخ - ان لا أحد سيسلم من بطشه، وان تصرفه ازاء الجميع وفي كلّ الأمور سيكون كسلوك اليائس من الحياة.

ولما بلغت الثيبيين هذه الانباء ثار ثائرهم وتميزوا غيظاً وبعثوا بجيش يقوده آخرون غير [ايامنناس] الذي كان مغضوباً عليه وقتذاك. وكان الطاغية قد سمح للناس كافة ان يتصلوا [بپيلوپيداس][٢٥] أولَ ما نقله الى [فيرى]، متصوراً ان نكبته هذه ستحطم معنوياته، وتجعله يبدو موضع مهانة واستصغار، ولكن [بپيلوپيداس] راح ينصح أهل [فيرى] أن يتجملوا بالصبر فبعده فرجٌ حتى لكأنه مطمئن الى أن الطاغية لن يعتم ان يدفع ثمن الإهانات التي الحقها به. وبعث للطاغية بمن يخبره «انه من السخف والعبث أن يعذبّ يومياً رعاياه الابرياء ويوقع بهم ذبحاً وتقتيلاً ويُبقي عليه وهو يعلم جيداً بأنه سينتقم منه انتقاماً هائلاً لو نال حريته». فبهت الطاغية لجرأته، وحريته في الكلام وأجاب: «لماذا يستعجل [پيلوپيداس موته الى هذا الحَدّ؟»، فردّ پيلوپيداس عليه بما يأتي:

- لكي تكون أسرع الى منيّتك. اد ستصبح بعد قتلي ابغض الى الآلهة مما أنت عليه.

وبعد هذا منع الطاغيه محادثته منعاً باتاً، إلاّ أن [ثيبي Thebe] زوجه، التي هي بنت [جاسون Jason] تملكتها رغبة شديدة في رؤيته ومكالمته بعد أن سمعت من الحراس عن نبل سلوكه وجرأته، فأقبلت عليه في السجن. ولكونها أمرأةً، لم تفلح لأول وهلة في ادراك عظمته وهو في وسط نكبته وانما حكمت بأنه عومل معاملة فظّة دنيئة لا تليق بشهرته، من رثاثة ثيابه ومظهره العام، فبكت، وكان [پيلوپيداس] يجهل هويتها. فتسمّر في مكانه مبهوتاً، وعندما علم صفتها اقرأها التحية منادياً اياها بلقب ابيها (فقد كان وجاسون صديقين وعشيرين ودودين). قالت له

- إني لأشفق على زوجك يا سيّدي.

فأجابها:

- أمّا أنا فاشفق عليك لأنك تستطيعين احتمال [الاسكندر] مع أنك غير مقيدة به بسلاسل!

ومست عبارته من المرأة وتراً حساساً فلطالما ابغضت زوجها لقسوته وظلمه وفجوره الذي فاق كل حد، ولاعتدائه الشنيع على أخيها الاصغر وتعددت زياراتها له وكاشفته بما تجرعت من إهانات على يده، وأظهرت مزيداً من الحقد والكره لزوجها الطاغية.

---

(٢٥) كانوا قد غضبوا عليه لأنه لم يمضِ في مطاردة العدو بعد المعركة الأخيرة مع اللقيديميين قرب كورنث، واستثمار نصره هذا بقتله وأسره الكثير من الاعداء. فعزل وتحي عن الحكم في بويوتيا وجعلوه يخدم كجندي بسيط في الجيش [ديودورس ١٥:٧٢].

إن الجنرالية الثيبيين الذين أرسلوا الى [ثساليا] لم يفعلوا شيئاً، الا قيامهم بانسحابٍ مخجلٍ منها لقصر باعهم في القيادة، أو لسوء حظوظهم(٢٦). ففرضت المدينة على كل منهم غرامة قدرها عشرة الآف دراخما، وبعثت باپامنداس على رأس قواتها نفسها. فانتعشت آمال التساليين بشهرة القائد الجديد وانتفضوا ورفعوا حالاً لواء الثورة. وكانت أحوال الطاغية تسير به الى الخراب سيراً حثيثاً. وبلغ الخوف بقادة جيشه وانصاره مبلغاً شديداً وأشتدت رغبة الرعية في الانتقاض عليه أملاً في عقابٍ عاجلٍ ينزل به، إلاّ أن [أپامنداس] كان أكثر إهتماماً بسلامة [پيلوپيداس] من أي مجدٍ يحرزه. ولخوفه من استيلاء القنوط على الاسكندر اذا ضيق عليه الخناق، فيندفع كالوحش الهائج لينهش ويعضّ. لم يشنها عليه حرباً ضاربة وانما ظلّ يحوّم فوقه بجيشه كالباشق المستعد للانفضاض حتى اتلف أعصابه وحطّم ثقته ولكنه لم يدفعه الى اليأس والهياج. كان [اپامنداس] يعلم مبلغ وحشيته، واستهانته التامة بكل ما هو عدل وحق. فلطالما دفن الناس أحياء والبس الابرياء جلود الدببة والخنازير وأطلق عليهم كلابه الشرسه ينهشونهم، أو جعلهم هدفاً لنباله واسنة حرابه! وفي [ميليبوا Meli-boea] و[سكرتوسا] المدينتين الحليفتين(٢٧) له، دعا السكان جميعاً الى اجتماع عام ثم أمر حراسه فأحاطوا بهم وأعملوا السيف فيهم كافةً. وكرّس الرمح الذي اردى به عمّه [پوليفرون Polyphron]، وزينّه بقلائد الزهر يضحّي له ويقدم القرابين كما لو كان ربّاً، مطلقاً عليه اسم [تيخون Tychon](٢٨)، ومرّة شاهد ممثلاً تراجيديا يمثل مسرحية «الطرواديون Troades» ليورپيدس فخرج من الملعب، وأرسل بطلب الممثل فلما حضر طلب منه ألاّ يمتعض من خروجه اثناء التمثيل وان ينصرف الى إكمال دوره لأنه لم يترك الملعب تحقيراً له بل لخجله من رعاياه إن رأوه يبكي لمشهد ما تعانيه [هيكوبا Hecuba] و[اندروماخه Andromache] في سياق التمثيلية، وهو الذي لم يدركه أسف على اي شخصٍ فتك به! هذا المستبّد انتابه القلق لأسم ونبأ وقدوم حملةٍ بقيادة اپامنداس وسرعان ما «خفض جناحيه المقهورين، كالديك الجبان» وأرسل وفداً يعرض ويرجو ترضيةً، ورفض [أپامنداس] أن يقبل مثل هذا الرجل ضمن حلفاء [ثيبه] على انه منحه هُدنةً أمدها ثلاثون يوماً، تم خلالها أطلاق سراح [پيلوپيداس واسميناس] فعادا الى الوطن.

وعلم الثيبيون ان السپارطيين والآثينيين أرسلوا وفداً الى مملكة الفرس، بطلب العون.

(٢٦) عقبهم الكساندر وانزل بهم خسائر جسيمة اثناء المطاردة. ويعود الفضل في سلامة البقية الباقية الى كفاءة [اپامنداس] الذي اجبره الجنود على أن يتسلم القيادة [ديودوروس ١٥:٧١].

(٢٧) هي من مدن مغنيزيا. ومغنيزيا أقليم يقع جنوب مقدونيا.

(٢٨) معنى الكلمة «ذو الحظ السعيد» أو «المحظوظ».

فانتدبوا هم أيضاً [پيلوپيداس] لسفارة مماثلة، فكانت صدفة ممتازة لرفع مقامه وزيادة شهرته. اذ لم يسبق أن مرّ في بلاد ملك فارس شخصية جليلة القدر شهيرة الصيت. لأن المجد الذي ناله من انتصاراته على السپارطيين لم يزجف كالسلحفاة ببطء وخمول بل انتشر كالنار في الهشيم بعد أن تردد في البلاد صدى الموقعة الأولى في [ليوكترا] ثم عقبتها انباء الانتصارات الجديدة تباعاً. فزادت كثيراً في شهرته وصيته ونشرته على القاصي والداني. وكان موضع أعجاب وتقدير كل جنرال أو قائد أو ساتراب فارسي يلقاه، وموضوع أحاديثهم. فقالوا مشيرين اليه:

- هذا هو الرجل الذي طرد اللقيديمونيين من البحر والبرّ، وحبس سپارطا بين نهري [تايغيتوس] و[يورتاس]، وكانت قبلها بزمن قصير قد اشتبكت في حربٍ ضروس مع الملك العظيم تحت قيادة [اغيسيلاوس]، حوالي [صوصه] و[اكبتانا].

ولقد أشاع هذا، السرور في أعطاف [ارتحششتا Artaxerxes] وزاد من رغبته في أن يُطهر [لپيلوپيداس] التفاتاً ورعاية، فقد كان يحبّ أن يرى نفسه كعبة القصاد من عظماء الرجال، وموضع تبجيلهم وأرتفعت منزلة السفير الثيبيّ عندما لقيه وسمع حديثه الذي كان أكثر رزانة من حديث السپارطيين، وأدّى له من الاحترام ما يليق بامثاله الملوك. الامر الذي لم تفت السفراء الآخرين ملاحظته وكان الاعتقاد سائداً أن [انتالسيداس] الاغريق هو من نال أعظم الحظوة لديه من سائر الاغريق(٢٩)، فقد بعث اليه بتلك القلادة المغموسة بالزيت التي كان قد أحاط بها عنقه في وليمة من الولائم. والحق يقال انه لم يعامل پيلوپيداس بمثل هذه المعاملة الرقيقة، على أنه اتحفه بأنفس وأغلى الهدايا حسب العادة المتبعة. وحقق سؤله وطلباته (وهي عدم التعرض لحرية الأغريق، واعمار [ميسينيا] بالسكان، ونشوء صداقة متوارثة بين الملك والثيبيين). وبعد أن نال ذلك قفل راجعاً معتذراً عن قبول كلّ الهدايا إلاّ ما اعتبره رمزاً لحسن النية ودليلاً على التعاطف. وكان نجاح [پيلوپيداس] سبباً من خراب السفراء الآخرين. فقد أدان الآثينيون سفيرهم [تيماغوراس Timagoras] ونفذوا به حكم الموت، ولو أنهم فعلوا ذلك بسبب قبوله مقداراً كبيراً من هدايا الملك(٣٠)، فحكمهم هذا عادل

(٢٩) إن كان پلوتارخ يقصد السفير السپارطي فهو يختلف عن كزينفون الذي يثبت اسمه بـ(يوثيكلس Euthy-cles] كذلك يعلمنا أن [تيماغوراس] هو الرجل الذي كان الملك يرفع من قدره ويكرمه بعد پيلوپيداس. وربما كان ذلك في فترة سابقة عندما كان (انتالقيداس) في البلاط الفارسي. ان عادة ارسال العطور والروائح الزكية عنواناً للتقدير والمحبّة، ما زالت سائدة في الشرق.

(٣٠) وعن كزينفون (المرجع السالف ٧٠) ان جريمة تيماغوراس الحقيقية هي ما زعمه زميله الموفد معه (ليون من أنه كان على اتصال دائم بـ[پيلوپيداس] مؤيداً كلّ شيء أقترحه لمصلحة أهل ثيبه.

وصحيح. اذ لم يقبل ذهباً وفضة فحسب بل قبل سريراً فاخراً وعبيداً للعناية به، [كأن الاغريق لا يفقهون هذا الفن!] فضلاً عن ثمانين بقرةً مع رعاتها، متعللاً بأنه حليب البقر ضروري لداءٍ ابتلي واخيراً كان قد حمل بمحفة الى ساحل البحر مع هبة لخدمه قدرها أربعة تالنتات. ولكن من المحتمل جداً ان لا يكون جشعه هو السبب في سخط الآثينيين، لأن [ايبقريطس Epicrates] ناقل الامتعة، لم يكتف بالاعتراف للجمهور، بأنه تسلّم هدايا من الملك. بل تقدم باقتراح يقضي أن ينتخب بدلاً من «الأراخنة» التسعة، فقراء تسعة من أشدّ المواطنين إملاقاً وان يرسلوا بمثابة سفراء الى الملك ليغنيهم بهداياه. فضحك الجمهور فحسب على هذه النكتة. على انهم في الحقيقة كانوا ساخطين ناقمين لفشل سفرائهم وحصول الثيبيين على كلّ ما سعوا اليه، دون أن يحسبوا حساب شهرة [پيلوپيداس] التي كانت أقوى أثراً من فصاحة الآثينيين ومقدرتهم الخطابية. مع رجلٍ ما زال قلبه يميل الى المنتصر بقوة السّلاح. إن هذه السفارة التي أعادت ميسينيا الى أهلها الشرعيين وضمنت حرية بلاد الأغريق الأخرى. حصلت لپيلوپيداس على قدر كبير من حسن الثقة عند عودته.

في ذلك الزمن عاد [الاسكندر] الفيري الى طبعه الأول من العدوان فاستولى على كثير من المدن الثسالية ووضع حاميات في بلاد آخائيي Achaen فْيوتيس Phthiotis، والمغنيزيين، ولما سمعت المدن بعودة پيلوپيداس أرسلت الى ثيبة وفداً مستنجداً، يطلب معونة بقيادة [پيلوپيداس] نفسه. فأجاب الثيبيون سؤلهم بطيبة خاطر. وعندما تم تجهيز كل شيء لما وبدأ الجنرال في مسيرته كسفت الشمس وساد الظلام المدينة ظُهراً. فبهت [پيلوپيداس] للظاهرة العجيبة ولم ير من اللائق أن يرغم الرجال الخائفين الخائري العزيمة على الرحيل، ولا أن يخاطر بمصائر سبعة آلافٍ من مواطنيه، ولذلك انطلق بثلاثمائة فقط من الخيالة المتطوعين – في الطريق الى ثساليا خلافاً لرغبة العرافين واخوانه المواطنين عموماً. وكانوا كلّهم يرون في الظاهرة نذير شؤم يستهدف هذا الرجل العظيم إلاّ انه كان يتميز غيظاً من الاسكندر وينقم عليه لما اصابه منه. كما كان يأمل أيضاً – مما سمعه قبلاً من حديث [ثيبي]، أن أسرته الآن منقسمة على نفسها وعلى خلافٍ كبير. إلاّ أن انتصار الحملة كان أكثر اثارة له من اي دافع آخر، ففي هذا الوقت كان اللقيديمونيون يرسلون الضباط العسكريين لمساعدة [ديونيسيوس] الطاغية الصقليّ. والآثينيون يتقاضون الأموال من الاسكندر ويعظمونه باقامة تمثال برونزي له باعتباره محسناً لهم. فكان شديد الرغبة في أن يظهر الثيبيين للناس بأنهم هم وحدهم بين الأغريق، يتبنون قضية المستضعفين الذين يضطهدهم الطغاة، ولا يترددون في القضاء على اي شكل من أشكال الحكومات المستبدة غير الشرعية في كل بلاد الاغريق.

عندما وصل پيلوپيداس مدينة [فارسالوس] جمع جيشاً وتقدم به لملاقاة الاسكندر، وعلم هذا ان الثيبيين في جيش خصمه قليلون، وأن مشاته ضعف مشاة الثساليين فسعى اليه في [ثيتيديوم Thetidium] وقال أحدهم لپيلوپيداس:

- الطاغية يواجهنا بجيش جرار.

فأجابه:

- وهذا أفضل لنا، اذ سنتغلّب والحالة هذه على الكثرة.

وكان يمتدّ بين الجيشين سلسلة من التلال العالية الشديدة الانحدار بالقرب من مدينة [سينوسكفالي Cynoscphalæ] التي حاول الفريقان الاستيلاء عليها بمشاتهما. وقاد پيلوپيداس خيالته الجيدة الكثيرة العدد في هجوم على خيالة العدوّ فهزموها ولاحقوها في السهل. لكن الاسكندر أحتل التلال في تلك الاثناء وهاجم المشاة الثساليين الذين تقدموا بعد ذلك وحاولوا أن يشقوا طريقهم صعداً في المرتفع الوعر الصخري. فقتل طلائعهم وعجز الآخرون عن الحاق أي ضررٍ بقواته لما أصابهم من انهاك شديدٍ، فلما تبين پيلوپيداس ذلك نفخ بوق التراجع لخيالته وأمرها بمهاجمة وحدات العدوّ الصامدة في مواقعها. وتناول ترسه والتحق فوراً بالوحدات التي كانت تقاتل حول التلال وتقدم الى الصفوف الأمامية وملأ رحاله بالشجاعة والحماسة حتى خيل للاعداء أنهم يصولون عليهم بأرواح وأجسام أخرى غير تلك التي يملكونها؛ وصدوا هجومين أو ثلاثة لهم ولكنهم وجدوا اندفاعهم كاسحاً عنيفاً، كما أطبقت عليهم الخيالة العائدة من المطاردة فانكفاؤا الى الوراء بنظامٍ. وأدرك پيلوپيداس بثاقب نظره ومن الأرض المرتفعة ان جيش العدوّ تسوده الفوضى ويعمه الاضطراب وان لم تلحق به الهزيمة بعد، فأخذ يبحث عن الاسكندر ولما رآه على الجناح الأيمن يشجع مرتزقته ويصدر اليهم الأوامر، لم يتمالك شعور الغضب الذي اجتاحه لمرآه. وانساق وراء عاطفته كالأعمى غير مقيم وزناً لا لحياته ولا لمسؤوليته القيادية فتقدم كثيراً عن جنوده وهو يصرخ متحدياً ويدعو الطاغية للنزال فلم يجب هذا وتقهقر وأخفى نفسه بين حرسه. وصدٌ [پيلوپيداس] طلائع المرتزقة التي التحمت معه عن قربٍ وقتل بعضها إلاّ ان كثيراً منهم صوبّوا اسنتهم الى دروعه من بعيدٍ وخرقوها فجرح حتى اذا أسرع الثساليون وقد استبد بهم القلق من النتيجة يهبطون التل لنجدته، وجدوه قد فارق الحياة. ووصلت الخيالة أيضاً ودحروا الفلانكس وطاردوا العدو المقهور مسافة طويلة وملأوا الميدان بجثث القتلى الذين انافوا على الثلاثة آلاف.

ما كان لأحدٍ ان يدهش للحزن العميق الذي استولى على الثيبيين الحاضرين، لمصرع [پيلوپيداس]، فقد راحوا يندبونه وينادونه بالأب والمنقذ والمعلم لكلّ ما هو حسنٌ وأهل للثناء. ولكن الثساليين والحلفاء يزوّهم في ذلك بما اصدروا من مراسيم بتكريمه غاية التكريم الحرّي بالتقديم للشجاعة البشرية. وقدموا شواهد أقوى من هذا، على الودّ الذي يحفظونه له بابداء مشاعرهم الخاصة. وذكر أن الجنود اذ علموا بمصرعه - لم يفكروا في نزع دروعهم أو رفع السروج عن ظهورهم خيولهم أو معالجة جروحهم، بل أسرعوا وهم لاهثون بحرارة القتال وبايديهم السلاح، الى حيث جثته مسجاة وراحوا يكدسون الغنائم الحربية عليه كأنه ما يزال في قيد الحياة يرى ما يصنعون. ثم قصوا أعراف خيلهم وجزوا نواصيهم[٣١]، وامتنع أكثرهم عن ايقاد النار في خيامهم، وعافوا وجبة عشائهم، وران الأسى والصمت على الجيش برمته. كأنهم لم يربحوا أعظم معركة وأخطرها، بل كأن الطاغية هزمهم وأخذهم عبيداً. وما ان علمت المدن بالفاجعة حتى خرج حكامها وشبابها واحداثها وكهنتها لاستقبال الجثمان وأخذوا معهم تذكارات حرب وتيجاناً ودروعاً ذهبية. وعندما حان موعد الدفن تقدم شيوخ الثساليين طالبين من الثيبيين أن يتولوا عنهم مراسيم التشييع وقال واحد منهم:

- ايها الاصدقاء، نحن نطلب منكم فضلاً به تشريف لنا وراحة معاً في فاجعتنا العظمى هذه. إن التساليين لن يتيسرّ لهم بعد الآن أن يقوموا على خدمة [پيلوپيداس] الحيّ، ولن تتاح لهم فرصة تكريمه تكريماً يشعر به. ولو سمحتم لنا بجثمانه، وبتزيين جنازته وتشييعه الى مقره الأخير، فاننا نأمل أن نثبت بهذا، الحقيقة الواقعة وهي ان خسارة التساليين به، أعظم من خسارة الثيبيين. انكم فقدتم به جنرالاً حاذقاً فحسب، اما نحن ففقدنا جنرالنا وحريتنا. اذ كيف سنتجرأ على طلب قائد آخر منكم مادمنا لا نقوى على اعادة پيلوپيداس؟

وأجابهم الثيبيون الى طلبهم. فعملوا له تشييعاً فخماً لا يساويه تشييع، كما كان رأي أولئك الذين لا يرون الفخامة في المواكب التي يزينها الذهب والعاج والارجوان، كما فعل [فيليستوس Philistus][٣٢] الذي أنفق ببذخٍ واسراف جنوني على جنازة [ديونيسيوس] فختم بها طغيانه مثل خاتمة فخمة لمسرحية تراجيدية عظيمة. ولم يكتف [الاسكندر الكبير] عند وفاة [هيفيستيون Hephæstion] بجزّ أعراف خيله وبغاله، بل عمد الى هدم دعائم اسوار المدينة لتظهر أيضاً بمظهر الحداد وتبدو عند تشييعه كاسفةً كئيبة عاطلة عن شكلها

(٣١) من تقاليد الحداد عند الاغريق.

(٣٢) هذا الكاتب خدم بالتتابع الديونيسيين جميعاً. وبعد ان هزم ديون آخر طاغيه منهم قام بقتل نفسه.

الجميل. إلاّ أن مثل هذا التكريم الذي يجبر عليه الناس ويؤمرون به، انما يشاركون فيه بمشاعر الحَسد والغيظ ممن خصصت لهم وبمشاعر السخط والكراهية لمن فرضها عليهم. فهذه ليست ادلة على الحب والاحترام وانما مظاهر ترفٍ ومباهاة قوم البرابرة وغطرسة أولئك الذين يغدقون ثرواتهم على هذا العبث المقيت. وهذا رجل من طبقة العامة، يموت في بلاد الغُربة ولا زوج أو ولد أو اقرباء بجانبه. تتنافس المدن فيما بينها دون ارغامٍ أو طلب بالخدمة والتشييع والدفن، على استباق أحداها الأخرى في إظهار ما تكنه من حبّ. إن هذا ليبدو خلاصةً وختاماً لحظّ سعيد. «فموت الرجل السعيد ليس أعظم فاجعة، بل أعظم بركة» كما قال [ايسوب Ae-sop] لأنه يضمن سعادتهم العظمى ويجعلها بمنأى عن متناولٍ يد القدر. وانها وايم الحق لنعم النصيحة، تلك التي نقدم بها ذلك السبارطي الذي عانق [دياغوراس Diagoras][٣٣] المتوج بالغار في الالعاب الاولمبية، وعاش ليرى أولاده واحفاده يفوزون فيها ويتوّجون، قال له:

- ألا مت يا [دياغوراس] لأنك لا تستطيع أن يكون إلها!

ومع هذا لو وضعت انتصارات كل الالعاب البيثية والاولمپية معاً، فمن ذا الذي يضاهيها بانتصارٍ واحدٍ من انتصارات پيلوپيداس وكا أكثر ما حققه! لقد انفق حياته كلها في أعمال تقسّم بالنبل والبسالة ومات بالأخير وهو القائد العام لقوات [بويوتيا] المسلحة للمرة الثالثة عشرة، وخرّ صريعاً وهو يقاتل ببأس لتقويض حكم طاغيةٍ، دفاعاً عن حرية الثساليين.

وكما أن موته أورث حزناً شاملاً، فانه عاد بالنفع أيضاً للحلفاء اذ لم يتأخر البيثيون ساعةً عن الثأر له ما أن سمعوا بمصرعه ودفعوا بسبعة آلاف من الرّجالة وسبعمائة من الخيالة تحت قيادة [مالسيطاس Malcitas] و[ديوجيتون Diogiton]. فوجدا [الاسكندر] ضعيفاً لا يملك قواتٍ، فارغماه على اعادة المدن التي استولى عليها. وسحب حاميته من بلاد المغنيزيين، وآخائيي فثيوتيس، وأعطانه عهداً بمساعدة الثيبيين ضدّ اي عدوٌ يشاؤون. وقد أرضى هذا التدبير الثيبيين إلاّ ان العقاب ادرك الطاغية للشر الذي عمله، وانتقمت السماء لموت [پيلوپيداس] بالطريقة التالية: كان [پيلوپيداس] قد علم [ثيبي] زوج الطاغية بالاّ تخاف المظهر الخارجي لقوة دفاع الطاغية واحتياطاته ما دامت تعيش هي بينها ولا تمنع من ولوجها. كما أنها كانت تخشى هي الأخرى تقلبات مزاجه، وتكره قسوته ولذلك ائتمرت به مع اخوتها الثلاثة [طيسفونس Tisiphonus] و[پيثولاوس Pytholaus] و[ليوكوفرون Lycophron]

---

(٣٣) دياغوراس هذا، انحدر من نسل هيراقليوس من خطّ [تليپوليموس] الذي كان حاكماً لرودس. وقد قتل امام اسوار طروادة. وكان موضوع النشيد الاولمبي السابع الذي نظمه الشاعر (پندار) ونقشه الرودسيون بماء الذهب فوق هيكل منيرڤا في ليندوس Lindus.

فقاموا بالمحاولة التالية لقتله: كانت كل الأجنحة تملأ بحرس الطاغية ليلاً. إلاّ ان غرفة نوعهما كانت في طابق علوي، وامام الباب كلب مقيد بسلسلة يقوم على حراستها وهو يهاجم كل انسان إلاّ الطاغية وزوجه والخادم الذي يطعمه. فلما قررت [ثيبي] أغتيال زوجها، عمدت الى اخفاء أخوتها طوال اليوم المقرر للعملية - في حجرة مجاورة. ودخلت هي على عادتها الى حجرة الاسكندر بمفردها وكان نائماً، وبعد قليل خرجت وطلبت من الخادم المختص أن يأخذ الكلب ويروح به لأن زوجها يريد أن يصيب نوماً هادئاً ثم انها القت صوفاً على الدرج لئلا تصدر اصوات من أقدام أخوتها اثناء صعودهم، ثم قادت أخوتها الى أعلى وهم شاكوا السلاح وتركتهم عند باب الحجرة ودخلت، ثم رجعت اليهم وبيدها سيف الطاغية وكان معلقاً فوق رأسه، تأكيداً بأنه مستغرق في نومه. ولكن الخوف بدأ على الشبان، وظهر منهم صدود عن القتل. فتملكتها سورة من الغيظ وراحت تقرعهم وأقسمت بأنها ستوقظ الاسكندر وتكشف له عن المؤامرة. وهكذا تقدمتهم والمصباح في يدها الى الداخل، وكانوا يشعرون بمزيج من الخوف والعار، وادانتهم من السرير فاسك أحدهم بقدميه وسحبه الآخر من شعره الى الخلف وطعنه الثالث طعنة قاتلة. ربما كان موته أسرع مما يجب. إلا أنه كان أوّل طاغية يقتل بمؤامرة زوجه. واهينت جثته وطرحت الى الخارج وأصبحت موطئ اقدام أهل [فيري].

يبدو أنه تجرع ما تستحقه جرائمه الشنعاء.



MARCELLUS

(Marcus Claudius)

268 _ 208



قالوا أن [ماركوس كلوديوس] الذي تولى منصب قنصل الرومان خمس مرات، كان ابن [ماركوس] وهو الاول الذي لُقب [مارچللوس] في أسرته وهو من لفظ Martial[١]: «عسكري» كما يؤكد [پوسيدونيوس Posidonius] وكان والحق يقال متمرساً في فنون الحرب لخبرته العسكرية الطويلة، قوي البدن، باطش الكف، ميّالاً بطبعه الى مزاولة صناعة الحرب. ولايبدو مزاجه الناريّ وطبعه العنيف إلاّ في المعركة وبصورة بارزة، وإلاّ فهو متواضع رقيق الشمائل لين العريكة. واما وقوفه على العلوم اليونانية. والتهذيب العقليّ، فلا يرتفع الى أكثر من اعجابه وتقديره لمن تمرسوا فيها وبرعوا، ولم يكن هو بالذات قد أصاب منها حظاً يشبع به رغبته اليها، بسبب انصرافه الى مشاغله الأخرى العسكرية - فلو وجد في الدنيا ايّ من الرجال الذين قال عنهم هوميروس[٢] بأن السماء قد -

قدرت عليهم أن يخوضوا حروباً طاحنة ضروساً

منذ شرخ الشباب حتى اراذل العمر!»

فهم على وجه التأكيد كبار الرومان في ذلك العصر. ففي مطالع شبابهم خاضوا الحرب ضدّ القرطاجنيين في صقلية. وفي ابان كهولتهم قاتلوا الغاليين دفاعاً عن أراضي ايطاليا الاصلية. وأخيراً لما بلغوا سنّ الشيخوخة قادوا الكفاح ضدّ هنيبعل والقرطاجنيين[٣]. وارادوا في أواخر سنيّ حياتهم ما كان مضموناً لمعظم الناس - أي الخلاص من متاعب الحرب ومشاقّها، إلاّ ان مراتبهم ومواهبهم العظيمة كانت دوماً تستدعي انتدابهم للقيادة.

---

(١) الرومان مغرمون باتخاذ أسماء آلهتهم الكبار أسماءً لهم ومن هنا جاءت أسماء: ماركوس، مارشيوس، ماميروس، مامركوس الخ...

(٢) الالياذة ١٤:٨٦.

(٣) سنّ الخدمة العسكرية عند الرومان بمقتض قانون [سرڤيوس توليوس] يتراوح بين السابعة عشرة والسادسة والاربعين. وبعدها يعفى الروماني من أية خدمة عسكرية ولم يخرق هذا القانون الاّ في الحرب الغالية كما ذكر فيما بعد. أما اللقيديمي فيظلّ خاضعاً للخدمة العسكرية حتى سنّ الستين. وتبدأ الخدمة العسكرية عند الآثينيين في الثامنة عشرة حتى الاربعين. ويقضي الآثيني السنتين الأوليين في الدفاع عن المدينة. والخدمة في حاميات قلاع آتيكا.

وكان [مارچللوس] خبيراً في كل نوع من أنواع القتال، إلاّ أن تفوقه الأعظم هو في النزال الفردي، ولم يعلم عنه انه رفض تحدياً، أو قتل تحدياً إلاّ وقتل متحديه. وفي صقلية حمى أخاه [اوتاسيليوس Otacilius] وأنقذ حياته عندما طوقه الاعداء في أحدى المعارك. وقضى على كل من داناه. وبسبب هذه البطولة أهدى اليه قادة الجيش، وهو بعد صغير - تيجاناً وما اليها من جوائز التقدير. وبدأت سجاياه تتكشف أكثر فأكثر، حتى نصبه الشعب رئيس شرطة [كورول ايديل Curule Ædile][٤] وعينه الكهنة بمنصب [عراف: Augur]، وهي طبقة من الكهانة أودع لها الشرع أساساً مهمّة مراقبة دلائل النبوءات. وفي فترة توليه الشرطة الجأتة حادثة مؤسفة الى رفع شكوى امام مجلس الشيوخ: كان ابنه [ماركوس] يتمتع بجمالٍ أخاذ، وهو في زهرة شبابه، وكان الاعجاب بذلك منه لا يقل عن الاعجاب بحسن اخلاقه. حاول زميل [مارچللوس] في الوظيفة الاعتداء على الشاب. وكان يدعى [كاپيتولينس Capitoli-nus] وهو رجل سيء الطباع وقحٌ، فصده الشاب عن نفسه أولاً، فلم يكفّ وتحرش به ثانية، فأبلغ اباه بالأمر. فأحتدم مارچللوس غضباً وسخطاً وشكاه الى مجلس الشيوخ: فاستأنف المتهم الشكوى الى مفوضي [تريبيونات] الشعب محاولاً بشتىّ الحيل والمساعي اسقاط التهمة عنه. فلم يقبل هؤلاء بسط حمايتهم عليه، وعمد هو الى جبّ التهمة عن نفسه بالإنكار التام، ولما لم يكن في القضية شاهد عيان فقد وجد الشيوخ من اللازم احضار الشاب أمامهم. ولما رأوا خجله ودموعه، واحساسه بالعار، مقرونة بالسخط والقرف لم يعودوا بحاجةٍ الى دليل آخر لأثبات الواقعة، وادانوا [كاپتولينوس] وحكموا عليه بغرامة يدفعها للمشتكي. فصنع مارچللوس بها وعاء تقدمةٍ فضيّ واهداه للآلهة.

بعد أن وضعت الحرب اليونية Punie[٥] أوزارها، وكانت قد امتدت عشرين سنةً، ذرّ قرن

---

(٤) تشمل وظيفة الإيديل في عهد الجمهورية واجبات كثيرة وخطيرة فهو فضلاً عن مسؤولية في الأشراف على الالعاب العامة، يقوم بوظائف مدير الاشغال العامة كما انه يراقب الأسواق وهو مسؤول عن ثبات الأسعار وتأمين القمح الكافي والمحافظة على المعابد. وتأتي هذه الوظيفة الرابعة في سلّم المناصب الكبيرة التنفيذية [قنصل. پريتور. چنصور]. وقد استحدثت في العام ٣٦٦ ق.م كما تنقله التواريخ. وهي نوعان فما يدعى بـ Curulian Aedile. وما يدعى بـ Plebian Aedile ومدة الخدمة هي سنة واحدة.

(٥) يخطيء پلوتارخ هنا في سرده الوقائع. فالحرب الفيونية الأولى دامت ٢٣ عاماً. اذ بدأت في ٢٦٢ ق.م وأنتهت في ٢٤٩ ق.م. وفي أثناء ذلك بقي الغاليون ساكنين لا يأتون بحركة ثم تحركوا بعد اربع سنوات وزحفوا نحو [ارمينيوم] إلاّ ان البوئي Boii الذين تمردوا على زعمائهم، أقدموا على قتل الملكين آتيس Ates وكالاتيس Galates. وعلى أثر ذلك انقضّ الغاليون بعضهم على بعض فهلك عدد كبير، وقفل الباقون عائدين الى بلادهم. وبعد خمس سنوات بدأوا يعدون لحرب جديدة بسبب التقسيم الذي أحدثه فلامينينوس في أراضي البيجنتس Pecintines التي انتزعت الغاليين السينين الذي يقطنون ما وراء الألب وقد استمرت الاستعدادات مدة طويلة. وبدأت الحرب بعد التقسيم بثماني سنين. وكان يقود الغاليين كلّ من =

الخطر الغالي، وبدأ يقلق روما ثانيةً. وكان الاينسويريون Insubrians[٦] الأقوياء الذين يسكنون اصقاع الألب الدُنيا من ايطاليا قد جندوا من الغاليين مرتزقةً عُرفوا باسم [گيساتي Gaesatae][٧]، وكان من قبيل المعجزة وحسن الحظّ النادر لروما، ان الحروب الغالية لم تتفق زمنياً والحرب البونية. وان يظلّ الغاليون ساكنين بكلّ اخلاص. يقفون كالمتفرجين بينما كانت نار الحرب البونية مستعرةً. كأنما تعهّدوا لروما بألاّ يحركوا ساكناً، وان ينتظروا المنتصرين لمهاجمتهم! ولأن وبعد ختام تلك الحرب لم يعد ثم ما ينعهم من الظهور على المسرح. على أنّ الوضع السياسي السائد، وشهرة الغاليين السالفة، أشاعت خوفاً ليس بالقليل في نفوس الرومان. لأنهم كانوا في سبيل خوض حرب قريبة الميدان من أرض الوطن، بل ضمن حدود البلاد. كما كانوا ينظرون الى القوم نظرة حذرٍ وتوجّس يفوق توجسهم من أي قوم آخرين، فذكرى استيلائهم مرة على عاصمتهم ما زالت ماثلة لأذهانهم. وبدأ خوفهم هذا واضحاً من القانون الذي استنوه وقتذاك وهو ينصّ على اعفاء الكهنة من كلّ الواجبات العسكرية إلاّ عندما تهدد البلاد بغزوات [غاليّة].

وبلغت الاستعدادات الرومان لهذه الحرب أقصى درجة (لم يؤثر سابقاً أو لاحقاً أن عبّأ الرومان مثل هذا العدد من الفرق الكاملة السلاح كما عباؤا الآن). وكان هذا وقرابينهم الفائقة للعادة دلائل واضحة على مبلغ خوفهم. فمع أنهم كالاغريق يمقتون الطقوس البربرية القاسية مقتاً شديداً، ويمتازون على سائر الشعوب الأخرى بمشاعرهم الوادعة المفصحة عن احترامهم للآلهة، لم يترددوا عندما داهمتهم هذه الحرب - في تطبيق نبوءات معينة وجدوها في «أسفار كسبيل» فعمدوا الى دفن رجل وامرأة يونانيين وهم أحياء[٨]. واتبعوهما بذكر وأنثى غاليين - في سوق يدعى «سوق الوحوش». وأستمروا الى يومنا هذا يقدمون الى هؤلاء الارباب الضحايا الأربع خلال مراسيم دينية معينة في شهر تشرين الثاني من كل سنة.

وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين في مبدئها. يحرز الرومان أحياناً انتصارات باهرة، ويصابون أحياناً بهزائم منكرة. ولم يتقرّر النصر التام لأحدٍ في هذا الكفاح حتى نصب [فلامينيوس Flaminius] و[فيرويوس Furius] قنصلين، فساقا جيشاً لجباً على [الانيسوبريين]. وشوهد النهر الذي يجري في أقليم [پيسنوم Picenum] عند رحيلهما -

---

= كونكوليتانس و أنيرويتس اثناء تولي [ايميليوس پاپوس وايتليوس ريگولوس منصب القنصلية في العام ١٢٤ ق.م [انظر پوليبيوس ٢٠٩٠ وليڤي ٢٢:٣٥].

(٦) اي الميلاتيون.

(٧) ربما لقبوا بهذا من نوع اسلحتهم.

(٨) فعلوا مثل هذا ثانيةً في الحرب الفونية الثانية [ليڤي ٢٢:٥٧].

وهو طافح بالدم. وذكر انه شوهدت اقمارٌ ثلاثة دفعةً واحدةً في [اريمنيوم Ariminum]. وفي اجتماع قنصلي بروما اعلن الكهنة العرافون أن انتخاب القنصلين لم يكن شرعياً، وليس مما يتفق والنبوءات التي تنذر بشؤم تنصيبهما. فعجّل مجلس الشيوخ بارسال كتبٍ الى المعسكر باستدعاء القنصلين الى روما بأسرع ما يمكن وأمرهما بالامتناع عن الاشتباك مع العدوّ، والتنازل عن منصبهما القنصلي وفي أوّل فرصة جيء بهذه الكتب الى [فلامينيوس] فأرجأ فضّها، حتى كسر العدو[٩] وطارد قواتهم وتوغل وراء حدودهم وأجتاح بلادهم وعاث فيها سلباً. إلاّ أن الشعب لم يخرج لاستقباله عند عودته مثقلاً بمقادير ضخمة من الغنائم. لأنه لم يُطع في الحال الأمر الذي ورده بالعودة، بل لم يكترث به وازدراه،. وكادوا ينكرون عليه حقه بموكب النصر. ولم نيته الاحتفال به حتى عزلوه هو زميله عن الحكم وانزلوهما الى مرتبة المواطن العاديّ. هكذا كانت تصرف كلّ الأمور في روما، بالاعتماد الكليّ على الدّين. فلا يسمحون بأي استصغار بوجه الى العرافة وطقوس القدماء، مهما كانت تصيب الامور المنهي عنها - من النجاح الكبير. وراح بهم الوهم الى أن احترام الحكّام لارادة الآلهة هو أهم واجدى للسلامة الوطنيّة من قهر الاعداء. كان [طيباريوس سمپرونيوس Tiberius Sempronius] الذي وضع الجمهور سجاياه وأستقامته في أرفع منزلة، قد نصب [سيبيو ناسيكا] و[كايوس مارشيوس Caius Marcius] قنصلين ليخلفاه، فخرجا كلّ الى الاقليم الذي عين فيه. ثم أن [طيباريوس] هذا بينما كان ينقّب في كتب الطقوس الدينية اذابه يقع على شيء كان يجهله وهو هذا: عندما يريد أي قنصل ان يقوم باستخارةٍ، فانه يجلس في بيت أو خيمة تكترى له خارج المدينة، فاذا استدعاه أمر عاجل الى المدينة قبل ان يشاهد علامة ما، فعليه أن ينتقل الى خيمة أو بناء آخر عند عودته ليتابع منه المراقبة. ويظهر أن [طيباريوس] جهلاً منه، استخدم البيت نفسه مرتين قبل اعلانه تعيين القنصلين الجديدين.

ولما أدرك خطأه فاتح به مجلس الشيوخ، ولم يمرّ المجلس بهذه الهفوة البسيطة مرور الكرام بل عجّل بالكتابة عنها لكلّ من [سيكپيو ناسيكا] و[كايوس مارشيوس]، فتركا اقليميهما وعادا فوراً الى روما ونزلا عن منصبيهما. حصل هذا في فترة متأخرة[١٠]، وفي حدود ذلك الزمن أيضاً سحبت وظيفة الكهنوت من رجلين ذوي مكانة رفيعة جداً هما [كورنيليوس چيتيگوس Cornelius Cethegus] و[كونيتوس سولپيشيوس Quintus Sulpicius]. عُزل

(٩) لا يعود الفضل له بالنصر [ليفي ٦٣:٢١] فقد دخل المعركة والنهر وراءه ولم يكن للجنود مهرب غير العمل على دحر العدو. ويعود الفضل بالحقيقة الى التريبيونات الذين لجأوا الى فنون عسكرية يشرحها ليڤي بتفصيل. لقد اندحر (فلامينيوس) هذا أيام هنيبعل في معركة تريبيا Trebia العام ٢١٦ ق.م.

(١٠) ستون سنةً.

أولهما لأنه لم يرفع احشاء اضحيةٍ مذبوحة، بصورة صحيحة. ونُحي الثاني لأن الطاقية المهدّبة التي يلبسها كهنة الأرباب أمثاله [فلامين Flamen] سقط من رأسه اثناء قيامه بذبح الأضحية. و[مينوشيوس] الدكتاتور الذي كان قد عين [كايوس فلامينوس] آمراً للخياله عزلوه هو ومن عيّنه عن القيادة لأن صوصأة فأرة سُمعت! وبصرف النظر عن اهتمامهم الشديد بمثل هذه الصغائر التافهة، فإن هذا الحرص لم يؤد بهم الى الشعبذات والاوهام لأنهم لم ينحرفوا بها أو يغالوا عن أسلافهم في تطبيقها.

ما أن استقال [فلامينيوس] وصاحبه من منصب القنصلية، حتى قام الضباط المترئسون المعروفون باسم [انتررکس Interrex][١١] باعلان [مارچللوس] قنصلاً وما ان تسلم مقاليد السلطة حتى أختار [كنيوس كورنيليوس Cnaeus Cornelius] زميلاً له. وقيل أن الغاليين أقترحوا عقد صلح، وكان مجلس الشيوخ ميالاً الى السلم كذلك، لكن [مارچللوس] حمّس الشعب للحرب. على أن الظواهر تشير الى ان الطرفين أتفقا على الصلح لكن مرتزقة الگيساتي، نقضوه بعبورهم الألب واثارتهم الاينسوبريين (كان عدد الگيساتي، ثلاثين ألفاً فقط، بينما تجاوزهم الاينسوبريون بكثير) وزحفوا وهم معتدون بقوّتهم - نحو [أچيّراي Acerrae][١٢] وهي مدينة تقع شمال نهر الپو، ومنها أندفع ملكهم [بريتومارتوس Brito-martus] بعشرة آلاف منهم يجتاح الاراضي المحيطة بها. فبلغت الانباء [مارچللوس] فخلّف زميله عند [اسيّري] تاركاً معه المشاة وكلّ الأسلحة الثقيلة وثلث وحدات الخيالة وأخذ بقيتها وستمائة من المشاة الخفيفة وراح يغذّ السير ليلاً ونهاراً دون استراحة ولم يقف حتى أدرك هؤلاء العشرة آلاف بالقرب من قرية غاليّة تدعى [كلاستيديوم Clastidium][١٣] كانت قد ضمت الى ملك الرومان منذ وقت قصير. ولم يتسنّ له فاصل زمني لإراحة، جنوده واستجمامهم الاّ ان البرابرة انتهبوا اليه حالاً واستخفوا به لقلة مشاته. وكان الغاليون أحذق من ركب من امتطى الخيل - لذلك ايقنوا بالغلبة ولاسيّما وان تفوقهم العدديّ على مارچللوس كبيرٌ جداً فلم يأبهوا وعاجلوه الهجوم، وملكهم على رأسهم كأنما يريدون وطئه تحت سنابك

---

(١١) أو [انتريگيس Interreges] وهؤلاء هم ضباط يتّم تعيينهم في فترة خلّو الدولة من الموظفين الاجرائيين كما يدل عليه معنى الكلمة اللاتينية المركبة «بين الحاكمين». ويكون واجبهم دعوة الجمعية العامة لانتخاب الحكام الجدد من قناصل وهلم جراً. وقد استحدث المنصب زمن الملكية وبقي في عهد الجمهورية ولم يلغ.

(١٢) بلدة ما بين مدينتي ميلان وپلاچنتيا. قريبة من نقطة اتحاد نهري (ادّا) و(پو) كان الرومان يحاصرونها في حين زحف الغاليون لفك الحصار عنها. لكن ما لبثوا ان تبينوا عجزهم فعبروا نهر الپو بجزء من عسكرهم والقوا الحصار على (كلاستيديوم) لتحويل الضغط وتخفيفه عن اچيري. [پوليبيوس، ليڤي ٢٠:٥٢].

(١٣) يضعها ليڤي في ليگوريا مونتانا.

خيلهم، وهم يهددون بما سيرتكبون من الفظائع والوحشية. عمد [مارچللوس] الى نشر جناحي خيالته وركب الى المشاة ومَدّ في جناحيهم طولاً حتى بلغ جبهة العدوّ، وقد لجأ الى هذا بسبب قلّة جنوده وخوفاً في حركة التفاف يقوم بها العدوّ يستهدف بها الهجوم عليهم من سائر الجهات. وفيما هو يهمّ بالدوران لمواجهة العدوّ، أجفل حصانه لمنظر الغاليين المرعب وصيحاتهم، ونكص على عقبيه مرغماً راكبه على التنحيّ الى جانب، وخشي [مارچللوس] أن يفسرّ جنوده الحادثة تفسيراً سيئاً ويتخذوها فألاً نحساً فتثبط عزائمهم، أسرع يدير حصانه ليواجه العدوّ.

وأتى بحركة بدأ فيها وكأنه يصليّ للشمس وانه لم ينكص دائراً على عقبيه بمحض الصدفة بل لغرض الدعاء. اذ كان من عادة الرومان أن يدوروا على أعقابهم عندما يرفعون الصلاة للآلهة. وفي هذه اللحظة التي كان سيصطدم فيها بالعدو قيل انه نذر خير السلاح [لجوپتر فيريتريوس Jupiter Fertrius].

تطلع ملك الغال الى [مارچللوس] فخمن أنه الجنرال، من شعار السلطة الذي يتقلده فتقدم مسافة عن جيشه المهيأ للالتحام وتحداه للنزال بصوت عال ملوحاً برمحه وهمز جواده فأنطلق به نحوه كالعاصفة، وكان أفرعَ هامةً من سائر الغاليين وابرزهم بدروعه المحلاّة بالذهب والفضّة ومختلف الألوان وهي تلمع كالبرق الخاطف. وبدت هذه الدروع لمارچللوس وهو يستعرض جيش العدوّ المصطف للمعركة، خير دروعٍ وأجملها وحسبها تلك التي نذرها لجوپتر، فأسرع نحو الملك وخرق درع صدره بطعنة رمح ثم أخذ يشدّ عليه بثقل حصانه حتى القاه على الأرض وعاجلهُ بضربتين أو ثلاثٍ أخرى فقتله. وترجل في الحال ووضع يده على سلاح القتيل وشخص ببصره الى السماء، وتكلم بالآتي:

- يا [چوپتر فيريتريوس]، يا حكماً في بطولات القادة، وأعمال الجنرالات في الحرب وفي المعارك، كن شاهداً بأنيّ أنا جنرالٌ، قتلت جنرالاً. أنا قنصل قتلتُ ملكاً بيدي هاتين، فكنت الثالث من الرومان في هذا. واليك أقدّم أوّل وأفضل الغنائم؛ هب لنا القدرة على انهاء بقية هذه الحرب بهذا الحظّ المؤآتي نفسه.

ثم زجّت الخيالة نفسها في المعركة ضدّ فرسان العدوّ ومشاتهم الذين هاجموها ونالوا نصراً فريداً لم يسمع بمثله. إذ لم يحدث من قبل ومن بعد ان هزمت فئة قليلة من الخيالة هذا العدد الكبير من المشاة والفرسان معاً. لقد قتل من العدوّ عدد كثير. وجمعت الغنائم، وعاد [مارچللوس] الى زميله[١٤] الذي كان يدير الحرب بدون توفيقٍ ضدّ العدوّ وبالقرب من

(١٤) في غياب مارچللوس اتمّ زميله سكيپيو الاستيلاء على (اچيري) ثم زحف على ميديولانوم والقى عليها =

[ميلان Milan] أعظم مدن الغاليين وأحفلها بالسكان، وكانت عاصمتهم ولذلك راحوا يدافعون عنها باستمائة وبسالة، حتى بدأ وكأنهم يحاصرون [كورنيليوس] أكثر مما يحاصرهم هو. وبعودة مارچللوس وانسحاب الگيساتي فور سماعهم بمصرع ملكهم واندحار جيشه، انقلبت الآية وتم الاستيلاء على ميلان(١٥). ونزل الغاليون عن بقية بلدانهم وكل ما يملكون طواعيةً. وعقد صلح بين الطرفين بشروط عادلة.

وأعطي [المارچللوس] وحده حق الدخول بموكب النصر بمرسوم صادر من مجلس الشيوخ. وكان الاحتفال فخماً، باذخاً، مدهشاً بغنائم الحرب واجسام الأسرى الجبارة وهم يقادون. إلاّ أن المنظر الأروع والأندر كان الجنرال نفسه وهو يحمل سلاح الملك البربريّ الى الربّ الذي نذرها له. أتخذ عموداً خشبياً طويلاً مستقيماً من البلوط وهذبه وشذبه على هيئة نصبٍ وعلّق عليه دروع الملك والبسه وسلاحه واضعاً كل قطعة منها في مكانها المناسب، وسار به الموكب مهيباً وهو يحمل النَصب وصعد العجلة ودخلّ المدينة ليبدو صورة لأروع نصر، ومشى خلفه الجيش وفق النظام العسكري وهو مزدان بدروع براقة صقيلة. ينشد قصائد نظمت بالمناسبة ويترنم بأغاني الظفرأشادة بمدح چوپتر، وجنرالهم، ثم دخل [مارچللوس] معبد [چوپتر فيريتريوس] وقدم هويته وهو على ما نعلم ثالث من فعل هذا وآخرهم. الأول كان [رومولّوس] بعد قتله [اكرون] ملك [الكينينيّن] والثاني كان [كورنيليوس كوسوس] الذي قتل [طولمنيوس] الاتروسكاني، وثالثهم مارچللوس الذي صرع [بريتومارتوس] ملك الغال، وكان فيه مسك الختام، ان الربّ الذي قدمت له هذه الغنائم يدعى [چوپتر فيريتريوس] ومن الغنائم التي حملت على القطب: Feretrum. وهي إحدى الكلمات اليونانية التي كثر استعمالها في ذلك الزمن في اللغة اللاتينية. أو هي كما يقول بعضهم لقب «چوپتر ذي الرعود» مشتقاً من كلمة «Ferire». أي «الضّرب» وهناك من يقول أنها مشتقة من «الضّربات» التي تكال في القتال. ففي اثناء المعارك حتى يومنا هذا - ينادى المشتبكون في القتال أحدهم الآخر عند ضغطهم على العدوّ: «أضرب» وهي باللاتينية Feri. وبالغنائم يطلقون عليها عموماً اسم Spolia، وبصورة خصوصية: «Opima»، وان يقولوا أن [نوما پومپليوس] ينوّه في تعليقاته بصنف أول وثان وثالث من الغنائم التي يسميها Spolia Opima. ويذكر الصنف الأول الذي يتم أغتنامه موقوف على [چوپتر فيريتريوس] والثاني مخصص [المارس] والثالث لـ[كويرينوس]. وان المكافأة عن الأول ثلاثمائة أسّي Asses، وعن الثاني مائتان وعن ثالث

= الحصار [پوليبيوس المرجع نفسه، ليڤي ٢٠:٥٤].

(١٥) استسلمت كونوم وهي مدينة هامة. وبذلك غدت كل ايطاليا رومانية صرفة من جبال الآلب الى البحر الآيوني.

مائة. والمفهوم العام السائد على كلٍ - هو ان تلكم الغنائم لا تكون «أوپيما» إلاّ اذا وقعت في يد القائد العام أوّل غنيمة في معركة حاسمة وبشرط أن تسلب من القائد العام للعدوّ على أن يُصرع بيد قائد العدوّ.

ارتاح الرومان بالنصر وختام الحرب ايّما ارتياح. وبلغ بهم السرور الى حَدّ ارسالهم دليل امتنانهم من [ابوللو دلفي] كأساً ذهبية زمنتها مائة پاوند على سبيل الهدية ووزعوا جانباً كبيراً من الغنائم على حليفاتهم من المدن. وحرصوا على ارسال عددٍ كبير من الهدايا الى [هيرو Hiroe] ملك السيراقوزيين صديقهم وحليفهم.

لما غزا [هنيبعل] ايطاليا، أرسل [مارچللوس] الى صقلية على رأس عمارة بحرية. ولما هُزم الجيش الروماني البرّي في كاني Cannæ وهلك من جنوده بضعة آلاف، ونجّت القلّة منهم بالفرار الى كاموزيوم Canusium وخشي الجميع أن يقدم هنيبعل على الزحف نحو روما فوراً بعد سحقه الجيش الروماني، وبعث مارچللوس أولاً الفاً وخمسمائةً من جنوده لحماية البلدة ثم سار الى [كانوزيوم] بأمر صدر اليه من مجلس الشيوخ، بعد أن بلغه تجمّع كثير من الجنود الغارين وفلول الجيش المهزوم داخل تلك المدينة، ونجح في سحبهم خارج الاستحكامات وانقاذهم حائلاً دون قيام العدوّ بنهب تلك الانحاء. وكان معظم جنرالية الرومان قد صرعوا في ساحة القتال وفي اثناء المعارك، وارتفعت شكوى الأهالي من طريقة ادارة الحرب، قائلين ان حذر [فابيوس ماكسيموس] المتناهي هو أشبه بالجمود والاحجام، وان كان بُعد نظره وصواب احكامه مما رفعه الى اسمى درجة من التقدير عند المواطنين، وكانت ثقتهم في ابعاد الخطر عنهم لأحدّ لها، الاّ انهم ما كانوا يتوقعون منه أن يردّ الكيل بكيل، ولذلك اتجهوا بافكارهم الى مارسللوس، يحدوهم الأمل في أن تقرن جرأته وعزيمته وفورية اجراءاته بحذر فابيوس وفطنته، وأن يُطعّم أحدهما بالآخر. فراحوا يدفعون بهما الى العدوّ معاً أحياناً بسلطة القنصل القائد لكليهما، وأحياناً بوظيفة [قنصل] لأحدهما، وبمنصب [پروقنصل] للآخر. وذكر [پوسيدونيوس] أن [فابيوس] لُقبّ بدرع روما، ولقبّ [مارچللوس] بسيفها. ومما هو ثابتُ أن هنيبعل أقرّ بأنه يخشى فابيوس كما يخشى معلماً. ويخشى مارچللوس كما يخشى خصماً، يخاف من الأول لئلا يردعه عن خلق تشويشٍ وفوضى، ويخاف الثاني لئلاً يُلحق به أذىً.

في مبدأ الأمر بينما كان جنود هانيبال ثملين بخمرة انتصاراتهم، لا يقيمون ايّ وزن لقوة العدوّ، وقد بلغ اعتدادهم بأنفسهم حداً كبيراً، راح [مارچللوس] يهاجم فصائل السلب المغيرة التي كان يطلقها العدوّ، ويغير على ساقته في المؤخرة فيبيدها واحدة بعد الأخرى، وبهذا كان يُنقص من قوات خصمه شيئاً فشيئاً. ثم قدّم العون الى [النابوليين Neapolitans] وأهالي

[نولا Nola] . فاستقرت أحوال الأولين الذين كانوا مخلصين في حلفهم مع الرومان في الواقع، لكنه وجد النولانيين مختلفين منقسمين على أنفسهم ولم يكن الشيوخ قادرين على ممارسة الحكم ومماشاة العامة، لأن هؤلاء كانوا بصورة عامة منحازين الى جانب هنيبعل. وكان في المدينة شخص يُدعى [بانتيوس Bantius] [١٦] وهو رجل مشهود له بالبأس وشرف المحتد، أبلى بلاءً مرّاً في معركة [كاني] وفتك بعدد كبير من الاعداء، ثم وجد مدفوناً تحت اكداس من جثث القتلى تغطيّ جسده الرماح والأسنّة فجيء به الى هنيبعل فأحتفى به واكرامه غاية الإكرام ولم يكتف باخلاء سبيله دون فدية، بل آخاه واستضافه، فأنقلب نصيراً من أقوى انصار [هنيبعل] عرفاناً منه بجميله الكبير. وأنشأ يحرض الناس للانتقاض على الرومان، وراحت المساعي المبذولة لحمل [مارچللوس] على قتله عبثاً نظراً لما يتمتع به من مكانة وشهرة، ولاحتماله شتىّ الأخطار في القتال الى جانب الروما. وكان مارچللوس شديد الثقة بقدرته على استمالة شخصية كهذه جبلت بمعدن الشرف، بما طبع عليه من مزاجٍ رفيق وسحرٍ وجاذبية في حديثه وفي ذات يوم التقى [ببانتيوس] فحيّاه هذا، فسأله [مارچللوس] متجاهلاً عمن يكون؟ ليس لأنه لا يعرفه، بل ليتخذ من ذلك ذريعة لمجاذبته اطراف الحديث. فأفصح [بانتيوس] عن اسمه وكنيته فافتعل [مارچللوس] الدهشة المشوبة بالسرور والاعجاب[١٧] وقال:

- أفانت هو [بانتيوس] الذي لهج الرومان بمديحه، وخصوه بثناء فاق ثناءهم على كل من حارب في [كانيّ]، بوصفه البطل الذي ظلّ ملازماً [پاولوس اميليوس] ولم يتخلّ عنه، لا بل تلقّى بصدره الرماح التي كانت موجهة اليه؟

فأقرّ [بانتيوس] بأنه هو بعينه وكشف عن ندوبه. فقال له [مارچللوس]

- فلماذا إذن تشرفني بزيارة عند أول قدومي؛ وتلك هي براهينك على محبتك بنا؟ اترانا نحجم عن ردّ الفضل لمن يستحقونه ولاسيما أولئك الذين أكرمهم اعداؤنا بالذات؟

واتبع مجاملته هذه باهدائه حصان قتال ومبلغاً قدره خمسمائه دراخما. فانقلب [بانتيوس] لساعتها نصيراً من أخلص انصار مارچللوس. ونشط في الكشف عن كل من يعمل على الدّس والفتنة.

وكان هؤلاء الدساسون من الكثرة بحيث دبرّوا مؤامرة واسعة تهدف الى سلب اثقال الجيش الروماني وامتعته حال قيام هؤلاء بحملةٍ على العدوّ، لذلك قام [مارچللوس] بتدابير أمنٍ

(١٦) أو بانديوس Bandius.

(١٧) أنظر سيرة [فابيوس ماكسيموس].

وحماية داخل المدينة، ووضع أمتعة الجيش في أمكنة قريبة من ابواب المدينة. وأصدر أمراً رسمياً بحظر أقتراب النُولان من الأسوار. وبهذا لم يعد يُرى سلاح في المدينة من الخارج. وهكذا استدرج هنيبعل للتحرك نحو المدينة بجيشه الذي كان يتخلّله بعض الفوضى، متوهماً أن المدينة تموج بالاضطراب. وعندئذ أمر مارچللوس بفتح أقرب باب وخرج للهجوم بنخبة من خيالته من الامام، وتبعه المشاة بالهجوم من باب ثان[١٨] وهم يصيحون. ثم فتح الباب الثالث اثناء ما كان هنيبعل يصدّ الهجومين بجزء من جيشه، واندفعت منه بقية قوات [مارچللوس]، ووثبوا من جميع الجهات على العدوّ الذي خارت عزائمه بفعل المباغتة وكانت مقاومتهم ضعيفة لمن هاجمهم بالأول بسبب عنف الهجوم التالي عليهم من القوات الأخيرة. وهنا هُزم جنود هنيبعل وطوردوا حتى معسكرهم بعد أن خسروا كثيراً من القتلى والجرحى وهي أول مرة يولون أدبارهم للرومان. وقيل أن أكثر من خمسة آلاف منهم سقطوا صرعى في هذه العملية، بينما لم يتجاوز خسائر الرومان خمسمائة قتيل، على أنّ المؤرخ ليڤي لايؤيّد أنّ نصر الرومان كان كبيراً ولا الخسارة التي مني بها العدو بلغت هذا المبلغ. ومهما يكن فلا جدال في أن هذه المعركة رفعت كثيراً من منزلة مارچللوس وأنعشت معنويات الرومان بعد النكبات السالفة، وأحيت الثقة في أنفسهم بدرجة كبيرة اذ أبدأ الأمل يداعبهم في أن العدوّ الذي يكافحونه من الممكن أن يغلب، وانه عرضة للهزيمة مثلهم.

ولذلك استدعى الرومان [مارچللوس] إثر وفاة القنصل الآخر[١٩] ليعملوا على نصبه في محلّه، وتمكنوا رغم معارضة الحكام في ارجاء الانتخابات لحين قدومه[٢٠]، وفعلاً تمّ انتخابه باجماع الأصوات، ولكن اتفق أن أرعدت الدنيا في تلك الساعة، فأفتى الكهنة العرافون بأن انتخابه لم يكن شرعياً، فهو باطلٌ ألاّ انهم لم يجرأوا على أعلان قرارهم رسمياً، خوفاً من الشعب[٢١]، فنزل [مارچللوس] عن القنصلية من تلقاء نفسه مستبقياً قيادته على كلٍّ، ثم

(١٨) عن هذه الهجمات وأثرها يزودنا ليڤي [٢٣:١٦] بمعلومات متواضعة هي أقرب الى المنطق والمعقول.

(١٩) القنصل المتوفى هو [پوستيموس الپنوس] الذي قضى عليه قوم بوئي Boii وكل جيشه البالغ خمسة وعشرين ألفاً داخل غابة واسعة الرحاب يطلق عليها الغاليّون اسم (ليتانا). ويبدو انهم قطعوا كلّ الأشجار القريبة من الطريق الذي كان الجيش الروماني سيسلكه، وبشكل يمكنّهم معه من مباغتة دون أن يتوقع ذلك (ليڤي ٢٣:٢٤). وقد جعل الغاليون من جمجمة القنصل وعاء للشراب يستخدمونها في أعيادهم. وقع ذلم بعد معركة (كاني) بأشهر قليلة.

(٢٠) شك العامة بانه ازيح عن الطريق عمداً بفعل مجلس الشيوخ.

(٢١) كان مارچللوس من الطبقة العامة (الپليبيان) الذين يقال لهم باللاتينية Terra Pilii ابناء الأرض، وكذلك كان القنصل المزامل (سمپرونيوس) ولم يكن الپاتريشي مرتاحين لوجود قنصلين من الطبقة العامة انكرت صحة النبوءة. لكن مارچللوس أظهر نفسه رجلاً حريصاً على النظام الجمهوري فرفض شرفاً لم يجمع عليه المواطنون كافة.

نُصب [پروقنصلاً] وعاد الى مقرّ قيادته في [نولا]. وراح يضيق الخناق على الموالين[٢٢] للقرطاجنيين ولما أقبل هؤلاء مسرعين لنجدتهم أبى مارچللوس قبول تحديهم والدخول في معركة فاصلة، ولكن عندما أرسل هنيبعل جماعات للسلب وزايله كل توقعٍ للقتال[٢٣]، باغته [مارچللوس] بجيشه، وكان قد زوّد جنوده المشاة برماح طويلة مما يستعمل عادة في قتال البحر ودربهم على قذفها بقوةٍ عظيمة الى مسافات مناسبة نحو العدوّ الذي لم يكن لديه اية خبرة بهذا الأسلوب في القذف وتعود القتال بسيوف قصيرة، ملتحماً بعدوه التحام اليد باليد[٢٤]. والمعتقد أن هذا هوّ السبب الذي أدى الى اندحار القرطاجنيين المشاركين في المعركة اندحاراً تاماً وفرارهم أثر ذلك وتركهم خمسة آلاف قتيل[٢٥]، وموت أربعة فيلة وغنيمة اثنين؛ لكن أعظم انتصار له، كان بعد ثلاثة ايام من هذه المعركة، حين أقبل أكثر من ثلاثمائة فارسٍ اسپاني ونوميدي يعلنون انفصالهم[٢٦] عن جيش العدو والانضمام اليه، وهي ضربة موجعة لهنيبعل لم يتلق مثلها حتى ذلك اليوم، فقد عرف دوماً بمقدرته الفائقة في تحقيق الانسجام والوئام بين جيشه البربري المؤلف من أقوام مختلفة ذات طبائع متنافرة، وأفاد مارچللوس وخلفاؤه[٢٧] فبهذه الكتيبة خدمات جليلةً مخلصة في الحروب التالية.

وأختير قنصلاً للمرة الثالثة، وأرسل بحراً الى صقلية[٢٨] لأن نجاح هنيبعل شجع القرطاجنيين على الادعاء بالجزيرة كلها. والسبب الرئيس في ذلك، هو ان الفوضى والاضطراب عمّا سيراقوز بعد قتل [هيرونيموس][٢٩] طاغيتها، فألجأ الرومان في الوقت نفسه الى ارسال قوة برية نحو المدينة بقيادة [اپيوس][٣٠] الپريتور. وبينما كان مارچللوس

(٢٢) وهم الهيرپيني Hirpini والسامنيت Samnite. (المرجع السالف ٤٢).

(٢٣) قبل هذا بأربعة ايام كان ثم معركة طاحنة أمام اسوار مدينة (تولا) كادت تكون من الحواسم الفواصل لولا أن حالت العاصفة بين الفريقين فانكفأ بعض عن بعض (المرجع نفسه ٤٤).

(٢٤) كانت سيوف المقاتلين الأقدمين قصيرة بصورة عامة ويشمل ذلك سيوف الرومان والسپارطيين والقرطاجيين والغاليين و... الخ.

(٢٥) وأكثر من هذا. فضلاً عن اسر ستمائة منهم. وخسارة تسعة عشر لواءً. اما الجانب الروماني فلم تزد خسائره عن الألف [ليڤي ٢٣-٤٦].

(٢٦) يجعلهم ليڤي ١٢٧٢، لذلك فمن المحتمل اننا نستطيع قراءة هذه العبارة بزيادة لفظة ألف.

(٢٧) هَزَمَ مارچللوس [هنيبعل] امام تولا للمرة الثالثة. ولو ان كلوديوس نيرو الذي بعث به لمهاجمة القرطاجيين من الخلف وصل في الوقت المناسب لعوّض عن الخسارة التي الحقت به في (كاني).

(٢٨) في ٢١٢ ق.م.

(٢٩) وثب رعية (هيرونيموس) عليه ففتكوا به في [ليونتيوم]. وهذا هو ابن كيلو Gelo وحفيد هيرو. توفي (هيرو) قبل ابيه الذي عَمّر تسعين عاماً. وهيرنيموس الذي لم يتم الخامسة عشرة عند وفاة جدّه، قتل بعد بضعة أشهر. وهذه الوفيات الثلاث وقعت في نهاية السنة السابقة لقنصلية مارچللوس الثالثة (ليڤي ٢٤، ٤-٧).

(٣٠) ارسل [اپيوس كلوديوس] قبل مقتل هيرونيموس.

يستقبل هذه القوة، بادر عدد من الجنود الرومانيين الى القاء انفسهم على قدميه مستعطفين، هذا العمل كان يمتّ بصلةٍ الى النكبة التي سنورد وقائعها فيما يلي:

كان من نتائج معركة [كاني] أن عدداً من الجنود نجوا بفرارهم، ووقع عدد آخر في اسر العدوّ. وكانت الخسارة فادحة والعدد كبيراً حتى ظُنّ انه لم يبق ما يكفي من الرومان للدفاع عن سور المدينة.

ومع هذا فقد أبت كبرياء المدينة، ورسوخ عزمها أن تفتدي أسرى الرومان من هنيبعل رغم تفاهة مبلغ الفدية، وصدر قرار من مجلس الشيوخ بحظر ذلك مفضلاً أن يقتلهم العدو أو يبيعهم رقيقاً خارج ايطاليا، كما أمر أن ينفى الى صقلية كل من فرّ ناجياً بنفسه ولا يسمح لهم بالعودة الى ايطاليا حتى نهاية الحرب مع هنيبعل، هؤلاء الفارّون المبعدون توجهوا الى مارچللوس فور وصوله صقلية والقوا بانفسهم على قدميه، طالبين منه، بكثير من التوسل والبكاء أن يعيد اليهم شرفهم بقبولهم في الخدمة ووعدوه أن يثبتوا باخلاصهم وتفانيهم وحسن بلائهم في المستقبل بأن الهزيمة التي حلت بهم كانت اليد الطولي فيها الى معاندة الحظّ وليس مبعثها جبنهم. وكان عددهم كبيراً، فأشفق عليهم مارچللوس وعرض مسألتهم على مجلس الشيوخ مقترحاً أن يمنح صلاحية غير مشروطة بزمان أو مكان بقبول تطوعهم وتأليف فرقةٍ منهم. وبعد أخذ وردٍ طويلين، أصدر المجلس قراراً مفاده أنه لايرى خيراً للجمهور في خدمة جنود جبناء. أمّا اذا رأى [مارچللوس] خلاف هذا فلا بأس أن يطوعهم، شريطة الاّ يحظى أحدٌ منهم بايّ تكريم في أية مناسبة، ولا يعطى تاجاً أو جائزة عسكرية أو مكافأة عن اي عمل بطولي أو شجاعة يبديها. وقد حزّ هذا القرار في نفس [مارچللوس] حزاً. حتى انه انبّ مجلس الشيوخ عند عودته الى روما بعد انهاء الحروب الصقليّة. وعاتبهم لأنهم انكروا عليه حرية التصرف في التفريج عن كربة المواطنين العظيمة، وهو الرجل الذي يستأهل الكثير من الجمهورية.

واراد [هيپوقريطس] قائد السيراقوزيين أن يقدم برهاناً على ولائه للقرطاجنيين، ولينصب من نفسه حاكماً مستبداً على البلاد، فعمد الى قتل عدد من الرومان في مدينة [ليونيتني]. فثارت ثائرة [مارچللوس] وحاصر المدينة واستولى عليها عنوةً. ولم يتعرض لأي من سكانها بسوءٍ، إلاّ أنه قبض على الفارين من الجيش، وأوقع بهم عقوبة «العصّي والفأس». فما كان من هيبوقريطس إلاّ ونشر نبأ كاذباً في سيراقوز، زعم فيه أن مارچللوس أعمل السيف في رقاب كل البالغين من سكان المدينة. ثم انه جاء الى سيراقوز التي كانت تضجّ بالويل والثبور وتتلظى سخطاً لما أشيع عن مارچللوس فبادرت الى نصبه سيّداً لها. فتحركّ مارچللوس بكلّ قواته نحو المدينة وعسكر بالقرب من أسوارها وبعث بوفد الى سكانها ليكشفوا لهم عن

حقيقة الأمور في [اليونيتني]، فلم يتوصلوا الى تفاهم لأن السلطة كانت مركزة بيد [هيپوقريطس][٣١] ولا شأن للأهالي بها. فباشر هجومه على المدينة من البرّ ومن البحر. وكان لواء القوات البزية معقوداً [لأپيوس]، أمّا هو، فشرع يهاجم الأسوار من جهة البحر بستين بارجة من ذوات الاطناف الخمسة. وكانت مجهزة بكلّ انواع السلاح والقاذفات وبجسر ضخم من الالواح مركب على ثماني سفن مشدودة بعضها الى بعض، وقد نُصب فوق هذا الجسر آلة المنجنيق لقذف الحجارة والحراب، إضافة الى استعداده الضخم هذا، كان معتمداً على شهرته وماضيه العسكري؛ إلاّ أن هذا كله لم يعد شيئاً مذكوراً امام [ارخميدس Archi-medes] وآلاته، كما سنوضح.

صممت هذه الآلات وركّبت بناءً على طلب ورغبة الملك [هيرو] بوصفها ادوات تسلية وتجريب في علوم الهندسة (جيومطريا)، ولم يقصد بها غايات مهّمة، وتم صنعها قبل زمن وجيز، لأن الملك العالم كان يريد أن يخرج بعض جوانب ابحاثه العلمية العجيبة الى حيز التطبيق العمليّ. ويخضع الحقائق النظرية الى عالم الحسّ، وينزلها الى ميدان العمل، ليستثار اهتمام الناس بهذا العلم ويرتفع تقديرهم له عموماً. وكان [يدوكسوس Eudoxus] و[آرخيتاس Archtas][٣٢] أوّل من عالجا هذا العلم الشريف الجليل القدر، علم الحيل و(الميكانيكا)، واستخدماه تفسيراً رائعاً عجباً للحقائق الهندسة (الجومطرية)، ووسيلة تجريبية لاقناع الحواس والبرهنة العملية على نتائج الشديدة التعقيد، والصعبة على الفهم بمجرد الرسوم والكلمات التي لاتفي بالغرض مهما كانت واضحة فمثلاً كثيراً ما يتطلب لحلّ مسألة من المسائل فرض اشكال هندسية يتعين فيها ابعد الحدّين في التناسب لايجاد أقصر خطين وتشبث هؤلاء الهندسيون بادواتهم، واتخذوا لأغراضهم خطوطاً معينة من منحنيات وقطوع. فأنبرى [افلاطون][٣٣] يندّد بها ويستنكر تعاطيها لأنها «افسادٌ بل قضاء مبرم على علم الهندسة الصالح المجدي، يعزوفها المخجل عن كل ما لا يدخل في عداد المعقولات المجردة حيزاً ومادةً، ولنحوها منحى الحسّ واستنادها التام الى المادة. وهو ما لايتّم تحقيقه إلاّ

---

(٣١) على أثر أغتيال هيرونيموس عاد الحكم جمهورياً. وتمكن كلّ من [ايبوقريطس] و[پيكيدس] وهما عميلان لهنيبعل من أصول صقلية، أن يصبحا پريتورين. وكان نتيجة ذلك أن لجأ الى وسائل لبذر بذور الشقاق بين صقلية وروما دون القاء بال على معارضة زملائهما الباقين الحريصين على مصلحة البلاد.

(٣٢) (افدركسيس) فلكيّ وهندسيّ شهير من [كيندوس]. ويعزى اليه وضع السنة الاغريقية. كتب سيرته [ديوغينس لانيريتوس] اما [ارخيتاس] فقد نبغ في ايام حكم ديونيسيوس الأب قبل حصار سيراقوز باكثر من مائة وستين عاماً.

(٣٣) لا يجد افلاطون شيئاً ذا جدوى في غير ما هو عامل ثقافة. ولذلك نراه لا يقرّ أن يشغل الفيلسوف نفسه في علوم الطبيعة الاّ لتكون مادة للتسلية وتزجية الوقت فحسب.

بخسـارة ودنـاءة». وهذا مـا أدّى الى انفصـال علم (الحيل) الميكانيكا عن الهندسـة، فـاهمله الفلاسفة وانكروه وأحتقروه، فـاحتل مكانة بين الفنون العسكرية. على أن [ارخميدس] ذكر في رسالته التي كتبها لصديقه وقريبه [هيرو] الملك، انه يمكن رفع وتحريك اي ثقلٍ بالغ ما بلغ اذا توفرت قوة معينة. وقيل لنا أن الأمر بلغ به حَدّ الفخر اذ قـال: انه بالاستناد الى قوةٍ مركزة، وفي حالة ووجود ارض أخرى غير ارضنا هذه. فهو يستطيع بالذهاب اليها، أن يرفع هذه الارض من مكانهـا! فـبـهت [هيـرو] وصُـعق وطلب منه أن يبـرهن على هذه المسـألة بالتجارب، ويثبت كيف يتسنّى لآلة صغيرة الجرم أن ترفع ثقلا عظيماً. فـأتخذ ارخميـدس سفينة نقل من أحواض الملك موضعاً لتجربته، لا يمكن سحبها الى اليابسة دون استخدام مجهود عدد كبيرٍ من الرجال. فـأركب فيها المسافرين حتى ضاقت بهم. وملأها بالأمتعة. وابتعد عنها مسافة كبيرة وجلس وامسك برؤوس حبال مشدودة ببكرات وانشأ يسحب عدداً منها بصورة تدريجية فتحركت السفينة اليه وتقدمت سحوية بخطّ مستقيم وبسهولة ويسرٍ كأنما تسير على سطح البحر دون أن يستدعي ذلك منه مجهوداً عظيماً. فعجب الملك غاية العجب ووأقتنع بجدوى هذا العلم وسلطانه والحّ على ارخميدس أن يصنع له الآت تصلح لكلّ اغراض الحصار الهجومية والدفاعية، فحقق [ارخميدس] طلبه إلاّ أن الظروف لم تلجئه الى استخدامها لأنه قضىّ جُلّ حياته في سلام ودعةٍ ورخاءٍ. وبقيت تلكم الآلات مهيأة لأستعمال السيراقوزيين ومعها مخترعها وصانعها بشخصه.

وأوّل ما هاجم الرومان الأسوار من جهتين في آن واحدٍ استولى الرعب على السيراقوزيين حتى شلّ حركتهم، إذ خيل لهم الاّ قبل لهم قط بهذه القوات. وهنا بدأ [ارخميدس] يستخدم آلاته، وراح يمطر القوات البريّة بكلّ انواع المقذوفات من الأسلحة وكتل الصخر العظيمة التي كانت تسقط بقوة هائلة وضجيج يصّم الآذان، فلا يقف أمامها أحدٌ إلاّ قضت عليه فصرعت من المهاجمين أكداساً مكدسة. وحطمت صفوفهم تحطيماً غير مستثنية ضابطاً من جندي، ثم برزت من الأسوار في الوقت نفسه - اعمدة في غاية الضخامة والطول، أمتدت الى السفن وأخذت تفرقها بنزولها عليها بقوة هائلة وتحطيمها. أو برفعها في الفضاء بكلابّة(٣٤) حديدية في رأسها تشبه منقار الكروان تنزل الى السفينة وتقبض عليها من قيدومها وترتفع بها

(٣٤) الأذى الأعظم الذي حّل بالرومـان هو آلة حربية على شكل غراب ذي مخليين أو خطافين. مشدود الى سلسلة طويلة تتدلى من أعلى بوساطة عتلة. ان ثقل الحديد يجعلها تهوى بسرعة هائلة فترطم السفن وتحطمها. ويحملها المدافعون رصاصاً من النهاية الثانية ويرفعون الغراب مع القيدوم الذي يمسك به فتميل المؤخرة وتغرق في الماء في عين الوقت ثم يغلب الغُراب قنيصته اي السفينة - بصورة مفاجئة فيسقط القيدوم في البحر بقوة عظيمة وتمتلىء السفينة بالماء وتغرق.

منكوسة ثم تطلعها ليبتلعها البحر. أو كانت تسحب السفن بقوة آلة منصوبة داخل السور فتدور على نفسها ثم تصطدم بصخور الجرف النافرة في أسفل السور، فتتحطم ويهلك من عليها. وكثيراً ما كانت الرافعة ترتفع بالسفينة الى علو كبير في الفضاء(وهو منظر مهول للرائي)، وتهزّها الى أمامٍ وخلفٍ، وتؤرجحها حتى تقذف منها بحارتها ثم تطلقها من حالقٍ لتتحطم فوق الصخور.

أمّا عن الآلة التي جاء بها [مارچللوس] محمولة فوق جسرٍ عائمٍ، فتدعى [سامبوكا Sam-buca] لوجود وجه شبهٍ بينها وبين آلةٍ من الآت الطرب. وفيما كانت تقترب من السور، سقطت عليها كتلة صخرية تزن عشرة تالنتات[٣٥]، ثم ثانية وثالثة تباعاً هوت ظهرها بقوة خارقة وصوت أشبه بهزيم الرعد فقصمت دعائمها وفتّتها تفتيتاً، وقلقلت الاحزمة التي تربطها بالجسر وفصلتها عنه. وأستولت الحيرة على [مارچللوس] ولم يدر اي سبيل يسلك. ثم عمد الى سحب كل سفنه الى مسافة تكون معها بمنجى من تلك الآلات. وأصدر أمراً بالتقهقر العام لجيمع قواته البرية. ثم نفذ خطة أخرى وهو الدنو من الأسوار ليلاً ان امكن، يحدوه ظنّه بأن اقترابهم الشديد من الاسوار سيحمي الجنود من غائلة [ارخميدس] الذي كان يستعمل الاقطاب المحدودة الى مسافات طويلة، في ادارة آلاته. ويكون الجنود في هذه الحالة تحت القاذف وستطير الحراب فوق رؤوسهم ولاتؤثر فيهم، بخروجهم من دائرة التصويب. والظاهر ان [ارخميدس] كان قد احتاط لهذا أيضاً منذ زمن بعيدٍ فصنع آلات توافق اية مسافة. وتناسب المقذوفات ذات المدى القصير. وفتح ما لايحصى من المزاغل الضيقة في الأسوار وراح يوجّه منها للمهاجمين ضربات غير متوقعة بالآت ذات مديات قصيرة. وهكذا بينما كان الأمل يراودهم بنجاح حيلتهم، ما رأوا إلاّ ورشقات من الحراب تنثال عليهم مع مقذوفات أخرى، وعندما بدأت الصخور تهوي على رؤوسهم عمودياً وانطلقت السهام كالمطر من الأسوار كافةً، لم يروا بداً من الانسحاب، وفيما هم يتقهقرون عادت الآلات من النوع الأول تمطرهم بوابل من النشاب والرماح ذات المدى البعيد وأوقعت بهم مقتلة عظيمة. وأخذت سفنهم تصدم إحداها الأخرى بفعل آلاته، وهم عاجزون عن الردّ باي شكل كان. فقد ثبت

(٣٥) ليس سهلاً علينا أن نستوعب أو نكوّن فكرة عن عمل آلات ارخميدس وكيف يتمّ لها قذف كتلة صخرية عظيمة زنتها (١٢٥٠) پاوندا على سفن مارچللوس وهن على مسافة كبيرة من الأسوار. ان الشرح الذي يقدمه [پوليبيوس ٨] أقرب الى المعقول هنا. اذ يقرر بان الصخرة التي قذفتها آلات أرخميدس تبلغ زنتها خمس پاوندات ويظهر ان (ليڤي) يتفق معه في هذا. واذا نحن افترضنا بأن پلوتارخ إنما يقصد التالنت الصقلي لا الروماني وهو يزن ٢٥ پاونداً على قول بعضهم و ١٠ پاوندات على قول بعضٍ، فأن زعمه يكون أقرب الى الحقيقة والمعقول.

[ارخميدس] معظم آلاته فيما يلي السور مباشرة من الداخل ولذلك لم يكن بمقدور الرومان مشاهدتها ولا معرفة الجهة التي يأتيهم البلاء منها، بلا رفقٍ ولا نهاية حتى خيل اليهم أنهم لا يقاتلون البشر بل الآلهة.

وكتبت السلامة [لمارچللوس] في هذه المعمعة. وراح يسخر بمهندسيه وصناعه قائلاً:

- ماذا؟ الا سبيل لنا إلاّ أن نكفّ عن قتال هذا الغول الهندسي المتعددّ الايدي [برياريوس: Briareus] الذي يلعب بسفننا لعبة «الرفع والقذف»، ويمطرنا بآلاف مؤلفة من الحراب في كلّ دقيقة! انه لعمري يفوق جبابرة الأساطير ذوي الأيادي المائة!

ومما لا ريب فيه أن السيراقوزيين لم يكونوا غير وعاء لمخترعات [ارخميدس] حلتّ فيه روح واحدة تحرك الجميع وتحكمهم. فنبذوا جانباً كل اسلحةٍ وراحوا يلقون الرعب في نفوس الرومان بهذه الآلات وحدها. وآمنوا لأنفسهم الحماية. ولا نطيل، فقد كان الفرق يستولى على الرومان كلما شاهدوا حبلاً صغيراً أو قطعة خشب تخرج من السور، فيصرخون:

- ها انها تعود ثانية!

متوهمين أن [ارخميدس] يهم باطلاق آلة من آلاته عليهم، فيطلقون سيقانهم للريح لا يلوون على شيء، وكف [مارچللوس] عن القتال والهجمات المتكررة وأودع كلّ آماله في الحصار الطويل الأمد.

على أن [ارخميدس] كان ذات نفس سامية، وروح عميقة، أودعت كنوزاً لاحصر لها من المعارف العلمية، حتى انه لم ير من المناسب أن يترك مذكرات، أو أي كتابة في هذه المواضيع، رغم أن مخترعاته هذه، وضعته في أعلى درجات الشهرة، وفوّقته على كل الحكمة البشرية. فقد انكر صناعة الميكانيكا كلها، وعدّها من العلوم التافهة التي لا جدوى منها وصدّت نفسه عن هذا الفن الذي ليس وراءه الاّ الربح والاستعمال المادي الرخيص. وأوقف كلّ مطمح له وحصر همّه في الابحاث والتتبعات التي تطهرت من كل علاقة بحاجات الحياة الدنيا. وأنصرف الى الدراسات التي لا مجال لإنكار سموّها أو الشكّ في علوّ مقامها إلاّ بدرجة احتواء جمال وعظمة المواضيع المبحوثة على الدقة وقوة الاقناع من ناحية طرائقها ووسائل برهانها. تلك هي الدراسات الجديرة منا بأكثر الاعجاب والاحترام، وفي عالم الهندسة افي الامكان حَلّ مسائل أكثر صعوبة وتعقيداً مما حلّه؟ أو ايجاد تفسيرات أكثر وضوحاً وبساطة من تفسيراته؟ بعضهم يعزو مقدرته الفذة الى (جنيّه) الملازم له. في حين يعزوه بعضهم الى الدأب المتواصل والجهود المدهشة التي بذلها ليصل الى نتائج بدأ ظاهر حالها يسيرة سهلة في

حين يتعذر عليك ان تجد لها اي تعليل أو سبب مهما بذلت من جهد للتحري عنها. ومع هذا فما يقع نظرك عليها حتى يستولى عليك أعتقاد بأن لا شيء يحول دون كشفك عن سرّها. وهكذا يستدرجك بسبيل ممهّد قصير الى النتيجة المطلوبة، وبهذا لا تعود ترى مخترعاته من قبيل المعجزات أو الخوارق. ولقد شاع قول الناس فيه «إن سحر عروسة بحره [سيرين Siren] الآليفة المحبوبة هذه كانت تنسيه طعامه، وتجعله يهمل نفسه ولايحسّ لها وجوداً حتى انه كان يحمل الى الحمّام قسراً ليُغسل جسمه ويدهن بالزيت وهناك يقوم بمتابعة الاشكال الهندسية في رماد النار، ويرسم مخططات هندسية في الزيت المنتشر على جسمه، وينقلب الى حالة انجذاب تامٍ يصرفه عن عالم المواقع. وبأصدق التعابير يكون في حالة الوحي الآلهي مع حبّه وتعلقه بالعلم. وكانت مكتشفاته عديدة وعجيبة، وقيل انه أوصى اصدقائه والأقربين أن يضعوا على القبر الذي يحوى رفاته، كرة تحتوي على اسطوانه وينقشون هذا «الجسم الذي يغمر في سائل يفقد من وزنه بقدر حجمه فيه»(٣٦).

هكذا كان ارخميدس الذي برز الآن مع مدينته كائنين لايقهران بسعيه ومجهوده. وأستمر الحصار، إلاّ ان مارچللوس استولى في غضون ذلك على [ميغارا] وهي من أوائل المدن التي بناها الاغريق في صقلية، كما أحتل أيضاً معسكر [هيپوقريطس] في أكيلي Acilæ] وفتك بما يزيد على ثمانية آلاف من رجاله(٣٧)، اذ فاجأهم وهم منصرفون الى اقامة استحكاماتهم. ثم أجتاح قسماً كبيراً من الجزيرة وحقق الغلبة على كلّ من اشتبك معه. وفي اثناء الحصار وقع بيد الرومان لقيديموني يدعى [داميپوس Damippus] (٣٨) كان قد رحل عن سيراقوز في

---

(٣٦) أكتشف هذا النصب شيشرون عندما كان يشغل وظيفة الكويستور في صقلية وهو بشكل عمود صغير. عرضه على السيراقوزين فلم يفيدوه بشيء عنه. ويقول هو انه وجد أبياتاً شعرية محفورة عليه تكاد أعجازها تكون متآكلة بفعل الزمن. وكان يبدو فيه – وهو ما تؤيده بقايا الإبيات الشعرية – صورتا الاسطوانة والكرة وهما الشكلان الهندسيان اللذان أكتشف ارخميدس النسبة بين مساحتيهما [انظر شيشرون ٥:٢٣] ويضيف قائلاً انه قبر ارخميدس كاد يختفي تماماً فلا يلفت النظر بسبب العشب الذي نما حوله فغطاه، لولا الجهود التي بذلها الرجل الابيرينوي فأدت الى العثور عليه.

(٣٧) دخل همليكو ميناء هراكليا على رأس اسطول ضخم ارسل من قرطاجنة فأنزل عشرين ألف راجل وثلاثة آلاف خيال وأثني عشر فيلاً. ما ان أكمل الانزال حتى زحف بجيشه هذا على أكركنتم وانتزعها من الرومان مع عدة مدن أخرى كان مارچللوس قد أستولى عليها. عندئذ قررت حامية سيراقوزه التي ظلت سالمة ان تعزز قوات (همليكو) بعشرة آلاف راجل والف وخمسمائة خيال تحت قيادة [هيپوقريطس]. وعاد مارچللوس الى سيراقوزة بعد ان فشل في استعادة اكركنتوم وفيما هو على مقربة من (اكريللي) انتبه فجأة الى (هيپوقريطس) وهو مشغول في تحكيم معسكره فانقض عليه دون ان يدعَ له فرصة تجريد قواته أو تنظيم صفوفه ونثر ثمانية آلاف من مرتباته اشلاءً. [ليڤي ٢٤:٣٥ و ٣٦].

(٣٨) طالباً نجدة من الملك فيليب [ليڤي ٢٥:٢٣].

أحدى السفن، وأظهر السيراقوزيون لهفة شديدة في افتدائه، فجرت لهذا الغرض عدة لقاءات ومداولات بين مارسللوس وبينهم واتيحت له الفرصة خلال ذلك ان يتأمل برجاً من الابراج كان في الامكان أدخال مجموعة من الجنود اليه سراً. وفي غفلة عن العيون. لأن الجدار المجاور له لم يكن صعب المرتقى كما كان العدوّ مهملاً حراسة البرج بشكل يدلّ على عدم الاهتمام، وتردد الى موقعه كثيراً ودرس ارتفاع السور اثناء المداولات حول فدية [داميپوس] حتى تأكد منه وأمر بتهئية سلالم لتسلقه، وفي يوم ما أحتفل السيراقوزيون بعيد [ديانا] فلما أخذت الخمر مأخذها منهم وانصرفوا تماماً الى اللهو والقصف، تمكن [مارچللوس] من البرج ولكنه لم يكتف بذلك بل ملأ الجدار القريب منه جنوداً قبل أن ينبلج الصبح. ثم شق طريقه الى [الهكساپيلوم Hexapylum]. فانتبه السيراقوزيون من غفلتهم وأقلقتهم الضجّة. وهنا أمر [مارچللوس] بنفخ الأبواق في كل مكان فاستولى عليهم رعب شديد وأطلقوا سيقانهم للريح، وهم يظنون ان الرومان سيطروا على المدينة بأسرها في حين كانت أمنع منطقة فيها واجملها وأكثرها غنىً بعيدة عن متناول المهاجم. هذه المنطقة تعرف باسم [اقرادينا Acradina] ويفصلها عن سائر المدينة الخارجية جدار شاهق وهي تتألف من حيّين: [نياپوليس Neapo-lis] و[تايخا Tycha] استولى مارچللوس على هذين، وعبر فجرا [الهكساپيلوم]، فأقبل عليه ضباطه يهنئونه بالنصر[٣٩]، إلاّ انه شخص ببصره الى المدينة الجميلة الممتدة تحته وهو واقف على مرتفع. وقيل أن الألم أبكاه[٤٠] للفاجعة التي توشك أن تحل بها. اذ تمثلت لذهنه صورة المدينة كيف سينقلب شأنها بعد ساعات معدودات، حين يعيث الجنود بها سلباً ونهباً، لم يكن ثم ضابط واحدٌ من كل ضباطه يجرأ على معارضة مطلب الجنود. كان عدد كبير في الواقع بصرّ على اشعال النار فيها. وهدمها حجراً على حجر وتسويتها بالقاع. لكن [مارچللوس] لم يعر أذناً صاغيةً لمثل هذا. وسمح بكثير من الاحجام وهو كاره، ان يكون النهب قاصراً على النقود والعبيد. وأصدر أمراً جازماً بخطر الاعتداء على اي مواطن حُرّ أو قتل أو استرقاق أو اذية أي سيراقوزي. ومع كل لينه هذا، فقد ظلّ يرى ان حالة المدينة تدعو الى الرثاء حقاً. ولم يكتم مشاعره القوية وهو في بحران التهاني والفرح. وعبر عن حزنه واشفاقه عندما شاهد كل تلك النفائس ومظاهر الترف التى جمعت بعضاً على بعضٍ في حقبة طويلة من سنوات الرخاء والاستقرار، تغدو خلال ساعة واحدة فقط فهي أثر بعد عين فقد ذكر

(٣٩) دخل مدينة [اپيپولى] ليلاً، ودخل [تيخه] صباح اليوم التالي وكان يحيط بالأولى سورٌ هو صورة طبق الأصل من سور اورتيگيا والاخرادينا وتيخه ونياپوليس لكنها أمتازت عن البقية بقلعتها المسماة يوريالنوم وهي مقامة على صخرة كبيرة ذات جوانب شديدة الانحدار. لتبدو وكأنها مدينة قائمة بذاتها.

(٤٠) ليڤي ٢٥:٢٤].

ان ما نهب منها لم يكن باقل مما نهب من قرطاجنة[٤١] فيما بعد. اذ ما عتم الجنود ان حصلوا على أمرٍ بنهب الاحياء الأخرى من مدينة التي تمّ الاستيلاء عليها بالخديعة. ولم يتركوا شيئاً إلاّ أخذوه الاّ اموال الملك فقد حُملت الى بيت المال، ولم يحزن [مارچللوس] لشيئ قدر ما احزنه قتل [ارخميدس]. فقد شاءت الأقدار ان يكون منصرفاً وقتئذ، الى الاشتغال بمسألةٍ في شكل هندسي مركزاً ذهنه وعينيه في موضوع شغله فلم ينتبه الى هجوم الرومان واقتحامهم المدينة. وفي حالة لاوعيه هذا دنا منه جنديّ على غير انتظار وأمره ان يتبعه الى مارچللوس، فأبى إلاّ بعد اهتدائه الى حَلّ للمسألة التي يفكر فيها، فثار بالجندي الغضب وانتضى سيفه وعاجله بطعنة نجلاء. وكتب آخرون أن جندياً رومانيا أسرع نحوه مشهراً سيفه يريد قتله فالتفت اليه [ارخميدس] واستأذنه متوسلاً بان يمسك يده عنه ريثما ينتهي بما بين يديه من مسئلة الى حَلّ ونتيجة. إلاّ ان الجندي قتله حالاً دون أن ينيله رجاءه. وحدثنا آخرون أن [ارخميدس] وهو يقصد [مارچللوس] التقى ببعض الجنود حاملاً ادوات حاسبة ومزولات، وزوايا وكُرات وهي ما يقاس به حجم الشمس بالنظر المجرد، فظنوه يحمل ذهباً في اوعية فقتلوه. ومن الثابت أن موته كان شديد الوقع على مارسللوس وظلّ يعد الجندي الذي فتك به مجرماً قاتلاً. وأستدعى اقرباء العالم وذويه وأجزل لهم الهبات ووصلهم بكثير من المال.

كانت الشعوب والحق يقال، تعتبر الرومان من حيزة الجنود في ساحات القتال. لكن لم يشتهر عنهم في ذلك الحين ما يكشف فيهم عن انسانية وتهذيب ورقة قلب، والظاهر ان مارچللوس كان أوّل روماني أظهر للاغريق حرص بني قومه على العدل والقسط. فقد بات تساهله ولينه مما يضرب به الأمثال تجاه اي من كانت له صلة به وعطفه الكبير على المدن الكثيرة والاشخاص، حتى اذا أصدر أمراً فيه صرامة أو قسوة بحق أهل [امنا Emna] أو [ميغارا] أو [سيراقوز] فيجب ان ينصرف الذهن حتماً الى لوم من هبت عليه العاصفة، لا من ارسلها. وسأورد مثلاً واحداً من عدة أمثلة:

في صقلية بلدة تدعى [انجيوم Engyum] ليست كبيرة ولكنها عتيقة تتمتع بمنزلة محترمة بوجود معبدٍ لربّات يسميّن «الأمهات»[٤٢] ويقال ان الكريتيين هم الذين بنوه، إلاّ ان أهاليها يعرضون بعض الحراب وخوذ الحرب، نقش عليها اسماً [مريونيس Meriones] (تهجئته اليونانية لا تختلف عن اللاتينية) و[يوليسيس] اللذين قدماها هدية للربّات، ومهما يكن،

---

(٤١) دام حصار سيراقوزه ثلاث سنوات كوامل. وپلوتارخ لم يورد تفاصيل عما جرى خلال تلك الفترة. وما تلاها اي بعد اقتحام المدينة، ولكن ثم وصفاً دقيقاً مسهباً يقدمه لنا ليفي ٢٥ : ١٣ – ٣١].

(٤٢) المقصود: كيبيله، جونو، كيريس. وينوه شيشرون هم وجود معبد للأولى في انجيوم فحسب [٤:٤٤].

فهذه البلدة انتصرت للقرطاجنيين وعدّ أهلها من أخلص اشياعهم. ونصحهم [نيسياس] وهو أبرز مواطن فيها أن يعدلوا عن ذلك ويعلنوا ولاءهم للرومان، وبشرّ برأيه في خطبه وإجتماعاتهم ووصف سبيلهم الأولى بالجنون والخرق. فقرروا القاء القبض عليه وتسليمه للقرطاجنيين موثقاً، خشية نفوذه وتأثيره على النفوس. فادرك نيتهم المبيتة. ولما وجد الرقابة قد أحكمت عليه راح يجذفّ على [الامهات] ويقذفهّن بهجر القول، وأظهر استحقاره لهنّ وبدأ كالناكر الجاحد للرأي المتواتر بوجود هاته الراهبات. فطرب خصومه لما حَلّ به وايقنوا انه كالساعي الى حتفه بظلفه أو كالباحث عن خرابه المعلق فوق رأسه وفيما كانوا في سبيل الامساك به عقد اجتماع عام، فقام [نيسياس] لالقاء خطبة على الناس تتعلق بأحد المواضيع التي يجرى البحث فيها، وفيما هو مسترسل، توقف فجأة والقى بنفسه على الأرض - ثم أسرع بالنهوض والناس مذهولون، لا يأتون حراكاً. (كما يحصل عادة على أثر مثل هذه المفاجأت) ودار برأسه وأستأنف الكلام بصوت راعش ونبرة عميقة أخذ يرفعها بالتدريج حتى وصل حَدّ الزعيق. ولما ايقن ان كل من في الملعب قد صعقه الرعب والجمه، ألقى بمعطفه جانباً وشق ثوبه ووثب مسرعاً نحو الباب وهو شبه عارٍ يصرخ قائلاً ان «الأمهات» يدفعنه خارجاً. ولم يجرأ انسان أن يضع يده عليه أو يوقفه، تزمناً وخشوعاً دينياً، بل أفسحوا له الى الباب، فأسرع غير باخلٍ عليهم بأيّ صرخة أو حركة تجعله من صنف المجاذيب أو المجانين. وكانت زوجه على علمٍ بما يفتعله وما هو غرضه. فأخذت أولادها وقصدت أولاً معبد [الربّات] وانطرحت متوسّلة، ثم تظاهرت ببحثها زوجها الذي هام على وجهه فلم يعترضها أحد وهكذا خرجت من المدينة بسلام ووصلت الأسرة كلها الى [مارچللوس] في سيراقوز، ولما ازدادت الإهانات من أهل [انجيوم] وكثر تطاولهم على [مارچللوس] القى القبض على رجالها وكبلهم بالاغلال، وأوشك أن ينفذ فيهم القصاص الاكبر أنبرى [نيسياس] ملقياً بنفسه على قدميه والدموع تنحدر من عينيه، راجياً العفو عن بني قومه، وأشتدّ في رجائه حياتهم لاسيما خصومه منهم حتى رقّ [مارچللوس] وأطلق الجميع ومنح [نسياس] ضياعاً واسعة ونفائس من الصلات والجوائز. هذه الرواية اوردها [پوسيدونيوس] الفيلسوف.

أخيراً، أستدعى الشعب [مارچللوس] الى روما[٤٣] لادارة دفة الحرب في أرض الوطن. فحمل معه مقداراً كبيراً من أجمل آثار سيراقوز الفنيّة، يريد أن يزيد من موكب نصره روعة وجلالاً، ويزين عاصمة بلاده بها. كانت روما عاطلةً عن.مثل هذه الآثار الفنية والزخارف

(٤٣) حقق انتصاراً كبيراً على [اپيكيدس وهانو] قبل عودته الى روما واهلك فيه عدداً كبيراً واستولى على أسرى كثيرين وغنم ثمانية من الفيلة [ليڤي ٢٥:٤٠].

الرائعة ولم تكن تتذوق منتوج الفنانين أو تبتهج بالنظر اليه مهما كان صنعه دقيقاً. لقد اتخمت بأسلحة البرابرة والغنائم الحربية التي تلطخها الدماء، وهي ليست بالمنظر الذي يشرح الخاطر ويّسر العين، ويفتح قلب المتفرج المهذب الوديع المسالم، فكما سمىّ اپامنداس حقول [بويوتيا] «بمرسح مارس»، وكما أطلق [كزينفون] على [أفسَس] اسم «مصنع الحرب»، كذلك يصّح في رأيي أن تسميّ روما ذلك العهد بعبارة الشاعر [پندار] «مقرّ مارس الذي لا يعرف سلاماً» ولذلك أحبّ الشعب [مارچللوس] لأنه زيّن المدينة بآثار مؤتلقة أنيقة فيها سحر كلّ التناسق والرشاقة الاغريقية، على أن [فابيوس ماكسيموس] الذي لم يمسّ شيئاً من آثار [تارنتوم] عند استيلائه عليها، ولم ينقل منها حجراً الى روما، كان موضع إكبار ورضى من كبار السنّ، أكثر من [مارچللوس]، لقد أكتفى بأخذ النقود والحاجات الثمينة ولم يسمح بنقل التماثيل. متعللا بقوله [كما قيل لنا]: «الا فلنترك للتارنتيين هذه الآلهة الساخطة».

وعتبوا على [مارچللوس] أولاً لأنه وضع روما موضع المتطاول اذ جعلها تبدو وكأنها تحتفل بانتصارات وتحيَ مواكب ظفرٍ نالتها لا من بني البشر وحدهم بل من الآلهة أيضاً بعرضها تماثيلها كالأسرى.

أما اللوم الآخر الموجه له، فهو صرف اتجاه الشعب الى التعطّل والهاوه بعبث الكلام حول الفنون الجميلة والفنانين. وهو الذي نشأ على الحرب والفلاحة ولم يتذوق طعم الترف والنعيم كما وصف يورپيدس هرقل:

«انه فظّ خشن، لا يصلح الاّ لعظائم الأمور».

وانقلبوا ليبددوا جُلّ أوقاتهم في تفقدّ وانتقاد التوافه من الأشياء. وبصرف النظر عن لوم [مارچللوس] في هذا المجال، فانه رفع من قدر الاغريق أنفسهم بتعليمه بني قومه الجهلة احترام نتاجهم العجيب الجميل وتقديرهم له.

وعندما عارض خصومه في دخوله بموكب الظفر بحجة وجود بقية حربٍ في صقلية، ولأن منحه موكباً ثالثاً قد يزيد من الحاقدين عليه، بادر هو الى صرف النظر عنه مكتفياً باحتفاله بالنصر فوق جبل [ألبان Alban]، ثم دخل المدينة «بمهرجان شعبي» وهو ما يطلق عليه باللاتينية «Ovation» وباليونانية «eua». ولم يركب في هذا المهرجان عجلة ولم يكلّل بالغار، ولم يعلن دخوله بنفخ الابواق، وانما دخل ماشياً منتعلاً حذاءه، وانطلقت أصوات عددٍ كبير من من النايات والسرنايات في وقت واحدٍ، وكان وهو مطوق بقلائد اللبلاب بمظهر سلميّ يثير في النفوس احتراماً وحبّاً أكثر من الخوف. وهو ما يجعلني استنتج ان الاختلاف بين

«المهرجان الشعبي» وبين موكب النصر لا يعتمد على عظمة العمل بل على أسلوب انجازه. فأولئك الذين خاضوا معركة طاحنة وفتكوا بكثير من الاعداء وعادوا منتصرين، حقّ لهم ان يتقدموا ذلك الموكب العسكري المرعب. ثم أن العادة المتبعة آنذاك قضت بتطهير الجيش كله عن طريق تقديم القرابين، وبتزيين الجنود وأسلحتهم بكثير من نبات الغار. أمّا أولئك القادة الذين انجزوا ما كلفوا به عن طريق المفاوضة والمنطق دون استخدام أية قوة فان العرف كان يقضي بمنحهم شرف «المهرجان الشعبي الحافل» الخالي من المظاهر العسكرية، فالناي هو شعار السلام، واللبلاب هو نبتة [ڤينوس]، تلك الربّة التي تبغض القوة والحرب أكثر من كل الآلهة الآخرين. وكلمة Ovation ليست مأخوذة في اللفظة اليونانية «إڤاسموس Evasmus» كما تظنّ الأغلبية بسبب ما يتخلل المهرجان من هتاف وصياح بكلمة «إيڤا !Eua» فهذا ما يسمع أيضاً في مواكب النصر. لقد ادخل اليونانيون هذه الكلمة الى لغتهم مصحفةً، لتوهمهم أن هذا التكريم لابّد وان يكون له بعض علاقة هو الآخر [بباخوس] الذي يلقبه اليونانيون [ابيوس Euius] و[ثريامبوس Thriambus]. على أن الأمر خلاف ذلك، فقد جرت العادة في مواكب النصر ان يضحي القادة بثورٍ، وفي المهرجانات الشعبية ان يضحوا بشاةٍ ومن هنا جاءت لفظة «Ovation» المأخوذة من الكلمة اللاتينية «أوڤيس Ovis». والشيء بالشيء يذكر أن قرابين السپارطين المشرعة قانوناً، كانت بعكس العادة الرومانية، فالعسكرى اللقيديموني الذي ينجز ما كلف به بالدهاء والمكر أو بالتفاهم والطيبة يقوم بتضحية ثور عند تنحيه عن قيادته، واما اذا انجز مهمته بطريق القوة والحرب، فانه يضحيّ بديكٍ. من هذا ترى ان اللقيديمونيين - رغم كونهم شبّوا على الحرب وشابوا، يعتبرون المهمة التي تنجز بالحكمة والعقل أليق بمقام الرجل وأشرف له من استخدام قوته وشجاعته المجردتين. وأني لأترك الحكم لغيري في أفضلية هاتين الطريقتين.

وانتخب [مارچللوس] قنصلاً للمرة الرابعة، فقام السيراقوزيون بتحريض خصومه، يلفقون تهمةً عليه ويعرضون شكواهم في روما، وزعموا فيها انهم لاقوا اضطهاداً وأذىً على يده خلافاً للعهد الممنوح لهم[٤٤]. وأتفق أن مارچللوس كان وقت تقديم الشكوى، في الكاپتول يُقدّم قرباناً. فمكث في المجلس ليتيح لهم فرصة عرض الشكوى والظلامة وحاول زميل [مارچللوس] صرفهم ليحمي زميله في غيابه، لكن أقبل حال سماعه بالأمر وجلس على

(٤٤) ما ان أستقر المقام بالسيراقوزيين في روما. حتى بدء القنصلان بسحب القرعة على توزيع الاقاليم بينهما. ووقعت (صقلية) من سهم مارچللوس فكانت ضربة شديدة وقعت على هؤلاء المندوبين ولم يجرؤا على الاحتجاج والتظلّم لو لم يعرض مارچللوس استبدال صقلية باقليم آخر [ليڤي ٢٦: ٢٩ و ٣٠].

كرسي الرئاسة وبدأ أولاً يعرض على المجلس المسائل العاجلة والشؤون الأخرى لتصريفها. وما انتهى من ذلك حتى ترك معقده ويمّ شطر المحلّ المخصص للمتهمين عند تقديم دفاعهم، كأي شخصٍ عاديّ. وافسح الحرية التامة للسيراقوزيين حتى يدلوا بشكاواهم. فوهت عزائمهم من موقفه الجليل ومن فرط ثقته بنفسه وتسمّروا في الأرض مذهولين وبدأ تأثير وجوده في المجلس وهو مرتدٍ ثوب السلطة أشدّ مهابة وصرامة وهو في دروعه وشكة سلاحه على أنهم باشروا بتعداد التهم حين وجدوا تشجيعاً وتحريضاً من خصومه. والقوا خطبةً مزجوا فيها التهم القضائية بظلاماتهم وشكاواهم، قالوا أنهم ذاقوا على يده ما احجم قادة آخرون من ايقاعه باعدائهم، مع كونهم حلفاء وأصدقاء للرومان، فردّ عليهم [مارچللوس](٤٥) ان السيراقوزيين ارتكبوا أعمال عدوان كثيرة ضد شعب روما. وانهم لم يعانوا شيئاً يزيد عمّا لا مفر للعدو المغلوب الأسير من تذوقه. وانهم جنوا على أنفسهم وأنّ أعمالهم هي التي جعلتهم يرسفون في أغلال الأسر لأنهم رفضوا الانصياع الى محاولات الاقناع بالحسنى واللين التي بذلها كثيراً، وهذه الحرب التي شنوها لم يرغمهم عليها الطغاة أبداً، وأنما عمدوا الى خلق طغاةٍ لغرض اثارة الحرب فحسب. ثم ختمت الخطب. وغادر المشتكون قاعة المجلس كما يقضي به العرف. كما ترك [مارچللوس] زملاءه منسحباً مع السيراقوزيين، وبقي خارج الباب ينتظر قرار الحكم(٤٦). ولم يبد عليه انشغال بالٍ من التهم، ولا سخطٌ من متهميه. بل ظلّ ينتظر النتيجة بهدوءٍ تام ووقارٍ. أخيراً توصل المجلس الى قرار اجماعيّ صدر بموجبه مرسوم يقضي بجبّ كل التهم عن [مارچللوس](٤٧) والإشادة بافعاله، وببراءته.

فإلقى السيراقوزيون بأنفسهم على قدميه وعيونهم مخضلّة بالدموع، يرجون صفحه وغفرانه عن الحاضرين، وعطفه على شقاء سائر أهل المدينة وسيبقون دائماً أبداً أسرى فضله شاكرين. فرق لهم قلبه ولان لدموعهم وآلامهم ولم يكتف بصفحه عن الوفد بل وعدهم خيراً وظلّ أبداً ينتهز الفرص ليخص السيراقوزيين بالتفاته ويشملهم بعطفه. وايدّ مجلس الشيوخ استقلالهم

---

(٤٥) عندما فرغ السيراقوزيون من عرض اتهاماتهم ضد مارچللوس أمرهم زميله القنصل ليڤنيوس Lavinus بالانسحاب. إلاّ ان مارچللوس أصرّ على ان يبقوا ليسمعوا دفاعه.

(٤٦) في اثناء ما كان القضاة يتداولون في الحكم. خرج هو الى الكابتول لتسجيل اسماء المجندين الجدد [ليڤي المرجع نفسه ٣١ و ٣٢].

(٤٧) لم يحض سلوك مارچللوس بالموافقة التامة من مجلس الشيوخ حين استيلائه على سيراقوز. فبعض الاعضاء أخذ يتذكر التعلق الشديد بالجمهورية الذي عبّر عنه (هيرو) في كثير من المناسبات ولم يسعهم إلاّ أن ينحوا باللائمة على جنرالهم الذي استباح المدينة. ولم يكن السيراقوزيون في وضع يستطيعون به أظهار شعورهم الحقيقي حيال وجود جيش من المرتزقة بين ظهرانيهم فأضطروا للنزول عند حكم الظروف واطاعة أوامر ضباط (هنيبعل) الذين كانوا يسيطرون على سائر قطعات الجيش.

وحريتهم التي أعيدت اليهم، وأقرّ حقوقهم وقوانينهم وثبت لهم ما بقي من ممتلكاتهم الخاصّة. ورداً لهذا الجميل أصدر السيراقوزيون قانوناً ينصّ على أن يطوق المواطنون اعناقهم بقلائد الزهر ويقدموا القرابين للآلهة كلما وطئت قدم [مارچللوس] أو واحد من ذريته، فضلاً عن ضروب أخرى من التكريم.

بعد هذا، تحرّك [مارچللوس] نحو [هانيبل]. كاد كل قناصل الرومان وجنرالاتهم منذ هزيمة [كانيّ] يطبقون خطة واحدة ضدّ هنيبعل لم يحيدوا عنها أبداً وهي اجتناب الالتحام معه في معركة كيفما كان. ولم يجد أحد منهم شجاعة كافية تدفعه الى الاشتباك معه في قتال، وتحكيم السيف وحده. إلاّ أن [مارچللوس] تبنىّ الخطة المعاكسة. فقد رأى ان ايطاليا سيحيق بها البوار بالتأخير الذي أملوا منه انهاك [هنيبعل]. وكان [فابيوس] الذي تمسكّ بسياسة الحذر، ينتظر أن تنطفيء نار الحرب من تلقاء نفسها في حين كانت حال روما تتردّى وتسوء باطراد. ويأبى الأخذ بهذا السبيل الصحيح لعلاج داء البلاد، فموقفه يشبه موقف الطبيب المتردد الذي يخشى أعطاء الدواء لمريضه، ويبقى منتظراً مؤمناً أن ضعف قوى المريض وانتكاسته هو ضعف المرض وزواله.

وكانت حصيلة خطّة [مارچللوس] الأولى، سيطرته على مدن السّامنيين Samnites الكبيرة التي انتقضت على العدوّ، ووجد فيها مقادير كبيرة من القمح والأموال، وثلاثة آلاف جندي قرطاجنّي تركهم هنيبعل فيها لأغراض الدفاع. ثم على أثر مقتل البروقنصل [كنيوس فلوڤيرس Canæus Fluvius] وأحد عشر تريبيوناً (مفوضاً) عسكرياً وابادة معظم الجيش الذي يقوده. في [ابوليا Apulia]، بعث [مارچللوس] برسائل الى روما يطلب فيها من الشعب ان يتحلّى بالصبر والشجاعة، لأنه سيزحف فوراً للاصطدام بهنيبعل ليقلب نصره مأتماً[٤٨]. ويحدثنا [ليڤي] انه عندما قُرئت رسائله لم تحدث الأثر المأمول ولم ترفع من معنويات الشعب، وانما هبطت بها كثيراً. فقد تبينوا فراحة الخطب لأن [مارچللوس] كان في نظرهم اثمن من [فلوڤيوس]. ولكن هذا ما كان قد قرره وتقدم نحو بلاد اللوكانيين. والتقى بخصمه في [نوميسترو] وكان قد سبقه الى احتلال المرتفعات، فضرب خيامه في السهل المنبسط وفي اليوم التالي وضع فرقه في نسق المعركة فقبل [هنيبعل] التحديّ والتحم الجمعان واستمر القتال سجالاً بين الفريقين دون أن يستظهر أحدهما، وأقبل الليل ففصلهم مرغمين. ولم تكد تبزغ شمس اليوم التالي الا وجيش [مارچللوس] متأهب الاستئناف القتال. وقد خرج من معسكره، ونشر صفوفه بين جثث قتلى الأمس يتحدى هنيبعل لانهاء النزاع بمعركة أخرى،

(٤٨) في الساعة التاسعة صباحاً.

فأبى التحدي وانسحب بجيشه، حتى أسرع الى اللحاق به. وكان في كل الاشتباكات الموضعيّة، والتعرضات الجانبية التي حصلت اثناء المطاردة، هو الجانب المتفوق ابداً، مما زاد من شهرته كثيراً، حتى انه لما أزف موعد عقد الكوميتيا Comitia في روما فضّل مجلس الشيوخ استدعاء القنصل الثاني من صقلية[٤٩]، على سحب [مارچللوس] من جبهة القتال. ولما وصل زميله طُلب منه أن يعين [كوينتوس فلوڤيوس] بمنصب الدكتاتور، لأن الدكتاتور لا يعينه الشعب أو مجلس الشيوخ بل القنصل الپريتور بحضور الجمعيّة العموميّة أذ يسمّي مرشحه الذي يختار ويقلده المنصب علنا. ومن هنا جاء لقبه «دكتاتور»، فهو من لفظة «ديكيري Decere» اي «تسمية». ويقول آخرون إنه ما سميّ دكتاتوراً إلا لأن كلمته هي بحكم القانون، وأن أوامره التي يصدرها لاتوضع في التصويت، ولذلك كان الرومان يسمّون قرارات الحكّام «اديكت Edict».

كان زميل [مارچللوس] القادم من صقلية، يريد تعيين رجل آخر لهذا المنصب[٥٠]، ولم يكن ليرضى بالتحول عن رأيه مرغماً، فغادر روما ليلاً عائداً الى صقلية. فما كان من عامة الشعب إلا أن أصدر قراراً إجماعاً باختيار [كونيتوس فلوڤيوس] وأرسل مجلس الشيوخ رسولاً عاجلاً الى [مارچللوس] يأمره بتسمية مرشح الشعب، فأطاع وأعلنه دكتاتوراً حسب رغبة الشعب، مستبقياً منصب الپروقنصل لنفسه مدة سنة أخرى. ثم أتفق مع [فابيوس ماكسيموس] بأن يضرب الحصار على [تارنتوم] بينما يقوم هو باستدراج هنيبعل ومشاغلته لتعويقه عن نجدة المدينة. وهكذا ادركه في [كانوزيوم] وحاول الالتحام به الاّ ان [هنيبعل] راح يروغ منه ويرفض الدخول معه في معركة بكثرة تغييره لمعسكره، الى أن باغته وهو يعسكر فأستفزه باشتباكات خفيفة موضعية حتى جرّه جراً الى معركة طاحنة، لكن الليل حاجزهما والقتال على أشدّه. وفي اليوم التالي خرج مارچللوس للقتال ونشر عسكره بنسق الهجوم، وهنا أمر [هنيبعل] باجتماع عام للقوات القرطاجنيّة وقام يخطب فيهم وقد اثقله الهمّ، راجياً بحرارةٍ أن يقاتلوا قتالاً جديراً بانتصاراتهم الماضية ومما جاء فيها «انتم ترون كيف تعزّ علينا الراحة، وكيف يحال بيننا وبين الاستجمام بعد كلّ الانتصارات التي احرزناها. لا سبيل لنا الى ذلك إلاّ اذا الحقنا الهزيمة بهذا الرجل».

---

(٤٩) بناء على اقتراح مارچللوس نفسه الذي شرح لهم كتابةً أهمية استمراره في الضغط على هنيبعل. ولهذا قام مجلس الشيوخ باستدعاء [ليڤينيوس] [ليڤي ٤:٤٧].

(٥٠) كان [ليڤينيوس] يرغب في تسمية [ماركوس ڤاليريوس ميسّالا] دكتاتوراً. ولما ترك روما فجأة موصياً نائبه الپرينور بان لا يرشح [فلوڤيوس] قام تريبيونات الشعب بالاضطلاع بالمسؤولية. وحمل المجلس مارچللوس على مصادقة الترشيح [ليڤي المرجع نفسه].

ثم التقى الجيشان في قتال مُرّ عنيف. وأتى [مارچللوس] بحركة تعبوية غير مناسبة أدت الى ارتكابه خطأً[٥١]: كانت الميمنة ترزح تحت ضغط شديد فأمر أحدى فرقة الاحتياط بأن تتقدم الى خطّ القتال. هذه الحركة أحدثت خللاً في صفوف الفرق المقاتلة وترتيبها الهجومي، ودفعت بالنصر الى يد العدوّ، وسقط ألفان وسبعمائة من الرومان. فأنسحب [مارچللوس] الى معسكره وجمع الجنود وخطب فيهم. ومما قاله:

- اني أرى كثيراً من جثث الرومان وسلاحهم، ولا أرى رومانيا واحداً.

ورفض رفضاً قاطعاً أن يقبل رجاءهم بالصفح عنهم، طالما هم مغلوبون، إلاّ انه وعدهم بالصفح عند انتصارهم. وقرر أن يخرج بهم الى الميدان في اليوم التالي، لتصل انباء انتصارهم فيها الى روما قبل وصول انباء هزيمة الأمس. ثم أمرهم بالانصراف، وأشار بتوزيع جراية شعير عوضاً عن القمح[٥٢] على كل الوحدات التي أولت ظهرها للعدوّ. فكان لهذا التقريع وقع أليم في نفوس الجنود، وقيل أنه رغم اصابة أغلبيتهم بجراح بليغة فلم يكن بينهم أحد إلاّ وشعر أن خطبة الجنرال أشد ألماً له من جراحه نفسها.

وانبلج الصبح وارتفع الوشاح القرمزي على خيمة القائد، اشارة للقتال الفوري. وطلبت السرايا التي وصمت بالجبن وسوء التصرف أن يكون ترتيبها في الصف الأمامي، فنالت مبتغاها، ثم قدّم التريبيونات العسكريون بقية القطعات ووضعوها في نسق الهجوم، ولما أبلغ [هنيبعل] بتهيؤ العدوّ هتف قائلاً:

- ياللعجب! ما حيلتنا بهذا الرجل الذي لا قبل له بتحمل حسن الحظّ ولا بسوئه؟ انه الرجل الوحيد الذي لايدعنا في راحةٍ عندما يكون منتصراً، ولايدع نفسه ترتاح عندما يصاب بهزيمة. ويبدو إلاّ مناص لنا من قتاله أبداً. فالثقة التي يبثها نجاحه الباهر في نفسه، تدفعه الى البحث عن مغامرة أخرى كذلك عاره لفشل ذريع اصيب به يدفعه الى مغامرة مماثلة.

ثم اشتبك الجيشان. وظلت النتيجة غامضة. فأمر [هنيبعل] بنقل الفيلة الى اللواء الأول المتقدم وأنْ تساق نحو وحدات الرومان الأمامية، فتم ذلك وأحدث اندفاعها ووطئها كثيراً من الجنود فوضى خطيرة في صفوف الرومان فأسرع التريبيون العسكري [فلاڤيوس] يختطف رايةً

---

(٥١) لم تكن الحركة غير معقولة. لكن أُسيء تنفيذها. ويقول ليڤي ان الميمنة تراجعت باسرع مما كان يجب عليها وان الفرقة الثامنة عشرة التي أُمرت بالتقدم من المؤخرة الى الطليعة كانت حركتها بطيئة جداً وهذا ما خلق فوضى.

(٥٢) تلك هي العقوبة الشاملة. والى جانب هذا أمر ضباط السرايا ان يظلوا اليوم بطوله ممتشقي السيوف بدون احزمة [المرجع نفسه ١٣].

من يد حاملها. وتقدم من أحد الفيلة واصابه بجرح من السنان المثبت في عقب قناة الراية، وحمله على الفرار. وباصابته بطعنة ثانية استدار وانسحب وتبعته الفيلة الأخرى، وبمشاهدة [مارچللوس] ذلك أسرع يدفع خيالته بهجوم عنيف عليها وعلى العدوّ خلفها. ففرت وأوقعت الخلل في صفوف القرطاجنيين. وأستمرت الخيالة تشد شداً عنيفاً وراحت تطارد العدوّ حتى دفعت به الى معسكره هارباً. والفيلة تصول وتجول فيهم وتهلك منهم الكثير. وقيل ان عدد قتلاهم أناف على ثمانية آلاف. ووقع من الرومان ثلاثة آلاف قتيل ولم يسلم واحد بلا جراح. وهذا ما اتاح [لهنيبعل] مجالاً للانسحاب في هدأة الليل، واضعاً بينه وبين خصمه مسافة بعيدة. وكان عدد الجرحى من جنود [مارچللوس] سبباً في عجزه عن مطاردة العدو؛ وانتقل بمسيرات بطيئة هيّنة الى [كمپانيا] وقضى فصل الصيف في [سينويسا Sinuessa](٥٣) منشغلاً في تضميد جراح جيشه واعادة تنظيم فرقه.

لكن ما أن انتزع [هنيبعل] نفسه من مخالب [مارچللوس] حتى راح يتنقل بجيشه في ارجاء ايطاليا بحيث سالباً غاضباً ناهباً لايخشى أحداً. وارتفعت الأصوات في روما تهاجم [مارچللوس] وتنتقد سلوكه. وتوصل منتقدوه الى اقناع [پوبليشيوس بيبولوس Publicius Bibulus] أحد مفوضي [تريبيون] الشعب، وهو رجل عنيف المزاج وخطيب مفّوه الى الاضطلاع بتوجيه الاتهام له. فتمكن هذا بخطبه المتواصلة الملحاحة من حمل الشعب على سحب قيادة الجيش من يد [مارچللوس] لأنه «انسحب بعد عملية عسكرية صغيرة، من ميدان القتال، ليستجّم وينتعش بالحمامات الحارة هناك على حَدّ قوله(٥٤).

ولما بلُغّ مارچللوس بهذا، عيّن عدداً من مساعديه الضباط الادارة معسكره وأسرع الى روما لتفنيد التهم الملصقة به. ووجد في انتظاره لائحة تتضمن قائمة كاملة بالتهم. واجتمع الشعب في الملعب الفلاميني، يوم المرافعة، فنهض [بيبولوس] من مجلسه ووجه التهمة اليه، فالقى [مارچللوس] بردود مختصرة بسيطة، وتبعه رؤساء المدينة وافاضلها يتكلمون بقوة عارضة وبلاغة واسهاب، يعيبون على الشعب موقفه ويتحدونه أن يكون أسوأ حكماً على مارچللوس من اعدائه بادانته بالتردد والجُبن وهو القائد الوحيد بين كل قادتهم الذي صفع العدوّ في وجهه، بينما كان هذا يتحاماه ويروغ منه بقدر ما كان يرغب في الاشتباك مع غيره من قادة

(٥٣) ليڤي [المرجع السالف ٢٠ يقول «بل من (ڤينوسيا) فهي أقرب بكثير من كانوسيوم وأسهل سبيلاً لايصال الجرحى.

(٥٤) هناك حمامات حارة بالقرب من سنيوساً. كما يحدثنا سترابو(٥) ولا يوجد في (ڤينوسيا). فان كان مارچللوس قد قصد المدينة الأخيرة. فالشعر الساخر الذي قيل بحقه لا مبّرر له أو مناسبة. لذلك أهمل ليڤي ذكره. لكن أورد عين ما قاله (لپيوبولس) من «أن مارچللوس قضى الصيف في مقرّه».

الرومان، وبعد أن أنتهى الخطباء. خُدع المدعي بآماله في الإدانة، ولم يُكتف بتبرئه مارچللوس انما أعيد انتخابه قنصلاً للمرة الخامسة.

وعند أوّل مباشرته الوظيفة زار مدن اتروريا[٥٥] قمع فيها فتنة خطيرة كادت تؤدي الى ثورة. وزار مدنها وطيبّ الخواطر فيها. وعارض الكهنة في شرعية تكريس معبد كان قد نذره للربيّن «الشرف» و«الفضيلة» من الأموال التي غنمت في صقلية، زاعمين أنه لا يجوز تكريس معبد واحدٍ لربّين اثنين[٥٦]، فما لبث أن لحقه بشان، وهو شديد السخط لتلك المعارضة التي كاد يفسّرها بنذير شؤم. والحق يقال أن الخوارق التي تعاقبت حينذاك، اشاعت الخوف في نفسه. فقد سقطت صواعق على بعض المعابد. وفي معبد [جوپتر] قرضت الفيران الذهب، وتنوقل ايضاً ان ثوراً أخذ يتكلم، وان طفلاً ولد برأس يشبه رأس الفيل. لقد عولج أمر هذه الخوارق كلها بطبيعة الحال، ولكن الآلهة لم تعلن عن رضاها كما ينبغي. وعلى هذا اضطرته استخارة الطير الى البقاء في روما وهو يحرق الإرم غيظاً ويتلهّب شوقاً للقتال، ولم يكن أحد مثله يضطرم بالرغبة في خوض معركة مع [هنيبعل] فهي مدار أحلامه في الليل، وهي موضوع كل أحاديثه مع أصدقائه واصحابه، وهي رجاؤه الوحيد الذي يتقدم به الى الآلهة. كانت امنيته الكبرى ان يلاقي [هنيبعل] في ساحة الوغى، بل يخيل لي أنه سيكون مغتبطاً جداً بالهجوم عليه والجيشان ضمن معسكر واحدٍ. ولو لم يكن [مارچللوس] مثقلاً بالتكريم، متخماً بالشهرة، ولو لم يقدم البراهين بشتىّ الطرق على نضوج احكام وبعد نظر لايدانيه فيهما ايّ قائد محنك، لقلنا أن نزّق الشباب الذي لا يليق برجل في مثل سنه، هو عامل الإثارة والتحمس فيه. وكان قد تجاوز الستين عندما بدأ فترة قنصليته الخامسة.

بعد أن قدمت القرابين، وتمّ كل ما يتعلق بارضاء الآلهة وتهدئة خاطرها حسبما أوصى به العرافون، خرج مع زميله[٥٧] لمواصلة الحرب وأخذ يحاول بشتى الوسائل استفزاز [هنيبعل] الذي كان وقتذاك قد ضرب معسكره الدائمي في موضع يقع ما بين [بانتيا Bantia] و[ڤينوسيا Venusia]، إلاّ انه أبى القتال، على أن استخباراته أعلمته بأن بعض الوحدات

(٥٥) قبل ذلك. بحسب رواية ليڤي.

(٥٦) كانت حجتهم في ذلك انه اذا نزلت بالهيكل صاعقة أو أرعدت الدنيا أو ابرقت أو حلّت به أية ظاهرة تستدعي تقديم الكفارة فانهم لن يعرفوا لأيّ من الالهين يجب تقديم الاضحية؟ وعلى هذا الاساس قام (مارچللوس) ببناء معبد ثانٍ لالهة الفضيلة Virtue ارضاءً لهم. ولم تطل به الحياة ليقوم بتكريسه الاّ ان ابنه قام بتكريس المعبدين بعد اربع سنوات من وفاته.

(٥٧) انظم اليه زميله قادماً من موضع آخر.

الرومانية تتجه نحو مدينة [لوكري أو ايبيفيري الغرب Locri, Epiyephyrii] [٥٨] فكمن لهما تحت جُبيل يدعى [بتليا Petelia] وقتل منهما ألفين وخمسمائة جندي، فاستشاط مارچللوس غيظاً وعصفت بنفسه ريح الانتقام وتحرك مقترباً من هنيبعل. وكان بين المعسكرين أكمة ذات مناعة تغطيها الغابات، والمرتقى اليها صعب من الجهتين وفيها ينابيع ينحدر ماؤها الى أسفل. وكان الموقع ممتازاً ذا فائدة عسكرية كبيرة، حتى عجب الرومان لأن هنيبعل أهمل أحتلاله وتركه يقع بيد عدوّه مع انه كان اسبق اليه منه. اما الحقيقة في الأمر فلم تكن كما تصور الرومان ففائدة الأكمة لم تغب عن [هنيبعل]، إلا أنه وجده أصلح لنصب كمين ولهذا تركه في الظاهر وأخفى في غاباته وغاره أعداداً من الرماة بالنشاب والرماح. وكان واثقاً أن صلاح الموقع سيُغري به الرومان، ولم يكن مخطئاً في حدسه. فقد أخذ الرومان يبحثون في أمره، ويتناقشون حوله فيما بينهم حتى كان الكلّ ضباط وقادةٌ وقَرّ الرأى على احتلاله والاستفادة منه للنيل من العدوّ. ولاسيما اذا نقلوا معسكرهم اليه ومتنوه بحصن. فقرر مارچللوس الخروج بسرية خيالة لاستطلاعه وأستدعى عرافاً وباشر في التقريب للآلهة. وفي الضحية الأولى أخرج الكاهن [الاروسپكس Aruspex] الكبد من دون رأس، وفي الضحية الثانية ظهر الرأس بحجم اعتيادي. وكانت العلامات الأخرى فيها، مشجعّة مبشرة بالخير. وبظهور كفاية هذه العلاقات لتبديد الخوف من علامات النحس الأولى، أعلن العرافون انهم يخشون الثانية أكثر من الأولى. لأن الاحشاء الحسنة جداً والمبشرة بالخير، اذا تلت أحشاءً ضحية أخرى مشوّهة مخيفة، يكون التغيير موضع شكّ، والدليل منذراً بشؤم. لكن...

«لا يفلح في صدّ القدر المحتوم، لا النار ولا جدار من البرونز» كما يقول [پندار]. وهكذا خرج [مارچللوس] الى الأكمة يصحبه زميله [كرسپينوس Crispinus] وابنه وهو [تريبيون] عسكريّ، مع مائتين وعشرين فارساً على أكثر تقدير. ليس بينهم روماني واحد، وهم من الاتروسكيين، مع اربعين من [الفريجللان Fregellan]، لطالما قدموا لقائدهم الدليل على بأسهم وأخلاصهم في كل الظروف.

كان التلّ مكسّواً بالغابات تماماً. وعلى قمته جلسّ أحد كشافة العدو، مستتراً عن اعين الرومان، في حين كان معسكرهم مكشوفاً له برّمته. فلما دنا [مارچللوس] وجماعته من الكمين أعطى الكشاف اشارة لهم فبرزوا من حفائرهم وخباياهم وباغتوه دفعة واحدة وأحاطوا به من كل جهة وراحوا يقذفونه بوابل من الرماح فاصابت فريقاً، وأدركت ظهور الفارين. ثم

---

(٥٨) لم تكن هذه وحدات من وحدات الجيش الروماني المرتبطة بأمره القنصلين. بل هي قطعات عسكرية سحبت من صقلية ومن حامية (تارنتوم) المرجع نفسه.

حملوا بشدة على من صمد وهم الفريجللانيون الأربعون (الذين عملوا حلقة بعد هروب الاتروسكيين عند بدء الهجوم). وأستمروا يدافعون عن القنصلين ببسالة حتى أصيب [كرسپينوس] برمحين فالوى بعنان جواده هارباً. وأصيب مارچللوس في خاصرته بطعنة حربة عريضة السنان، وعندها ترك الاحياء القلة من الفريجللانيين قنصلها صريعاً وهربت [بمارچللوس الاصغر] الذي اصيب هو الآخر، حتى بلغت المعسكر. ولم يزد عدد القتلى عن الأربعين، ووقع في الأسر خمسة من [اللكتور] وثمانية عشر فارساً. وتوفي [كرسپينوس] متأثراً بجراحه بعد بضعة ايام[٥٩]. كانت خسارة قنصلين في اشتباك واحد نكبة لم يمن بها الرومان بمثلها من قبل.

ما أن انبيء [هنيبعل] بمصرع مارچللوس حتى ترك كل ما يشغله وهرع الى الأكمة. وهناك وقف ينظر الى الجسد الهامد، ويتأمل طويلاً في شكله ومتانة بنيانه، ولم تخرج من فمه كلمة واحدة تعبرّ عن زهو أوتباهٍ كما كان يحق لغيره أن يفعل حين يتخلص من عدوّ عنيدٍ محرج. على أن النهاية اذهلته تماماً. ولم يأخذ من خصمه الصريع غير خاتمه[٦٠]. وأمر بكسائه ثياباً لائقة وتزيينه وحرقه بغاية الاحترام ثم وضع بقايا الجثة في دعاء فضيّ مغطى بتاجٍ ذهبي، وبعث به الى ابنه. إلاّ أن بعض النوميديين من عسكره، سطوا على حامليه وأنتزعوه منهم والقوا بالعظام. فبلغ ذلك هنيبعل فقال:

- اذن فمن المستحيل أن نعاند ارادة الله!

وأنزل بالنوميدين اللصوص عقاباً، إلاّ انه لم يتخذ ايّ اجراءٍ لجمع العظام واعادتها. مدركاً أن القدر المحتوم حكم على مارچللوس أن يخر صريعاً هكذا، وان يظلّ ملقىً على ظهر الأرض هكذا.

هذا ما دوّنه لنا [كورنيليوس نپوس Cornelius Nepos] و[ڤاليريوس ماكسيموس Vari-us Maximus] عن الحادث، إلاّ أن [ليڤي][٦١] و[اوغسطس قيصر] يؤكدان أن الوعاء بلغ

---

(٥٩) لم تدركه الوفاة الاّ في آخر السنة وذلك بعد ترشيحه [تليوس مانليوس توسكواتوس] دكتاتوراً من أجل عقد الجمعية العامة. ويقوم بعضهم انه توفي في [تارنتوم] وبعضهم يقول لا بل في كامپانيا (المرجع نفسه ٣٣).

(٦٠) خيل لهنيبعل انه سيفيد كثيراً من خاتم مارچللوس الرسمي الاّ ان [كرسپينوس] بادر على الفور باذاعة نبأ وفاته بين سائر المدن مع التحذير بأن خاتمه الرسمي قد وقع في يد هنيبعل وعليهم ان لا يصدقوا من يعرضه عليهم. وقد انقذ هذا التحذير (سالاپيو) في (اپيوليا) وان انطلت الخدعة على رسلهُ الذين جاؤا بالخاتم وأدخلوهم المدينة وذبحوهم عن بكرة ابيهم وكانوا حوالي الستمائة من الرومان الهاربين من الخدمة اما الباقون فقد تمكنوا من الهرب.

(٦١) يحدثنا بان (هنيبعل) قام بدفن [مارچللوس] في التلّ الذي سقط فيه. اما عن أثر [اغسطس قيصر] =

الإبن، فشيعت رفاته بجنازة فخمة. وأقيم له نصب تذكاري في روما. وخلّد اسمه بميدان مصارعة واسع في [كاتانا] بصقلية. ونصبت تماثيل وصور مما غنمه من سيراقوز، في معبد الآلهة المسماة [كابيري Cabiri] بساموثراس، وفي معبد منيرڤا بـ[ليندس Lindus] حيث أقيم أيضاً تمثال له. نقشت عليه الابيات التالية (على ما يذكر پوسيدونيوس).

أيها ذا الغريب! كان هذا نجم روما الالهي يوماً. انه «كلوديوس مارچللوس» الكريم النسب، الذي حارب حروبها ونصب قنصلاً عليها سبع مرات. وبذراعه المرعدة ذبحت الألوف!

اضاف ناظم هذه الابيات فترة توليه منصب البروقنصل مرتين الى قنصلياته الخمس. وظلّ نسله موضع اكبارٍ وأجلال حتى [مارچللوس] ابن [اوكتافيا] شقيقة [اوغسطس قيصر](٦٢) التي انجبته لزوجها [كايوس مارچللوس]، وتوفي هذا الابن في شرخ الشباب عام توليه منصب [ايديل] وهو حديث عهد بالزواج من بنت [قيصر] فأوقفت امه [اوكتاڤيا](٦٣) مكتبة على روحه تخليداً لذكراه، وأوقف [قيصر] الملعب الذي يحمل اسمه.



اوغسطس

= فلا وجود له.

(٦٢) استمر النسل على الانجاب بعد موته زهاء مائة وخمس وثمانين سنة. اذ انه قتل في ٢٠٦ ق.م ومات مارچللوس الشاب آخر السلالة في ٢١ ق.م.

(٦٣) يقول (سويتونيوس) ان اغسطس هو الذي أوقف المكتبة باسم اوكتاڤيا. [اغسطس ٢٩] و [ديون ٥٣:١].



(اغسطس)

اوجه المقارنة بين پيلوپيداس ومارچللوس

ذلكم هو أهم وابرز ما وجدته عند المؤرخين عن [مارچللوس وپيلوپيداس]، والشبه قريب جداً بين هذين الرجلين العظيمين في طباعهما وأخلاقهما، فكلاهما كان باسلاً مقداما، حازماً وثّاب الروح. إلاّ أن ثم اختلافاً جزئياً في نقطة واحدة. وهي أن [مارچللوس] فتك بارواح الكثير في المدن العديدة التي استولى عليها، أما [پيلوپيداس واپامنداس] فلم يؤثر عنهما أنهما قتلا أو استرقّا شخصاً واحداً عقب اي نصر حازاه. وقيل لنا أيضاً أن الثيبيين انفسهم ما كانوا ليقدموا على عمل كهذا ضدّ [الاورخمينيين] لو وجد هذان القائدان في حينه. كانت انتصارات [مارچللوس] على الغاليين باهرة رائعة، فقد قهر وهزم عدداً هائلاً من الخيالة والمشاة، بعدد ضئيل من الفرسان - (وهو عمل لا تجد له نظيراً فيما سجله المؤرخون عن قائد آخر غيره) وأخذ ملكهم أسيراً. وكان پيلوپيداس يطمح الى مثل هذا المجد إلاّ أنه لم يبلغه وقتله الطاغية في اثناء محاولته. على أن في امكانك ان تضع مقابل ذلك معركتي [ليوكترا وتيجري] المجيدتين. ونحن لا نجد في وقائع مارچللوس، واقعةً تمتاز بالحيلة والتآمر الخفي، كما فعل [پيلوپيداس] عند عودته من المنفى فقضى على الطغاة في [ثيبه]. مما يمكن اعتباره في مقدمة الأعمال الباهرة التي استعمل فيها المكر والكتمان. ولا نكران في أن [هنيبعل] كان أخطر خصوم روما واقواهم ولكن اللقيديمونيين ما كانوا ليقلوا عنه خطراً بالنسبة للثيبيين ومن المسلم به انهم ذاقوا مرارة الهزيمة والفرار على يد [پيلوپيداس] في [ليوكترا وتيجري] في حين يذكر [پوليبيوس] ان هنيبعل لم يذق طعم الهزيمة إلاّ مرة واحدة على يد [مارچللوس]. وبقي النصر معقوداً له في كل المعارك حتى مجيء [سكيپيو] وقد ملت أنا نفسي الى الأخذ بأقوال [ليڤي] و[قيصر] و[كورينليوس نيپوس]، وبأقوال [يوبا Juba] الملك، من الأغريق، في زعمهم أن جنود هنيبعل، عانوا الاندحار والهزيمة امام [مارچللوس]
ذلكم هو أهم وابرز ما وجدته عند المؤرخين عن [مارچللوس وپيلوپيداس]، والشبه قريب جداً بين هذين الرجلين العظيمين في طباعهما وأخلاقهما، فكلاهما كان باسلاً مقداما، حازماً

الكثير في المدن العديدة التي استولى عليها، أما [پيلوپيداس وإپامنانداس] فلم يؤثر عنهما
أنهما قتلا أو استرقّا شخصاً واحداً عقب اي نصر حازاه. وقيل لنا أيضاً أن الثيبيين انفسهم
ما كانوا ليقدموا على عمل كهذا ضدّ [الاورخمنيين] لو وجد هذان القائدان في حينه. كانت
انتصارات [مارچللوس] على الغاليين باهرة رائعة. فقد قهر وهزم عدداً هائلاً من الخيالة
والمشاة، بعددٍ ضئيل من الفرسان - (وهو عمل لا تجد له نظيراً فيما سجله المؤرخون عن قائد
آخر غيره) وأخذ ملكهم أسيراً. وكان پيلوپيداس يطمح الى مثل هذا المجد. إلاّ أنه لم يبلغه
وقتله الطاغية في اثناء محاولته. على أن في امكانك ان تضع مقابل ذلك معركتي [ليوكترا
وتيجري] المجيدتين. ونحن لا نجد في وقائع مارچللوس، واقعةً تمتاز بالحيلة والتآمر الخفي،
كما فعل [پيلوپيداس] عند عودته من المنفى فقضى على الطغاة في [ثيبه]. مما يمكن اعتباره
في مقدمة الأعمال الباهرة التي استعمل فيها المكر والكتمان. ولا نكران في أن [هنيبعل]
كان أخطر خصوم روما واقواهم ولكن اللقيديمونيين ما كانوا ليفلوا عنه خطراً بالنسبة للثيبيين
ومن المسلم به انهم ذاقوا مرارة الهزيمة والفرار على يد [پيلوپيداس] في [ليوكترا وتيجري]
في حين يذكر [پوليبيوس] ان هنيبعل لم يذق طعم الهزيمة إلاّ مرة واحدة على يد
[مارچللوس]. وبقي النصر معقوداً له في كل المعارك حتى مجيء [سكيبيو] وقد ملت أنا
نفسي الى الأخذ بأقوال [ليڤي] و[قيصر] و[كورينليوس نيپوس]. وبأقوال [يوبا Juba]
الملك، من الأغريق، في زعمهم أن جنود هنيبعل، عانوا الاندحار والهزيمة امام [مارچللوس]
في بعض المعارك. إلاّ انها معارك لم تؤثر في مجرى الحرب العام بلا شكّ، حتى بدت وكأنها
مجرد اشتباكات خادعة يقصد بها القرطاجنيون نوعاً من المشاغلة والالهاء. وأروع ما في
الأمر هو معنوية الرومان. فبعد اندحار عددٍ كبير من جيوشهم ومقتل العديد من قوادهم
وبمختصر القول - بعد الفوضى التي عمت امبراطوريتهم. ظلّوا يظهرون من الشجاعة ما
يوازي خسائرهم، ولم تفارقهم رغبتهم في خوض غمرات معارك جديدة، قدر رغبة اعدائهم
فيها. وكان [مارچللوس] الوحيد الذي حقق المغلبة على الرهبة والخوف العظيمين المتأصلين.
فأحيا معنويات الجنود، ورفع منها، وثبت كيانها، لتنقلب الى بسالة وحماسةٍ جعلتهم لا
يتخلون بسهولة عن النصر، بل يناضلون في سبيله الى آخر رمق. كان هؤلاء الرجال قد
عودتهم هزائمهم المستمرة على أعتبار أنفسهم سعداء، لو نجوْها بالفرار من وجه [هنيبعل]،
فجاء مارچللوس ليعلمهم بأن الإقرار بانهم نكصوا خطوة واحدة في مثار النقع وزخم القتال،
وان يركبهم الهّم الناصب اذا فاتهم النصر.

وبمختصر القول: لم يغلب [پيلوپيداس] قط في اية معركة كان هو قائدها العام، وموجوداً فيها، وفاز [مارچللوس] بمعارك تزيد عن اي عدد فاز به قائد معاصر له. والحق يقضي أن يوضع الشخص الذي يصعب قهره، (مع الأخذ بنظر الاعتبار بطولاته العديدة) على قدم المساواة مع ذلك الذي لم يُقهر قطّ.

لقد استولى [مارچللوس] على سيراقوز عنوةً، في حين أخفقت آمال [پيلوپيداس] في الاستيلاء على سپارطا. واني لأرى في رفع رايته الى جدران سپارطا وطموحه الى أن يكون أول من يعبر نهر يورتاس بقوة السلاح، عملاً أصعب بكثير من اخضاع صقلية، إلاّ اذا اعتبرنا [أپامنداس] أحق وأولى بنسبة هذه المأثرة اليه كما كانت معركة ليوكترا أيضاً، في حين بنى مارچللوس شهرته وعظمة أعماله البطولية على معارك تفرد بها وحده ولم يكن لغيره سهمٌ فيها. فهو وحده استولى على سيراقوز ودحر الغاليين دون معونة من زميله وانبرى لملاقاة [هنيبعل] في ساحة القتال بمفرده ودون زميلٍ، عندما أحجم الآخرون عن ذلك. وبتغيره في أسلوب حرب الخصم قدّم أوّل مثلٍ من أمثلة الجرأة على التعرض له.

وليس بوسعي الاشادة بمقتل ايّ من هذين العظيمين. فعامل الغرابة والفجاءة في نهاية حياتهما يشيع في نفسي شعوراً بالألم والحسرة. ويستأثر هنيبعل باعجابي لأنه لم يصب بخدش واحد في سائر المعارك العديدة الطاحنة التي لا يكفي يوم واحد لإحصائها.

وانني لأجلّ [خريسانتيس Chrysantes] (الذي ورد ذكره في كيروپيديا Cyropædia گزينفون) فقد رفع سيفه ليهوى به على خصمه، حين نفخ بنفير الانسحاب فتركه وتقهقر بملء الطاعة والسكيّنة، على أنه قد يمكن أغتفار ثورة الغضب التي دفعت [پيلوپيداس] الى ملاحقة ثأرة في زخم المعركة، وكما يقول [يوريپيدس]:

أولى صفات القائد أن يحرز نصراً مضموناً.

وثاني صفاته، أن يموت ميتة الشرف».

ففي هذه الحالة لا يمكن القول ان القائد «عانى» موتاً، والحرّي أن يقال: عاني معركة. إن عزم [پيلوپيداس على قتل الطاغية وهو مائل امام عينيه، لم يفقده رشاده ويسلمه الى جموع العاطفة الى الحدّ الذي ينسيه الهدف المتوخى من النصر، على انه ما كان ليتوقع أن تسنح له فرصة ثانية مساوية لهذه الفرصة في يسرها ومجدها وخلودها وبنضال في قضية عادلة شريفة كهذه. لكن مارچللوس أوقع نفسه في الخطر وسقط في كمين ليس الحسبان في سبيل هدف لا يعود عليه بفائدة كبيرة، وعندما لم تستدع اليه ضرورة ماسة أو وجود خطرٍ مائل يسلمه الى

نزف العاطفة، وهو الذي تولى القنصلية خمس مرات، ودخل في مواكب نصر ثلاثة وغنم أسلاب ونفائس ملوك، وأحرز الانتصارات، تراه ينزل الى مرتبة كشّاف أو ديدبان فيعرض كل امجاده لتُداس باقدام المرتزقة الاسپان والنوميديين الذين باعوا أنفسهم للقرطاجنيين حتى شعروا هم أنفسهم بأنهم أصغر من ان يستحقوا مثل هذا النجاح، وكادوا ينكرون على أنفسهم هذا النصر غير المنتظر بقتلهم أشجع وأكفأ وأشهر الرومان مع قليل من الفريجللان.

ولا يتوهمّن أحد أننا ما قلنا هذا إلا ونحن نقصد انتقاد هذين الرجلين العظيمين أو انتقاصهما، فالحقيقة هي أننا نريد أن نعبّر بهذا عن سخطنا الصريح وألمنا لأنهما اضاعا كلّ فضائلهما على مذبح شجاعتهما وانفقا حياتيهما كأن خسارتها قاصرة على شخصيهما، لا على بلادهما وحلفاء بلادهما واصدقائهما.

بعد مصرع [پيلوپيداس] قام بتشييعه اصدقاؤه الذين ضحىّ بحياته في سبيلهم. أمّا [مارچللوس] فإن اعداءه هم الذين قاموا بهذا. وكان حظاً سعيداً كريماً لأولهما. إلاّ انه كان يوجد شيء أسمى واروع في التكريم والإجلال الذي ابداه العدوّ لفضائل وشخصيّة كانت عقبتهم الكأداء، من اقرار الاصدقاء بالفضل. ففي الواحدة يكون الدافع الى التكريم والتقدير الفضيلة وحدها. وفي الأخرى تكون مصلحة الناس الشخصية وفائدتهم هي الأصل فيما ينتهجون.


الدار العربية للموسوعات


الدار العربية للموسوعات

علي مولا

تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق